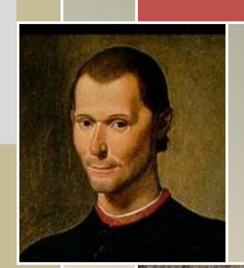
الكتاب الأول

رواد الاستراتيجية الحديثة

الفكر العسكري من مكيافيللي إلى هتلر











ترجمة وتقديم

محمد عبد الفتاح ابراهيم



1



تصميم غلاف : علي مولا

رواد الاستراتيجية الحديثة

رواد الاستراتيجية الحديثة

الفكر العسكري من مكيافيللي إلى هتلر

الكتاب الأول

تأليف

إدوارد ميد إيرل وآخرين

ترجمة وتقديم

الأميرالاي أركان الحرب

محمد عبد الفتاح إبراهيم

محتويات الكتاب

القسم الأول

أصول الحرب الحديثة من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر

القسم الثاني

أمهات الكتب في القرن التاسع عشر

شراح خطط نابليون

المشتركون في هذا الكتاب

١ - *إدوارد ميد إيرل:*

مستشار خاص السلاح الجوي الأمريكي ، محاضر في الجامعة العسكرية ، وأستاذ الدراسات العليا في جامعة برنستون ، وعميد قسم الدراسات العسكرية بها .. دكتوراه من جامعة كولومبيا.

٢ - *فليكس جلبرت:*

المساعد السابق لمحرري الوثائق السياسية الألمانية للحرب العالمية الأولى ، درس الآراء السياسية والمسائل الدولية طويلًا ـ دكتوراه من جامعة برلين.

٣ - *هنري جورلاك:*

عميد قسم تاريخ العلوم في جامعة ويسكونسين ، مؤلف كتاب: «العلم والحرب في النظام القديم» دكتوراه من جامعة هارڤرد.

٤ - *روبرت بالمر:*

مؤلف كتاب: «الاثنا عشر الذين يحكمون» ـ ومؤلف بالاشتراك لكتاب: «الاستراتيچية الكبرى لدول المحور». عمل في وزارة الاستعلامات الفرنسية عام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ ، دكتوراه من جامعة ڤيينا ـ يعمل الآن في خدمة الحكومة الأمريكية.

٥ - *كرين برنتون:*

مؤلف حياة «تاليران» ـ «حقبة الثورة سنة ١٧٨٩ ـ ١٧٩٩» ، وغير هذا من المؤلفات التاريخية. أستاذ التاريخ في جامعة هارڤرد ـ دكتوراه في

الفلسفة من جامعة أوكسفورد.

٦ - جوردون كريج:

بكباشي في جيش الولايات المتحدة؛ مساعد رئيس تحرير مجلة المشاة الأمريكية؛ مؤلف كتاب: «كبار القادة في الحربين العالميتين» . دكتوراه من جامعة ميتشيجان.

٧- هانز روسفيلز:

دكتوراه من جامعة هيدلبرج ـ مؤلف: «الرسائل والكتابات السياسية لكلاوزيڤيتز» ، كما صنَّف كتابًا عن «بسمارك» ، وآخر عن «كلاوزيـڤيتز والسياسة والحرب». أستاذ زائر للتاريخ في جامعة براون الأمريكية.

٨- الأميرالاي أركان الحرب محمد عبد الفتاح إبراهيم: المترجم

ماچيستير في العلوم العسكرية من كلية أركان الحرب ، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ والآثار السودانية من جامعة القاهرة. له مؤلفات عدة أغلبها في الشئون العسكرية أهمها في تقديره: «محمد القائد» و«بين حربين» و«الحرب البرقية» و«كلاوزيـڤيتز» و«الحرب الأهلية الأمريكية».

٩ - كمال الملاخ:

واضع تصميم الغلاف: تخرج في كلية الفنون الجميلة ، مدير أعمال بمصلحة الآثار ، مكتشف مراكب الشمس.

***

مقدمة

يقول إدورد ميد إيرل في السطور الأولى للمقدمة التي كتبها للنسخة الإنجليزية للكتاب: «في عام ١٨٦٢ قدم روائي أمريكي صورة وصفية للحرب فقال: «عندما تجيء الحرب فإنها تسود أرواح الناس كلهم ، تهب عليهم كالعاصفة ، تقدم من كل مكان وتسير في كل اتجاه ، تختلط بنغمات الأرغن في الكنائس وتملأ طرقات المدن والقرى بالصفير ، تتسرب إلى نيران المواقد في داخل الدور وتجتاح غرف الدراسة في الجامعات ، يقف لها شعر رؤوس السياسيين ، وتضطرب بسببها كل الروابط الاجتماعية فلا يعيش فرد أو جماعة بمنجاة منها ومن تأثيرها سواء أكان هذا التأثير قريبًا مباشرًا أم بعيدًا غير مباشر».

وكان هذا الروائي الأمريكي الذي أشار إليه إدورد ميد في مقدمته ، كان ولا شك عندما قدم هذه الصورة الوصفية يعيش في خضم الحرب الأهلية الأمريكية مع أنها كانت حربًا محدودة مسارح القتال ، محدودة التأثير في النطاق الذي خاض غمارها من الناس سواء من الشماليين أو من الجنوبيين؛ فهي لم تكن حربًا أممية جامعة ، ولم تقم بين الشعوب والقارات ، ومع هذا كان الرجل صادق التصوير في هذا الوصف الممتع الذي قدمه للحرب التي عرفها.

وأشار الكاتب الأمريكي وولتر ميليز إلى الحرب إشارة مركزة عندما رآها تهدد كل مؤسسات المجتمع ، تهدد العدالة التي هي في اقتصاديات هذا المجتمع والكفاية التي هي لتنظيمه السياسي ، تعطل نشاطه الإنتاجي؛ كما تهدد أسس سياسته الخارجية وحكمتها وأهدافها ، ولا توجد صورة من

صور وجودنا لا تتأثر بالتبسيط أو ربما بالتعديل الكامل تبعًا للحرب؛ ثم تجيء الحرب نتيجة مباشرة لأشياء يفعلها أو يخفق في عملها الأفراد والسياسيون والأمم.

والحرب ـ في إيجاز ـ إما أن تكون ناجمة عن السياسية القومية ، أو أن تكون نتيجة للنقص في هذه السياسة ، وعندما تتجه الأمة إلى اتخاذ هذا القرار المخيف بالالتجاء إلى الحرب فإنَّ النصر أو الهزيمة على السواء تكون أيضًا نتيجة حتمية لما تعمله.. أو لما تعجز عن أن تعمله.

فإذا وضحت لنا هذه الحقائق بدا لنا أنه قد يكون من الحماقة أن نترك سياسة الحرب إلى العسكريين وحدهم.. أو أن نتركها للسياسيين وحدهم ، أو أن تترك حتى للعسكريين والسياسيين معًا ، إن الاستراتيجية القومية يجب أن ترسم خطوطها وتوضح أصولها بوساطة رئيس الدولة وهيئة أركان الحرب العامة ، وأن يستكمل تخطيطها بالقوانين التي تصدرها الهيئة النيابية؛ ذلك لأنه في مثل هذا الأمر يجب ألا يتحول كل أفراد الأمة ليكونوا مجتمعًا يناقشون الأمر كلهم فيلقي كلٌ بدلوه ويعرض رأيه ويدافع عن حجته ، ومع هذا فإن الاستراتيجية التي يتم رسمها وتخطيطها بهذا الأسلوب لا تنجح إلا إذا توافرت لها معاونة كل المواطنين النابهين الذين يقفون من أجل نجاح هذا التخطيط الاستراتيجي حياتهم ومستقبلهم بل وشرفهم القومي أيضًا.

إن الأمة في الحرب أحوج ما تكون إلى قيادة حكيمة وإلى زعيم قوي ، وفي دراستنا لتاريخ العالم في متباين العصور ومختلف الأمصار نلقى الكثير من الأسماء لزعماء أقوياء تولوا التوجيه لأممهم في اللحظات الحاسمة الحرجة من حياتها ، وكان لزعامتهم فضل الوصول إلى النصر مهما طال أمد

الصراع ، ولكن القوى الدافعة في هذه الزعامة إنما تجيء من أعماق قلوب ورغبات الأهلين أنفسهم ، ومن أجل هذا.. كان من الضروري أن يعرف أصغر جندي وأحدث ضابط في السلم العسكري الأهداف التي لأجلها يغامر كل منهما بحياته.

إن الغرض من هذا الكتاب هو أن يوضح في صورة ضافية وفي نطاق واسع لفترات طويلة في حساب الزمن كيف تطورت الاستراتيجية للحرب الحديثة والمسار الذي سارت فيه طوال تطورها هذا ، وبذلك نستطيع أن نتفهم الأسباب الدافعة إلى الحرب ، والأسس الرئيسية التي تتحكم في إدارة الحرب ، إننا نعتقد بأن الرقابة الدائمة على هذا الأمر إنما تقوم بثمن واحد هو حريتنا ، كما نعتقد أيضًا بأنه لكي نستطيع الوصول إلى سلم مستمر فإننا يجب أن نتفهم جيدًا الدور الذي للقوات المسلحة في المجتمع الدولي ، ولم يكن هذا التفهم دائمًا مستطاعًا ميسورًا. ذلك؛ لأنها ليست القوة في حد ذاتها هي التي تكون خاطئة. بل قد يكون الخطأ في الأغراض التي لأجلها تستخدم القوة ، وعلى ما قال «بسكال» منذ ثلاثة قرون: «إن العدالة بلا قوة تكون معدومة الأثر والتأثير ، كما أن القوة بلا عدالة لا تكون أكثر من طغيان ، ولهذا يجب دائمًا أن نجمع بين العدالة والقوة» ، فلا يكفي أن يكون الحق في جانبنا بل يجب أن ندعمه بأن نعد القوة التي تكفل إبراز هذا الحق.

إن الاستراتيجية تُعنى بالحرب.. والتأهب للحرب ثم إدارة الحرب ، وهي في أضيق تعريف لها فن القيادة العسكرية ، فن إدارة وتوجيه المعارك والحملات الحربية ، وتختلف الاستراتيجية عن التكتيك الذي هو فن استخدام الجنود في المعركة ، كما يختلف عزف الفرقة الموسيقية (الأوركسترا) عن عزف كل من الآلات الفردية التي تجيء مكونة للمجموعة كلها.

وحتى نهاية القرن الثامن عشر كانت الاستراتيچية عبارة عن مجموعة «الخدع» وسائل الخداع والتضليل التي يستخدمها القائد ليضلل خصمه وللوصول إلى النصر وكسب الحرب؛ ولكن لما كانت الحرب والمجتمع قد باتا أكثر اضطرابًا وتعقدًا فقد باتت الاستراتيچية تتطلب بالضرورة تقديرًا وعناية بعدد من العوامل غير العسكرية ، عوامل اقتصادية ونفسية ومعنوية وسياسية وفنية.

ولهذا فإن الاستراتيچية ليست فكرة أو تخطيطًا يجيء وقت الحرب ، أي أن الاستراتيچية لا ترسم حال الحرب وإنما هي عمل نتيجة دراسات طويلة تسبق الحرب بأمد طويل.

وبذلك كله فإننا نصل إلى تعريف للاستراتيچية في عالم اليوم بأنها هي فن السيطرة على كل موارد الأمة واتحاد الأمم بها في هذا القوات المسلحة ، ثم استخدام هذا كله إلى غاية ما يمكن وفي أكمل صور الاستخدام.

وفي دراستنا للاستراتيچية ـ هذه الدراسة التي ستجيء في فصول هذا الكتاب وما يجيء بعده من سلسلة الكتب التي تكمل القصة ، قصة رواد الاستراتيچية من مكياڤيللي إلى هتلر ، وتبعًا للعديد من العوامل غير العسكرية التي لها ، فإننا نلتقي بعدد كبير من المدنيين غير العسكريين الذين قدموا دراسات طيبة لهذه العوامل التي تؤثر في الاستراتيچية ، نلقى أمثال آدم سمث وفردريك ليست الاقتصاديين ، ونلقى ماركس وآنچلز المصلحين الاجتماعيين ، ونلقى ديلبريك وأومان المؤرخين ، كما نلقى تروتسكي الصحفي وكليمانصو السياسي ، وفي الوقت الذي تغيب فيه أسماء عدد كبير من القادة العسكريين أمثال رمسيس الثاني وقيصر وهانيبال وچنكيز خان وتيمور لنك وصلاح الدين ومارلبورو ولى وچاكسون

وولنجتون وبلوخر وجرانت وشيرمان ، وذلك إما لأنهم كانوا تكتيكيين أكثر من أن يكونوا استراتيجيين وإما لأنهم لم يقدموا عقيدة استراتيجية خالصة لها.

كما يجب أن نلاحظ أن نابليون الكورسيكي الذي هو بلا شك أعظم قائد عسكري في العصر الحديث قد وضع أصول استراتيجية في أرض المعركة ولم يسطر شيئًا عنها على الورق اللهم إلا هذه المجموعة من «الحكم» العسكرية التي تركها وراءه ، ولهذا فإننا مع تقديرنا لعبقرية نابليون سنضطر لدراسة استراتيجية عن طريق الاثنين اللذين شرحا هذه الأصول بأن نقلاها من أرض المعركة ليبرزاها في الصورة المسطورة على الورق ، ألا وهما چوميني وكلاوزيـڤتز.

وسنعرض في هذا السلسلة من الكتب إلى الحرب الخاطفة ، إلى معركة الإفناء والتدمير ، لحرب المناورة وحرب المواقع ، سنُعنى بالصلة بين الحرب وبين المسائل الاجتماعية ، بين القوة الاقتصادية والقوة العسكرية ، سنُعنى بعلم النفس والقوى المعنوية كسلاحين من أسلحة الحرب ، سنبحث دور الضبط والربط في الجيش ، سننظر إلى دور الجيوش المحترفة وإلى قوات الميليشيا التي تجمع من صفوف الأهلين ، وفي طوال هذا كله سننظر إلى الصلات التي تربط السياسة والاستراتيجية ، إلى القوى السياسية والقوى العسكرية والتي لا ينفصل بعضها عن بعض ، وإلا اضطربت السياسة الخارجية على ما يقول وولترلبمان ، وسننظر إلى الكثير من الآراء والمعتقدات والأصول العامة مثل حرية التجارة ، حرية الأفراد ـ الأخوة بين الناس ـ الاشتراكية .. وغير هذا من الصور التي تؤثر في أسباب الحرب وفي إدارة الحرب.

إن الحرب اليوم قد باتت تحتل مكانًا من التفات الناس في كل مجتمع ، وقد باتت تعني جميع الناس على مختلف ألوانهم ومتباين أنصبتهم من المدنية والحضارة ، ولم يعد من الممكن أن يعيش فرد واحد في هذه القارات التي تغطي سطح الكرة الأرضية بعيدًا عن مؤثراتها في صورة ما ، وعلى قدر له أهميته بالنسبة له وبالنسبة للبيئة التي تحيط به ، فعندما يبدأ الصراع تتطلب الحرب كل الجهد الجماعي للمجموعات البشرية كلها ، وفي وقت السلم كما في وقت الحرب يتطلب الأمر تفهم الجميع لمجريات الأحوال التي تدور من حولهم .. معرفة الأسباب والوسائل وتقدير النتائج.

ومن أجل هذا التفهم الصحيح ، أو بمعنى أصح ليمكن إدراك هذا التفهم الصحيح كانت صفحات هذا الكتاب.

والله ولي التوفيق.

القاهرة في الرابع من أكتوبر عام ١٩٥٦

محمد عبد الفتاح إبراهيم

أميرالاي أركان الحرب

القسم الأول

أصول الحرب الحديثة

من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر



مكيافيللي (١٤٦٩ – ١٥٢٧)

الفصل الأول

مكيافيللي: نهضة فن الحرب
بقلم فليكس جلبرت

«يعتقد الكثيرون اليوم بأنه لا يوجد شيئان أكثر تباينًا واختلافًا وأبعد عن الائتلاف والتناسق من الحياة المدنية والحياة العسكرية ، ولكنا عندما ننظر إلى طبيعة الحكومة والسلطة فإننا نجد صلات وثيقة قوية بين هاتين الحالتين أو الحياتين ، وأنهما ليستا فقط تكملان بعضهما البعض ، بل إنه من الضروري أن ترتبطا وثيقًا وأن تتحدا معًا اتحادًا قويًّا».

وهذه الجمل التي تجيء في فاتحة كتاب «فن الحرب»[1] لمكياڤيللي تنير لنا السبيل لتفهم عناية مكياڤيللي بالمسائل العسكرية ، على أن مكياڤيللي لم ينظر إليها في دراسته لها نظرة رجل عسكري فني؛ بل إنه لاحظ الدور الحاسم الذي للقوة العسكرية والتأثير الذي لها في السياسة ، وقد انتهى إلى أن كيان وعظمة كل دولة إنما يضمن ويؤكد منهما إذا حظيت القوة العسكرية بنصيبها الصحيح ومكانتها الحقيقية من النظام السياسي للدولة.

كتب مكياڤيللي في كتاب «الأمير» Principe[2]ـ وتبدو الأهمية التي يقدرها لما كتب من حقيقة واحدة هي أنه عاد فكرره أيضًا في كتابه

(١) مقدمة كتاب «فن الحرب» ومجموعة المؤلفات التاريخية والكتابات الأدبية لنيكولو مكياڤيللي ، طبعة ماتسوني وكاسيلا (فلورانس ١٩٢٩) ص ٢٦٥ .
Machiavelli: Arte della Guerra, tutte le opere, storiche e letterarie di Niccolo Machiavelli.

(٢) كتاب «الأمير» فصل ١٢ ص ٢٤ في المجموعة السابقة.

«المقولات» Discorsi[١] «ولا يمكن أن توجد قوانين صالحة إلا حيثما وُجدت أسلحة قوية ، وحيثما وُجدت أسلحة قوية توجد قوانين صالحة»؛ ولهذا فإنه يحث الحاكم على أن يضع نصب عينيه دائمًا أن احتفاظه بسلطته يتوقف على القوة العسكرية فيقول: «ويجب أن لا يكون للأمير أي هدف أو رأي آخر ، ولا أن يعني بدراسة أي شيء غير الحرب وتنظيمها وضبطها»[٢].

وقد عني مكياڤيللي في كتابه «المقولات» بهذه المشكلة ـ هذا الكتاب الذي وقفه للحديث عن العلاقة بين التنظيم العسكري الروماني والدستور السياسي لجمهورية روما وعن نهضة روما لتكون قوة عالمية ـ وانتهى مكياڤيللي من دراسته للتاريخ الروماني إلى أن «أساس الدولة هو التنظيم العسكري السليم»[٣].

وهكذا أيضًا فإن كتابه «فن الحرب» الكتاب العسكري العظيم الذي قامت عليه أساسيًّا شهرة مكياڤيللي كمفكر عسكري ، فبالرغم من أنه عني فيه بتفاصيل التنظيم العسكري وفن القتال «التكتيك» إلا أنه يتعمق إلى أبعد من هذا ويناقش الأحوال والالتزامات السياسية للتنظيم العسكري الصحيح ، وكان تحقيق دور القوة العسكرية في الحياة السياسية هو المغناطيسية التي جذبت نحوها كل تفكير مكياڤيللي السياسي.

***

(١) كتاب «المقولات» الكتاب الثالث فصل ٣١ ص ٢٤٤ في المجموعة السابقة.
(٢) كتاب «الأمير» فصل ١٤ ص ٢٦ في المجموعة السابقة.
(٣) «المقولات» الكتاب الثالث ـ فصل ٣١ ص ٢٤٤ في المجموعة السابقة.

[١]

ولكن كيف وجَّه مكياڤيللي كل انتباهه إلى مشكلة الصلة بين التنظيم السياسي والتنظيم العسكري؟!!

إن تجارب العصر الذي عاش فيه قدمت له درسًا قيمًا له أثره بملاحظته لتأثير العامل العسكري على الحياة السياسية ، فلقد لاحظ وشاهد فقدان موطنه لحريته بسبب فشل الآلة العسكرية لوطنه ، كما رأى أيضًا إيطاليا كلها تفقد استقلالها وتسيطر عليها جيوش أجنبية.

على أن اهتمام مكياڤيللي بهذا الأمر إنما جاء أساسيًّا ثمرة المعرفة السياسية الممتازة التي توافرت له ، كما كان دليلًا على تفهمه الحساس للقوى الحقيقية بين التنظيمين العسكري والسياسي لهذه الحقْبَات من السنين ، والتي كانت في أعماق التفاعلات الثورية العظيمة للقرنين الرابع عشر والخامس عشر؛ ولم يكن ليكتشف الصلة بين التغييرات التي حدثت في التنظيم العسكري وبين التطورات الثورية التي حدثت في النطاق الاجتماعي والسياسي إلا عقل حاضر ممتاز.

إن الصلة بين السبب والتأثير في التطورات العسكرية تبدو واضحة حتى للمراقب العادي ، فلقد وضح أنه بسبب اكتشاف البارود واختراع الأسلحة النارية والمدفعية ضاعت قيمة الدرع الذي يَرتَديه الفارس كما وضح انهيار التنظيم العسكري للقرون الوسطَى ـ والذي لعب فيه الفرسان الدور الحاسم ـ انهيارًا لم يمكن تجنبه.

ويقص أوريوستو الإيطالي مواطن مكياڤيللي في ملحمته الشهيرة[١]

---

(١) ل. أوريوستو:«أو رلاندو فيوريوزو الكتاب الأول النشيد التاسع. الترجمة الإنجليزية=

«أورلاندو فيوريوزو» كيف أن أورلاندو بطل ملحمته الشعرية الطويلة ، والرجل الذي توافرت له كل فضائل الفروسية اضطر إلى أن يواجه عدوه بسلاح ناري ، فيقول:

«وفي الحال هزت الأرض هذه الأضواء الخاطفة»

«ورددت التحصينات المهتزة صدى الصوت»

«أما الوباء الذي لا يمكن أن يفقد قوته عبثًا»

«وليس له إلا أن يمزق كل من يجرؤ على اعتراض سبيله»

«ويثير الصفير مندفعًا بسرعة وعنف مع الريح».

فلما نجح أورلاندو ـ الذي لا يُقهر ـ في التغلب على عدوه المخيف ، وحق له أن يتخير من الغنيمة والأسلاب الثمينة ما أراد:

«وليس للبطل أن يحمل معه»

«من أسلاب يوم النصر هذا»

«إلا هذا السلاح الذي كانت قوته لا تقاوم»

«كالرعد في مساره السريع»

ثم يبحر البطل في المحيط الفسيح ويُلقِي هذا السلاح في أعماق البحر قائلًا:

«أيها السلاح اللعين الذي هو آلة الموت»

«والذي صنع في المناطق السوداء السحيقة»

«والذي وضع على أساس فن السيئ النية الشرير بعلز بول»

=بقلم جون هول.

«ليدمر كل الجنس البشري»

«لهذا وحتى لا يجسر أي فارس بوساطتك مرة ثانية»

«أو يحاول جبان بمعاونتك في الحرب»

«مهاجمة عدو نبيل مستندًا إلى دعامة نافعة»

«فلتبق إلى الأبد في هذه الأعماق البعيدة»

وفي إيجاز؛ فإنه إذا لم تكن الأسلحة النارية قد اخترعت أو كان من الممكن تحريمها الآن فإن دنيا الفرسان يمكن أن تعيش إلى الأبد بما فيها من مظهر أخَّاذ رائع.

على أنه من الصعب أن يتمشى مع الواقع هذا الإيضاح الدرامي لانهيار قوة الفرسان ، فإن تاريخ المعاهد والتعاليم العسكرية لعصر ما لا ينفصل إطلاقًا عن التاريخ العام لذلك العصر ، وقد كان التنظيم العسكري للعصور الوسطى جزءًا بارزًا من حياة العالم في ذلك الزمن ، فلما تمزق البناء الاجتماعي للعصور الوسطى غربت شمس هذا التنظيم العسكري.

والواقع أن الفروسية كانت من الناحية الروحية والاقتصادية أبرز إنتاج العصور الوسطى ، وفي مجتمع ينظر فيه إلى الله على أنه الرئيس الأعلى للتنظيم ، فإن كل دولة في ذلك المجتمع يجب أن تستكمل دورها الديني ، وأن تستهدف في كل أوجه نشاطها الدنيوي معنى دينيًّا.

لقد كان واجب الفرسان الرئيسي حماية أهالي البلاد والدفاع عنهم ، كان الفرسان ـ في الحرب ـ يخدمون الله سبحانه وتعالى ، وتبعًا لهذا فإن الفارس كان يضع خدمته العسكرية تحت إمرة سيده الأعلى الذي وكلت إليه الكنيسة الإشراف على النشاط الدنيوي للأفراد ، ومع هذا؛ فإنه فيما عدا

الجانب (الروحي/ الديني) فإن الارتباط العسكري بين مستغل الأرض وبين السيد كان له الجانب القانوني والاقتصادي ، فإن الأرض أُعطيت للفارس بوساطة السيد ، وفي تقبله لها كان تقبل الالتزام بأداء الخدمة العسكرية ـ في زمن الحرب ـ من أجل هذا السيد.

وهكذا يتَّضح أن هذا كله كان نوعًا من التبادل. بضاعة مزجاة عاجلة في مقابل خدمة عسكرية آجلة ، وكان هذا يتفق أيضًا مع التنظيم الزراعي ، ومع نظام تملك السيد لكل الأراضي ، النظام الإقطاعي الذي عرفته القرون الوسطى وظل قائمًا طوالها.

على أن وجهة النظر الدينية في الحرب كوسيلة لإقرار العدالة ، وتحديد الخدمة العسكرية على طبقة الفرسان مستغلِّي الأرض التي يملكها سادة البلاد ، ثم الارتباط المعنوي القانوني الذي يجمع أفراد الجيش بعضهم إلى بعض ، كل هذه كانت العوامل التي أوجدت صور التنظيم العسكري كما أوجدت وسائل وأساليب الحرب في العصور الوسطى.

كان الجيش يتجمع فقط عندما تنشأ حال محددة تعني قرب قيام الحرب ، ويؤمر بالخروج إلى حملة معينة لإدراك هدف محدد ، ويظل متجمعًا طوال وقت استمرار هذه الحملة أي إلى أن يتم إدراك هذا الهدف المحدد ، على أن الطابع الموقوت للخدمة العسكرية والمساواة بين كل المتقاتلين قد جعلتا من الصعب ـ إن لم يكن من المستحيل ـ أن يتوافر الضبط والربط بين هذه المجموعة المتباينة من الجند؛ كانت المعركة غالبًا ما تتحول إلى صراع بين الفرسان فرادى ، وكانت هذه المعارك الفردية بين القادة تلعب دورًا حاسمًا.

ولما كانت الحرب تمثل استكمال الواجب الديني المعنوي فقد توافر

الاتجاه القوي لإدارة الحرب والمعارك تبعًا لقواعد ثابتة ، ووفقًا لقانون قائم متفق عليه.

ولما كان هذا التنظيم العسكري هو الإنتاج التقليدي لكل النظام الاجتماعي للعصور الوسطى فإن أي تغيير في أسس هذا النظام لابد وأن يكون له التأثير الذي لا يمكن تجنبه في الميدان العسكري؛ ولهذا فإنه عندما هزَّ الانتشار السريع لاقتصاديات النقد ـ القواعد الزراعية في القرون الوسطى ـ كان لهذا التطور تأثيره المباشر على النظم والتقاليد العسكرية.

وقد انتفع إلى حد كبير من هذه الفرصة ـ فرصة الاتساع السريع لاقتصاديات النقد ـ انتفع أولئك الذين كانوا في مقدمة العاملين لهذا التطور الاقتصادي الجديد ألا وهم ملاك الأراضي الأثرياء وسادة المدن ، وجاء انتفاعهم أول ما جاء في الميدان العسكري؛ ذلك لأنه بات في استطاعتهم أن يتقبلوا نقودًا بدلًا من أداء الخدمة العسكرية ، أي أن يؤدي لهم مستغلو الأرض كراء أرضهم نقدًا بدلًا من أن يقوموا بأداء الخدمة العسكرية ، وفي ذات الوقت بات في استطاعتهم أن يستخدموا هم بدورهم أناسًا يقومون بأداء الخدمة العسكرية نظير أجور أو مكافآت مالية بدلًا من أن يقطعوا أرضًا يستغلونها.. وهكذا تحول الأمر. فالذي لا يرغب في القيام بالتزاماته العسكرية للسيد كان من الممكن أن يدفع له نقدًا بدلًا من أداء هذه الخدمة ، وبذلك أيضًا بات من الممكن أن يعوض السيد أولئك الفرسان الذين يبقون في جيشه لمدة أطول من الأمد المحدد للحرب بأن يدفع لهم «دفعات» مالية منتظمة .. أي مرتبات ، وهكذا استطاع السيد أن يوجِدَ تدريجيًّا أساس جيش محترف دائم يعمل في خدمته ، وأن يتحرر من الاعتماد على مستغلي أرضه.

وقد سارت هذه العملية ـ عملية التحول من الجيش الإقطاعي إلى الجيش المحترف ، ومن الحكومة الإقطاعية إلى حكومة منظمة كاملة تعمل في خدمتها مجموعة من الموظفين يخضعون لرؤسائهم المباشرين على التوالي ، ويتولون كل تفاصيل الحياة العامة والخاصة ـ سارت ببطء ، ولم تصل إلى ذروتها إلا في القرن الثامن عشر؛ ولكن روح الفروسية ـ الروح التي توافرت للجيوش الإقطاعية ـ كانت قد ماتت بسرعة قبل هذا.

ونجد وصفًا تصويريًّا لهذا التحول أو التغيير في أغاني القرن الخامس عشر ، وفي الأغنية يتحدث المؤلف عن الحياة في جيش شارل الشجاع سيد بورجوندي(١).

كانت بورجوندي(*) تشكيلًا سياسيًّا حديثًا في القرن الخامس عشر. وقد نظرت إليها الدول القديمة وكأنها صورة غامضة لدولة ناشئة من العدم ، أو أنها غير واضحة وغير قانونية التشكيل في معنى آخر؛ ولهذا فقد كان شارل الشجاع توّاقًا لإثبات قانونية وجود مملكته بدقة اتّباعِه لكل التقاليد والعادات القديمة ، وبذلك أضحى زعيمًا للإحياء الرومانتيكي

---

(١) الأغنية بقلم ديشامب ، وقد وسمت بعنوان «متى يجيء أمين الخزانة؟» مطبوعة ضمن مجموعة أعمال ديشامب ، طبع سانت هلير المجلد الرابع باريس ١٨٨٤ ص ٢٩٤ .

(*) كانت بورجوندي مملكة مستقلة فيما سبق ، ثم صارت ولاية من الولايات الفرنسية ، وكان سكانها الأولون من قبيلة ألمانية هي قبيلة بورجوندي (Burgundy) وقد مدوا من أرضهم بين الراين والنيكر في جانب ، والأودر والفستيولا من جانب آخر ، هزمهم الهون ثم غزاهم الفرنك ولكنهم عادوا فاستقلوا ببلادهم عام ٨٢٢ الميلادي ، وكانت لهم قوة كبيرة وقد ازدادت تدريجيًّا ولكنهم انتهوا إلى أن قسمت بلادهم إلى عدة ولايات واستولت فرنسا على الجزء الذي يقع في بلادها ، وتنتظم الآن في مقاطعات ألاين ويون وكوت دي أور وساؤن إيه لوار وأهم مدنها ديجون ومكاؤن ، وتروي أرضها أنهار الرون والسين واللوار وتشتهر بصناعة الخمور. «المترجم».

لعهد الفروسية، وإعادة هذا العهد بتقاليده ونظمه من جديد.

والشيء الأكثر وضوحًا في هذه الأغنية هو أن الفارس و«الشاويش» ومستغل الأرض.. كل هؤلاء كانت تسودهم فكرة واحدة، فكرة التساؤل عن موعد مجيء أمين الخزانة الرجل الذي عُرف بأنه هو الذي يتسلم كراء الأرض من المستغلين العازفين عن أداء الخدمة العسكرية، ويدفع أجور الفرسان الذين لم يقطعوا أرضًا زراعية يستغلونها بدلًا من هذا الالتزام الذي يقومون به بأداء الخدمة العسكرية، وهنا نرقب وراء الصورة البراقة للفروسية الصورة الحقيقية للمصلحة المادية.

وقد اختلطت تمامًا في جيوش الدول الكبرى ـ كفرنسا أو أراجون أو انجلترا ـ اختلطت العناصر القديمة والجديدة، عناصر القوّات الإقطاعية وعناصر الجنود المأجورين المحترفين، ولكن القوى الكبيرة التي كانت تمتلك المال في ذلك العصر مثل المدن الإيطالية فإنها اعتمدت تمامًا على الجنود المحترفين.

ومنذ القرن الرابع عشر كانت إيطاليا «الأرض التي تمتلئ بالعسل»، أرض الخيرات بالنسبة لكل الفرسان الذين كانت الحرب وسيلتهم الأساسية للحصول على المال، وكانت الجماعات التي تنظم في تشكيل سرايا الأمن والحراسة Compagnie di Ventura تمون وتنقد أجورها بوساطة قادتها المحترفين، أولئك الذين كانوا على أتم استعداد للقيام بخدمة أية دولة ترغب في أن تدفع لهم أجورهم، وهكذا باتت الجندية في إيطاليا حرفة منفصلة تمامًا عن أيِّ نشاط مدني آخر.

ووسعت أيضًا قوة رأس المال واقتصاديات النقد من قاعدة التجنيد

في الجيوش ، واجتذبت النقود للخدمة العسكرية طبقات جديدة من الرجال المتحررين من التقاليد العسكرية ، وكان من الممكن مع هذا التسرب للرجال الجدد أن توجد أسلحة جديدة ، وأن توضع أساليب جديدة للقتال ، وأن تتطور هذه وتلك ، وظهرت قوات المشاة ورماة السهام في الجيوش الفرنسية والإنجليزية في حروب المائة عام.

وتلقى هذا الاتجاه نحو تجربة أساليب عسكرية جديدة قوةً معاوِنة جديدة تدعم من وجوده: هي الهزيمة التي لحقت بفرسان شارل الشجاع من خصومهم السويسريين وذلك قرب نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ، ففي معركتي «مورات» و«نانسي» سنة ١٤٧٦ لم يستطع فرسان شارل الشجاع أن يمزقوا مربعات الجنود السويسريين المترجلين ، ولم يستطيعوا النفوذ وسط فئوسهم التي كانت أشبه بأشجار غابة كثيفة؛ ولهذا انهزموا تمامًا ، وكان هذا الحادث عامل إيقاظ لأوروبا كلها ، وكسب المشاة مكانهم في التنظيم العسكري لذلك العصر.

ومن الضروري أن نقدِّر أهمية اختراع البارود بالنسبة لهذه التطورات العامة ، ألا وهي:

أولًا: نشوء اقتصاديات النقود.

ثانيًا: محاولة السيد الإقطاعي أن يحرر نفسه من الاعتماد على مستغلِّي أرضه وأن يوجد نظامًا جديدًا للقوات المقاتلة يستند إليه.

ثالثًا: الاتجاه نحو التجربة في التنظيم العسكري الناشئ عن انهيار نظام الإقطاع.

على أن الأسلحة النارية والمدفعية لم تكونا علة هذه التطورات ،

ولكنهما كانتا من العوامل المعاونة الهامة التي زادت من سرعة التطور ودرجته ، فإنهما قَوَّتَا أولًا من مركز السيد بالنسبة لأتباعه من مستغلي أرضه ، وكان استخدام المدفعية في حملة ما واجبًا معقدًا مجهدًا ، فقد كان نقل المدافع الثقيلة وعتادها يتطلب عربات كثيرة كما كان يتطلب عددًا كبيرًا من المهندسين الأخصائيين ، وكانت العملية في جملتها تستنزف نفقات طائلة.

وتوضح النفقات العسكرية في ذلك العصر أن نفقات المدفعية كانت وحدها تقتطع الجزء الأكبر من مجموع النفقات(١) ، وكانت الدول الغنية جدًّا هي وحدها التي تستطيع إعداد المدفعية؛ ولهذا فإن التأثير العسكري الرئيسي لاختراع المدفعية كان يقف في جانب الدول الكبرى ضدَّ الدول الصغرى والمراكز المحلية المستقلة.

على أن الانتهاء من النفوذ الذي كان للفرسان في القرون الوسطى قد حدث في هذه الصورة: كان الفارس وهو يستند إلى قلعته في أمن من الهجوم؛ ولهذا نال فن التحصينات مكانة كبيرة في ذلك العصر(٢) ، وحمت الدول الصغرى أنفسها بإنشاء سلسلة من القلاع على طول حدودها ، ومكَّنها هذا من الوقوف والتماسك حتى ضد قوَّات كبيرة تزيدها عددًا؛ ولكن تحصينات القرون الوسطى هذه كانت من جهة أخرى معرضة لنيران المدفعية ، وبذلك فإن التوازن العسكري كان يقف في جانب عمليات الهجوم.

(١) راجع على سبيل المثال الأوامر الصادرة لجيش الدوق سفورتزا ١٤٧٢-١٤٧٤ في مجموعة السجلات التاريخية اللومباردية ٣ جزء ١ عام ١٨٦٧ ص ٤٤٨-٥١٣.

(٢) أومان ـ تاريخ فن الحرب في القرون الوسطى لندن ١٩٢٤ ص ٣٥٨.

Oman, A History of the Art Of War in the Middle Age (London ١٩٢٤) I, ٣٥٨.

يقول فرنشيسكو دي چيورچيو مارتيني ـ أحد كبار المهندسين الإيطاليين في القرن الخامس عشر الذي وكّل إليه بناء الحصون لدوق أوربينو ـ يقول في كتابه عن هندسة البناء العسكرية: «أن الرجل الذي يستطيع أن يقوي من الدفاع ضدّ الهجوم يمكن أن يكون أكبر من طبقة البشر ، إنه في درجة الآلهة»[١].

وقد سبب أيضًا هذا التحول في تكوين الجيوش وهذا التطور في الفن العسكري ، سببّا تبدُّلًا واضحًا في روح التنظيم العسكري؛ إذ فقد القانون المعنوي والتقاليد والعادات التي أوجد منها الإقطاع كل السيطرة على المادة الخام أي البيئات التي باتت الجيوش تجند منها في ضوء هذه الصورة الجديدة ، فقد باتت القوة الأساسية للجيوش ، أو بمعنى أدق الكتلة الكبرى منها من المغامرين والأفاقين الذين يطلبون الثراء والغنم ، دون أن يكون لديهم ما يفقدونه في الحرب ، بل إن كل ما يصلهم منها كسب لهم؛ وكنتيجة لهذا الموقف باتت الخدمة العسكرية كسبًا ماليًّا.

وقد برزت كذلك مشكلة معنوية في بحث «هل يعتبر تطلب حرفة تستهدف قتل الناس الآخرين خطيئةً؟» ، وفي فجر القرن الخامس عشر وقفت كريستين دي بيزان جزءًا من بحثها العسكري لمناقشة ما إذا كان تقبل النقود كأجر للخدمة العسكرية يعتبر عملًا عادلًا؟[٢].

---

(١) فرنشيسكو دي جيورجيو مارتيني «أحاديث في هندسة البناء المدنية والعسكرية» تورينو ١٨٤١ ص ١٣١.

(٢) كريستين دي بيزان «كتاب في أعمال الجيوش والفرسان» الكتاب الثالث الفصل السابع.
وكريستين دي بيزان إيطالية المولد ، ولدت في فينيسيا قرابة عام ١٣٦٣ ، وهي ابنة توماس بيزان من بولونيا وقد اشتهر في عصره بخبرته في علم الفلك؛ كتبت كل مؤلفاتها في النثر والقصيدة بالفرنسية ، وانتقلت إلى فرنسا للإقامة بها وهي في الخامسة من=

ووجه مارتن لوثر بعد قرن كامل بضرورة الإجابة على ذات السؤال فقط في أسلوب آخر هو: هل يمكن أن يكون الجندي مسيحيًّا؟[1].

وفي أكثر أجزاء أوروبا مدنية ـ كإيطاليا مثلًا ـ امتنع الناس عن أن تكون لهم أيَّة صلات في صورة ما بالجندي المحترف، وحتى بين السياسيين لم يعد للفضائل العسكرية أيُّ تقدير، وقد بعث سفير دوق فيرارا من فلورنسا[2] سنة ١٤٧٤ في تقرير له يقول: «لقد ازداد الاستقرار بدرجة كبيرة، وإذا لم يحدث ما ليس في الحسبان فسنسمع في المستقبل عن معارك تشنُّ على الطيور والكلاب أكثر مما نسمع عن معارك الجيوش، وأولئك الذين يحكمون إيطاليا في السلم لن يكسبوا شهرة أقل ممن أبقوها في حرب؛ لأن النهاية الحقيقية للحرب هي السلم».

وبدأ الكثيرون من ذوي العقول النيرة يناقشون إمكان إلغاء وباء

=عمرها برفقة والدها، نمت ذات جمال أخاذ مكَّنها من زواج أحد مشهوري عصرها هو ستيفن كاسل وهي في الخامسة عشرة من عمرها، وقد أحبت زوجها بدرجة كبيرة ولكنها لم تلبث أن فقدته بعد عشر سنوات، كانت الصدمة مؤثرة فلم تجد سلوى إلا في الانصراف للكتابة والتحرير. ومن غير المعلوم متى وأين ماتت، على أن جل كتبها نشرت في فرنسا وترجم بعضها إلى الإنجليزية.

وأهم كتبها النثرية كتابها عن حياة شارل الخامس وقد كتبته تلبية لطلب فيليب الطيب دوق بورجوندي.

وجاء ذكر كل مؤلفاتها إلى جانب الترجمة لحياتها التي نشرت في المعجم العام للشخصيات المطبوع في لندن عام ١٨١٥. جزء ٢٤ ص ٥٢٣، ٥٢٤ «المترجم».

(١) في رسالته المسماة:

Ob Kriegsleute auch ym Seligen stande sein Kuenden (١٥٢٦).

(٢) Cappelli, “ Lettere e notizie di Lorenzo de Medici” Atti Memorie della RR Deputazione di storia Patria. Le provincie Modenesi e Parmensi I (I٨٦٣), ٢٥i.

كابيللي: رسائل ومذكرات لورنزو دي ميدتشي «القوانين والمذكرات لوفود ولايتي مودينا وبارما».

الحرب والانتهاء من الجندية ، وأضحت مسائل التنظيم العسكري ومكانته في النظام الاجتماعي مشاكل تتطلب إعادة البحث والدرس ، كأن عهدًا جديدًا يبدأ ولم يعد من مكان للتنظيم القديم في طبقات.

كان الأمر يتطلب أكثر من عقلية نفَّاذة ، ويحتاج أكثر من ميل ورغبة لتفهم السياسة ؛ وذلك ليمكن إدراك دوافع نشأة هذه القوى التاريخية الجديدة ووجودها وتطور هذه الظواهر السياسية المستحدثة.

والواقع أنه كان فقط نتيجة لحادث سياسي مدمر أن انهار كلُّ البناء التقليدي القديم ، ووضحت عدم كفاية النظام السياسي القائم ، فمهد بذلك الطريق لتفهم كامل جديد وتقويم صحيح للموقف السياسي ، هذا الموقف الذي حدث في عام ١٤٩٤ عندما غزا جيش فرنسي يقوده شارل الثامن «وقد زُوِّد بمدفعية قوية ، وتكوَّن من جنود المشاة السويسريين» غزا إيطاليا وأطاح بالنظام السياسي القائم فيها.

وقد قال جتشارديني صديق مكياڤيللي والمؤرخ الكبير في ذلك العصر.. قال عن ذلك العام (عام ١٤٩٤): «كان عامًا مليئًا بسوء الجد لإيطاليا ، وهو العام الذي سبق كل الأعوام التي تلته والمليئة بالمآسي والمصائب»[١].

وقدم جتشارديني وصفًا قيِّمًا للنتائج الثورية البعيدة المدى التي نتجت عن هذا الغزو الفرنسي[٢]: «وقد انتشر تأثير الغزو في إيطاليا كلها انتشار النار المحرقة وانتشار الوباء الجارف ، ولم يُطِح فقط بالسلطات الحاكمة؛ بل

(١) فرانشيسكو جتشارديني قصة تاريخ إيطاليا الكتاب الأول الفصل السادس مارس ١٩٢٩.

(٢) فرانشيسكو جتشارديني ـ تاريخ حوادث فلورنسا ـ باري ١٩٣١ ص ٩٢ ، ٩٣.

وغيَّر من نظم الحكم ومن أساليب الحرب. كانت في إيطاليا قبل ذلك خمس ولايات رئيسية هي: دولة الكنيسة ، ثم دول أربع هي نابولي وڤينيسيا وميلان وفلورنسا؛ وكان كل ما تعنَى به هذه الدول الخمس هو إبقاء الحال على ما هي عليه ، كانت كل واحدة تحاول منع الباقيات من أن تمدّ حدودها أو أن تقوَى إلى الحدِّ الذي تهدد فيه الباقيات ، لقد راقبت هذه الدول الخمس بعناية أتفه التحركات في لوحة السياسة التي هي أشبه بلوحة الشطرنج ، وكانت تثير ضجة عالية لو غيرت أصغر القلاع حاكمها ، فإذا قامت بينها حرب كانت القوى متساوية ، وكان تنظيمها العسكري يسير في بطء ، وكانت مدفعيتها قليلة؛ ولهذا كان الصيف يضيع في حصار قلعة واحدة ، ثم تستمر الحرب طويلًا وتنتهي المعارك عادة بخسائر تافهة أو بلا خسائر إطلاقًا؛ ولكن عندما جاء الغزو الفرنسي انقلب كل شيء رأسًا على عقب ، وكأن عاصفة جامحة مرت فجأة بالبلاد ، فتمزقت كل الروابط التي كانت تربط بين الحكام في إيطاليا كلهم ، وتبددت أمانيهم في رفاهيتهم جملة ، كانت كل دولة تتلفت من حولها فترقب كيف تضيع الممالك وتفض البلاد على أهليها؛ ولهذا فقد انتفضت الدول وباتت كل منها تفكر في أَمنِها وحدها ، ونسي الجميع أن النار التي تلتهم منزل أي جار لهم يمكن أن تمتد لتحرق منازلهم ، لقد باتت الحرب تسير بسرعة ، وباتت الدولة تقهر وتهزم في سرعة أكبر مما كان الأمر يستلزم للاستيلاء على قرية صغيرة في الماضي ، كان حصار المدن قصيرًا وناجحًا ويتم في أيام وساعات بدلًا من شهور ، وباتت المعارك دامية كثيرة الخسائر ، ولم تعد مهارة الساسة في المفاوضات هي التي تصل إلى القرار الحاسم؛ بل باتت الحملات العسكرية وقبضات الجنود هي التي تقرر هذا وترسم مستقبل الدول».

وتوضح كلمات جتشارديني عمق َ شعور الإيطاليين بالفرق بين الأحوال في القرن الخامس عشر وبينها في القرن السادس عشر.

ففي القرن الخامس عشر في غمرة شعور الدول الإيطالية بثرائها وإكبارها للحياة التي أوجدتها مخترعاتها وتقدمها الفني والعلمي ، في غمرة هذا كله كانت الدولة الإيطالية تطل من عليائها على باقي دول أوروبا التي كان نظامها الاجتماعي وحياتها الثقافية مازالا في مستوى منخفض ، فضلًا عن أنهما يوجهان توجيهًا خاطِئًا؛ ولكن الآن في القرن السادس عشر فإن كل جدّ ومستقبل إيطاليا إنما يقع في أيدي هذه الدول نفسها التي وجد الإيطاليون من حقهم أن يمتهنوها ويقللوا من قيمها.

وتوضح كلمات جتشارديني أيضًا الأسلوبَ الذي يشرح به الإيطاليون هزيمتهم ، فإنه تبعًا للأفضلية التي كانت لهم من ناحية المدنية والاقتصاد والحياة الثقافية فإنهم يلومون أنفسهم لإهمالهم الفن الحديث في الحرب ، فإن سلسلة القلاع والحصون التي حمت بها الدول الإيطالية الطرق المؤدية إلى داخلية البلاد سقطت بسرعة أمام مدفعية شارل الثامن ، ولم يستطع المحاربون الإيطاليون الراكبون مقاومة القوة المجتمعة في جيش شارل من المشاة والمدفعية.

انتصر الفن الحديث على الأسلوب القديم ، وكما يقول مكياڤيللي: «فإنها كانت حربًا هجومية قصيرة سريعة الحركة» أو على ما يمكن أن نطلق عليها اليوم «حربًا برقية»[١] ، ويقول مكياڤيللي: «إن الحرب سارت والفرنسيون يستطيعون أن يعيِّنوا حتى المنازل التي يريدون أن يقيم فيها

(١) «المقولات» الكتاب الثاني الفصل السادس ص ١٤٧.

جنودهم دون خوف من مقاومة القوات الإيطالية الضعيفة»[1].

واجتذبت هذه الانتصارات الفرنسية السريعة مع ضعف قوة الإيطاليين ، اجتذبت الأسبان والألمان لأن يمدوا أيديهم للوصول إلى مثل هذا الكسب ، وعلى غير ما أراد الإيطاليون وجدوا أنفسهم مجرد نظارة يشهدون بلادهم تبيت مسرح القتال لأوروبا ، ومركز اجتذاب لكل الغرباء الذين يريدون الوصول إلى الشهرة العسكرية.

لقد أعجبت إيطاليا كلها وسجلت أسماء كبار القادة؛ أمثال:

چتينانودي كونسالڤو الذي صنع المعجزات في حملاته النابوليتانية بأن حوَّل جموع المحاربين الأسبان المأجورين ليكونوا مشاة موفوري الضبط والربط والتنظيم ، ومثل جاستون دي فواكس الذي استطاع بتحركات جنوده السريعة أن يسبق في قوة المناورة خصومة الأكثر منه عددًا.

ومثل فروندسبرج الذي نظم القوات الألمانية Landsknechte ، والذي تولى قيادتهم فيما بعد عند نهب روما ، وقد وصل الباحثون فيما قدر على إيطاليا عندئذ إلى أن الإيطاليين يجب أن يعيدوا تجديد وإصلاح تعاليمهم العسكرية إذا شاءوا أن يتساووا بالمتبربرين الأجانب ، وأن يكونوا مرة ثانية سادة بلادهم.

على أن الرغبة العامة لتفهم المسائل العسكرية والتي كان من الضروري أن تثيرها هذه الفترة الثورية ، بالإضافة إلى مأساة إيطاليا سببت تعمق مكياڤيللي إلى حد كبير في دراساته ، وذلك تبعًا لتجاربه العملية في السياسة الفلورينتينية؛ حيث تلقن درسًا خاصًّا في ميدان التنظيم العسكري

(١) «الأمير» فصل ١٢ ص ٢٥.

بما فيه من تعقيدات سياسية.

كانت أكبر تراچيديا في حياة مكياڤيللي أنه لعب دورًا سياسيًّا إيجابيًّا فقط لمدة قصيرة نسبيًّا امتدت من عام ١٤٩٨ إلى عام ١٥١٢ عندما كان بييرو سودريني أكبر موظفي الدولة ، وعندما كان سودريني هذا يوجه سياسة دولة مدينة فلورنسا.

على أن ارتباط نشاط مكياڤيللي السياسي بحكم سودريني لم يكن مجرد صدفة ، فبعد إقصاء آل مديتشي ، وبعد مرور فترة قصيرة في اضطراب وفوضى اتفق الديمقراطيون والأرستقراطيون ـ الحزبان المتنافسان في فلورنسا ـ على اختيار سودريني للحكم ، ولم يكن سودريني قادرًا ولا راغبًا في الوثوق تمامًا بالأرستقراطيين ولا بالديمقراطيين؛ ولهذا انتهى إلى اعتبار مجموع الموظفين الدائمين في حكومته هم الدعامة الأساسية لحكمه ، ولم يكن مكياڤيللي ـ برغم أنه سليل أسرة من النبلاء ـ من الديمقراطيين ولا من الأرستقراطيين؛ ولهذا لم تكن لتتوافر له الفرصة ليكون شخصية بارزة في أي من الحزبين ، ولكنه كسكرتير في الرياسة كان بالطبيعة من أفراد المجموعة التي يفضلها سودريني ويعقد عليها آماله؛ ولهذا تهيأت له الفرصة ليظهر معدنه الطيب.

وتحقق سودريني بسرعة من كفاية ومواهب هذا الرجل الصغير السن ، فاجتذبه إلى دائرة خلصائه ، واستخدمه في أعمال إدارية وسياسية مهمة ، وبذلك وصل مكياڤيللي إلى أعماق المشاكل العسكرية التي كانت تسيطر على حكومة سودريني ، وهي مشاكل إعادة غزو بيزا..

كانت بيزا الميناء العظيمة في مدخل نهر آرنو ، وقد انتهز أهل بيزا

فرصة الاضطراب الذي أوجده الغزو الفرنسي وحرروا بلدهم من حكم فلورنسا؛ ولهذا كان استقرار حكم سودريني يتوقف بوضوح على مدى نجاحه في إعادة غزو بيزا.

وعامًا بعد عام استخدمت فلورنسا أحسن القادة المحاربين المأجورين الإيطاليين، كما بذلت الجهود لدراسة تنفيذ أكثر المشروعات جرأة كمحاولة حرمان بيزا من موارد مياهها بتحويل مجرى نهر آرنو؛ ولكن في كل عام عندما يقترب الشتاء تتوقف العمليات الحربية وتظل بيزا بمنجاة من الغزو.

وكان هذا الإخفاق مصدر انتشار موجات من عدم رضاء الشعب عن حكم سودريني. كما أنه سبب ضياع نفوذ وهيبة فلورنسا، فضلًا عن أن الاضطرار إلى متابعة استخدام المحاربين المأجورين كان بدوره جهدًا مستمرًّا على خزانة فلورنسا، وعبئًا ثقيلًا بالتبعية على دافعي الضرائب.

وبحث سودريني وأصدقاؤه عن وسيلة جديدة يمكن بها الوصول بحصار بيزا إلى نهاية ناجحة. ووقف هذا العبء المالي المستمر على الخزانة، وكان من بين الآراء التي بُحثت: رأي باستخدام أهالي توسكاني في تشكيل ميليشيا شعبية، ولسنا ندري ما إذا كان مكياڤيللي هو أول من اقترح هذا المشروع.. ولكن ما نعلمه على التحقيق هو أن مكياڤيللي هو الذي كتب المذكرة الحاسمة التي على أساسها وضع قانون عام ١٥٠٦ الذي فرض الخدمة العسكرية الإجبارية على كل الرجال بين سن الثامنة عشر وسن الثلاثين.

ولم يكن هذا القانون ليوجد نظامًا كاملًا للتجنيد؛ ولكنه كان خطوة أولية في ذلك الاتجاه، ولم يطبَّق قانون الخدمة الإجبارية على مواطني

فلورنسا؛ بل قصر هذا على سكان المناطق الزراعية في توسكاني التي كانت خاضعة لحكم فلورنسا ، وحتى من هؤلاء اختير فقط عدد قليل مع العناية الدقيقة بعدم تعطل نشاط الحياة المدنية ، ولم يسبب التدريب عبئًا ثقيلًا على المجندين ، فقد كان القرويون يدرَّبون في أيام الآحاد وأيام العطلات على السير واستخدام آلات الحرب القاطعة التي سلحوا بها ، ولمرتين في العام كان الرجال من القرى المختلفة يسيرون إلى المدن التي في مقاطعتهم ليُدربوا لمدة يومين في تشكيلات كبرى ، ولم يجرؤ السياسيون الفلورنتيون أن يوافقوا على مقترحات أوسع مدى لأنهم كانوا يخافون أن يثور فلاحو توسكاني بمجرد أن يسلحوا ، وأن يحاولوا في ثورتهم الخروج على سلطة فلورنسا ، أو أن يحاول سودريني أن يصنع من نفسه حاكمًا مطلقًا بمعاونة مثل هذا التنظيم العسكري القوي.

على أنه يرجع أساسًا إلى جهود مكياڤيللي وحده أن وصلت هذه المحاولة التي أعدت دون أن تستند إلى رضاء كامل عنها بتعبئة قوى الرجال في فلورنسا إلى نتائج عملية ، وأن يقوم ألفان من الميليشيا منذ عام ١٥٠٧ بنصيب كبير في حصار بيزا.

كانت عملية التجنيد قد باتت جزءًا من أعمال مكتبه ، وكان يتجول في الريف ليتخير بنفسه الرجال الذين يلحقون بالخدمة العسكرية ، وكان أيضًا مسئولًا عن اختيار الضباط ، فلما عسكر جنود الميليشيا حول بيزا كان هو المسئول عن تموينهم..

وبالرغم من أن الميليشيا خدموا فقط كقوة احتياطية للجنود المأجورين إلا أن دورهم في الحصار كان كبير الأهمية ، وكان هو الذي أدى إلى النجاح النهائي الذي حصلت عليه فلورنسا؛ فإن جنود الميليشيا هم

الذين أبقوا الحصار مستمرًّا طوال الشتاء؛ فمنعوا أهل بيزا من الحصول على امدادات وتموين ، وبذلك أجاعوهم واضطروهم للتسليم في عام ١٥٠٩ .

وزاد الدور الذي قامت به الميليشيا بإزاء بيزا من ثقة الفلورنتينيين بتعاليمهم العسكرية الجديدة ، واعتمدوا بدرجة كبيرة على جيشهم المجند؛ ولكن بعد عامين اثنين عندما اقترب جيش الإمبراطور من فلورنسا لإعادة حكم المديتشي فشل جنود الميليشيا فشلًا ذريعًا إزاء هؤلاء الجنود المدربين.

كانت الميليشيا قد حشدت في مدينة براتو الصغيرة لحراسة الطريق المؤدي إلى فلورنسا ، ولكن جنود الإمبراطور اخترقوا جدران المدينة في هجومهم الأول ، وأصيب جنود الميليشيا بفزع ورعب ، ودبت الفوضى في صفوفهم ، وولوا الأدبار دون أن يقوموا بأية مقاومة ، وفي هذه الفوضى هلك أكثر من أربعة آلاف غالبيتهم من جنود الميليشيا ، وكانت مذبحة مشهورة بالرغم من أنها كانت في عصر اشتهر بالإسراف في سفك الدماء ، وأضحى الطريق إلى فلورنسا مفتوحًا ، وعاد المديتشي إلى بلدتهم منتصرين.

ووضعت عودة المديتشي إلى فلورنسا نهاية حياة مكياڤيللي السياسية ، وضاعت كل محاولاته للعودة لعمله أدراج الرياح ، وانقلب في هذا التقاعد الذي فرض عليه مبكرًا من العمل إلى التفكير ، ومن التجربة السياسية إلى التفكير السياسي ، وفي ذكرياته لتجاربه السياسية لابد وأن تكون مشكلات الحرب والتنظيم الحربي ذات طعم مرير في فمه ، أي أنها كانت موضع إيلام له.

ألم تكن الميليشيا ، التي هي إلى حدٍّ ما وليدة تفكيره ، من العوامل الفعالة التي أدت إلى سقوط الحكم الجمهوري؟

ألم تكن هي كذلك بالتالي السبب الرئيسي للانقلاب السيئ الذي حدث في حياته هو؟

ومع هذا فإن الارتباط الشخصي لمكياڤيللي بهذه المشكلة لم يؤد به إلى الشكوى من أعماله ، أو إلى لوم الآخرين وسَوْق التهم إليهم ، لقد كانت الظاهرة البارزة في عقلية مكياڤيللي أنه نظر في تعمق إلى السوابق والمعقبات التاريخية وراء الحقيقة السياسية المنعزلة ، ولم يقتنع حتى اكتشف القاعدة العامة التي وضحت له هذه الظاهرة الوحيدة البارزة.

لقد أدت رغبة مكياڤيللي في الدفاع عن أعماله إلى دراسات عامة مثمرة ، وبذلك كشفت له دراساته عن تأثير العوامل العسكرية على حظ إيطاليا وما أصابها ، كما كشفت له عن التطورات التي وقعت في عصره ، وقادَتْهُ تجاربُه الموضوعية إلى اختبار ودرس المشكلات العسكرية في عصره ، وبذلك كان أول مفكر عسكري في أوروبا الحديثة.

***

[٢]

عني مكياڤيللي كما رأينا بالمسائل العسكرية بسبب ما أحس به من تجاربه الخاصة من تأثيرها القوي في التطورات العامة للحوادث السياسية؛ ولهذا فإن تحليل آراء مكياڤيللي العسكرية لا يمكن أن يقف عند حدِّ دراسة كتابه العسكري «فن الحرب» والذي وقفه كله للمسائل العسكرية..

ففي كتاباته التاريخية والسياسية تلعب الحرب والتنظيم العسكري دورًا مهمًّا أيضًا ، نجد هذا بوضوح في كتابيه «الأمير» و«المقولات» . وفي «تاريخ فلورنسا» ، وكل الخلاف الذي يمكن أن نجده بين الآراء العسكرية التي جاءت في كتابه «فن الحرب» وفي كتبه الأخرى التاريخية والسياسية قد يكون ناتجًا عن التباين في الأهداف التي لأجلها كانت هذه الكتب.

فكتاب «فن الحرب» يقدم عرضًا فنيًّا منتظمًا لآراء مكياڤيللي العسكرية؛ بينما تقدَّم هذه الآراء في كتابيه «الأمير» و«المقولات» كمقترحات ذات طابع تعريفي إيضاحي ، ويعنى كتاب فن الحرب برسم برنامج إيجابي للإصلاح العسكري؛ بينا أن الملاحظات عن المسائل العسكرية التي جاءت في كتابيه المشار إليهما من قبل لها طابع سلبي ، فهي انتقادات موجهة للتعليم العسكري لذلك العصر.

وقد وجهت انتقادات مكياڤيللي وملاحظاته السلبية إلى النظام العسكري في إيطاليا إبان القرن الخامس عشر قبل الغزو الفرنسي ، وكان القادة من المأجورين وجنودهم من سرايا الخيَّالة هم هدف انتقاداته وهجومه وموضع عدم احترامه أو تقديره. يقول: «كانوا مفككين لا تربطهم أيُّ وحدة ، تملؤهم الأطماع ، غير مخلصين ، ولا تتوافر فيهم روح

الضبط والربط.. شجعان بين الأصدقاء، جبناء في مواجهة الأعداء، لا يهابون الله.. ولا إيمان لهم بالرجال»[١].

وكان رأيه السيئ فيهم واضحًا في تعبيراته التهكمية عنهم في كتابه «تاريخ فلورنسا» عندما تحدث عن المعارك التي خاضتها جيوش المحترفين في القرن الخامس عشر، وفي معركة «زاجونارا» ـ المعركة ذات الشهرة الكبيرة في إيطاليا ـ: «لم يقتل أي فرد عدا لودوڤيكو أو بتزي، وقد سقط هو ورجلان من جنوده من فوق جواده فاختنق من الأوحال»[٢].

وفي معركة «أنجياري»: «التي استمرت من الساعة العشرين إلى منتصف الليل؛ قُتل رجل واحد فقط لم يجرح، ولم يسقط بضربة خصم؛ بل سقط من على ظهر جواده فداسته الأقدام»[٣].

وفي معركة «مولينيلا»: «التي استمرت لنصف يوم، لم يقتل فرد؛ بل جرحت بعض الخيول وأسر كل من الجانبين بعض الأسرى من الجانب الآخر»[٤].

وأوضح مكياڤيللي أن القادة المحترفين وجنودهم قاتلوا أسوأ قتال، فلا مصلحة معنوية تربطهم بالحرب، كانوا مأجورين يهمهم الكسب المادي فقط: «ولم يكونوا يشعرون بأن لهم وطنًا يقاتلون في سبيله، ولا دافع يبقِيهم في الميدان عدا الأجر التافه الذي يتقاضونه والذي لم يكن كافيًا ليموتوا في

(١) كتاب «الأمير» فصل ١٢ ص ٢٥.
(٢) تاريخ فلورنسا الكتاب الرابع فصل ٦ ص ٤٧٥.
(٣) تاريخ فلورنسا الكتاب الخامس فصل ٣٣ ص ٥٢٨.
(٤) تاريخ فلورنسا الكتاب السابع فصل ٢٠ ص ٥٧٨.

سبيله»[١].

وتبعًا لآراء مكياڤيللي كانت الاعتبارات المالية لها التوجيه الأكبر لطبيعة التنظيم العسكري ، كما كان لها هذا أيضًا في إدارة الحرب في إيطاليا طوال القرن الخامس عشر ، ولما كان الجنود هم رأس مال القائد الأجير المحترف فإنه بلا شك لم يكن راغبًا في فقدهم في المعركة وإلَّا كان كأنه يخسر رأسمال نظير دراهم معدودات؛ ولهذا كان يتجنب المعركة الالتحامية ويفضل عليها حرب المناورات ، فإذا لم يمكنه تجنب المعركة عمل على أن تكون خسارته فيها أقل ما يمكن؛ ولهذا كان ذلك العصر عصر معارك غير دامية؛ ولكن في ذات الوقت فإن الحروب القصيرة الأجل لم تكن في صالح القادة المأجورين ، وهم لا يريدون بالتبعية أن يفقدوا عملهم وصناعتهم ، ولهذا فحتى عندما يبدو النصر واضحًا ومحققًا فإنهم يطيلون من أمد الحرب بتحويلها لعدة حملات متتالية.

وقد أشار مكياڤيللي إلى أن إغفال استخدام جنود المشاة في إيطاليا إنما يرجع سببه إلى المصالح المالية للقادة المأجورين؛ ذلك لأن الجنود المترجلين يمكن إعدادهم بنفقات أقل مما يتطلب إعداد الجنود الراكبين الذين هم رأس المال المتداول للقادة المأجورين ، وبغير الجنود الراكبين كان من الممكن أن تتحول الدول كلها إلى التجنيد كوسيلة رخيصة لزيادة عدد جنودها عن عدد جند جاراتها.

وقد قال مكياڤيللي: إنه من وجهة عامة كان القليل من التحسين أو التطور هو وحده المستطاع في ضوء الأحوال القائمة ، ولما كان كل القادة

(١) كتاب «الأمير» فصل ١٢ ص ٢٥.

المأجورين يعملون بذات الدوافع والأثرة وحب النفس وقد اعتبروا الحرب هي الوسيلة الوحيدة للعمل والحياة ، فقد كانت مصالحهم المشتركة في أن يتقبلوا كل القواعد القائمة وأن يلعبوا ذات الدور.

على أن الوصف التفصيلي الذي قدمه مكياڤيللي للأساليب الإيطالية لفن الحرب في القرن الخامس عشر يجب ألا يعتبر حقيقة تاريخية ، ففي حديثه عن القادة المأجورين فعل ما فعله مصورو عصره ، فقد بنى كل وصفه التفصيلي حول اتجاهات بارزة قليلة ، تاركًا كل شيء آخر يمكن أن يجعل الصورة العامة مضطربة أمام النظارة ، أو أنه لا يكشف عن الصورة الحقيقية التي هدف إلى تصويرها في حديثه ، ومن الضروري أن نذكر على نقيض الوصف الذي قدمه مكياڤيللي أن القادة المأجورين في النصف الثاني للقرن الخامس عشر بدءوا يعنون بالمسائل العسكرية المستحدثة ، وبدءوا يستخدمون جنود المشاة والمدفعية.

ويجب أيضًا أن نذكر بأنه كانت هناك منافسة وخصومة بين القادة المأجورين ، وبالتبعية فإنهم كانوا تواقين إلى هزيمة العدو لأطماعهم الشخصية؛ وللمحافظة على سمعتهم وإبقاءً على مكانتهم؛ ولهذا فإنهم إذا كانوا يتجهون في الغالبية إلى حرب المناورة فإن هذا لم يكن بوحي من ضمائرهم ، ولم يكن كذلك عن قصد سيئ ، كان الموقف السياسي في إيطاليا في القرن الخامس عشر هو الذي يحدد من استراتيجيتهم أو يمليها عليهم ، وكذلك فإن الوسائل المحددة نسبيًّا التي كانت هي كل طاقة الولايات الصغرى ، والتي كانت متساوية تقريبًا في القوة ، كانت هذه الوسائل تكون في جملتها العقبة الكؤود التي تمنع حشد أي قوة أو جهد ، وكان من الممكن أن يجعل الإصلاحات العسكرية مستطاعة بدرجة كبيرة.

ولم يكن مكياڤيللي غافلًا عن الصلة أو الارتباط بين نظام إيطاليا السياسي وبين آلتها الحربية غير الصالحة للتمشي مع الزمن ، وقد أدرك مكياڤيللي أن إيطاليا كانت تحتاج ما هو أكثر من التدابير ذات الطابع الفني ، وما هو أكثر من إلغاء استخدام الجنود المأجورين ، وما هو أكبر من استخدام المشاة؛ وذلك حتى تستطيع مقاومة اعتداء باقي الدول الأوربية بنجاح ، لقد كان في الروح التي أدار بها الإيطاليون حروبهم شيء أساسي خاطئ ، فيقول: «ولا يمكن أن تسمى حربًا عندما لا يقتل الناس بعضهم بعضًا ، وعندما لا تدمر المدن وتنهب الأرض»[1]. فإن التدمير الكامل لأرض العدو يجب أن يكون هو الهدف الأساسي للحرب ، والحرب الحقيقية قتال للبقاء ، وفي مثل هذا القتال فإن كل شيء يُسمح به ، «وعندما يكون أمن الدولة وسلامتها يتوقفان على القرار الذي يتخذ فلا يجب البتة تقدير العدالة أو نقيضها ، ولا يجب التفكير في القسوة أو الإنسانية ولا في الشرف أو العار»[2] ، إن أساليب الحرب يجب أن تقدر فقط تبعًا لتأثيرها ونتائجها..

ويقول مكياڤيللي بإعجاب عن كاستروتشيو كاستراكاني: «ولو استطاع الكسب بالخداع والتضليل فإنه لا يحاول إطلاقًا استخدام القوة؛ وذلك لأنه قال بأن النصر ـ لا وسيلة الحصول عليه ـ هو الذي يجيء بالفخار للمنتصر»[3] ، وبذلك فقد ظن مكياڤيللي بأن عناية القائد لا يجب أن تحدد بالأعمال العسكرية فقط؛ بل إنه يجب أن يعنى باستخدام وسائل

---

(١) تاريخ فلورنسا الكتاب الخامس فصل ١ ص ٤٩٩ .

(٢) «المقولات» الكتاب الثلاث فصل ٤١ ص ٢٥٦.

(٣) Vita Di Castruccio Castracani, p: ٧٦١.

أخرى صالحة لخداع العدو ، سواء أكانت مباشرة أم غير مباشرة كنشر الشائعات مثلًا»[١].

وكان مكياڤيللي أيضًا من أكبر المعجبين بفروتنينوس (٤٠-١٠٣) الذي وقف كتابه على الحديث عن الخدع الحربية ، وتحدث فيه عن المهارة في تضليل العدو ، وقد أوصى مكياڤيللي بتطبيق الكثير من أساليب فورتنينوس..

وقد يكون إسرافًا أن نقول بأن مكياڤيللي كان سابقًا في الحديث عن الحرب السيكولوجية أو عن تفهم وجودها ، ولكن مع هذا فإن هناك ما يوضح الكثير من اتجاهاته إلى هذا ، ففي عصر مكياڤيللي ، وعلى سبيل المثال في معركة «راڤينا»: كان المتقاتلون في الجانبين المتضادين يتبادلون تحديًا مهذبًا ومجاملات مليئة بروح الفروسية قبل بداية العمليات العدائية ، وهذه كلها تدل ـ ولو من الناحية النظرية ـ على أن الحروب كانت تقاتل تبعًا لقواعد محددة ثابتة ، ولا تزال توجد الأدلة التي تثبت أن الطرفين المتضادين كانا يتقاتلان في ظروف عادلة متساوية ، وكان هذا هو قاعدة وجهة نظر مكياڤيللي في السماح باستخدام كل القوى الممكنة في الحرب؛ كانت الدولة في مجموعها في نظره كمخلوق بشري حي توضع كل موارده وقوته وشجاعته وذكائه موضع التجربة في وقت الحرب.

وقد انتُقد مكياڤيللي بسبب ما وضح من عدم دقة تقديره لأهمية اختراع المدفعية؛ ولقلة تقديره أيضًا لدور المال في الحرب ، ومع هذا فإن وجهات نظره في هذه النقاط تبدو منطقية ومفهومة ، والفصل القوي الذي

(١) «المقولات» الكتاب الثالث فصل ١٤ «تأثير وسائل الخداع الحديثة والصرخات غير المتوقعة في وسط المعركة...».

كتبه في كتابه «المقولات» عن «قيمة المدفعية للجيوش الحديثة ، وهل كان الرأي العام مصيبًا في احترامه وتقديره لها»[١] لم يكن بحثًا خالصًا لتأثير اختراع المدفعية في تطور فن الحرب بقدر ما عني بناحية واحدة من المشكلة هي: أهمية الشجاعة وقوة الابتكار والمبادأة بالنسبة لهذا السلاح الجديد من أسلحة الحرب. لقد سمع مكياڤيللي الناس يقولون: «إن الحروب التي ستجيء بعد اليوم ستكون كلها حروب مدفعية»[٢]. كان كل جدله في الموضوع لإثبات عدم صحة وجهة النظر هذه ، إنه لم ينكر أن المدفعية قد زادت من قوة الضرب؛ ولكنه عارض فكرة أن المدفعية وحدها يمكن أن تكون حاسمة ، إن نتيجة اختراع المدفعية لم تكن لتؤدي إلى أن تضحى الحرب فنًّا خالصًا للأخصائيين المهندسين؛ بل لا تزال هناك ضرورة ملحة لجمع كل القوى العسكرية والمعنوية للدولة ، وأن العوامل الحاسمة لا تزال هي ـ كما كانت دائمًا ـ كفاية القائد وشجاعة الجندي.

وقد قدم مكياڤيللي شيئًا مثل هذا في مناقشته لدور المال في الحرب في الفصل الذي وسم بعنوان: «ليس المال عصب الحرب بالرغم من أنه يعتبر كذلك من وجهة عامة»[٣].

وقد ختم مكياڤيللي بحثه بقوله: «ليس المال بل الجنود الأقوياء الصالحون للقتال هم الذين يؤكدون النصر في الحرب لأن المال لا يستطيع أن يخلق جنودًا صالحين».

---

(١) «المقولات» الكتاب الثاني فصل ١٧ ص ١٦٢-١٦٦.
(٢) مجموعة مؤلفاته ص ١٦٢.
(٣) «المقولات» الكتاب الثاني فصل ١٠ ص ١٥٢ ، ١٥٣.

على أن معاصري مكياڤيللي كجتشارديني مثلاً[١] انتهوا من هذه الأقوال إلى أن مكياڤيللي كان نظريًا ، وأن لا خبرة له في المسائل العملية؛ ولكن الواقع أن هناك فقرات كثيرة في خطابات مكياڤيللي[٢] توضح أنه في موازنته للفرص الممكنة للنفوذ السياسي كان يضع عامل المال موضع التقدير.

إن مكياڤيللي لم يرغب في أن يجعل الموارد المالية بغير أهمية في إدارة الحرب؛ ولكنه كان يفكر في المدن الإيطالية الكبيرة مثل فلورنسا وميلان ، التي برغم ثرائها سقطت فريسة للأجانب ، كان رأيه الذي يقتنع به هو أن القوة العسكرية هي قاعدة وأساس القوة السياسية ، وأن المال يكمل القوة السياسية فقط عندما يحول إلى قوة عسكرية.

ويوجد ـ في الواقع ـ في ملاحظات مكياڤيللي معنى أكثر سعة للعلاقة بين القوة المالية والقوة العسكرية ، كان لديه شعور أن الفضائل التي تتطلبها الحرب لا تتمشى مع الاتجاهات الناتجة عن النشاط التجاري ، كان يعتقد بأن الاتجاهات السلمية التي توافرت للإيطاليين في القرن الخامس عشر منعت تطور الروح العسكرية الحقَّة ، وأدرك أن هناك علاقة تربط انتشار الروح السلميَّة هذه بالانشغال بالمصالح التجارية.

وفي واحدة من رسائله التي تكشف عن حقيقة نفسه والتي بعث بها إلى صديقه ڤيتوري يقول[٣]: «لقد رسم الجد لي أنني ما دمت لا أستطيع

(١) Francesco Guicciardini (Considerazioni intorno ai Discorsi del Mackiavelli) Scritti politici e Ricordi ed. P, palmarocchi.

(٢) خطاب لفرانشيسكو فيتوري ٢٠ ديسمبر ١٥١٤.

(٣) خطاب لفرانشيسكو فيتوري ١٩ أبريل ١٥١٣ ـ أو برا ص ٨٨٢.

مناقشة صناعة الحرير أو الصوف أن أضطر إلى المناقشة في السياسة ، وكان عليَّ إما أن أصمت وإما أن أتحدث في ذلك الموضوع».

وبلا شك لم يعتبر شعوره بخطأ وضعه في مجتمع تجار الصوف والحرير والذين يحكمون فلورنس نقصًا أو عدم كفاية ، كان رأيه أن الدور الذي لعبته الاعتبارات المالية في عقلية أهل فلورنسا هو سبب الانهيار السياسي لها ، ففي الدولة التي تطمع في أن تصل إلى العظمة السياسية يجب أن تطغى المصالح السياسية على كل ما عداها ، وقد دفعه قلة تقديره وامتهانه للمحاربين المأجورين ـ كما وجهه نقده للأساليب الإيطالية في فن الحرب ـ إلى المطالبة بروح جديدة للبطولة العسكرية..

إن الميوعة أو فتور روح الاقتتال كانت هي ـ على ما ظن ـ نتيجة للكسب الشخصي في مجتمع تسيطر عليه المصالح المالية والتجارية ، ولا يمكن أن يتوافر جنود لجيش لا يقهر إلا في شعب تكون عظمة بلاده هي الهدف الأكبر للناس كلهم لا أن يكون هذا الهدف هو صالحهم الشخصي وإلا في شعب يكون كل أفراده على أتم أهبة للتضحية بكل شيء في سبيل معتقداتهم السياسية ، وأن يموتوا في سبيل هذه المعتقدات.

ومن الممكن بسهولة أن نخرج بالأصول الأساسية لآراء مكياڤيللي في الإصلاح العسكري من مناقشة نقده للأساليب السابقة ، فلقد كان في جانب تكوين جيش من الجنود المترجلين يجمعون على أساس التجنيد ، ومثل هذا التنظيم العسكري يتطلب إصلاحات سياسية ، ولا ينجح إلا إذا اقترن بروح جديدة ترفع القيم السياسية فوق ما عداها ، وبالإضافة إلى هذا فإن الناس الذين يحكمون أنفسهم يكونون أكثر رغبة في القتال لأنهم يدافعون عن أنفسهم وعن كيانهم.. وبذلك كان مكياڤيللي يعني وجود

علاقة قوية بين الديمقراطية وبين فكرة تكوين جيش من الجنود المترجلين المجندين.

ومع هذا فإن القارئ لكتاب «فن الحرب» لمكياڤيللي أي كتابه الرئيسي في الحديث عن المسائل العسكرية لابد وأن يشعر بالخيبة ؛ ذلك لأنه لن يجد ما يتوقعه من مناقشة تفصيلية لكيفية تطبيق هذه الآراء في ضوء أحوال القرن السادس عشر مع الوصف الحقيقي لطابع الحرب في ذلك العصر.

كان مكياڤيللي وليد عصر النهضة ، وكانت طريقته لاثبات صحة آرائه هي أن يوضح أنها كانت صالحة في العالم القديم ، وكان يؤمن بأن أقوى النقاط التي يمكن أن يقدمها في صلاح نظرياته هي أن الجيش الروماني كان جيشًا من الجنود المترجلين المجندين.

ولهذا كان كتاب مكياڤيللي ـ إلى حد بعيد ـ إيضاحًا للتعاليم العسكرية الرومانية ، وكانت الأمثلة التي استخدمها مأخوذة في غالبيتها من كتابات المؤرخين الكلاسيكيين أمثال ليڤي وبوليبيوس ، واتبع بدرجة كبيرة المصادر والآراء الكلاسيكية في الفن العسكري ، وكان كتابه نوعًا من التبسيط للدراسات العسكرية الكلاسيكية ليتناسب مع العصر الذي جاء فيه.

على أن المورد الرئيسي للإيحاء له كان كتاب فيجتيوس «فن العسكرية» ، فقد كان هذا أيضًا يعنى بذات الموضوعات: اختيار الرجال ، إعداد وتدريب الجنود ، صورة المعركة ، ثم الحوادث المختلفة التي يمكن أن تعرض في مسار العمليات الحربية ونظام السير والتعسكر وفن التحصينات.

وقد اتبع مكياڤيللي ـ حتى في تنظيم هذه الموضوعات الرئيسية ـ

الأسلوب الذي جاء في كتاب فيجتيوس؛ ولهذا يستطيع الفرد أن يقول بأن أحد الأسباب لإغفال كتاب مكياڤيللي «فن الحرب» في العصر الحديث هو أنه اعتبر لا شيء أكثر من نسخة إيطالية أو إلى حد ما نسخة مستحدثة لكتاب «فيجتيوس».

وقد تحول مكياڤيللي في بعض الأحوال عن النماذج الكلاسيكية ، ولما كان الواضح أنه اعتبر إحياء الفن العسكري القديم هو واجبه الأساسي فقد كان من الضروري أن يبدو هذا له وكأنه ذو أهمية تتطلب عناية خاصة منه.

وأبرز النقاط التي تحول فيها وحده عن المسار الذي اتبع فيه فيجتيوس هي: معالجته الصافية لأهمية المعركة في الحرب ، فعلى نقيض فيجتيوس الذي بحث هذا الأمر في إيجاز فإن الحديث عن المعركة قد احتل المكان الأكبر في كتاب مكياڤيللي «فن الحرب»؛ ففي الكتاب الثالث نجد وصف معركة تخيلية تقف في موضع القلب بالنسبة للكتاب كله ، وكان الكتابان الأوَّلان قد وقفا كلاهما للحديث عن اختيار الجنود وتدريبهم ووصف كيف يمكن وضع الجيش الصالح للعمل العسكري في ميدان القتال ، أو بمعنى آخر فإن أحاديث الكتابين إنما يقودان للحديث عن المعركة.

فإذا ما انتهى من الحديث عن المعركة خف الجهد ، وكانت أهداف الكتب التالية: نظام السير والتعسكر والتحصينات ، تعالج الموضوعات الواحد إثر الآخر في دراسات موجزة تربط بينها وشائج ضعيفة وصلات رخوة ، وهكذا ـ في صورة غير مباشرة ـ كانت المعركة في الواقع هي الجزء الأساسي للكتاب كله ، هذا فضلًا عن أن أهمية المعركة توضع بشكل لافت للقارئ في فقرات مبعثرة على طول صفحات الكتاب. «إذا كسب القائد

معركة فإن هذا يلغي كل الأخطاء السابقة»[١].. والمعركة هي «النهاية التي لأجلها أعدت الجيوش؛ ولهذا فمن الضروري العناية بإعداد جنود هذه الجيوش»[٢].. و..«إن الغرض الأساسي لكل العناية التي تبذل من أجل الضبط والربط والنظام الجيدين هو إعداد جيش صالح ليشتبك بالعدو في حال حسنة؛ لأن القصد التام يكون عادة نهاية الحرب»[٣].

وفضلًا عن هذا فإن نتيجة المعركة لا يمكن تجنبها ، فإذا قرر عدوك الاشتباك في المعركة فإنه يستطيع إرغامك على القتال في مكان تضطر لقبول التحدي عنده «إن القائد لا يستطيع تجنب معركة يكون العدو قد قرر القيام بها مهما كانت الأخطار التي يواجهها..»[٤].

أضف إلى هذا أنه منذ أن كان اختراع المدفعية فإن القلاع والحصون قد باتت بلا قيمة لوقف العدو .. إن المعركة هي الميزان الضروري لكل حرب..

ومن الممكن أن نخرج بالكثير من السطور التي قدمها مكياڤيللي والتي توضح وجهات نظره في المعركة.. ومما لا شك فيه أن الأسلوب الذي عولجت به «المعركة» في الجزء الثالث من كتاب «فن الحرب» ليؤكد اهتمام مكياڤيللي بهذا الجزء من كتابه.. فلقد جاء هذا الحديث ضافيًا وبدت فيه عناية بالإيضاح والتوجيه..

ويوضح مكياڤيللي تفصيليًّا ما يعتبر الآن نوعًا من التاريخ القديم ،

(١) فن الحرب ص ٢٧٥.
(٢) فن الحرب ص ٣٠٣.
(٣) فن الحرب ص ٣٥٢.
(٤) عنوان الفصل العاشر من الكتاب الثالث «المقولات».

يوضح كيف ينظم الجيش لخط المعركة ، وكيف توضع المشاة ـ القوة الأساسية ـ في الوسط ، وكيف توضع الخيالة والمشاة على الجانبين لتغطيتها ، وكيف أنه بعد إطلاق غلالات نيران المدفعية وبعد أن يشتبك الخيالة في المناوشات الأولية هم والمشاة الخفيفة تبدأ المعركة الحقيقية بعد أن يكون الميدان قد خلا تمامًا لاصطدام القوات الأساسية من الجنود المترجلين.

وكان أولئك الذين يحملون الحراب الطويلة يكونون الصف الأمامي ، وهؤلاء يضغطون على العدو. وعندما تقتصر المسافة بين الصفين المتضادين يغير حاملو الحراب أماكنهم مع حاملي السيوف ، وتعتبر هذه من اللحظات الحرجة؛ فإن قرار المعركة كله يتوقف على المهارة في إجراء هذه المناورة «ولكن أية خسائر! وأي عدد من الجرحى! لقد بدأ العدو الفرار. انظر إنهم يولون الأدبار من اليمين ومن اليسار. لقد انتهت المعركة. ولقد كسبنا نصرًا كبيرًا»[1].

وبهذه الكلمات ينهي مكياڤيللي وصفه للمعركة.. وهي في الواقع لا تعتبر تحليلًا للمناورات المستطاعة بقدر ما يمكن أن تعتبر سردًا قصصيًا لما يمكن أن يراه مراقب يشرف تمامًا على مكان المعركة ويستطيع أن يراقب سيرها بوضوح. إنها معركة مصورة في كلمات. ولما كانت هي في الحقيقة معركة مرئية من خارج مسرح الحرب فإن كل مراحلها تبدو كأنها معدة من قبل ، فتسير المراحل تبعًا لخطة موضوعة فقط تنقصها عوامل الغموض والإحراج وما إليها من العوامل التي تقرر نتيجة المعركة ، والتي لا يمكن تقديرها لأنها تجيء مفاجأة وبسرعة وتذهب كذلك مخلفة آثارها فقط. ولكن كانت علة هذا النقص في حديث مكياڤيللي أن فن التحليل للعملية

(١) فن الحرب ص ٣٠٩.

العسكرية كان في بدايته ولم يكن معروفًا للكُتاب من قبل.

وقد نظر مكياڤيللي إلى المعركة كعمل تسيره آلة أُحسِنَ تَزْيِيتَ محركاتها وأجزائها ، وكان هذا التقدير من جانبه أقرب ما يكون إلى سير المعركة الحقيقية ، ففي ذلك العصر لم يكن هناك من مكان لقوة الابتكار ما دامت المعركة قد بدأت ، وما دامت مربعات الجنود المترجلين التحمت ببعضها البعض فإنه من المستحيل تمامًا أن يمكن القيام بأية مناورات ، وكان الجانب الذي يستطيع أن يضع وراء قوته الدافعة الضاغطة قوات أخرى تمكن من استمرار هذا الضغط هو الذي يكسب المعركة؛ ولهذا فقد كان التدريب الذي يتلقاه الجنود قبل المعركة يلعب دورًا حاسمًا في نتيجتها ، هذه النتيجة التي كانت تتوقف على درجة الارتباط والتماسك بين صفوف الجند ، كما تتوقف على الحركة المنتظمة التي ينفذون بها عملية الضغط على العدو ، لقد كان فروندسبرج ـ على سبيل المثال ـ من سادة المدربين ، وترجع شهرته العسكرية إلى دقة ضبط حركات الجنود الذين دربهم..

ومن الأهمية التي يقدرها مكياڤيللي للمعركة يمكن أن نرى أنه كان معنيًّا بمشكلة الضبط والربط؛ بل ويمكن أن نقول بأن هذا «الضبط والربط» كان في تقديره أهم نواحي فن الحرب بعد المعركة ، ولم يغفل في كل فرصة عن ذكر أهمية الضبط والربط الجيد؛ ذلك لأنه أساس وقاعدة الجيش الجيد «إن النظام الجيد يجعل الجنود شجعانًا ، بينما يجعلهم الاضطراب جبناء»[1] ، «إن الضبط والربط أكبر تأثيرًا من الشجاعة ، ويمكن أن يتغلب على القوة وحدها» ، «إن القليل من الرجال هم الشجعان بالطبيعة ، ولكن النظام الجيد والتجربة يجعلان الكثيرين شجعانًا ، إن النظام والضبط والربط

---

(١) فن الحرب ص ٣٩٢.

الجيدين في جيش ليمكن الاعتماد عليهما بدرجة أكبر من الاعتماد على الشجاعة وحدها»[١].

وكانت مشكلة الضبط والربط في الجيش تقدم لمكيافيللي ظاهرتين مختلفتين:

فأولًا: من الضروري أن يدرب الجنود على أسس استخدام أسلحتهم ، وأن يعوَّدوا على العمل معًا في تشكيلات «فهم يجب أن يُعلَّموا المحافظة على صفوفهم ، وأن يطيعوا أوامر القادة وإشارات البوري والطبلة ، وأن يحافظوا على النظام الدقيق سواء أكانوا متوقفين أو متقدمين أو متقهقرين أو مشتبكين بالعدو»[٢].

والأمر الثاني: وهو الظاهرة الأكثر أهمية في الضبط والربط ، والتي كانت مثار مناقشة طوال القرنين التاليين ، كان هو مسألة تقسيم الجيش إلى وحدات تكتيكية صغرى ، فقد كان من الضروري للمحافظة على الضبط والربط أثناء القتال أن تقسم جموع الجنود المترجلين إلى جماعات صغيرة؛ وذلك لتتوافر لهم المرونة والقدرة على المناورة..

وقد أوصى مكياڤيللي في إعداد خط المعركة أن تقف ثلاث مجموعات خلف بعضها البعض. وبذلك يمكن متابعة القتال إذا لم ينجح الاندفاع الأول.. وقد نصح باتباع نظام اللچيون الروماني كمثل يحتذى ، وأن تكون أكبر قوة متجمعة معًا هي «الكتيبة» ، وتتكون كاللچيون من عدد يتروح بين ستة آلاف وثمانية آلاف جندي ، وعلى مثال اللچيون فإن هذه الكتيبة تنقسم إلى عشرة أقسام كل بقيادة ضابطه ، وفي ضوء هذا التنظيم أوصى بأن

---

(١) فن الحرب ص ٣٦٢.

(٢) فن الحرب ص ٢٩٢.

لا يزيد تعداد الجيش كحد أقصى عن خمسين ألف جندي؛ «ذلك لأن القدر الذي يزيد على هذا يوجد اضطرابًا، وليس فقط لا يمكن السيطرة عليه بل إن هذه الزيادة تسبب فوضى حتى بين الجنود الذين يتوافر لهم الضبط والربط الجيد»[١].

ويقدم لنا هذا الحديث مثالًا قيمًا، فقد كان في عقل مكياڤيللي صورة محددة قائمة لما يجب أن يهدف إليه التنظيم العسكري لكل دولة، كان هذا ـ في الواقع ـ هو الموضوع الأساسي في تفكيره العسكري، وإذا كان قد أكثر من الحديث عن ضرورة توجيه عناية خاصة ببعض الحوادث والأحوال، وجعلها وحدها موضع التقدير، إلا أنه كان معنيًّا في الحقيقة بوضع وإيجاد القواعد والأصول السليمة من ناحية عامة.

على أنه يبدو أن النقص في التفاصيل الواقعية مع التجربة اللازمة للأصول العامة من ناحية الوقت والمكان.. قد سببا الشك في أن تكون لآرائه العسكرية قيمة ما من الناحية التنفيذية .. أي من ناحية التطبيق العملي لها، ومثل هذه الشكوك في القيمة العملية لآرائه كان من الضروري أن تزداد تبعًا للصورة التي قدمت بها آراؤه..

لقد جاء «فن الحرب» في صورة حوار بين ثلاثة من أفراد أسرة «أرستقراطية» في فلورنسا وبين القائد المحترف ڤابريزيو كولونا، وجرى هذا الحوار في حديقة قصر أسرة روتشللاي، وهي مكان اشتهر بالاجتماعات والمناقشات الفلسفية التي كانت عادة تدور فيه.

إن هذا التصوير في حدِّ ذاته يعتبر تصويرًا أفلاطونيًّا، ويبدو فيه

(١) فن الحرب ص ٣٤٧.

التقدير لروما القديمة ، هذا التقدير الذي يبدو واضحًا في كل صفحات الكتاب؛ ولكن هذه الحقيقة تسبب اضطراب القارئ ، إذ أنه يجد نفسه حائرًا لا يعرف ما إذا كان المتحدثون من رجال عصر النهضة أم من العالم القديم ، وهل هذه الآراء التي يقدمونها تعبر عن الحاضر.. أم أنها مستقاة من الماضي.

ولهذا نستطيع أن نقول في إيجاز: إن الآراء التي جاءت في كتاب «فن الحرب» إنما هي ذات طابع يجعل المجمل العام للكتاب غير محدود الأهداف ، وما لم تصحب بالشرح والإيضاح لمكانها من التاريخ والفكر العسكري فقد يكون من الصعب فهم ما إذا كان هذا العمل يقدم خطوة مهمة في مرحلة التطور الفكري.. أو أنه يضع أساس بناء ما زال في مرحلة الإنشاء.

***

[٣]

هكذا بات كتاب «فن الحرب» من المراجع العسكرية فطبع في القرن السادس عشر ليس أقل من سبع طبعات. وترجم إلى أغلب اللغات الأوروبية ، واعتبر «مونتاني» أن مكياڤيللي من ثقات الشئون العسكرية يجيء بعد قيصر وبوليبيوس وكومنييس[1] ، وبالرغم من أن تغير الأساليب العسكرية في القرن السابع عشر جاء إلى المقدمة بكُتاب آخرين فإن مكياڤيللي بقى مرجعًا ينقل ما كتبه ويستشهد به ، وفي القرن الثامن عشر استند إليه الماريشال دي ساكس إلى حد كبير وهو يكتب كتابه «دراسات في كتاب فن الحرب» عام ١٧٥٧ ، وقد رأى ألجاروتي ـ دون الاستناد إلى حجة قوية ـ رأى في مكياڤيللي الأستاذ الذي علم فردريك الأكبر فن القتال الذي أدهش أوروبا بأسرها[2]. وككل الذين عنوا بالمسائل العسكرية كان جيفرسون يحتفظ بكتاب فن الحرب في مكتبته[3] ، وعندما سببت حرب عام ١٨١٢ زيادة عناية الأمريكيين بدراسة مشاكل الحرب طُبِعت طبعة أمريكية خاصة من كتاب «فن الحرب»[4] ، ولكن مع هذا ففي القرن التاسع عشر عندما وصلت شهرة مكياڤيللي كمفكر عسكري إلى القمة كان تأثيره

---

(١) رسائل لمونتاني الكتاب الثالث فصل ٣٤: «ملاحظات عن أساليب الحرب عند يوليوس قيصر».

(٢) ف. الجاروتي الرسالة ٨ ، ٩:

Scienza Militare del Segretario Fiorentino.

من مجموعة مؤلفاته المطبوعة بفينيسيا عام ١٧٩١ المجلد الخامس.

(٣) كتالوج مكتبة الكونجرس ١٨١٥ (مكتبة جيفرسون).

(٤) كتاب «فن الحرب» في سبعة أجزاء والمضاف إليه ملاحظات عن الحرب بقلم (سيد من ولاية نيويورك) طبع الباني عام ١٨١٥.

كمؤلف عسكري قد بدأ يزول ، إن الكثيرين لا يزالون يعتبرونه بأنه هو الذي تنبأ بالحرب الحديثة والذي تنبأ بما جاءت به الثورة الفرنسية من مستحدثات عظيمة بإيجاد التجنيد الإجباري ، ولكن الكثيرين أيضًا يثيرون فشله في إدراك أهمية المدفعية وهو يخط توصيته باتباع التعاليم الرومانية ، ويرون أن هذا يدل على نقص في إلمامه الواقعي بالشئون العسكرية.

قد يكون من الصعب أن نقول إنه في هذا الصراع الفكري يكون الخطأ كله أو الصواب كله في جانب واحد ، فمثلًا أوصى مكياڤيللي بالتجنيد العام ، ومهما يكن هذا الرأي مدهشًا في ضوء التطورات الحديثة فإنه يؤكد أكثر مما ينفي الرأي القائل بنقص إدراك مكياڤيللي للواقعية في عصره؛ ذلك لأننا عندما نحلل القوى السياسية في عصره تحليلًا تفصيليًّا عميقًا فإننا نواجه نشوء قوة المال ونمو سلطات الأمراء ، وكان كل هذا يوضح أن المستقبل للجيش المحترف ، وأنه في ضوء تلك الظروف كانت فكرة جمع جيش من الأهالي على النموذج الروماني لا تعدو أن تكون حلمًا جميلًا.

ولكن يمكن من جانب آخر أن نلاحظ أن عدم تقدير مكياڤيللي للمدفعية ناشئ عن فكرة معقولة وثابتة هي أنه بالرغم من المبتدعات الفنية الحديثة تظل العناصر الأساسية للحرب قائمة. ثم إن توصية مكياڤيللي باتباع الطابع الروماني لم تكن غير عملية كما تبدو لنا اليوم ، إذ كان اللچيون الروماني ـ في الواقع ـ هو الأساس الذي قامت عليه إصلاحات القرن السادس عشر. أولًا تلك التي قام بها فرنسوا الأول ملك فرنسا ، ثم من بعده الإصلاحات التي قام بها موريس أمير ناسو ، وقد وضع الأخير ـ على أساس دراسته للفن العسكري الروماني ـ نظام الآلاي كقاعدة ، أي الوحدة

التكتيكية للمشاة ، ولم تلبث أساليبه في تشكيلات المشاة وتدريب جنود المشاة أن قُلِّدت واتبعت في أوروبا ، وبذلك كانت الأساليب الرومانية ذات تأثير مهم مباشر على كل التطورات الحديثة ، وبهذه الصورة يمكن أن تناقش آراء مكياڤيللي العسكرية في جدل لا نهاية له.

والواقع أن من الخطأ أن تقدر قيمة نظريات مكياڤيللي العسكرية من ناحية نفعها المباشر فقط ، إن القاعدة الصحيحة لتقدير قيمتها كان يجب أن تكون في: هل هي تمثل مبدأً جديدًا يمكن به الوصول إلى تفهم أكبر للأحوال القائمة في فن الحرب أم لا؟ أي أن تقدر قيمتها على أساس الثمار التي تجيء من الأصول العامة لا الوقوف فقط بإزاء النفع في موضوع خاص وحده ، وبهذا الأسلوب كان من الممكن تقدير مكان مكياڤيللي في التأريخ للفكر العسكري وتطوره..

لقد نسب إلى مكياڤيللي أنه أول مفكر عسكري حديث ، وبلا شك إنه لم يكن أول من عني بالشئون العسكرية ، فقد سبقه كثيرون كما جاء في عصره كثيرون عنوا أيضًا بهذه الموضوعات ، ولكن مكياڤيللي رفع النقاش العسكري إلى مستوى جديد كما أوجد الأصول التي تقدم على أساسها التفهم العقلي والتحليل النظري للحرب وللمسائل العسكرية ، ونستطيع ـ فقط بمقارنة آرائه العسكرية بآراء الكتاب العسكريين الذين سبقوه أو عاصروه ـ أن نتفهم خواص ومميزات معالجته لهذه المسائل كما ندرك حقيقة وقيمة ما وصل إليه ببحوثه ودراساته.

إن المسائل العسكرية جزء من النشاط الاجتماعي للجنس البشري ما في هذا من شك؛ ولهذا فقط وضعت دراسة هذه المسائل ضمن الفلسفة الاجتماعية لأعلام الدراسات الدينية في القرون الوسطى ، وعلى الأخص

أولئك الذين عنوا بهذه الدراسات في ضوء ما جاءت به المسيحية ، على أنه تبعًا للتقاليد ظلت المشاكل العسكرية جزءًا من النظريات السياسية ، ثم جاء أولئك الذين عنوا بدراسة الطبيعة البشرية فوضعوا تأكيدات خاصة على النواحي العسكرية في الحياة السياسية؛ ذلك لأنهم في تحمسهم لروما وللتاريخ الروماني رأوا أن الأعمال العسكرية والتاريخ العسكري كانا أهم مستلزمات العظمة التاريخية والعظمة السياسية للدولة ، ثم كان أن سببت نهضة العلوم الطبيعية والفنية ميلاد أدب جديد له طابعه الدراسي الفني. وهكذا نوقشت النواحي الفنية في العلم العسكري. كهندسة البناء وتعاليم استخدام الأسلحة. نوقشت نقاشًا فنيًّا في عدد كبير من البحوث والدراسات.

ومما لا شك فيه أن هذه الاتجاهات الثلاثة كلها قد أثرت في تكوين آراء مكياڤيللي العسكرية ، وكان تقدير أهمية ما كتب فيجتيوس كمرجع.. واعتبار الرجل نفسه من الثقات الذين يعتد بآرائهم من عمل القرون الوسطى. وكان أحسن كتابين في الفن العسكري في هذه القرون الوسطى هما اللذان كتبهما أچيديو كولونا[١] وكريستين دي بيزان[٢] ، وإن كان كل منهما من الناحية الأساسية ليس أكثر من إعادة ما كتبه فيجتيوس فقط مع جعله يتمشى وصور الحياة في العصر الإقطاعي الذي عاش فيه الكاتب والكاتبة؛ ولهذا لكي يعمل مكياڤيللي نفسه لتتمشى كتابات فيجتيوس مع العصر الذي يعيش فيه هو كان لزامًا عليه أن يسير هو نفسه في خطى كولونا

---

(١) القسم الثالث من المجلد الثالث لأجيديو كولونا من كتابه De regimine Principum وهو دراسة تعنى بالتعاليم العسكرية والحرب وعنوانه:

“ Quiomodo regenda sit Civitas aur regnum tempore belli “.

(٢) راجع الهامش رقم ١١.

وكريستين. ويمكن أن نجد صورة واضحة لهذا في عنايته بالوصف التفصيلي لاستخدام الأسلحة ثم فوق هذا في القسم الخاص بفن التحصينات[١] والذي يوضح دراية مكياڤيللي بمشكلات الهندسة العسكرية.

على أن تأثر أولئك الذين عنوا بدراسة الطبيعة البشرية كان أكثر وضوحًا في مؤلفات مكياڤيللي. وقد كتب بلاتينا سنة ١٤٦٨ يقول[٢]: «ولم يضعف قوة إيطاليا ونفوذها بدرجة أكبر مما أضعفها أن استخدام الأسلحة قد بات أمرًا غير عادي بين الناس».

وقد انتقد السياسيون الفلرونتيون الذين سبقوا مكياڤيللي أمثال ماتيو بالميري (١٤٠٦- ١٤٧٥) الجندي المأجور، ودافعوا عن نظرية تسليح المواطنين[٣].

وأوصى أولئك الذين عنوا بدراسة الطبيعة البشرية أمثال باتريكيوس (١٤١٢- ١٤٩٤) بالتدريب العسكري الإجباري لكل الرجال صغار السن[٤]، وهاجموا الليونة أو الميوعة التي انتشرت في عصرهم بين الشباب، وأسفوا لنقص البطولة العسكرية، واعتبروا الروح التجارية التي سادت

(١) الكتاب السابع من كتاب «فن الحرب» لمكياڤيللي.

(٢) Platina, De Vero Principe, book ٣ ch ٦ (Quoted in j. Gaida's Introduction to Piatina's Hostprici liber de Vita Christi ac ominium pontificum, in Muratori, Rerum italicarum scriptores (١٩١٣) Part I p. XIV.

(٣) متيو بالميري «حرية الحياة المدنية» المطبوع عام ١٥٢٩ ص ١١١ و ٧٦.

(٤) Franciscus Petricius, De Inserutione rei publical المكتوب قرابة عام ١٤٧٠ والمطبوع عام ١٥٩٤ ص ٤٠٦.

الناس كلهم سبب الاضطراب السياسي في عصرهم.

وفي ختام القرن الرابع عشر كان سالوتاتي (١٣٣٠ - ١٤٠٦) قد لاحظ أن سياسة فلورنسا «لا توجهها الأطماع التي هي من خصال النبلاء؛ بل توجهها المصالح التجارية ، ولما كان التاجر والصانع لا يكرهان شيئًا أكثر مما يكرهان الحرب ويعتبرانها عدوهما اللدود فإن التجار والصناع الذين يحكموننا يحبون السلم ويكرهون الخسائر التي تسببها الحرب»[١].

وتبعًا لهذه الصلات الواضحة بين آراء مكياڤيللي وآراء الكتاب الذين سبقوه في المسائل العسكرية فإنه من الأهمية بمكان أن نبرز عدم استناده إليهم في الآراء التي هي أقوم ما في نظريته العسكرية ، *والواقع* أننا لا نجد في الكتابات العسكرية التي سبقت مكياڤيللي شيئًا يماثل توصياته عن المشاة ، وتقديره للأهمية الحاسمة للمعركة. ثم حديثه العام عن الحرب؛ بل على النقيض؛ وقف مكياڤيللي معارضًا لتقاليد الفن العسكري في هذه النقاط كلها ، وقبل مكياڤيللي لم يكن الدور البارز للخيَّالة موضع الشك قط.. فمثلًا يقول كورناتسانو في كتابه De Re Militaria المطبوع عام ١٥٠٧ : «أن العصر الحديث يحب راكبي الخيل؛ إنهم أقرب إلى اليد عند الحاجة إليهم في حالة الحرب»[٢]. ولقد نصح القادة بتجنب المعارك؛ ذلك لأن نتيجة المعركة ليست دائمًا محققة ، وكتب بتريسيوس[٣]: «بالرغم من أن الذكاء والشجاعة والدراية بالعلم العسكري قد تعاوِن القائد إلا أن آلهة الحظ هي التي تبقى

(١) Caluccio Salutati, Invertina in Antonum Luscum de Florentina republica male sentientem (١٤٠٠) ed D. Moreni Firenze ١٨٢٦ pp. ١٨١.

(٢) كورناتسانو ـ De Re Militaria ـ بسكارو ١٥٠٧ الكتاب الثاني الفصل الأول.

(٣) بتريسيوس ص ٣٧٤ ـ انظر أيضًا ديوميد كارافا ـ Memoriale المكتوب عام ١٤٧٩ والمطبوع في كتاب ل. بييري «قصة ولاية نابوليتانا» ٥٨ (١٩٣٣) ـ ص ٢٠٨.

دائمًا العامل الحاسم».

وبالإضافة إلى هذا فإن الحرب كان ينظر إليها كآلة ذات أغراض معنوية. وبقيت الوسائل والأصول ثابتة للمستويات المعنوية ومحددة بقواعدها(١).

ومع هذا فإن أهم الحقائق البارزة: هي أن مكياڤيللي قد حول هذه النقاط عن التقاليد المعروفة ، وقدم وجهات نظر ذات طابع واقعي بدرجة أكبر ، إلا أن كل وجهات نظره تربط معًا وتكون في جملتها الأجزاء الضرورية لأسلوب واحد من أساليب التفكير المكملة لبعضها البعض ، وجاءت كلها مستندة إلى قاعدة واحدة هي رأي مكياڤيللي في الحرب ، مستمدة كل تفاصيلها من هذا الرأي. كانت الحياة السياسية في نظره صراعًا للبقاء بين خلايا تنمو وتمتد ، وكانت الحرب طبيعية وضرورية لتقرير ما هي الدولة التي يجب أن تعيش والتي يمكن أن تتخير ما بين الإفناء والاتساع؛ لهذا كانت الحرب يجب أن تنتهي إلى قرار. وكانت المعركة هي أحسن وسيلة للوصول إلى قرار سريع تبعًا لأنها تضع الدولة المهزومة تحت رحمة الدولة المنتصرة ، وبسبب هذه الأهمية المركزية التي للمعركة فإن توجيهها لا يمكن أن يُترَك للفرصة؛ بل يجب التأهب له. وإعداد التدابير الكافية اللازمة إلى الحد الذي يجعل النصر مؤكدًا إلى غاية ما يمكن.

لهذا كان الإعداد الدقيق للمعركة هو الوسيلة الوحيدة للحكم على كفاية وصلاحية تكوين جيش ما. وقد تطلب هذا إعادة اختبار الوسائل

(١) يمكن أن تجد اتجاهات لوجهة نظر مكياڤيللي الحديثة في الحرب في التباين الذي أوضحه بعض الذين عنوا بدراسة الطبيعة البشرية في المقارنة بين «الحروب للحياة والبقاء» و«الحروب للشرف والشهرة» م. بالميري ص ٧٢.

التقليدية للتنظيم العسكري ، وبالإضافة إلى هذا كان من الواجب أن تتشكل التعاليم العسكرية في روحها وفي صورتها المادية تبعًا للاحتياجات العسكرية.

إن الاتهام الذي وجهه أولئك الذين يعنون بدراسة طبيعة البشر إلى معاصريهم عندما ألصقوا بهم تهمة النقص في البطولة العسكرية قد جاء دون مناقشة للمعقبات والنتائج المترتبة عليه. وكان في الواقع توجيهًا معنويًّا ارتبط ارتباطًا غير صحيح بفكرة تخالف الموضوع الأصلي تمامًا؛ ولكن إذا نظرنا إلى نظريات مكياڤيللي وآرائه السياسة فإنا نجدها يقوي بعضها بعضًا ، وترتبط معًا في سلسلة واحدة منظمة ، ثم هي في جزئيَّاتها وجملتها أساس فلسفته العامة في السياسة والحرب.

ولهذا فإن أصالة وقوة دراسات مكياڤيللي إنما تكمن في أعطاف سعة القواعد والأصول التي وضعها ، لقد جمع كل المشكلات العسكرية معًا في دائرة واحدة ، وتحقق من أن هناك الارتباط الداخلي بين التفاصيل الفنية العسكرية والعرض العام للحرب ، وبين التعاليم العسكرية والتنظيم السياسي.. وفي تصويره لوجهة نظره الحديثة فإن الموقف التاريخي الذي ولد فيه مكياڤيللي لعب دورًا حاسمًا وما كان من الممكن أن تتوافر هذه النظرة الدقيقة لمكياڤيللي لو لم تتوافر وجهات النظر الجديدة التي أوجدتها الحوادث السياسية في عصره ، ولو لم تتوافر أيضًا النتائج الثقافية التي فتح عصرُ النهضة أبوابَها..

على أن المستحدثات العسكرية لذلك العصر ـ وهي ظهور أسلحة جديدة ونشوء وحدات المشاة ـ كان من الضروري في ضوء الظروف القائمة أن تثير شتى التصورات والتعليقات؛ ولكن لا شك في أن الفكر العسكري

في عصر تتوافر فيه المساواة الاجتماعية كما يتوافر فيه تقبل القيم السياسية دون جدل لابد وأن يقتصر على تشكيل المقترحات الفنية في إطارها العام وينصرف فقط إلى مناقشة تفاصيلها دون أي شيء آخر. لقد جاءت أزمة التعاليم والقيم السياسية ـ الأزمة التي دلَّت على نهاية العصور الوسطى ـ جاءت بالفرصة التي تمكن من إعادة بحث كل الافتراضات في هذه التعاليم والقيم؛ ولكن لما كان عالم السياسة بأسره في فورة فقد بدا من الممكن تشكيله تبعًا للمبادئ الجديدة؛ ولا يعني هذا أن مثل هذه المعالجة الدقيقة المتعمقة إلى أصول الموضوع توجد عادة بين كل مفكري ذلك العصر؛ بل كانت هناك حاجة ملحة إلى رجل مثل مكياڤيللي لينتفع من كل القوى والإمكانيات التي جاءت بها أزمة ذلك العصر ، وفي ذات الوقت كانت الأزمة التي جاءت في عصر مكياڤيللي لازمة ضرورية لتجعل الإدراك الذي توافر له ـ هذا الإدراك الثوري للمشكلات السياسية ـ مستطاعًا ومثمرًا.

وكانت روح النهضة تتمشى تمامًا وتوافق مثل هذا الاختبار للظاهرة السياسية من وجهة النظر للمبادئ والأصول الحديثة ، فإن المبادئ التي تقبلها كل مفكري عصر النهضة وجعلوها دعامة كل ما وصلوا إليه في الفلسفة والعلم كانت هي الإيمان بقيام قانون يحكم ظواهر الحياة الاجتماعية والنشاط البشري ، كانت هناك القوانين التي يمكن أن تكتشف وأن توضح نتيجة لدراسة الأسباب والدوافع ، هذه القوانين التي يمكن أيضًا بوساطتها السيطرة على الحوادث؛ ولهذا كانت فكرة مكياڤيللي في «أن القوانين تسيطر كذلك على الحوادث العسكرية وتوجهها في مسارها» قاعدة أساسية في تفكيره ودراساته للمسائل العسكرية؛ ولهذا فإنه قد وجه كل عنايته للبحث عن هذه القوانين ، ومن ثم شارك في رأي مفكري عصر النهضة الذين قالوا

بأن الإنسان يستطيع بسلاح «العقل» أن يغزو وأن يدمر فكرة «الصدفة والحظ في الحياة».

ولم تكن هذه العقيدة سطحية لحمتها التفاؤل؛ فإن رجال عصر النهضة ـ في الواقع ـ لم ينظروا إلى الحظ نظرة عاجلة ولم يقللوا من قيمته؛ بل اعتبروا الحياة صراعًا عنيفًا له خطره ، يقوم بين منطق الإنسان وعقله وبين آلهة الحظ ، ولكنهم في ذات الوقت لم يشكوا قط في أن عقل الإنسان هو الذي ينتصر في النهاية.

وعندما جعل مكياڤيللي المعركة مركز نظرياته العسكرية فإنه استطاع أن يفعل هذا بسبب أن الشك في النتائج الأمر الذي أخاف الكتاب قبله لم يخفه هو ، ثم إنه بتشكيله تنظيمًا عسكريًّا يتفق مع القوانين التي يمليها العقل كان من الممكن أن يقلل من نفوذ الصدفة وأن يجعل النجاح شيئًا مؤكدًا.

وهذا الاعتقاد بتغلب العقل كان هو الدافع الحقيقي لإعجاب مكياڤيللي بالتعاليم العسكرية الرومانية ، ولم تكن الرغبة في تمجيد القديم ولا الاتجاه الشخصي هما اللذان قاداه لأن يفضل هذا المثال التاريخي الخاص على كل ماعداه ، فإن مناعة الجيش الروماني وامتداد الدولة الرومانية واتساعها كانتا دليلًا على أن الرومان اصطنعوا أحسن التنظيمات التي يمكن أن تتفق ومنطق الواقع ، وكانت تعاليمهم العسكرية هي إدراك للطابع الدائم الذي يضع تصميم التعاليم والنظم العسكرية لكل دولة.

وتبعًا لجعل هزيمة العدو وتدمير قواته الهدف الأساسي للحرب ، صار الفكر العسكري ميدانًا مستقلًّا له مبادئه الموجهة وله منطقه وأساليبه الخاصة ، وبذلك بات من الممكن مناقشة المشاكل العسكرية على أسس فنية

، ولكي يكون الأمر أكثر إيجازًا كان من الممكن تقدير كل الأقيسة العسكرية بالنسبة لغرض واحد أو لهدف واحد أساسي ، وكان هذا في رأي مكياڤيللي هو الحل للمشكل الدراسي الذي يتوقف عليه النجاح في الحرب ، وبالرغم من أن الاصطلاح «استراتيچية» لم يكن معروفًا إذ ذاك؛ فقد كان هذا بداية التفكير الاستراتيچي.

وقد تقدم التفكير العسكري منذ ذلك الوقت مستندًا إلى الأسس التي وضعها مكياڤيللي؛ ولكن ليس معنى هذا أن كل توصيات مكياڤيللي قبلت واعتبرت حقائق لا شك فيها ، وإن كانت المناقشات التي دارت لم تتحول لتكون اعتراضًا على وجهات نظره؛ بل كانت اتساعًا وامتدادًا لآرائه ، وعلى سبيل المثال: مهما كانت أهمية رأي مكياڤيللي في كون المعركة ذات قرار حاسم ، فقد بات من الواضح أن هناك حاجة ملحة إلى تحليل أوسع مدى لنتائج المعركة ، ولم تكن النظرية العسكرية لتقف عند حد إيجاد القواعد والأسس لتشكيل النظام الصحيح للمعركة؛ بل كان عليها أيضًا أن تبحث بدقة سير الحوادث طوال العمل العدائي.

ومن جانب آخر؛ فإنه إذا كانت المعركة هي مقياس الحرب فمن الواضح أن الحملة الحربية كلها يجب أن يوضع تخطيطها وأن تحلل عملياتها بالنسبة للمعركة الحاسمة ، وتوضِّح مثل هذه الاعتبارات أن الدور الذي تلعبه الترتيبات النظرية والتوجيه التخطيطي للعمل العسكري في الحرب الحديثة كان أكبر مما قدره مكياڤيللي؛ كان هو قد قرر أهمية الدور الذي يقوم به القائد؛ ولكنه كان قرارًا جاء نتيجة لدراسة غير معني بها؛ لأنه لم يذكر أكثر من أَنَّ القائد يجب أن يلمَّ بعلمي الجغرافيا والتاريخ؛ ولكن في عصر لاحق كانت مسألة التخطيط في القيادة العسكرية ، أو بمعنى آخر دور

القائد في وضع تخطيطه للمعركة ، كما كان التدريب العسكري للقائد أيضًا يعتبران معًا المشكلة المركزية في التفكير العسكري؛ ومع العمل لتطور دراسة وتفهم هذه المشكلات تقدم الفكر العسكري إلى أبعد مما كان عليه أيام مكياڤيللي؛ ولكن مع هذا فإن هذه النتائج الحديثة كانت خاتمة منطقية للبحوث التي بدأها هو.

على أنه توجد ناحية واحدة في الفكر العسكري الحديث يمكن القول بأنها ليس فقط لا ترتبط بفكرة مكياڤيللي؛ بل إنها تضادها تمامًا؛ كان مكياڤيللي معنيًّا أساسًا بفكرة عامة صالحة للتنظيم العسكري لكل الدول في كل الأوقات؛ ولكن الفكر العسكري الحديث يؤكد بأن العمليات الحربية يجب أن تتباين عندما تجيء في ظروف تاريخية مختلفة ، ولا تكون التعاليم العسكرية متفقة ومرضية إلا عندما تتفق مع الأحوال الخاصة للدولة؛ وبالإضافة إلى هذا فإن إصرار مكياڤيللي على أن تسير التعاليم العسكرية وإدارة الحرب تبعًا لقواعد عامة منطقية زادت من قيمة اعتبار العامل العقلي في المسائل العسكرية.

وبالرغم من أن مكياڤيللي بدأ كناقد لحروب القرن الخامس عشر التي هي أشبه بمداورات لوحة الشطرنج فإن قادة القرن الثامن عشر رجعوا ـ إلى حد ما ـ لحروب المناورة ، وهذا التطور ليس مضادًّا لاتجاه التفكير في العلم العسكري ، هذا الاتجاه الذي بدأه مكياڤيللي؛ وعندما ننظر إلى الحرب كما تصورها قوانين العقل فمن المنطق أن لا يترك أي شيء للفرصة ، وأن نتوقع قيام العدو بالتسليم عندما يؤتي به إلى موقع يكون عنده قد فقد المباراة التي يشترك فيها.

إن نتيجة اعتبار الحرب علمًا ، أو على الأقل زيادة تقدير العناصر

المنطقية في المسائل العسكرية قد أدت بسهولة إلى وجهة النظر التي تقول بأن الحرب يمكن أن تقرر نتائجها على الورق ، كما تقرر هذه النتائج في ميدان المعركة سواء بسواء..

لقد أمكن منذ ذلك الوقت إدراك أن الحرب ليست علمًا فقط.. بل إنها فن أيضًا ، ومع نهاية القرن الثامن عشر بدأ إدراك فجائي لأهمية العوامل الأخرى غير المنطقية ، ولم تعتبر العوامل العامة على أنها ذات أهمية.. بل كانت العوامل الفردية المميزة هي التي اعتبرت كبيرة الأهمية ، وبدا جليًّا أن العوامل التي لم تقدر ولم يحسب حسابها لا تقل تأثيرًا عن العوامل المنطقية التي حسب حسابها.

إن إدخال هذه الاتجاهات الثقافية الجديدة لإدراك أهمية الابتكار والفردية إلى جانب العوامل الفنية في النظرية العسكرية قد اقترنت باسم كلاوزيڤيتز ، ومن الملاحظ أن كلاوزيڤيتز ـ الذي كان عنيفًا في نقده لغيره من الكتاب العسكريين ـ لم يكن كبير العناية ببحث ودراسة مقترحات مكياڤيللي وحسب؛ بل إنه ليقدر أن مكياڤيللي كان صادق التقدير والحكم في المسائل العسكرية[1].

وهذه دلالة على أنه برغم الظواهر الجديدة التي جاء بها كلاوزيڤيتز إلى النظرية العسكرية خارج نطاق تفكير مكياڤيللي فإنه اتفق مع مكياڤيللي في نقطه الأساسية التي تقول بأن دقة التحليل الخاص بالمشاكل العسكرية إنما تتوقف على النظرة الصحيحة لطبيعة الحرب.

وهكذا فإن كلاوزيڤيتز هذا المفكر الثوري الكبير بين المفكرين

(١) فون كلاوزيڤيتز ـ الاستراتيجية ـ تقديم كليسيل طبع همبرج ١٩٣٧ ـ ص ٤١ .

العسكريين للقرن التاسع عشر لم يقذف بعيدًا بالنظريات الأساسية لمكياڤيللي. ولم يقلل من قيمتها؛ بل انتفع بها واستخدمها في إبراز نظرياته وآرائه هو نفسه!!

* * *

مراجع الفصل الأول

مكيافيللي: نهضة فن الحرب

G. Mazzoni and M. Cassella:

Tutte le opera storiche e letterarie di Niccoló Machiavelli (Florence ١٩٢٩).

M. Lermer, Principe and Discorsi. Modern Library (New york ١٩٤٠).

W.k. Marriot, Machiavelli's Istorie Fiorentine.Everyman's Library, (London ١٩٠٩).

A.H. Gilbert, the prince and Other Works.(Chicago ١٩٤١).

Peter Whithorn, Machiavelli's Arte della Guerra, ١٥٦٠.

Hans Delbruck, Geschichte der Kriegskunst im Rahmen der politischen Geschichte. (Berlin, ١٩٠٠- ١٩٠٦).

Sir Charles Oman, A History of the Art of War in the Middle Ages, ٢ Vols. (London, ١٩٢٤).

Sir Charles Oman, AHistory of the Art of War in the ١٦th Century. (New York, ١٩٣٧).

M. Jähns, Geschichte der kriegswissencshaften vol. I. (Berlin, ١٨٨٩).

W. Sombart, Krieg and Kapitalismus. (Munich and Leipzig, ١٩١٣).

J. Huizinga, The Waning of the Middle Ages. London, ١٩٢٧.

W. Bock, Die Condottieri Studien uber die sogenannten unblutigen Schlachten. (Berlin, ١٩١٣).

F. L. Taylor, The Art of War in Italy, ١٤٨٤ – ١٥٢٩. (Cambridge, ١٩٢١).

P. pieri, La crisi militare Italiana nel Rinascimento.(Naples, ١٩٣٤).

P. Villari, Life and Times of Niccoló Machiavelli. (London, ١٨٩٨).

O. Tommasini, La Vita e gli scritti di Niccoló Machiavelli, ٢ Vols. (Rome ١٨٨٧ and ١٩١١).

W. Hobohum, Machiavelli's Renaissance der Kriegskunst, ٢ Vols. (Berlin, ١٩١٣).



ڤوبان (١٦٣٣ - ١٧٠٧)

الفصل الثاني

فوبان: تأثير العلم في الحرب

بقلم هنري جورلاك

بقيت في أوروبا مرحلة مستمرة من الحروب متصلة تقريبًا منذ أيام مكياڤيللي حتى نهاية حرب الوراثة الأسبانية. وثبت أن الغزو الفرنسي لإيطاليا ، هذا الغزو الذي أيقظ مكياڤيللي فجأة ليوجهه إلى هذه الدراسات التي قام بها ، لم يكن أكثر من مقدمة لقرنين من الزمان مرًّا في تنافس دولي عنيف بين الڤالوا والبوربون(*) في جانب وآل هبسبورج في الجانب الآخر ، ولجزء كبير من تلك المرحلة جاءت عدة حروب أهلية لتقطع مسير الحروب التي تثيرها الأسر الحاكمة؛ ولكنها لم تكن لتوقفها بل كانت تشترك معها في إيجاد معارك غير محددة العنف والخسائر.

وفي قرابة نهاية القرن السابع عشر عندما قلت الحروب الأهلية واستقرت دعائم الدول الكبرى الرئيسية في أوروبا عاد من جديد هذا الصراع القديم كجزء من محاولة لويس الرابع عشر للسيطرة على أوروبا ،

(*) الڤالوا: أسرة فرنسية حاكمة من آل كابيه Capet تولى أفرادها عرش فرنسا من عام ١٣٢٨م وأول ملوكها فيليب السادس ، وانتهى الڤالوا الأصليون بشارل الثامن. أما ڤالوا أو رليانز فيمثلهم لويس الثاني عشر... ، ويبدأ ڤالوا أنجولين بفرنسوا الأول وينتهون بهنري الثالث.
وتبدأ أسرة بوربون أورليانز بفيليب بن لويس الثالث عشر... وتولى بعده أخوه لويس الرابع عشر... وانتهى حكم بوربون أورليانز بالملك لويس فيليب الذي أنزل عن العرش عام ١٨٤٨ ميلادية «المترجم».
معجم لاروس ١٩٤٦ص ١٢٤٠و ١٧٨٨.

ولكن مع بعض أوجه الخلاف ، فإن الدول التجارية الجديدة الناهضة كهولندا وانجلترا اللتين كانتا قد عاونتا فرنسا في وضع حد للسيادة الأسبانية كانتا إذ ذاك تقفان موقف العداء من فرنسا.

وكان صلح أوترخت(*) الذي وقِّع عام ١٧١٣ سلمًا انجليزيًّا؛ فقد مهد السبيل لسيطرة انجلترا على البحار؛ ولكنه في ذات الوقت لم يضعف فرنسا إلى الحد الذي رغَّب فيه خصومها في القارة ، وأبقى كل غزوات فرنسا المهمة متماسكة ولم يغير شيئا من معاهدة وستفاليا(**) التي كانت ميثاق سلامة فرنسا وأمنها ، والأكثر من هذا كله فإنه ترك الجيش الفرنسي ـ أول جيش أهلي في أوروبا ـ ضعيفًا ، إلا أنه صلب العود ، ثم إنه لم يضعف إطلاقًا من مكانة فرنسا كأقوى دولة عسكرية في أوروبا إذ ذاك.

وكان التقدم العسكري في المائتي سنة الأخيرة قد وضح بدرجة كبيرة

(*) صلح أوترخت هو الصلح الذي انتهت به حرب الوراثة الأسبانية وأوترخت المدينة تقع على نهر الرين على مسافة ٣٨ ميلًا للشرق من لهاي وسكانها ٩٢٣٠٠.. ، أما أوترخت الولاية فتقع في الأراضي الواطئة وتربتها رملية في الشرق وأكثر خصوبة في الغرب وتنتج مستحضرات الألبان واللحوم والخضروات والفاكهة ، ومساحة الولاية ٥٣٥ ميلًا مربعًا ، وتعداد سكانها ٤٠٠, ٥٧٣ ، وكانت أوترخت مركز بطريركية الكاثوليك وقد بنوا بها كتدرائية عظيمة دمرتها العواصف عام ١٦٧٤ ، وأهم الصناعات: المنسوجات والأقمشة الصوفية والسجاد والفخار وآلات الأرغن الموسيقية والمنتجات الكيماوية والآلات الهندسية (المترجم)

Everyman Encyclopedia vol ٢ p. ٥١٩.

(**) وقعت معاهدة وستفاليا في ٢١ أكتوبر ١٦٤٨ ، وقد انتهت بها حرب الثلاثين سنة. وأكدت بنودها ما سبق أن استولت عليه فرنسا في متز وتول وفردون ، كما أكدت سيادة فرنسا على الألزاس ، وقد اعترفوا في هذه المعاهدة باستقلال سويسرا والأراضي الواطية الهولندية ، كما نص فيها على الحرية الدينية للبروتستانت في ألمانيا وفرنسا ، وتعتبر المعاهدة فشلًا للنمسا وأسبانيا في محاولتها إعادة الكثلكة إلى وسط أوربا (المترجم)

E. Encyclo vol. ١٢ p. ٦٩١.

في ذلك الجيش ، وكان هذا التقدم كبيرًا[1] ، فمن الناحية الأولى كانت الجيوش قد ازدادت من ناحية العدد ، ***والواقع*** أننا بسبب تأثرنا بأول ظهور محتشدات الجيوش إبان حروب الثورة الفرنسية نميل لأن نتناسى الزيادة المستمرة في حجم الجيوش الأوروبية الذي حدث طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر عندما وصل ريشيليو مثلًا بقوات فرنسا العسكرية إلى مائة ألف جندي عام ١٦٣٥ ، وبذلك كانت هذه القوات ضعف ما كان لدى آخر ملوك الفالوا. إلا أن هذه القوات الكبيرة التي أعدها ريشيليو كانت ربع القوة التي أعدها لوڤوا[*] للويس الرابع عشر.

وكانت الزيادة العددية في القوات العسكرية ترجع أساسًا إلى زيادة أهمية المشاة ، كان عدد المشاة قد وصل إلى ضعف عدد الخيالة في الجيش الذي غزا به شارل الثامن إيطاليا ، ولكنه وصل إلى خمسة أضعاف عدد

---

(١) في هذا الفصل وفي الفصل الذي يليه اعتمدت على كتابات بوتاريك وكاميل ووسيني وسوزان ، وقد أثبت كتاب لويس أندريه بعنوان «Michel le Tellier» أنه أهم كتاب عني بدراسة إصلاح الجيش في القرن السابع عشر.

(*) لوڤوا... مركيز ابن ميشيل لوتيليه وكيل وزارة الحربية ، مهندس معماري ومنظم إداري من طراز ممتاز.. ، أعاد تنظيم جيش لويس الرابع عشر ، كان له فضل إصلاح نظام تعبئة القوات ، ووضع وسائل جديدة لنقل الجنود وإعداد أماكن الإقامة للقوات عقب انتقالها من مرحلة إلى أخرى.. كما أعد مراكز تخزين الذخيرة ، ونظم أوامر وتعليمات القيادة ، وأدخل لوڤوا استخدام السونكي بواسطة جنود المشاة ، كما كان هو الذي أعد مدارس الطلبة المهندسين للجيش...

وكان تأثير لوڤوا كبيرًا في توجيه السياسة الخارجية لفرنسا إلا أنه في السياسة الداخلية كان سيء التصرف؛ إذ أنه هو الذي عمل لاضطهاد البروتستانت الموجودين في جنوب فرنسا بين عام ١٦٨١ وعام ١٦٨٥ بمعاونة الوزيرين: فوكو ولاموانيو.

وقد ولد لوڤوا عام ١٦٣٩ في باريس ، ومات بها عام ١٦٩١ (المترجم)... «معجم لاروس لعام ١٩٤٦ ص ١٥٠٧».

الخيالة في نهاية القرن السابع عشر ، على أن الإيضاح العادي لهذه الأهمية الجديدة لجنود المشاة هي أنها ناتجة عن التحسن في الأسلحة النارية ، ومن الحقائق التي لا جدال فيها أن اختراع البندقية والتطورات التي توالت على هذا الاختراع ثم اختراع السونكي قد أدى هذا كله إلى الزيادة في قوة نيران المشاة ، وبذلك كانت الزيادة في عدد الجنود المرتجلين.

ولكن هذا في الواقع ليس إلا جزءًا من القصة. فإن الزيادة المستمرة لأهمية حرب الحصار كان لها تأثيرها أيضًا هنا؛ ذلك لأن المشاة لها من الخواص ما يعتبر مستحيلًا بالنسبة للخيالة ، سواء في القيام بالحصار أو في الدفاع عن الأماكن المحاصرة.

وكانت الجيوش الأوروبية في القرن السابع عشر عبارة عن جماعات من المحترفين ، أغلب أفرادها من الأجانب الذين يجندون بالتطوع؛ وكان من النادر الاستعانة بجماعات المجندين من أفراد الشعب الذين يقفون في الاحتياطي الثاني لقوات الجيش؛ على أن هذه الجماعات الإقطاعية كانت في الغالب موضع السخرية أكثر من أن تكون موضع الاستخدام؛ وفيما عدا تجربة إحياء الميليشيا في عصر متأخر في حكم لويس الرابع عشر فإنه لم يوجد في فرنسا شيء يمكن أن يشبه أو يماثل الخدمة العامة الجامعة.

على أنه من جهة أخرى فإن هذا الجيش الأهلي يصعب أن يكون ممثلًا للأمة كلها ، فقد بقي للسادة وحدهم العمل في الفِرق الممتازة من الخيالة ، وكان لهم أن يقدموا الضباط لوحدات المشاة؛ بينما يختار جنود المشاة العاديين من أفقر الطبقات في المجتمع ، فإن الفلاحين الأثرياء وأعضاء الطبقات البرجوازية قد تخلصوا من الخدمة العسكرية التي تقوم على التجنيد ، كما تخلصوا من الخدمة في فرق الميليشيا التي كانوا معفون من

الخدمة بها؛ ولكن مع هذا لا يمكن القول بأن طبقة كاملة من المجتمع امتنعت عن المساهمة في قوات الدولة المسلحة؛ ذلك لأن أفراد الطبقة البرجوازية في الواقع أسهموا بدور كبير في قوة فرنسا العسكرية وإن كانوا لم يخدموا ، لا في الخيالة ولا في المشاة؛ ولكن مساهمتهم جاءت في ناحيتين اثنتين:

أولاهما: في الخدمات الفنية أي في المدفعية والمهندسين وفي التطبيق العملي لصناعة الحرب.

وثانيتهما: في الإدارة المدنية للجيش ، هذه الإدارة التي تطورت بدرجة كبيرة إبان القرن السابع عشر ، والتي صحبتها أيضًا عدة إصلاحات تقدمية كبيرة.. ، وربما كانت هذه التطورات الفنية والإصلاحات التنظيمية من أهم مراحل التقدم ، وفي كلتا الناحيتين كان الجيش الفرنسي يتولى قيادة الطريق..



[٢]

ولا يحمل الجيش الذي تركه لويس الرابع عشر لخلفائه من بعده إلا أقل الشبه للجيش الذي كان لدى ملوك القالوا؛ فإن صور التطور في التنظيم والإعداد والضبط والربط إنما ترجع كلها إلى التطور في الإدارة المدنية وعلى أيدي نفر من المفكرين الكبار أمثال ريشيليو ولوتيليه ولوڤوا وڤوبان ، هذه المجموعة التي جاءت متتالية فغطت حياتهم حقبات القرن السابع عشر الميلادي..

وحتى القرن السابع عشر كانت كل مسائل الجيش يتولَّاها العسكريون وحدهم.. وكانت هناك سيطرة مركزية قليلة الأثر؛ فسرايا المشاة المختلفة ـ والتي كانت في البداية مستقلًّا بعضها عن بعض ـ تحت قيادة قادتها المباشرين قد نُسقت إلى حدٍّ ما بجمعها في آليات ، كل بقيادة قائد يخضع لأوامر ضابط كبير هو «الكولونيل چنرال للمشاة» ، وهو المركز الذي يماثل مدير المشاة في التنظيمات الحديثة؛ ولكن مكانة واستقلال هذا الضابط الكبير كانتا لتضعفا لا لتزيدا من قوة وسيطرة صاحب التاج على آلايات المشاة الجديدة ، وكانت الخيالة أيضًا في القرن السادس عشر قد أُخضعت في ذات الصورة إلى حد ما للأوامر الملكية. أو بمعنى آخر كانت تابعة لسلطان التاج في صورة باهتة. إلا أن سرايا الخيالة تبعًا لتقاليدها قاومت الاتحاد والاندماج معًا في آلايات حتى القرن السابع عشر الميلادي.

كانت الفرق الممتازة من الخيالة حاملي الحراب التي تمثل وحدات الخيالة القديمة يسيطر عليها قادتها وحدهم الذين يخضعون لأمر ضابط كبير يمثل صاحب التاج ، وكان هذا بدوره في الواقع مستقلًّا ، ولكن بعد

حكم الملك هنري الثاني وضعت فرق الخيالة الخفيفة تحت إمرة «كولونيل چنرال » أسوة بالمشاة.

وبقيت المدفعية وحدها شاذة عن هذا فقد كان سلطان «البرجوازيين» هنا قويًّا ، ثم إن الأمر كان يرجع إلى تقاليد قديمة؛ ولهذا فإن الإدارة الحقيقية كانت في يد قوميسير عام المدفعية ـ وهو رجل كان يختار عادة من الطبقة الوسطى ـ ولكن حتى هنا كانت الرياسة الفعلية لقائد عام المدفعية والذي كان منذ القرن السادس عشر يعتبر ذا وظيفة هامة؛ وهكذا يتضح لنا: أن الجيش لم يكن وحدة كاملة متماسكة ، وفيما عدا الملك نفسه لم تكن هناك سلطة مركزية لأحد ، ولم يكن في الجيش أي موظف مدني له مكانة هامة إلا في المدفعية وحدها..

وجاء ريشيليو[١].. ووضع أسس الإدارة المدنية في الجيش بأن نفذ فيه

---

(١) ريشيليو .. أرمان جان دوبلسيس كردينال دي ريشيليو (١٥٨٥– ١٦٤٢) سياسي فرنسي ولد في باريس عام ١٨٨٥. وقد اتجه في البداية لخدمة الجيش ولكنه عندما استقال أخوه الأكبر من رياسة إبراشية لوسون أعطيت له بعد الحصول على إذن من بابا روما بسبب صغر سنه ، وعين أسقفًا للوسون عام ١٦٠٧.

وقد أظهر ريشيليو خبرة بالسياسة منذ فجر حياته واختير وزيرًا بسبب ثقة ماري دي مديتشي أم الملكة آن زوجة لويس الثالث عشر ، فلما قتل كونشيتي صحب ماري إلى بلوا واستطاع بعد ذلك أن يعيدها إلى باريس وأن يصلح بينها وبين إبنها فكوفئ بترقيته لرتبة كردينال عام ١٦٢٢ ، وفي عام ١٦٢٤ اختير رئيسًا للوزارة ومنح رتبة الدوق عام ١٦٣١.. وقد قضى المدة من عام ١٦٢٦ حتى عام ١٦٣٢ في صراع عنيف ضد دوق أورليانز.

ومع مرضه فإنه كان يقود الحملات الحربية بنفسه.. وقد استطاع النجاة من المؤامرات التي كان خصومه يدبرونها للقضاء عليه بسبب استخدامه لشبكة قوية من الجواسيس كانوا عيونه في كل مكان وكل مجتمع.

وقد وضع ريشيليو نصب عينيه من بداية حياته السياسية أن عظمة الدول لا تتم إلا إذا توافرت السلطة المطلقة لصاحب التاج فعمل على دعم سلطة الملك مقتنعًا بأن هذا=

سياسته المعروفة ، سياسة الاعتماد على العملاء من الطبقة الوسطى كأحسن وسيلة لدعم سلطان التاج ، وأوجد ريشيليو مجموعة من المراقبين الإداريين والذين كانوا في ذات الوقت يعملون كمندوبين إقليميين ، ويختارون للقيام بواجبات خاصة وقت الحرب ، وقد عين مراقبًا لكل وحدة من وحدات الميدان ، ثم أوجد مجموعة أخرى من «القوميسييرين» تابعين للمراقبين. وكان القوميسييرون هم الذين يقومون بواجبات دفع أجور الجنود ، ويحتملون مسئولية تخزين العتاد وما إلى هذا من المسائل العسكرية.

وكان ريشيليو أيضًا هو الذي أوجد الوظيفة الهامة ، وظيفة وزير الحربية ، وحدد له اختصاصاته وواجباته. وفي حكم الوزيرين الكبيرين ميشيل لوتلييه (١٦٤٣-١٦٦٨) وولده المركيز دي لوفوا (١٦٦٨-١٦٩١) اللذين توليا رياسة الوزارة متعاقبين ازدادت مكانة هذه الوظيفة كما زادت سلطات وزير الحربية وسلطات الإدارة المدنية المتباينة الأقسام والاختصاصات والتي تعمل في معاونة الوزير ، فحول شخصية الوزير نفسه تكونت إدارة حكومية كبيرة كاملة المعدات والسجلات؛

=هو الذي يضمن له السيادة على أوروبا وقد بذل طوال حياته الكثير من الجهد لتحقيق هذا.

وكان أقوى خصومه هم الهوجنوت والنبلاء واستطاع القضاء على الهوجنوت كثوار إلا أنه بعد هذا منحهم الحرية الدينية ووفر لهم الحقوق المدنية كمواطنين ، واستطاع كذلك القضاء على سلطات النبلاء وفض عليهم مدنهم الحصينة ، وبالرغم من أن فرنسا قد كسبت كل المعارك الحاسمة في حرب الثلاثين السنة بعد وفاته إلا أنه في الواقع كان قد قضيى على كل تهديد لآل هبسبورج.

ولكن ريشليو في اختياره للوزراء وقادة الجند كان ينظر إلى خضوعهم وولائهم أكثر مما يعنى بكفايتهم وتوافر قوة الابتكار والمبادأة فيهم ، ومع هذا فإنه كان هو الذي مهد الطريق للانتصارات العظيمة العسكرية التي حصل عليها الملك لويس الرابع عشر.

E. Encycl. Vol. ١١ PP. ١٥٧-١٥٨.

وفي عام ١٦٨٠ كانت قد تكونت خمسة أقسام مختلفة داخل هذه الإدارة المدنية ، وتولى كل قسم مدير تعاونه مجموعة كبيرة من المرءوسين ، وإلى هذه الأقسام كان المراقبون والقوميسيريون بل وحتى قادة الجند أنفسهم يرسلون تقاريرهم وطلباتهم ، وكان رؤساء هذه الأقسام هم الذين يصدرون الأوامر باسم الوزير ، ولم يكن يتصل بالوزير مباشرة إلا الأشخاص ذوو المكانة الكبيرة وأضحى الوزير بذلك هو الذي يصدر القرارات العسكرية الهامة ، وهو مستشار الملك وموضع ثقته.

على أننا في تقديرنا تبعًا للمستويات الحديثة ، بل وحتى تبعًا لمستويات عصر نابليون نستطيع القول: بأن جيش لويس الرابع عشر لم يكن متناسق التنظيم ، كان هناك نقص واضطراب في التنظيم والإدارة ، وكانت هناك أخطاء أو فساد بمعنى أصح في تجنيد الأفراد واختيار الضباط للقوات ، ولكن مع هذا فإن هذا الجيش لم يكن مجموعة من الوحدات الإقطاعية المنفصلة التي لا تعرف أي منها غير قائدها المباشر الذي قام بتجنيد أفرادها؛ وإذا كانت قد توافرت لهذا الجيش تنظيمات عسكرية ذات سلطات محددة واضحة؛ وإذا كانت سيادة صاحب التاج على هذا الجيش لم تكن عرضة للتهديد أو التمرد للخروج عليها بوساطة القادة الثائرين؛ فإنَّ هذا كله يرجع إلى الجهود المضنية التي بذلتها الإدارة المدنية للجيش طوال القرن السابع عشر ، فقد ألغيت الإدارات شبه المستقلة ، وأمكن إجراء كل صور الإصلاح في نطاق عمل كبار الضباط؛ وذلك لجعل هذه السلطات واضحة محددة الأهداف وتبسيط كل صور الغموض والاضطراب القديمة التي كان يوجد منها التنافس بين العدد الكبير من الماريشالات والجنرالات ، وأدخل مبدأ الأقدمية العامة في الجيش؛ كما أمكن تحقيق توحيد القيادة بإيجاد مركز

مؤقت استثنائي لرتبة: «ماريشال عام الجيوش» الوظيفة التي تولاها تورين عام ١٦٦٠ لأول مرة؛ كما أمكن إجراء عدد كبير من الإصلاحات الصغرى في ذلك العصر والتي تمس الكثير من المسائل كضرر تعدد السلطات والوظائف التي يشغلها فرد واحد؛ كما أمكن توحيد زي أفراد القوات المحاربة ، وزيد من الضبط والربط في الجيش وغير هذا من صور الإصلاح في تجنيد الأفراد وتنظيم إقامتهم ودفع أجورهم.

ومما لا شك فيه أن هذه الجهود لتنظيم بناء الجيش كان لها صداها ومظهرها الواضح في نواحٍ أخرى من بناء الدولة ، فقد هوجمت كل الحقوق التقليدية التي لبثت طويلاً مرعية الجانب مع وضوح خطرها وتأثيرها السيئ ، وكان هذا الهجوم بهدف واحد هو تقوية السلطة المركزية ، على أن هذه المحاولة لإقرار النظام لم تكن وسيلة ناجحة قصد بها إيجاد السلطة وحسب ، ولم تكن أيضًا فكرة خلابة أملتها الرغبة في السيادة والسلطان.. وحيثما وجدت الثورة مع الفوضى والاضطراب فإنهما كانتا مظهرًا عاديًا ناتجًا عن إيجاد المنطق الرياضي الذي وصل إليه ديكارت(*) والروح الهندسية

(*) ديكارت ، رينه ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠) فيلسوف فرنسي ولد في لاهاي وتعلم بمدرسة الجيزويت في (لافليشي) وفي عام ١٦١٧ ذهب إلى هولاندة والتحق بجيش (البرنس) الأمير موريس أوف أورانج ، وفي عام ١٦١٩ خدم في بافريا ، وبينا كان في المعسكر الشتوي في نيوبيرج على الدانوب تيسر له الوقت فوضع كتابه في (نظرية الطريقة)؛ وفي عام ١٦٢٥ أقام في باريس ولكنه تركها عام ١٦٢٩ إلى هولاندة حيث أقام إلى عام ١٦٤٩.

وفي عام ١٦٥٠ ذهب إى بلاط السويد بدعوة من الملكة كريستينا ولكنه مات في استكهولم بعد أشهر قليلة؛ ويعتبر ديكارت أبا الفلسفة الحديثة ، والواقع أنه عندما كان يطلب العلم لم يتقبل التقاليد المدرسية ولم يتقبل النظريات القديمة كأساس للمعرفة وكانت أولى خطواته أن نفض يديه من كل كتب التعليم في عصره ، وفي عام ١٦٣٧ ظهرت بعض الدراسات الحديثة التي يسرت له أن يتابع فيها تطورات عقله من سنيه=

التي أوجدها باسكال(*).

وكانت هذه هي الصورة التي وضحت في فرنسا كلها أولًا تبعًا للثورة

=المبكرة حتى وصل إلى مبدأ رفض تصديق أي أمر ما لم يقم عليه دليل واضح لقد بدأ «بالشك» كوسيلة للتجربة والاختبار وطبق هذا في كل نواحي المعرفة ، وكان الشيء الوحيد الذي احتمل هذا التطبيق هو حقيقة وجوده ، هذه الحقيقة التي وصف بها العلاقة بين الوجود والحس ، ومن الفلسفة طبق أصوله ونظرياته على علم الطبيعة وأوجد نظريته التي توضح حركة الأجسام السماوية ولم يعطل من نظريته إلا وصول نيوتن إلى نظرية الجاذبية ، وكان ديكارت هو الذي أوجد الهندسة التحليلية وطبق علم الجبر في علم الهندسة وكان أول من أدرك الأصول السلبية في المعادلات الجبرية . «المترجم»

E. Encycl. Vol. ٤ PP. ٦٢٨-٢٩.

(*) باسكال: بليز باسكال ، من أعلام القرن السابع عشر. عمل في أربعة ميادين لأربعة اتجاهات مختلفة في الدين والرياضيات والطبيعة والفلسفة ، ولد في كلير مونت من أعمال أوفرن في ١٩ يوليو عام ١٦٢٣ ، ماتت أمه بعد أربع سنوات من مولده ، وعاش بسكال منذ وفاة أمه حتى مات مبكرًا في سن التاسعة والثلاثين يقاسي متاعب عقلية وجسمانية كثيرة ، وكان أبوه يعمل قاضيًا في محكمة كليرمونت إلا أنه بعد ثلاث سنوات من وفاة زوجته ترك عمله ورحل إلى باريس ليعلم ولده وابنتيه جاكلين وجلبرت وقد آتت هذه الدراسة ثمارها فإن باسكال قد أكمل مؤلفا في علم الهندسة وهو في السادسة عشرة من عمره.

على أن باسكال الأب لم يلبث أن أثار غضب الكردينال ريشيليو فاضطر للإختفاء إلا أن ابنته جاكلين والتي كانت إذ ذاك ممثلة ناجحة مرموقة وفقت للحصول على عفو عنه وعلى توليه عملاً هامًا في روان.

وكان باسكال الابن قد انصرف إلى دراسة تأثير الضغوط وبدأ عمله للوصول إلى البارومتر ووصل إلى تحقيق أن الضغط الجوي يتغير تبعًا لتغير الأحوال الجوية... ثم بدأ تجاربه على ضغوط السوائل ، ووصل إلى القانون الذي يقول بأن «الضغط على سطح السائل الموجود في إناء يتوزع بالتساوي في كل الاتجاهات ويعمل بقوي متماثلة على كل السطوح المتساوية وفي زاوية قائمة بالنسبة لهذه السطوح».

وقد أصيب باسكال في حادث ولكنه مع متاعب جسمه المحطم بقى يتابع بحوثه في الهندسة ، ومن دراسته للشكل السداسي الأضلاع وحده وصل إلى أكثر من أربعمائة حقيقية في علم الهندسة (المترجم). E. Encycl. Vol. IO PP. ٣٠٠

العلمية بما صحبها من فلسفة آليَّة ، ثم تعمقت إلى أبعد من هذا تبعًا للاستخدام الآلي؛ حيث يقوم كل جزء بدوره وخاصيته دون ما فقد في الحركة ولا زيادة لا ضرورة لها في الأجزاء التي تكون الآلة ، ولم يكن النموذج لهذا هو الإنسان وحده بل العالم كله الذي خلقه الله ، وفي هذا الكون الفسيح كانت الأجزاء هي الذرات التي تحدث عنها جاسندي(*) ، والجزئيات التي ذكرها ديكارت ، بينا يرجع الفضل إلى ڤونتينل(**) في الوصول إلى إدراك «مبعث الحركة».

إننا نتحدث عادة وكأن أهل القرن الثامن عشر أو أهل القرن التاسع عشر هم الذين اكتشفوا الآلة ، ولكن هذه حقيقة ناقصة؛ فإن أهل القرن السابع عشر هم الذين اكتشفوا الآلة ، وهم الذين وصلوا إلى إدراك

(*) جاسندي ، بيير جاسندي (١٥٩٢-١٦٥٥) فيلسوف فرنسي وعالم بالرياضيات ولد في شامبتر سيبه درس في Ax بفكرة الإلتحاق بالكنيسة ، ولكنه لم يلبث أن أغفل هذا وانصرف إلى دراساته الفلسفية ، وقد اختبر نظريات أرسطاطاليس وطبعها عام ١٦٢٤ واعترض على اعتبار آراء أساطاليس آخر ما في أفق علم الفلسفة ، وفي عام ١٦٤٥ استخدم أستاذًا لرياضيات في الجامعة الملكية بباريس ، وبينما كان يعيش في باريس كتب كتابه De Vita Epicuri (حياة أبقراط) وفي هذا الكتاب قدم صورة ضافية لآراء أبقراط ونظرياته (المترجم). E. Encycl. Vol. ٦ PP. ٢٧٣

(**) ڤونتينل ، برنارد لوبو فوار دي ڤونتينل محام فرنسي وفيلسوف وشاعر وهو ابن أخ كورني كتب فونتينل عدة أوبرات هي (بسشيه) ١٦٧٨و (بيليروفون) ١٦٧٩ و(اسبار) ١٦٨١؛ وفي عام ١٦٨٨ وقف إلى جانب المحدثين في الصراع بين (القدامي) و(الجدد) ومن مؤلفاته شعر الرعاة ١٦٨٨و (ديالوج الموتى) ١٦٤٣ و(مناقشة عن تعدد العوالم) ١٦٨٨ و(امتداح الأكاديميين ١٦٩٩-١٧٤٠) ، وقد ضم إلى الأكاديمية الفرنسية برغم اعتراض راسين وبويلو ، ثم ضم إلى أكاديمية العلوم عام ١٦٩٧ وعمل سكرتيرًا لها من عام ١٦٩٩ إلى عام ١٧٤١ وقد أخرج كتابًا عن (عوامل الهندسة اللانهائية) ، عام ١٧٢٧ وكتابًا عن (نظرية ديكارت عن الحركة الدائرية للمادة) عام ١٧٥٢ وعاش من عام ١٦٥٧ لعام ١٧٥٧ (المترجم). E. encycl. Vol. ٥ PP. ٧٤٥.

تعقدات دقة إحكامها ، وهم أيضًا الذين وصلوا إلى الكشف عن العوامل الحسابية في عملها. وعلى سبيل المثال لا الحصر نجد الآلات الحسابية لقياس المسببات والنتائج التي وصل إليها باسكال وليبنيتز(*) ، إن القرن الثامن عشر قد أعطى هذه النتائج كلها صبغة نيوتية ، وكان القرن التاسع عشر هو في الواقع الذي وصل إلى إدراك «القوة» لا الآلة.

ولهذا فإنه في عصر ريشيليو ولويس الرابع عشر كان المصلحون يعملون بتوجيه وطابع العصر الذي عاشوا فيه ، كانوا يعملون ويفكرون بالتأثير الكبير الذي حققه العلم ، وبهذه الروح وجهوا جهودهم إلى الاستحادث والتجديد في الجيش وفي الإدارة المدنية ، كما عملوا بها أيضًا على أن يحققوا للدولة وللجيش بعض الخاصيات التي مكنت منها «الآلة» لقد كان العلم في الواقع يبعث بتأثيرات مباشرة للمسائل العسكرية ، وإلى

(*) ليبنتز ، جوتفريد ويلهلم فريهرفون ليبنتز (١٦٤٦-١٧١٦) فيلسوف ألماني وعالم من علماء الرياضيات ولد في ليبزج ، وفي عام ١٦٦١ دخل جامعة ليبزج ليدرس القانون ، وفي عام ١٦٦٦ رفضوا منحه الدكتوراة لحداثة سنه فتحول إلى جامعة نورمبرج التي منحته الدكتوراه مع مقعد الأستاذية بها وهناك تعرف إلى البارون فون بونبرج الذي قدمه إلى حاكم ميتز ، وفي عام ١٦٦٩ اختير للدفاع عن وجهة النظر الألمانية في عرش بولندة.

وفي عام ١٦٧٢ استدعى إلى باريس للقاء لويس الرابع عشر ، وفي باريس عرف كريستيان هايجنز الذي وجهه لدراسة الرياضيات وزار لندن حيث قابل نيوتن وبويل ، وفي عام ١٧٦٣ ترك خدمة حاكم متز وعمل في خدمة الدوق جون فردريك حاكم برنزويك وقد استخدمه في كتابة تاريخ لأسرة برنزويك ، وقد زار المكتبات الهامة والمدن الكبيرة في ألمانيا والنمسا وإيطاليا ليجمع مادة كتابه؛ وفي عام ١٧٠٠ أسس فريدريك الأكبر جامعة برلين واختير ليبنتز عميدًا لها مدى الحياة.

وعندما عاد إلى هانوفر وجد جورج حاكمها قد أختير ملكًا لانجلترا ، وكان يود صحبة سيده إلا أنه بقي في هانوفر ليكتب التاريخ الذي بدأه ... ولكنه مات بعد عامين اثنين عام ١٧١٦ (المترجم). E. Encycl. Vol. ٨ PP. ٣٦٩

هذه التأثيرات يحسن بنا أن نتجه بالحديث الآن.

***

[٣]

لقد ارتبط العلم دائمًا ارتباطًا وثيقًا بصناعة الحرب؛ ففي العصور القديمة نجد صور هذا الارتباط واضحة في العصرين الهلنستي والروماني. وعندما نذكر الدفاع عن سيراقوسه (سيراكوز) تثب أمامنا بسرعة مساهمة أرشميدس(*) في هذا الدفاع ، وتوضح النهضة الثقافية والميلاد الاقتصادي لغرب أوروبا بعد القرن الثاني عشر أن هذا الاتحاد والارتباط بين العلم وصناعة الحرب ليس وليد الصدفة؛ ذلك لأن إحياء فن الحرب القديم كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالانتعاش والتطور في المعرفة العلمية الفنية القديمة[١]؛ لقد كان القليلون من العلماء الأوربيين الأولين جنودًا ، ولكن في القرون الأخيرة عمل الكثيرون من العلماء كمستشارين ومعاونين فنيين في الجيش ، لقد سجل الكثيرون من الجراحين العسكريين أسماءهم في سجلات علم الطب والتشريح ، كما حفلت سجلات الجيش بأسماء عدد أكبر بكثير من المهندسين ، أو بمعنى آخر من سادة الآلات الذين كانت مهارتهم في الهندسة العسكرية أو في المدفعية القديمة والحديثة وفي استخدام العدد الكبير المتباين الصور من الآلات عاملاً لتقدم فن الحرب ، فضلاً عن

(*) أرشميدس (٢٨٧ – ٢١٢ ق.م) أعظم عالم من علماء الرياضيات وأشهر مهندس في التاريخ القديم ولد في سيراقوسه واشتهر باكتشافاته في الميكانيكا والهيدروستاتيكا ، أوجد نظرية «العتلة» كما اكتشف نظرية التوازن بين الجسم الذي يطفو وبين الضغط الهيدروستاتيكي للسائل المزاح ، اخترع عدة آلات عسكرية كان لها فضل تعطيل سقوط سيراقوسه في أيدي الرومان وقتل عندما اجتاح الغزاة المدينة (المترجم). E. Encl. Vol. ١ PP. ٤٣٦- ٤٣٧.

(١) استندت في هذا الجزء إلى رسالتي للدكتوراة غير المطبوعة والتي قدمت لجامعة هارفارد عام ١٩٤١ بعنوان «العلم والحرب الحديث في العالم القديم».

مساهمتهم في العلم النظري للحرب؛ إن ليوناردو دا فنشي أول أصحاب العقليات الفذة الأصيلة في تاريخ العلم الحديث ليس هو أول ولا آخر أولئك المهندسين العسكريين الأفذاذ الذين يعملون في كل نواحي العلم والمعرفة وإن كان من المحتمل أنه أعظمهم درجة.

لقد وجه الكثيرون من أعظم العلماء في إيطاليا وفرنسا وانجلترا ، أثناء القرن السادس عشر وأغلب أيام القرن السابع عشر ، انتباههم إلى المشكلات ذات الطابع الفني العلمي من صناعة الحرب ، وفي عام ١٦٠٠ وضح في صورة عامة أن خدمات الأخصّائيين من خارج الجيش يجب أن تدعم بتدريب فني إلى حد ما في محيط ضباط الجيش أنفسهم ، وهكذا فإن كل مشروعات التعليم العسكري كالمشروعات التي وضعها هنري الرابع وريشيليو إنما استهدفت بين أغراضها التدريب الفني الأولي[١].

وإن «المجمل» الذي قدمه جاليليو في سجل غير معروف إلا للقليلين يعتبر برنامجًا قويًا لدراسات رياضية وطبيعية لذاك الذي سيكون ضابطًا في مستقبل حياته؛ وبالرغم من أن الدراسة العسكرية المنظمة ـ إن جاز لنا ألا نذكر شيئًا عن التعليم الفني ـ كان يجب أن تنتظر بدء القرن الثامن عشر فإن كل ضابط كانت له موهبة ما في عصر ڤوبان؛ إما أنه نال حظًّا ما من المعرفة الفنية أو أسف لأنها لم تتوافر له.. ، إن أحسن ما يوضح به التطور الفني الذي جاء بهذا أن يعرف بالدراسة الموجزة للتطورات التي لحقت بهندسة البناء العسكرية وبالمدفعية.

---

(١) ابتداء التعليم الفني في فرنسا (١٥٠٠-١٧٠٠) بقلم ف . آرثر طبع باريس عام ١٩٣٨ ص ٣٨-٤٣.

Lés débuts de l'éducataion technique en France ١٥٠٠- ١٧٠٠ PP. ٣٨-٤٣.

لقد واجه علم الهندسة العسكرية في القرن الذي تبع الحروب الإيطالية في عصر مكياڤيللي ثورة عنيفة ، فإن المدفعية الفرنسية باستخدامها أول مدافع الحصار المؤثرة دمرت في سهولة ويسر تحصينات القرون الوسطى العالية الجدران التي كانت حول المدن الإيطالية ، وكان رد الإيطاليين على هذا أن اخترعوا نموذجًا جديدًا للقلاع ، أدخلت عليه التعديلات فيما بعد ، وظل يستخدم في أوروبا كلها حتى فجر القرن التاسع عشر.

وامتاز هذا النموذج الجديد بتخطيطه العام في بناء متعدد الزوايا والأضلاع منتظم الصورة مع «دراوي» للوقاية من كل الاتجاهات وبذلك يتعرض المهاجم لنيران متقاطعة؛ واستكمل هذا الاختراع صورته الكاملة فيما بعد بوساطة المهندسين الإيطاليين في عصر متأخر بأن أقيم في ثلاثة أقسام رئيسية.. ، جدار سميك منخفض مع ساتر «دروة» ثم حفرة واسعة وجدار آخر خارجي ينحدر في ميل تدريجي حتى يصل إلى مستوى الأرض الأمامية وقد يصنع الجدار من الحجارة والأتربة(*).

وأضحى تخطيط هذه القلاع فنًّا يتطلب دراية حسابية وهندسية ، وكان عدد من العلماء الأخصائيين هم وحدهم الذين يعملون في هذا الميدان ، واشتهر من بينهم العالم الرياضي الإيطالي تارتاليا والعالم الهولندي الكبير سيمون ستيفن.. ، وبيقيت شهرتهما قائمة بسبب ما أسهما به في الرياضيات

(*) يشبه هذا التنظيم إعداد تحصينات الميدان بالحفر في العصر الحديث وعلى الأخص مسألة الحفرة الوسطى وهي التي تطورت إلى نظرية الخنادق التر عرفت حتى الحرب الثانية وكانت تتسع وتعمق لتعطيل الدبابات مع جعل انحدارها عموديًا في الجانب الأقرب للمدافعين «المترجم».

والميكانيكا.. ، وكان الكثيرون من العلماء يقومون بتدرس فن التحصينات بل إن جاليليو نفسه كان يقوم بتدريس هذا العلم في بادوا[١].

وقد خبر فرنسيس الأول ملك فرنسا مهارة المهندسين الإيطاليين فاستخدم عددًا منهم في جهوده الأولية لتحصين حدوده الشمالية والشرقية ضد تهديد تشارلس الخامس.

وظلت هذه الثورة في البناء مستمرة طوال حكم هنري الثاني ولم تتوقف إلا بسبب الحروب الأهلية فلما عاد العمل من جديد أيام هنري الرابع كان الهولنديون قد بزوا الإيطاليين في هذا الميدان ، وكان المهندسون الفرنسيون أمثال إيرارد دي بارلودوك في متناول اليد ليحلوا مكان المهندسين الأجانب[٢].

كان إيرارد هو مؤسس المدرسة الفرنسية للتحصينات التي يمكن القول بأن عصرها يبدأ من تاريخ طبع كتابه: «التحصينات وتطورها لتكون فنًّا» الصادر عام ١٥٩٤ ، وفي مسار القرن السابع عشر ظهر عدد من أكفأ المهندسين كان بعضهم من العسكريين والبعض الآخر من العلماء المدنيين ذوي الكفايات الممتازة ، ومن الأخيرين يمكن أن نذكر جيرارد يسارج العالم الرياضي الكبير ، وبيير بيتي وچان ريتشر عالم الطبيعة والفلك.

على أننا حين نذكر ڤوبان عندالحديث عن تطور نظرية التحصينات فمن الضروري أن نذكر سيده وأستاذه الكونت بليز دي باجان ، كان باجان

---

(١) راجع «الأعمال الفنية لجاليليو» بقلم ج . ج . فاهي من كتاب (دراسات في التاريخ وأساليب العلم) إعداد تشارل سينجر عام ١٩٢١ ج ٢ ص ٢١٧.

(٢) (نبذة تاريخية عن التحصينات) لليفتينانت كولونيل اديجوبات ج ١ ص ١٣-٢١.

Aperçu historique sur les fortificqtions ١ ١٣-١٢.

(١٦٠٤ - ١٦٦٥) رجلاً صاحب نظريات.. ولم يكن قط مهندسًا عمليًّا ، فإنه إلى غاية ما هو معلوم لم يقم بالتوجيه في أي إنشاءات هامة ، وفي الهندسة التخطيطية للإنشاء. كما في العلم نفسه حيث ظن أنه صاحب مكانة أكثر من أن يكون هاويًا وكانت كل مساهمته قد جاءت وهو يجلس في مقعده بمنزله ، ولكنه مع هذا نجح نجاحًا كبيرًا في إدخال أصول جديدة كان لها أهميتها في تخطيط القلاع التي بناها الفرنسيون في أواخر القرن السابع عشر الميلادي ، ولم تكن نظريات ڤوبان إلا صورة منقولة عن باجان مع بعض التحسينات البسيطة ومستخدمة بمرونة تبعًا للتغيير في طبيعة الأرض بين موقع وموقع.

جاءت كل نظريات ڤوبان الأساسية في كتابه: «حصون كونت دي باجان» المنشور عام ١٦٤٥ ، وقامت كل نظرياته على أساس اعتبار أو تقدير واحد أولى للتأثير المتزايد للمدفع في الهجوم والدفاع على السواء(*) ، وكانت الأبراج أو البروج والأجزاء البارزة من التحصينات في رأي ڤوبان هي الأجزاء الأكثر أهمية في التخطيط العام ، وكانت مواقعها وشكلها لا تقرر إلا بعد الاستعانة ببعض القواعد الهندسية البسيطة التي وضعها ڤوبان والتي ترجع إلى طبيعة النطاق الخارجي لا الداخلي للحصن..

ونلاحظ أيضًا في دراسة تطورات المدفعية طوال القرنين السادس عشر والسابع عشر: هذا التعاون بين المهارة الفنية والمطالب العسكرية ،

(*) يجب أن نلاحظ أن الصراع بين المدفع والحصن في التاريخ القديم قد تكرر في الحرب الحديثة في ذات الصورة في السباق بين الدرع والقذيفة بالنسبة للدبابات وغيرها من المدرعات في البر والبحر. كانت قوة اختراق القذيفة هي التي تقرر زيادة سمك الدروع. ثم تبدأ بعد هذا المشكلات الأخرى الخاصة بالسرعة والقدرة على المناورة «المترجم».

وكان كتاب «De la pirotechnia» **لبيرنجو تشو** المنشور عام ١٥٤٠ ـ والذي يعتبر الآن من عمد تاريخ علم الكمياء ـ لوقت طويل المرجع الرسمي للمستحدثات النارية العسكرية ولإعداد البارود ولاستخلاص المعادن التي تصنع منها المدافع.

وكانت نظريات العلم الذي يعني بدراسة حركة المقذوفات هي أيضًا نتيجة دراسات عالمين من أهم العلماء الذين وضعوا أسس الديناميكا الحديثة ألا وهما: نيكولو تارتاليا وجاليليو(*)، وقد لا يكون من الصعب

(*) جليليو جاليلي (١٥٦٤-١٦٤٢).. من أهالي بيزا وولد بها في ١٥ فبراير عام ١٥٦٤، سليل أسرة أصلها من فلونسا، وقد أظهر موهبة وذكاء مبكرًا مما اضطر أباه إلى أن يحرم نفسه واولاده الآخرين من الكثير ليمكن ابنه جاليليو من إدراك العلم، وهكذا دخل جامعة بيزا عام ١٥٨١، وقد درس الطب في البداية ولكنه لم يلبث أن ترك دراسته ليدرس الفلسفة التجريبية وقد نفعته صلاته بجويدو أو بالدي إذ أمكنه من الحصول على مركز أستاذ الرياضيات في جامعة بدوا.

وقد عاش جاليليو في وقت كان العالم كله قد خرج لتوه من جهل وظلام العصور الوسطى، وقد تعددت الصور التي عمل فيها جاليليو بدراساته إلى حد أنه بعد قرون كان موضع عجب الناس أن تتوافر كل هذه المعرفة على تعدد صورها لرجل واحد، فقد درس الفلك والطبيعة والموسيقى والطب والفلسفة وغير هذا من العلوم.

ويرجع إلى جاليليو فضل اكتشاف «البندول» الذي يستخدم في صناعة الساعات، وكان هو الذي وصل إلى قانون سقوط الأجسام، ووصل إلى تأثير جاذبية الأرض في سرعة سقوط أو ارتفاع الأشياء، وكان هو الذي عمل أول تليسكوب جيد الصناعة، واخترع الترمومتر واكتشف الأقمار الأربعة التي تحيط (بالمشتري) واكتشف البقع الشمسية وأخيرًا كان أكبر مكتشافته أهمية هو أنه وصل إلى معرفة نظام المجموعة الشمسية.

وكان هو أول من قال بأن الأرض وغيرها من الكواكب تدور حول الشمس بينا كان اعتقاد الناس في عصره أن الشمس والقمر وغيرها من الكواكب تدور حول الأرض التي تظل ثابتة في مكانها، وقد أدى خروج جاليليو بهذه التعاليم أن اكتسب عداوة خصوم أقوياء، وبالرغم من أنه أرغم في روما أن ينكر تعاليمه علانية إلا أنه كان في=

إثبات وتأكيد أن أسس علم الطبيعة الحديث إنما هي نتاج حل المشكلات الأساسية لعلم حركة المقذوفات.

وقد اتجه تارتاليا إلى نقد ديناميكية أرسطاطاليس تبعًا لتجاربه التي قام بها في البحث عن الصلة بين زاوية النيران ومرمى القذيفة وربما كانت تجارب تارتاليا هذه هي أول تجارب ديناميكية أجريت في موضوع البحث؛ على أن تجاربه وصلت به إلى اكتشاف أن زاوية أقصى مرمى هي ٤٥° ، وكما وصلت به نتائج تجاربه: إلى ما سبب هذا الاستخدام الواسع للمربع أو ربع الدائرة الآلة التي يستخدما أفراد المدفعية.

وكان لجاليليو فضل اكتشاف أن خط مرور القذيفة تبعًا للحال المثالية بإغفال العوامل المعطلة كمقاومة الهواء ـ يجب أن يكون مسطحًا ، وقد أمكن جعل هذا مستطاعًا بما وصل إليه من الأصول الديناميكية الثلاثة وهي:

مبدأ القصور الذاتي ، وقانون حركة الأجسام الساقطة تحت تأثير وزنها ، ومبدأ تركيب السرعات ، فعلى أساس هذه الأصول التي كشف عنها وحققها كخطوات لبحوثه في دراسة علم حركة المقذوفات استطاع أولئك الذين جاءوا بعده أن يقيموا بناء كلاسيكيات علم الطبيعة.

وفي قرابة نهاية القرن السابع عشر كان تقدم العلم والمعرفة عاملاً مرغمًا لإيجاد التجارب الأولى في التعليم العسكري الفني؛ كما كان دافعًا لأن تتولى حكومتا انجلترا وفرنسا رعاية العلم في بلديهما ، ونالت الأكاديمية

=السر يتحدث عن نظريته ويبشر بها وهكذا لم يعرف الناس صدق نظريته إلا بعد أن مات.. وبعد أن ووري التراب في كتدرائية فلونسا. (المترجم). E. Encycl. Vol. ٦ PP. ٢١٥-٢١٦

الملكية في لندن قانونها على يد شارل الثاني عام ١٦٦٢ ، وبعد أربع سنوات ومع تشجيع كولبير(*) كان ميلاد الأكاديمية الملكية الفرنسية للعلوم ، وفي هاتين الهيئتين اللتين أوجدتا أصلًا ومن البداية للمعرفة النافعة أجريت بحوث عدة ذات نفع للجيش والأسطول؛ وقد شغل أعضاء الأكاديميتين بدراسة بحوث في حركة المقذوفات والمفرقعات وخواص ملح البارود، والوسيلة الصحيحة لقياس خطوط الطول في البحر وغير هذا من الموضوعات الهامة للجيش والبحرية.

وكان بين أعضاء الأكاديميتين الانجليزية والفرنسية رجال كفاة من الجيش والبحرية ، وكان العلماء في فرنسا على الأخص يدعون لمشاورتهم في المسائل الفنية التي تخص القوات المسلحة ، وتحت إشراف كولبير قام علماء أكاديمية العلوم بدراسات واسعة للمعاونة في تنفيذ برنامجه للاتساع في

(*) كولبير.. جان بابتسيت كولبير (١٦١٩- ١٦٨٣) سياسي فرنسي ولد في ريمس وقضى أيام فتوته يعمل عند مصرفي، ، واستخدمه مازارين في الكثير من بعوثه السياسية ، وفي عام ١٦٥٩ بدأ بتنفيذ مشروع لإصلاح المالية. الفرنسية ، وخلف مازارين عام ١٦٦١ ، وفي عام ١٦٦٨ كان وزيرًا للحربية والتجارة وأمينًا للقصر الملكي وكان قد عين قبل هذا مراقبًا عامًا.

عني بالمسائل المالية وأصلح نظام جمع الضرائب ما ألغى الضرائب غير العادلة ، ثم وجه انتباهه إلى التجارة والصناعة المحلية ، ولم يقف مشروعه للاتساع البحري عند حد زيادة السفن أو إعداد الكثيرين من رجال البحر ، بل اشتمل أيضًا على إعادة بناء ميناء طولون وروشفورت وتحصين دنكرك وبريست والهافر... ، وكان هو الذي أنشأ أكاديمية العلوم كما أنشأ مرصد باريس ، وأنشأ عددًا من المتاحف ، وجاء بالصور الفنية لمتحف اللوفر ، وقد قامت بينه وبين لوفوا وزير الحربية منافسة عنيفة وقف فيها لويس الرابع عشر إلى جانب لوفوا... ثم بدأ نجم كولبير يأفل حتى مات بتأثير الحمى عام ١٦٨٣ (المترجم).

E. Encycl. Vol. ٤ PP. ٤٥-٦٤.

البحرية.

والأهم من هذا: أنهم وضعوا أسس الرسم الفني الطبوغرافي ، ولهذا فإنه عندما أتم كاسيني[*] في القرن التالي رسم خريطة فرنسا كان مع الجيش الفرنسي لأول مرة خريطة طبوغرافية دقيقة للأرض التي أوكل إليه الدفاع عنها.

***

(*) «كاسيني» إسم أسرة إيطالية جل أفارده من الفكيين ، وقد عمل أفراد أربعة أجيال من هذه الأسرة في مرصد باريس أشهرهم:
جيوفني دومنيكو كاسيني ١٦٥٢-١٧١٢.
جاك كاسيني ١٦٧٧-١٧٥٨.
سيزار فرنسوا كاسيني دي ثوري ١٧١٤-١٧٨٤ ، وكان سيزار هذا هو الذي بدأ رسم مصورة فرنسا وأتمها بعده ولده جاء دومنيك كونت دوكاسيني (١٧٤٨-١٨٤٥).
E. Encycl. Vol. ٣ PP. ٣٢٩. «المترجم»

[٤]

فإذا ما سألنا: كيف أثرت هذه التطورات في الكتابة العسكرية للقرنين السادس عشر والسابع عشر؟ وعلى أي صورة جاء هذا؟ ، إذا سألنا عن هذا ، كانت الإجابة بسيطة للغاية يمكن إجمالها في كلمات قليلة هي: «أن الكم كان في المتوسط أكبر وأعظم من النوع».

كان تراث الماضي ما زال هو المدرس والمعلم في كل المسائل الخاصة بالأصول العسكرية وبأسرار العبقرية العسكرية؛ كانت تعاليم فيجيتيوس وفروتنينس ضرورية ولا يمكن إغفالها وطرحها جانبًا ، وكان أكثر الكتب شعبية وذيوعًا في ذلك القرن هو كتاب هنري دي روهان: «القائد الكامل» الذي كان في الواقع مقتبسًا من كتاب قيصر: «عن حروب الجول»

ومما لا شك فيه: أن أهم الكتابات المعنية بفن الحرب جاءت في نوعين من الكتب:

أولهما: المؤلفات الأولية الممهدة للطريق في ميدان القانون الدولي.

وثانيهما: المؤلفات الأولية في فن العسكرية .. «في صناعة الجندية».

كان مكيافيللي هو صاحب النظريات في عصر الحرب غير النظامية ولكن تأثره بدأ يضمحل بدوران القرن السابع عشر ، وكان فرانسيس بيكون هو آخر الذين اتبعوا خطوات مكيافيللي وأبرزوا آراءه؛ ذلك لأنه من الصعب أن نجد ـ حتى العصر الذي نعيش فيه ـ دفاعًا في غير ما خجل عن الحرب غير المحددة؛ كما يمكن أن نجد بسهولة في كتاب بيكون(*) : على أن

(*) فرانسيس بيكون ... بارون فيرولام فيسكونت سانت البانز (١٥٦١-١٦٢٨) ، ولد=

رد الفعل كان واضحًا في عصر بيكون نفسه ، فالرجال أمثال جروتيوس(*) كانوا يقودون الطريق للهجوم على الاضطراب والفوضى الدولية ويعلمون ضد الحرب غير المحددة التدمير والتخريب ، وأعلن هؤلاء الآباء الروحيون للقانون الدولي أنهم قد وجدوا في قانون الطبيعة الصور الصالحة لقانون الأمم ، وكان المبدأ المركزي؛ كما أوضح تاليران ذات مرة في أسلوب قوي لنابليون هو: «أن الأمم يجب أن تفعل من أجل بعضها بعضًا أحسن ما تستطيع من الطيبات في السلم وأقل ما يمكن من الشر في الحرب»!

ومن السهل أن نقلل من تقدير نفوذ هذه النظريات الكريمة على الحقائق الفعلية التي تحدث في الحرب ، وأن تكرر الصورة السوداء التي قدمها ألبرت سوريل(**) للمعنويات الدولية والأخلاق في عصر النظام

=في يورك هاوس بلندن ودخل جامعة ترنيتي ثم أكمل في كمبردج ، من الفالسفة الانجليز المعدودين ، وقد اشتهر بكتابه (موضوعات) الذي نشر لأول مرة عام ١٥٩٨ وبه عشرة موضوعات فقط ، ولكن تبعًا لتوالي نشره زادت الدراسات التي جاءت فيه حتى كان عام ١٦١٢ فكانت أربعين. وفي عام ١٦٢٥ عندما نشر لآخر مرة في حياته كانت قد وصلت إلى الستين «المترجم». E. Encycl. Vol. ١ PP. ٧١٦.

(*) جروتيوس هوجو ويعرف باسم «هويج فان جروت» (١٥٨٣-١٦٤٥) هولندي الأصل ومن رجال القانون ولد في ديلفت وتعلم في ليدن ، التحق بخدمة السلك السياسي وقد أثار غضب البرنس موريس لدفاعه عن حقوق الأرمن في العبادة فقبض عليه وحكم بسجنه مدى الحياة ولكنه استطاع الفرار إلى باريس بمعاونة زوجته حيث أجرى عليه الملك لويس الثالث عشر رزقًا (١٦٢١) ، وظهرت قوة عارضته في القانون بمؤلفه القيم (De Jure Belli et Picis) ، واختير سفيرًا للسويد في البلاط الفرنسي ثم عاد إلى ستوكهلم وبقى بها حتى مات وله مؤلفات عدة في التاريخ والقانون ، نشر موجز لحياته طبع ليدن عام ١٩٢٥ بقلم تيرمولين (المترجم). E. Encycl. Vol. ٦ PP. ٦١٧-٦١٨.

(**) سوريل مؤلارخ فرنسي ولد في هونفليد عام ١٨٤٢ وتوفى عام ١٩٠٦ أهم مؤلفاته (أوروبا والثورة الفرنسية) (المترجم).
معجم لاروس طبعة عام ١٩٤٦ ص ١٦٩٧.

القديم ، على أن الذي حدث هو أن قواعد القانون الدولي قد كان لها تأثير لا يمكن إنكاره على صورة الحرب قبل ختام القرن السابع عشر[١] فإذا لم تضع هذه حدًّا للسياسة المعدومة المعنويات فإنها على الأقل قد وضعت «الحدود» أو الأصول لإدارة الحرب بأقل ما يمكن من المحرمات والشرور ، وبذلك جعلت الحرب في القرن الثامن عشر عملية إنسانية نسبيًّا أحسن تنظيمها.

كانت هذه القواعد معروفة تمامًا للقادة وكانوا يتبعونها بدقة؛ مثال ذلك التعليمات الخاصة بمعاملة وتبادل أسرى الحرب ، ومعاملة غير المتقاتلين ، وترتيبات تقابل القادة أو مندوبيهم في ميدان العمليات ، وترتيبات الهدنة ، وكذلك المسائل الخاصة بالإتلاف أو فرض الضرائب عن المناطق المحتلة وأساليب الحصار..

لقد كان الاتجاه كله يستهدف حماية الأشخاص وحقوقهم في وقت الحرب وبذلك يمكن الإقلال من شرور الحرب.

أما في الجانب الآخر: جانب الكتب التي جاءت عن الفنون العسكرية فإنه لا يوجد كتاب كان له تأثيره العظيم أو نال شهرة كبيرة كما نالت كتب سبستيان لابريستر دي ڤوبان المهندس العسكري الكبير في حكم لويس الرابع عشر فإن مكانته كانت كبيرة في القرن الثامن عشر ولم يخفت ضوؤها حتى بعد عصر نابليون[٢] ، ومع هذا فإن الكتابات التي تركها

---

(١) راجع (العصابات المسلحة ١٧٩٣ـ ١٩٣٩) . لهوفمان نيكرسون طبع نيويورك عام ١٩٤٠ ص ٣٤-٤٠.

(٢) راجع «شيفالييه دي بروكور» طبع باريس عام ١٧٤٨ ج ٢ ص ٢٦٢-٢٦٣ ، وقد جاء في الكتاب عن تعليم النبلاء بأن مؤلفات خمسة من كبار الكتاب يجب أن يقرأها الطالب ، وهؤلاء الكتاب الخمسة هم :

Feuquieres و Santa Cruz, Rohan, Vuban, Monrecuccoli.

ڤوبان للقرن الثامن عشر كانت قليلة وفنية لدرجة كبيرة وتتكون فقط من دراسات في صناعة الحصار والعمل في الدفاع عن الحصون ، ثم حديث قصير عن الألغام[١] ، فهو لم ينشر شيئًا عن الهندسة العسكرية ، ولم يكتب شيئًا منظمًا عن الاستراتيجية ولا عن فن الحرب من ناحية عامة ، ومع هذا فإن تأثيره في كل هذه النواحي ليس منكورًا ، وقد ظهر هذا كله في كتابات بعض تابعيه ومريديه إلا أن هذا لم يحل دون خطأ تفهم الكثير من آرائه ، بل وإغفال هذه الآراء لوقت طويل بعده.

والواقع أنه يجب أن يذكر فيشكر هذا الجهد الذي بذله الباحثون في القرنين التاسع عشر والعشرين فتمكنوا من نشر جزء كبير من رسائل ڤوبان ومخطوطاته. واستطاع هؤلاء الباحثون أن يتعقبوا سائرها بالدراسة والتحليل مما مكننا من أن نصل إلى تفهم أوضح لحياة ڤوبان وآرائه أكثر مما مكننا من هذا المعجبون به في القرن الثامن عشر.

لقد زاد وضوح أثر ڤوبان في ضوء الدراسات الحديثة بدلاً من أن يخفت ، لقد رأينا تعاليم ڤوبان توضح وتسجل ، رأيناها تستكمل في الكثير من النقاط الهامة بدلاً من أن نراها تدمر وتطوى في زوايا النسيان.

***

(١) كان كل ما طبع من كتاباته في حياته دراسة في المشكلات الإدارية بعنوان (المدير العام للتحصينات) وأعيد طبعها في باريس عام ١٧٢٥ ، ثم (Dixme Royale) الذي طبع في لاهاي عام ١٧٠٧ وظهرت طبعة أخرى قبل وفاته لإيضاح أساليبه في إنشاء التحصينات ، وقد طبع كتابه .Traite de le défence des places بوساطة جومبرت في باريس عام ١٧٦٩ ، ولكن لم تظهر طبعة كاملة منه حتى عام ١٧٩٥.

[٥]

على أن قصة ڤوبان تتطلب مزيدًا من الإيضاح ، فكيف أن مهندسًا مهما كانت درجة مهارته ومهما كانت درجة إخلاصه لعمله يمكن أن يرتفع بسرعة كبيرة ليصل إلى مصاف الأبطال القوميين؟ ولماذا كانت كتاباته الفنية عن الحصار والدفاع عن القلاع والحصون كافية لتضعه في مصاف الكتاب العسكريين ذوي النفوذ الكبير؟

والواقع أن الإجابة على هذين السؤالين وغيرهما مما يدور في فلكهما وحواليهما ليست من العمق إلى الحد الذي لا يمكن إدراكه؛ فإن كتابات ڤوبان كانت هي المراجع الرسمية لما اعتبره القرن الثامن عشر من الأهمية بمكان إن لم يكن هو الأكثر أهمية من كل ما عداه من الموضوعات العسكرية ، ففي أواخر أيام القرن السابع عشر وعلى طوال أيام القرن الثامن عشر تبدو لنا صناعة الحرب وكأنها لا شيء أكثر من سلسلة متلاحقة لا نهاية لها من أعمال الحصار ، وكانت هذه دائمًا هي العمليات البارزة في كل حملة حربية ، وعندما لا يكون تدمير قلعة للعدو هو الغرض الأساسي ـ كما كان هذا في الغالبية؛ فإن عملية الحصار تكون هي العملية الأولية اللازمة لغزو أرض العدو ، وكانت أعمال الحصار تتكرر بدرجة أكبر من حدوث المعارك في الميدان المكشوف..؛ وكانت الجيوش تبدأ عمليات الحصار بسرعة وفي تأهب تام لها في الوقت الذي تتجنب فيه المعارك..؛ فإذا لم يكن بد من خوض غمار المعركة فإن هذا كان يحدث تبعًا للحاجة إلى إنقاذ قلعة محاصرة أو لإتمام الإحداق بقلعة يراد حصارها...؛ وكان التصور الاستراتيجي لكل القادة ـ عدا العدد القليل منهم ـ يدور في نطاق هذه البديهيات والأصول

المقبولة لحرب الحصار؛ وفي عصر تقبل أهله دون ما شرط أو تحفظ هذه العقيدة للأفضلية الاستراتيجية التي للحصار فإن مؤلفات ڤوبان كانت ضرورية لا يمكن إغفالها وتركها جانبًا ، وكان من الضروري أن يكون لاسمه تأثير سحري طوال ذلك العصر.

ومع هذا فإن جزءًا صغيرًا فقط من المكانة والشهرة اللتين لحقتا بڤوبان كان مرجعه إلى كتاباته الفنية ، وكان الذي يدفعه دفعًا ليكون في أذهان الناس دائمًا هو خلقه القويم وحياته الطويلة كخادم مخلص للدولة ، ومساهمته المتعددة الصور في التقدم العسكري لخارج نطاق تخصصه الفني ، ثم اهتمامه الإنساني برفاهية الناس عامة.

وكان ڤوبان من البداية مثال الموظف الذي اكتسب إعجاب الناس مع بساطة أصله وأمانته وشجاعته الشخصية وإخلاصه للحكومة حتى بدا وكأنه صورة متكررة نتيجة تناسخ الروح والجسد عن أحد خدام الدولة المخلصين في أيام جمهورية روما؛ ولقد قال «فوتتنل» في تأبينه واصفًا إياه بأنه كروماني قديم اغتصبه قرن لويس الرابع شعر من أكثر أيام جمهورية روما إزدهارًا ومجدًا ، وكان في رأي ڤولتير «أكمل المواطنين» ، ولم يقنع سان سيمون بأن يصفه بكلمة «وطني»[1] الرومانية التي طبقت عليه لأول مرة في معناها الحديث.

ففي ڤوبان الموظف المحترم والمنظم العبقري والمجدد النابه يبدو وكأنه قد تمثلت كل الظواهر التي تجمعت بمجهودات عدد لا حصر له من الأشخاص لتكوين الدولة الوطنية الجديدة.

---

(١) «الرسالة الخاصة غير المطبوعة المرسلة إلى المركيز دي بويزييل ، ١٦٩٩ - ١٧٠٥» مع مقدمة وملاحظات بقلم «هيرفوادي لا ندول» طبع باريس ١٩٢٤ ص ١٦-١٧.

والأهم من هذا هو أن المعرفة الفنية التي توافرت لڤوبان ومهارته في الرياضيات التطبيقية وعضويته لأكاديمية العلوم ، كل هذا إنما يشير إلى أهمية المعرفة الفنية لرفاهية الدولة؛ إن فلسفة ديكارت العقلية ودور العلوم التطبيقية في المجتمع في الحرب والسلم على السواء ، ثم الروح الهندسية التي كانت طابع العصر ، هذه كلها كانت قد تجسمت في الرجل واضحة مرئية في الإنشاء الضخم للقلاع التي وضع تخطيطها ورسومها.

***

[٦]

وحياة ڤوبان في الواقع أطول وأكثر حركة ونشاطًا من أن تجمل في دراسة قصيرة موجزة كهذه التي نحاولها اليوم.

ومن النادر: أن كان بين وزراء وجنود لويس الرابع عشر من كانت حياته طويلة نشطة كما كانت حياة ڤوبان ، فقد دخل خدمة الملك تحت رياسة مازاران وهو في فجر العشرين من عمره ، وكان ما زال يعمل في الميدان حتى شهور قليلة من وفاته في الثالثة والسبعين من عمره ، وفي طوال هذه السنوات الخمسين من الجهد المستمر الذي لا يهدأ ، أدار ما يقرب من خمسين عملية حصار ووضع التخطيط لأكثر من مائة قلعة وتحصينات للمواني.

جاء ڤوبان من الطبقة التي تقع بين طبقة البرجوازيين وطبقة صغار النبلاء ، وكان سليل رجل من الذين يعملون في الأعمال القضائية محررًا للعقود ، وصل في منتصف القرن السادس عشر إلى تملك أرض منحت له في مقابل عمل قام به.

وولد ڤوبان في سان ليجيه Sàint Léger عام ١٦٣٣ وتلقى تعليمًا غير كامل ـ بعض المعلومات السطحية في التاريخ والرياضيات والرسم ـ في «سيميرآن اكسوا» ، وفي الجيش كطالب عسكري تحت إمرة كوندي(*) الذي

(*) كوندي ، «لويس الثاني دي بوربون ، البرنس دي كوندي» (١٦٢١-١٦٨٦) قائد فرنسي موهوب ، ولد في باريس واستهواه الأدب إبان دراسته العسكرية فكان لهذا أثره فيه في أواخر أيام حياته ، هزم الأسبان في ركروا عام ١٦٤٣ واستولى على دنكرك للفرنسيين عام ١٦٤٦ ، وقد رقف إلى جانب الملك ضد البرلمان والنبلاء وأعاد لويس الرابع عشر إلى باريس عام ١٦٤٩ ، وقد خيل له أن مازاران يسيء معاملته ، على أن هذا لم يلبث أن=

كان عندئذ ثائرًا على الملك ، ثم ناله ما نال كوندي من عفو فالتحق بخدمة الملك عام ١٦٥٤ حيث قام بخدمة ممتازة تحت إمرة الشيڤالييه دي كليرڤيل ، وكان رجلًا ذا مواهب عادية ويعتبر أكبر مهندسي فرنسا في ذلك الوقت ، وبعد عامين اثنين نال ڤوبان إجازة علمية هي إجازة مهندس ملكي عادي ، وتولى في إثر هذا قيادة سرية مشاة في آلاي الماريشال دي لافرتيه.

وفي المدة بين انتهاء العمليات العدائية ضد أسبانيا عام ١٦٥٩ وأول حروب لويس الرابع عشر للغزو في عام ١٦٦٧ كان ڤوبان يعمل باستمرار باذلًا كل جهد في إصلاح وتحسين القلاع الفرنسية تحت إشراف دي كليرڤيل.

وفي عام ١٦٦٧ هاجم لويس الرابع عشر الأراضي المنخفضة ، وفي هذه الحروب القصيرة الأمد أبرز ڤوبان موهبته كرجل من رجال صناعة الحصار وفي غير هذا من النواحي العسكرية إلى حد أن لوڤوا نبه دي كليرڤيل إلى هذا وعين ڤوبان قوميسيرًا عامًّا لكل الأعمال الهندسية في إدراته.

=تحقق فقد سجنه ما زاران عام ١٦٥٠ ولكن بعد عام واحد أطلق سراحه فسار إلى باريس وحارب معركة غير حاسمة في ضاحية سانت انطوان ولم يلبث الكثيرون من أنصاره أن انفضوا من حوله فانضم إلى الأسبان الذين ولوه القيادة العامة لجيوشهم.

وحارب كوندي مع الأسبان في آراس عام ١٦٥٤ وفي ڤلانسيين ١٦٥٦ وفي كامبري ١٦٥٧ وهزمه تورين عام ١٦٥٨ في معركة «دن» وأعيد إلى منصبه في فرنسا بعد صلح البرنيز بين فرنسا واسبانيا عام ١٦٥٩ .

وحارب كوندي الهولنديين بعد ذلك في سينيف عام ١٦٧٤ وهزم برنس أورانج الذي عرف بعد ذلك باسم ويليام الثالث ملك انجلترا ، وفي العام الثاني طرد مونتميال من الألزاس وبعد أربع سنوات تقاعد في شانتييه حيث عاش في صحبة موليير وبويلو ولا برويير وغيرهم من الأدباء وتوفي في فولتينبلو (المترجم) .E. Encycl. Vol. ٤ PP. ١٤٩

على أن الكسب الذي جاءت به هذه الحرب قد وجه ڤوبان في مشروعه الكبير للبناء ، فإن المدن المهمة والتي تعتبر النقط الأمامية للتوسع أمثال بيرج وفيرن وتورنيه وليل ، بل والكثير غيرها من المواقع الهامة حصنت تبعًا لما سمى «طريقة ڤوبان الأولى» ، هذه الطريقة التي سيجيء شرحها فيما بعد.

كان هذا إذن هو الصورة المستمرة لحياة ڤوبان في خدمة لويس الرابع عشر ، إشراف مستمر وإصلاح وإنشاءات جديدة في وقت السلم ، فإذا جاءت الحرب تجددت عمليات الحصار وبدأ العمل لتدمير قلاع العدو وتحصيناته ، ثم إسراع في تعجل المحموم للإنشاء مرة أخرى في فترة السلم التي تجيء وراء هذه الحرب ، وهكذا حركة دائرة مستمرة عاش طوالها ڤوبان متنقلاً حتى السنة التي مات فيها ، كان يسافر من أحد أطراف فرنسا إلى الطرف الآخر على ظهر جواده.. وفي السنوات الأخيرة من عمره كان يسافر في عربة مغلقة صغيرة يجرها جواد واحد.

وكانت هناك فترات قصيرة جدًّا للراحة ، وقف القليل منها لزوجته وللمزرعة التي امتلكها عام ١٦٧٥ ، وكان يتجنب الإقامة في البلاط؛ ولهذا فإن إقامته في باريس أو فرساي لم تكن لتطول ، بل كانت دائمًا أقصر ما يمكن ، كان يقضي أغلب لياليه وأيامه في فنادق قرى الحدود وفي تنفيذ واجباته الضخمة بعيدًا عن أماكن الترفيه والترويح عن النفس. ويقضي اللحظات التي ينطلق فيها بعيدًا عن أعماله الهندسية في كتابة مراسلاته الخاصة بعمله وكتاباته الأخرى ، وظل وثيق الصلة بلوفوا يُمْطِره وابلاً من خطاباته وتقاريره.

وكأن هذا لم يكن كافيًا فوجه ڤوبان عنايته إلى عدد من المشكلات

المدنية والعسكرية لم تكن لها صلة مباشرة بالعمل الذي تخصص له ، وقد ناقش بعض هذه المشكلات في رسائله كما جاءت دراسات البعض الآخر بين مذكراته الضافية التي ملأت اثني عشر مجلدًا مخطوطًا.

والواقع أنه عالج في هذه المذكرات العديد من الموضوعات المتباينة كان بعضها فنيًّا وبعضها غير هذا؛ ولكنها في جملتها تنطبق على ما يقوله ڤولتير: «إن الرجل ليشغل كل يوم بموضوعات بعضها نافع وبعضها قليل النفع ولكنها في جملتها غريبة من كل الوجوه..»[١].

على أنه بالإضافة إلى مناقشة الموضوعات العسكرية والبحرية ، وبالإضافة إلى كتابة التقارير الضافية عن الطرق المائية الداخلية ، وعن قناة لانجدوك الواصلة إلى المحيط كتب ڤوبان عن الحاجة إلى برنامج لزراعة الغابات وعن الوسائل المستطاعة لإصلاح حال المستعمرات الفرنسية في أمريكا ، كما كتب ما يعتبر سابقًا لإيجاد نابليون وسام «الليچيون دي أونير» إذ تحدث عن فوائد تكوين «أرستقراطية» أساسها الموهبة والمعرفة وتتسع هذه لكل الأفراد من كل الطبقات ، بدلاً من النبالة التي لا معنى لها والتي تجيء عن طريق المولد والوراثة أو عن طريق المنح والعطاء.

وتكشف الصفحات التي رسمها بعنوان «في لحظات الخمول» عن أصالة وإن كانت في الواقع لا تتمشى مع ما أطلقه عليها ، فهي بالنسبة لبعض ما جاء فيها ليست أكثر من ملاحظات جمعها في طوال رحلاته داخل أرض فرنسا من الشمال للجنوب ومن الشرق للغرب.. ، بينا هي بالنسبة للبعض الآخر دراسات طويلة ضافية ، ومع هذا فإن الذي يعطي هذه

---

(١) فولتير... «قرن لويس الرابع عشر» الفصل الحادي والعشرين.

الصفحات لونًا من التماسك والتماثل إنما هو الطابع الفني الذي تكشف عنه والروح الإنسانية المتوافرة فيها ، وتصور هذه الكتابات.. كما تصور حياة ڤوبان نفسه ما سبق أن قلته: من أن التفهم الفني أو الإدراك العلمي كان هو ينبوع ومورد كل عوامل الإصلاح والتجديد في القرن السابع عشر.

كانت كل مقترحات ڤوبان تستند إلى ملاحظات وتجارب مباشرة؛ فإن أسفاره المتواصلة للقيام بواجبات وظيفته قد وفر له فرصة لا مثيل لها لمعرفة بلاده والتعرف على احتياجاتها ، ثم إن عقله المتيقظ قد قاده ـ في إصرار غير معروف إلا للذين يعملون في جمع المعلومات الإحصائية ـ إلى حشد من الحقائق عن الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للمناطق التي عمل فيها ، كما أن توجيه عقله الفني قد مكنه أن يجعل حتى من ملاحظاته العاجلة صورة لها كيانها الملموس.

وتعاوننا هذه الاعتبارات للإجابة على أكثر من سؤال ، هل يستحق ڤوبان لقب «العالم»؟ أم أنه كان مجرد جندي وبناء مع معرفة رياضية وحسابية؟ وهل كانت عضويته لأكاديمية العلوم في عام ١٦٩٩ مجرد تشريف لموظف عام؟ وهل كان ڤونتينل قد اضطر بسبب هذا إلى أن يتحدث عنه في إحدى خطبه الخالدة لتأبين رجال العلم؟

الواقع: أن كل ما وصل إليه ڤوبان إنما كان في العلم التطبيقي وفي الرياضيات التطبيقية البسيطة؛ فهو لم يكن عالمًا ممتازًا في الرياضيات والطبيعة كالمهندس العسكري الفرنسي «لازار كارنو» الذي جاء بعده ، وهو لم يسهم في الهندسة الميكانيكية بنظريات علمية كما فعل كولومب معاصر كارنو ، وهو لم يخترع عربة بخارية كما فعل كينيو. وفيما عدا تخطيط القلاع فإنه من النادر أن قام ببحث له طابعه العلمي الخاص ، وكان كل ما

أسهم به في الهندسة هو أنه قام بدراسة النسبة بين العدد والحجوم للجدران الثابتة في الحصون[1].

والشيء الرئيسي الذي وصل إليه ڤوبان وله طابعه العلمي الأصيل هو ما حاوله من أن يمتد بطريقة «الكم» إلى ميادين لم يكن هناك من يجرؤ على استخدامها فيها إلا معاصروه الإنجليز.. ، ولكن ڤوبان كان في الحقيقة من الباحثين الأولين في الظواهر الجوية المنظمة وهو شرف يشارك فيه روبرت هوك[*] ، كما أنه كان من الباحثين الأولين في علم الإحصاء ، وكان الوحيدان اللذان ينافسانه في هذا هما: جون جرونت والسير ويليام بيتي[**][1] .

---

(١) «تاريخ العلوم الفنية والفلسفية في القرن الثامن عشر» لوولف ١٩٣٩ ص ٥٣١-٥٣٢ «علم المهندسين» لبرنارد نورست ١٧٣٩ الكتاب الأول ص ٦٧-٧٩.

(*) روبرت هوك (١٦٣٥- ١٧٠٣) - ولد بجزيرة وايت وعمل في معمل روبرت باول ، وفي عام ١٦٦٤ كان يدرس الهندسة في جامعة جريشام ... وفي عام ١٦٧٧ عين سكرتيرًا للجمعية الملكية للعلوم ، وقد قدم دراسة للجمعية في عام ١٦٨٤ أوضحت أنه وصل لنظرية (التلغراف) البرق إلى مدى أكبر مما وصل إليه الفرنسي جيلوم امونتتون ، ومع هذا فإن التلغراف لم يستخدم إلا بعد هذا بقرن كامل من الزمان ، ومن بين ما وصل إليه روبرت إختراعه لمضخة هوائية مزدوجة الأنابيب. كما اخترع البارومتر البحري. وزمبرك التوازن في الساعات وغير هذا.

ولروبرت قانون في علم الطبيعة يحمل اسمه ، وقد قام بينه وبين نيوتن صراع عنيف سببه أنه وصل إلى بعض المبادئ والأصول التي حققها نيوتن ونسبها لنفسه. E. Encycl. Vol. VII p. ٢٢٥.

(**) ويليام بيتي «١٦٢٣- ١٦٨٧» من رجال الإحصاء وعلماء الإقتصاد السياسي ولد في هامبشاير... ودرس في كلية الجزويت في كان ، ورجع إلى بريطانيا ليعمل في البحرية ، وفي عام ١٦٤٩ نال إجازة الطب من أوكسفورد ، وفي عام ١٦٥٢ عين طبيعًا للجيش في إيرلندة ، ثم أتم دراسة الإحصاء وله مؤلفات عدة في علم الإحصاء أهمها:

١- (ملاحظات على الناس والأشياء في إيرلندة) المنشور ١٦٦٩ .

٢- (دراسة عن تضاعف الجنس البشري) المنشور عام ١٦٨٢ .=

وقد وضحت عادته الإحصائية في الكثير من التقارير العسكرية والهندسية التي كتبها ، *والواقع* أن الكثير من هذه التقارير مليء بتفاصيل ضافية عن ثروات وموارد وسكان بقاع كثيرة من فرنسا.

وكان ڤوبان يتطلب هذه الدقة الإحصائية المجهدة حتى من معاونيه التابعين لإدارته ، وفي رسالة له إلى هي دي كلنيي ـ الذي كان لوقت ما مديرًا للتحصينات على الحدود الشمالية الغربية من دنكرك إلى إيبر ـ أبدى ڤوبان غضبه للمعلومات الناقصة في التقارير التي بعث بها إليه عن تلك المنطقة ، وقد وجه كلنيي Caigny إلى أن يبعث له بخريطة لتلك المنطقة وأن يصف له تفصيليًّا كل الطرق المائية التي فيها وسائل الإمداد بالخشب مع إيضاح تاريخ آخر مرة قطع فيها أشجارًا من المنطقة ، وأن يبعث له أيضًا بإحصاءات كاملة عن السكان مقسمين تبعًا للسن والجنس والحرفة والمكانة الاجتماعية ، وبالإضافة إلى هذا طلب ڤوبان من كالنيي أن يبعث إليه بكل الحقائق التي يستطيع جمعها عن الحياة الاقتصادية للمنطقة[٢]؛ وبهذه المعلومات المجهدة التي قد تكون خارج نطاق عمله كمهندس عسكري كان ڤوبان يعمل ليمد الشئون المدنية بذات الطابع الدراسي النقدي وذات الصورة من المنطق والتنظيم والكفاية العلمية التي أوجدها في دراساته لكل المسائل العسكرية.

***

=٣- (الحساب الإقتصادي) المنشور عام ١٦٩٠ .

(١) كانت دراسات ڤوبان في علم الظواهر الجوية تستند إلى دراسة عن (سقوط المطر) قدمها لأكاديمية العلوم. بيليدور الكتاب الرابع ص ٨٧-٨٨.

(٢) «تاريخ ڤوبان» لجورج ميتشيل ١٨٧٩ ص ٤٤٧-٤٥١.



سير العمل في إنشاء التحصينات على الحدود الشمالية الغربية

[٧]

وكان ڤوبان واحدًا من أكثر المصلحين العسكريين في ذلك القرن صلابة في التفكير ومتابعة للبرنامج الذي يرسمه لعمله مع الإصرار على متابعة العمل مهما كانت العقبات التي يلقاها في طريقه؛ وتمتلئ رسائله وملاحظاته بالكثير من آرائه الصريحة ومقترحاته للإصلاح ، وقد لا يوجد إلا القليل النادر من نواحي الحياة العسكرية ومن نواحي الفن العسكري.. ومن المشكلات العنيفة في التنظيم الحربي التي لم يتعرض لها بالدراسة والمناقشة مقدمًا مقترحات خصبة عميقة التفكير موفورة التفاصيل كما يقدم تصويرًا شاملاً كاملاً لإعادة التنظيم[١].

وكان إدماج مهندسيه في وحدة واحدة تشملهم هم والضباط والجنود ولها كسوتها أو زيها الخاص ، من المسائل التي كافح من أجلها طوال حياته وإن كان لم يحصل في هذا إلا على القليل من النجاح[٢]؛ ولكن توصياته آتت ثمارها ولا شك في القرن التالي ، كما كان أيضًا لجهوده ومحاولاته للتعليم الفني لضباط وجنود هذا السلاح نصيبها من النجاح..

لقد امتدح ڤوبان دون تحفظ مدارس المدفعية التي أنشئت في أواخر عهد لويس الرابع ، وبالرغم من أنه لم ينجح في أن يوجد مدارس مماثلة للمهندسين إلا أنه استطاع أن يوجد نظام امتحانات لاختبار صلاحية الطلاب المتقدمين لنيل إجازة الهندسة العسكرية ، كما قام بعدة جهود لتأكيد

(١) «ڤوبان» بقلم ب. لازار Lazard (١٦٣٣-١٧٠٧) طبع عام ١٩٣٧ ص ٤٤٥ -٥٠٠.

(٢) «لويس الرابع عشر ولوفوا وفوبان وتحصينات شمال فرنسا» بقلم شوتار و«السجلات العامة لجماعة فلاما دو فرانس» ١٨٨٩ - ١٨٩٠ ص ١٦-٢٠.

أنهم يحصلون على الإعداد الكافي بوساطة مدرسين أخصَّائيين.

وقد عني بدراسة إصلاحات المدفعية على أساس أنه أخصَّائي في فن الحصار؛ وكانت دراساته وتجاربه في هذا الميدان كثيرة ، وقد قام بتجربة نقل المدافع الضخمة على زحافات ، وكشف عن الخطأ في المدافع المصنوعة من البرونز التي كانت تستخدم يوم ذاك ، وحاول جهده أن يحث الجيش على استخدام الحديد كما يفعل في الأسطول ، وقام بتجارب كثيرة وإن لم تكن مرضية ناجحة لصنع هاون ضخم جديد يقذف كرات من الأحجار ، وأخيرًا اكتشف النيران المسطحة خط المرور واستخدمها لأول مرة في حصار فيليبسبورج ، وقد كانت القذيفة بعد اصطدامها بالغرض تسير هنا وهناك مما يبعث بالرعب إلى أيِّ مجموعة من الجنود أو أطقم الأسلحة التي تكون في منطقة قريبة من منطقة الغرض الأول الذي تصطدم به القذيفة..

وقد وجد ڤوبان مكانًا في مراسلاته وملاحظاته ليقترح عددًا كبيرًا من الإصلاحات الأساسية للمشاة.. بل وللجيش في جملته ، وكان ڤوبان هو أول من اخترع سِنانًا «سونكي» يمكن تقبلها للمشاة وفي عام ١٦٦٩ كتب إلى لوڤوا بقوة ملحًّا في استخدام البنادق وإلغاء استخدام الحراب الثقيلة وعاد بعد هذا بقليل فاقترح استبدال الحربة «بالسونكي» التي تثبت إلى جانب ماسورة البندقية بقفل وبذلك يمكن إطلاق البندقية و« السونكي» مثبتة فيها.

وشغل ڤوبان بأحوال جنوده والترفية عنهم ، كما عني بإعداد ما يحتاجونه من معدات ، وعمل لزيادة تحسين وسائل التجنيد ودفع أجور الجنود ، وإليه يرجع إلى حدٍّ ما ما حدث بعد صلح إكس لا شابل(*) من

(*) صلح إكس لاشابل ، إكس لاشابل وإسمها الآن «آخن» في أرض الرين بألمانيا ، وعلى مسافة أربعين ميلاً غرب كولون ، وقع فيها الصلح عام ١٦٦٨ لإنهاء الحرب الفرنسية=

الإقلال من إنزال الجنود في مساكن المدنيين بل أعدت لهم معسكرات[1] ، وقد وضع ڤوبان نفسه تخطيط هذه المعسكرات الخاصة وشيد جانبًا منها في مناطق الحدود ، ثم في المناطق المغزوة حديثًا.

ولم يقم ڤوبان بدراسات منتظمة في الإنشاءات البحرية ، ويبدو أن كل ما كان يعرفه عنها قد درسه عن «كلارڤيل» الذي كان ماهرًا في النوع من الإنشاءات[2] ، وكانت أول جهوده في طولون؛ حيث عمل في تحسين منشآت الميناء ، ولكن أحسن ما عمل كان في ميناء دنكرك ، ودرس بعناية السفن ذات السطح الواحد التي تسير بالشراع والمجاديف ومد من استخدامها من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلنطي؛ حيث يمكن أن تستخدم كسفن الدوريات والمراقبة ، أو كستار خفيف الحركة أمام السفن الثقيلة التي تقف قريبة من الساحل؛ وكما يمكن أن تستخدم كقوة سريعة للهجوم على جزر أوركنيز أو حتى على الساحل الإنجليزي..

ويرتبط وثيقًا بدراساته هذه دفاعه عن السباق الحربي ، هذا السباق الذي كان هو الاستراتيجية الوحيدة بعد انهيار قوة فرنسا البحرية والتي بناها كولبير بجهود مضنية طويلة.

***

=الإسبانية ، وقد وقع أيضًا فيها الصلح عام ١٧٤٨ لإنهاء حرب الوراثة الإسبانية الثانية ، كما عقد فيها مؤتمر عام ١٨١٨ لتنظيم أوروبا بعد انتهاء حروب نابوليون.

(١) بيليدور Bélidor الكتاب الرابع ص ٧٣.

(٢) لازار ذات المرجع ص ٥٠١ – ٥١٤ ، راجع أيضًا (تاريخ البحرية الفرنسية) لرونسيير طبع عام ١٩٣٢. ص ١٦٤-١٦٩.

[٨]

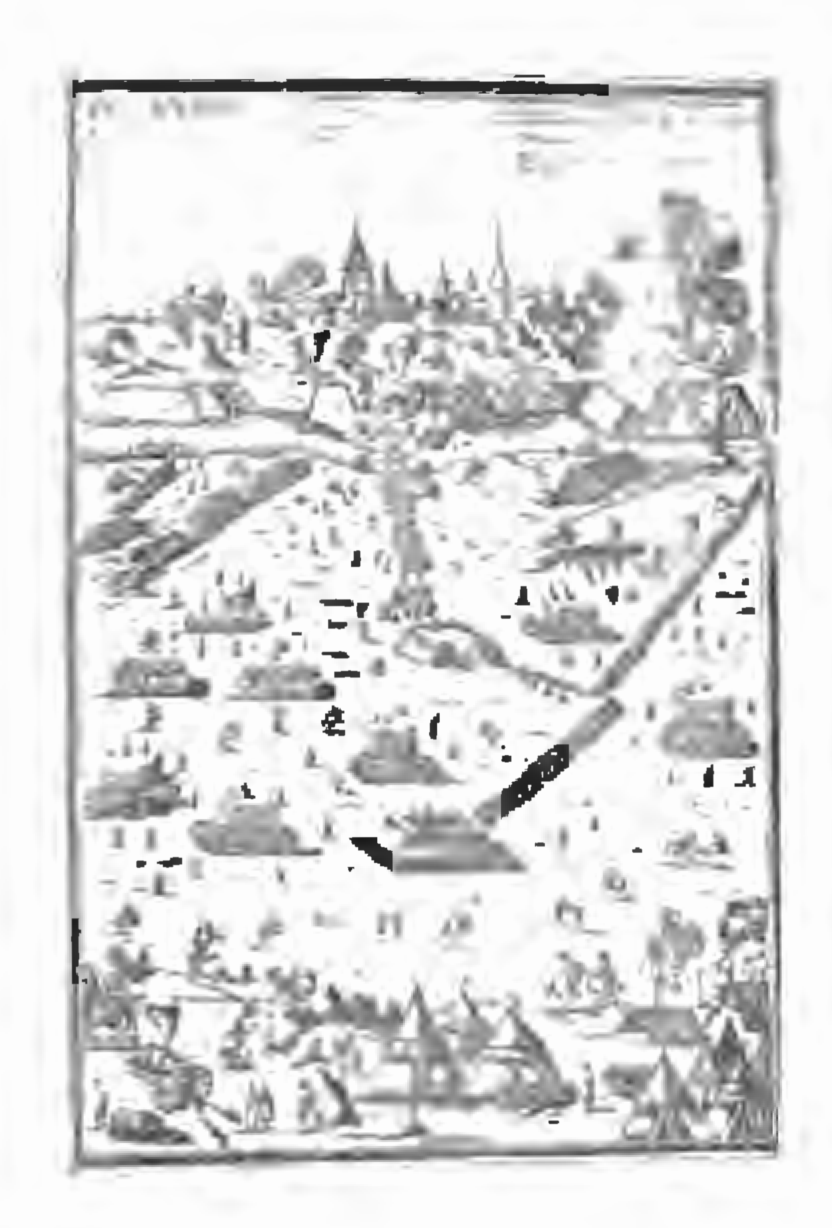
وكانت أهم مساهمة لڤوبان في فن صناعة الحرب ـ كما كان متوقعًا ـ في نطاق تخصصه أي فن الحصار وفن إنشاء التحصينات ، وكانت كراهية ڤوبان لسفك الدماء ـ بالإضافة إلى الروح الجديدة للاعتدال في الحرب هذه الروح التي كانت مظاهرها قد بدأت تبدو في ذلك الوقت ـ هي الدافع لتجديده في فن الحصار ، هذا التجديد الذي استهدف تنظيم الاستيلاء على الموقع المحصن مع تقليل خسائر القوات التي تقوم بالحصار؛ ***والواقع*** أنه قبل أن يصل إلى الكمال بطريقة «المتوازيات» والتي ربما لا يكون هو مخترعها أصلاً ، كانت عمليات الهجوم على التحصينات الثابتة الدائمة تتم بثمن فادح يتحمله المهاجمون[1] ، كان المهاجمون يستخدمون الخنادق والسواتر في أسلوب غير منظم وكان المهاجمون يقذفون بالمشاة عادة ضد النقط التي يظن أنها ضعيفة لن تحتمل ضغط الهجوم إلا أن هذا كان يحدث في صورة تعرض جنود المشاة لنيران فتاكة من المدافعين.

وكانت طريقة ڤوبان للهجوم ـ الطريقة التي اتبعت مع القليل من التعديل أثناء القرن الثامن عشر ـ تسير في إجراءات منتظمة دون ما عجلة؛ فإن المهاجمين يحشدون جنودهم ويجمعون عتادهم في نقطة مستترة وراء سواتر طبيعية أو صناعية وتكون لخارج مرامي أسلحة المدافعين ، ومن هذه النقطة يبدأ المهندسون حفر خندق يتجه نحو الحصن؛ ويسير العمل تدريجيًّا وببطء فإذا ما تقدم الحفر لمسافة ما بدئ في حفر خندق آخر عميق في موازاة

(١) لإمكان معرفة الأساليب القديمة راجع جاستون زيلر «تنظيم الدفاع عن الحدود الشمالية والشرقية في القرن السابع عشر» طبع عام ١٩٢٨ ص ٥٤-٥٥.

نقطة الهجوم المقبل ويكون هذا الخندق عموديًا على خندق الاقتراب ويطلق عليه اسم «المتوازي الأول» ، وينقل الجنود والعتاد إلى هذا الخندق العميق لتكوين قاعدة لأسلحة القتال ، ثم يبدأ من جديد حفر خندق آخر للاقتراب نحو الحصن في خطوط ملتوية وبعد مسافة أخرى يحفر «المتوازي الثاني» ، ثم تتكرر العملية من جديد بحفر خندق اقتراب ، ثم يحفر «المتوازي الثالث»؛ والعادة أن يكون هذا هو المتوازي الأخير إذ أنه يكون على مسافة قصيرة من حافة المنحدر الذي يرتفع فوق الحصن ، ثم يبدأ حفر الجزء النهائي من خندق الاقتراب وينظم المهندسون عملهم على أن يصلوا إلى حافة المنحدر عندما يكون الجنود قد احتلوا المتوازي الثالث ونقلوا إليه كل احتياجاتهم من عتاد الحرب.

على أن المرحلة الخطرة في الهجوم على الحصون والقلاع إنما هي مرحلة التقدم فوق المنحدر الذي يعلوه الحصن والمعرض لنيران المدافعين سيما وأنهم يطلقون النيران بغزارة من وراء السواتر التي تحميهم ، وفي هذه المرحلة يستخدم المهاجمون إنشاءات أرضية موقوتة تعد على عجل وفي سرعة ، وتسمى في الاصطلاح الحرفي «فرسان الخنادق» وهي عبارة عن حفر لها ستائر «دراوي» أمامية ممتدة ومرتفعة تستطيع من ورائها القوات التي تقوم بالحصار أن تطلق نيران أسلحتها على قوات العدو التي تحرس خطوط الاقتراب للموقع ، والعملية هنا في الواقع هي عملية تطهير للمناطق الأمامية من قوات العدو؛ ويتم هذا إما بالنيران وإما بإرسال جماعات قوية من المشاة لاقتحام مواقع المدافعين تحت حماية نيران المهاجمين المستترين وراء هذه «الدراوي» ، فإذا ما تم الاستيلاء على خطوط الاقتراب المستورة بدأت بطاريات مدفعية المهاجمين تعاون قوات الهجوم في شق ثغرة أو ثغرات في منطقة الدفاع الأساسية.



«عملية الاقتحام النهائي في الهجوم بالمتوازيات»

وهكذا تتضح لنا الظاهرة الأساسية في طريقة ڤوبان لعمليات الحصار، هذه الظاهرة هي استخدام تحصينات وخنادق وإنشاءات أرضية كلها موقوتة وتعد فقط لحماية القوات المتقدمة للهجوم وسترها حتى تصل إلى المنطقة التي تستطيع منها حشد كل الجهود للمرحلة الختامية أي مرحلة الاقتحام ، وقد جربت هذه (المتوازيات) التي تحدثت عنها؛ جربت لأول مرة في حصار لكسمبورج عام ١٦٨٤ ، ويمكن الرجوع إلى الوصف التفصيلي الكامل لهذه الطريقة في رسالة لدوق بورجون وسميت بعنوان «دراس لفن الحصار» وقد كتبت هذه الدراسة في عام ١٧٠٥.

وقد تعرض عمل ڤوبان في الهندسة العسكرية لنقاش طويل ، وكانت أبرز اتجاهات هذا النقاش في أمرين اثنين:

الأول: هل يمكن أن يدل تخطيط الحصون التي بناها ڤوبان على أصالته في التخطيط والإنشاء؟

*والأمر الثاني:*هو هل كان ڤوبان في تحديده لأماكن إنشاء هذه الحصون يتجه حقًّا لاتباع خطة عامة مدروسة للدفاع عن فرنسا؟

وقد كان من الطبيعي أن يكون النقاش عنيفًا وأن تتباين فيه الآراء ، وحتى تاريخ حديث اتفق أغلب المعجبين بڤوبان على أنه لم يبد إلا القليل من الأصالة الفنية كمهندس عسكري ، وأنه لم يضف شيئًا على التخطيط الذي ورثه عن باجان ، وقد قدم لازار كارنو ، ڤوبان على غيره من مهندسي القرن الثامن عشر ومع هذا فإنه لم يستطع أن يجد إلا القليل من الظواهر التي تدل على أصالته الفنية «إن تحصينات ڤوبان تكشف للعين عن سلسلة متتابعة من الأعمال المعروفة قبل عصره ولكنها في ذات الوقت تكشف

للمراقب الدقيق عن نتائج مدهشة وعن دقة في الصناعة»[١].

ويقول آلان: «إن كل ما جاء به ڤوبان من تعديل للأسلوب الذي كان مستخدمًا يوم ذاك هو بساطة التخطيط مع حسن اختيار مواقع الإنشاءات»[٢].

وقد بقي هذا الحكم غير واضح إلى تاريخ حديث. وكانت أحدث دراسة جدية جديدة لڤوبان هي الدراسة التي كتبها الليفتينانت كولونيل لازار والتي عدلت من كل هذه الآراء والوقوف في جانب ڤوبان[٣]؛ لقد جاء لازار بتعديلات هامة في دراستنا لأساليب ڤوبان في إنشاء التحصينات ، وبينا كانت عادة كل الكتاب القدامى أن يشيروا إلى أن ڤوبان كانت له ثلاث طرق ، أو ثلاثة أساليب ينشئ تبعًا لها التحصينات التي شيدها فإن لازار يقول: بأنه على التحقيق لم تكن لڤوبان أساليب منفصل بعضها عن بعض ، وأنه لم تكن في حياته فترات زمنية فضل فيها أسلوبًا على غيره.

والواقع أننا في ضوء هذا الرأي نستطيع العودة من جديد إلى التصفيف القديم للطوابع أو الصور التي استخدمها ڤوبان في بناء الحصون ، كان الأسلوب الأول الذي أنشأ ڤوبان على أساسه غالبية مواقعه المحصنة يتبع ما أخذه عن باجان دون أي تعديل ، كان التخطيط العام لهذه الحصون عبارة عن شكل منتظم متعدد الأضلاع والزوايا ، وكان هذا يجيء أحيانًا في شكل رباعي الأضلاع وأحيانًا ثماني الأضلاع وأحيانًا مثلث الشكل أي ثلاثي الأضلاع كما هي الحال في لاكينوك.. وكانت الأبراج والأجزاء

(١) ديدور هوفر «التاريخ العام الجديد للشخصيات» ١٨٧٠.
(٢) «تاريخ الفيلق الإمبراطوري» ١٨٠٥ (لم يطبع منه غير مجلد واحد) ص ٢٠٩-٢٢٠.
(٣) «لازار ـ ذات المرجع» ص ٣٧٧ – ٣٩٤.

البارزة من الحصون لا تزال هي مفتاح التنظيم الدفاعي وإن كانت هذه قد أضحت أصغر مما كانت عليه في العصر الذي سبق ڤوبان..

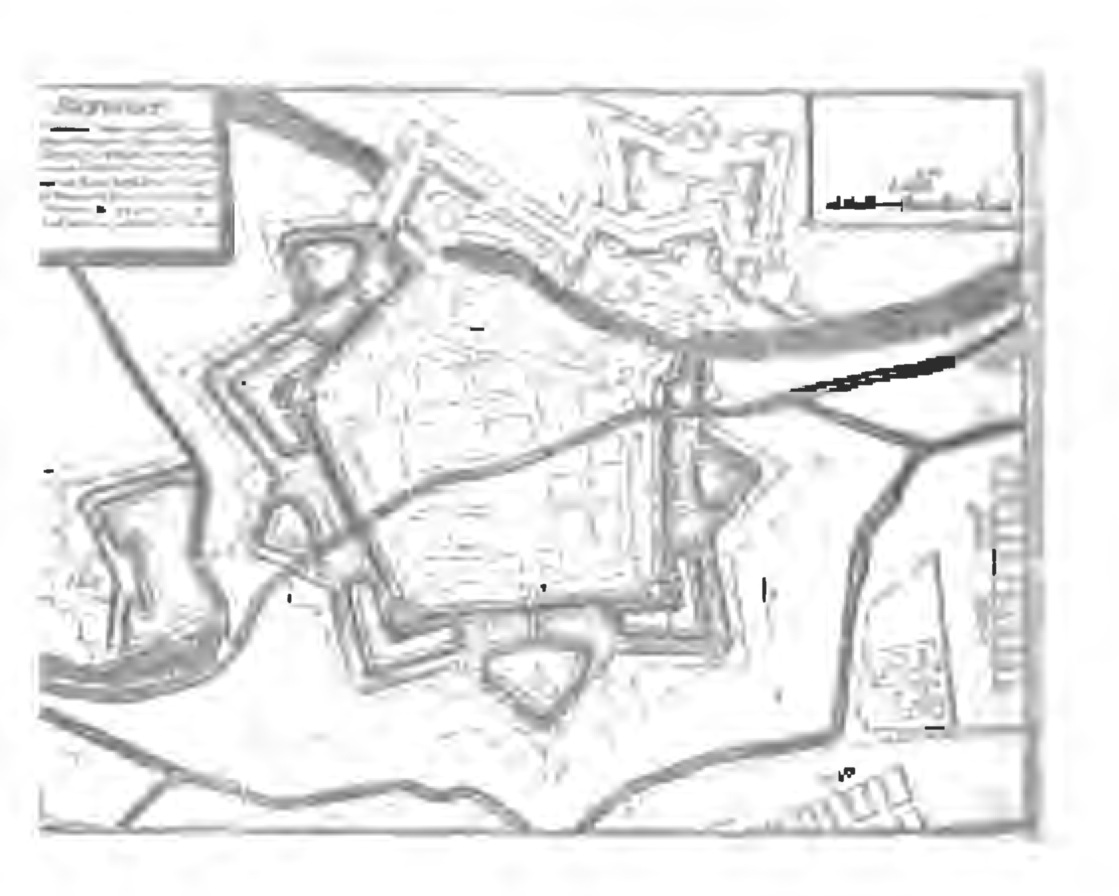
والواقع أنه فيما عدا التحسينات في التفاصيل والاستخدام الواسع المدى للمواقع المحصنة الخارجية والمنعزلة فإن القليل هو الذي تغير عما كان عليه في أيام باجان ، على أنه لما كانت غالبية ما أنشأ ڤوبان من حصون قد جاءت تبعًا لهذا التنظيم.. ولما كانت هذه قد نظر إليها على أنها هي التي توضح طابع عمل ڤوبان فليس من المدهش إذن أن يجيء ناقدوه في عصر متأخر فلا يجدون أصالة في عمله أو أن يجدوا فقط القليل الذي يدل عليها ، ولكن أصالة عمل ڤوبان إنما تبدو ـ على ما يقول لازار ـ في الطابعين الآخرين واللذين استخدمهما في القليل من الحصون التي شيدها ، واللذين كانا لهذا قليلي التأثير في خلفاء ڤوبان.

كانت «الطريقة الثانية»(*) التي استخدمت لأول مرة في بلفورت وبيزانسون نموًا مطردًا للطريقة التي سبق إيضاحها ، كان لا يزال يتبع الأسلوب القديم بإنشاءات متعددة الزوايا والأضلاع منتظمة الشكل العام ، وكان التجديد هو إطالة السواتر الأمامية واستبدال الأجزاء البارزة من الحصن بأبراج صغيرة في الزوايا ، وقد سترت هذه وراء أبراج منعزلة أنشئت في الحفرة الأمامية؛ أي في الخندق الواسع الذي يدور حول البناء كله..

(*) مع التمشي مع آراء لازار إلا أنه لزيادة الإيضاح يجب التحدث عن كل من الصور على أساس أنها طريقة وأسلوب جديد يباين الأول وإن تعرض أعمال فوبان على أساس أنها كانت تتبع ثلاث طرق مختلفة. «المترجم».



طريقة ڤوبان للهجوم بالمتوازيات



طريقة ڤوبان الثانية في بناء الحصون
«بلفورت»

أما ما يقال له: «الطريقة الثالثة» فقد كان تعديلاً جديدًا لحق بالطريقة الثانية ، وقد استخدمت هذه «الطريقة الثالثة» في بناء واحد هو أكمل ما بني ڤوبان .. وكان هذا في بلدة نيف بريزاك ، وفي هذه الطريقة الأخيرة عدل ڤوبان من شكل الستار الخارجي ليسمح بزيادة استخدام المدفعية في الدفاع كما زاد من حجم الأبراج التي في الزوايا ، والأبراج المنعزلة والمواقع النصف دائرية التي تنشأ في خندق الوقاية الأمامي.

والواقع أن «الطريقة الثانية» هي التي تستحق انتباهنا. فهنا ـ ولو أن معاصريه لم يستطيعوا رؤية هذا ـ أي في «الطريقة الثانية» قام ڤوبان بتحسينات هامة بل هي في الحقيقة تحسينات ثورية؛ فقد تخلص ڤوبان من الاعتماد على النطاق الداخلي المغلق ، وقام بالخطى الأولية نحو الدفاع في عمق.

كان قد اكتسبت مرونة جديدة بجعل تخطيطه يتمشى مع طبيعة الأرض دون أن يعرض خط الدفاع الأساسي للخطر ، وفي كل الأحوال السابقة كان هذا التمشي مع طبيعة الأرض يقوم على أساس إقامة منشآت بارزة للأمام ليست أكثر من إضافات ملحقة بالنطاق الداخل متصلة به ، وكانت هذه عندما يحتلها العدو تؤثر بلا شك في الخط الأساسي للدفاع ، وقد اعترض كورمونتين Cormontaigne على هذه «الطريقة الثانية» كما اعترضت عليها فيما بعد هيئة مدرسي مدرسة ميزيير. هذه الهيئة التي سيطرت آراء أفرادها على فن التحصينات طوال القرن الثامن عشر ، والذين قامت مشروعاتهم للتحصينات على أساس طريقة ڤوبان الأولى ، فقد رأو أن الطريقة الثانية إنما هي عود فج غير تام النضج لأساليب القرون الوسطى ، ولا نستطيع أن نجد إحياء جديدًا لطريقة ڤوبان الثانية إلا في

تاريخ متأخر من القرن الثامن عشر ، وكانت الإصلاحات الفنية التي أوجدها مونتلامبير Montalembert وتقبلها الألمان قبل الفرنسيين بكثير ـ تقوم أساسيًّا على إنشاء القلاع الصغيرة المنعزلة بدلاً من هذه المنشآت البارزة التقليدية والتي كانت في الحقيقة جزءًا من النطاق الداخلي الرئيسي[١].

وبالرغم من أننا نشك في أن يكون مونتلامبير قد تأثر أصلاً بآراء ڤوبان إلا أن هذه الثورة التي جاء بها مونتلامبير مثلها مثل ما جاء بعد هذا من إنشاء التحصينات بعمق إنما تتضح لنا في طريقة ڤوبان الثانية.

وهنا نستطيع أن نتسائل عن علة الاضطراب والتضارب في تفهم آراء ڤوبان ، هذا التضارب الذي بقي حتى عصر حديث ، ***والواقع*** أن هذا إنما كان بسبب أن ڤوبان لم يكتب دراسة عن فن التحصينات الدائمة ، كما أنه لم يوضح نظرياته في فن التحصينات تفصيليًّا كما فعل بنظرياته الأخرى التي جاء بها في موضوعي الهجوم والدفاع ، وكل الكتب التي نشرت في حياته ثم بعد وفاته والتي استهدفت تلخيص أسرار عمله كانت في الواقع تقليدًا وزيفًا جزئيًّا ، ولم يضع ڤوبان موضع البحث والدراسة في غير المؤلف العظيم الذي كتبه بيليدور وإن كان لم يعالج فيه التخطيط ولا مشكلات التوزيع للقوات ، بل عني فقط بمشكلات الإنشاء والتفاصيل الإدارية[٢].

ولكن على أية حال توجد دراستان مخطوطتان تعالجان الأصول الأساسية للتحصينات كتبتا في حياة ڤوبان وقد أبدى تقديره لهما؛ أولاهما

---

(١) لازار ذات المرجع ٣٨٩ – ٣٩٠ ، «تاريخ التحصينات الثابتة» بقلم إدي ارسترو ١٨٥٦ ج ٢ ص ٦٢–٢٠٨ المترجم من الألمانية بقلم دي لاباردوبارك.
(٢) بيليدور ـ الكتاب الثالث ص ٢٩ – ٣٤و ٣٥ –٤٣و ٩٠–٩٦.

كتبها سوفير عالم الرياضيات الذي اختاره فوبان لتعليم واختبار الطلاب المهندسين ، وثانيتهما كتبها توميسين سكرتير فوبان نفسه ، وتعتبر هاتان الدراستان ـ بالإضافة إلى الحصون نفسها ـ أحسن وأفضل مورد يمكن منه أن نعرف الأصول العامة التي جاء بها فوبان في إنشاء التحصينات.

والواقع أنه قد يكون من الأيسر في دراستنا لفوبان أن نتحدث عن الأصول العامة لا أن نتعرض بالدراسة لطريقته أو أسلوبه كله جملة واحدة ، سيما وأن هذه الأصول العامة تبدو واضحة في طرقه أو أساليبه الثلاثة ، بل وتتضح فيها كلها على قدم المساواة؛ ثم إن هذه الأصول العامة من ناحية أخرى قليلة.

وأبرز هذه الأصول العامة هي أن يكون كل جزء من الحصن في أمن تام مثله مثل أيٍّ جزء آخر سواء أكان في النطاق الخارجي أم الداخلي ، وكان هذا الأمن يتحقق نتيجة للإنشاء الضخم للنقط المعرضة ونتيجة للاستتار الكافي الذي تمكن منه السجف أو السواتر الأمامية.

فإذا نظرنا إلى المطالب التي يمكن أن تضمن هذا فإننا نجد:

١ – تكون على أجناب كل جزء من النطاق الداخلي نقط قوية.

٢ – تكون هذه النقط القوية كبيرة ضخمة البناء إلى غاية ما يمكن.

٣ – إذا كانت هذه النقط القوية منفصلة بعضها عن بعض بمسافة تصل إلى مرمى البندقية أو ما يقل عن هذا وجب أن يلاحظ في التخطيط أن تكون النقط القوية التي على الأجناب مواجهة للأجزاء التي تحميها ومن ناحية أخرى ألا تكون مرئية إلا من هذه الأجزاء.

أو في صورة أبسط ، «أن يتوافر عدد من النقط القوية على الأجناب

تحمي أجزاء وقطاعات النطاق الداخلي للحصن على شريطة أن تكون هذه النقط القوية مستورة وغير مرئية ولا يمكن أن تعرض للنيران في صورة عكسية إلا من هذا الجزء الداخلي الذي أعدت أصلاً لحمايته، وهذا يكشف لنا عن مبدأ التعاون بالنيران بين أجزاء الحصن الواحد كما يكشف لنا أن نجاح العدو في الاستيلاء على جزء من الحصن لا يعطل باقي الأجزاء عن متابعة القتال وعن القيام بالهجوم المضاد».

ومن السهل الميسور عندما نرجع إلى مشروعات ڤوبان لإنشاء التحصينات أن نجد هذه الأصول العامة متوافرة فيها ومتبعة تمامًا سواء أكانت هذه المشروعات قد جاءت على أساس الطريقة الأولى أم على أساس غيرها من الطريقتين الأخريين.

لقد كانت المشكلة الحقيقية في بناء التحصينات الدائمة إنما تكمن في التوفيق بين التخطيط ذي البروج (أو التخطيط المتعدد الأضلاع والزوايا مع بروج منعزلة) وبين الاحتياجات الملحة لمنطقة خاصة من الأرض، على شريطة ألا يغفل مع هذا التوفيق أي من المبادئ الأساسية، ومن الواضح: أن هذا كان يترك المهندس طليقًا يعمل في ميدان واسع فضلاً عما يوفره له من المرونة التي تستحق الإعجاب.

لقد كانت وسيلة العمل هذه هي التي مكنت من تطور الطريقة الثانية لأن ڤوبان نفسه يحدثنا بأنه لم يصل إليها نتيجة لاعتبارات ودراسات نظرية بل إنها قد فرضت عليه فرضًا تبعًا لطبيعة الأرض في بلفورت[1].

***

(١) من رسالة إلى لوفوا تاريخها السابع من أكتوبر عام ١٦٨٧. زيلير ذات المرجع ص ١٤٤.

[٩]

ولكن إلى أي مدى كان برنامج لويس الرابع للمنشآت العسكرية يوجه تبعًا لفكرة استراتيچية؟

وما الدليل على أن هذه الفكرة ـ لو كانت حقًّا هناك فكرة ـ ترجع إلى عبقرية ڤوبان؟

الواقع: أن هذين السؤالين هما السؤالان الأكثر أهمية من غيرهما في هذا الحديث كله ، ولكنهما في ذات الوقت لا تسهل الإجابة عليهما ، فإن أوائل الذين أرَّخوا لحياة ڤوبان كانوا في غمرة اندفاعهم للوقوف إلى جانب بطلهم يتركوننا أحيانًا ونحن نعتقد اعتقادًا جازمًا بأنه لم يكن في فرنسا قبل ڤوبان تحصينات تستحق أن تطلق عليها هذه التسمية ، وأن هذه الحلقة من الحصون التي كانت تحيط بأرض فرنسا في نهاية حياة ڤوبان إنما توضح تنفيذًا مليئًا بالمهارة لخطة كانت ثمرة عقل وتفكير مهندس عظيم ، وكان من رأي هؤلاء الكتاب أنه لا يمكن تصديق أن أي مهندس آخر غير ڤوبان كان يستطيع أن يوجد هذا التنظيم الدفاعي ، كما لا يمكن أيضًا تصديق أن هذا كله إنما كان تطورًا بطيئًا جاء مع الأيام.

على أننا قد نكون في هذه السطور الأخيرة اتجهنا بعيدًا في الاتجاه الآخر ، فلقد رأينا أن شهرة ڤوبان الفنية كمهندس عسكري إنما سمت وازدادت في ضوء الدراسات الحديثة ، فلقد اتجه بعض الكتاب في الماضي ليهبطوا به إلى مستوى الصانع الماهر دون أن يتوافر له أي تصور استراتيچي ، ومثله البعض بفني ماهر ينفذ دون تفكير ما تضطره إليه الاحتياجات التاريخية أي ما تمليه عليه الحاجة الملحة التي تجيء مع الأيام ، أو أنه ينفذ

أوامر رؤسائه الذين كانوا وحدهم هم الذين يقومون بكل التفكير الاستراتيجي.

ولكن من هو هذا الذي كانت له كفاية تمكنه من منافسة سلطة ڤوبان في ميدان تخصصه؟ إن الإجابة على هذا هي أن الملك نفسه هو الذي كان يستطيع هذا، فقد وضح أن لويس الرابع عشر كان أكثر من أن يكون ذا دراية ومهارة في فن التحصينات، فلقد درسه في شبابه، وفي السنوات الأولى من حكمه؛ كما أنه استفاد كثيرًا من نصائح وتعاليم تورين(*) وفيليروا أستاذه (١٥٩٨-١٦٨٥) وكوندي، وأوضح لويس الرابع عشر طوال حياته، عنايته حتى بأقل التفاصيل التي تتصل بفن التحصينات، واعترض عدة مرات على توصيات ڤوبان، وقد أنشئ حصنان «فورت لويس» و«مونت رويال» تبعًا لتفكير الملك نفسه، وكان واحدًا منهما على الأقل ضد رأي ڤوبان ونصيحته[1]، ويرى أحد المؤلفين أن لويس كان مثابرًا مجتهدًا يحاول أن يتعلم كل شيء، وحتى في هذه المسائل الفنية كان هو السيد المطلق الذي لا يراجع، وكان لوفوا «خادمًا مخلصًا» فلا يمكن حتى أن نقول عنه أنه كان كاتبًا للويس، وكان ڤوبان بدوره «ليس أكثر من منفذ لأوامره وكان في هذا التنفيذ ماهرًا ومخلصًا»[2]؛ ويصف كتاب آخر ڤوبان بأنه: «رئيس

(*) تورين ـ فيكونت (١٦١١-١٦٧٥) ماريشال فرنسا ولد في سيدان وتولى قيادة الجيش المعين لمقاتلة المانيا، احتل اللورين من فيلييورج إلى ميانس مع كوندي وفي عام ١٦٤٧ انتصر في سمورسهوزن التي كانت سبب صلح ويستڤاليا، انتصر على كوندي في سانت انطوان من ضواحي باريس، ثم انتصر عليه ثانية في عام ١٦٥٨ وله كتاب وسم بعنوان «مذكرات». «المترجم».

(١) شوتار ذات المرجع ص ٣٠-٣٥، زيللر ذات المرجع ص ٩٦-١١٧، لازار ذات المرجع ص ٤٩-٥٠و ٢٠٢-٢٠٤.

(٢) شوتار ذات المرجع ص ٣٦.

العمال في عمل عظيم وإن كان توجيه العمل لم يترك له وحده»[١].

ومع أننا لا نستطيع الفكاك من هذا كله إلا أن ڤوبان في الواقع قد خطط أو صحح تخطيط كل القلاع والحصون التي اتفق عليها، وقد قدم مذكرات وتوصيات فنية، وأوضح رأيه في الكثير من الموضوعات الهامة عندما طلب منه هذا، وفي بعض الأحوال دون أن يطلب منه رأيه، ولكن لم يكن من الضروري أن يوجد عند ما تناقش القرارات الخاصة بإنشاء التحصينات فهو لم يكن ليرسم سياسة شيء ما، وكان صوته إن حضر استشاريًّا.

على أنه لا ينبغي أن يقودنا هذا إلى أن نقلل من تأثيره في القرارات الملكية التي صدرت عن لويس الرابع عشر، وحتى إذا قلنا: بأنه كانت لڤوبان فكرة كاملة للدفاع عن فرنسا فمما لا شك فيه أنها لم تكن لتنفذ تنفيذًا كاملاً، فكم عورضت توصيات لڤوبان. وكم عطلت مشروعات له تبعًا لظروف الحرب والسياسة، وعلى سبيل المثال فإن صلح رزويك لعام ١٦٩٧ الذي كان أول عوامل انسحاب لويس من ميدان الغزو والفتح قد تم دون أن يستشير ڤوبان مباشرة في شروطه، وبالرغم من أن شروط المعاهدة لم تكن مجحفة إلى الحد الذي كان يخشاه ڤوبان إلا أنه كان خديعة كبرى، وكان من الضروري القيام بأعمال وجهود كثيرة مضينة لتعويض فَقْد لوكسمبورج التي اعتبرها ڤوبان واحدة من أقوى المواقع الاستراتيجية في أوروبا، وكذلك تعويض فَقْد نانسي وفريبورج وبريزاخ[٢].

(١) زيللر ذات المرجع ص ١١٨.

(٢) زيللر ص ١٠٣-١٠٤، وأيضًا «حدود فرنسا» بقلم لافالي طبع باريس ١٨٦٤ ص ٨٣-٨٥.

ولكن هل كانت لڤوبان خطة كاملة أساسية عن هذه التحصينات؟

الواقع: أن الآراء تتضارب وتتباين في الإجابة على هذا السؤال؛ فإن كُتَّابَ القرن الماضي تقبلوا دون نقاش فكرة أن ڤوبان كان يعمل طبقًا لطابع استراتيجي وإن كانوا كلهم غير مدركين تمامًا لما كان يشتمل عليه هذا الطابع ، وقد وصف أحد الكتاب هذا الطابع بقوله: «مجموعة من الإنشاءات قريبة من بعضها البعض بدرجة تمكن من حماية الفواصل التي بينها؛ وكل من هذه المواقع الحصينة قوى ومزود بالرجال والعتاد بدرجة تكفي لإرغام العدو على القيام بعملية حصار ، إلا أن الموقع في ذات الوقت يجب أن يكون صغير الحجم إلى الحد الذي لا يتطلب إلا العدد القليل من المدافعين[1].

ولا يوافق زيللر إطلاقًا على هذا؛ فإنه يشير إلى أن لويس الرابع عشر وڤوبان لا يمكن أن يكونا قد بدءا العمل بصفحة بيضاء ، وأن أحدًا منهما لم يكن ليفرض خطته للدفاع دون أن يستند إلى الأعمال التي تمت من قبل ، ثم يضيف إلى هذا أن الكثير من مظاهر وخاصيات هذا التنظيم الدفاعي ترجع إلى فرنسيس الأول وسولي وريشيليو ومازاران وإلي براجهم للإنشاء وإلى مطالب المعاهدات التي ارتبطوا بها؛ ولما كانت حدود فرنسا في عصر لويس الرابع عشر هي ذروة ما أدركته السياسة الأهلية بعمل طويل متواصل؛ فإن توزيع المدن المحصنة إنما كان نتيجة جهد طويل متواصل ليتمشى التنظيم الدفاعي للمملكة مع تغير الخط العام للحدود[2].

وتؤكد حياة ڤوبان نفسه مما يقوله زيللر: من أن إنشاء هذه المجموعة

---

(١) هينيبر نقله شوتار ذات المرجع ص ٤٢.

(٢) زيللر ذات المرجع ص ٢.

من الحصون كان نتيجة تطور تاريخي وليس عمل رجل واحد ، فإن العدد الأكبر من هذه النقط القوية التي نربطها بحياة ڤوبان لم تكن مواقع جديدة بل كانت من القلاع القديمة التي يرجع بعضها إلى عصر «إيرار» أو عهد أسلافه الإيطاليين والتي استحدث ڤوبان من بنائها وقواها ، ولكن الحصون كما أوجدها ڤوبان لم تكن بحال ما لتوجد تنظيمًا كانت واضحة الأهمية فقط كوحدات منفصلة ، ولم يكن هناك اتصال بينها بل كانت في الغالب متباعدة عن بعضها ، وقد اختير كل موقع تبعًا لأهميته المحلية لحراسة قنطرة أو تقاطع طرق أو ملتقى نهرين ، وكانت جملة قيمتها لا تتوقف على مواقعها النسبية بل على عددها[1]؛ ويتفق زيللر ولازار أن المشروع العام لڤوبان نتج عن عملية الاختيار من بين هذه الحصون؛ لقد قام ڤوبان بالتنظيم وسط فوضى منتشرة؛ وبدأ عمله باختيار الحصون التي تجعلها مواقعها أهلاً للاحتفاظ بها وتقويتها واقترح إزالة باقي الحصون ، على أن وجهة نظره الاستراتيچية لم تكن لتعمل في تحرر وانطلاق كاملين؛ فقد كان الاقتصاد القومي يحدُّ من هذا ، وكان مضطرًّا أن يعمل فقط فيما تملك فرنسا إذ ذاك ، ومن السهل أن نكتشف الأصول التي قادت أو وجهت عملية الاختيار هذه ، وبذلك يمكن أن نجد العامل أو الدافع لتفكيره الاستراتيچي.. ثم يبدأ الخلاف بين الرجلين ، ففي الوقت الذي يرى زيللر: أنه ليس في هذه الأصول والمبادئ ما يعتبر فذا ، وأن التنظيم الذي وضعه ڤوبان يقصر عن أن يكون عملاً استراتيچيًّا عظيمًا.

يرى لازار: أن ڤوبان هو أول رجل في التاريخ فكر تفكيرًا طليقًا غير محدود الأفق في الدور الاستراتيچي الذي للحصون ، كما يرى لازار: أن

(١) زيللر ص ١٢٣.

ڤوبان لم يكن مهندسًا وحسب ، بل واستراتيچيًّا ، وأنه كان ذا آراء أكثر تقدمًا من العصر الذي عاش فيه[١]؛ وكانت كتابات ڤوبان وحدها هي التي تمكن القارئ من أن يتفق مع إحدى وجهتي النظر وتقدير مكانة ڤوبان من ناحية التخطيط لا الإنشاء..

على أننا يجب أن نتذكر: أنه نتيجة للحرب ضد أسبانيا ـ أول حرب للغزو ـ استطاع لويس الرابع عشر أن يمد من أراضيه على طول الحدود الشمالية إلى عمق كبير في أراضي الفلاندرز التي يحتلها الأسبان ، وكانت هذه الممتلكات الجديدة والتي تمتد من فيرن قرب الساحل متجهة للشرق مارة بيبرج وكورترى إلى شارلروا قد أعطت فرنسا عددًا من النقط القوية المبعثرة وسط الحاميات الأسبانية؛ وكان أول واجب لڤوبان هو تقوية وإعادة تحصين هذه الممتلكات الجديدة ، وقد شغل هذا كل وقته طوال سنوات السلم من عام ١٦٦٨ إلى عام ١٦٧٢ ، وفي ربيع عام ١٦٧٢ بدأ لويس حربه ضد الهولنديين وانتهز ڤوبان الفرصة لإثارة مسألة التنظيم العام للحدود لأول مرة ، وفي رسالة له إلى لوڤوا تاريخها العشرون من يناير عام ١٦٧٣ كتب يقول: «والواقع يا سيدي أن الملك يجب أن يفكر جديًّا في موضوع إحاطة مملكته بحصون ، فإن هذا العدد من القلاع الصديقة والمعادية المختلطة ببعضها البعض لا يبعث بالطمأنينة إلى نفسي ذلك لأنك تضطر لأن تنشئ ثلاثة حصون بدلًا من حصن واحد»[٢].

ومن كتابات ڤوبان أيضًا نستطيع أن ندرك أنه في عام ١٦٧٥ ـ السنة التي شغل فيها بتدعيم ما حصلت عليه فرنسا بالغزو في «فرانش كومت»

(١) لازار ذات المرجع ٤٠٨-٤٢١.
(٢) لازار ص ١٣٥.

وغيرها ـ قدم ڤوبان مقترحات جديدة أكثر تحديدًا لوجهة نظره في الأمر ، وفي سبتمبر من تلك السنة اقترح حصار كوندي وبوشين وڤلانسيين وكامبري فان الاستيلاء هذه المواقع سيثبت أقدام فرنسا فيما استولى عليه لويس من قبل ، وفي ذات الوقت سيوجد حال الاستقرار الحال التي كانت فرنسا في حاجة إليها ، وتبعًا لهذا استولت فرنسا على تلك المدن ، كوندي وبوشين في عام ١٦٧٦ وڤلانسيين وكامبري في عام ١٦٧٧ ، ثم أعطى صلح نيمويچين لفرنسا ـ الصلح الذي وقع في أغسطس من العام التالي ـ حدودًا تقرب مما كانت تطلبه..

ولكن كانت فرنسا قد نزلت عن بعض ما تملك في الفلاندرز وأخذت بدله سان أومير وكاسل وآير وايبر وعددًا آخر من النقط المهمة.. ، كما حصلت في الشرق على نانسي في اللورين وفريبورج عبر الرين ، ولكن لم يكن ڤوبان راضيًا عن الطرف الغربي لحدود فرنسا الشمالية ، فقد أحس بأن الصلح الأخير (صلح نيمويچين) قد مزق هذا الطرف وترك الحدود مفتوحة من اتجاه الأراضي الواطئة ، وفي نوفمبر عام ١٦٧٨ أي بعد نيمويچين بثلاثة أشهر كتب ڤوبان بداية سلسلة من الدراسات الهامة عن تنظيم الحدود الشمالية من القناة الإنجليزية «المانش» إلى الميز[1].

على أن الذي يعنينا في مناقشة ڤوبان للأمر هو ما يكشف عنه من أغراض الحدود المحصنة فهي «يجب أن تغلق في وجه العدو كل النقط التي تصلح ليدخل منها إلى البلاد ، وفي نفس الوقت يجب أن تسهل هذه الحدود المحصنة مهاجمة بلاد العدو» ، ولم يفكر ڤوبان قط في أن الحصون لها أهميتها في الدفاع وحسب بل وكان حذرًا في أن يوضح أهميتها كقواعد للعمليات

(١) لازار ذات المرجع ص ٤٠٩ - ٤١٤ ، زيللر ذات المرجع ص ٩٦-٩٨.



ڤوبان يحصن دنكرك ضد الأسطول الإنجليزي

الهجومية ضد العدو ، فإن المواقع المحصنة يجب أن تكون بحيث تسيطر على وسائل المواصلات في داخل الدولة. وأن تمكن من التقدم نحو أرض العدو تبعًا لسيطرتها على الطرق الهامة الرئيسية وعلى رءوس الكباري ، كما يجب أن تكون كبيرة بدرجة كافية ليمكن أن يختزن فيها ليس فقط العتاد أو التموين اللازم للدفاع عنها بل وكل الاحتياجات الضرورية لاستمرار إمداد عمليات الهجوم التي تستند إليها ، وقد وضحت هذه الآراء بإيجاز في هذه المذكرات؛ ولكنها قدمت في إفاضة بوساطة أحد مريدي ڤوبان في القرن الثامن عشر هو المهندس المغامر «ميجريه» الذي ذكره ڤولتير في كتابه: «شارل الثاني عشر» والذي كانت دراسته عن «الاحتفاظ بأمن وسلامة البلاد بوساطة الحصون» هي المرجع الرئيسي فيما بعد لدراسة الأهمية الاستراتيچية للحصون ، ومع أن هذا الكتاب ليس معروفًا إلا للقلة فقد استعملته المدرسة الفرنسية للهندسة العسكرية مدرسة ميزيير في مقدمة مراجع الدراسة فيها.

وفي هذا الكتاب يقول ميجريه: أن أحسن القلاع هي تلك التي تحرم العدو من كل طرق الاقتراب إلى أرض الدولة وفي ذات الوقت تعطي الفرصة الحسنة لمهاجمة أرض العدو[1].

وقد قدم ميجريه الخواص التي تؤكد أهمية الحصون.. وأوجزها فيما يلي:

١- أنها تسيطر على الطرق الرئيسية المتقدمة لداخل أرض الدولة كأن تكون معبرًا في سلسلة جبلية مثلاً.

---

(١) ميجرية: الدراسة: طبع باريس عام ١٧٢٥ ص ١٤٩.

٢- أنها تسيطر على رءوس الكباري التي على الأنهار العظيمة وتتضح هذه الخاصية على سبيل المثال في ستراسبورج.

٣- أنها تسيطر على خطوط المواصلات المهمة في داخل أرض الدولة ومثال هذا لوكسمبورج التي كانت تحمي مواصلات الإمبراطور إلى الأراضي الواطئة.

على أن هناك بعض العوامل الأخرى التي قد تجعل للحصن أهمية خاصة كأن يكون قاعدة تموين لعملية هجومية ، أو ملجأ للناس من المناطق المحيطة به ، أو كأن يمكن من السيطرة التجارية ومن تحصيل الضرائب الصحيحة من الأجانب المارين به ، وربما كان ميناء بحريًّا محصنًا مع مرساة آمنة ، أو أن يكون مدينة تصلح لخدمة الملك يحتفظ فيها بثروته وكنوزه ضد الأعداء من داخل البلاد وخارجها[١].

والواقع أن قيمة الحصن تتوقف بدرجة كبيرة على طبيعة موقعه المحلي فمن الممكن أن يصنع العلم والفن شيئًا لعلاج النقص والمساوئ الخاصة بالأرض ولكنها لا يفعلان إلا القليل فيما يختص بالمواصلات ، وبذلك فإن بعض الحصون يكون لموقعها نفع كبير ذلك لأنه يضمن للمدافعين السيطرة على المواصلات التي تؤدي إليها. وفي ذات الوقت يسبب صعابًا كثيرة للعدو وعلى الأخص في إحضار التموين اللازم له للقيام بعملية حصار طويلة[٢].

وقد مكنت هذه النقاط من تفضيل بعض القلاع على غيرها ولكن بقيت مسألة واحدة هي الصلات التي تربط الواحدة منها بغيرها. أو بمعنى

(١) ميجريه ذات المرجع ص ١٢٩ – ١٤٨.

(٢) ميجرية ذات المرجع هامش ص ١٥٦ وص ٢٢١-٢٢٢.

آخر وسائل الاتصال بين كل حصن والحصون التي على أجنابه وخلفه أو أمامه ، وقد انتهى ڤوبان في تسجيله لتجارب عام ١٦٧٨ إلى أن الحدود يمكن أن تحصن بدرجة كافية إذا ما حددت المواقع التي تحتل في خطين اثنين وفي كل خط ما يقرب من ثلاثة عشر موقعًا[١] ، كما يمكن أن تزاد تقوية الخط الأول باستخدام خط المياه الممتد من البحر إلى شيلد فإن الأنهار والقنوات «القنالات» ومجاري المياه المستخدمة للملاحة يمكن أن تربط حصنًا بآخر ، كما يمكن أن تحمي القنالات نفسها بأن تنشأ على مسافات منتظمة تحصينات صغيرة منعزلة..

على أن هذا المشروع لم يكن أصيلاً بالنسبة لڤوبان بل الحقيقة أنه كان عملية تجري في جزء من الحدود عندما كتب هذا ، كما أنه لم يكن متأثرًا بقوة خطوط المياه؛ ذلك لأنه رأى أن الغرض الأساسي منها إنما هو المعاونة في العمل ضد الإغارات الاكتساحية التي تقوم بها الجماعات الصغيرة من العدو والتي تقوم بأعمال المضايقة والإزعاج ، أما إذا قرر عدو مهاجمة التحصينات على الحدود بجيش فمن الضروري الدفاع عن هذه الخطوط بجيش مماثل[٢].

وكان من الطبيعي أن مثل هذا المشروع يتطلب منشآت جديدة ، ولكن ڤوبان كان حذرًا من أن يشير إلى أنه يعني أيضًا إلغاء عدد كبير من النقط القوية القديمة ، وتبعًا لهذا فقد ألح في إزالة كل الحصون البعيدة عن

(١) كان الخط الأول يتكون من: دنكرك ـ بيرج ـ فيرن ـ فورت دي كنوك ـ ايبر ـ مينين ـ ليل ـ تورناي ت فورث دي مورتان ـ كوندي ـ ڤلانسيين ـ لوكوينزنوي ـ موبيج ـ فلبفيل ـ دينانت؛ وكان الخط الثاني يتكون من: جراڤلين ـ سان أومير ـ آير ـ بيتين ـ آراس ـ دوي ـ بوشين ـ كابري ـ لا ندرسيز ـ اڤيسنيه ـ اڤين ـ ما رينبورج ـ ركروا ـ شارلڤيل.

(٢) لازار ذات المرجع ص ٢٨٢-٢٨٤.

الحدود ، والتي ليست ضمن هذين الخطين ، ولم يكن هذا اقتصادًا من الناحية المالية بل كان أيضًا اقتصادًا في القوى العددية ، فإن إلغاء عشر نقط قوية إنما يعني إطلاق ثلاثين ألف جندي للقيام بواجباتهم في مواقع أخرى.

وقد وضحت أيضًا تسجيلات عام ١٦٧٨ تقدير إمكان القيام بغزوات مقبلة ، وتشير هذه إلى غاية ما يختص بالحدود الشمالية والشرقية إلى أن ڤوبان كان راغبًا في تمهيد الطريق لشيء أكثر إطماعًا .. إلى شيء أكثر من الإصلاح المحلي لخط من التحصينات ، فلقد قال بأنه في حال حرب مقبلة فإنه يجب القيام مباشرة باحتلال عدد معين من حصون العدو ، فإن ديكسمود وكوتراي وشارلمو إنما تفتح الطريق إلى الأراضي الواطئة ، بينا نجد في الشرق ستراسبورج ولكسمبورج من أهم المدن التي يجب الاستيلاء عليها ، وقد أضاف ڤوبان أنه لم ينظر إلى هذه الحصون من ناحية بنائها القوي أو موقعها ، فهي من هاتين الناحيتين من أحسن ما في أوربا من حصون ، ولكنه ينظر إليها لأنها هي «مفاتيح» طرق الاتساع الفرنسي للوصول إلى الحدود الطبيعية لها. ولم يكن ڤوبان ليكون مواطنًا فرنسيًّا لو لم يتقبل المبدأ بأن حدود فرنسا من الشمال والشرق يجب أن تكون على نهر الرين ، ومن الممكن أن نحزر بأن هذا قد خطر له وتبلور في تفكيره منذ بكورة أيام حياته. ومن المؤكد أنه في تاريخ متأخر قبل صلح ريزويك مباشرة جزع من أن فرنسا كادت تفقد ستراسبورج ولوكسمبورج ، وكتب يومذاك يقول: «إننا إذا لم نستعدهما من جديد فإننا سنفقد إلى الأبد فرصة جعل الرين حدًّا لبلادنا»[١].

وليس من السهل أن نؤكد ما إذا كان تسجيل عام ١٦٧٨ يوضح

(١) لافالي ص ٨٣- ٨٥.

وجهة نظر ڤوبان الناضجة النهائية بالنسبة لموضوع التحصينات الدائمة ، فإن مذكراته الأخيرة تترك الكثير مما كان يجب تقديمه كأمثلة للتفكير الاستراتيجي عن دور الحصون وواجباتها ، تترك هذا كله دون استكمال. *والواقع* أنه فيما عدا المذكرة الخاصة بتحصينات باريس والتي ناقش فيها بإفاضة الأهمية الاستراتيجية التي للعاصمة ، فإن الكثير من دراساته التي جاءت بعد هذا إنما ينقصها الطابع الاستراتيجي ، فقد عنيت كلها أساسيًّا بتوصيات ضافية عن أي الحصون التي يجب أن تدمر؟ وأيها يجب أن يزاد حجمها؟ وأيها يعاد بناؤها؟.

وبالرغم من هذا فليس من الصعب أن نكتشف سلسلة من صور التغيير والتبديل في آراء ڤوبان قد ترجع جزئيًّا إلى التطور في أفكاره. ولكنها ترجع أساسيًّا إلى تغير الأحوال التي كان مرغمًا على العمل فيها طوال السنوات الأخيرة لذلك العصر ، فإن ازدياد ثقل العبء المالي ثم الاستهلاك الكبير في قوى الأفراد قد شجعا ڤوبان أن يلح في إزالة التحصينات التي تقرر إلغاؤها بذات القوة إن لم يكن أكثر من إلحاحه لبناء إنشاءات جديدة[1] ، وقد أدى هذا به إلى الحث على تدمير الكثير من المواقع التي وضعها ضمن دفاعات الخط الثاني في مذكرته لعام ١٦٧٨ ، وفي ذات الوقت كانت جيوش لويس الرابع عشر قد دفعت بدرجة أكبر وأكبر لاتخاذ خطة الدفاع؛ وتبعًا لهذا اتجه ڤوبان بدرجة أكبر نحو التفكير الدفاعي ، لقد اتبع الاتجاه الذي بات واضحًا في نهاية القرن نحو الاعتماد الكبير على خط المياه الممتد على طول الحدود الشمالية ، ولكنه قد قدر في ذات الوقت الضعف الواضح في هذا اللون من الدفاع ، وكتب في عام ١٦٩٦ مذكرة حثَّ فيها على إيجاد

---

(١) زيللر ص ٩٨-١٠٧. Zeller, op. Cit. PP ٩٨-١٠٧

معسكرات محصنة كعضد للحصون ، ولتقوية خطوط المياه ، وكان الغرض من هذه المعسكرات المحصنة إما حراسة خطوط المياه في الفواصل بين الحصون وإما تقوية الحصون نفسها بإيجاد دفاع حقيقي خارجي ، فإنه يمكن بجيش صغير ـ أصغر من جيوش الميدان العادية ـ يعسكر خارج تحصينات أي قلعة وتعد لوقايته حفر سريعة مؤقتة.. يمكن به إما التدخل المباشر ضد القوات التي تقوم بحصار الحصن حصارًا مباشرًا ، وإما أن يضطر هذه القوات لتوسع من نطاق عملية الحصار التي تقوم بها ، وبذلك يتسع نطاق عملها كما يتطلب الأمر قوات أكبر قد لا تكون ميسورة.

وبتقدير هذين العاملين معًا ـ «العامل الأول هو الإصرار على إنشاء خط ممتد متصل تدعمه معسكرات محصنة ، والعامل الثاني هو الرغبة في التضحية بخط الدفاع الثاني الذي دافع عنه في مذكرة عام ١٦٧٨» ـ فإننا لا نجد ما يدعم ويقوي ما يقوله لازار من أن ڤوبان كان أول المفكرين في «المناطق المحصنة» الشيء الذي جاءت به الاستراتيجية الحديثة ، بل على النقيض فإن تفكير ڤوبان كان يتجه إلى ترقيق وترقيق الخط الدفاعي ، وقد بسط من هذه أيضًا إلى نطاق مفرد يستند إلى نقط قوية ترتبط ببعضها البعض بخط مائي تدعمه الجنود؛ وربما لا نكون مسرفين إذا رأينا في هذا دليلاً على أن المهندس الكبير قد اقتيد في أواخر أيام حياته لأن يلقي العبء الأكبر على الجيوش تاركًا أقل العبء وأبسطه على التحصينات ، ويبدو أنه اقترب من رأي جيبير(*) في أن الدفاع الحقيقي عن أي دولة إنما يحتمله جيشها لا تحصيناتها ، وأن النقط الحصينة هي فقط بمثابة البروج البارزة من القلعة الكبيرة التي يكون الجيش ستارها الحي المرن.

(*) راجع الباب الثالث من الكتاب للتعريف بجيبير وآرائه.

مراجع الفصل الثاني
فوبان: تأثير العلم في الحرب

M. le Maréchal de Vauban, Traité de l'attaque et de la défense des places. (Pierre de Hondt the Hague, ١٧٤٢).

Nicolas de Fer, Introduction a la fortification dédiée à Monseigneur le Duc de Bourgogne. (Paris, ١٦٩٣).

F.R. Taylor, The Art of War in Italy, ١٤٨٤- ١٥٢٩.

(Cambridge, ١٩٢١).

Sir Charles Oman, The History of the Art of War in the Sixteenth Century. (London, ١٩٣٧).

Edgard Boutaric, Institutions militaries de la France avant les armées permanents (١٨٦٣).

Louis André, Michel le Tellier et l'organization de l'armée monarchique (١٩٠٦).

Camille Rousset, Histoire de Louvois et de son administration politique et militaire, ٤ vols. (١٨٦٢-١٨٦٤).

Albert Duruy, L'armée royale en ١٧٨٩ (١٨٨٨).

Albert Babeau, La vie militaire sous l'ancien régime (١٨٨٩-١٨٩٠).

General Susane, Histoire de l'ancienne infanterie française (١٨٤٩).

Histoire de la cavalerie française (١٨٧٤).

Lt. Colonel Augoyat, Aperçu historique sur les fortifcations, les ingénieurs, et sur le corps de genie (٣ vols., ١٨٦٠-١٨٦٤).

E. Legrand – Girade, Etude historique sur le corps du génie, Revue du génie militaire (١٨٩٧-١٨٩٨).

C. Lecomte, Les ingénicurs militaires en France sous le régine de Louis XIV (١٩٠٤).

J. Tripier, La fortification déduite de son Histoire (١٨٦٦) Prévost du Vernois, De La fortification depuis Vauban (١٨٦١).

A. de Zastrow, Histoire de la fortification permanente (٣rd. ed, ١٨٥٦, trans. From the German by Ed. De la Barre – Bupareq.).

M. Maigret, Traité de la Sureté et Conservation des Etats, par le moyen des Fortresses (١٧٢٥).

Sir Reginald Blomfield, Sébastien le Prestre de Vauban, ١٦٣٣-١٧٠٧. (London, ١٩٣٨).

E. M. Lloyd, Vauban, Montalembert, Carnot, Engineer Studies (London ١٨٨٧).

P. Lazard, Vauban (١٩٣٤).

George Michel, Histoire de Vauban (١٨٩٧).

Daniel Halévy, Vauban (١٩٢٣).

Fontenelle, Eloge du Marechal de Vauban.

Voltaire, Siécle de Louis XIV.

A. Allent, Histoire du corps impérial de genie (١st and only Volume ١٨٠٥).

H. Chotard, Louis XIV, Louvois, Vauban et les fortifications du Nord de la France.

Gaston Zeller, L'organisation défensive des frontières du Nord et de l'Est au XVIIe Siècle (١٩٢٨).

Augoyat, Mémoire inédites de Vauban sur Landau, Luxembourg et divers sujets (Paris, ١٨٤١).

Mémoires du Maréchal de Vauban sur les fortifications de Cherbourg, ١٦٨٦ (Paris, ١٨٥١).

Colonel de Rochas, Vauban, sa famille, et ses écrits, ٢ Vols. (١٩١٠).

Hyrvoix de Landosle, Vauban's Lettres intimes inédites adressées au Marquis de Puyzieulx (١٩٢٤).



فردريك الأكبر (١٧١٢ – ١٧٨٦)

الفصل الثالث

فردريك الأكبر .. جيبير .. بيلو

من حروب الأسر الحاكمة إلى الحروب الأهلية

بقلم ر. ر. بالمر

شهدت الأيام بين عام ١٧٤٠ وعام ١٨١٥ ـ العصر الذي بدأ باعتلاء فردريك الأكبر عرش بروسيا وانتهى بإنزال نابليون عن عرشه كإمبراطور للفرنسيين ـ شهدت هذه الأيام التي امتدت إلى ثلاثة أرباع القرن كمال الأسلوب القديم لفن الحرب ، وبداية الأسلوب الحديث الذي ما زلنا نتبعه في صور كثيرة.

والحديث عن التباين بين هذين الأسلوبين ـ القديم والحديث ـ هو في الواقع الهدف الرئيسي لهذا الفصل من الكتاب ، فلقد أمكن للكثير من نواحي الأسلوب القديم أن يحيا من جديد في الأسلوب الحديث ، ***والواقع*** أن الآراء التي صورت وقدمت في الفصلين السابقين لا يمكن القول بأنها قد عفا عليها الزمن ، فإنها لا تزال حتى اليوم ضرورية لازمة لنظرية الحرب..

لقد جعل مكياڤيللي دراسة الحرب علمًا اجتماعيًّا ، وقد فصلها عن الاعتبارات ذات الأغراض المعنوية وربطها وثيقًا بالنظريات ووجهات النظر الاقتصادية والقانونية والسياسية ، وجاهد في هذه المسائل العسكرية ليزيد من ميدان التخطيط البشري ويقلل من ميدان الفرص والاحتمالات؛

وفتح ڤوبان لرجال الجندية موارد العلوم الطبيعية والفنية ، وعملت حكومة لويس الرابع عشر وهي تزيد من حجم الجيوش على أن تزيد أيضًا من تقدم أصول الإدارة والرقابة السليمتين ، ووضعت الأصول الحديثة للضبط والربط ، وأوجدت تكوينًا قائمًا سليمًا للوحدات التكتيكية ، ووضحت سلسلة القيادة ، وحولت من قادة الجيش ليكونوا موظفين عموميين ، وجعلت من القوات المسلحة خدمًا للدولة وللحكومة ، وقد زادت سرعة تطور وتحسين كل هذه الإصلاحات في فترة التغير والانتقال هذه ، والتي سنتناول التأريخ لها في هذا الفصل من الكتاب..

على أن أبرز المكتشفات الجديدة فيما يختص بإنشاء واستخدام الجيوش كانت واضحة في «القوى العددية» و«الاستراتيجية»؛ فقد حلت جيوش المواطنين مكان جيوش المحترفين ، وحلت استراتيجية الاعتداء وخفة الحركة والمقاومة مكان الاستراتيجية البطيئة التي تقوم على أعمال الحصار؛ وقد توقع مكياڤيللي كلا الأمرين؛ ولكن مما لا شك فيه أن كلا الأمرين لم يدركا في مدى واسع منذ عام ١٥٠٠ ، فلما كان عام ١٧٩٢ سبَّبَ كل منهما بعد ذلك ثورة في فن الحرب؛ فحلت مكان الحرب «المحددة» في النظام القديم الحربُ «غير المحددة» في العصور التالية ، وقد جاء هذا التحول تبعًا لانتقال الأمر من حكومات الأسر الحاكمة إلى الحكومات الشعبية الوطنية ، وكان نتيجة تابعة للثورة الفرنسية؛ فلقد كان من الضروري قبل الثورة الفرنسية أن تجيء الحرب بسبب الاصطدام بين الحكام من الملوك ، ولكن منذ ذلك التاريخ باتت تجيء بدرجة متزايدة نتيجة للاصطدام بين الشعوب. وبذلك فإنها كانت تتحول بسرعة لتكون حربًا أممية شاملة[١].

---

(١) راجع كتاب م . جانز =M. Jahns: Geschichte der Kriegswis sennschaften Vormehmlich

كان نظام حكومات الأسر الملكية يضع عدة تحديدات لها أثرها في حشد وتكوين الجيوش ، وكان الملك ـ مهما كان هو من الناحية النظرية مطلق السلطة والسلطان ـ يقف دائمًا في موقف لا ينتفع منه ولا يحسد عليه ، وكانت كل حكومة ملكية تقف مضطربة التوازن بين البيت الحاكم وبين طبقة النبلاء ، وكانت امتيازات النبلاء تحدّ من حرية عمل الحكومة؛ ذلك لأن هذه الامتيازات كانت تشتمل على حق عدم دفع ضرائب معينة ، كما تتضمن حق احتكار مراكز ورتب خاصة في الجيش ، ولا تستطيع الحكومة مع تحديد دخلها الضرائبي أن تسحب كل الموارد المادية التي في أرضها ، كما لا تستطيع كذلك أن تستخدم كل مواردها البشرية ، وكان من الضروري أن يجيء الضابط من طبقة خاصة يحمل أفرادها ألقابهم بالوراثة ، ومن النادر أن تتعدى هذه الطبقة اثنين في المائة من مجموع السكان ، ولم تكن توجد بين الشعوب في جملتها وبين حكوماتها إلا القليل من المشاعر المتبادلة ، وكانت الرابطة بين الحاكم والمحكومين رابطة إدارية مالية تقوم على الوظائف والموظفين ، أي على صلة خارجية آلية بين الحاكم والمحكوم وتتعارض مع المبدأ الذي جاءت به الثورة والذي أوجد تبعًا للعقيدة التي تقوم بمسئولية المواطن وسيادة الشعب ما يمكن أن يقال عنه بأنه تمازج واتحاد ديني قوي بين الحكومة والمحكومين.

كانت الحكومة الجيدة في النظام القديم ، هي الحكومة التي لا تتطلب إلا القليل من رعاياها ، الحكومة التي تعتبرهم نافعين لهم قيمة إنتاجية للدولة ولا تتدخل وقت الحرب في أسلوب حياتهم المدنية إلا لأقل ما يمكن؛ وكان الشعب الجيد في نظر هذه الحكومات هو الشعب الذي يطيع

=in Deutschland ثلاثة مجلدات طبع ميونيخ عام ١٨٩١ المجلد الثالث.

أفراده القوانين ويدفعون الضرائب مع الولاء للبيت الحاكم. ولم يكن هذا يتطلب ذاتيته كشعب أو وحدته كأمة أو مسئولية في الشئون العامة دون ما اضطرار للجهد الكبير في الحرب ، وكان الجيش مرآة للدولة وانعكاسًا لها ، كان مقسمًا داخليًّا إلى طبقات بغير روح واحدة عامة متماسكة ، في جانب من الجيش: ضباط كل ما يعنيهم هو شرف الجندية مع الشعور بالتفاخر أو الطمع ، ولا تغيب عن أذهانهم قط فكرة الأوضاع والطبقات في الحياة العامة ، وفي الجانب الآخر: جنود مجندون لفترات طويلة ، وقد حاربوا على أساس أن الحرب عمل ينالون منه ما يقوم بأودهم ، جنود ظن بأنه لا يمكن أن تتوافر فيهم أية فضائل ، وكانت كل الروابط التي توجد لونًا من الاتحاد بينهم هي تفاخرهم البسيط بالآليات التي يتشكلون فيها؛ وكانت جيوش روسيا والنمسا وبروسيا تكوّن في غالبيتها من الطبقات الفقيرة ، واستخدمت بروسيا وبريطانيا الكثير من الغرباء في جيوشهما ، وكانت القوات النمساوية تزخر بخليط من اللغات؛ بل كان الجيش في جملته وكأنه من شعب آخر ، وكان الاتجاه العام في الدول كلها هو أن يجند الأفراد الذين يعتبرون عديمي النفع من الناحية الاقتصادية ، أو بمعنى آخر: أدنى الطبقات في الشعب ، وكان الأهالي المدنيون يقون بمعزل عن الجنود ، وحتى في فرنسا ـ التي كانت تجمع في جيوشها العدد الكبير من المواطنين وبنسبة أكبر مما في أي دولة أوروبية أخرى ـ كانت المقاهي تضع عند أبوابها لافتات خطَّ عليها «ممنوع دخول الكلاب والخدم والبغايا والجنود»![1].

ولإمكان تكوين جيش من طبقات متباينة متعددة ـ من جنود هم في

---

(١) م. ڤيجان «تاريخ الجيش الفرنسي» .Weygand; Histoite de l'armée Française طبع باريس ١٩٣٨ ص ١٧٣.

الغالب من المنبوذين اجتماعيًّا ، ومن ضباط هم فقط شبان نبلاء ـ كان من الضروري أن يوجد غرض عام ، وهدف يمكن أن يجمعهم معًا ، وقد كان هذا من الصعوبة بمكان تبعًا لأنه لم يكن يتوافر في الجنود إلا القليل التافه من المعنويات ، وقد آمنت الحكومات ـ وكان لهذا الاعتقاد أو الإيمان أسبابه ـ أن النظام يجب أن يفرض فرضًا من خارج الجيش ، ولم يكن قد غاب عن الذاكرة هذا الرعب الذي أثارته الجندية الطليقة غير المحكومة وعلى الأخص في ألمانيا بعد حرب الثلاثين سنة ، وقد حاول ملوك القرن الثامن عشر أن يوفروا المدنيين من شعوبهم بدافع إنساني من جهة ، وتبعًا لأنهم عوامل الموارد المالية للدولة.

على أن الحكومات لكي توجِدَ نظامًا بين الجنود ، ولكي يمكن أن تتوافر الروح المعنوية بينهم سيما وأنهم لا يستجيبون للمستويات الفكرية فإنها قد زادت من عنايتها بهم؛ فأسكنتهم المعسكرات ، وأمدتهم بالأطباء ، وأنشأت المستشفيات ، وأطعمتهم بالمجَّان ، وأنشأت المستودعات الكبيرة لتموينهم وإمدادهم بعتاد الحرب ، ومع هذا فقد بقيت الحكومات تخشى دائمًا أن يفرَّ الجنود من الخدمة العسكرية إذا تركوا للبحث عن الكلأ في جماعات صغيرة ، أو إذا هبط مستوى معيشتهم في الجيش عن المستوى الذي يطمعون في إدراكه؛ ذلك لأن الهدف الرئيسي للجندي المحترف كان دائمًا هو أن يحصل أولًا على ما يقوم بأوده لا أن يقاتل أو أن يموت من أجل تحقيق هدف للدولة مهما كان هذا الهدف ، والحق أن الجنود والضباط كانوا طوال القرن الثامن عشر ينتقلون من جيش إلى آخر بسهولة ويسر سواء أكان هذا في الحرب أم في السلم ، «وكان من الممكن أن أسرى معركة ما يقاتلون في صفوف الجيش الذي أسرهم في المعركة التالية وضد الجيش

الذي كانوا أصلًا من قوّاته»(*).

وفي ذات الصورة وجهت الحكومات عناية كبيرة للنظام والتدريب ، وكانت الفكرة هي أن الحكم القاسي العنيف «الحكم الحديدي» هو الذي يمكن من إيجاد وحدة متماسكة من هذه المجموعات من الجنود الذين لا توافق ولا انسجام بينهم ، وكان الحكام والنبلاء لا يتوقعون إطلاقًا أن يجدوا أيًّا من الصفات المعنوية والفضائل في هذه الطبقات الدنيا التي يعمل أفرادها في الجندية ، كما أنه لم يكن من المحتمل قط أن تتوافر بين هؤلاء الجنود لا الشجاعة ولا الولاء ولا روح الجماعة ولا التضحية ولا الاعتماد على النفس.

والواقع أن هذه الصفات كلها لم تغرس بين جنود ذلك العصر ، والذين مثلهم مثل الشعوب التي تحكمها أسر ملكية ، لم تكن تتوافر فيهم مشاعر الرغبة للمشاركة في الحرب ، ولم يكن من الممكن الوثوق بالجنود كأفراد ولا أن يتركوا في جماعات منعزلة بعيدًا عن رقابة ضباطهم ، وكانت الاعتبارات الفنية لا تشجع «الفردية» ، وكانت حال المواصلات السيئة وضعف القدرة على الاستكشاف بسبب جهل الجنود وعدم إمكان الاعتماد على الجندي الفرد ، كان هذا كله يحول دون تقسيم الجيش في الميدان؛ وفي ذات الوقت سبب عدم ضبط البنادق وقِصَر مرماها أن أضحت النيران الفردية عديمة الضرر نسبيًّا.

وكنتيجة لهذا كله فإن هدف التدريب العسكري إنما كان صهر مادة خاملة عديمة الروح وتحويلها إلى كتائب أشبه بالآلات ، فإذا ما اشتبكت

(*) راجع تنظيم فردريك الأكبر لاستخدام أسرى الحرب في قواته المقاتلة العهد السياسي المجلد السادس ص ٢٢٦ وما بعدها. «المترجم».

هذه الكتائب بالعدو فإنها تقف متلاصقة كل كتيبة بجوار الأخرى في خط جامد صلب؛ وكان الجنود يقفون متجاورين المرفق في المرفق بعمق ثلاثة صفوف متتالية ، وتكون كل كتيبة نوعًا من الآلة التي تطلق النيران في مجموعة كبيرة بأمر رجل واحد ، وكان من الضروري للحصول على وعي تكتيكي أن يمر الأفراد بمرحلة تدريب عنيف طويلة؛ ولهذا فقد اعتبر أن سنتين هما أقل مدة كافية لتحويل رجل ضعيف فقير من الطبقة الدنيا إلى جندي محترف..

وقد أثر تكوين الجيوش بدرجة كبيرة في استخدامها ، فإن الجيوش كانت عبئًا ماليًّا ثقيلًا على حكومات النظام القديم تبعًا لمواردها المالية المحدودة ، وكان كل جندي يمثل عبئًا ثقيلًا في الوقت والمال ، ولم يكن من السهل استعاضة الجنود المدربين الذين يفقدون في القتال ، وكانت المستودعات الكبيرة للأغذية والذخائر والتي تحتفظ بها على مقربة من المناطق المتوقعة للقتال تتطلب الوقاية ، وبالإضافة إلى هذا ففي المرحلة الأخيرة من القرن السابع عشر مكّن التقدم الفني من تحسين فن التحصينات ، وانتشرت في فرنسا وألمانيا كراهية للحروب التي عرفت باسم «الحروب الدينية» والتي سببت إضعاف الحياة المدنية المنتجة ، وكانت نتيجة هذا أن حُشِدت الجيوش في سلسلة من المواقع المحصنة ، وكان الجيوش وأقسامها لا تعتبر على أهبة للعمل حتى قرب قواعدها والتي لم يكن من المتوقع أن ترحل عنها لأكثر من مسيرة خمسة أيام؛ وحتى مع كون المستودعات قريبة خلف الجيوش فإنها كانت تحمل معها الكثير من الأحمال والأمتعة؛ ولهذا فإنها لم تكن لتقطع غير مسافة قصيرة جدًّا في اليوم الواحد ، ولم يكن من السهل كذلك أن تخفض هذه الأحمال والأثقال ، فإن الضباط

الأرستقراطيين كانوا يسافرون ومعهم ثيابهم وأمتعتهم ، وكان الجنود ـ وهم يحاربون أصلًا دون أي دافع سياسي ـ يفقدون معنوياتهم إذا وضح لهم أن غذاءهم غير متوقع وصوله أو أن العمليات ستكون عنيفة.

وكان من النادر في تلك الظروف أن تحدث معارك في نطاق واسع بين جيوش كاملة ، ولم يكن من السهل أن يوجد القائد اتصالًا مع جيش العدو العازف عن القتال ، وحتى مع وجود جيشين متواجهين فإن إعداد خط المعركة كان يتطلب الوقت الطويل ، فإذا ما فكر أحد الجانبين في الرحيل والتحرك بينما يكون الجانب الآخر يتشكل للمعركة ، استطاع هذا في يسر؛ لأنه لم يكن يوجد الاشتباك الكامل الذي يمنع أو يعطل الجيش الراغب في الانصراف من ميدان المعركة عن إتمام غرضه ، وكانت المعركة مخاطرة كبيرة ، ثم إنه لم يكن من السهل أن يزاد من الكسب البسيط الذي تجيء به معركة ما؛ ذلك لأنه لم يكن قد تمَّ الوصول بعد إلى فن المطاردة التَّدمِيرِيَّة أي المطاردة التي تمكن من سحق قوات العدو المنسحبة أو المتقهقرة.

وقد وصل المفكرون العسكريون إلى أن الدولة يمكن أن تقاسي من النصر مثلما يمكن أن تقاسي من الهزيمة ، ولم تكن النتائج السياسية السريعة والحاسمة يمكن أن تتوقع بحال ما من المعركة ، وهنا يتضح الفرق على التخصيص بين معارك القرن الثامن عشر وبين معارك حروب نابليون ، فبعد بلنهايم ومالبلاكية وفونتينوا وروزباخ استمرت الحرب تسير متعثرة لسنوات. ولكن بعد مارنجو وأوسترلتز وييناا وواجرام أو ليبزج(*) بدأت

(*) بلنهايم Blenhaim في باڤاريا كانت مسرح هزيمة الفرنسيين والباڤاريين في ١٣ أغسطس عام ١٧٠٤ بجيش مارلبورو والبرنس أوجين وخسر فيها الفرنسيون ثلاثين ألفًا بين قتيل وجريح وأسير أي ربع عدد جيش الحليفتين معًا فرنسا وباڤاريا.=

مفاوضات السلم في شهور قليلة.

ولكي نجمل الحديث فإن عوامل متشابكة كثيرة سبقت الثورة الفرنسية كانت هي التي تحدد من الحروب ومن وسائل القتال ، بل وحتى من الأهداف التي تعمل لتحقيقها ، وكانت الحروب طويلة ولكنها لم تكن عنيفة ، وكانت المعارك مدمرة لأن كمية نيران الكتائب كانت قاتلة؛ ومن أجل هذا لم يكن أحد تواقًا لخوضها ، وتحولت العمليات بالاختيار والتفضيل للقتال ضد الحصون ومستودعات خطوط التموين والمواقع

=مالبلاكيه Malaplaquet انتصر فيها مارلبورو والبرنس أوجين على الفرنسيين مرة ثانية في عام ١٧٠٩ ، وتقع مالبلاكيه على مسافة واحد وعشرين ميلًا لشرق بجنوب ڤلانسيين.

فونتينوا Fontenoy في البلجيك على مسافة خمسة أميال جنوب شرق تورناي هزم فيها بقيادة الماريشال ساكس دوق كمبرلاند وحلفائه وأفنوا اللولر الإيرلندي ، وكان هذا في عام ١٧٤٥ إبان حرب الوراثة الأسبانية.

رزباخ Rossabach مدينة في ولاية ساكسوني البروسية القديمة انتصر فيها فردريك الأكبر على النمساويين والبروسيين عام ١٧٥٧.

مارنجو Marengo في بيديمونت بإيطاليا كانت مسرح القتال بين نابليون والنمساويين عام ١٨٠٠ وانتصر فيها نابليون (توجد مدينة بذات الاسم في الجزائر وتقع على مسافة ٣٨ ميلًا لغرب بجنوب غرب مدينة الجزائر).

أوسترلتز Austerliz مدينة صغيرة في موارفيا (٨٠ ميلًا شمال شرق ڤيينا) كسب فيها نابليون يوم ٢ ديسمبر عام ١٨٠٥ معركة حاسمة ضد الروس والنمساويين ، وبعد أسابيع قليلة وقَّعت النمسا صلح بريسبورج.

يينا Jana بلدة في ألمانيا ١٢ ميلًا جنوب شرق ويمر تحيط بها تلال من الحجر الجيري ، انتصر فيها نابليون على النمساويين يوم ١٤ أكتوبر عام ١٨٠٦ لمرتين في يوم واحد.

واجرام Wagram قرب ڤيينا هزم فيها نابليون الارشيدوق شارل النمسوي في يوليو عام ١٨٠٩.

ليبزيج v. Leipzig ٧٠ ميلًا شمال غرب درسدن في ساكسوني بألمانيا حدثت في جوارها المعركة الكبيرة في عام ١٨١٣ وانتصر فيها حلف دول أوروبا على نابليون.

المهمة ، وبذلك أوجدت حربًا كانت المقدرة على المناورة فيها أكثر كسبًا من الصمود والثبات في القتال ، وسيطرت حرب المواقع على حرب الحركة ، وسادت استراتيچية الحصول على فوائد صغيرة متتالية على استراتيچية الإفناء والتدمير.

وتغير هذا كله في الثورة التي هزت أوروبا بعد عام ١٧٨٩ ، وكانت الحرب العالمية التي استمرت من عام ١٧٩٢ إلى عام ١٨١٣ ـ فيما عدا السنوات الأولى منها وفيما عدا الصراع بين بريطانيا وفرنسا ـ سلسلة من الحروب الصغيرة تقررت نتيجة كل منها في ميدان المعركة ، وانتهت بفرض السلام وإملاء شروط الصلح.

ويتفق الثقات على أن هذه الحروب توضح نقطة تحول مهمة تنهي الأمد الذي بدأ من عام ١٥٠٠ ، كما تعتبر أيضًا بداية أمد جديد مازلنا نعيش فيه حتى اليوم ، وينسب الكتاب هذا التغير إلى الثورة الفرنسية التي أوجدت الرأي العام القومي ، كما أوجدت علاقات وثيقة بين الحكام والمحكومين ، وقد ساق هذا الرأي ديلبروك وچانس منذ نصف قرن من الزمان. كما تتضح الأدلة على هذا الاتجاه في كتابات الجنرال كولين الذي بحث عن العلائم المادية أو عن الإيضاح الفني له على الأقل ، وانتهى إلى أن وجد هذه التحسينات في المدفعية وتنظيم الجيش وبناء الطرق والرسم الطبوغرافي في النصف الأخير من القرن الثامن عشر؛ على أن الكثيرين مع تقديرهم لأهمية التقدم الفني فإنهم ما زالوا يعتبرون أن تأثير الثورة السياسية كان أكثر عمقًا ، وكما قال ديلبروك: «إن الدوافع السياسية الجديدة التي جاءت بها الثورة الفرنسية قد أوجدت تكوينًا جديدًا للجيش ، هذا التكون الذي أوجد بدوره تكتيكات جديدة ، ومن هذا

كان من الضروري أن تنمو استراتيچية جديدة»[١].

على أن هذا التحول أو التغيير إنما يتضح في كتابات ثلاثة من الكتاب يمثل كل منهم مرحلة بارزة في تاريخ الفكر العسكري ، فقد أدرك فردريك الأكبر غاية ما يمكن إدراكه من الكسب العسكري في أوروبا في الأحوال التي وجدت قبل الثورة الفرنسية: وكان جيبير من مريدي فردريك ولكنه تنبأ (بدرجة أكبر مما فعل فردريك) بالتغييرات التي جاءت بعد ذلك؛ وكان بيلو معاصرًا لحروب الثورة ولحروب نابليون ، وقد استطاع أن يدرك تدريجيًّا كل الدروس التي جاءت بها هذه الحروب؛ ولكن فردريك وحده بين هؤلاء الثلاثة كان هو القائد الذي توافرت له التجربة العملية وتصف كتاباته الحرب العملية إذ ذاك ، فإن جيبير وبيلو برغم أنهما كانا من ضباط الجيش فإنهما لم يقودا أيَّ جيوش وقد اشتهرا كناقدين ومصلحين وبما تنبأ بحدوثه؛ إن فردريك يكشف عن عقل له كامل السيادة على الموضوع الذي يعرض لبحثه ، وكان جيبير وبيلو ـ لأنهما يكتبان عن تجربة قليلة مع ما يهدفان إليه من أمور تتجاوز الأحوال القائمة المرئية المعروفة ـ أقل قوة وثباتًا فيما يحاولان الوصول إليه؛ ولهذا فإن من الممكن أن نعتبرهما قد حاولا تصوير الصعاب المعروفة في كل العصور والتي في ضوئها تعدل النظرية العسكرية القائمة من أمرها لتتمشى مع الواقعية في عالم الحقيقة.

***

(١) انظر H. Debbrück Geschichte der Krieqskunst «تاريخ فن الحرب» هـ. ديلبروك في ٧ مجلدات طبع برلين (١٩٠٠-١٩٣٦) المجلد الرابع ص ٣٦٣و ٤٢٦ «التعاليم العسكرية لنابليون» بقلم ج. كولين باريس ١٩٠٠.

[٢]

وقد أعطى غزو فردريك الأكبر لسيليزيا دون إنذار عام ١٧٤٠ ، أعطى أوروبا الطابع أو الصورة التي قيل لها فيها بعد «الحرب الخاطفة» أو «الحرب البرقية»؛ وفي الحروب السيليزية الثلاث استطاع فردريك أن يحتفظ بالولاية التي استولى عليها ، والتي مكنته من أن يضاعف مساحة مملكته الصغيرة ، كما استطاع أن يثبت ـ تبعًا لقتاله ضد ظروف مضادة متباينة ـ أنه دونما جدل أقدر على القيادة من كل خصومه ، وكانت تتوافر في بروسيا التي يحكمها المظاهر الأساسية للدولة التي تحكمها أسرة ملكية ، وكانت بروسيا ـ بين كل الدول الرئيسة في أوروبا ـ أكثر الدول التي تحكم من أعلى ، وأقلها حيوية من ناحية روح الأهالي المواطنين ، وأضعفها في المواد والموارد البشرية ، وكان فردريك كاتبًا موهوبًا موفور الإنتاج ، وفي كتابات ملك كفردريك يحكم مملكة كبروسيا فإن الأصول العامة التي أجملت في الفصل السابق يمكن أن تتشكل في صورة صلبة محددة.

وكان أول أعمال فردريك العسكرية المهمة كتابه «الأصول العامة للحرب» والذي كتبه في عام ١٧٤٦ مستندًا إلى تجاربه في الحربين الأوليين في سيليزيا ، وقد نشر في طبعة محدودة سرية بين قادته ، وقد أدى استيلاء الفرنسيين عام ١٧٦٠ على نسخة منه إلى طبعه وانتشاره؛ وقد أوضح فردريك بعد هذا كل آرائه في كتابه «العهد السياسي» والذي كتبه عام ١٧٥٢ للاستخدام الشخصي لمن يخلفونه على العرش ، وقد ألحق كتابه «الأصول العامة للحرب» بكتابه «العهد السياسي» كملحق له.

وفي عام ١٧٦٨ عندما انتهت كل حروبه وكانت آراؤه إلى حد ما

تتطلب التعديل فإنه كتب كتابه «العهد العسكري» قاصدًا به توجيه خلفائه ، ثم عاد في عام ١٧٧١ وأصدر لقادته كتابه «عناصر فن اختيار مواقع المعسكرات وتخطيطها وفن القتال ـ التكتيك ـ». وقد كتب باستمرار وعلى طول حكمه تعاليم خاصة لمختلف فروع الجيش.. وقد جُمعت هذه التعاليم مع كتاباته الأخرى ونُشرت في عام ١٨٤٦؛ ومن بين مؤلفاته التي تركها تُنشر للناس عامة قصيدة طويلة وسمت بعنوان «فن الحرب» ، وقد جاء فيها حديث عن عدد من الموضوعات السياسية التي تمس المسائل العسكرية ، كما تحدث فيها عن تاريخ وذكريات حكمه ، وقد كتب فردريك مؤلفاته بالفرنسية ، ولم يكتب بالألمانية غير تعاليمه الفنية ، وتمتد حياته الأدبية ـ أي تمتد المدة التي كتب فيها ـ لأكثر من أربعين سنة ، وقد حاول معاصروه أن يصلوا من كتاباته إلى أسرار قيادته.

والواقع أن فردريك ظل حتى آخر لحظة من حياته يتبع آراءً واحدة فيما يختص بتنظيم الجيش ، وفي أصول فن القتال. أما في السياسة والاستراتيجية فقد تحول من الاعتداء العنيف الذي كان رأيه في عام ١٧٤٠ إلى فلسفة عدم النشاط النسبي في عصر متأخر.

وكان تنظيم الجيش موضع عناية قديمة من حكام بروسيا ، وفي عام ١٦٤٠ أي قبل تولي فردريك للعرش بقرن كامل من الزمان فإن جده الأكبر وصل إلى العرش في خضم حرب الثلاثين السنة ، ولم تكن هناك مملكة بروسيا.. بل كانت هناك مجموعة من المناطق على طول السهل الشمالي الألماني تجتازها وتقوم بالسلب والنهب فيها جماعات المحاربين المأجورين لكل قوة مقاتلة ، وقد أوجد «المختار الأكبر» ـ جد فردريك ـ جيشًا؛ ولكي يدعم هذا الجيش أوجد سياسة واقتصاديات جديدتين ، ومع حكمه بدأت

الظاهرة المميزة لبروسيا.

وهنا يجب أن نلاحظ أمورًا ثلاثة:

أولها: أن وجود بروسيا إنما يرجع إلى جيشها.

وثانيها: أن العلم العسكري والسياسي والاقتصاديات قد ارتبطت كلها معًا لتوجد فن إدارة الحكم للدولة.

وثالثها: أن بروسيا التي أوجدتها أسرة هوهنزلرن كانت انتصارًا لتخطيط معنيٍّ به، وفي وقت والد فردريك الأكبر ـ أي فردريك ويليام الأول ـ كان ملك بروسيا يعتبر من ناحية عامة من أكثر العاملين في أوروبا طاقة على العمل المتواصل؛ ذلك لأنه كان يوجه كل أمور الدولة بشخصه وكانت كل الخيوط في أصابع يده، وكان عقله وحده هو المركز الذي يصدر عنه كل الإشعاع للدولة، ولم يجيء «النظام» إلى بروسيا قط نتيجة لتشاور الأفراد وتعاونهم؛ وقد أشار فردريك مرة إلى هذا بقوله: «لو أن نيوتن قد اضطر إلى مشاورة ديكارت وليبنتز فإنه ما كان ليصل إطلاقًا إلى ما وصل إليه من نظرياته العلمية والفلسفية».

كان ملك بروسيا في نظر فردريك الأكبر يجب أن يكون له جيش وأن يوجد توازنًا قويًّا بين الطبقات في الدولة، وأن يوجد كذلك توازنًا تامًّا بين الإنتاج الاقتصادي وبين القوة العسكرية، وأن يحافظ على طبقة النبلاء بأن يحرِّم بيع أراضي النبلاء للفلاحين وسكان المدن؛ وكان فردريك يرى أن الفلاحين أكثر جهلًا من أن يكونوا ضباطًا[1]، وأن اختيار الضباط من بين

---

(١) «العهد السياسي» Politisches Testament ١٧٥٢– ضمن مؤلفات فردريك الأكبر في عشرة مجلدات طبع برلين ١٩١٢ – ١٩١٤.

البرجوازيين معناه القيام بالخطوة الأولى لاضمحلال الجيش وسقوطه[١] ، وكان يرى تبعًا لهذا أن الإعداد الصلب لبناء الطبقات ـ مع وجود أشخاص من النبلاء وأرض للنبلاء لا يجوز انتقال ملكيتها لغيرهم ـ كان يرى أن هذا ضروريًا للجيش وللدولة ، ويقول فردريك: إن كولونيلا شجاعًا يمكن أن يوجد كتيبة من الشجعان ، وأن القرار الذي يصدره ضابط برتبة الكولونيل في لحظة حرجة قد يؤثر في مستقبل الدولة ، ولكن الملك يجب أن يتأكد من أنه تتوافر في هؤلاء «الأرستقراطيين» النبلاء الروح المرجوة. ويقول فردريك في أولى صفحات كتابه «العهد السياسي» ، ويقول لخليفته مسرًا له: إنه في الحرب السيليزية الأولى قام بجهد كبير ليبث في ضباطه فكرة القتال من أجل مملكة بروسيا[٢] .

وكان فردريك يبدي احترامًا عنيفًا للجنود الذين يخاطرون بحياتهم في خدمته ، إلا أن أهم ما كان يعني فردريك من جنوده هو المسائل المادية والخاصة بالضبط والربط ، وكان يقول بأن أسر الفلاحين في شرق الألب يجب أن تحمى ، ولا يجب أن تؤخذ أراضيها بواسطة البرجوازيين أو النبلاء ، ولا يجند من هؤلاء إلا صغار السن الذين لا يعملون في الزراعة ، على أنه من وجهة عامة يعتبر الفلاحين وسكان المدن ذوي نفع كبير كمنتجين «فمن الضروري أن يعنى بالعاملين الكادحين من أفراد الشعب عناية الإنسان بعينيه ، ولا يجوز في وقت الحرب جمع الجنود من المواطنين إلا عندما

(١) «مجمل إيضاح طبيعة الحكومة البروسية والأصول التي قامت عليها» لفردريك الأكبر ـ المجموعة . طبع برلين في ثلاثين مجلد ١٨٤٦ ـ ١٨٥٦ المجلد التاسع ص ١٨٦.

(٢) «العهد السياسي» ١٧٥٢ ـ المجلد السابع ص ١٤٦ ، مجموعة أعمال فردريك الأكبر المجلد ٢٩ ص ٥٨.

تضطرنا الضرورة القصوى والحاجة الملحة إلى هذا»[١] ، فإن نصف الجيش أو أكثر يمكن أن يجمع من الجنود المحترفين من غير البروسيين ومن أسرى الحرب ، ومن الفارين من الجيوش الأخرى ، ويمتدح فردريك الطريقة الإقليمية البروسية ، والتي تقضي بالمساواة في احتمال أعباء التجنيد بأن يجمع أفراد مناطق معينة للعمل في «آليات» معينة ويكونوا هم مواردها البشرية.

وبهذه الطريقة ، وباستخدام الأجانب ، لاحظ فردريك راضيًا في عام ١٧٦٨ أن الذين يحتاجهم للتجنيد في كل عام من المواطنين البروسيين هم خمسة آلاف مقاتل فقط ، ومع هذا فإنه قد حزر قيمة وأهمية القوات التي تجمع من الأهالي المواطنين والذين يتجمعون في آليات إقليمية ، أي أن ينتظم أهالي كل منطقة جنبًا إلى جنب في الحرب؛ وكان فردريك قد كتب في عام ١٧٤٦ عن أن جنوده الذين جمعهم من الأهالي قد قاتلوا بشرف وشجاعة. ثم يردف قائلًا: «وبمثل هؤلاء الجنود يستطيع الفرد أن يهزم العالم كله لو لم تكن الانتصارات بالنسبة لهم مجهدة قتالة كما هي بالنسبة لخصومهم»!. ولكنه مع هذا كان في تاريخ متأخر ، شأنه شأن غيره من الفلاسفة ، قد قدر الكثير من الأهمية لعامل الوطنية ، ولكنه لم يفعل شيئًا في هذا الشأن. ***والواقع*** أنه لم يكن ليستطيع هذا إلا لو أوجد روحًا ثورية في مملكته ، وقد بقي يظن أن الجندي العادي لا شرف له ، ومات وهو يعتقد بأن استخدام الأجانب للقيام بالقتال هو سياسة حكيمة للدولة[٢]..

(١) «العهد العسكري» Militarisches Testament Von ١٧٦٨. المجلد السادس ص ٢٢٦-٢٢٧.

(٢) «المبادئ العامة للحرب». Principes généaux de la guerre. ١٧٤٦ ـ مجموعة أعمال فردريك مجلد ٢٨ ص ٧ ، «رسائل في حب الوطن» ـ المجموعة.. المجلد التاسع ص ٢١١-٢٤٤.

ولم يكن جنود فردريك يحسون بارتباط داخلي نحوه ، وكان «فرار الجنود» هو الحلم الذي يخيف كل قادة القرن الثامن عشر ، وعلى الأخص في ألمانيا غير الموحدة؛ حيث كان من الممكن أن نجد رجالًا يتحدثون ذات اللغة في كلا الجانبين المتضادين في كل حرب؛ وفي عام ١٧٤٤ كان على فردريك أن يقف تقدمه في بوهيميا بسبب أن جيشه كان قد بدأ يتفكك ، وقد وضع قواعد عنيفة وقوانين صارمة ليمنع فرار الجنود ، ومن أوامره لعلاج هذا أن لا يعسكر الجيش قرب الغابات الكبيرة ، وأن تحرس مؤخرة الجيش وجانباه بالخيالة ، وأن يتجنب السير الليلي إلا عند الضرورة القصوى ، وأن يقاد الجنود في صفوف وبقيادة ضابط عند ذهابهم للمرعى أو للاستحمام[1].

ومع أن فردريك كان يعمل بجيش هو في الواقع مادة خام غير موثوق بها!! فقد أصر على ضرورة توافر الضبط والربط في هذا الجيش بالصورة التي كانت في عهد أبيه ، وقد قال: «إن أقل فقدان للضبط والربط سيؤدي إلى الشراسة والتوحش»[2]؛ وهنا أيضًا كان الجيش مرآة للدولة ، فإن الهدف من الضبط والربط كان ـ من الناحية الجزئية ـ لإظهار أثر السيادة والسلطان؛ وذلك بجعل الجندي مخلوقًا بشريًّا فقط بحكم السلطة عن طريق منع مثل هذه الجرائم «كالسُّكْرِ» أو «السرقة»؛ ولكن الهدف الأساسي كان هو تحويل الجيش إلى آلة تعمل بعقل ورغبة فرد واحد ، وكان يقول: «ويجب أن يفهم الضباط والجنود أن كل قرار إنما هو من عمل رجل واحد». وفي مكان آخر يقول: «ولا يجب أن يناقش أحد الأسباب؛ بل إن

(١) «المبادئ العامة» المجموعة مجلد ٢٨ ص ٥-٧ ، المجلد ٣٠ ص ٥٧-٦٥و ١١٩-١٢٣.
(٢) «العهد السياسي» مجلد ٧ ص ١٧٢.

كل فرد يجب أن ينفذ» أي إن التفكير يتم مركزيًّا في عقل الملك وحده، وكل ما يمكن أن يفعله الجنود ـ على ما يقول فردريك ـ هو أن يتزودوا «بحب الوحدة»(*) لتنغمر شخصياتهم في آلياتهم، فلما تقدمت السن بفردريك وأمسى أكثر شراسة وقسوة لاحظ أن العناية الطبية تؤثر في الرجال العاديين أقل مما يؤثر فيهم التهديد والوعيد، وأن الضباط يجب أن يقودوا جنودهم إلى الخطر، «ولهذا فما دام شرف القتال لا يؤثر فيهم ولا يعتبر عاملًا دافعًا لهم فمن الضروري أن يخافوا قادتهم أكثر مما يخافون الخطر»؛ ولكنه أضاف إلى هذا أن الإنسانية تتطلب تزويد الجيش بعناية طبية جيدة[1].

على أنه لما كان «الضبط والربط» قد جعل الجنود ممتثلين طائعين لقادتهم سَلِسِي القياد، فقد كان من الضروري أن يدرب الجنود جيدًا، وقد اشتهرت بروسيا بميادين تدريبها؛ حيث أعجب المراقبون الأجانب بأن الكتائب والسرايا تقوم بتشكيلات معقدة بمهارة كبيرة، وكان القصد من هذا التدريب المتواصل هو الحصول على خفَّة الحركة التكتيكية، والوصول إلى المهارة في الانتقال من تشكيل السير إلى تشكيل القتال، والثبات تحت النيران والطاعة التامة لأوامر القيادة، وقد كرر فردريك أن جيشًا مدربًا بهذه الصورة إنما يسمح بتطبيق كل أصول فن القيادة على أقصى حد، كما سيستطاع تفهمه وإدراكه وتنفيذه، فإذا ما تم تشكيل هذا كله بين يديه فإن عقله سيكون طليقًا للعمل؛ ولهذا فإن فردريك لم يجهد قط من مداومة الإلحاح على قادته بأن لا يفتروا عن متابعة تدريب جنودهم في السلم وفي

(*) «حب الوحدة» Esprit de Corps يعتبر حديث فردريك عنها في الواقع شيئًا جديدًا بالنسبة لعصره. ولكنها ذات قيمة كبيرة في العصر الحديث. راجع كتاب Psychology for the Fighting Soldiers ص ٢٨٥ - ٣٣٢ طبع أمريكا عام ١٩٤٣.

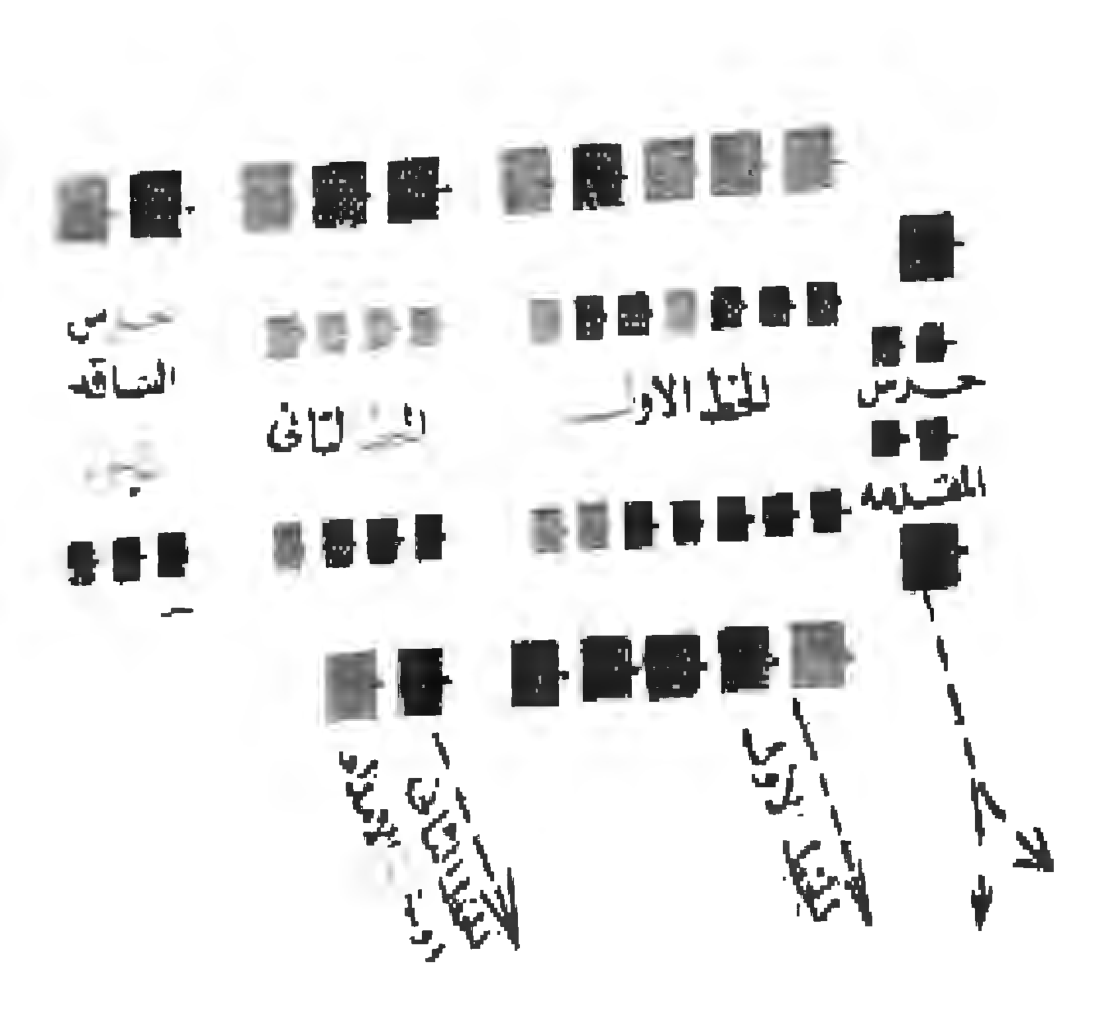
(١) «العهد العسكري» مجلد ٦ ص ٢٣٣ و ٢٣٧، المجموعة. مجلد ٢٨ ص ٥.

الحرب: «وما لم يكن كل رجل مدربًا من قبل في وقت السلم على ما سيقوم به في الحرب ، فلن يكون لدى القائد إلا جماعة من الأهالي يحملون اسم صناعة أو حرفة لا يعرفون كيف يقومون بها»[1].

وكانت الجيوش المتضادة كلها تتبع ذات الأسلوب والطابع؛ ولهذا فإن القتال بجنودٍ هذه حالهم ، وتكون لهم هذه الروح الآلية كان مسألة تخضع للنظم وأساليب قائمة ولم يكن فيها مجال لقوة الابتكار من جانب القادة.

وكانت القوات المتضادة من الجانبين المتقاتلين مثلها مثل أحجار الشطرنج في بداية اللعب ، فعلى الجانبين الفرسان ، وتتوزع المدفعية في المؤخرة ، وتنتظم كتائب المشاة في خطين جامدين متوازين أولهما وراء الثاني ببضع مئات من الياردات؛ ويتكون كل من الخطين ـ أو على الأقل الأول منهما ـ من ثلاث مجموعات ، ويطلق جنود كل مجموعة النيران بأمر قائد واحد ، وتطلق كل مجموعة النيران أثناء اشتغال جنود المجموعتين الأخريين بإعادة التعمير ، ولم يتحول فردريك قط عن ضروريات هذا التشكيل للمعركة وإن كان قد سمح لنفسه ـ أسوة بالقادة الأكفاء المجيدين ـ بالحرية في تطبيقه تبعًا للأغراض الخاصة ، وكان نظام المعركة هو الذي يوجه نظام السير ، فالجنود يجب أن يسيروا تبعًا لتنظيم فردريك في قوات متأهبة دائمًا لتتحول بسرعة إلى خطوط للنيران مع بقاء الخيالة على الجانبين ، وكان التنظيم للمعركة هو أيضًا الغرض النهائي للتدريب العنيف القاسي ،

(١) «العهد السياسي» ١٧٥٢ المجلد السابع ص ١٧٣ - ١٧٥ ، المجموعة .. المجلد الثامن والعشرون ص ٧.



تنظيم السير في تخطيط فردريك الأكبر وباتجاه القول لليمين يستطيع تغيير الدوران لليسار بالفصائل ليكون في تشكيل المعركة

ولم يكن من السهل الإبقاء على الجنود في خطوط تقف في السهل المكشوف جنبًا إلى جنب ولا يفصلها عن العدو الذي تواجهه إلا مئات قليلة من الياردات؛ ولهذا فقد كانت الأوامر والنظم عنيفة صارمة «فإن أي جندي يبدو في أثناء القتال وكأنه سيفر أو حتى يضع قدمه بعيدًا عن خط القتال فإن ضابط الصف الذي يقف وراءه يطعنه لتوه برمحه «السونكي» ويقتله في مكانه»[١]؛ فإذا فرَّ العدو فإن «الخط المتصر» الجنود المتصرين يبقون في أماكنهم ، وكان سلب القتلى والجرحى محرمًا ، وكانت عقوبة ارتكاب هذا هي الإعدام..

وكان فردريك ينظر نظرة تقدير خاص إلى الفرسان الذين كانوا نحو ربع تعداد جيشه؛ ولكنه استخدام الفرسان في عمليات الاصطدام وبوحدات تكتيكية جامدة؛ ولهذا كانت عملياته للاستكشافات ضعيفة ، وفي عام ١٧٤٤ لم يستطع بعشرين ألفًا من الفرسان أن يكتشف مواقع النمساويين ، ولم ينجح كذلك في استخدام المشاة الخفيفة في «المناوشة» وأعمال الدوريات ، وفي الوقت الذي كان فردريك يعرف بوجود مجموعات كبيرة من الجنود «الخفيفة» سواء الراكبون أو المترجلون لدى النمساويين بين قواتهم المجندة من الكرواتيين والباندور.. فإنه لم يكن يعرف ماذا يمكن أن يفعل بمثل هؤلاء الجنود لو وجدوا عنده[٢].

وقد شهدت السنوات الوسطى للقرن الثامن عشر تزايدًا سريعًا في استخدام المدفعية بالنسبة للأسلحة الأخرى ، تزايدًا لا مثيل له في أي فترة

---

(١) Dispositian, Wie es bci Vorgenhender Battaille bei Seiner Komigliehen Majestat im Preussen Armée unveranderlich Soll gehalten Werden (١٩٤٥) in Vres Oeu xxx, ١٤٦.

(٢) ديلبروك ذات المرجع المجلد الرابع ص ٣٢٧ ، ٣٢٨.

أخرى من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين[١]. فقد اتجه النمساويون

(١) من العمود ٢ في الجدول التالي تتضح لنا زيادة نسبة المدفعية في الحرب منذ عام ١٦٠٠ ، وقد نقل هذا الجدول من كتاب «التاريخ العسكري للحروب» بقلم بودارت ، طبع ڤيينا عام ١٩٠٨ ، الصفحات ٦١٢ و ٧٨٤-٧٨٥ و ٨١٦-٨١٧.

	١	٢	٣	٤
حرب الثلاثين سنة	١٩٠٠٠	١.٥	١	٠.٢٤
حروب لويس الرابع عشر				
حرب الوراثة الأسبانية	٤٠٠٠٠	١.٥٧	٧	
حروب فردريك الأكبر				
حرب الوراثة الأسبانية	٤٧٠٠٠	٣.٣٣	١٢	٠.٨٢
حرب السبع السنوات				١.٤٠
حروب الثورة الفرنسية	٤٥٠٠٠	-	١٢	
التحالف الأول				٣.٠
التحالف الثاني				٤.٤
حروب نابليون	٨٤٠٠٠	٣.٥	٣٧	
التحالف الثالث				٧.٠
حرب عام ١٨٠٩				١١.٠
حرب عام ١٨١٢				٥.٢ =

بعد خسارتهم المزرية في سيليزيا إلى الاستزادة من المدفعية على التخصيص لمواجهة تهديد قوات فردريك الخفيفة الحركة ، وكان الفرنسيون أقدر مدفعيي أوروبا وأكثرهم تقدمًا من هذا الفن ، وكان فردريك يبدي دائمًا حسرته على أن بروسيا مع أنها بين الدول الكبرى إلا أنها أقلها قدرة على إخراج مدفعيين مهرة ، وكانت المدفعية على ما لاحظ فردريك هي الهوة الحقيقية التي تتسرب منها مالية الدولة ، ومع هذا فإنه شارك في هذا التسابق ، وكان فردريك ـ نتيجة لتفهمه التحركات السريعة ـ هو الذي أدخل مدفعية الميدان التي تجرُّها الخيول لنقلها من موقع إلى آخر أثناء المعركة؛ وقد استمر مصرًّا على أن المدفعية ليست «سلاحًا» قائمًا بذاته؛ بل سلاحًا معاونًا أقل مكانة من المشاة والخيالة ، ولكنه قدم آراء كثيرة عن استخدامها.

ومن آخر ما كتب فردريك في هذا الشأن: هو ما جاء على ما يبدو في تعليمات عام ١٧٨٢ن وقد أوضح فردريك تأثير الفرنسيين من أصحاب النظريات في المدفعية أولئك الذين كان نابليون سيتعلم على أيديهم ، وهنا يأمر فردريك ضباط مدفعيته أن يركِّزوا نيرانهم الأولية على مشاة العدو

=الحرب الأهلية الأمريكية	٥٤٠٠٠	٣.٠	١٨	١.٠
حرب عام ١٨٧٠	٧٠٠٠٠	٣.٣	١٢	٩.٠
الحروب الروسية ـ اليابانية	١١٠٠٠٠	٣.٧٥	٣	١.٠

ويوضح العمود (١) متوسط تعداد الجيش ، وقد أُخِذَ المتوسط مما أمكن الوصول إليه من ثلاثين معركة في كل حرب.

ويوضح العمود (٢) عدد المدافع بالنسبة لكل ١٠٠٠ جندي.

ويوضح العمود (٣) عدد المعارك التي زاد فيها تعداد الجيوش المتضادة عن ١٠٠.٠٠٠ جندي.

ويوضح العمود (٤) متوسط عدد المعارك التي كانت تحدث في الشهر الواحد.

ليشقوا ثغرة في خط العدو لمعاونة مشاتهم على النفوذ منها[١].

وتبعًا لاستخدام تشكيل غير متكسر للمعركة فإن فردريك ـ بسبب كون الهجوم بالمواجهة بين خطين قويين يؤدي إلى مجزرة ـ قد اتجه للكسب بالهجوم الجانبي ، ومن أجل هذا قد وضع أصول «السير المائل» الذي اشتهر به ، ومع إغفالنا للتفاصيل التكتيكية فمن الممكن أن نقول في بساطة أن غرض فردريك من تفضيل هذا اللون من القتال وهذا الطابع للمعركة هو الحصول على نصر سريع في حال النجاح بطيّ خط العدو ، كما أنه في حال الفشل يمكن من تقليل الخسائر؛ لأن قيام الجناح المتأخر للخلف بالمناورة يغطي انسحاب الجناح المشتبك بالعدو ، وقد مكنت خفة الحركة التي توافرت لفردريك مقترنة بالتنسيق لأعماله ، مكنته من أن يوجد تأثيرًا خاصًّا لهذه التحركات الجانبية ، والتي كانت في حدِّ ذاتها من بين أقدم الصور المستخدمة في الحرب[٢].

ولم يغير فردريك من آرائه تغييرًا جديًّا قط في هذه المسائل الخاصة بتنظيم الجيش وبالتكتيكات التي يستخدمها ، وإن كان قد غير من آرائه في المسائل الاستراتيجية العامة ، وقد بدا في البداية أنه سيدخل روحًا جديدة في صناعة العسكرية إلا أنه انتهى بأن قَبِلَ هذه التحديدات التي فرضها النظام السياسي في المسائل الخاصة بالظروف التي تحدث في غمرتها الحروب ، ثم الاشتراطات التي تحدد وقت ومكان الاشتباك في المعركة..

(١) «العهد العسكري» ١٧٦٨ المجلد السادس ص ٢٢٨» ، عناصر اختيار مواقع المعسكرات وتخطيطها وفن التكتيك» المجلد التاسع والعشرون ص ٤٢ والمجلد ٣٠ ص ١٣٩-١٤١ و ص ٣٩١-٣٩٦.

(٢) المجموعة ... المجلد (٣٠) ص ٢٥ ـ ديلبروك ذات المرجع مجلد (٤) ص ٣١٤-٣٢٢.

وقد أدهش هجوم فردريك الخاطف على سيليزيا أوروبا كلَّها وأفزعها ، وكانت الحرب السيليزية الأولى «١٧٤٠ - ١٧٤٢» مقامرة يائسة لعب فيها ملك بروسيا دوره وهو يخاطر بكل شيء ، وفي الحرب السيليزية الثانية «١٧٤٤ - ١٧٤٥» ـ والتي كانت كسابقتها مرحلة من مراحل حرب الوراثة الأسبانية ـ استهدف فردريك أغراضًا كبيرة وعمل حتى للتدمير الكامل لملكية آل هبسبورج؛ وإذا كان هذا الهدف لم يدرك إلا أن فردريك احتفظ بسيليزيا ، وقد باتت سياسته بعد هذه الحرب الثانية أقلّ أطماعًا ، ثم عاد في حرب السبع السنوات «١٧٥٦ - ١٧٦٣» وبعد معركتي روزباخ ولوثين(*) ـ واللتين ربما أنقذتا بروسيا ـ عاد فردريك فاتخذ سياسة دفاعية رائعة ضد قوات فرنسا والنمسا وروسيا مجتمعة ، والتي كان سكان كل منها على الأقل أربعة أضعاف سكان بروسيا؛ وكانت آخر حروب فردريك هي حرب الوراثة الباڤارية «١٧٧٨ ـ ١٧٧٩» ، والتي كانت عبارة عن سلسلة من المظاهرات العسكرية لم تسفك فيها دماء.

وفي كتابه «المبادئ العامة للحرب» نجده يدعو إلى استراتيجية الحرب «البرقية» الخاطفة وإن كان لم يستخدم هذه التسمية قط ، ويقول: «إن حروب بروسيا يجب أن تكون قصيرة مليئة بالحركة ، ويجب أن يهدف القادة البروسيون إلى قرارات سريعة»[1] ، وكانت هذه هي المبادئ التي عمل على أساسها أولًا.

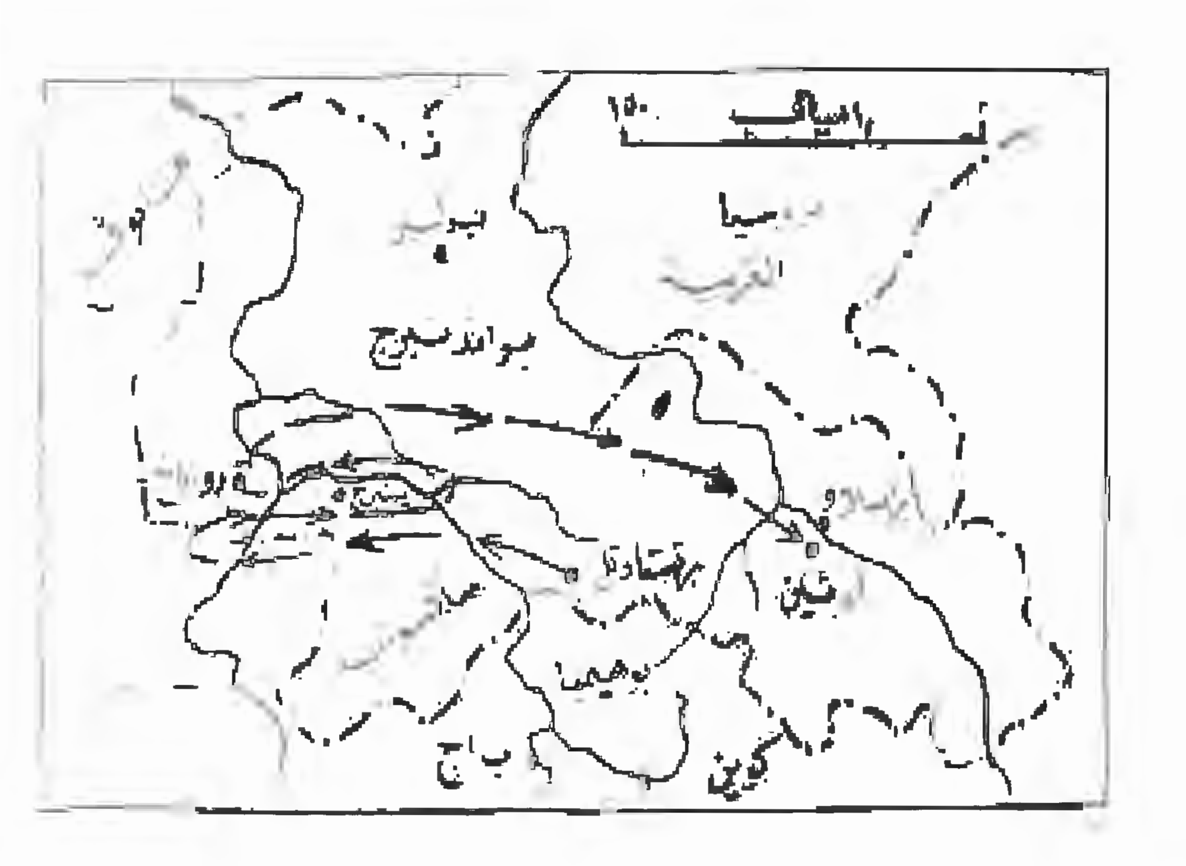
ومما يستحق الذكر: أن الأسباب التي أدت لهذه العمليات المليئة

(*) لوثين ـ ٥ ـ ١٢ ـ ١٧٥٧.. قال عنها نابليون: إنها وحدها تكفي لتخليد اسم فردريك كأعظم عبقرية عسكرية في أوروبا.

(١) «المبادئ العامة» ١٧٤٦ .. المجموعة المجلد ٢٨ ص ٨٤.

بالمخاطرة هي ذات الأسباب التي جعلته في سنوات أخرى تالية أكثر حذرًا؛ وقد قال: «إن حربًا طويلة لابد وأن تنهك موارد بروسيا وتحطم الضبط والربط الجيد طابع الجندي البروسي ... هذا الطابع الذي يثير الإعجاب» ، وفي تفضيل فردريك للحرب السريعة القصيرة الأمد فإنه في الواقع قد قارنها ووازن بينها وبين كل صور الحرب.. حتى الحرب الطويلة الأمد القليلة الاستهلاك في الرجال والعتاد. ومهما كانت الحال فإن الظروف المسيطرة واحدة متماثلة ، سيما وأنه من غير الممكن مع موارد الدولة المحدودة.. ، ومع اعتماد الجيوش على المستودعات التي تعد من قبل ، ومع استخدام الجنود الذين لا تتوافر لهم ـ مهما كانت درجة تدريبهم ـ الدوافع التي تمكن من المحافظة على الكفاية والقوة في أوقات الشدة ، من غير الممكن مع هذا كله احتمال الحرب الطويلة الأمد.

ولم يكن فردريك يستطيع في الواقع التغلب على أي من هذه الصعاب؛ فهو لم يكن يستطيع أن يجعل بروسيا دولة موفورة الثروة؛ بل كل ما كان يستطيعه في هذا هو أن يقتصد في مواردها ، ولم يكن يستطيع أن يفعل ما فعلته حكومة الثورة الفرنسية من أن يجعل جيوشه تعيش على البلاد التي تحتلها ، وإن كان هو قد أوصى بهذا؛ وذلك لأن هذا كان سيسبب بعثرة جيوشه لو توزعت للبحث عن احتياجاتها المادية ، كما أن أفرادها سيفقدون معنوياتهم إذا لم يحصلوا على تموينهم بانتظام ، ولم يكن كذلك يستطيع أن يعتمد على أي ترحيب من سكان الأراضي المحتلة ، وقد أخفقت جهوده أكثر من مرة في إيجاد طابور خامس في بوهيميا ، ولم يكن يستطيع أن يقوم بتقوية وإنعاش الروح المعنوية في جنوده بين وقت وآخر دون أن يغير من كل أسلوبه ووجهة نظره في الحياة.



خط سير فردريك في حملة خريف ١٧٥٧

وبالإضافة إلى هذا فإنه عندما قوى النمساويون من مدفعيتهم وتحصيناتهم بعد أن فقدوا سيليزيا فإنهم قد أضافوا عوائق فنية تعطل من استراتيجية فردريك الاعتدائية؛ وكان الملك الشيخ في آخر سني حياته يكرر ما يلاحظه من تغير الأحوال عما كانت عليه في أيام شبابه ، ومن أن بروسيا لم تعد تستطيع أن تقاتل غير حرب مواقع ، وقد أثبت هو نفسه مع حدوده المعرضة ومستودعاته الثابتة. أثبت القيمة الكبيرة التي للتحصينات الدائمة ، وقد قال عن هذا: «إن خطى المشاة ـ راجع التخطيط لسير فردريك ـ في تنظيم متماسكة معًا». وقد تحولت تبعًا لهذا الأغراض الأساسية للحرب لتكون حصار هذه القلاع والتغلب عليها ، وكانت عمليات الحصار قد باتت فنًّا منذ أيام ڤوبان ، وقد تابع فردريك هذا التقليد وكان يقول: «ومن الضروري أن نضع توزيعاتنا للمعركة على أساس القواعد؛ أي المواقع التي تعد للقيام بالحصار» ، وقال فردريك في عام ١٧٧٠: «إن خطى المشاة ـ راجع التخطيط لسير فردريك ـ في تنظيم المعركة إنما يماثلان المتوازيات التي كانت تعدها القوات التي تقوم بالحصار» وحتى في احتلال القرى فإن هذه الأصول يجب أن لا تغيب عن البال ، ولم يكن هناك أبعد من هذا في التوجيه الذي كان يتجه إليه التطبيق العسكري فإن نابليون لم يقم في حياته كلها إلا بحصارين اثنين[١].

ومرة أخرى فإن فردريك ـ على نقيض نابليون. بالرغم من أنه كان قائد معركة ناجحًا ـ لم يكن مغرمًا بالمعارك الكاملة المراحل ، أو بمعنى آخر: أنه لم يكن يحب الوصول إلى درجة الاصطدام القوي النهائي بين القوات

(١) التعليمات العسكرية ١٧٦٨ المجلد السادس ص ٢٤٧ و ٢٥٧ ، العهد السياسي ١٧٥٢ المجلد السابع ص ١٧٦ ، المجموعة المجلد ٢٩ ص ٤ و ٢١ و ٣٨.

الأساسية للطرفين المتقاتلين ، وكان من رأيه أن نتيجة المعركة تتوقف إلى حد كبير على الفرص ، وأن الفرص والظروف هي الشيء الذي يضاد التقدير الحسابي الدقيق الذي يعتمد على منطق الواقع ومادِّياته ، فإن القدرة على التخطيط الجيد وقوة القيادة لإيجاد الطاعة (اللتين كانتا في رأي فردريك من أهم اللبنات الأولى لدعم بناء الحرب الفنية) لا يمكن الاعتماد عليهما في خضم الاشتباكات العنيفة الواسعة المدى ، «ويجب أن يلاحظ ـ بالإضافة إلى هذا ـ أن أغلب القادة إنما يتجهون هذا الاتجاه تبعًا للحاجة وللافتقار إلى موارد أخرى ، وليس هذا خاصية ممتازة فيهم؛ بل هو عادة علامة على القحولة والإجداب في مواهبهم»[1].

ولهذا لم يكن تدمير قوات العدو الأساسية هو الغرض الاستراتيجي العادي لفردريك ، ولا شك أنه قد أدرك عندما تحدث عن المعركة أن المنتصر يجب أن يحاول القيام بمطاردة مدمرة للعدو؛ ولكن لم تكن هذه المطاردة المدمرة مسألة سهلة ميسورة لجيش فردريك ، فإن الخيالة قد دربت على عمليات الاصطدام بوحدات صلبة متكتلة ، وكانت تواقة للفرار لو تبعثرت ، ثم إن الجنود الخيالة في جيش فردريك لم تكن تلهب مشاعرهم الغلظة نصف الوحشية أسوة بغير النظاميين من الكروات ، ولم تكن تلهب مشاعرهم أيضًا العقيدة السياسية كما هي الحال بالنسبة لجنود العصر الحديث؛ ولهذا فإنهم لم يكونوا يصلحون لمطاردة جيش مهزوم ، ولم يكن جيش فردريك ليستطيع القيام بما قامت به خيالة نابليون بعد يينا[*].

---

(١) انعكاسات على شارل الثاني عشر Reflexions sur Charles XII (١٧٥٩) المجموعة مجلد ٧ ص ٨١ ، دراسة في صور وتشكيلات الحكومة (١٧٧٧) المجموعة مجلد ٩ ص ٢٠٣.

(*) سار موارت طوال الليل حتى سقط على البروسيين المتعبين المنهوكي القوى حال ظهورهم من (برانتز لوا) مما اضطر هوهنلوه القائد البروسي بعد مقاومة عنيفة إلى إلقاء=

كان الغرض من المعركة في رأي فردريك هو أن يضطر عدوه للتحرك تاركًا له مواقعه التي يحتلها «كسبك للمعركة معناه أن تضطر عدوك ليسلم لك موقعه»[1] ، وهكذا باتت تتزايد في حروب فردريك صورة حرب المواقع ، حرب مناورات معقدة وحصيلة من الانتصارات الصغيرة أي ركام من الكسب القليل في كل مرة ، حرب بطيئة في جملتها ، وبذلك فهي صورة تختلف تمامًا عن الحرب السريعة العنيفة المليئة بالحركة التي أوصى بها في عام ١٧٤٦.

وقد كتب فردريك في عام ١٧٦٨ يقول: «إن حصولك على جملة أرباح قليلة يمكنك من جمع ثروة». وأضاف في عام ١٧٧٠: «إن كل المناورات التي يقوم بها القائد في الحرب تعود بالنفع على المواقع التي يحتلها كقواعد له يعمل منها.. كما تعود بأقل خسارة على المواقع التي قد يهاجمها» ، «ولعل فردريك كان يقصد هنا أن عمليات المناورة تمكن من إخراج العدو من مواقعه التي يحتلها دون أن تتعرض هذه المواقع إلا لأقل عمليات التدمير والإتلاف»؛ وقد أكمل فردريك حديثه بأنه من التجارب القاسية التي لقيها في بوهيميا يستطيع أن يقول بأن الجيش لا يستطيع أن يعمل بنجاح بعيدًا بدرجة كبيرة عن حدوده؛ وفي عام ١٧٧٥ كتب: «ألاحظ أن كل الحروب التي حدثت بعيدًا عن حدود بلاد أولئك الذين خاضوا غمارها كانت أقل نجاحًا من تلك التي خاضوها على مقربة من بلادهم ، ألا يمكن أن يكون هذا بسبب الشعور الطبيعي في الإنسان بأنه أكثر عدالة عندما

=سلاحه (١٤- ١٥ أكتوبر ١٨٠٦). «المترجم».

(١) العهد العسكري ١٧٦٨ المجلد (٦) ص ٢٤٦- ٢٤٩ ، العهد السياسي ١٧٥٢ مجلد (٧) ص ١٧٤.

يدافع عن نفسه أكثر مما يحس عندما يسبب خسارة لجاره؟!! بل وربما يكون السبب المادي أكبر قيمة من السبب المعنوي تبعًا لصعوبة الإمداد بالتموين والأغذية في نقط بعيدة عن الحدود ، ولصعوبة الإمداد السريع بالمجندين الجدد والخيول وذخائر الحرب»؛ ولا شك أن نابليون ، الذي استطاع أن يكسب معارك في أماكن بعيدة عن فرنسا كأوسترلتز ، كان من الضروري أن يتسم لهذه التعاليم المليئة بالحذر بالرغم من أن «بورودينو»[*] قد تذكر بهذه التعاليم وقيمتها ، ولكن مع هذا فإن هذه القاعدة كانت صحيحة في رأي فردريك[1].

على أنه بالرغم من أن تفكير فردريك الاستراتيجي قد بقي في نطاق الحدود القديمة للحرب بالموضعية «حرب الموقع» ، وبالرغم من أنه قد بقي عازفًا عن خوض غمار المعركة الكاملة «وكان قادته هم الذين ألحوا عليه للعمل في العام الذي حدثت فيه معركتا روزباخ ولوثين» فإن فردريك لم يكن قط في جانب العمل السلبي في المعركة ، بل بقي يصر على أهمية المفاجأة ، وكان دائمًا على أتم أهبة في سنوات السلم التي تلت حرب السبع السنوات للوثوب ـ «بعد دقيقة واحدة من إنذاره» ـ على سكسونيا أو بوهيميا مزودًا بالمصورات التفصيلية والمعلومات الدقيقة ، وقد زودت وحداته بالمدافع الهاوتزر الجديدة زِنَة عشرة أرطال ، كما زودت بأسلوبين جديدين لهجوم

(*) «بورودينو»: قرية روسية تبعد ٧٠ ميلًا عن موسكو انتصر فيها نابليون على الروس الذين خسروا أربعين ألفًا ، أي ثلث جيشهم؛ بينا خسر نابليون اثنين وثلاثين ألفًا من مائة وثلاثين ألفًا ، وقد شيد القيصر نيقولا في القرية نصبًا تذكاريًّا لذكرى البرنس بيتر باجارايثون قائد الجيش الروسي الثاني الذي أصيب بجروح قاتلة يوم ٧ سبتمبر ١٨١٢.

(١) ذات المرجع مجلد (٦) ص ٢٤٨ ، المجموعة مجلد ٢٩ ص ٩ ، «تاريخ عصرنا» مقدمة لكتابات عام ١٧٧٥ مجلد ٢ ص ٢٨ من المقدمة لا المتن..

الخيالة الاقتحامي ، وقد احتفظ بهذين الأسلوبين كَسِرٍّ من أسرار الدولة.

وقد شجع فردريك الاستراتيجية الهجومية في الميدان تبعًا لأنها تسمح بطلاقة أكثر في الابتكار والمبادأة ، ولكنه كان يحارِب راضيًا كمدافع ، الأمر الذي كان عليه أن يفعله دائمًا عندما يكون أقل قوة من عدوه ، أو عندما يتوقع أن يكسب نفعًا بعامل الوقت ، ولكنه كان يستخدم دفاعًا إيجابيًّا يمكنه ـ عندما يستند إلى تحصينات دائمة ـ من حرية اقتحام مواقع العدو وقوّاته المنفصلة.

وقد قال: «إنما يخدع القائد نفسه عندما يفكر في أنه يستطيع إدارة حرب دفاعية بحال جيدة بأن يبقى سلبيًّا طوال الحملة دون أن ينتفع بقوى المبادأة والابتكار .. فإن مثل هذا الدفاع ينتهي دائمًا بأن يزاح جيشه عن الأرض التي قصد أن يحميها»[1].

وقد بدأ شك فردريك يتزايد في الكسب الذي يمكن أن يحصل عليه من الحرب في ضوء تلك الظروف التي كانت قائمة يوم ذاك ، ومع أنه بدأ ظهوره العام بحصوله على أكثر نجاح ثوري في توازن القوى.. مما أثر في قارة أوروبا طوال حياته ، فقد انقلب إلى رجل يطلب السلام بعد انتهاء استيلائه على سيليزيا ، وانتهى باعتقاده القوي في قيمة التوازن الأوروبي بعد أن باتت بروسيا عاملًا من عوامله الرئيسية ، وكان ينظر إلى الاتساع التدريجي في بولندة وساكسوني وبوميرانيا السويدية من وجهة النظر البروسية ، ولكن فيما عدا التقسيم الأول لبولندة والذي اتجه دون حرب ودون أي اضطراب في توازن القوى ، الأمر الذي أرضى كل السياسيين ،

(١) «العهد العسكري» ١٧٦٨ ، المجموعة مجلد (٦) ص ٢٥٣ و ٢٦٠-٢٦١.

فإنه كان راغبًا في أن يترك الاتساع التدريجي الذي يتبع الحوادث لخلفائه من بعده؛ وكان فردريك رجلًا من أسرة ملكية حاكمة؛ فهو لم يكن ثائرًا ولا مغامرًا ، وكان في استطاعته أن يترك شيئًا ليفعله غيره ، وفي عام ١٧٧٥ وقف في جانب إبقاء الحال على ما هي عليه ، وقد كتب: «يجب أن يقدر الطامع قبل كل شيء أن التسليح والنظام العسكري متماثلان في أوروبا كلها ، وأن قيام الأحلاف قد مكن من المساواة في القوة بين الأطراف المتضادة ، وكل ما يمكن أن يحصل عليه الأمراء الحكام من نفع كبير في الوقت الحاضر هو الاستيلاء على مدينة صغيرة على الحدود ، أو قطعة من الأرض لا يمكن أن تساوي نفقات الحرب ، ولا يمكن أن يتعادل سكانها مع عدد المدنيين الذين يهلكون في الحرب»؛ ولم يكن فردريك كذلك يخشى من أن تدمر بلاده بوساطة جيرانه الأقوياء؛ فقد كتب يقول: «وأعرف عن ثقة أن الدول الصغيرة ـ يقصد بروسيا والتي يسكنها خمسة ملايين من السكان ـ يمكن أن تحتفظ بسيادتها ضد الدول الملكية الكبيرة ـ يقصد فرنسا والنمسا وروسيا ـ والتي يصل سكان كل منها إلى عشرين مليونًا من الأنفس ، وذلك إذا ما وضعت هذه الدول الصغرى الصناعة والنظام في أعمالها ، لقد وجدت الإمبراطوريات العظيمة وفي بنائها الكثير من العوامل الضارة؛ ولكنها تستطيع البقاء فقط بسبب مواردها الكبيرة ، وبسبب القوى المتوافرة في حشد جموع سكانها ، إن المفاسد والمؤامرات التي يزخر بها بلاط كل من هذه الدول الملكية الكبيرة ستدمر كل الحكام الذين لا تتوافر لهم القوة والمقدرة ، وهؤلاء في العادة ليسوا تواقين إلى الضرر؛ ولكن هذا لا يحول دون أن يحتفظوا بجيوش كثيفة على أتم أهبة واستعداد».

ولكن يبدو أن فردريك لم يقدر قط ماذا يمكن أن يحدث للتوازن

الأوروبي لو أن هذه الدول الملكية الكبيرة قد تخلصت من الفوضى والاضطراب والعوامل الضارة في بنائها ، ولو دمرت الحواجز التي أقامها النظام الأرستقراطي للأسر الملكية واتجهت في المسائل العامة ذات الاتجاهات التي بدأت بروسيا تعنى بها ، وفي الواقع أن هذا كله لم يفكر فيه[١].

***

(١) العهد السياسي ١٧٥٢ المجلد السابع ص ١٥٨. «تاريخ عصرنا» مقدمة لكتابات عام ١٧٧٥ المجموعة المجلد الثاني ص ٢٨ - ٣٠ من المقدمة لا المتن.

[٣]

ومع هذا فقد كانت أسس الحروب النابليونية توضع في فرنسا ، فإن السلم المذل لعام ١٧٦٣ ـ والذي فقدت به فرنسا إمبراطوريتها وراء البحار ، وفقدت به أيضًا مكانتها وهيبتها في أوروبا ـ قد تبعه تفكير عسكري جاد ، فقد أوجد جريبوڤال تطورًا ثوريًّا في المدفعية ، كما زاد من تحسين ضبط ودقة النيران ومن خفة حركة المدافع بتخفيض وزنها؛ وقد أوجدت إصلاحاته الأنواع التي بقيت هي الطابع العادي ، أي المستوى المعدل للمدفعية حتى عام ١٨٢٠ ، وقد أدخل الماريشال دي بروجلي والدوق دي شوازل de Choiseul في عام ١٧٦٠ ، وحدة جديدة كبيرة في تنظيم الجيش هي الوحدة التي أطلق عليها اصطلاح «الفرقة»؛ وقد تطورت هذه الفرقة تدريجيًّا حتى أضحت تعرف بأنها «الوحدة الدائمة الثابتة التي يقودها ضابط عظيم ، والتي تتوافر لها القوة للاشتباك بالعدو بنجاح حتى تصل وحدة أخرى غيرها إلى ميدان المعركة ومسرح القتال»..

كان قد انتهى اعتبار الجيوش الكبيرة حشدًا واحدًا يكون جبهة غير متكسرة في المعركة ، بل أضحت الجيوش مجموعات من الوحدات المتصلة ببعضها البعض والتي هي وحدات مستقلة يمكن أن تنفصل وأن تقوم بمناوراتها كل على حدة ، وقد جاءت للقائد العام بإمكانيات استراتيجية وتكتيكية جديدة ، وفي ذات الوقت باتت للقادة التابعين ـ كقادة الفرق ـ أهمية لم تكن قط لهم أيام فردريك ، وكانت حروب الثورة هي أول حروب كانت للفرق فيها أهميتها ، وكان نابليون وماريشالاته هم النشء الجديد

لاقتطاف ثمار هذا كله[١].

وجاء مع هذه المكتشفات العملية الجديدة بعد عام ١٧٦٣ الكثير من الكتابات النظرية ، وكان بين الكتاب أصحاب النظريات شريف في فجر العمر هو الكونت دي جيبير؛ وقد نشر جيبير هذا في عام ١٧٧٢ كتابًا وسم بعنوان «دراسة عامة في فنِّ القتال «التكتيك» ، وكان الرجل عندما نشر كتابه في التاسعة والعشرين من عمره ، وقد أكسبه الكتاب شهرة وجعل منه أسدًا من أسود الصالونات في المجتمع الفرنسي! وتورط في غرام مدموازيل دي ليسبيناس ، وكتب ثلاث مسرحيات من القصيد لم تخل من الأحاديث عن صناعة الجندية ، وخدم بعض الوقت في وزارة الحرب ، وفي عام ١٧٨٩ أثناء اجتماع من الاجتماعات التي عقدت لاختيار هيئة أركان الحرب العامة نُحِّي عن عمله في الثورة التي ستبدأ نتيجة للغيرة وللرجعية ، ومات الرجل عام ١٧٩٠ وهو يصيح في فراشه عندما حضرته الوفاة: «سأصل إلى الشهرة.. وسيعرفني الناس ، سأنال حقي من العدالة»[٢].

وكان جيبير في الواقع شخصًا متقلبًا غير ثابت ، كما كان دائمًا غير قانع وغير راض عن نصيبه من الحياة ، ولم يكن كذلك بقادر على إدراك السحب قبل تجمعها؛ ولكنه ولا شك كان موفور الذكاء ، وكان أديبًا وفيلسوفًا اعتبره معاصروه أنه تتوافر له العبقرية والموهبة الفذة ، وكان عنيفًا لا يسهل

---

(١) بيكار ـ المدفعية الفرنسة في القرن الثامن عشر باريس ١٩٠٦ ، Picard, L'artillerie Française au XVIIIe siécle كامبانا (مدفعية الميدان) ١٧٩٢ - ١٩٠١ ، باريس ١٩٠١ ، فيجان ذات المرجع ص ١٩٢ ، كولين J. Colin ذات المرجع ص ١ - ٨٥.

(٢) من مقدمة بقلم الناشر لكتابه «يوميات رحلة في ألمانيا» باريس ١٨٠٣ ، كتاب دي سيجير «رجل عظيم من رجال الصالونات ... الكونت دي جيبير» في مجلة باريس عام ١٩٠٢ ص ٧٠١ - ٧٣٦ ، جانز ذات المرجع المجلد الثالث ص ٢٠٥٩-٢٠٧٢.

التفاهم معه ، ثم إنه كان يتأثر دائمًا بالقوى التي تسود اللحظة التي هو فيها مادية أو معنوية؛ وعندما كتب دراسته العامة عن التكتيك كان يعمل ضابطًا في ألمانيا ثم كورسيكا ، وكان كغيره من فلاسفة عصره شديد الإعجاب بفردريك الذي كان يبدو لأعينهم في هالة من الضوء كنموذج للعبقري المجدد في الفن العسكري ، على أن فردريك نفسه ـ على ما تقول الشائعات ـ قد غضب لأنه وجد أسراره الفنية يصل إلى تقديرها صغير حدث ليس من أهل الصناعة.. وكانت مطالعته لكتاب «جيبير» تثيره إلى حد بعيد؛ ولا نستطيع أن نعرف حقًّا ما إذا كان كتاب جيبير قد كشف عن كثير من النواحي الفنية التي كان فردريك يعتبرها سرًّا خاصًّا به. ولكن من المحقق أن هذه الدراسة قد تجاوزت في بعض النواحي صور الحرب التي جاء بها فردريك.

وكان موضوعان اثنان هما أبرز ما في هذه الدراسة العامة للتكتيك:

أولهما: المطالبة بجيش من الأهلين المواطنين ، **وثانيهما:** الدعوة إلى حرب الحركة.

وكان هذان الأمران يقعان في تقدير جيبير ضمن نطاق فن القتال ، وكانت كلمة «تكتيك» تعني في ذلك الوقت فن المناورة بالجنود ، بينما كان يجيء في نطاق «التكتيكات الكبرى» ما نسميه الآن «بالاستراتيچية» ، ويجيء في نطاق «التكتيكات الأولية» ما نسميه الآن «بالتكتيك».

وقد اعترض جيبير على هذا المعنى على أساس أنه ضيق الإيضاح والتفسير؛ كان الاصطلاح «تكتيك» يعني في تقديره: كل العلم العسكري ، وكان يراه ذا جزأين: أولهما: إعداد وتدريب الجيوش ، وثانيهما: فن القائد أو

ما كان يسميه الناس إذ ذاك بالتكتيك ، وما نطلق عليه نحن الآن التكتيك والاستراتيچية. وقد أراد المؤلف الصغير السن أن يثب بالتكتيك في صورته الكبيرة ومداه الفسيح ليكون حقيقة عامة ، ويقول في هذا: «لقد أضحى «التكتيك» علم كل عصر ، وكل مكان ، وكل سلاح ، وفي إيجاز إنه نتيجة كل شيء حسن فكرت فيه كل العصور العسكرية وكل ما استطاع العصر الذي نعيش فيه أن يضفه إلى هذا»(١).

وكان موضوع «الجيش القومي» جيش المواطنين عقيدة عامة في محيط الفلاسفة ، وقد كان كل من مونتسيكو(*) وچان چاك روسو(**) ومابلي وغيرهم ممن يقلون عنهم مكانة ـ كان هؤلاء الذين خرجوا على الناس عام ١٧٧٠ بالآراء الحرة الطليقة ـ قد تحدثوا بهذا على أساس أنه وقاية ضد السلطات الملكية الاستبدادية ، السلطات القاسية الإدارة ، وقد نشر

(١) (١٧٧٢) Essai général de tactique «دراسة عامة للتكتيك» ١٧٧٢ ـ مجموعة الدراسات العسكرية للكونت دي جيبير في خمسة مجلدات طبع باريس عام ١٨٠٣ ، وقد قدم جيبير الاصطلاح (استراتيچية) في المجلدين ٣و٤ من ذات المرجع في دراسته التي وسمت بعنوان «الدفاع عن أسلوب الحرب الحديثة ـ ١٧٧٩».

(*) مونتسيكو .. شارل دي سيكوندا بارون دي لابريد (١٦٨٩ – ١٧٥٥) مؤرخ فيلسوف ولد قرب بوردو وفي عام ١٧١٤ عين مراقبًا لبرلمان بوردو ثم ورث اللقب ورياسة البرلمان عن عمه ، له عدة كتب مختلفة أهمها كتابه (روح القوانين) في ٣١ مجلد ، وكان لكتابه تأثير كبير في التوجيه الأول للثورة الفرنسية ـ راجع دائرة معارف كل فرد المجلد التاسع ص ٣٦٠ (المترجم).

(**) جان جاء روسو (١٧١٢ – ١٧٧٨) ولد في جنيف لرجل يعمل في صناعة الساعات ولم ينل حظًا من التعليم أكثر مما يمكن الحصول عليه في مدرسة القرية ، عمل في عدة صناعات ثم فر ودخل جامعة تورين .. واتصل بعدد من الناس كان لهم فضل توجيهه ، ونال جائزة جامعة ديمون لبحث كتبه عن تقدم الحضارة وأثر هذا في معنويات الناس ، نشر عام ١٧٦٢ كتاب العقد الاجتماعي؛ راجع معجم كل فرد المجلد ١١ص ٢٤٨– ٢٤٩. (المترجم).

ج.سيرڤان زميل ديدرو في «دائرة المعارف» والذي كان وزيرًا للحربية أثناء الثورة. نشر في عام ١٧٨١ كتابًا عن «الجندي المواطن» ، ***والواقع*** أن جيبير كان يندفع في التيار معتليًا قمَّة موجة هائلة ، وكان موضوع بحثه الذي وسم بعنوان «إلى وطني» يستهدف «إنشاء تنظيم عسكري سياسي» يكون فيه الفرنسيون عامة ، النبيل والفرد العادي ، الملك والتابع ، كلهم سواسية لا فرق بين فرد وآخر ، بل إن كل هؤلاء يفخرون بأن يحملوا لقلب «المواطن»؛ وكان هذا يعتبر من الأعمال الفلسفية التقدمية التي أسهمت في العلم العسكري.

ويبدأ جيبير حديثه بأن حكومات أوروبا كلها آلات مطلقة القوة ، وأن كل الشعوب تواقة للإطاحة بهذه الحكومات لو استطاعت ، ولم تكن الشعوب لتحارب من أجل تلك الحكومات ، ولم تكن الحكومات نفسها معنيَّة بالدراسات العسكرية ، وحتى في بروسيا فإن النظام العسكري كان يُعتبر نظامًا خارجيًّا ، ولم تكن للسكان صلة بالجندية ، ولم يدرب الشبان للحرب كما كانت الحال في «إسبارطة» القديمة ، وكان الناس عزوفين عن مغانم الحرب؛ لأن الأسرى لا يذبحون كالنعاج ، ولم يكن المدنيون في الولايات المغْزوَّة يقاسون شيئًا ، اللهم إلا أن يدفعوا جزية لا تزيد عادة عن الضرائب القديمة التي كانوا يدفعونها أصلًا للدولة التي كانوا يتبعونها.

والواقع - في إيجاز -: أن كل أهل أوروبا كانوا قليلي الصلابة والاحتمال ، وكانت كل الحكومات ضعيفة ، ثم يقول جيبير: «ولكن فلنفرض أن شعبًا قد نهض في أوروبا ، شعبًا قوي الروح المعنوية ، قويًّا في حكومته وفي الإمكانيات المتوافرة لها ، إن هذا الشعب الذي تتوافر له هذه الخاصيات القوية لابد وأن يوجد جيشًا قوميًّا. ويضع تخطيطًا للاتساع ،

وسنرى أن هذا الشعب يخضع جيرانه ويطغى على تنظيماتنا الضعيفة ، ويطويها كما تطوى الرياح التي تهب من الشمال سيقان الأشجار الصغيرة[١].

وكانت هذه الملاحظة تنقل دائمًا من المتن على أنها نبوءة عن حروب الثورة وحروب نابليون؛ ولكن جيبير كان لا يقدر أن ينهض بالثورة أناس أقوياء في عنف ، كان من الممكن أن يحدث هذا في روسيا تحت حكم بطرس الأكبر في أول القرن ، ولكن روسيا في أيام جيبير كانت قد اتجهت نحو الحضارة الغربية بدرجة كبيرة ، وكان أهلها قد عرفوا حياة الرفاهية وعرفوا كل الصورة الأنيقة في الطباع والعادات والسلوك العام ، الصورة التي جاءت بها الحضارة ، ولكن ولو أن جيبير لم يتوقع تغيرًا كبيرًا لنظرياته التي قدمها إلا أنه أشار إلى أنه في عالم مضطرب يتسم بهذا الطابع من الإجهاد؛ فإن الدولة التي تستطيع إصلاح حالها ولو بدرجة قليلة ستكون لها الأفضلية على غيرها من الدول.. وكان يظن أن كل هذا يمكن أن يتوافر لفرنسا.

كان يرى أنه لو دفعت فرنسا الروح القوية «روح الأهالي» إلى جيشها فستستطيع القيام بحرب حاسمة أكثر سرعة وأعنف تأثيرًا ، ومع أنه كان يأمل في هذا إلا أنه لم يكن يتوقعه ، وكان يقول إن خطايا الحرب الحديثة أسوأ كثيرًا من أن يمكن إصلاحها إلا بأن يجيء هذا نتيجة لثورة سياسية ، ولكن الثورة مسألة أبعد من أن تتم ، كان جيبير كغيره من الفلاسفة لا يثق كثيرًا بأن التفكير الثوري يمكن أن يتبعه سلوك ثوري؛ ولهذا فإنه بعد هذه الضجة عن الأصول العامة وصل في دراسته للموضوع إلى حيث ابتدأ فردريك الأكبر ، أي إلى الرأي الذي أوضحه فردريك عام ١٧٤٦ من أن

---

(١) الدراسات العامة ... ضمن المجموعة ... المجلد الأول ص ١-٢٣.

الجندي المواطن هو خير الجند، ولكن لما كان كل الجنود ليسوا مواطنين فإنه يجب أن يدربوا جيدًا وأن يتوافر لهم الضبط والربط الجيد بالعنف والإرغام[1].

وكان الجانب الآخر من الدراسة هو تطلب حرب للحركة، وهذه ناحية أكثر تطورًا من الجانب الخاص بجيش المواطنين، وفي هذا الجانب كما في الجانب الأول من الدراسة يبدو ذات الجهد البدائي وذات الشعور باضطراب وتعقد الطابع الثقافي للقرن الثامن عشر، وذات التقدير الكبير والاعتبار بمثالية الفضائل والصفات الإسبارطية الخشنة، وكان جيبير يأمل في أن يجعل الحرب أكثر خفة للحركة وحاسمة بدرجة أكبر نتيجة لتبسيط عواملها وعناصرها، فلقد فكر أن الجيوش في عصره أكبر مما يجب أن تكون. وأن قيمة المدفعية تقدر بأكثر من حقيقتها، وأن التحصينات ومستودعات العتاد والتموين تنمو وتتزايد بسرعة، وأنه يعنى بدراسة الطبوغرافية إلى أبعد مما يجب، ثم إن الشعوب الأوروبية في تفكيره لا تتوافر لها قوة الروح وأنهم يضاعفون من اهتمامهم بالمسائل المادية، وأنهم بسبب ما ينقصهم من الشجاعة والجرأة فإنهم يعتمدون على المال.

ولم تكن وجهات نظر جيبير عن تعداد الجيوش وعن وحدات المدفعية أبعد مما رأى سيده فردريك الأكبر، بالرغم من أن الأمرين كانا إذ ذاك في السماء بارزين أعلى الأفق، وقد وصلا في «ليبزج» عام ١٨١٣ إلى ذروة ما وصلا إليه في معركة ما حتى القرن العشرين، وقد بقي جيبير بسبب هذا في نطاق المدرسة التي تتحدث عن الحرب المحددة. الحرب غير الشاملة؛ ومع أنه كان جزئيًّا في جانب قوات المواطنين فإنه لم يتنبأ قط

(١) ذات المرجع ص ١-١٥١.

بالحشود الكبيرة في تكوين الجيوش ، فقد اعتبر الجيوش الكبيرة دليلًا على حماقة وقلة مهارة الرجال الذين يتولون الأمر.

وقد قال: إن القائد الجيد لا يستطيع العمل لو زادت القوة التي يتولى قيادتها عن سبعين ألفًا ، وقد كرر العبارات المليئة بالحسرة والتي تحدَّث بها قبله فردريك عن الشعب المدفعي المعاصر.. الشعب الذي يتجه بكلياته للمدفعية.. مع التباين بين اتجاهي الرَّجُلَين ، وقد اعتبر جيبير ـ أيضًا كفردريك ـ أن المدفعية قوة معاونة وليست سلاحًا قائمًا بذاته ، فإن الآراء الفنية التي قدمها جريبوڤال كانت كالعادة قد أوجدت انقسامًا واسعًا بين الأخصائيين ، وإلى درجة صغيرة كانت المدفعية إذ ذاك ـ وإلى حد ما ـ في ذات الوضع الذي للطيران في هذا العصر الذي نعيش فيه ، كان جيبير قد وقف موقفًا وسطًا بين الرأيين ، فهو يتفق مع جريبوڤال.. ولكنه لم يتقبل تمامًا أعمال المعاصرين من أصحاب النظريات في المدفعية مثل دوتيل الذي كان يستخدم خفَّة الحركة الجديدة للمدافع في الحصول على حشد كبير للنيران ، والذي وجهت تعاليمه عقول أكثر ضباط المدفعية نجاحًا ألا وهو نابليون بونابرت[1] ، وانفلت جيبير بعد ذلك بعيدًا عن فردريك مقتربًا من تجربة الحرب العالمية التي كانت وشيكة الوقوع؛ وذلك تبعًا لآرائه في قلة قيمة التحصينات والمستودعات؛ كان يرى أن الجيوش يجب أن تعيش على ما تأخذه من البلاد التي تحتلها ، فالحرب يجب أن تعمل لإمداد الحرب كما في أحسن أيام روما القديمة ، ويجب ألا يعرف الجنود الإسراف ، ومن الضروري أن تكون احتياجاتهم قليلة ، وألا تصحبهم حملات نقل كبيرة وأن يحتملوا النقص في احتياجاتهم كما يحتملون الصعاب والمتاعب دونما

(١) ذات المرجع المجلد الأول ص ٩٧و ٤٤٥-٤٧٢.

شكوى ، ويقول بأن الطريقة الفرنسية الحالية والتي يصحب فيها المدنيون الجيش للإشراف على التموين تعتبر طريقة خطرة؛ ذلك لأن القرارات العسكرية قد باتت تتوقف على موافقة وقبول موظفين مدنيين يهتمون بوقاية التموين أكثر مما يهتمون بقتال العدو ، والجيش الذي يتحرك دون قوافل حملة ويعيش على البلاد التي يمر بها يكتسب خفة الحركة كما يكون مدى عمله طويلًا ، وتتوافر له قوة المفاجأة[١].

وقدر جيبير أن فن التحصينات قد زادت قيمته بدرجة كبيرة منذ أيام ڤوبان؛ ولكن كان من الواضح أن الحاجة إلى القلاع ستقل تبعًا لإلغاء المستودعات الكبيرة والتي تعتبر وقايتها واحدًا من أهم واجبات القلاع؛ ثم إن توزيع القوات في حاميات هذه القلاع قد جعل الجيوش أكثر مما تتطلب الحاجة ، وكذلك فإن تحول العمليات الحربية إلى سلسلة من أعمال الحصار قد جعل الحروب طويلة الأمد دونما حاجة إلى هذا.

ولم يتقبل جيبير أيضًا القول بأن النقط المحصنة لها قيمة دفاعية ضد جيش خفيف الحركة في الصورة التي رسمها هو ، وقد كتب: «فإذا كانت أبراج القلاع وحدها يمكن أن تدافع عن المدن التي تحيط بها فإن مستقبل هذه المدن لا يتوقف على شجاعة وخاصية الجنود الذين يدافعون عنها ، وإذن فإن القلاع التي لا يتوافر لها الدفاع القوي لن تمنع مذلة وامتهان الشعوب المغزُوَّة التي بنت هذه القلاع»... ثم يكمل حديثه بأن هذه القلاع والحصون يجب أن تكون قليلة وقوية وأن تكون معاونًا للتحركات الاستراتيچية[٢].

(١) ذات المرجع المجلد الثاني ص ٢٥٤-٣٠٧.
(٢) ذات المرجع المجلد الثاني ص ٢٠٨-٢٢٠.

وكان لتنظيم الجيش أثره في سرعة السير ، وكان لدى جيبير ما يمكن من مضاعفة سرعة التحركات في تقديره ، وذلك بأن يوجد تشكيلًا جديدًا هو تشكيل «الفرقة»؛ «وإن لم يكن جيبير مبتدعًا في هذا إلى غاية ما للكلمة من معنى ، فإن فردريك قد فكَّر في مثل هذا التنظيم من قبل ، ونفذه إلى حد ما ، وكان التجديد فقط في درجة الكفاية الذاتية»؛ ولكن حتى عام ١٧٧٢ لم يكن هذا التشكيل الجديد قد قطع شوطًا بعيدًا في مرحلة التنفيذ؛ على أن جيبير قد أخفق في أن يقارن بوضوح بين تنظيم «الفرقة» الجديدة في الجيش الفرنسي وبين التنظيم «المؤقت» لقوات الفرقة والذي نفذه فردريك الأكبر ، ولكن مما لا شك فيه أن نظريات جيبير تبدي تقدمًا أبعد مما حققه فردريك الأكبر ، فإن هدف فردريك الأساسي كان أن يقسِّمَ جيشه أثناء السير في صورة تمكن هذه الأقسام ـ عند الوصول إلى مكان العدو ـ أن تتشكل في أماكنها من خط المعركة المحدد من قبل؛ ولهذا كان الجيش يسير وكأنه قد اعتزم القتال من البداية «راجع تشكيل السير لفردريك» ، ولكن جيبير حرر تشكيل السير من الارتباط دائمًا بتشكيل المعركة..؛ وكان تشكيل السير في تنظيم جيبير يقوم على أن تتحرك كل فرقة في «قول»(*) منفصلة عن غيرها ، وهذه الأقوال تبعًا لانفصالها عن بعضها البعض تستطيع أن تتحرك بسرعة أكبر.. وأن تغطي ميدانًا أوسع ، كما أنها تستطيع أن ترغم العدو الذي يرغب الاشتباك بها أن يتجه الاتجاه الذي تريده هي؛ فإذا اقتربت المعركة فإن هذه الفرق تحشد معًا جملة واحدة دون أن تفقد قط الوحدة التي تربطها

(*) «القول Column» هو التشكيل الذي تسير به مجموعات من الجنود أو العربات أو المدفعية الواحدة إثر الأخرى... ويعني القول في عصر فردريك سير المشاة أو الخيالة في مواجهة ضيقة وبعمق كبير ، وكانت العادة أن أفراد كل صف في المواجهة بين أربعة وثمانية ، وهذا خلاف السير بتشكيل (الخط) الذي يشغل مواجهة كبيرة.

معًا في جيش واحد ، كما يستطيع القائد العام الذي يسبق هذه الفرق أن يفحص ميدان المعركة «أي أن يقوم باستكشافه الشخصي لمسرح المعركة» ، وأن يضع تخطيطه للقتال في ضوء هذا الاستكشاف الشخصي ، وأن يعين أماكن وأوضاع فرقِهِ بمجرد وصولها إلى مسرح المعركة؛ ومن هنا يبدو لنا أن المعارك قد صارت أكثر مرونة مما كانت من قبل وأضحت تتمشى مع طبيعة الأرض ومع الظروف ، كما أضحى من الميسور أن تتقبل التوجيه من القائد العام حتى بعد أن تشتبك الجيوش في القتال؛ ولم يغفل جيبير عن أن يرجع بالفضل لفردريك في استخدام هذه الطريقة في «هوهنفريدبرج» ، وإن كانت الحقيقة أن هذه الفكرة أقرب إلى أن تكون فكرة نابليون لا فكرة فردريك[1].

على أن هدف فردريك من كتابه «دراسة عامة للتكتيك» كان هو العمل لإيجاد جيش في طابع جديد؛ ومن الناحية المثالية يمكن أن نقول بأن هذا الهدف إنما كان إيجاد «جيش الشعب» ، أي إيجاد جيش أخف حركة تبعًا لأنه يعيش من الأرض التي يعمل فيها ، كما أنه يكون أكثر انطلاقًا وتحررًا في العمل؛ لأنه قد تخلص من النقط المحصنة التي يجب أن يستند إليها في تحركاته وفي القتال الذي يخوض غماره ، ثم إنه يكون أكثر قدرة على المناورة؛ لأنه قد نظم في فرق منفصلة عن بعضها طوال تحركها ، وبمثل هذا الجيش كان من الممكن أن تتغير صورة الحرب القديمة «حرب المواقع» إلى حرب الحركة؛ وهنا يقول جيبير: «ونسبيًّا ما دمنا نريد أن نقاتل حربًا أكثر حركة فإننا يجب أن نتخلص من الرُّوتِينِ الحالي ، وأن نعود إلى جيوش أقل عددًا وأقل أثقالًا؛ بل وأن نقلل مما نطلق عليه اسم «المواقع الحصينة»؛ ذلك لأن

(١) ذات المرجع المجلد الثاني ص ١٥-٨٨.

المواقع يجب أن تكون آخر ما يفكر في الاستناد إليه جيش خفيف الحركة جيد القيادة ، فإذا ما وصل جيش إلى الدرجة التي تمكنه من القيام بالمناورة فمن النادر أن توجد «المواقع» التي لا يستطيع هذا الجيش مهاجمتها من الخلف ، أو التي لا يستطيع إرغام العدو على إخلائها وتركها ، إن المواقع صالحة فقط عندما يتجه الفرد إلى الوقوف موقفًا سلبيًّا أي عدم العمل»؛ ثم يقدم جيبير تصويرًا سريعًا للحرب الخاطفة التي كان على نابليون تنفيذها. فيقول بأن القائد الجيد إنما ينفض يديه من هذه الصور ة التي عرفها في الماضي للمواقع. ثم يتابع حديثه: «وأقول: إن القائد الجيد سيستطيع أن يثير الخوف والرعب في قلوب أعدائه ، وأن يضرب جيش العدو ضربة تفقده حواسه ، ولا يسمح له بفرصة لينتعش؛ بل يضطره للقتال أو التقهقر باستمرار ، ولكن هذا القائد يتطلب جيشًا يخالف ـ في تكوينه ـ جيوشنا الحالية ، يتطلب جيشًا يقوم هو نفسه بإعداده لهذا النوع الجديد من العمليات التي يريده أن يقوم بها»(١) ، وكان على الثورة الفرنسية أن توجد هذا الجيش.

على أنه لسوء جدِّ جيبير فإن عمله الوحيد الكامل في الفن العسكري ـ بالإضافة إلى كتابه الأول «الدراسة العامة ..» هو كتابه «الدفاع عن الطريقة الحديثة للحرب» والذي نشره عام ١٧٧٩؛ وفي هذا الكتاب يناقض جيبير الكثير من الآراء التي جاء بها في كتابه الأول ، ويقول جيبير عن هذا: «عندما كتبت ذلك الكتاب ـ يقصد الدراسة العامة لفن القتال ـ كنت أصغر مما أنا الآن بعشر سنوات ، إن أبخرة الفلسفة الحديثة قد ألهبت رأسي ،

(١) ذات المرجع المجلد الثاني ص ٢٤٩-٢٥٤.

وغطت صدق تقديري للأمور بالسحب»[١]؛ وكان جيبير بعد أن نال شهرة إثر نشر كتابه الأول قد قابل فردريك الأكبر وجاس خلال ألمانيا ، وانغَمَرَ في المجتمع ، واندفع بسرعة في طريقه كرجل أخصائي ، وأضحى أكثر اقتناعًا بالعالم الذي يعيش فيه.

وكان الطريقة الحديثة التي حاول في كتابه «الدفاع..» أن يبرز حقائقها وقيمتها هي في بساطة صورة الحرب في ذلك الوقت مقارنة بصورة الحرب في العصور القديمة ، كانت هي الفن العسكري التقليدي لعام ١٧٧٩؛ ويعرض الكتاب في جملته لصورة واحدة من هذه الحرب «الحديثة» هي مناقشة التفضيل بين استخدام «القول» أو «النحط» في تكتيكات قتال المشاة ، وقد وقف جيبير في الجانب المحافظ مدافعًا عن «النحط» (أي عن مبدأ قوة النيران) ضد القول (أي ضد مبدأ الاقتحام التصادمي) ، وقد أضاف جيبير إلى هذا النقاش فصلًا ختاميًّا وسم بعنوان «الطريقة الحالية للحرب واختبارها بالنسبة للسياسة والإدارة» ، وهنا يجيء في الواقع تنكره لآرائه وتصريحاته الأولى.

ولم تكن قد توافرت لجيبير أية فكرة عن جيش الأهلين ، ***والواقع*** أنه في الوقت الذي كان فيه جيبير يكتب هذا كانت القوات الأهلية تقاتل الجنود المحترفين الإنجليز والجنود المأجورين الذين يعملون في خدمة بريطانيا في أمريكا ، وقد قام كثيرون من الضباط الأوروبيين بمراقبة ما كان يدور هناك من قتال ، وقد جاء لافاييت[*]

---

(١) «الدفاع ...» المجلد الرابع ص ٢١٢.

(*)لافاييت .. جوزيف بول جلبرت موتييه مركيز دي لافاييت (١٧٥٧-١٨٣٤) قائد فرنسي وسياسي ، هجر فرنسا بعد أن خدم في الجندية ، ورحل إلى أمريكا عام ١٧٧٧=

وبيرثيير(*) وجوردان(**) وجينيسناو(***) من أمريكا ببعض الآراء

=لمساعدة المستعمرين ضد الحكومة الإنجليزية ، حارب إلى جانب واشنجتون وعلى الأخص في الدفاع عن ڤرچينيا عام ١٧٨١ ، وفي معركة يورك تاون عام ١٧٨٢ ، منح رتبة ميجر جنرال في فرنسا إثر عودته ، وانتخب للجمعية الوطنية عام ١٧٨٩ ، وكان هو الذي أعلن الحقوق التي قامت على أساس ما جاء في إعلان الاستقلال الأمريكي ، وكان هو الذي تخير ألوان العَلَم الفرنسي الحالي ، أرغمه اليعقوبيون على الفرار إلى ليبيج حيث سجنه النمساويون لخمس سنوات حتى أطلق سراحه نابليون بونابرت ، كان قائد المقاومة من عام ١٨٢٣ إلى عام ١٨٣٠ ، وأثناء ثورة عام ١٨٣٠ تولى قيادة الحرس الوطني؛ ولكنه لم يكن ناجحًا «المترجم» E. Encycl. Vol. ٨ PP. ٢٤٦.

(*) بيرثيير.. ، بير الكسندر بيرثيير (١٧٥٣-١٨١٥) قائد فرنسي ، كان هو الذي أعلن الجمهورية في روما عام ١٧٩٨ ، وقد عمل رئيسًا لأركان الحرب لنابليون بونابرت في حملته على مصر ، ثم في حملة عام ١٨١٢- ١٨١٤ ، وعندما تولى لويس الثامن عشر العرش بعد رحيل نابليون إلى جزيرة إلبا سَلَّم نيقشاتل التي كان قد عين أميرًا عليها ١٨٠٦ للملك وقدم خضوعه له. فلما عاد نابليون من إلبا ثانية انتحر الرجل فقد اعتبر ما قام به يتعارض مع إخلاصه الواجب لنابليون «المترجم» E. Encycl. Vol. II P.P. ٢٦٩.

(**) جوردان .. جون بابتسيتا كونت جوردان ١٧٦٢-١٨٣٣ ، قائد فرنسي حارب ضد النمساويين في عام ١٧٩٣و ١٧٩٤ ، وردهم وراء الرين ، ثم حاصر ميتز عام ٩٥ ولكنه هُزم من الأرشيدون شارل بعد ذلك ، نزل عن قيادته لمسينا عام ١٧٩٩ ، ودافع عن نفسه في كتابه (عمليات جيش الدانوب) الذي نشره عام ١٧٩٩ ، رقاة نابليون إلى رتبة الماريشال عام١٨٠٤ ، وعينه حاكمًا على نابولي عام ١٨٠٦ ، وصحب الملك يوسف شقيق نابليون إلى أسبانيا عام ١٨٠٨ ، فلما جاء لويس الثامن عشر منحه لقبًا وأبقى له ثروته إلا أنه شجع ثورة عام ١٨٣٠. «المترجم» E. Encycl. Vol. ٨ p. ٤٥.

(***) جينيسناو .. أوجست ويلهلم أنطون جراف فون جينيسناو (١٧٦٠-١٨٣١) جنرال بروسي ، درس لعاملين في جامعة إير فورت ، ثم انضم للآلاي النمساوي ، وحارب في صفوف الألمان من عام ١٧٨٢ إلى عام ١٧٨٦ الذين ساعدوا الإنجليز في حرب الاستقلال الأمريكي ، عاد إلى قوات بروسيا برتبة الملازم ، وخدم في بولندة ١٧٩٣-٩٤ ، وحارب في ينيا ثم في ليبزج ، ثم كان ضمن هيئة أركان الحرب الجنرال بلوخر في معركة ووتر لو عام ١٨١٥ ، كان فيلد ماريشال قائد الجيوش البروسية عام ١٨٣١ ، وأُصيب بالكوليرا ومات في بوزن في أغسطس عام ١٨٣١ وسنعود إليه عند الحديث عن كلاوزيفيتنر. «المترجم» E. Encycl. Vol. ٦ p. ٤٣٧.

والأفكار القيمة عن الجنود المواطنين «جيش الأهلين» وعن تشكيلات القتال؛ ومع هذا فإن جيبير بقيَ مصرًّا على أن المدنيين لا يستطيعون الوقوف ضدّ الجنود المحترفين ، وقرر أن نجاح الأمريكان إنما يرجع إلى ضعف الإنجليز؛ ويقول: إنه لا توجد دولة حديثة تستطيع المخاطرة باستخدام قوات شعبية ، هذه القوات التي ربما كانت تصلح بين القدامى ، الذين كانت مناوراتهم بسيطة ولم تكن الأسلحة النارية معروفة لهم ، كما يقرر أن كل دول أوربا قد أغفلت هذا ونفضت أيديها من استخدام الأهلين عدا بولندة وتركيا ، وقد تحطمت بولندة وتمزقت؛.. على أننا يجب أن نلاحظ بأنه على طوال صفحات هذا الكتاب وفي سطور هذه الآراء لم تكن كلمة «المواطنين» تعني شيئًا أكثر من التعبير عن جملة السكان[1].

وقد امتدح جيبير حرب «الاحتراف» للطابع الهين غير الضار الذي لها ، هذا الطابع الذي كان هو علَّة هجومه الأساسي عليها في كتابه الأول؛ ويلاحظ جيبير أنه (في العصر الذي كان يعيش فيه) كانت البلاد المغزُوَّة تنجو من كل الصور المخيفة التي تنتج عن الحرب من تدمير وذعر ، بينا «أن أية دولة يدافع عنها أهلوها فإنها لا تنجو قط من هذا اللون من المصائب» ، وكان يرى أنه من الأفضل من الناحية الإنسانية أن يبقى الناس في موقف المشاهدين بالنسبة للعنف الذي تجيء به الحرب ، ثم يضيف بأن الإصرار على إنشاء واستخدام المواقع المحصنة مع كل هذه الدقة التي للمناورة ـ حرب الحركة ـ التي تتبع قاعدة ثابتة «قد يكون استخدامًا أو تفكيرًا خاطِئًا ، ولكن من المؤكد أنها ـ يقصد المواقع المحصنة ـ تجيء بنفع كبير يحول دون

(١) ذات المرجع ... المجلد الرابع ص ٢١٩-٢٣١.

اضطراب الأمم ويؤكد سلامة الإمبراطوريات» ، وكان يرى أن هذه المساواة أو التماثل بين الدول العسكرية إنما توجد توازنًا طيبًا؛ ولهذا فإنه «كلما كانت الحروب حاسمة ، وبالتبعية مدمرة للأمم كلما قلَّت الاحتمالات ليتواجد غزو ، وكلما قلت الأسباب والدوافع التي تدفع الحكام الطامعين للفتح.. بل وكلما قلت الثورات في الإمبراطوريات»؛ وهكذا ينتهي جيبير بفكرة الدفاع ، ومن الصعب في الواقع أن نفرق بينه وبين فردريك الأكبر في هذا[1].

وقد وضح في كتابي جيبير إدراكه للفرق بين الحرب «المحددة» والحرب «غير المحددة» ، أو بمعنى آخر: الفرق بين قتال الجنود المحترفين ، وبين الكفاح المدمر الذي تقوم به الشعوب؛ وقد رأى العلاقة الوثيقة بين صناعة الحرب وبين نظام وتكوين الحكومة ، ***والواقع*** أن تضارب جيبير كان معنويًّا لا منطقيًّا وكان عدم تماسكه يتضح في الاتجاه لا في التحليل للأمر ، ففي التاسعة والعشرين كان ينظر إلى الآراء عن الجيوش القومية وعن استراتيجية الحرب الخاطفة بعين الرضا ، ولكنه وهو في الخامسة والثلاثين نظر إلى هذه الآراء نفسها نظرة اعتراض بل وعدم موافقة ، وفي كلا العصرين لم يُبدِ أيَّة قدرة عملية على التنبؤ بما يمكن حدوثه ، هذه القدرة التي يمكن أن تميزه عن أن يكون رجلًا حسن الجد ليس إلا ، وأن الظروف وحدها هي التي ساقت هذا التقدير دون جهد منه ، ولم يستطع قط أن يدرك أن هذه الآراء التي قبلها ورضي عنها في عام ١٧٧٢ ثم عاد فاعترض عليها في عام ١٧٧٩ ستكون هي هي حقائق ثابتة بالنسبة للجيل الذي كان على قيد الحياة يوم ذاك.

---

(١) ذات المرجع المجلد الرابع ص ٢٦٣-٢٧٥.

وقبل أن ينهي جيبير كتابه «الدفاع» أسهم بقوة في هذه الفلسفات التي كانت في بعض الأوقات توضح ميولًا مسالمة أو على الأقل تعارض الحرب التي تقوم بها الحكومات القائمة يومذاك، ويقول: «إن الوقوف ضد الحرب كأنه إطلاق صرخات لا معنى لها في الهواء؛ ذلك لأن الحكام الأقوياء الطامعين غير العادلين لن تكبح جماحَهم مثل هذه الوسيلة، ولكن الوسيلة المنتجة والتي يجب أن تنتج هي أن نطفئ تدريجيًّا هذه الروح العسكرية، وأن نجعل الحكومات أقل رغبة في هذا الجانب المهم من الإدارة ، وأن نصل بها يومًا ما إلى أن تنزع أسلحتها أو إلى ما يشابه هذا بأن تكون سيئة التسليح ولا يحسن أهلوها استخدام الأسلحة، ثم بأن نربط بين الأمم المحاربة والتي قد تكون أقل حظًّا من المدنية؛ ولكنها أكثر حكمة وأكثر تجنبًا للتهور والاندفاع»[١].

وكانت هنا نبوءة جيبير عن فرنسا!

ومع هذا فإن حديثه كان تحذيرًا لا حاجة للقرن الثامن عشر به؛ لأنه لم تكن هذه الاتجاهات المسالمة هي التي ستكون لها الغلبة على غيرها من الآراء التي جاءت بها هذه الفلسفات القائمة!!!

***

(١) ذات المرجع المجلد الرابع ص ٢١٣.

[٤]

وفي عام ١٧٩٣ واجهت جمهورية فرنسا الثورية حلفًا من بريطانيا وهولندة وبروسيا والنمسا وسردينيا وأسبانيا ، وكان الفرنسيون بالنسبة لغيرهم من الشعوب التي تعيش تحت حكومة واحدة هم الأكثر عددًا وربما كانوا أيضًا الأوفر ثروة ، وقد استطاعت اللجنة المشكلة لسلامة وأمن الدولة أن تعبئ لمواجهة الموقف الحرج الخطر كل إمكانياتها العسكرية بطريقة لم تكن مستطاعة في حكم النظام القديم؛ وفي غمرة التخلص من الحقوق القديمة ومن الامتيازات المحلية للطبقات ومن العوائق الداخلية ومن صور الاحتكار الاقتصادي ـ من كل هذا الذي كان يحد من العمل المنتج أيام الملكية ـ استطاعت هذه اللجنة أن توجد نظامًا اقتصاديًّا للحرب بوسائل ديكتاتورية ، وأنعشت اللجنة من المشاعر القومية بين الأهلين ، ثم أوجدت مبدأ الخدمة العسكرية العامة بتكوين حشود المواطنين المقاتلين ، وكان الثوريون ـ في هذا الجانب السياسي من الحرب ـ يدركون أنهم بسبيل إيجاد نظام عسكري جديد ، ولكنهم كانوا أقل إدراكًا لما أمكن الوصول إليه في المسائل الفنية الاستراتيجية؛ وكانت آراء كارنو الاستراتيجية تعتبر ـ في الواقع ـ آراء من طابع قديم[١]؛ ومع هذا فإنهم بتركهم جيوشهم لتموَّن مما تحصل عليه من المناطق التي توجد بها بدلًا من أن تموَّنَ من مستودعات معدة من قبل. فإن الجمهوريين قد سببوا بهذا ثورة في فن تحركات وتموين

---

(١) R. Warschauer, Studien Sur Entwicklung der Gedan Ken, Lazare Carnot uber Kricgfuhrung.

«دراسة عن تطور آراء لازاركارنو الخاصة بالقيادة في الحرب» بقلم ر. ڤارشاور طبع برلين ١٩٣٧.

الجيوش ، ثم إنهم بدفعهم جنودهم نصف المدربين إلى المعركة في قولات مندفعة أو في خطوط مفتوحة في شكل المروحة من المناوشين يقاتلون ويطلقون النيران ويستترون في الصورة التي جاءت بها حرب استقلال أمريكا أنهم بعملهم هذا قد انصرفوا عن أسلوب فردريك باستخدام الكتائب الصلبة الجامدة ، وأوجدوا طابعًا ثوريًّا جديدًا في فن القتال.

وفي عام ١٧٩٤ تحول الفرنسيون إلى الهجوم ، وفي عام ١٧٩٥ انسحبت بروسيا وهولندة وأسبانيا من الحرب ، وفي عام ١٧٩٦ سقط نابليون على إيطاليا منحدرًا من جبال الألب ، وفي عام ١٨٩٧ عاد قادة أوروبا إلى السلم وبدأت بريطانيا مفاوضتها مع فرنسا ، ولكن الحرب لم تلبث أن عادت من جديد في عام ١٧٩٨ ضد التحالف الثاني ، وفي عام ١٧٩٩ أضحى نابليون سيد فرنسا ، ودمر الحلف الثاني في عام ١٨٠٠ ، ثم كسب بعملياته الخاطفة في إيطاليا أولى المعارك النابليونية الكبيرة السريعة الحاسمة ـ معركة مارنجو.

كانت قد حدثت ثورة في فن الحرب ، وقد وضَحَ شروق شمسها تدريجيًّا للمراقبين ، وقد استطاع بعض المدنيين أمثال ماليه دي بان وجنتز أن يدركوا بعض الأسباب العميقة لهذا قبل أن يدركها العسكريون المحترفون؛ وذلك بسبب أن التغيير الجوهري إنما جاء في مقدمات العمل السياسي للتنظيم العسكري ، وفي هذا الاتجاه الجديد الذي كان قدومه في رأي ديلبروك لازمًا وضروريًّا لاستحداث الثورة في فن الحرب.

كان العسكريون المحترفون في فرنسا في ذلك الوقت جد مشغولين في العمليات الحربية وفي كتابة المؤلفات عما يقومون به من أعمال ، وكان شارنهورست في ألمانيا يحرر إحدى الصحف وينشر دراسات قصيرة عن

الحوادث ، وكان جينيسناو في حامية إحدى مدن سيليزيا يطلق التجارب التي جاء بها من أمريكا في تدريب الجنود ، وكان الاثنان شارنهورست وجينيسناو - في الواقع - يزيدان من ثقافتها العسكرية ، وقد تقدم الاثنان الصفوف في عام ١٨٠٦ لإعادة بناء الجيش البروسي؛ وفي ذات الوقت كان الكتاب العسكريون الأظهر من غيرهم في أعين الناس ، وهم بهرنهورست وبيلو وهوبر وڤينتوريني - على ما وضح للناس لوقت ما - لم يتعلموا شيئًا مما يمر أمام أعينهم؛ ولهذا فإنه قد يكون من المفيد في هذا البحث أن نتوقف قليلًا لنستمد في دراستنا هذه إلى بيلو وحده دون هذه المجموعة من الأفراد الذين مرَّ ذكرهم معه[١].

وكان ديتريش ڤون بيلو مثله مثل الكونت دي جيبير من صغار «الأروستقراطيين» توافرت له مثله خبرة بسيطة بالجيش ، ولكي يكسب عيشه عمل في تأليف الكتب في موضوعات مختلفة متباينة، وقد أثبت بيلو أيضًا أنه غير مستقر في آرائه كجيبيرن بل وربما كان أكثر منه إعتدادًا بنفسه وثقة في كفايته ، وقد ثار بيلو ضد كل فرد واتهم كل من عرض له بأن عقليته غير منظمة ، وأثار الروس ضده أثناء الحلف الروسي - البروسي ، وانتهى الأمر بأن اعتبرته الحكومة البروسية غير كامل القوى العقلية ومات في مصحة ببلدة ريجا عام ١٨٠٧؛ ومنذ ذلك التاريخ اختلف الناس في تقديره ، هبط به البعض إلى اعتباره مغرورًا معجبًا بنفسه ثم لا شيء بعد هذا ، وسما

(١) راجع (اعتبارات عن طبيعة الثورة الفرنسية) مالية دوبان طبع لندن عام ١٧٩٣ ، وكتاب (الحالة السياسية السائدة في أوروبا قبل وبعد الثورة الفرنسية) لجنتز .. طبع عام ١٨٠١.

J. Mallet du Pan, Considérations sur la révolution de France (London ١٧٩٣) F. Gentz, von dem Politischen Zustande van Europa. vor und nach der finzosischen Revolution (١٨٠١).

به آخرون إلى اعتباره منشئ العلم العسكري الحديث[1].

وقد نشرت أولى دراساته العسكرية «روح الطريقة الحديثة للحرب» في عام ١٧٩٩ ، وقد أكسبته شهرة كبيرة وسرعان ما ترجمت إلى الفرنسية والإنجليزية ، ويرى علماء الجيوبوليتيكس «علم سياسة الكرة الأرضية» اليوم في هذه الدراسة خطوة في تطور هذه الدراسات ، وقد أكمل بيلو كتابه بأحاديث وآراء عن «المساحة» السياسية ، وقد صرح ـ على نقيض فردريك ـ أنه بسبب الطريقة العسكرية الحديثة قد انتهى عصر الدول الصغيرة ، ويرى أن قوة الدولة تتجه إلى ملء منطقة معينة ، وأنها تكون غير مؤثرة إلى ما وراء هذه المنطقة ، ولما كانت كل قوة لها حدود طبيعية فإن إدراك هذه الحدود يمكن أن ينتج توازنًا سياسيًا كما يوجد سلمًا دائمًا وذلك تبعًا لأن كل قوة ستكون قد وصلت إلى الحد الطبيعي لعملها ، ثم يقول بأنه ستكون في أوروبا قرابة الاثنتي عشرة دولة هي الجزر البريطانية ، فرنسا (ممتدة إلى الميز) ، ألمانيا الشمالية (متجمعة حول بروسيا وممتدة من الميز إلى مل) ، ألمانيا الجنوبية (التي تخلف النمسا والتي تمد حدودها جنوبًا إلى الدانوب وربما إلى البحر الأسود) ، إيطاليا المتحدة ، شبه جزيرة إيبيريا المتحدة ، سويسرة ، تركيا ، الروسيا ، السويد؛ وربما ـ وإن لم يكن هذا ضروريًّا ـ هولندة المستقلة والدانمارك المستقلة[2].

والمدهش أن هذا كان تقديرًا طيبًا سابقًا لوقته لمصورة أوروبا؛ إذ أنه قد تحقق في عام ١٨٧٠؛ ومن الصعب أن نزعم بأن هذا التقدير قد قام على

(١) ذات المرجع المجلد الثالث ص ٢١٣٣-٢١٤٥.

(٢) ر. ستروزس «الجيوبوليتيكا .. الصراع من أجل المساحة والقوة» نيويورك عام ١٩٤٢ ص ١٤ - ٢١؛ بيلو «روح الطريقة الحديثة للحرب» لندن ١٨٠٦ ص ١٨٧-٢٨٥.

أساس تقدير صحيح للموقف العسكري في عام ١٧٩٩ ، فإن كتاب بيلو «روح الطريق الحديثة للحرب» لم يوضح تفهمًا حقيقيًّا لحروب الثورة ، ولم يكشف بيلو عن تجديد له طابعه المميز اللهم إلا في التشكيل المفتوح الجديد للمناوشين ، أي في تكتيكات المشاة فقط[1].

والواقع أننا يجب أن نذكر له فضل بذل الجهد لايضاح بعض المصطلحات ، وإن كان هو في الحقيقة قد قدم هذا في كلمات ذات معان عامة بعيدة الأهداف محاولًا تعريف «الاستراتيجية» و«التكتيك» و«قاعدة العمليات»؛ وبالرغم من أن تعاريفه لم تكن مقبولة من وجهة عامة إلا أن بحوث كتابه كانت إحياء جديدًا لآراء غير مستعملة.

وكانت «طريقة بيلو الحديثة» كطريقة «جيبير» ، «هي في بساطة تطور الطريقة في أيام القرن السابع عشر ، ومع هذا فقد قال بأنه قد كشف مفتاح تلك الطريقة عن طريق فكرة «قاعدة العمليات» ، «ومن الضروري ـ بالنسبة لطريقته ـ أن تكون قاعدة العمليات خطًّا محصنًا لمستودعات معدة من قبل ، كما يجب أن يلتقي «خطا العمليات» اللذان يوجهان من طرفي هذه القاعدة عند النقطة التي ستهاجم ، ويكون هذا في زاوية لا تقل عن ٩٠° درجة ، ويجب أن لا يسير الجيش الذي يعتزم الهجوم لمسافة تزيد عن مسيرة ثلاثة أيام من منطقة مستودعاته ، ويجب أن يكون هدف القائد ليس مهاجمة قوات العدو بل وقاية خدمات تموين قواته ، وفي العمليات الهجومية لا يحشد قواته ضد جيش العدو بل ضد خطوط تموين العدو ، ويجب تجنب القتال ، ويجب أن لا يتابع القائد المنتصر نجاحه فإن المعارك الحديثة لا تقرر شيئًا ، والجيش الذي يهزم في ميدان القتال يستطيع غالبًا الهجوم ثانية بعد

(١) ذات المرجع هامش ص ١٠٩.

أيام قليلة»[1].

على أن عدم صحة هذه التصورات والآراء قد وضحت مبكرًا في عام ١٧٩٤ عندما سارت خيالة الفرنسيين إلى أمستردام على الجليد ، كما أن معركتي هوهنليندن ومارنجو ـ اللتين حدثتا بعد طبع كتاب بيلو بشهور قليلة ـ كانتا ردًا واضحًا على «طريقته»؛ وقد فتحت معركة مارنجو عينيه فكتب عنها كتابًا خاصًا أصر فيه على أن النصر الفرنسي يثبت كل عقيدته التكتيكية ، وإن كان في الحقيقة يتعارض مع الكثير مما قاله من قبل؛ وقد تعلم بيلو ولكنه قد تعلم بالرغم منه وعن غير رغبة منه في تقبل هذا العلم الجديد.

وقد قال بيلو: إن مارنجو قررت في أقل من شهر مستقبل الثورة الفرنسية وبالتالي قررت إنسانية أوروبا ، «إن خفة الحركة هي سرّ نجاح فرنسا؛ كما تبدو أغلب التحصينات عديمة الفائدة أمام جيش خفيف الحركة؛ لقد باتت خفة الحركة والإقدام ممكنتين نتيجة تخفيف قوافل الحمل للجيش؛ ونتيجة للتحرر من نظام المستودعات» ، ويلاحظ بيلو أن بونابرت قد عَبَرَ الألب دونما طعام للجنود إلا «البقسماط» وهو غذاء كاف لا يتطلب الطهي ، ووصل إلى إيطاليا بجيش جائع وقد قرر أن يعيش من الأرض التي وصلها.

ولكن إلى أيٍّ حد يتمشى هذا مع «قاعدة العمليات» ومسألة الزاوية ٩٠°؟

الواقع: أن بيلو قد أخفق في إيضاح هذا وإن كان قد ناقش الأمر

---

(١) ذات المرجع في كل مكان من الدراسة وعلى التخصيص ص ١ - ٢٥ و ٨١ - ٨٢و ١٠٨و ١٨٣-١٨٤.

مناقشة طويلة جدًّا ، وقد أشار إلى أن وجود أشخاص جدد في الجيش الفرنسي كان هو مورد الشجاعة الجديدة في هذا الجيش؛ وقد قال: إن ضباط الجيش النمساوي يصلون إلى مراكزهم بالأقدمية ، وأن مواهبهم متوسطة؛ ولكن «مع عدم إمكان فصل التطور واضطراب الأوضاع عن الثورة فقد ظهر في فرنسا رجال ما كان ليمكن في وقت السلم والهدوء أن يكشفوا قط عن كفايتهم. أو حتى أن يشك في وجود هذه الكفاية ، وكان هذا التطبيق المفاجئ للكفاية النادرة والعبقرية هو أول الأسباب التي أوضحت أفضلية الفرنسيين في هذه الحرب»[1].

ومع هذا الإيضاح فإن بيلو لم يستطع أن يفهم الحرب الخاطفة التي أذهلت أوروبا ، فقد قال عن النصر الفرنسي: إنه إنذار ، إنه نذير شؤم ، إنه رسالة من السماء. وتحول الرجل ليقف في جانب بونابرت والفرنسيين ، وقد سبب له هذا الموقف حرجًا تبعًا للروح القومية التي كانت تطغى على ألمانيا ، وبلا شك أن هذا كله قد زاد من توجيه الأنظار إلى اضطراب قواه العقلية.. أو على الأقل مهَّد السبيل إلى تقبل هذا..

ثم جاءت حملة عام ١٨٠٥ ، وفي ذلك العام تكوَّن التحالف الثالث من النمسا وروسيا وبريطانيا ، وقد وجهت الدولتان اللتان تعيشان في قارة أوروبا الجيوش الجرارة للغرب ، وقد أمَّلت أوروبا الأروستقراطية خيرًا كثيرًا في هذه الجيوش. ومن النادر أنْ حدثَ في التاريخ ما حدث بتلك

---

(١) Histoire de la campagne de ١٨٨٠ en Allemagne et en ltalie

«تاريخ حملة عام ١٨٠٠ في ألمانيا وإيطاليا» طبع باريس عام ١٨٠٤ ص ٤ و ٥ و١٦ و ٩٠ و٩٢ هامش ١٤٢ و ١٨٣ ، والنسخة الألمانية طبع برلين عام ١٨٠١ من الصعب الحصول عليها.

السرعة؛ ففي أيام قليلة سيَّر بونابرت عددًا كبيرًا من الفيَالق من أماكن على الساحل الغربي لأوروبا إلى جنوب أوروبا ، وفي «أولم» أرغم الجنرال ماك ـ الذي اشتهر بأنه من سادة الاستراتيجية ـ على أن يستسلم وفي رفقته ثلاثون ألف جندي دون قتال عنيف ، ثم تحرك إلى ڤيينا ومنها إلى موراڤيا ووجد القوات النمساوية الروسية تواقة إلى الهجوم ، ولكنه هزمها هزيمة منكرة في قرية «أوسترلتز».

وكتب بيلو بعد هذا مباشرة كتابًا في مجلدين عن تلك الحملة ، وأصدره في الشهور الحرجة التي تبعت أوسترلتز والتي اندفعت فيها بروسيا رغم سياستها ذات الوجهين نحو الهزيمة التي لحقت بقواتها في يينا ، وكان على بيلو أن ينشر كتابه في طبعة خاصة؛ فقد كان من الخطر أن يشترك فيه أيُّ فرد ، وقد أدى هذا الكتاب إلى نكبته هو ، والكتاب مليء بالمتناقضات ، وقد كشف الكتاب عن عدم اتزان قواه العقلية،كما كشف عن الاضطراب العام في أوروبا كلها ، وقد كتب كتابه كما يكتب شخص يؤمن بأن أحدًا لا يرى الحقيقة غيره ، كان يقول: إنه موجه ليوجد طريقة جديدة في الحرب هي الطريقة البيلوية «بيلويتش» نسبة إليه ، والتي على أساسها يجب أن يتعلم كل ضباط المستقبل ، وقد هاجم فردريك وانتقص من كفايته ومن تعاليمه ، وألحَّ في التجديد الذي لم تحاوله بروسيا حتى كانت معركة يينا ، ولكنه مع هذا يقول بأنه لا أمل في الإصلاح ، وأن نابليون على وشك أن يوحد أوروبا بالحرب ، وأنه يجب على دول أوروبا كلها أن تتقبل سيادته عليها ، ثم يضيف أن أوسترلتز هي أكتيوم الجديدة(*) (1).

(*) اكتيوم بلدة على خليج إمبركيان على الساحل الغربي لليونان هزم فيها أغسطس جيش مارك أنتوني وكليوباترة في الثاني من سبتمبر عام ٣١ قبل الميلاد ، وقد مهدت هذه=

وقد رأى بيلو أن النصر الفرنسي لعام ١٨٠٥ إنما هو دليل قوي على نجاح عقيدة جيبير التكتيكية ، وقد قال: إن الفن الناجح في الحرب هو أن تحتفظ بكل قوتك لا أن تبعثر جيشك في حاميات الحصون ، إن نابليون أكثر من غيره احتفاظًا بكل قواته نشطة ، ويدل هذا على فساد وعدم صلاحية أسلوب الحرب القديمة.. حرب المواقع ، ففي أولم كان لدى ماك جيش قوي في موقع قوي؛ ولكن نابليون أرغمه على الاستسلام ، وقد استطاع نابليون هذا بتطبيقه مبادئ جيبير بالاستخدام الصحيح لفرق الجيش التي سهل منها الاكتشاف الجديد الذي جاء به نابليون بإعداد الفيلق مع توزيع هذه الفرق للحصول على سرعة السير؛ ولتغطية مسرح فسيح لميدان القتال دون أن يفقد وحدة قواته ، وقد نتج عن هذا ـ على ما يقول بيلو ـ: «الدليل الواضح الصحيح لأفضلية الاستراتيجية على التكتيك في الحرب الحديثة»[٢].

وقد جاءت هذه الأعوام بالكثير مما يستحق التسجيل والدراسة.. فإن زيادة الاعتماد على «الاستراتيجية» مع قلة الاعتماد على «التكتيك» بالتبعية قد جعلت مشكلات القيادة العليا تتجه إلى تعقد غير معروف من قبل ، وفقدت ـ أيضًا ـ المعركة بعض العوامل الخالصة للفرص والاحتمالات الطارئة التي كان فردريك يخشاها والتي كانت ـ قبل الثورة ـ لا تشجع على

=المعركة لسيطرة الرومان على الشرق الأدنى.

(١) Der Feldzug uom ١٨٠٥

حملة ١٨٠٥ طبع ليبزج عام ١٨٠٦ المجلد الأول ص ١-٢٦ (المقدمة) المجلد الثاني ص ١٨٥.

(٢) ذات المرجع المجلد الأول ص ١٠٨-١٠٩ المقدمة ، المجلد الثاني ص ٣٤ المقدمة و ص ١٠٩.

القيام بالعمليات الاعتِدَائِيَّةِ ، وأمست المعركة في صورتها الجديدة وسيلة لاختبار الاستعدادات الإضافية التي تتم من قبل.

ومن جهة أخرى كان التخطيط قد أضحى مثمرًا ، وصار التكهن والتنبؤ أكثر إمكانًا ، وأضحت الحرب علمًا أكثر مما كانت من قبل ، وامتدت ظلال القيادة العسكرية لتصل إلى العلاقات السياسية العامة من ناحية ، وإلى السياسة الداخلية من ناحية أخرى.

وكان لدى بيلو الكثير مما يمكن أن يقوله عن هذه الموضوعات كلها.

على أن بيلو قد أصرَّ كما أصرَّ فردريك من قبل على الحاجة إلى ضرورة توافر عقلية واحدة منظمة التفكير موفورة الذكاء في رأس الدولة؛ وقد آمن بأنه في ضوء الأحوال الحديثة للاستراتيجية لم يعد من سبيل للفصل بين السياسة والحرب؛ فكبار القادة يجب أن يتفهموا الشئون الخارجية كما يجب أن يتفهم السياسيون الناجحون العمل العسكري ، وقد كانت حياة نابليون مثالًا جيدًا لإيضاح فائدة الجمع بين السياسة الخارجية والسلطة العسكرية في يدٍ واحدة وعقل واحد ، بينا نرى أن اضطراب إجراءات الحكومات المتحالفة والتي كانت تضاد نابليون إنما يقدم صورة واضحة للعمل السلبي.

وقد أضحى من الضروري توافر الذكاء الموجه تبعًا لهذه الصورة الفنية الحديثة التي عرفتها الحرب ، ووجب كذلك أن تسمو القيادة العليا على عمل الأخصائيين والفنيين؛ إن أعمال التحصينات ونظرية نيران المدفعية والطب العسكري وما يشابه هذا هو كله من العلوم التحضيرية الأولية ، ولكن علم استخدام كل هذه النواحي الفنية في تقوية المجتمع والدفاع عنه هو العلم العسكري الصحيح ، وكان بيلو يرى في هذا الواجبَ الصحيحَ

للقيادة ، «وهنا يبدو بوضوح أنه عندما يضطر رئيس الدولة ليترك توجيه نشاط دولته في الحرب إلى نفر من الأخصائيين المدربين على العلوم التحضيرية فإن أول مظاهر هذا هو تضارب الاتجاهات ، وتكون أولى النتائج له ضعف الدولة. وتكون النتيجة النهائية: التقسيم والتفكك؛ ذلك لأن القوة الرابطة تكون قد فقدت ، هذه القوة التي تجمع «المواد» في بناء واحد ولغرض واحد ، وهنا أيضًا كان الدرس واضحًا في الفرق بين نابليون وأي حاكم آخر من حكام أوروبا[1].

وكانت لبيلو وجهات نظر عن «القوى العددية» أي إنشاء الجيوش وتشكيلها ، ولكنها لم تكن كلها مخادعة أو مداهنة لبروسيا المعاصرة ، فلقد هاجم الحكومة البروسية وسخر منها لأنها تصر دون رويَّة أو حسن تقدير مبقية على أسلوب فردريك ، هذا الأسلوب الذي يقول بيلو: إن فردريك نفسه قد أدرك ضعفه وأحس به قبيل وفاته ، الأسلوب الذي ترك عامة الشعب بلا علم أو روح معنوية وعاش الناس يتبعون نظامًا يتعارض مع «حقوق الإنسان».

وأوصى بيلو باتباع الأسلوب الفرنسي للتجنيد العام؛ لما لهذا من تأثير قوي على الروح المعنوية ، «وحتى لو اتخذنا وجهة النظر الانتفاعية الخالصة فإن الجيش يمكن اعتباره أكبر مؤسسة ثقافية للشباب» ، ويجب أن يواجه التعليم العسكري «ثقل التنظيم الداخلي ، وأن يمكن من مكافأة الأفراد عن الفضائل والمواهب التي تتوافر لهم» ، ويشير بيلو إلى أن بروسيا لم تنجب إلا العدد القليل من الرجال ذوي العبقرية ، ومع هذا فإن الموارد تضيع هباءً ما لم يسيطر عليها رجال أَكْفَاء؛ ولهذا فقد طالب بيلو بأن يمهد السبيل لذوي

(١) ذات المرجع المجلد الأول ص ٥-٢٠.

المواهب ، وضرب مثلًا بوسام جوقة الشرف الذي أصدره نابليون.. ، واقترح إنشاء تنظيم «رابطة الفضيلة» Bund der Tugend يمكّن من وضع الناس في درجات تبعًا لذكائهم ومؤهلاتهم ومدى نفعهم للدولة «على أن يطغى هذا التنظيم على التمييز الأرستقراطي القديم»[١].

وقد بقيت هذه الآراء كلها غير منظمة في عقل بيلو ، فهو لم تتوافر له قط هذه الصلابة في الاستمساك بالرأي ووحدة الغرض الذي يهدف له ، الأمر الذي قال عنه إنه ضروري للقيادة ، ومن المستحيل القول بأنه قد أحس بماذا يمكن أن تكون أهدافه ، كان قد وقف في جانب الثورة الفرنسية وتحدث عن حقوق الإنسان ولكنه كان أقل تحررًا من جينيسناو ، لو أردنا أن نقارن بينه وبين عسكري محترف آخر ، كان يقول عن نفسه إنه مواطن بروسي ، ولكنه كان لا يقدر فردريك. ويقول بأن بروسيا بوجودها قد أنهت الوجود القومي لألمانيا ، وكان في بعض الأحيان يتحدث كمواطن ألماني؛ ولكنه كان دائمًا يقف في إصرار وعناد في جانب فرنسا؛ وكان يتحدث أحيانًا عن توازن القوى ثم يعود فيعترف بأنه لا يعنيه ما إذا بقي ملوك أوروبا محتفظين باستقلالهم أم فقدوا هذا الاستقلال؛ وكان الرجل في الواقع مكافحًا من أجل هدف غير واضح ، وكان مجددًا في صورة تُعتبر خرافة ، وكان فيلسوفًا في العلم العسكري على غير تجربة ، وقد نصح فرنسا بل وكل أوروبا بأن تتفق مع نابليون بعد أوسترلتز ، وقد قال بأن التحالف الرابع سيكون عديم النفع ، وألحَّ على قادة أوربا أن تتفق مع الإمبراطور الفرنسي لإذلال بريطانيا ، وكان سلوكه بعد معركة «يينا» كأنه يقول: «لقد قلت لكم

---

(١) ذات المرجع المجلد الثاني ص ١٨- ٢٢ المقدمة ، الحديث في التكتيكات الجديدة طبع ليبزج ١٨٠٥ ص ٤٨.

هذا!».

وفي عام ١٨٠٧ قدم بيلو للحكومة البروسية كل الأسباب التي تمكنها من اعتباره قد فقد عقله أو على الأقل كأنه شخص خطر في وقت يعتبر مصابًا عامًّا للدولة ، ووضح أنه يكتب لا لغرض إلا ليضخم من آرائه ومن الحملة القاسية على رجال الدولة ، وأرسلوا به حيث احتجز لمرضه العقلي.

والواقع أن هؤلاء في غمرة نظرهم إلى أخطائه أغفلوا إدراك مواهبه فلما مات لم يفقد العالم بموته شارنهورست آخر.

وكان بيلو كرجل من أصحاب النظريات تتوافر له حاسة إدراك طبيعة الثورة العسكرية في عصره وإن كان هو قد جاء بطيئًا وفي صورة مضطربة ، فإن هذه الثورة في الواقع لم تقم على أسس فنية برغم التحسينات المهمة في المدفعية ، ولم تكن كذلك ثورة في الاستراتيجية إلى غاية ما لهذه الكلمة من معنى برغم الزيادة الكبيرة في خفَّة الحركة وقوة الضرب بعد تخلص الجيش من الاستناد إلى المستودعات ، وبعد تنظيمه في فرق؛ لقد كانت الثورة العسكرية في أعماقها ثورة سياسية ، وقامت القوة الدافعة على أساس امتزاج الشعب والحكومة الأمر الذي أوجدته الثورة ، فقد أحس أفراد الشعب ـ في صورة لم تكن مستطاعة قبل عام ١٧٨٩ ـ بأنهم يسهمون ويشتركون في الحكومة ، وأنهم ينالون النفع الكبير من حكومتهم؛ ولهذا يجب أن يقاتلوا من أجلها؛ ومن جانب آخر فإن الحكومة وهي تتولى الأمر باسم الشعب كان في استطاعتها أن تعمل بموارد مادية وبشرية في صورة لم يكن فردريك يحلم بهذا الأمر ، وكانت النتيجة النهائية أنه بعد عام ١٧٩٣ وجهت كل ثورة فرنسا وقوتها ضد أوروبا؛ وفي طوال القرن التاسع عشر كان المبدأ الأساسي مبدأ ارتباط الشعب والحكومة ـ سواء أكان ارتباطًا

ديمقراطيًّا أم غير ديمقراطي ـ هو دعامة النظام السياسي في كل دول أوروبا..

كانت حروب الملوك قد انتهت وبدأت حروب الشعوب.

***

مراجع الفصل الثالث

فردريك الأكبر وجيبير وبيلو

من حروب الأسر الحاكمة إلى الحروب الأهلية

M. Jậhns, Geschichte der Kriegswissenschaften Vornehmlich in Dewtschland, ٣ vols. (Munich, ١٨٨٩- ١٩٠١).

H. Delbrück, Geschichte der Kriegskunst im Rahmen der politischen Geschichte, ٧ vols. (Berlin, ١٩٠٠ – ١٩٣٦).

O. Hintze, Das politische Testment Friedricks des Grosen von ١٧٣٢).

(Deursche Bucherei ٩٨/٩٩).

Frederick The Great, Werke Friedrichs des Grossen, ١٠ vols. (Berlin, ١٩١٢-١٩١٤).

In French, Oeuvres de Frédéric le Grand, ٣٠ vols. (Berlin, ١٨٤٦-١٨٥٦).

T. R. Phillips, Principles généraux de la guerre, in Roots of Straregy, (Harrisburg, ١٩٤٠).

Guibert, Oeuvres militaires du comte de Guibert, ٥ vols. (Paris, ١٨٠٣).

Guibert, A general essay on tactics, with an inrtoductory

discourse upon the presnt state of politics (London, ١٧٨١).

Bülow, The Spirit of the Modern System Of War. (London, ١٨٠٦).

القسم الثاني

أمهات الكتب في القرن التاسع عشر

شرَّاح خطط نابليون

الفصل الرابع

جوميني

بقلم : كـــران بـــرنتون
جوردون كريـج
فيليكس جلبرت

جاءت الحرب العالمية التي قامت بين فرنسا وهذه المجموعة من الاتحادات الدولية ـ هذه الحرب التي تعرف الآن باسم «حروب نابليون» والتي استمرت من عام ١٧٩٢ إلى عام ١٨١٥ فيما عدا فترات قليلة قصيرة للراحة ـ جاءت بعمل رئيسي جديد في صناعة الحرب هو: «جيش المواطنين» ، الجيش الذي حشد من عدد كبير من الأهلين لأداء خدمة عسكرية عامة ، كما جاءت أيضًا بعبقرية عسكرية فذَّة هي: «نابليون بونابرت».

وبالرغم من أن شخصية نابليون وموهبته تستحقان هذه الدراسات الطويلة الدقيقة التي وقفت عليهما إلا أنه ما من شكٍّ في أن هذا العامل الخاص بجيش الشعب كان هو أهم ما خلفته لنا هذه السنوات المجهدة المليئة بالمتاعب.

والواقع أن النداء القوي الذي بدأ به تصريح ٢٣ أغسطس عام ١٧٩٣ مطالبًا وداعيًا إلى التعبئة العامة لقوى الشعب لابد وأن يظل دائمًا ماثلًا لأعيننا يثير انتباهنا.. **فقد جاء فيه:**

«**المادة الأولى**: ومن هذه اللحظة وحتى ينتهي طرد العدو من أرض الجمهورية فإن كل الرجال مطالبون أن يتقدموا للعمل بصفة دائمة في جيوش الجمهورية».

«وسيرسل الشبان إلى ميدان المعركة ، ويعمل الرجال المتزوجون في صنع الأسلحة ونقل الذخائر ، وتعمل النساء في صنع الثياب والخيام ويخدمن في المستشفيات ، ويعمل الأطفال في صنع أربطة الجرحى من الأقمشة القديمة ، ويجمع الشيوخ والعجائز في الميادين العامة لإثارة شجاعة الجنود أثناء الدعوة لوحدة الجمهورية وكراهية الملوك»(١).

وقد أنشئ هذا الحشد لجموع المقاتلين ـ «جيش الشعب» ـ في وقت بدت فيه فرنسا وكأنها على وشك الانهيار ، وفي أقل من عام منذ تطبيق هذا النظام بدأ الفرنسيون الهجوم ، وكانت الدول التي تكوِّن الحِلف المضاد لفرنسا في غمرة شكوك كل منها بأهداف الأخرى لم تجئ بقواتها كاملة في اللحظة الحاسمة ، بل على النقيض جاءت بأقل ما تستطيع من قوة ، وقد أثبتت حكومة الجمهورية ـ تبعًا للوحدة التي أوجدتها حكومة الإرهاب بالإرغام ، ثم بهذه القوى العددية الكبيرة التي مكن منها التجنيد العام ـ أنها قادرة على مواجهة الحلف غير المتماسك ، وفي عام ١٧٩٥ تفكك الحلف فوقَّعت أسبانيا وهولندة وبروسيا معاهدات الصلح ، وفي عام ١٧٩٦ حصل بونابرت ـ أحد القادة الذين أظهرهم عهد الإرهاب ـ على أولى قياداته المستقلة فاخترق أرض إيطاليا مجتازًا جبال الألب ، وفصل بين

---

(١) **Réimpression de l'ancien Moniteur depuis la Réunion des Etats – Généraux jusqu'au Consulat.**

٢٥ أغسطس ١٧٩٣ مجلد ١٧ ص ٤٧٨ طبع باريس ١٨٤٠-١٨٤٥.

جيوش النمسا وجيوش سردينيا ، ثم دار بسرعة ليواجه النمساويين الذين أرغمهم في عام ١٧٩٧ عل تقبل معاهدة كامبوفورميو ، وحصلت فرنسا على حدودها الطبيعية فوق الرين مع السيطرة على جمهورية جديدة وليدة في لومباردي ، وبالرغم من أن جمهورية ڤينيسيا كانت قد ضاعت من الوجود بضم أراضيها للنمسا إلا أن توازن القوى في أوروبا كانت قد هزت الثورة منه بعنف؛ ولهذا استمر السلم لشهور قليلة وعقدت انجلترا والنمسا حلفًا جديدًا مع روسيا.

وقام الحلف الثاني بسلسلة من العمليات ضد نابليون الذي أدت به انتصاراته إلى مقعد الديكتاتور ، هذا المقعد الذي تظاهر بعدم الرغبة فيه قبل أشهر قليلة عندما حدث التعديل الحكومي في الشهر الثاني من التقويم الثوري الفرنسي ، وقد اضطرت بريطانيا إلى أن توقع في إميان معاهدة صلح لم تكن في صالحها إلى حد بعيد ، ثم مرَّ عام كامل تقريبًا بين ١٨٠٢ و ١٨٠٣ دونما حرب.

وفي أثناء هذا دعم نابليون سلطته في فرنسا وتدخل في إيطاليا وسويسرا وهولندة وألمانيا ، وأثار مخاوف وأطماع الدول المهزومة ، ثم وجد نفسه من جديد في حرب مع انجلترا ، وتبعًا للسياسة الإنجليزية وجد بونابرت نفسَه يواجه تهديدًا بحلف ثالث.

وقد اضطر نابليون ليستطيع العمل ضد النمسا وروسيا إلى أن يؤجل غزو بريطانيا ، وفي أسابيع قليلة استطاع تدمير النمساويين في أولم وأوسترلتز ثم دفع الروس للوراء من فوق جبال الكربات ، وفي ذات الوقت كسب الإنجليز معركة «الطرف الأغر» البحرية مما أكد نجاة بريطانيا من أيِّ غزو فرنسي لأرضها في المستقبل ، وهكذا أضحى على فرنسا أن تهزم

بريطانيا عن طريق الحرب البرية.

ووجد نابليون الدوافع ليدعم سيادته على قارة أوروبا من جديد ، *والواقع* أنه قد استطاع أن يحقق هذا نتيجة لمقابلة أعدائه فرادى في عمليات سريعة متتالية ، فسحق بروسيا في معركة يينا عام ١٨٠٦ ، وأرغم روسيا على أن تقبل التحالف معه بعد معركة فريدلاند عام ١٨٠٧ ، ثم وقف نابليون في ذروة مجده بعد معاهدة تيليست في ذات العام.

وكانت بريطانيا لا تزال بمعزل عن قبضة نابليون. ورأى أن الوسيلة الوحيدة للقضاء عليها هي تدمير بناء الاقتصاد البريطاني ، وبدأ باستخدام نظام تجاري للقارة يمنع دخول السلع الإنجليزية إلى قارة أوروبا ، ولم يكن الأمر هينًا؛ فقد تطلب هذا الجهود الجبارة للسيطرة على سواحل القارة ، ومن أجل هذا احتل أسبانيا ، وشدد من قبضته على إيطاليا ، وضم إلى فرنسا هولندة وساحل ألمانيا على بحر الشمال وأجزاءً من إيطاليا وكل ساحل دلماسيا ، ولكن كل هذا لم يصل به إلا إلى القليل؛ فقد بدأت المقاومة الشعبية في أسبانيا بمساعدة قوات إنجليزية ، وفي ذات الوقت وقفت النمسا بتشجيع المواطنين النمساويين وبتشجيع الثورة الأسبانية ، وقفت موقف التحدي لإمبراطور فرنسا.

وقد أدى وقوف النمسا وحدها إلى هزيمتها للمرة الرابعة في حرب عام ١٨٠٩ القصيرة الأمد ، ولعامين اثنين عاشت أوروبا في سلم مضطرب ، وأخيرًا استطاعت الهيئات المضادة لفرنسا والضالعة مع الإنجليز أن تكسب إذن القيصر ، وكان على نابليون أن يفعل شيئًا ليرغم روسيا على البقاء في موقفها الأول ضد انجلترا ، وهكذا اندفع في الحملة الخاسرة الفاشلة لعام ١٨١٢ ، وربما كان جيشه ـ الذي وصل تعداده إلى ستمائة ألف

جندي ، والذي جمع من شباب فرنسا بالتجنيد العام ومن قرابة اثنتي عشرة دولة من الدول الخاضعة لسلطانه ـ ربما كان هذا الجيش أكبر حشد عسكري حدث في أوروبا حتى ذلك الوقت للقيام بحملة واحدة. على أن نهاية هذا الجيش الكبير معروفة لا تتطلب إيضاحًا ما.

وهكذا كشفت عن نفسها العوامل التي كانت تسبب ضعف الإمبراطور ، وبدأت الدول الخاضعة لسلطانه تخرج عليه الواحدة إثر الأخرى ، وانضمت النمسا والولايات الألمانية إلى بريطانيا وروسيا ، كما شدّ من سواعدهم الثوار الأسبان والإيطاليون ، ولم تكن هذه الدول الثلاث ـ والتي هي أقوى دول أوروبا ـ قد وقفت معًا من قبل ككتلة واحدة متماسكة ، ونتجت عن هذا أن حدثت (في أكتوبر عام ١٨١٣) معركة ليبزج أو معركة الأمم ، والتي كانت أكبر معركة حدثت في أوروبا وأمريكا حتى عام ١٩١٤ ، كانت صراعًا بين الجيوش الأهلية. وقد قررت هذه المعركة مستقبل نابليون بل ومستقبل فرنسا ، ومكنت السياسة الإنجليزية من أن تقف الدول الأربع الكبرى في أوروبا في أقوى حلف تجمع ضد فرنسا ، وانتهى الأمر بإرسال نابليون إلى جزيرة إلبا ، «وفيما عدا الأيام القليلة التي قاتل فيها ضد الحلف الأوروبي من جديد بعد عودته من إلبا» كان هذا هو نهاية حياة نابليون العسكرية.

على أن مدى هذه الحروب وأحجام الجيوش التي خاضت غمارها ، والسرعة التي حركها بها نابليون والتي حصل بها على انتصاراته ، ثم ازدياد اتجاه فرنسا إلى تغيير كل صور الحكم في دول أوروبا لوضع نظام جديد للقارة مع سيادة فرنسا عليها ، كل هذا قد بدا لأعين المعاصرين كشيء جديد لم يجئ التاريخ بمثله من قبل ، وفي وعظ كنسيٍّ ألقاه ويليام إيليري

كانثج في كنيسة بوستون في اليوم الخامس من إبريل عام ١٨١٠ قال: «إننا نعيش في وقت لا مثيل له في العصور القديمة ، في وقت قد اتخذت فيه الطباع البشرية صورة جديدة ، في وقت له طابعه المظلم المميز الذي يدفع إلى اليأس والقنوط ، فهل لي أن أسأل عن هذه الصورة القاتمة في هذا العصر الذي نعيش فيه؟ إنني في إجابتي لهذا السؤال أقول: إنه في قلب أوروبا وفي قلب العالم المتحضر يقوم اليوم نظام جديد له تأثيره التدميري على أنقاض تعاليم قديمة ، إننا نرى هناك أمة كان لها دائمًا مركز ممتاز في أوروبا ، وفجأة نفضت يديها من كل صور الحكمة: من القوانين ، من العادات ، من الروح التي عاشت بها الأمم التي تحيط بها ، ومرة واحدة اتخذت لها طابعًا جديدًا ، وكونت حكومة جديدة حرة بالاسم واللفظ ولكنها تتحكم في كل فرد من رعاياها ، في ممتلكاته ، في حياته الخاصة. بل وتوجه كل نشاطها للسيطرة على غيرها من الدول ، إننا نراها اليوم تزخر بكل عوامل الاضطراب الداخلية ، وتتنكر لكل المثل العليا التي تتحدث عنها ، ثم تسيطر بقوة أسلحتها على الأمم التي تحيط بها»[1].

على أن المعاصرين لم يكونوا كلهم جد واثقين ككانئج من أن العصر الذي يعيشون فيه لم يكن له مثيل من قبل ، فعن حياة نابليون مع ما فيها من طابع جديد قد بدت لضابط سويسري ممتاز يعمل في خدمة فرنسا وكأنها إيضاح كامل لاطراد تطور الحرب والسياسة في القرن الثامن عشر ، وكلما كانت انتصارات نابليون براقة حاسمة كلما بدت لعيني هذا الضابط تستحق

(١) أعيد طبع هذه الموعظة الكنسية كما جاءت يوم ٥ إبريل عام ١٨١٠ في مجلة «السجل المسيحي» (Christian Register) عدد أغسطس عام ١٩٤١ في الصفحتين ٢٤٨ و ٢٤٩ مع وضع اسم «هتلر» مكان اسم «نابليون» ومع استبدال فرنسا بألمانيا.

المزيد من الإيضاح؛ ذلك لأنه كان يرى فيها إعادة للكشف عن قواعد قديمة ، هذه القواعد التي كان عصر التقدم العلمي يحاول دائمًا أن يجعلها أكبر تأثيرًا وأكثر إيجازًا. وفي محاولة «هذا الضابط السويسري» الجنرال چوميني إيضاح وعرض حياة نابليون فإنه قد أسهم في إيضاح آخر ما وصلت إليه صناعة الحرب في هذا العصر الذي عاش فيه.

والواقع أنه لم يبدأ بدراسة خالصة للحرب في الطابع الفني الذي لها كصورة من صور البشرية التي عرفها الناس منذ القدم ، وفي الأسلوب الذي قامت على أساسه مثل هذه الدراسة في الماضي ، بل الواقع أنه بدأ بدراسة الموضوع في أسلوب جديد مستحدث بقي طابعًا لكل الدراسات لصناعة الحرب منذ ذلك التاريخ.

وقد يمكن أن نقول بأن چوميني قد قام ـ مع كلاوزيڤيتز الذي سبقه بوقت قليل ـ في دراسته للحرب بمثل الشيء الذي فعله آدم سمث لدراسات الاقتصاد ، وكما كانت هناك كتب هامة عن الاقتصاد قبل أن يظهر كتاب «ثروة الأمم» في عام ١٧٧٦ كانت هناك كتب هامة عن الحرب قبل أن تظهر المجلدات الأولى من كتاب «دراسة للعمليات الحربية الكبرى» في عام ١٨٠٤ ، وكان أغلب هذه الكتب وعلى الأخص كتابات لويد ، وجريموار ، وجيبير ، وبيلو ، وفردريك الأكبر معروفة لچوميني ، وقد أشار كثيرًا إلى ما كسبه منها من معرفة[١].

---

(١) الفصل الافتتاحي للطبعة الأولى الكاملة لكتاب چوميني Précis de l'art de la guerre طبع عام ١٨٣٨ يعتبر عرضًا طريفًا كاملًا للحديث عن الكتاب العسكريين حتى ذلك العصر ، وفي طبعة لاحقة بعد هذا الكتاب أضاف صديق چوميني الكولونيل السويسري ف. لوكونت لهذا الفصل ما حصل به إلى الوقت الذي أعيد فيه طبع هذا الكتاب من جديد.

وبالإضافة إلى هذا فإن محاولة چوميني العملية لاستنباط مبادئ الحرب قد جعلته يشارك كلاوزيڤيتز في مكانه كموجد ومنشئ للفكر العسكري الحديث ، على أن اتجاهات چوميني نحو أولئك الذين سبقوه ونحو الرجل العظيم الذي عاش معه في عصر واحد ـ «كلاوزيڤيتز» ـ إنما تلقي ضوءًا عل مكانته وعلى أهدافه ، فإن الكاتبين العسكريين اللذين أبدى چوميني اهتمامًا خاصًا بكتاباتهما: هما بيلو وكلاوزيڤيتز ، فإن كل أعمال چوميني في الواقع تشير إلى بيلو أو تنقد نظرياته[1] ، ولقد اتهم چوميني بيلو بأنه قد زاد من تقدير قيمة النواحي الفنية لصناعة الحرب ، كما يقول بأن بيلو قد رمى كل أولئك الذين عارضوا ناحية القياس الهندسي للحرب بالغباء مع أن نظرياته هو نفسه مع دعمها بالنقاش العلمي تبدو غير منطقية خداعة المظهر عندما توضع موضع الاختبار في حروب نابليون..

ولكن بينا أن چوميني عارض ميل بيلو إلى تقدير أهمية كبرى للنواحي الفنية للحرب. فقد اتهم كلاوزيڤيتز أنه قد جعل كل العلم العسكري مستحيلًا ، يقول: «إن المرء لا يستطيع أن ينكر ما يتوافر من المعرفة للچنرال كلاوزيڤيتز ، ولا يمكن أن ينكر قلمه المطواع ، ولكن هذا القلم كثيرًا ما يندفع دون ما سيطرة تحد من اندفاعه ، ثم إنه بالإضافة إلى هذا أبعد ما يكون عن الأسلوب المتواضع ، الأسلوب الذي يجب توافره في النقاش التعليمي ، وإلى أبعد من هذا فإن المؤلف يثير ترددًا أو شكوكًا في الكثير من مسائل العلم العسكري ، إن المجلد الأول من كتابه عبارة عن

---

(١) راجع (دراسة للعمليات الحربية الكبرى) Traité dis grandes opérations militaires الطبعة الرابعة طبع باريس عام ١٨٥١ المجلد الأول ص ٤١٥ والمجلد الثاني ص ٢٣٦ و ٢٧٣ والمجلد الثالث ص ٣٣٦ ، (دراسة موجزة لفن الحرب) باريس ١٨٣٨ المجلد الأول ص ١٥ و ٢٣٤ و ٢٧٢ – ٢٧٦.

خطبة طويلة ضافية ضد كل نظريات الحرب بينا أن المجلدين التاليين مليئان بحكم ومأثورات نظرية تثبت أن المؤلف يؤمن بصلاحية ما يقدمه من آراء حتى وإن كان لا يؤمن بآراء الآخرين»[١].

فلما قرأ چوميني الدراسة التي وسمها كلاوزيڤيتز بعنوان «فن الحرب» كتب يقول: إنه قد وجد في هذا «الأخطبوط العلمي» القليل من الأفكار التي تسترعي الانتباه ، وأن هذا التشكيك الواضح من جانب المؤلف قد جعله يؤمن بالحاجة إلى استخدام «النظريات الصحيحة» وحدها[٢] وترك ما عداها.

وقد نجد في نقد چوميني لبيلو وكلاوزيڤيتز الغرض الذي استهدفه من كتابه ، فإن زيادة إدراكه وتفهمه لكتابات بيلو قد علمته الحاجة إلى تنقيح وتصحيح النظر في تعاليم القرن الثامن عشر من صناعة الحرب وإن كان من الواضح من تعليقاته النقدية على دراسات كلاوزيڤيتز أنه لم يكن قط راغبًا في التنكر تنكرًا تامًّا لتلك الآراء.

---

(١) «الدراسة الموجزة» المجلد الأول ص ٢٠ – ٢٢.

(٢) ذات المرجع ، وفي «الدراسة الموجزة» كتب چوميني نقدًا لكلاوزيڤتينز يعتبر نموذجًا لصورة الزهو والخيلاء الواضحة في كل كتاباته؛ إذ يقول فيه: «إن أعمال كلاوزيڤيتز لها قيمتها ونفعها وإن كانت في الغالب تقل فيها آراء المؤلف نفسه في الوقت الذي تزداد فيه آراء غيره من المؤلفين ، هذه الآراء التي يسخر منها ، وقد كان من الممكن أن تكون أكثر نفعًا لو كان قد عالج هذه الآراء بغير هذه الطريقة ، ولكنه ككاتب يهدف إلى التعليم فإنه قد أثار من الشكوك أكثر مما أوضح من حقائق ، وكمؤرخ ناقد فإنه كان مقلدًا فيما عدا القليل الذي كانت فيه بعض الأصالة ، إن أولئك الذين قرأوا كتابي عن حملة عام ١٧٩٩ والذي نشر قبل كتابه هو بعشر سنوات لن ينكروا ما أقوله من أنه لا يوجد انعكاس فكري واحد لي لم يكرره هو (كلاوزيڤيتز) في كتابه».
الدراسة الموجزة المجلد الأول هامش ص ٣٢.

[٢]

ولد أنطوان هنري چوميني في عام ١٧٧٩ في إقليم «ڤو» في الجزء الفرنسي من سويسرا ، سليل أسرة من الطبقة الوسطى موفورة الحال هاجرت من إيطاليا قبل هذا بعدة أجيال ، وتلقى الثقافة التقليدية لأبناء الطبقة البرجوازية الذين يستهدفون العمل في التجارة أو المصارف ، وكان يعمل فعلًا في أحد مصارف باريس عندما نجح في الحصول على مركز ـ غير رسمي وبغير أجر ـ بين هيئة أركان الحرب للجيش الفرنسي ، فقد كان چوميني في السابعة عشرة من عمره عندما بزغت شمس الجنرال بونابرت في حملة إيطاليا وغمر ضوؤها العالم كله ، وجعل چوميني ينظر إلى عمله المصرفي بضيق وملل ، ولعل السويسري الصغير كان أوسع أطماعًا من أن يكون ميالًا للمخاطرة عندما قرر أن يكون جنديًّا .. على أن درايته بالأعمال الإدارية مكنته من أن يعمل في إدارة التموين للجيش الفرنسي ، وأن يتابع الحياة في هذا العمل البسيط من أعمال أركان الحرب؛ ولم يلبث الرجل أن عاد من جديد إلى الحياة التجارية أثناء فترة السلم التي جاءت عقب صلح إميان ، ولكنه مع تجدد الحرب وجد نفسه رئيسًا لأركان حرب الماريشال ناي في معركة أوسترلتز.

وفي السنوات الست التي عاشها چوميني مختلطًا بالرجال العسكريين وجد نفسه يتحدث كثيرًا ويفكر طويلًا في فن الحرب ، وكانت طاقته الذهنية كما كانت سرعة تقبله للمسائل العسكرية هي التي جعلت ناي يعتبره جنديًّا شجاعًا عارفًا بأصول القتال في أثناء العمليات ، وإن كان لم ينظر إليه كطالب علم يبشر بالنجاح الفذ في دراسته العسكرية ، وفي الفترة

التي جاءت في أعقاب صلح إميان عاونه ناي على نشر أول مجلدات دراسته لحملات فردريك الأكبر التي قدم چوميني فيها بعض الآراء العامة في الفكر العسكري ، وعرض بعض المقارنات بين قيادة فردريك وقيادة نابليون ، وقد استطاع چوميني ـ عن طريق ناي ـ إهداء نسخة من كتابه إلى بونابرت الذي وجد بعض لحظات بعد معركة أوسترلتز ليستمع إلى بعض صفحات كتاب چوميني تقرأ عليه ، ولعل نابليون قد أعجب بفراسة چوميني في تفهم الكثير من لمساته العسكرية فنظم للرجل عمله ومنحه رتبة كولونيل في الجيش الفرنسي ، وأرسل إليه من يبلغه هذا في ميتز عام ١٨٠٦ .

وكانت حملة «يينا» تختمر في ذهن نابليون ، وفي ختام المؤتمر الأخير السابق للحملة سأل چوميني ما إذا كان يستطيع مقابلة الامبراطور بعد أربعة أيام في بامبرج؟!!.

وسأله نابليون بسرعة: ولكن من قال لك إنني ذاهب إلى بامبرج؟!!

ولم تخف مسحة الغضب من الأسلوب العنيف الذي وجه به نابليون سؤاله؛ لأنه كان يعتقد أن وجهته الحقيقية سر لا يعرفه أحد.

وأجاب چوميني في هدوء وبصوت خفيض: لقد استطعت يا سيدي أن أحزر هذا من مراجعة مصورة ألمانيا ومما درسته من حملتك في مارنجو وأولم.

ومن سوء الجد أن السند الوحيد لنا في معرفة مثل هذه الملاحظات الدقيقة إنما هو چوميني نفسه ، عندما كان يستعيد ذكريات حياته في عام ١٨٦٠ أمام كبار الذين يزورونه وهو شيخ يعيش في «باسي» ، ولكن إذا كان چوميني كالكثيرين غيره من ذوي المواهب الفذة قد وصل في بعض

الأحيان إلى الحقائق نتيجة لتقديره الصحيح للموقف ، فمما لا شك فيه أنه قد توافر للرجل تفهم تام لعادات نابليون وتفكيره الاستراتيجي ، وأن نابليون نفسه قد أدرك قيمة كتابات چوميني[١].

وبالرغم من أن چوميني قد وصل إلى رتبة قائد لواء في الجيش الفرنسي ، وبالرغم من أنه خدم كرئيس هيئة أركان الحرب للماريشال ناي في بروسيا وأسبانيا ، ومرة أخرى بعد التقهقر من موسكو ، وبالرغم من أنه خدم كحاكم لڤلنا ثم لسمولنسك في أثناء الحملة الروسية ، إلا أنه لم يتول قط قيادة مستقلة ، وينسب چوميني هذا ـ كما ينسبه أولئك الذين أرخوا لحياته ـ إلى العداء الشخصي الذي كان بينه وبين بيرثيير رئيس هيئة أركان الحرب العامة للچنرال بونابرت ، ومما لا شك فيه أن بيرثيير كان يكره هذا السويسري الواثق بنفسه ، ومما لا شك فيه أيضًا أن چوميني كان دائم الاستقالة من عمله دائم العودة من جديد. فقد استقال وسحب استقالته أكثر من مرة في هذه السنوات مما جعل رؤساءه ، بما فيهم الإمبراطور نفسه ، لا يمكن أن يثقوا بتوليه قيادة مستقلة للجنود في الميدان.

وفي غمرة يأس چوميني من الترقي ولى وجهه في أغسطس عام ١٨١٣ نحو خطوط الحلفاء وعرض خدماته على ألكسندر قيصر روسيا ، ولما كان چوميني مواطنًا سويسريًّا فإن عمله هذا يقل قليلًا عن اعتباره خيانة لوطنه ، وإذا كان هذا قد حال دون أن يكون چوميني بطلًا في أعين الفرنسيين ، فإنه لم يجعل مؤرخيهم قساة في الحديث عنه ، ولم يمنع

(١) كانت لچوميني بعض تنبؤات عسكرية دقيقة ، إذ يقال إنه وهو في العشرين من عمره قد تنبأ بمسير نابليون فوق الألب عام ١٨٠٠ للهجوم في إيطاليا. راجع كتاب أجزاڤيه دي كورڤل . Xavier de Courville, Jomini, ou le devin de Napoléon (Paris ١٩٣٥)

مدرسيهم من أن يستخدموا كتاباته كمراجع للدراسة ، وفي خدمة روسيا حيث منح رتبة الجنرال حتى وفاته - عمل مستشارًا عسكريًّا وقام بدور حاسم في إيجاد الأكاديمية العسكرية الروسية ، ووجد الفرصة التي مكنته من إتمام دراساته التاريخية والتحليلية التي بدأها بعد مارنجو ، وقد قضى السنوات الأخيرة من عمره يعيش حينًا في روسيا وحينًا في فرنسا ، وفي إبان حرب القرم كان قيصر روسيا دائم مشاورته ، كما استشاره نابليون الثالث في عام ١٨٥٩ قبل أن يبدأ مخاطرته ضد إيطاليا ، وفي عام ١٨٦٩ عندما حضرته الوفاة كانت كتبه مستخدمة بدرجة كبيرة في الدراسات العسكرية في العالم كله ، وكان مما يرضيه معرفة أنه يعتبر مرشدًا لتوجيه العسكريين على مثال الموجهين الذين جاءوا في أقاصيص الإغريق القديمة.

وكانت حياة چوميني العسكرية دونما شك حياة غير عادية ، فهو لم يتسلق درجات السلم العسكري بجهد عنيف كما يفعل الجندي الذي يخرج من صفوف المقاتلين ، ولم يرتقها أيضًا في الأسلوب العادي الذي يصل به طلاب العسكرية إلى أعلى الدرجات تبعًا للأقدمية العامة للضباط ، بل إنه انزلق إلى وظيفة إدارية في الجيش دون سابق تدريب عسكري. ثم إن أصله السويسري الذي جعله إلى حد ما دخيلًا قد حال دون وصوله للزمالة كاملة في السلاح ، وفي حديث له مع زواره من كبار الرجال حيث عاش متقاعدًا في «باسي» قال چوميني: إنه وإن كان قد شهد مواقعًا احتلت بقتال التحامي ، إلا أنه لم يشهد قط قتالًا بالسونكي فضلًا عن أن يكون قد اشترك فيه[1].

ولكن من الخطأ أن نفكر في چوميني «كجندي كل عمله على الورق» ، وأنه كان رجلًا نظريًّا فقط لم تكن له صلة مباشرة بالجيوش أكثر مما كان

(١) «Geural Jomini» Every Saturday. المجلد السابع لعام ١٨٦٩ ص ٥٦٧.

لرجال الاقتصاد الأكاديميين القدامى بالأعمال المالية والتجارية ، فالواقع أنه قد عاون في تحريك الجيوش في الميدان ، وقد احتمل المسئولية كرئيس أركان الحرب للماريشال ناي لأن تتم الأعمال إلى غاية ما يمكن من الدقة ، وأنه كان عليه أن يصدر قرارات هامة وعلى الأخص في (أولم) وفي أسبانيا ، وقد توافرت له تجربة فيما ندعوه اليوم «ضباب الحرب» على ما توضح كتاباته.



[٣]

ويمكن أن تقسم كتابات چوميني عن صناعة الحرب إلى مجموعتين: الأولى: هي الكتابات الخالصة للتاريخ ، والثانية: الكتابات النظرية أو التحليلية ، ولكن مع هذا فإن هذا التقسيم لا يمكن أن يكون تقسيمًا فاصلًا؛ ذلك لأن چوميني كان في كتاباته في التاريخ العسكري يعمل دائمًا للوصول إلى المبادئ والأصول التي توضح «لماذا؟!! وكيف؟!! حدث القتال»[١] ومن النادر أنه ـ في النظريات العسكرية ـ ذهب بعيدًا في التفكير الجامد دون أن يعمل لدعم نظرياته بحقائق من التاريخ ، كما كانت هناك دراسات قصيرة من قلمه غالبيتها ردود قصيرة على ناقديه.

وقد صدرت كتابات چوميني التاريخية أصلًا في سبعة وعشرين مجلدًا ، جمعت حروب فردريك الأكبر ، وحروب الثورة الفرنسية ، وحروب نابليون من عام ١٧٩٢ حتى عام ١٨١٥ ، ولكنه وإن قدم حرب السبع السنوات وحروب الثورة الفرنسية في إفاضة ، فقد أوجز في سرد حياة نابليون بعد عام ١٧٩٩ ، وقد جاءت حياة نابليون في أربعة مجلدات وسميت بعنوان «الحياة السياسية والعسكرية لنابليون» ونشرت عام ١٨٢٧ ، وقد جاءت كتابات چوميني في الطابع الأدبي للقرن الثامن عشر ، وكتب الجزء الخاص بنابليون في أسلوب المتحدث وكأن نابليون نفسه يدافع عن

(١) كانت عناوين فصول چوميني توضح بحثه عن الأصول ، وفي (الدراسة ...)نجد مثل هذه العناوين ـ الفصل الثالث «ملاحظات عن عمليات الفترة الأولى ... حكم وأقوال عن التموين والحصار» ـ الفصل الخامس «ملاحظات عن تشكيل السير عند فردريك وجيبير ... حكم وأقوال عن مهاجمة جيش أثناء السير» ـ الفصل الثامن «العمليات ضد الروس والسويديين ـ معركة ييجرندورف ... حكم وأقوال عن الهجمات المنعزلة».

وجهات نظره وسلوكه كقائد عسكري أمام ظلال وأشباح الإسكندر الأكبر ، وقيصر ، وفردريك الأكبر. ووقف چوميني مجلدًا خاصًّا من كتابه في الحديث عن معركة «ووترلو» وحدها..

ومع أن الجزء التاريخي العسكري من كتابات چوميني يعتبر من الكتابات التي تبعث إلى ملل القارئ ، إلا أنه لم يكن شيئًا يخالف الصورة العادية لأسلوب ذلك العصر ، ومع هذا فالواقع أن السرد جاء سلسًا منساقًا دون الاستطراد في التفاصيل. وقام فيه چوميني بدراسات طيبة ، ثم إن مركزه في الجيش الفرنسي أولًا ، وفي الجيش الروسي بعد هذا ، قد مكنه من الوصول إلى مادة لم تكن ميسورة لدخيل ، والشيء الوحيد الذي يمكن ملاحظته هو أن چوميني قد كتب كتابه قبل أن تصل الكتابة التاريخية إلى الأسلوب الصحيح للتحقيق والعرض ، ولهذا فإن كتاباته تباين الأسلوب الحديث للدراسة النقدية مع العناية بوضع الهوامش وذكر المؤلفات المماثلة والمراجع ، ومن العدالة أن نقول بأن كتابات چوميني كمؤرخ عسكري وإن كانت قد أوجدت آفاقًا جديدة إلا أنها تعتبر قديمة ومن النادر أن تقرأ الآن.

ولكن كتابات چوميني «النظرية» والخالصة للعلم العسكري قد عاشت وبقيت مرجعًا للدراسة لأكثر من قرن من الزمان ، ونجد أول بحث لچوميني في النظريات العسكرية في كتابه «دراسة للعمليات العسكرية الكبرى» الكتاب الذي جاء أصلًا لدراسة تاريخ حرب السبع السنوات ، وكان الفصلان السابع والرابع عشر من هذا الكتاب. هما الفصلان اللذان قرئا على نابليون بعد أوسترلتز وأعجباه ، ويقدم هذان الفصلان في صورتهما الأصلية المبادئ الأساسية للتفكير العسكري لچوميني.

ويقدم چوميني في الفصل السابع مع كتابه «الدراسة» نظريته عن

«خطوط العمليات» ويعرض التباين الهام بين الخطوط الخارجية والخطوط الداخلية ، ويتابع چوميني في الفصل الرابع عشر المناقشة نفسها للموضوع إلى مدى أوسع موضحًا كيف يتم الاختيار بين الخطوط الخارجية والخطوط الداخلية بتأثير العوامل والاعتبارات الجغرافية ، ثم يختتم الدراسة بالفصل الخامس والثلاثين الذي يحاول فيه أن يعرض في صورة عامة كل تجاريبه وأن يجسم المبادئ الأساسية التي تقوم عليها كل العمليات الحربية.

وقد جاءت أهم دراسات چوميني النظرية في كتابه «دراسة في فن الحرب» والذي صدر في مجلدين عام ١٨٣٨ وقد ظهرت عدة طبعات حديثة لهذا الكتاب كما ترجم لأغلب اللغات الحية[1] ، وعني المفكر السويسري أكثر ما عني في كتابه الذي سبقه بمشكلة أهمية صلاحية «الآراء العامة» في دراسة العلم العسكري.

ويدأ چوميني ـ كما يحدثنا هو نفسه ـ بدراسة صناعة الحرب مقتنعًا بأنه ما دامت الحرب صورة من صور النشاط البشري على الأرض فإن هذه الدراسة تعتبر ضرورية ، وقد بدأ چوميني بفكرة مضادة لبعض آراء العسكريين الذين سبقوا عصره كالرأي المعروف للماريشال دي ساكس والذي جاء فيه «الحرب علم تغطيه الظلمة الحالكة ، وفي وسط هذه الظلمة لا يستطيع الإنسان السير بقدم ثابتة ، إن لكل العلوم أصولًا ومبادئ كثيرة ، ولكن لا شيء من هذا للحرب»[2].

(١) نشرت لهذا الكتاب ترجمة في أمريكا طبع نيويورك عام ١٨٥٤ بعنوان Summary of the Art of War «New York ١٨٥٤» من قلم الميجير ف . وينشب والليفتينانت ا . ماكلين ولكنها ترجمة سيئة بل تعتبر كنموذج لما يجب ألا تكون عليه ترجمة الكتب ولابد أن العسكريين الأمريكيين الذين قرأوه قد دهشوا للغة التي كتبت بها هذه الترجمة التي في أيديهم.

(٢) نقل چوميني هذا الرأي وعلق عليه في «دراسة موجزة لفن الحرب» ـ الفصل=

والواقع أن چوميني وقف موقف التضاد من كل الآراء التي اعتبرها مضادة للبحث والدراسة أو التجديد والإصلاح كالرأي الذي قدمته للماريشال ساكس ، وقد بقي چوميني يصر دائمًا على أن العقل البشري يستطيع أن يوجد وأن يقدم بصورة منطقية الوسائل التي تمكن من النجاح في الحرب ، ويقول في «الدراسة»: «لقد كانت هذه المبادئ الأساسية هي التي تتوقف عليها النتائج الحسنة في الحرب في كل الأوقات ، إن هذه الأصول والمبادئ لا تتغير ، وتتوقف على نوع السلاح كما تتوقف على الوقت وعلى المكان»[1] ، ويقول چوميني في «الدراسة الموجزة» ، إن الغرض الأساسي من الكتاب كان: «إيضاح أن هناك المبدأ الذي يعتبر أساسًا في كل العمليات الحربية ، هذا المبدأ هو الذي يجب أن يتصدر كل التدابير التي تتخذ وذلك لكي تنجح هذه التدابير»[2].

وأوضح چوميني في نقده لبيلو أنه يعارض «طرق الحرب» التي توضع لكل الحالات التي يمكن أن تحدث في الحرب ، هذه الطرق التي هي عبارة عن تقديرات للعمل مثلها مثل مواصفات كتب الطهي التي تضع قواعد جامدة لكل مسائل التنظيم العسكري[3] ، وقد أحس چوميني بأن الذكاء البشري لا يستطيع الوصول إلى شيء كهذا ، وليس من الممكن وضع «طريقة» تصلح لكل حالة؛ «ذلك لأن الحرب مأساة غامضة وليست بحال

=الافتتاحي الذي جاء بعنوان:

Notice sur la Théorie actuelle de la guerre et sur son utilité.

(١) الدراسة .. ٣ ص ٣٣٣.

(٢) الدراسة ... ١ ص ١٥٧ – ١٥٨.

(٣) الدراسة ... ٣ ص ٣٣٥.

ما عملية حسابية»[١] ، واعتبر چوميني أن التفكير السليم وحده لا يكسب المعارك ، وأن الصفات الأخرى كالشجاعة وقوة الابتكار والمبادأة أكثر أهمية من غيرها ، ولكن للذكاء الأفضلية في نطاق الاستراتيچية .. ففي ميدان الاستراتيچية قواعد عامة ومبادئ ذات صلاحية دائمة .. يمكن أن يلتقطها العقل البشري ويشكلها تبعًا لاستخدامه لها ، إن المشكلة الرئيسية في العلم العسكري هي إيجاد هذه الأصول العامة ، وقد أوضح چوميني موقفه في أولى صفحات «الدراسة الموجزة»: «إن الضابط القائد بعد أن يسهم في اثنتي عشرة حملة يجب أن يعرف أن الحرب مأساة كبرى تعمل فيها آلاف العوامل المعنوية والمادية بقوة كبيرة أو صغيرة ولكن لا يمكن تخفيض هذه القوة بوساطة العمليات الحسابية».

ولكني يجب أن أقول بأن تجارب عشرين سنة قد قوت عندي الأحكام التالية:

«هناك عدد قليل من المبادئ والأصول الأساسية للحرب والتي يكون إغفالها من الخطورة بمكان ، كما أن تطبيقها أو اتباعها كان من ناحية أخرى سبب النجاح في كل حالة».

«والتطبيقات العملية التي يمكن استنباطها من هذه الأصول هي أيضًا قليلة في العدد وإن كانت قد تبسط أحيانًا تبعًا للظروف ، وهي قد تعمل من ناحية عامة كمرشد لقائد عام الجيش يوجهه للقيام بواجبه لتوجيه العمليات وسط ضجيج المعركة الأمر الذي يكون عادة معقدًا وصعبًا»[٢].

ثم بدأ چوميني لعمل تقريب أولي بين هذه الأصول الأساسية لعلم

---

(١) الدراسة ... ٣ ص ٢٧٤-٢٧٥.

(٢) «الدراسة الموجزة» ١ ص ٢٦-٢٧.

الحرب ، وقد تردد بعض الشيء بإزاء خطورة هذا الواجب فيقول: «ولقد تجاسرت على القيام بهذا الواجب الصعب دون أن تتوافر لي الموهبة اللازمة لإتمامه ، لقد بدا لي أنه قد يكون من الأهمية أن أضع الأسس التي قد يتعطل تطورها وقتًا طويلًا إذا لم ينتفع المرء من الظروف ليرسي هذه الأسس»(١).

وكان العمل الذي قام به چوميني في الواقع سبقًا علميًا ولا يعتبر أول اختراق جريء لأرض مجهولة ، بل أول تصوير صحيح لمصورة هذه الأرض ، وبعد أن ناقش چوميني كل هذه التجارب انتهى إلى أن: ***المبادئ والأصول الأساسية للاستراتيچية هي:***

١- إحضار الفرد للجزء الأكبر من قوات جيشه لينقضَّ بها على المناطق الحاسمة في مسرح الحرب وإلى غاية ما يمكن على خطوط مواصلات العدو دون أن تتعرض مواصلات جيشه هو للخطر.

٢- القيام بالمناورة بحالة تمكنه من أن يشتبك بالجزء الأكبر من قواته ضد أجزاء صغيرة فقط من قوات العدو في كل مرة لسحقها.

٣- القيام ـ أثناء المعركة ـ بمناورات تكتيكية تمكنه من إحضار الجزء الأكبر من قوات جيشه للسقوط على المنطقة الحاسمة من مسرح المعركة ، أو على ذلك الجزء من خطوط مواصلات العدو والتي يكون من الأهمية بمكان سحقها وتدميرها.

٤- تنظيم الإجراءات إلى الحد الذي يمكِّن ليس فقط من إحضار هذه المحتشدات من القوات للسقوط على المكان الحاسم ، بل وأن تشترك هذه المحتشدات في المعركة مجتمعة وبسرعة ، وبذلك فإنها تستطيع القيام بجهد

---

(١) «الدراسة» ٣ ص ٣٣٦-٣٣٧.

مزدوج في وقت واحد[١].

وقد استطاع چوميني أن يقوي من هذه الآراء العامة بإضافة العديد من قصص التاريخ العسكري التي اتبعت فيها هذه الأصول وطبقت ، مشيرًا إلى أن التاريخ يثبت أن النجاح العظيم أو الإخفاق الذريع كان نتيجة لتطبيق أو إغفال هذه الأصول الأساسية[٢].

فإذا كان فن الحرب يتكون من وضع أكبر عدد ممكن من القوات في النقطة الحاسمة من مسرح العمليات ، فإن وسيلة تحقيق هذا هي اختيار خط العمليات الصحيح ، وهذا ـ على ما يقول چوميني ـ يجب أن يعتبر القاعدة الأساسية للتخطيط الجيد للحملة[٣] وبالتبعية فإنه مركز وقلب كل النظريات العسكرية.

وقد أوضح چوميني نظرية خطوط العمليات بإفاضة في الفصل السابع من كتابه «الدراسة» ، وقال في شرحه: إن «خط العمليات» هو جزء منطقة العمليات الذي يغطيه الجيش أثناء قيامه بالغرض المحدد له ، سواء أكان طريقًا واحدًا أم عدة طرق ، وقد بدأ الفصل السابع بدراسة تحليلية لحرب السبع السنوات قبل معركة «لوثين» ، وفي هذه الحملة قسم فردريك الثاني جيشه تاركًا جزءًا منه في سيليزيا أثناء سيره ببقية الجيش في ساكسونيا ، وبهذا التقسيم ـ على ما يقول چوميني ـ لم يعمل فردريك على خط عمليات واحد ، بل على خط عمليات مزدوج.

ولكن ما هي الفوائد النسبية لخط عمليات واحد؟ ولخط عمليات

(١) «الدراسة الموجزة» ١ ص ١٥٨ ، انظر أيضًا «الدراسة» ٣ فصل ٢٥.

(٢) «الدراسة الموجزة» ١ ص ١٦١.

(٣) الدراسة الموجزة ١ ص ٢٥٤.

مزدوج؟

الواقع أن الإجابة على هذا تتوقف على معرفة أي الخطين يمكّن من النجاح في موقف معين بوضع قوات أكبر مما يستطيع العدو وفي أهم نقط خط العمليات؟[١]«ولما كان الذين يربحون المعركة ليسوا هم الجنود الذين يدرجون في سجلات الجيش ، بل هم الجنود الذين يلقى بهم في خضم المعركة»[٢] ولهذا فإن خط العمليات المزدوج من الخطورة بمكان تبعًا لأنه يفصل بين القوات ، اللهم إلا إذا كان من الممكن إعادة جميع القوات في كتلة واحدة بسرعة ، ويعود القائد من جديد لاستخدام خط عمليات واحد ، ولهذا فإنه عند استخدام خط عمليات مزدوج فمن الضروري أن تظل القوات كلها تحت إمرة قائد واحد.

ويقول جوميني: إن الجيش يكون آمنًا عند استخدام خط عمليات مزدوج لو احتل الخطوط الداخلية ، أي عندما يكون العدو بدوره يستخدم خط عمليات مزدوج هو الآخر ويكون العدو في ذات الوقت أقل قدرة على التجمع في سهولة ويسر ، وإن: «الجيش الذي تكون كل خطوطه داخلية وأقرب إلى بعضها البعض من خطوط العدو يستطيع بتحركات استراتيجية سحق وإبادة قوات العدو الواحدة إثر الأخرى بعد إعادة حشد قواته في كتلة واحدة»[٣].

وقد أكد جوميني أكثر من مرة في صفحات كتبه أفضلية «المركز الداخلي» ، فالجيش الذي يستخدم خط عمليات مزدوج يكون الخط

(١) الدراسة .. ١ ص ٤١٧.

(٢) الدراسة ... ١ ص ٤١٩.

(٣) الدراسة ... ١ ص ٤١٣- ٤١٥.

الداخلي ضروريًا ما لم تتوافر له أفضلية عددية ساحقة ، وحتى مع هذه الحال فإن الخط المزدوج يكون له خطره لو كان الخطان ينفصلان عن بعضهما بمسيرة عدة أيام ، أما في حال التماثل العددي لقوات كلا الجانبين المتضادين فإن استخدام خط عمليات مزدوج ضد جيش تكون قواته أقرب إلى بعضها البعض فإن هذا الاستخدام «يكون له خطره إذا ما انتفع العدو بالفائدة التي يحصل عليها من الوضع الذي هو فيه»[١].

وقد لخص چوميني في كتابه «الدراسة الموجزة» كل نظرياته في هذا الموضوع ، وكتب: «إذا ما تماثلت الأشياء الأخرى فإن الأفضلية تكون في جانب خط العمليات الواحد الذي على حدود واحدة بالنسبة لخط العمليات المزدوج ، وفي ذات الوقت يجب ملاحظة أن خط العمليات المزدوج يكون في الغالب ضروريًا ، إذا ما كانت طبيعة مسرح الحرب تتطلب هذا. أو إذا كان العدو نفسه يستخدم خط عمليات مزدوج أو إذا اضطر لهذا ليواجه كلا من جزئي جيش العدو بعدد أكبر من القوات» وفي الحالة الأخيرة فإن النفع يكون في جانب الجيش الذي يعمل على الخطوط الداخلية[٢] ، وفي ضوء هذه العوامل تتضح أهمية اختيار خط العمليات؛ ذلك لأنه هو الذي يقرر نتيجة الحملة ، فهو «يمكن من علاج الموقف لمواجهة خسائر معركة قد فقدت ، أو يزيد من فوائد النصر في معركة ناجحة ، كما يسبب إخفاق عملية غزو أو يؤكد نجاح هذه العملية»[٣]. وذلك تبعًا للموقف في كل حالة.

(١) الدراسة ١ ص ٤١٣ - ٤١٥ - ذات المرجع هامش (٢٣).
(٢) «الدراسة الموجزة» ١ ص ٢٥٩.
(٣) «الدراسة» ٢ ص ٢٧٢.

ويقدم چوميني في الفصل الرابع عشر من «الدراسة» العوامل التي يجب أن تؤثر في هذا الاختيار ، وقد وضع في مقدمتها تلك التي تنتج عن طبيعة أرض العمليات والتي تنشأ عن الطرق والنقط الاستراتيچية الموجودة في مسرح الحرب.

ويؤدي هذا بالطبيعة إلى فكرة لها طابعها المميز في نظريات چوميني العسكرية ، فإن كل عملية حربية إنما تحدث في منطقة عمليات محددة ، وبالرغم من أن چوميني انتقد الاتجاه الرياضي الذي كان طابع دراسات بيلو فإنه يعتبر منطقة العمليات كأنها تتكون من ميدان له أربعة أجناب[(١)] تحتل القوتان المتضادتان اثنين من هذه الأجانب الأربعة ، وهنا يكون واجب القائد أن يتخير ـ مع التقدير الكامل لطبيعة أرض المعركة التي يعمل فيها ـ خط المعركة الذي يكون له تأثيره المسيطر على الأجناب الثلاثة الأخرى لهذا الشكل الرباعي الأضلاع ، فإذا نجح في هذا فإنه يسحق العدو أو يرغمه على إخلاء منطقة العمليات ، ومن الصعب أن تتجنب الخاتمة التي أكد فيها الحاجة إلى السيطرة على منطقة العمليات ، فإن چوميني كغيره من أصحاب النظريات في القرن الثامن عشر قد اعتبر الحرب مسألة كسب الأرض والاستيلاء على المناطق.

ومن الواضح أن چوميني كان يرى عمل القائد إنما هو من ناحية أولية عملًا ذهنيًّا فيقول: «إن الجمع بين الحكمة والخلق هو الذي يصنع القائد العظيم»[(٢)] ، ولكن مما لا شك فيه أن التفهم للحرب والقدرة على إشعال حماسة الجنود لها أيضًا أهميتها ، ولهذا فإذا أمل القائد أن يكون

(١) «الدراسة» ٢ ص ٢٧٩.

(٢) «الدراسة الموجزة» ١ ص ١٣٠.

ناجحًا فإن من الضروري أن يتعلم الأصول الأساسية للحرب[١].

على أن هذا التأكيد لأهمية «الحكم والأقوال المأثورة» له دلالته وطابعه المميز. فقد كان چوميني يعتقد بأن كل أعمال فن الحرب يمكن أن تضغط حتى تنتهي إلى مجموعة من القواعد العامة يمكن حفظها وتطبيقها في كل المواقف، وفي الفصل الخامس والثلاثين من الدراسة عمل چوميني لإعداد هذه المجموعة من «الحكم»، وقد أكدت هذه المجموعة فيما أكدت أهمية «المبادأة والاستراتيچية» وأهمية «حشد القوات تجاه نقطة واحدة لإعادة نقط ضعيفة في خطوط العدو» وأهمية «مطاردة عدو مهزوم» ثم القيمة الكبرى التي للمفاجأة[٢].

وقد أحس چوميني بأن أهمية «المفاجأة» لا يمكن أن يكون مبالغًا فيها، فلا يكفي عادة أن تقوم بمهاجمة نقطة محددة بقوات أكبر إذا كان العدو يثق بأنك ستقوم بالهجوم في تلك النقطة في ذلك الوقت؛ ذلك لأنه يستطيع الحصول على إمدادات، ويستطيع أن ينشئ الخنادق لحماية قواته، وسيكون مستعدًّا بينما تكون أنت .. لا تتبع تمامًا المبدأ الذي وضعه چوميني أصلًا، ولهذا فمن الضروري أن تفاجئ العدو إلى غاية ما تستطيع، وقد قدمت حملات فردريك الأكبر ونابليون لچوميني مادة صالحة لتصوير مناقشته لأهمية المفاجأة، وكانت أفضل الصور التي يحبها چوميني هي حملة نابليون لعام ١٨٠٠؛ ذلك لأن «المفاجأة» قد جاءت في مستوى استراتيچي كبير، وجاءت في «الوقت» وفي «المسافة»، وحدث هذا عندما فعل نابليون المستحيل بأن حرك جيشًا كبيرًا في وقت قصير جدًّا، وفوق أرض لا يمكن

(١) «الدراسة الموجزة» ١ ص ٢٧.
(٢) «الدراسة» ٣ ص ٣٣٨-٣٥٣.

اجتيازها هي ممر سان برنارد ، وذلك ليفاجئ النمساويين مفاجأة استراتيجية لا تكتيكية[١].

على أن چوميني يقترب في عدة نقط من عقيدة كلاوزيفتز بأن الغرض من الحرب هو تدمير قوات العدو المسلحة ، ويقول: «إن موهبة نابليون إنما تكمن في أعطاف اتجاهه مباشرة إلى ما يجب أن يفعل دون غيره» ـ «فإنه كان يتجنب كل الأساليب الروتينية القديمة التي يحاول بها بعض القادة احتلال موقع أو موقعين ، أو حتى منطقة صغيرة على الحدود. لقد تحقق نابليون من أن أول السبل للحصول على نتائج كبيرة هي أن يحشد كل جهوده لتمزيق وسحق جيش العدو واثقًا من أن الولايات والدول تسقط وحدها عندما لا تتوافر لها القوات التي تدافع عنها»[٢].

ولكن چوميني يتجه أحيانًا غير اتجاه كلاوزيفتز ، ففي رأي چوميني أن المشكلة المركزية للحرب هي الاختيار الصحيح لخط العمليات وأن أهم غرض للقائد هو السيطرة على منطقة العمليات التي يشتبك فيها ، ومثل هذه السيطرة مستحيلة عادة ما لم تدمر قوات العدو ، ولكن يجب أن نذكر بأنه عندما يتخير القائد خط العمليات الصحيح فإنه يترك طريقي عمل مفتوحين للعدو فإما القتال تحت ظروف غير صالحة وإما الانسحاب من

(١) لقد اتفق أغلب المؤرخين على أن نابليون كاد ينهزم في مارنجو؛ ذلك لأنه قد ارتكب الخطأ الذي كان خصومه يفعلونه دائمًا ألا وهو توزيع قواته ، فقد وجه دزيه Desaix بعيدًا جدًّا عنه ، إلا أن عودته هي التي أنقذته في ذلك اليوم ، ويقدم چوميني عذرًا لهذا بأن نابليون قد أخطأ بسبب تصديقه أحد الجواسيس غير الموثوق بهم والذي أكد له أن النمساويين لا يستطيعون تقبل المعركة في ذلك المكان ، راجع الفصل السادس من حياة نابليون لچوميني.

Jomini, Vie de Napoleon, chapter vi.

(٢) «الدراسة الموجزة» ١ ص ٢٠١.

منطقة العمليات.

على أن هذا الإلحاح من جانب چوميني في كثرة الحديث عن اختبار خطوط المناورة ، وجدله في مناقشة ما تسببه المشكلات التي تعرض للقائد من تأثير على مدى تطابق الخطوط الحاسمة نظريًا مع الطرق الموجودة فعلًا في منطقة العمليات ، ثم استخدامه المستمر للرسوم والأشكال مع ما تسببه هذه الرسوم من اضطراب تبعًا لتحول كل منطقة العمليات إلى شكل هندسي صامت على الورق؛ كل هذه الأشياء إنما توضح في جلاء أن تفكير چوميني لم يكن إفناء العدو بقدر ما كان ـ أساسيًا ـ الاستيلاء على الأرض[١].

ومن أجل هذا وحده كان چوميني يتجه اتجاهًا ملحوظًا لتفضيل الهجوم حتى لو اضطر القائد تبعًا للاعتبارات السياسية أو غيرها لاتخاذ موقف دفاعي ، ولابد أن يكون چوميني قد قصد بهذا «الهجوم» ما أسماه في غير تردد «الهجوم الدفاعي» ، وهو احتلال موقع تعاونه إغارات مستمرة وهجمات مخادعة ، وغير هذا من الوسائل الضرورية للحيلولة دون ما تسببه حرب المواقع الدفاعية من إجهاد عقلي ومعنوي ، ولم يكن بين كتاب العصر الحديث من كان أكثر إصرارًا من چوميني في إبراز ضعف سيكولوچية خط ماچينو وذلك في حديثه عن المشاعر الوهمية التي توجدها خطوط التحصينات ، ويقول چوميني: «إن البقاء في موقع دفاعي قوي انتظارًا لهجوم العدو دون ما غرض آخر غير هذا البقاء لهو أسوأ خطأ يمكن أن يرتكبه قائد عسكري». وقد استطاع چوميني أن يدعم حديثه ، وأن يجد

(١) راجع (الدراسة) ٢ فصل ١٤ و (الدراسة الموجزة) ١ فصل ٣.

النماذج الدقيقة التي تؤكد صدق ما ذهب إليه[1] بأن قدم ما حدث للماريشال «دون»(*) في «تورجاو» وما حدث «لميرشان» (**) في «تورين»..

***

وعلى نقيض كلاوزيڤتز الذي وجه تفكيره إلى اعتبارات طبيعة الحرب والروح الضرورية لها ، فإن چوميني يعتبر في سجل تاريخ الفكر العسكري كرجل عمل من أجل النظريات الاستراتيچية وحدها ، وهو لم يكن ليعنى بالمشكلات الفلسفية بقدر ما عني بها قدره ـ برأيه الخاص ـ أنه هو النواحي العملية التي أدمجت في صناعة الحرب .. ويحتل القتال المركز الأساسي الحاسم في نظريته: «إن الغرض من الحرب هو احتلال كل أو بعض أراضي العدو ومثل هذا الاحتلال يتم بالسيادة الناجحة على منطقة العمليات ، هذه السيادة التي تكون ممكنة مستطاعة فقط ، إذا ما وضع تخطيط الحملة بعناية قبل أن تبدأ العمليات العدائية .. وتحقق الحرب غرضها عندما تكون خطوط العمل قد قدرت من قبل ، وعندما تكون الوسائل العسكرية المستطاعة تتمشى مع الحقائق الجغرافية والاستراتيچية للمنطقة المختارة للعمليات» ـ وهنا يجوز أن نسأل عن واجب الاستراتيچية لأنه يتابع

(١) «الدراسة» فصل ٣٥.

(*) دون .. Doun .. ليوبولد جوزيف ماريا كونت فون برنس أوف ڤيانو (١٧٠٥ - ١٧٦٦) فيلد ماريشال نمساوي ، ولد في ڤيينا ، كان برتبة الكولونيل في حرب الوراثة البولندية (١٧٣٤-٣٥) وبرتبة الجنرال في الحرب ضد الأتراك (١٧٣٧-٣٩) ثم فيلد ماريشال في حرب الوراثة النمساوية ، وقد انتقد لحذره الشديد وحرصه الدائم اللذين كانا كثيرًا ما يعطلانه عن العمل.

(**)ميرشان ... فرديناند كونت دي ميرشان .. ماريشال فرنسا ولد في لييج عام ١٦٥٦ وقتل في (تورين) عام ١٧٠٦ .

«المترجم».

حديثه: «ويكون واجب الاستراتيچية هو أن تمكن من إدراك كل هذه الخطط الأولية»[١].

وقد استطاع چوميني بتحديده لمكان الاستراتيچية من فن الحرب أن يميز بوضوح بين «الاستراتيچية» وبين الميادين الأخرى من النشاط العسكري كالتكتيك مثلًا ، ولعل كتابه «الدراسة الموجزة» أكثر من أي كتاب مبسط آخر قد نظم التقسيم العام للعلم العسكري الحديث ، وقدم

---

(١) إن كل المسائل الخاصة بالمسرح العام للحرب تجيء في نطاق الاستراتيچية ولهذا يجب أن تتضمن ما يلي:

١ - تحديد مسرح الحرب؛ ومختلف الخطط التي يجعلها هذا المسرح مستطاعة ممكنة.
٢ - تعيين المناطق الحاسمة تبعًا لهذه الخطط وتحديد أصلح الاتجاهات للعمل بها.
٣- اختيار وإنشاء القاعدة الثابتة ومنطقة العمليات.
٤ - تعيين الغرض المقترح سواء أكان هجوميًّا أم دفاعيًّا.
٥ - تحديد جبهات العمليات .. والجبهات الاستراتيچية وخط الدفاع.
٦ - اختيار خطوط العمليات المؤدية من القاعدة إلى الغرض أو إلى الجبهة الاستراتيچية التي يحتلها العدو.
٧- اختيار أفضل الخطوط الاستراتيچية بالنسبة لعملية محددة ، وكذلك المناورات المختلفة التي تتضمن هذه الخطوط في مختلف خطط العمليات الممكنة.
٨- قواعد العمليات المحتملة والاحتياط الاستراتيچي.
٩ - تحركات الجيوش التي ستعتبر (مناورات).
١٠ - تقدير مستودعات التموين بالنسبة لخطوط سير الجيوش.
١١ - المواقع المحصنة التي تعتبر أسلحة استراتيچية أو ملاجئ للجيش أو عوائق لسيره أو تعاون في أعمال الحصار.
١٢ - النقط التي يجب أن تنشأ فيها المعسكرات الثابتة المحصنة أو رءوس «الكباري» أو غير هذا.
١٣ - اتجاهات السير والأجزاء المنفصلة من القوة والتي تكون نافعة أو ضرورية.

«الدراسة الموجزة» هامش ١ - ص ١٥٤.

أقسام العلم في صورة مقبولة يستخدمها الجميع[١].

على أنه بالرغم من أن چوميني كان في حديثه عن «التكتيك» وعن «التحركات» وعن «الإمداد والتموين» ـ المسائل التي وقف عليها المجلد الثاني من كتابه «الدراسة الموجزة» ـ دقيق البحث مرتب الحديث ، وبالرغم أيضًا من أنه قدم بعض مقترحات وآراء لها قيمتها ، إلا أنه في هذا كله ـ كما كان عادة ـ لا أصالة في تفكيره ، ولهذا فإنه مع الدراسة التمهيدية التي قدمها بكتابه والتي تعاون على إيضاح النجاح الكبير الذي لقيه هذا الكتاب بين دراسات القرن التاسع عشر ، لم يكن في الواقع معنيًّا أصلًا بهذه الفروع الأولية من صناعة الحرب ، بل كانت الاستراتيچية هي ميدانه المختار ، وقد وقف هو تبعًا لهذا في الصفوف الأولى للتفكير الاستراتيچي الجديد للقرن التاسع عشر.

ومن الواضح برغم مكانة چوميني في الفكر العسكري للقرن التاسع عشر أنه لم يفصل أفكاره تمامًا عن دراسات القرن الثامن عشر ، كان قد انتقد بيلو لمبالغته في نبذ العقائد العسكرية التي لا تتمشى مع المنطق ، وفي الوقت نفسه كان تفكيره هو نفسه يتأثر بدرجة كبيرة بذات الطابع الذي انتشر في العصر الذي سبقه؛ ثم إن چوميني في بحثه عن الأصول العامة السليمة والأقوال الحكيمة الصحيحة التي لا يمكن أن

(١) عرف چوميني التكتيك بأنه المناورة التي يقوم بها جيش في ميدان المعركة ، وأنه هو التشكيلات المختلفة التي تقاد بها القوات للهجوم ، كما عرف جزء العلم العسكري الخاص بالتحركات والتموين بأنه الحال العامة للجيوش المتحركة ، والتفاصيل المادية للسير والتشكيلات والإقامة المؤقتة للمعسكرات ، وفي إيجازاتها تنفيذ خطط الاستراتيچية والتكتيك «الدراسة الموجزة» ١ ص ١٥٥.

تكون عرضة للخطأ. فقد مال إلى إطالة التحديق في العوامل غير المنطقية في الحرب والتي زادت عن أن يشملها الحصر، وقد يكون من حق چوميني أن نذكر بأنه جاهد للكفاح ضد هذه العوامل؛ ففي مقدمة كتابه «الدراسة الموجزة» جاء بفصل عن «سياسة الحرب» قصد أن يناقش فيه المسائل غير العسكرية، وفي فصل آخر وسم بعنوان «فلسفة الحرب» عمد إلى مناقشة «العامل اللامنطقي»[1] ولكن في هذين الفصلين بالذات يتضح المدى الذي ضاعت فيه أفكاره الخاصة وسط العوامل المنطقية والخالصة للعسكرية.

وفي أول هذين الفصلين يقدم چوميني جدولًا لمختلف صور الحرب مميزًا بينها تبعًا لأهدافها وأغراضها السياسية، ويجادل بحق في أن الغرض السياسي لأي حرب يعلب دورًا كبيرًا في تكوين طبيعة الحرب نفسها، ولكن الظاهرة المميزة في نقاشه هي إخفاقه في تقدير إمكان وجود اتجاه في الحرب نفسها يجعلها تندفع إلى ما وراء هدفها الأصلي المحدد.

وفي الفصل الثاني ـ والذي وقفه إلى حد بعيد على مناقشة الحرب الأهلية وتأثير العوامل المعنوية في الحرب ـ يتضح في صورة عامة أن چوميني لم يحفظ تمامًا الدرس العسكري لفترة الثورة، فهو لم يكن متأكدًا من أن الحرب الأهلية قد جاءت إلى العالم لتظل قائمة موجودة، كما يتضح بأنه لم يقتنع بأهمية العامل المعنوي في الحرب، «ولو أنه من الممكن الاعتقاد بأن معاونة العقيدة السياسية تكون معاونة فذة كما رأينا

(١) «الدراسة الموجزة» ١ الفصلان ١ و ٢.

في الحديث عن حروب الرأي والفكر ، فمن الضروري أن لا ننسى بأن الكتاب المقدس لا يمكن من الاستيلاء على منطقة من الأرض اليوم؛ ولهذا فإن المدفع والرصاصة والبندقية ضرورية ، وأن المسافة التي يحمل طولها ثقلًا ما إنما تؤثر في الخطط الاستراتيجية؛ ولهذا فهما من محل اليوم للمخاطرات البدائية التي يقوم بها الأقوام الرحل[1].

***

(١) الدراسات الموجزة ١ ص ٣٩٥-٣٩٦.

[٤]

على أن «فكر» چوميني العسكري لدليل يستحق التنويه لحقيقة رفض الكثيرون من المفكرين الأحرار في القرن التاسع عشر تقبلها ، هذه الحقيقة هي أن الحرب ليست صورة شاذة من الحياة البشرية لها تاريخها الخاص بها المنفصل عن غيره من صور التاريخ ، بل إنها جزء مكمل لتاريخ الحضارة؛ ذلك لأن چوميني إنما هو ـ في أكثر من صورة ـ مثل كامل لما أسماه كارل بيكر(*) «جو الرأي في القرن الثامن عشر». وبالرغم من أن كل كتابات چوميني تُعْنَى بِالمَسَائِلِ العسكرية إلا أنها من نتاج عصر النهضة الفكرية ما في هذا من شكّ.

والقرن الثامن عشر ليس في حدّ ذاته بالعصر العادي ، وعلى الأخص فيما يتعلق بتاريخ الفكر ، فليس في چوميني شيء من روسو ، أو توماس بين(**) ولامن هولباخ(***) ، أولاميتري(****). بل إن چوميني هو مونتسكيو القرن الثامن عشر والذي يشبهه من نواح كثيرة؛ وقد لا يكون من الخطأ القول بأن كتابات چوميني يمكن أن تجمع تحت عنوان «روح

(*) كارل فرديناند بيكر (١٧٧٥-١٨٤٩) ألماني ولد قرب ترير أنشأ مدرسة في أوفنباخ عام ١٨٢٣ «المترجم». E. Encycl. Vol L٢ P١٧٤.

(**) توماس بين ـ Tom Paine ناشر أمريكي ولد في تيتفود عام ١٧٣٧ ، وقد وقف للدفاع عن الآراء الثورة في بريطانيا ، منحته حكومة الثورة الفرنسية الجنسية الفرنسية وكان عضوًا في حكومة القومسيون ، وتوفى عام ١٨٠٩.

(***) هولباخ ـ Hilbach جول هنري بارون دي هولباخ: فيلسوف فرنسي مؤلف كتاب «أسلوب الطبيعة» ولد في إيريز هايم ١٧٢٣ وتوفي عام ١٧٨٩.

(****) لاميتري La mettrie جوليان دي لاميتري طبيب وفيلسوف ، كان صديقًا لفردريك الثاني البروسي ، ولد في سان مالو عام ١٧٠٩ وتوفى عام ١٧٥١.

الحرب» ، وقد توافر في كلا الاثنين ـ «مونتسكيو وچوميني» ـ الميل إلى التعميم في البحث ، والرغبة في إدراك الحقيقة والمعرفة الواسعة بالحقائق المتصلة بالعصر ، والتطلع إلى حياة هادئة وإن لم تكن كاملة ، ويعتبر چوميني من ناحية التسلسل الزمني للناس من أواخر خلصاء القرن الثامن عشر المعجبين بمونتسكيو التابعين لمنهاجه السالكين سبيله الفكري ، ولقد نقل چوميني إلى عصر بسمارك عادات الفكر والحس التي تكونت وتشكلت في أواخر أيام فردريك الأكبر وبسمارك.

ولقد جاءت تقديرات وآراء چوميني في الواقع إلى حد بعيد على أساس أعمال نابليون وأولئك الثوريين الذين سبقوه ، ولقد اعتُبر چوميني لأجيال تالية بأنه أول معقب عظيم درس أعمال نابليون ، ولكن الآن وبعد أن وضح أن نابليون نفسه وليد القرن الثامن عشر والنهضة العلمية التي صحبته ، وأنه قد تعلم الكثير عن فردريك وجيبير وجربيوفال(*) وبورسيه فإننا نستطيع أن نقول بأن چوميني ـ في الواقع ـ لم تفقده عظمة نابليون وأصالته القدرة على أن يستشف الصلة الطبيعية التي ربطت نابليون بأولئك الذين سبقوه.

ولقد نجح چوميني إلى حد بعيد يثير الإعجاب في تفهم ما حصل عليه نابليون كعسكري فني. ***والواقع*** ـ كما أشار چوميني دائمًا ـ: أن الخطوط العريضة للأصول الاستراتيجية التي قدمها هو «أي چوميني» إنما هي وصف عام لحملات نابليون وعلى الأخص حملة إيطاليا «١٧٩٦-١٧٩٧» وحملة مارنجو واسترلتز وويينا.

(*) جربيوفال Gribeauvol جان باتيست دي جربيوفال ، جنرال في المدفعية ، ولد في أيام عام ١٧١٥ وهو الذي أوجد طريقة «فم النيران» Bouches de Feu ، توفي عام ١٧٨٩.

ومع هذا فإن چوميني فقد جزءًا كبيرًا من نابليون ، أو بمعنى آخر: إنه نظر جزئيًّا وكره جملة هذه الناحية الرومانتيكية في نابليون ، وكان نابليون الذي دفع چوميني ليعجب به ويتفهم أعماله ، ويقدم دراساته عنها هو نابليون الذي أوجد الدولة المتحدة والذي حشد أكبر جيش عرفه العالم حتى عام ١٩١٤ ، نابليون الذي سار إلى موسكو فقطع قارة أوروبا من طرف إلى آخر ، ولكن إذا كان نابليون قد نجح في تدمير القواعد والعادات الخاطئة وأنصت لقواعد الطبيعة والمنطق ، فإنه قد سار بعيدًا ليدمر القليل من قواعد الطبيعة والمنطق أيضًا ، ومع أن نابليون قد نال جزاءه على هذا فإنه يعتبر مثلًا له خطره لأن غيره قد يعمل عمله ويثير الحروب دونما قاعدة ولا هدف واضح ، وتسمى الحروب حروبًا دموية وصراعًا لا سبب له ولا حكمة فيه ، تسود هذه الحشود الكبيرة المسلحة بأخطر أنواع الأسلحة ، وبذلك ربما نرقب مرة ثانية حروب الشعوب في ذات الصورة التي شهدها القرن الرابع للميلاد ، بل وربما اضطررنا أن نعيش من جديد في القرن التي عاش فيها الهون والڤندال والتاتار[١].

لقد بدا سير نابليون المستمر عبر أوروبا لأعين المعاصرين وكأنه بغير أسلوب أو خطة ، كما بدت معاركه التي كسبها بحشد قوة الضرب الكبيرة التي توافرت له في نقطة واحدة مركزية وكأنها مسألة غير فنية وأنها وحشية لا داعي لها ، وكان چوميني هو أول من استطاع أن يوضح بأن حملات نابليون ومعاركه كانت تقوم على أساس تطبيق مبادئ أساسية كانت تعتبر صحيحة في كل وقت ، لقد كشف عن العامل الصحيح في قيادة نابليون ،

---

(١) يقدم چوميني هنا سقوط نابليون في أسلوب طريف ... راجع «الدراسة» ٢ ص ٣٥٦-٣٥٧.

ولكن بينما اعتبر كلاوزيڤتز «أن نابليون هو إله الحرب العبقري الذي يضع الأسس والرجل الذي يرسم الأصول» فإن چوميني قد قدم في بحثه كل الأصول المهمة التي عرفها الناس من قبل ، ثم قدم نابليون على أنه الآلة التي مكنت هذه الأصول من أن تلعب دورها بنجاح.

ومما لا شك فيه أن الحروب الكبيرة ـ في نظر رجل منطقي التفكير كچوميني ـ كانت هي حروب القرن الثامن عشر ، فقد كانت الحياة ثمينة في ذلك القرن حتى لو قلنا إن سبب هذا فقط هو أن الجنود المحترفين كانوا يتكلفون الكثير من المال ، وأن الضباط كانوا من الأشراف الذين يقاتلون أشرافًا مثلهم ـ أي أن الجميع من طبقة واحدة في المجتمع ـ ، وأن كبار سادة أحد فروع الفكر البشري كانوا يجلسون في مسرح الحرب وكأنهم أمام لوحة الشطرنج العادية يختبرون ذكاء تقديراتهم وخططهم ، ولكن شعور الحب والتقدير الصحيح الذي أحس به هذا الكاتب «الذي ارتبط اسمه باسم نابليون» إنما كان في الحقيقة راجعًا منطقيًّا وطبيعيًّا إلى فردريك الأكبر.

ولكن ماذا إذن كانت أهمية چوميني في تاريخ تطور الفكر العسكري الحديث؟

الواقع: أنه مع مرور الأيام بات الكثير من كتاباته بلا قيمة ، فإن هذه الصورة الشاملة للحرب قد دمرت الحملات الخالصة للجغرافيا ، وجعلت الحرب المحددة مستحيلة ، لقد أثبتت حملة عام ١٨٦٦ في بوهيميا والتي حاول چوميني أن يوضحها في أسلوب تنطبق عليه نظريًّا ، أثبتت أن نجاح المخترعات الفنية قد أوجد شكًّا هائلًا في أفضلية الخطوط الداخلية ، لقد كانت الخدمة العظيمة التي قدمها نابليون للفكر العسكري إنما جاءت في الواقع في اتجاه آخر ، هو إيضاحه للأصول الأساسية للعلم العسكري ، وفي

تعريفه لمدى عمل الاستراتيچية في الحرب ، وكان إلحاح چوميني وإصراره على أهمية التخطيط للعمليات قد وضح لمعاصريه الدور الذي يمكن أن تلعبه «المخابرات» في الحرب ، ثم أهمية إنشاء هيئة أركان الحرب ، وكان إنشاء الأكاديميات العسكرية في كل أوروبا قد أوضح أن نفوذه ـ على الأقل في هذا المجال ـ سيظل واضحًا ملموسًا[1].

***

(١) في موضوع تطور هيئة أركان الحرب راجع رسالة Dallas D. Ievine, "The Origin of Capital Staffs" مجلة التاريخ الحديث المجلد العاشر لعام ١٩٣٨ ص ١٦١ - ١٧٩.

مراجع الفصل الرابع

جوميني

Jomini, Traité des grandes opérations militaries, ٨ vols (Paris, ١٨٠٤-١٨١٦).

Jomini, Histoire critique et militaire des guerres de la Révolution (٥ Vols. And atlas, Paris, ١٨٠٦; ١٥ vols. And ٤ atlases, Paris, ١٨١٩-١٨٢٤).

Jomini, Vie Politique et militaire de Napoléon (٤ vols, Paris ١٨٢٧).

Jomini, Precis de l'art de la guerre.

L'étude des grandes combinaisons de la stratégie et de la tactique (Paris, ١٨٢٩).

F. Lecomte, Le général Jomini, sa vie et ses écrits (Lausanne, ١٨٦٠, Paris ١٩٤٩).

C. A. Ste. Beuve, Le général Jomini (Paris, ١٨٦٩). Xauvier de Courville, Jomini ou le devin de Napoléon. (Paris, ١٩٣٥).

Georges Gilbert, Lecomte Jomini, In La nouvelle Revue (December, ١, ١٨٨٨).

Edouard Guillon, Nos écrivains militaires (٢ vols, Paris, ١٨٩٨-١٨٩٩).

Rudolf Von Cämerer, The Development of Strategical Science during the Nineteenth Century, (London ١٩٠٥).

Henri Bonnal, De la méthode dans les hautes études militaries en Allemagne et en France (Paris, ١٩٠٢).

Spenser Wolkinson, The French Army before Napoleon (Oxford, ١٩١٥).

Crane Brinton, A Decade of Revolution ١٧٨٩-١٧٩٩ (New York, ١٩٣٤).

Geoffery Bruun, Europe and the French Imperium, ١٧٩٩-١٨١٤ (New York, ١٩٣٨).

F. M. Kircheisen, Napoleon I, sein Leben and seine Zeite, ٩ vols. (Munich and Leipzig ١٩١١-١٩٣٤).

A. Chuquet, Les guerres de la révolution, II vols. (Paris, ١٨٨٦-١٨٩٦).

R. W. Phipps, The Armies of the First French Republic, ٣ vols. (Oxford, ١٩٢٦-١٩٢٩).

A. Fournier, Napoleon I, Emperor of the French (New York, ١٩٠٣).

T. A. Dodge, Napoleon; A History of the Art of War, ٤ vols. (Boston and New York, ١٩٠٤-١٩٠٧).



ڤون كلاوزيـڤتز (١٧٨٠-١٨٣١)

الفصل الخامس
كلاوزيفيتز

بقلم: هـ. روثفيلز

تحتل كتابات كلاوزيڤتز ـ وعلى الأخص كتابه «في الحرب» ـ مكانًا مفردًا في تاريخ الفكر العسكري ، ويعتبر هذا الكتاب من «أمهات كتب» القرن التاسع عشر وإن كان هو في الواقع ـ مع التقدير الكبير له ـ من كتب المراجع التي ينقل عنها لا التي تُقرأ ، وبالرغم مما يحتويه الكتاب من أقسام كثيرة قد أضعف منها مرور الأيام وهذه هي غير تلك الخاصة بفن القتال ، إلا أن الكتاب في الحقيقة أول دراسة للحرب تمسك تمامًا بأهداف الموضوع الذي تَعِرض لدراسته ، كما يعتبر أول دراسة توجد طابعًا فكريًّا يمكن أن يطبق في كل مراحل التاريخ ، وإن كان تفهم هذا ليس بالأمر السهل المستطاع؛ ذلك لأنه لما كان كتاب كلاوزيڤتز الأساسي لم يكمل بسبب أن الوفاة المبكرة للمؤلف في عام ١٨٣١ قد منعته من القيام بمراجعة كاملة له ، فإن بعض الآراء المعقدة التي قدمها قد بقيت دون إيضاح ، وكأنها معميات لم تحل!

هذا شيء ، والشيء الآخر ، هو ما في ترجمة مؤلفات كلاوزيڤتز من صعاب كثيرة ترجع جزئيًّا إلى المصطلحات الفلسفية الكثيرة التي جاءت في كتاباته والتي تبدو فيها مسحة من الميتافيزيقيا(*) ، وقد لا يوجد نقد أكثر

(*) الميتافيزيقيا Metaphysics «على ما توضحها أبسط الموارد» هي العلم الذي يبحث ويحقق=

عنفًا يمكن أن يوجه إلى كاتب عسكري من أن چوميني السويسري معاصر كلاوزيڤتز قد وجد قلمًا منافسه «مفرد الإسهاب واضح الغرور» ، وبالرغم من أن النظرية الفرنسية في أواخر أيام القرن التاسع عشر ترجع بدرجة كبيرة إلى كلاوزيڤتز إلا أن مؤلفًا فرنسيًّا شكا منذ أكثر من أربعين سنة من أن كلاوزيڤتز «ألماني أكثر من الألمان ، وفي كل لحظة يبدو لك وأنت معه تصحبه في دراساته وكأنك تعيش في ضباب ومعميات الميتافيزيقيا»(١).

على أنه من وجهة عامة فإن خاصيات كلاوزيڤتز القومية والتحديات التي تسبقها هذه الخاصيات ترى عادة من اتجاه مضاد ، فمن الواضح أنه كان خصمًا عنيفًا للدعوة للبروسية(*) ، كما وقف يعارض «جنون المعركة»(**) العقيدتين اللتين انتشرتا وكانتا طابع القرن التاسع عشر ، ***والواقع*** أن كتابه «في الحرب» يعتبر كتابًا دراسيًّا يمكن من إيضاح وتفهم معركتي «سادوا» و«سيدان»(***) ، وما أظننا نجد رجلًا قد نال تقديرًا كهذا التقدير الذي ناله

=المبادئ الأولية للطبيعة Nature وللفكر البشري.

(١) كلاوزيڤتز لكامون طبع باريس ١٩١١ ص ٧.

Camon, Clausewitz (Paris, ١٩١١).

(*) البروسية Prussianism عقيدة كانت تقوم على أساس سيادة بروسيا ووضعها في مركز الصدارة من الإمبراطورية الألمانية ، وكان لبروسيا طابع استقلالي فذ وسط المجموعة التي تكون ألمانيا الكبرى وظل هذا حتى ثورة عام ١٩٣٣ ، وقضى انتصار النازية على كل الآمال في استعادة مركز بروسيا والدعوة لسيادتها ثقافيًّا وسياسيًّا.

(**) «جنون المعركة» ، المعركة هي القتال الذي يحدث بين قوات مسلحة كبيرة أو صغيرة في البر أو البحر أو الجو. و(جنون المعركة) من المصطلحات التي جاء بها القرن الثامن عشر لمحاولة الوقوف بالقتال في نطاق محدود دونما اشتباك إلا لأقل وقت ممكن ، وكان هذا في الواقع يضاد اتجاهات القادة الذين يسارعون للالتحام وفقدان الخسائر في الأرواح والعتاد دون كسب عاجل أو آجل من الحرب . «المترجم».

(***) «سادوا» بلدة في بوهيميا حدثت فيها معركة عام ١٨٦٦ التي هزم فيها البروسيون=

كلاوزيفيتز من الكونت فون شليفن[*] الذي قرر بحق أن كلاوزيفتز «قد أبقى فكرة الحرب الحقيقية حية في أذهان الضباط البروسيين»[1].

ومن الطبيعي في الواقع أن يعكس ناقدوه هذا التقدير الكبير للرجل، وأن يعتبروه مسئولًا إلى حد ما عن ضيق الفكر العسكري في أواخر أيام القرن التاسع عشر وفجر القرن العشرين بسبب «استراتيچية الاتجاه الواحد» هذه الاستراتيچية التي تبعث الانتصارات البروسية. ويقول الكبتن ليدل هارت ـ الناقد العسكري الإنجليزي ـ: إن قادة نصف القرن الأخير «قد انتشوا بخمرة الدم الأحمر الذي أنبته كلاوزيفتز»[2].

=النمسويين في حرب (السبعة أسابيع)، (سيدان) قلعة على مسافة ١٢ ميلًا شرق جنوب شرق ميزيريه على نهر الميز في ولاية الأردن بفرنسا، انتصر فيها البروسيون على الفرنسيين واستسلم فيها نابليون الثالث للبروسيين عام ١٨٧٠. وفي عام ١٩٤٠ إبان الحرب العالمية الثانية استند إليها الألمان وداروا حولها ثم وجهوا هجومهم الأخير النهائي ضد خط ماجينو وكان هذا في مواجهة جيش «كوراب» ـ ويقدم كتاب كلاوزيفتز إيضاحًا لما قام به البروسيون في (سادوا) و(سيدان) بالرغم من أن نشر الكتاب قد سبق المعركتين بنصف قرن من الزمان.

(*) شليفن، كونت الفريد فون شليفن (١٨٣٣-١٩١٣) قائد بروسي امتاز في الحرب السبعينية، وصل إلى مركز رئيس هيئة أركان الحرب الألمانية عام ١٨٩١، وظل يشغل هذه الوظيفة حتى عام ١٩٠٥، يرجع إليه فضل تطور تدريبات الجيش الألماني، كتب كثيرًا من الدراسات العسكرية وعلى الأخص رسالته عن معركة (كافي) التي يعتبرها المثل الكامل العملي لتطويق جناحي العدو، بنى كل تخطيطه للحرب ضد فرنسا وحلفائها على أساس هذا، وقد فشل الألمان في تطبيق هذا عام ١٩١٤ بسبب نقص القوات في جناحهم الأيمن، ونجحوا في تطبيق هذه الخطة عام ١٩٤٠ باستخدام أصول الحرب البرقية «البليتز كريج» وكان هذا في يونيو ١٩٤٠ (المترجم).

(١) مقدمة الطبعة الخامسة الألمانية لكتاب «في الحرب» طبعة عام ١٩٠٥، وعندما سئل مولتكة عن أحب الكتب إليه ذكر الكتب الآتية الإنجيل، الياذة هوميروس، كتاب ليترو «عجائب السماء» كتاب ليبيج «رسالة عن الكيميا الزراعية» ثم كتاب كلاوزيفتز «في الحرب».

(٢) «شبح نابليون» لليدل هارت ١٩٣٣ ص ٢١.=

وفي تاريخ قريب شكا مؤلف أمريكي من أنه منذ أيام كلاوزيڤتز إلى فوش إلى لودندورف «اتجه العسكريون بعناد إلى فكرة الحرب في عنف وقسوة»[(١)] ، ألم يكن كلاوزيڤتز هو «المهدي الذي دعا إلى الحشود الكبيرة»[(٢)] ، والذي قدم النظريات التي تؤكد ضرورة الحشد العددي وأهميته؟ وهل لا يعتبر أنه في إصراره على أن قوات العدو الأساسية هي الغرض الأول وأن المعارك هي الوسائل الأولى للحرب يكون قد تنكر لما وصلت إليه عقلية أصحاب النظريات في القرن الثامن عشر الذين أكدوا أهمية المهارة وحسن التوجيه و«اللغة الطيبة» ، وفضلوا هذا كله على استخدام القوة العنيفة ، والذين اتجهوا إلى تفضيل «طعنات السيوف المرهفة» على «ضربات المطرقة» والذين تحدثوا عن العمليات «غير المباشرة» لا العمليات «المباشرة»؟ ألا تعتبر أيضًا التجارب العامة لآراء كلاوزيڤتز بأنها تعاون على التنكر لتجارب الحرب الأهلية الأمريكية ، وأنها توجد «التوقف التام» في الحرب العالمية الأولى»؟

والواقع أنه عندما وضح هذا الاضطراب المعقد نتيجة «التوقف التام» في سير الحرب بعد المعارك المجهدة في فردان والسوم والفلاندرز حاول مؤلف أمريكي أن يصحح آراء كلاوزيڤيتز «بالعودة في صورة ما إلى الجيوش الصغيرة المدربة تدريبًا عاليًا والتي كانت طابع القرن الثامن

=Liddell Hart, The Ghost of Napoleon (١٩٣٣), P. ٢١.

(١) H. Niékerson, The Armed Horde (١٩٤٠) P. ٥٢.

(٢) R. M. Johnston, Clausewitz to Date طبع كمبردج عام ١٩١٧ ، وفي نفس الوقت بدأ الناس في ألمانيا ينتقدون لودندورف في ضوء استراتيچية القرن الثامن عشر وفي ضوء التفهم الصحيح لكلاوزيڤيتز.

عشر»(*) ، وقد ذهب آخرون إلى أبعد من هذا ، وكان اعتراضًا معنويًّا ما صرح به ليدل هارت من أنه «على الاستراتيجية أن تقلل القتال إلى أقل صورة ممكنة»[١] ، ولكي يدعم ليدل هارت حديثه هذا فقد قدم تحليلًا وسمه بعنوان «الأسلوب الإنجليزي في الحرب»[٢].

والواقع أننا عندما نحاول التحدث عن كلاوزيفتز في غمرة حرب عالمية فمن المفيد أن نضع هذه الاعتراضات نصب أعيننا وموضع التقدير؛ ذلك لأنها لا توضح انعكاسات مدرسة في الفكر العسكري في الفترة بين الحربين العالميتين وحسب؛ بل إنها تكشف أيضًا عن المشكلة الأساسية للاستراتيجية ، كما توضح أيضًا التضاد الحقيقي بين التقليد (القاري) والتقليد الأنجلو / سكسوني ، أي التقليد (الجزري)(**) ، أو بمعنى آخر: التضاد بين الدول التي تملك كل منها حشدًا قوميًّا في جيش كجزء من استعدادها العادي وبين الدول التي ليس لديها أي شيء من هذا.

على أن هذا كله يؤكد أكثر مما يقلل من أهمية «نظرية» لم يكن القصد

(*) يجب ملاحظة أن كل ما يجيء في هذه الدراسة من جمل موضوعة بين أقواس ، إنما تعني أن هذه الجمل منقولة حرفيًّا من كتابات كلاوزيفتز نفسه وقد قصد بها دعم اتجاهات الدراسة وإيضاح آراء كلاوزيفتز على حقيقتها وقد أشير في الغالب إلى مكانها من كتابات كلاوزيفتز ليرجع إليها من شاء الاستزادة من البحث. «المترجم».

(١) «الاستراتيجية» البحث الذي نشرته دائرة المعارف البريطانية في الطبعة الرابعة عشرة لعام ١٩٢٩.

(٢) عارض السير ف. موريس في صورة أكثر تحديدًا أو أكثر تحفظًا للحروب في القارة في كتابه «الاستراتيجية البريطانية» طبعة عام (١٩٢٩).

Sir F. Mautice “British Srtaregy”, ١٩٢٩.

(**) القاري: نسبة إلى (القارة) ، والجزري: نسبة إلى (الجزيرة البريطانية).

منها بلا شك أن تطبق فقط لمجموعات قومية خاصة أو لأوقات محددة أو لمناطق معينة بالذات.

إن هذه الدراسة التي أحاولها لكلاوزيفيتز لا تعني بالاستنتاجات التي كثر استخلاصها من دراسات كلاوزيفيتز ، والتي يعتبر بعضها غير كامل أو غير مستوفي البحث ، بل إنها في الواقع تقدم أهدافه الحقيقية والنتائج الصحيحة التي وصل إليها.

***

[٢]

وقد طبعت كتابات كلاوزيڤيتز في الشئون العسكرية وإدارة الحرب في عشرة مجلدات صدرت كلها بعد وفاته ، على أن هذا الجزء من كتاباته الذي أكسبه المديح الذي جاء في عصر تال والذي أنال كلاوزيڤيتز حقه من الشهرة كان هو دراسته التي وسمت بعنوان «في الحرب»؛ وتنقسم هذه الدراسة إلى ثمانية كتب ، يعنَى أولها بدراسة «طبيعة الحرب» ، ويعنى ثانيها «بنظرية الحرب» ، ويناقش كلاوزيڤيتز في الكتاب الثالث «الاستراتيچية» ، ويتحدث في الكتاب الرابع عن «المقاتلة» ، ووقف الكتابين الخامس والسادس على الحديث عن «القوات المسلحة» و«الدفاع». ثم جاءت في الكتابين الأخيرين ـ السابع والثامن ـ كل الصور الأولية التمهيدية لمناقشته «للهجوم» و«خطة الحرب».

ولكن؛ ما هو الواجب الذي وضعه كلاوزيفتز نصب عينيه عند إعداده دراسته «في الحرب»؟

الواقع: أنه مهما قدم من آراء في هذا الأمر فإن كلاوزيڤتز على التحقيق قد أراد أن يفعل أكثر من أن يكتب شيئًا للجيل التالي لعصره أو للمدرسة العسكرية البروسية ، فإنه قد اندفع متعمقًا بروح البحث للصورة «المطلقة» ، للطبيعة الحقيقية الكاملة للشيء ، للفكرة المنظمة للأشياء التي يمكن أن يعرض لها بالبحث؛ هذه الروح التي كانت تسود الفلسفة الألمانية إذ ذاك ، وكلاوزيڤيتز ـ مع تخصصه في الميدان العسكري ـ قد تعمق أيضًا في دراسات أوسع مدى للبحث في أساليب المعرفة ، وفي صلاحية المبادئ النظرية وإمكان تطبيقها على الفنون العملية الأخرى بالإضافة إلى تلك

الخاصة بالحرب[١].

وعندما بدأ كلاوزيڤيتز إعداد كتابه الأساسي في عام ١٨١٦ أو ١٨١٧ ذكر أن طابعه الفني إنما يجيء في «المحاولة والسعي للكشف عن طبيعة الظاهرة العسكرية لإظهار إمكان تمشيها مع طبيعة الأشياء التي تكونها؛ ولهذا فإن البحث والملاحظة والفلسفة والتجربة لا يجب أن تطغى أيٌّ منها على غيرها ، بل يجب أن تتعاون كلها معًا تعاونًا تامًّا[٢] ، وقد أشار قبل وفاته بقليل إلى أن الأصول الرئيسية في كتاباته صحيحة تمامًا «فإنها نتيجة انعكاسات مختلفة موجهة دائمًا إلى الحياة العملية»[٣] ، وكتب في مقدمته لكتابات عام ١٨١٦- ١٨١٧ : «وفي ذات الطريقة كما يحمل الكثير من الأشجار الثمار فقط عندما لا تعلو لارتفاع كبير ، ففي الفنون العملية

(١) يمكن أن نجد الأدلة على هذا في كتاباته التي لم تطبع وفي دراسة (فن البناء) التي كتبها مؤلف هذا البحث في مجلة (المعرض الألماني) Deutsche. Rundschau عدد ديسمبر ١٩١٧؛ راجع أيضًا الكتاب الثاني من «في الحرب» "On War" لكلاوزيڤيتز وعلى الأخص الفصلين الثاني والثالث.

(٢) كلاوزيڤيتز «في الحرب» ترجمة الكولونيل ج. ج. جراهام الطبعة الأولى عام ١٨٧٣ ، والطبعة الجديدة المنقحة مع مقدمة وملاحظات بقلم الكولونيل ف . ن . مود ٣ مجلدات طبع لندن عام ١٩١٨ المجلد الأول ص ٢٤ من المقدمة ، وقد نقلت كل الفقرات التي تذكر في هذه الدراسة التي نحاولها في هذه الصفحات عن هذه الطبعة الأخيرة؛ وهذا لتسهل مراجعة الطبعات الأخيرة أو مراجعة النسخة الأصلية للمؤلف فإنه يذكر إلى جانب كل فقرة الكتاب والفصل على أن ترجمة الكولونيل جراهام لم تخل لسوء الحد من بعض الأخطاء ومن سوء الفهم ، وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن هذه الفقرة في الأصل الألماني تعني حرفيًّا: «إن كل هذه العوامل يقدم كل منها للآخر حقوق المواطن»؛ ولهذا ففي كثير من الحالات اضطر مؤلف هذا البحث إلى أن يقدم ترجمة من قلمه هو ، ولم تكن الترجمة التي قام بها ج. م. جولز من جامعة شيكاغو والتي نشرتها المكتبة الحديثة قد صدرت عندما كتب هذا البحث.

(٣) ذات المرجع ص ٢٥.

يجب أن لا تندفع الأوراق والزهور «النظرية» مندفعة لمسافة كبيرة، بل يجب أن تبقى قريبة من التجارب التي هي تربتها الصحيحة»[١].

ولقد كان هذا التنسيق بين الفلسفة والتجربة هو الظاهرة البارزة المميزة في تحليل كلاوزيفيتز للحرب، لقد كان في الواقع يقف بين عصرين، فبينما كان لا يزال يتبع دنيا الألمان للقرن الثامن عشر التي تقوم على التفكير الثقافي والأدب فإنه يطالب بمكانة الرجل العملي الذي دربه التاريخ والتجارب. وقد مكنه من الوصول إلى هذه المرتبة الذهنية والمكانة الثقافية بعضُ الحوادث التي مرت بحياته[٢].

***

ولد كلاوزيفيتز عام ١٧٨٠، وشهد كلاوزيفيتز الخدمة العسكرية لأول مرة في سنّ مبكرة في حملة الرين عام «١٧٩٣، ١٧٩٤»، ومكنه العمل المتواصل في السنوات التالية والتي مرت في سلم من التقدم لأكاديمية برلين العسكرية لصغار الضباط عام ١٨٠١ وأن يلتحق بها، وهنا استرعى انتباه شارنهورست الذي تولى بعد ذلك إعادة تنظيم الجيش

(١) ذات المرجع ص ٢٩ من المقدمة والتسلسل التاريخي لمختلف المقدمات والملاحظات التي كتبها كلاوزيفيتز وأثرها على ترجمات كتابه راجع مقال هـ. روسينيسكي في المجلة التاريخية العدد الحادي والخمسين ص ٢٧٨ – ٢٩٣.

(٢) يمكن أن نجد عدة دراسات في التاريخ لحياة كلاوزيفيتز منها مقال «دائرة المعارف الأمريكية لعام ١٩٤١ المجلد السابع ص ٦٣؛ وتوجد دراسة أوجز وأدق في التفاصيل في المقال الذي كتبه كيهر « E. kehr» لدائرة المعارف للعلوم الاجتماعية المجلد الثالث ص ٥٤٥، ويمكن كذلك مراجعة الكتب التي كتبها كارل شوارتز «karl Schwartz» والتي كتبها كاتب هذه الدراسة، وقد جاء ذكرها في التعريف بالمراجع في آخر صفحات هذا الفصل.

البروسي؛ وفي هذه السنوات أيضًا اتصل كلاوزيڤيتز بفلسفة «كانط» ونال منها بلا شك توجيهًا هامًّا له قيمته.

وخدم كلاوزيڤيتز في حملة عام ١٨٠٦ برتبة الكابتن ياورا لأمير بروسي ، وأسر بعد معركة «أوزوتادت» وقضى أكثر من سنة في فرنسا وسويسرا ، وعند عودته إلى بروسيا عمل مساعدًا لشارنهورست ، وقام بدور مهم في إصلاح وإعادة تنظيم الجيش البروسي والحكومة البروسية ، وعندما أرغمت بروسيا عام ١٨١١ على التعاون العسكري مع نابليون استعار كلاوزيڤيتز اصطلاحًا عرفه العصر الحديث هو اصطلاح «البروسيون الأحرار» ، واتجه إلى خدمة روسيا ، وفي بداية حروب التحرير في عام ١٨١٣ كان كلاوزيڤيتز برتبة الكولونيل في الجيش الروسي ، وقد عمل في البداية كضابط اتصال في رياسة الجنرال بلوخر ، ثم كرئيس هيئة أركان الحرب للفرقة الروسية / الألمانية ، ولم يعد كلاوزيڤيتز للجيش البروسي إلا بعد صلح باريس الأول ، وعُيِّن إذ ذاك رئيسًا لهيئة أركان الحرب لفيلق اشترك عام ١٨١٥ في معركتي ليني وواڤر ، وقد كانتا ـ من الناحية التكتيكية ـ إخفاقًا للبروسيين؛ ولكنهما من الناحية الاستراتيچية مهِّدتَا الطريق للنصر النهائي في ووتر لو.

على أن كلاوزيڤيتز لم يشترك بنصيب مباشر في ووتر لو ، إلا أن حوادث هذه الفترة اتصلت بحياته جملة وتفصيلًا ، ولحقبة كاملة من السنين كان كلاوزيڤيتز أقرب ما يكون إلى حوادث مهمة كثيرة متباينة إلا أنه كان ينفصل عنها في صورة ما ، وكانت تتوافر له دائمًا ـ في غمرة الكفاح المرير العنيف ـ طلاقة ذهنية واتجاهات فكرية صائبة ، فلما عاد السلم من جديد كان دوره في الحياة يتحول تدريجيًّا ليكون دور المراقب النقادة؛ يجمع

العناصر والحقائق بعضها إلى بعض ، وبقي من عام ١٨١٨ إلى عام ١٨٣٠ يتولى إدارة الأكاديمية العسكرية في برلين ، وهو عمل إداري محض لم يجعل له أيَّ تأثير في تدريب الضباط البروسيين ، ولم يعرف غير عدد قليل من الناس حقيقة العمل الفني الذي كان يشغل كلاوزيفيتز.

على أن كلاوزيفيتز لم يبدأ من وراء مكتبه وضع هذا البحث الكامل الكبير لنتائج هذه الدراسة الواسعة وهذه التجارب العسكرية للعصر الذي عاش فيه؛ بل بدأ هذا في غرفة «جلوس» زوجته ، وقد كان لهذه الزوجة كل الفضل في أن ترى هذه الدراسات النور بعد وفاة صاحبها!.



[٣]

كان عصر الثورة الفرنسية ونابليون عصرًا قال عنه كلاوزيفيتز في الناحية التي تعنيه على التخصيص: «كانت الحرب لونًا من المحاضرات»[(١)] ، كانت الحرب قد ظهرت من جديد «كصورة مخيفة من صور العنف» قلبت النظام الإقليمي بل والنظام الاجتماعي لأوروبا رأسًا على عقب ، فلم تقم حروب هذا العصر تبعًا لمطالب محدودة الأهداف للأسر الحاكمة ، بل إنها انغمرت في كيان ووجود الأمم المعنية بها ، وكما حدث في الحروب الدينية للقرن السادس عشر فقد اختلطت ـ بعضها في بعض ـ مبادئ متضادة وفلسفات متباينة من الحياة ، وتشابك هذا الجهد الجديد مع التغييرات الأساسية في البناء السياسي والاجتماعي لأوروبا ، وقد عملت هذه بدورها في الوسائل المادية والمعنوية للحرب.

لقد كانت جيوش العصر القديم السابق تتكون من جنود محترفين يخدمون لمدد طويلة ، وكانت الجيوش محدودة العدد ، دُرِّب أفرادها تدريبًا جيدًا ، وكان كل من هؤلاء الجنود يعتبر جزءًا من رأس مال الدولة يستخدم بحذر ، وبالإضافة إلى هذا فإن نسبة كبيرة من هؤلاء الجنود المحترفين كانت من الأجانب أو من الأفراد الذين يستدعون لخدمة الجندية من الطبقات السفلى للسكان ، وبلا شك؛ إن جيشًا مشكلًا بهذه الصورة ومن هذه الطبقات لا يمكن أن تتوافر لأفراده العاطفة القومية ولا أن يكون له نصيب كبير من الفضائل العسكرية. وكان من الممكن الاحتفاظ بالجيش متماسكًا

(١) (كانت الحرب نفسها تتوقف إلى حد محدود على المحاضرات) من «حياة وأخلاق شارنهورست» ص ٢٣ . Ueber das Leben und den chara Kter Uon Scharnhorst.

بضغط الضبط والربط العنيف ، وكان الجيش يدرب على السير والقتال في تشكيلات محددة وتحت رقابة أو سيطرة شديدة من ضباطه ، ولم يكن من المستطاع أن ترسل جماعات للمناوشة أو لجمع الكلأ ، فقد كان خطر هروب الجنود أكبر من خطر العدو.

وكانت الجيوش ـ لهذا كله ـ تعتمد إلى حدٍّ كبير على المستودعات التي تمون منها ، ولذا لم يكن من المستطاع إطلاقًا القيام بسير سريع ولا بتنفيذ طعنات بعيدة المدى ، ولا القيام بمطاردة حاسمة ، أو على الأقل كان تنفيذ أي من هذه الصور يعتبر أمرًا من الخطورة بمكان ، وقد عملت هذه التحديدات في صورتين متباينتين ، فبينما كان القائد لا يستطيع ـ إلا بصعوبة ـ أن يسمح لقواته بأن تنفصل عن قاعدة تموينها بمسيرة ما يزيد على يومين أو ثلاثة أيام فإنه كان يجد خط مواصلات خصمه هدفًا جيدًا صالحًا للانقضاض عليه؛ ولهذا فإن الصورة العادية لحروب القرن الثامن عشر تقدم متباين ألوان المناورات المعقدة لعمليات السير على مختلف صورها.

وقد لعبت الحصون التي تحتوي وتضم مستودعات التموين دورًا مهمًّا في أمن وسلامة الجيوش ، وكانت عمليات الحصار ومحاولات الإنقاذ لرفع الحصار أكثر عددًا من المعارك العادية ، وكانت الجيوش يواجه بعضها بعضًا ـ عادة ـ في مواقع محصنة ، وتبقى غير نشطة ودون حركة لفترات طويلة جدًّا ، ويقول كلاوزيڤيتز عن هذا: «كان الجيش الذي يقف في داخل حصن أو قلعة مع بعض المواقع المحصنة في أجنابه يمثل دولة في داخل الدولة ، ويسير عامل الحرب بالنسبة للدولة الداخلية في بطء»[1].

(١) جراهام ـ مود ٣ ص ٩٩ (الكتاب الثامن الفصل الثالث «ب»).

وكانت هناك بالطبع بعض الشواذ لهذه الصورة العادية ، وكانت القيادة التي تجيء بالهبة كما كان التصادم بين المصالح السياسية المهمة يزيد من عنف الحرب ، ولكن لم يكن من الممكن حتى للعبقري أن يصل إلى تفهم حقيقة الأحوال الفنية والاجتماعية للعصر الذي يعيش فيه ، برغم أنه كانت هناك بداية تفهم جديد للعوامل التي لا ماديات لها ، ومع هذا فإنها تؤثر في صناعة الحرب ، مثل «روح الجيش» وهي عامل غير «التدريب الآلي للجيش»؛ كما صحب هذا أيضًا إيجاد صور جديدة للتنظيم ، كما أوجدت أساليب استراتيجية وتكتيكية يمكن أن تزيد من خفة الحركة ، إلا أن مجرى حوادث العصر كان يعطل من التقدم في هذا كله.

كانت الثورة الفرنسية هي التي فتحت الطريق ، فبينما كانت جيوش الثورة لا تستطيع القيام بمناورات معقدة فإنها كانت تستطيع القتال حيثما وضحت الفائدة وبدا الكسب ، كانت تستطيع القيام بالهجوم دون أيِّ تقدير للخسائر في الرجال؛ وذلك لأنه كان من الممكن استدعاء كل موارد الأمة في الأفراد لإمداد آلة الحرب ، وقد مكَّن هذا التغير للأصول الاجتماعية من إيجاد استراتيجية خفيفة الحركة بدرجة كبيرة ، وقد قامت كل أساليب التموين على أساس تقدير الاحتياجات من قبل ، ثم إعداد اللازم منها في الوقت المطلوب. وكان من الممكن الاعتماد على الفرد في المعارك نفسها ، واستبدلت النيران التي يطلقها الأفراد أو عوونت بالنيران مجموعًا ، واستخدمت تكتيكات المناوشين والرماة المهرة لإعداد الهجوم المتكتل المحتشد.

وقد وصل نابليون إلى كل هذه الخاصيات ، واستطاع تفهمها واستخدامها ، ثم أضاف إليها عبقريته الشخصية في القيادة ، وقد كشف في

البداية عما يمكن عمله بهذه الجموع الجديدة من الجند ، وبدت الحملة الإيطالية ١٧٩٦ - ١٧٩٧ لأعين المعاصرين وكأنها انفجار أو ثوران لقوى أولية تضرب حيث لم يكن من الممكن توقع ضرباتها ، وذلك بدلًا من أن تصطدم حيث كانت «النوايا الطيبة» يمكن أن تشير إلى مكان الاصطدام المحتمل ، وهنا كان عالم المفاجأة وتأثيره الكبير.

وعمل نابليون ضد كل القواعد التقليدية المألوفة ، فقد وضع جيشه على «الخطوط الداخلية» بين السردينيين والنمساويين دونها تقدير لخطوط مواصلاته ، ودون أن يضع موضع التقدير تغطية أي أرض أو غزوها ، كان هدفه الوحيد إجراء المعركة وتدمير القوات التي تواجهه ، ونابليون ـ من وجهة نظر كلاوزيفيتز ـ: «لم يدخل حربًا إلا وهو يفكر في قهر خصمه مرة واحدة وفي المعركة الأولى»[1] ، وكان هذا أسلوبًا مليئًا بالعنف والقسوة ، ولكن هذه الجرأة البدائية قد صحبتها عناية خاصة بالتفاصيل الفنية ، كما صحبتها قوة نفاذة مليئة بالمنطق والتقدير الحسابي لكل العوامل المؤثرة ، كما لعب عامل المفاجأة دورًا كبيرًا ، وسواء أكان نابليون قد حشد كل فرقة في حركة سريعة وسقط كالبرق الخاطف على أضعف نقطة في جبهة العدو ، أم كان قد طوى جناح العدو ووضع حشد قواته مقاطعًا لخطوط تقهقر العدو ، سواء أكان هذا أم ذاك ، فإن نابليون كان يصل إلى النصر في ميدان المعركة ثم يقوم بمطاردةٍ لا هوادة فيها.

على أن حروب نابليون البرقية لم تلبث أن عطل منها اطراد زيادة أحجام الجيوش الفرنسية مع عدم ازدياد القدرة على إدارة هذه الجيوش بذات الدرجة ، وبالإضافة إلى هذا فإن خصوم نابليون كانوا قد تعلموا من

(١) ذات المرجع ١ ص ٢٨٥ (الكتاب الرابع الفصل الحادي عشر).

الدروس التي تلقوها على يديه في البداية ، واستخدموا ـ هم أيضًا بدورهم ـ الكثير من الأساليب والأهداف الجديدة ، وعلى الأخص استراتيجية اتخاذ القرار الحاسم.

على أن الأهم من هذا كله: هو أن قارة أوروبا كلها أخذت ـ في صورة ما ـ بالأحوال الاجتماعية والمعنوية التي جاءت الحروب النابليونية من أعماقها ، وسواء أكان هذا قد جاء في صورة بدائية أم في صورة جديدة مستحدثة فإن مقاومة السيادة الفرنسية قد أصبحت عملًا للشعوب الأوروبية في أسبانيا وروسيا وفي النمسا وبروسيا ، وقد كتب المصلح المجدد البروسي چينسيناو بعد هزيمة عام ١٨٠٦ يقول: «لقد أوصل فرنسا إلى ذروة العظمة سبب واحد أهم من كل ما عداه ، فإن الثورة قد أيقظت كل قوى الدولة ، وقدمت لكل فرد ميدانًا صالحًا لنشاطه ليعمل فيه».

على أن هذا الإيقاظ لهذه القوى التي كانت تغطُّ في النوم قبل الثورة سبب إيجاد الجيوش الأهلية في أوربا كلها ، وأنتجت بهذا جهدًا لا يقارن ، وفي حملات ١٨١٣ و ١٨١٤ كان ما يقرب من نصف مليون من الروس والبروسيين يعملون في صفوف الجند ، وفي ثمانية أشهر أمكن نقل مسرح الحرب من شرق ألمانيا إلى قلب فرنسا ، وبينما كانت التصورات الاستراتيچية لا تزال تتأرجح وضح من طبيعة الصراع نفسه أنه لا يمكن الوصول إلى حل حسن إلا بعد أن تحطم جيوش فرنسا تمامًا ، وطبيعي أن كلاوزيڤيتز قد تأثر تأثرًا كبيرًا وعميقًا بهذه «المحاضرات العملية التي قدمتها الحرب» ، وما دامت الحرب قد كشفت عن نفسها في صورتها المطلقة فقد تنبأ كلاوزيڤيتز بأن هذا «الاندفاع إلى النهاية وإلى غاية ما يمكن» من المحال أن يختفي ثانية ، وقد أشار بعد هذا بقوله: «وسيوافقني كل فرد بأن

هذه التحديدات التي بقيت إلى حد محدود تبعًا لعدم إمكان إدراك ما هو ممكن مستطاع ما دامت قد حطمت ، وما دام أنه ليس من السهل إعادة بنائها من جديد فإن العمليات العدائية ستجيء دائمًا في الصورة التي جاءت منها في عصرنا»[١].

وكان كلاوزيفيتز صائب الرأي في الربط بين هذا الاندفاع إلى غاية ما يمكن وبين الحقيقة القائلة بأنه منذ أيام نابليون أضحت الحرب «عملًا لكل الأمة» ، وأن هذا التجديد والاستكمال للقوى الاجتماعية الناتجة عن الحرب إنما يقترب من الوصول إلى حال الكمال المطلق ، وقد كان كلاوزيفيتز تواقًا إلى ألا ينسى أحد في بلاده هذا الدرس ، وقد عاود المرة بعد الأخرى في كتاباته تقديم الأمثلة المقتطعة من عصر نابليون ، وحتى اليوم فإن هذا التغير في الحرب ـ التغير الذي جاء مع القرن التاسع عشر ـ يمكن أن يعاود التحدث عنه بنفس كلمات كلاوزيفيتز ، وكان كلاوزيفيتز يسير إلى مدى بعيد في حديثه عن نابليون فيعتبره آلة الحرب؛ ولهذا فإنه قد لا يكون غريبًا أن نقول بأن كلاوزيفيتز قد وضع حروب نابليون «على أنها القانون الذي يجب اتباعه».

***

(١) ذات المرجع ٣ ص ١٠٣ (الكتاب الثامن الفصل الثالث «ب»).

[٤]

ولكن في الواقع لا يمكن في محاولتنا الوصول إلى تعريف صحيح لكلاوزيڤيتز وتفهم صحيح لنظرياته أن نقبل وجهة النظر القصيرة المدى هذه ، فكما اتضح مما سبق.. كان كلاوزيڤيتز قد وصل إلى تفهم الأصول الأساسية للحرب ، وقد وصل إلى هذا متحررًا من أي اتجاه أو ميل خاص ، وعلى أن يعمل متجاوبًا مع الحوادث الأخيرة التي عاصرها ، وتبدو هذه الحقيقة واضحة عندما نقارن كلاوزيڤيتز بأي من العسكريين أصحاب النظريات الذين عاشوا في القرن الثامن عشر.

كانت الصورة العامة للحرب في القرن الثامن عشر تُرضي ـ على التخصيص ـ رأي وفكر أهل عصر مليء بالتفاؤل ، فلم يعرف «النظام القديم» ـ الحكم السابق للثورة الفرنسية ـ الجو غير المنطقي للكراهية البدائية ولا العداء العنيف ، ولم يكن الجذب والدفع بين الدول كبيرًا إلى الحد الذي يدفع الحرب إلى أبعد من الجو التقليدي المألوف ، وكان توازن القوى قد أوجد اتجاهًا تحفظيًّا ، وكما كان هناك عرض أو تظاهر سياسي ، كان هناك مثل هذا عرض أو تظاهر عسكري ، وكان الاثنان صنوين للأسلوب المعاصر لفن المعمار[1] مع ما يصحبه من زخرف ، بل إن المجتمع نفسه كان يسير في صور مزخرفة مزوقة ، وحتى الحرب قد امتدحت بسبب الطابع المظهري الذي لها؛ وبسبب أن الفلاحين كانوا يستطيعون أن يحرثوا أرضهم ، وأن تسير صور الحياة المدنية على طبيعتها بالقرب من ميدان القتال

---

(١) في الأصل Rococo art ، وهي تعني الطابع المعدوم الذوق الذي صحب فجر القرن الثامن عشر في فرنسا. «المترجم».

أو على مقربة من المعسكر المسلح ، وبدا أن السيف الثقيل قد استبدل بحسام خفيف أنيق في ذات الصورة التي للأسلحة الخفيفة التي تستخدم في ألعاب المبارزة «الشيش»[١].

وكانت الحرب في العصر القديم تتمشى أيضًا مع الروح الفنية للعصر ، كانت هناك في عصر النضوج الذهني[*] ـ بلا شك ـ معارضة حقيقية للحرب من حيث المبدأ ، وكانت هذه المعارضة تقوم على أساس من المشاعر الإنسانية وعلى أساس من الاعتبارات الاقتصادية ، ولكن وجد الكثيرون من المفكرين في ذات الوقت أن صورة الحرب المعاصرة قد هذبت منها هذه التحديدات التي نتجت عن تكوين الجيوش ، وعن غير هذا من الوسائل الفنية المانعة من الانطلاق ، كانت الحرب قد أضحت مسألة فنية؛ وتبعًا لهذا فقد أضحى الإصرار كبيرًا على التحركات المعقدة التي يمكن أن توفر من القتال ، زوايا العمليات ، على نقط جغرافية معينة كخطوط تقسيم المياه مثلًا ، هذه النقط التي قد يجعل احتلالها الوصول إلى النصر مسألة آلية في الغالب ، وفي هذا العصر نفسه سيطرت الرياضيات والطبوغرافية على القائد العسكري حتى قال و.لويد ـ أحد أصحاب النظريات الإنجليز ـ: «إن القائد الذي يعرف هذه الأشياء يستطيع أن يدير العمليات الحربية بإجراءات هندسية ، ويستطيع أن يستمر في الحرب دونما حاجة ملحة للاشتباك في معركة حاسمة». وقال كاتب آخر هو البرنس دولنيي de Ligne: «ما دامت الحرب قد باتت علمًا فمن الطبيعي أن تنشأ أكاديمية عسكرية دولية لدراستها»[٢].

---

(١) ذات المرجع ١ ص ٢٢٩ (الكتاب الثالث الفصل الحادي عشر).

(*) في الأصل Enlightenment Age وتعني عصر روح الفلسفة الفرنسية في القرن الثامن عشر. «المترجم».

(٢) للرجوع إلى تحليلات أكثر لهذه الاتجاهات راجع كتاب المؤلف الموسوم بعنوان=

وعارض كلاوزيڤيتز نظريتي القرن الثامن عشر ، فالحرب في رأيه ليست مباراة علمية ، ولا هي برياضة دولية ، بل هي عمل من أعمال العنف ، وليس في طبيعة الحرب شيء معتدل ولا شيء له علاقة بالإنسانية؛ وفي كتاب «في الحرب» فقرة كثيرًا ما وضعت موضع المراجعة ، وتقول هذه الفقرة: «إننا لا نحب أن نسمع عن قادة ينتصرون دون سفك الدماء ، وإذا كانت المعارك الدامية مخيفة المنظر فإن هذا يجب أن يكون السبب في أن نقدر الحرب حق قدرها.. لا أن نسمح لسيوفنا أن لا تكون حادة وأن تصدأ بمرور الأيام بعامل الإنسانية حتى يثب فرد ما ويقطع بسيفه الحاد أذرعتنا عن أجسامنا»[1].

وهذه السطور إنما جاءت بالطبع من أعماق التجارب المؤلمة ، ولكن يجب أن لا تغيب عن الفرد التعقيدات المميزة التي فيها؛ فإنها تضم بين الأشياء الكثرة التي تتحدث عنها «أن العلم لا يمكن أن يجعل الحرب شيئًا معتدلًا ولا أن يجعل لها صلة بالروح الإنسانية» ، وهذا رأي قد ثبت أنه صحيح تمامًا دون أن يكون هذا متوقعًا.

وفي رأي كلاوزيڤيتز أن الناحية العلمية من الحرب ـ أي الناحية التي يمكن أن تقاس مادياتها ـ هي في المرتبة الثانية من الأهمية ، على أن كلاوزيڤيتز لا يقلل من أهمية خدمات التموين[2] ولا من أهمية الطبيعة

=(كلاوزيڤتز) Clausewitz ص ٣٦-٤٧ ، وكتاب ڤاچتس «تاريخ العسكرية»

A. Vagts, A History of Militarism pp. ٨١-٨٥.

(١) جراهام ـ مود ٢ ص ٢٨٨ (الكتاب الرابع الفصل الحادي عشر).

(٢) ناقش كلاوزيڤتز هذه المشكلات في فصل وسم بعنوان «الوجود» الكتاب الخامس الفصل الرابع عشر ، ويرى في الأساليب الحديثة لتحديد الطلبات اتجاهات إلى تقصير مدة الحرب ، ويقول: إنه في ضوء ظروف خاصة قد تعود من جديد طريقة استخدام=

الجغرافية لمسرح الحرب ، ويقرر أن العوامل الرياضية والطبوغرافية لها أهمية في التكتيك ـ فن القتال ـ ، ولكنه يشير إلى أنها ـ أي العوامل الرياضية والطبوغرافية ـ أقل أهمية في الاستراتيجية؛ (ولهذا فإننا لا نتردد في اعتبارها حقيقة مؤكدة وهي أنه في الاستراتيجية يكون الاعتماد على أحجام القوات المتصرة أكثر من الاعتماد على الخطوط التي تربط بينها)[١].

وأحب كلاوزيفيتز أن يسخر من المصطلحات المضللة والتي فرضت فرضًا ، مثل: «الأرض الحاكمة أو المسيطرة» و«المواقع الساترة» و«المفتاح إلى أرض الدولة» ، وما إلى هذا من المصطلحات التي كانت تعني ـ من وجهة نظره ـ: «إعطاء مظهر براق لهذه الصورة العادية للمركبات العسكرية المرتبطة معًا ، لقد نظر الناس خطأً إلى الأحوال والظروف المحيطة بالشيء بدلًا من أن ينظروا إلى الشيء نفسه؛ نظروا إلى الآلة بدلًا من أن ينظروا إلى اليد التي تمسك بها ، اتجهوا دائمًا إلى التفكير في احتلال مكان أو آخر ، إن كان هذا إنما هو علامة للزيادة أو النقص في التفكير الذي تعوزه المادة ، هذه المادة التي هي المعركة الناجحة»[٢].

وقد تناول كلاوزيفتز هذا في دراسة مبكرة في عام ١٨٠٥[٣] ، وبينما

=المستودعات ولكنه لا يعتبر هذا كتجديد في الحرب على أساس أنه أكثر إنسانية؛ (ذلك لأن الحرب ليست شيئًا إنسانيًّا). جراهام ـ مود ٢ ص ١٠٣.

(١) ذات المرجع ١ ص ٢٢٣ (الكتاب الثالث الفصل الخامس عشر).

(٢) في ترجمة هذه الفقرة بعض التصرف إذ أنها جاءت ـ حتى في الأصل الإنجليزي ـ ناقصة لكلمات كثيرة هي التي تمكن من تنسيق الألفاظ واستكمال المعاني ـ ذات المرجع ٢ ص ١٣٠ (الكتاب الثالث الفصل الخامس عشر).

(٣) ملاحظات على الاستراتيجية للهرفون بيلو ١٨٠٥.

Bemer Kungen iber die reine und angewandte Strategie des Heren Uon Buelow. (١٦٠٥).

ويجب ملاحظة أنه قد كشف حديثًا عن دراسة مبكرة لنظرية كلاوزيفيتز لم تمس الأصول=

كان ينتقد واحدًا من أولئك الذين سبقوه ، والذي حاول أن يجعل الحرب مسألة فنية فإنه أصرَّ على تأكيد تفوق العوامل المعنوية والعوامل غير المادية ، وقد تحول من العلاقات الهندسية بين الأشياء إلى الإنسان وأعمال هذا الإنسان في غمرة هذه المسائل الغامضة وغير المؤكدة النتائج التي هي العناصر المهمة في الحرب ، لقد كان هذا في صورة ما يماثل ثورة كوبرنكوس(*) في الفلك ، كما كانت في ذات الوقت تعتبر تحولًا ينغمر إلى عمق كبير في الأسلوب النقدي الذي قدمه الفيلسوف «كانط». والتدمير الكامل لعقيدة توجدها قوة أو تدعمها سلطة يمكن في يسر من تقبل نظرية صحيحة أخرى بدلها ، وقد أشار كلاوزيفيتز في المرحلة الأخيرة من كتابه «في الحرب»[١] إلى أن أي نظرية لا تعني أن تكون «كالدراجات الخشبية» ، التي توضع عند الأبنية ليصعد عليها عمال البناء ، وبذلك فإنها تعاون الأفراد في العمليات ، ولا تكون «توجيهًا موضعيًا في العمليات» ، بل إن النظرية تعني: أن تكون «تحقيقًا تحليليًّا للموضوع تؤدي إلى المعرفة الصحيحة ، فإذا ما جيء بها للوصول إلى ثمار نتائج التجربة ، والتي هي في

=كثيرًا ـ راجع كتاب كلاوزيفتز واستراتيجية عام ١٨٠٤ مضافًا إليها استراتيجية عام ١٨٠٨ و ١٨٠٩ «تقديم ا. كيسيل طبع همبورج عام ١٩٣٧».

(*) كوبرنكوس الفلكي البروسي المشهور (١٤٧٣-١٥٤٣) ولد في ثورن من أعمال بروسيا الشرقية عندما كانت جزءًا من بولندة ، تعلم في جامعة كراكوف ثم في جامعة بولونا؛ درس الفلك والطب ودرس أصول الدين ولكنه انصرف إلى الفلك والرياضيات ، وفي عام ١٥٠٠ كان يدرس الرياضيات لطلبة جامعة روما ثم في جامعة بادوا ، وفي عام ١٥٤٣ كتب دراسة ضافية بعث بها إلى البابا بول الثالث عن أن الشمس هي مركز الكائنات ، وأن الأرض وغيرها من الكواكب تدور حول الشمس ، وقد تابع كيبلر وجاليليو نظريته ثم تمهد نيوتن (المترجم) E. Encycl. Vol. ٤ P. ٢٣٦.

(١) جراهام ـ مود ١ ص ١٠٦-١٠٨ (الكتاب الثاني الفصل الثاني).
Grahm – Maude. I, ١٠٦-١٠٨.

حالنا هذه «التاريخ العسكري» ، بل وللوصول أيضًا إلى الانتفاع التام منه ـ أي من التاريخ العسكري ـ تبدت لنا الحقيقة من أنه كلما ازداد تعمق النظرية إلى المعرفة كلما مكنت من الوصول إلى الناحية الموضوعية ألا وهي المهارة في العمليات الحربية».

وأضاف كلاوزيفيتز: «يجب أن تعلم النظرية فكر الرجل الذي سيكون قائدًا عسكريًا في المستقبل ، أي أن تقوده وتوجهه في تثقيفه لنفسه ، لا أن تصحبه إلى ميدان المعركة ، وأن يكون مثلها مثل المدرس الحصيف الذي ينير ويفتح مغاليق عقل الشاب الذي يطلب عليه العلم ، دون أن يبقى ممسكًا بخيوط توجهه مدى حياته» ، والنظرية الصحيحة لا يمكن أن تتضارب أو أن تتعارض مع التجربة «الخالقة» المبتكرة كما تفعل أية عقيدة تفرضها سلطة أو قوة عاجلًا أو آجلًا؛ ولهذا فإنا نجد كلاوزيفيتز في دراسة عام ١٨٠٥ يقول: «ما يفعله العبقري يجب أن يكون هو أفضل القواعد والأصول ، ولا يمكن أن تكون النظرية أحسن من أن توضح كيف، ولماذا يكون هذا صحيحًا؟» [1].

وتكشف وجهة النظر هذه عن حقيقة صلة كلاوزيفيتز بصناعة الحرب النابليونية ، ولقد مكنت الحوادث المعاصرة من اتساع مدى التحليل كما زادت من إيضاح العامل الإنشائي الذي كون فكرة الحرب ، ونجد هذا في كلمات كلاوزيفيتز نفسه إذ يقول: «وقد نشك فيما إذا كانت فكرة الحرب

(١) ذات المرجع ص ١٠٠ ، وفي رأي هـ. كوهن ص ٣٢ من كتابه «أثر الفيلسوف كانط في الفلسفة الألمانية» يقول : «إن هذه الكلمات تبدو وكأنها كلمات الفيلسوف «كانط» نفسه وتحقق طريقة كانط في وصف الحدود والأغراض الحقيقة لأي نظرية في الفن» - راجع أيضا كلاوزيفيتز «الكتاب الثامن» ص ١٦٦ .

H. Cohn "Von Kants Einflussaufdie deutsche Kultur".

المطلقة قد وجدت حقًّا ، وذلك ما لم نكن قد رأينا الحرب الحقيقية تبدو في مظهرها هذا في عصرنا الذي نعيش فيه ، و دون هذه الأمثلة المنذرة المحذرة بهذا الانطلاق والتحرر للقوى المدمرة ما كان فرد ليصدق إمكان ما عشنا لنرقبه حقيقة ملموسة واضحة لأعيننا»[١] ، وهذا المديح للعبقرية في الحرب مع اتجاهات كلاوزيڤيتز الفلسفية قد منعه حتى من أن يذكر رأيه ووجهة نظره في أي نظرية أو فكرة تكتيكية أو استراتيچية استخدمها نابليون.

***

(١) ذات المرجع ٣ص ٨٢ (الكتاب الثامن الفصل الثاني) وفي هذه الفقرة يبدو أن كلمتي «الحرب الحقيقية» قد نسبتا في إساءة التوجيه؛ لأن كلاوزيڤيتز عادة يعني بالحرب الحقيقية: «الحرب المطلقة».

[٥]

والواقع أن كلاوزيڤيتز ـ على نقيض كل أصحاب النظريات الذين سبقوه ، وعلى نقيض معاصره چوميني أيضًا[١] ـ كان عمله يمتاز بأنه يجمع بين تحليل العوامل الإنشائية للحرب ، وبين المرونة الإيجابية والمقدرة على التمييز والمفاضلة بين هذه العوامل ، وقد قادته التجربة كما وجهه التفكير الفلسفي على ما أسماه «الحرب المطلقة» ، على أن هذا الاصطلاح يتطلب بعض الإيضاح؛ ذلك لأنه لم يجئ طليقًا متحررًا من المعاني المليئة بالشك ، أو على الأقل غير المؤكدة والمليئة بالاحتمالات ، كما أنه ليس مطابقًا ولا متماثلًا للاصطلاح الآخر «الحرب الشاملة»[٢] وإن كان الاثنان يجيئان معًا في الاستخدام العادي إن كثيرًا أو قليلًا؛ وفي رأي كلاوزيڤيتز أن هذه الصورة «للحرب المطلقة» إنما تجيء من طبيعة الحرب ذاتها ، فالحرب ـ في التعريف الصحيح لها ـ: عمل من أعمال العنف نقصد به إرغام أعدائنا على الخضوع لإرادتنا[٣] ، هذا من ناحية ، وفي ناحية أخرى يعود كلاوزيڤيتز فيعرِّف

---

(١) كان كلاوزيڤيتز يعرف بكتاب چوميني «دراسة للعمليات الكبرى» Traité des grandes opérations عندما كتب إضافاته لكتابه (استراتيچية عام ١٨٠٤) ، وقد وجد كلاوزيڤتز أن چوميني أكثر صلابة من بيلو وإن كان ينقصه التمييز بين ما هو لازم ضروري وبين ما عداه مما يجيء عرضًا لا تضطر إليه حاجة ملحة.

(٢) ولا يتفق أيضًا مع الكتلة المثلثة الأوجه والتي تقدم المصطلحات الثلاثة «الحرب غير المحددة» «الحرب الآلية» «القتال العنيف الدامي الذي لا رحمة فيه» ، هذه المصطلحات التي قدمها هـ. سبيير أخيرًا في «المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع». American Journal of Sociology. مجلد عام ١٩٤١.

(٣) جراهام ـ مود ١ ص ٢ «الكتاب الأول الفصل الأول» في الأصل الحرفي ... «الخضوع لأغراضنا».

الحرب من ناحية تبعيتها لنطاق الحياة الاجتماعية على أنها: «صراع بين المصالح الكبرى التي يمكن أن تتقرر نتائجها بسفك الدماء ، وهذا وحده هو الذي يفرق بينها وبين غيرها»[١] من صور الحياة الاجتماعية.

من أجل هذا كانت «القوة» هي الوسيلة ذات الخاصية الواضحة في الحرب.. ومن غير الصحيح أن ندخل في فلسفة الحرب ذاتها «مبدأ الاعتدال» إن عدونا لا يخضع لرغباتنا أو إرادتنا إلا إذا أُجبر وأُرغم على نزع سلاحه أو وُضِع في موقف يكون فيه مهددًا بأن ينتزع منه سلاحه[٢]؛ ومن هنا جاء المبدأ القائل بأن يكون القصد من الحرب هو «انتزاع أسلحة العدو أو تدمير قواته». ولما كان كلا الطرفين المتضادين يهدفان إلى ذات القصد كان من الضروري أن يشتد الصراع بينهما ، وأن تكون الحرب «عملًا من أعمال العنف إلى غاية ما يمكن من مدى أو حدود».

ومع ما في هذا الحديث من تبسيط فمن الممكن القول بأن هذا هو وجهة نظر كلاوزيفيتز في «الحرب المطلقة» ، وهو عندما قدم رأيه قدمه على أساس أنه نظرية يؤكد أهميتها ، ومن واجب هذه النظرية «إبراز أقصى مدى للصورة المطلقة للحرب ، واستخدام هذه الصورة كنقطة عامة للتوجيه ، وبذلك فإن من يريد أن يتعلم شيئًا من هذه النظرية يجب أن يعوِّد نفسه على أن لا تغيب أبدًا عن عينيه ، وأن يعتبرها دائمًا المقياس الطبيعي لقياس آماله ومخاوفه؛ وذلك ليستطيع الانتفاع بها كلما وجب عليه هذا»[٣].

على أن كلاوزيفتز في تعريفه للحرب ، وفي تقديره للحرب المطلقة

(١) ذات المرجع ص ١٢١ «الكتاب الثاني الفصل الثالث».
(٢) ذات المرجع ص ٣-٥ (الكتاب الأول الفصل الأول).
(٣) ذات المرجع ج ٣ ص ٨٢(الكتاب الثامن الفصل الثاني).

وتأكيده أهمية وضعها دائمًا نصب العينين يعود للحديث عنها في أكثر من مكان من كتابه «في الحرب» ، فمرة ثانية يقول: «إن الحرب التي توجه للوصول إلى قرارات عظيمة ليست أبسط من غيرها وحسب ، بل وأكثر تمشيًا مع الطبيعة وأكثر تحررًا من الاضطراب وعدم الانتظام»[1] ، وفي مكان آخر يقول: «وكذلك فإنه عن طريق وجهة النظر هذه وحدها ـ أي عن طريق النظر إلى الحرب في صورتها المطلقة» ـ يمكن أن نصل إلى ما في الحروب من تماثل وتطابق ، وفيها وحدها يمكن أن نرى كل الحروب كأشياء من نوع واحد متماثل ، وعن طريقها وحدها يمكن الوصول إلى القواعد والأسس الحقيقية الكاملة كما يمكن إدراك الخطط العظيمة والعمل على تنفيذها»[2].

ولا نشك كثيرًا في أن كلاوزيفيتز قد اعتبر ـ في أسلوب فلسفي ـ أن «الحرب المطلقة» هي الطابع المثالي ، وأنها هي النظرية التي تؤكد «التماثل» و«الموضوعية» في هذه الظاهرة المختلفة الصور؛ وقد احتضن كلاوزيفيتز مبدأ «الاندفاع إلى أقصى ما يمكن» ، وقد رأى في هذه الصورة «كمال الحرب» ، ولا يوجد أي شك في أن الحرب المطلقة كانت بالنسبة إلى كلاوزيفيتز هي الصورة المجردة للحرب[3].

ويتبع كلاوزيفيتز هذا التعريف المنطقي للحرب بالإشارة التالية: «إن كل شيء يأخذ شكلًا متباينًا عندما ننتقل به من التجرد المعنوي إلى

(١) ذات المرجع ٢ ص ٤٠٩ «الكتاب السادس ـ الفصل ٣٠».
(٢) ذات المرجع ٣ ص ١٢٣ (الكتاب الثامن الفصل السادس «ب»).
(٣) ذات المرجع ١ ص ٧٨ (الكتاب الأول الفصل السابع).

الحقيقة..»[١] ، وفي سطور أكثر فصول كتابه فلسفة «الفصل الأول من الكتاب الأول» يقدم كلاوزيفتز عددًا من العوامل المعدلة التي لا تجعل الحرب عملية فردية توجهها قوانين الاحتمال لا قواعد المنطق ، فالحرب ليست عملًا منفصلًا عن غيره ولا تتكون الحرب من عملية واحدة؛ ولهذا توجد الفرص لتأثير هذه العوامل ، فوصول الجنود الجدد ، زيادة اتساع مسرح الحرب ، وتكوين الاتحادات والأحلاف ، كل هذه قد تجيء وراء بعضها البعض لتقوم بدورها على التوالي للتأثير في الحرب؛ «وأي شيء يغفله أحد الجانبين المتقاتلين بسبب ضعفه عن إدراكه أو الاحتفاظ به يكون بالنسبة للجانب الآخر غرضًا حقيقيًّا تتحدد جهوده تبعًا له ، وبذلك فإن كل تدابيره البعيدة المدى الواسعة الأهداف تتضاءل وتنتهي إلى جهود بسيطة في نطاق محدود».

وقد ناقش كلاوزيفتز مجموعة مهمة من هذه العوامل المعدلة في عدد من فصول كتابه «الكتاب الأول الفصول: الرابع والخامس والسادس والسابع» ، وتوضح هذه الدراسة اقترابه الواقعي من هذه العوامل كما يمكن أن يقدر قيمتها حتى في عصرنا هذا أيُّ فرد يكون قد ساهم في الحرب ، وهو في مناقشته هذه يعرض بالدراسة «للخطر» ، «النشاط الجسماني» «المعلومات في الحرب» وعدد آخر من العوامل غير المؤكدة والتي تتأثر بالفرص والاحتمالات والتي «تفصل التفكير عن التنفيذ»؛ ويجمل كلاوزيفيتز كل هذه العوامل أسفل عنوان واحد هو: «عدم التوافق» أو «تصادم الرغبات» وهو اصطلاح قد باتت له قيمة مهمة في معجم المصطلحات العسكرية؛ وهذا التصادم أكثر من أفراد على كل منهم أن

(١) ذات المرجع ١ ص٦ (الكتاب الأول الفصل الأول).

يؤدي الجزية للصلاحية البشرية أو للتأثر بالتجربة أو المشاعر النفسية ، وهذا التصادم ـ كما يصفه كلاوزيڤيتز ـ هو الوسيلة الوحيدة التي تمكن من التفرقة والفصل بين الحرب الحقيقية والحرب المجردة ، أو الحرب على الورق كما كان يسميها أحيانًا(*) ، فإن عددًا لا نهاية له من الحوادث الصغيرة تجعل الخطط تقصر عن إدراك أهدافها. وفي هذا المقام يقدم كلاوزيڤيتز عبارة لا يخلو أي مرجع عسكري منها وهي: «إن كل شيء بسيط في الحرب؛ ولكن أبسط الأشياء هو أصعبها وأعقدها ، إن النشاط في الحرب هو التحرك في وجه مقاومة متوسطة ، وكما أن الإنسان المغمور في الماء لا يستطيع القيام في يسر بأبسط الحركات العادية ألا وهي السير؛ فإن الفرد في الحرب لا يستطيع بالقوى العادية أن يحتفظ بقدرته على القيام بما هو عادي أو بما هو ثانوي الأهمية»[1].

على أن أهم هذه العوامل المعدلة إنما تنتج من الربط بين الحرب والسياسة؛ ومن الضروري قبل الاقتراب من المشكلة الوسطى لنظرية كلاوزيڤيتز أن تقال بعض كلمات عن «المعركة الأساسية» ، وقد يمكن ملاحظة أن العلاقة بين الوسيلة والنهاية لها مكان ممتاز في فكر كلاوزيڤتز ، وأصلح الأمثلة لهذا تبدو في تعريفه للاستراتيچية والتكتيك فيقول: «التكتيك هو نظرية استخدام القوات المسلحة في القتال ، والاستراتيچية هي نظرية استخدام القتال لأغراض الحرب»[2].

(*) راجع هامش صـ٢٩.

(١) ذات المرجع ص ٧٧– ٧٨ «الكتاب الثاني الفصل السابع».

(٢) ذات المرجع ١ ص٨٦ «الكتاب الثاني الفصل الأول».

وقد جاء كلاوزيڤيتز بهذا التعريف في دراسته المبكرة لعام ١٨٠٥[1] ، في الاعتراض على وجهة النظر التي تميز بين إدارة التحركات في مدى رؤية العدو والتي في خارج هذا المدى ، ومهما كانت القيمة الفنية للتعريف الذي جاء به كلاوزيڤتز[2] ، فإن هذا التعريف يتميز بإصراره على العامل الإنشائي وعلى العلاقة المرغمة بين الوسيلة والنهاية ، وكما يقول كلاوزيڤيتز في كتابه «في الحرب»: «حيثما توافرت الجنود يجب أن تتوافر دائمًا الفكرة للقتال»[3] ، فكل نشاط في الحرب يجب أن يرجع إلى القتال سواء أكان مباشرًا أم غير مباشر؛ «فالجندي يُجند ويُكسَى ويُسلح ويُدرب وينام ويأكل ويشرب ويسير ، وكل هذا فقط ليقاتل في الوقت والمكان المناسبين»[4].

وهذه العلاقة في الصورة التي كانت فيها تتكرر من جديد ولكن في مستوى عال ، فالقتال لم يعد في حد ذاته وسيلة ، كما أن الجنود لم يعودوا كذلك ، وما دام الجنود يُستخدمون للقتال فإن القتال يجب أن يوجه لإدراك هدف الحرب وغرضها ، هذا الغرض الذي هو تحطيم إرادة العدو؛ وتبعًا

(١) «ملاحظات على استراتيجية ڤون بيلو» وقد جاء هذا الحديث عن «أصول الحرب» وهي الدراسة التي أكمل بها كلاوزيڤتز في عام ١٨١٢ تعليماته لولي عهد بروسيا (جراهام ـ مود ٣ لحق الكتاب) ارجع إلى أحدث النسخ المنقحة بالإنجليزية والتي جاء ذكرها في التعريف بالمراجع في آخر هذا الفصل.

(٢) يعرف الكتاب المحدثون كلا الأمرين من زاوية «المسافة والوقت»؛ فمثلًا يقول فردريك موريس عن التكتيك: إنه «أساليب استخدام القوات المتصلة بالعدو» وأن الاستراتيجية هي «قيادة الجنود إلى وقت الاتصال بالعدو» الاستراتيجية الإنجليزية ص ٥١ ، بينما يقول ڤون ديرجولتز: إن الاستراتيجية هي «علم توجيه وإدارة الجيوش» «إدارة الحرب ص ٣٠» راجع «إدارة الحرب» تعريب الأميرالاي حامد نيازي طبع وزارة الحربية المصرية لعام ١٩٢٤ و ١٩٥٠ ص ١٨ «المترجم».

(٣) جراهام ـ مود ١ ص ٨٨ (الكتاب الثاني الفصل الأول).

(٤) ذات المرجع ص ٣٧ (الكتاب الأول الفصل الثاني).

لهذا كان من الضروري أن يعتبر إرغام العدو على إلقاء أسلحته عن طريق هزيمته في معركة حاسمة أبرز وسائل الحرب. ويتحدث كلاوزيفيتز في أكثر من مكان عن هذا الرأي ، فيقول على سبيل المثال: «ويبدو أن تدمير قوة العدو المسلحة يعتبر دائمًا أنه الوسيلة الأفضل والأكبر تأثيرًا والتي يجب أن تُفسِحَ كلُّ الوسائل الأخرى السبيلَ لها؛ إن الحل الدامي ـ أي الجهد الذي يبذل لتدمير قوة العدو ـ هو المولود الأول للحرب»[١].

وهنا أيضًا لم ينظر كلاوزيفيتز نظرة صحيحة بعيدة المدى إلى حقيقة لها قيمتها هي أنه على طوال مراحل التاريخ لم يوضح إلا عددًا قليلًا من الحروب هذا الارتباط القوي بين الوسيلة والنهاية ، فإن «الحرب الحقيقية» من النادر أن تصل إلى ذروة التطور في معركة أساسية واحدة ، وفي الكثير من الحروب لم يكن هناك قتال قوي إطلاقًا ، وللوصول إلى حل لهذا التضارب بين الحرب الحقيقية والحرب المعنوية فإن كلاوزيفتز يتقدم برأيه في أن فكرة «المعركة المحتملة» ـ أي «المتوقعة» ـ يمكن أن تقبل كمركز لتقابل الإشعاعات حتى في الحرب التي لا يكون لها فيها من وجود أو كيان مادي[٢]؛ وأي جيش يستطيع أن يتجنب القتال عندما يتأكد أن خصمه لن يتقدم إلى «المحكمة العليا» ـ أي أنه لن يحتكم إلى القوة المسلحة ـ ، أو أن يثق خصمه بأنه سيفقد قضيته إذا احتكم إليها.

ويمكن أن يقول الفرد بأن كلاوزيفيتز قد فكر في أن «المعركة الأساسية» هي شيء آخر مثلها مثل الأسطول الإنجليزي الذي كان في الماضي يسيطر على الحوادث حتى ولو لم يظهر فعلًا في مسرحها ، ويقدم

(١) ذات المرجع ص ٤١ - ٤٥ (الكتاب الأول الفصل الثاني).
(٢) ذات المرجع ص ٢٦٨ «الكتاب الرابع الفصل الحادي عشر».

كلاوزيفيتز نفسه شيئًا مقابلًا آخر في قوله: «إن القرار الذي يجيء بقوة الأسلحة في كل عمليات الحرب الكبيرة والصغيرة مثله مثل الإنفاق النقدي في التجارة»[١] ، وعندما قرأ آنچلز الاشتراكي الألماني هذه الجملة استهوته إلى حدٍّ بعيد وإن كان الاتفاق النقدي والمعركة قلما يحدثان فإن كل شيء يتجه نحوهما. فإذا ما حدثا فإنهما يقرران كل شيء[٢].

إن العلاقة بين الوسيلة والنهاية هي أيضًا قاعدة أساسية في إيضاحات كلاوزيفيتز السياسية للحرب؛ «إن المعارك والحروب والمعاملات السياسية تكون صورة من الكيان المجمل يسيطر فيها الكل على الجزء ، وتسيطر فيها النهاية على الوسيلة ، وفي بعض الأحيان يبدو هذا التنظيم معكوسًا ، فإن المعركة تبعًا لصورتها الحاسمة تبدو متحكمة في الغرض من الحرب؛ ويشير كلاوزيفيتز في حديثه الدراسي عن الحرب المطلقة إلى أن الهدف العسكري بتدمير قوات العدو «يحل مكان»[٣] الغرض النهائي والهدف السياسي.

وعلى أساس هذا الحديث قيل بأن كلاوزيفيتز قد حاجَّ من أجل الأفضلية والكفاية الشخصية في العسكرية ، وهذا حقيقي إلى حد ما؛ ذلك لأن كلاوزيفيتز أصرَّ على أن القائد يجب أن يكون في موقف يمكنه من أن يؤثر فيها ، ويقول: «إن الهدف السياسي ليس مشرِّعًا جامد التفكير[*] ولا

---

(١) ذات المرجع ص ٤٠ «الكتاب الأول الفصل الثاني».

(٢) ماركس آنچلز Marx – Engels, Briefwechsel – ص ٢٣٥-٢٣٦ الرسائل المتبادلة بين ماركس وآنچلز؛ راجع أيضًا دراسة المؤلف عن «الماركسية والسياسة الخارجية» في مجلة «الدولة والأحزاب الألمانية» لعام ١٩٢٢ ص ٣٢٢.

، Marxismus und Auswartige Politik in Deutscher Staat und deutsche parteien (١٩٢٢)

وقد نقلت هذه الفقرة من كتاب «العسكرية» لڤاجيتس ص ١٩٢.

(٣) جراهام ـ مود ١ ص ٢ (الكتاب الأول الفصل الأول).

(*) يكثر كلاوزيفتز من أمثال هذه الألفاظ «المحكمة العليا» قاصدًا (القوات المسلحة) ،=

ديكتاتورًا يتحكم في كل شيء ، بل إنه يجب أن ينسق ليتمشى مع طبيعة الوسائل المستخدمة ، وبالتبعية غالبًا ما يتغير بجملته ، ذلك أن الاستراتيچية من وجهة عامة ، والقائد العام من ناحية خاصة ، قد يتطلبان أن لا تتعارض الاتجاهات والأهداف السياسية مع الطبيعة الخاصة للوسائل العسكرية ، وهذا الطلب ليس بالأمر البسيط السهل بحال ما»[1].

وربما كان كلاوزيڤتز ـ عند صياغته لهذه الأقوال ـ يفكر في محترفي السياسة من رجال البلاط ، أو ربما كان يفكر في الهيئات التي كانت غالبًا ما تتدخل أيام القرن الثامن عشر في العمليات الحربية؛ ولربما كان يفكر أيضًا في الحقيقة الواضحة من أن السياسة ـ كما هي الحال بالنسبة للحرب ـ إنما تعتمد على ما هو ممكن من الناحية العسكرية؛ ولكن من المؤكد أنه كان يفكر في الطابع الحاسم الذي للقرارات العسكرية ، والتي كانت تبعًا لطبيعتها تؤثر في الرجال تأثيرًا كبيرًا من الناحية المادية ، ولا شك أن كلاوزيڤيتز قد انتهى في هذا الأمر إلى الحقيقة الأساسية التي ثبتت صحتها في أية صورة من صور الحكم ، فحتى الديمقراطيات قد واجهت وستواجه مواقف كانت المطالب العسكرية الملحة فيها تسيطر على الاعتبارات السياسية بدرجة كبيرة.

على أنه يجب أن يضاف إلى هذا بأن اتجاه فكر كلاوزيڤيتز يشير إلى التنظيم المضاد للأشياء؛ «فالحرب هي فقط جزء من الاكتمال الاجتماعي ،

=والشرع والديكتاتور .. قاصدًا (الحاكم الذي لا ترد كلمته) وغير هذا من الألفاظ التي كان هو قد استحدث زجها في الدراسات العسكرية ، وقد كان هذا بتأثير ما بات من الدراسات العلمية المدنية مكملًا لدراسة العسكرية والحرب (المترجم).

(١) ذات المرجع ١ ص ٢٣ (الكتاب الأول الفصل الأول).

وهي تختلف عن الكل فقط بسبب الوسائل الخاصة المميزة التي تستخدم فيها ، ومهما كان تأثير المطالب العسكرية في أحوال معينة على الأهداف السياسية فإنها يمكن أن تعتبر معدلة فقط لهذه الأهداف؛ ذلك لأن الأهداف السياسية هي النهاية ، والحرب هي الوسيلة ، ولا يمكن أن تحقق الوسائل أغراضها بدون الوصول إلى النهاية»[١]؛ وهذه هي وجهة النظر الأساسية التي تكشف عنها واحدة من أشهر الجمل التي في كتاب «في الحرب» والتي جاء فيها: «الحرب ليست أي شيء غير استمرار سياسة الدولة بوسائل مختلفة»[٢]. ولا يمكن أن توضح أفضلية الأهداف السياسية بأكثر من هذا.

وفي بعض الأحوال يعود كلاوزيفتز إلى هذه الفكرة[٣] في أكثر صورها نضوجًا ، وقد جاء قوله كما يلي:

«إن الحرب ليست شيئًا آخر غير استمرار المعاملات السياسية متداخلة مع وسائل أخرى ، وأقول: مشتبكة أو متداخلة مع وسائل أخرى؛ لكي أقول إن هذه المعاملات السياسية ـ في ذات الوقت ـ لا تتوقف بسبب الحرب ولا تتغير أو تتبدل؛ بل تستمر وتستمر مهما كانت الوسائل المستخدمة..

وكيف يمكن أن يكون الأمر غير هذا؟

فهل يمكن أن تتوقف العلاقات السياسية بين الشعوب والحكومات

---

(١) ذات المرجع هامش رقم ٤٨.

(٢) ذات المرجع ١ ص ٢٣. «المقدمة».

(٣) «إن الحرب ليست عملًا سياسيًّا فقط بل هي آلة سياسية حقيقية ، هي استمرار للمعاملات السياسية وإدراك لها بوسائل مختلفة»... ذات المرجع ١ ص ٢٣.

، وسيلة تختلف في اللغة والكتابة؟

أليست الحرب وسيلة أخرى للتعبير عن آراء الشعوب والحكومات ، وسيلة تختلف في اللغة والكتابة؟

«إن للحرب قواعدها الخاصة ولكن ليس لها منطقها الخاص»[(١)].

ولقد قيل مع الأسف[(٢)]: إن كلاوزيفيتز عندما استغرق في التفكير لبحث كيف يمكن كسب الحرب ، لم يستغرق في التفكير لبحث كيف يمكن كسب السلم ، فإنه لم يتدخل في ميدان السياسة على أساس أنها ـ من وجهة نظره ـ عمل من أعمال الحكومات ، ولكنه عندما عرف الحرب على أنها استمرار للمعاملات السياسية متداخلة مع وسائل أخرى فإنه قد زاد من تأكيد الحقيقة القائلة بأنه ليس هناك تعطل أو توقف أو ضياع للقوة السياسية؛ ولابد أنه ما كان ليوافق على الرأي الذي انتشر في ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية بأنه على السياسة أن تنتظر النتائج التي تسفر عنها العمليات الحربية ، ففي رأي كلاوزيفيتز أنه لا وجود للشيء الذي يقال له «الانعزال السياسي» ، ولهذه الفكرة أهميتها في نظرية الحرب نفسها؛ فإنها تمكن من التنسيق بين الحرب المطلقة والحرب الحقيقية ، وسياسة الدولة أولًا

(١) ذات المرجع ٣ ص ١٢١ «الكتاب الثامن الفصل ٦ ب» ، ويمكن ملاحظة أن كلاوزيفيتز لم يتكلم عن الحرب كأنها امتداد للسياسة كما يرى بيردسال في وصفه للطابع العسكري للسياسة مقتطعًا من كتابات كلاوزيفيتز على ما جاء في كتابه «بعد عشرين سنة من فرسايل ص ١١٦» ، ولا يكون ضد وجهة نظر كلاوزيفتز أن نقول بأن الحرب «كوسيلة ممكنة» تؤثر في كل النظام السياسي كما تؤثر المعركة في الحرب ، ولكن الواقع أن تفكيره الأساسي واضح في رأيه بتبعية الحرب لسياسة الدولة.

(٢) Liddell Hart, The Ghost of Napoleon P ١٢١; A. Vagts, Militarism, P. ١٩٦; H. Nickerson, The Armed Horde, p. ١٤٣.

هي الرحم الذي تتطور داخله الحرب لاستكمال نموها[١]؛ ولهذا فإن السياسة تضع الخطوط الأساسية التي تسير فيها الحرب؛ وحتى يتوافر التنظيم الصحيح للأشياء فإن السياسة لا تتطلب أيَّ شيء ضد طبيعة الحرب.

والواقع أنه من السخف أن نتقبل أن القادة يمكن أن يضعوا التخطيط العام لخطة العمليات في الذاكرة دون أن يتحقق لها وجود مادي ، «على أن الأكثر سخفًا أن يطلب النظريُّون وضع كل الوسائل الممكنة للحرب أمام القائد حتى يستطيع بدوره أن يضع خطة عسكرية»[٢]؛ فمن الواضح أنه ليست هناك خطة عسكرية الطابع فقط ، فإن كل حرب إنما هي تطور فردي للحوادث ، فإذا كان الإجهاد السياسي قوي الطابع جدًّا ، «وإذا أمكن الوصول إلى وسائل مادية كافية» فإن الهدف السياسي قد يختفي وراء الهدف العسكري بنزع سلاح العدو ، أو أن يجيء تابعًا له؛ وفي مثل هذه الحال فإن «الحرب الحقيقية» تقترب من «الحرب المطلقة»؛ وقد كان كلاوزيڤيتز مقتنعًا ـ كما أشير من قبل ـ بأن هذا اللون من الحرب سيعود إلى الظهور المرة بعد الأخرى في عصر انتشار الروح القومية ، «وكلما عظمت وقويت دوافع الحرب كلما زاد أيضًا عنف الجهد الذي يسبقها ، وكلما زاد تأثيرها في وجود وكيان الأمم التي يعنيها الأمر؛ وبهذا فكلما اقتربت الحرب من صورتها المجردة كلما زاد ظهور الطابع العسكري لها وقل ظهور الطابع

---

(١) جراهام ـ مود ١ ص ١٢١ (الكتاب الثاني الفصل الثالث).

(٢) ذات المرجع ٣ ص ١٢٦ (الكتاب الثامن الفصل الثامن ب) ، وقد طبق كلاوزيڤتز نفسه هذا المبدأ عندما طلب منه أحد ضباط هيئة أركان الحرب البروسية أن يذكر رأيه في مسألة ما (خطابان في الاستراتيجية لكلاوزيڤتز) بقلم هانز روسفلز ١٩٢٣.

السياسي»[١].

والواجب الأساسي للنظرية هو أن تؤكد هذا الاتجاه الأساسي للحرب ، والذي هو «القياس الطبيعي لكل الآمال والمخاوف» ، ولكن على النظرية أيضًا أن تضع موضع التقدير أنه كلما قل الجذب والدفع كلما باتت الحرب سياسية بدرجة أكبر؛ إن مداها يمتد في كل درجات الأهمية والنشاط ، من تدمير قوة العدو في جانب إلى مجرد القتال التعرضي في جانب آخر ، إن الحرب في الواقع لهي أشبه بالحرباء؛ لأنها تغير لونها وطبيعتها تبعًا لكل حال»[٢].

وفي ضوء هذا الإيضاح المرن قام كلاوزيڤيتز بدراسته لكل التاريخ العسكري[٣] ، فلا يمكن أن تُعزل حادثة واحدة عن كل الأحوال الاجتماعية / السياسية التي سبقتها ، ولا أن تُفصل عن كل جو الإجهاد الذي أحاط بها ، فعندما غزت الدولة الملكية فرنسا في عام ١٧٩٢ ، وعندما وقفت المبادئ يتصارع بعضها أمام بعض كان تراشق المدفعيات في ڤالمي حاسمًا بدرجة أكبر مما كانت أية معركة دامية من معارك حرب السبع السنوات [٤].

وكان كلاوزيڤيتز يعني على التخصيص بالمشكلات الناشئة عن «حروب الأحلاف» حروب الدول التي وقفت ضد فرنسا ، ويشير إلى أن

---

(١) ذات المرجع ١ ص ٢٣ (الكتاب الأول الفصل الأول).
(٢) ذات المرجع ١ ص ٢٥ (الكتاب الأول الفصل الأول).
(٣) درس كلاوزيڤيتز قرابة المائة والثلاثين حملة حربية على ما يتضح من كتاباته التاريخية (المجموعة ٤-١٠) ومما لم ينشر من كتاباته ، وقد قدم موجزًا جيدًا في كتابه «في الحرب» الكتاب الثامن الفصل الثالث ب.
(٤) جراهام ـ مود ١ ص ٢٢٣ (الكتاب الثالث الفصل الثامن عشر).

أي دولة تشتبك في حرب ضد حلفاء من عدة دول فإنها تواجه مشكلة تقرير من هي الدولة الأقوى ومن هي الدولة الأضعف في هذا الحلف والتي يجب تدميرها أولًا ، ويشير أيضًا إلى أنه مهما كان القرار الخاص بهذا فإن الدولة يجب أن تعتبر الرابطة التي تربط حلف الدول المعادية كغرض عسكري قانوني ، وقد تُعدل بعضُ الحوادث من الهدف الأولي بتدمير جيش العدو؛ على أنه لما كان غزو الأرض مثلًا يعتبر في حد ذاته سلاحًا قويًا تبعًا لأنه يدمر قدرة العدو على إعادة بناء جيشه فإن فقدان العدو للأرض مع الهزيمة العسكرية التي تلحق به سيكون مؤثرًا في تدمير وإضعاف عزيمة العدو؛ ولهذا فإن استهداف نزع سلاح العدو قد يستبدل بنزع السلاح «المعنوي» الذي يحدث «عندما يتحقق العدو من أن النصر غير محقق أو أنه غالي الثمن».

ولهذا فإن المشكلة الأساسية التي تواجه رجل الاستراتيجية إنما هي مشكلة «مركز الثقل» ، هذا المركز الذي يجب أن توجه إليه قوة الدفع العسكرية ، والذي يتغير موقعه تبعًا لتغير الحوادث.. وفي أغلب الأحوال يكون هذا المركز هو قوات العدو المسلحة ، وقد كان هذا صحيحًا ليس فقط في حروب نابليون بل وفي حروب الإسكندر وجوستاف أدولف وشارل الثاني وفردريك الأكبر؛ على أن مركز الثقل هذا قد يكون عاصمة البلاد بدلًا من قواتها المسلحة ، وهذا إذا ما تقسمت الأرض نتيجة للتمزق المدني ، وفي حروب الأحلاف التي واجهت فرنسا كان هذا المركز في جيش أقوى الحلفاء الذين وقفوا ضد فرنسا ، أو كان في جملة المصالح التي ربطت بين هؤلاء الحلفاء.

وفي الحروب الأهلية يكون «الرأي العام» هو مركز الثقل الأكثر أهمية ، وبذلك فإنه يكون غرضًا عسكريًّا مهمًّا[1] ، وبتقدير هذه النقطة الأخيرة يبدو أن كلاوزيڤيتز قد أنعش نظرية القرن الثامن عشر عن الحرب غير الدامية ، ومع هذا فقد يكون من الأكثر دقة أن نقول بأنه يلمس أحدث نظرية عن الحرب النفسية ، الحرب التي تسبق أو أن تصحب أو حتى أن تحل مكان القتال الفعلي.

***

(١) الكتاب الأول الفصل الثاني ، الكتاب الثامن الفصل الرابع.

[٦]

ولكن ألا يسبب هذا التحليل المرن للحرب إضاعة الخطوط الواضحة للدراسة وسط ظلال الفكر؟ وهل لا يسبب أيضًا ارتباك واضطراب ذاك الذي يحاول دراسة كلاوزيفيتز بدلًا من أن يمهد له الطريق وينير له السبيل؟

والواقع أننا في إجابتنا على هذا السؤال بشقيه يجب أن نقدم نقطتين لهما أثرهما في هذه الدراسة:

أولاهما: وجوب تجنب النظرية العامة المقيدة ، النظرية التي تجعل تحليلات كلاوزيڤيتز للحرب غير معينة الزمن ، بل وتجعل لها أهمية حتى في هذا العصر الذي نعيش فيه؛ وإن كانت هي أصلًا تتطلب المهارة في تقدير حلول المشكلات ، تتطلب دقة التقدير والحكم العامل المميز لمقدرة السياسيين والقادة ، وليس هذا بالأمر الميسور؛ «فلا يستطيع غير ذاك الذي اعتاد تقدير ما في الحلول الممكنة من قيم أن يندفع اندفاع السباح الماهر للانغمار في مياه المجرى المائي»[1].

ثم إن هذا الاكتمال للإمكانيات ليس بالاضطراب غير المنظم؛ فإن دعامته هي طبيعة الأشياء ، وفكرته المنظمة هي الحرب المطلقة في وجودها الموروث ، ويقول كلاوزيڤيتز: «لا يمكن أن نجد خطأً في عمل القائد الذي يستخدم بمهارة أساليب حذرة تضمن أن الأصول التي يعمل على أساسها مقدرة تمامًا وبعناية[2] ، ولكنه يجب أن يحذر حقيقة لها قيمتها وهي: أنه

(١) جراهام ـ مود ١ ص ٢١ (الكتاب الأول الفصل الأول).
(٢) ذات المرجع ١ ص ٤٥ (الكتاب الأول الفصل الثاني).

«وهو يفعل هذا يكون مثله مثل من يسير في طرقات جانبية حيث يحتمل أن يفاجئه آلة الحرب»؛ فإن تدمير قوات العدو ليست قانونًا مرغمًا واجب التنفيذ بل كما أشير من قبل يعتبر نقطة عامة للتوجيه ، فإذا ما وصل القائد إلى هذه الحقيقة وجب عليه أن يدرك بأن «أحسن استراتيچية هي أن يكون قويًا جدًا من ناحية عامة أولًا ، ثم أن يكون كذلك على التخصيص في النقطة الحاسمة»[1]؛ وهذه الجملة تقدم الفرق بين العمل الحاسم والعمل الثانوي ، وفي هذه النقطة الحاسمة يجب أن يوجد كل جندي يمكن أن يعده للمعركة.

وقد حاول كلاوزيڤيتز بعدة وسائل متباينة أن يجعل «طريقته المفتوحة» هذه أكثر نفعًا للدراسة ، وفي مذكرته لعام ١٨٢٧ يتحدث عن اعتزامه مراجعة كتابه «في الحرب» على أساس اتجاهين معينين[2]؛ فقد أراد أولًا أن يميز بين «نوعي الحرب» ، أحدهما الذي يكون القصد منه تدمير قوات العدو ، وثانيهما الذي يكون الغرض منه فقط القيام ببعض الغزوات على حدود مملكة للاستيلاء عليها دائمًا أو لتكون موضع التبادل في اتفاقية السلم؛ وقد رغب كلاوزيڤيتز في الأمر الثاني أن يؤكد الحقيقة القائلة بأن الحرب هي استمرار للسياسة وقد قصد بهذه النقطة من وجهة النظر أن يقدم وحدة وارتباطًا أكثر لكل نظرية الحرب ، وقد فكر كلاوزيڤيتز في أن هذه المراجعة تزيل الكثير من التعقيدات من رؤوس السياسيين والاستراتيچيين.

والواقع أن كلاوزيڤيتز قد راجع أجزاء من عمله الأساسي على أساس

(١) ذات المرجع ص ٢٠٧ (الكتاب الثالث الفصل الحادي عشر).
(٢) ذات المرجع ص ٢٣- ٢٤ المقدمة.

هذين الاتجاهين[١] ، وفي الكتاب الثامن الذي يناقش فيه كلاوزيفيتز «خطة الحرب» ، فإنه يميز بين «نوعي الحرب»؛ الحرب لتدمير قوات العدو أو الحرب المحددة ، ويشير إلى أن العملية الاستراتيجية يكون لها معنى مختلف عندما تطبق في الحالة الأولى عما يكون لها من معنى عندما تطبق في الحالة الثانية؛ ففي الحالة الأولى تكون للنتائج النهائية قيمتها ، وفي الحالة الثانية قد تتراكم النتائج الجزئية ويكون الاعتماد على عامل الوقت حتى تضعف إرادة العدو؛ وفي الحال الأولى يكون غزو الأرض عديم الفائدة ما لم تدمر قوات العدو تمامًا ، وفي الحال الثانية قد يغير من كفتي الميزان تملك أي قطعة من الأرض..

ولم يكن القصد من هذا التمييز أو من إيضاح هذا التباين أن يكون الأمر تاريخيًّا كما أريد به ، فإن كلاوزيفيتز لم يهدف إلى أن يقارن بين الحرب في «نظام الحكم القديم» وبين الحرب في القرن التاسع عشر ، ففي الأولى كانت «استراتيجية الاحتكاك» وفي الثانية كانت «استراتيجية التدمير والافناء»[٢] وإن كان كلاوزيفيتز لم يستخدم هذه المصطلحات كما أن

(١) راجع كلاوزيفيتز الكتاب الثامن وبعض أجزاء على الأقل من الكتاب الأول (ربما الفصول الأول والثاني والثالث) وعلى التحقيق الفصل الثاني من الكتاب الثاني ، وفي آخر أحاديث لعام ١٨٣٠ اعتبر الفصل الأول من الكتاب الأول على أنه هو الجزء الكامل ، وإلى غاية ما يمكن فإننا نشير في هذه الدراسة إلى الأجزاء التي روجعت.

(٢) اقترحت هذه المصطلحات أساسيًّا بوساطة هنتز ديلبروك في عدة دراسات وأخيرًا في كتابه «تاريخ فن الحرب» المجلد الرابع ، وقد نشأ صراع عنيف طويل حول استراتيجية فردريك الأكبر ، وأحدث عرض إنشائي قدمه هنتز هو «ديلبروك ـ كلاوزيفيتز واستراتيجية فردريك الأكبر» راجع أيضًا من أجل مقاصد وأهداف كلاوزيفيتز مقال هـ. روسينسكي في «المجلة التاريخية» المجلد الحادي والخمسين ٢٨٥-٢٩٣. انظر:

Hans Delbruck. Geschichte der kriegskunst.

O. Hintze, Delbruck, Clausewitz und die Strategie Friedtichs des Grossen.

H. Rosinski, Historische Zeitschrift.

دراسته الفردية للأحوال التاريخية لا تتمشى مع أي بحث مزدوج المبادئ والقوى من هذا النوع[1]؛ لقد كانت الحرب المحددة ، وستحدث ثانية من

(١) يرجع التباين والاختلاف إلى ما أسماه كلاوزيڤيتز (القانون الفلسفي / الديناميكي) أي القانون الذي يربط بين المظهر الرائع للنجاح.. وبين تأكيد الوصول إليه «جراهام ـ مود ١ ص ٣٤ ـ الكتاب الأول الفصل الأول»؛ ومن الناحية التوضيحية فإن هذا القانون أكثر صلاحية للتطبيق في (الدفاع) و(الهجوم) وعدد من العمليات الاستراتيجية والتكتيكية ، ويقرر كلاوزيڤيتز أن الانتصار أيسر وأسهل في العمليات المجاورة للحدود ، ولكن تلك التي تكسب بعد عملية اختراق بعمق تكون حاسمة بدرجة أكبر ، أما العمليات التي على «الخطوط الخارجية» فإنها تكون أكثر أمنًا «ذات المرجع ٢ ص ١٥٢ ، الكتاب السادس الفصل الرابع»؛ وكقاعدة عامة فإن عمليات الهجوم على (الجنب) أو على «الساقة» (المؤخرة) لها تأثيرها الكبير على العوامل المؤدية إلى (القرار) النصر أكثر من تأثيرها على (القرار نفسه) ذات المرجع ١ ص ٢٦١ الكتاب الرابع الفصل الثامن؛ وكان كلاوزيڤيتز كچوميني يميل إلى تفضيل العمليات على الخطوط الداخلية مع القيام بالاختراق التكتيكي ، كما أن التقدم على الخطوط المنفصلة المتعرجة يوفر نجاحًا أكثر وإن كان خطرًا بدرجة كبيرة «فإذا كان من الضروري القيام بهذا تبعًا لموقف القوات المتضادة كان هذا ضرورة لها مساوئها وشرورها» (ذات المرجع ٣ ص ١٤٦ ـ الكتاب الثامن الفصل التاسع» ، وقد وضح لكلاوزيڤيتز أن «القيام بالسير المنفصل على أن يحدث القتال في تجمع ووحدة واحدة عملية مليئة بالخطورة» «المجموعة ٦ص ٣٠٠» ، وفي هذه وغيرها كانت آراء كلاوزيڤيتز تعتبر غير صالحة للوقت الحاضر العصر الذي نعيش فيه وذلك تبعًا للتطورات الفنية التي حدثت منذ عصر كلاوزيڤيتز حتى اليوم؛ وتوجد دراسات عملية جيدة ولهذا فإن مؤلف هذه الدراسة التي نقدمها في هذه الصفحات «هانز روسفلز» يوجه كل ملاحظاته عن قصد إلى هذه العوامل الصالحة من نظرية كلاوزيڤيتز دون غيرها والتي هي بلا شك توضح مدى مساهمة كلاوزيڤيتز في تطور الفكر العسكري.

جاء هذا الحديث كله في الأصل في هامش دراسة روسفلز لكلاوزيڤيتز وكان أحق به متن الدراسة نفسه ، على أن هذا الحديث يوضح وجهة نظر كلاوزيڤيتز في الكثير من صور العمليات ولهذا فله أهميته التي تتطلب الدراسة العميقة ، وقد يكون من الصعب في الواقع دراسة آراء كلاوزيڤيتز في كتابه «في الحرب» إلا لمن يجيد الألمانية ، أو من يتوافر له الصبر في دراسة الترجمة الإنجليزية لصعوبة وجمود الأسلوب الذي كتبت به ، أما من شاء دراسة مقارنة لآراء كلاوزيڤيتز في ضوء تجارب العصر حتى فجر القرن العشرين=

جديد في حالتين اثنتين: أولاهما: عندما يكون الجذب السياسي أو أن تكون الأهداف السياسية صغيرة ، وثانيتهما: عندما تكون الوسائل العسكرية لها الطابع الذي يجعل تدمير قوات العدو غير مستطاع إطلاقًا أو أن يكون الاقتراب مستطاعًا فقط بطريقة مباشرة.

ومع وجهات النظر هذه فإن كلاوزيفيتز قد لامس على الأقل هذا النقاش بما بدأت به هذه الدراسة التي نحاولها في هذه الصفحات؛ فإن نظريته لم تخرج عن مجالها ، أي لم تستبعد من بحثها التقاليد المميزة الخاصة بالدول التي لا تتوافر لها حشود قومية ، ولم تستبعد كذلك الوسائل والأساليب التي تتوافر للقوى البحرية الكبيرة التي تعيش على المحيطات ، فإن القوات الصغيرة والحرب الاقتصادية لا يمكنان من تدمير قوات العدو في المعنى العسكري الكامل لهذه الكلمات؛ ومع هذا يبقى الرأي الثاني لكلاوزيفيتز ، الرأي القائل بحدوث الحرب كاستكمال للسياسة والذي يقصد به تقديم «وحدة أكبر» لموضوع البحث؛ وفي الفصل الأول من كتابه «في الحرب» ـ الفصل الوحيد الذي اعتبره كاملًا ـ عاد كلاوزيفيتز فجمع نوعي الحرب في تطور تدريجي واحد ، وقد جاء هذا في الجملة الحاسمة التي ذكرتها من قبل والتي جاء فيها: «كلما قويت وعظمت دوافع الحرب كلما كانت الحرب أقرب إلى صورتها المجردة».

ويبدو لكاتب هذه الدراسة أن هذه الفكرة تنطبق تمامًا على الكثير من المنازعات العسكرية في الماضي القريب؛ فقد بقي نوعا الحرب منفصلين

=فمن الممكن أن يصل إلى هذا من دراسة كتاب (فن إدارة الحرب) للجنرال كولمار فرايهرڤون درجولتز تعريب الأميرالاي حامد نيازي إصدار وزارة الحربية المصرية الطبعة الثانية عام ١٩٥٠ (المترجم).

متباعدين ، والمسألة هي ما إذا كانت الأساليب العسكرية أو السياسية الواجب تأكيدها قد زج بها في الجدل والنقاش اللذين دارا حول الاستراتيچية الشرقية والغربية واللذين قسما الرأي العام في ألمانيا وانجلترا أثناء الحرب العالمية الأولى ، وإذا كانت هذه المناقشة العنيفة التي دارت حول ما إذا كان تدمير قوات العدو ، أو كانت مسألة مجرد الاحتكاك به قد استهدفا في هذا الصراع العالمي إذ ذاك ، قد قللت إلى أبسط صورها ، فلا شك أن هذا الامتداد للحرب الحديثة وهذا الضغط الكبير للمبادئ المتضادة قد جعلا هذا الربط بين نوعي الحرب «يصل إلى أقصى مداه»؛ وسواء أكان الرأي الأصلح هو القيام بالعمل غير المباشر مع جمع الانتصارات الجزئية بعضها مع بعض ، أم كان الأصلح هو الاعتماد على عامل الوقت والقيام بمجرد الاحتكاك بالعدو ، فإن مرجع هذا ومرده إلى المهارة في العمل الأمر الذي لا يؤثر في الهدف الأساسي؛ «ومجرد الاحتكاك في حال ما ، قد يحمل «التدمير والإفناء» في حال أخرى إذا لم نذكر شيئًا عن الأسلحة والحصار والعمل ضد الحصار»؛ وقد يمكن أن تطبق ذات وجهة النظر هذه على المناقشات التي دارت في تاريخ قريب حول عدة موضوعات حول الجيش الصغير الذي يتوافر له الإعداد الميكانيكي إلى حد بعيد ، والجيش الكبير الحشد الوافر العدد؛ حول الحرب الجوية؛ حول المبدأ القاري (نسبة إلى قارة أوروبا) للقتال حتى النهاية؛ ولهذا فإنه في ضوء الطابع الحاسم الذي للحرب الحالية «يقصد الحرب العالمية الثانية» فإن الاتجاه يبدي أنها حرب توافرت لها الوسائل العسكرية وإن لم تتوافر لها «النهاية العسكرية» ، ويبدو أنه لم يعد إلا القليل من الأمل للطابع الذي جاء به القرن الثامن عشر طابع القتال لأقل ما يمكن من الوقت!

وتعود المشكلة الحرجة الحاسمة من جديد متصلة بناحية من نواحي التباين التي أثارها كلاوزيڤيتز ألا وهي ناحية حديثة عن «الدفاع» و«الهجوم»؛وهذه في الواقع ناحية سياسية استراتيجية تكتيكية ، ولكن كلاوزيڤيتز ينسجها كلها معًا في تحليلاته لطبيعة الحرب ويعطيها اتجاهًا جديدًا؛ على أن نظرته إليها تختلف عن وجهة النظر التي كان من المتوقع أن تكون وجهة نظر «الأسقف الأكبر المبشر بصناعة الحرب النابوليونية» وذلك لشيء واحد هو أنه قد قدر قيمة كبيرة للدفاع ، وهي حقيقة يعتبرها الكثيرون من الكتاب العسكريين للقرن التاسع عشر كنقطة سوداء في فكر كلاوزيڤيتز.

أليس المهاجم هو الذي يسيطر دائمًا على قانون العمل؟ أليس هو الذي يتمتع بكل النفع الذي لقوة المبادأة؟ فكيف يمكن أن يتنكر كلاوزيڤيتز في صورة أخاذة بكل هذه الفوائد والمنافع التي تجيء مؤكدة الأفضلية المعنوية التي للهجوم؟[1].

كان من الواضح أن لعامل المفاجأة أهمية وعلى الأخص في العمليات التكتيكية ، ولم ينكر كلاوزيڤيتز هذا على ما يتضح من كتاباته وإن كان قد رأى بأن هذه الأهمية تقل في الأعمال الاستراتيجية؛ ومع أنه من الواضح أنه بينما يكون «المهاجم» هو الذي يستطيع القيام بالتحرك الأول ، فإن فائدة «اليد الأخيرة» تكون في جانب المدافع ، فإن كلاوزيڤيتز يبقى مصرًّا على أن الدفاع هو أول صور الحرب ، وينطلق كلاوزيڤيتز هنا ليقدم حديثًا أخاذًا يمكن أن يعتبر حديثًا عامًّا مع ما فيه من إشارة لنابليون من أن المعتدي

(١) جراهام ـ مود ٣ ص ٣١ «الكتاب السابع الفصل الخامس عشر».

«السياسي» يكون دائمًا محبًّا للسلام[١].

وتقوم نظرية كلاوزيفيتز إلى حد بعيد على إثبات أن الدولة الضعيفة تتوافر لها على الأقل فرصة مقاومة عدو قوي ، وهي تستطيع هذا بسبب أن الدفاع هو «أقوى صور الحرب» ، ولم يستطع كلاوزيفيتز بل ولم يكن ليستطيع أن يقدر إلى أي حد ستعاون نظرياته في العمليات التكتيكية بهذا التطور في الأسلحة السريعة النيران ، وتشير النقاط التي يقدمها والتي يراها في جانب الدفاع ، تشير على التكتيك كما تشير على الاستراتيجية والسياسة ، فإن الدفاع يتمتع بتشجيع سياسي ونفع معنوي وكل هذا مستمد من دفاعه عن وطنه ، وهو يتمتع أيضًا بالفوائد التي تكتسب من مسرح الحرب: من القلاع ، من المواقع ، من استخدام الأرض؛ كما ينتفع كذلك من عامل الوقت ومن الحوادث غير المتوقعة ، وينتفع أيضًا من إجهاد العدو ، من نقص الرماة المهرة بين جنوده ، وغير هذا من العوامل؛ وفي إيجاز يمكن القول بأن الدفاع هو الصورة الأقوى بسبب طبيعته الخاصة ، وهنا يقول كلاوزيفيتز: «إن الاحتفاظ بالشيء أسهل من تطلبه»[٢] ، وهي جملة تبدو لها أهميتها على التخصيص في ضوء تجارب عام ١٩٤٢ ، ويقول كلاوزيفيتز أيضًا عن كل شيء لا يحدث يكون في جانب المدافع ولمصلحته ، ذلك لأن المدافع: «إنما يحصد ما لم يزرع»[٣].

على أن منافع الدفاع يمكن أن تعادل تعادلًا مضادًّا تبعًا لعلاقة منطقية «تجمع بين الدفاع والهجوم» ، فالدفاع هو الصورة الأقوى فقط يكون

---

(١) ذات المرجع ٢ ص ١٥٥ (الكتاب السادس الفصل الخامس).

(٢) ذات المرجع ص ١٢٤ (الكتاب السادس الفصل الأول).

(٣) ذات المرجع ٣ ص ٣ (الكتاب السابع الفصل الثاني).

الغرض منه سلبيًّا ، والهجوم هو الصورة الأضعف إلا أن الغرض منه إيجابيًّا ، وفي تعقبنا لهذا الغرض الإيجابي فإن المهاجم هو الذي يجب أن يصل إلى قرار ، فإذا كان الغرض عظيمًا وجب على المهاجم أن يكافح للحصول على قرار في أسلوب الحرب المطلقة ، وفي نطاق الهجوم نفسه فإن العمل الدفاعي يعتبر «ثقلًا معطلًا» بل في الحقيقة «خطيئة قاتلة» إذ أنه من الضروري أن يشتمل الدفاع على وجوب التحول إلى العمل الهجومي[١]؛ إن الدفاع المطلق يتعارض مع طبيعة الحرب ، ويمكن أن نستعير جملة مشهورة جاء بها العصر الذي نعيش فيه: هي أن الحروب لا تكسب بوساطة «عمليات تقهقر وانسحاب ناجحة»؛ ولهذا فإن كلاوزيفيتز قد انتهى بأن اختتم حديثه بقوله: «إن الهجوم السريع العنيف مثله مثل بريق السيف المصقول ، وبهذا فهو ألمع نقطة في العملية الدفاعية»[٢].

على أن العلاقة المنطقية بين الهجوم والدفاع إنما تتركز في واحدة من فكر كلاوزيفيتز التعليمية هي الفكرة أو النظرية التي أسماها «نقطة أكبر تطور»[٣]؛ فإذا أخفق الهجوم الاستراتيجي في الوصول إلى قرار فإن الاندفاع الأمامي يتأثر بالإجهاد الذي يناله؛ على أن بعض الموارد المادية والمعنوية للمهاجم تزداد مع تقدمه ، ولكن من ناحية عامة ولأسباب كثيرة يحدث أن تضعف قوى المهاجم ، وفي ضوء التصوير الواضح الذي تقدمه الحربان العالميتان: الأولى والثانية ، فقد لا تكون من ضرورة ملحة لتعدد العوامل المختلفة «التي تلقي عبئًا جديدًا على الجيش المتقدمة في كل خطوة

(١) ذات المرجع ٣ ص ٣ (الكتاب السابع الفصل الثاني).
(٢) ذات المرجع ٢ ص ١٥٤-١٥٥ (الكتاب السادس الفصل الخامس).
(٣) كل ما جاء بعد هذا إنما يرجع إلى نصوص الكتاب الثامن الفصل الخامس ولحق الكتاب.

من تقدمه»؛ وكما كتب كلاوزيفيتز فإنه كان بلا شك يفكر أساسيًّا في تجارب حملة عام ١٨١٢ ، ولكن دراسته كانت تهدف إلى المشكلة الأساسية «فوراء نقطة أكبر تطور تنقلب كفتا النيران ، وعنف الحركة المضادة هو عادة أعظم من حركة الاندفاع الأمامي» ، والفكرة في هذا ، أنه يتوافر هنا الاختبار الصحيح للقيادة ، وكما أشار كلاوزيفيتز فإن كل شيء« يتوقف على اكتشاف وإدراك الوصول إلى هذه النقطة ـ نقطة أكبر تطور ـ تبعًا لدقة ومهارة التقدير والحكم»؛ ومع استمرار حركة التقدم فإن المهاجم «يتقدم بتأثير الدفع إلى ما وراء خط التوازن» ويكون مثله مثل الجواد الذي يجر ثقلًا صاعدًا جبلًا فإنه قد يجد الصعود والتقدم أقل صعوبة من التوقف ، وقد يقدر المهاجم أمره على أساس انهيار إرادة العدو في اللحظة التي يندفع فيها هذا العدو «في غضبة الثور الجريح».

ومما لا شك فيه أنه كان يتوافر في كلاوزيفيتز ميل صناعي إلى القائد الذي يحاول إدراك غرضه باستخدام «أقل ما يمكن من العدد» ، ومع هذا فإنه إذا فقد قائد مستقبله اللامع بسبب الإفراط في الحذر فقد يهوى قائد آخر في الدمار والفناء بسبب طيشه وتهوره؛ إن الاستهلاك بلا نفع استهلاك مدمر «وكل شيء في الغالب يتعلق بخيوط رفيعة مرجعها إلى الخيال والتصور».

وهنا يجب أن يثبت المدافع قدرته على القيادة بالإمساك بالفرصة التي تجيء بسرعة ، فإذا أرغم المهاجم بعد التقدم الطويل على العودة للدفاع فإنه يفتقر إلى الكثير من فوائد «الصورة الأقوى» ذلك لأن العوامل المعنوية والسيكولوجية تكون ضده ، ومع هذا فإنه لا يزال يمسك بفائدة من فوائد الدفاع هي قدرته على العمل؛ وهنا يظهر النوع الثاني من الحرب ، يظهر من

جديد، فبينما لا يكون من الممكن له الوصول إلى تدمير قوات العدو تبقى له فرصة إظهار عدم قدرة العدو نفسه على تحقيق أهدافه..

لقد كانت هذه هي المشكلة التي واجهت فردريك ولكنه استطاع أن يحلها في المرحلة الثانية من حرب السبع السنوات؛ وقد لا يكون من الصعب إيضاح أن هذه المشكلة حدثت في صورة أخاذة في الحربين العالميتين..

والواقع أن نظرية كلاوزيڤيتز عن «نقطة أكبر تطور» تلقي الكثير من الضوء على أغلب الحوادث الأخيرة.

وهنا تبرز مسألة تستحق التقدير، ففي مناقشة كلاوزيڤيتز «لنقطة أقصى تطور» ـ كما في كل كتاباته الأخرى ـ تبدو القيمة الكبيرة للعوامل المعنوية والسيكولوچية واضحة لامعة في كل مساهمته للفكر العسكري؛ وفي كتاب «في الحرب» وقف كلاوزيڤيتز عددًا من الفصول لأجل هذا الموضوع هي:

الكتاب الأول ـ الفصل الثالث.

الكتاب الثاني ـ الفصل الثالث.

الكتاب الثالث ـ الفصول: الثالث والرابع والخامس والسادس والسابع والثامن.

وقد حلل كلاوزيڤيتز بعناية الخواص التي يجب أن تتوافر للقائد العام من جهة وللقائد العادي من جهة أخرى، ومن الجلي الواضح أنه يضع في المرتبة العليا الربط التنسيقي بين الخواص التي تقتطع من مشاعر الفرد كالجرأة أو الإقدام وما إليها من الدوافع ذات الطابع العسكري؛ والخواص

التي تجيء من عمل الفرد دون أي تأثير لعاطفته ومشاعره والتي لها طابع ثابت رصين ، وأبرز كلاوزيڤيتز في تعاليمه لولي عهد بروسيا أهمية «القرارات التي تقوم على الأسباب»[١] ، وكما يقول في كتابه «في الحرب» : «ومن الواجب أن تفضل ترك أمر رفاهية إخواننا وأطفالنا في وقت الحرب»[٢] «للرؤوس الهادئة لا للرؤوس الثائرة المضطربة»؛ أو على ما يقول ثانية في مكان آخر ، إن العقل القوي ليس هو العقل القادر فقط على إنتاج الانفعالات القوية ، بل هو العقل الذي يستطيع الإبقاء على التوازن في غمرة الانفعالات القوية ، وبذلك فإنه برغم الثورة العاصفة التي تملأ الصدر ، وبرغم الإدراك الحسي ودوافع الحكم فإن العقل يمكنه أن يعمل في تحرر كامل كما يمكن أن تعمل الإبرة المغنطيسية وسط «البوصلة» التي تعلو ظهر سفينة تعبر البحر المتلاطم الأمواج[٣] ، إن قوة الخلق هي أصلح ما يمكن من التغلب على دوافع المقاومة الطبيعية ، وعلى الشكوك والمخاوف وما إليها من الانفعالات المؤثرة.

إن الفضيلة العسكرية لأي جيش تتطلب ما هو أكثر من الشجاعة؛ فليست «السجية أو الطبع» بالنسبة للأفراد هي التي تقاس وتقدر ، بل «الروح» للجيش هي التي يجب أن توضع موضع التقدير[٤] ، ومن المؤكد أيضًا أنه ليس العدو هو الأمر الأهم بالنسبة للجيوش.

ومع أن كلاوزيڤيتز يتحدث ملحًا عن الأفضلية العددية «من وجهة

(١) جراهام ـ مود ٣ ص ١٨٣.
(٢) ذات المرجع ١ ص ٧١ الكتاب الأول الفصل الثالث.
(٣) ذات المرجع ١ ص ٦٠.
(٤) ذات المرجع ١ ص ١٨٥ (الكتاب الثالث ـ الفصل الخامس).

عامة أولًا ثم في النقطة الحاسمة» فإنه يقاتل بوضوح «ضد الإدراك الحسي الخاطئ لهذه النظرية» في تقبلها بحرفيتها دون أهدافها الصحيحة[1] بالاتجاه نحو تقدير القيمة فقط للقوة العددية؛ وكان كلاوزيڤيتز يعني دائمًا بأن لا يحدث سوء فهم بالنسبة لهذه النقطة ، بل وبالإضافة إلى هذا فقد ألح في أن لا يحدث أي خطأ في تفهم مسالة تدمير قوات العدو أي أن يتجه التفكير فقط إلى مجرد قتل جنود العدو ، فإن المعركة الأساسية تتطلب قتل معنويات العدو أكثر مما تتطلب قتل جنوده[2] ، وهذا في الواقع هو رأي كلاوزيڤيتز في حكمة عسكرية معروفة وهي أن المعركة لا تفقد من الناحية المادية ما لم تهزم روح القائد أو روح الجيش هزيمة منكرة.

وفي تحليلاته الأخيرة يعود كلاوزيڤيتز فيؤكد أن «العزيمة» هي التي تقف بارزة مسيطرة في فن الحرب شأنها شأن المسلة التي تتوسط الميدان الفسيح الذي تخرج منه وتتجه إليه كل الطرقات الرئيسية في المدينة[3].

وقد تبدو بعض الملاحظات عن روح الجيش المعنوية التي خرج بها كلاوزيڤيتز من تحليلاته للحرب تبدو «رومانتيكية» ، بل قد يبدو بعضها غريبًا لنا ، ومع هذا فإن وجهة النظر الأساسية لكلاوزيڤيتز وإصراره على غلبة وأهمية العوامل غير المادية وسط الحقائق المادية للحرب لا تعتبر بحال ما عديمة النفع؛ صحيح أنها أقل صلاحية للتطبيق بالنسبة للجيوش الميكانيكية التي نراها اليوم مما كانت في فجر القرن التاسع عشر بالنسبة للجنود الذين يسيرون على أقدامهم والذين يركبون الخيول ، ومع هذا ففي

(١) ذات المرجع ١ ص ١٩٨ (الكتاب الثالث ـ الفصل الثامن).
(٢) ذات المرجع ١ ص ٢٨٦ (الكتاب الرابع ـ الفصل الحادي عشر).
(٣) ذات المرجع ص ٧٨ (الكتاب الأول الفصل السابع).

صور الصراع الدامي الذي يحدث اليوم تصدق في كل ساعة الحكمة التي تقول: «بأن القوى المادية هي «قبضة السيف الخشبية» بينا تكون القوى المعنوية هي «الحد اللامع القاطع» الذي للسيف»[1].

***

(١) ذات المرجع ص ١٧٨ (الكتاب الثالث الفصل الثالث).

مراجع الفصل الخامس

كلاوزيفيتز

Clausewitz, Hinterlassene Werke des Generals Carl, V. Clausewitz uber Krieg und Kriegfuhrung (Berlin, ١٨٣٢-١٨٣٧).

O.J. Matthijs, on War (with a forward by Richard McKeon) Modern Library, (New York, ١٩٤٣).

Colonil J.J. Graham, Carl von Clausewitz, On War, with introduction and notes by Colonel F. N. Maude, ٣ vols. (London, ١٩١٨).

Maj. General T. D. Pilcher, War According to Clausewoz, (London and New York, ١٩١٨).

Hans W. Garzke, Carl von Clausewitz, Principles of War, (Harrisburg, ١٩٤٢).

Karl Linnebach, Karl und Marie von Clausewitz: Ein Lebensbild in Briefen und Tagebuchblattern (Berlin ١٩١٦).

Hans Rothfels, Carl von Clausewitz, Politische Schriften und Briefe (Munich, ١٩٢٢).

Karl Schwartz, Leben des Générals Carl von Clausewitz, ٢ vols . (Berlin, ١٨٧٨).

Hans Rothfels, Carl von Clausewitz, Politik und Krieg (Berlin, ١٩٢٠).

Walter Malsten Schering, Die Kriegsphilosophie vin Clausewitz (Hamburg, ١٩٣٥).

R. U. Cammerer, Entwicklung der Strategischen Wissenschaft (Berlin, ١٩٠٤).

Freytag Loringhoven, Die Macht der PersonlichKeit in Krieg, Studien nach Clausewitz (Berlin ١٩٠٥).

Liddell Hart, The Ghost of Napoleon, (London, ١٩٣٣).

Alfred Vagts, The History of Militarism, (New York, ١٩٣٧).

Hoffman Nickerson, The Armed Horde (New York, ١٩٤٠).

يدرس القسم الأول من الكتاب "أصول الحرب الحديثة من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر"، وفي القسم الثاني يعرف بأمهات الكتب في القرن التاسع عشر، أما القسم الثالث فمخصص لدراسة أصول الحرب الحديثة من القرن 19 إلى الحرب العالمية الأولى، بينما خصص القسم الرابع لدراسة أصول الحرب الحديثة في فترة ما بين الحربين، ويشتمل القسم الخامس على دراسةالحرب في البحر والجو.

علي مولا

ISBN 978-9933-407-05-6

9 789933 407056

الكتاب الثاني

رواد الاستراتيجية الحديثة

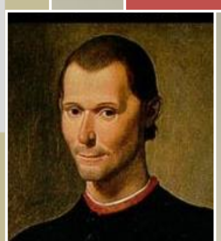
الفكر العسكري من مكيافيللي إلى هتلر

إدوارد ميد إيرل وآخرون

ترجمة وتقديم

محمد عبد الفتاح ابراهيم

2















تصميم غلاف : علي مولا

رواد الاستراتيجية الحديثة

رواد الاستراتيجية الحديثة

الفكر العسكري من مكيافيللي إلى هتلر

الكتاب الثاني

تأليف

إدوارد ميد إيرل وآخرين

ترجمة وتقديم

الأميرالاي أركان حرب

محمد عبد الفتاح إبراهيم

المشتركون في هذا الكتاب

١ ـ *محمد عبد الفتاح إبراهيم:*

أميرالاي أركان حرب ـ ماجستير في العلوم العسكرية دبلوم الدراسات العليا في التاريخ والآثار السودانية من كلية الآداب بجامعة القاهرة.

كان أستاذ التاريخ العسكري في الكلية الحربية في فجر حياته العسكرية، وكانت آخر وظيفة شغلها في القوات المسلحة هي أركان الحرب الأول للفرقة الأولى مشاة، وآخر وظيفة شغلها في الوظائف المدنية هي سكرتير عام وزارة الإرشاد القومي.

كان رئيس تحرير مجلة المشاة وعضو لجنة تحرير مجلة الجيش.

صحفي من فجر حياته، وله عدة مؤلفات جلها في الشئون العسكرية منها «محمد القائد»، «بين حربين»، «الخوف والإجهاد في المعركة»، «الحرب البرقية»، «الحرب الأهلية الأمريكية.. ملاحظات على القادة والمعارك»، «التحركات والوقاية الجوية».

٢ ـ *إدوارد ميد إيرل:*

دكتوراه من جامعة كولومبيا الأمريكية.

مستشار خاص سلاح الجو الأمريكي.

محاضر في الجامعة العسكرية ـ أستاذ الدراسات العليا في جامعة برنستون وعميد قسم الدراسات العسكرية بها.

٣ـ سيجموند نيومان:

دكتوراه في الفلسفة من جامعتي شيكاغو وكورنيل، مؤلف كتاب «الإثنا عشر الذين يحكمون» وكتاب «لجنة الأمن العام إبان الإرهاب».

مساعد أستاذ التاريخ في جامعة برنستون.

يعمل الآن في قسم الدراسات التاريخية للقوات البحرية الأمريكية.

٤ـ هاجو هولبورن:

دكتوراه في الفلسفة من جامعة برلين:

مؤلف كتاب «بسمارك والسياسة الأوروبية في الحقبة السابعة من القرن الثامن عشر» وكتاب «ألمانيا وتركيا ١٨٧٨ ـ ١٨٩٠»، وغيرهما من الكتب التاريخية.

أستاذ التاريخ في جامعة ييل.

يعمل الآن في خدمة الحكومة الأمريكية.

٥ـ ستيفان بوسوني:

دكتوراه في الفلسفة من جامعة ڤيينا.

مؤلف كتاب «حرب الغد: تخطيطها وإدارتها ونفقاتها» اشترك في تأليف كتاب «الاستراتيجية الكبرى لدول المحور»

يعمل الآن في خدمة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية.

٦ـ آتيين مانتو:

دكتوراه في القانون من جامعة ليون.

يعمل في المحاماة والاقتصاد.

٧ـ جوردون كريج:

دكتوراه من جامعة ميتشيجان.

ضابط في القوات المسلحة الأمريكية.

يعمل مساعدًا لرئيس تحرير مجلة المشاة الأمريكية «القوات المقاتلة».

مؤلف كتاب «كبار القادة في الحربين العالميتين».

محتويات الكتاب

القسم الثالث

أصول الحرب الحديثة من القرن التاسع عشر إلى الحرب العالمية الأولى

مقدمة

وصل بنا المطاف في دراستنا لتطور الفكر العسكري في صحبة صانعي الاستراتيچية الحديثة حتى النصف الأول للقرن التاسع عشر الميلادي، عندما خرجت للناس هذه التعاليم التي جاء بها الرجلان اللذان فسَّرا وأوضحا أصول مدرسة نابليون.

وقد خرجنا من دراستنا في «الكتاب الأول» بتعريف «الاستراتيچية» ـ فن التخطيط للحرب وبإيضاح الفرق بينها وبين «التكتيك» ـ فن القتال ـ وبدراسة العوامل المؤثرة في الاستراتيچية. واتضح لنا أن نجاح استراتيچية ما يتطلب توافر المعرفة التامة بعدة عوامل عسكرية مؤثرة، وأن الاستراتيچية الناجحة هي التي تحقق حسن الاستخدام لهذه العوامل متفرقة ومجتمعة؛ ذلك لأن الاستراتيچية لا يمكن أن توازن النقص في العدد، ولا النقص في التدريب، ولا سوء التنظيم للقوات المقاتلة؛ وقد جاءت إلى جانب هذا ظلال باهتة لعوامل أخرى لم تبرز في صورة أخاذة تبعًا لطبيعة العصر وللنطاق المحدود الذي كان للحرب حتى أواخر أيام القرن الثامن عشر؛ أي حتى بداية عصر الجيوش الأممية المجندة من المواطنين الصالحين.

وقد أوضحت صورة الحرب منذ بداية ظهور نابليون على المسرح الأوروبي أن الاستراتيچية لا يمكن أن تسير سيرها الطبيعي لو انفصلت عن الشبكة المتداخلة معًا للعوامل السياسية والمالية، وإن كانت هذه الاعتبارات السياسية والمالية قد لا تبدو واضحة للجندي في ذات الضوء الذي تبدو فيه للسياسي، ولهذا فإن الأخير هو الذي يجب أن يتأكد من أنها

تلقى الاعتبار الكافي لها، فإذا ما تطلبت هذه الاعتبارات التبسيط أو التعديل فمن الضروري أن يتم هذا كله قبل أن ينتهي وضع التخطيط الاستراتيجي كاملًا.

على أن أهم ما قدمته هذه الدراسة العامة لتطور الفكر العسكري بين مكيافيللي ونابليون هو أن الحرب عندما كانت عمليات أكثر بطئًا مما كانت في آخر مرحلة الدراسة في فجر القرن التاسع عشر، وكانت الجيوش أقل كفاية في التدريب، لم يكن من الضروري أن تكون الأخطاء التي تحدث مدمرة، ولكن تبعًا لتطور صور الحرب ولازدياد السرعة في التعبئة والسير والاشتباك في القتال لم يعد من الممكن أن يمنح القائد الوقت ليصحح من أخطائه، وأن يعطي نفسه وجنوده التجربة التي يحتاجونها. وفكرة وضع القائد وجنوده تحت مطرقة الحرب لتشكيلهم في الصورة الصالحة لم يعد لها من محل بعد الوصول إلى «الأمم المسلحة»، الأمم التي تقف بجميع حصيلتها من الأفراد للقتال، والتي تستخدم كل مواردها الطبيعية والمادية والصناعية والتجارية والثقافية من البداية، تستخدم هذا كله في الحرب ومن أجل الحرب؛ وكانت الظاهرة التي وضحت أولى رسومها الباهتة هي أن التنظيم العسكري قد بات علمًا يجب أن يدرسه بعناية السياسيون والعسكريون، وأن أصول ومبادئ هذا العلم يجب أن تطبق بعناية؛ كما وضح التأثير الكبير الذي للعقل الدرب.

وإذا كان بعض الحروب قد أوضحت قيمة القائد المحنك!. وأوضح بعضها قيمة الجيش المدرب؛ فإن صورة الحرب من فجر القرن التاسع عشر قد أوضحت ضرورة توافر القائد المدرب والجيش المدرب معًا في مجموعة واحدة.

وهكذا أوضح لنا تطور صورة الحرب أن التخطيط للاستراتيچية يتطلب أيضًا دقة المعرفة بعدة عوامل أخرى ليست ذات طابع عسكري بالرغم من التأثير العسكري الذي لها. هذا التخطيط الذي يستهدف إضعاف مقاومة العدو وتعطيله بشل تجارته وتدمير اقتصادياته، وكان هذا جديدًا في طابع استخدامه وإن لم يكن جديدًا في أصل وجوده.

والواقع أن الناس قد عاشوا لأمد طويل وهم يظنون أن الحرب صناعة تحترفها جماعات خاصة من الناس هي التي تكوِّن وحدات المتقاتلين سواء أكانوا مأجورين أم مواطنين مجندين، وأن الحديث عن الحرب بمتباين صورها وألوانها ومختلف نواحيها النظرية والعملية، وما يؤثر في هذه أو تلك من العوامل وما يتحكم فيها أو يسيطر على توجيهها من أصول ومبادئ إنما يرجع إلى الكتاب العسكريين الذين خرجوا من صفوف الجند أو الذين عاشوا على هامش الجندية وإن لم يكونوا أصلًا من طلاب المعاهد العسكرية.

ولم يكن هذا كل شيء، بل إن كل الكتب التي تحدثت عن الحرب من الناحية الفنية والتي تعرضت للحديث عن الاستراتيچية لم تعن إطلاقًا إلا بالنواحي العسكرية بالرغم من أنها كلها كانت تكرر ما قاله الاستراتيچي الدرب كلاوزيفتز من أن الحرب ما هي إلا استكمال للمناقشات السياسية ولكنها تجيء فقط بأسلوب آخر، ولم تتعرض هذه الكتب للعوامل من النواحي البشرية والمعنوية والاقتصادية والتي تؤثر في التوجيه السياسي ثم بالتبعية في التوجيه العسكري.

وإن كان بعض الكتاب العسكريين في مطلع القرن العشرين قد عنوا بمسائل المواصلات البرية والبحرية ومروا سراعًا في عجلة ظاهرة بعوامل

التجارة والمواد الخام.

ثم تقدمت الدراسات الوثيقة الصلة بالحرب وأدرك الناس عن إيمان أنه توجد في الاستراتيجية الحديثة بعض النواحي غير العسكرية، وأن هذه النواحي يجب أن تراجع في دراسات نفر من الأعلام كلهم من غير العسكريين؛ هم رجال الاقتصاد وعلماء الاجتماع، ورجال التاريخ وأعلام السياسة والتقنيين.

وبرزت إلى الضوء أسماء: آدم سميث، وألكسندر هاملتون، وفريدريك ليست، وفريدريك آنچلز، وكارل ماركس، وديلبروك، وهم مجموعة تقدم لنا في الواقع عدة مدارس من مدارس الفكر في علم الاجتماع بمختلف نواحيه من اقتصاد وسياسة وتاريخ.

ومن أجل هذه الدراسات كان هذا الكتاب الثاني من دراسة تطورات الفكر العسكري.

وهكذا سيجيء هذا الكتاب الثاني خالصًا للتحدث عن الاقتصاد والسياسة والتاريخ، سيقدم «الأسس الاقتصادية للقوة العسكرية»، و «النظريات العسكرية للثورات الاجتماعية»، ودور المؤرخ العسكري في هذه الدراسات.

وستجيء في أعطاف هذه الدراسة المدرستان البروسية والفرنسية لإيضاح أثر هذه العوامل في تطور الأصول التي جاء بها صانعو الاستراتيجية حتى وصل العالم إلى نهاية الحرب العالمية الأولى.

عبد الفتاح إبراهيم

أميرالاي أركان حرب

القسم الثالث

من القرن التاسع عشر
إلى الحرب العالمية الأولى

الفصل السادس

آدم سميث ـ ألكسندر هاملتون ـ فريدريك ليست الأسس الاقتصادية للقوة العسكرية

بقلم إدوارد ميد إيرل

قد لا يمكن فصل القوة الاقتصادية عن القوة السياسية إلا في المجتمعات البدائية؛ ففي العصر الحديث ـ مع نشأة الحكومة القومية وانتشار المدنية والحضارة في العالم، والازدهار الذي جاءت به الثورة الصناعية، وهذا التقدم المستمر في الفن العسكري ـ «بدا على التحقيق» أننا نواجه علاقة مشتبكة متداخلة للقوى التجارية والمالية والصناعية من جهة، والقوى السياسية والعسكرية من جهة أخرى، وهذه العلاقة المشتبكة واحدة من أعقد مشكلات السياسة؛ ذلك لأنها تجعل سلامة الأمة هي التي تحدد مدى ما يتمتع به الفرد من الحياة والحرية والتملك والسعادة.

وعندما يكون العامل الموجه لسياسة الدولة هو مبدأ السياسة التجارية الموجهة، أو مبدأ السياسة الجماعية(*) فإن قوة الدولة تكون في حد ذاتها هي الهدف والغاية، وتكون كل اعتبارات الاقتصاد الأهلي ورفاهية الفرد تابعة وخاضعة لغرض واحد هو تطور إمكانيات الأمة لجعلها قادرة على التأهب

(*) في الأصل Totalitatrianism، وهو مذهب في الحكم يجعل الأمر كله في يد الحكومة ويجعل الحكومة في يد القلة، ويجيء في الوصف Totalitarian أي صورة الحكم في الدولة التي يتولى فيها حزب واحد السيطرة التامة على الدولة، وتكون بقية الأحزاب الأخرى غير قانونية التكوين. "المترجم".

للحرب والإنفاق عليها، أو على ما يسميه الألمان إعداد الجيش Wehrwirtschaft والإعداد للحرب Kriegswirschaft.

ومنذ قرابة ثلاثمائة عام لخص كولبير السياسي الفرنسي (١٦١٩ - ١٦٨٣) نهضة الملكية الفرنسية في عصر لويس الرابع عشر بقوله: «إن التجارة هي المورد للمال، والمال عصب الحرب»، وفي هذا العصر الذي نعيش فيه أشار چورنج - نائب الفوهرر الألماني - إلى أن الاقتصاد السياسي للحكومة الألمانية قد وجه إلى «إنتاج المدافع لا الزبد»؛ كما أنه من المصطلحات الرئيسية التي جاء بها التأهب الشيوعي للحرب الشاملة القول بأن «من الخير أن توجد اشتراكية بدون اللبن عن أن يوجد اللبن بلا اشتراكية»، أما الشعوب الديمقراطية فإنها تكره القيود التي تجيء نتيجة لاقتصاديات تقوم على أساس الحرب والتأهب للحرب، وما يسميه الألمان «إعداد الجيش» يبدو للشعوب الديمقراطية مباينًا لأسلوب حياة أفرادها فضلًا عن أنه يتجاوز إلى مدى بعيد الحدود التي تراها هذه الشعوب ضرورية لأمنها ورفاهيتها، إن أفراد هذه الشعوب الديمقراطية يفضلون النظام الاقتصادي الذي يقوم على أساس رفاهية الفرد أكثر مما يعنى عناية كبيرة بقوة الدولة، وتتوافر في أعماق نفوسهم الشكوك تجاه الجمع بين القوتين الاقتصادية والسياسية، ويعتبرونه تهديدًا دائمًا لحرياتهم الموطدة منذ بعيد.

ولكن مهما كانت الفلسفة السياسية والاقتصادية الموجهة للأمة فإنها لا يمكن أن تتنكر - إلا بمخاطرة لها ضررها - لاحتياجات القوة العسكرية ومطالب أمن الأمة، وهما أساس غيرهما من مشكلات الحكم. ولهذا فمما لاشك فيه أن هاملتون كان يضع مبدأ أساسيًّا في فن سياسة الدول عندما

قال: بأن الأمن والسلامة من الخطر الخارجي هو «أقوى موجه للسلوك الأهلي»، فحتى الحرية ـ إذا لزم الأمر ـ يجب أن تفسح الطريق لمطالب الأمن والسلامة؛ ذلك لأن الناس يرغبون أن يكونوا أكثر أمنًا حتى لو «خاطروا بأن يكونوا أقل حرية»(١).

وكان آدم سمث(*) ـ الذي آمن بأن الرخاء المادي للأمة يمكن أن يوجد بأقل تدخل من الحكومة ضد حرية الفرد ـ راغبًا في أن يتقبل وجوب تنسيق هذا المبدأ العام مع غيره من المبادئ الأخرى عندما يكون الأمر متعلقًا بالأمن الأهلي؛ «ذلك لأن الدفاع أهم من الرخاء والازدهار»(٢)، وقد وجد فردريك ليست(**) الذي اختلف عن سمث في الكثير من الموضوعات، أنه يتفق معه تمامًا في هذه المسألة فقال: «إن القوة أكثر أهمية من الثروة. ذلك لأن نقيض القوة أي الضعف يؤدي إلى فقد كل ما نملك، لا من الثروة فحسب بل ومن القدرة على الإنتاج. وأن نفقد مدنيتنا وحضارتنا وحريتنا

(١) The Federalist لعام ١٧٨٧ رقم ٨ طبع المكتبة الحديثة بنيويورك سنة ١٩٣٧، مع مقدمة بقلم إدوارد ميد ايرل ص ٤٢، ويرجع إلى هذه الطبعة في كل ما يُشار إليه في هذه الصفحات، ويمكن أيضاً أن نجد الأصل كاملاً في مجموعة أعمال هاملتون المجلد ١١ و١٢ – راجع في الهامش رقم ٣٠ بيان مؤلفات هاملتون.

(*) آدم سمث اقتصادي اسكتلندي مؤلف (بحث في طبيعة ودوافع ثروة الأمم) والكتاب يُعتبر مرجعاً قيماً لعدة مبادئ أهمها وضع القيم على أساس العرض والطلب، وتحرر التجارة من أي صور التحريم. وقيام التنافس الحر. "المترجم".

(٢) An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations (١٧٧٦) وقد استخدمت الطبعة التي أصدرتها المكتبة الحديثة والتي كتب مقدمتها ماكس ليرنرو التي هي إعادة طبع النسخة التي قدمها ادوين كانان (لندن ١٩٠٤) الفقرة المقدمة هنا توجد في الكتاب الرابع الفصل الثاني ص ٤٣١.

(**) ليست اقتصادي ألماني يُنسب إليه أنه أول من وضع فكرة الضرائب أو "العوايد – الرسوم" التي تُفرض على المتاجر، عاش من سنة ١٧٨٩ إلى سنة ١٨٤٦. "المترجم".

وحتى استقلالنا، وأن نفقد كل هذا على أيدي أولئك الذين يفوقوننا في القوة»[١].

كان غرب أوروبا لأكثر من قرنين من الزمان قبل أن ينشر آدم سمث كتابه «ثروة الأمم» يحكم بواسطة نظم وأصول ومعتقدات تعرف في مجموعها باسم «السياسة التجارية»؛ وكانت النظم التجارية أساس سياسة القوة، فقد عملت في الشئون الداخلية العامة لزيادة قوة الدولة ضد التعاليم التي عاشت من العصور الوسطى، أما في الشئون الخارجية فقد عملت لزيادة قوة الدولة ضد غيرها من الدول، وفي إيجاز فإن أهداف السياسة التجارية كانت التوحيد القومي للدولة وتنمية مواردها الصناعية والتجارية والمالية والعسكرية والبحرية؛ ولإدراك هذه الأهداف تدخلت الدولة في المسائل الاقتصادية، وبذلك وجهت نشاط رعاياها أو مواطنيها اتجاهات خاصة بقصد زيادة القوة السياسية والعسكرية.

وكانت «الدولة التجارية» في ذلك العصر شأنها شأن الدولة «الديكتاتورية» الفردية في عصرنا الحديث؛ دولة تعمل على الحماية التجارية وتتخذ سياسة وقائية، كما أنها تعنى بالاكتفاء الذاتي الاقتصادي وأن تسير الدولة دون أي تبادل تجاري مع غيرها من الدول، كما أنها تهدف إلى الاستعمار والتوسع وتتبع سياسة عسكرية قوية لتنفيذ أهدافها العامة.

---

(١) Friedrich List, Das nationale System der Politischen Okonomie (Stuttgart ١٨٤١) in Schriften Reden, Briefe (١٠ vol., Berlin ١٩٣٠ – ١٩٣٥), VI.

جمع أرثور سومر المجلد ٦ (برلين ١٩٣٠) ص ٩٩ – ١٠٠، وتعتبر هذه أحسن طبعة لمؤلفات فردريك ليست، وصدرت بالاشتراك مع الأكاديمية الألمانية، والفقرة المقدمة منقولة من الترجمة الإنجليزية بقلم سمسون لويد طبع لندن ١٨٨٥ ص ٣٧ – ٣٨.

على أننا إذا نظرنا إلى الأمر في ضوء المصطلحات الحديثة فإننا نستطيع أن نقول أن الغرض الرئيسي للنظم التجارية إنما كان تنمية الإمكانيات العسكرية، أو إمكانيات الحرب، ولهذا السبب توضع الصادرات والواردات تحت سيطرة أو رقابة عنيفة وتجمع المعادن الثمينة ويحافظ عليها، وتصنع مستلزمات البحرية أو تستورد على أساس دفع تعويضات أو هبات لتشجيع المصانع على الإنتاج، كما يشجع بناء السفن للنقل البحري وصيد السمك كمورد للقوى البحرية، وتنظم المستعمرات كما تعد وسائل حمايتها لاستكمال الثروة وللوصول إلى الكفاية الذاتية للدولة الأم، وكما يشجع نمو عدد السكان بغرض زيادة القوى العددية في الرجال[١]، وكانت هذه وغيرها من التدابير بقصد زيادة وحدة وقوة الأمة.

وقد أدى النظام التجاري بالطبيعة إلى الحرب، شأنه في ذلك شأن أي نظام تكون القوة فيه غرضًا في ذاته، كما تعبأ فيه الحياة الاقتصادية أساسيًّا للأغراض السياسية؛ ويعتقد ممثلو سياسة القوة أنه يمكن تحقيق أهدافهم بحالة جيدة ـ إن لم يكن بحالة أحسن ـ نتيجة لإضعاف القوة الاقتصادية للدول الأخرى بدلًا من تقوية قوتهم الاقتصادية هم أنفسهم؛ إن اعتبار الثروة كهدف لهو في الواقع حماقة وإن كان يعتبر أمرًا منطقيًّا لا غبار عليه من جهة نظر القوة السياسية؛ وتبدو أية محاولة للتقدم الاقتصادي بجهود

(١) كان من بين التدابير التي وضعت لتشجيع زيادة عدد السكان منع التوسع في المراعي، وأماكن الصيد بقصد امتداد الأراضي التي تُستخدم في زراعة المواد الغذائية، وعلى سبيل المثال صدر قانون في انجلترا جاء فيه "إن أمن الدولة يتطلب الدفاع ضد العدو بقوة الرجال وبتضاعف عدد الرعايا المواطنين لا بواسطة قطعان الماعز ولا جموع الحيوانات المفترسة" راجع: Eli Heckscher, Mercantilism (English translation by M. Shapiro) في مجلدين طبع لندن ١٩٣٥ – المجلد الثاني ص ٤٤.

الدولة وفي داخل أراضيها وكأنها غير محدودة الهدف إلا إذا اشتملت على اغتصاب أجزاء مما تملك الدول الأخرى؛ ومن النادر أن نجد عاملًا آخر في فلسفة سياسة التجارة يسهم بدرجة أكبر مع تشكيل السياسة الاقتصادية بل والسياسة الخارجية في جملتها[1]؛ وقد كان هذا المنطق السبب الرئيسي للحروب العلنية والمستترة والتي قامت في أوروبا من منتصف القرن السابع عشر إلى الحقبات الأولى من القرن التاسع عشر، وكان النظام الذي وضعه نابليون لقارة أوروبا، والنظام الإنجليزي الذي قام لمناهضة نظام نابليون هما في بساطة ذروة التطور لسلسلة طويلة من التدابير المماثلة.

وخرجت إنجلترا وحدها منتصرة من الحروب التجارية، وحصلت على وحدة قومية متماسكة قبل أي دولة أوروبية أخرى وتمتعت بالأمن الذي مكن له مركزها البحري؛ وكانت أقدر من غيرها في وضع «قوة أساطيلها وقوانين الملاحة في خدمة المصالح الاقتصادية للأمة والدولة مع السرعة والجرأة ووضوح الأغراض» وبذلك استطاعت الوصول إلى المركز القائد في الصراع من أجل الزعامة التجارية والسياسية[2].

وفي قرابة عام ١٧٦٣ كانت انجلترا قد دمرت الأطماع البحرية والتجارية والاستعمارية لأسبانيا وهولندا وفرنسا، وقد دمرت في ووترلو من فرنسا التي نهضت بها الثورة من نابليون أيضًا، وفي عام ١٨١٥ بالرغم من أن

---

(١) نفس المرجع ٢ ص ٢١ و ٢٤.

(٢) Gustav Schmoller, The Mercantile System and Its Historical Significance (London and New York ١٨٩٦).

وقد ترجم عن الألمانية بقلم و. ج آشلي، والطبعة الألمانية قد نشرت في تقويم شمولر السنوي لعام ١٨٨٤ بعنوان:

"Das Merkantilsystem in seiner historischen. Bedeutung" Schmollers Jahrbuch ١٨٨٤.

انجلترا كانت قد فقدت مستعمراتها الأمريكية إلا أنها وصلت في الميدان العالمي إلى درجة من القوة تعيد للذاكرة ماضي الإمبراطوريات العظيمة القديمة.

يقول فردريك ليست: «ففي كل العصور كانت هناك مدن ومقاطعات امتازت على غيرها في الصناعة والتجارة والملاحة، ولكن لم يشهد العالم من قبل مثل هذه السيادة التي لبريطانيا في عصرنا هذا، لقد حاولت الأمم والدول في كل العصور الوصول إلى السيادة على العالم، ولكن واحدة منها لم تستطع أن تنشئ قوتها على مثل هذه الأسس؛ فكيف ذهبت هباء هذه الجهود التي حاول أصحابها أن يقيموا سيادتهم على أساس القوة عندما نقارنها بمحاولة انجلترا أن تنهض بصناعتها وتجارتها وبحريتها، وأن تكون لها بين دول وممالك الأرض مكانة الصدارة بالنسبة للبلاد التي تحيط بها، وأن تتوافر في داخليتها كل الصناعات والفنون والعلوم، وأن تتوافر لها كذلك الثروة والقوة البحرية التي لمركز التثاقل في العالم»[1].

وعلى أساس السياسة التجارية لانجلترا وضع كل من سمث البريطاني وهاملتون الأمريكي وليست الألماني السياسة الاقتصادية والأسس السياسية العامة للدولة التي هو من رعاياها، ومن الممكن أن نفهم ما أراد كل منهم أن يقوله خاصًا بالأسس الاقتصادية للقوة العسكرية داخل الإطار العام للعصر الذي عاش فيه وروح الأحوال الخاصة بدولته.

***

(١) ليست – نفس المرجع ص ٢٩٣ – وقد كتب فردريك ليست هذا الحديث في عام ١٨٤١.

[٢]

وقد كان الوقت صالحًا في بريطانيا عندما نشر كتاب «ثروة الأمم» في عام ١٧٧٦ ـ صالحًا للنقد الصحيح لنظريات وأسس السياسة التجارية، كانت ثورة المستعمرات الأمريكية قد اجتذبت الأنظار والانتباه إلى أصول الأساليب والقوانين والنظم التجارية التي جاءت في أعطاف سياسة بريطانيا الاستعمارية، ***والواقع*** أنه كانت هناك مشاعر قوية تضاد هذه الحروب التي بقيت قائمة لأكثر من قرن، كما توافرت مشاعر السخط على هذا العبء الثقيل من ديون الحرب، هذا فضلًا عن أنه بعد انتصار بريطانيا على فرنسا في حرب «السبع سنين»(*) لم يعد هناك من ينافس انجلترا لا في القوة التجارية.. ولا في القوى البحرية، على أنه بسبب التزايد في الدراسة التشككية(**) للفلسفة السياسية والاقتصادية و«التي تعلمت بها الأمم أن مصلحتها الخاصة تتوقف على إفقار كل جيرانها»، فقد بدأت المشاعر تنمو وتتزايد مشيرة إلى أن بريطانيا قد وطدت مركزها كقوة عالمية، ولهذا فإنه من الممكن أن توجد سياسة أكثر تحررًا وأن «ثروة أي أمة مجاورة ـ مهما كان خطرها في الحرب والسياسة ـ لها على التأكيد فائدة أكبر في التجارة»[١].

(*) حرب السبع السنين ١٧٥٦ – ١٧٦٣، حاربت فيها بريطانيا وبروسيا ضد فرنسا والنمسا والروسيا، وامتازت هذه الحرب في البر بمعركة روسباخ وفي البحر والمستعمرات بفقد فرنسا لمستعمراتها في كندا والهند وقد انتهت الحرب بمعاهدة باريس (مُعجم لاروس ص ٦٨٧).

(**) في الأصل Skepticism وتعني الكلمة في أقرب الموارد العقيدة الفلسفية التي ترمي إلى أن حقيقة المعرفة يجب أن تكون دائماً موضع بحث يقوم على الشك. "المترجم".

(١) "Wealth of Nations" ص ٤٦٠ – ٤٦١، وحتى قبل حرب السبع كان دافيد هوم في=

وكان هناك أيضًا الشعور المستفيض بمضار هذا النظام السائد والذي مكن من أن تنتفع الحقوق الموطدة للطبقات باتحادها وتناسقها مع المصالح الحقيقية بل وحتى المصالح المتوقعة للأمة، وقد وجه سمث حملته ضد هذه المضار عندما هاجم طبقة التجار عامة والشركات التجارية خاصة؛ لما تقوم به من احتكار، ولاستخدامها سلطات الحكومة في أعمالها، ولتشجيعها على الحرب[1]، وقد قال سمث في حملته: «إن الأطماع الشخصية للملوك والوزراء لم تكن - في القرنين السابق والحالي - أكثر ضررًا بهدوء وسلم أوروبا من هذا التنافس وهذه الغيرة من جانب التجار والمنتجين الصناعيين، إن عنف وظلم الحكام شر قديم، ولكن هذا الجشع الرخيص وهذه الروح الاحتكارية التي تبدو واضحة في التجار والمنتجين «الذين ليسوا ولا ينبغي أن يكونوا حكامًا للجنس البشري»، هذا الجشع الرخيص يمكن بسهولة جدًّا أن نحول دون تسببه لأي ضرر إلا لهؤلاء التجار والمنتجين وحدهم»[2].

وقد وجه سمث أعنف وأقسى نقد للسياسة التجارية في حملته على نظرياتها الخاصة بالنقد بها في هذا المبدأ القائل بأن الدولة يجب أن تحتفظ

=دراسة له وسمث بعنوان (الغيرة في التجارة) قد ذهب إلى حد معارضة كل الآراء التجارية بقوله "وليس فقط كإنسان بل وكأحد الرعايا البريطانيين المخلصين فإنني أصلي من أجل ازدهار التجارة في ألمانيا وإسبانيا وإيطاليا بل وحتى في فرنسا نفسها، وذلك على أساس أن كل الأمم ستزدهر وأن سياستها تجاه بعضها البعض ستكون أكثر فائدة ونفعاً" ت. هـ. جرين و ت. هـ. جروس (دراسات هوم في المعنويات والسياسة والأدب) طبع لندن ١٨٩٨ ج١ ص ٣٤٨.

(١) "شركات الاحتكار" نفس المرجع ص ٥٩٥ – ٦٠٦.

(٢) نفس المرجع، ص ٤٦٠.

بحصيلة كبيرة من الذهب والفضة «كصندوق للحرب»، وقد تقبل سمث أن بريطانيا يجب أن تستعد للإنفاق على الحرب «ذلك لأنها كدولة صناعية وكأمة مؤثرة تكون أكثر تعرضًا لأن تهاجم أكثر من تعرض غيرها من الأمم للهجوم»؛ ولم يغفل سمث كذلك عن أن بريطانيا بسبب مستعمراتها الكبيرة ولمصالحها التجارية الواسعة فيما وراء البحار تحتاج إلى الاحتفاظ بقوات عسكرية ومنشآت بحرية، ولكنه رفض اعتبار صناديق الحرب ضرورية أو حتى نافعة للدفاع عن الأمة؛ ذلك لأنه «لا يحتفظ بالأساطيل والجيوش بواسطة الذهب والفضة بل بالمتاجر الاستهلاكية، والأمة التي تستطيع أن تشتري هذه المتاجر الاستهلاكية من ممالك بعيدة تستطيع أن تقوم بالحروب في خارج أراضيها». وقد ثبت هذا بما قامت به بريطانيا من إعداد النفقات الكبيرة لحرب السبع سنوات من فوائد اتساع نطاق صناعاتها، ومن الزيادة الكبيرة في منتجاتها الخارجية[1] أو في كلمات أخرى، فإن سمث قد اعتقد بأن قدرة أمة ما على الإنفاق على الحرب إنما تقاس أحسن ما تقاس بقدرتها الإنتاجية، كما نوقش هذا بواسطة فردريك ليست في تاريخ متأخر.

وبالإضافة إلى هذا فقد عارض «صناديق الحرب» كما عارض «قروض الحرب» كوسيلة أساسية لتمويل الحروب، وقد فضل بدلًا من هذا إصدار الضرائب الفادحة؛ إن الحروب التي تدفع نفقاتها تدريجيًّا «تتم من وجهة عامة بسرعة أكبر، كما أنها تنفذ من جانب الحكومات في أسلوب مفكك نظرًا لأنها بدون دافع قوي، ثم إن الأعباء الثقيلة للحرب التي لا يمكن

(١) توجد المناقشة الخاصة بصناديق الحرب في الكتاب الرابع الفصل الأول وعلى الأخص الصفحات ٣٤٨ – ٤١٥، والفقرات المنقولة هنا مُقتطفة من الصفحات ٣٩٩، ٤٠٩، ٦٧٩.

تجنبها تعطل الناس من تطلبها عندما لا تكون هناك أية مصالح حقيقية للقتال من أجلها»[١].

وبالرغم من حقيقة أن كتاب «ثروة الأمم» قد بات المرجع المقدس للمدرسة الإنجليزية للقرن التاسع عشر، وأن آدم سمث قد بات الموجه العبقري لهذه المدرسة، فالحقيقة أن آدم سمث في الواقع لم يتنكر لأسس معينة من العقيدة التجارية، فقد اعترض على بعض وسائلها أو أساليبها، ولكنه قد وافق على الأقل على واحدة من غاياتها هي الحاجة لتدخل الدولة في المسائل الاقتصادية إلى المدى الضروري اللازم للقوة العسكرية للأمة، وكان أولئك الذين اتبعوه أكثر إيمانًا بحرية التجارة من سمث نفسه؛ وقد كتب سمث يقول: «إن الواجب الأول للملك هو حماية المجتمع العام من عنف غزو المجتمعات المستقلة الأخرى، ومن الممكن الوصول إلى هذا بواسطة القوة العسكرية»؛ ولكن وسائل إعداد هذه القوة في وقت السلم واستخدامها في وقت الحرب تتباين وتتغير بتغير الأحوال المختلفة للمجتمع؛ لقد باتت الحرب أكثر تعقدًا وأكثر نفقات تبعًا لتقدم المجتمعات في فنون التجارة، وذلك تبعًا لاختلاف التنظيم العسكري ووسائل تدعيمه وإمداده في الدول التجارية والصناعية عن هذا التنظيم ووسائل تدعيمه في المجتمعات الأقرب إلى الحال البدائية[٢]، أو بمعنى آخر ـ كما أشار ماركس

(١) نفس المرجع ص ٨٧٨ – ٨٧٩، ومن الصعب أن تدعم حقائق التاريخ فكرة أن الحكومات أو الشعوب تقدر بعناية نفقات الحرب قبل بدء العمليات العدائية.

(٢) ذات المرجع – الكتاب الخامس الفصل الأول القسم الأول ٦٥٣ – ٦٦٩، والفقرة من ص ٦٥٣، وتوضح هذه الفقرة بجلاء المدى الذي تقبل سمث على أساسه بعض المُعتقدات الموثوق بصحتها من السياسة التجارية؛ ويبدو أن ويليام كاننجهام الرجل الذي كان يعجب بسمث قد أغفل في كتابه (نمو الصناعة والتجارة الإنجليزية في=

وآنچلز فيما بعد ـ فإن صور التنظيم الاقتصادي هي التي تقرر ما يستخدم من آلات الحرب كما تقرر طبيعة العمليات الحربية، ومن أجل هذا فلا يمكن تجنب القول بأن القوة العسكرية تبنى على أسس اقتصادية.

وغاية ما يتصل الأمر ببريطانيا فإن عقد السياسة التجارية كان «قوانين الملاحة»(*)؛ ولربما كانت السياسة التجارية في مظاهرها الأخرى لازمة

=العصر الحديث) Growth of English Industry and Commerce in Modern Times من جزئين طبع كامبردج ١٨٨٢ قد أغفل الحقيقة كلها عند ما قال بأن سمث (قد تحدث عن الثروة دون إشارة إلى القوة) وبلا شك أن سمث لم يكن ليوافق على ما قاله كانتجهام من أن دراسة الثروة يجب أن تنفصل عن "الأهداف القليلة الأهمية" المجلد ١ ص ٢٩ المقدمة و ص ٥٩٣ – ٥٩٤ وبخاصة الملاحظة ٢ هامش صفحة ٥٩٤، وقد تنبأ سمث فيما كتب بعد حرب السبع السنوات بأمدٍ قصير، وبمناسبة قيام الثورتين الفرنسية والأمريكية بحقائق سياسة القوة، على حين أن كانتجهام كان يكتب وهو في منتصف الطريق وفي قرن مر كله في سلام وهدوء، فلما بدت الحرب بعيدة رأى الموقف متغيراً، وقد غفل ليست – خصم سمث العنيف – عن الحقيقة كما غفل عنها كانتجهام، وقد أخطأ في اعتبار آراء الذين اتبعوا تعاليم آدم سمث من أنصار مدرسته على أنها آراء سمث نفسه كما يتضح هذا بسهولة.

(*) سلسلة طويلة من القوانين ذات طابع وقائي صدرت على أوقات متفرقة لمنع التجارة الأجنبية من التنافس على قدم المساواة مع التجارة الإنجليزية، وبالرغم من أن هذه القوانين ترجع إلى عهد ريتشارد الثاني إلا أن أهم هذه القوانين صدر في عهد كرومويل عام ١٦٥١ موجها على التخصيص ضد هولنده ونص فيه على أن كل واردات بريطانيا يجب أن تنقلها سفن إنجليزية أو سفن الدولة المصدرة، وأن كل صادرات بريطانيا يجب أن تحملها سفن إنجليزية وذلك بقصد احتكار نقل المتاجر الإنجليزية للعالم كله، وقد طبقت هذه القوانين أيضاً في ممتلكات بريطانيا فيما وراء البحار وقد أثار هذا القانون المشاكل ضد بريطانيا في مستعمراتها الأمريكية وفي أيرلندة، ولم تُعطل هذه القوانين إلا في منتصف القرن التاسع عشر. وقد نص في أمر التعطيل للقانون على وجوب العودة إليه إذا وضعت أية تحديدات على السفن الإنجليزية في المياه الإقليمية لأيٍ من الدول – دائرة المعارف المُجلد ٩ ص ٥٩١ .«المترجم».

ضرورية في فترة مبكرة من تطورها الاقتصادي، ولكن في نهاية القرن الثامن عشر كانت انجلترا متقدمة صناعيًّا بدرجة كبيرة وكانت الإجراءات الوقائية أقل أهمية بالنسبة لها مما هي بالنسبة لفرنسا أو للولايات الألمانية، وكانت تستطيع إذا لزم الأمر ألا تفرض أي رسوم على معظم الصناعات؛ ذلك لأنها لم تكن تواجه منافسة قوية لا في أسواقها المحلية ولا في أسواقها فيما وراء البحار؛ ***والواقع*** أنها فيما بعد، واعتبارًا لمصلحتها الخاصة، قد نفضت يديها من هذه السياسة الوقائية؛ ذلك لأنها عرفت كما قال بسمارك(*): «أن التجارة الحرة هي سلاح الأقوى»، ولكن كانت القوة البحرية شيئًا آخر، وكان من الواجب أن ينظر إلى كل ما يتعلق بها تبعًا لمبادئ أخرى تكون هي الأساس للحكم والتقدير؛ كان أمن بريطانيا ثم أمن الإمبراطورية يتطلبان أن تتوافر لها على كل خطوط الملاحة في المحيطات سيادة غير مهددة، بل وأن تعمل في غير هوادة ضد أية قوة تحاول تهديد هذه السيادة، وبالإضافة إلى هذا فإن التكوين الصناعي والمالي والتجاري قد قام على أسواقها وموارد تموينها من وراء البحار، ولما كانت البحرية التجارية تعتبر بالنسبة لبريطانيا رأس مال اقتصادي كما أنها كانت عاملًا ضروريًّا في أمنها العسكري وعلى الأخص في عصر كان من الممكن فيه أن تحول السفن التجارية إلى سفن حربية بسرعة، فقد صرح لورد هاڤيرشام في مجلس اللوردات بقوله: «إن

(*) بسمارك أوتو (برنس أوف بروسيا) سياسي بروسي ولد في شاتهورن عام ١٨١٥، كان واحداً من مؤسسي الاتحاد الألماني، مكنه الانتصار على الدانمارك من ضم ولايتي شلزويج وهولستين، قاد الحرب السبعينية ضد فرنسا ١٨٧٠ – ١٨٧١ وأتم بعد معركة سيدان وحدة الإمبراطورية الألمانية، ولكي يعزل فرنسا عن باقي أوروبا كون الاتحاد الثلاثي مع النمسا وإيطاليا، ونجح في أن يوجه ألمانيا في ميدان الاستعمار، ثم اعتزل العمل بعد تتويج غليوم الثاني بقليل، ومات عام ١٨٨٩ (مُعجم لا روس ص ١٢٣٢).

أسطولكم وتجارتكم يرتبطان معًا بصلة وثيقة قوية ويؤثر كل منهما في الآخر تأثيرًا تعاونيًّا كبيرًا، ولا يمكن أن يفصل أيهما عن الآخر، فتجارتكم هي الأم التي ترعى رجال بحريتكم، ورجال بحريتكم هم عصب الحياة لأسطولكم، وأسطولكم هو وسيلة الأمن والوقاية لتجارتكم، والاثنان معًا هما الثروة والقوة والأمن لبريطانيا»(١).

ولهذه الأسباب فإن الاختبار الحقيقي لوجهات نظر آدم سمث عن السياسة التجارية وعن سياسة القوة إنما تقوم على أساس وقفته من قوانين «الملاحة والمصايد»، وقد قال سمث: «إن الدفاع عن بريطانيا يتوقف بدرجة كبيرة على عدد سفنها وملاحيها، ولهذا فإن قانون الملاحة كان جهدًا موفقًا لإعطاء بريطانيا وملاحيها حق احتكار تجارة بلادهم».

ويتابع سمث حديثه فيقول: «عندما صدر قانون الملاحة قام بين بريطانيا وهولندا عداء عنيف بالرغم من أنهما لم تكونا في حالة حرب معًا، لقد بدأ هذا في حكومة البرلمان «الطويل الأجل»(*) الذي وضع الأسس الأولى لهذا

---

(١) نقلها ج. س. جراهام في كتابه (القوة البحرية وأمريكا الشمالية الإنجليزية) طبع كامبردج ١٩٤١ ص ١٥، ويُعتبر هذا الكتاب مرجعاً طيباً للمناقشة الخاصة بقوانين الملاحة ومكانها من السياسة الإنجليزية وبخاصة الصفحات ١٥ – ١٧ من الكتاب:

"G.S. Graham, Sea Power and British North America"

(*) "البرلمان الطويل الأجل" هو البرلمان الذي دُعي للانعقاد بأمر شارل الأول في الثالث من نوفمبر سنة ١٦٤٠، وقد كان هذا البرلمان هو الذي قام بالحرب الأهلية ضد الملك شارل، وقد بدأ الاصطدام عند ما قرر البرلمان أن فرض الضرائب إنما يرجع إلى سلطة مجلس العموم وليس للملك، وقد بدأت الحرب الأهلية في يناير سنة ١٦٤٢ عند ما أبى النواب إطاعة أمر الملك بتسليم زعماء المجلس "هامبرن وبايم وهوليس وهازلريج وسترود" للمحاكمة؛ وقد أدى هذا إلى إلغاء مجلس اللوردات وتعيين المحكمة العليا التي حاكمت شارل الأول وحكمت بإعدامه، وقد استمر المجلس قائماً حتى سنة ١٦٥٣ عندما حله=

القانون، ثم لم يلبث أمر هذا العداء أن اشتد في عهد كرومويل(*) وشارل الثاني، ولهذا فإنه ليس من الخطأ أن نقول بأن بعض نظم هذا القانون قد جاءت نتيجة للكراهية والعداء الشعبي، إنها مليئة بالروية والعقل وكأنها قد جاءت كلها من المعين الذي لا ينضب من الحكمة، إن الكراهية الشعبية قد هدفت في ذلك الوقت إلى نفس الغرض الذي لابد وأن تكون الحكمة قد أوصت به، ألا وهو إضعاف القوة البحرية لهولندا؛ أي القوة البحرية الوحيدة التي كانت تستطيع أن تعرض أمن بريطانيا للخطر».

«إن قانون الملاحة ليس في جانب التجارة الخارجية، ولا إلى جانب اطراد الرخاء أو الثراء الذي يمكن أن ينتج عنها، ولكن لما كان الدفاع أكثر أهمية من الرخاء فإن قانون الملاحة ربما كان أكثر النظم التجارية لبريطانيا حكمة»(١).

وقد اتخذ بالتبعية ذات الاتجاه بالنسبة للمصايد البحرية: «ولكن بالرغم

=كرومويل بقوة الجيش، وعاد المجلس نفسه للانعقاد سنة ١٦٥٩ بعد موت كرومويل وكان هذا المجلس هو الذي استدعى شارل الثاني للحكم وحُل هذا المجلس سنة ١٦٦٠ وبذلك كانت مدته قرابة العشرين السنة وهي أطول مدة بقى فيها مجلس نيابي في تاريخ بريطانيا. "المترجم" .New Standard Encycl. Vol. VI (١٩٣٨)

(*) كرومويل (أوليفر) ولد في هنتنجدون سنة ١٥٩٩، كان عضواً في البرلمان طويل الأجل أعد للثورة وهزم قوات الملك باسم البرلمان في ناسيل عام ١٦٤٠، وكون المحكمة التي قضت بإعدام شارل الأول في عام ١٦٤٩، حل البرلمان الطويل الأجل عام ١٦٥٣ وتولى الأمر مُطلق السلطان مع لقب "حامي الجمهورية". ويعتبر كرومويل واحداً من أعظم الرجال في تاريخ بريطانيا طوال العصر الذي عاش فيه حتى عام ١٦٥٨، كتب عنه جيزو كتابه (تاريخ الثورة الإنجليزية)، وقد نشر كارليل خطب كرومويل ورسائله، كما قدم "ڤيليمين" تاريخاً قيماً لحياته في كتابه (تاريخ كرومويل). "المترجم"

(١) الكتاب الرابع فصل ٢، ص ٤٣٠ – ٤٣١ Wealth of Nations.

من أن ضريبة الحمولة لسفن الصيد لا تتمشى مع رخاء الأمة إلا أنه ربما يظن بتمشيها مع الدفاع عنها تبعًا للزيادة المستمرة في عدد السفن التي تعمل فيها، وعدد الملاحين الذين يعملون في هذه السفن»[١].

وقد وافق آدم سمث على القوانين التي فرضت الرسوم على إنتاج المحطات البحرية في المستعمرات الأمريكية التي نصت على تحريم تصدير منتجاتها من أمريكا إلى أي بلد آخر عدا بريطانيا، وكان هذا التنظيم التجاري عادلًا من وجهة نظر سمث؛ ذلك لأنه يمكن من جعل بريطانيا مستقلة عن السويد وغيرها من البلاد الشمالية في الإمداد بالاحتياجات الحربية، كما أنه يسهم في الكفاية الذاتية للإمبراطورية[٢].

ولم يقف سمث موقف الاعتراض من الرسوم الوقائية عندما كانت ضرورية لازمة لأغراض الأمن العسكري، وقد قال: «إنه من النافع المفيد من وجهة عامة أن يلقى جانب من العبء على الصناعات الأجنبية بقصد تشجيع الصناعات المحلية عندما تكون هذه الصناعات ضرورية للدفاع عن البلاد».

فقد منحت مثل هذه الوقاية لصناعة السفن بواسطة قوانين الملاحة، ولكن سمث كان راغبًا في فرض رسوم ووضع حواجز جمركية لصالح الصناعات الأخرى ولغير هذا من الأغراض العامة؛ ذلك لأنه «من الأهمية بمكان ألا تعتمد الدولة إلا لأقل ما يمكن على جيرانها من ناحية الصناعات اللازمة لدفاعها عن نفسها، فإذا لم يكن هذا مستطاعًا في أرض الوطن فمن المنطق إذن أن تفرض الضرائب على كل الصناعات الأخرى لمعاونة هذه

(١) نفس المرجع الكتاب الخامس، ص ٤٨٤ – ٤٨٥.
(٢) ذات المرجع ٥٤٥ –٥٤٦ و ٦٠٩ – ٦١٠ و ٤٨٤ ملاحظة رقم ٣٩ بالهامش.

الصناعات الضرورية للدفاع».

أي أن المعاونة تكون عن طريق الحصيلة التي تتجمع من الرسوم المفروضة على الصناعات الأخرى، وقد وافق سمث أيضًا ـ مع بعض التمنع ـ على الرسوم المقابلة أي الرسوم المماثلة لغيرها، وبذلك بدأ ما وسم بعنوان «حروب الرسوم الجمركية»[1].

لقد كان سمث من أصحاب مبدأ «حرية التجارة» عن إيمان قوي وعقيدة في صدق نظريته، ولهذا فقد جرَّح بل ودمَّر تمامًا بعض النظريات التي كانت من أسس السياسة التجارية في الصورة التي عرفتها بريطانيا في أيامه، والتي كانت في نظره غير مستساغة ولا مقبولة. كان يشك في تدخل الدولة في أعمال وجهود الأفراد، ولم يكن محبًّا لسلطة الدولة من أجل إظهار هذه السلطة وحدها، ولكن السؤال المحير لتقدير صلته بهذه المدرسة من مدارس الفكر والتي كانت تعنى برسم السياسة التجارية، هذه الصلة لم تكن في «هل كانت نظريات التجارة صحيحة أم غير صحيحة؟ بل في: هل يجب ـ عند الضرورة ـ استخدام القوة الاقتصادية للدولة كوسيلة سياسية؟!!».

ومن الواضح أن إجابة سمث على هذا السؤال كانت بالإيجاب!!!، وأن القوة الاقتصادية يجب أن تستخدم بين الوسائل السياسية التي تستخدمها الدولة.

على أن هذا لم يكن مفهومًا كله، وكان مريدو سمث ـ وبخاصة أولئك الذين عاشوا في انجلترا إبان القرن التاسع عشر ـ مسئولين عن تقديمه

(١) ذات المرجع ٤٢٩ و ٤٣٤ و ٤٨٤ – ٤٨٩ وبخاصة الملاحظة رقم ٣٩ بالهامش.

كصاحب آراء في حرية التجارة، ولكنه يقف في منتصف الطريق فينزل عن جانب من اتجاهاته الأصلية تبعًا لظروف خاصة، وقد عاون بعض ناقديه ـ وبخاصة الألمانيين شموللر وليست ـ على أن تطغى الصرخات العالية المنادية بحرية التجارة على بقية تعاليم سمث، وهكذا كان سمث يعتبر في بعض المحافل مخادعًا على حين كان في البعض الآخر مواطنًا رأى بلاده تزيد من نمو استراتيچية وتكتيكات السياسة التجارية، هذه السياسة التي مكنتها من أن تكون قوة لا تبارى، فكان إذ ذاك على استعداد لأن يوصي بأن تنفض الدول الأخرى الأقل منها ثروة أيديها من هذه السياسة؛ أما أن سمث كان في قرارة نفسه مواطنًا صالحًا فهذا ما لا يمكن إنكاره، وأما القول بأنه كان مخادعًا فهذا بلا شك غير صحيح فهو لا يستحق إطلاقًا ما اتهمه به ليست الذي كان أكثر معرفة بمدرسة سمث من أن يعرف سمث نفسه على حقيقته.

ونلقي هنا حديث ليست الألماني وإيضاحه لرأيه في سميث ونظرياته:

«إنها عملية عادية مليئة بالمهارة، وهي أن أي فرد يصل إلى ذروة العظمة لا يتردد في أن يدفع بعيدًا بالسلم الذي ارتقى عليه، وذلك ليمنع غيره من الناس من الوصول إلى درجته وليحرمهم من وسيلة للصعود في أثره وفي أعطاف هذه الحقيقة يكمن سر العقيدة العالمية التي كان آدم سمث يدعو إليها، كما تبدو حقيقة هذه الاتجاهات المماثلة التي جاء بها ويليام بت وخلفاؤه من الذين عملوا في إدارات الحكومة الإنجليزية».

«إن أية أمة استطاعت بالتدابير والرسوم الوقائية وبالتحديد من حرية الملاحة، أن تنهض بقوتها الصناعية وبحريتها وملاحتها إلى الدرجة التي لا يمكن أن تصل إليها أمة أخرى، فتستطيع منافستها منافسة حرة، مثل هذه

الأمة ليس أمامها ما تفعله ـ وتكون حكيمة في عملها ـ إلا أن تلقي بعيدًا بالسلم الذي مكنها من الوصول إلى العظمة «لتحرم الدول الباقية من الصعود على أثرها، بل وأن تبشر الأمم الأخرى بفائدة ونفع التجارة الحرة وأن تعلن بنغمة مليئة بالشعور بالخطأ بأنها قد تخبطت في الطرقات الخاطئة، وأنها قد نجحت لأول مرة في اكتشاف الحقيقة»[1].

***

(١) "ليست" – ذات المرجع ٢٩٥ – ٢٩٦.
ونجد تعليقاً مماثلاً لشمولر ص ٧٩ – ٨٠ وإن كان حديث شمولر قد جاء أقل عنفاً، كما نجد نقداً نازياً حديثاً بقلم ب. و. شرودر تحسن مراجعته في هذه الدراسة، وقد جاء نقد شرورد في بحثه المعنون "نظرات في كتاب ثروة الأمم لآدم سمث" نشر في تقويم شمولر المجلد ٦٣ لعام ١٩٣٩ العدد ٣ ص ١-١٦.

[٣]

ولقد أشار فرانسيس بيكون(*) منذ أكثر من ثلاثمائة عام إلى أن قدرة الأمة على الدفاع عن نفسها تتوقف على ممتلكاتها المادية بدرجة أقل من توقفها على روح الأهلين، وأنها تعتمد على المدخر من الذهب بأقل من اعتمادها على عزيمة وإصرار التنظيم السياسي[1] لها؛ ولا بد أن آدم سمث كأستاذ للفلسفة المعنوية كان على دراية تامة بأعمال بيكون، وعلى أية حال فإنه كان يعتقد بأن «أمن كل مجتمع يجب أن يتوقف بدرجة ما كبيرة أو صغيرة على الروح الحربية للأهلين، على أن الروح الحربية وحدها ـ دون أن يعاونها جيش قائم جيد الضبط والربط ـ ربما لا تكون كافية للدفاع ولا لأمن أي مجتمع، ولكن حيثما تتوافر لكل مواطن روح الجندي فمن الضروري أن يتوافر أيضًا جيش صغير قائم يستند إلى هذا المجتمع»، وقد سار سمث إلى أبعد من هذا في اعتقاده بأنه: «وإن كانت الروح الحربية للأهلين عديمة النفع في الدفاع عن المجتمع إلا أنه للحيلولة دون انتشار هذا النوع من التشتت العقلي والاضطراب الاجتماعي والتخاذل الذي يكون الجبن أو الخذلان متغلغلًا فيه، لمنع انتشار هذا كله وسط مجموعات الأهلين يتطلب الأمر انتباه الحكومة، بل وأن تعنى الحكومة بهذا في نفس الصورة التي تعنى بها لمنع

(*) فرانسيس بيكون بارون ڤيرولام فيكونت سانت البان (١٥٦١ - ١٦٢٦) فليسوف وسياسي إنجليزي.

(١) Essays Civil and Moral, No. ١٩ "Of the Greatness of Kingdoms and Estates" In the Works of Francis Bacon, edited by James Spedding VII "Boston ١٨٤٠".

انتشار الأمراض والأوبئة وإن كان انتشار هذه الأمراض بين مجموعات الأهلين ليس خطيرًا ولا قاتلًا ولا مدمرًا» وإنما عن طريق «التدريب العسكري الذي تعاونه الحكومة يمكن الاحتفاظ بالروح العسكرية للأهلين بدرجة مؤثرة»[1]، وعلى مدى القرن التاسع عشر كان الكثيرون من مريدي سمث وأشياع مدرسته ـ بخاصة كوبدن وبرايت[*] ـ يدعون لحرية التجارة بإخلاص، كما أنهم كانوا مسالمين عن عقيدة غير راضين عن الحروب، وكان من الطبيعي أن هؤلاء كلهم ما كانوا ـ وهم أصحاب آراء تقدمية متحررة ـ أن يسجلوا مثل هذه العقيدة التي جاء بها سمث عن التدريب العسكري للاحتفاظ بالروح العسكرية.

وقد كانت هناك مشاعر عميقة بين المجتمعات الأنجلو / أمريكية ضد «الجيوش العاملة الدائمة» وإنشائها والاحتفاظ بها؛ فإن الموقع البحري للجزر البريطانية مكن مجلس العموم البريطاني من أن يتخبط طويلًا في مناقشة موضوع الدفاع الأهلي. وقد أدى التنافس الطويل بين البرلمان والملك، «هذا التنافس الذي كان الجيش ـ على مداه ـ آلة في يد آل ستيوارت»[**] من زيادة الاعتقاد بأن الجيش المحترف يعتبر خطرًا على الحرية الأهلية، وقد احتفظت الدول الأوروبية التي تنافس بريطانيا بجيوش دائمة كبيرة كدعامة لقوتها، بل واستطاعت أن تصل بالجنود المحترفين إلى

---

(١) ثروة الأمم، المجلد الأول، ص ٧٣٧ – ٧٤٠.

(*) كوبدن ريتشارد، اقتصادي إنجليزي (١٨٠٤ – ١٨٦٥) نشر الأفكار الحرة المتداولة في عصره.

جون برايت سياسي إنجليزي من حزب الأحرار (١٨١١ – ١٨٨٩). "المترجم"

(**) آل ستيوارت: أسرة اسكتلندية ينتسب إليها كثيرون من ملوك انجلترا منهم ماري ستيوارت وشارل الأول وشارل الثاني وغيرهم. "المترجم"

تقدم كبير في التنظيم العسكري وفي فن الحرب»[1]، على أن البرلمان مع هذا استمر في وقت السلم يحتفظ بجيش كبير العدد، كما تبع هذا استمرار النظام غير الصحيح المدمر للقوى المعنوية من إسكان الجنود مع الأهلين، والاعتماد على الميليشيا لإمداد الجيش باحتياجاته من الرجال، وقد هاجم الشاعر دريدن هؤلاء الجنود من الميليشيا في قصيدته «سيمون واڤيچينيا»:

«إن الأرض لتمتلئ بصرخات الفزع عالية».

«عندما ينساب جنود الميليشيا في الحقول».

«إنهم أفواه بلا أيد يتطلب إطعامها النفقات الطائلة».

«وهم في السلم يهاجمون ويهددون.. فإذا جاءت الحرب كانوا ضعافًا في الدفاع عن البلاد».

«إنهم يسيرون مرة كل شهر خلف موسيقى صاخبة».

«ودائمًا هم في المقدمة إلا إذا كانت هناك حاجة ملحة لسواعدهم فإنهم يتقاعسون..».

وقد كتب مكاولي[*] في نهاية القرن السابع عشر: «ولا يمكن أن يقرر أي

(١) راجع الفصل الثاني – ولدراسة أكبر لآراء سمث الخاصة بالجيوش العاملة راجع على التخصيص المقال القيم للعلامة السير تشارلس بولوك الأستاذ بجامعة هارفارد. Charles J. Bullock "Adam Smith's Views upon National Defence", Military Historian and Economist, I (١٩١٧), ٢٤٩ – ٢٥٧.

(*) مكاولي – تاماس بابينجتون بارون ماكاولي (١٨٠٠ – ١٨٥٩) مؤرخ وسياسي تعلم في جامعة ترنيتي بكمبردج، عمل في الصحافة ودخل مجلس العموم عام ١٨٣٠، ورحل إلى الهند للعمل بها لخمس سنوات متتالية حيث وضع القانون الجنائي للقارة الهندية، ولما عاد إلى بريطانيا عاد من جديد لمجلس العموم، واشتغل لعشر سنوات بين عام ١٨٣٩و ١٨٤٩ في كتابة تاريخ انجلترا، وقد غطى في كتابه المدة من ثورة كروموبل حتى موت=

من الرجال المسئولين أن سياستنا التقليدية يمكن أن تعيش جنبًا إلى جنب مع وجود جيش دائم، لقد كان (الأحرار) يكررون بأن الجيوش الدائمة قد دمرت التعاليم الحرة التي جاء بها جيراننا من الأمم الأخرى، وكان (المحافظون) يقولون دائمًا بأن الجيش الدائم العامل تحت إمرة كروموبل قد حارب الدين واضطهد النبلاء وذبح الملك، ولا يستطيع زعيم أي حزب ما لم يعرض نفسه للاتهام بالخبل والجنون أن يقترح بأن يكون الجيش من المنشآت الدائمة في حياتنا»[١].

كان هذا هو الموقف، عندما كان سمث أستاذًا للفلسفة في جامعة جلاسجو (١٧٥٢ ـ ١٧٦٣) وألقى محاضراته القيمة عن «العدالة» و«البوليس» و«الميزانية» و «الأسلحة»[٢] وفي هذه المحاضرات افترق سمث عن أستاذه الشهير فرنسيس هتشنسون[*] الذي عارض إنشاء الجيوش العاملة على أساس أن الفنون والفضائل العسكرية قد باتت حلية المواطنين الأشراف، وأن صناعة الحرب يجب ألا تكون حرفة دائمة لأي فرد، بل إن الجميع يجب أن يقوموا بها على التوالي، كل في دوره[٣]؛ وقد بدا هذا لسمث على أنه برنامج غير عملي، ووقف وقفة قوية للدفاع عن إنشاء الجيش

=چون الثالث. وقد صدر الجزء الخامس من الكتاب بعد وفاته بعامين. معجم دائرة المعارف البريطانية مجلد ٣، ص ٤٥٣. "المترجم"

(١) "تاريخ انجلترا" طبع بوستون جزء ٤، ص ١٨٦ – ١٨٧.

History of England (Riverside edition: Boston)

(٢) قدمها إدوين كانان طبع أُكسفورد عام ١٨٩٦ عن مذكرات دونها طالب في عام ١٧٦٣.

(*) فرنسيس هتشنسون أيرلندي الأصل أستاذ الفلسفة والدراسات الاجتماعية، له عدة مؤلفات قيمة عاش من ١٦٩٤ إلى عام ١٧٤٧. "المترجم"

(٣) "مقدمة قصيرة للفلسفة المعنوية" لفرنسيس هتشنسون في مُجلدين طبع جلاسجو ١٧٦٤ المجلد الثاني ٣٤٨ – ٣٤٩. Francis Hutcheson, a Short Inroduction to moral philosophy.

المحترف.

ولم ينكر سمث أن الجيش العامل قد يكون تهديدًا لحرية الأفراد؛ فإن كروموبل قد ألقى بالبرلمانيين من الباب مستندًا إلى الجيش، ولكن سمث كان يعتقد أن من الممكن ـ بالاحتياطات الصحيحة السليمة ـ أن يكون الجيش عضدًا للسلطة الدستورية لا وسيلة للقضاء عليها؛ وعلى أية حال فإن الأمن يتطلب قوة مسلحة مدربة تدريبًا عاليًا جيدة النظام. وإذ ذاك فقط تستطيع الدولة أن تطمئن إلى جدها في خوض المعارك، فلا يمكن للميليشيا ـ مهما دربت ومهما كان ضبطها جيدًا ـ أن تحل مكان الجنود المحترفين وبخاصة في عصر جعل فيه لتطور الأسلحة النارية أهمية كبيرة للتنظيم والنظام أكثر مما للمهارة الفردية والشجاعة، ولهذا فإن المطالب الأولية للاحتياطات العسكرية تتطلب أن يفسح كل من الشك التقليدي في الجيش المحترف والاستخدام التاريخي للميليشيا الطريق للحاجة الملحة التي وضحت في كل عصر؛ وهي ضرورة إنشاء جيش عامل، ثم إن المبادئ الاقتصادية الصحيحة تتطلب أن تكون الحرب صناعة وحرفة لا هواية.

وقد كتب سمث: «لما كان فن الحرب على التأكيد أنبل الفنون فإنه من الضروري أن يجعله تقدم تطوره من أكثر الفنون تعقدًا، فإن الصورة الآلية التي من الضروري أن ترتبط به ـ والتي ترتبط أيضًا ببعض الفنون الأخرى ـ هي التي تحدد درجة الكمال التي تجعل «فن الحرب» صالحًا لأن تنفذ عملياته في زمن محدد معين؛ ولكن لكي يمكن أن يصل إلى هذه الدرجة من الدقة فمن الضروري أن يكون الصناعة الوحيدة والرئيسية لطبقة خاصة من المواطنين، والتخصص هنا لازم للتقدم الفني لصناعة الحرب. كما هو ضروري بالنسبة لأي فن آخر، إن التخصص في الفنون الأخرى يجيء تابعًا

لاتجاهات الأفراد بكل جهودهم ونشاطهم إلى حرفة خاصة واحدة فيصلون إلى درجة من المهارة في هذا الفن أكثر مما يصلون إليه بتوزيع جهودهم بين حرف وصناعات عدة، ولكن حكمة الدولة وحدها هي التي تجعل حرفة الجندية حرفة خاصة منفصلة انفصالًا تامًّا عن غيرها؛ إن المواطن الذي يقضي الجزء الأكبر من وقته إبان السلم في التدريب العسكري دون أي تشجيع من جمهرة الناس يستطيع بلا شك أن يصل إلى درجة كبيرة من التقدم في هذا التدريب وأن يشبع هوايته ورغبته، ولكنه بلا شك أيضًا لا يستطيع أن يتقدم بمصالحه الخاصة، وهنا تكون حكمة الدولة وحدها هي التي تجعل من مصلحته أن يعطي الجزء الأكبر من وقته لهذه الصناعة الخاصة؛ على أن هذه الحكمة لم تكن موفورة دائمًا لكل الدول حتى وإن كانت ظروف وجودها تتطلب هذا»[١].

ولقد كان من اتفاق الحوادث ـ وهو أمر كانت له قيمته الخاصة المميزة بالنسبة للشعوب التي تتكلم الإنجليزية ـ أن حدث في عام ١٧٧٦ طبع كتاب «ثروة الأمم»، كما حدث أيضًا «إعلان الاستقلال»[*]، وقد ناقش آدم سمث طويلًا علاقة بريطانيا بمستعمراتها الأمريكية، وكان ما قاله من الأهمية لكل من يدرس تاريخ بريطانيا وأمريكا؛ على أنه من الضروري

(١) ذات المرجع الكتاب الخامس الفصل الأول ص ٦٥٨ – ٦٥٩؛ وبالإضافة إلى هذا راجع "المحاضرات" الجزء الرابع.

(*) "إعلان الاستقلال" – أعلن استقلال أمريكا في الرابع من يوليو عام ١٧٧٦، وشمل هذا الإعلان ثلاث عشرة ولاية تحت اسم "الولايات المتحدة الأمريكية" وقد اضطر الإنجليز لإعلان هذا الاستقلال بعد هزيمتهم بواسطة واشنطون، واعترفت حكومة لندن بسيادة الولايات المتحدة في معاهدة ٣ سبتمبر سنة ١٧٨٣، وكان واشنطون أول رئيس للجمهورية. "المترجم"

لأغراض دراستنا هذه أن نعنى فقط بوجهات نظر سمث، فيما يختص بالسياسة الاستعمارية، فلقد اعتقد أن السياسة الاستعمارية لا ثمار لها من الناحية التجارية، ومع أنه فكر في أن الأمريكيين لم يقاسوا في الحقيقة بسبب التحديات التي فرضتها الدولة الأم أي بريطانيا، مثل هذه التحديدات التي استهدفت منع اختراق الحقوق المقدسة للجنس البشري كتحريم الإتجار بالرقيق الأمر الذي فرض على أمريكا بواسطة الطبقات الرسمية وطبقة التجار في انجلترا، فقد رأى أن قيمة المستعمرات في التنظيم الاستعماري يجب أن تقاس على أساس القوات العسكرية والأموال التي يمكن لهذه المستعمرات أن تقدمها للدفاع عن الإمبراطورية ولمعاونتها في نفقات الدفاع. وعلى ضوء هذه الآراء فإن المستعمرات الأمريكية لم تكن ذات نفع مادي لبريطانيا؛ فإنه لم يكن حسبها ألا تسهم بشيء في الدفاع عن الإمبراطورية، بل إنها كانت تحتاج قوات إنجليزية للدفاع عنها وقد جعل هذا «الوطن الأم» يشتبك في حرب غالية الثمن ضد فرنسا[١]، ولو وضع الأمر على أساس موازنة مالية تجارية لكان من الأصلح أن تكون بلا مستعمرات.

وهذه وجهة نظر لها قيمتها في أمر الإمبراطورية، ولعلها كانت يومًا ما موجهة لنيقل تشمبرلين[*]، ولكن سمث لم يقترح أن تنزل بريطانيا عن

(١) كان من الواضح أن سمث قد أخطأ في قوله إن كل نفقات حرب السبع السنوات والحروب التي سبقتها يجب أن تحتسب على المستعمرات. فقد كانت هناك مشكلات في القارة تحتمل نصيباً من دوافع الحرب، ونجد النقاش حول المستعمرات في الفصلين السابع والثامن من الكتاب الرابع.

(*) آرثر نيقل تشمبرلين (١٨٦٩ - ١٩٤٠) ولد في برمنجهام، أصغر أنجال جوزيف تشمبرلين، تعلم في جامعة برمنجهام، عمل في زراعة الأرض في جزر البهاما ثم عاد إلى=

مستعمراتها وأن توافق على الاستقلال الذي كان الأمريكان يطلبونه لبلادهم يومذاك، فإنه كان يرى «أن اقتراح مثل هذا الإجراء لم تتخذه من قبل ولن تتخذه فيما بعد أية أمة في العالم، فإنه لم يحدث قط أن نزلت أمة بالتطوع عن سيادتها على أية أرض مهما كانت الصعوبات التي تواجهها لحكمها، ومهما قلت القيمة المالية التي يمكن أن تقدمها هذه الأرض بالنسبة للنفقات التي تنفق عليها، مثل هذه التضحيات قد تكون صالحة من ناحية التفكير في المصالح إلا أنها دائمًا قاتلة لكبرياء الأمة، هذا فضلًا عن أنها تضاد دائمًا المصلحة الخاصة للطبقة الحاكمة في هذه الأمة، هذه الطبقة التي ستحرم إذ ذاك من الكثير من النفع والفائدة، بل ومن الفرص الكثيرة للحصول على الثروة والمكانة الأمرين اللذين لا تفشل حتى أقل المناطق نفعًا في تحقيقهما»(١).

=بريطانيا فعمل في عدة أعمال عامة، عمل إبان الحرب العالمية الأولى في مجلس الرقابة، ثم تولى عمدية برمنجهام ١٩١٥ – ١٩١٦ وعمل على تأسيس البنك المركزي بها، انضم للمحافظين وكان وزيراً للصحة في وزارة بلدوين. كان رئيس الوزارة الإنجليزية في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية وقام برحلات إلى ميونخ للتفاهم مع هتلر، تولى إعلان الحرب على ألمانيا واستقال في العاشر من مايو سنة ١٩٤٠ عندما غزت ألمانيا الأراضي الواطئة. "المترجم"

(١) نفس المرجع ص ٥٨١ – ٥٨٢، وقد يكون جميلاً أن نقارن آراء سمث عن المستعمرات بآراء جيريمي بنثام أصدق مُريدي سمث، فإن بنثام قد وافق على أن المستعمرات تتكلف الكثير ولكنه سار إلى أبعد من هذا ووقف في جانب تصفية بريطانيا لمستعمراتها وأن تنفض يدها من كل محاولة للحصول على مستعمرات جديدة. (راجع أصول القانون الدولي في المؤلفات التي جمعها جون بورنج المجلد الثاني طبع أدنبرة عام ١٨٤٣، وعلى الأخص الصفحات ٥٤٨ – ٥٥٠).

(*) قد لا يكون من محل هنا لمناقشة آراء سمث الخاصة بالمستعمرات ولكن بالإضافة إلى تقديم آراء جيريمي بنثام فقد يكون من المفيد أن أذكر هنا مؤلفاً حديثاً لكاتب من ألمع=

وقد تنبأ سمث بأن الحرب لاستقلال أمريكا ستكون حربًا باهظة النفقات طويلة الأمد، بل إنه تنبأ بأن من الممكن أن يحصل المستعمرون على النصر، أولئك الذين سيتحولون من تجار وعمال حوانيت ومحامين إلى ساسة ومشرعين، والذين سيستخدمون لتكوين صورة جديدة لحكومة تخضع لها أرض واسعة، وستكون كما هو من الواضح واحدة من أعظم وأقوى الدول في العالم[1].

وكان سمث محقًّا لأنه من بين المحامين الذين تحولوا إلى ساسة كان ألكسندر هاملتون الذي يعتبر عملاقًا بين عظماء الرجال الذين جاءوا إلى الوجود بالولايات المتحدة الأمريكية.

***

=كتاب العصر الذي نعيش فيه هو جورج بادمور في كتابه "أفريقيا الإمبراطورية البريطانية الثالثة" طبع لندن عام ١٩٤٨. "المترجم"

(١) نفس المرجع ص ٥٨٧ – ٥٨٨.

[٤]

والواقع أن حياة آدم سمث ـ فيما عدا رحلته في قارة أوروبا التي استغرقت زهاء السنتين بين ١٧٦٤ و ١٧٦٦ ـ قد أوقفت كلها خالصة لطراد مستمر للدراسات الأكاديمية؛ كان طالبًا في جلاسجو وأكسفورد ومحاضرًا في أدنبرة، ثم عمل أستاذًا للمنطق فأستاذًا للفلسفة المعنوية في جلاسجو، فلما عاد من أوروبا اتجه بكلياته لإتمام مؤلفه الكبير «ثروة الأمم» الكتاب الذي طبع قبل موته بأربع عشرة سنة.

ولكن ألكسندر هاملتون كان من طراز آخر كان رجل عمل من فجر حياته، إذ بدأ من بكورة حياته غير مجدود.

كان هذا في (نيڤيس)(*) إحدى جزر الهند الغربية، ولم يكن والده في نعمة من الحياة بل كان مكدودًا، ولما ماتت أمه عام ١٧٦٨ كان هو (هاملتون الابن) في الحادية عشرة من سنه، ومع هذا فقد اضطر أن يشق طريقه في العالم، فعمل كاتبًا في متجر عمومي ثم رحل إلى نيويورك حيث التحق بجامعة الملك «جامعة كولومبيا فيما بعد» في عام ١٧٧٣ ، وفي أقل من عام انغمر في خضم حرب النشرات، الحرب التي سبقت الثورة الأمريكية، وقد نال شهرة ككاتب من أقوى وأعنف كتَّاب عصره؛ وفي عام ١٧٧٦ انضم إلى الجيش ونال رتبة عسكرية، وحارب مع واشنطون في لونج آيلاند

(*) نيفيس من المجموعة التي تقع بين خط الطول ٦٥ غرباً وخط العرض ٧ الشمالي، يُطلق عليها أيضاً اسم سان كريستوف ويُسميها الفرنسيون "تحت الريح" (سولوفان) تعداد سكانها ٣٦٠٠٠، وأهم بلادها (باس تير) أي الأرض الواطية. "المترجم"

وهوايت بلينز وتريتتون وبرنسيتون، وفي مارس ١٧٧٧ وهو في العشرين من عمره عين سكرتيرًا عسكريًّا للقائد العام برتبة الليفتينانت كولونيل؛ ولم يكن هاملتون مستشارًا لواشنطون وموضع ثقته وحسب، بل كان أيضًا الكاتب لسلسلة من التقارير عن تنظيم الجيش وإدارته[1]، وتولى بعد فترة من الوقت قيادة آلاي مشاة في فيلق لافاييت، وقد أبدى جرأة وشجاعة في معركة (يورك تاون)، وقد استمرت حياته العسكرية بعض الوقت بعد انتهاء الثورة، وفي عام ١٧٩٨ رقي إلى رتبة ميجر چنرال وعين مفتشًا عامًّا للجيش وقائدًا ثانيًّا لواشنطون على أن يعد العدة للحرب ضد فرنسا.

وكان دور هاملتون في إيجاد عهد (آنا بوليس وفيلادلفيا) ـ والأكثر من هذا خدمته الممتازة في ضمان وتأكيد الدستور ـ معروفًا واضحًا ولا يحتاج إلى تعليق، وإلى جانب العديد من النشرات الحكومية فإن تحريره لأكثر من نصف ما نشرته جريدة «الفدرالي» يكفي وحده لأن يضعه في مرتبة عالية بين الكتاب السياسيين، وكان أقوى أعضاء وزارة واشنطون عارضة وحجة، وأسلسهم خطابة مما جعله يتجول دائمًا في ميادين بعيدة كل البعد عن واجباته كوزير للخزانة.

وفي السنوات بين عام ١٧٨٩ ـ ١٧٩٧ فعل أكثر مما فعله أي شخص آخر في صياغة وتوجيه بواكير مبادئ السياسة القومية للولايات المتحدة،

(١) توجد أوراق هاملتون العسكرية في المُجلدين السادس والسابع لمجموعة أعماله التي جمعها هنري كابوت لودج في اثني عشر مُجلداً طبع نيويورك ولندن عام ١٩٠٤.

Hamilton's Collected Works, edited by Henry Cabot Lodge, Federal Edition, ١٢ Vols. "New York and London, ١٩٠٤".

وقد انتهى بعض هذه المبادئ ليكون تقليدًا[(١)] مرعيًّا ثابتًا، وكانت وفاته المحزنة في عام ١٨٠٤ وهو في السابعة والأربعين من عمره خسارة قومية[(*)].

ويعتبر هاملتون بالنسبة لدارسي المسائل العسكرية حلقة الاتصال بين آدم سمث وفردريك ليست، وكان هاملتون على دراية تامة بكتاب «ثروة الأمم» بل وكان يضعه أمامه عندما كتب بمعاونة «تنش كوكس»[(**)] تقريره المهم «تقرير عن الصناعات»[(٢)].

---

(١) لما لم تكن هناك دراسة مرضية كافية عن حياة هاملتون فربما كان المقال الذي كتبه ألا نيڤيس في قاموس الشخصيات الأهلية أحسن مورد لحقائق حياته، وقد حرر هذا المقال بالمهارة التي عرف واشتهر بها واحد من أقدر المؤرخين الأمريكان.

(*) كانت حياة هاملتون الخاصة مأساة، والواقع أن حياته بعد سنة ١٨٠٠ كانت مليئة بالمآسي فقد قتل ابنه الأكبر فيليب في مبارزة وجُنت ابنته أنجليكا، وبالرغم من أنه كان يعتني بامرأته التي كانت إذ ذاك حاملاً بطفله الثامن إلا أنه لم يكن مخلصاً فقد كان على علاقة بماريا رينولدز الأمر الذي جعله يغض بصره عن نشاط زوجها الاستغلالي، وقد أكسبه اختيار چيفرسون لرياسة الولايات المتحدة خصومة هارون بور، ولعله شعر بأن حملته على بور، كانت قاسية عنيفة وأن من حق بور أن يحصل على ترضية كافية وفي فجر الحادي عشر من يوليو سنة ١٨٠٤ التقى الرجلان بشهودهما في مرتفعات جيرسي قرب ونهوكن، وتبادل الرجلان رصاصتين الواحدة إثر الأخرى ودار هاملتون لليسار ثم سقط على وجهه مُصاباً بجرح داخلي في الكبد، وقد اخترقت الرصاصة الكبد واستقرت في العمود الفقري، وقد نُقل إلى منزل مستر بايار في جرينويتش وهو يلفُظ أنفاسه الأخيرة وقد جاءت هذه الحقائق في كتاب:

Wiglliam Coleman, A Collection of the Facts and Documents relative to the Death of Maj. Gen. Alexander Hamilton (N. Y. ١٨٠٤) pp. ١٢ – ٩٠ Alexander Hamilton History Today. March ١٩٥٧ pp. ١٨٢ – ١٨٩: راجع "المترجم"

(**) تنش كوكس Tench Coxe معاون هاملتون في وزارة المالية وأحد كبار رجال مدرسة فيلادلفيا التي كانت تدعو لآراء هاملتون في الاقتصاد وبخاصة من الناحية التحفظية الوقائية.

(٢) تبدو هذه الحقيقة واضحة في الموضوع الذي كتبه و. س. كولبرتسون بعنوان (الكسندر=

وقد اتفق مع سمث في حكمة وضرورة وجود جيش محترف، كما اتفق أيضًا في بعض المسائل الخاصة بالسياسة الاقتصادية والتي تتصل بالدفاع القومي!!

وقد وضح تأثير هاملتون في فردريك ليست في الكثير مما كتبه الأخير، على أنه في ضوء اتفاق وجهة نظر ليست مع الجماعة صاحبة الآراء التحفظية في الولايات المتحدة والتي تشتمل أيضًا على ماتيو كاري، فمما لا شك فيه أن ليست قد اعتبر الـ «تقرير عن الصناعات» مرجعًا للاقتصاد السياسي، ***والواقع*** أنه كان يطلب معاونة هاملتون من حين إلى حين، ويوجد دليل واضح قوي في كتابات ليست تثبت أن آراء هاملتون كانت تحتل مكانًا ممتازًا في كتاب ليست «النظام القومي» أو «الطريقة الأهلية»[1].

وكان ويليام جراهام سومنر من أصحاب فكرة حرية التجارة ولهذا فإنه كناقد لا يتمشى مع آراء هاملتون فقد قال عن نظريات هاملتون في السياسة

=هاملتون). Alexander Hamilton. By W. S. Culbertson (New Haven ١٩١١) نيو هافن ١٩١١ ص ٩٠ و ١٠٧ – ١٠٨ و ١٢٧ – ١٢٩؛ راجع أيضاً مقال إدوارد بورن (الكسندر هاملتون وآدم سمث) مجلة الاقتصاد، المجلد الثامن أبريل ١٨٩٤ ص ٣٢٨ – ٣٤٤، أما عن دور تنش كوكس فراجع الهامش رقم ٦١.

(١) راجع مقال ويليام فوتز فردريك ليست في أمريكا مجلة الاقتصاد الأمريكي المجلد السادس عشر يونيو سنة ١٩٢٦ ص ٢٤٩ – ٢٦٥، وكان الدكتور نوتز أحد الذين جمعوا كتابات «ليست»، وتعتبر مقدمته التي تُثير الإعجاب والتي قدم بها المجلد الثاني من أعمال «ليست» طبع برلين عام ١٩٣١ – ص ٣ – ٦١، أحسن مرجع للسنوات التي قضاها ليست في أمريكا وأثرها في حياة ليست جميلة، أما عن تأثير هاملتون في ليست فيرجع فيه إلى مقال س. ميتزل .C. Meitzel عن هاملتون في Handworterbuch der Staatswissenschaften الطبعة الرابعة عام ١٩٢٣، ٢١. وكتاب م. هيرست "حياة فردريك ليست" طبع لندن ١٩٠٩ ص ١١٢ – ١٨١. M. E. Hirst, Life of Friedrich List

القومية إنها «هي التنظيم القديم لسياسة التجارة والتي جاءت بها المدرسة الإنجليزية ولكنها عدلت لتتفق مع موقف الولايات المتحدة»[١]؛ وقد يكون في هذا القول بعض القيمة ولكنه لا يدل على أن هاملتون نصير أو مقلد أعمى للعقائد التي جاءت بها السياسة التجارية كما وضحت فيما سبق[٢].

على أن أصحاب نظريات السياسة التجارية من الأوروبيين يعتبرون مسئولين عن أمرين منفصلين بعضهما عن بعض، ولكنهما وثيقا الصلة بعضهما ببعض:

١ـ الوحدة القومية كما تقف موقف القضاء من العناية الخاصة بمصالح الفرد وممتلكاته.

٢ـ تطور موارد الأمة مع عناية خاصة بإمكانياتها.

وكان هاملتون على التحقيق قومي الاتجاه، وكان بلا شك يؤمن باستخدام السياسة الاقتصادية كآلة للوحدة القومية وللقوة الأهلية، وفي الغالب يمكن أن ينسب كل ما قال وكل ما اعتقد إلى هذه النظرية المركزية في صورة ما، فإن دفاعه عن الاقتصاد القومي المعني به والذي يشتمل أيضًا على الصناعات. وتوصياته بشأن الدين العام وبخاصة ما جاء عن تصفية ديون الولايات وإيمانه بمشروع المصرف الأهلي، ونظرياته في السياسة الخارجية والأمن ثم عقائده في سلطات الحكومة الفدرالية، وتعهداته بتشجيع صناعة الذخائر بل وإذا لزم الأمر أن يسيطر عليها بواسطة الأمة،

---

(١) الكسندر هاملتون بقلم و. ج. سومتر نيويورك ١٨٩٠، ص ١٧٥. W. G. Summer, Alexander Hamilton

(٢) راجع القسم الأول من هذا الفصل.

وتقاريره عن السياسة العسكرية ومقترحاته الخاصة بالأسطول بل وحتى اتجاهاته نحو الحكومة الديمقراطية؛ كل هذه يمكن أن توضح جيدًا: أولًا: شغفه الكبير بالوحدة الأهلية، وثانيًا: تقديره وعنايته بالقوة الاقتصادية والسياسية للأمة.

على أن المشكوك فيه من ناحية أخرى أن آدم سمث كان بحيث يستطيع أن يكتب خلاصة أكثر عدالة لقضية التجارة الحرة مما كتبه هاملتون في بحثه «تقرير عن الصناعات»، البحث الذي قدم للكونجرس في الخامس من ديسمبر عام ١٧٩١[١]؛ وبالإضافة إلى هذا فقد قال هاملتون: «أنه إذا سيطر نظام ما خاص بحرية الصناعة والتجارة وكان لهذا النظام أثره في توجيه الأمم في صورة عامة أكثر مما كان لأي نظام سابق، فإنه قد يكون هناك مجال للظن بأنه ربما كان من الممكن السير بهذه الأمم إلى العظمة والرخاء بأسرع مما استطاعت أن تصل إليه لاتباعها من الحكم والآراء ما يكون معارضًا تمامًا لما اتبعه من قبل».

وهنا يمكن أن يتوافر تقسيم دولي حقيقي للعمل من أجل صالح الجميع ونفعهم، ولكن حرية التجارة والتبادل لم تتغلب على هذا بل من الواضح أن العكس هو الذي كان، وقد عملت دول أوروبا وعلى الأخص هذه التي استطاعت أن تتقدم صناعيًّا «على أن تضحي بمصالح التعاون المتبادل في سبيل أن تبيع كل شيء ولا تشتري شيئًا»، وكنتيجة لهذا «فإن الولايات

(١) "أعمال هاملتون" الكتاب الرابع ٧٠ – ١٩٨ وعلى الأخص الصفحات ٧١ – ٧٣ و ١٠٠ و ١٠١، وقد جاء التقرير أيضاً في مجلد جَمَعَهُ صمويل ماكي

Samuel Mackee, Jr., Papers on Public Credit, Commerce, and Finance by Alexander Hamilton (New York, ١٩٣٤).

المتحدة باتت إلى حد ما في موقف الدولة التي حرمت من التجارة الخارجية» وأن تقبل أن تقف موقفًا سلبيًّا من الاتجار مع أوروبا على أسس متعادلة؛ ويتابع هاملتون حديثه فيقول: «وهذه الحقائق لا تقال على أنها أسلوب للشكوى فإن على الأمم التي تقوم تشريعاتها على هذه السياسة أن تقرر ما إذا كانت تهدف إلى أبعد مما يجب، وأنها تفقد أكثر مما تجني، وعلى الولايات المتحدة أن تقرر الوسائل التي تستطيع بها أن تجعل نفسها أقل اعتمادًا على التمشي ـ إن صوابًا أو خطأً ـ مع السياسة الخارجية للدول الأخرى»[١].

ويقدم هذا البرنامج الذي جاء في «تقرير عن الصناعات»، يقدم هاملتون على أنه اقتصادي قومي، وقد قال هاملتون أن هدفه هو النهوض بمثل هذه الصناعات، «وأن يعمل لجعل الولايات المتحدة في اكتفاء ذاتي عن الدول الأخرى من ناحية احتياجاتها العسكرية ولمطالبها من الضروريات الأخرى»[٢]؛ وقد اقتنع هاملتون بأنه ليس الثراء وحده، بل إن الاستقلال والاكتفاء الذاتي للدولة هو الذي يرتبط ماديًّا برخاء وازدهار الصناعات، وأن كل أمة تكون هذه الأهداف العظيمة من وجهات نظرها يجب أن تعمل لتتملك في داخلية أرضها كل الاحتياجات الأهلية بما في هذا وسائل الإعاشة والإقامة والكساء والدفاع».

ويقول هاملتون: «إن تملك هذه المطالب ضروري لكمال الكيان

(١) نفس المرجع ٧٣ و ١٠٠ ـ ١٠٢.

(٢) نفس المرجع ص ٧٠؛ قارن هذا بما قاله واشنطون في أول رسالة سنوية إلى الكونجرس في عام ١٧٩٠ والتي جاء فيها: "إن سلامة ومصلحة أي شعب إنما يتطلبان أن ينهض هذا الشعب بالصناعات التي تجعله مستقلاً عن غيره في الضروريات وعلى الأخص الاحتياجات العسكرية".

السياسي، ضروري لسلامة ورفاهية المجتمع، ومن أجل العناصر الهامة في الحياة والدوافع السياسية، بل وكما هو ضروري أيضًا للتغلب على مختلف المشكلات التي تواجه الأمة، ولهذا فإنه من الواجب أن تشعر هذه الأمة بتأثير أي من صور هذا النقص، ولهذا فإن ما واجهته الولايات المتحدة من صعاب أثناء الحرب الأخيرة بسبب عدم كفاية الإمدادات بالمطالب لأمر واضح ولا يمكن أن يغيب عن الذاكرة، وسيكرر هذا الموقف نفسه من جديد في أي حرب مقبلة بسبب هذا النقص اللهم إلا إذا أمكن تغير الحال بجهد قوي يعد في الوقت المناسب؛ ولكي يمكن الوصول إلى هذا التغيير بأسرع ما يمكن يجب أن توجه كل مواهب وجهود أفراد المجالس العامة في اتجاه واحد لتحقيق هذا، إن هذا الأمر لهو العمل العظيم الذي يجب إتمامه».

«ويجب اعتبار احتياجنا إلى أسطول يحمي تجارتنا الخارجية ويمكن من استمرار سير هذه التجارة من الدعامات القوية التي تمكننا من الحصول على المواد الضرورية، كما أنه يمكن استخدام هذا الأسطول في نقاشنا من أجل الصناعات الوليدة في بلادنا»[1].

وقد آمن هاملتون بأن دولة حديثة العهد في الوجود كالولايات المتحدة لا تستطيع أن تنافس الدول الأخرى التي وطدت أقدامها في ميدان الصناعة كبريطانيا مثلًا، «وإمكان التنافس بيت التنظيمات الحديثة لدولة ما وبين التنظيمات القديمة ذات الماضي الطويل لدولة أخرى لمسألة غير عملية في أغلب الأحوال»؛ ولهذا فإن صناعات الدولة «الحديثة العهد بالصناعة» يجب أن تتمتع «بمعاونة الحكومة وحمايتها»[2]؛ ويجب أن تمتد هذه المعاونة

(١) نفس المرجع، ص ١٣٥ – ١٣٦ ..
(٢) نفس المرجع، ص ١٠٥ – ١٠٦ ..

وهذه الحماية إلى فرض الرسوم على الواردات الخارجية، وأن تشتد هذه الرسوم في بعض الأحوال حتى تكون صورة من صور المنع أو التحريم، وفي نفس الوقت يحد من تصدير بعض المواد الخام الضرورية مع تعويض منتجيها، وألا تفرض أي رسوم على استيراد المواد الخام وغيرها من الضروريات؛ وإذا كانت هذه هي حجة الدفاع عن الصناعات الوليدة فإنها هي أيضًا طابع السياسة التجارية للوصول إلى اكتفاء ذاتي مستقل.

وأشار هاملتون إلى ضرورة تقدير الأسس التي تفرض على ضوئها هذه الرسوم، كما يجب أن يوضع دائمًا موضع الاعتبار والتقدير عامل «الدفاع الأهلي» عند تشجيع الصناعات المحلية. ولهذا:

«يجب أن توضع الأسلحة النارية وعتاد الحرب في جدول أنواع المتاجر التي يفرض عليها رسم بمقدار (١٥٪) من ثمنها، إن في البلاد من المصانع ما ينتج هذه الأسلحة ولكن كل ما تحتاجه هذه المصانع هو توافر الوسائل المشجعة حتى يمكن إنتاج ما يكفي لمواجهة كل مطالب الولايات المتحدة».

«وسيكون من الوسائل المعاونة لهذه الصناعات، كما سيكون أيضًا من وسائل الأمن أن تشترى الأسلحة العسكرية من الصناعات المحلية سنويًا، وذلك ليضمن هذا بقاء مصانع الأسلحة ولإمكان استعواض ما يسحب منها للاستعمال، كما يمكن من توافر احتياطي في اليد للإمداد بالاحتياجات الضرورية».

«ولكن قد يتطلب الأمر دراسة الاعتبارات القانونية فيما إذا كانت مصانع الأسلحة الضرورية للحرب يجب ألا تنشأ على حساب الحكومة نفسها، فقد يبدو هناك إسراف في ترك هذه المواد الحيوية الضرورية للدفاع الأهلي للمخاطرات الفردية العارضة لاستثمار المال، وهو أمر قد لا يمكن



الكسندر هاملتون (١٧٥٧ – ١٨٠٤)

الاعتماد عليه إلى حد بعيد؛ فإن هذا الإنتاج ليس للاستعمال والاستهلاك الخاص كغيره من صور الإنتاج في الصناعات المدنية. إن القاعدة العامة هي تجنب الإنتاج المباشر على حساب الحكومة، ولكن إنتاج الأسلحة واحد من الاستثناءات القليلة لهذه القاعدة والتي يستند أمرها إلى أسباب خاصة قوية»[١].

ويؤكد «تقرير عن الصناعات» الفكرة التي تطورت إلى مدى بعيد بواسطة فردريك ليست والتي تقول إن أمة مختلفة الصور الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة تكون أكثر اتحادًا وتماسكًا في الداخل، وأقوى في علاقتها الخارجية بغيرها من الدول مما لو كانت صورها الاقتصادية غير هذا؛ ولكن هاملتون قد قدم أحسن آرائه في هذا البحث في مسودة خطاب واشنطون التي كتبها في صيف عام ١٧٩٦[٢].

وقد صور هاملتون كيف يمكن أن تتشابك الاقتصاديات المختلفة لتكون اقتصادًا قوميًّا موحدًا؛ فإن الجنوب الزراعي لا يمكن أن يسهم بنصيبه في الثروة القومية ولكنه يستطيع أن يسهم في الانتفاع بالقوة الصناعية التي للشمال، أما الغرب ـ وعلى الأخص بعد تطور وسائل النقل

(١) نفس المرجع، ص ١٦٧ – ١٦٨، وليست هذه هي أول مرة قدم فيها هاملتون مثل هذا الاقتراح فيما يختص بأسلحة الحرب والذخائر، فقد اقترح في عام ١٧٨٣ وهو يتولى رياسة اللجنة الخاصة التي كونها مجلس الكونجرس مثل هذا فقال: "ويجب العمل لتأكيد قدرتنا على إمداد أنفسنا بكل المواد اللازمة للحرب، وعلى أساس هذا الهدف يجب أن تنشأ المصانع الأهلية للأسلحة والذخائر" – نفس المرجع، ص ٤٦٧ – ٤٧٥.

(٢) لمطالعة النص الكامل وللإستزادة من التفاصيل يرجع إلى كتاب فيكتور بالتسيتس "خطبة الوداع لواشنطون"، طبع نيويورك لعام ١٩٣٥ وبخاصة ص ١٨٤ – ١٨٥، ويمكن إدراك المدى الذي انتفع به واشنطون لآراء هاملتون من مقارنة المسودة المشار إليها بالصورة النهائية التي جاء فيها هذا الخطاب، نفس المرجع، ص ١٤٣ – ١٤٤.

المختلفة ـ فيمكن أن توجد به أسواق طيبة للصناعات والتجارة الخارجية للشرق، كما أنه يمكن بالتبعية من تطور ثقل نفوذ ولايات الأطلانطيق ومواردها البحرية، وبالإضافة إلى هذا فإنه «حيثما يمكن أن يجد كل جزء مصلحة كبيرة في الاتحاد فإن كل أجزاء وطننا ستستطيع أن تجد استقلالًا كبيرًا بسبب الكثرة الهائلة من الإنتاج المتعددة الأنواع تبعًا للتباين في الجو والتربة»، وبذلك فإن جملة قوة الأمة التي تتحد معًا بمصالح اقتصادية واحدة ستتزايد في كل نواحيها، وهكذا فإن الولايات المتحدة تبعًا لتطور اقتصادها المتنوع ستستطيع أن تتمتع «بأمن من الخطر الخارجي، بل والأكثر من هذا أنها ستتخلص من هذه المشاكل والحروب بين الولايات المختلفة بسبب ما يثيره التدخل الأجنبي من خلافات بينها»، وعلى هذا كله فإن الأمة ستنتفع «من التحرر من الحاجة إلى المنشآت العسكرية والتي هي في كل دولة عامل مهدد للحرية»؛ وهكذا ربط هاملتون بين التنظيم الاقتصادي للأمة وبين أمنها.

وكان جدل هاملتون من أجل الأسطول البحري الأمريكي والبحرية التجارية الأريكية ـ في نفس الصورة ـ مزيجًا من السياسة والاقتصاد، وكان هاملتون يثق من أعماق نفسه بأن الولايات المتحدة ستكون قوة بحرية عظيمة وأن الرحلات المليئة بالمخاطر والتي يقوم بها أمريكيون يتجولون في كل نواحي الأرض، ثم هذه الروح التي لا مثيل لها والتي هي في حد ذاتها منجم لا ينضب من الثروة الأهلية. كل هذا قد أوجد «مشاعر القلق» بين الأوروبيين الذين «يبدو أنهم قد بدءوا يتفهمون تدخلنا الكبير في التجارة المنقولة التي هو معوان بحريتهم وأساس قوة أساطيلهم»؛ لقد استطاعت بعض الدول الأوروبية بواسطة تشريعات قانونية عنيفة أن تصل إلى عظمة

لها خطورتها، ولكن باتحاد قوى وأسطول بحري تجاري منتعش ومصايد كثيرة الإنتاج تكون وسيلة تفريخ لإعداد رجال بحريتنا، وسنستطيع بواسطة قوانين بحرية سليمة وبأسطول بحري أن نهدد محاولات صغار السياسيين المحترفين، وأن نسيطر على سير الطبيعة هذا السير الذي لا يقاوم ولا يمكن أن يتغير».

إن أسطول الولايات المتحدة قد لا يستطيع «منافسة أساطيل الدول البحرية العظمى» ولكنه يستطيع على الأقل أن يكون له «مكانة محترمة لو قورن بأي من الجانبين المتضادين» وعلى الأخص في منطقة جزر الهند الغربية، إن مكانتنا حتى مع عدد قليل من سفن القتال لأمر له قدره، وسيمكننا هذا من المساومة لنصل إلى نفع تجاري كبير، وبالإضافة إلى هذا «فسيكون هناك ثمن لحيادنا ولصداقتنا» في حال الحرب بين الدول الأجنبية، وهنا نظرًا «لاتباعنا المستمر لمبدأ الاتحاد قد نأمل في أن نستطيع الإبقاء على توازن القوى في هذا الجزء من العالم في الصورة التي تمليها مصالحنا»[1]؛ ولا شك أن هذا يوضح أن وضع الاستراتيچية لأمريكا في السياسة العالمية إنما تطور بواسطة آباء الجمهورية الأولين.

وقد تطلب هاملتون أن يكون للولايات المتحدة اقتصاد أهلي، ويمكن أن يسهم الأسطول البحري في سبيل هذا الغرض العظيم، كما يمكن أن يسهم اتحاد الاقتصاد والسياسة وتعاونهما معًا في نمو الأسطول من الناحية

(١) كل السطور والجمل التي جاءت في هذه الفقرة والفقرات التالية موضوعة بين أقواس «...» منقولة عن العدد الحادي عشر من مجلة "الفدرالي" بمعنى أنه يجب أن نلاحظ أن هاملتون لم يكن يهدف إلى تعقب سياسة توازن القوى في أوروبا ..، راجع "الأعمال" المُجلد التاسع ص ٣٢٧ والمجلد العاشر ص ٣٩٧.

الأخرى.

«وسيكون أسطول الولايات المتحدة بسبب قيامه على أساس موارد الولايات كلها أقوى من الأسطول الذي يمكن أن تنشئه أية ولاية وحدها أو الذي ينشئه جزء دون آخر من هذه الولايات، فموارد الولايات كلها أقوى في جملتها وأعظم من موارد أي ولاية وحدها أو أي جزء من هذه الولايات وحده دون غيره، ففي كل جزء من الاتحاد تتوافر بعض أوجه النفع اللازمة الضرورية لإنشاء هذا الأسطول القوي؛ ففي الولايات الجنوبية الكثير من المواد الخام الضرورية فضلًا عن أن أخشاب أشجار الجنوب أقوى وأصلح لبناء السفن، وللطاقة ومدى الاحتمال أثرهما في قوة سفن الأسطول، كما أن لهما أثرهما في الاقتصاد الأهلي، وفي الولايات الجنوبية والوسطى يوجد أيضًا الحديد الخام الأصلح لصناعة السفن مما في الولايات الشمالية، ولكن من ناحية أخرى فإن رجال البحر أولئك الذين سيعملون في هذا الأسطول الكبير يجب اختيارهم من سكان الولايات الشمالية، «إن الوقاية والسلامة اللازمة لتجارتنا الخارجية عبر البحار، مثلها مثل ازدهار هذه التجارة الخارجية لا تتطلب غير أمر واحد هو تقوية الأسطول»[1].

(١) قارن هذا بالحديث الذي ألقاه تيودور روزفلت في أوماها يوم ٢٠ سبتمبر عام ١٩١٠ أمام جمع من أهالي الولايات الغربية، وقد كان روزفلت من أكبر المُعجبين بهاملتون فقد قال: «أصدقائي ... إن الأسطول ليس مسألة تعني أولئك الذين يُساحلون البحر فقط، بل إنه لا يوجد فرد يعيش في الأرض التي تُنتج الأعشاب ولا في الأرض التي ترعى فيها الماشية ولا في أرض البحيرات الكبرى أو في أرض الميسوري لا يوجد فرد لا يعنيه الأسطول كما يعني هذا أي فرد يعيش على ساحل نيو إنجلاندا وعلى ساحل الخليج»=

وكانت سياسة هاملتون الضرائبية لها أيضًا اتجاهاتها السياسية، فقد أمل بتمويل الدين الأهلي واستيعاب ديون الولايات وإيجاد البنك القومي المركزي أن يربط «مصالح الولاية بمصالح الأفراد الأثرياء التابعين لها برباط وثيق» وأن يحول «ثراء ونفوذ هذه المجموعة للاتجاه التجاري وللنفع المتبادل للجميع»، ولما كان الدين الأهلي يمكن أن يكون نعمة أهلية تبعًا لأنه سيكون «عضدًا قويًا لاتحادنا»[1]. فقد أراد اكتساب معاونة وتعضيد طبقتي التجار والملاك إذ كان يعرف كيف استطاع هؤلاء التأثير على الحكومة الإنجليزية حتى أصدرت التشريعات التجارية، سيما وأنه يؤمن بأن «الدوافع الاقتصادية التي تؤثر في السياسة لا يخلو منها أي مجتمع»[2].

وبالإضافة إلى هذا فإن تكوين الثروة الأهلية على أسس قوية من الأهمية بمكان «وما دامت الأمم عادة تستخدم الثروة الأهلية كمورد في الحرب فإنه من غير الممكن أن تكون أمة ما في أمن ووقاية من أعمال الدول الأخرى ما لم تقف على قدم المساواة معها بالنسبة لهذا المورد الهام، والدولة الصغيرة التي يتوافر لها رأس مال متوسط ولا تتوافر لها صناعات مختلفة كثيرة يكون هذا المورد أكثر أهمية لها منه بالنسبة للدولة التي يتوافر لها رأس المال وتتوافر لها الصناعات المختلفة الكثيرة» ولا يستطيع الفرد «إلا أن يقول بأن الحرب دون قدرة مالية لن تكون غير

=«القومية الجديدة» (The New Nationalism) طبع نيويورك ١٩١٠، ص ١٤٧.

(١) من خطاب إلى روبرت موريس ١٧٨٠ "الأعمال"، المجلد الثالث، ص ٣٣٨ و ٣٨٧.

(٢) راجع العدد العاشر من "الفدرالي" بقلم ماديسون.

فاجعة عظمى.. وغير خراب محقق».

وبالرغم من أن هاملتون قد تقبل قانونية عزل الممتلكات الخاصة في وقت الحرب إلا أنه عارض هذا على أساس أنه لا يشجع استثمار الأموال الأجنبية في السندات الأمريكية[(١)]، وفي إيجاز فقد أوصى هاملتون بأنه يجب على أمريكا «أن ترعى الثروة الأهلية وتعنى بها كوسيلة للقوة والأمن»[(٢)].

***

(١) التقرير الثاني عشر عن "القرض الأهلي" ديسمبر ١٧٩٤ "الأعمال" المُجلد الثالث ص ١٩٩ – ٣٠٠، والفقرات المنقولة هنا من ص ٢٩٥ – ٢٩٦.

(٢) مسودة "خطبة الوداع" التي كتبها هاملتون لواشنطون. نفس المرجع، ص ١٩٣.
Hamilton's draft for Washington's "Farwell Address" Paltsits op. cit., p. ١٩٣.

[٥]

وكان الأمن الأهلي من وجهة نظر هاملتون مشكلة لها أهميتها الكبرى ولهذا فإنها تتطلب المزيد من العناية والانتباه؛ وقد تفهم هاملتون العوامل التي تتصل به تفهمًا واقعيًّا، فقد أدرك أن المسافة التي تفصل الولايات المتحدة عن أوروبا ثم هذه البسطة والسعة في أرض الولايات المتحدة نفسها لأمرين لهما أهميتهما بالنسبة للشعب الأمريكي؛ ذلك لأنهما سيجعلان الغزو الذي يمكن أن تحاوله أي دولة أجنبية صعبًا إن لم يكن مستحيلًا؛ ولكن كان هاملتون يعرف أيضًا أن الولايات المتحدة دولة صغيرة لم تتطور من الناحية السياسية بعد، وتحتاج الوقت لدعم مركزها وتقويته، ولهذا فقد أكثر من تكرار الحديث عن الوحدة القومية وحمل على كل الصور الانقسامية الداخلية سواء أكانت ناتجة عن وقوف مجموعة ذات مصالح مشتركة تعارض أهداف ومبادئ الكتلة الأساسية كلها، أم عن عمل قسم من الأمة لمصالحه الخاصة دونما تقدير للمصالح العامة للمجموعة كلها(*)؛ كما اعترض هاملتون أيضًا على الوقوف من الأمم الأخرى تبعًا للروابط العاطفية أو تبعًا للشك أو الكراهية المتعمقة في النفوس، وكما نصح بعدم التوسط بالوعود والاتفاقات السياسية في خارج البلاد، وتبعًا لهذا فقد أوضح هنا ما يؤمن به من «أنه إذا بقي شعب الولايات المتحدة متماسكًا متحدًا تحت إدارة حكومة ذات كفاية للإدارة والعمل فإنه لا يمر طويل

(*) راجع مادة Sectionalism & Factianalism في WEBSTER'S NEW WORLD DICTIONARY طبع ماكملان لعام ١٩٥٦ "المترجم"

وقت حتى يستطيع هذا الشعب أن يقاوم ويعمل لمنع الخسائر المادية الناجمة عن المتاعب الخارجية»(١)، ولكن السلامة غير مستطاعة بغير القوة لأن «الأمة التي تحس بضعفها تفقد حتى الانتفاع بوقوفها على الحياد»(٢)، ويتابع هاملتون حديثه فيقول: «وبهذا فإننا حين نكون أقوياء نستطيع أن نتخير بين السلم أو الحرب تبعًا لما تمليه مصلحتنا موجهة بعدالة»(٣)، ولكن القوة تتوقف على الاتحاد وعلى «الحكومة والأسلحة وموارد الأمة»(٤).

وقد رأى هاملتون بوضوح أن الولايات المتحدة لن تكون في أمن ما دامت الدول الأوروبية لها مناطق كبيرة متعددة في داخل القارة الأمريكية؛ وكان يعارض في أن تنتقل الأراضي الأمريكية من يد دولة غير أمريكية إلى دولة غير أمريكية أخرى، كان هاملتون يحبذ شراء لويزيانا(*) ولو أن هذا قد حدث بواسطة خصمه چيفرسون، بل قد ارتأى السياسة التي باتت تعرف فيما بعد باسم مبدأ مونرو(٥).

---

(١) ذات المرجع، ص ١٩٣ – ١٩٦.

(٢) "الفدرالي"، العدد الحادي عشر، ص ٦٥.

(٣) كانت هذه الجملة أصلاً لهاملتون لا لواشنطون، وعندما استعملها واشنطون استبدل كلمة (تُمليه) بكلمة (تشير به) – نفس المرجع، ص ١٩٦.

(٤) "الفدرالي"، العدد الرابع، ص ٦٥ (The Federalist No. ٤ p. ٦٥).

(*) اشترت الولايات المتحدة من فرنسا في عام ١٨٠٣ الأرض التي تمتد من خليج المكسيك إلى كندا ومن المسيسبي إلى الجبال الصخرية، وكان هذا بمبلغ خمسة عشر مليوناً من الدولارات، وولاية لويزيانا التي احتلها الفرنسيون عام ١٦٩٩ وسميت باسم لويس الرابع عشر هي أقصى الولايات للجنوب على خليج المكسيك ومساحتها ٤٨٥٢٣ ميلاً مربعاً وسكانها ٢.٦٨٤.٠٠٠ نسمة وعاصمتها "باتون روج".

(٥) راجع عن أصل مبدأ عدم انتقال ملكية الأراضي الأمريكية من دولة إلى دولة أخرى (الإجابة على المسائل المقترحة بواسطة رئيس الولايات المتحدة) ١٥ سبتمبر ١٧٩٠ "الأعمال" المُجلد الرابع، ص ٣٣٨ وراجع عن أصل تهديد الأراضي الأوروربية في=

ولكن هاملتون كان معجبًا بالإنجليز ليس فقط لأنه كره هذه المبادئ الراديكالية التي جاءت بها الثورة الفرنسية والتي كانت تهدف إلى تغيير النظام الاجتماعي للأمة، بل أيضًا لأنه كان يعتقد بأن الولايات المتحدة ضعيفة لتقف موقف الاختبار بالأسلحة ضد بريطانيا، ولأنه كان يؤمن بأن الولايات المتحدة تعتمد على تسامح بريطانيا في نمو قوتها التجارية.

وقد اتفق هاملتون مع ما جاء في ديباجة تصدير الدستور، من أن الاتحاد الكامل للولايات والدفاع العام عن البلاد وضمان حرية الأفراد مرتبطة

=أمريكا مجلة الفدرالي العدد الرابع والعشرين، ص ١٥٠ – ١٥١ فإن تصفية النفوذ الأوروبي في قارة أمريكا هو عامل قوي في (سياسة أمريكا الخارجية – الأمن الأهلي والسياسة الخارجية) لادوارد ميد ايرل مجلة ييل لعام ١٩٤٠، ص ٤٤٤ – ٤٦٠ (الفدرالي) العدد ١١، ص ٦٩ يُشير على أن هاملتون لو عاش لعاون مبدأ مونرو.

(*) جيمس مونرو (١٧٥٨ – ١٨٣١) ولد لرجل يعمل بالتجارة في "ويستمورلاند" تعلم في جامعة (ويليام آند ماري) ولكنه لم يكد ينتهي من دراسته حتى التحق بالجيش سنة ١٧٧٦، التحق بجيش واشنجتون كضابط برتبة ملازم، واشترك في عدة معارك، ثم ترك الجيش ليدرس القانون بتوجيه چيفرسون وعين سنة ١٧٨٠ مبعوثاً عسكرياً إلى ولاية ڤرچينيا، وانتخب في مجلس الولاية التشريعي سنة ١٧٨٢، ثم عضواً في الكونجرس سنة ١٧٨٩، فعضواً في "الشيوخ" سنة ١٧٩٢، وعُين حاكماً عاماً لڤرچينيا سنة ١٧٩٩.

أرسله چيفرسون سنة ١٨٠٣ لإتمام صفقة شراء لويزيانا من الفرنسيين، وقضى أربع سنوات في لندن وباريس، وفي سنة ١٨١١ كان وزيراً لخارجية أمريكا ثم وزيراً للحرب من ١٨١٤ – ١٨١٥ ثم تولى رياسة الجمهورية في مكان ماديسون سنة ١٨١٧، وفي سنة ١٨٢٠ عندما خاض معركة الانتخابات للرياسة فقد مركزه بصوتٍ واحد، ويرتبط باسمه المبدأ الذي هز أوروبا، مبدأ معارضة أي تدخل أوروبي في شئون أمريكا ويُعرف باسم مبدأ مونرو، ثم تقاعد في سنة ١٨٢٥ وظل في تقاعده حتى مات سنة ١٨٣١.

وقد نشر س. م. هاملتون كتابه "مجموعة خطابات وأوراق جيمس مونرو الخاصة" (١٨٩٨ – ١٩٠٣) ونشر ج. مورجان عنه دراسة في سنة ١٩٢١ وسمت بعنوان "حياة جيمس مونرو" E. Encycl. Vol. ٩ p. ٣٤٩. "المترجم"

ارتباطًا وثيقًا ببعضها البعض لا تنفصل إحداها عن الأخرى، وفي العدد الثامن من «الفدرالي» كتب هاملتون في إفاضة وفي تفهم كامل عن المشكلة الشديدة الحساسية مشكلة التنسيق بين القوة العسكرية وبين الحريات السياسية الأساسية، ويبدو في هذا البحث الذي كتبه هاملتون تماثلًا عجيبًا لبعض أفكار آدم سمث في نفس الموضوع، وقد أشار أيضًا إلى أنه لا يكفي أن تتوافر للحكومة سلطة إنشاء الجيوش في وقت الحرب بل يجب أن تحتفظ أيضًا بالقوات الكافية في وقت السلم وإلا «فإننا نعرض أرضنا وحريتنا لرحمة الغزاة الأجانب، وكل هذا بسبب أننا نخاف الحكام الذين نختارهم ويتوقف بقاؤهم على رغباتنا قد يعرضون هذه الحرية باستخدام سيئ للوسائل اللازمة للاحتفاظ بها والإبقاء عليها»[(١)]، وبالإضافة إلى هذا فإنه في وقت الحرب يجب أن تكون قوة التنفيذ كافية (لتوجيه القوة العامة للبلاد)[(٢)] بالرغم من الخوف التقليدي لدى الأمريكان من السلطة المركزية.

وقد آمن هاملتون كما آمن آدم سمث بأن الجيش المحترف يجب أن يكون أساس الدفاع الأهلي، وكما كتب في «الفدرالي» فإن «عمليات الحرب القوية المستمرة المتزنة الحركة ضد جيش منظم جيد الضبط والربط يمكن أن تنجح فقط إذا ما أديرت كاملة بواسطة قوم من نفس الطراز، وتؤكد الاعتبارات الاقتصادية من هذا بدرجة لا تقل عما تؤكده القوة والاتزان، لقد قامت الميليشيا الأمريكية في أثناء الحرب الماضية بالكثير مما تستحق لأجله التقدير

---

(١) "الفدرالي" رقم ٢٥ ص ١٥٦، ويمكن من أجل هذا الرجوع إلى نفس المجلة العدد الرابع والعشرين من قلم (جاي) والعدد الثالث والعشرين من قلم (هاملتون) والعدد الحادي والأربعين من قلم (ماديسون)، ومجلة الفدرالي في هذه الأعداد وغيرها تُعتبر مراجع قيمة لدارسي السياسة العسكرية والأمن القومي.

(٢) نفس المرجع، العدد الرابع والسبعون، ص ٤٨.

والذكر، ولكن أشجع هؤلاء الجنود يحسون بأن حرية بلادهم ما كانت لتقوم على جهودهم وحدهم مهما كانت الجهود قوية كبيرة القيمة، إن الحرب كالكثير غيرها من الأشياء تعتبر علمًا يمكن الوصول إلى تفهمه بالمثابرة والتجربة والوقت..»[١].

وفي الجزء الأخير للقرن الثامن عشر كان هناك اعتقاد واسع الانتشار بأن الحكومات البرلمانية ـ وعلى الأخص تلك التي تسيطر عليها الطبقات التجارية ـ أقل اتجاهًا للحرب من الحكومات الملكية، وقد فكر هاملتون بأن مثل هذا الرأي يتعارض مع الحقائق التاريخية المعروفة، وقد وجه إلى الاعتقاد بأن المجتمعات الشعبية مثلها مثل أي من الصور الحكومية «عرضة لمشاعر الغضب والرغبة في الأضرار والغيرة والجشع وما إلى هذا من المشاعر المضطربة العنيفة»، ولم يتفق أيضًا مع الفكرة القائلة بأن «النتيجة الطبيعية للتجارة هي إيجاد السلام»، بل على النقيض من هذا كان يرى أن التجارة أقرب لأن تسبب هذه الحروب التي تتكرر من وقت لآخر، «فهل فعلت التجارة شيئًا أكثر من أن تغير أغراض الحرب؟ أليس حب الثروة له دوره وتأثيره كحب القوة وحب العظمة؟! ألم تحدث حروب كثيرة قامت

(١) العدد ٢٥ ص ١٥٧، وقد قدم هاملتون قبل هذا في تاريخ مُبكر فكرة قيمة عن السياسة العسكرية للولايات المتحدة، راجع خطابه إلى جيمس دويان في عام ١٧٨٠، وتقديره بالنيابة عن اللجنة الخاصة للكونجرس في عام ١٨٣٤، مجموعة أعمال هاملتون المجلد الأول، ص ٢١٥ – ٢١٦، والمجلد السادس، ص ٤٦٣ – ٤٨٣.

وقد اعتقد أن الجيش يجب أن يكون قومياً في تنظيمه وولائه وأن التنظيم الدفاعي يجب أن يقوم دون ما إشارة للخطوط الفاصلة بين الولايات، وأن الميليشيا يجب أن تكون تحت الإشراف الأهلي من ناحية الخدمة والتدريب والإعداد. وأن تكون هناك أكاديمية عسكرية أهلية، وأن صناعة الذخائر يجب أن تشجع، وأن تمتلكها الحكومة الاتحادية وقد آمن هاملتون أيضاً بمبدأ الصلاحية العامة للخدمة العسكرية، نفس المرجع ٧ ص ٤٧.

تبعًا للدوافع التجارية منذ أن كان هذا هو النظام الذي تتبعه الأمم كما كانت تحدث من قبل بسبب الطمع في تملك الأرض؟ ألم توجد روح التجارة في الكثير من الأحوال دوافع جديدة لهذا الأمر أو لغيره؟».

وكانت الإجابة التي ظن هاملتون أنها الإجابة الوحيدة لهذه الأسئلة كلها هي كلمة واحدة تعني الإيجاب أي: «نعم»، فإن الحرب قد تعمقت في المجتمع البشري ومهما تغيرت صورها فإنها تضعف الإيمان بإمكان إيجاد السلم المستمر أو الأمن غير المهدد[1].

والغريب أن توماس چيفرسون قد اتفق مع هاملتون في أن السياسة التجارية سبب رئيسي للحرب، وكتب توماس چيفرسون(*) لجون جاي(**)

---

(١) تناقش مجلة الفدرالي في العدد السادس أسباب الحرب في إفاضة، والفقرات المُقدمة هنا منقولة من ص٣٠، أما عن وجهة النظر الخاصة بتأثير التجارة في تقوية السلم الدولي فيرجع إلى كتاب (ادموند سلبيرنر) "الحرب في الفكرة الاقتصادية من القرن السادس عشر إلى القرن السابع عشر". (La Guerre dans la panesée économique du XVI au XVII Siécle) طبع باريس عام١٩٣٠، وفي الأعداد الثالث والرابع والخامس من مجلة الفدرالي يناقش جون جاي أسباب الحرب ويُقدم في العدد الرابع تقديره السابق لعصره من أن ازدياد التجارة مع الصين سيجعل الولايات المتحدة تنغمر في الصراع الدولي في الشرق الأقصى.

(*) توماس چيفرسون الرئيس الثالث للولايات المتحدة "١٧٤٣ – ١٨٢٦" وكان من الأفراد الذين أوجدوا الحزب الديمقراطي – مُعجم لا روس ص ١٤٦٤. "المترجم"

(**) جون جاي أحد المفاوضين الثلاثة مع فرانكلين في مفاوضات باريس للحصول على الاستقلال بعد الحرب ضد بريطانيا، ووقعت المعاهدة في ٣ سبتمبر سنة ١٧٨٣ وعينت الحدود من الغرب على المسيسيبي مع نصيب في مناطق صيد السمك في نيو فوندلاند، وجلت بريطانيا عن الأراضي الأمريكية مع السماح للرعايا البريطانيين بتجارة الفراء في أمريكا، راجع ج ١ من التاريخ الأمريكي السياسي والاجتماعي لهارولد أندروود فولكنر، ص٨٩ و١٠٩ و١٢٥ و ١٤٠ و ١٤١.



جيمس مونرو (١٧٥٨ ـ ١٨٣١)

من باريس في أغسطس عام ١٧٨٥ يقول: «لقد انتهى شعبنا إلى أنه من الضروري لنا أن نساهم في احتلال المحيط، كما توجههم عاداتهم الأصيلة فيهم إلى تطلب بقاء البحر مفتوحًا لهم؛ ولهذا فإنه يجب أن تتعقب السياسة التي تمكن من استخدامهم هذا العامل إلى غاية ما يمكن، إنني أظنه واجب أولئك الذين يتولون إدارة هذه الشئون أن يعملوا تبعًا لهذا القرار، وأننا يجب أن نعمل ـ في كل مناسبة حتى ولو أدى إلى خوض الحرب ـ للاحتفاظ بحق مساو للأمم الأخرى في نقل المتاجر، والعمل في مناطق صيد الأسماك وغير هذا من الأوجه التي يستخدم فيها البحر»[١].

وبلا شك أنه قد يمكن الوصول إلى تقدير آراء هاملتون بملاحظة المدى الذي اتفق معه چيفرسون خصمه اللدود وعلى الأخص فيما جاء عن الاقتصاديات والدفاع الأهلي، لقد كان چيفرسون من أصحاب مبدأ حرية التجارة وكان خصمًا لأصحاب رءوس الأموال المستخدمة في الصناعة، وقد عارض برنامج هاملتون التحفظي الوقائي، ولقد انتهى ـ بعد تجاربه الخاصة مع سفن تهريب المتاجر، وبعد تقديره لنتائج حرب ١٨١٢ ـ ١٨١٥ ضد إنجلترا ـ على غير رغبة منه إلى أن حقائق سياسة القوة قد تتطلب تغييرًا في وجهات النظر التي رآها من قبل على ما كتب في مارس عام ١٨١٥ إلى الاقتصادي الفرنسي چان باتيست الذي كان ينادي هو الآخر بحرية التجارة، فقال: «ولقد اقتنعت في تاريخ مبكر أن أمة تبعد عن أوروبا كثيرًا كحالنا يمكن أن تتجنب مهاجمة كل الدول الكبرى لها، وأن تقوم بواجبها في الحياد، وأن تحصل على كل النفع من تجاربها، مثل هذه الأمة يمكن أن

(١) كتابات چيفرسون، الطبعة التذكارية المُجلد الخامس، ص ٩٤. Writing of Thomas Jefferson (Memorial Edition).

تعيش في سلم وأن تعتبر نفسها فقط كعضو في أسرة البشرية الكبرى، وهي في هذه الحال تستطيع أن توقف كل جهودها لإنتاج أحسن ما تستطيع أن تنتج، وأن تحسن استبدال الفائض مما تنتج بأنفع ما يتوافر لدى الآخرين».

«ولكن التجارب قد أثبتت أن السلم المستمر لا يتوقف على عدالتنا وحسب بل وعلى عدالة الآخرين أيضًا، وأنه في حال الاضطرار إلى الحرب فإن الحد من هذا التبادل التجاري الذي يجب أن يتم عبر المحيط الفسيح يكون سلاحًا قويًّا في يد العدو الذي يسيطر على عامل النقل، وبذلك فإنه يضيف إلى متاعب الحرب احتياجنا إلى الضروريات التي نسمح لأنفسنا أن نعتمد فيها على الآخرين».

«إننا نتحول تدريجيًّا نحو الصناعة بدرجة غير واضحة لأولئك الذين لا يرون هذا والذين يفكرون فقط في الوقت القصير الذي اتجهنا فيه نحوها تبعًا للسياسة الانتحارية التي هي أصل سياسة إنجلترا، إن الرسوم الباهظة التي نفرضها على الصناعات الأجنبية تتطلب منا أن نوجد بين المواطنين شعورًا قويًّا برفض شراء الصناعات الأجنبية التي يمكن أن نصنع مثيلها في وطننا دونما تقدير لفرق الثمن، إن مثل هذا الشعور يمكن من حمايتنا ضد الوقوع في براثن السيطرة الأجنبية»[1].

وبالرغم من أن چيفرسون لم يقف ليعاون وجهات نظر هاملتون فيما يختص بالجيش العامل، إلا أنه في الواقع وصل إلى الاعتقاد بضرورة الاحتفاظ بقوة عسكرية تستند في اختيار أفرادها إلى عامل الصلاحية العامة للخدمة العسكرية؛ وفي تعليق چيفرسون على مذكرة لوزير الحرب كتب إلى

(١) ذات المرجع، المجلد الرابع عشر، ص ٢٥٨ – ٢٦٠. طبع واشنجتون عام ١٩٠٣.

چيمس مونرو في عام ١٨١٣: «إنه لمما يسرنا أنه ليس لدينا إلا القليل من الاتجاهات التي تهدف إلى تكوين جيوش نظامية حديثة، ولكنها تثبت بقوة ضرورة فرض خدمة الجندية على كل مواطن؛ كانت هذه هي الحال عند الإغريق والرومان، ويجب أن تكون كذلك في كل أمة حرة؛ يجب أن ندرب كل مواطنينا الذكور، وأن نجعل الدراسات العسكرية جزءًا من الدراسات الجامعية، ولن نكون في أمن حتى يتم هذا»[1].

والواقع أنه من الصعب أن يوضع هاملتون في مستوى عال كاقتصادي إلا من ناحية واحدة هي دفاعه عن الصناعات الوليدة لوقايتها، وفي تخطيطه لهذا الجزء من تقريره الشهير انتفع بمعاونة تنش كوكس معاونه في وزارة المالية وواحد من مدرسة فيلاديلفيا للتحفظيين الذين كان تأثيرهم واضحًا في هاملتون، ولكن المظهر التاريخي لدفاعه عن تطور الصناعات الأمريكية كان أكبر وأعمق من القيمة التي قدرت له؛ ذلك لأن ما كتبه قد أقام بناء سياسة الاقتصاد الأمريكي، ثم إنه كفرد جمع بين الاقتصاد والسياسة وصناعة الحكم في حلقة واحدة، وكان ككولبير أو ويليام بت أو بسمارك بالنسبة لأمريكا.

(١) ذات المرجع، المجلد الثالث عشر، ص ٢٦١.

إن قوة أفكاره وتأثيرها واضحة في أجيال متتابعة من الأمريكيين؛ ولهذا فإن تأثيره كان أوضح من تأثير أي من منافسيه وعلى الأخص چيفرسون[1].

***

(١) كان لمستر جوليان بويد أمين مكتبة جامعة برنسيتون حظ دراسة مراسلات وكتابات تنش كوكس التي تُشير إلى أنه كان للأخير دور إيجابي في تخطيط وكتابة "تقرير عن الصناعات" الذي قدمه هاملتون، على أن مدى إسهام كوكس في التخطيط النهائي للتقرير مسألة لا يمكن تقديرها تماماً حتى تنشر أسرة كوكس كل ما لديها من أوراقه؛ على أنه للرجوع إلى تحليل نقدي للتقرير يمكن دراسة ما كتبه فرانك فيتر في عام ١٩٤٠، Frank Fetter, بعنوان "الحكومة والحياة الاقتصادية" في مُجلدين طبع واشنجتون Government and Economic Life كما يمكن الرجوع إلى دراسة أطول للموضوع وإن لم تكن هذه في جانب هاملتون E. C. Lunt "Hamilton as a Political Economist" Journal of Political Economy III" أما عن تأثير مدرسة فيلاديلفيا فيرجع إلى الدراسة التي كتبها Proffessor Fetter "The Early History of Political Economy in the United States" Proceedings of the American Philosophical Society. LXXXVII (١٩٤٣) pp. ٥١ – ٦٠.

[٦]

وكان من حوادث التاريخ التي تستحق الذكر أن خصمي هاملتون السياسيين چيفرسون وماديسون(*) كانا هما اللذين أحدثا تأثيرًا كبيرًا فعالًا لوجهات نظر هاملتون التحفظية والقومية في السياسة الاقتصادية، فإن قانون الحدّ من دخول السفن إلى الموانئ الأمريكية والخروج منها، القانون الذي أصدره چيفرسون في ديسمبر عام ١٨٠٧ ، وقانون عدم التبادل

(*) جيمس ماديسون (١٧٥١ – ١٨٣٦) "أبو الدستور" حاكم ولاية فرجينيا، من بين التسعة والثلاثين الذين وقعوا المشروع الأخير للدستور، تولى قيادة الجبهة الدستورية في الكونجرس، عاون في تنظيم الحزب الجمهوري أحد الحزبين الرئيسيين في الولايات المتحدة اختير رئيساً للجمهورية بأغلبية ساحقة عام ١٨٠٨، كان هو صاحب الرأي المشهور بأن "الواجب الأول للتشريع هو تنظيم المصالح الاقتصادية المتضاربة"، راجع التاريخ السياسي الاجتماعي الأمريكي لهارولد أندروود، ص ١٢٠ و ١٢٥ و ١٢٦ و ١٣٣ – ١٤٩ و ١٥٤ و ١٥٥ و ١٦١ – ١٦٤ و ٢١٤ و ٢٧٦.

وكان "ماديسون" هو الرئيس الرابع للولايات المتحدة، ولد في بورت كونواي من أعمال فرجينيا ابناً لرجل من أصحاب الأراضي، دخل جامعة نيو جيرسي (جامعة برنسيتون الآن) في عام ١٧٦٩ وتخرج منها عام ١٧٧١.

اشترك مع هاملتون وجاي في تحرير "الفدرالي" واختير عضواً في مجلس الكونجرس من ١٧٨٩ – ١٧٩٧. وتولى الوزارة مع الرئيس چيفرسون من ١٨٠١ – ١٨٠٩، وفي عام ١٨٠٨ اختير لرياسة الجمهورية وتولى العمل في عام ١٨٠٩ ثم أعيد انتخابه عام ١٨١٣ ثم تقاعد عام ١٨١٧ وخلفه وزيره الأول جيمس مونرو في رياسة الجمهورية.

وعاش ماديسون ما بقي من حياته حتى عام ١٨٣٦ في هدوء حيث توفي ودفن في مونتبلير من أعمال فرجينيا ويعلو قبره نصب كالمسلة.

وقد اشتهرت زوجته دورسي باين تود بأنها أكثر السيدات اللاتي عشن في البيت الأبيض شعبية وتقديراً من الجماهير.

راجع: .The Standard Encycl مجلد ٦ ملزمة ١٤ طبع شيكاغو عام ١٩٣٨.

التجاري. ثم الحرب التي تلت هذا ضدّ بريطانيا على غير رغبة ماديسون كانت لها كلها نتيجة عملية بأن سدت الطرق أمام التجارة الأجنبية، وجعلت الولايات المتحدة تعتمد فقط على مواردها الخاصة في صناعة ذخائر الحرب بل وفي كل ألوان الصناعات الأخرى، وكانت الصناعات التي قامت بضغط الحاجة الملحة في السنوات من ١٨٠٨ حتى عام ١٨١٥ هي التي منحتها الدولة كل وقاية في عام ١٨١٦ ثم قوَّت من هذا بواسطة قوانين الرسوم الجمركية المتتالية التي صدرت بعد هذا.

وبينا كان الأمريكيون ما يزالون يحسون بإيلام المعاملة الجائرة التي فرضت على الولايات المتحدة بواسطة فرنسا في حكم نابليون، ثم بواسطة فرنسا في ذات العصر، بينا كان الأمريكيون يحسون بهذا وضح أن الجميع يتفقون على رعاية الحكومة للصناعات، ووجد ماديسون وچيفرسون من ناحية وكلاي - «صقر حرب عام ١٨١٢» - وكالهون من ناحية أخرى أنفسهم معًا في معسكر واحد، وقد كتب چيفرسون في يناير عام ١٨١٦ حاملًا بعنف على أولئك الذين استخدموا وجهات نظره السابقة لحرية التجارة «كوسيلة لإخفاء عدم ولائهم ورغبتهم في إبقاء الولايات المتحدة غنيمة يستغلها إلى الأبد شعب أجنبي غير صديق هو الإنجليز»، وقد وقف چيفرسون يدعو الأمريكيين قائلًا: «اعملوا مثلي فلا تشتروا أي شيء أجنبي إذا ما أمكن الحصول على مثيله من الصناعات المحلية دونما تقدير لفرق الثمن»؛ ذلك «لأن التجارب قد علمتني أن الصناعات ضرورية الآن لاستقلالنا كما أنها ضرورية لراحتنا». ومن أجل ضمان استقلالنا عن الباقين «يجب أن نضع الصانع الآن جنبًا إلى جنب مع الزارع»[1]؛ وما كان من

(١) ذات المرجع ١٤ ص ٣٨٩ – ٣٩٣ من رسالة إلى بنيامين استين.

الممكن أن يقول هاملتون أكثر من هذا..

ولكن مع مرور الوقت لم تلبث أن وضحت من جديد تلك الاتجاهات القديمة، وبدأ صراع عنيف من أجل السياسة الوقائية حتى أقر الأمر في صورة موقوتة بإصدار الرسوم الجمركية لعام ١٨٤٦[*]؛ وكمشاركة في انتعاش ظهر فردريك ليست على المسرح الأمريكي وصاغ النظريات الاقتصادية التي كان لها تأثيرها لا في الولايات المتحدة وحسب، بل ـ ولربما بدرجة أكبر ـ في ألمانيا.

ولد ليست في وورتمبرج عام ١٧٨٩، وتعلم في جامعة «توبنچن»؛ حيث عمل فيها بعد أستاذاً للسياسة، ودخل الحياة العامة كخصم عنيد «للضرائب

(*) وضعت أول تعريفة جمركية عام ١٧٨٩ أصلاً للحماية وظلت الفكرة كذلك حتى عام ١٨١٦، وجاءت أول حركة وقائية هامة في الفترة من عام ١٨١٦ إلى عام ١٨٢٨ لحماية صناعة النسيج في نيو إنجلند، وصناعة الحديد في بنسلڤانيا كما كانت غير هذا من المتاجر تتطلب الوقاية ضد سيل المتاجر الأوروبية. وقد وصلت الرسوم إلى أعلى حد عام ١٨٢٨ ثم عادت في عام ١٨٣٢ إلى مستوى عام ١٨٢٤؛ على أنه إذا كانت الضرائب الجمركية هي أهم أسباب حرب الاستقلال فقد بدا أنها ستكون السبب في أن تتعرض الجمهورية الصغيرة للثورة الأهلية؛ وفي عام ١٨٣٣ خفضت الرسوم بنسبة ٢٠٪ لما كانت عليه في العام السابق ثم استمر التخفيض تدريجياً حتى عام ١٨٤٢ وكان هذا كله بتدابير سياسية وإن كانت فكرة الحماية والوقاية للصناعات الأمريكية لم تغب قط عن التقدير؛ ولم يكن "كالهون" مُخطئاً عند ما قال إن قانون عام ١٨٤٢ مر في دوائر الكونجرس لا لأن أرباب الصناعات يريدونه بل لأن السياسيين هم الذين أرادوه. وقد استمرت تعريفة عام ١٨٤٦ موضع التنفيذ حتى عام ١٨٥٧ ثم خفضت إلى الحد الذي قيل عنه وبسببه أن الولايات المتحدة تقترب من مبدأ حرية التجارة كما كانت حالها في عام ١٨١٦.
راجع الصفحات من ٢٥٢ – ٢٥٧، المجلد الأول من التاريخ السياسي والاجتماعي الأمريكي لهارولد أرندروود فولكز الطبعة الخاصة بالقوات المسلحة الأمريكية لعام ١٩٤٣. E. M. ٢٧٢.

الجمركية»؛ ولهذا أبقته آراؤه الحرة والقومية على خلاف دائم مع حكومة بلاده مما أدى به إلى النفي في عام ١٨٢٥ ، ووصل ليست إلى أمريكا منفيًّا من بلاده فأقام بين الألمان البنسلفانيين في ريدنج، وتولى رياسة تحرير مجلة «ريدنج آدلر» وهي مجلة أمريكية / ألمانية تصدر أسبوعيًّا، وكان لها يوم ذاك صوت مسموع في شئون بنسلفانيا؛ ولم تلبث اتجاهاته في السياسة التجارية أن ربطت بينه وبين جمعية بنسلفانيا لتشجيع الصناعات والفنون الميكانيكية والتي كانت تحت الإشراف القوي لماتيو كاري(*) وتشارلس جارد أنجرسول وبيير دوبوتسو وآخرين(١).

وبالرغم من أن ماتيو كاري كان له النصيب الأوفر في تحرير النشرات فإن لِيسْت كان له القدح المعلي والقدرة على الكتابة بتجارب أوسع في الاقتصاد والسياسة، وكان هو الداعية الأول للسياسة الصناعية طوال إقامته في أمريكا، وكان موضع تقدير واحترام رجال الصناعة في بنسلفانيا، كما قابل جل كبار السياسيين الأمريكيين في ذلك الوقت.

وقد تولى فردريك ليست رياسة كلية لافاييت وأخيرًا عندما عاد إلى ألمانيا كمواطن محايد وكعضو في السلك القنصلي للولايات المتحدة بالتعيين من

(*) كاري ... اقتصادي أمريكي ولد في فيلادلفيا وعاش من ١٧٩٣ إلى عام ١٨٧٩ .

(١) تكونت هذه الجمعية على ما يبدو بسبب وجود جمعية فيلاديلفيا للنهوض بالصناعات التي أوجدها هاملتون، وقد أصدرت جمعية بينسيلفانيا ووزعت عدة طبعات من "تقرير عن الصناعات" كما نشرت عدة نشرات من قلم ماتيو كاي الذي فعل أكثر من أي أمريكي آخر عدا هاملتون لإيجاد ما سُمي فيما بعد "الطريقة الأمريكية" وقد استرعى هذا انتباه الأمة كلها تبعاً للدعاية الواسعة التي وجهت في هذا السبيل مما جعل ولاية بنسيلفانيا تقف بصفة دائمة في معسكر المتحفظين في السياسة الأمريكية.

أندرو جاكسون(*) عمل في (بادن بادن)(**) حتى عام ١٨٣٤ ثم في ليبزج من ١٨٣٤ إلى ١٨٣٧ وأخيرًا في مدينة ستوتاجارت من عام ١٨٣٧ إلى عام ١٨٤٥، وفي العام التالي قتل ليست نفسه بعد أن سبب مرضه توقف قدرته على الاشتراك في الحياة العامة.

والواقع أن من السهل تتبع التاريخ الثقافي لليست؛ ففي شبابه قرر ـ عندما رأى المستوى المنخفض الذي هبطت إليه الحياة في ألمانيا ـ أن يدرس الاقتصاد السياسي، كما قرر أن يعلم إخوانه المواطنين أصول السياسة القومية التي يمكن بها «النهوض برفاهية وثقافة وقوة ألمانيا»، وقد انتهى إلى أن مفتاح كل مشاكل ألمانيا هو دعم مبدأ القومية، ويقول: «لقد رأيت بوضوح أن المنافسة الحرة بين أمتين في أعلى مستوى من المدنية يمكن أن تكون نافعة إذا ما كانتا على درجة متقاربة من التطور الصناعي، وأن أي أمة تكون لسوء الجد وراء غيرها في الصناعة والتجارة والملاحة يجب قبل كل شيء أن تقوِّي قواها الفردية؛ وذلك كي تعد نفسها لتدخل في منافسة حرة مع الأمم الأكثر تقدمًا، وقد قدرت في إيجاز الفرق بين السياسة العالمية التي لا عاطفة قومية لها[1]، وبين الاقتصاد السياسي، وشعرت أن ألمانيا يجب أن

(*) أندرو جاكسون ... أختير رئيساً للجمهورية عام ١٨٢٨ بأغلبية ١٢٨ ضد ٨٣ صوتاً نالها منافسه، وقد ربح جاكسون كل أصوات الجنوب والغرب وبنسيلفانيا كما نال اثنين وعشرين صوتاً من ولاية نيويورك، وقد صوت الناخبون لجاكسون على أساس أن اختياره نصراً للرجل الأمين ضد جماعة من الأرستقراطيين والسياسيين الفاسدين وكان اختياره هو أول نجاح للجموع الديمقراطية لتصل بممثلها إلى البيت الأبيض.

ص ١٩٠ المجلد الأول التاريخ السياسي والاجتماعي الأمريكي بقلم هارولد أندروود طبعة عام ١٩٤٣ للقوات المسلحة الأمريكية.

(**) بادن بادن مدينة ألمانية تشتهر بمياهها المعدنية سكانها ٣٠.٢٦٠ نسمة.

(١) كان الاصطلاح "السياسة التي لا قومية فيها" هو وصف «ليست» لكتابات آدم=

تلغي رسومها الداخلية وأن تتخذ سياسة تجارية متحدة نحو الأجانب يمكن أن تصل بالتطور التجاري والصناعي إلى ذات المستوى الذي وصلت إليه الأمم الأخرى نتيجة لسياستها التجارية».

والواقع أن تماثل وجهات النظر هذه مع الأصلين الأساسيين للسياسة التجارية ألا وهما: «الوحدة الأهلية» و «تطور قوة الأمة عن طريق السياسة الاقتصادية» يبدو واضحًا جليًّا لا يحتاج إلى دليل.

ثم يتابع ليست حديثه فيقول: «وعندما زرت الولايات المتحدة فيما بعد، تركت كل الكتب جانبًا فإنها كانت ولا شك ستخدعني، وأحسن ما يطالع الإنسان عن الاقتصاد في العالم الجديد هو أن يدرس صور الحياة نفسها، فهناك يمكن للإنسان أن يرى الأرض المجدبة تتحول إلى ولايات قوية منتجة؛ والنجاح الذي يتطلب القرون في أوروبا يسير في العالم الجديد واضحًا بسرعة لأعين المراقب، لقد درست كتاب الحياة هذا بإعجاب وتقدير، وقارنته بدراساتي السابقة وتجاربي ومشاعري، وكانت النتيجة إيجاد طريقة لا تقوم على أساس سياسة عالمية جوفاء، بل على أساس طبيعة

=سميث وجان باتيست وغيره من أفراد مدرسة سمث، ويجب أن يُدرك كل من يقرأ كتاب "ثروة الأمم" وكتاب "النظام القومي للاقتصاد السياسي" أن «ليست» قد أساء عرض وجهات نظر آدم سمث، وقد خلط «ليست» بين ما قاله «سمث» وما قاله أي فرد من أن سمث قد قاله وبين وجهات نظر سمث نفسه، ويمكن أن ندرك هذا من المقدمة الطريفة التي كتبها العلامة ج. س. نيكلسون لطبعة عام ١٩٠٤ لترجمة لويد لكتاب "النظام القومي ...".

وردت الكلمة في الأصل الإنجليزي "Cosmopolitical" والكلمة في معجم ويبستر ص ٣٣٤ تنقسم إلى "Kosmos" أي العالم و "Polites" أي المواطن، والكلمة على تنوع فروعها تعني الشيء الذي يتبع العالم كله ولا يرتبط بالعادات المحلية أو القومية. "المترجم"

الأشياء، على أساس دروس التاريخ، وعلى أساس احتياجات الأمم»[١].

على أنه ما من سبب يدفعنا لأن نعتقد بأن ليست لم يكن محقًّا عندما قال: إنه قد كوَّن وجهات نظره في السياسة والاقتصاد حين كان يعيش في ألمانيا في فجر العمر، وأنه كون هذه الآراء كلها بعد وصوله للولايات المتحدة، ما من سبب لهذا في الواقع.. وإن كان من الصحيح أن كتابه «مجمل الاقتصاد السياسي الأمريكي» ـ الذي يحتوي على سلسلة الرسائل التي كتبها إلى تشارلس چارد انجرسول في صيف عام ١٨٢٧.. الذي طبعته جمعية بنسلڤانيا في حجم الكتيبات ونشرته في نطاق واسع ـ يحتوي على كل الأفكار التي تبلورت وجاءت في كتابه «النظام القومي للاقتصاد السياسي» والذي ظهر بعد هذا بأربعة عشر عامًا؛ ذلك لأن «المجمل» يوضح تأثير هاملتون وماتيو كاري في ليست تأثيرًا لا يبقى بعده شك في أن صور الحياة والآراء الأمريكية كانت بارزة في أعمال ليست، وهي وإن لم تكن ذات تأثير حاسم فإنها على الأقل قد سببت تطور نظرياته الاقتصادية[٢].

---

(١) مقدمة المؤلف "للنظام القومي" ص ١١ و ١٣ من المقدمة، وكان «ليست» دائماً يُنكر أنه من دُعاة سياسة التجارة بالرغم من أنه كان يعترف بأنه قد نقل الأجزاء الهامة من هذه النظرية عن غيره – نفس المرجع ص ٤٣ من المقدمة.

(٢) انظر: Professor K. T. Eherberg's historical and critical introduction to the seventh edition of the National System (Stuttgart ١٨٥٣) من أجل وجهة النظر الخاصة بأن هاملتون لا أثر له أو له الأثر القليل في "ليست"، وعلى نقيض هذا راجع: هيرست ذات المرجع ص ١١١ – ١١٨، وعلى الأخص كتاب: Ugo Rabbeno, American Commercial Policy (London ١٨٩٣). وهو ترجمة إنجليزية للكتاب الإيطالي: Protezionismo Americano: Saggi Storici di Politica Commerciale (Milan ١٨٩٣).

الدراسة الثالثة الفصل الأول عن «هاملتون» والفصل الثاني عن «ليست» وربما كان كتاب "رابينو" أعدل دراسة للموضوع.

على أن ليست قبل كل شيء وبعده كان ألمانيًّا، وكان يحس بأنه منفيّ غير سعيد في أمريكا، وقد طلب الجنسية الأمريكية ليتجنب الاضطهاد الذي كان نصيبه في وطنه، كان يعجب بهذه الموارد الكبيرة غير المتطورة الموجودة في الولايات المتحدة وفي ذات الوقت يحسدها، وكان ينظر ذات النظرات إلى الشباب الوثاب الذي يتوافر للبلاد في جملتها، ثم نجاحها في الوصول إلى الوحدة السياسية، ثم هذه الإمكانيات غير المحدودة لمستقبل الولايات المتحدة كقوة عالمية[1]؛ ولكن ليست كان ينظر إلى كل هذه الأشياء من وجهة آماله بالنسبة لوطنه ألمانيا، والذي كان إذ ذاك غير موحد، فقد كان في بروسيا ـ الولاية الألمانية التي في أقصى الشمال ـ سبع وستون «تعريفة» جمركية مختلفة في داخل أراضيها مع ثلاثة آلاف نوع من المتاجر التي تخضع للرسوم التي يحصلها جيش من موظفي الضرائب الجمركية.

وكانت لبروسيا حدود مشتركة مع باقي الولايات الألمانية تمتد لألف ميل وتمس ثمانيةً وعشرين ولاية مختلفة؛ وكان ليست ـ دون تقدير للصعاب التي لا يستطاع التغلب عليها ـ يحلم ويحلم برؤية ألمانيا جديدة أكبر وأعظم من ألمانيا التي يعرفها، على أن تتوافر في داخلها تجارة حرة مع وقاية خارجية، كما يتوافر لها أيضًا نظام أهلي للسكك الحديدية والبريد، وأخيرًا أن تنهض لتكون قوة أوروبية عظيمة.

وقد عاش ليست ليرقب جزءًا من برنامجه هذا يتحقق، وكانت جهوده هي التي دمرت الكثير من الموانع التي تحد من التجارة الداخلية أكثر مما فعلت المؤثرات السياسية للثورتين الأمريكية والفرنسية.

---

(١) آمن «ليست» بأن الولايات المتحدة ستتفوق في أقل من قرن من الزمان على بريطانيا في الصناعة والثروة والتجارة والقوة البحرية (النظام الأهلي ص ٤٠ و ٧٧ – ٨٠ و ٣٣٩).



بسمارك (١٨٧٧)



بسمارك (١٨٩٥)

ووفقت أيضًا دعايته التي لا تفتر من أجل السكك الحديدية، ووصلت إلى الكثير من النتائج المادية قبل أن تسبب تهدم صحته وتعجل بوفاته؛ على أن ليست لم يعش ليرقب ثورة عام ١٨٤٨. ولم يرقب نجاح بسمارك. ولا تكوين الإمبراطورية الألمانية، ولكن مع مرور الزمن ثبت أنه واحد من الذين صنعوا ألمانيا الحديثة، كما أنه كان واحدًا من أوائل الذين أوضحوا ضرورة تكوين ألمانيا الكبرى، هذه التي كانت موضع تهديد وإرهاب للعالم المتمدين فيما بعد[١].

***

(١) اعتبر «ليست» في نظر الكثيرين من دعاة الاتساع الألماني، وحتى في نظر النازيين أنفسهم اعتبر – كالقديس الذي يحمي الدولة، ولإدراك هذا يمكن الرجوع إلى الكتيب الذي كتبه كارل كومبمان طبع توبنجن عام ١٩٤٦ وعنوانه "فردريك ليست كمُبشر لألمانيا الحديثة". (Friedrich List als Prophet des neuen Deutschland) كما يمكن الرجوع إلى الرواية التي كتبها وولتر فون مولو طبع برلين وفينا وليبزج عام ١٩٣١ مع طبعات أخرى متتالية ووسمت بعنوان "ألماني ليس ألماني الموطن" رواية لفردريك ليست. Ein Deutscher ohne Deutschland: ein Friedrick List Roman ولهذه الرواية قيمتها لا كرواية تاريخية بل كنموذج العقلية الألمانية والنازية ومدى العداء العنيف الذي يحس به الألمان نحو فرنسا وبريطانيا، وعلى طوال السرد عمد فون مولو لإيضاح تأثير ليست في أندرو جاكسون وفون وملنكه وآخرين. "أندرو جاكسون هو الرئيس الذي جاء من الغرب ليفوز على آدامز كرئيس باختيار الشعب وتولى منصب الرياسة في ٤ مارس ١٨٢٩ وقد تولى الرياسة من ١٨٢٩ إلى ١٨٣٦ وكان من الممكن اختياره للمرة الثانية لولا تنحيه". "المترجم"

[٧]

على أن أهم ما عنيت به اتجاهات «لِيسْت» السياسية والتجارية كان هو «عامل القوة»؛ حتى أنه ربط بين «القوة» وبين «الرفاهية» أو «الرخاء»؛ وفي هذا المجال كان في الواقع يعود من جديد إلى فكرة السياسة التجارية بالرغم مما يبديه من اعتراضات وانصراف إلى الاتجاه المضاد.

ولقد كتب ليست: «إن الأمة ـ أيَّ أمة ـ هي مجتمع منفصل يتكون من أفراد لهم حكومة واحدة وقوانين عامة واحدة، وحقوق ومصالح متماثلة، ولهم تاريخهم ومجدهم، ولهم دفاعهم الموحد، ووسيلة تأمين حقوقهم وحياتهم وثرواتهم؛ وهم بهذا يوجدون جسمًا واحدًا حرًّا، ويتبعون فقط السبيل الذي تمليه عليهم مصالحهم بالنسبة لغيرهم من المجتمعات المستقلة، كما تتوافر لهم القوة لتنظيم مصالح الأفراد ليمكن إيجاد أكبر ما يمكن من الرفاهية والرخاء في الداخل، وأقصى ما يمكن من الأمن والسلامة من جانب الأمم الأخرى».

ثم يتابع ليست حديثه فيقول: «والغرض من اقتصاديات هذا الجسم الموحد الحر، ليس فقط الثروة كما هي الحال بالنسبة للفرد، ولا في الاقتصاد العالمي في جملته، بل القوة والثروة؛ لأن الثروة الأهلية تزداد وتؤمن بواسطة القوة الأهلية، كما أن القوة الأهلية تزداد وتُؤَمَّن بواسطة الثروة الأهلية، ولهذا فإن مبادئها الرئيسية ليست فقط اقتصادية بل وسياسية أيضًا، وقد تتوافر للأفراد ثروة كبيرة ولكن إذا لم تتملك الأمة القوة لوقايتهم فإنهم قد يفقدون في يوم واحد ما جمعوه في عصور طويلة، كما يفقدون أيضًا حقوقهم

وحريتهم واستقلالهم».

وبالإضافة إلى هذا: «فكما أن القوة تؤمِّن بالثروة فإن الثروة تزيد من القوة، وهكذا فإن القوة والثروة تنتفعان على قدم المساواة من التنسيق بين الزراعة والتجارة والصناعة في داخل حدود الدولة، ولا يمكن أن تتوافر للدولة القوة والثروة إذا لم يتوافر هذا التنسيق».

ولما كانت القوة الإنتاجية هي مفتاح سبيل الأمن القومي والسلامة الأهلية «فإنه ليس من حق الحكومة بل ولا من واجبها وحدها أن تنهض بكل شيء يمكن أن يزيد من ثروة وقوة الأمة، ولكن إذا لم يمكن إدراك هذا الغرض بواسطة الأفراد فإنه يكون من واجب الحكومة أن تحرس التجارة بأسطول، لأن التجار لا يستطيعون حماية أنفسهم، ومن واجب الحكومة أن تحمي نقل المتاجر بالقوانين البحرية؛ لأن التجارة المنقولة تعاون قوة الأسطول كما يحمي الأسطول التجارة المنقولة؛ ولهذا يجب أن تدعم مصالح التجارة وصناعة السفن بكل الصناعات الأخرى وأن تنشأ من أجلها الجسور والقنوات والخطوط الحديدية، وأن تحمي المخترعات الجديدة باستصدار القوانين التي تسجلها وتحميها، وهكذا حتى تصل إلى وجوب حماية الصناعات بواسطة فرض الضرائب الجمركية وذلك متى كان رأس المال الأجنبي والكفايات الأجنبية تمنع وتعطل المواطنين من تولي هذه الأعمال والنهوض بها»[1].

---

(١) Outlines, in Schriften, Reden Briefe المجلد الثاني من ١٠٥ – ١٠٦، ويبدو هنا بوضوح التماثل التام بين آراء ليست وآراء هاملتون فيما يختص بوجوب التنسيق. راجع أيضاً ص ٣٦٤ ذات المرجع، الملاحظة التي قدمها الدكتور نوتز وينسب فيها (عقيدة) «ليست» ليس فقط إلى هاملتون بل وإلى دانييل رايموند وماتيو كاري وجون كالهون.

والثروة لا نفع لها ولا فائدة تجنى منها ما لم تتوافر معها «وحدة الأمة وقوتها»؛ ولهذا فإن إخفاق ألمانيا في تحقيق الوحدة السياسية أو في إيجاد سياسة تجارية موحدة قد جعلها قادرة لأجيال متتالية على الاحتفاظ بمكانتها بين الأمم في الوضع الذي يفرضه لها نصيبها من المدنية. «ولقد وصلت ألمانيا عدة مرات إلى حافة الانهيار الاقتصادي نتيجة للمنافسة الحرة مع الدول الأخرى، وتبعًا لهذا فقد أدركت الحقيقة التي تقول بأنه في ضوء الظروف الحالية للعالم يجب أن تعمل كل أمة كبيرة للحصول على الضمانات التي تؤكد استمرار رخائها واستقلالها، وهي لا تصل إلى هذا إلا عن طريق استقلال واطِّراد تحسين مواردها وازدياد قوتها».

«وليست الرسوم الجمركية والقوانين التحفظية المقيدة التي توضع لتطور مثل هذه القوى والموارد وليدة عقول مخاطرة، ولا هي التدرج الطبيعي لاختلاف المصالح وتباينها، ولا هي ظلال صور كفاح الأمم المرير بعد أن تستقل وبعد فكاكها من مؤثرات عنيفة أو من نفوذ قوي» ليست هي وليدة شيء من هذا. بل إذا نظرنا إلى الأمر محاولين أن نعبِّر عنه بكلمات قليلة أخرى فمن الممكن أن نقول: «بأن الحرب، أو حتى حال احتمال الحرب، هي التي تجعل المنشآت الصناعية من ألزم الضروريات لكل أمة تقف في المرتبة الأولى بالنسبة لغيرها من الأمم»، كما أنه من الحماقة، بل ومن الغباء، أن تجيء أمة في هذا العصر الحديث «فتسرح جيوشها وتدمر أسطولها وتهدم حصونها»؛ ذلك لأنه يكون من الخراب المدمر أن تضع أمة سياستها الاقتصادية على أساس تقديرات غير مؤكدة لقيام حالة سلم واستقرار وتفاهم عالمي، الأمر الذي لا وجود له إلا في عقول أصحاب مدرسة

«التجارة الحرة»[١].

إن قدرة الأمة على الاشتباك في حرب إنما تقاس بمعيار قدرتها على الوصول إلى الثروة، ولهذا فإن الإمكانيات لتطور القوة الإنتاجية هي هدف الوحدة القومية والسياسة التحفظية.

وقد تنتج السياسة التحفظية لبعض الوقت ـ ولبعض الوقت فقط ـ مستوى منخفضًا للمعيشة؛ ذلك لأن الرسوم والحواجز الجمركية تؤدي إلى ارتفاع الأسعار؛ ولكن هؤلاء الذين يناقشون مسألة رخص أثمان البضائع الاستهلاكية على أساس أنها وسيلة عامة لتقدير نفع التجارة الأجنبية «لا يجهدون أنفسهم ولا يعنون إلا قليلًا بالتفكير في قوة وشرف ومجد الأمة»، ويجب أن يدرك هؤلاء أن الصناعات التي تحميها الدولة هي جزء أساسي من الشعب الألماني؛ «ومن هو الذي يمكن أن يتعزى عن فقد ذراعه إذا عرف أنه في سبيل هذا قد حصل على قميصه بسعر يقل أربعين في المائة عما كان يشتريه به من قبل؟»[٢].

---

(١) Le Système naturel d'économie politique (١٨٣٧) الفصل الثاني من "الأعمال" المجلد الرابع ص ١٨٦، "النظام الأهلي" ص ٨٧ و ٩١ – ٩٢ و ١٠٢ و ١٠٧، ولا حاجة لتذكير القارئ بأن آدم سمث لم يضع طريقته ونظامه على أساس سلم عالمي ولا على أساس اتحاد بين أمم العالم، وقد قال «ليست» نفسه في بعض المناسبات، بأن الهدف الأخير للمجتمع كله هو الوصول إلى حكومة عالمية، وبالرغم من أنه كان بالنسبة لهذه الفكرة (قومياً) أكثر من أن يكون مبشراً وداعية لها في صورتها العامة.

(٢) نفس المرجع ص ١١٩ و ١٤٠، قارن بين رأي ليست عن القوة الإنتاجية ورأي سمث في أن القدرة على الاشتباك في الحرب إنما تُقاس بمقدار الإنتاج الصناعي السنوي للأمة وبمقدار الحصيلة السنوية من الأرض والعمل والبضائع الاستهلاكية؛ وراجع أيضاً رأي چيفرسون عن (الأسعار) في القسم الخامس ورأي هاملتون عن (الكفاية الذاتية في وقت الحرب) في القسم الرابع من هذا الفصل ...

ويجب أن ندرك أنه كلما عظمت القوة الإنتاجية للأمة كلما ازدادت قوتها في الميدان الدولي، أي: من ناحية علاقاتها بغيرها من الدول. وكلما ازداد في ذات الوقت استقلالها في وقت الحرب، ولهذا فإن المبادئ والأصول الاقتصادية لا يمكن أن تنفصل عن النتائج والمعقبات السياسية التي لها أو تتسبب عنها.

«وفي الوقت الذي يكون فيه للعلم الفني والآلي مثل هذا التأثير الكبير على أساليب الحرب، وعندما تتوقف كل العمليات ذات الطابع الحربي على الأحوال الاقتصادية للدولة، وعندما يتوقف الدفاع الناجح بدرجة كبيرة على ما إذا كان أفراد الأمة في جملتهم موسرين أو فقراء، موفوري الذكاء أو بالغي الغباء، نشطين أو متكاسلين، وعندما يكون ولاء الأفراد متجهًا كله إلى الوطن الأم أو متجهًا بعضه إلى الدول الأجنبية، وعندما تتباين القدرة على إعداد الأفراد للدفاع عن البلاد بين الكثرة والقلة، في مثل هذا الوقت الذي هذه صفاته يجب أن تقدر قيمة الصناعات من وجهة النظر السياسية»[1].

وكان يتوافر لليست تفهم كبير للعوامل التي تدخل في نطاق الإمكانيات العسكرية، وقد كتب: «إن حال الأمم اليوم لهي نتيجة تجمع كل الاختراعات والمكتشفات والتطورات التي جاءت بها الأجيال السابقة والتي عاش أهلوها قبلنا؛ إن كل أمة عندما ننظر إليها وحدها تعتبر منتجة

---

(١) نفس المرجع ص ١٦٨ – ١٦٩ وأيضاً ص ١١٨ – ١١٩. ويجب ملاحظة أن "ليست" يقصد في هذه الفقرة وصف الزمن في الوقت الذي يكتبها فيه وحال المجتمع العالمي في ذلك الوقت، ومن هنا كان تقديره لقيمة الصناعات في ذلك الوقت أكثر من أي وقتٍ سابق من وجهة النظر السياسية. "المترجم"

فقط في الناحية التي عرفت كيف تنتفع بما جاءت به الأجيال السابقة فيها، ثم زادت من هذا بإمكانياتها الخاصة؛ هذه الإمكانيات التي يمكّن من تطورها ما في أرضها من موارد وما لموقعها الجغرافي من أهمية، ثم أن تزيد بعد هذا مما يتوافر لها داخل حدودها من سكان وقوة سياسية وثروة، وأن تمد من نفوذها الثقافي والتجاري والسياسي على غيرها من الأمم التي تقل تقدمًا وحضارة عنها وعلى الأخص في الشئون ذات الصبغة العالمية»[1].

ولا شك في أن مثل هذه المعتقدات والآراء توجد خطوة سهلة ميسورة لاتباع سياسة اتساع إقليمي في قارة أوروبا واتساع استعماري فيما وراء البحار؛ ولم يتردد ليست في اتخاذ هذه الخطوة، فقد رغب في وجود ألمانيا متحدة تمتد من الرين إلى الفستيولا، ومن البلقان إلى البلطيق، وقد اعتقد «بأن أسس البناء المعنوي للأمة بما يصحب هذا من تطور ثقافي ونهضة علمية فنية، بل وأساس التطور المادي والقوة السياسية لها! إنما هو أن يتوافر لهذه الأمة العدد الكبير من السكان، والمنطقة الفسيحة من الأرض مع دخل ثابت من الموارد الطبيعية المختلفة، ولهذا فإن الأمة المحدودة عدد السكان والمحدودة الحيز في المساحة لا يمكن أن تتوافر لها آداب أو ثقافة أو مؤسسات للنهوض بالفنون والعلوم، كما لا يمكن للأمة الصغيرة أن تزيد من تطور وتقدم مواردها الإنتاجية المختلفة إلى أقصى مدى لهذا التطور»، ومن هنا كانت الأمم الصغيرة لا تستطيع أن تحتفظ باستقلالها إلا بصعوبة كبرى، ولكنها لا تستطيع أن تعيش إلا بالتحالف مع الدول الكبرى الأمر الذي يتطلب منها التضحية بسيادتها القومية[2].

---

(١) ذات المرجع ص ١١٣ – ١١٤.

(٢) ذات المرجع ص ١٤٢، ويبدو هنا أن ترجمة لويد غير مرضية وقد أعدت ترجمة هذه=

على أن هذا الذي سلف ذكره لا يختلف كثيرًا عن التعريفات الألمانية الحديثة «للمجال الحيوي» كما يتضح من برنامج ليست، ذلك البرنامج الذي وضعه لألمانيا الكبرى، فقد وقف في جانب انضمام الدانمرك وهولندا وسويسرا وبلجيكا لألمانيا المتحدة، وقد بني هذا بالنسبة للدول الثلاث الأولى على أساس الجنس واللغة وعلى أساس الاقتصاد والاستراتيجية؛ كما أن الحاجة ملحة إلى الدانمرك وبلجيكا وهولندا كي تستطيع ألمانيا أن تسيطر على مصابِّ الأنهار الألمانية مع الساحل البحري من مصب الرين إلى بروسيا الشرقية، ويضمن هذا للأمة الألمانية ما تحتاجه الآن «من مصايد الأسماك ومن الأسطول والتجارة البحرية والمستعمرات»، كما أن انضمام هذه الدول الثلاث مضافًا إليها سويسرا يضمن لألمانيا حدودًا طبيعية من البحار والجبال، «وهذا أمر ضروري من الناحيتين الاقتصادية والسياسية»[١]، كما أن على ألمانيا أن تقوم بتسرب سلمي في أرض الدانوب وفي تركية أوروبا، وهذه المناطق هي الحدود الطبيعية لألمانيا. ثم إنه من مصلحتها أن يتوافر الأمن والنظام في تلك المناطق[٢].

ويجب أن يتوافر في الأمة القوة للتأثير في حضارة الأمم الأقل منها تقدمًا،

=الفقرة ثانية لتتمشى مع الأصل الألماني الذي يمكن الرجوع إليه في "الأعمال" المجلد السادس ص ٢١٠ – ٢١١.

(١) ذات المرجع ص ١٤٢ – ١٤٣، ٢١٦، ٣٢٧، ٣٣٢، ٣٤٦ – ٣٤٧ ولسبب غير واضح كان ليست متأثراً بفكرة أهمية الأنهار كحدود طبيعية.

(٢) ذات المرجع ص ٣٤٧ وقد قال "ليست": إنه من الأفيد للألمان أن يُهاجروا إلى الدانوب لا إلى سواحل بحيرة إيريه راجع "الأعمال" المجلد الخامس ص ٤٩٩، ٥٠٠ (بحيرة إيريه بحيرة في بنسلفانيا وهي إحدى البحيرات الأمريكية الخمس الكبرى وعلى ساحلها ميناء تجارية كبيرة تحمل ذات الاسم ومساحة البحيرة ٢٥٠٠٠ كيلو متر مربع وسكان الميناء ١١٧٠٠٠ نسمة) – لا روس ص ١٣٥٢. (المترجم).

ويجب أن تستطيع بالزيادة في تعداد سكانها وبالفائض في رأس المال المادي والمعنوي والذي ينصرف من هذه الأمم إلى أمم أخرى تتوافر فيها إمكانيات العمل فإن كل هذه الزيادة تكون قد ضاعت على الأمة الأصلية وتحولت إلى فائدة القوميات الأخرى»، وهذه حقيقة واضحة لا شك فيها بالنسبة للهجرة الألمانية إلى الولايات المتحدة، «وأي نفع إذا ما توافر الرخاء بدرجة كبيرة للمهاجرين الألمان في أمريكا الشمالية؟!! إنهم من ناحية العلاقات الشخصية يعتبرون قد فقدوا القومية الألمانية تمامًا، ولا تحصل ألمانيا من إنتاجهم المادي إلا الثمار التي لا أهمية لها، إن من الخطل أن يظن الناس بأن اللغة الألمانية تظل لغة الألمان الذين يعيشون في داخلية الولايات المتحدة، وأنه من الممكن بعد وقت ما إنشاء ولايات ألمانية هناك»، وكانت خاتمة هذا البحث هو أنه لا مندوحة من أن يكون لألمانيا مستعمرات خاصة بها في جنوب شرق أوروبا وفي الأمريكيتين الوسطى والجنوبية، وأن تدعم هذه المستعمرات بكل موارد الأمة بما في هذا من شركات استعمار قوية «مع نظام قنصلي ودبلوماسي قوي»[١].

وكان «ليست» على دراية تامة بأن برنامجه للاتساع في القارة الأوروبية والمستعمرات وراء البحار لا يمكن إدراكه بدون الحرب، وكان أولئك الذين يدعون لإيجاد تنظيم أهلي لألمانيا يعرفون ـ على ما قال ليست في رد عنيف على جريدة التيمس اللندنية ـ بأن المستقبل قد يجيء بحروب قومية ولكنها ستكون هي التي تعبئ الموارد المعنوية للأمة الألمانية لدعم الاقتصاد الأهلي[٢].

(١) ذات المرجع ص ١٤٢، ٢١٦ – ٢١٧، ٣٤٥ – ٣٤٧.

(٢) "جريدة التيمس ونظام الحماية الضرائبية الألمانية" مجلة الضرائب المجلد الرابع لعام ١٨٤٦ ص ٦٩٣ – ٦٩٤. =

وكانت انجلترا بالطبع هي التي وقفت في طريق الأطماع الألمانية، كانت هي الخصم الأول لسياسة توازن القوى التي عبأت «الدول الأقل قوة لتقوم بوقف تدخل الدول القوية في أراضيها»، وقد وقفت بريطانيا بمنجاة من أي تهديد كقوة استعمارية لها قيمتها وأهميتها، هذا المركز الذي وصلت إليه نتيجة تطور صناعاتها، ولهذا «فإنه إذا أرادت الدول الأوروبية الأخرى أن تساهم في العمل النافع بزرع الأراضي المهملة وتمدين الشعوب المتبربرة، أو الشعوب التي كانت متمدينة يومًا ما ثم اتجهت منغمرة في البربرية، فإنها يجب أن تبدأ بتطور قواها الصناعية الداخلية وبتطور تجارتها البحرية ثم بتطور أسطولها البحري، فإذا ما عطلت عن إدراك هذا بواسطة السيادة الصناعية والتجارية والبحرية لانجلترا فإن في اتحادهما معًا الوسيلة الوحيدة لإضعاف هذا العمل غير المنطقي»[١].

وكانت انجلترا أيضًا هي التي وقفت كالتمثال الحجري الضخم تسد الطرق البحرية للعالم جاعلة من الصعوبة على أي أمة أخرى أن تحصل على القوة البحرية الضرورية لتحقيق أهدافها، وقد كتب «ليست» عن السيطرة الإنجليزية على البحار: «لقد تملكت بريطانيا مفتاح كل بحر ووضعت حارسًا على كل أمة، فعلى الألمان هيلو جولاند[*] وعلى الفرنسيين چيرنسي

= ("Die Times und das deutsche Schutzsystem" Zollvereinsablatt. IV) (١٨٤٦) ٦٩٣ – ٦٩٤.

(١) The National System pp. ٢١٦ – ٢١٧, ٣٣٠.

(*) هيلو جولاند ... جزيرة ألمانية في بحر الشمال عبارة عن هضبة صخرية طولها ميل واحد وأكبر سعة لها لا تزيد على ثلث ميل – تبعد أربعين ميلاً لغرب مصب نهر الألب وثمانية وعشرين ميلاً عن أقرب نقطة على الساحل الألماني، كانت ملك بريطانيا من ١٨٠٧ إلى ١٨٩٠، وأعطيت لألمانيا في عام ١٨٩٠ بدلاً من منطقة في شرق أفريقيا (المترجم)

E. Encycl. Vol. ٧ pp. ٥٢ – ٥٣.

وچيرسي(*) وعلى سكان أمريكا الشمالية نوڤا سكوتيا وجزر برمودا(**)، وعلى أمريكا الوسطى جزيرة چمايكا(***)، وعلى كل الدول التي تحف بالبحر

(*) چيرسي ... ثاني جزر القنال الإنجليزي التي تبعد ثلاثين ميلاً عن ساحل نورماندي والجزيرة مُثلثة الشكل ومساحتها ٢٥ ميلاً ويسكنها ٤٩٣٠٠ من السكان، تزرع الخضروات والفاكهة وتشتهر بماشيتها الغزيرة الألبان. E. Encycl. Vol. ٦ pp. ٦٣٤
چيرسي.. أكبر جزر القنال الإنجليزي وأبعدها للجنوب، سطحها صخري وعر وبخاصة في الشمال، والمناطق الخصبة منها تزرع الخضروات وعلى الأخص البطاطس الذي صدرت منه في العام الماضي ستين ألف طن، ومساحة الجزيرة ٤٩ ميلاً مربعاً ويسكنها خمسة وخمسون ألفا من السكان كإحصاء عام ١٩٤٨ ولا تزال اللغة الرسمية في الجزيرة هي اللغة الفرنسية ولكن كل الأعمال الحكومية تتبع النظام الإنجليزي (المترجم). E. Encycl. Vol. ٧ pp. ٧٥١ – ٧٥٢.

(**) برمودا ... مجموعة من الجزر في المحيط الأطلنطي تبعد خمسمائة وثمانين ميلاً عن رأس هاتيراس أقرب نقطة لها على الساحل الأمريكي، وليس من الواضح تاريخ كشفها، ولكن أول من زارها في التاريخ المسطور هو جوان برموديز الأسباني عام ١٥١٥، تولت أمرها شركة فرجينيا في عهد جيمس الأول عام ١٦١٠ ثم ضُمت لممتلكات التاج عام ١٦٢٠.
وتتكون الجزر من مجموعة كبيرة أغلبها صخري غير مسكون وتدور في شكل حلقة بيضاوية من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي، وجملة مساحتها ١٩ ميلاً منها جزيرة برمودا وحدها تصل مساحتها إلى أربعة عشر ميلاً، وجملة السكان كإحصاء عام ١٩٤٠ (٣٢٠٠٠) منهم (١٢٣٠٠) من البيض.
أعطيت للولايات المتحدة ضمن قواعد الأطلنطيق في أيام الحرب العالمية الثانية وأنشئت بها قاعدة لتدريب الأسطول الكندي عام ١٩٤٤.
عقد بها عام ١٩٤٦ مؤتمر إنجليزي – أمريكي نشرت محاضر جلساته في الكراسة البيضاء رقم ٦٤٤٧ وعقد بها مؤتمر أيزنهاور – ماكميلان في مارس ١٩٥٧ E. Encycl. Vol. ٢ pp. ٢٥٩ – ٢٦٠. (المترجم).

(***) چمايكا أكبر الجزر الإنجليزية في جزر الهند الغربية في البحر الكاريبي تبعد تسعين ميلاً عن الساحل الشرقي لكوبا. مساحتها (٤٤٥٠) ميلاً مربعاً ويسكنها مليون وربع من السكان منهم خمسة عشر ألفاً من البيض، تشتهر بزراعة الفاكهة وجوز الهند والتبغ وأهم صناعتها الزيوت والكبريت والمياه المعدنية. E. Encycl. Vol. ٧ pp. ٦٩٤ – ٦٩٨ (المترجم).

الأبيض المتوسط وضعت جبل طارق ومالطة وجزر الأيونيان، إنها تمتلك كل المواقع الاستراتيجية على كلا الطريقين إلى الهند فيما عدا برزخ السويس الذي تعمل جاهدة لتملكه، إنها تسيطر على البحر الأبيض المتوسط بجبل طارق، وتسيطر على البحر الأحمر بعدن، وتسيطر على الخليج الفارسي ببوشير وكراتشي، إن كل ما تحتاجه بريطانيا هو أن تمتلك الدردنيل وبرزخ السويس وقناة بنما حتى يكون في استطاعتها أن تغلق أو تفتح كل بحر وكل طريق بحري تبعًا لرغباتها الخاصة»[١].

ولم يكن في استطاعة أي أمة أن تنجح في تهديد بريطانيا وذلك لقوتها البحرية والتجارية العظيمة، ولقوتها الاستعمارية اللهم إلا إذا حصلت على مساعدة كبيرة من الأمم الأخرى؛ «والدول التي هي أقل قوة من إنجلترا في البحر تستطيع أن تقف فيها موقف المساواة عندما تتجمع قواتها البحرية معًا في مجموعة واحدة»، ولما كانت كل أمة من هذه الأمم لها «مصلحة في صيانة ورخاء القوى البحرية للأمم الأخرى» فإنها كلها معًا يجب أن تعمل ـ لتكون معًا قوة بحرية متحدة ـ هادفة فيما تهدف إلى منع هذه السيطرة الإنجليزية على الطرق البحرية في العالم «وبخاصة السيطرة على البحر المتوسط»[٢].

---

(١) ذات المرجع ص ٣٨؛ أما بالنسبة لقناة بنما والتي كانت بريطانيا تعمل جاهدة منافسةً للولايات المتحدة في تملكها فقد اقترح «ليست» إنشاء طريق دولي تحت إشراف مُنظمين ألمان. "راجع الدور السياسي في إنشاء قناة بنما" الفصل الثالث والعشرين من "التاريخ السياسي الاجتماعي لأمريكا" بقلم هارولد أندر وود فولكينر النسخة الخاصة بالقوات المسلحة الأمريكية (E. M. ٢٧٠) الجزء الثاني ص ٥٣٢ – ٥٤٨ طبعة عام ١٩٤٤. (المترجم).

(٢) ذات المرجع ص ٣٣٢ و ٣٣٤.

ومن الحكمة أن الأمم التي في القارة تكوِّن معًا كتلة أوروبية هدفها وقف قوة بريطانيا عند حدها؛ «وإذا استطعنا أن نقدر المصالح المشتركة للأمم التي تعيش في القارة ـ هذه المصالح التي تتعارض مع السيادة البحرية التي لبريطانيا ـ استطعنا أن ندرك أنه ليس هناك ما هو أكثر ضرورة لهذه الأمم من اتحادها معًا، وأنه ليس هناك ما هو ضار بها أكثر من هذه الحروب التي تدور في قلب القارة، ويؤكد لنا تاريخ القرن الماضي أن كل حرب قد أثارتها دول القارة بعضها ضد بعض كانت نتيجة لشيء واحد هو زيادة صناعة وثروة وملاحة ومستعمرات الدولة البحرية التي لها السيادة؛ أي بريطانيا»[1].

ولكن التفكير الاستراتيجي لليست لم يكن قصير المدى ولا محدود الأفق، ولا تقف أهدافه حتى عند حدود قارة أوروبا، كان «ليست» في تحديقه نحو المستقبل يرى اليوم الذي سيخفق فيه العلم «ذو الأشرطة والنجوم» الأمريكي، لا العلم البريطاني، على البحار. ويكون إذ ذاك من الضروري على الأمم الأخرى التي تغطي سطح الكرة الأرضية أن تقوم بتدابير لها أثرها لتحد من قوة الولايات المتحدة: «وستمكن ذات الأسباب التي رفعت بريطانيا العظمى إلى مركزها الحالي» «وربما كان هذا في مدى القرن التالي» ستمكن من رفع الولايات المتحدة إلى درجة في الصناعة والثروة والقوة تزيد عما لبريطانيا الآن، وسيكون الفرق بين الولايات المتحدة وبريطانيا يوم ذاك أكثر من الفرق بين بريطانيا وهولندا الصغيرة اليوم؛ وسيزداد مع الأيام تعداد سكان الولايات المتحدة إلى مئات الملايين من الأنفس، وستنشر الولايات المتحدة معاهدها وتعاليمها وحضارتها في

(١) ذات المرجع ص ٣٣٨.

الأمريكيتين الوسطى والجنوبية كما انتشر هذا كله الآن في المكسيك الأرض التي تجاورها تمامًا، وسيمكن لمئات الملايين الذين يسكنونها من تحسين موارد القارة الأمريكية، هذه الموارد التي تزيد بدرجة كبيرة عما في قارة أوروبا من موارد الثروة الطبيعية، وستتفوق القوة البحرية للعالم الغربي كذلك على بحرية بريطانيا بذات الدرجة التي تزيد بها سواحل وأنهار العالم الجديد على سواحل بريطانيا وأنهارها في الطول والإمكانيات».

«وهكذا فإن الحاجة التي تفرض الآن على الفرنسيين والألمان ضرورة تكوين تحالف قاري ضد السيادة البريطانية.

ستفرض ـ هذه الحاجة نفسها ـ على الإنجليز في المستقبل غير البعيد ضرورة إنشاء إتحاد أوروبي ضد السيادة الأمريكية؛ وهكذا تضطر بريطانيا أن تتلمس وأن تجد في قيادة القوى المتحدة في أوروبا ما تحتاجه من الأمن والوقاية ضد سيطرة أمريكا، وستجد في هذا ما يعوضها عن سيادتها التي تكون قد فقدتها»!!!

«ولهذا فإن من صالح انجلترا أن تعمل لاكتساب صداقة الدول الأوروبية وأن تعوِّل على أن تكون الأولى وسط مجموعة من الدول تقف كلها بعضها من بعض موقف المساواة»[1].

وقد تكون وجهات نظر «ليست» عن بريطانيا دراسة طريفة من الناحية

(١) ذات المرجع ص ٢٣٩ – ٢٤٠؛ وقد جاءت ذات الفكرة بإفاضة في سجل كتب عام ١٨٤٦ قبل وفاة «ليست» بقليل "قيمة ومعنى تحالف بريطانيا وألمانيا" – المجموعة. المجلد السابع ص ٢٦٧ – ٢٩٨؛ راجع أيضاً "ماضي وحاضر أمريكا الشمالية" – مُعجم الدولة لعام ١٨٤١ ص ٢١٩.

راجع الحديث في التعريفات بالمؤلفات في آخر هذا الفصل من الكتاب.

السيكولوچية، وربما تكون أكبر قيمة عندما ننظر إليها على التحديد من وجهة نظر السيكولوچية الألمانية، فقد أعجب «ليست» ببريطانيا.

والواقع أن القليل من الرجال من الأمم الأخرى هم الذين نظروا إلى بريطانيا ذات نظرة الإعجاب هذه؛ ولكنه من ناحية أخرى كان يخاف بريطانيا ويكرهها وإذا قدرنا أنه هو نفسه كان يقاسي الكثير من مركب النقص الذي أوجده فيه ما لقيه من اضطهاد على أيدي الموظفين الألمان فليس من المدهش أن نجده يؤمن بأن بريطانيا تشترك إيجابيًّا في العمل لفشل كل الخطوات التي تستهدف إتحاد ألمانيا، ولهذا فقد اشتبك في نقاش عنيف مع الكثيرين من الإنجليز وبخاصة أولئك الذين كانوا ما زالوا يتبعون تعاليم آدم سمث، الذي كان قد مات منذ زمن بعيد.

وقد نزل ليست أرض بريطانيا آملًا في أن يمهد الطريق لحلف ألماني / بريطاني، ولم يذهب خالي الوفاض بل أعد مذكرة طويلة عن هذا الحلف قدمها إلى البرنس آلبرت، وإلى السير روبرت بيل رئيس الوزراء إذ ذاك، وللورد كلارندون وزير خارجية بريطانيا يوم ذاك، كما قدم نسخة من مذكرته لملك بروسيا؛ وقد لقي «ليست» تشجيعًا من دي بنسين سفير بروسيا في لندن بل ومن بعض الدوائر البريطانية أيضًا، ولكن بيل لم يقبل الفكرة، وهكذا رجع ليست إلى ألمانيا في الخريف مهدم الصحة.. محطم الروح المعنوية، وعلى حافة المرحلة التي أدت إلى انتحاره الذي حدث في الثلاثين من نوفمبر عام ١٨٤٦[١].

---

(١) راجع من أجل هذه الرحلة كتاب هيرست ص ٩٧ - ١٠٦، أما عن المذكرة الخاصة بالحلف المقترح والتي ستناقش في الفقرات التالية فيرجع إلى المؤلفات التي ورد ذكرها في الهامش رقم (٨٣).

والواقع أنه توجد في مذكرة «ليست» بعض الأخيلة والتصورات في تقدير قيمة وظروف الحلف الإنجليزي / الألماني، ولكن ما من شك في أن هذه المذكرة توضح تفهمًا دقيقًا للحقائق الاستراتيجية التي كانت تواجه كلتا الدولتين في منتصف القرن التاسع عشر؛ وكبداية لإيضاح هذا فإن ليست قد تنبأ بما وصل إليه السير هاليفورد ماكيندر(*) بعد أكثر من نصف قرن من الزمان من أنه ليس للسيادة البحرية التي لبريطانيا كيان أبدي؛ كما فكر في أن تطور استخدام البخار في الخطوط الحديدية وفي السفن البحرية قد يعطي دول القارة الكثير من النفع بالنسبة للجزر البريطانية التي لم تكن تملك إذ ذاك شيئًا من هذا، كما قدر أن القوى المشرقة للأمم الأخرى وعلى الأخص الولايات المتحدة أنها يكمن في أعطافها ما يدل على أن السيطرة على البحار قد تكون موضع تهديد، وأنه بدون السيطرة على البحار لن يكون هذا النفع الذي تتمتع به بريطانيا بسبب موقعها البحري مستطاعًا في يسر. وقد تنبأ «ليست» أيضًا بأن الاتحاد بين الشعوب اللاتينية والسلافية عن طريق حلف فرنسي / روسي، وآمن بأن بريطانيا وألمانيا يجب أن تعملا للموازنة ضد مثل

(*) ما كيندر ... سير هيلفورد جون ما كيندر (١٨٦١ – ١٩٤٧) جغرافي تعلم في إكسفورد، اقترح في عام ١٨٩٥ إنشاء جامعة لدراسة الجغرافيا الطبيعية والبشرية وقد ووفق على اقتراحه وأنشئت الجامعة في إكسفورد بعد عدة أعوام وفي عام ١٨٩٩ قاد رحلة كشفية إلى جبال كينيا ووصل إلى قمة "باتيان" على ارتفاع ١٧٠٠٠ قدم من سطح البحر، تولى تدريس علم الجغرافيا في جامعة لندن ثم تولى رياسة مدرسة العلوم الاقتصادية والسياسية، ومن أشهر مؤلفاته "وادي الراين وتاريخه" نشرت سنة ١٩٠٨، ثم ثماني محاضرات عن الهند سنة ١٩٠٠.

وأهم أعمال ماكيندر هي نظرياته في علم "الجيوبوليتيكس" سياسة الكرة الأرضية، ولعله هو الذي أوجد هذا العلم وإن كان خير من انتفع به وزاد من نطاق دراسته هو الجنرال كارل هوزهوفر الألماني E. Encycl. Vol. ٨ pp. ٦٤٧ (المترجم).

هذا الارتباط بأن تتوليا قيادة الشعوب الألمانية.

وكان ليست يؤمن بأن القوة المتحدة والتي تكونها روسيا وفرنسا معًا ليس فقط ستهدد مصالح بريطانيا في أوروبا والشرق، بل وأنها على التأكيد ستدمر ألمانيا، ولكن باتحاد ألمانيا وبريطانيا معًا ستستطيع بريطانيا أن تنتفع بقوة برية في القارة، كما أن ألمانيا سترحب بالإمدادات التي تجيئها من قوة ساحلية بحرية؛ وكل ما تطلبه ألمانيا من بريطانيا هو أن تتفهم مصالحها وأن تعاونها في فرض ضريبة معتدلة وقائية لحماية ألمانيا المتحدة الأمر الذي بدا لليست أنه ثمن صغير تدفعه بريطانيا من أجل الصداقة الألمانية وإذا كان هذا سيقاوم من أصحاب رءوس الأموال التي تستغل في الصناعة الإنجليزية؛ فمن الضروري أن تدرك بريطانيا حقيقة أهم وأكبر، وهي أن مركزها كقوة عالمية سيدعم ويقوى بل ويمتد.

ولكن «ليست» أخفق فيما أخفق فيه كثيرون، ولم يستطع أن يجد الصيغة التي تمكن من الوصول إلى تسطير ارتباط إنجليزي / ألماني؛ ***والواقع*** أنه سواء أكان للخير أم للشر، وللنفع أم للضرر؛ فإنه لم يكن هناك من سبيل للاتفاق والتفاهم بين الدولتين على مصالح مشتركة بينهما، فضلًا عن وجود الكثير من العوامل المعنوية والنفسية التي كانت تسد طريق أي تفاهم تعاوني بينهما.

ويرجع إخفاق ليست أيضًا إلى أنه لم يكن ليستطيع في أشهر قليلة أن يزيل الضرر الذي سببه هو في أعوام بالدعاية المستمرة ضد بريطانيا.

* * *

[٨]

على أن الشيء الوحيد الذي أسهم به «ليست» في الاستراتيجية الحديثة كان مناقشته لتأثير السكك الحديدية على تنقلات القوات العسكرية، وقد اتجه عن رغبة إلى دراسة موضوعات السكك الحديدية أثناء إقامته في أمريكا عندما كان واحدًا من الذين نظموا شركة (شولكيل) للملاحة والخطوط الحديدية والفحم(*) والتي كانت محاولة سابقة للتنظيم الحالي في ريدن(**)، ثم كانت الخطوط الحديدية بعد هذا واحدة من هواياته التي شغف بها في حياته.

وتملأ كتاباته عن السكك الحديدية مجلدين كاملين وما يقرب من صفحتين كاملتين من ملحق المجلد الكبير الذي جمع أعماله، وفي السنتين ١٨٣٥ و ١٨٣٦ أصدر جريدة «السكك الحديدية» والتي وقَّفها للحديث عن إنشاء الخطوط الحديدية في ألمانيا، ولم يقم بجهد في أي أمر آخر كما قام في موضوع الخطوط الحديدية الألمانية ذلك لأنه رأى ـ وكان مصيبًا في رأيه ـ أن شبكة الخطوط الحديدية التي تتجمع في تنظيم أهلي ستكون واحدة من القوى التي تدعم الوحدة الألمانية.

وكان من الضروري توقع عناية «ليست» بالتأثير الاقتصادي للسكك

(*) شولكيل ... نهر في جنوب شرق بنسلفانيا طوله ١٣٠ ميلاً ويصب في نهر دلوار عند فيلاديلفيا وقد أطلق اسم النهر على الشركة حال إنشائها.

(**) ريدن وتُكتب Reading مدينة في جنوب شرق بنسلفانيا يبلغ سكانها ١٠٩٠٠٠ نسمة – وتشتهر بخطوطها الحديدية والملاحية التي تتولاها شركة خاصة. «معجم ويبستر طبع ماكميلان ١٩٥٦ ص ١٣٠٥ و ١٤٠٩ على التوالي» (المترجم).

الحديدية، ومع أنه كان أصدق تقديرًا من كل معاصريه في هذا، إلا أن الذي يثير الدهشة هو تفهمه العميق للتأثير الاستراتيجي الذي سيكون لها، فقبل استخدام السكك الحديدية كان موقف ألمانيا الاستراتيجي أضعف المواقف في قارة أوروبا، وتبعًا لهذا كانت هي ميدان القتال التقليدي لأوروبا، وقد رأى «ليست» قبل أي فرد آخر أن الخطوط الحديدية هي التي ستعدل من هذا، وستجعل من موقع ألمانيا الجغرافي مصدر قوة بدلًا من كونه العامل الأساسي لضعفها العسكري، فسيمكن جعل ألمانيا موقعًا دفاعيًّا قويًّا في قلب القارة، وستكون سرعة التعبئة وسرعة نقل الجنود من منتصف ألمانيا إلى أي منطقة على حدودها المختلفة ذات فائدة نسبية كبيرة لألمانيا أكثر مما لأي دولة أوروبية أخرى، هذا فضلًا عما للخطوط الداخلية من نفع كبير.

وقد كتب «ليست» أن شبكة جديدة من الخطوط الحديدية ستحول كل أرض ألمانيا إلى حصن قوي كبير يمكن الدفاع عنه بواسطة الكتلة البشرية التي تعيش فيها بأقل نفقات وبأقل اضطراب للحياة الاقتصادية في البلاد، وسيمكن عندما تنتهي المعركة إعادة الجنود إلى بلادهم بذات السهولة؛ ولكل هذه الأسباب وغيرها رأى «ليست» أن شبكة الخطوط الحديدية التي قدرها لألمانيا في عام ١٨٣٣ ـ والتي هي سكك الحديد الحكومية في ألمانيا اليوم ـ ستمكن جيش ألمانيا المتحدة في حالة الغزو من الانتقال من أي نقطة في داخل البلاد إلى أي نقطة أخرى على الحدود بسرعة تيسر من مضاعفة الإمكانيات الدفاعية للدولة، وبذلك يمكن وقف عمليات الغزو المستمرة منذ مائتي سنة.

وإذا كان هذا سيجعل ألمانيا أقوى عشر مرات في الدفاع فسيجعلها أيضًا أقوى عشر مرات في الهجوم لو قامت بحرب هجومية، وإن كان «ليست»

قد ظن بأن هذه الحرب الهجومية غير متوقعة من جانب ألمانيا[١].

وكانت في كتابات «ليست» إشارة لأهمية إنشاء الخطوط الحديدية في ألمانيا فيقول: «إن كل ميل من الخطوط الحديدية تمده قبلنا أي دولة مجاورة يعطيها أفضلية علينا» ذلك لأنه «من الضروري أن تقرر بسرعة ما إذا كنا سنستخدم الأسلحة الدفاعية التي جاءتنا عن طريق التقدم الفني المتواصل أم نظل كما نحن، وذلك كما ترك لآبائنا الأولين ليقرروا ما إذا كانوا سيستخدمون البنادق أم يبقون على تسليحهم بالقوس والسهم»[٢].

فإذا قدرنا أن هذا كله قد كتب قبل أن تقدم لنا الحرب الأهلية الأمريكية الدليل القوي على أهمية الخطوط الحديدية، وضح لنا مدى دراية «ليست» بالكثير من المسائل الهامة قبل أن تبدو واضحة لكل فرد.

ولكن «ليست» كان مخطئًا عندما ظن أن الخطوط الحديدية ستمكن الدول الأوروبية من أن تخفض أحجام جيوشها، فعلى النقيض من هذا، كما أوضحت الحرب الفرنسية ـ الألمانية فيما بعد، يسرت الخطوط الحديدية كل المشكلات العسكرية للإمدادات والتموين، ومكنت من تحرك جيوش كبيرة

---

(١) لإيضاح التخطيط لعام ١٨٣٣ راجع «نظام السكك الحديد السكونية كأساس للسكك الحديد الألمانية بوجه عام "مجموعة الأعمال المُجلد الثالث جزء ١ ص ١٥٥ – ١٥٩" أما الحديث عن النظرية الاستراتيجية العامة للخطوط الحديدية فيرجع إليها في "السكك الحديدية الألمانية وعلاقتها بالشئون الحربية" ذات المرجع ص ٢٦٠ – ٢٧٠، وقد كتب «ليست» هذا البحث الأخير بين عام ١٨٣٤ وعام ١٨٣٦».

انظر: "Uber ein sachsisches Eisenbahnsystem als Grundlage eines allegmeinen deutschen Eisenbahnsystem". أما عن النظرية الاستراتيجية العامة للسكك الحديدية فيرجع إلى: "Deutschlands Eisenbahnsystem in militarischer Beziehung". ص ٢٦٠ – ٢٧٠ وقد كتب البحث الأخير في عام ١٨٣٤ – ١٨٣٦.

(٢) السكك الحديد الألمانية ... ذات المرجع ص ٢٦٦ – ٢٦٨.

العدد بها تحمل من كميات كبيرة من الذخائر مما لم يمكن لأي فرد فيها قبل أن يصدقه أو حتى يظنه مستطاعًا.

وكان ليست أيضًا مخطئًا في تفكيره بأن إنشاء الخطوط الحديدية سيجعل «العمليات الهجومية» غالية الثمن، وأن خطر الحرب سيقل بسبب هذا.

ولكنه كان على حق في تأكيده أن الخطوط الحديدية أقل تعرضًا للتدمير الحربي بالنسبة لما يلحق المنشآت العسكرية الدائمة، وهذه حقيقة قد أكدت منها عمليات التدمير الجوي التي قام بها الألمان في انجلترا، والعمليات الجوية التي قام بها الإنجليز والأمريكان في قارة أوروبا طوال الحرب العالمية الثانية[١].

على أنه حتى قبل أن يكون لألمانيا نفسها شبكة من الخطوط الحديدية كانت أحلام «ليست» قد سارت به شوطًا بعيدًا إلى ما وراء حدود ألمانيا متعمقًا في قلب باقي قارة أوروبا بل وفي آسيا.

والواقع أن «ليست» على ما يبدو كان هو صاحب فكرة الخط الحديدي إلى بغداد، وفي مشروعه للحلف البريطاني / الألماني اقترح أن تدعم مواصلات بريطانيا إلى الهند والشرق الأقصى بواسطة خطوط حديدية تمتد من القنال الإنجليزي إلى بحر العرب؛ وقد كتب أن النيل والبحر الأحمر يمكن أن يكونا قريبين جدًّا من الجزر البريطانية كما كان الرين والألب في عصر نابليون، وأن يكون الطريق إلى بومباي وكلكتا سهلًا ميسورًا كالطريق إلى لشبونة وقادس، ويمكن أن يتم هذا بمد شبكة الخطوط الحديدية

(١) بالإضافة إلى ما سبق ذكره راجع أيضاً «سكك حديد حكومة فرنسا بوجهٍ عام» – ذات المرجع المجلد الثالث الجزء الثاني ص ٥٦٤، ٥٦٧.

Uber ein allgemeines Eisenbahnsystem in Frankreich.



مقترحات ليست عن الخطوط الحديدية
وخطوط الملاحة البحرية ١٨٢٠ - ١٨٤٠

البلچيكية الألمانية إلى البندقية ثم عن طريق البلقان والأناضول إلى وادي الفرات والخليج الفارسي وتنتهي إلى بومباي، وأن يتجه خط فرعي سوري ليربط الخط الرئيسي مع القاهرة والسودان، وعلى أن يسير خط للمواصلات البرقية ملاصقًا للخط الحديدي وبذلك يكون «دوانيج ستريت» «مركز رئيس الوزارة البريطانية» على اتصال مباشر بجزر الهند الشرقية كما يتصل بجزر چيرسي وچورنسي في القنال الإنجليزي.

وقد صور «ليست» أيضًا مشروع إنشاء الخط الحديدي عبر قارة آسيا إلى الصين[1].

والواقع أنه لم يظهر في هذه المشروعات ما يمكن أن يعتبره «ليست» مخاطرة، أو أنه واسع الأطماع، وكانت كل هذه المشروعات في تقديره مثلها مثل المشروعات التي كانت تناقش في ذات الوقت في أمريكا لمدِّ الخطوط الحديدية من ساحل المحيط الأطلنطي إلى ساحل المحيط الهادي.

وكان من رأي ليست أنه لضمان الأمن السياسي للأراضي التي ستمر عبرها هذه الخطوط الحديدية المقترحة يجب أن تشترك ألمانيا وبريطانيا في تحالف إيجابي موضحتين مناطق مصالحهما، كما أن امتداد حكم ألمانيا إلى كل تركية أوروبا سيمنع تدخل أي دولة معادية للإمبراطورية البريطانية «لتعطيل مواصلات بريطانيا مع الهند والشرق الأقصى»؛ وفي ذات الأسلوب الفضفاض الذي كان «ليست» يتحدث به دائمًا أردف قائلًا: «وإن الملايين السبعين أو الثمانين من الألمان سيمكنون من ضمان هذا الموقف، وعلى بريطانيا من جانب آخر أن تسيطر على كل آسيا الصغرى ومصر

---

(١) راجع مصورة مُقترحات ليست.

ووسط آسيا والهند، وهذه كلها منطقة فسيحة أكثر من أن توازن التهديد الذي ستجيء به قوة العالم الأمريكي»[١].

وكان اقتراح «ليست» لسيطرة ألمانيا على تركية أوروبا يرتبط بالطبع برغبته في رؤية هجرة واسعة المدى إلى مناطق الدانوب والبلقان، وبلا شك أن كل خططه من أجل إنشاء الخطوط الحديدية كانت إلى حد ما مرتبطة بآماله في ألمانيا الكبرى الموحدة وقد كتب عن هذا: «أن شبكة الخطوط الحديدية والضرائب الجمركية هما التوأمان السياحيان يولدان معًا ويرتبطان وثيقًا بروح واحدة، ويدعم كل منهما الآخر، ويتجهان إلى ذات الهدف العظيم ألا وهو توحيد القبائل الألمانية في أمة ألمانية قوية موفورة الثروة، ولا يمكن بدون الضرائب الجمركية حتى مناقشة الخطوط الحديدية الألمانية فضلًا عن إنشائها، وسيمكن بمعاونة الخطوط الحديدية الألمانية وحدها أن يتقدم الاقتصاد الاجتماعي للألمان إلى الذروة، وعن طريق هذه العظمة الأهلية وحدها يمكن لشبكة الخطوط الحديدية أن تحقق إمكانياتها كاملة»[٢].

***

(١) لمناقشة مشروع الخط الحديدي إلى الهند راجع «عن الحلف بين بريطانيا العظمى وألمانيا» - "الأعمال" المُجلد السابع ص ٢٨٧ - ٢٩٨.

أما عن تفاصيل طريق الأستانة - بغداد - البصرة - بومباي، فيرجع إلى (الأعمال) المُجلد الثالث الجزء الثاني ص ٦٧٩، فقط يُلاحظ أن سكان الإمبراطورية الألمانية لم يقترب تعدادهم من سبعين مليوناً إلا في فجر الحرب العالمية الأولى.

(٢) راجع «الخطوط الحديدية الألمانية» - «الأعمال» المُجلد الثالث الجزء الأول ص ٣٤٧، أما فيما يختص بامتداد الخطوط الحديدية إلى الدانوب فيرجع إلى «تحسين وسائل النقل في بلاد المجر» نفس المرجع ص ٤٣٤ - ٤٦٠.

[٩]

وعندما مات «ليست» في عام ١٨٤٦ كان القليل من الاتجاهات التي قضى حياته يعمل لها قد أوشك أن يدرك نصيبًا من النجاح.

كانت بريطانيا قد ألغت (قوانين القمح)، وكانت الولايات المتحدة قد بدأت تنفيذ تعريفة ووكر الجمركية ـ راجع هامش صفحة ... عن الرسوم الجمركية لعام ١٨٤٦ـ، وكان هذا يعدل من مبادئ السياسة الوقائية، كما أنه بلا شك خطوة نحو حرية التجارة، وكانت الصناعة قد تقدمت ببطء في ألمانيا، وكانت شبكة الخطوط الحديدية موجودة فقط على الورق، وكانت السياسة التحفظية الانفصالية لا تزال تحكم منطقة شرق الرين، وكنتيجة لهذا كله فإن وحدة ألمانيا لم تكن قريبة المنال، وقد حمل «ليست» معه إلى العالم الآخر نظرياته في الضرائب الجمركية تاركًا للمؤرخين أن يقدروا أهميتها في إيجاد ما سمي بعد هذا بالإمبراطورية الألمانية.

ولكن لاشك أيضًا في أن روح «ليست» لبثت تشق طريقها، الطريق الذي سار فيه الرجل نفسه في حياته، فبعد موته بعامين اثنين كانت الحركات الثورية تجتاح ألمانيا، وكان هذا ميلاد الأمل بأن الشعب الألماني سيكون دولة أهلية تحت إدارة متحررة، وهو أمر كان «ليست» يرحب به من كل قلبه؛ ذلك لأنه كان مؤمنًا بحكومة دستورية حرة من الطبقة الوسطى مع ضمانات كافية لحرية الأفراد.

ولكن ثورة عام ١٨٤٨ أخفقت وأفسحت الطريق لسياسة الدم والحديد، «فإن الكثيرين من المواطنين الألمان الذين لهم طابعهم التحفظي

والتقليدي قد تقبلوا تعاليم «ليست» الاقتصادية وإن كانوا في ذات الوقت قد رفضوا نصائحه السياسية «عن التحرر وحقوق الفرد»، كما أن عددًا كبيرًا من رجال الصناعة الألمانية ـ بغض النظر عن الآراء القومية أو السياسية ـ قدروا ما لمسوه في برنامج «ليست» من توافر وسيلة مخففة لمتاعب المنافسة البريطانية، أما أولئك الذين تقدمت بهم السن من الجيل التالي وعاشوا في وقت ازداد فيه تمجيد القومية فإنهم اتجهوا تدريجيًّا لتقبل كل الآراء التي جادل «ليست» من أجلها طويلًا، وفي عام ١٨٨٠ كانت الحكومة الألمانية تحت القيادة الاسمية لبسمارك تسير بقدم ثابتة في الطريق الاقتصادي الذي أضاءه فردريك ليست[١].

والحقيقة: أن بسمارك وخلفاءه قد ساروا إلى أبعد مما كان «ليست» يمكن أن يسير في اتجاه القومية الاقتصادية والكفاية الاقتصادية الذاتية كسياسة أهلية لألمانيا، لقد كان «ليست» يعارض دائمًا فرض رسوم على الواردات من المواد الغذائية؛ ولكن النظام الجمركي الألماني في تطوره طوال حكم الإمبراطورية استهدف في صورة عامة حماية «اليونكرز» ملاك الأراضي ورجال الصناعة، الذين كانوا يقفون جنبًا إلى جنب متعاونين في الاقتصاد القومي وفي سياسة الجندية والبحرية والاستعمار، ولربما كان «ليست» قد فكر في فرض رسوم جمركية على الحبوب، ولكن من الصعب أنه كان يعترض على روح وأغراض خطاب المستشار كابريفي في مجلس الريشستاغ في العاشر من ديسمبر عام ١٨٩١ عندما قال:

إن كيان الدولة ووجودها سيكونان في خطر عندما لا تكون في موقف

(١) C. J. Hayes, The Historical Evolution of Modern Nationalism (New York ١٩٣١) pp. ٢٧٢ – ٢٧٣.

يمكِّنها من الاعتماد على مواد تموينها الخاصة، واعتقادي القوي هو أننا لا نستطيع الحياة دون أن ننتج من القمح ما يكون كافيًا عند الطوارئ، أي في حال الحرب، لإطعام سكاننا الذين يتزايدون، وأؤمن بأن السياسة الحكيمة لألمانيا هي أن تعتمد على زراعتها الخاصة أكثر من اعتمادها على تقديرات غير موثوق بها لمعاونات من طرف ثالث في حالة الحرب. إن اعتقادي الذي لا أتردد في التمسك به هو أنه في حال أي حرب مقبلة ستلعب تغذية الجيش والأهلين دورًا حاسمًا مهمًّا»[(١)].

وقد وضع الكثير من اتجاهات السياسة الاقتصادية للرايخ الثاني[(*)] على أساس الحقيقة التي لا شك فيها وهي: أنه إن قريبًا أو بعيدًا ستشتبك ألمانيا في حرب لتدافع عن كيانها ولتكسب لها مكانًا بارزًا تحت الشمس. ولتتأهب لمثل هذا الحادث آمن الساسة الألمان بأنهم يجب أن يعتمدوا على قوة ألمانيا الموروثة أكثر من اعتمادهم على النوايا الطيبة لجيرانهم، وأكبر من اعتمادهم على مواصلاتهم غير المؤكدة مع ما وراء البحار.. وقد يكون سياسيو عصر القيصر قد أجرموا بتغيير طابع وصورة بعض آراء «ليست»، ولكن لو كان «ليست» قد عاش لكان قد تفهم تمامًا اللغة التي يتحدثون بها، ولكان قد

(١) W. H. Dawson The Evolution of Modern Germany. و. هـ. داوسون (تطور ألمانيا الحديثة) طبع نيويورك ١٩٠٨ ص ٢٤٨.

(*) يقسم التاريخ لألمانيا (الرايخ) كما يلي:

(الرايخ الأول) الإمبراطورية الرومانية المُقدسة منذ إنشائها في القرن التاسع الميلادي إلى انتهائها في عام ١٨٠٦، (الرايخ الثاني) عصر الإمبراطورية الألمانية من عام ١٨٧١ إلى ١٩١٩ ثم (جمهورية ويمار) وهي الجمهورية الألمانية من ١٩١٩ إلى ١٩٣٣، (الرايخ الثالث) الدولة الألمانية من ١٩٣٣ إلى ١٩٤٥، مُعجم ويبستر طبع ماكميلان لعام ١٩٥٦، ص ١٢٢٥ – ١٢٢٦.

تفهم أيضًا دوافع الكفاية الذاتية التي كانت هدف سياسة الاقتصاديات العسكرية التي اتبعها النازيون، وإن كان بلا شك قد عارض إغفال هتلر لحقوق الإنسان.

ومن سوء الجد أيضًا أن «ليست» قد وضع الأساس لبعض الأفكار الرئيسة في العقيدة الألمانية وفي الاشتراكية القومية مثل: «المجال الحيوي» ، «الاتساع الاستعماري»، «عدم أبدية الحدود»، «ارتباط الألمان المغتربين بوطنهم الأصلي في ألمانيا»، «الرغبة في تكوين كتلة في قارة أوروبا ضد القوة الأمريكية/ الإنجليزية».

لقد كان ليست كهاملتون صورة بارزة في ميدان العمل لإحياء سياسة التجارة في العصر الحديث، ومهما كانت فضائل هذه السياسة «سياسة التجارة» ـ في القرنين السابع عشر والثامن عشر ـ فإن الصورة الحديثة لها تعتبر قوة ملتهبة في عالم قابل بدرجة كبيرة للاشتعال والانفجار.

إن السياسة التجارية الحديثة أكثر خطورة من سابقتها؛ ذلك لأنها تعمل في مجتمعنا الأكثر تنظيمًا والأوفق ارتباطًا وتشابكًا، إنها الخيوط المتشابكة التي تكون الحرب وتعمل لها إلى حد كان من الضروري أن يخجل أصحاب هذه السياسة من القدامى، لقد جندت (قوة الدولة) لزيادة قيمة وإيضاح بهاء ورونق (دولة القوة)، ولقد قويت كل الآراء والنظريات القديمة ودعمت بآراء ونظريات جديدة مستحدثة؛ وهكذا عرف العالم «المقاطعة»، «تحديد الأنصبة في التعامل»، «الكوتة»، «رقابة النقد»، «تحديد التموين بالبطاقات»، «تخزين المواد الخام ومنع تصديرها»، ثم «المنح المالية التي تعطى لدولة ما لتشتبك في الحرب ضد دولة أو مجموعة أخرى من الدول».

وتبعًا للاتجاه الاقتصادي القومي في الخمسين سنة التي بدأت عام ١٨٧٠ جاءت صور جديدة إلى العالم «الاقتصاد الجماعي المطلق»، «الحكومة المطلقة»، «الحرب الشاملة»، وقد جاءت كل هذه الصور متشابكة بعضها ببعض إلى حد أنه من المحال معرفة ماذا هو السبب؟ وماذا هو التأثير؟ فباسم الأمن الأهلي امتدت السلطة السياسية إلى كل نواحي النشاط البشري[1].

وكنتيجة لا يمكن تجنبها جاء انفجار عام ١٩١٤ وانفجار عام ١٩٣٩ ، ويستطيع الفرد أن يتفهم هذا فقط عندما يرجع إلى فكرة القوة في أوروبا في القرن التاسع عشر.

إن تفكير آدم سمث وألكسندر هاملتون وفردريك ليست كان يقوم على أساس حقيقة أنهم كانوا على التوالي (إنجليزي) ، (أمريكي) ، (ألماني) ، ولكن من المدهش أن آراءهم تتفق وتتماثل في بعض النقاط الأساسية من صناعة الحكم، لقد فهموا جميعًا أن القوة العسكرية تبنى على أسس اقتصادية، وقد وقف كل منهم في جانب تنظيم اقتصادي يواجه احتياجات وطنه أكثر من أي نظام آخر؛ ولكن إذا كان العالم قد وصل إلى ما وصل إليه نتيجة للسياسة التجارية الحديثة فإن هذا ليس من الضروري أن يكون خطأهم لأنه ما دامت الأمم ستظل تضع كل إيمانها في قومية غير محدودة

---

(١) انظر: E. M. Earle "The New Mercantilism" Political Science Quarterly' XL (١٩٢٥) ٥٩٤ – ٦٠٠.

كما يرجع إلى: A. T. Lauterbach, Economics in Uniform: Military Economy and Social Structure

طبع برنسيتون عام ١٩٤٣ وعلى الأخص الفصول من الأول إلى الرابع.

وسيادة غير مقيدة فإنها ستظل تعتمد على تدابير تكون في رأيها هي أفضل ضمان لاستقلالها وأمنها.

***

في التعريف بالمراجع:

الفصل السادس

آدم سمث ـ ألكسندر هاملتون ـ فردريك ليست

الأسس الاقتصادية للقوة العسكرية

إدورد ميد إيرل

نقلت المصورة التي في هذا الفصل عن كتاب «فردريك ليست» بقلم فردريك لينز طبع ميونخ وبرلين ١٩٣٦ .

أما عن «سياسة التجارة» فتتعدد المراجع، فيرجع بعضها إلى عام ١٨٩٦، كما أن أحدثها صدر في عام ١٩٤٢ ، وتقدم المراجع كلها مادة طيبة في هذا الموضوع.. وأهمها:

❊ N. Hechscher, Eli F. "Merkantilism".

طبع ستوكهولم عام ١٩٣١ ، وقد ترجمه شابيرو إلى الإنجليزية وصدر في مجلدين طبع لندن عام ١٩٣٥ ووسم بعنوان:

❊ "Mercantilism" Horrocks, J. W.

❊ "A Short History of Mercantilism".

❊ Schmoller, Gustav "The Mercantile system and its Historical

Significance”

ترجمة و. ج. آشلي طبع لندن ونيويورك عام ١٨٩٦.

❊Viner, Jacob “English Theories of Foreign Trade Before Adam Smith”

في مجلة «الاقتصاد السياسي» المجلد الثامن والثلاثين لعام ١٩٣٩ . الصفحات ٢٤٩ ـ ٣٠١ و ٤٠٤ ـ ٤٥٧ ، ثم كتاب:

❊Cole C. W .“Colbert and Century of French Mercantilism”.

طبع نيويورك عام ١٩٣٩ .

❊❊❊

وتوجد كذلك مجموعة طيبة من كتابات آدم سمث أو في التأريخ لحياة الرجل ونظرياته أهمها:

Smith Adam:

(١) An Inquiry into The Nature and Causes of the Wealth of Nation (١٧٧٦).

(٢) Lectures on Justice, Police, Revenue and Arms (١٨٩٦).

(٣) The Theory of Moral Sentiments.

على أنه مع تعدد الطبعات للكتابين الأول والثاني فإن أفضل هذه الطبعات هو ما قدمه إدوين كانان، وتوجد للكتاب الأول طبعة ضمن سلسلة مجموعات المكتبة الحديثة.

أما في التأريخ لحياة آدم سمث فيمكن الرجوع إلى:

❊ Rae, John “Life of Adam Smith”.

طبع لندن ١٨٩٥ وتعتبر هذه أفضل دراسة للرجل، وإن كانت أفضل دراسة تعليقية هي التي كتبها ج. م. كلارك وآخرون، ووسمت بعنوان:

❋ "Adam Smith" ١٧٧٦ – ١٩٢٦.

طبع شيكاغو عام ١٩٢٨؛ كما توجد بعض محاضرات عن كتاب آدم سمث توضح وجهات النظر الألمانية بقلم أ. أونكن، وسمت بعنوان:

❋ "Adam Smith in der Kulturgeschichte"

طبع ڤيينا لعام ١٨٧٤ .

وتعتبر الطبعة التي صدرت لمجموعة أعمال ألكسندر هاملتون في نيويورك عام ١٩٠٤ في اثني عشر مجلدًا بتقديم هنري كابوت لودج أحسن مورد للمعلومات عن ألكسندر هاملتون، كما توجد دراسات عدة جيدة في التأريخ للرجل أهمها:

❋ Makee, Samuel "Papers on Public Credit, Commerce and Finance by Alexander Hamilton"

طبع نيويورك عام ١٩٣٤.

❋ Culbertson W. s ."Alexander Hamilton"

طبع نيو هاڤن ١٩١١ .

❋ Sumner W. G ."Alexander Hamilton".

طبع نيويورك ١٨٩٠ .

والأول يقف إلى جانب هاملتون مدافعًا عنه، على حين يقف الثاني في

الجانب المعارض، كما توجد دراسة قيمة بالإيطالية من قلم أوجو رابينو طبع ميلان عام ١٨٩٣ وسمت بعنوان:

❋ Protezionismo Americano: Saggi Storici di Politica Commerciale.

ونشرت ترجمة للكتاب بالإنجليزية طبع لندن عام ١٨٩٥ وسمت بعنوان:

❋ American Commercial Policy.

ويعتبر الفصل الأول من القسم الثالث أصدق نقد عام كتب عن هاملتون.

وقد تعاونت الأكاديمية الألمانية مع Fredrick Liet Gesellsoctaft في طبع كل ما كتب فردريك ليست في مجموعة واحدة من تسعة مجلدات مع مجلد عاشر يجمع كل ملاحق الكتاب، وصدرت هذه المجموعة طبع برلين ١٩٣١ ـ ١٩٣٥ وقد عنونت Schriften, Reden, Briefe، وتتضمن هذه المجموعة كل ما كتبه «ليست» بما في هذا بعض الدراسات التي لم يكن قد أمكن الحصول عليها فيما قبل.

وتعتبر ترجمة س. س. لويد لكتاب «النظام القومي في الاقتصاد السياسي» والتي كتب مقدمتها ج. س. نيكولسون طبع لندن عام ١٩٠٤ أحسن طبعة بالإنجليزية لهذا الكتاب؛ ويمكن أن نجد التأريخ لحياة «ليست» في الدراسات الافتتاحية لكل من مجلدات مجموعة كتاباته، كما نجد هذا أيضًا في مؤلفات عدة بالألمانية، وأهمها:

❋ Hausser, L .“Fredrick Lists Gesammke Schriften”

طبع ستوتاجارت ١٨٥٠ ـ ١٨٥١ في ثلاثة مجلدات.

❋ Jentsch, Karl “Friedrich List”

طبع برلين ١٩١٠ .

❋ Lenz, Friedrich “Friedrich List, der Mann und des Work”

طبع ميونيخ وبرلين ١٩٣٦ .

أما عن حياة ودراسات فردريك ليست في أمريكا فتوجد طائفة من المراجع المتباينة الصور ومن أفضلها:

Notz, William “Friedrich List in Amerika”

Wiltwirtrschaftliches Archiv

أبريل ـ يوليو ١٩٢٥ ، الصفحات من ١٩٩ ـ ٢٩٣ ، كما ظهر للمؤلف نفسه دراسة أخرى إضافية في مجلة الاقتصاد الأمريكية بالعنوان نفسه في المجلد السادس عشر لعام ١٩٢٦ الصفحات ٢٤٩ ـ ٢٦٥ .

ويوجد كتاب قيم في هذا الحديث من قلم مرجريت هيرست طبع نيويورك ولندن عام ١٩٠٩ وسم بعنوان:

Life of Friedrich List and Sections from Some of his Writings

أما عن السياسة التجارية في تطورها الحديث وصورتها المستحدثة فيرجع إلى:

❋ Hayes, C.J.H “A Generation of Materialism ١٨٧١–١٩٠٠”.

طبع نيويورك ١٩٤١ . الفصل الخامس.

❋ Marchand J. “La renaissance du mercantilism a l’époque contemporaine”.

طبع باريس ١٩٣٧ .

هذا وقد آثرت في هذا التعريف تقديم عنوان كل من المؤلفات التي عرضت لها بالدرس باللغة التي صدر بها؛ وذلك ليسهل الحصول عليه لمن يريد الاستزادة من البحث.

***

الفصل السابع

آنجلز وماركس

النظريات والآراء العسكرية للثورات الاجتماعية

سيجموند نيومان

كتب كارل ماركس في صدر مقدمته لرسالته «دراسة عن فيرباخ»(*) يقول: «لقد قام الفلاسفة بمحاولة توضيح مجريات الأحوال في العالم بسبل شتى متباينة، ولكن الفكرة الأهم هي محاولة تغيير مجريات الأحوال هذه».

كتب كارل ماركس هذا في عام ١٨٤٥ أي في مطلع حياته الأدبية، وقد

(*) لودڤيج أندريس فيرباخ الابن الرابع لبول انسليم فيرباخ، كان الأب من كبار رجال القانون الجنائي وتولى تدريس القانون في جامعة ڤيينا ثم في جامعة كييل وتولى بعد هذا رياسة محكمة النقض، وكان الابن لودڤيج من أعلام الفلاسفة، الألمان، ولد في لاندشوت من أعمال باڤاريا عام ١٨٠٤ وتعلم في جامعة هيدلبرج كان أول مؤلفاته في عام ١٨٣٣ كتاب: "Gedanken uber Tod und Unsterblichkeit" وفي عام ١٨٣٤ نشر كتابه: "Abalard und Heloise" وفي عام ١٨٣٧ تزوج من سيدة ذات ثروة، ومكّنه هذا من الانصراف إلى الدراسة فكانت هذه نتيجة أن أصدر كتابه: "Das Wesen des Cghristenums" وترجم الكتاب إلى الإنجدليزية بقلم جورج أليوت ووسم بعنوان «خلاصة الدين»؛ وفي كتابه هذا يتحدث عن الله والإنسان. مما أدى بالبعض إلى مهاجمة فلسفته واتهامه بخلوه من الإيمان أو التقوى، وأحدث المؤلفات عنه الكتاب الذي كتبه ك. بارث عام ١٩٤٣ ووسم بعنوان: "Geschichte der Protestatischen Theologie, seit Shleiermacher" وقد كان فيرباخ أول فيلسوف مادي ينقد فلسفة هيجل E. Stepanova, ،Everyman Encycl. Vol. ٥ pp. ٦٣٥ Karl Marx, ١٩٥٦ pp. ١٣. (المترجم).

لا تعنينا هذه الكلمات من ناحية الحديث عن «فيرباخ» بقدر ما يعنينا أنها في الواقع مفتاح تفهم القوى المختلفة المعنوية والطبيعية التي في النظرية الماركسية، هذه النظرية الموجهة أصلًا نحو العمل الإيجابي التنفيذي، فإن التحليلات النظرية ليست إلا العمل الأولي العنيف الموصل إلى الإعداد للاقتحام الثوري النهائي؛ ذلك لأنه لجعل الثورة العالمية حقيقة واقعة ملموسة تكون الاعتبارات الاستراتيجية مسألة تمهيدية أساسية، ومن أجل هذا عني ماركس وآنجلز بالمشكلات التكتيكية والاعتبارات العسكرية ومنحاها في كتاباتهما عناية مستمرة متواصلة.

والمدهش أن هذا الجانب الهام الحاسم من تعاليمهما قد أغفل عن إهمال في كل الكتابات التي جاءت عن الماركسية، وقد جاء هذا الإغفال جزئيًّا بسبب أن هذا القدر الكبير الذي كتباه عن المشكلات الاستراتيجية قد جاء مبعثرًا في كتاباتهما، بل وحتى لم يجئ الحديث العسكري في أيٍّ من هذه الكتب جملة واحدة تسهل دراسته كما هي الحال في كتاب «رأس المال» ــ الدراسة الأساسية لنظرية ماركس الاقتصادية.

والواقع أننا إذا تركنا ما في هذه الدراسات من صور تاريخية فإن مراسلات ماركس وآنجلز ـ تلك المراسلات التي تبادلاها على عدد من السنين والمليئة بالآراء والنظريات ـ شأنها شأن كتاباتهما الصحفية، تعتبر موردًا له أهميته عندما نحاول القيام بتحليل كامل لماركس وآنجلز كرجلين من رجال الاستراتيجية.

على أن كل هذه الموارد لم يكشف الغطاء عنها تمامًا ولا تزال حتى الآن تنتظر الجمع والترتيب، ومن الضروري استكمال هذا؛ ذلك لأنها على التحقيق تستحق الدراسة العميقة.



كارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣)

ولكن مع هذا فإن الإغفال التام للاستراتيچية الماركسية لهو نتيجة لا للصعوبات الفنية فحسب بل ولسوء الفهم، أو بسبب الفكرة الخاطئة عن تعاليمها؛ ذلك لأن الآراء الخاصة بالاستراتيچية العسكرية وبالتكتيك تبدو لعقل المراقب السطحي غريبة عن روح هذين المفكرين المتحفظين واللذين كانت سياستها الواضحة سياسة معادية للآلة العسكرية، وللجماعات العسكرية، وللحكومة العسكرية، واللذين انغمس نظامهما الاجتماعي الواضح المعالم والذي جاء مبكرًا قبل أوانه في هذا الأمد الطويل الذي انقضى في سلم، واللذين كان وضعهما ـ كرجلين خارجين على الدولة ـ لا يشجع على التقدير الواقعي للقوة العسكرية ولا على التخطيط لحملة حربية؛ ومع هذا فمن الخطأ أن ننظر إلى هذين اللذين كانا يلعبان الدور الرئيسي في الصراع الدولي للطبقات على أنهما يميلان للسلم، وأنهما مثاليان غير واقعيي التفكير، بل إن تجديد الانتباه إلى هذه الآراء والنظريات العسكرية التي جاءت في النظرية الماركسية الأولية قد يجيء بتصحيح ضروري لوجهات النظر الحالية والمقبولة من وجهة عامة.

لقد حلت «الماركسية» مكان النظرية «الآتوبية»(*) القديمة والتي كانت تستهدف الوصول بالأحوال الاجتماعية والسياسية إلى الكمال، وقد قصدت التعاليم الجديدة أن تكون عملية بدرجة ممتازة وأن تكون «علمًا تطبيقيًّا» في الوقت الذي كانت الأجيال التي جاءت بعدهما متأثرة بالنسيج النظري

(*) جاءت كلمة «آتوبيا» من الأصل الإغريقي où Tomos، وتعني كلمة Utopianism المشروعات التي تستهدف الوصول إلى الكمال في الأحوال السياسية والاجتماعية، راجع كتاب توماس مور «آتوبيا» في مجموعة مكتبة إيڤريمانز، معجم ويبستر ص ١٦٠٥، ودائرة معارف إيڤريبودي المُجلد الثاني عشر ص ٥١٩.

الذي خلفه كارل ماركس وفردريك آنچلز وراءهما أكثر من تأثرها بأي شيء آخر، وقد بدا أن التحليل الصلب الجامد للمشكلات التاريخية كان يلقى تقديرًا متماثلًا من الرجلين اللذين أوجدا «الماركسية».

ويبدو أن هذا الجانب «العملي» من التعاليم الثورية قد اكتسب مظهرًا جديدًا في الوقت الذي استطاعت فيه «القوة السادسة» ـ على ما أسمى آنچلز بافتخار «الاشتراكية الدولية» ـ أن تتبلور تبلورًا محددًا؛ وكانت الاعتبارات الاستراتيچية هي لبُّ النظرية السياسية للتطورات الثورية في منتصف القرن التاسع عشر.

وقد لا يكون من المبالغة أن نقرر أن كتابات ماركس وآنچلز ذات طابع مميز له مكانته في الوقت الذي يبدو فيه طابع القرن العشرين وما يصحبه من مشكلات صناعة الحرب واضحًا كامل التطور.

إن ماركس وآنچلز يمكن أن يسميا بحق والدَي الحرب الشاملة الحديثة، فإن ما قدر طويلًا في تاريخ التنظيم السياسي والسياسة الداخلية ألا وهو «الحزب الاجتماعي» ـ سياسة الحزب الواحد ـ والذي نجد أصوله واضحة في الحركة الاشتراكية قد يمكن أن يطبق أيضًا في ميدان الشئون العسكرية.

وقد كان الكشف الذي يفخر بالوصول إليه الدكتور بلاو الاستراتيچي الاشتراكي، من أن الحرب الحديثة ذات أربعة جوانب تجمع في جملتها طبيعة هذه الحرب، وهذه الجوانب الأربعة هي: الجانب السياسي، الجانب الاقتصادي، الجانب السيكولوچي، وأخيرًا يجيء الجانب العسكري، كان هذا الكشف معروفًا تمامًا لآنچلز وماركس، فقد كانا يدركان أن الحملات العسكرية يمكن أن تفقد وأن تفشل قبل إطلاق الرصاصات الأولى بوقت

طويل، وأن نتائج هذه الحملات يمكن أن تقرر حتى قبل أن تشتبك القوات المسلحة، ويكون هذا التقرير المبكر للنتائج في الجبهات الأولية للقتال، الجبهات التي تقوم على أساس الحرب النفسية والحرب الاقتصادية.

ولاشك أن آنجلز وماركس قد أدركا وتحققا من أن هذه الحرب المتعددة الجبهات إنما هي كتلة واحدة لا تنقسم، وأنها يمكن أن تكسب أو أن تفقد في ميدان المعركة الدولية، كما يمكن أن تكسب أو أن تفقد بنفس الصورة نتيجة للصراع الأهلي في داخل الأمة الواحدة أو حتى في داخلية روح كل فرد متردد من أفراد الأمة، ومما لا شك فيه أيضًا أن «الحرب» و«الثورة» ـ الحركتين اللتين ثبت أنهما توأمان في عصرنا الذي نعيش فيه ـ قد نُظِر إليهما في تاريخ مبكر في ضوء العلاقة الأساسية المستمرة التي تربط بينهما بواسطة هذين الاستراتيچيين المدققين اللذين وضعا التخطيط للثورة العالمية.

وقد أعطتهما مثل هذه النظرات العميقة لدراسة الحوادث مقدرة جديدة لتفهم المسائل العسكرية، وللتفهم العميق أيضًا لطبيعة الثورات الحديثة مما لم يدركه تمامًا أحد من أولئك الذين سبقوهما على الدرب؛ وأن ما أسماه ماركس وآنجلز «النقاش المنطقي»(*) لدراسة نظرية التاريخ إنما كان في الواقع دراسة عميقة للقوى الاجتماعية والسياسية، والدور الكبير الذي لها في العالم الحديث؛ ولكن مثل هذه النظرات المتعمقة في البحث لا تمكن بل وتفصل استحالة اقتطاع الدراسات الخالصة للاستراتيچية العسكرية عن

(*) «فن الاختبار العملي للآراء والأفكار بأسلوب منطقي»، والعادة أن يتم هذا بطريقة الأسئلة والإجابات، وكان أول من استخدم هذا الأسلوب المنطقي هو جورج ويلهلم فردريك هيجل الفيلسوف الألماني (١٧٧٠ – ١٨٣١)، ثم طبقه ماركس في فلسفته المادية. مُعجم ويبستر ص ٤٠٤ و ٦٧٢ (المترجم).

غيرها من كتابات ماركس وآنجلز، فقد كانا يريان أن الحرب يخاض غمارها بوسائل متعددة في ميادين مختلفة، وفي نفس الأسلوب جاء النقابي المقاتل جورج سوريل(*) في عصر متأخر برأيه من أن «الإضراب العام يمكن أن يكون معركة على مثال معارك الحروب النابليونية، وأن «حرب القرم»(**) يمكن أن تعتبر صراعًا مدنيًا دوليًا عظيمًا».

فإذا ما أدركنا هذه الطبيعة للاشتراكية الحديثة، الطبيعة النشطة المتأهبة للقتال استطعنا أن ندرك دور كل من قادتها برغم ما قد يكون بينهم من خلاف قليل في الصورة أو تباين في الاتجاه، ولا شك أن فردريك آنجلز يزداد مكانة بحق عندما يقارن بالزعيم الأول كارل ماركس، فإن آنجلز ـ كما أثبتت الدراسات المحققة فيما بعد ـ لم يكتب فقط جزءًا كبيرًا من الدراسات التاريخية التي نسبت إلى ماركس، بل إن الرجل الذي هو «القوة الدافعة للثورة المقبلة»(***) كان له تقديره المبكر الكبير للقوى العاملة في

(*) سوريل «١٨٤٧ - ١٩٢٢» فيلسوف اجتماعي فرنسي ولد في شاربورج تعلم في كلية الهندسة، وعمل مهندساً للجسور ثم ترك عمله عام ١٨٩٢، وبدأ الدراسة وحده لدراسة «الحياة» دون مُعلم، وبدأت اتجاهاته النقابية تتضح بسرعة وكانت له جولات في قضية دريفوس ثم انضم للجناح الفرنسي الأيمن في السياسة الفرنسية قبل الحرب العالمية الأولى وقد شجع الشيوعية الروسية والفاشية الإيطالية، وله دراسات عدة عن الروح النقابية نشرت سنة ١٨٨٩ ودراسة عن الماركسية نشرت سنة ١٩٠٧. E. Encyc. Vol. II p. ٧٤٧ (المترجم).

(**) حرب القرم(١٨٥٤ – ١٨٥٦)، الحرب التي قامت للسيطرة على جنوب شرق أوروبا ووقفت انجلترا وفرنسا وتركيا وسردينيا "بيمونت" ضد الروسيا، وقد وصف بعض مراحلها تولستوي في الكثير من كتاباته وعلى الأخص في روايته (الحرب والسلام). (المترجم).

(***) في الأصل "Carnot of the future Revolution" وكلمة Carnot تعني: «معدن مُشع يحتوي على البوتاسيوم والأورانيوم»، وكارنو الرجل هو ماري فرنسوا كارنو سادي=

العالم، وبذلك فقد استطاع أن يقدر مبكرًا الاتجاهات المقبلة، وأن يسهم بطريق غير مباشر في الأسس الفنية للاستراتيچية العسكرية لحقب من السنين جاءت بعده.

وبالرغم من التباين في الصفات والطباع بين الرجلين، ماركس وآنچلز، فقد توطدت بينهما صداقة وطيدة تنفي ما يقال عن برود ماركس وعزوفه وتباعده عن الناس، وقد استمرت هذه الصداقة لأربعين سنة، وكان العمل الأدبي لأحدهما مكملًا لعمل الآخر؛ بل يبدو أنهما قسما العمل فيما بينهما تقسيمًا طبيعيًّا؛ وقد وضحت في بحوث ماركس ودراساته التقاليد الثقافية الصلبة لأسلافه. ومما لاشك فيه أنه كان الأكثر ترتيبًا في تفكيره وبدونه كانت كتابات آنچلز لابد وأن تنقصها قوة تكامل أجزائها وارتباطها معًا، كما كانت تنقصها الأدلة الاستنتاجية الاستنباطية؛ وربما كان ماركس أحسن سياسي استراتيچي توافرت له موهبة صدق تقدير الموقف وعلى الأخص في اللحظات الثورية، وهي صفة قد أبقت زميل حياته بمنجاة دائمًا من التقديرات السريعة المتعجلة، ولكن على حين رضي العبقري المتواضع آنچلز أن يلعب الدور الثاني فإن إسهامه في أعمالهما المشتركة له قيمته الكبيرة في جملة أعمالهما؛ فمنذ دراسته المبكرة في إنجلترا ـ وبخاصة الدراسة الأساسية التي وسمت بعنوان «حال الطبقة العاملة في إنجلترا» ـ فقد عاون في بعض أسس النظرية الاشتراكية العظيمة، وقد استطاع في مدى حياته أن يجمع مادة طيبة من المعرفة العملية بمجريات الأمور.

والواقع أنه كان يتوافر لآنچلز الشعور بما في الجو، وماذا يمكن أن تكون

=(١٨٣٧ – ١٨٩٤) سياسي فرنسي تولى رياسة جمهورية فرنسا (١٨٨٧ – ١٨٩٤) مُعجم ويبستر ص ٢٢٢ (المترجم).

النتائج المتوقعة لهذا؛ كان عقله عمليًّا، وقد جعل مولده لرجل من رجال الصناعة وقضائه جزءًا كبيرًا من حياته في مدينة منشستر بوسط إنجلترا، جعله هذا يعرف منذ طفولته الطبيعة الحقيقية لنهضة النظام الصناعي، فضلًا عن أنه جعل منه قبل كل شيء رجل عمل.

وكرجل يجيد ركوب الخيل والصيد فقد اندفع في عمله بشغف حتى وإن كان هذا يعني «الوثوب فوق الأسوار العالية للفكر المتحرر المطلق»؛ أما ماركس «الذي كافح ضد روح العصر الذي عاش فيه كما صارع يعقوب الملاك والذي وصل به عمله ببطء إلى كل ما كان يأمل الوصول إليه، فقد أعجب بقوة آنچلز؛ «إنه يستطيع أن يعمل في أي ساعة من ساعات اليوم سواءً أكان جائعًا أو مليئًا، إنه يكتب وينظم بطلاقة لا تبارى»، وقد قال آنچلز نفسه عن أسلوبه: إنه كالمدفعية؛ «فكل مقال يصطدم وينفجر كالقنبلة».

ولم يكن هذا الحديث ذو الطابع العسكري مجرد تلاعب بالألفاظ، وحتى في أكثر كتاباته إيجازًا واتجاهًا إلى الدراسة النظرية لا العملية مثل كتابه (Anti Duhring) استخدم آنچلز بطلاقة المصطلحات والتجارب العسكرية؛ ذلك لأنه كان بالطبيعة جنديًّا ومقاتلًا، وفي غمرة فخره بتجاربه العسكرية المبكرة، وفوق كل شيء لإسهامه النشط في فورة بادن أثناء الثورة الألمانية لعام ١٨٤٨ فقد وجه انتباهه أساسيًّا لدراسة الفن العسكري طوال السنوات التي عاشها بمنفاه في إنجلترا لكي يعد نفسه للثورة المقبلة.

ومن المؤسف حقًّا أن «الجنرال» ـ كما كان أصدقاؤه يقولون عنه مازحين ـ لم يوفق إلى فرصة تثبت حقيقة معدنه، ومع هذا فإن تأثيره على تكتيكات واستراتيجية الثورة الروسية واضح وملموس، حتى أن خصومه المعاصرين

من الأخصائيين العسكريين كانوا يحترمون تقديراته وآراءه، وقد نسبت مقالاته عن حرب القرم التي نشرتها صحيفة النيويورك تريبون إلى الجنرال سكوت(*) الأمريكي الذي كان في ذلك الوقت يعمل جاهدًا لتولي رياسة جمهورية الولايات المتحدة، كما اعتبر كتيبه «البو والرين» وكأنه من قلم الجنرال البروسي ڤون فوييل.

إن كتابات آنجلز في ميدان العلم العسكري أكثر كثيرًا من كتاباته الأدبية، ولو جمعت هذه الدراسات العسكرية معًا في مجلد واحد أو أكثر لكانت قد درست بعناية بواسطة الأخصائيين العسكريين، كما كان نصيب كتاب «الرأسمالية» لماركس والذي عني بدراسته كل العلماء وعلى الأخص خصوم الماركسية.

لقد كتب آنجلز الكثير من البحوث القيمة عن الحملات الحربية، كما كتب دراسات ضافية عن أصول الفن العسكري، وكما قدم صورًا تاريخية قصيرة موجزة للقادة العسكريين، وعرضًا حادًّا لاذعًا عن الكتب التي صدرت في الحديث عن العلم العسكري، وقد أظهر آنجلز في كل كتاباته هذه دراية مدهشة بكل أعمال وكتابات كبار الاستراتيجيين العسكريين في

(*) «وينفلد سكوت» اشتهر في عمليات سنة ١٨١٤ ضد الإنجليز في كندا وقد هزم القول الأمامي للإنجليز في شيبوا (٥ يوليو) ثم في لوندي لين، وحارب ضد المكسيك في عمليات سنة ١٨٤٧ ففي مارس احتل ڤيرا كروز وسار بجنوده لمسافة ٢٥٠ ميلاً إلى مكسيكوسيتي، وقد كان سكوت يقود بعض الضباط الذين اشتهروا فيما بعد أمثال لي وجرانت وماكليلان، وقد تقاعد سكوت في فجر الحرب الأهلية الأمريكية مخليًا مكانه لماكليلان، وفي حملة انتخابات الرياسة لسنة ١٨٥٢ كان سكوت يخوض المعركة ضد فرانكلين بيرس بأغلبية ٢٥٤ ضد ٤٢ (المترجم). التاريخ السياسي لأمريكا ص ١٧٠ و ٣٠٦، ٣١٣ و ٣٣٨.

التاريخ.

والواقع أن دقة حكمه وأصالة رأيه واستقلال تقديره لمما يثير الدهشة، ثم إنه كان في تحليله لعدد من الحوادث العسكرية أبعد نظرًا من كثير من الأخصائيين العسكريين المعروفين في عصره، ولا تزال معالجته الصحفية للكثير من الشئون العسكرية لها قيمتها وتستحق الدراسة والبحث.

وقد نستطيع أن نقول عن كتابات آنچلز العسكرية ما قاله أحد النقاد عن كلاوزيڤيتز: «أنه عبقري في النقد «ناقد عبقري» لآرائه وضوحها وزنتها، وهو يدلل على أن عظمة التفكير الاستراتيچي إنما تتكون من البساطة في الإيضاح والتعبير»؛ لقد أثر كلاوزيڤيتز في تفكير الكثيرين من أعلام الاستراتيچية العسكرية الألمان، وقد أثر هؤلاء بدورهم كثيرًا في آنچلز!

وقد كتب آنچلز إلى ماركس في الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٨٥٧: «ومن بين ما أقرأ اليوم كتاب «في الحرب» لكلاوزيڤيتز، إنه يقدم أسلوبًا عجيبًا من الناحية الفلسفية؛ ولكنه من الناحية الموضوعية كتاب جيد جدًّا، أما ما جاء فيه عن مناقشة الحرب وهل هي فن أو علم فإن الإجابة التي قدمها بأن الحرب مثلها في الغالب مثل التجارة، والقتال بالنسبة للحرب مثله مثل الدفع نقدًا في التجارة، ومهما كان من النادر أن تقضي الضرورة بحدوث القتال فإن كل شيء إنما يتجه نحوه؛ ولهذا فإنه يجب أن يحدث وأن يكون حاسمًا».

وقد أضحى هذا التأكيد للعمل الحاسم وللهجوم التكتيكي حتى في الدفاع هو «البضاعة المعدة للبيع» في الاستراتيچية الثورية، ومن الواضح أن هذا قد طبق تطبيقًا تامًّا لا في الحملات الناجحة للجيش الأحمر طوال

الحرب الأهلية الطويلة فحسب، بل وطبق أيضًا في القتال العنيف ضد هجوم الاشتراكية الأهلية في الحرب العالمية الثانية.

لقد بقي التأهب للعمل الهجومي هو المبدأ الرئيسي لجندي الثورة آنچلز، كما كان أيضًا بتأثيره هو بالنسبة لماركس، وظل كذلك بالنسبة لهما معًا طوال حياتهما؛ على أنه بالإضافة إلى هذه النظريات الأساسية تقدم التفكير العسكري لهذين الثائرين الاجتماعيين تقدمًا جعلهما أكثر واقعية وأكثر عناية بدراسة العوامل والحوادث الوثيقة الصلة بالتاريخ السياسي والعسكري للعصر الذي عاشا فيه، وبهذا ففي استطاعتنا أن نكتشف في سهولة ويسر أن تفكير الرجلين قد سار في ثلاث من مراحل التطور(*).

وقد بدأ الرجلان بتحليلهما لتكتيكات الحرب الأهلية لسنة ١٨٤٨، ثم انتقلا إلى الدروس التي خرجا بها من البحث المتعمق في الاستراتيچية العسكرية للدول الكبرى في العقدين الخامس والسادس عشر، وأخيرًا ينتهيان في مرحلة التطور إلى البحث الأصيل لدراسة طبيعة وعمل الدولة الثورية، وهذه كلها دراسات عندما نربط بينها وبين تجارب التكتيكات الثورية في الحرب الأهلية ثم بينها وبين الاستراتيچية العسكرية للفورات الدولية المدمرة، فإننا نقترب بها من طوابع الصورة الحديثة للحرب، صورة

(*) في الواقع أن التعرف على هذا التطور يتطلب الرجوع إلى بعض المؤلفات التي كتبت عن حياة الرجلين وأقرب هذه الموارد هي:

K. Marx and F. Engels, Selected Correspondence, Moscow ١٩٥٦. V.I. Lenin, Marx-Engels Marxism, Moscow, ١٩٥٣, pp. ٨٤ – ٩١ كما توجد دراسة قيمة كتبها "E. STEPANOVA" في دائرة المعارف السوفيتية المُجلد ٢٦ لسنة ١٩٥٤ وقد نشرت مُترجمة إلى الإنجليزية بقلم "J. Gibbons" ونشرتها دار النشر للغات الأجنبية بموسكو في مجموعة سنة ١٩٥٦ (المترجم).

الحرب الأممية الشاملة.

***

[٢]

ولم تنل ثورة عام ١٨٤٨ كل ما تستحقه من تقدير. سواء لطابعها أو روحها، كما جانب الحكم عليها الصواب، وكان مثلها في هذا مثل العديد غيرها من حوادث التاريخ التي لم تنل حقها من التقييم السياسي دونما سبب واضح، ***والواقع*** أن هذا الطابع الراديكالي لسنة ١٨٤٨ كان طابعًا مقاتلًا وهو بهذا يناقض الطابع المسالم الذي سيطر على الطبقة الوسطى في العصر التالي لعصر نابليون، هذه الطبقة التي ولدت وصحبت القتال في ميادين الحرب ثم عاشت في جزع تخشى الثورة، لقد كان هذا الطابع صدى التقاليد العظيمة لسنة ١٧٩٣ .

ولم يخطئ ماركس في تقدير روح الاقتتال التي وضحت في أوروبا في منتصف القرن التاسع عشر بالرغم من أنها تدثرت في رداء سلمي، وقد كتب في الثامن والعشرين من يناير سنة ١٨٥٣ في جريدة نيويورك تريبون يقول: «من الخطأ الكبير أن نظن بأن المبدأ السلمي كما تقدمه مدرسة مانشستر له أي معنى مهم، إن كل ما يوضحه هذا المبدأ هو استبدال السياسة التجارية الاستعمارية بأسلوب إقطاعي في فنِّ صناعة الحرب».

وانتهت حركات عام ١٨٤٨ الثورية في القارة بهزيمة ساحقة، فبعد البداية الناجحة لم تلبث القوى الثورية أن تفتتت، وأفسحت الطبقة السياسية الوسطى غير الناضجة الطريق إلى طبقة حاكمة غير مدربة يقوم سلطانها على أساس الثروة والمولد؛ أي الأصول التي انحدر منها أفرادها، وبذلك ضاعت القوى الدافعة الثورية دون نتائج ظاهرة مرئية، ومع هذا

فإن هذه الحرب الأهلية في أوروبا كانت حادثًا عسكريًّا كبير الأهمية، لقد حدث القتال في ألمانيا من وراء المتاريس في الطرقات كما حدق في ميدان القتال، وكان الثوار في العادة يقودهم ضباط مدربون انضموا للثوار؛ ذلك لأن الجيشين الألماني والنمساوي لم يكونا خالصين مما يقال له في القرن العشرين: التأثير «الشيوعي».

وقد كان بين جنود الثورة بعض المقاتلين النابهين أمثال المغامر أوتوڤون كورڤين، ممن أثبت بعضهم فيما بعد مواهبه الحربية، لقد كان چورچ ويديميير أحد الطليعة من أتباع ماركس وآنچلز ضابطًا من ضباط المدفعية البروسية، وبعد أن هاجر إلى الولايات المتحدة نال شهرة كضابط برتبة الكولونيل في جيش الشماليين طوال الحرب الأهلية الأمريكية، وكان من بينهم أيضًا ويلهلم روستوف أحد ضباط أركان الحرب البروسيين الذي انضم إلى الثورة وكسب شهرة عسكرية كبيرة بين الفنيين واشتهر كذلك كمؤلف ومدرس في الأكاديمية العسكرية للجيش السويسري، ثم عمل بعد ذلك كرئيس أركان الحرب لغاريبالدي في غزو صقلية وفي السير إلى نابولي.

والواقع أن الدوائر العسكرية الرسمية ـ مثلها مثل المؤلفات العسكرية المعاصرة ـ قد نظرت إلى أولئك المقاتلين من وراء المتاريس مع قلة عددهم وكأنهم قوة ممتازة لا تقهر، وكان هؤلاء موضع حيرة الطبقة العسكرية المحترفة كما كان البربر بالنسبة للجيوش الاستعمارية لأوروبا في القرن العشرين.

وقد اعتبر كاڤينياك(*) ـ أول من نجح في باريس في يونيو سنة ١٨٤٨ في القضاء على أسطورة المتاريس ـ أكبر عبقرية عسكرية لذلك القرن، لقد تطلب الأمر كل قوة الجيش البروسي للانتصار على ثوار بادن(**) في ميدان القتال بالمدينة.

لقد أوضحت حركة سنة ١٨٤٨ ـ بالرغم من فشلها أو بسبب هذا الفشل ـ نقطة الابتداء للاشتراكية الفنية والميراث العظيم لأرباب نظرياتها، ويحتل البحث عن معناها ـ عن استراتيچيتها العسكرية ومرجعها التاريخي ـ مركز الصدارة في كتابات ماركس وآنچلز طوال السنوات الأولى من حياتهما في المنفى، ولقد كشفت دروس الهزيمة عن قوانين الاستراتيچية المقبلة للثورات السياسية، هذه القوانين التي وضحت في إفاضة عند تحليل ثورات ١٨٤٨ / ١٨٤٩ في وسط أوروبا، هذه الدراسات التحليلية التي كتبها آنچلز ووقعها ماركس، وصدرت هذه السلسلة من المقالات في جريدة النيويورك تريبون طوال السنتين ١٨٥١ ، ١٨٥٢ تحمل اسم ماركس.

(*) لويس أوجين كاڤينياك (١٨٠٢ – ١٨٥٧) ابن جان باتيست كاڤينياك، قائد فرنسي ولد في باريس وكان حاكماً للجزائر، وتولى رياسة القوة التنفيذية سنة ١٨٤٨ واشتهر بالقضاء على ثورة يوليو ١٨٤٨، ولكنه حاول بلا جدوى أن يتولى رياسة الجمهورية في أول انتخابات لهذه الرياسة والتي فاز فيها لويس نابليون (نابليون الثالث فيما بعد)، وكان أخوه جوفري رئيساً للحزب الديمقراطي في حكم شارل العاشر ولويس فيليب حتى مات في سنة ١٨٤٥. (المترجم).

(**) بادن ولاية ألمانية أرضها جبلية وتعطي الغابة السوداء جزءاً من أرضها تشتهر بالمياه المعدنية والصناعات وقد أعلن فيها الحكم الجمهوري سنة ١٩١٩ في أعقاب الحرب العالمية الأولى وسكان الولاية مليون ونصف من السكان، وبادن المدينة على الضفة اليُمنى لنهر الرين ويسكنها ثلاثون ألفاً، وقد كانت بادن المدينة مسرحاً لكفاح الطبقات التي انتشرت في أكثر بقاع أوروبا بين ١٨٤٨ و ١٨٥٠.



فردريك آنجلز (١٨٢٠ ـ ١٨٩٥)

وقد برزت إلى الضوء، هذه الدراسة الواقعية عن ألمانيا والتي وسمت بعنوان «الثورة والقوى المضادة لها» بسبب الخطاب الذي بعث به لينين من فنلندة إلى بولشفيك بتروغراد بمناسبة ثورتهم في سنة ١٩١٧ والذي جاء فيه:

«إن الثورة فنٌّ، مثلها مثل الحرب تخضع لقواعد وأصول معينة»[١]:

فأولًا: لا تحاول اللعب بالثورات ما لم تكن متأهبًا لنتائج هذا اللعب.

وثانيًا: أن الثورة على ما جاء في كلمات دانتون ـ أعظم شخصية ثورية ـ تتطلب منك، العمل بإصرار وبروح هجومية مستمرة؛ ذلك لأن الدفاع معناه الموت لأي ثورة مسلحة، كما تتطلب مفاجأة الخصم، والإبقاء دائمًا على الاتجاه المعنوي الذي عرفته سياسة أول ثورة ناجحة ألا وهو: «الجرأة، والجسارة، ثم الإقدام».

على أن اشتجار الآراء العامة لماركس وآنچلز عن التكتيكات الثورية يمكن تفهمه في ضوء تفهم طريقتيهما الفلسفية الكاملة التي تقوم على أساس «التفسير المادي للتاريخ» وما يؤكده هذا من أن الأحوال الاقتصادية التي لها السيادة هي تفهم العوامل السياسية الاجتماعية؛ وقد طبقت هذه

---

(١) جاء النص الكامل لهذا الخطاب في الصفحات ٤٧١ – ٤٧٣ من كتاب Marx, Engels-Marxism بقلم V.I. LENIN الطبعة الخامسة الإنجليزية طبع موسكو ١٩٥٣، وقد كتب ماركس الخطاب في الثامن من أكتوبر سنة ١٩١٧ وجاء في بدايته أنه يأمل أن يصل إلى الزملاء في "بتروغراد" في اليوم التالي وإن كان من المحتمل أن يتأخر عن هذا إلا أنه يخشى هذا التأخير؛ بسبب أن المجلس السوڤيتي كان قد قرر بداية الثورة المسلحة في العاشر من أكتوبر، وقد جاء في آخر الخطاب "إن نجاح الثورة الروسية والثورة العالمية يتوقف على قتال ليومين أو ثلاثة"، ويبدو أن الخطاب وصل بتروغراد في الحادي والعشرين من أكتوبر (المترجم).

النظرية في المجمل العام للتاريخ الحديث في صورته الكاملة في الجزء الخاص بهذا من «عهد أو تصريح الشيوعية»(*)، كما طبق هذا أيضًا في الدراسات الكثيرة التي عرضت بالبحث للمسائل المعاصرة، وفي ضوء مثل هذا التفسير والشرح فإن قيام «و» فشل الحركات الشعبية سنة ١٨٤٨ إنما كانت تحدد منه الأسباب الاقتصادية كما كانت تهيئ له الظروف على ما أثبتت الدراسات التحليلية الأخيرة؛ وقد قال آنچلز في مقدمته لطبعة عام ١٨٩٥ اللندنية لكتاب ماركس «صراع الطبقات في فرنسا ١٨٤٨ ـ ١٨٥٠»:

«إن الأزمة التجارية لسنة ١٨٤٧، كانت السبب الحقيقي لثورات فبراير ومارس لسنة ١٨٤٨، وكان الرخاء الصناعي الذي جاء تدريجيًّا هو الحقيقة الحاسمة التي تقف وراء الاتجاه الأوروبي المضاد».

وفي ذات الأسلوب أضاف آنچلز:

«ومن الممكن أن تقوم ثورة جديدة نتيجة فقط لأزمة جديدة، ومن الممكن أن تقوم هذه الثورة كما تأكد قيام تلك التي سبقتها».

وكان اقتراب أزمة اقتصادية جديدة يعني بالنسبة لماركس وآنچلز «صوت النفير» الذي يدعو إلى الثورة، وهكذا كان الهبوط الذي حدث عام ١٨٥٧ في رأيهما إشارة إلى الموقف الثوري المحتمل، وكان آنچلز مسرورًا لما خطر له من أنه يستطيع لتوه أن يترك عمله ليذهب إلى ميدان المعركة، وأن يستبدل مقعده في غرفة مكتبه بجواد يمتطيه في مسرح القتال، ويقول: «إن فرصتنا قادمة، وستجيء هذه المرة كاملة، إنه صراع حياة أو موت،

(*) Communist Manifesto وتعني كلمة Manifesto التصريح العام عن الدوافع والاتجاهات، والذي يصدر عن حكومة أو شخص أو مجموعة من الناس لها أو له أهمية في المجتمع. (معجم ويبستر ص ٨٠٢).

وستكون دراساتي العسكرية أكثر اتجاهًا للناحية العملية، إنني ألقي بنفسي في خضم دراسة تكتيكات وتنظيم الجيوش البروسية والنمساوية والباڤارية والفرنسية، وفيما عدا هذا لن أفعل شيئًا غير ركوب جوادي والقيام بالصيد، ورياضة الصيد هي المدرسة الحقيقية للفروسية»؛ ولكن هذه «الأزمة المزمنة» التي انتظراها لم تذهب بهما إلى الثورة ومن ثم إلى الحرب.

على أنه بينما أخفق الاستراتيچيان الثوريان «ماركس وآنچلز» في تقدير قيمة القوى الحقيقية للعمل فإنهما قد أدخلا عاملًا مهمًّا جديدًا إلى كل تخطيط ثوري مقبل، ذلك هو عامل «التوقيت»، العامل الذي أضحى محور الاستراتيچية الناجحة، ولقد طبق تلاميذ ماركس وآنچلز في الثورة السوڤيتية هذا الدرس تطبيقًا كاملًا في الروسيا، ولكن من الواضح أن أولئك الذين قاموا بإيجاد «الدولية الثالثة» لم يفعلوا هذا.

فلما مضى وانتهى الموقف الثوري أشار ماركس وآنچلز بأن أيَّة محاولة للَّعب بالثورة لا قيمة لها، بل ولها ضررها، وفي طوال هذه السنوات كان الرجلان يعملان في حذر ضد أية محاولة لفورة صغيرة تتعرض للفشل؛ ذلك لأن الموقف سيكون إذ ذاك في جانب القوات الرجعية؛ وهكذا قاتل الزعيمان الاستراتيچيان ضد «شابر» و «ڤيليش» اللذين كانا يعملان في فجر الحلقة الخامسة من القرن التاسع عشر لإثارة مثل هذه المحاولات غير الكاملة التوجيه، والتي تجيء قبل الوقت المناسب لها.

والواقع أن ماركس وآنچلز قد أصرَّا على أنه بدلًا من هذه الفورات التي لا أمل فيها يجب اتباع استراتيچية تأهب طويل الأجل تشغل أو تغطى هذه السنوات التي يعيشها العالم في سلم.

ومع أن آنجلز قد انتظر ـ في صبر ـ الوقت الذي يستطيع فيه أن يمتطي جواده ثانية ليسهم في «الصراع الكبير حتى الموت؛ الصراع الذي سيكون بين البرجوازيين والطبقة الفقيرة» فإنه كان يعرف تمامًا أن الخطر الأكبر الذي يمكن أن يتعرض له هذا العمل إنما يكمن في أعطاف اشتداد الرغبة لتعجل القيام به، وهكذا أضحى «التوقيت» و«الصبر» هما المطلب الأساسي للاستراتيجية السليمة.

وعلى حين حمى ماركس وآنجلز نفسيهما ضد الهويّ في هذا الكمين فقد جعلا من حياة المنفى لتكون فترة تجارب لها ثمارها، وقد كانت الحقبة الأولى لحياتهما في لندن فترة إرساء لقواعد السياسة الماركسية، وفي هذا الأمد من السنين أسهم ماركس وآنجلز في الصورة العالمية لمدينة الطبقة الوسطى في القرن التاسع عشر.

والواقع أن المفكرَين السياسيَّين قد استطاعا ـ تبعًا لانفصالهما عن المظاهر المحددة المحلية للولايات الألمانية الصغيرة وعن السياسة الفرنسية التي تتجه إلى التافه من الأمور ـ أن ينظرا إلى كل هام في نطاق واسع؛ «فإنه لاشيء يمكن أن يكون قاعدة للتكتيكات الصحيحة لطبقة متقدمة من الناس عدا التقدير المادي لجملة العلاقات التعاونية بين كل طبقات المجتمع الذي توجد فيه هذه الطبقة المتقدمة».

وقد قدم ماركس هذا التقدير للقوى الاجتماعية في دراسته القيمة The Eighteenth Brumaire(*).

(*) تعني كلمة Brumaire في الأصل الشهر الثاني للتقويم الثوري الذي جاءت به الجمهورية الأولى في عام ١٧٩٣، ويبدأ هذا الشهر من ٢٣ أكتوبر إلى ٢١ نوفمبر.

وقد رأى ماركس أن الدرس التكتيكي الذي يمكن استخلاصه من هذا الفشل الكبير للثورة الفرنسية على يدي نابليون «الصغير» إنما يوضح الحاجة إلى «تطور النشاط الديمقراطي للفلاحين»؛ وقد وصل آنجلز إلى ذات الخاتمة والنتيجة في دراسته المعاصرة «حرب الفلاحين الألمان»، وقال: «سيتوقف كل شيء في ألمانيا على إمكان مساندة ثورة الطبقة الفقيرة بمحاولة ثانية من حرب الفلاحين»؛ وأشار ماركس في مراسلاته لآنجلز إلى أن الفلاحين سيكون لهم من تلك اللحظة دور مهم في تقديراتهما الثورية؛ نظرًا لأنهم سيكونون الحلف الممكن الاعتماد عليه، أو سيكونون القوة الدافعة في الثورة الاجتماعية القادمة، بل وعلى الأخص ستقاس الآمال في الموقف الاجتماعي على أساس ما سيناله الفلاحون؛ لقد اعتبر تحرر الفلاحين من رقِّ ملَّاك الأراضي نقطة التحول في التاريخ السياسي وخط الابتداء للقوى الثورية.

وكتب ماركس، كقائد عام للثورة العالمية، مصدِرًا أوامره في الأسلوب النابليوني من منزله في لندن يقول:

«وستنضم روسيا إلى الثوار»، ومن ذلك الوقت أضحت الثورة الروسية العامل الدائم في تفكيرهما السياسي[1]؛ ومن هذا التقدير لدور الروسيا كان الخط المباشر الذي أدى إلى ثورة عام ١٩١٧ في الروسيا، إن الجيوش التي

---

(١) راجع وجهة نظر آنجلز في دور الفلاحين في إيجاد الإمبراطورية الثالثة في فرنسا تبعاً للأسطورة التي تملأ أذهانهم عن "نابليون إمبراطور الفلاحين" وهذه الأسطورة التي كلفت أهل فرنسا الكثير مما قاسوه بعد ذلك، صفحة ٥ وما بعدها من رسالة "The Peasant Question in France and Germany" والتي كتبها لماركس في نوفمبر ١٨٩٤، وأصدرتها دار النشر باللغات الأجنبية في موسكو مترجمة عن الألمانية سنة ١٩٥٥. (المترجم).

جندت أساسًا من الفلاحين هي التي هزت ثورة سنة ١٨٤٨ في كل مكان، ولكن التحالف مع الفلاحين الثائرين هو الذي أنقذ روسيا السوفييتية إبان الحرب الأهلية، وكان هذا هو الدرس الذي يمكن استخلاصه من الثورة الناجحة ومن هذين المفكرين اللذين رسما الطريق لها.

وكان هذا التحول من والدي الاشتراكية إلى دراسة المسائل الدولية في صورة عامة هو الأمر الأكثر وضوحًا في تطور الفكر الثوري.

والواقع أنه منذ الأيام الأولى لجريدة «الراين الجديدة» - والتي عمل ماركس كمحرر لها لإيجاد أقوى محاولة صحفية مليئة بالروح الألمانية الأولى - تحقق الصديقان من مدى الارتباط الوثيق بين السياسة الخارجية والشئون المحلية، كما تحققا أيضًا من أن الثورة الأوروبية المقبلة لن تقرر بجهود دولة واحدة وحدها، وقد أدى هذا التحقيق إلى ضرورة العناية القصوى بدراسة الشئون العسكرية لاستراتيجية ثورية واقعية.

لقد كان الإسهام الأساسي لماركس وآنجلز في رأي أولئك الذين تولوا إيضاح وتفسير تعاليمهما أنهما وثبا بالانطلاق الاجتماعي في عصرهما من مرحلة القتال الثوري المحلي ليكون له دوره في تخطيط السياسة العالمية كلها.

***

[٣]

ووصلت الاستراتيچية الماركسية إلى مرحلتها الثانية في فجر الحقبة الخامسة من القرن التاسع عشر، والغريب ـ على ما يبدو ـ إنه في هذه السنوات من حياة ماركس وآنچلز في المنفى اكتشف هذان الرجلان ـ اللذان أبعدا عن وطنهما ـ الروابط القومية بينهما. ولا شك أن آنچلز كان أعمق في ولائه وأكثر إخلاصًا لعقيدته على نقيض ماركس الذي كان يكشف عن اتجاهات قومية خاصة في هجماته على خصومه السياسيين؛ والأكثر أهمية هو أن الزعيمين الاشتراكيين قد بدآ إذ ذاك في تقدير «الفردية القومية» وإدراك ازدياد أهميتها في المسائل الدولية، وقد لاحظا بعناية تيقظ القومية في وسط وشرق أوروبا، وقد توقعا من هذه الحركات الاستقلالية تجديدًا للدوافع الثورية التي ستدمر النقص العاطفي السياسي للرجعية التي سيطرت على أوروبا في منتصف القرن التاسع عشر.

ويمكن أن نجد مثلًا جيدًا لهذه الآمال فيما توقعه آنچلز للثورة المجرية تحت زعامة «كوسوث»(*) والذي كان يظنه في ذلك الوقت ـ بغض النظر عن رأيه فيه فيما بعد ـ كمزيج من «دانتون» و «كارنو»(**)، وقد اعتبرت

(*) لويس كوسوث وتنطق بالمجرية "كوشوث" KSSUTH (١٨٠٢ – ١٨٩٤) مواطن مجري ومن كبار رجال السياسة في عصره (المترجم) "مُعجم ويبستر ص ٨٨١".

(**) چورچ چاك دانتون (١٧٣٩ – ١٧٩٤) سياسي فرنسي من زعماء الثورة الفرنسية (المترجم) "ويبستر ص ٣٧٢".

هيبوليت كارنو (١٨٠١ – ١٨٨٥) سياسي فرنسي ابن لازار كارنو، كان عضواً في الحكومة المؤقتة لعام ١٨٤٨. (المترجم).

التقارير اليومية عن الحملة الحربية في المجر والتي كان آنچلز يكتبها لمجلة «الراين الجديدة» أنها هي التي أيقظت فيه الرغبة التي صحبته طوال حياته للاهتمام بمشكلات الضابط أركان الحرب.

وقد بدأ الزعيمان الاشتراكيان اللذان اعتبرا نفسيهما دوليين، بدآ التفكير في السياسة الدولية في تاريخ يسبق كثيرًا تخلص زعماء أحزاب الطبقة الوسطى من اتجاهاتهم المحلية الضيقة المجال، وهكذا فإن أي عمل سياسي ـ مهما كانت الدولة التي يحدث فيها ـ يجب أن ينظر إليه في ضوء تأثيره من ناحية أوروبية عامة، ولم يكن من دليل في البداية على هذا الاتجاه أو التوجيه الدولي، وكان كل ما يدل عليه هو اقتراب فج من الواقعية، وكان الانقسام السياسي يرسم ببساطة في ضوء الصورتين العامتين في أوروبا، صورة «الرجعية» التي تضاد الثورة وصورة «القيصرية» التي تقف موقف العداء من الغرب المتقدم؛ وقد اعتبرت فرنسا لوقت طويل كموطن للثورة، وكانت السياسة الدولية التي أوصى بها ماركس وآنچلز بقوة في عام ١٨٤٨ هي تحالف غرب أوروبا لقتال روسيا، وعندما جاء هذا الاصطدام المتوقع بين الشرق والغرب وكانت حرب القرم؛ كانت هذه الحرب في الواقع صراعًا بين القيصر الروسي وبين نابليون المغتصب للعرش مع وقوف بريطانيا إلى جانب فرنسا لمعاونتها عسكريًّا، ومع هذا فإن الاستراتيچيين الماركسيين كانا يأملان في أن هذه الحرب ستطلق قوى الثورة من عقالها.

وكانت حرب القرم أول فرصة لآنچلز ليحلل المشاكل العسكرية لذلك العصر تحليلًا تفصيليًّا، وقد حاول إذ ذاك أن يجعل من دراسة العلم العسكري صناعته في الحياة، ولكنه أخفق في أن يحصل على المكان الذي يتوق إليه في صحيفة الديلي نيوز اللندنية، ولهذا كان المنفذ الوحيد لهذه

المعرفة غير العادية التي توافرت له هذه المقالات التي شاركه فيها كارل ماركس والتي نشرتها جريدة نيويورك تريبون، *والواقع* أن الرجلين قد أوضحا في هذه المقالات عظم ما توافر لهما من المادة الفنية مع الدقة في أحكامهما الاستراتيجية مما أنالهما تقدير جمهرة القراء الأمريكيين وجعل مقالاتهما في مصاف ثمار أفكار الأخصائيين الفنيين.

وكان آنچلز يأمل عند بداية الحرب في عمل سريع نشط من جانب القوات المتحالفة في البحر الأسود، ثم «بالتعاون مع السويد والدنمارك» في البلطيق مما يؤدي إلى تدمير الأسطول الروسي وإلى غزو كل التحصينات البحرية الروسية، وبهذا فإن العملاق الذي «تسمل عيناه» سيرغم على أن يجثو على ركبتيه بحركة كماشة هائلة، وبهذا فإن الثورة الداخلية لا تلبث أن تنهي روسيا القيصرية؛ ولكن الاتجاه غير الواضح وغير المقرر الذي وقفته بروسيا والنمسا قد أوجد صعابًا غير عادية في الاستراتيچية العسكرية، فقد حال وقوفهما على الحياد دون حدوث معارك برية كبيرة، وإن كانت تعبئة الجيش النمساوي قد أبقت جزءًا كبيرًا من الجيش الروسي متعطلًا بلا عمل، إلا أن الأمل في تدخل نشط من جانب النمسا كان قد عطل عمل الحلفاء لخمسة أشهر، وقد اعتبر آنچلز هذا التعطيل فشلًا، ولكنه ـ أسوة بماركس ـ كان يشك في بالمرستون(*) كحليف سري «لصديقه القيصر

(*) بالمرستون، هنري جون تمبل (١٧٨٤ - ١٨٦٥) سياسي إنجليزي دخل مجلس العموم سنة ١٨٠٧ تولى وزارة البحرية ثم وزارة الحرب في حكومات متوالية حتى عام ١٨٢٨ عندما انتقل لوزارة الخارجية تحت رياسة جراي سنة ١٨٣٠، وشغل هذه الوزارة مرات عديدة حتى سنة ١٨٥٠ عندما بعثت له الملكة ڤيكتوريا مذكرتها عن طريق رسل رئيس الوزارة تطلب تحديد اتجاهات سياسة الوزارة وتصر على أن ما تقرره الملكة ليس من حق الوزير تعديله بعد هذا وإلا كان من حق الملكة عزل الوزير، وبرغم هذه المذكرة وافق=

نيقولا» متبعًا في هذه السبيل ما سبقه إليه الإسكتلندي المضطرب العقل والذي كثر الحديث عنه «أوركيرت»(*).

على أن التحليل الدقيق لتنظيم القوات المتقاتلة وخواصها التكتيكية لم يترك أي شك عند آنجلز في أفضلية دول الحلفاء، وحتى معركة انكرمان كانت الأفضلية لمدفعية الحلفاء وفرسانهم واضحة تثبتها الأدلة المادية، ولكن حدث إذ ذاك أن انتصر المشاة الروس بالرغم من أنهم «كجيش متجمع» قد أثبتوا عدم القدرة على العمل في مواجهة الفن العسكري الحديث ولا على القيام بالتحركات التكتيكية للوحدات الصغيرة المنفصلة، وقد وصف آنجلز حرب القرم بعد أعوام من نهايتها للاقتصادي الروسي «دانيلسون» بقوله: «إنها صراع لم يكن فيه من أمل، قام بين أمة بدائية الإنتاج وأمم أخرى وصلت إلى أحدث صور الطاقة الإنتاجية»، ولم تحل الثقة في انتصار الحلفاء دون أن يوجه آنجلز نقدًا لاذعًا لتنظيم الجيش

=بالمرستون في العام التالي على مقترحات نابليون الثالث من إبقاء الحال القائمة في أوروبا دون استشارة الملكة أو رئيس الوزراء، وقد أدى هذا إلى إعفائه من منصبه، على أنه لم يلبث أن عاد من جديد بل وتولى رياسة الوزارة سنة ١٨٥٦، وقد اشتهر بالمرستون باتجاهاته الاستعمارية وإصراره على الإبقاء على المستعمرات الإنجليزية في أمريكا الشمالية، ومات بالمرستون في مكتبه يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٦٥ وهو في الحادية والثمانين من عمره E. Encycl. Vol. ١٠ pp. ٢١٩ (المترجم).

(*) أوركرت Urquhart السير توماس أوركرت (١٦١١ - ١٦٦٠) مؤلف ومترجم اسكتلندي، كان من حزب الملك أثناء الحرب الأهلية في إنجلترا، وفي عام ١٦٣٣ نشر الجزء الأول من ترجمته لأعمال الكاتب الفرنسي فرنسوا رابيليس، وقد أوصلته هذه الترجمة إلى الشهرة لأنها كانت من أدق الترجمات التي قدمت مؤلفات الكاتب الفرنسي وقد نشرتها مكتبة إفريانز في طبعة حديثة عام ١٩٢٩. راجع مُعجم ويبستر ص ١٦٠٣ ودائرة معارف كل فرد المجلد ١٢ ص ٥١٤ (المترجم).

الإنجليزي، فإن النقص المعيب في الأغذية والثياب والعناية الطبية قد أثار غضب الرأي العام الإنجليزي، وقد وجه آنچلز اللوم ـ في ضوء التفسير الماركسي للتاريخ ـ إلى الطبقات الحاكمة.

وكانت الظاهرة الكبيرة الأهمية في حرب القرم هي الدور الذي كان للتحصينات أو حرب الحصار، ولا شك أن هذه الحقيقة قد وجهت نظر المراقب العادي غير المتعمق في دراسته إلى أن تغييرًا في فن الحرب قد حدث وأن عودة للوراء قد سارت بالفن العسكري من عصر نابليون إلى عصر فردريك الأكبر.

ولكن آنچلز لم يصل إلى مثل هذا التقرير، وقد قال بعد سقوط سباستبول: «لا يوجد ما هو أبعد عن الحقيقة من أن التحصينات لا أهمية لها اليوم غير أن تكون نقط احتشاد في معاونة تحركات الجيش في الميدان، إن قيمتها في الواقع نسبية، وهي لم تعد عوامل مستقلة في الحملات العسكرية بل مواقع ذات قيمة قد يكون أو قد لا يكون من الصواب الدفاع عنها للنهاية»، ثم ختم حديثه برأيه في أنه لهذا السبب كان الروس محقين في تجنب المعركة في الميدان المكشوف وفي تقديرهم أن أمن وسلامة جيشهم أكبر أهمية من القيمة السلبية التي لأي حصن؛ وبالإضافة إلى هذا فإن آنچلز لم يقرأ فقط ـ بمناسبة حرب القرم ـ كتابات كبار الاستراتيچيين العسكريين منذ أيام نابليون كچوميني وڤلسن كلاوزيڤيتز وغيرهم، بل إنه درس بعناية حملة نابليون في الروسيا وبذلك عرف الصعاب التي يمكن أن توجهها قوات الحلفاء بعد غزو القرم إذا ما تابعت تقدمها للاشتباك بعنف مع الروسيا، وكان من الواضح أن مشكلات المناحي العسكرية في أرض «المساحات الواسعة» لا يسهل التغلب عليها، ولهذا كان من الممكن إدراك

وفهم سر رغبة الحلفاء في سرعة إنهاء الحرب مبكرًا ما أمكن.

وكانت «إجابة» آنچلز في مثل هذا الموقف هي الاتجاه إلى الاستراتيچية الثورية، وبدا له أن «الحرب للمبدأ والعقيدة» هي الحل الوحيد للحلفاء ولروسيا على السواء، فيستند الأولون إلى كل القوى المتحررة في ألمانيا وبولندة وفنلندة والمجر وإيطاليا، وتستثير الأخيرة لنصرتها كل العناصر السلاڤية، وكان هذا الاحتمال «لحرب العقيدة» هي التقدير الصحيح للموقف، وقد اعترف نابليون الثالث بنفسه فيما بعد للملكة ڤيكتوريا: «بأنه لو كانت حرب القرم قد استمرت لاضطر مرغمًا لدعوة الشعوب التوّاقة إلى التحرر لحمل السلاح في معاونة فرنسا».

ولا شك أن آنچلز كان يرحب بمثل هذا التحول، ولكن لا القيصر نيقولا، ولا الإمبراطور نابليون الثالث كان متأهبًا لإطلاق هذه القوى من عقالها والتي كانت هي الطابع الحاسم في عسكرية القرن العشرين.

على أن انتهاء حرب القرم في عام ١٨٥٦ وضع حدًّا لآمال آنچلز في إمكان قيام نظريات ثورية عظيمة، ولكنه في نفس الوقت زاد من اقتناع الاستراتيچيين الثوريين بخطر «البونابرتية»، وهكذا كانت «البونابرتية» و«السلاڤية» موضع الاهتمام في الاعتبارات الاستراتيچية لآنچلز، وقد اختلط الخوف من الاتساع التقدمي ومن الأطماع القومية لروسيا بالكراهية التي لا يخبو أوارها ولا يخبو لظاها للرجعية الطليقة، والتي أدى تدخلها العسكري إلى تدمير ثورة عام ١٨٤٨ ، ولكن العداء الشخصي العنيف بين ماركس وبين «ڤوجت» الألماني «١٨١٧ ـ ١٨٩٨» أوضح إلى أي مدى كانت الأفكار الاستراتيچية للأمن العسكري قاعدة صراع ماركس وآنچلز ضد الدعوة «الروسية / السلاڤية» والتي لم يكن يعنيها لو أن بوهيميا التي هي في



من قتال الشوارع في سبيل الحرية السياسية سنة ١٨٤٨

الصورة التي سادت أوروبا في القرن التاسع عشر

قلب ألمانيا قد تحولت لتتبع روسيا.

وتبعًا لآراء آنچلز إنما يعني نزول ألمانيا عن بوهيميا نهاية وجودها القومي، وبذلك فإن الطريق المباشر من برلين إلى ڤيينا يمر في الأراضي الروسية، وهكذا كانت الاعتبارات الاستراتيجية والثقافية والاقتصادية هي التي جعلت آنچلز يرى أن كل المناطق التي في شرق وجنوب شرق أوروبا والتي كسبها الألمان فيما مضى يجب أن تظل ألمانية. وقد عارض آنچلز بقوة تفتت الأمم الثقافية، كما عارض إيجاد هذه الدويلات الصغيرة المتناثرة التي لا تتوافر لها إمكانيات الوجود والبقاء القومي، وكل هذا باسم «الرغبة القومية المتحررة»؛ وهكذا يبدو لنا أن كل أخطار تطورات القرن العشرين قد قدرت من قبل وفي تاريخ مبكر سابق لحدوثها.

ولا يقل عن هذا أهمية النقاش الحديث لكفاح آنچلز ضد العقيدة «البونابرتية» وقد أدرك أن قوتها وخطرها إنما يكمنان في العمل للسيطرة على سياسة الاتساع الاقتصادي غير المنظور للطبقة الوسطى غير الراضية عن حالتها، وعلى ولاء ووطنية الجماهير الثورية، وقد قدم آنچلز دراسته القيمة لأطماع نابليون في رسالتيه «البو والرين ـ ١٨٥٩» ، «ساڤوي ونيس والرين ـ ١٨٦٠»، وقد هاجم في رسالتين الدراسات والآراء التي كانت منتشرة في ذلك العصر والتي كانت تسود آراء الكثيرين من الأخصائيين العسكريين «على مثال ما قدمه الجنرال ڤون ڤيلسين في دراسته للحملة الإيطالية لسنة ١٨٤٨» من أن الدفاع عن الرين يجب أن يكون على نهر البو والذي كان يعتبره جزءًا من ألمانيا، وقد أثبت آنچلز في تحليله القيم للمجاري العلوية للأنهار الإيطالية وللموقف الاستراتيجي للتحصينات الإيطالية ـ وهي دراسة يفخر بها أي عالم معاصر من علماء الجيو بوليتيكس ـ

أثبت أن السيطرة التي لوادي البو ليست فقط بسبب الحاجة العسكرية للدفاع عن حدود ألمانيا الجنوبية، بل بسبب الأطماع السياسية لإعادة الإمبراطورية الرومانية المقدسة من جديد، مع تطلع ألمانيا لأن تكون سيدة أوروبا، وقد حذر آنجلز على التخصيص من السياسة التي ترمي إلى إيجاد «ألمانيا الكبرى» الأمر الذي سيجعلها تبعًا لتخلصها من جيرانها الضعفاء موضع كراهية وحقد أوروبا كلها، وهكذا كان محور روما / برلين، كما كان النظام الجديد لألمانيا الهتلرية، موضع الاستنكار والمعارضة قبل إيجاده وتكوينه بثمانين سنة.

على أن مناقشة آنجلز للاستراتيجية المحتملة لحملة غربية تستحق الإعجاب وتستثير الدهشة بدرجة أكبر، وقد حاول آنجلز أن يثبت أن فرنسا وقد حصنت باريس تستطيع أن تنزل عن مطالبها التقليدية على الضفة اليسرى للرين، وكما فعل في مسألة المطالب الألمانية / النمساوية في شمال إيطاليا لم يوافق آنجلز ـ في ضوء الأسباب العسكرية ـ على ما تطالب به فرنسا من «حدود طبيعية»؛ وقد اتجهت استراتيجية الحملات الفرنسية نحو الدفاع عن باريس، وكان لهذه الاستراتيجية أحقيتها تبعًا لأن مركزية فرنسا جعلت باريس مفتاح البلاد كلها، فإن استسلام العاصمة يسبب تهدم الإمبراطورية، ومع التحصينات الحديثة لباريس كانت الحلقات الثلاث من التحصينات حولها والتي بناها ڤوبان عديمة القيمة وتعني توزيعًا لا قيمة له للقوات العسكرية.

وقد رأى آنجلز أن الخطر الحقيقي ضد أمن فرنسا إنما يجيء من ناحية حدودها الضعيفة المشتركة مع البلچيك؛ ذلك لأنه بالرغم من المعاهدات الأوروبية فإن «التاريخ قد أوضح أن حياد البلچيك في حال الحرب ليس

أكثر من قصاصة ورق»، وعلى أساس مثل هذا التقويم الحقيقي وضع آنچلز في تفصيل ضاف خطته لحملة حربية ناجحة تستطيع فرنسا بها ـ مستندة إلى دفاعات باريس ـ أن تقوم بدفاع هجومي على الحدود البلچيكية. فإذا أمكن صد مثل هذا الهجوم وجب على الجيش أن يقف وقفة نهائية على خط «الواز / الأين»، ولن تكون هناك من قيمة لأن يتقدم العدو إلى ما وراء هذا الخط تبعًا لأن الجيش المتقدم من البلچيك سيكون أضعف من أن يستطيع العمل ضد باريس وحدها، وستمكن المواصلات غير المهددة من وراء خط الأين إلى باريس ـ أو على الصورة الأسوأ من وراء المارن مع الاستناد بالجناح الأيسر إلى باريس ـ الجيش الفرنسي الشمالي من القيام بالهجوم وانتظار وصول القوات الأخرى التي تبعث لمعاونته في خوض المعركة الحاسمة. وبعد خمس وخمسين سنة من هذا الحديث وصل الجنود الفرنسيون في سيارات التاكسي متبعين النبوة التي تحدث بها آنچلز والتي تحدثت عن «معجزة المارن»(*) قبل أكثر من نصف قرن على حدوثها.

(*) كانت "معجزة المارن" هي إعداد الجيش الفرنسي السادس بقيادة مانوري في أقصى الجناح الأيسر للحلفاء، وإعداده للقيام بالهجوم على يمين الألمان عند ما وضح أن الألمان تركوا خطة شليڤن الأصلية بالدوران حول باريس وتطويق جيوش الحلفاء ودفعها دفعاً إلى سويسرة.

وقد أدت ضرورة سرعة إرسال الإمدادات إلى مانوري إلى استخدام كل سيارات الأجرة التي في العاصمة لنقل الجنود إلى جبهة القتال، وقد أدى تجمع هذه القوات على جنب الجيش الألماني الأول الذي يقوده ڤون كلك وتهديدها لمؤخرته حتى بعد تقهقره إلى نهر أورك لإصدار مولتكه أوامره للجيوش الألمانية بالتوقف عن التقدم مما كان له أثره في بدء تقهقر الألمان في الجبهة الغربية في نهاية الأربعين يوماً الأولى من الحرب وابتداء القتال في خطين من الخنادق بين حدود سويسرا وقنال المانش – راجع كتاب "أربعين يوماً من عام ١٩١٤" للميجر جنرال السير فردريك موريس وترجمة (المترجم) ص ١٥٧ - ١٩٢=

وقد قدم آنچلز بعد حقبة من السنين إبان الحرب البروسية / الفرنسية دليلًا آخر على قدرته الاستراتيچية في سلسلة من المقالات التي كتبها لمجلة «بال مال» اللندنية، وقد قدر في تحليلاته التفصيلية تغيير الاتجاه الفجائي للجيش البروسي في تقدمه من شالون نحو الحدود البلچيكية، وهكذا كان هو «المراقب» الأوروبي الوحيد الذي تنبأ بالاستراتيچية التي أدت إلى انتصار مولتكه الحاسم في سيدان.

وقد أشار في رسالته «ساڤوي، نيس، والرين» إلى عامل آخر في الاستراتيچية العسكرية لم يتم إدراكه وتفهمه حتى كانت الحرب العالمية الأولى ألا وهو: «الشبح المخيف» للحرب في جبهتين نتيجة للحلف الفرنسي/ الروسي، وقد قال مستنكرًا: «أليس للرين من عمل إلا أن يتسبب في إثارة الحرب كي تطلق يد الروسيا في الڤستيولا والدانوب؟!»، فلقد بقيت روسيا مثار التهديد الأساسي للحرية الأوروبية، وإن كان آنچلز قد بدأ يتحدث عن الأمل الذي كان عبثًا ينتظر تحقيقه ألا وهو: أن يوقف هذا الخطر بالحليف الجديد للثورة، أي بالطبقات المتحررة من الرق، وفي هذا يقول: «إن الصراع الذي يقوم الآن في روسيا بين الطبقات الحاكمة وبين سكان الريف وغيرهم من المحكومين يهدد من نظام وكيان السياسة الخارجية الروسية، لقد كان هذا النظام ممكنًا فقط طوال بقاء الروسيا بلا أي تطور سياسي داخلي، ولكن قد مضى هذا العصر وانتهى».

ومن جهة أخرى كان الأمر يتطلب بذل عناية أكبر بالنسبة لخطط نابليون الثالث، وقد درس آنچلز احتمالات الغزو الفرنسي لإنجلترا وإمكانيات

="طبع القاهرة ١٩٢٩" ونشرته مكتبة الخانجي.

الدفاع عن الجزر البريطانية، وقد نشر حديثه في هذا الشأن في جريدتين فنيتين للعلم العسكري هما:

The “Darmstadter Allgemaine Militar Zeitung”

The “Volunteer Journal of Lancashire and Cheshire”

نشر عددًا من المقالات تتحدث على التخصيص عن المتطوعين من حملة البنادق، وقد طبعت بعض هذه المقالات سنة ١٨٦١ في كتيب بعنوان «موضوعات موجهة إلى المتطوعين»، وبالرغم من تقدير آنچلز لحملة البنادق ونظامهم الأقل صلابة وعنفًا في التدريب فقد انتهى حديثه بأنهم لا يمكن أن يقفوا على قدم المساواة مع الجيش الفرنسي الجديد الذي يتزايد عدده والذي قال عنه «أنه أحسن تنظيم عسكري في أوروبا».

وكان أكبر حادث في التاريخ العسكري للسنوات التالية هو «الحرب الأهلية الأمريكية»، ***والواقع*** أن أغلب الثقات العسكريين الرسميين لم يظهروا أية رغبة في دراسة هذا الكفاح الطويل المرير حتى أن مولتكه قال عن هذه الحرب أنها لا تهمه، لأنه «لا يعنى بدراسة تحركات الغوغاء المسلحين»، ولكن على نقيض كل هؤلاء الثقات العسكريين اعتبر آنچلز أن الحرب الأهلية الأمريكية «مأساة لا مثيل لها في سجلات التاريخ العسكري»، لقد كانت حربًا ثورية ليس فقط في استخدامها الأول للخطوط الحديدية والسفن المدرعة على نطاق واسع في العمليات الحربية بل وأيضًا في دعايتها العالمية لتحريم الرق»، وفي مقدمة الطبعة الأولى لكتاب رأس المال» طبعة سنة ١٨٦٧ كتب ماركس: «وكما كانت حرب الاستقلال الأمريكية في القرن الثامن عشر صوت الناقوس للطبقة الوسطى الأوروبية،

فإن الحرب الأهلية الأمريكية تعتبر صوت الناقوس للطبقات العاملة في القرن التاسع عشر».

ومع أن عواطف آنجلز كانت في جانب الشماليين إلا أنه هلع لهذا التراخي في إدارتهم للقتال على نقيض ما بدا من حماسة الجنوبيين واهتمامهم الجدي بالقتال، وفي رسالة له إلى ماركس تاريخها الخامس من نوفمبر سنة ١٨٦٢ كتب يقول: «إنني لا أستطيع أن أتحمس لشعب له مثل هذا التعداد الكبير ومع هذا فإنه يسمح لنفسه أن يتحمل باستمرار الضربات التي يوجهها له شعب لا يزيد عن ربع تعداده»، وكان ماركس هو الذي حذره ـ محقًّا في تحذيره ـ من ألا يكون رأيه ويصدر حكمه في المسائل العسكرية قبل أن تتوافر له الدراية بكل الحقائق، وألا يصدر حكمه تبعًا لمشاهداته من جانب واحد، وقد استطاع آنجلز أن يقدر الضبط والربط الجيدين والروح المعنوية القوية التي توافرت للشماليين الذين دخلوا الحرب وأسهموا فيها «على غير رغبة منهم وفي تراخي» عندما أحيط بقوات «لي»(*) الذي كان

(*) "لي" Lee روبرت لي (١٨٠٧ – ١٨٧٠) ابن هنري لي الذي تولى القيادة في حكم واشنطون واستولى من الإنجليز على حصن بولوس هوك وتولى حكم ولاية فيرجينيا؛ وروبرت لي الإبن من أشهر القادة الأمريكيين الذين تعرفهم الدوائر العسكرية الأوروبية، ولد في ستراتفورد من أعمال فرجينيا تخرج في الكلية الحربية "ويست بوينت" وترقى بسرعة حتى تولى قيادة الكلية سنة ١٨٥٢، انضم عند اشتعال نيران الحرب الأهلية إلى الجنوبيين وعمل مستشاراً للرئيس ديفس ثم تولى الدفاع عن التحصينات الساحلية لسانت كارولينا وجورجيا، اشتهر بانتصاره على ماكليلان وبغزوه لميريلاند ولكنه هُزم في جيتيسبرج – تولى بعد انتهاء الحرب جامعة واشنطن حيث مات في ١٢ أكتوبر عام ١٨٧٠ وقد بقيت صداقته لجرانت على أساس أن كلا قد قام بواجبه تبعاً لوجهة نظره، وكان "لي" استراتيجياً من طراز ممتاز (المترجم) – E. Encycl. Vol ٨ pp. ٣٥٦ – ٣٥٧.

يعجب باستراتيجيته، وعندما استطاع «جرانت»(*) أن يفعل ما فعله نابليون من قبل فيخوض معركة أشبه بمعركة «يينا» وبذلك أسر كل جيش العدو.

ومع نهضة بروسيا تحت زعامة بسمارك اتجهت أفكار الزعيمين الثائرين مرة ثانية نحو مسارح القتال في أوروبا، وقد أثبتت الحرب الدانمركية القصيرة الأمد لآنجلز أن المشاة الألمان أفضل من المشاة الدانمركيين، «وأن الأسلحة النارية الألمانية من البنادق والمدافع أحسن مثيلاتها في العالم كله»، ومع هذا فإنه لبث يقدس «قوة الضرب» البروسية بأقل من قيمتها، وبلا شك أن آنجلز خطا في مقاله لجريدة المانشستر غداة معركة «سادوا» خطوات واسعة للتنبؤ بإمكان هزيمة ألمانيا في أي حرب يطول أمدها ويمكن انتظار أحكامها وقضائها.

وقد هاجم آنجلز خطة مولتكه للحملة وإن كان قد كتب في اليوم التالي يعترف بأن «الألمان برغم خطاياهم ضد قوانين الحرب العليا قد أحسنوا

(*) جرانت Grant الوسيس سمبسون (١٨٢٢ – ١٨٨٥) الرئيس الثامن عشر للولايات المتحدة الأمريكية سليل أسرة اسكتلندية نزلت سيشوت في القرن السابع عشر، تخرج من الكلية الحربية "ويست بوينت"، حضر حملة المكسيك، انضم للشماليين عند بدء الحرب الأهلية سنة ١٨٦١، فعين برتبة الليفتينانت كولونيل في وحدة من وحدات المشاة ولم يلبث أن أظهر كفاية لفتت إليه الأنظار فارتقى إلى رتبة البريجادير جنرال حيث قام بالهجوم العظيم سنة ١٨٦٣ على فيكسبورج وأرغم الجنوبيين على الاستسلام وأسر ٣١.٠٠٠ جندي وفي سنة ١٨٦٤ منح رتبة الليفتينانت جنرال وتولى قيادة جيش الولايات المتحدة، وكانت المعارك التي أدارها وهو في القيادة العامة من أعنف المعارك وأكثرها سفكاً للدماء ولكنها أدت إلى استسلام "لي" يوم ٩ أبريل سنة ١٨٦٥ بكل جيشه، وقد أنهى هذا الاستسلام الحرب الأهلية الأمريكية، وانتخب رئيساً للولايات المتحدة سنة ١٨٦٨ ثم أعيد انتخابه، مات سنة ١٨٨٥ بسرطان اللسان وكان في أواخر أيام حياته قد انصرف للكتابة ليكسب عيشه وعيش أسرته (المترجم) E. Encycl.

العمل»، وترجع في الواقع أخطاء آنچلز في التقدير ـ هذه الأخطاء التي أثارت الدهشة ـ إلى تقديره الخاطئ لقيمة الموقف الداخلي في بروسيا، وقد أخطأ آنچلز أيضًا في تقدير صراع الدستور المرير الذي قام بشأن إصلاحات الجيش في الحقبة السادسة من القرن التاسع عشر، كما أخطأ في تقديرها الكثيرون من الذين أسهموا في المقاومة الشعبية على أساس أنها ستسبب تقسيم الجيش وستكون فاتحة ثورة في بروسيا، ويقول عن هذا: «فإذا مرت هذه الفرصة دون الانتفاع بها واستخدامها فمن الضروري أن نحزم حقائبنا الثورية وأن نعود من جديد لدراسة النظريات»، ولا شك أن موقفًا ثوريًا آخر قد مر دون الانتفاع به، وكان آنچلز سريعًا في تفهمه لهذه الحقيقة في اليوم التالي لمعركة «سادوڤا».

والواقع أنه مع تقديره واحترامه للجيش البروسي فقد تقبل النتائج السياسية التي جاءت في أعقاب الانتصار العسكري الذي حصل عليه البروسيون، وقد كتب لماركس يقول: «إن الحقيقة البسيطة الواضحة ، هي أنه لدى البروسيين خمسة آلاف مدفع في الوقت الذي تملك كل دول العالم خمسمائة مدفع فقط، ولا يمكن أن يسلح جيش بالأسلحة التي تعمر من «ظرف الماسورة» قبل مرور سنتين وربما خمس سنوات، وإلى أن يتم هذا ستظل بروسيا في القمة، فهل تظن أن بسمارك لن يستخدم هذه الفرصة؟!، إنه بلا شك سيفعل».

وعلى حين كان الثائر الاجتماعي الكبير يرى الآن في بسمارك(*) رجلًا من

(*) بسمارك ... أوتو ادوارد ليبولد برنس ڤون بسمارك (١٨١٥ - ١٨٩٨) ولد سليل أسرة طيبة في براندنبرج وتعلم في مدرسة خاصة ببرلين ثم أكمل دراسته في جامعة جوتنجن، وعاد بعد سنة إلى برلين لتأدية الامتحان للالتحاق بالسلك السياسي، على أنه لم يلتحق=

البونابرتيين أخطر من نابليون الثالث وبينا أسف للوحدة الألمانية فإنه سار مندفعًا اندفاعًا موقوتًا مع المبادئ البروسية، بل قد اعترض بنفس القوة على الاتجاه غير الواقعي الذي بدا من جانب الزعماء الاشتراكيين أمثال ويلهلم ليبنيشت(*) لرفضهم النظر إلى الحقائق بدلًا من معارضتهم للظلال، وقد

=بالعمل لتوه رغم نجاحه في الامتحان بل قام بعدة رحلات وأسفار وانصرف إلى المطالعة العامة، وقد مكنته هذه الأسفار وهذه المطالعات الواسعة من أن تتوافر له دراية بالحياة العامة، وفي سنة ١٨٤٧ تزوج جوهانا ڤون بونكامر، وأسهم في السنوات الخمس التالية في سياسة بروسيا، وقد كان يُعارض الكثير من الرغبات الخاصة بتعديل الدستور، ويرى أن الحركات الثورية إنما تعمل لإضعاف مركز بروسيا كولاية ألمانية، وفي سنة ١٨٥١ عين ممثلاً لبروسيا في حكومة فرانكفورت، وعرف في مركزه هذا الكثير من اتجاهات السياسة الألمانية إلا أنه لم يكتسب أية آراء تحررية على ما ظن الكثيرون فقد بقي يؤمن بأن الحكومة الملكية أصلح لألمانيا من أي نظام آخر من نظم الحكم.

وعمل سفيراً لبروسيا في بطرسبرج في باريس واتصل فيها بنابليون الثالث، وفي سنة ١٨٥٢ استدعي إلى برلين ليتولى وزارة الخارجية الألمانية، ثم تولى رياسة الوزارة بعد ذلك وقد ظهرت قوة توجيه بسمارك للسياسة الألمانية في القضاء على الثورة البولندية وفي الاتحاد مع النمسا لهزيمة الدنيمارك ثم في الحصول على موافقة فرنسا وإيطاليا للقضاء على قوة النمسا في حرب سنة ١٨٦٦، ثم في التحول بعد خمس سنوات للقضاء على قوة فرنسا نفسها.

وفي سنة ١٨٩٠ عندما تولى غليوم الثاني العرش أعفاه من عمله ولكنه لم يلبث أن أعاده سنة ١٨٩٣، وقد اعتبر عيد ميلاده الثمانين في ١٨٩٥ عيداً قومياً. (المترجم) E. Encycl. Vol. ٦ pp. ٥١٣.

(*) ويلهلم ليبنشت (١٨٢٦ - ١٩٠٠) ديمقراطي ألماني ولد في جليسين سُجن سنة ١٨٤٨ لمساهمته في ثورة بادن، ولكنه فر من سجنه ورحل إلى سويسرة أولاً ثم إلى لندن حيث عمل في بعض الصحف الألمانية التي تصدر بها، واشترك مع ماركس وآنچلز، ثم عاد سنة ١٨٦٢ إلى ألمانيا، إلا أنه منع من دخول برلين وبروسيا بسبب حركاته الاشتراكية، وفي سنة ١٨٦٤ دخل برلمان شمال ألمانيا، واشترك مع "بيبيل" سنة ١٨٦٨ في تحرير مجلة كانت تهاجم بسمارك فسجن لسنتين بسبب هجومه العنيف، فلما أطلق سراحه فاز

جدد آنچلز الكفاح ضد طبقة «اليونكرز» البروسيين وضد الأسس والقواعد التي أوجدها النصر البروسي.

لقد بدأت الدراسة الجدلية لماركس وآنچلز تواجه الآن تجربة لها قيمتها، وقد تعلما من مدرسة منفاهما أن يريا التطورات الخاصة للطبقات والأمم داخل نطاق «نظرتهما الأوروبية الخالصة»، وأن يكشفا عن زعامتهما الثورية على أساس «الحال الموضوعية للتطور الاجتماعي»؛ وهكذا وصلا إلى المرحلة الثالثة من مراحل استراتيجيتهما العسكرية بأن اقتربا نحو «الحكومة الثورية».

***

بعضوية مجلس الريشتساغ، وبقي عضواً فيه لمدة خمس وعشرين سنة متواصلة، ثم=
=سجن سنة ١٨٩٥ لمدة خمس سنوات بتهمة (العيب في الذات الملكية) Lése-Majesté
وله مؤلفات عدة، وقد كتب "ايزنر" تاريخ حياته سنة ١٩٠٠ (المترجم) E. Encycl. Vol. ٨ pp. ٤٣٢.

[٤]

وقد بقيت استراتيچية الدولة الثورية كما قدرها ماركس بل وعلى الأخص كما رآها آنچلز غير كاملة الصورة بل جاءت في أجزاء متناثرة، فإن وضع ومكانة الحركة الاشتراكية بالنسبة لغيرها ـ هذه الحركة التي كانا لسانيها الداعيين لها المدافعين عنها ـ لم ييسر لهما التكوين المادي الكامل لآرائهما، بل وبخاصة لم ييسر لهما التطبيق العملي لها بوضع نظام اشتراكي كامل.

على أننا قد نستطيع القول بأن أشياء أخرى كانت تعطل من هذا، فقد أبدت حتى زعامة الأحزاب الاشتراكية في ذلك الوقت تحفظًا محدودًا إن لم نقل معارضة لآراء آنچلز. ومع هذا فإن توجيهات سياسته قد بدأت تتضح في تلك المرحلة متوجة دراسة طويلة الأمد للاستراتيچية العسكرية ومقررة شكل أو صورة التطورات المقبلة للديمقراطية الراديكالية في أوروبا.

وقد كانت قاعدة سياسة آنچلز العسكرية الإيجابية هي عقيدته في الجيش الديمقراطي، أي الأمة المسلحة، وفي إيمانه بالإدراك التقدمي لهذه العقيدة، ولا شك أن آنچلز قد أوضح هذه العقيدة في الكتيب الذي كتبه عن «المسألة العسكرية والطبقة العاملة الألمانية» سنة ١٨٦٥ ، وكانت هي المبدأ الموجه طوال الثلاثين السنة التالية.

وقد كتبت الدراسة الخاصة بالمسألة العسكرية البروسية والتي نشرت في أوج الكفاح الدستوري بين الطبقة الحاكمة الإقطاعية والبرجوازية المتحررة

الناهضة كدراسة أولية(*) لأعضاء حزب العمال، وكانت نصيحة آنچلز للطبقة الفقيرة التي تقاتل من أجل تحررها السياسي أن تعاون البرجوازية ضد قوى الرجعية والتي كانت تتشكل في صورتها الجديدة في الطابع البونابرتي محرمة كل قوة سياسية من العمال والرأسماليين على السواء.

على أن الذي أعطى هذه الدراسة أهميتها الخاصة ليس التقدير العنيف الماكر لمناحي قوة وضعف مقاومة الطبقة الوسطى، ولا هو أيضًا دقة وإحكام عرض التفاصيل الفنية لتاريخ تنظيم الجيش البروسي منذ الحروب النابوليونية، بل ترجع أهميتها إلى معاونتها الواقعية للإصلاحات المطلوبة للجيش بالنسبة لتزايد سكان بروسيا وثروتها وبخاصة مقارنتها في هذا بالإمكانيات المتوافرة لجاراتها، ***والواقع*** أن هجمات آنچلز قد وجهت في غالبيتها ضد البرجوازية التي كانت قد فقدت نفعها الاستراتيچي وفشلت في أن تكسب الجيش في هذه السنوات الحرجة، وقد اعتبر آنچلز أن هذا الفشل إنما هو مسئولية عدم نشاط التطور الديمقراطي في ألمانيا بعد سنة ١٨٧٠ ، وكان تطور الجيش في تقديره وحكمه جزءًا داخليًّا من النمو الاجتماعي.

وفي الدراسات المبكرة ـ مثل المقالات التي كتبت لدائرة المعارف الأمريكية الجديدة التي قام بتحريرها «چورچ ريبلي» و «ا. دانا» طبع نيويورك (١٨٦٠ ـ ١٨٦٢) ـ أكد ماركس وآنچلز القواعد الاجتماعية والظروف السابقة للتنظيم العسكري في الماضي والحاضر.

وقد تحقق الرجلان إذ ذاك أن الجيش نفسه يمكن أن يستخدم كهيئة

(*) وردت في الأصل الإنجليزي Primer ، وتعني "كتاب مبادئ القراءة" بالمعنى الحرفي. وترجمت هنا بالدراسة الأولية. (المترجم)

اجتماعية من الطراز الأول، كما يمكن أن يكون الجيش السبيل الأساسي لإيجاد مجتمع ديمقراطي، والوسيلة لهذا سهلة ميسورة وتتبع الاتجاهات التاريخية التي أوجدتها الثورة الفرنسية، ولقد شق تحرر البرجوازيين والفلاحين الطريق لتكوين جيش حديث من جمهرة الشعب، وكان التطبيق المستمر للتجنيد العام الذي يضمن تكون الجيش القوي الصالح للدفاع عن الأمة ضد «العالم الخارجي»، على أن يتغلغل الأمر إلى داخلية القوات المسلحة فيحول منها إلى جيش للشعب تبعًا «لثقل» وزيادة عدد أفراد الطبقات «الفقيرة» المنضمة إليه.

وكان من حق آنجلز أن يذكر بالفخر في سنة ١٨٩١ «أنه على نقيض المظهر الذي للخدمة العسكرية الإجبارية فإنها كهيئة ديمقراطية لها الأفضلية وتتوافر لها عوامل التفوق على كل الصور الأخرى للتحرر من القيود وبخاصة تلك التي تجيء عن طريق المنح من الحكومات؛ إن القوة الحقيقية للديمقراطية الاجتماعية الألمانية لا تستند إلى عدد الناخبين بقدر ما تستند إلى عدد الجنود، والناخب لا يستطيع مزاولة حق الانتخاب إلا عندما يصل إلى سن الخامسة والعشرين في حين أن الجندي تبدأ له مكانته في المجتمع عندما يصل إلى سن العشرين، ***والواقع*** أن من الشباب قبل أية مجموعة أخرى من الأمة يجند الحزب أتباعه، وفي سنة ١٩٠٠ سيكون الجيش ـ الذي كان يومًا ما أكثر بروسية! وأكثر العوامل رجعية في البلاد ـ سيكون اشتراكيًّا في غالبيته، ولن يمكن تجنب هذا كما لا يستطيع الفرد الفكاك مما قدر له من جد».

ومن الواضح أن آنجلز قد أخطأ في تقدير العوامل الداخلية للنظريات والمبادئ الراسخة في البلاد؛ ولم يقل عن هذا أيضًا خطوة في تقدير سرعة

سير التطورات التاريخية العظيمة وتحولها من حال إلى أخرى، ومع هذا فإن وجهات نظره هذه كانت جزءًا من اعتقاده المتفائل في التأثير المزدوج النهائي للديمقراطية والاشتراكية.

على أن مثل هذا الاعتقاد من آنجلز بصحة ما يراه لم يوجهه توجيهًا خاطئًا في قلة تقدير الاحتياجات العسكرية لذلك العصر وبخاصة في ضوء التهديد المستمر بحرب عالمية لا مثيل لها في العنف؛ وكان القرار النهائي في مثل هذه الحروب الأوروبية العامة في يد آنجلز تبعًا لأنها تستطيع فرض الحصار البحري على ألمانيا أو فرنسا وبذلك ترغم أيًّا من الاثنين على الخضوع والاستسلام، وقد كتب إلى «ببل»(*) في أكتوبر سنة ١٨٩١ : «ولا نستطيع أن نطلب وجوب التغيير الكامل للنظام العسكري الحالي في الوقت الذي ما زال فيه خطر الحرب قائمًا»؛ وفي سلسلة المقالات التي وسمت بعنوان «هل يمكن أن ينزع سلاح أوروبا؟» والتي كتبها سنة ١٨٩٣، اقترح كوسيلة لمنع الحرب أن تخفض مدة الخدمة العسكرية تدريجيًّا وأن يكون هذا باتفاق دولي، وأن تكون هذه الخدمة في البداية لمدة سنتين فقط».

(*) فرديناند أوجست ببل (١٨٤٠ – ١٩١٣) اشتراكي ألماني تولى رياسة الحزب الاشتراكي الديمقراطي، ولد في كولون وعمل في ليبزج، انضم إلى اتحاد العمال سنة ١٨٦٣ وانتخب سنة ١٨٦٧ لعضوية برلمان شمال ألمانيا ثم لعضوية الريشستاغ سنة ١٨٧١ وكان العضو الاشتراكي الوحيد به وظل مُتمتعاً بعضويته حتى وفاته.

وقد عارض حرب عام ١٨٧٠ ضد فرنسا فسجن سنة ١٨٧٢ بتهمة الخيانة العظمى، وقد كون الحزب الاشتراكي بمعاونة ليبنيشت، وقد مكنته قوة عارضته الخطابية أن تكون له مكانة ممتازة في الحزب وكان من بين الذين اعتنقوا مذهب ماركس وله مؤلفات عدة أهمها: Charles Fourier ١٨٩٠., Die Frau und der Socialismus ١٨٨٣.

E. Encycl. Vol. ٢ pp. ١٧١.

ومع أن آنچلز كان يعمل تبعًا لمعتقداته الأساسية التي يؤمن بصحتها إلا أنه قال في تعقيبه على حديثه عن نزع سلاح أوروبا: «إنني أقبل ما تقبله أية حكومة قائمة من مقترحات على شريطة ألا تعرض أمنها وسلامتها للخطر»؛ ومع اعتباره أن «نظرية الميليشيا» تصلح كغرض نهائي فقد تعجل أن يقول ماركس: «إن المجتمع الاشتراكي وحده هو المجتمع الذي يستطيع أن يصل حقيقة إلى ما يقرب من نظرية الميليشيا تمامًا، وحتى مثل هذا الاقتراب لا يمكن أن يكون تامًّا»(*).

وسواء أكانت آخر تطورات آنچلز تتعارض مع سياسته الثورية في فجر حياته أم لا، فإن هذا الأمر يتطلب حقًّا المناقشة الطويلة. ولكن ما من شك أن «الاشتراكية المتطورة» و «الاشتراكية الثورية» توأمان يمكن أن يتسبا إليه.

وكان هذا التعارض لا معنى له بالنسبة لآنچلز، وهو كجندي وكمقاتل لم يكن ليقنع بالإصلاحات البطيئة المملة، وفي ذات الوقت فإن الاستراتيجي الاشتراكي العظيم كان أوفر ذكاء من ألا يدرك أن كل قتال إنما يستند تمامًا إلى السلاح المستخدم، وأن كل شعب وكل عصر يتطلب وسيلة مختلفة تباين ما يتطلبه شعب آخر أو عصر آخر.

وقدم آنچلز في أخريات أيامه دليلًا على مثل هذه التغييرات الضرورية في الاستراتيچية الثورية، وجاء هذا الدليل في مقدمته لكتيبه «صراع الطبقات في فرنسا ١٨٤٨ ـ ١٨٥٠» عند إعادة طبعه في لندن سنة ١٨٩٥ ، والذي

(*) في الأصل الإنجليزي Asymptotic ، وتعني في المعنى الحرفي النظرية القائلة بأن الخط المستقيم يقترب جداً من القوس المنحني المرسوم أسفله ولكنه لا يُقابله قط. مُعجم ويبستر ص ٩١.

نشر سنة ١٩٢٢ في نيويورك بعنوان «القانون الثوري»، وقال آنجلز في هذه المقدمة: «إن أساليب القتال في سنة ١٨٤٨ لم تعد تصلح للقتال اليوم بأية حال، لقد ذهب عصر المتاريس التي كانت تستخدمها الثورات في أركان الطرق».

والواقع أن آنجلز كان محقًّا في الإشارة إلى أنه «حتى في أثناء العصر الكلاسيكي لمعارك الشوارع كان للمتاريس تأثير معنوي أكثر من أن يكون التأثير ماديًّا»، فإنها إذا بقيت حتى تهز من الثقة التي في نفوس أفراد القوات العسكرية أمكن اكتساب النصر وإلا كان معناها الهزيمة، وحتى في سنة ١٨٤٩ كانت فرص النجاح قليلة، «فقد فقدت المتاريس ما لها من رواء ولم يعد كجندي يرى وراءها أناسًا بل ثوارًا، وقد أضحى الضابط ـ مع الوقت ـ خبيرًا بتكتيكات وصور معارك الشوارع، ولم يعد يسير في خطوط مستقيمة وبلا ساتر نحو هذه الدفاعات، بل أضحى يعمل لتطويقها مارًّا بالحدائق والأفنية والدور».

ومنذ ذلك الوقت تغيرت أشياء كثيرة كلها في جانب القوات العسكرية، وبقي أسوأ ما في الأمر وحده هو الذي في جانب الثوار الذين يقفون وراء المتاريس، إن الأحياء الجديدة والتي شيدت في كل المدن الكبيرة منذ سنة ١٨٤٨ قد خطت في طرقات طويلة مستقيمة وواسعة وكأنها قد أعدت خصيصًا للاستخدام المؤثر للمدافع والبنادق الجديدة[1]، فيجب ألا تتوقع الطبقات الحاكمة أن يتخير الثوار هذه الأحياء الجديدة لمعركة «متاريس»

(١) لاحظ الفرق الكبير في بناء أحياء الطبقات العاملة التي أُنشئت في ڤيينا أيام الجمهورية، والظاهرة الاستراتيچية التي لهذه الأبنية المتراصة في مربعات والتي جعلتها أشبه بالقلاع ثم تأثير هذا في حوادث سنة ١٩٣٤.

ولا «أن يطلبوا من أعدائهم في الحرب القادمة أن يواجهوهم في التشكيل الخطي الذي أوجده فردريك الثاني أو في تشكيلات القول للفرقة كما حدث في واجرام ووترلو. لقد انتهى الوقت الذي كان يمكن فيه قيام الثورات عن طريق أقلية صغيرة تسير في مقدمة الجماهير، وعندما يصل الأمر إلى التغير الكامل للتنظيم الاجتماعي فإن الجماهير نفسها يجب أن تسهم في هذا التغيير والانتقال، وأن تفهم الكثير مما علمنا التاريخ في الخمسين سنة الأخيرة».

وكان طابع ذلك العصر محاولة الدولة القيام بعملية غزو قانونية، ولم تكن هناك غير وسيلة واحدة يمكن بها وقف النمو المطرد للقوى الاشتراكية؛ تلك هي الاصطدام بها على نطاق واسع بواسطة القوات العسكرية، فتسفك الدماء بغزارة كما حدث في حكومة باريس الثورية(*) عام ١٨٧١ والتي عاشت لفترة قصيرة جدًّا.

وقد امتدحت هذه المحاولة الأولى «لجمهورية اشتراكية» في كل الكتابات التي قدمت الدروس العظيمة للثوار في حقب السنين التي تلت هذا، وقد حللها ماركس بعناية في دراسته «الحرب الأهلية في فرنسا ـ ١٨٧١»، ولا شك أن آراء «لينين» قد تأثرت كثيرًا بهذا الحادث، وقد كان تأثيرها واضحًا في التطورات الأولية للنظام السوفيتي، ومع هذا فإن المجتمع الشيوعي لم يقترح شيئًا له قيمة في الاستراتيجية العسكرية للثورات الاجتماعية،

(*) "Paris Commune" وتُطلق هذه التسمية على:
١ – الحكومة الثورية في باريس ١٧٩٢ – ١٧٩٤.
٢ – الحكومة الثورية التي أنشئت في باريس في ١٨ مارس ١٨٧١ عند انتهاء الحرب الفرنسية – البروسية، وقد قضت عليها حكومة فرساي في ٢٨ مايو ١٨٧١. (المترجم) "معجم ويبستر ص ٢٩٦".

والواقع أن تجديد تشكيل حكومة ثورية وإن كان يحمل في أعطافه التهديد بانقلاب فجائي ضد قوى الرجعية إلا أنه لم يكن بين الآراء التي عرض لبحثها الاستراتيجي الكبير آنجلز، بل إنه في هذه المرحلة الأخيرة من حياته الثورية رأى انتصار الاشتراكية عن طريق «النظرية الديمقراطية للتصويت والانتخاب» وعن طريق «الحصول على حقوق المواطنين»، كما رأى انتصار الديمقراطية نفسها عن طريق الخدمة العسكرية العامة.

لقد كانت «الأمة المسلحة» هي «النموذج المثالي» في تقدير آنجلز كاستراتيجي عسكري؛ وقد رأى آنجلز أن استهداف تدمير الروح العسكرية في المجتمع القائم إذ ذاك يعتبر فكرة غير هامة يسهل تفتتها والقضاء عليها.

وقد ظهر له بدلًا من هذا أن اقتلاع التقاليد الإقطاعية وإيقاظ الاتجاهات الديمقراطية في الخدمة العسكرية الإجبارية العامة يعتبر هو السياسة الوحيدة التي يمكن بها أن تتوافر الآمال التي يهدف لإدراكها؛ وكان أتباعه في القرن العشرين كثيرين، ووصل تأثيره إلى ما وراء صفوف الحزب بكثير.

لقد كان لمبدأ «الأمة المسلحة» أثره الكبير في روسيا السوفييتية، وقد تحول ليكون المبدأ الحاكم الموجه للديمقراطيات العسكرية في الحرب العالمية الثانية، ولا شك أن آنجلز كان يتفق مع واحد من أبرز خلفائه هو الاشتراكي چان چوريس[1] الذي قال في كتابه «الجيش الجديد»:

(١) چان ليون چوريس (١٨٥٩ - ١٩١٤) زعيم اشتراكي فرنسي وكاتب كبير، تولى سنة ١٨٨٣ منصب الأستاذية لتدريس الفلسفة في جامعة تولوز، ولكنه استقال بعد سنتين عند اختياره عضواً في الجمعية الوطنية، احتضن قضية العمال في إضرابات عمال الفحم والزجاج بمدينة "كارمو" وقد لفتت وقفته هذه الأنظار إليه مما جعله يتولى زعامة=

«...وستكون الحكومات أقل تأهبًا لتحلم بالسياسة المخاطرة فيما إذا كانت تعبئة الجيش هي تعبئة الأمة نفسها، فإذا ما هوجمت أمة راغبة في السلام بواسطة حكومات مخاطرة تعمل للحصول على كسب كبير، أو لأنها تحاول التخلص من مشاكلها وصعابها المدنية فإننا في هذه الحال نشاهد حقيقة حربًا أهلية؛ إن «الأمة المسلحة» تمثل أصلح وأحسن نظام للدفاع الوطني في أكمل صوره، وإن «الأمة المسلحة» هي بالضرورة أمة تدفعها العدالة، ولهذا فإن هذا المبدأ سيجيء إلى أوروبا بعصر جديد، إنه سيجيء بالآمال في العدالة والسلام».

***

=الاشتراكيين في المجلس الوطني سنة ١٨٩٣، وفي سنة ١٩٠٢ عندما أثارت قضية دريفوس ضجة كان له دور كبير فيها، له عدة مؤلفات أهمها "التاريخ الاشتراكي، ١٧٨٩ – ١٩٠٠" الذي طبع سنة ١٩٠١، وفي يوم ١٦ يوليو ١٩١٤ اقترح الاشتراك في المؤتمر الذي عقد في باريس للقيام بإضراب عام لمنع الحرب العالمية الأولى فاغتيل بسبب هذا بأن أطلق عليه مجهول الرصاص في شارع دي كرواسا يوم ٣١ يوليو (المترجم) "مُعجم ويبستر ص ٧٨٤" E. Encycl. Vol ٧ pp. ٧٣٥.

مراجع الفصل السابع

آنجلز وماركس

– Karl Marx-Friedrich Engels, Historisch Kritische Gesamtausgabe, "Moscow, ١٩٢٧ _ ١٩٣٥".

– Karl Marx and Friedrich Engels: Correspondence ١٨٤٦ _ ١٨٩٥ "New York, ١٩٣٤"

– Franz Mehring,: Aus dem Literarischen Nachlass von Karl Marx Friedrich Engels and Ferdinand Lasalle "٢nd., ed., Stuttgart ١٩١٣".

– D. Ryazanov, Gesammelte Schriften von Karl Marx and Friedrich Engels ١٨٥٢ bis ١٨٦٢, ٢ Vols ."٢nd. ed., Stuttgart ١٩٢٠"

– Emil Burns, A Handbook of Marxism "New York, International Publishers, ١٩٣٥"

– V. Adoratsky, Karl Marx: Selected Works, ٢ Vols ."Moscow, ١٩٣٥".

– Gustav Mayer, Friedrich Engels, eine Biographie, ٢ Vols ."Haag, ١٩٣٤"

– Gustav Mayer, Friedrich Engels, eine Biography ."London ١٩٣٦".

– D. Ryazanov, Karl Marx and Friedrich Engels ."New York, ١٩٢٧".

– Franz Mehring, Karl Marx, Geschichte seines Lebens ."Leipzig, ١٩١٨".

– Edward Fitzgrald, Karl Marx: the Story of his Life ."New York, ١٩٣٥"

– Hans Rothfels ،"Marxismus und Auswartige Polotik", Meinecke Festschrift: Deutscher Staat und Deutsche Parteien ." Munich, ١٩٢٢".

– Oskar Blum, "Die Weltpolitischen Lehrjahre von Marx und Engels" Archiv fur Sozialwissenschaft und Sozialpolitik, XLIV (١٩١٧–١٩١٨), ٥٣٠–٥٦٦.

– Hertneck, Die deutsche Sozialdemokratie und die orientalische Frage im Zeitalte: Bismarcks ."Diss, Berlin, ١٩٢٧,".

– August happich, Friedrich Engels als Soldat der Revolution, "Hessische Beitrage zur staat und Wirtschaftskunden ١٩٣١".

– Ernest Drahn, Friedrich Engels als Kriegswissenschaftler) Kultur und Fortschrift, Nos .(٥٢٤–٥٢٥).

– Max Schippel, "Friedrich Engels als Militar politischer Fuhrer" Sozialistische Monatschefte, XXI (١٩١٢) ١٢٢٢–١٢٢٧.

– Max Schippel, "Die Miliz und Friedrich Engels" Sozialistische Monatschefte XX (١٩١٤) ٢٠–٢٧.

– Hugo Schulz, "Der General", Der Kampf XVIII, ٣٥٢–٣٥٧ ."Vienna, ١٩٢٥".

الفصل الثامن

مولتكه وشيلفن: المدرسة البروسية ـ الألمانية

هاجو هولبرن

تباعدت بروسيا عن الاشتراك الإيجابي في الحروب الأوروبية لنصف قرن كامل من الزمان بعد صلح «ڤيينا»، وعندما كان الجيش البروسي أكبر قوة في قارة أوروبا في عام ١٨٦٠ كانت قد مرت بهذا الجيش حقبتان من السنين بغير تجربة عملية في الحرب وإن كان قد قام ببعض الحملات غير البارزة في أثناء ثورة ١٨٤٨ / ١٨٤٩، كما أنه عبئ أكثر من مرة على التوالي بين عام ١٨٣٠ وعام ١٨٥٩ كلما توقع صراعًا لم يتم، وفي الوقت نفسه كانت الجيوش الروسية والنمساوية والفرنسية والإنجليزية تقاتل في حروب متتالية، على أن الأفضلية التي توافرت للجيش البروسي في الحلقة السادسة من القرن التاسع عشر إنما كانت بسبب تنظيمه وتدريبه في وقت السلم، ثم بسبب الدراسة النظرية للحرب، هذه الدراسة التي وصلت إلى الكمال في نصف القرن الذي سبق «سادوڤا» و«سيدان».

ويرجع وجود الجيش البروسي للقرن التاسع عشر إلى أربعة رجال هم: فردريك الأكبر، نابليون، شارنهورست، ثم چينيسناو.

وقد خلف فردريك وراءه ذكريات مجيدة لانتصارات باهرة هي من أهم الضروريات ليفخر بها الجيش ولتوطد في أفراده جملة الثقة بأنفسهم، وبالإضافة إلى هذا فقد غرس فردريك في خلفائه العسكريين المعرفة بأنه

حتى في فترات السلم يجب أن ينصرف الجيش كله إلى العمل العنيف الشاق المتواصل، وأن المعارك إنما تكسب أولًا في أرض التدريب؛ ومما لا شك فيه أنه كان في الجيش البروسي تقدير يزيد عن الحد لدقائق الحياة العسكرية حتى ما بدا منها تافهًا هين القيمة، الأمر الذي عدلت من توازنه أصلًا العبقرية الاستراتيجية للملك.

والواقع أن فردريك لم يدرب جيلًا من الاستراتيجيين الشبان، بل كان غازيًا أجنبيًّا هو الذي ذكَّر البروسيين بالدور الذي تلعبه الاستراتيجية في صناعة الحرب، وكان ضابطان في فجر العمر ليسا ألمانيي المولد هما اللذان كوَّنا الجيش البروسي، وقد فعلا هذا ـ إلى حد بعيد ـ على أساس الطابع الفرنسي الحديث؛ وبذلك كان نابليون هو ثاني الرجلين اللذين أوجدا الجيش البروسي، ثم بعد معركة يينا، كيَّف شارنهورست وچنيسناو الجيش البروسي طبقًا للطابع الجديد للحرب.

وقد عرف المصلحان العسكريان البروسيان أن أساليب الحرب الحديثة إنما هي إيضاح للتطورات الاجتماعية والسياسية العميقة الأثر والتي جاءت بها الثورة الفرنسية؛ كان جيش فردريك الأكبر قوة من المأجورين ينعزل أفرادها تمامًا عن المجتمع المدني الأهلي، وكان الضباط الذين هم أصلًا من طبقة الأشراف وحدهم الذين يعرفون الشرف والولاء، على حين كان باقي أفراد الجيش والذين هم في صفوف الجند لا يعيشون متماسكين معًا إلا بالضبط والربط العنيف.

وقد تولى المصلحان العسكريان البروسيان تحويل جيش عصر الطغيان

والأوتوقراطية(*) إلى جيش قومي أهلي، ولتحقيق هذا أدخلا نظام التجنيد الإجباري في طابع أكثر تحولًا نحو التغير الاجتماعي من أية محاولات سابقة؛ وقد عطلت معاهدة تيليست(**) التي فرضها نابليون على بروسيا من التفهم المباشر لآراء شارنهورست، ولكن مشروع القانون العسكري البروسي لعام ١٨١٤ والذي وضعه تلميذه «بوين» Boyen جعل تخطيط شارنهورست هو الصورة الدائمة للنظام العسكري البروسي.

وكان التجنيد قد بات القاعدة العامة على التخصيص بالنسبة لكل الدول التي في قارة أوروبا، ولكن كان التجنيد في هذه الدول كلها عدا بروسيا وقفًا على الفقراء، فقد سمح لمن يملك مالًا أن يدفع «نقدًا» بدلًا من خدمة الجندية أو أن يقدم بديلًا عنه لخدمة الجندية، ولكن كان الأمر على نقيض هذا في بروسيا فقد أسهمت كل طبقات الشعب في خدمة الجندية، فكان جيش بروسيا جيشًا له الطابع القومي أكثر مما لأي جيش آخر في أوروبا؛ ومن سوء الجد أن البروسيين ليسوا مواطنين ديمقراطيين

(*) في الأصل "Despotism"، وتعني الحكم أو الحكومة التي تتولاها Despot أي طبقة خاصة من الحكام كما كانت الحال بالنسبة للأباطرة البيزانطيين الذين كانوا أساقفة في الكنيسة اليونانية القديمة. (المترجم) "مُعجم ويبستر صفحة ٣٩٨".

(**) تيليست مدينة على نهر ممل يسكنها ٥٧٠٠٠ نسمة كانت في بروسيا الشرقية وتقع في غرب روسيا السوفيتية الآن؛ وصلح تيليست هو الصلح الذي تم سنة ١٨٠٧ بين فرنسا من جانب والروسيا وبروسيا من الجانب الآخر، بعد هزيمة الروس في فريالاند، وقد وجد نابليون أن من صالحه أن يُعامل الروسيا برفق فأطلق يدها في السويد وتركيا على أساس أن تظل في داخل النظام الذي أوجده لقارة أوروبا، أما بروسيا فقد فقدت ممتلكاتها غرب الألب كما فقدت ما استولت عليه من بولندة في تقسيم ١٧٩٣ – ١٧٩٥، وكما فرض عليها غرامة مالية كبيرة وخفض جيشها العامل إلى ٤٢٠٠٠ جندي. (المترجم)

فقد ظلوا رعايا لنظام دكتاتوري مطلق الحكم، كما أنه كان لأشراف الأقاليم البروسيين مكان ملحوظ في الجيش وأعمال الحكومة، وبقيت طبقة اليونكرز(*) تحتكر وظائف الضباط في الجيش، وأضحت الخدمة الأهلية والتي كانت الطابع المنطقي ومظهر الفكر المتحرر في أمريكا وفرنسا، أضحت في بروسيا عاملًا لدعم قوة الدولة المطلقة الحكم.

وضاع حلم المصلحيْن العسكريين البروسيين اللذين أملا في إيجاد جيش للمواطنين في غمرة الأعمال السياسية المضادة بعد سنة ١٨١٥، كان كل ما خلفاه وراءهما من معرفة استراتيچية وتكتيكية قد حظي من الناحية العملية بدرجة كبيرة من التقدم وإن كانت المدرسة القديمة نفسها قد حصلت على بعض النجاح؛ وقد حاول قانون خدمة الميدان البروسي لسنة ١٨٤٧ أن يعيد إلى الحياة التكتيكات الفردريكية التي كانت أوامر شارنهورست لسنة ١٨١٢ قد استبعدتها؛ فإن آراء شارنهورست وچينيسناو الاستراتيچية لم تغفل تمامًا في الجيش البروسي.

والواقع أن هذين الضابطين اللذين جاءا من أسرتين هانوڤيرية ونمساوية كانا وحدهما، من بين كل الذين عاشوا في عصر نابليون، اللذين يمكن أن يقال عنهما أنهما كانا في ذات مرتبة نابليون في صناعة الجندية وفن الحرب. وقد حالت وفاة شارنهورست المبكرة والتي حدثت في صيف سنة

(*) "اليونكرز" اصطلاح يُستخدم للتعريف بأفراد طبقة ملاك الأراضي في بروسيا وشمال ألمانيا عامة وقد بقي لهذه الطبقة نفوذها القوي في الحياة العسكرية في ألمانيا حتى ثورة عام ١٩١٨، واستخدم هذا الاصطلاح أيضاً للتعريف بكبار رجال التجارة في مدينة دانزنج الميناء الحر بعد الحرب العالمية الأولى وأحد أسباب الحرب العالمية الثانية، وقد استخدمت الكلمة الإنجليزية في عصر الياصابات للتعريف بالرجل الشجاع ذي المروءة. (المترجم)

١٨١٣ دون توليه القيادة العليا في الميدان، على أن رياسة چينيسناو لهيئة أركان الحرب البروسية من ختام سنة ١٨١٣ إلى صيف سنة ١٨١٥ قد أثبتت أن المدرسة البروسية الجديدة للفكر العسكري لا يمكن فقط أن توجد فلسفة جديدة بل وأن تخرِّج أناسًا يستطيعون أن يضعوا نظرياتهم في الأسلوب العملي التطبيقي.

وقد حدث نقاش طويل لتقدير أي الرجلين كان هو القائد الأكبر أو الأعظم، وقد أعطى كلاوزيڤيتز ـ والذي كان صديقًا وتلميذًا للاثنين ـ تاج الإمارة لشارنهورست بسبب امتزاج عقليته الناضجة المفكرة بالتعمق ودقة العمل؛ ولكن شليڤن يقرر أن چينيسناو هو أقدر الاثنين وأعظمهما بسبب ما توافر له من عمق التفهم ودقة الحكم مع العزيمة في ميدان القتال، ومع هذا فإنه من وجهة النظر التاريخية قد يكون من الأهمية بمكان أن نذكر بأن كلا الضابطين سواء شارنهورست الهادئ الطبع أو چينيسناو الكريم السريع التفكير والعمل إنما يمثلان طابعًا جديدًا للقادة، فقد ولد كل من الرجلين قائدًا للرجال وربما كان أولهما أقدر على إعدادهم للحرب وثانيهما أقدر على توجيههم في ميدان القتال، ولكن كلا الرجلين اللذين ولدا في ألمانيا في العصر الفلسفي ـ العصر الذي جاء فيه «كانط» و «جوته» ـ قد آمن بأن التفكير يمكن أن يعير العمل التنفيذي الأجنحة التي تمكنه من الانطلاق.

لقد وثبت الاستراتيچية البروسية الجديدة من التفهم الأصيل لفن نابليون، وبدت كتابات چوميني لكل طلاب القرن التاسع عشر الذين درسوا الحرب قبل سادوڤا وسيدان على أنها المرجع الوحيد والأخير لاستراتيچية نابليون؛ ألم يقل نابليون نفسه أن هذا الرجل السويسري قد كشف عن أعمق أسرار استراتيچيته؟! وبالرغم من أن نابليون كان يمتدح

چوميني إلا أنه قد أشار بأن چوميني قدم فقط المبادئ الأساسية تاركًا السبيل لعبقرية الفرد لتعمل تبعًا لما يتوافر له من مقدرة وكفاية(١).

ولم تتوافر لمنطق چوميني الكفاية ليقدر في عدالة الهبة والدوافع الغريزية التي كانت هي القوة الخفية المحركة لأعمال نابليون، أن الشروح والتفاسير التي جاء بها شارنهورست لاستراتيچية نابليون والتي وجهت چينيسناو في إدارته لعمليات ١٨١٣ ـ ١٨١٥ قامت على أساس طريقة تاريخية استدلالية جعلت مرجع الأمر كله إلى تصوير القائد والنشاط المعنوي لجنوده، وقد وجدت هذه الفلسفة الجديدة المتسع في كتاب كلاوزيڤيتز «فن الحرب» الذي يمكن من أن توضح في إفاضة وفي أسلوب جيد.

وقد وضعت المدرسة البروسية الجديدة للاستراتيچية عمدها في داخل هيئة أركان الحرب البروسية التي كانت عصب الجيش ورأسه المفكر، على أن تكوين هيئة أركان الحرب البروسية يرجع في الواقع إلى حقبة من السنين قبل عام ١٨٠٦، وإن كانت لم تصل إلى مكانتها البارزة البراقة قبل عهد شارنهورست، فلما أن أعاد شارنهورست تنظيم وزارة الحرب في عام ١٨٠٦ أوجد إدارة خاصة وكّل إليها التخطيط لتنظيم الجيش وتعبئته في وقت الحرب، على أن تتولى هذه الإدارة أيضًا في وقت السلم كل ما يختص بالتعليم والتدريب في الجيش.

«ولم تقف مسئوليات هذه الإدارة عند هذا الحد»، فقد جاء أيضًا تحت إشرافها كل ما يختص بالإعداد للعمليات الحربية من أعمال المخابرات والمساحة العسكرية، وكذلك كل ما يختص بالإعداد والتوجيه في «التكتيك»

(١) General Baron Gourgaud, Sainte Hélène, Journal inédit, ١٨١٥ à ١٨١٨ (Paris, ١٨٩٩), II, ٢٠.

و«الاستراتيچية».

وقد احتفظ شارنهورست لنفسه كوزير للحربية برياسة هذه الإدارة، وبذلك كان تأثيره كبيرًا في التفكير التكتيكي والاستراتيچي للضباط الذين يعملون بهذه الإدارة؛ لأنه كان هو الذي يتولى تدريبهم في مباريات الحرب ومناورات أركان الحرب.

ولما أصبح عادة أن يعين هؤلاء الضباط في مراكز أركان الحرب لمختلف وحدات الجيش فقد امتدت سيطرة رئيس هيئة أركان الحرب بواسطتهم على كل القادة، وكان الضباط الشبان الذين يرتدون السراويل القرمزية هم الرسل الذين ينقلون التوجيه الاستراتيچي إلى كل أقسام الجيش.

وفي إدارة شارنهورست كانت هيئة أركان الحرب قسمًا من وزارة الحرب «وزارة الحربية»، وكان من الضروري أن يظل الأمر كذلك لو كانت ألمانيا قد عرفت الحكم النيابي، ولكن تنظيم الحكومة البروسية على أساس الحكم المطلق جعل تقسيم المسئولية العسكرية إنما يتبع القيادة العليا التي يتولاها الملك نفسه.

وفي عام ١٨٢١ عين رئيس هيئة أركان الحرب كمستشار أعلى للملك في كل المسائل العسكرية، وحدد دور وزارة الحرب بالسيطرة السياسية والإدارة على الجيش فقط، وكان لهذا القرار تبعاته البعيدة المدى؛ إذ أنه مكَّن من أن تكون لهيئة أركان الحرب اليد الطولى الموجهة في كل المسائل العسكرية ليس فقط بعد إعلان الحرب، بل وحتى في مرحلة الإعداد للحرب.

* * *

[٢]

وكان مولتكه موفقًا مجدودًا لأن ينتفع بكل هذه الآراء والتعاليم التقليدية والتي أمكن الوصول إليها في حروب التحرير، وكان مولتكه ـ كشارنهورست وچينيسناو ـ هو الآخر ليس بروسيًّا بالمولد بل جاء إلى بروسيا من منطقة مجاورة هي مكلنبورج، وكان أبوه ضابطًا في جيش ملك الدانيمارك، وكان كدوق شليزويج وهولستين أميرا ألمانيا، وقد نشأ مولتكه يطلب العلم في معاهد الدانيمارك، وخرج من المعهد العسكري ليرتقي إلى رتبة الملازم في سنة ١٨١٩، ولكن كانت كل العوامل تدفعه لهجرة البلاد، فهو لم يكن سعيدًا في حياته المدرسية، ولم تكن صلته بأبيه قوية، ثم إنه لم تكن في خدمة الجيش الدانيماركي الفرصة التي يرجوها من يحفزه الطموح دائمًا؛ وقدم مولتكه طلبًا للخدمة في الجيش البروسي الجيش الذي كان أبوه نفسه قد بدأ فيه حياته العسكرية قبل أن ينتقل إلى الجيش الدانيماركي.

«ومع أن البروسيين كانوا يشجعون من يريدون الالتحاق بجيشهم» فقد وضعوا الملازم الصغير في مواجهة امتحان عنيف، ثم جعلوه يبدأ من جديد من أولى درجات السلم العسكري، وبعد سنة كاملة منحوه فرصة للالتحاق بالكلية الحربية التي كان يديرها كلاوزيڤيتز. على أن كلاوزيڤيتز نفسه لم يكن يلقي على طلبة معهده العسكري أية محاضرات ولهذا فإن مولتكه لم يتأثر به من قريب أو بعيد حتى كان عام ١٨٣١ عندما طبعت مؤلفات كلاوزيڤيتز في المجموعة التي قربت الرجل ودراساته إلى المتعلمين.

وقد رغب مولتكه مدة بقائه بالمعهد العسكري في دراسة علوم الجغرافيا

والطبيعة والتاريخ العسكري، العلوم التي كانوا يحسنون عرضها في ذلك المعهد، فلما رجع مولتكه إلى وحدته سنة ١٨٢٦ قضى سنتين في دراسة نظرية وفي تدريس هذه العلوم الثلاثة لضباط وحدته، وفي سنة ١٨٢٨ نقل إلى هيئة أركان الحرب التي ظل من ضباطها لأكثر من ستين سنة.

على أن مولتكه فيما عدا السنوات الخمس التي قضاها كملازم في الجيشين الدانمركي ثم البروسي لم يعمل في الوحدات قط، ولم يتول قيادة سرية ولا أية وحدة مماثلة حتى تولى وهو في الخامسة والستين من سنه قيادة الجيوش البروسية كلها في الحرب ضد النمسا.

وكان مولتكه قد قضى السنوات بين ١٨٣٥ و ١٨٣٩ في تركيا كمستشار عسكري «للباب العالي» وهو برتبة اليوزباشي، وهي رتبة لم تكن لتجعل منه قوة في وجه القادة الأتراك، ولهذا فإن أحدًا لم يقدِّر نصائحه، وهكذا شهد مولتكه الحروب التي قام بها محمد علي ضد العثمانيين وعاش أسوأ أيام حياته وسط جنود مهزومين.

فلما عاد مولكته من جديد إلى برلين كان يقف على باب عهد جديد من الرخاء بالنسبة له، ***والواقع*** أنه عاش كملازم وهو لا يجد ما ينفقه حتى أنه اضطر ليكتب بعض القصص القصيرة لمجلة شعبية وأن يكتب بعض الموضوعات التاريخية لصحيفة أخرى، وعندما أراد أن يشتري جوادًا ليعد نفسه لوظيفة في هيئة أركان الحرب اضطر لأن يترجم ستة مجلدات من تاريخ چيبون(*)، على أنه لم يلبث أن اكتشف أن الناشر الذي اتفق معه قد أفلس، ومن الغريب أن الرجل مع هذه المشكلات المادية التي تأخذ بخناقه

(*) إدوارد چيبون (١٧٣٧ – ١٧٩٤) مؤرخ إنجليزي، أهم كتبه "اضمحلال وسقوط إمبراطورية روما"، وقد وضعه مؤلفه هذا في مصاف أقوى كُتاب التاريخ في العالم.

قد استطاع أن يصل إلى حصيلة طيبة من العلم سيما في العلوم الثلاثة التي استهوته من البداية، وهكذا تعمق في دراسة قوة تعبيرية كبيرة وجعلت منه واحدًا من أعظم الكتاب الألمان.

ومع هذا فإنه لم يكن من رجال السياسة، بل ولم تكن فيه أية أصالة في التفكير السياسي، وبهذا كان على نقيض شارنهورست وچينيسناو فقد كان الاثنان من رجال السياسة كما كانا قائدين عسكريين، وقد اتجهت اصطلاحاتهما العسكرية مباشرة إلى إصلاح حياة الأمة عادة، وجعلهما هذا موضع شك المحافظين من رجال البلاط البروسي بل وموضع شك كل دوائر البلاطين النمسوي والروسي، ولهذا فإنه عندما وضحت هزيمة نابليون وبدا أن الثورة الفرنسية بدورها قد قهرت أطلق عليهما اسم «اليعقوبيين» وأحيلا إلى التقاعد.

ولكن مولتكه، وإن كان لم يسهم بصورة إيجابية في الشئون السياسية ولم يعن بالسؤال عن السلطة القائمة بالأمر، فإنه كان على دراية تامة بالعلاقة الوثيقة بين السياسة والقيادة، وكانت تستهويه الدراسة الشخصية للاتجاهات والآراء السياسية، فقد كان مقتنعًا بسيادة الحكومة الملكية مقدرًا لها تركها العسكريين أحرارًا في إدارة المسائل الخاصة بالجيش دون أي تدخل من غير الأخصائيين المحترفين. وكان مولتكه راضيًا عن هزيمة الأفكار التحررية الألمانية التي كانت عامل ثورة سنة ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ ، كما كان لها نفس الأثر مرة ثانية في ثورة عام ١٨٦٠ .

وكان من الضروري لضابط هذه حاله وهذه وجهات نظره السياسية مع سعة الاطلاع وغزارة العلم أن تحسن وفادته في البلاط، وفي سنة ١٨٥٥ عينه فردريك ويليام الرابع ياورًا لابن أخيه الأمير فردريك ويليام الذي كان

إمبراطورًا فيما بعد باسم فردريك الثالث، ومكنه هذا من الاتصال «بالأمير الجندي»، ويبدو أن ويليام الأول قد كشف عن مواهب مولتكه، المواهب التي رشحته لوظيفة رئيس هيئة أركان الحرب.

وكان من أول أعمال ويليام في عام ١٨٥٧ عندما تولى الوصاية على عرش بروسيا أن عين مولتكه في الوظيفة التي رشحته لها مواهبه، ولكن ويليام كان يهتم بالسياسة وبالتنظيم الفني للجيش ولهذا فقد قرب منه وزير الحرب «رون»(*) الذي طغت شخصيته على شخصية الرجل الصامت رئيس هيئة أركان الحرب وباعدت بينه وبين الكثير من المجالس الحكومية.

وقد استهدف ويليام ورون من الإصلاحات التي اقترحاها وعملا على تنفيذها زيادة كفاية الجيش. ولكن هذه الإصلاحات استهدفت على مدى الوقت إلغاء كل التشكيلات القريبة من الطابع العسكري والتي تتوافر فيها الروح التحررية الشعبية، وهكذا بترت وضغطت «قوات التريتوريال» و «الحرس الوطني»، وتم هذا كله من أجل زيادة الجيش العامل، وقد مكن هذا فيلق الضباط المحترفين من السيطرة على كل التشكيلات العسكرية للأمة.

وقد حارب البرلمان البروسي هذه الإجراءات، ولكن هذا التخطيط لإعادة التنظيم كان موضع التنفيذ تحت إدارة بسمارك حتى دون الحصول على موافقة المجلس النيابي؛ وقررت استراتيجية مولتكه الناجحة أمرين:

أولهما: نهضة ألمانيا المتحدة وتقدمها على كل أمم أوروبا.

(*) رون Roon إميل (١٨٠٣ – ١٨٧٩) قائد سياسي بروسي ولد في جليشاجن سنة ١٨٠٣ عمل وزيراً للحرب ومساعداً لبسمارك في السياسة لأمد طويل من حياته السياسية. "معجم لاروس ص ١٦٣٢"

وثانيهما: انتصار الملكية البروسية على المعارضة الديمقراطية المتحررة في ألمانيا تبعًا للاحتفاظ بالسلطة في الجيش البروسي.

وكان الدور الذي قام به رون كوزير للحرب في سنوات الصراع السياسي قد جعله أكبر شخصية في الجيش قبل عام ١٨٦٦، وقد اعتاد ويليام الأول أن يتلمس النصائح من وزير حربيته حتى كان رئيس هيئة أركان الحرب في حكم الشخص المنسي، ***والواقع*** أن مولتكه العزوف عن المظاهر البراقة لم يكن معروفًا في دوائر الجيش حتى أنه في معركة «سادوا» بعث بأحد ضباط رياسته يحمل أمرًا إلى قائد إحدى الفرق، وأنصت القائد للأمر وتلا الرسالة متمهلًا ثم قال: «هذا جميل.. ولكن من هو الجنرال مولتكه هذا؟!!»، وكان وصول مولتكه إلى مركز الصدارة بين مستشاري الملك مفاجأة غير متوقعة بالرغم من أنه أمر منطقي في تاريخ العسكرية البروسية منذ أيام شارنهورست وچينيسناو.

وكان تباعد مولتكه عن مسرح السياسة في السنوات من ١٨٥٧ إلى ١٨٦٦ قد طوَّع له من أن يوجه كل عنايته إلى إعداد كل مطالب العمليات الحربية المقبلة؛ وكانت ثورات عام ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ وقيام الإمبراطورية الثانية في فرنسا ثم اشتعال نيران حرب القرم قد أوضحت كلها بداية عصر جديد في التاريخ الأوروبي، كما أوضحت إمكان استخدام القوة الحربية بطلاقة في هذا العصر الجديد. وقد بدأ مولتكه لتوه مراجعة كل الخطط التي وضعتها هيئة أركان الحرب الألمانية قبل تولية رياستها، وكان سلفه الجنرال رايهر واحدًا من القادة البروسيين القلائل الذين جاءوا من الصفوف؛ ***والواقع*** أنه كان رجلًا واسع التصور، وكان أستاذًا ممتازًا للاستراتيچية ؛ وكان في استطاعة مولتكه أيضًا أن يعتمد على كفاية وحسن إعداد الضباط

البروسيين مما يمكنهم من إيجاد الحلول الصحيحة للمشكلات التكتيكية في الحرب، ويجب أن نذكر بأن الضباط البروسيين بمجرد أن اجتازوا حدود بوهيميا للقتال ضد النمسا قد أسقطوا من أيديهم في صمت كتاب «تعليمات خدمة الميدان» الصادر سنة ١٨٤٧ وبدأوا يعملون بآرائهم الخاصة في فن القتال.

ومسألة أخرى، فإن تشكيلات السلم للجيش البروسي كانت أكثر تطورًا وتقدمًا من تشكيلات أية أمة أوروبية أخرى، وكانت كل وحدات الجيش البروسي عدا وحدات الحرس تجمع جنودها واحتياطيها من المناطق المحلية التي تعسكر بها، وهذا أمر لم تستطع أن تفعله إمبراطورية هبسبورج مع مشكلاتها الخاصة بالقومية تبعًا لتباين أصول الناس.

وكان الجيش البروسي أيضًا قد احتفظ منذ سنة ١٨١٥ بتشكيل الفيلق، التشكيل الذي أوجده نابليون في حملاته الحربية والذي أغفلته فرنسا في حكم البوربون ونفضت يديها منه، وإن كان هذا التشكيل في الحقيقة يتأثر بسرعة التعبئة كما يتأثر بطاقة الجنود والقادة للقيام بالعمليات الحربية في مدى واسع.

وكانت «التعبئة» في الجيش البروسي سريعة نسبيًّا قد زاد مولتكه من هذه السرعة، إلا أن البناء الجغرافي «غير السعيد» السيئ الذي كانت تكونه بروسيا إذ ذاك بامتدادها الكبير من الشرق إلى الغرب بين إكس لوشابل وتيليست، كان يزيد مشاكل بروسيا العسكرية، وقد جاء عصر السكك الحديدية بعلاج لهذه المشكلة انتفع به مولتكه إلى غاية ما يستطاع.

كان مولتكه قد بدأ دراسة الخطوط الحديدية قبل أن يمد خط واحد

حديدي في ألمانيا، وكان مؤمنًا بفوائد الخطوط الحديدية حتى أنه في سنة ١٨٤٠ عندما كان إنشاء ومد الخطوط الحديدية لا يزال في بدايته جازف فأسهم بكل ما يدخر من مال في خط برلين / هامبورج الحديدي، وقد يكون اهتمامه بهذا الخط الحديدي ناتجًا عن تطلعه لتقصير المسافة بينه وبين زوجته الصغيرة التي تعيش في هولستين، ولكن ما من شك أن تفكيره واهتمامه العسكري بالخطوط الحديدية كان كبيرًا.

وفي الأمد بين سنة ١٨٤٧ وسنة ١٨٥٠ كان الجنود في مختلف دول أوروبا ينقلون بالخطوط الحديدية، وفي سنة ١٨٥٩ عندما عبئ الجيش البروسي أثناء الحملة الإيطالية استطاع مولتكه أن يختبر التسهيلات التي جاء بها النقل بالسكك الحديدية، كما استطاع بهذا الاختبار أن يدخل الكثير من التحسينات على عمليات النقل.

والواقع أن الخطوط الحديدية قد جاءت بفرص استراتيجية جديدة فقد كان من الممكن نقل القوات بسرعة تصل إلى ستة أضعاف السرعة التي سارت بها جيوش نابليون، وظهر «الوقت»و «المسافة» ـ العاملان الأساسيان لكل استراتيجية ـ في ضوء جديد له أهميته؛ وقد حصلت الدولة التي توافر لها نظام جيد للنقل بالسكك الحديدية على نفع حاسم في الحرب، فإن سرعة التعبئة وسرعة الحشد قد باتا عاملًا ضروريًّا له أهميته في التقديرات الاستراتيجية، ومما لا شك فيه أن الجداول الزمنية للتعبئة وترتيبات الحشد وأوامر السير أوجدت العمود الفقري للخطط الاستراتيجية التي تضعها هيئات أركان الحرب للمستقبل لتنفيذها عند قيام الحرب.

وقد اقترح مولتكه بالإضافة إلى الانتفاع بالخطوط الحديدية الجديدة

استخدام شبكة الطرق البرية الكثيفة التي جاءت إلى الوجود مع تطور الثورة الصناعية، وكان نابليون قد وجه الأنظار إلى هذا بتقسيمه جيشه أثناء السير، وقدم في حملة عام ١٨٠٥ التي أدت إلى استسلام الجيش النمساوي في «أولم» مثلًا جيدًا مهمًا للاستخدام الاستراتيجي لقوات منفصلة تسير كل منها بأمر سير خاص بها، والجيش الذي يتقدم مع عدم استعداده للمعركة يتطلب يومًا كاملًا ليتم عملية «الفتح» لكل فيلق يتكون من ثلاثين ألفًا، وكانت عملية الانتقال من تشكيل السير إلى تشكيل القتال «المعركة» تستنزف الوقت، ولهذا كان من الضروري أن تحشد الجيوش قبل المعركة بأيام.

وتحسنت حال الطرق بدرجة كبيرة بعد عام ١٨١٥ وبذلك أمكن استخدام تكتيكات جديدة، وكتب مولتكه عام ١٨٠٨: «تزداد الصعاب التي تواجه خفة الحركة تبعًا لزيادة أحجام الوحدات العسكرية، ولا يمكن في اليوم الواحد نقل أكثر من فيلق واحد من فيالق الجيش إذا استخدم طريقًا واحدًا في هذا النقل، ثم تزداد هذه الصعاب كلما اقتربنا من الغرض وذلك تبعًا لتحديد عدد الطرق التي يمكن استخدامها، وعلى هذا كانت الحال العادية هي أن يقسم الجيش إلى فيالق كما وضح أن حشد هذه الفيالق معًا في كتلة واحدة، ما لم يكن الغرض من هذا التكتل محددًا، يعتبر خطأ يجب تجنبه، والجيش المحتشد المتكتل لا يستطيع السير «على الطرق»، ويمكن تحريكه فقط في ميادين القتال، ولكي يسير الجيش يجب أن يقسم إلى وحدات صغرى الأمر الذي له خطره إذا حدث في مواجهة العدو؛ ولكن لما كان حشد الجنود من جهة أخرى ضروريًا للمعركة. فإن محور الاستراتيجية هو تنظيم عمليات سير منفصلة على شريطة أن يمكن هذا من الاحتشاد والتجمع في اللحظة المناسبة».



دي رون وزير حربية ألمانيا

(١٨٠٣ ـ ١٨٧٩)

ومن المحتمل أن يكون مولتكه قد عني العناية كلها بالعمليات التي يتم فيها احتشاد الجيش في ميدان المعركة، وبذلك فقد أغفل المبدأ الذي تحدث عنه نابليون بضرورة حشد الجيش قبل بدء المعركة، ومع هذا فإن توجيه مولتكه للعمليات قبل معركة «سادوڤا» لم يغفل مبادئ نابليون تمامًا من البداية؛ ***والواقع*** أنه رأى ضرورة تجمع الجيوش معًا قبل المعركة ثم عاد في تاريخ متأخر وقرر استمرار فصلها على أن يتم تجمعها في مسرح القتال، وقد لخص نظرياته بعد «سادوڤا» فيما يلي:

«من الأصلح أن تحرك القوات يوم المعركة من عدة نقط منفصلة وأن توجه لتحتشد في ميدان المعركة، وفي كلمات أخرى: «إذا أمكن أن تؤدي عمليات السير القصيرة القادمة من اتجاهات مختلفة إلى حشد القوات في الجبهة وعلى جنب العدو فإننا بذلك نحصل على خير ما يمكن إدراكه، ويجب أن نتوقع الحصول بهذا على نتائج عظيمة ما كان ليمكن تحقيقها بجيوش تعمل منفصلة، وذلك لأن هذا لا يتوقف وحسب على العوامل التي يمكن تقديرها وحسابها كعاملي الوقت والمسافة، بل ويتوقف أيضًا على المعارك الصغرى السابقة وعلى الجو، كما يتوقف على الأنباء الكاذبة، بل ـ وفي إيجاز ـ يتوقف على كل ما يقال عنه «الفرصة» أو «الحظ» في الحياة البشرية العادية، ومع هذا فإن النجاح الكبير في الحرب لا يمكن إدراكه دون القيام بمغامرات كبيرة».

وتمكننا هذه الملاحظات الأخيرة من أن نصل إلى إدراك فلسفة مولتكه في الحرب، فهو ـ كطالب مخلص شديد الولاء لكلاوزيڤيتز ـ كان توَّاقًا لأن يمد في سيطرة العلاقة السببية على صناعة الحرب إلى أبعد ما يمكن، وقد أدرك جيدًا أن «مشكلات الحرب» لا يمكن إضعافها بالعمليات الحسابية،

أي بالعوامل التي يمكن قياسها؛ ذلك لأن الحرب آلة من الآلات السياسية. وبالرغم من أن مولتكه قد بقي يؤمن بضرورة تحرر القائد في توجيهه للعمليات الحربية فقد اعترف بأن الأهداف السياسية المتأرجحة في صعود وهبوط مثلها مثل «الظروف» و «الأحوال» تتجه إلى تعديل وتبسيط الاستراتيچية في كل الأوقات.

وبالرغم من حالة «الشك» التي تنتج بتأثير أو بضغط السياسة على الاستراتيچية فقد أدرك مولتكه أن العمليات الأولية للحشد والتعبئة يمكن حسابها ويمكن إعدادها قبل بداية الحرب بوقت طويل، ولكن «الخطأ الذي يحدث عند حشد الجيوش يصعب تصحيحه على طوال مسير الحملة»، ومع هذا فإن الأوامر الضرورية للحشد يمكن أن توضع في وقت مبكر، وما دامت الوحدات متأهبة للحرب وما دامت وسائل النقل منظمة تمامًا فمما لا شك فيه أنه يجب توقع نتائج جيدة.

وإلى ما وراء هذه المرحلة تكون الحرب مزيجًا من الجرأة أو المجازفة في جانب والتقدير الحسابي للعوامل المادية في جانب آخر، فإذا ما بدأت العمليات فعلًا «اصطدمت رغباتنا لتوها بالرغبات المستقلة للعدو، ومن المؤكد أننا نستطيع وقف رغبات العدو عند حد معين نظرًا لتأهبنا لملاقاته ولاعتزامنا الحصول على قوة المبادأة؛ ولكننا لا نستطيع أن نحطم رغباته بأية وسيلة أخرى غير القتال، أو بمعنى آخر بغير المعركة، ثم تكون معقبات هذا من العوامل المادية والمعنوية مع ما ينتج عنها من مواقف مختلفة تمامًا قاعدة لتدابير جديدة؛ وعلى أية حال فإن أي تخطيط للعمليات لا تكون له صورة مؤكدة قبل الالتقاء الأول بقوات العدو الأساسية، ولهذا فإن القائد يضطر طوال الحملة أن يضع قراراته على أساس مواقف لا يستطيع التنبؤ بها أو

تقديرها قبل هذا الاصطدام، ومن هنا فإن كل الأعمال التي تحدث لا تكون تنفيذًا لخطة معدة من قبل، بل تكون نتيجة طبيعية لضغط الحوادث، وتكون المشكلة التي تواجه القائد هي ضرورة تقديره لهذا العدد الكبير من الصور المختلفة للموقف الحقيقي الذي يغطيه ضباب الشك، ثم تقدير القيم الحقيقية لهذه الصور واستخدامها استخدامًا صحيحًا، وكذلك تقدير العوامل غير المعروفة للوصول إلى قرار سريع ثم العمل بقوة ودون هوادة؛ ومن الواضح أن المعرفة النظرية ليست كافية، بل إن هناك مؤثرات وخواص للعقل والخلق تمكن بدورها من الوصول إلى ما يمكن الانتفاع به نتيجة للتدريب العسكري والتجارب المستقاة من التاريخ الحربي بل ومن صميم الحياة نفسها».

وقد أنكر مولتكه أن الاستراتيچية علم، وأن الأصول العامة يمكن أن توضع بحيث يمكن أن تستنبط منها استنباطًا منطقيًّا، وقد بدا له أن هذه القواعد ـ كالفائدة التي لخط العمليات الداخلي أو وقاية الجنب وغير هذا على سبيل المثال لا الحصر ـ لها قيمتها بدرجة نسبية فقط، ثم إن كل موقف يتطلب تفهمًا للظروف المحيطة به، كما يتطلب حلًّا تتجمع فيه التجربة والمعرفة بالجرأة والتصور، وفي رأي مولتكه أن هذا هو الدرس الأساسي الذي يمكن اكتسابه من التاريخ؛ ولدراسة التاريخ أيضًا نفعها في جعل من يعد نفسه للقيادة في المستقبل على دراية بتعقد الظروف التي تجيء الأعمال العسكرية في ظلها؛ وقد آمن مولتكه بأنه لا تدريبات هيئة أركان الحرب ولا حتى مناورات الجيش يمكن أن تقدم الصورة الحقيقية لمراحل الحرب كما يمكن أن تصورها دراسة التاريخ!

ولقد جعل مولتكه دراسة التاريخ من مسئولية هيئة أركان الحرب

البروسية دون الأقسام التابعة لها، ووضع مولتكه دراسته «الكلاسيكية» عن الحرب الإيطالية لعام ١٨٥٩ والتي طبعت لأول مرة في عام ١٨٦٢ مستهدفًا الوصف الموضوعي للحوادث قاصدًا استنباط الدروس العملية منها، ثم كتبت فيما بعد الدراسات الخاصة بحربي سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ بالأسلوب نفسه وبتوجيهه وإشرافه.

وكانت وجهة نظر مولتكه، أن الاستراتيجية يمكن أن تنتفع من التاريخ ما دامت تدرس بالأسلوب الصحيح الذي يعنى بالعلاقة الوطيدة بين مناحي الموضوع؛ وتوضح تجارب مولتكه نفسه مدى النفع الذي حصل عليه من دراساته التاريخية.

ولا شك أن مولتكه كان يعرف باستخدام نابليون للقوات المنفصلة في الهجوم على أجناب العدو ومؤخرته، ولكن هذه العمليات للوحدات المنفصلة لم تؤثر في المبادئ العامة التي قدمها نابليون عن حشد الجيش، كما لم تؤثر في إيمانه بالتأثير الكبير الذي للهجوم المركز؛ لقد كان لهذه الاستراتيجية فوائدها الكبيرة القيمة في عصر نابليون ولكنها على هذا لم تحل دون الهزيمة التي لحقته أخيرًا، وأوضحت معركة ليبزج الإمكانيات التي تتوافر للحركات المحتشدة للجيوش المنفصلة والتي تنبأ بها شارنهورست في نصيحته بأن الفرد يجب ألا يترك أي جيش محتشدًا دون هدف، بل يجب أن يقاتل دائمًا بقوات محتشدة؛ وفي رأي مولتكه أن التقدم الفني والتطور في النقل قد مكنا من التخطيط للعمليات في حشد أوسع مدى مما كان لها قبل نصف قرن من الزمان.

وقد أشار مولتكه إلى أن أهمية دراسة الضابط للاستراتيجية لا تقل عن أهمية دراسته للتاريخ؛ «فالاستراتيجية مجموعة من الوسائل التي تستخدم

لإدراك وتحقيق الوصول إلى غرض محدد، إنها أكثر من أن تعتبر معلومات بالنسبة للضابط، إنها تطبيق المعرفة في الحياة العامة، إنها تطور الفكرة الأساسية الأصلية بالتمشي مع الحوادث الدائمة التغير، إنها فن العمل تحت ضغط أصعب الظروف وأقساها».

وكان لتنظيم القيادة مكان الصدارة في آراء مولتكه وتفكيره، وقد عالج الموضوع في وضوح وإسهاب في تأريخه للحملة الإيطالية، فلا يمكن لأي مجلس حرب أن يتولى توجيه جيش ما، ويجب أن يكون رئيس هيئة أركان الحرب هو المستشار الوحيد للقائد العام في التخطيط للعمليات، وحتى لو كانت الخطة التي يضعانها فيما بينهما خاطئة فإن تنفيذها بعزيمة وإصرار يجعلها أفضل من (الإنتاج التركيبي) الخطة التي تجيء نتيجة تخطيط وتفكير عدد من الأفراد لكل رأيه واتجاهاته.

ومن جهة أخرى فإنه حتى أحسن الخطط لا تمكن من توقع كل ما في مسار الحرب من تغييرات غير منتظمة، هذه التغييرات التي أساسها «الحظ»، ولا من تجنب القرارات التكتيكية الفردية التي يجب أن تصدر وأن تتم في التو واللحظة، ويرى مولتكه أن إرغام القائد على تنفيذ خطة ما للعمليات خطيئة قاتلة، ولهذا فقد بذل كل عناية لتشجيع قوة الابتكار في القادة من كل الرتب على اختلاف درجات السلم العسكري، بل وعلى نقيض الضبط والربط البروسي العنيف الذي تفخر به الجندية البروسية فقد كانت القرارات والأحكام الاستقلالية الخارجة عن التعليمات والتي يصدرها الضباط في المسائل العسكرية موضع التقدير والتشجيع دائمًا.

ولم يصدر مولتكه إلا الضروري جدًّا من الأوامر، وفي رأيه «أن الأمر يتضمن كل شيء لا يستطيع القائد أن يفعله بنفسه ثم لا شيء غير هذا»؛

وكان المعنى الذي يستهدفه هو أن القائد العام يجب ألا يتدخل إطلاقًا في الترتيبات التكتيكية، ولكن مولتكه ذهب إلى ما وراء هذا بكثير؛ فقد كان على أتم أهبة لأن يقوم بأي تحول في خطة العمليات إذا ما حصل القائد التابع له على نجاح تكتيكي له أهميته؛ ذلك لأنه ـ كما قال ـ: «يجب أن تستجيب الاستراتيجية لأي نصر تكتيكي»، وقد بقي لا يتحول عن رأيه عندما كاد بعض القادة في الأسابيع الأولى من الحرب الفرنسية / البروسية أن يسببوا تدمير كل خطته للعمليات برغم ما أمكن إدراكه من كسب في ميدان القتال.

ولم يرغب مولتكه في أن يربك روح الاقتتال التي توافرت للجيش البروسي ولا أن يعطل ظاهرة الإقبال على العمل، أو العمل المضاد طواعية، ومن جانب القادة التابعين، فلقد وضعت التطورات الحديثة على عاتق القادة التابعين مسئوليات جسام لم يكونوا يحتملونها في العصور السابقة؛ ***والواقع*** أن من أهم الأسباب التي جعلت نابليون يحتفظ دائمًا بجيشه متجمعًا رغبته في أن يبقى الجنود قريبين منه ما أمكن لتنفيذ أوامره المباشرة، ولكن طريقة مولتكه «للتوزع في الاتجاه الأفقي «بالعرض» جعلت التوجيه المركزي للمعركة غير مستطاع ولو أن عمليات السير قبل المعركة يمكن أن تنظم في يسر بواسطة البرق».

لقد وجه مولتكه أغلب التحركات في حرب عام ١٨٦٦ من مكتبه في برلين، ووصل إلى ميدان القتال قبل معركة سادوقا بأربعة أيام فقط، ولا شك أنه كان حكيمًا في أنه ترك لنفسه فقط الأوامر الاستراتيچية العامة، ولكي يضمن تنفيذًا دقيقًا، أي التنفيذ الطليق المتحرر للآراء الاستراتيچية، نظم هيئات القيادة للجيش وترك السلطة في المسائل التكتيكية وحدها لقادة



جينيسناو (١٧٦٠ ـ ١٨٣١)

الفيالق والفرق أنفسهم.

وقد واجهت قيادة مولتكه أول وأعظم اختبار لها في الحملة النمساوية لسنة ١٨٦٦ فإن دوره في الحرب النمساوية / البروسية ضد الدانيمارك لسنة ١٨٦٤ لم يكن بذي بال، وقد جعله تدخله السريع في المرحلة الأخيرة من الحرب لوقف الاضطراب الذي سببه الفيلد ماريشال «الشيخ» رانجل ومجلس مستشاريه يبدو لعيني ويليام الأول كاستراتيجي محنَّك يتجنب الاندفاع والتهور؛ ثم زادت من مكانته مناقشته لخطط القتال ضد النمسا حتى أصدر ويليام توجيهاته في الثاني من يونيو سنة ١٨٦٦ التي تقضي بأن كل الأوامر يجب أن تصدر عن طريق مولتكه، ومنذ ذلك التاريخ كان الملك يتقبل نصائح مولتكه دون تردد؛ ووجد القائد الذي كان قد بلغ الخامسة والستين والذي كان قد بدأ يفكر في التقاعد، وجد نفسه يتولى فعلًا القيادة العامة للجيش البروسي.

وكان أول اختبار لقيادته ـ هو في ذات الوقت ـ أعظمها أثرًا في حياته، كانت القوات تقريبًا متماثلة بدرجة أكبر مما كانت فيما بعد في الحرب الفرنسية / البروسية، وكان على مولتكه أيضًا أن يتغلب على مشاكل جغرافية وسياسية متعددة، وتصور حرب سنة ١٨٦٦ وعلى الأخص حملة بوهيميا الجانب الاستراتيجي من الحرب في صورة أوضح مما تصوره الحرب الفرنسية / البروسية، بل أكثر مما تصوره أغلب الحروب الأخرى.

والواقع أن ويليام الأول قد رغب في تجنب الحرب ضد النمسا والتي دفعه بسمارك إليها دفعًا، وبدأ البروسيون تعبئة قواتهم بعد أن بدأ النمساويون التعبئة بوقت طويل، وحتى إذ ذاك كان من المشكوك فيه أكان

الملك سيوقع إعلان الحرب حتى يمكن للجيش البروسي أن يقوم بالهجوم؟

وكانت المشكلات الاستراتيچية الأصلية بالتبعية دقيقة جدًّا، ومن بوهيميا ومورافيا كان النمساويون يستطيعون العمل ضد سيليزيا العليا أو سيليزيا الوسطى أو أن يتقدموا في ساكسونيا ليهددوا برلين بعد الاتصال مع الجيش الباڤاري في بوهيميا الشمالية أو في ساكسونيا، وكان توقع أي من هذه الاحتمالات يتوقف تمامًا على تاريخ بدء الحرب، ومن الطبيعي أن مولتكه قد عاون بسمارك في حث الملك على العمل لتوه، ولكن مولتكه تجنب أن يدفع التوجيه السياسي بواسطة التدابير العسكرية على نقيض ابن أخيه مولتكه الصغير والذي أخبر الإمبراطور ويلهلم الثاني «غليوم» في أغسطس سنة ١٩١٤ أن التخطيط الاستراتيچي لهيئة أركان الحرب قد حرم الحكومة من حرية العمل.

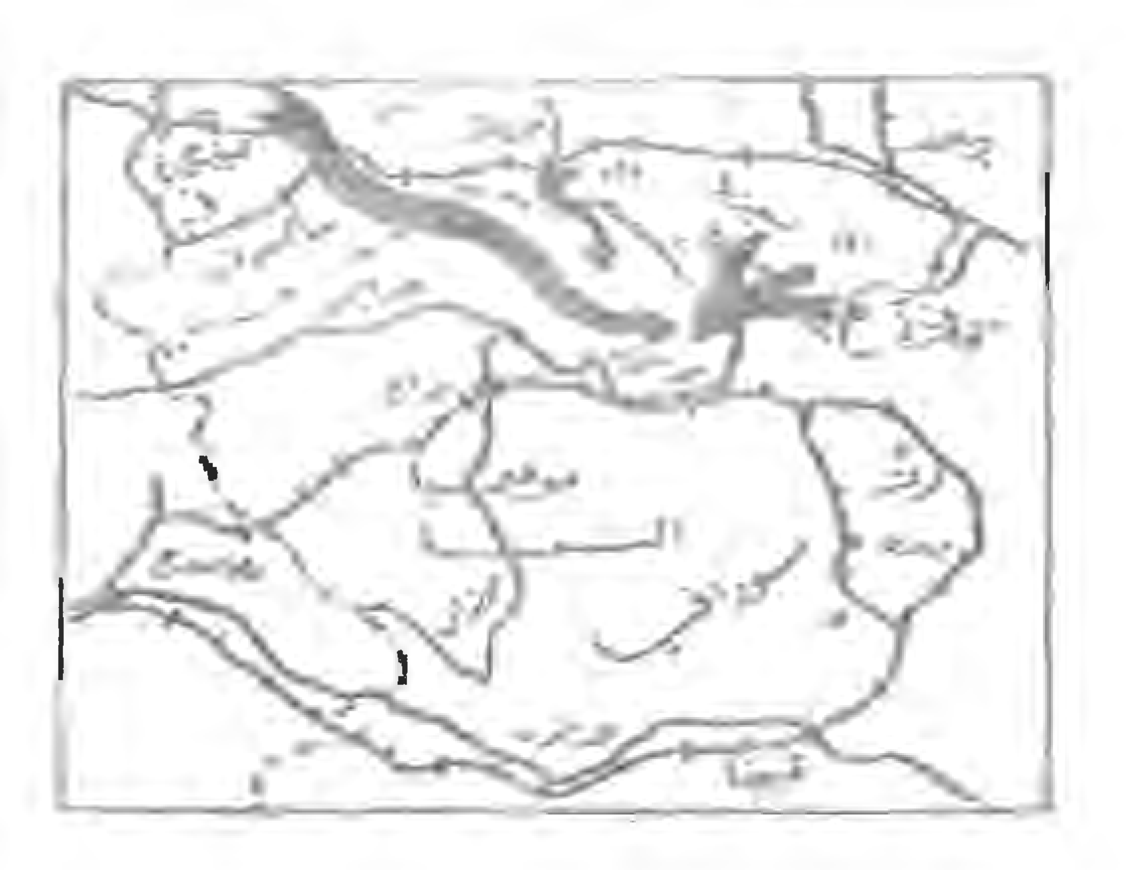
وقد استهدفت تحركات مولتكه الكبير في المكان الأول أن يعوض التعطل الذي سببه تأخر بدء التعبئة، وبالإضافة إلى هذا فقد رغب أن تتمشى وأن تعمل بنجاح ضد التقدم النمساوي المحتمل ضد ساكسونيا وبرلين أو ضد بريسلاو في سيليزيا الوسطى على حين تبقى سيليزيا العليا غير محمية أصلًا، على حين كان النمساويون لا يستطيعون استخدام غير خط حديدي واحد لتعبئة قواتهم في مورافيا استخدم مولتكه خمسة خطوط حديدية لنقل الجنود البروسيين من كل أنحاء بروسيا إلى جوار مسرح الحرب، وتبعًا لهذا فإنه في اليوم الخامس من يونيو سنة ١٨٦٦ انتشرت الجيوش البروسية في نصف دائرة تمتد لمسافة ٢٧٥ ميلًا من هال وتورجو إلى جورليتز Gorlitz ولنديشوت Landeshut ، وكان الوضع الأصلي للقوات البروسية سليمًا ما بقيت القوات النمساوية بعيدة للجنوب والتي كانت في

الواقع في موراڤيا لا في بوهيميا كما قدر مولتكه.

ولم يضع مولتكه تخطيطه ليترك جنوده في نقط إنزالهم بل بدأ لتوه يسحبهم أقرب ما يمكن إلى مركز متوسط حول چورليتز، وقد رفض مولتكه أن يأمر بحشد كامل في منطقة صغيرة كما أشار بهذا كل القادة البروسيين بل وحتى بعض أفراد هيئة أركان حربه، على أنه من جهة أخرى شعر بالجزع والقلق عندما عرف أن القوات النمساوية الأساسية تتجمع في موراڤيا لا في بوهيميا وهي حقيقة بدا أنها تشير إلى إعداد التدابير لهجوم نمساوي نحو سيليزيا العليا.

وقد سمح مولتكه ـ دون أية رغبة من جانبه ـ لجناحه الأيسر ليمتد نحو نهر نيسي Neisse وبهذا فقد نشر الجيوش البروسية في مسافة تزيد على ٢٧٠ ميلًا من تورجاو Toegau إلى نيسي، ويرجع تردده أساسيًّا إلى عدم تأكده من سياسة ويليام الأولى لا بسبب أية اعتبارات عسكرية، وكان رأي مولتكه أن كل شيء سيتجه اتجاهًا حسنًا إذا لم يفقد الفرصة لاستكمال حشد كل الجيوش البروسية على الطريق الأقصر أي للقيام بتحرك أمامي في بوهيميا.

وقد تخير مولتكه چيتشين Gitschin مركزًا لهذا الحشد لا بسبب الأهمية الاستراتيچية التي لها بل بسبب المسافة فإنها كانت على مسافة متساوية من الجيشين البروسيين الرئيسيين، الجيش الثاني الذي يقوده ولي العهد فردريك ويلهلم والذي يكون الجيش الأيسر للقوات البروسية في سيليزيا، ثم الجيش الأول الذي يقوده البرنس فردريك كارل والذي كان قاعدته حول چورليتز؛ وفي نفس الوقت فإن چيتشين كانت على مسافة متساوية من تورجاو ومن الموبتز Olmuctz ، أي على مسافة واحدة من جيش الألب البروسي ومن الجيش النمساوي الأساسي فإذا ما تحركت الجيوش البروسية



(١) جيش سيليزيا الأول (٢) جيش سيليزيا الثاني

(٣) جيش الألب

«منطقة معركة بوهيميا عام ١٨٦٦ توضح الخطوط الحديدية الرئيسية وتقدم الجيوش البروسية الثلاثة»

لإتمام عملية الحشد في ذات اليوم الذي يترك فيه الجيش النمساوي موراڤيا، فإن حشد الجيوش البروسية سيتم قبل أن يصل النمساويون إلى چيتشين.

على أن الضباط البروسيين الذين في المقدمة لم يسلموا الضباط النمساويين قرار بروسيا بإعلان الحرب على النمسا قبل الثاني والعشرين من يونيو، وإن كانت بروسيا قد بدأت عملياتها العدائية ضد الولايات الألمانية الأخرى منذ السادس عشر من يونيو فبدأ جيش الألب احتلاله لساكسونيا في نفس اليوم الذي بدأ فيه الجيش النمساوي سيره من الموتيز نحو چوزيفستادت Josephstadt على الألب العلوي.

وكان الجيش النمساوي يجمع أحسن التقاليد التاريخية للجندية النمساوية، وكانت روحه المعنوية عالية، وكان ضباطه كلهم ذوي كفاية وتجربة عملية كبيرة فضلًا عن أنه كان فيهم الكثيرون من خير قادة ذلك العصر؛ وكانت بعض أسلحة الجيش النمساوي، وعلى الأخص الفرسان والمدفعية، أفضل من مثيلاتها في الجيش البروسي، ولكن كانت قوة الجيش البروسي في الواقع تكمن في مشاته، ولم تكن مدافع البروسيين في حد ذاتها وحدها تكفي للحصول على النصر كما ثبت هذا في الحرب ضد فرنسا حيث قاتل البروسيون ضد مشاة يحملون بنادق أفضل من بنادقهم، ولكن كانت تكتيكات النمساويين كما كانت مدفعيتهم القديمة الطراز هي السبب في أن تقف الأفضلية في الجانب المضاد.

وانقلب تأرجح كفتي الميزان بسبب قلة الكفاية الاستراتيجية للقيادة النمساوية العليا، كان «بنيديك» Benedek ضابطًا جيدًا مع سجل عسكري حافل في خدمة إمبراطورية آل هبسبورج، وكان في حال جيدة طوال المعركة

وقد وجه جنوده بلا خوف توجيهًا صحيحًا حتى في توجيهه لتقهقر جيشه المنهزم في ميدان معركة «سادوڤا»، ولكن بنيديك قد نشأ في المدرسة الكلاسيكية للفكر الاستراتيجي، وكان مستشاره الاستراتيجي الجنرال كريسمانيك Krismanic ـ والذي لم يكن له رأي في اختياره ـ رجلًا عاش في الفكر العسكري للقرن الثامن عشر، وكان لهذه العوامل كلها الأثر الأكبر في توجيه القيادة العليا النمساوية لاستراتيجية الحرب، فقد استهدفت القيادة النمساوية التشكيل في عمق وأصرت على الاحتفاظ بمواقع طبيعية قوية على حين أوضح مولتكه من جانبه أن «المسافة» يمكن أن تقهر بعامل «الوقت».

وقد تحرك الجيش النمساوي من موراڤيا في ثلاثة قولات متوازية، وبالرغم من أن الجهد كان كبيرًا فإن النمساويين وصلوا إلى أهدافهم بسرعة وفي نظام جيد، ولكن بعد وصول الحرس الأمامي إلى چوزيڤستادت يوم ٢٦ يونيو، كان حشد الجيش ثانية في كتلة واحدة يتطلب ثلاثة أيام، وربما كان ضياع الوقت هنا هو الذي أنقذ الجيش البروسي.

وبالرغم من تحذيرات مولتكه المستمرة فإن الجيش الأول كان بطيئًا في تقدمه تبعًا لأن البرنس فردريك كارل أراد أن ينتظر جيش الألب الذي كان سينضم إلى قيادته بعد احتلاله لساكسونيا، وقد أعطى هذا لبينديك فرصة استخدام خط العمليات الداخلي.

وهنا تثب إلى الضوء مسألة كانت مثار مناقشة طريفة بين طلاب التاريخ العسكري وهي: «أي من الجيشين المتساويين في القوة كان على بينديك أن يهاجمه؟»، وربما كان تقدير بينديك صحيحًا عندما قدر أساسيًّا الهجوم



جنرال مولتكه «الكبير»

(١٨٠٠ ـ ١٨٩١)

على الجيش الأول، ولكنه مع هذا قد فشل أن يقدر ـ في الوقت المناسب ـ أن أمامه فقط يومًا وحدًا وربما يومين اثنين ليبدأ الهجوم ضد أحد الجيشين البروسيين دون أن يخشى أن يجيء الجيش الثاني إلى مؤخرته، ولكن الفرصة أفلتت بسبب إيمان القيادة النمساوية العليا في النفع التكتيكي للمواقع القوية أكثر من إيمانها بالقيمة التي لا تقدر لعامل الوقت ثم بسبب أن الحشد المبكر للجيش قد عطل من خفة حركته، وعندما اكتشف بينديك خطأه كانت حتى فرصة التقهقر وراء الألب عند چوزيفستادت وكورينجراتز قد أفلتت، وكان عليه أن يتقبل المعركة والنهر في مؤخرته.

وبدأ مولتكه ـ عندما وضح له أن خطر الهجوم النمساوي على واحد من الجيشين البروسيين قد انتهى ولم يعد من سبيل لتحقيقه ـ يؤجل من حشد جيوشه مبقيا كلًّا منهما على مسيرة يوم واحد من الآخر ليضمن اتحادها معًا في مسرح المعركة.

وقد صدرت الأوامر النهائية ليلة ٢ يوليو، وكانت الأوامر أكثر جرأة مما أظهرها تنفيذها، وعلى تقدير مولتكه كان الجناح الأيسر للجيش الثاني والجناح الأيمن للجيش الأول سيعملان، لا ضد جناحي النمساويين وحسب، بل وضد مؤخرتهم، وقد فكر مولتكه في «سادوڤا» كمعركة تطويق، ولكن القادة البروسيين لم يتبعوا تعليماته واستطاع الجيش النمساوي النجاة وإن كان قد فقد ربع قوته، ولم يكن من الممكن القيام بمطاردة مباشرة بسبب أن جنود الجيش الثاني تقدموا في مواجهة الجيش الأول فسببوا اضطراب الصفوف وتشابكت وحدات الجيشين بعضها في بعض مما وضح معه أن هذا الموقف المضطرب يتطلب وقتًا لفصل القوات

وإعادة تنظيمها، وقد أثبتت معركة «سيدان» بعد أربع سنوات من هذا أن البروسيين قد تعلموا الدرس، ولو أنهم في سيدان قاتلوا جيشًا فرنسيًّا أقل عددًا من الجيش النمساوي.

وقد أوضح مولتكه باستراتيجيته أن أهمية خط العمليات الداخلي ـ الذي كثر التفاخر به والتشدق بالحديث عنه ـ إنما هي أهمية نسبية، وقد أوجز تجاريبه في قوله: «لا تتوافر فوائد خط العمليات الداخلي ما لم تتوافر لك المسافة الكافية لتتقدم ضد عدو واحد «يقصد قوة واحدة للعدو» على عدد من خطوط السير، وبذلك تحصل على الوقت الكافي لتنتصر على هذا العدو وتطارده ثم تتحول نحو عدو آخر، على شريطة أن يكون هذا العدو الثاني طوال قتالك للعدو الأول تحت مراقبتك، فإذا ضاقت هذه المسافة بحيث لا يمكنك مهاجمة العدو الأول دون أن تجازف بمواجهة هجوم العدو الثاني على جنب قواتك ومؤخرتها فإن النفع الاستراتيجي لخط العمليات الداخلي ليتحول ليكون ضررًا تكتيكيًّا ناجمًا عن عملية التطويق في أثناء المعركة».

وقد فسرت كلمات مولتكه على أنها قضاء حاسم ضد العمليات على الخطوط الداخلية، وأنها توصية للقيام بمناورات مركزة؛ أي مناورات تستند كلها إلى مركز واحد؛ ولكن في الواقع لم يكن هذا التفسير هو رأي مولتكه ذلك لأنه في الحرب الفرنسية / البروسية لسنة ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ استخدم كلتا النظريتين بطلاقة ونجاح مستندًا أساسًا إلى ما يقوم به العدو فيعمل هو تبعًا لهذا، وقد امتازت استراتيجية مولتكه بتحرر تفكيره وتحوله المرن من تطبيق نظرية إلى استخدام أخرى «بسرعة تبعًا للموقف».

وقد قيل إن استراتيجية مولتكه إنما هي انعكاس للقوة العسكرية الممتازة

التي توافرت لبروسيا في ذلك الوقت، ولكن مثل هذا الحديث يعتبر صحيحًا مع بعض التحفظات ففي سنة ١٨٦٦ كان على مولتكه أن يوجد الأفضلية القليلة في قوة الجيوش البروسية في بوهيميا، وقد جازف بأن سحب الجنود من كل الولايات الألمانية تاركًا جيشًا صغيرًا جدًّا للعمل ضد حلفاء النمسا من الألمان؛ ولو كانت حملة بوهيميا قد استمرت لوقت أطول أو كانت قد توقفت دون نتيجة حاسمة لكان نابليون الثالث قد انتفع بالفرصة للاستيلاء على أرض الرين، ولكان في استطاعته أن يقرر مستقبل القارة، وهذه إمكانيات لم تتوافر له إبان الحرب ١٨٧٠ـ ١٨٧١ .

واستطاعت بروسيا ـ ألمانيا ـ أن تتنفس الصعداء في يسر وطلاقة بعد معاهدة فرانكفورت، فقد وجدت الحكومة التي نجحت في منع التعاون العسكري بين جارتيها فرنسا وروسيا، وقد قدر مولتكه هذه الخطورة لأول مرة في سنة ١٨٥٩ ، ولكنها كانت سحابة تمر في أفق السياسة، إلا أنه منذ سنة ١٨٧٩ بدأت إمكانيات التعاون بين فرنسا وروسيا تتضح بصورة أقوى وأعظم في أفكار هيئة أركان الحرب البروسية، فلما تم الحلف الفرنسي / الروسي في فجر الحلقة التاسعة من القرن التاسع عشر كان لهذا الحلف الاعتبار الاستراتيجي الرئيسي.

وكانت خطط مولتكه بالنسبة لهذا الموقف تتمشى في اتجاه واحد مع استراتيجيته في الماضي، أي أن يقاتل عدوًّا واحدًا بأقل ما يمكن من قوة حتى يتيسر له أن يعد أكبر ما يمكن من قوة لتدمير العدو الآخر، وكانت نصيحته هي الوقوف للدفاع في الغرب مع القيام بالهجوم ضد الروسيا، ومن الضروري أن نضع موضع التقدير أن ألمانيا ـ وهي تمتلك أرض الألزاس واللورين ـ تستطيع أن تدافع عن حدودها الغربية بقوات صغيرة

حيث لا يمكن أن تأمل في تحقيق قرارات حاسمة ضد هذا الخط من التحصينات الفرنسية، على حين يمكن في ذات الوقت الحصول على نتائج أعظم وأهم ضد الروسيا.

ولكن الكونت ڤون شليڤن ـ الرجل الثاني الذي خلف مولتكه كرئيس لهيئة أركان الحرب البروسية ـ لم يلبث أن قلب هذا الوضع في سنة ١٨٩٤؛ ومنذ ذلك التاريخ بدأت الخطط الألمانية للقتال في جبهتين تقوم على أساس الهجوم أولًا في الغرب.

* * *

[٣]

ولد الكونت ڤون شليڤن سنة ١٨٣٣ سليل أسرة من النبلاء قدمت عددًا من أعلام العسكريين والموظفين المدنيين لخدمة ملك بروسيا؛ وكان قصر نظره وتحفظه في الحديث وشغفه بالدراسات العامة ـ كل هذا ـ يؤهله للخدمة المدنية أكثر من أن يؤهله للخدمة العسكرية، *والواقع* أنه لم يفكر قبل التحاقه بالجيش لأداء الخدمة الإلزامية لسنة واحدة في أن يكون ضابطًا، على أنه لم يلبث أن تحول إلى الدراسة العسكرية وقضى في الكلية الحربية الأمد بين ١٨٥٨ و ١٨٦١ وبدا لأول وهلة إمكان إعداده للمراكز الكبيرة في هيئة أركان الحرب، على أنه كان يغير من عمله على فترات متنقلًا بين هيئة أركان الحرب العامة وبين العمل في وظيفة أركان الحرب في وحدات الجيش، ولبث كذلك حتى سنة ١٨٧٦ عندما تولى قيادة الآلاي الأول من حرس «الأوهلن» في بوتسدام حيث بقي لسبع سنوات، ثم عاد ثانية إلى هيئة أركان الحرب العامة سنة ١٨٨٣ وظل بها حتى تقاعد في سنة ١٩٠٦ بعد أن عمل رئيسًا لأقسامها المختلفة على التوالي متنقلًا من رياسة قسم إلى رياسة آخر حتى تولى رياسة هيئة أركان الحرب كلها منذ سنة ١٨٩١ ، فكأنه قضى في رياسة هيئة أركان الحرب الألمانية خمس عشرة سنة متوالية.

وقد مكنته طبيعة حياته في السنوات التي سبقت توليه رياسة هيئة أركان الحرب من الاتصال وثيقًا بحياة الجنود أكثر مما كانت الحال بالنسبة لمولتكه، وقد توافرت لشليڤن تجربة عملية في الحرب أكثر مما اكتسب مولتكه في سنة ١٨٦٤؛ وفي سنة ١٨٦٦ كان شليڤن بين أفراد هيئة أركان الحرب لفيلق

الفرسان، وشهد معه معركة سادوڤا التي تركت أثرًا كبيرًا في نفسه، ولكنه لأسفه لم يسهم في معارك الحدود في الحرب الفرنسية ـ البروسية إلا أن الفرصة واتته ليكشف عن مواهبه عندما خدم في هيئة أركان الحرب لأحد الجيوش في حملة اللوار، وفي هذه الحملة جمع لنفسه حصيلة طيبة من الآراء والنظريات عن الحرب والقيادة.

على أننا عندما نقارن حياة شليڤن بالكفاح الذي بدأ به مولتكه حياته فإنا نجد أن ترقي شليڤن للرياسة كان سهلًا هينًا، ثم إن شليڤن لم يفكر قط في أن نصائحه كرئيس هيئة أركان الحرب يمكن أن ترفض أو أن تعطل وهذا أمر لم يتوافر لمولتكه منذ أن تولى الرياسة في سنة ١٨٥٧ «وحتى اليوم الثاني من يونيو سنة ١٨٦٦ عندما أصدر الإمبراطور أمره بأن يتولى مولتكه كل شيء!!».

والواقع أنه قبل سنة ١٨٦٦ لم يكن من منازع لنفوذ هيئة أركان الحرب العامة ولكن كل هذه السلطات التي حصلت عليها هيئة أركان الحرب الألمانية بعد سادوڤا وسيدان كانت من نصيب شليڤن «في ثوب مولتكه»(*)؛ وهكذا كان شليڤن أقدر من سلفه مولتكه على التصرف لحل المشكلات العسكرية متجاهلًا جوانبها السياسية.

«وهنا مسألة تستحق الذكر» فإن زيادة الاحتراف والتخصص الأمر الذي كان طابع الحياة في أواخر القرن التاسع عشر قد انعكست صورته في

(*) في الأصل "with Moltko togon" وكلمة "togon" تعني قطعة القماش التي كان مواطنو روما القديمة يتدثرون بها فوق ثيابهم لتدل على درجة ووظيفة الفرد، وكانت لهذا تختلف ألوانها، ويمكن ملاحظة هذا من مراجعة صور ورسوم العصر الروماني – مُعجم ويبستر ص ١٥٣١ (المترجم)

حياة قادة الجيش الألماني، وعندما درس شليفن في الكلية الحربية في منتصف القرن التاسع عشر كان تأثير الأخصائيين والفنيين قد بدأ يطغى على المعتقدات التاريخية الفلسفية القديمة هذه المعتقدات التي كانت هي الغذاء الروحي لمولتكه والتي توضح إلى حد بعيد اتجاه تفكيره، وكان للطابع الجديد تأثيره في شليفن فتوافرت له طبيعة خالصة أصيلة دفعته لتطلب تحقيق المستحيل وأبقت جهوده في نطاق الجو الفني الذي يعمل فيه؛ فهو لم يتعمق إلى حد بعيد في دراسة الأسباب السياسية للحرب ولا في بحث نتائجها. وإذا كان مولتكه قد بقي بعيدًا عن الانغمار في السياسة إلا أنه كان مدركًا للقوى السياسية وقد حاول أن يكيف استراتيجيته تبعًا له، بينما بقي شليفن على نقيضه واقفًا حياته كلها للمشكلات العسكرية وحدها، ثم تركته وفاة زوجته الصغيرة بعد حياة زوجية قصيرة عازفًا عن كل شيء إلا واجباته كرئيس هيئة أركان الحرب. وقد كانت هذه الرعاية القوية من جانب شليفن لواجباته العسكرية شيئًا غير إنساني بالرغم من أنه بدا لطلبته ومريديه على أنه مثالي في إنسانيته، كما أوضح عقله وتفكيره لأولئك الذين يتوقون للتعمق في أسرار القيادة الحديثة ما توافر له من اجتذاب مسيطر أخاذ.

وبالرغم من اتساع نطاق هيئة أركان الحرب البروسية وازدياد عدد أعضائها على الأيام بعد سنة ١٨٩١ فإنها لم تتغير كمعهد دراسي، وبقيت واجباتها وخواصها تعليم الحرب للحرب والإعداد للعمليات، وكان أهم ما أسهم به شليفن من الناحية الفنية هو ازدياد التطور والتحسين في النقل البري بالسكك الحديدية، وإيجاد المدفعية الثقيلة الخفيفة الحركة برغم معارضة المحافظين المتزمتين من أفراد الجيش، ثم إيجاد وتكوين بعض

الفروع العسكرية الجديدة كمهندسي الجيش للسكك الحديدية، ومثل السلاح الجوي.

وكان شليفن معنيًّا بكل المسائل الفنية الحديثة إلا أنه لم ينجح بدرجة كبيرة في جعل الضباط أنصاف الإقطاعيين يؤمنون بضرورة الانتفاع الكامل من المكتشفات الحديثة؛ فقد بقي الضباط يشكون من هذه المناحي الفنية الحديثة عازفين عن أن يوكلوا إلى الفنيين والمهندسين دورًا رئيسيًّا في المسائل العسكرية، على أنه في أثناء الحرب العالمية الأولى كان ضباط المدفعية الثقيلة والمهندسون العسكريون للسكك الحديدية هم وحدهم الكفاة حقًّا للقيام بدورهم، ولم يكن سلاح الجو الألماني ولا سلاح الإشارة كافيًا أو صالحًا للقيام بدوره على الوجه الأكمل، والأسوأ من هذا هو أن قيادة الجيش لم تكن متأهبة لاستخدام الإمكانيات الفنية الجديدة، ثم جاءت معارك الدبابات في سنة ١٩١٨ بتغيير كبير يمكن أن تتضح نتيجته في تنسيق الخدمات الفنية والعسكرية في جيش هتلر.

وقد عني شليفن عناية كبيرة بالمسائل الفنية الحديثة، لا بسبب اعتقاده أن هذا التطور الفني سينزل الاستراتيجية عن عرشها، بل بسبب أنه رأى فيه تحديًا جديدًا للقيادة العسكرية. وقد أشار بأسلوبه الساحر ذات مرة إلى تقدم التطور الفني الحديث قائلًا: «ولو قدرنا فوائده النفيسة ـ يقصد التطور الفني ـ بين كل الاتجاهات بعدالة وبالتساوي دون التحيز إلى جانب ما، يمنحه أكثر مما يمنح للجانب الآخر لوجدنا أن هذا التطور الفني قد أوجد أعظم الصعاب كما سبب الكثير من الأضرار»[1].

(١) "Der Krieg in der Gegenwart" in Schliffen, Cannae, p. ٢٧٤

والواقع أنه من بين النتيجتين الرئيسيتين للعصر الصناعي؛ ألا وهما «السرعة» و«الوفرة في الإنتاج» فإن «الوفرة في الإنتاج وحدها هي التي أثرت في صناعة الحرب، وقد بسطت الجيوش المحتشدة الحديثة ـ مع الزيادة الكبيرة لقوة نيرانها ـ من استراتيجية الحرب الخفيفة الحركة في الصورة التي أوجدها نابليون ثم مولتكه من بعده، ولكن شليڤن انتقد أولئك الضباط الذين تقبلوا في خضوع فقدان خفة الحركة وقوة المناورة، ولم يفكروا في حلول أخرى غير المواقع الدفاعية أو الهجمات الأمامية بالمواجهة، وقد كتب شليڤن: «لقد أثبتت الحرب الروسية اليابانية أنه ما زال من الممكن نجاح الهجمات بالمواجهة برغم كل الصعاب إلا أن نجاحها في أحسن الأحوال يكون صغيرًا فمن الممكن إرغام العدو على التقهقر للخلف، ولكنه بعد وقت قصير يعود ثانية للمقاومة التي يكون قد نزل عنها مؤقتًا، وهكذا تستمر الحرب، توقف موقوت عن المقاومة ثم عودة إليها من جديد، إن مثل هذه الحروب يعتبر مستحيلًا عندما يكون بقاء الأمة قائمًا على التقدم للتجارة والصناعة، إن استراتيچية «الملامسة»[*]«لا تصلح إذا كانت مطالب ملايين الناس تتطلب فقد البلايين منهم»[1]؛ وفي رأي شليڤن أن

(*) ذات المرجع ص ٢٧٩ – ٢٨٠ و ٨٧ – ٨٦ Cf. Dienstschriften, I,.

(١) "Strategy of Attrition" يعني هذا إجهاد العدو بالضربات المستمرة المتتابعة دون القيام بهجوم كبير والاشتباك به اشتباكاً عنيفاً، وتعتبر عمليات "الحصار" من عمليات استراتيچية الملامسة عندما تقوم على عامل الوقت لإجهاد العدو بحرمانه من موارد إمداده وتموينه دون تكبد خسائر كبيرة باقتحام مواقعه، وقد كانت نظرية تجنب النقط القوية والتسرب إلى ما وراءها بعد عزلها هي أساس عمليات الحرب البرقية كما كانت أساس إيجاد نظريات الدفاع الشبكي حتى تستطيع كل نقط المنطقة الدفاعية متابعة القتال كلٍ منها على حدة باعتبارها "جزيرة من جزر المقاومة" – المترجم

استراتيچية الإفناء والتدمير تمامًا هي وحدها التي يمكن أن تحفظ وتبقي النظام الاجتماعي قائمًا.

ولم يتنبأ شليفن بالحرب الشاملة ولو أنه خشي أن هذه التغييرات الاجتماعية الأساسية ستكون مؤكدة في الحرب الطويلة الأمد؛ وقد أضاف القلق من أن يفشل الاستراتيچيون المعاصرون في الاحتفاظ بمكانتهم وتفكيرهم.. أضاف ظلًّا قاتمًا إلى أفكاره وتعاليمه، لقد اكتسب شليفن مكانته في التاريخ كمفكر وكأستاذ في الاستراتيچية، ومن غير الممكن القول بما إذا كان قد أثبت أيضًا قدرته كقائد عظيم في الحرب، لقد توافرت له الخواص التي بدا أنها تؤهله بذاته للقيادة في الحرب، ولم يرتبك تفكيره قط بالاعتبارات القليلة القيمة ولم يكن ليضطرب بالأحداث، ثم إنه بالرغم من هدوء طباعه فإن شخصيته المشعة كانت تبعث قوة تلهب كل أولئك الذين يحيطون به، وكان طلابه يؤمنون بأنه سيكون أستاذًا عارفًا بصناعته وسيدًا عظيمًا في ميدان المعركة كما هي الحال وهو أمام «خريطة العمليات» في مكتبه، ولم يكن بين قادة الحرب العالمية الأولى من يمكن أن يقارن أو يوازن بعظمته هو؛ وكما حدث بالنسبة لشارنهورست مات شليفن في وقت كانت ألمانيا تعد فيه أمرًا مهمًّا شغله حتى آخر لحظة من حياته في يناير سنة ١٩١٣ في حل مشكلات ألمانيا العسكرية؛ لقد بقي ظله واضحًا للنظارة يسيطر على كل التصرفات في الحرب العالمية الأولى، ثم في الحرب العالمية الثانية، ومن الصعب تقدير تأثيره ونفوذه على الفكر العسكري الألماني. وقد أطلق عليه الجنرال بيك رئيس هيئة أركان الحرب الألمانية في الفترة التي تسلحت فيها ألمانيا من جديد سنة ١٩٣٨. أطلق عليه: «الأول بين عمداء أساتذة الاستراتيچية»، ولو أن الجنرال ڤون فريتش قد أضاف إلى رأيه الخاص

تحذيرًا جاء فيه: «أن التقدم الكبير المتزايد في المسائل الفنية منذ وفاة شليڤن قد يجعل بعض قواعده وأصوله تبدو وكأنها لم تعد صالحة و«مقبولة»»[١].

وقد أكد الحلف الفرنسي / الروسي لسنة ١٨٩٣ أنه في حالة قيام حرب أوروبية فإن ألمانيا ستضطر لخوض الحرب في جبهتين، وقد وضح أنه لا أمل في منافسة الكتلة الفرنسية / الروسية من ناحية تعداد الجيوش، فلم تكن النمسا والمجر ـ لأسباب سياسية ـ بقادرة على أن تمد من تسليحها بدرجة كبيرة، ولم يكن من الممكن كذلك اعتبار إيطاليا حليفة لألمانيا، كما أنه كان من الواضح مع مرور الوقت أن بريطانيا تتحول لتكون خصمًا عسكريًّا، ولكن من جهة أخرى فإن ألمانيا كانت لا تزال تملك الانتفاع بمركزها المتوسط في قارة أوروبا إذا ما خاطرت وجازفت بتقسيم غير متساوٍ لقواتها بإيجاد قوة ضرب كبيرة جدًّا في أحد ميداني الحرب في المراحل الأولية لها، وكان في رأي شليڤن أن هذه الأفضلية المؤقتة التي تتوافر لألمانيا يجب أن تستخدم لا حيث يمكن الوصول لكسب المعارك وحسب، بل حيث يمكن الحصول على قرارات سريعة من الحرب؛ وكانت توصية مولتكه الكبير «بالقيام بحرب دفاعية ضد فرنسا وبحرب هجومية ضد الروسيا» لا تؤكد هذا النجاح فستكون العمليات في الشرق مضيعة للوقت تبعًا لأن السهول الشرقية الفسيحة ستسمح للروس باستخدام «تكتيكات التخلص» أي «تكتيكات تجنب المعركة لإجهاد العدو المهاجم»[*].

---

(١) في المقدمة للجزئين الأول والثاني من كتاب شليفن "Dienstschriften".

(*) في الأصل Evasive Tactics، وتعني كلمة Evasive التحايل لمحاولة الفكاك وتجنب القتال، والاصطلاح في جملته من الناحية العسكرية يعني تكتيكات "التملص !!" أي عدم الاشتباك الجدي العنيف، بل الاصطدام مع سرعة التخلص والارتداد للخلف لمسافة ما ثم إعادة الاصطدام والتخلص والارتداد وهكذا، وبذلك فإن الجيش الذي يقوم=

ثم إن القتال المائع في الغرب دون أن ينتصر أي من الجانبين المتقاتلين انتصارًا حاسمًا، والقتال الطويل الأمد في الشرق سيجعلان بريطانيا سيدة الموقف في أوروبا، وقد حذر مولتكه ـ حتى دون توقع تدخل بريطانيا في القتال ـ من أن حروب المستقبل ستكون على خلاف حروب سنة ١٨٥٩ و ١٨٦٤ و ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ طويلة الأمد، وقد قرر شليفن سنة ١٨٩٤ أنه للتغلب على الخطر الذي ستسببه الحروب الطويلة الأجل يجب في حالة الحرب القيام بالهجوم أولًا ضد فرنسا.

وقد بنى شليفن أسباب هذا على أساس حقيقة واحدة هي أن فرنسا هي الخصم الأقوى وأنها هي الخصم الذي تحتشد قواته ومن الممكن الاصطدام به مع التأكد من الحصول على قرار حاسم ضده في وقت مبكر من الحرب، وستجعل السيطرة على فرنسا التدخل البريطاني غير متوقع أو عديم الأثر؛ ولكن للحصول على قرار حاسم في الحرب الأوروبية نتيجة للقتال ضد فرنسا يجب ألا يكتفى بإرغام الجيش الفرنسي على التقهقر إلى داخل البلاد الفرنسية أو حتى باحتلال باريس، بل من الضروري القضاء تمامًا على كل القوات المسلحة التي تضاد ألمانيا في الغرب وتحطيمها وسحقها.

ولكن خطة شليفن الأولى للهجوم على فرنسا والتي وضعت سنة ١٨٩٤

=بالهجوم يُتابع التحول من عمليات السير إلى عمليات "الفتح" والتشكيل للمعركة ثم العودة للتجمع والفتح وهكذا دون أن يحصل على قرار حاسم، ودون القدرة على سحق القوات التي ترتد من مواقع إلى مواقع أخرى في الخلف دون ما حرج، لأن المساحات الواسعة والمسافات البعيدة تُمكنها من هذا، وقد استخدم الروس هذه التكتيكات ضد نابليون سنة ١٨٨٢، ولكنهم لم يستخدموها سنة ١٩١٤ لأنهم قاموا بالهجوم في بروسيا الشرقية ولولا تقدمهم بالجيش الأول والثاني تفصل بينهما بحيرات الماسوريان لما نجح هندنبرج في تاننبرج واستطاع القضاء على كل من الجيشين على حدة. (المترجم).



شارلنهورست (١٧٥٥ ـ ١٨١٣)

لم تكن صالحة تمامًا للوصول إلى تحقيق معركة أخرى كسيدان وعلى نطاق واسع فقد كانت الخطة تقوم على أساس هجوم أمامي كامل من اللورين، ثم إن القوة المتزايدة للتسليح الفرنسي جعلت هذا التخطيط مشروعًا باهظ الثمن، وفي السنوات ما بين سنة ١٨٩٤ وسنة ١٩٠٥ عدل شليڤن تدريجيًّا من خطته الفضفاضة الواسعة للهجوم الألماني والذي كان سيكتسب قوة الدفع القوية من ثقل الجناح الألماني الأيمن الذي يدور عن طريق لوكسمبورج والبلچيك وجنوب هولندا.

وقد أعطت مذكرة عام ١٩٠٥ لهذه الآراء الاستراتيچية الخاصة بالقتال في الغرب صورتها «الكلاسيكية» ولو أن شليڤن قد بقي حتى وفاته يعيد دراستها واختبارها ويعيد بحث مشكلاتها؛ وقد وافقت هيئة أركان الحرب الألمانية كما وافقت الحكومة الألمانية على مبدأ الحرب في جبهتين مع هجوم خاطف ضد فرنسا برغم ما في هذا من مخاطرة سياسية عظيمة تبعًا لاختراق حياد البلچيك وهولندا؛ وكان التخطيط يتضمن أيضًا حراسة الجبهة الشرقية بقوات صغيرة على أن تستخدم ثمانية أتساع الجيش الألماني للقضاء على قوات فرنسا المسلحة، ومع هذا فإنه كان على الجيش الألماني في الشرق ـ تبعًا لآمال شليڤن ـ ألا يرتد فورًا إلى ما وراء قلاع نهر الڤستيولا، بل يجب أن يحاول مهاجمة الجيوش الروسية التي ستضطرها بحيرات الماسوريان إلى أن تقسم قواتها التي تغزو بروسيا الشرقية «بدلًا من التقدم في كتلة واحدة قوية»، وقد يمكن اقتران استخدام الخط الداخلي باستراتيچية التطويق، الذي يمكن القوات الأقل عددًا من الحصول على النصر.

وقد حققت معركة «تاننبرج» التي حدثت في الثامن والعشرين من أغسطس ١٩١٤ والتي أمكن بها إفناء جيش سامسونوف الحلم الذي

داعب شليفن بالحصول على النصر في الشرق، على أن خطة هذه المعركة كانت قد وضعت أصلًا بواسطة شليفن، كما أنه كان قد اختبرها مع ضباط هيئة أركان الحرب في المباريات الحربية على الخرائط(*)، وفي سنة ١٩١٤

(*) المباريات الحربية War Games هي مشروعات التدريب لأفراد هيئة أركان الحرب وتكون عادةً ذات جانبين في كل جانب بعض الضباط الذين يُمثلون قيادة تشكيل ما كلواء أو فرقة أو فيلق مع هيئة تتولى إدارة المشروع وفرض المواقف المختلفة نتيجة الأوامر التي يُصدرها كلٌ من الجانبين، ويكون كلٌ من الجانبين طوال المشروع وكأنه في ظروف المعركة فعلاً وحتى لو فرضت الهيئة التي تتولى إدارة المشروع أن طائرات العدو تقذف مكان الرياسة بالقنابل وجب الذهاب إلى المخابيء ... وإذا فرضت إلقاء الغازات السامة وجب العمل مع ارتداء القناعات الواقية من الغاز، وتقرر في النهاية الهيئة التي تتولى المشروع أوجه الإجادة أو الخطأ في عمل أفراد الجانبين، ويستمر المشروع الواحد لعدة أيام يتناوب الضباط طوالها العمل كما في وقت الحرب تماماً، ولهذه المباريات أثرها الكبير في إعداد الضباط أركان الحرب للقيادة في ميدان القتال.

وقد جاءت "مباريات الحرب" من الأصل الألماني "Kriegspiel" وقد اخترع الماريشال كيت الألماني نوعاً من هذه المباريات على طراز الشطرنج أسماه "شطرنج الحرب"، على أن "مباريات الحرب" في صورتها الحديثة أوجدها ضابط بروسي اسمه فون رايزوتيز (١٧٩٤ – ١٨٢٦) في سنة ١٨٢٤، وانتشرت هذه المباريات بسرعة في البلاط الألماني كوسيلة للتسلية، ثم أدخلت في الجيش البروسي كوسيلة للتدريب ثم انتشرت في كل جيوش العالم، وفي سنة ١٨٩٨ أوجد ف. ت. جان نموذجاً منها للحرب البحرية.

وقد بدأت المباريات بدراسة معارك معروفة من التاريخ ووضع الجنود طبقاً للأوضاع المعروفة عند بدء المعركة، ولهذا كانت الخرائط تُعد كلها بمقياس واحد، فلما استخدمت هذه المباريات لأغراض التدريب أعدت الخرائط بمقياس كبير حتى يتوافر المكان لإيضاح التفاصيل الضرورية كالمرتفعات والطرق والمباني ومجاري المياه وسياجات الأشجار وغير هذا من الصور الطبيعية التي تؤثر في التحركات.

ولما كانت الخريطة هي ميدان المعركة وجب أن تمثل القوات بقطع خشبية ملونة لإيضاح قوات الجانبين المُتضادين وقد استخدم في البداية اللونان الأحمر والأزرق فقط.

وقد وضع قانون لهذه المباريات، ومع الزمن ثبت أنه من الضروري وجود جماعة تحكم المباراة فأغفلت القوانين وترك للحكام تقدير المواقف في المباريات، ومن هنا نشأت فكرة=

طبق هوفمان ولودندورف(*) هذه المباراة الحربية «على الأرض هذه المرة لا على الخرائط» بصورة كانت ولا شك ترضي أستاذهما العسكري؛ ولم يتوقع شليفن قط أن معركة في الشرق من هذا النوع سيكون لها التأثير الحاسم في استراتيجية الحرب، بل أمل فقط في الحصول على نصر يمكن أن يكسبه الوقت لإكمال عملياته العظيمة في الغرب.

ومع أن استراتيجية هذه المعركة في الشرق أو استراتيجية معركة من طراز تاننبرج قد بدت لشليفن على أنها أحسن ما يمكن أن يدل على عبقرية القيادة فإن هانز ديلبروك المؤرخ العسكري قدم في المجلد الأول من كتابه «تاريخ فن الحرب» ـ المطبوع سنة ١٩٠٠ والذي بحث فيه الاستراتيجية

=الاستعانة بثلاث خرائط، يستخدم الحكام واحدة منها يقدرون عليها المواقف ويصدرون تبعاً لها الأوامر والتعليمات، ومع هذا فإن المباريات لا تزال تتبع نفس الأسلوب الذي وضعه لها الألمان منذ الربع الأول للقرن التاسع عشر الميلادي. (المترجم).

(*) لودندورف، إيريك ڤون (١٨٦٥ - ١٩٣٨) ولد في كروسيڤنا قرب بوزن بدأ حياته في مُشاة البحرية وانتقل للجيش سنة ١٨٩٠ كان في فجر الحرب قائد لواء في ستراسبورج وانتقل رئيس أركان حرب الجنرال إيمتش في حصار لييج وإلى مواهبه يرجع نجاح الألمان في اختراق التحصينات، وفي ٢٢ أغسطس ١٩١٤ عين رئيس أركان حرب لهندنبرج الذي تولى قيادة الجيش الثامن في بروسيا الشرقية، وكسب معركة تاننبرج ثم أرسل إلى الجنوب للعمل مع الجيش النمسوي عند برزميسل وتولى منصب رياسة الإمدادات والتموين عندما تولى ڤون هندنبرج رياسة هيئة أركان الحرب، وفي سنة ١٩١٨ كان يُلح لتوقيع الهدنة مع الحلفاء، ثم استقال من منصبه في ٢٦ أكتوبر سنة ١٩١٨ وفر إلى السويد في ثياب مدنية ثم عاد إلى ألمانيا وأقام في ميونيخ، ويعتبره المؤرخون الألمان بين الذين تسببوا في هزيمة ألمانيا وينسبون كل ما حصل عليه من الانتصارات إلى الجنرال ماكس ڤون هوفمان، وللودندورف عدة مؤلفات أهمها "ذكريات الحرب" التي طبعت سنة ١٩١٩، و "هيئة أركان الحرب ومشكلاتها" ١٩٢٠ و "الحرب والسياسة ١٩٢٢" وقد أرخ له الكولونيل ڤون هورستينو في كتابه "اضمحلال النمسا والمجر" المطبوع سنة ١٩٣٠. E. Encycl Vol. ٨ p. ٥٨١ (المترجم).

القديمة ـ ما وجده من صورة قديمة تماثل هذه المعركة ألا وهي انتصار قرطاچنة في معركة «كانِّي»؛ ففي سنة ٢١٦ قبل الميلاد أفنى هانيبال جيشًا رومانيًّا يفوق جيشه عددًا نتيجة لتقبله بشجاعة أن يواجه هزيمة موقوتة في الوسط ليكون في قوة تكفي لأن يدمر جناحي العدو ويحدق بقواته عليهما، وقد رأى شليڤن أن كل كبار القادة في التاريخ قد استهدفوا القيام بصور مماثلة لما حدث في «كانِّي» ولم يكن لدى فردريك الأكبر القوات الكافية ليوجه مثل ضربات الإفناء هذه، ولكن انتصارات فردريك تعتبر في رأي شليڤن كمعركة «كانِّي» فقط في صورة غير كاملة، وقد أبدى نابليون وهو في ذروة مجده صورة مشابهة لهانيبال كما حدث في حملة سنة ١٨٠٥ التي مكنت من الإمساك بجيش «ماك» في «أولم». ثم إن هزيمة نابليون بدورها كانت نتيجة لاستراتيچية تماثل استراتيچية «كانِّي» وعلى الأخص في معركتي ليبزج ووترلو؛ وكان هذا الحديث صحيحًا أيضًا بالنسبة لمعركة سادوڤا وإن كان «التنفيذ» في سادوڤا لم يصل إلى هذه الدرجة الكبيرة من المهارة، وقد نفذت ـ في العصر الحديث ـ معركة سيدان في الأسلوب الكامل الصحيح كمعركة «كانِّي».

وكان شليڤن يميل إلى تبسيط التاريخ العسكري، وقد كون آراءه الاستراتيچية في دراسة التكتيكات الحديثة ثم استطاع بسهولة كبيرة أن يتعمق بهذه الآراء الحديثة إلى الماضي التاريخي، وقد يحق لنا هنا أن نسأل عما إذا كانت استراتيچية نابليون بالاختراق في الوسط توضح أبسط الصور لعبقريته العسكرية!؟.

لقد كان صحيحًا أن نؤكد بأن الهجوم الأمامي بالمواجهة قد أضحى أبهظ ثمنًا وأقل تأثيرًا وذلك نتيجة لقوة النيران الحديثة، ولكن كانت هذه هي

الحال أيضًا في عصر مولتكه، ولهذا فإن من الممكن أن نتحول لنقرر بأن تقدم الفن العسكري في نصف القرن الذي جاء بعد «سادوڤا» قد جعل الدفاع التكتيكي أكبر قوة مما كان؛ ومن جهة أخرى فإن الحاجة الملحة إلى الذخيرة للاحتفاظ للجيوش الحديثة الكبيرة العدد بالقدرة على متابعة القتال قد جعلت خطوط مواصلاتها أكثر تعرضًا، وهكذا كان الهدف الحقيقي للهجوم الجانبي هو توجيه طعنة إلى خطوط العدو الخلفية، ولم يعد يكفي طي جناحي العدو نحو قلب أو وسط مواقعه فإن هذا يؤدي فقط إلى ما أطلق عليه شليڤن ـ مستخدمًا في هذا التعبير أحد اصطلاحات نابليون ـ «النصر العادي»، ولكن توجيه الطعنة إلى «مؤخرة» ساقة العدو تعني معركة الإفناء والقضاء التام على قوات العدو.

وقد آمن شليڤن بأن معركة التطويق عندما توجه توجيهًا صحيحًا بالهجوم على كلا جانبي العدو فإنها تكون أقوى ما يمكن أن تحققه الاستراتيجية، ولكن لما كانت هذه الاستراتيجية هي الأمل الوحيد لانتصار جيش أقل عددًا من الجيش الذي يضاده فإنه من الضروري أولًا أن تتوافر للجيش الأقل عددًا القدرة على حل المشكلات مثل هذه المعركة، وقد كانت كلمات فردريك الأكبر بأنه لا حاجة إلى اليأس عند مواجهة عدو أكبر عددًا ما دام من الممكن للقائد أن ينظم أوضاعه للتغلب على هذا النقص العددي في قوته، كانت هي القاعدة التي عمل على أساسها شليڤن ليبث في جمهرة الضباط الألمان هذا الأمل الذي يملؤه بالثقة في إمكان التغلب على النقص العددي الذي يقدره في قواته.

وقد كان من الصعب استخدام استراتيجية «كانِّي» في أي موقف تتوافر فيه «المسافة» للقيام بالمناورة كما كانت الحال في بروسيا الشرقية حيث كان من

المتوقع أن تخوض جيوش فردية عمليات القتال في المراحل الأولية للحرب الألمانية / الروسية، وحيث كان من الممكن استخدام الخط الحديدي لعمليات مفاجئة بجيوش صغيرة نسبيًّا، ولكن الزيادة العددية الكبيرة في الجيوش المحتشدة والمسافات الكبيرة التي تحتاجها هذه الجيوش نتيجة للأسلحة الحديثة قد جعلتا هذا المشروع غير عملي في مسرح الحرب لغرب أوروبا، فإن جيوشًا بالملايين ستغطي كل منطقة موجودة على الحدود الألمانية الفرنسية وستمتد هذه الجيوش من القنال الإنجليزي إلى سويسرا، وهكذا لن يكون الهجوم على جانبي الجيش الفرنسي مستطاعًا بل وسيكون مستحيلًا بسبب أن الجنب الفرنسي الأيمن تحميه قلعة بلفورت وتحصينات الجورا السويسرية، وعلى هذا فإن الهجوم عن طريق البلچيك ضد الجنب الفرنسي الأيسر كان هو وحده الذي يمكن من توجيه «الطعنة» إلى مؤخرة العدو.

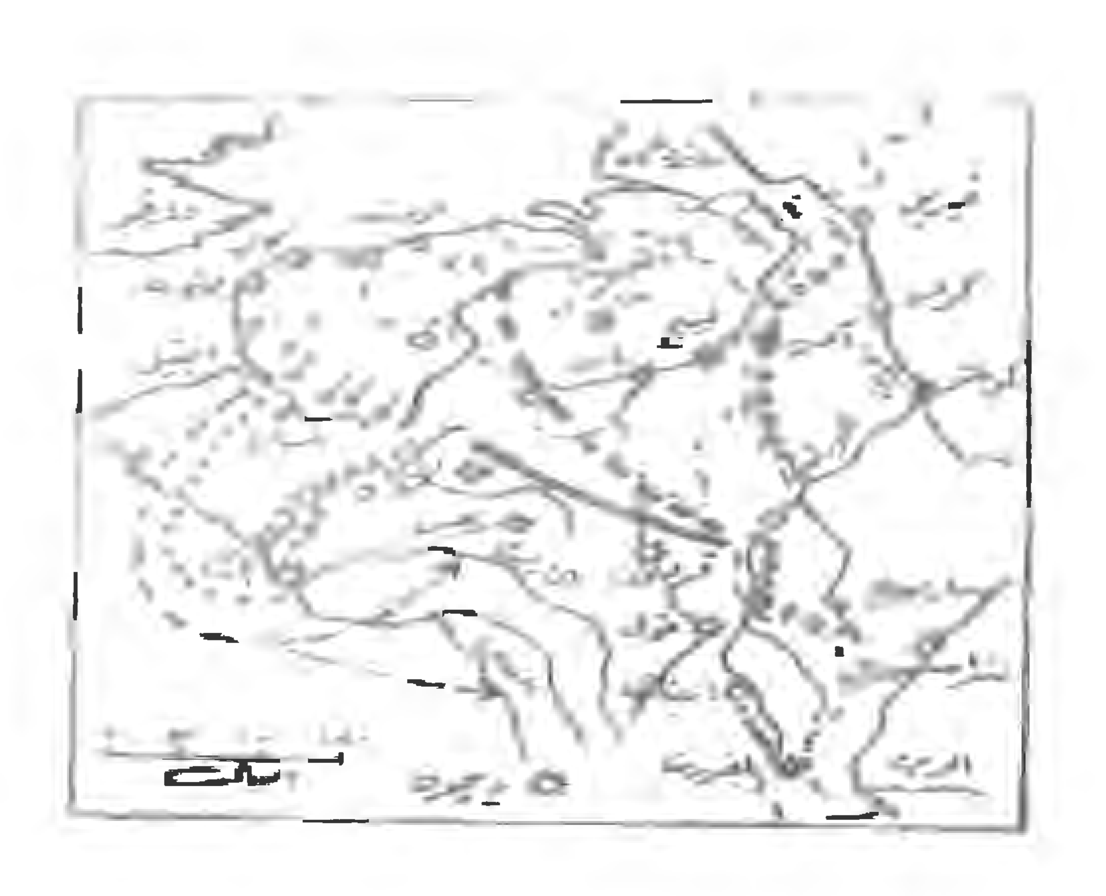
وقد قورنت خطة شليڤن بتنظيم فردريك للسير المائل في لوثين سنة ١٧٥٧ عندما هزم بجيشه المكون من خمسة وثلاثين ألفًا جيشًا نمساويًّا تعداده سبعون ألفًا، بالرغم من أن قوات فردريك في الواقع كانت أضعف من أن تمكنه من الاستثمار الكامل لتكتيكاته الجانبية للقيام باستراتيچية التطويق، على حين كان شليڤن يستطيع أن يجمع القوة الكافية للقيام بمعركة إفناء وتدمير بالإغفال المؤقت للتهديد الروسي لولايات ألمانيا الشرقية.

وفي مذكرة شليڤن لسنة ١٩٠٥ قدر أن يستخدم ضد فرنسا ثمانية جيوش تتكون من ٧٢ فرقة من المشاة و ١١ فرقة من الفرسان ثم ستة وعشرين لواءً ونصف لواء من قوات اللاندڤير «الاحتياطي الأول»، بل وأضاف إلى هذا اعتزامه استخدام ثمانية فيالق من الأرساتز «الاحتياطي الثاني» بمجرد أن تتم تعبئتها، وأن يكون الحشد الأكبر لهذه الجيوش بين «متز» و «إكس لاشابل»

وعلى أن تكون القوة الأكبر في الجناح الألماني الأيمن، وأن يوضع جيش واحد من تسع فرق من المشاة وثلاث فرق من الفرسان ولواء واحد من اللاندڤير بين متز وستراسبورج، وأن يترك «الألزاس» بلا حراسة، اللهم عدا ثلاثة لواءات ونصف من اللاندڤير تغطي الضفة اليمنى للرين، وأن تكون قوة الجناح الألماني الأيمن بالنسبة لقوة الجناح الأيسر كنسبة «٧ : ١».

وكان الهجوم الذي يصل في مرحلته الأولى إلى الخط من ڤردون إلى دنكرك يدور حول المحور في متز، وقد قدر شليڤن بأن من الواجب أن يتم في اليوم الحادي والثلاثين للتعبئة الوصول إلى خط السوم وأن تكون القوات قد اجتازت إميان وآبڤيل، وأن توجه المرحلة التالية والحاسمة بالعمليات ضد السين الأسفل والذي يؤدي عبوره إلى المرحلة النهائية للمعركة، وفي تلك اللحظة يدور الجناح الألماني الأيمن نحو الشرق ويعمل جنوب باريس ضد السين العلوي وبذلك يلقي بالجيوش الفرنسية ويدفعها نحو القلاع الفرنسية والحدود السويسرية.

وكانت جرأة خطة شليڤن تكمن في المجازفة التي كان راغبًا في القيام بها بجمع القوة الأكبر في الجناح الألماني الأيمن، فإن هذا كان من الضروري أن يكون قويًّا لا بالدرجة التي تكفي لتمزيق أية مقاومة أثناء السير في البلچيك بل وبالدرجة التي تمكن من الاحتفاظ باندفاعه للأمام لأمد بين خمسة وسبعة أسابيع مع استمرار اتساع حركة الدوران للشمال والغرب؛ وكان من المتوقع أن يكون الجيشان الألماني والفرنسي متساويين في القوة من الناحية العامة، ولهذا كان من الممكن جمع القوة الكافية لتنفيذ هذا المشروع المليء بالأطماع بشيء واحد هو إهمال الألزاس بل وحتى بالسماح للفرنسيين بفرصة عبور الرين العلوي؛ وقد توقع شليڤن أن الفرنسيين لن يتركوا في



خطة شليفن للعمليات (١٩٠٥)

لاحظ أن الأرقام (٢٢) و (٣١) تدل على الأيام التي تمر من بداية التعبئة حتى يمكن الوصول إلى ذلك الخط.

قلاعهم قوات كبيرة ، وأن القوات الفرنسية التي ستقوم بغزو الألزاس أو جنوب ألمانيا ستضطر لفورها إلى الانسحاب بضغط تهديد الجناح الألماني الأيمن الذي يقوم بحركة الدوران، وحتى إذا ما فعل الفرنسيون هذا فإنهم سيفعلونه متأخرين إلى الحد الذي لا يجعله مؤثرًا في نتيجة الحملة.

فقد أشار شيلڤن في عرضه للمباريات الحربية لسنة ١٩٠١ إلى التعارض بين آرائه الاستراتيجية وآراء مولتكه بقوله: «لقد كنا في سنة ١٨٧٠ قادرين على مهاجمة جبهة العدو، وقد مكنتنا الأفضلية العددية التي توافرت لنا يومذاك من الاشتباك بالعدو والدوران حول جناحه الممتد ثم ضرب جنبه، ولكننا الآن لا نستطيع الاعتماد على الأفضلية العددية، ففي أحسن الظروف سنتساوى معه في القوة العددية بل إن من الضروري أن نقنع متى كنا أقل عددًا منه؛ وبذلك تضطرنا الحاجة إلى التفكير في طريقة نستطيع بها قهر العدو بقوات أقل عددًا من قواته، وليست هي العلاج الوحيد(*) بل وليس هناك المشروع الواحد، بل هناك فكرة واحدة فقط تعتبر صالحة ألا وهي: «عندما يكون الفرد أضعف من أن يهاجم الكل وجب عليه أن يهاجم الجزء»؛ وهنا تبرز إلى الضوء عدة صور تعدل من هذا الحديث؛ ومن هذه الصور أن «الجنب» يمكن أن يكون جزء جيش العدو الذي تحسن مهاجمته، ولهذا فليهاجم شليڤن «جنب» العدو، وقد يكون الهجوم على الجنب صعبًا عندما تكون كل قوة العدو سرية من المشاة أو أن تكون كتيبة أو غير هذا من الأقسام الصغيرة التي تنفصل وحدها، ولكنها تكون أيسر وأصلح كلما زادت قوة العدو وكلما امتدت خطوطه، وكلما ازداد الوقت الذي يحتاجه

(*) في الأصل Panacea تعني العلاج الوحيد والدواء الوحيد الشافي لجميع الأمراض والعلل. مُعجم ويبستر صفحة ١٠٥٥ (المترجم).

لمعاونة هذا الجنب الذي يتعرض للهجوم بقوات يسحبها من الجنب الآخر؛ ولكن كيف يهاجم جيش العدو؟! إنه ليهاجمه ولكن لا بفيلق أو فيلقين بل بجيش أو أكثر، وأن يوجه سير هذه الجيوش لا ضد جنب العدو بل ضد خط تقهقره الأمر الذي يماثل ما حدث في «أولم» وما حدث في «حملة شتاء سنة ١٨٠٧»، ثم ما حدث في «سيدان»، ونتيجة لهذا سيحدث الاضطراب في صفوف العدو وتسنح الفرصة لمعركة ذات مواجهة «معكوسة الاتجاه»، معركة الإفناء، معركة تكون في مؤخرة العدو الموانع والعوائق التي تعطله»[١].

وتتضمن هذه الكلمات خلاصة فكرة شليفن الاستراتيجية للتغلب على مشكلة: «كيف يمكن القيام بحروب قصيرة حاسمة ضد عدو أكبر قوة؟»، وقد ألح شليفن لزيادة عدد الجيش الألماني، وجاءت هذه الزيادة على فترات بين سنة ١٨٩١ وسنة ١٩٠٦ ومع هذا فإن ألمانيا حتى تقاعده كانت قد دربت فقط ٥٤ ٪ من شبابها بينما كانت فرنسا قد دربت ٧٨ ٪ من مجموع شبابها الصالحين للتجنيد، ***والواقع*** أن شليفن لم ينصح قط بالتعبئة العامة لكل رجال الألمان بل كل ما أوصى به هو إعداد القوات الكافية للعمليات، فإن الفكرة الاستراتيجية وكفاية الأفراد كانتا في تقديره أهم من الأفضلية في العدد ومن التكتل.

وبهذه الروح حاول شليفن تدريب أعضاء هيئة أركان الحرب الألمانية هادفًا إلى زيادة واستكمال إعدادهم على مر السنين، ويمكننا المجلدان الأول والثاني من كتاباته العسكرية واللذان طبعا سنة ١٩٣٧ و ١٩٣٨ من دراسة

---

(١) Shlieffen, Dienstschriften, I, ٨٦ – ٨٧.

تطور وتقدم آرائه الاستراتيچية وتعاليمه في الخمس عشرة سنة التي احتل فيها مكان شارنهورست ومولتكه في الجيش الألماني.

وكانت أغلب آراء شليفن هي التكملة المنطقية للتقاليد الكلاسيكية لفردريك ونابليون ومولتكه مع تطبيقها في ظروف وأضواء الحرب الحديثة، ومع هذا فإن شليفن قد وصل إلى أبعد مما وصل إليه أسلافه العظام بتخطيطه السابق لموعد التنفيذ ليس فقط لعمليات التعبئة والنقل والحشد، ولا لتوجيه الهجوم وحسب، بل وللمعركة الحاسمة نفسها، وبذلك أكسب ما قيل في الحديث عنها «خطة شليفن لسنة ١٩٠٥» مكانها الصحيح في تاريخ الاستراتيچية، وإن كان من الضروري أن نلاحظ بأنه ليس من الصحيح أن نقول في حديثنا «خطة شليفن لسنة ١٩٠٥» لأن الوثيقة لم تكن تزيد عن تخطيط أو مشروع لخطة تستند إلى قوات لم تكن إذ ذاك موجودة تحت إمرة القيادة الألمانية العليا.

ولقد كان نابليون يفخر بأنه خطط من قبل مسير كل حملاته، ولكن ما حدث فعلًا يتعارض مع هذا، وفي الجملة فإن نابليون كان ولا شك يتفق مع مولتكه في قوله:

«بأن رغبة العدو تحول دون إمكان تخطيط سير الحرب قبل بدئها»، ولكن شليفن كان يؤمن بإمكان تعطيل رغبات العدو ونواياه وذلك بإرغامه من البداية على الوقوف موقف الدفاع، وكان هذا يتطلب الإسراع في العمليات، أي أن تتوافر للعمليات غاية ما يمكن تحقيقه من السرعة، ولم يكن هذا جديدًا في التاريخ الحربي فإن خفة الحركة الكبيرة كانت في كل العصور هي «الضرورة» العامل الأساسي للنجاح العسكري، وكل ما فعله شليفن هو أنه طبق المبادئ والأصول القديمة في بلاد تتوافر لها وسائل جيدة

للمواصلات والنقل.

ولقد أكد شليفن ـ بالإضافة إلى هذا ـ أن نجاح مثل هذه العمليات الاستراتيجية يتوقف على السيطرة الكاملة في كل منطقة الأرض، أو بمعنى أصح في الاصطلاح العسكري السيطرة على عامل «المسافة»، وذلك لمنع العدو من توجيه أية عمليات استراتيجية، وكانت خطة شليفن لغزو شمال فرنسا عن طريق البلچيك وجنوب هولندا تقوم إلى حد بعيد على أساس الرغبة بإبقاء الجيش الفرنسي في النطاق الذي لا يستطيع الفكاك منه أي في النطاق بين القنال الإنجليزي وبين جبال الألب السويسرية، وقد حذر المرة بعد الأخرى بأنه من الضروري أن يصل الجيش الألماني الأول إلى القنال وإلى آبڤيل وإلا كان من الصعب تجنب عمليات تطويق الجنب التي قد يحاولها العدو، وسيجد الجيش الفرنسي ـ عندما يواجه بجيش ألماني يحمي الساحل الفرنسي جنبه الأيمن ـ بأنه من الصعب أن يمد جناحه الأيسر في الوقت المناسب وبالقوة الكافية لوقف الهجوم الألماني، بخاصة إذا ما شغل في نفس الوقت قلب الجيش الفرنسي بالمعركة.

ولم تترك خطة شليفن للجيش الفرنسي فرصة للاختيار الاستراتيجي، بل تركت له وسيلة واحدة للعمل هي: الهجوم في الألزاس واللورين، وإن كان هذا الهجوم سيزيد من متاعب الفرنسيين فضلًا عن أنه لن يمكنهم من الحصول على نتائج حاسمة؛ ولم يرغب شليفن في تقدير الانتفاع من أخطاء العدو، ولكن من الصحيح أيضًا أنه أمل في أن أخطاء العدو يمكن أن تيسر من الحصول على عمليات ناجحة إلا أنه توقع حدوث هذه الأخطاء من جانب الفرنسيين كنتيجة للتحركات المتضادة المتعجلة لمواجهة التوزيعات والأوضاع الألمانية غير المتوقعة، لقد كان شليفن جريئًا، وكان على أتم

استعداد للمجازفة ولكنه لم يكن مغامرًا ولهذا رفض أن يقدر من البداية خطة فرنسية خاطئة يجعلها أساسًا لوضع مشروعه الاستراتيجي.

فإذا كان شليفن قد أراد أن يحول الحرب كلها إلى معركة واحدة يضع تخطيطها قبل موعد تنفذها، وأن يضع هذا التخطيط متمشيًا مع خطط التعبئة والنقل ومنسقًا مع الحشد الأولي للجيش، إذا كان قد أراد هذا فلا شك أنه قدر احتياجه إلى تنظيم كامل مدرب تمامًا يتولى قيادة الجيش حتى يمكن تنفيذ هذا التخطيط، وهنا نجد أن شليفن قد صور في تاريخ مبكر كيف يجب أن يكون القائد العام للجيش في أول حرب عالمية فقال: «إن القائد العام ـ في العصر الحديث ـ لا يمكن أن يقف مثل نابليون في ثيابه الزاهية فوق التل، ولن يمكنه أقوى منظار مكبر من رؤية الكثير من أرض المعركة. ثم إن جواده الأبيض سيكون غرضًا ظاهرًا سهل الإصابة من نيران عدد لا حصر له من بطاريات المدفعية(*)؛ إن القائد العام في العصر الحديث سيكون في منزل صغير في الخطوط الخلفية به عدة غرف تستخدم كمكاتب وتوجد في متناول يده في هذا المنزل أجهزة البرق والتليفون وآلات الإشارة السلكية واللاسلكية، على حين يقف رتل من السيارات والدراجات الميكانيكية في انتظار الأوامر للتحرك لمسافات طويلة، وفي هذا المنزل ـ فوق مقعد مريح وأمام خريطة كبيرة ـ سيجلس «الإسكندر» الحديث مطلًّا على أرض المعركة كما توضحها له الخريطة، وفي هذا المنزل ينقل له التليفون كل الأحاديث المشجعة، ويتلقى فيه تقارير قادة الفيالق والجيوش وتقارير المناطيد التي تراقب تحركات العدو وتكشف مواقع قواته»[1].

(*) يصف شليفن هنا ما كان يفعله نابليون في معاركه. (المترجم).

(١) Schlieffen, Cannae, p. ٢٧٨.

وقد أوضح شليفن لضباطه «أنه سيكون من غير الممكن دائمًا إصدار أوامر محددة للمعركة، وعلى أية حال فإن أوامر الهجوم قد استبدلت بأوامر السير، وليس معنى هذا أوامر السير التي تقود مباشرة إلى أرض المعركة، بل أوامر السير التي تبدأ بها تحركات الجيش بعد أن يتم احتشاده الأول والتي تقوده في النهاية فقط إلى الاصطدام بالعدو؛ وفي تقبلنا لتصوير عادي لسير الحوادث فإن الفيالق ستشكل خط المعركة في بساطة عندما تقابل العدو وتقوم بالهجوم، وسيجيء من التوجيه الذي في أوامر السير التوجيه لعمليات التطويق والاختراق وغيرها، أو بمعنى آخر في إيجاز ستجيء صورة المعركة كما خططها القائد العام؛ ولكن لا يمكن تقدير كل شيء إلى حد أن تسير الحوادث في هذا المسار الهين البسيط؛ فقد تحدث حوادث مختلفة تتطلب تحولًا عن الخطة الأصلية. هنا وهناك، وفي هذه الحال لن يمكن دائمًا الرجوع إلى القائد العام وطلب الأوامر منه إذ قد يتعطل البرق وغيره من وسائل المواصلات وبذلك سيواجه قائد الفرقة أو الفيلق بضرورة الوصول لقرار من تفكيره هو نفسه؛ على أنه لكي يتمشى هذا القرار مع فكرة القائد العام وتفكيره يجب أن يبقه هذا الأخير دائمًا على دراية تامة بالموقف، وفي ذات الوقت يجب على قائد الفيلق من الجانب الآخر أن يبقى نصب عينيه الآراء الأساسية لكل العمليات بل وأن يتعمق إلى داخل عقل القائد العام وتفكيره»[١].

وعلى نقيض مولتكه الذي تركت خططه المرنة للعمليات مكانًا لأخطاء كثيرة في التنفيذ، فإن استراتيجية شليفن تطلبت درجة كبيرة من الدقة؛ ***والواقع*** أن مولتكه لم يكن قط في موقف يمكنه من فرض رغبته إلى ذات

(١) Schlieffen, Dienstschriften, II, ٤٩.

الدرجة التي توافرت للسعداء الذي خلفوه وجاءوا بعده، وعلى أية حال فإن الجيوش الحديثة تبعًا لاحتشادها وتكتلها تتطلب تنسيقًا أكثر دقة إذا ما بقيت تتولى عمليات خفيفة الحركة وعلى الأخص عندما تستعيض بقوة المناورة عن النقص النسبي في القوى العددية.

ولهذا فقد وجه شليفن عناية كبيرة إلى الاستراتيجية في تدريبه لأعضاء هيئة أركان الحرب، وقد دهش الكثيرون من الضباط لأن يروا بعض صغار الضباط في هيئة أركان الحرب وقد سمح لهم بإدارة المناورات لوحدات كبيرة من الجيش. على أن هذا لم يسبب إغفال المعرفة التكتيكية في الجيش الألماني؛ ولكنه سبب تناقص احترام القادة كبار السن والذين أبعدوا عن موارد الحكمة الاستراتيجية!! وتتضح لنا هذه الحقيقة من تقديرنا لهذا الدور الذي لعبه الليفتينانت كولونيل هنتش أثناء معركة المارن بإصداره الأوامر لتقهقر الجيوش الألمانية التي في الجنب الأيمن على نقيض القرار الحكيم الذي وصل إليه قائد الجيش الأول ورئيس أركان حربه، ومع هذا فإن كل هيئة القيادة العليا للجيش الألماني كانت قد تغيرت تمامًا تحت إمرة مولتكه الصغير خليفة شليفن، إلى حد أنه من المستحيل إجراء مقارنة مباشرة، وقد أشار شليفن دائمًا في كل أحاديثه عن مستقبل القيادة الألمانية بأنه سيكون للجيش قائد حقيقي (!) يتولى السلطة كلها، ولكن بلا شك أن شليفن لم يقصد إطلاقًا أن يكون هذا القائد مترددًا في آرائه الاستراتيجية، ولا أن يترك في اللحظة الحرجة ضابطًا صغيرًا يصدر قرارًا تاريخيًّا حاسمًا نيابة عنه وباسمه كما حدث من الكولونيل هنتش عندما أصدر باسم مولتكه الأوامر بتقهقر الجيوش الألمانية التي في أقصى الغرب.

ولا يمكن كذلك القول بأن الحملة الفرنسية في أغسطس سنة ١٩١٤

كانت اختبارًا لخطة شليفن، فإن الموقف في سنة ١٩١٤ كان يختلف تمامًا عن الموقف في سنة ١٩٠٥، فإن روسيا كانت منذ سنة ١٩٠٥ قد حصلت على قوى جديدة، ثم إن فكرة الحرب الهجومية كانت قد تغلغلت إلى عمق كبير في أذهان أفراد هيئة أركان الحرب الفرنسية بتأثير دراسات الكولونيل جراند ميسون.

وقد تبع مولتكه الصغير فكرة شليفن في القيام بدفاع ضعيف في الشرق مع عمليات هجومية قوية في الغرب، ولكنه مع هذا عدل كثيرًا من خطة شليفن للجناح الأيمن الذي يقوم بالدوران، فبينما كانت النسبة بين الجناحين الأيمن والأيسر في تخطيط شليفن (١:٧) فإن مولتكه جعلها (١:٣)؛ فلقد كان مولتكه يخشى الاندفاع الفرنسي في الألزاس واللورين، ومع أن لتقدير مولتكه نصيبًا من الصواب إلا أنه لم يكن هناك من سبب لتقوية الجناح الألماني الجنوبي إلى هذه الدرجة، سيما وأنه يتمتع بالفوائد الدفاعية التي للتحصينات القوية في تلك المنطقة؛ بل ولا شك أن مولتكه كان يوزع قواته توزيعًا آخر لو كان قد اعتقد بأن الهجوم الفرنسي سيمكنه من الحصول على فرصة القيام بمعركة حاسمة في الألزاس واللورين، ولو ترك الفرنسيون قلاعهم وأرسلوا نصف جيشهم إلى اللورين لأمكن دفع جناحهم الجنوبي ضد القوج والرين، ولأمكن تدميره وبذلك يضيع كل أمل للفرنسيين في المقاومة. وفضلًا عن هذا فإن معركة اللورين ستحدث قبل أسابيع ثلاثة أو أربعة من الموعد المحدد للقرار الحاسم المتوقع تبعًا لخطة شليفن لسنة ١٩٠٥ .

وهكذا نظر مولتكه إلى الجناح الألماني الأيمن نظرة أخرى؛ كان واجبه الرئيسي إغراء الفرنسيين لتوجيه هجومهم إلى اللورين، وفي هذه الحال فإن

الجيوش الألمانية تسير في طريقها عبر البلچيك ولكن استمرار السير نحو باريس قد يكون أقل أهمية إذا استطاع الجناح الألماني الأيسر أن يقوم بضربة حاسمة، وقد اختار مولتكه الصغير ـ في تقليد غير كامل لعمه مولتكه الكبير ـ أسلوبًا طليقًا من أساليب الاستراتيچية.

وعلى حين أراد شليفن أن يعطي الفرنسيين فرصة تثبيت سير الاستراتيچية الألمانية نتيجة لتصرفاتهم هم أنفسهم فإن مولتكه جعل توجيه العمليات يستند جزئيًّا إلى «رغبة العدو»، وقد سبب هذا الاتجاه وضوح عناصر غير مؤكدة في الأهداف الاستراتيچية للقيادة الألمانية العليا، وكان من الضروري لضمان التنسيق ولوضع القرار النهائي عن سير العمليات أن يكون مولتكه دائمًا على اتصال مباشر بالقوات وأن ينظم عملياتها تبعًا لتفكيره العسكري.

وكان من الممكن أن يحقق مولتكه حلمه بالحصول على معركة حاسمة في اللورين لو كان قد أصرَّ على أن يعمل الجيشان السادس والسابع تبعًا للخطة الأصلية، والتي كانا في ضوئها سيتقهقران للخلف ليسحبا الفرنسيين بعيدًا عن قلاعهم، ولو كان في ذات الوقت قد قام بخطى صحيحة لإبطاء سرعة تقدم الجناح الألماني الأيمن، ولو كان قد نقل القوات الكبيرة من اللورين «كما كانت الخطة الأصلية، وفي سنة ١٩٣٩ قدم الجنرال ڤيتز رئيس أركان الحرب للماريشال لودندورف في سنتي ١٩١٧ ـ ١٩١٨ مناقشة قوية الحجج والبراهين تؤكد المدى الذي كان سيصل إليه مثل هذا المشروع لو طبق تطبيقًا صحيحًا[1]؛ ولكن مولتكه بدلًا من هذا كله سمح

(١) "Das Bild des modernen Feldherrn", Militar-Wochenblatt, pp. ٢٢٥٧ – ٢٢٦٤; ٢٣٢٩ – ٢٣٣٨ ٢٤٠٦ – ٢٤٠٩.

بإجراء هجوم «بالمواجهة» أمامي سابق لوقته المناسب، وقد أدى هذا إلى إرغام الفرنسيين على التقهقر، ولكنه تقهقر أوصلهم إلى منطقة أمن وسلامة في داخل حصونهم القوية، ومع هذا فإنه لم يمنع القيام باقتحام مباشر للخطوط الفرنسية، هذا الاقتحام الذي أوقع الجيش السادس في صعاب لها خطرها، وحال دون سحب أي قوات من يسار الخط الألماني لاستخدامها في الجنب الأيمن؛ ويحتمل أن يكون مولتكه الصغير قد وجد في مذكرات عمه «مولتكه الكبير» ما يجعله محقًّا في ليونته ورقة معاملته لقادة الجيوش، وإن كانت بساطة شخصيته وافتقاره إلى العزيمة كانا هما السبب الحقيقي لما حدث!!

لقد كان الجناح الألماني الأيمن في سنة ١٩١٤ من البداية أضعف من أن يحقق الأهداف التي وكلها إليه شليفن، ولم يكن من المستطاع أن تصل الجيوش الألمانية إلى القنال وأن تعمل لغرب وجنوب باريس، ثم عاد مولتكه وأضعف من الجناح الأيمن بنقل فيلقين من البلچيك إلى بروسيا الشرقية في الخامس والعشرين من أغسطس، وافتقد الألمان هذين الفيلقين في معركة المارن، وفي ذلك التاريخ كان الفيلقان ما زالا في طريقهما إلى الشرق مع أن معركة تاننبرج كانت قد انتهت، ومما لا شك فيه أن القوات التي احتاجها لتقوية الجيش الألماني الثامن في بروسيا الشرقية كان من الضروري أن تسحب من الجناح الألماني الأيسر حيث كانت قوات الاحتياطي متوافرة.

لقد عمل مولتكه بتأثير معارك اللورين من ٢٠ إلى ٢٣ أغسطس والتي بدا أنها فتحت أمامه الطريق ليحصل على نتائج حاسمة؛ ومن جهة أخرى فإن تقدم الجيوش الألمانية عبر البلچيك كان سريعًا ومستمرًّا، وكانت هذه



تجمعات القوات في الغرب ١٩١٤

الجيوش في ذلك الوقت قد اجتازت الخط بروكسل / نامور والتي كانت تلي لييج في الاعتبار كأخطر «عنق زجاجة»، ومع هذا فإن واجبها الحقيقي كان قد بدأ لتوه فلم تكن الجيوش الألمانية قد نجحت بعد في تدمير القوى المعنوية لجيوش الحلفاء، ولم تنجح كذلك في تطويق أي وحدة للعدو تعمل منفصلة كالحملة الإنجليزية أو الجيش الفرنسي الخامس، ومما لا شك فيه أن الحاجة إلى قوات جديدة كانت ستزداد في الأسابيع القادمة تبعًا للسير الإرغامي الذي يقوم به الجنود.

ومع هذا فإن القيادة الألمانية كانت ـ بالرغم من نقل فيلقين ألمانيين إلى الشرق في ٢٥ أغسطس، وبالرغم من استخدام فيلق آخر دونها سبب لحصار موبيج بعد هذا بقليل ـ تستطيع تقوية الجناح الألماني الأيمن بنقل الجنود من الجناح الأيسر بالسكك الحديدية أو بتوجيه عمليات وسط الخط الألماني إلى اليمين بدرجة أكبر.

وقد بقي مولتكه يعتقد بأن الجناح الألماني الأيسر وإن كان غير قادر على تحقيق واجبه الاستراتيجي الأصلي إلا أنه يثبت قوات فرنسية كبيرة في مكانها ويحول دون نقلها إلى منطقة باريس، وبذلك فإنه يمكن الجناح الألماني الأيمن من تحقيق ما هدفت إليه خطة شليڤن.

لقد كان الإيمان بخطة شليڤن ـ والذي كان مولتكه نفسه قد أضعفه ـ قد بات في ذلك الوقت مدعاة لليأس، فلقد وضح أن الهجوم القوي ضد الجناح الغربي هو الفرصة الوحيدة الباقية في هذه المرحلة لتأكيد النجاح الألماني، وبالتبعية كان من الواجب القيام بكل ما يمكن لإعطاء الجيوش الألمانية الأول والثاني والثالث القوات الكثيرة التي تحتاجها لتوجه الضربة

الحاسمة للحلفاء، بل وحتى كان من الممكن أن يعطي مولتكه هذه الجيوش الثلاثة وقتًا قصيرًا للراحة التي كان الجنود يحتاجونها حقًّا، وكان من الممكن مع هذا القيام بكل التدابير التي تضمن القوة الأكبر للمعركة القادمة، ولكن شيئًا من هذا لم يفعله.

على أنه في الجانب الآخر كانت القيادة الفرنسية العليا تقوم بتوجيه جيد قوي لعمليات الجيوش الفرنسية كلها حتى في التقهقر الطويل المجهد الذي قامت به، وقد استخدمت القيادة الفرنسية شبكة الخطوط الحديدية في أرض فرنسا على أكمل وجه وإلى أكبر درجة يمكن الانتفاع بها لمواجهة الموقف وللتأهب للعودة إلى الهجوم في الوقت المناسب؛ وفي نفس الوقت كان مولتكه قد فقد الاتصال بحقيقة الموقف على طول الجبهة، فوسائل المواصلات ضعيفة والنقل بالخطوط الحديدية يمكن اعتباره مهملًا، ولكن كان السبب الرئيسي للصعاب وتعقد الموقف هو عدم معرفة قادة الجيوش بالخطط الاستراتيجية لرئيس هيئة أركان الحرب الألمانية إلى الحد الذي يمكنهم من التجاوب معها، لقد تنكب قادة الجيوش الألمانية في أخطاء كثيرة، بعضها فيما أغفلوا، وبعضها فيما نفذوا من أعمال، ولكن مع هذا لا يمكن تعنيفهم أو لومهم بشدة لأن القائد قد تركهم في الظلام إلى حد بعيد بالنسبة لصورة العمليات في جملتها.

وأخيرًا نجح الجيش الألماني الأول بسبب جرأة وشجاعة أفراده في تحقيق «المستحيل» الصعب بالتخلص من الخطر الأعظم الذي تنكب فيه، وبدا أنه سيبدأ في إدراك بعض ثمار الكسب المتوقع في ضوء خطة شليفن القديمة، ولكن حدث إذ ذاك أن أصدر الليفتينانت كولونيل هنتش ـ الذي بعث به مولتكه لبحث الموقف في الجناح الغربي ـ الأمر بالتقهقر، والغريب أن

مولتكه الذي حاول أن يتبع أسلوبًا استراتيجيًّا طليقًا، وأن يتجنب التفكير الصلب المقدر من قبل كما يتجنب السيطرة التامة التي فرضتها خطة شليفن، بل وتقبل ما ينتج عن ابتكار قادة مختلف الجيوش، الغريب أن مولتكه الذي فعل هذا كله جاء في أحرج الساعات وحاول استعادة التنسيق بإعطاء سلطات كبيرة لعضو صغير السن والرتبة من هيئة أركان حربه، لقد كان هنتش في الحقيقة ضابطًا دربًا، وقد أثبت كفاية ممتازة عندما عمل كرئيس هيئة أركان الحرب في الحملة الصربية سنة ١٩١٥، ولكن القرار الذي أصدره في الثامن من سبتمبر سنة ١٩١٤ كان إلى حد بعيد نتيجة للمفاجأة عندما وجد أن حقيقة أحوال معركة الجناح الألماني الأيمن أخطر بكثير مما قدرت القيادة الألمانية العليا الموجودة في لوكسمبورج«!!».

لقد كانت خطة شليفن في أضعف صورها، «وبالرغم من التوجه المضطرب غير الواضح والمتعدد المعاني للاستراتيجية الألمانية» تعطي الهجوم الألماني لسنة ١٩١٤ قوة دافعة لها خطرها، وما كان من الممكن أن تفشل دون تحقيق النجاح لو كانت القيادة الألمانية العليا قد آمنت بها تمامًا من البداية، بدلًا من التأرجح بين فكرة الحرب «في بروسيا الشرقية» وفكرة «الحصول على القرار الحاسم في اللورين».

لقد كان شليفن محقًّا عندما تنبأ بأنه من الصعب تحقيق أكثر من نجاح عادي في اللورين بسبب استطاعة الفرنسيين العودة إلى تحصيناتهم، وهو لم ينكر بأنه تجيء في الحرب مواقف جديدة تجعل القائد العام مضطرًّا لإجراء توزيعات جديدة لقواته؛ إلا أن جعل الحشد كله في الجناح الأيمن كان سيمكن من توحيد وتنسيق كل العمليات، وكان من الممكن لو تم هذا أن يقنع القائد العام بترك العمليات العادية لرؤساء أركان حرب الجيوش



سير الألمان في الغرب حتى ٥ سبتمبر ١٩١٤

المختلفة، وحتى في حال اضطراب وسائل المواصلات كان من الممكن لقادة الجيوش أن يعملوا طبقًا للخطة العامة للعمليات.

ولم تكن خطة شليفن لسنة ١٩٠٥ هي إجابة شليفن الأخيرة لحل مشكلات الحرب المقبلة، فهو ـ كما قلت من قبل ـ كان ميالًا لأن يتقبل أن الفرنسيين لن يتركوا تحصينات حدودهم ويتقدموا أمامها، وكان هذا بلا شك صحيحًا فإن الخطة الفرنسية للتعبئة «الخطة رقم ١٥)[1] وضعت على أساس دفاع استراتيجي ، وقد لاحظ شليفن في سني تقاعده زيادة نفوذ المدرسة النابليونية الحديثة في فرنسا أي: مدرسة «الحرب الهجومية»، وقد خشي أن تعمل هيئة أركان الحرب الفرنسية لمواجهة الهجوم الألماني بهجوم فرنسي في البلچيك بالاحتلال المبكر للخط «نامور / بروكسل / انتويرب»، ولم يكن شليفن محقًّا في كل مخاوفه، ولكن من الصحيح أن الجنرال ميتشل ـ الرجل الذي ظن بأنه سيعين رئيسًا لمجلس الحرب الأعلى الفرنسي ـ قدم في سنة ١٩١١ خطة تكاد تكون هي الخطة الألمانية لسنة ١٩١٤، وكانت خطة ميتشل هذه هي التي طبقها الحلفاء تقريبًا في سنة ١٩٤٠؛ مما يجعلنا نشك في أن جاملان[2] كان متأثرًا بها، على أن الذي حدث في سنة ١٩١١ هو أن خطة

(١) وضعت هذه الخطة سنة ١٩٠٣ ثم عدلت تعديلاً هيناً في سنتي ١٩٠٦ و ١٩٠٧ والمرجع الرئيسي الذي يمكن منه معرفة الخطط الفرنسية للتعبئة من سنة ١٨٧١ إلى سنة ١٩١٤ هو المؤلف الرسمي للحرب العالمية الأولى الذي اشتركت في إعداده وزارة الحرب وهيئة أركان حرب الجيش والقسم التاريخي ووسم بعنوان "Les Armées Françaises dans la Grande Guerre" المُجلد الأول وملاحقه طبع باريس سنة ١٩٢٢.

(٢) موريس چوستاف جاملان ولد سنة ١٨٧٢ تعلم في سان سير، وكان أركان حرب جوفر ١٩١٤ – ١٩١٦، تولى قيادة فرقة مشاة سنة ١٩١٧ وكان على رأس بعثة عسكرية إلى البرازيل من ١٩١٩ إلى ١٩٢٥ ثم تولى قيادة القوات الفرنسية في الشرق الأدنى حتى=

ميتشل لم تقبل، وعين جوفر قائدًا عامًّا للجيوش الفرنسية ووفق على «الخطة ١٧» التي بنيت على أساس أن الألمان سيغزون البلچيك ولكن لن تتوافر لهم أي قوات فيها وراء نهر «الميز»، ولم يستطع أي ضابط أو مؤرخ فرنسي أن يوضح سبب هذا التحرك الأعمى من جانب إدارة المخابرات العسكرية

=سنة ١٩٢٨، وبعدها تولى رياسة هيئة أركان الحرب للدفاع الوطني سنة ١٩٣٨ فقائد عام قوات الحلفاء في الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩.

وكان جاملان بين المجموعة التي أملت كثيراً في قوة تحصينات ماجينو وقد اعتبر بين المجموعة التي تسببت في هزيمة يونيو ١٩٤٠ بالرغم من أن ڤيجان كان خلفه في القيادة قبل أن يبدأ الثلث الأخير من مايو ١٩٤٠، وحوكم في ريوم سنة ١٩٤٣ وحكم عليه بالسجن وقد نشر جاملان في سنة ١٩٤٦ كتابه "الجيوش الفرنسية سنة ١٩٤٠" كدفاع عن دوره في هزيمة سنة ١٩٤٠.

وقد حاول جاملان في كتابه أن يوضح جهوده لإعادة تسليح فرنسا وأن يُثبت أنه لم يغفل قط عن أن يوضح للضباط الفرنسيين طبيعة المعركة القادمة وأن مركزه كان دقيقاً فقد كان هو فعلاً قائد عام القوات الفرنسية ولكن كان الجنرال جورج قائد قوات فرنسا بل وقوات الحلفاء في شمال شرق فرنسا، وقد أطلق جاملان يده ولم يتدخل إلا في التاسع عشر من مايو لإنقاذ الموقف مُصدراً أوامره بأن تقوم المجموعة الأولى الفرنسية بالهجوم المضاد على الضلع الجنوبي للزاوية الألمانية، ولم يُنفذ هذا الأمر لأنه بعد ساعات من إصداره استبدل بفيجان.

والواقع أن جاملان قد فهم الحرب الخاطفة وقدر أهمية المدرعات والجو، وقد أوضح هذا لمرءوسيه كما أوضح في تعليماته أن قطاع مونتميدي – سيدان هو القطاع الذي يحتمل توجيه الهجوم الألماني منه كما حدث فعلاً، ولكن أحداً لم يأخذ برأيه.

ويُلقي جاملان كل اللوم على الجنرال جورج في عدم تقويته لجيش كوراب الجيش الذي اخترق الألمان الجبهة عنده وبدأوا الزحف البرقي الخاطف إلى ما وراء مؤخرة الفرنسيين مما أوقع الفوضى في صفوفهم كما يُنسب إليه إهماله في تقوية جيش هنتزنجر بالمثل وربما يكون من الصحيح أن جاملان كان يواجه مجموعة مُضادة في صفوف الجيش إلا أنه ما كان له أن يترك الأعنة من يده والمعركة معركة حياة أو موت ليس بالنسبة له بل بالنسبة لبلاده كلها. (المترجم) راجع E. Encycl. Vol. ٦ pp. ٢٣٢ – ٢٣٣.

الفرنسية.

والواقع أن من الطريف أن نلاحظ بأن شليفن في سني تقاعده لم يقنع قط بتقدير ما يمكن أن يكون في صالح العدو، بل وبقي سباقًا إلى التفكير في التطورات الحديثة في ميدان «التكتيك» وميادين «البحوث الفنية»؛ وفي غمرة خوفه من احتلال الفرنسيين للخط «انتورب / نامور» وبالتبعية قيامهم بالهجوم في اللورين فقد ألح بضرورة إعداد احتياطي قوي وراء الجبهة الألمانية، وقد اقترح كأحسن تدبير مضاد استخدام هذا الاحتياطي من البداية لتقوية قوات المعركة، كما أوصى بأن يحصل الألمان على قوة «المبادأة» من البداية على طول الجبهة من «بلفورت» إلى «لييج».

وكان شليفن لا يزال محتفظًا بإيمانه بأن نجاح الجناح الألماني الأيمن هو وحده الذي يمكن أن يجيء بنتائج استراتيجية عظيمة، وظن في نفس الوقت أنه اكتشف فرصًا جديدة استراتيچية في النقل بالسكك الحديدية، وكانت الفكرة التي تحدث عنها مولتكه الكبير من أن أي خطأ يحدث في عملية الحشد الأصلية لا يمكن تصحيحه طول الحملة قد بدأت تفقد قوتها في ضوء الأحوال في غرب ووسط أوروبا، فإن كثافة الخطوط الحديدية كانت تمكن القائد من أن يحول القوات من جانب إلى الجانب الآخر، وقد جربت هذه العملية على نطاق واسع في المباريات الحربية والمناورات لهيئة أركان الحرب الألمانية التي تولاها شليفن.

ولكن أظهرت القيادة الألمانية العليا في سنة ١٩١٤ أن كل هذه الآراء لم يكن لها أثرها في عقلية خليفة شليفن، وأثبت الفرنسيون أنهم أقدر وأكثر توفيقًا في استخدام هذا المورد الجديد لخفة الحركة وأنهم أيضًا أول من اكتشف إمكان استخدام النقل الميكانيكي بالسيارات عندما نقل جاليني من

باريس القوات في سيارات التاكسي إلى المواقع على المارن، وعندما استخدم فوش السيارات لنقل ستين ألف جندي إلى الفلاندرز في سبتمبر سنة ١٩١٤ .

ولم تهدم معركة المارن مكانة شليفن بين الضباط الألمان، بل على النقيض وضح أن «حرب المواقع» الحرب الطويلة الأمد المعدومة الأمل ـ في الغرب مع ما صحبها من تأثير في النظامين الاجتماعي والاقتصادي لألمانيا إنما كانت نتيجة لإغفال تعاليمه التي تدل على عبقريته العسكرية، وقد أدى اتباع هذه التعاليم في الميدان الشرقي إلى الكثير من الانتصارات الفذة مثل «تانبرج» و «حملة شتاء سنة ١٩١٤ عند بحيرات الماسوريان» وفي «هيرمانستادت» في باكورة الحملة الرومانية لسنة ١٩١٦ ؛ وقد استطاع الجيش الألماني بمعاونة هذه الانتصارات من أن يقاتل اتحادًا دوليًا على نطاق واسع لأربع سنوات وأن يصل في هذا القتال إلى ما يقرب من النصر.

ولم تضعف هزيمة ألمانيا في سنة ١٩١٨ من الاعتقاد بعبقرية شليفن وسيادته على الفن العسكري حتى في ضوء الحرب الحديثة التي كان طابعها يقوى ويشتد مع خطى ألمانيا الواسعة للعودة إلى التسلح؛ ولكن برغم أنه وجدت في الجيش الألماني في الأمد بين الحربين العالميتين، أي بين سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٣٩ مدرسة «تدين بعقيدة شليفن» إلا أن استراتيجيي الجيش الهتلري أمثال جرونر وسيخت وفريتشس وبك لم يغفلوا نقد نظريات شليفن بتعديل يتفق مع ما وجهوه إليها من نقد.

كانت قد كثرت في الجيش الألماني الهتلري اتجاهات جديدة للإيمان بقوة الابتكار الاستراتيجية وتقدير قيمة خفة الحركة ومناورات التطويق، ولكن كانت هزيمة سنة ١٩١٨ في ذات الوقت قد جعلت للدروس المستفادة من

الحرب العالمية الأولى أهميتها، ***والواقع*** أنه بعد توقف الهجوم الألماني ضد فرنسا في سبتمبر سنة ١٩١٤ بدأت مشكلة الحرب الدفاعية تتخذ لها طابعًا له أهميته فإن أغلب القتال الذي دار على الجبهة الشرقية كان في الحقيقة قتالًا دفاعيًّا؛ وبينا كان الجيش الألماني بعد سنة ١٩٣٣ ما زال ضعيفًا كانت مشكلات الدفاع تحتل المكان الأول في تفكير هيئة أركان الحرب الألمانية، ومما لا شك فيه أنه توافرت لأفراد هيئة أركان الحرب الألمانية آراء عن الدفاع أكثر مما وضع موضع التجربة والتنفيذ في السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية، وتلقي دراسات الفيلد ماريشال ڤون ليب عن «الدفاع» في سنتي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ بعض الضوء على هذه الجهود[١]، كما وضح في أثناء الحرب العالمية الثانية ميل الضباط الألمان للاستناد إلى التحصينات بدرجة أكبر مما كان لهم من قبل.

على أن الأهم من هذا كان هو «التجربة» أو «الدراية» التي أمكن الحصول عليها من استخدام الهجمات الأمامية بالمواجهة، فقد أرغمت حرب الخنادق «١٩١٤ ـ ١٩١٨» القيادة الألمانية العليا للبحث عن اقتراب استراتيجي جديد للحصول على المعركة الحاسمة، إذ أكد الاقتحام التكتيكي بالواجهة ما سبق أن تنبأ به شليڤن من أن هذا يمكن من إرغام العدو على التقهقر ولكنه ـ رغم تقهقره ـ سيكون طليقًا يستطيع العودة للقتال في مواقع جديدة؛ وإذن فمن الضروري للحصول على نتائج حاسمة

---

(١) نشرت هذه الدراسات لأول مرة في: Militarwissenschaftliche Rundschau, ١٩٣٧ ثم نشرت بعد ذلك في مُجلد منفصل بعنوان: Wilhelm Ritter von Leeb, Die Abwehr (Berlin, ١٩٣٨) ، وقد نشرت الترجمة الإنجليزية له بعنوان "الدفاع" من قلم: S. T. Possony و D. Vilfroy "طبع هاريسبورج سنة ١٩٤٣".

اختراق خطوط العدو إلى المدى الذي يعرض مواصلاته الخلفية للخطر، وأن يسبب تدمير حريته على العمل، وكان أول نموذج لاستراتيجية الاختراق الناجحة هو معركة «جورليستارنو» في مايو ١٩١٥ والتي وضع سيخت تخطيطها، وكانت النتائج كبيرة وكان من الممكن أن تكون أعظم وأكبر لو كانت العمليات قد أعدت إعدادًا كاملًا، ثم مر أسبوع بعد معركة «جورليستارنو» وقام الحلفاء بهجومهم الاقتحامي في «آراس» و «لاباسيه»؛ وهكذا كان الجانبان ـ الحلفاء والألمان ـ يقومان بتجربة عمليات الاختراق في ضوء ما يمكن تحقيقه منها من الاستثمار الاستراتيجي لنتائجها؛ وكانت أكبر محاولة من هذا الطابع مليئة بالأطماع هي هجوم لودندورف في فرنسا في ربيع سنة ١٩١٨ ، هذا الهجوم الذي هدف إلى الحصول على قرار حاسم قبل أن تنضب قوة ألمانيا وتتفتت، ولكنه لم يحقق نجاحًا استراتيجيًّا بل كل ما حدث هو إحداث انبعاج عميق داخل جبهة الحلفاء ولكنه لم يحدث أي تمزق خطير في هذه الجبهة.

وكان فشل هجوم ربيع سنة ١٩١٨ وانهيار خطة شليفن سنة ١٩١٤ هما الموضوعين الرئيسيين في المناقشات العسكرية التي دارت في ألمانيا بعد سنة ١٩٢٠، وقد أجمل «كرافت ڤون ديلمنسيجين» رئيس أخصائيي المدفعية في عصر لودندورف هذا النقاش قبيل الحرب العالمية الثانية بسنتين في كتابه «عملية الاختراق» الكتاب الذي نشر بين كتب التعليم للجيش الهتلري، وفي صورة ما فإن «ديلمنسيجين» أبقى عقيدة شليفن من أن «عملية الاختراق هي دائمًا أصعب الصور أو الوسائل للوصول إلى قرار»، أبقاها في نطاق محدد هو «أنها تحركًا تمهيديًّا قد يلقي جزاءً صارمًا على العدو»، «أما

النصر النهائي فيمكن إدراكه بعمليات تطويق متتالية»[1]؛ ومع هذا فقد أضاف المؤلف أنه لن يمكن في المستقبل تجنب محاولة الاختراق، وعلى هذا فإنه «لن يكون أي جيش هو وحده الجانب الذي يستطيع استثمار نظريات الاختراق إلى غاية ما يمكن»[2].

وكان الحل ـ كما في شبيه هذا من الدراسات الألمانية ـ استعادة عامل المفاجأة وخفة الحركة بواسطة القوات الميكانيكية، والقوات المحمولة بالسيارات، وقد تعلم الجيش الألماني من خصومه في هذا الميدان أكثر مما تعلم منهم في أي ميدان آخر،

فلم ينس الألمان اليومين الأسودين يوم الثامن عشر من يوليو والثامن عشر من أغسطس سنة ١٩١٨ عندما اندفعت دبابات الحلفاء للأمام عند سواسون وأميان وأكدت بهذا هزيمة ألمانيا، لقد كان اقتحام الدبابات نصرًا تكتيكيًّا عظيمًا بالرغم من أن مداه الاستراتيجي كان محدودًا، وقد عملت هيئة أركان الحرب الألمانية لسنة ١٩٣٠ على زيادة مثل هذه الإمكانيات التكتيكية باستخدام الأسلحة الجوية مع القوات المدرعة، ولكن كان الهدف الرئيسي هو تطور التكتيك حتى يؤدي هذا إلى إحياء استراتيجية شليفن للاختراق والإفناء والتي بدا وكأنها قد فقدت قوتها في حرب المواقع من سبتمبر ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨ .

وفي هذه الصورة نفسها كان الهجوم الألماني على فرنسا سنة ١٩٤٠ لا يزال يتبع آراء شليفن، ومع هذا فإن خطة شليفن نفسها لم تعد إلى الحياة، فإن خطة سنة ١٩٤٠ كانت تهدف إلى اختراق وسط جبهة الحلفاء «الأمر

(١) K. Kraft von Dellmensingen, Der Durchbruk, ١٩٣٧, p. ٤٠٥

(٢) نفس المرجع ص ٤٠٧ .

الذي تحقق في سيدان يوم ١٤ مايو سنة ١٩٤٠»، على أن تتبع هذا معركتا تطويق أولاهما في القتال ضد الجيوش الفرنسية والإنجليزية التي في الشمال على أن تدفع هذه الجيوش إلى الساحل البلچيكي والقنال الإنجليزي، وأن توجه المعركة الثانية من خط «سيدان ـ آبڤيل» هادفة إلى دفع الجيوش الفرنسية ضد تحصينات ماجينو والحدود السويسرية، وكان هتلر محقًّا في أن يؤكد لمجلس الريشستاغ الألماني وجود فروق بين حملة سنة ١٩١٤ وحملة سنة ١٩٤٠ ؛ ***والواقع*** أن المرحلة الثانية من الحرب الفرنسية تقدم بعض الصور التي تماثل خطة شليڤن، على حين تماثل المرحلة الأولى ـ «معركة البلچيك» ـ إلى حد ما استراتيچية مولتكه الكبير ضد ماكماهون في سيدان، ومع هذا فإن كلتا مرحلتي معركة فرنسا كانتا تعتمدان على الاختراق الذي حققته الأفضلية الكبيرة التي للهجوم على الدفاع في هذه الفترة من التاريخ.

وقد أثرت هذه الفرصة النادرة في الصورة العامة للاستراتيچية الألمانية، ولكن كانت تعاليم شليڤن هي التي عاونت لتوجيه الفكر العسكري الألماني نحو إيمان جديد بالحرب الخفيفة الحركة، لقد كان نفوذ شليڤن وتأثيره في التاريخ العسكري الألماني للنصف الثاني من القرن الماضي تأثيرًا ممتازًا لا مثيل له، ومع أن التقاليد العسكرية الألمانية وصلت في ارتقائها إلى مستوى عالٍ جديد عن طريق جهوده ونشاطه الشخصي، إلا أنه توافرت عدة علائم تدل على أن المدرسة الاستراتيچية الألمانية قد فقدت النشاط المثالي والقوى الواقعية التي كانت لها فيما سبق، لقد كان شارنهورست وچنيسناو مصلحين عسكريين كما كانا مصلحين قوميين، لقد أرادا إصلاح الجيش البروسي ليس فقط للقيام بحرب التحرير ضد نابليون، بل لبناء «بروسيا جديدة» أكثر تحررًا، وقد نظر هذان المصلحان إلى مشكلات الحرب من وجهة النظر إلى

السلم الذي يتبع هذه الحرب مقدرين بأن الاتجاهات الاجتماعية لأي تنظيم عسكري عادة بعيدة المنال، وقد وضع كلاوزيڤيتز تعاليمه من أن الحرب عمل سياسي وأن السياسة والحرب لهما ذات المنطق المتماثل الذي يستخدمه الآخر متمشيًا في تنسيق تام مع آراء شارنهورست وچنيسناو.

وقد أوقفت الفترة التي تلت مؤتمر ڤيينا كل محاولات الإبقاء على اتصال مباشر بين الجيش وبين القوى السياسية والاجتماعية الجديدة، واستعاد الأشراف البروسيون السيطرة على الجيش؛ هذه السيطرة التي كانت الدعامة الأساسية للملكية المتحفظة في ألمانيا، ***والواقع*** أنه فيما عدا الاحتفاظ بالسلطات الملكية وعلى الأخص الحقوق التي للملك في المسائل العسكرية فإن الضباط لم يسهموا بأي نصيب في الشئون السياسية وبقوا بعيدين عن الآراء الجديدة لهذا القرن.

وقد توافر لمولتكه الكبير الكثير مما توافر لكلاوزيڤيتز من الرغبة الثقافية العامة، وقد أثرت هذه الحقبات العاصفة من السنين بين سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٧١ في أفكاره إلى عمق كبير، وكانت «إجاباته» على المشكلات السياسية لذلك العصر تتبع الأصول التحفظية بل وأكثر انغمارًا في هذا الاتجاه المحافظ من سياسة بسمارك الانتهازية. وقد عمل مولتكه بقوة ليدعم سلطته ضد تدخل رئيس الوزراء في المسائل العسكرية، ولكنه في نفس الوقت تقبل زعامة بسمارك السياسية.

والواقع أن نجاح بسمارك في الداخل والخارج قد عاونا الجيش ليرتد ثانية إلى صورة الرجعية القديمة بعد أن حرره من الخوف من سيطرة البرلمان ومن السيطرة الشعبية، وتبعًا لهذا كان الجيش راغبًا في أن يتبع الحكومة الإمبراطورية في انقياد أعمى حتى بعد سنة ١٨٩٠ عندما تولى ويليام الثاني

كل السلطات التي كانت لويليام الأول وبسمارك معًا.

وكان من واجب شليفن باعتباره المستشار العسكري الأول للتاج أن يرفع صوته ضد ما يعرض سلامة ألمانيا للخطر، هذه الأخطار التي أوجدتها سياسة ويليام، فإن البرنامج البحري لويليام وتربيتز قد سبب وقوف بريطانيا في المعسكر المضاد، ولكن شليفن لم يحذر الحكومة من هذه السياسة مع أن حال التسليح الألماني كان مثلها مثل خطط ألمانيا الحربية جعلت من غير الممكن إغفال هذا الطابع التهديدي الذي للموقف الدولي. كانت خطة شليفن للعمليات تقوم كما رأينا على أساس توقع أن هزيمة فرنسا سترغم بريطانيا على التماس السلم على أن هذا لم يكن أكثر من أمل لأن هيئة أركان الحرب الألمانية لم تضع غزو إنجلترا موضع التقدير إطلاقًا.

ولو استمرت الحرب بين ألمانيا وروسيا بعد إتمام هزيمة فرنسا فإن بريطانيا تستطيع شل تجارة وصناعة ألمانيا وبذلك تضطر ألمانيا تعديل نظامها الاقتصادي والاجتماعي الأمر الذي كان شليفن يخشاه إلى حد بعيد.

ولكن الذي يثير الدهشة بدرجة أكبر هو أن شليفن لم يكن مسئولًا عن دور الأسطول الألماني في برنامج الدفاع الوطني ولا معنيًّا بهذا الدور؛ ذلك لأنه لم يكن من دور للأسطول في طابع الحرب التي وضع شليفن خطتها، وكان بناء الأسطول بهذا الحجم الكبير مضيعة للمال وللأفراد، بل وكان هذا هو شعور الجيش في كل وقت ذلك لأن الجيش لم يكن يستطيع الحصول على كفايته من الاعتمادات المالية لتكوين وتشكيل الفرق الجديدة وإمدادها بحاجتها من الضباط، هذه الفرق التي كانت لازمة لتنفيذ خطة شليفن.

ولم يشك شليفن كما لم يبد قلقه من الاتجاهات الدولية التي أثارها برنامج

بناء الأسطول، هذا البرنامج الذي كان من المحتمل أن يسبب تدخل بريطانيا عسكريًّا في قارة أوروبا بإنزال جيش بريطاني في أرض القارة، بل وقد فكر شليڤن بدرجة أقل في مشكلات النظام القائم للحكومة الألمانية وعلى الأخص فيما إذا كان من الضروري للجيش أن يكون أقرب اتصالًا بالقوى الاجتماعية الجديدة حتى يكون له تأثيره القوي عندما تكون الأمة في حاجة إليه.

ولم يناقش- شليڤن إطلاقًا هذا الحكم الأوتوقراطي لويليام الثاني، وقد عزف ـ حتى في محيطه العسكري ـ عن تقرير أن قلة دراية الإمبراطور بالمسائل العسكرية قد تسبب تفتت المملكة التي كوَّنها فردريك الأكبر.

لقد أحب ويليام الثاني أن يكسب مناورات ناجحة بوساطة اقتحام القوات الراكبة التي يمكن أن يقودها بنفسه، ولم يكن هذا هو كل شيء بل كشفت انتقاداته للتمرينات التي تقوم بها هيئة أركان الحرب عن نقص كفايته العسكرية وقلة درايته بشئونها، ***والواقع*** أن آراء ويليام الثاني قد أوجدت لونًا من القلق والخوف في صفوف الضباط، وكانت مدعاة لنقاش طويل بينهم، ولكن شليڤن عمل جاهدًا لوقف هذا، على أساس أن توجيه النقد للإمبراطور يضعف السلطان الذي للملكية، هذا السلطان الذي تستند إليه معنويات الجيش البروسي، ولم يهتز إيمانه الأعمى بالملكية حتى بعد تعيين مولتكه الصغير رئيسًا لهيئة أركان الحرب، وإن كان هذا التعيين قد جعل شليڤن يوجه النصح والتحذير من أن خطورة الموقف الاستراتيجي بالنسبة لألمانيا لا تسمح بأي خطى عسكرية «زائفة» غير دقيقة التوجيه.

وقد تسبب هذا الإيمان الأعمى بالملكية في بقاء شليڤن بعيدًا عن إدراك

أن مشاكل الحرب أعمق من أن ينظر في حلها إلى الكفاية العسكرية وحدها، ولا يأمل أي قائد حديث في أن يقلد مارلبورو أو البرنس دوليني أو فردريك الأكبر أو نابليون في تولي السلطة السياسية والقيادة العسكرية، فلقد باتت المسائل العسكرية والشئون السياسية معقدة بدرجة كبيرة وباتت المهارة في كلٍّ تتطلب تجربة عملية طويلة في كل من الميدانين وإن كانت حقيقة أن الحرب عمل من أعمال السياسة لا تزال قائمة لم تتغير، وأرقى صور الاستراتيچية هي نتيجة المهارة العسكرية مصحوبة بالمقدرة السياسية الإنشائية، ولكن هذه الحقيقة التي كان يعرفها تمامًا أولئك الذين أوجدوا المدرسة الألمانية للاستراتيچية ـ غابت عن شليڤن وتلاميذه.

لقد جعل فشل حرب الحركة في الميدان الغربي بعد معركة المارن، جعل القادة العسكريين للإمبراطورية الألمانية الثانية يواجهون ضغط السياسة والأحوال الداخلية والخارجية، وأثر هذا كله في إدارة الحرب، لقد سبب هذا ضرورة استحداث نظام للتعبئة على أساس الحرب الشاملة مع إعداد نظام جديد لاقتصاديات الحرب، إن الحرب تستند إلى استراتيچية برية، ولم يكن تلاميذ شليڤن مدربين لتفهم حقيقة الحرب في مستوى عالمي، الحرب التي يجب خوض غمارها بأسلحة سياسية واقتصادية وسيكولوچية أسوة بأسلحة المشاة والمدفعية.

لقد ظن لودندورف أنه يستطيع بسهولة توجيه هذه القوى الجديدة كما يستطيع توجيه الجيش، ولكنه بإخضاعه الحكومة لأوامر القيادة العليا حول ألمانيا إلى ديكتاتورية عسكرية، ومع هذا فشل الجيش في دعم الجبهة الداخلية وإبقائها متماسكة.

لقد جعلت الثورة الألمانية لسنة ١٩١٨ ضباط الجيش الهدف المنطقي

للحملات الشعبية، ومع أن الجيش لم ينس إطلاقًا الإذلال الذي لحق به فقد بقي كقوة رجعية مضادة مدى الأمد القصير الذي عاشته الجمهورية الألمانية.

لقد آمن أصحاب العقول النيرة في الجيش الألماني بأن خطأ لودندورف يجب ألا يتكرر ثانية، ولم يكن هذا في رأيهم يعني أن يتعاون الجيش مع هذه القوى الشعبية الجديدة، بل كان يعني أن يتعاونوا مع أي حركة سياسية تمكنهم من أن يحشدوا كل جهودهم إلى الاستراتيجية كحرفة كما كانت الحال أيام شليفن، أي إلى «الواجب غير السياسي» ـ كما أحبوا أن يقولوا عن الاستراتيجية.

ولقد أدت هذه النظرية ـ حتى بأنبه أعضاء هيئة أركان الحرب الألمانية ـ إلى أن يفسحوا الطريق لوصول هتلر إلى القوة والسلطان في ألمانيا، ***والواقع*** أن القادة الألمان حصلوا من هتلر على كل الوسائل لتجديد حرب ١٩١٤ / ١٩١٨ ، ولكنهم لم يلبثوا أن تعلموا أن «الحرب عمل من أعمال السياسة»، وفي هذه المرة قادتهم السياسة النازية إلى الهزيمة في حرب قد أعدوا لها العدة على أساس تخطيط ناجح لاستراتيجية «كانِّي» ذلك لأن شليفن وأتباعه قد أغفلوا الحقيقة التاريخية، وهي أن قرطاجنة قد هزمت بالرغم من انتصارات هانيبال.

***

حديث المراجع:

مولتكه وشليفن

-M. Lehmann, Scharnhorst (١٨٨٦ -١٨٨٧).

-H. Delbruck, Geneisenau (٣rd. ed. ١٩٠٨).

-F. Meinecke, Boyen (١٨٩٦ – ١٨٩٩).

-C. Frh. von der Goltz, Kriegsgeschichte Deutschlands im ١٩. Jahrhundert (١٩١٤).

-H. Delbruck, Geschichte der Kriegskunst (١٩٢٨) Vol. V.

-R. Von Cammerer, Entwicklung der Strategischen Wissenschaft im ١٩. Jahrhundert (١٩٠٤).

(English translation, London, (١٩٠٥).

-F. Von Cochenhausen, fuhrertum and Heerfuhrer des Weltrieges General Wetzell, Militar- Wochenblatt (١٩٣٩). pp. ٢٢٥٧ – ٢٢٦٣, ٢٣٢٩ – ٢٣٣٨, ٢٤٠٦ – ٢٤٠٩.

-F. Von Cochenhausen, Von Scharnhorst zu Schlieffen (١٩٣٣).

-G. Wohlers, Die Staatsrechtliche Stellung des Generalstabes in Preussen und Deutschland (١٩٢٠).

-H. Von Moltke, Gesammelte Schriften und Denkwurdigkeiten ٨ vols (١٨٩١ – ١٨٩٤).

-F. Von schmerfeld: H. Graf von Moltke, Die deutschen Aufmarschplane (١٨٧١ – ١٨٩٠).

-P. Rassow, Der Plan des Feldmarschalls Grafen Moltke fur den Zweitfronten-Krieg ١٨٧١ – ١٨٩٠ (١٩٣٦).

-German Publication, Die Grosse Politik der Europaischen Kabinette (١٨٧١ – ١٩١٤).

-Prussian general staff: Moltke in der Vorbereitung und Durchfuhrung der Operationen (Kriegsgeschichtliche Eimzelschriften. XXXVII, (١٩٠٥).

-Spenser Wilkinson, The Early Life of Moltke, ١٩١٣.

-A, Von Janson, The Early Life of Moltke, ١٩١٥.

-H. Von Seekt, The Early Life of Moltke, ١٩٣١.

-H. Friedjung, Der Kampf um die Vorherrschaft Deutschlands (١st ed. Stuttgart ١٨٩٦ ١٠th ed ١٩١٦ – ١٩١٧).

-O. Von Lettow-Vorbeck, Geschichte des Krieges von ١٨٦٦ in Deutschland (١٨٩٦ – ١٩٠٢).

-General von Schlichting, Moltke und Benedek (١٩٠٠).

-E. A. Partt, The Rise of Rail-Power in War and Conquest ١٨٣٣ – ١٩١٤ (١٩١٥).

-H. Von Staabs, Aufmarsch nach zwei Fronten, auf Grund der Operationsplane von ١٨٧١ – ١٩١٤ (١٩٢٥).

-W. Von Blume "Politik und Strategie. Bismark und Moltke", (١٩٠٣).

–W. Busch, Bismarck und Moltke (١٩١٦).

–H. Von Haeften, Bismarck und Moltke (١٩١٩).

–P. Schmitthenner, Politik und Kriegsfuhrung in der neuesten Geschichte (١٩٣٧).

–Graf Alfred von schlieffen, Gesammelte, Schriften, ٢ Vols. (Berlin ١٩١٣).

–W. Foerster, Graf schlieffen und der Weltkrieg (Berlin ١٩٢١).

–Reichsarchiv, Der Weltkrieg (Berlin ١٩٢٥).

–R. Von Collenberg "Graf schlieffen und die deutsche Mobilmachung" Wissen und Wehr (١٩٢٧).

–W. Foerster, Aus der Gedankenwerkstatt des deutschen Generalstabs (Berlin ١٩٣١).

–H. A. De Weerd, Great Soldiers of the Two World Wars (١٩٤١).

–Biographical Sketches of Schleffen, by H. Rochs (١٩٢١). W. Elze (١٩٢٨) F. Von Boetticher (١٩٣٣), E. Bircher (١٩٣٧).

–W. Groener, Das Testament des Grafen Schlieffen (Berlin ١٩٢٧).

–W. Groener, Der Feldherr wider Willen (Berlin ١٩٣١).

–J. Courbis, Le Comte Schlieffen, Organisateur et Stratège (Paris, ١٩٣٨).

-J.V. Bredt, Die belgische Neutralitat und der Schlieffensche Feldzugplan (١٩٢٩).

–Reichsarchiv, Der Weltkrieg, Kriegsrustung und Kriegswirtschaft Vol. ١ and Vol. ١, Annexes.

الفصل التاسع

دوبيك وفوش:

المدرسة الفرنسية

ستيفاني بوسوني(*)

وإيتين مانتو

أدى هذا المدى الطويل الذي مر في سلم متواصل والذي انقضى بين سقوط نابليون الأول وبين الحروب الإيطالية والحروب الألمانية لاستكمال وحدة ألمانيا، أدى هذا المدى بالطبيعة إلى انعدام الحركة في تطور النظريات العسكرية، ولم تسنح للجيش الفرنسي بين «ووترلو» و «سولفرينو[1]» الفرصة لأية تجربة عملية في قتال كامل الصورة واسع المدى؛ كانت حرب القرم في غالبيتها حرب حصار المواقع المحصنة، وقنع الجيش الفرنسي بما اكتسبه في سني الثورة وحكم الإمبراطور من تجارب في القتال، وكان غزو الجزائر قد جاء بعدة نظريات جديدة في حروب الاستعمار، ولكن إلى غاية ما يعني الأمر بالقارة الأوروبية فإن كل الدراسات وقفت عند حد حملات

(*) كتب الدكتور ستيفان پوسوني الجزء الخاص بدوبيك، وكتب الدكتور آتيين مانتو الجزء الخاص بفوش.

(١) سولفرينو مدينة تبعد عشرين ميلاً لشمال غرب مانتوا في إيطاليا هزم فيها السردينييون والفرنسيون بقيادة نابليون الثالث الجيوش النمساوية وكان هذا في الرابع والعشرين من يونيو سنة ١٨٥٩م.

نابليون أو على التحديد بالدراسات التي كتبها چوميني، واستخدمت هذه الكتب الصغيرة التي كتبها كمراجع سهلة الحمل بوساطة كل الضباط الفرنسيين، أما غير هذا من مناحي المعرفة النظرية والدراسات فقد بدت وكأنها أكثر مما تتطلبه الحاجة[1].

ولم تبدأ السلطات العسكرية الفرنسية ـ حتى انتهت الحرب النمسوية / البروسية لسنة ١٨٦٦ وحتى كان انتصار البروسيين في سادوڤا الذي غطى على النجاح الفرنسي في سنة ١٨٥٩ ـ في أن تشك أن تنظيم الجيش الفرنسي وعمل هيئة أركان الحرب الفرنسية ليسا كما يجب أن يكونا عليه من كمال ودقة ومن ثم بدأت تعمل في عجلة وسرعة، وبدأ نقاش ودراسة طويلان لبحث مشاكل التنظيم العسكري، وكانت الدراسات التي كتبها «أردان دوبيك» من أهم البحوث وأبقاها أثرًا.

❊ ❊ ❊

(١) راجع الدراستين الأساسيتين بقلم: "Dallas D. Irvine"

"The French and Prussian Staff System before ١٨٧٠" Journal of the American Military History Foundation, II (١٩٣٨) pp. ١٩٢ – ٢٠٣.

"The French Discovery of Clausewitz and Napoleon" Journal of The American Military Institute, IV (١٩٤١) pp. ١٤٣ – ١٦١..

[١]

وكان القليل هو الذي يعرف من حياة «آردان دوبيك» اللهم فيما عدا أنه ولد في التاسع عشر من أكتوبر سنة ١٩٣١ في «بيريجو» من أعمال «دوردون» وهي منطقة رأى الضوء فيها لأول مرة عدد كبير من أعلام الفرنسيين، وما عدا أنه تلقى دراسته العسكرية في «سان سير» وأنه خدم في حرب القرم حتى أسر في سباستبول، وأنه عاد للخدمة العسكرية في سوريا والجزائر وأنه قتل وهو يقود كتيبة من المشاة قرب متز في الأيام الأولى من الحرب الفرنسية ـ البروسية في اليوم الخامس عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٧٠ ، في ذات الصورة التي فقد فيها تورين حياته في «ساسباك»؛ وعندما مات دوبيك كان قد نشر قبل قليل دراسته «القتال في الماضي» في طبعة خاصة قصد بها أن تكون مرجعًا خاصًّا لعدد قليل من الضباط، ثم طبعت منها طبعة أخرى من المجلة العسكرية «مجلة اتحاد الضباط» مجلد سنة ١٨٧٦ / ٧٧ ؛ وفي سنة ١٨٨٠ نشرت بعض كتاباته في مجلد واحد، ولم تطبع دراسته الأساسية: «دراسات عن المعركة» حتى سنة ١٩٠٢ ، وكانت هذه الطبعة هي الأساس للطبعات التالية التي قصد بها تقديم ما كتبه دوبيك كاملًا إلى غاية ما يمكن؛ ذلك لأنه في الواقع ترك الكثير مما حرره غير معد للنشر، ومع هذا فمن الممكن الشك في أن يكون هذا الكاتب الحاذق لم يكتب غير القليل من التعليقات على ما لا يزيد عن موضوع واحد وأنه لم يكتب شيئًا حتى كان قد أشرف على الأربعين.

وعلى أية حال فإن قصة حياته أو التأريخ له لم يكتب بعد.

ومع أن كتابه «دراسات عن المعركة» كان أكثر كتاب قرأه الجنود في الخنادق الفرنسية طوال الحرب العالمية الأولى باستثناء كتاب «الحرب والسلم» لتولستوي فإن كل دوائر المعارف الدولية لا تزال تتجاهل «دوبيك».

والآن وإن كان من الصعب أن توضع كتابات دوبيك في مكانها الصحيح من الناحية التاريخية، إلا أنه من الممكن الوصول إلى بعض المفكرين وإلى بعض التجارب التي كان لها ولهم التأثير الكبير في تفكيره.

ويقرر «آردان دوبيك» نفسه أن تفكيره العسكري قد تأثر كثيرًا بالماريشال بوچو(*) أشهر جندي فرنسي في العصر الذي بدأ فيه دوبيك دراساته العسكرية، وكان الماريشال بوچو مواطنًا من بيريجو كاردان، وقد يمكن أن تتقبل أن الماريشال بوچو قد تولى في صورة ما توجيه ونصح ورعاية الطالب الضابط طوال حياته العسكرية.

وكان بوچو من جانب آخر أقل تأثرًا بنابليون منه بسوشيه(**) الذي كان واحدًا من أنبغ ماريشالات نابليون بل وأكثرهم أصالة فنية، وقد وضحت حكمة بوچو وأصالة تفكيره واتزان منطقه في كل أعمال دوبيك.

ومهما كانت درجة التأثير المباشر لبوچو في دوبيك فمما لا شك فيه أن دوبيك كان على دراية تامة بكتاب الجنرال تروشو(***) والجيش الفرنسي في

(*) بوچو ... "توماس روبرت ذو لا بيكونيري" دوق إيزلي. ماريشال فرنسا ولد في ليموج (١٧٨٤ - ١٨٤٩) - معجم لاروس ص ١٢٤٨.

(**) سوشيه: لويز جبراييل دوق البيفرا. ماريشال فرنسا ولد في ليون (١٧٧٢ - ١٨٢٦) - مُعجم لاروس ص ١٧٠٢.

(***) تروشو: لويس جول - قائد فرنسي ولد في باليه من أعمال بيل أيل أون مير سنة=

سنة ١٨٦٧ الكتاب الذي وقف فصلًا مهمًّا منه على الحديث عن مشكلات المعركة والذعر والسيكولوچية العسكرية للقائد، وكان تروشو من الثقات في تقدير بوچو، وكان كتابه الذي عرض فيه ثمار نقده الشخصي للجيش الفرنسي بعد سادوڤا من أكثر الكتب انتشارًا وذيوعًا في الوقت الذي بدأ فيه أردان دوبيك كتابة مؤلفه.

والواقع أن قراءة كتاب «تروشو» هي التي وجهت «أردان دوبيك» إلى وضع مؤلفه «دراسات عن المعركة»؛ فإذا أضفنا إلى هذا أن دوبيك قد أخذ بعض النقاط التي أبرزها في مناقشاته نقلًا عن الماريشال دي ساكس وجيبير وبرنس دوليني والماريشال مارمو(*) استطعنا أن نعرف أعلام العسكريين الذين سبقوه والذين أثروا في تفكيره.

ومن المؤكد أن خدمته العسكرية كانت أيضًا موردًا من موارد توجيهه؛ فإن عدم توافر المهارة والمقدرة بين أفراد القيادة العامة الفرنسية طوال حرب القرم كانت من أهم أسباب الموقف المضطرب، أن يفشل جيش وافر العدد في ميدان المعركة بسبب النسبة الكبيرة التي بين أفراده من غير المحاربين.

=١٨١٥، وتخرج من كلية سان سير سنة ١٨٤٠، ووصل إلى رتبة الكولونيل بعد إحدى عشرة سنة من تخرجه، تولى قيادة الفرقة الثانية من الفيلق الثالث في ماجنتاو سولفرينو سنة ١٨٦٦، وتولى قيادة الفيلق الثاني عشر سنة ١٨٧٠ وعُين حاكماً عسكرياً لباريس في ١٧ أغسطس سنة ١٨٧٠ وكان يُنادي بعدم التسليم للبروسيين ومتابعة القتال للنهاية، وله مؤلف نقدي جيد هو: "Une étude critique et remarque L'Armée Française en ١٨٦٧" ومؤلف آخر عن حصار باريس، وتقاعد سنة ١٨٧٣ ومات في ثورة ١٨٩٦. (المترجم) مُعجم لاروس القرن العشرين طبعة سنة ١٩٢٨ المجلد السادس ص ٨١٧.

(*) مارمو – أوجست فردريك لويس أوف مارمو دوق راجيز – ماريشال فرنسا ولد في شاتيو سير سين (١٧٧٢ – ١٨٥٢). معجم لاروس ص ١٥٢٦ (المترجم).

وتعلم من خدمته في سوريا وفي أفريقيا أن نظرية «الكتائب الكبيرة» لا تستحق كل هذه المغالاة في تقديرها، فليس من الصحيح أن النصر يكون دائمًا في جانب (الكتائب الكبيرة) الزيادة في القوى العددية؛ وفي أفريقيا قبل أي مكان آخر يجب على المرء «ألا يثق بالتقديرات الحسابية والمؤثرات المادية عند تطبيق هذه التقديرات والمؤثرات في أصول المعركة».

ويتابع دوبيك حديثه ليناقش نظرية «الحشد» في تعاليم نابليون فيقول:

«فلنناقش واجرام حيث لم يمكن وقف الحشد الذي قام به نابليون، فالواقع أنه لم يصل إلى المواقع الأمامية من الآلاف الاثنين والعشرين الذين حشدهم نابليون إلا من يمكن تقديرهم بين ألف وخمسمائة وثلاثة آلاف جندي فقط، ولا شك أن المواقع لم تسقط بضغط هؤلاء الجنود، بل بسبب التأثير المادي والمعنوي للنهاية القطعة من المدفعية التي دفعها للأمام ثم بسبب الخيالة»؛ وهنا يسأل دوبيك: «فهل كان التسعة عشر ألف الذين غابوا عن الاشتراك فعلًا في المعركة غير صالحين للقتال؟ الواقع لا، بل إننا نستطيع أن نقتطع سبعة آلاف منهم أي ثلث جملة تعداد جنوده على أنهم كانوا في خضم المعركة، فماذا جرى إذن للآلاف الاثنى عشر الباقية» لقد كانوا يقفون على جانبي الطريق كالدمي الخشبية فلم تكن من حاجة ليسيروا إلى نهاية مرحلة السير حتى ميدان المعركة».

على أننا يجب أن نذكر النقاش العنيف الذي دار حول ضرورة إصلاح الجيش الفرنسي كنتيجة للانتصار الذي حصل عليه البروسيون في سنة ١٨٦٦ على النمساويين كحقيقة هامة أثرت بدرجة كبيرة في تفكير أردان

دوبيك؛ وفي سنة ١٨٦٧ تولى الماريشال نييل(*) وزارة الحرب، وقد وكل إليه أن يزود الجيش الفرنسي بالأسلحة الحديثة وأن يضاعف من عدده بإعداد احتياطي كبير قوي، بل وللعمل لإقرار التجنيد العام.

ولكن كان من المعروف أن نييل لن يستطيع التغلب على روح السياسة الحزبية، فقد كان الحزب البونابرتي يخشى إضافة أعباء عسكرية جديدة على الناخبين، وكانت المعارضة تخشى أن تثبت إصلاحات الجيش وتدعم من نظام نابليون الثالث، ولكن غير المعروف هو أن الجيش الفرنسي نفسه كان إلى حد ما يعارض آراء نييل، وقد هدف تروشو في كتابه إلى إيضاح مدى التوافق الممكن بين السرعة في تنفيذ الإصلاحات العسكرية وبين كراهية الضباط الفرنسيين لفكرة التجنيد العام.

وكان أردان دوبيك خصمًا عنيفًا لآراء الماريشال نييل، ولكنه كان شريفًا في خصومته مؤمنًا بواجبه في هذه الخصومة، ومن الممكن تفسير كتابه ـ إلى حد ما ـ في ضوء هذا على أنه إثبات بالبراهين والأدلة على خطأ آراء الماريشال نييل الخاصة بالخدمة العسكرية العامة.

(*) نييل – أدولف (١٨٠٢ – ١٨٦٩) ماريشال فرنسا ولد في نيريه وقد عمل لزيادة خفة حركة الجيش الفرنسي – تخرج أصلاً من مدرسة الهندسة، وترقى لرتبة اليوزباشي سنة ١٨٣٣. ولرتبة الكولونيل سنة ١٨٤٦ وعمل رئيساً لأركان الحرب للجنرال فيلا في حصار روما، وترقى لرتبة الأميرالاي سنة ١٨٤٩، وعين ياوراً للإمبراطور نابليون الثالث، ثم عُين خلفاً للجنرال بيزو Bizot في قيادة المهندسين في حصار سباستبول أثناء حرب القرم، وتولى بعد هذا في الحرب الإيطالية قيادة الفيلق الرابع واشترك في معركتي "ماجنتا" و"سالفرينو"، وشغل منصب وزير الحربية خلفاً للماريشال راندون في ١٩ يناير ١٨٦٧ ومات في باريس سنة ١٨٦٩. معجم لاروس القرن العشرين طبعة سنة ١٩٢٨ – المُجلد الخامس ص ٣٨.

وقد وقف دوبيك في مناقشته القيمة للنسبة بين الجيش المحترف الصغير العدد وبين الجيش الكبير العدد الذي يجمع أفراده من المجندين الذي يحشدون بالتجنيد العام ـ وقف صراحة في جانب الجيش المحترف، وقدم لإثبات صدق آرائه أمثلة كثيرة من حوادث التاريخ.

ويناقش دوبيك المشكلة العسكرية بأسلوب فني دقيق؛ فالحرب بعد كل شيء هي مسألة قتال ومعركة، والمحور الذي تقوم على أساسه هو القتال بين الوحدات العسكرية المتضادة؛ ولكن من المدهش أن كل الذين قدموا النظريات الخاصة بالحرب لم يعنوا قط بأن يقرروا ممَّا يتكون هذا المحور الذي هو بمثابة العمود الفقري لكيانها. وقد قنع هؤلاء بمناقشة الموضوعات النظرية العامة والتي اعتبروها الأصول العامة للحرب؛ ولكن من غير الممكن في الموضوعات العسكرية ـ ومثلها في هذا مثل غيرها من الموضوعات المهمة في ميادين العلم والفن ـ معرفة أي شيء ما لم تكن الحقائق الأساسية مفهومة تمامًا، وعندما حاول آردان دوبيك أن يجمع الحقائق الأساسية للمعركة اكتشف أن هذه الحقائق غير معروفة، وأننا بعد أن نبحث بعناية دراسات أعظم الثقات العسكريين لا يمكن أن نشك في أن الحرب شيء أكثر من «مباراة الشطرنج».

وقد عرف دوبيك أن واجبه الأساسي هو الوصول إلى هذه «الحقائق» عن المعركة؛ ولما كانت تجاربه الخاصة محدودة فإنه اتجه إلى وسيلة كان لها طرافتها في تلك الأيام، فقد أعد مجموعة من الأسئلة بعث بها في نشرة دورية إلى عدد من زملائه الضباط(*) يسألهم عن آرائهم وتجاربهم فيما جاء بهذه الأسئلة من

(*) نظام الأسئلة.



جنرال بوجو (١٧٨٤ ـ ١٨٤٩)

موضوعات عسكرية.

ولا شك أن هذا الأسلوب الطريف كان صدمة لزملاء دوبيك، وتأثرًا بالتقاليد التي كانت معروفة في الجيش الفرنسي، يوم ذاك شك الكثيرون منهم في أن عمل دوبيك مناورة مضللة، واعتبره أغلبهم مزاحمًا يحاول أن يشق طريقه على أساس إزاحة غيره.

والواقع أن إعداد الإجابات الصحيحة السليمة لأسئلة دوبيك كان يتطلب جهدًا كبيرًا، بل وربما أمكن اعتبار هذه الإجابات اختزالًا لعدة كتيبات، فضلًا عن أنها في الحقيقة كانت أعلى من مستوى دراية أركان الحرب الفرنسيين في ذلك الوقت، ولكنها من ناحية أخرى تعتبر وثيقة ذات طابع ممتاز لها قيمتها وخطرها حتى في هذا العصر الذي نعيش فيه.

وكان المجمل العام لهذه الأسئلة كما يلي:

* كيف تأثر تنظيم أوضاع قواتك ونظام سيرها بسبب طبيعة الأرض، أو تبعًا لاقتراب خطر العدو، أو لكليهما؟

* وإذا كان هذا التنظيم قد تغير فهل كان من الممكن تنسيقه ثانية وإعادته إلى صورته الأولى بسير اقتراب جديد؟

* ماذا حدث عندما وصلت قواتك داخل مرامي مدفعية العدو وأسلحته الصغيرة؟

* متى ـ من ناحية الوقت ـ وعلى أية مسافة اتخذت القوات أوضاعًا جديدة بالغريزة أو بالأوامر لمواجهة نيران العدو والاشتباك معه بالنيران، أو للقيام بالاقتحام، أو للاثنين معًا؟

* كيف بدأ إطلاق النيران؟ وكيف استمرت؟ وكيف تَهَيَّأَ الجنودُ

أنفسهم بمطالب النيران؟ وكم عدد الطلقات التي أطلقوها؟ وكم كان عدد الجنود الذين انبطحوا أرضًا لإطلاق النيران؟

* كيف تم الاقتحام؟ وعلى أية مسافة أسرع العدو بالفرار من ميدان المعركة، أو على أية مسافة تحطم هجومك وتفتت بسبب نيران العدو، أو بسبب ثباته في مواقعه، أو بسبب تقديرك لإمكان قيام العدو ببعض التحركات المضادة؟

* ماذا كان سلوك ضباط وجنود قواتك؟ وماذا كان سلوك ضباط وجنود قوات العدو أثناء عملية الاقتحام وبعدها، وبخاصة بالنسبة للصياح، والصمت، والاضطراب؟

* هل كان الجنود يعملون طبقًا للأوامر التي تصدر لهم بالتقدم للأمام؟ أو هل بدا منهم في بعض اللحظات اتجاه لترك الصفوف بالتراجع للخلف؟

* لو افترضنا أن اضطرابًا قد حدث أثناء الاشتباك، وأن ضبط وربط الجنود قد انهار، ففي أية لحظة أفلت الزمام من يد قائد الكتيبة؟ ومتى أفلت من اليوزباشية، ومِنَ الملازمين؟ ومتى حدث ـ (لو كان هذا قد حدث حقًا) ـ اضطراب في صفوف الضباط؟

* متى وأين ـ (بالنسبة للوقت وبالنسبة للمسافة من العدو في أي معركة) ـ توقف الجنود عن متابعة الاقتحام الناجح؟

* متى وأين استعاد الضباط السيطرة على جنودهم من جديد؟

والواقع أن دوبيك قد رأى أن التفاصيل التي سيستطيع الوصول إليها من أسئلته هذه ستلقي ضوءًا على العوامل المادية والمعنوية في «العمل العسكري» أي: في صناعة الجندية، وأنها ستمكننا من تفهم هذه الصناعة

تفهمًا أقرب ما يكون إلى الحقيقة، وستمكن من إعداد دراسات لتعليم الجنود أقوى وأصلح من المناقشات التي أعدها أشهر القادة العسكريين كوسيلة لدراسة الاستراتيجية العامة والتخطيط للحرب.

على أن أسئلة دوبيك لم تجئه بنتائج مثمرة مشجعة، وقد أدرك ما بها من نقص فحاول استكمالها بالوصول إلى حقائق المعركة من كتابات القدامى، ولكنه لم يتجه للتاريخ القديم بسبب تقديره وإكباره للتجارب العسكرية للإغريق أو على التخصيص للرومان، بل بسبب أن المؤلفين القدامى قد أكثروا من الحديث عن الحقائق العسكرية الأساسية بدرجة أكبر مما فعل المؤلفون المحدثون، لقد شغل البحث عن سرِّ اللجيون الروماني وتأثير مشاعر التقديس التي كانت له في نفوس الجنود، شغل المفكرين العسكريين منذ أيام مكيافيلي.

وهنا ساءل دوبيك نفسه:

كيف أن الرومان ـ ولم يكونوا هم شعبًا تتوافر الشجاعة لأفراده ـ كانوا ينتصرون دائمًا وقد هزموا أكثر الأمم شجاعة وبقوات أقل عددًا من جيوش أعدائهم؟

ويجيب دوبيك على سؤاله مستندًا إلى الإجابة التي قدمها «بوليبيوس» من قبل وهي:

«لقد وضع الروماني في كفتي الميزان والمقارنة شجاعة الإغريق وبطولة الغال، وهنا فكر في دقة الواجب الذي يواجهه والمدى الذي يدعم فيه الضبط والربط العنيف لقوة الجموع، على أنه قد فكر أيضًا وقبل كل شيء كسياسي فلم يشغل بالآراء التي لا تتمشى مع الحقائق؛ بل وضع موضع

التقدير الضعف البشري، وعلى أساس هذا كله أوجد نظام وتشكيل ـ اللجيون».

على أن دراسة معارك القدامى وصلت بدوبيك إلى كشف حقيقتين قدر لهما أهمية أساسية:

* نجد وصف الأولى في الجملة التالية للماريشال ساكس: «إن القلب البشري هو نقطة الابتداء في كل المسائل المتعلقة بالحرب».

* والحقيقة الثانية هي أنه في كل المعارك القديمة توجد حدود فاصلة واضحة بين خسائر المنتصر وخسائر المنهزم، فخسائر المنهزم أكبر وأكثر بدرجة كبيرة؛ وفي بداية الصراع البشري تقاتل الأفراد، كان كل رجل يقاتل من أجل سلامته هو وحده؛ ولهذا فقد تقبلت العقول التي لا قدرة لها على البحث والنقد أن المعركة ليست أكثر من جملة حوادث من القتال الفردي، فعندما يصطدم جيشان يبدأ كل جندي القتال ضد الجندي المقابل له في جيش العدو، والجانب الذي يحتمل الخسائر الأكثر عددًا نتيجة لحوادث القتال الفردي هذه إنما يواجه أفضلية عددية تتوافر للخصم ولا قبل له بمواجهتها ويضطر لهذا إلى ترك الأرض التي يحتلها، وهكذا اعتبرت المعركة وكأنها لا تزيد على مبارزات مجسمة تتوقف على قدرة الأفراد، والجيش الذي يتكون من أمهر الرماة وأقوى المقاتلين بالسونكي هو الذي يكسب المعركة. ولكن كان الجندي من الغال أقدر كمقاتل وأفضل كجندي من الجندي الروماني، ولو كانت هذه النظرية صحيحة لوجب أن ينتصر أهل الغال على الرومان دائمًا، ولكن الذي حدث هو أن الرومان انتصروا على الغال، ولو كانت هذه النظرية صحيحة أيضًا لكان من الضروري أن يبقى الخلاف بين عدد الخسائر في الجانبين المتضادين غير واضح فضلًا عن

عدم إمكان تفسيره.

ولهذا فلابد أن تكون «واقعية القتال» شيئًا آخر تمامًا، فليست جملة عدد المقاتلين هي التي تقرر نتيجة المعركة، ولا شك أن «النجاح في معركة مسألة معنوية»، «وفي المعركة تتقاتل قوتان معنويتان وتشترك في القتال أكثر من قوتين ماديتين، وإذا كان الأقوى هو الذي يكسب المعركة فإنه هو (أي المنتصر) الذي يفقد من رجاله أكثر مما يفقد الذي ينهزم، وسينتصر الجانب الذي تتوافر له قوة العزيمة للتقدم للأمام باستمرار؛ الجانب الذي تتوافر له الأفضلية المعنوية سواء أكانت قواته متساوية من الناحية العددية لقوة الخصم أم كانت أقل منها؛ ذلك لأن التأثير المعنوي يبدد مشاعر الخوف في جنود الجانب الأقوى معنويًّا، في الوقت الذي يتحول الخوف بين جنود الجانب الآخر إلى ذعر واضطراب يسببان هزيمتهم، إن حركات المناورة طعنات موجهة، والجانب الذي يبدو أكثر تهديدًا وتوجيهًا للطعنات هو الذي يكسب المعركة».

على أننا نستطيع أن نقول أيضًا أن دوبيك كغيره من الكتاب العسكريين الذين سبقوه ـ مثل جيبير والبرنس دوليني ـ ينكر وجود «الصدمة»(*)،

(*) الصدمة Shock تعني في المراجع اللغوية، الضربة القوية ويجيء تأثيرها الكبير من المفاجأة التي تصحبها "مُعجم ويبستر ص ١٣٤٦"، وتعني في الإصطلاح العسكري، الضربة القوية الموجهة من حشد كبير من القوات تُعد لهذا الغرض وتعمل مُستندة لعامل "المفاجأة"، ومع أن أعمال الاستكشاف في الأرض والجو قد جعلت هذا المبدأ من مبادئ الحرب "المفاجأة" صعب المنال، فقد عرفنا في الحرب العالمية الثانية تشكيل وحدات خاصة في الجيش الألماني لتوجيه هذه الضربات القوية الخاطفة هي وحدات "جنود العصف"، كما ظهر لون جديد من أنواع التكتيك هو "Shock Tactics" أي الإجراءات الهجومية على أساس المفاجأة والتي يقوم بها حشد كبير من القوات. (المترجم).

وينكر أيضًا «الاندفاع الغريزي البدني»، وتبعًا لرأيه لا يمكن أن تتوافر القدرة على توجيه صدمات قوية مفاجئة بين وحدتين متضادتين من الخيالة أو المشاة، ولا تستطيع وحدة من الخيالة أن تمزق خط المشاة بتأثير الضربات المفاجئة فقط؛ ولهذا فإن المعركة لا يمكن أن تقارن «بالمبارزة» والتي يجب أن يتتصر فيها الجانب الأقوى من الناحية البدنية والأحسن إعدادًا من الناحية المادية؛ وليس التدمير البدني الذي تسببه الأسلحة هو الذي يمكِّن من الوصول إلى النتيجة الحاسمة، وليس الجانب الذي يفقد العدد الأكبر من الخسائر في المعركة هو الجانب الذي يجب أن ينهزم، فالحقيقة أن الهزيمة تصيب الجانب الذي تنهار معنوياته؛ ولهذا فإن قوة الأسلحة أو أثرها في القتال إنما يقاس بمدى تأثيرها في معنويات العدو، والمعركة أصلًا صراع بين قوتين معنويتين وليست «إلى حد ما» صراعًا بين قوتين بدنيتين.

إن عملية الاقتحام لا تنجح بسبب أن القوة المادية التي له قد تجاوزت الحد الذي يمكن للعدو احتماله، بل ينجح الاقتحام ويحقق أهدافه ضد عدوّ يتراجع أو يتفتت تبعًا لصلابة الجانب الآخر وتماسكه، وتتقرر نتيجة المعركة قبل أن يصل الجانبان المتضادان إلى التماسك فيما نسميه: القتال يدًا بيد، ويوضح هذا سبب انتصار جيوش غير جيدة التسليح على جيوش أقوى تسليحًا وأفضل عتادًا، كما يوضح هذا أيضًا سبب كثرة ما نلقاه من أنباء استسلام حاميات التحصينات القوية واستسلام الجنود الذي يقومون بأعمال الدفاع في الخنادق.

والواقع أنك «عندما تضع الثقة في أفضلية العوامل المادية فإن هذه الثقة لا تلبث أن تضعف منها عمليات العدو، فإذا ما أطبق العدو عليك بالرغم من الأفضلية التي تتوافر لك فإن معنوياته تزداد تبعًا لتناقص الثقة التي

كانت لك من قبل في أفضلية عواملك المادية، ثم تسود معنوياته معنوياتك، وبذلك فإنك لا تلبث أن تولي الأدبار منهزمًا»، ولا يحدث «التناطح»(*) إطلاقًا بسبب أن أحد الجانبين المتضادين يتجنب القتال عازفًا عنه، مخادعًا للعدو، هذا إذا لم يستسلم أو يفر؛ ولهذا فلا يحدث أي قتال متساو متماثل بين جانبين متضادين يوجه كل منهما ضرباته بأقوى جهد يستطيعه؛ «فالاصطدام كلمة ليس غير، وقد يعني بها العاصفة التي تثيرها الخيالة عندما تتقابل في قتال عنيف، ولكن هذا حديث شعري لا حقيقة له». "C'est la poésie, Jamais la realité".

«ولا تتقابل إطلاقًا في المعركة عزيمتان متساويتان، فلا يكون الاصطدام متعادلًا قط، والعدو لا يبقى ثابتًا في موقعه؛ لأنه لو بقي فيه استطعت أنت النجاة والإفلات منه، فإذا ما اضطرب القتال حدثت عملية استئصال متبادلة، وعمل كل من الطرفين لإفناء الآخر، ولكن مع هذا لا يكون هناك من يعتبر منتصرًا، إن الإنسان يفضل بالغريزة القتال مع وجود مسافة تفصله عن عدوه لا القتال القريب المتلاحم»؛ وهذا هو التفسير للخلاف والتباين في عدد الخسائر بين الجانبين المتضادين، فليست الخسائر نتيجة اصطدام خطي المعركة للخصمين المتضادين؛ بل تحدث عندما يقوم أحد الجيشين بالهجوم وتختل أوضاع الجيش الآخر، ثم تكون المذبحة ويتكبد العدو الخسائر الكثيرة لا أثناء الاصدام بل أثناء المطاردة.

وقد بدأ التفكير العسكري المنتج من نقطة لم تكن هي «الفضيلة العسكرية» فضلًا عن أن تكون «البطولة»؛ بل الواقع أنها كانت «الخوف».

(*) في الأصل (Abordage or head-on clash) وكلمة Abordage تعني "التصاق سفينة بأخرى بقصد الاستيلاء عليها" (المترجم)

والواقع أن الروماني المخادع المعدوم الإيمان هو الذي «وضع موضع التقدير الضعف البشري ثم اخترع تشكيل اللجيون»؛ ولا يمكن أن نغير من قلوب الرجال، ولكن قد يُمكِّن الضبط والربط الجندي من أن يتغلب على مخاوفه لفترة قليلة، وقد تكون هذه الفترة القليلة هي الوقت اللازم لينتصر. لقد أثار القادة الرومانيون معنويات جنودهم لا بالتشجيع بل بثورات الغضب، «لقد جعل القائد الروماني حياة جنوده تعسة بسبب العمل المرهق الذي يقومون به وبسبب افتقارهم إلى الضروريات، ثم مدَّ من قوة وتأثير الضبط والربط إلى الحد الذي عنده يجب ـ في اللحظة الحرجة ـ أن تتفتت هذه القوة أو أن تمكن من القضاء على العدو»، و«هناك مدى لا يستطيع الإنسان بعده أن يحتمل القتال في الخطوط الأمامية دون أن يشتبك تمامًا بعدوه». وقد وافق دوبيك على الحديث التصويري الذي قدمه الجنرال بورباكي(*) من أن: الهجوم ـ أساسيًّا وفي أعماق حقيقته ـ لا شيء غير «الفكاك والتخلص بواسطة التقدم».

وكانت هذه هي أهم الدروس التي يمكن الحصول عليها من دراسة المعارك القديمة، وتبعًا للمادة والتجارب المعاصرة التي جمعها دوبيك لم تكن

(*) بورباكي Bourbaki بول أوجيني شارل، قائد فرنسي من أصل يوناني ولد في بو سنة ١٨١٢، اشتهر في حرب القرم وهو يتولى قيادة لواء سنة ١٨٥٤، كما اشتهر في الحرب الإيطالية ضد النمساويين سنة ١٨٥٩، وفي حرب سنة ١٨٧٠ كان قائد الحرس الأمامي في جيش الرين، وعندما حصر بازيني في "متز" أرسل بورباكي في مهمة سرية، ثم تولى قيادة جيش الشرق في العمليات ضد بلفورت حتى اضطر أخيراً إلى قبول الهدنة، وفي سنة ١٨٧٣ تولى قيادة الفيلق الرابع عشر مع قيامه بأعمال الحاكم العسكري لمنطقة ليون ومات في بايون سنة ١٨٩٧ – مُعجمع لاروس القرن العشرين طبعة سنة ١٩٢٨ المُجلد الأول. (المترجم).

هذه الدروس موضع التضاد من صورة الحرب الحديثة، ولكن كانت هناك ـ كما أشار دوبيك ـ أساطير وخرافات كثيرة تروى عن عمليات اقتحام ناجحة وعن أعمال الشجاعة العسكرية مما أبقى كل فرد مغمض العينين، «من القادة إلى المواطنين البرجوازيين، وكانت هذه الأساطير هي السبب الدائم لتتكرر هذه العمليات ثانية في ذات الصورة من الاضطراب والفوضى».

إن قنطرة أركول Arcole الشهيرة لم يتم الاستيلاء عليها بهجوم أمامي بالمواجهة، ولم يكسب الفرنسيون معركة سولفيرينو كذلك بهذه الصورة بل ـ على ما يقول مولتكه ـ باستخدامهم الحراب «السونكيات» بعزيمة وقوة» فجددوا بذلك عصر القتال بالحراب.

ولقد تذكر النمساويون ـ على التخصيص ـ أسلوبهم القديم الطابع لتكتيكات الاصطدام، ووضعوا كل إصلاحات جيشهم على أساس الفكرة التكتيكية الحاسمة للاقتحام بالسونكيات، ولكنهم غفلوا تمامًا عن حقيقة أن الفرنسيين لم يستخدموا حرابهم إلا عندما انهارت الخطوط النمساوية، وكان مولتكه مراقبًا جيد التقدير دقيق الملاحظة، وقد وصل إلى الحقائق الصحيحة واستطاع أن يستنبط من هذه المعركة درسًا هو: أنه يجب أن تصل دقة نيران البروسيين إلى غاية ما يمكن من اطراد التحسين، وكانت معركة «سادوڤا» لسنة ١٨٦٦ نتيجة للدراسة الصحيحة التي وصل إليها هو والنمساويون من بحث معركة «سولفرينو».

ولم يكن في الاستطاعة أن تعاد أو أن تتكرر من جديد تكتيكات الاصطدام ـ والتي لم تتوافر لها عادة هذه الكفاية التي تعزى إليها ـ بدرجة أكبر تأثيرًا في ضوء الظروف الحديثة، «ومن الغريب ـ وإن كان هذا الغريب

حقيقة ـ أننا كلما اقتربنا من العدو كلما كنا أقل تجمعًا، ولم يعد من مكان لنظرية الضغط بواسطة الصفوف الخلفية، فإنه إذا أُوقف الصف الأمامي توقفت الصفوف الخلفية بدلًا من تتابع الاندفاع للأمام، واليوم أكثر من أي وقت آخر يبدأ الفرار في الصفوف الخلفية والتي تواجه ذات المؤثرات التي تواجه الصفوف الأمامية، وهذا يوضح خطأ نظرية الدافع البدني؛ أي: عامل الحث الجسماني في داخل الفرد نفسه»؛ بأن الواجب الأساسي لجندي العصر الحديث هو أن يتخلص من مثل هذه المشاعر القديمة وأن يعمل هادفًا إلى تطور التكتيكات التي تمكن الأفراد من القتال إلى غاية ما لهم من جهد، وبالطبيعة يجب أن تتغير الأساليب التكتيكية من وقت إلى آخر، وكما أشار نابليون محقًّا فإن الجيش لا يكون في حال طيبة إلا إذا كان يغير نظم تكتيكاته التي يستخدمها في القتال كل عشر سنوات، «وإن كان الضبط والربط والثقة هما وحدهما الأسس الثابتة التي لا تتغير»، وكانت هذه المستلزمات التي لهما والتي هي أقل تعرضًا للتغير المستمر هي أهم ما عنى دوبيك بدراسته.

ويتوقف «الضبط والربط» كما تتوقف «الثقة» جزئيًّا على التنظيم العسكري وعلى صفات القادة أنفسهم، كما يتوقفان إلى حد ما على ما يمكن أن نطلق عليه «علم الاجتماع العسكري»، ومن الضروري أن يدرب الضباط بقدر كاف ليستطيعوا أن يقدروا من البداية ما يمكن أن يقوم به العدو، ولكن الأكثر أهمية من هذا عامل التصميم أو العزيمة، وهكذا تتكون المعادلة التي تقول: «إن العزيمة والعزيمة ودائمًا العزيمة ثم العزيمة، هي أكبر من مربع سرعة السير في أي مكان من العالم»؛ ولكن لا يكفي أن تتوافر هذه العزيمة لكبار الضباط وحدهم، فمن الضروري أن تتوافر لكل

درجات السلم العسكري وبخاصة لأولئك الضباط الذين يقودون جنودهم فعلًا في المعركة.

لقد عارض دوبيك بقوة «هذا الاتجاه للضغط على القادة التابعين، وعارض في أن تفرض عليهم فرضًا وجهات نظر الرؤساء، وألا تغفر لهم الأخطاء التي تجيء عن غير قصد أو إهمال، وعارض في أن يشعر كل الأفراد على مختلف درجات السلم العسكري حتى نصل إلى الجنود العاديين بأن هناك سلطة واحدة ذات منعة، سلطة واحدة معصومة من الخطأ محصنة ضد النقد؛ إن الضابط الكولونيل مثلًا عندما ينظر لنفسه وحده وكأنه هو السلطة الوحيدة التي يتوافر لها الذكاء ودقة الحكم، وعندما يغتصب من الضباط التابعين القدرة على الابتكار إنما يهبط بمستواهم إلى مستوى منخفض من «القصور الذاتي» ينتج عنه فقدانهم الثقة بأنفسهم، وخوفهم من أن يوَبَّخوا بعنف وقسوة».

ولنفترض «أن هذه اليد القوية التي توجه كل هذه الأشياء قد غابت للحظة ما، ترى ماذا يحدث؟ إن كل الضباط التابعين ـ الذين بقوا في تلك اللحظة توجههم تلك اليد القوية والتي وصلت بهم إلى وضع ليس طبيعيًّا بالنسبة لهم: وضع تخلفها عن توجيههم ـ سيعملون ولا شك عمل الجواد الذي بقي طويلًا يحكمه عنان قوي ثم ترك له الزمام فجأة، إن هؤلاء الضباط التابعين لن يستطيعوا في هذه اللحظة التي جاءت فجأة أن يستعيدوا الثقة في أنفسهم، هذه الثقة التي أخذت منهم قسرًا ودون أية رغبة».

وأخيرًا فإنه بالإضافة إلى الضباط الذين تتوافر فيهم العزيمة، يجب أن يتوافر أيضًا في كل سرية الجنود وعلى الأخص ضباط الصف الذين تتوافر

فيهم قوة العزيمة؛ ذلك لأن ضباط الصف والذين هم الهيكل المعنوي للوحدة يكونون في اللحظات الحرجة كمراكز الالتجاء، فيتجمع حولهم كل الجنود، ويستطيعون إذ ذاك أن يمدوا الضعاف الذين يفقدون معنوياتهم بقوى معنوية جديدة.

ويجب أن تتجمع معًا كل هذه الصور المختلفة للعزيمة، وهذا التجمع وحده الذي «يوجِد المقاتلين» أي يوجِد الأفراد الذين تتوافر فيهم روح الاقتتال؛ والعامل الأساسي الذي «يربط كل الأفراد على مختلف درجات السلم العسكري من القاع إلى القمة؛ يربط بين الضباط القادة؛ بين القادة وبين الجنود، بل وبين الجنود أنفسهم، والذي لا يسمح لأي من هؤلاء أو هؤلاء بالفكاك والتخلص من القتال هذا العامل الأصيل هو الضبط والربط العنيف القوي».

«لقد كان الضبط والربط أكثر عنفًا وصلابة عند الرومان سيما عند مواجهة العدو، وكان الجنود هم الذين يفرضونه فرضًا على أنفسهم، فلماذا لا يسهر جنودنا اليوم على توافر الضبط والربط بينهم على ذات الصورة؟ ولماذا لا يعاقبون أنفسهم عند الخطأ؟» إن هذه الوسيلة «هي وحدها التي تمكن من الاحتفاظ بالضبط والربط عندما تشتد الحاجة إليه في اللحظات الحرجة وتتضح من الاتجاهات المختلفة أنه سيتفتت وينهار».

ولقد وضع الرومان الضبط والربط ـ كما أشير من قبل ـ على أساس الغضب والخوف والعقاب، «ولكن هذا الضبط والربط الدراكوني(*) لا

(*) "Draconian" نسبة إلى "دراكون" المُشرع الأثيني الذي عاش في أواخر القرن السابع قبل ميلاد عيسى عليه السلام وقد أصدر تشريعات كانت قاسية إلى حد بعيد حتى قيل في وصفها إنها خطت بقطرات الدم.

يتمشى في تنسيق تام مع عاداتنا»؛ **ولهذا فما هي إذن عناصر أو أسس الضبط والربط في الجيش الحديث؟**

ويجيب دوبيك على هذا السؤال التوضيحي، بأنه يجب أن تتوافر في الضباط أولًا الثقة بأنفسهم، ثم أن يدربوا للانصياع تمامًا للقواعد الأساسية «التي استصوبها فيما بعد» ـ ألا وهي:

* التحقق من كل شيء: أي دقة وحسن الملاحظة.
* إقامة الحجة والبرهان: باستخدام الجهد وحسن الوصف.
* التنظيم: أي حسن التوزع.

وعلى أن يضع الضباط نصب أعينهم أن التماسك معناه الضبط والربط؛ وهكذا يستبدل دوبيك كلمة «الغضب» عند الرومان بكلمة «التماسك»؛ ويرجع هذا إلى حقيقة أنه في العصور القديمة كان التراجع عن القتال عملية محفوفة بالمخاطر بالنسبة للجندي، على حين أن الميل إلى هذا التراجع أقوى اليوم عند الجندي الحديث، ثم إن عملية التراجع أيسر وقوعًا اليوم وأقل خطرًا؛ ولهذا فإن القتال الحديث يتطلب المزيد من التماسك المعنوي كما يتطلب رابطة أقوى مما كان يتطلب فيما مضى.

ومن سوء الجد أن عددًا قليلًا من الضباط هم وحدهم الذين يعتبرون جنودًا ممتازين تتوافر فيهم القدرة على الابتكار والاستحداث في أساليب القتال في المعركة والتي تختلف تبعًا لاختلاف العدو، وتتكيف تبعًا لكل حالة فردية، «وهكذا جاءت الحاجة إلى التكتيكات المتحددة المعدة من قبل، والتي تصلح لتوجيه الضابط العادي، ومثلها مثل التكتيكات الواضحة التحديد والتي وضعت لمعاونة قائد اللجيون الروماني، لا يستطيع الضابط

أن يغفلها دون أن يجازف بالفشل في قيامه بواجبه، ولكن هذه «التكتيكات» وإن كانت بلا شك لن تجعل منه قائدًا ممتازًا لا قرين له إلا أنها تحميه من الفشل في القيام بواجبه بالحيلولة بينه وبين الخطأ، اللهم إلا إذا كان هو أصلًا لا يصلح لعمله ولا تتوافر له المقدرة على هذا العمل».

ويتوقف النجاح في الحرب الحديثة على إقدام الجندي وجرأته وعلى معنويات أفراد الوحدات المقاتلة الصغيرة، ويتوقف الأمران بدورهما على التأثير المعنوي المتبادل بين الأفراد «الذين يعرفون بعضهم البعض».

على أن دوبيك ـ بلا شك ـ لم يقل بتعادل الشجاعة والقوة الجسمانية ومساواة كل منهما للأخرى، وعنده أن الإقدام ـ أساسًا ـ مستوى معنوي، وأنه يشبه إلى حد كبير «الإصرار» أو «العزيمة» في كونه صورة من الصور المعنوية، والأكثر من هذا، فهو يرى أن «العزيمة» أو «الرغبة الجماعية» للوحدة ـ لا صفات وخواص الجندي الفرد وحده ـ هي التي لها الأثر الحاسم.

ومن الضروري: أن يقوم الجنود؛ كما تقوم الوحدات المقاتلة بتدريب طويل، يعنى بوضع برامجه ورسم أهدافه، وعلى ألا يكون هذا بقصد الوصول إلى المهارة في استخدام الأسلحة وتوافر المعرفة بصناعة القتال وحسب، بل أن يستهدف ـ هذا التدريب ـ أول ما يستهدف «توافر الارتباط التعاوني القوي بين الأفراد، وهذا الارتباط هو الذي يوجِد بينهم الشعور المتبادل بالفخر(*)؛ كما يتوافر نوع من التماسك والاتحاد والزمالة والألفة

(*) الشعور المتبادل بالفخر، فخر الأفراد بأنفسهم وزملائهم هو الأساس للفخر بالوحدة وهو العامل الأول في توافر روح "حب الوحدة" بين الأفراد، الروح التي تجعل الجندي يخشى الخطأ ويُصر على اكتساب النصر لهدف أساسي هو الإبقاء على سمعة ومكانة=

والصداقة بين كل أفراد الوحدة إلى الحد الذي تغيب معه مشاعر الانفرادية والانعزالية، وتوجد بدلها في كل جندي عاطفة جماعية وتعصبًا دينيًّا وفخرًا قوميًّا وتطلعًا إلى المجد، وتعلقًا بالتملك والكسب للبلاد؛ فإذا ما توافرت روح حب الوحدة بين الأفراد أمكن أن يتوافر بينهم الشعور القوي المليء بالثقة القائمة على المودة والألفة، «والتي لا يمكن أن تضيع في خضم المعركة، وهي وحدها التي تصنع المقاتلين ذوي العزم؛ فإذا ما توافر لنا هذا كان لنا جيش، وليس من الصعب أن نوضح كيف أن الجنود الأقوياء في مواجهة الموت ـ والذين يندفعون بجرأة وعاطفة قوية؛ والذين يواجهون الموت بقوة وشجاعة دون أن تصفر وجوههم أو تهتز جفونهم ـ يمكن ـ إذا لم يتوافر لهم التنظيم والضبط والربط الجيدان ـ أن يهزمهم جنود أقل منهم جرأة إذا ما ارتبطوا معًا متماسكين في وحدة مقاتلة، ووحدة جيدة التنظيم موفورة الضبط والربط».

«لقد حان الوقت لنتفهم نقص القوة في جيوش الغوغاء».

ولم يحاول دوبيك أن يوضح أهمية صفوف «طوابير» التعليم والتدريب وأهمية التعليم العسكري، كما لم يوضح أهمية الحاجة إلى جيش كامل من الناحية السيكلوچية، بل أشار إلى أن الجيش صورة صناعية في المجتمع، فهو «مجموعة متعاونة مشتركة معًا من الرجال»؛ ولهذا فالحاجة ماسة إلى وسائل غير عادية للاحتفاظ لهذا المجتمع بتماسكه «فإنها يمكن أن توجد الثقة والمسئولية المشتركة على عجل، ودون توافر الوسائل الصحيحة التي تعاون على إيجادهما».

=وحدته العسكرية المقاتلة (المترجم).

صحيح أنه لا يمكن إعداد الجيش بسرعة ودون تأهب سابق لهذا الإعداد، فإذا ما اضطرت أمة ما بضغط الحاجة لأن تبعث إلى المعركة بقوات أعدت على عجل كانت النتيجة: أن يخوض هؤلاء الجنود غمار معارك عنيفة مليئة بالبطولة ولكن من النادر أن يصلوا إلى القصد أو كسب الحرب، إن حروب الثورة الفرنسية ـ مثلها مثل تجارب غمبتا التي لم يعش دوبيك ليشهدها ـ تثبت هذا الرأي وتؤكد من حقيقته.

ويعني دوبيك بإيضاح وإثبات أن الصور العسكرية التقليدية للمجتمع وللقيادة ليست بحال ما الوسيلة الوحيدة لإيجاد الروح العسكرية الحقة، لقد عارض بقوة إنفاق هذه الملايين التي تضيع كل سنة على «الكسى العسكرية» و «الأعلام» و «الأنواط» وريش القبعات وغير هذا من صور الزخرف والبهرجة».

وهاجم دوبيك بعنف وقبل الحرب العالمية الأولى بخمس وأربعين سنة، هاجم ارتداء الجنود الفرنسيين للسراويل الحمراء الملونة، وبالرغم من أن التحذير الذي صحب هذا الاعتراض كان واضحًا، ومن السهل تفهم دوافعه وأسبابه فقد أغفلته حكومة فرنسا إغفالًا تامًّا.

ولم يغفل دوبيك كذلك عن إيضاح ما يجب توقعه من ضعف التنظيم العسكري الذي يقوم على أساس الروح الحربية وحدها مهما كانت هذه الروح طيبة جيدة؛ ويقول دوبيك: «عندما يناقش الرجال بعد تناولهم العشاء موضوع الحركة أو يتحدثون عن المعركة، فإنهم يتحدثون عن هذا ـ وهم في أمن تام وفي غاية اكتمالهم الجسماني والمعنوي ـ حديثًا نبيل الأسلوب ولكن لا حقيقة فيه، فالكثيرون منهم يكونون في تلك اللحظة حقًّا على أتم أهبة للمخاطرة بحياتهم، ولكن، كم منهم يكونون على أتم أهبة للمخاطرة

فضلًا عن أن يكونوا صالحين للقتال عندما يضطرون للسير لأيام وأسابيع حتى يصلوا جبهة القتال؛ ثم يضطرون في يوم المعركة إلى انتظار الساعات لخوض غمار القتال؟، لو كانوا أمناء حقًّا لقرروا أن الإجهاد البدني والقلق العقلي اللذين يسبقان القتال سيخفضان معنوياتهم، وأنهم سيكونون أقل رغبة في القتال مما كانوا قبل شهر واحد عندما قاموا من مائدة الطعام في حال طيبة»، إنهم يستطيعون التغلب على هذا الحرج المعنوي لو توافر لهم الإيمان بعدالة قضيتهم.

ولم يفشل دوبيك في أن يشير إلى مثل طيب هو جيوش كرومويل، ومع هذا فإن التغلب على مثل هذا الحرج ليس ممكنًا أو مستطاعًا بالإيمان أو بالمبدأ فقط مهما كان قويًّا، بل إنه يتطلب الاكتمال الصحيح للجيش، هذا الاكتمال الذي لا يتم إلا ثمرة للعمل المجهد الطويل المستمر.

وفي تأكيد دوبيك لأهمية «النوع» لا «الكم»، وتقديره للخاصيات لا العدد، كان قد سبق الجنرال ڤون سيخت والجنرال ديجول إلى هذا الرأي، ولقد سبق غيره إلى تقدير الانصراف عن فكرة الجيش الكبير العدد، فكرة العدد المحتشد التي أوجدها نابليون بونابرت، وظن بأنه من الممكن «في هذه الأيام التي توافرت فيها أسلحة التدمير الدقيقة البعيدة المدى ستستطيع قوة صغيرة (تسعد بتوافر التماسك التام بين أفرادها مع توافر الاكتمال المعنوي لها) أن تكسب نصرًا مليئًا بالبطولة على قوة أكبر منها عددًا ومسلحة بذات الأسلحة التي تحملها»؛ ومن أجل هذا عارض دوبيك الإصلاحات التي اقترحها الماريشال نييل والتي هدف بها إلى استدعاء وتدريب عدد كبير من الاحتياطي، وبذلك يمكن نشر روح الديمقراطية في الجيش الفرنسي المحترف الأرستقراطي الاتجاهات، وقد حاجج دوبيك من البداية في أن

«المجتمع الديمقراطي يقف موقف القضاء والتنازع من الروح العسكرية».

وكتب دوبيك: «أي نفع من جيش تعداده مائتا ألف جندي إذا كان نصف هؤلاء هم الذين يقاتلون حقًّا على حين يتفرق ويختفي المائة الألف الآخرون بمائة طريقة مختلفة للفكاك، إن المسألة تدل على أن دوبيك قد أحس بأن جنود الاحتياط ـ من ناحية المبدأ ـ ينفرون من القتال بينا يميل الجنود المحترفون إلى ميدان القتال ويتشوقون إلى المعركة.

والحقيقة التي لا شك فيها: أن الجيش الفرنسي الذي سبق سنة ١٨٧٠ كان يحتاج الكثير من صور الإصلاح عدا هذه الزيادة العددية التي كان نييل يتحدث عنها ملحًّا، فقبل خمس وعشرين سنة أعلن الجنرال بوچو(*) إلى الملك لويس فيليب: أن الكثيرين من الضباط غير ذوي الكفاية قد وصلوا إلى أعلى رتب الجيش، وأن هذا الموقف المؤسف لم يتته تمامًا، وفي نفس الوقت كان ضباط الصف ـ والذين هم القوة الحقيقية للجيش ـ في حاجة إلى المزيد من التعليم، على حين أن الضباط أنفسهم كانوا بدورهم في حاجة إلى زيادة معنوياتهم العسكرية، بل ـ وعلى ما يقول الجنرال تروشو ـ تسودهم «روح رأسمالية»(**) تجعلهم أشحاء بأرواحهم يخشون فقد

(*) بوچو ... توماس روبرت بوچو، ولد في ليموج سنة ١٧٨٤ ومات بالكوليرا في باريس سنة ١٨٤٩، عمل مع الإمبراطور نابليون ومع حكومة البوربون من بعده، وكان واضح النشاط بعد سنة ١٨٣٠ تولى مركز الحاكم العام للجزائر سنة ١٨٤٠ وعمل لمد سلطان فرنسا في الصحراء بتمهيد الطرق وإرسال القوات إلى القرى الداخلية، عين قائداً لجيش الألب سنة ١٨٤٨، وله كتابان في الفن العسكري هما:

La Guerre d’Afrique (٣١٨٩) و Reflections et Souvenirs militares (١٨٤٥).

معجم لاروس القرن العشرين طبعة ١٩٢٨ جزء ١ ص ٩٠٤ (المترجم).

(**) الاصطلاح الأصلي هو “Esprit capitaliste” ويعني شعور الضباط نحو البذل=

مراكزهم السامية التي يشغلونها.

ومع هذا فإن الخاتمة التي انتهى إليها دوبيك يمكن أن تعتبر صحيحة، فليس من الضروري بحال ما أن يكون لدينا مجتمع أرستقراطي لكي نوجد ونثير الروح العسكرية الصحيحة، ومع عدم التنكر للعلاقة القوية التي بين الأمرين «المجتمع الأرستقراطي والروح العسكرية» فإننا لا نستطيع أن ننكر أن المجتمعات الديمقراطية تستطيع أن تخوض الحرب بنجاح، كما لا نستطيع أن ننكر بأن من الحق ـ على ما يؤكد دوبيك نفسه ـ أن النبلاء العسكريين يحبون خوض غمار الحرب، فضلًا عن توافر الكثير من الأمثلة التي توضح أن المقاتلين من الطبقات الصغيرة أو المنبوذة كانوا يدفعون إلى الحرب على غير رغبة منهم في خوضها، ويدفعون إليها بواسطة الجموع الديمقراطية المشاغبة المحبة للحرب.

وقد أثبتت الروح التقليدية أنها ـ في ضوء الأحوال الحديثة ـ عائق يعطل من تطور القوة العسكرية؛ وقد أوصى دوبيك: بأن توفر للضباط حياة أرستقراطية، أي توافر المال والراحة مع القليل من العمل، ويقول دوبيك: «ولا نجد في وصف الحياة الأرستقراطية ما هو أبسط من القول بأنها حياة الراحة والمتعة»؛ ولسنا في حاجة إلى الحديث الطويل لنثبت بأن الضباط الذين يعنون براحتهم ومتعتهم في هذا العصر الذي نعيش فيه لا يكونون ضباطًا جيدين، فالتاريخ يشير إلى أن هذا كان صحيحًا أيضًا في الماضي، وكان الضباط الناجحون دائمًا هم في الغالب من الضباط العاملين المجدين

=والتضحية شعور الرأسمالي الذي يعمل للاستزادة من الكسب، ويقصد تروشو أن الضباط في الجيش الفرنسي لم يكونوا مُسرفين في البذل من أجل الجيش والدولة. (المترجم).

الذين لا يعنون براحتهم حتى ولو توافر لهم مستوى مرتفع من العيش.

ويجب أن نعتبر أيضًا بأنه من المشكوك فيه أن يستطيع الضباط الذين ينفصلون عن جنودهم بمدى واسع من الطبقات الاجتماعية قيادة جنودهم بنجاح في المعركة، بل على النقيض فإن الضباط الناجحين هم الذين لا ينعزلون عن جنودهم، وهذه حقيقة تؤكد منها صورة ألمانيا الحديثة ذات الطابع العسكري؛ ومن الواضح أن آردان دوبيك مازال يفكر في صورة الجيش الذي يجند أساسيًّا من الفلاحين ومن الجماعات غير المتكيفة مع المجتمع أو الموضوعة وضعًا غير صحيح فيه؛ ولكن دوبيك قد فشل تمامًا في إدراك أن الطبقات المثقفة والطبقات الصناعية تستطيع أيضًا أن تسهم بقدر كبير من النشاط العسكري، ولم يحاول دوبيك كذلك أن يصل إلى تعرف الوسيلة الصحيحة للتأثير في عقول الجنود.

والواقع أن قيمة الجيش تتوقف إلى حد بعيد على قيم الضباط وضباط الصف، كما أن ضباط الصف ليسوا أقل أهمية من الضباط ويحتاجون هم أيضًا إلى الكثير من الرعاية والعناية مثلهم في هذا مثل الضباط، على أنه من الممكن القول بأن أتباع نظرية اردان دوبيك، أو أن محاولة خلق روح عسكرية بتكوين طبقة عسكرية من النبلاء توَّاقة للاعتداء، لا يمكن ـ في ضوء الأحوال الحديثة ـ أن تحقق شيئًا من النجاح بل إن مصيرها هو الفشل.

إن الحروب التي حدثت في الحِقَب من السنين السابقة لتوضح: أنه عندما تكون القيادة العسكرية مقصورة على طبقات خاصة معينة، أو عندما يوجه الأفراد الذين تتوافر لهم موهبة القيادة بعيدًا عن الحياة العسكرية إلى صناعات أخرى، تكون نتيجة هذا انحطاط وانهيار الروح العسكرية، ولم

تعد الطبقات العسكرية المحدودة، والقاصرة على ألوان خاصة من الناس بقادرة على أن تحتضن الروح العسكرية الحقة؛ فأفراد هذه الطبقات على أحسن الصور ممن يختصون بأمور الحرب وإن كان هذا لا يعني أن عقليتهم عسكرية، ثم أنهم يعنون في الغالب بمصالحهم المكتسبة، كما وضح المرة بعد الأخرى في مجتمع هذه «العصبة» العسكرية التي عاشت في وطن اردان دوبيك.

والواقع أنه في ضوء هذا التطور الحديث يجب أن تكون المواهب على أساس الترقية، وأن تكون هي وحدها السبيل إلى الشرف والمجد؛ بل وربما السبيل إلى الثروة أيضًا؛ والتنظيم العسكري الذي يقوم على أساس الموهبة وحدها لهو الوسيلة الوحيدة إلى النصر، لقد كان من الممكن تجنب الخسائر الكثيرة التي أصابت الجيش الفرنسي سنة ١٩١٤ لو كانت هيئة أركان الحرب الفرنسية قد اتبعت الصالح من نصائح آردان دوبيك، وأغفلت ما لا تراه حكيمًا منها، ولقد بدت الكراهية لاستخدام جنود الاحتياطي من حقيقة واحدة هي: أن چوفر قذف ضد الألمان في سنة ١٩١٤ نصف القوات التي توافرت له، مما اضطره إلى أن يترك مبكرًا و «قبل الأوان» بعض المواقع الهامة التي ظن بأنه من غير الممكن الدفاع عنها لأنها كانت محتلة بقوات الاحتياطي الفرنسي مع أن هذه القوات كانت إلى حد ما يمكن أن تستخدم ولو في أعمال التعطيل.

ويجب أن يقوم الجيش الحديث على أساس التخطيط المنطقي الذي يتقبله العقل، ولا تستطيع أمة ما أن توجد ـ على أساس السياسة أو العسكرية ـ ما يعوضها عن إغفال استخدام أقصى ما يمكن أن يتوافر لها من جنود الاحتياطي المدربين أكمل تدريب بالإضافة إلى جيشها العامل تبعًا

لاحتياجات ومطالب أمنها وسلامتها، أو أن تهمل إمكان تعبئة قواتها الاحتياطية وتوزيعها في وحدات مقاتلة عالية مستوى الكفاية والمرانة.

إن أفراد المدرسة الفرنسية التي تدعو إلى: «الهجوم بأقصى مدى من العزيمة» قد أخذوا هذا الإلهام والوحي عن اردان دوبيك، وعلى الأخص مما جاء في قوله الجامع ومثله السائر: «أن من يكسب هو الذي يهاجم دائمًا» على أساس أنه يقصد: «الهجوم في كل مكان وفي كل وقت، ومهما كانت الوسائل فإن الهجوم يجب أن يؤدي إلى النصر».

وقد لا يكون من الضروري: أن نوضح كيف أن هذا الشرح الضيق «لعقيدة» آردان دوبيك يفكر فيه؟

في الواقع هو: «أفضلية وميزة المناورة سواء في الهجوم أم في الدفاع»، وبدلًا من الطريقة الجامدة التي كان الكولونيل جراندميسون يدعو إليها، دعا دوبيك إلى المرونة في الاستخدام العسكري للقوات المقاتلة، بل وإلى جانب هذا، كان من الضروري عدم إغفال عزيمة العدو، إذ أنه لا يمكن القضاء على هذه العزيمة إلا بالقيام بالأعمال التي يضعها العدو موضع التقدير.

ومما لا شك فيه: أن الآراء الأساسية لدوبيك معقولة ومنطقية ويجب ألا تهمل؛ إن القلب البشري هو في الواقع أساس ودعامة الحرب، وهذا القلب يسيطر عليه الخوف في ضوء الإجهاد الذي تسببه المعركة وتوجده مواجهة الخطر؛ ولكن من الصحيح أيضًا: أن «النوع» يسبق «الكم» في الحرب، «فالخاصيات والصفات» أهم وأكبر قيمة من «العدد»، وأخيرًا فإنه من الصحيح كذلك أن أسلحة اليوم القوية ليست مؤثرة فقط تبعًا لثقل صلب القذائف التي توجهها إلى العدو، «ذلك لأن هذه الأسلحة الحديثة لا قيمة لها في أيدي الجنود الضعاف العزيمة مهما كان عددهم»، وهذا نوع من جديد

يضاف إلى تفضيل «النوع» وتقديمه على «الكم».

ويلقي آردان دوبيك بلا شك ضوءًا على الكثير من مشكلات الحرب الحديثة والتي كانت حتى وقته لم تناقش إلا لمامًا، فضلًا عن أنها تُهيأ الحلول لها؛ فإذا وثقنا من أننا لا نستطيع تقبل حل مشكلة الجيش المحترف كان علينا ـ ولا شك ـ أن نواجه الواجب المليء بالصعاب لمحاولة تجنيد المجندين البرجوازيين إلى جيش قوي متماسك متكامل لا يفقد وحدته في الساعات الحرجة، بل وأن نوجد الوسائل الحديثة لضمان الضبط والربط الجيدين، هذه الوسائل التي تضع موضع التقدير الحقيقة القائلة بأنه: «يجب على المرء اليوم أن يبتلع في خمس دقائق جرعة علاج الخوف، هذه الجرعة التي كانت تتطلب يومًا كاملًا في عصر تورين».

بل وأن نضع كذلك موضع التقدير الحقيقة القائلة: بأن صور القتال المتوزع اليوم تجعل السيطرة أصعب وأعقد مما كانت من قبل .

***



جنرال تروشو (١٨١٥ ـ ١٨٩٦)

[٢]

وإذا كانت معركة سادوڤا قد شككت بعض الضباط الفرنسيين في كمال تنظيماتهم العسكرية، فإن حرب سنة ١٨٧٠ قد هزتهم من مراقدهم بعنف فأيقظتهم، ولم يعد إذ ذاك من شك في أن فرنسا قد فقدت سيادتها على العالم العسكري، هذه السيادة التي كانت من نصيبها بالوراثة.

على أنه لم يكن بين أسباب هزيمة سنة ١٨٧٠ ما هو أبرز من قلة كفاية القيادة العليا، وقد لعب القادة الفرنسيون دورهم في حماقة وغباء وطيش ونزق بإزاء قادة بروسيين أحسن تدريبهم وإعدادهم، ووقفت إلى جانبهم تعاونهم مجموعة طيبة من هيئة أركان الحرب أعدت إعدادًا طيبًا، وبذلك لم تمكن شجاعة الجنود الفرنسيين من موازنة الموقف، وأن تعوض من هذا النقص الخطير في كفاية القادة؛ وكان من الواضح: أنه إذا أراد الفرنسيون استعادة مكانتهم كقوة عسكرية من الطراز الأول يجب أن يقوموا بصورة من صور الإصلاح في الجيش، على أن يبدأ هذا الإصلاح من أعلى «القمة»؛ أي أن يبدأ بإصلاح هيئة القيادة العليا نفسها.

وفي سنة ١٨٧٤ نظمت هيئة أركان الحرب الفرنسية على الطراز البروسي، ولكن هذا لم يكن كافيًا، بل كان من الضروري أن يتلقى الضباط دراسة تمكنهم من الوصول إلى مستوى أركان الحرب المحدثين.

ولم يكن أقل أسباب عدم كفاية هيئة أركان الحرب الفرنسية حقيقة أنها كانت قبل سنة ١٨٧٠ تغفل قيمة المعرفة والدراسة على حين كانت تعتبر المقدرة العملية كالمهارة في ركوب الخيل النموذجي الأساسي الحاسم لقياس

كفاية الضباط واختيارهم لما يشغلونه من مناصب وما يوكل إليهم من أعمال.

ولكن بعد سنة ١٨٧٤ تحول الأمر لتكون دراية الضباط بالنظريات العسكرية أساس اختيارهم؛ بل وقاعدة إعدادهم لوظائف أركان الحرب، وفي سنة ١٨٧٨ أنشئت «الكلية الحربية العليا» Ecole Militaire Supérieure، ثم عدل اسمها بعد سنة ١٨٨٠ إلى «كلية الحرب العليا» Ecole Supérieure de Guerre(*) وأضحت المركز الثقافي للجيش ومهد تدريب كبار الضباط(١).

وهنا نقف بإزاء هذه الكلية العليا الجديدة، فأية نظرية عسكرية كانت هي محور الدراسة في هذه الكلية العليا؟ إن أي جيش لا يريد طواعية أن ينزل عن تقاليده وأن يتنكر لماضيه، ولكن كان من الواضح أنه لا يمكن إحياء النظريات العسكرية الفرنسية التقليدية إلا لو روجعت وعدلت لتتمشى مع مجرى الأحوال الحديثة.

ولكن لم تقف نهضة الفكر العسكري الفرنسي ـ هذه النهضة التي حدثت في السنوات بين الحرب البروسية ـ الفرنسية وبين الحرب العالمية الأولى ـ لم

(*) يجب أن ننظر إلى هذا التعديل في إطلاق الاسم على المعهد العسكري نظرة أبعد مما توضحه الألفاظ؛ فالتسمية الأولى إنها تعني إيجاد كلية عليا لكلية ثانوية تسبقها، أي أنها مرحلة ثانية للتعليم بالنسبة للضباط الذين يتخرجون من "سان سير"، ولكن التسمية الثانية تعني إعداد كلية عليا للحرب تستهدف الإعداد للحرب، ويتضمن هذا إعداد كل الأفراد عامة من جهة، ومن جهة أخرى الإعداد الخاص للنابهين من الضباط الذين سيتولون القيادة، وهذا تطور له مداه. (المترجم).

(١) راجع الحديث عن هذا التطور في مقالي "دلاس إيرڤين":

١- The French Discovery of Napoleon and Clausewiz, Journal of the American military Institute, IV, (١٩٤٠). ١٤٣–١٦١.

٢- “The Origin of Capital Staffs”. Journal of Modern History, X (١٩٣٨), ١٦١ – ١٧٩.

تقف عند حد استحداث ، أي تجديد، الميراث التقليدي بل جاءت مؤثرات جديدة كانت لها أهميتها؛ فقد نشرت الدراسة التي كتبها آردان دوبيك، الدراسة التي وسمت بعنوان: «دراسات حول القتال» Etudes sur le Combat في كتاب سنة ١٨٨٠ وبدا أنها تقدم نظريات جديدة وتوجد آفاقًا جديدة للبحث والدراسة.

على أنه بالإضافة إلى هذا؛ فإن الفرنسيين في بحثهم لاستيضاح وتفهم الهزيمة التي أصابتهم سنة ١٨٧٠ / ٧١ ، اتجهوا إلى دراسة النظريات العسكرية الألمانية، واكتشفوا لأول مرة مؤلفات كلاوزيفتز(*) التي بدأت تؤثر تأثيرًا قويًّا وثوريًّا في الفكر العسكري الفرنسي.

وفي سنة ١٨٨٥ عندما ألقى «كاردو» أولى محاضراته عن كلاوزيفتز في الكلية العليا لدراسات الحرب دخل الكلية ضابط صغير اسمه «فرديناند فوش»، وفي سنة ١٨٩٤ أي بعد تسع سنوات كان هذا الضابط الصغير قد عين مدرسًا في الكلية، وكان هذا الضابط بمزجه تقاليد الماضي إلى المكتشفات العسكرية الحديثة، وقيامه بهذا المزج في أسلوب حديث له أصالته هو الموجه الجديد للفكر العسكري الفرنسي، وكان هو الأكثر أهمية والأكثر تأثيرًا في تصوير وصياغة النظريات الثقافية للضباط الفرنسيين قبل الحرب العالمية الأولى.

***

(*) راجع الفصل الرابع الكتاب الأول ص (٢١٥ – ٢٥٣) في الحديث عن "چوميني" وبخاصة رأيه في كلاوزيفتز. (المترجم).

[٣]

وقد بدأ فوش فاتحة كتابه الأول: «أصول الحرب»[١]، الكتاب الذي كان له خطره، بأن أثبت خطأ القول: بأنه لا يمكن تعلم الحرب إلا في ميدان المعركة، وقد كتب: أن الفكرة القديمة التي تحاول زعم أن الحرب لا تدرس إلا بالحرب لهي فكرة غير صحيحة، فليس من الممكن دراسة أي شيء في ميدان المعركة «حيث يعمل المرء ببساطة لتطبيق ما يعرف ولا شيء غير هذا»[٢]وحتى لكي يستطيع المرء أن يعمل هذا «القليل» يجب أن تتوافر له المعرفة «بالكثير»، وأن تتوافر له هذه المعرفة بدرجة جيدة جدًّا.

وكان هذا هو الدرس الذي يمكن إدراكه من دراسة ما حصل عليه البروسيون من نجاح، فلقد استطاع البروسيون بتدريب أكاديمي دون أن تتوافر لهم أية تجارب عن الحرب بعد سنة ١٨١٥ أن يهزموا في سنة ١٨٦٦ النمسويين الذين لم ينتفعوا من التجارب التي حصلوا عليها في سنة ١٨٥٩، ولم يكن هذا كل شيء؛ لأننا نعود ثانية فنجد في الحرب ضد فرنسا سنة ١٨٧٠ ما يثبت هذه الحقيقة.

ولما كانت الحاجة إلى تعليم نظرية الحرب، وإمكانيات هذا التعليم لا تتطلب الاستناد لأكثر من بعض الحوادث التاريخية التي تكفي لتصوير الإيضاح والشرح؛ فإن فوش لم يقدم دراسة في فن الحرب تنتظم فيها مجموعة كبيرة من الأفكار والآراء، وقد استهدف بدراسته هذه أن يصل

---

(١) نفس المرجع ص ٥.

(٢) Ferdinand Foch, The Principles of War, trans. By Hilaire Belloc. ()New York. ١٩٢٠).

بالمعرفة لمن يعرف ولمن لا يعرف؛ لأنه يقول في وصف «مبادئه»: «إن الرعاة يوقدون النيران على الساحل عند العاصفة لإرشاد رجال البحر حتى الذين لا يعرفونهم».

ولكننا مع هذا نجد في كتابه نقاشًا ودراسة «لعدد من المبادئ الأساسية في قيادة القوات، وفوق هذا في التوجيه الذي يجب أن يوفر للعقل ليستطيع ـ في كل الظروف ـ القيام بعمل تكون له على الأقل أسسه المنطقية»[١].

ويتضح من الكتابين اللذين كتبهما فوش قبل حرب سنة ١٩١٤: أنه كان متأثرًا بكلاوزيفتز إلى حد بعيد أكثر من تأثره بأي شخص آخر من أصحاب النظريات العسكرية، وكنتيجة لهذا فإن كل الأمثلة التاريخية التي قدمها قد خرج بها من حروب نابليون أو من حرب سنة ١٨٧٠ التي قدم لها دراسة ضافية في كتابه: «إدارة الحرب»، وكما أشار الكبتن ليدل هارت[٢] فإننا لا نجد في كتابات فوش ما يدل على أنه قد عمل حقًّا بنصيحة نابليون التي يقول فيها: «اقرأ، واقرأ حملات كبار القادة» من الاسكندر إلى فردريك. وينسب ليدل هارت بعض أوجه الضعف أو الخطأ في استراتيجية فوش إلى

---

(١) نفس المرجع ص ٥ "المقدمة".

(٢) B.H. Liddell Hart, Foch, The Masn of Orleans, (London, ١٩٣١), P. ٢١, ٤٦٨.

«ليدل هارت» من ضباط الحرب العالمية الأولى وصل في المشاة إلى رتبة "الكبتين" اليوزباشي، وقد وكل إليه في السنوات التي بين الحربين العالميتين إعادة كتابة "قانون خدمة الميدان" للجيش الإنجليزي، وليدل هارت من أقدر الكتاب العسكريين الإنجليز بل كان أقدرهم بلا منازع في وقتٍ ما، وله مؤلفات عسكرية عدة أهمها: The Strategy of Indirect Approach, The British Way in Warfare, The Remaking of Modern Armies, Reputations. وتطبع كتبه طبعات عدة بعد أن توسم بعناوين مباينة لما سبق نشره بها، والنقد الوحيد الذي يوجه لليدل هارت هو إيمانه الخاطئ بقيمة الدفاع مع أن الهجوم هو أصلح وسيلة للدفاع. (المترجم).

النقص في المعرفة التاريخية، ولكن يجب أن نلاحظ: أن كلاوزيفتز لم يقدم إلا فيما ندر أية أمثلة مقتطعة من الحروب التي سبقت القرن الثامن عشر، وقد عمل فوش في التعاليم والدراسات التي قدمها، عمل «موصل التيار»، بالنسبة لملاحظات وتعاليم كلاوزيفتز[١].

ولهذا فإن أصالة فوش تكمن في إيضاحه للأصول الاستراتيجية الجديدة بدرجة أقل مما تبدو في إصراره على هذا العدد القليل من الحكم والأقوال البسيطة جدًّا، والتي بقيت رمزًا إلى تعاليمه، ودعامة لها، وتعكس هذه الرموز الازدواج في طبيعة تفكيره؛ الازدواج بين العامل الثقافي والفلسفة السببية، وبين العامل الروحي والسمو والتفاخر بمضاء العزيمة؛ والحقيقة: أنهما يظهران غالبًا في صورة أكثر قليلًا من مجرد آراء واضحة لا تستحق الذكر، ولكن من الضروري أن يعترف من يدرس تطور الفكر العسكري بأن أقوى وأعرق مبادئ الاستراتيجية لم تجئ إلا من مثل هذه الحقائق والآراء[٢].

وقد بدأ فوش كتابه الأول باعترافه بوجود بعض أصول الحرب الثابتة، ولكنه أسرع فأضاف إلى اعترافه هذا: أن هذه الأصول يجب أن تقاس قيمتها بما لتطبيقها في أحوال خاصة؛ وذلك «لأنه في الحرب لا يوجد أي شيء عدا الأحوال الخاصة، ولكل شيء طابعه الانفرادي الذي يتميز به فضلًا عن أن شيئًا مما حدث لا يتكرر ثانية»[٣]

وهنا نلقى من البداية لب عقيدة فوش، ونجد في نفس الوقت السبيل

---

(١) نفس المرجع ص ٢٣.

(٢) "Monsieur de la Palisse est mon meilleur ami" Foch once declared to Major Bugnet.

(٣) المبادئ صفحة ١١.

لتوجيهاته المستقبلية، هذه التوجيهات التي عاونته على الخلاص من عدم كفاية تعاليمه عندما ووجهت بحقائق ميدان المعركة وعلى الأخص ضرورة إيجاد التناسق بين الأصول الثابتة، وبين صور فن الحرب الدائمة التغير.

والواقع أننا نستند هنا إلى كلمات الجنرال ڤيردي ڤيرنوا(*) عندما وصل ميدان القتال في «ناشود» سنة ١٨٦٦ ، ففي خضم الصعاب التي واجهته راح يبحث في ذاكرته عن فكرة يمكن أن تمده بها يدبر به أمره، ولكن كل هذا البحث لم يصل به إلى «الإلهام» الذي يحتاجه للتغلب على الصعاب التي تواجهه، وهنا قال لنفسه: «فليذهب التاريخ، ولتذهب معه كل الأصول والتعاليم إلى الجحيم، فأولًا: ماهي المشكلة التي تواجهني؟ وما هو الموضوع؟»(١).

ومنذ ذلك الوقت كانت هذه الكلمات «ما هو الموضوع؟!» تجري مجرى المثل في كل مناسبة، على أنها في الحقيقة هي التي توضح لنا المفارقات والمتناقضات في تعاليم فوش، هذه التعاليم التي تجمع بين العوامل الميتافيزيقية العامة(٢) المجردة الجامدة العسيرة الفهم مع القليل من المنطق

(*) ڤيردي دو ڤيرنوا چنرال بروسي ولد في سيليزيا سنة ١٨٣٢ ومات في استكهولم سنة ١٩١٠، وصل إلى رتبة الليفتينانت چنرال سنة ١٨٨٨، وكان حاكم "ستراسبورج" سنة ١٨٨٧، وفي العام التالي تولى عمل مدير المشاة، وكان وزيراً للحربية سنة ١٨٨٩ – ١٨٩٠، له عدة مؤلفات عسكرية أهمها:

Etudes sur la conduite de و La Participation de la deuzième armée à la Campagne de ١٨٦٦.

معجم لاروس القرن Etudes sur le service en Campagne ١٨٦٦. و troupes (١٨٧٣ – ١٨٧٥) العشرين طبعة سنة ١٩٢٨ المجلد السادس صفحة ٩٤٩ (المترجم).

(١) "المبادئ" صفحة ١٤.

(٢) "كان هذا الضابط إبان توليه التدريس في مدرسة الحرب يعلم – "الميتافيزيقيا"، وهي علم صعب المنال عسر الفهم مما سبب أنه جعل عدداً من طلبته حمقى أغبياء" – (تقرير=

المتحرر من كل الحلول المعدة من قبل(*)، وربما كانت هذه المقدرة العملية على دقة الحكم السليم هي السر القوي وراء كل مادة علم الاستراتيجية؛ إلا أن عبقرية فوش هي التي طبعت في أذهان تلاميذه وأوحت إليهم، بل وأوحت إلى فوش نفسه، الحاجة المثمرة لتحرر المرء من قيود النظريات المعدة من قبل.

وقد وضحت الأهمية التي قدرها فوش لهذه الحاجة إلى التبصر المستمر والإدراك المتواصل (مع اطراد التحسين واستمرار تعديل النظريات وتكييفها تبعًا للعمليات) في نقده للحملة الألمانية لسنة ١٨٧٠(١)، وقد استخدم فوش بطلاقة إحدى حكم نابليون، وهي الحكمة التي تقول: «الحرب فن بسيط، يكمن جوهره وكنهه في إتمامه وإنجازه». ولم يقلل فوش

=البوليس المرفوع للوزير كليمانصو سنة ١٩٠٨ عندما كان يفكر في تعيين فوش مديراً لمدرسة الحرب).

يوضح لنا هذا أن مسألة البحث في ماضي الذين يُرشحون للوظائف العامة والاتصال بالسلطات البوليسية في هذا الشأن ليست وليدة هذا العصر الذي نعيش فيه بل هي قديمة ترجع إلى فجر هذا القرن، بل وربما قبل هذا بكثير. (المترجم).

(*) في الأصل "Readymade Solutions" والفكرة في هذا أن الكثير ينظرون إلى الأصول التي توضع نتيجة دراسات معارك الحرب القيمة وتطبيق هذه الأصول في الظروف المماثلة إنما تعتبر من "الحلول" المُعدة من قبل (الجاهزة)، ومثلها مثل الثياب الكاملة التي يمكن أن تُشترى من الحوانيت مُعدة للاستعمال صالحة لمن يبتاعها، وكأنه لا ابتكار فيها ولا مهارة لمستخدمها ومن ينتفع بها، وقد يكون أضعف ما في هذا الرأي أن قوة الابتكار والمقدرة هنا إنما تكمن في حسن اختيار الحل المناسب من بين عشرات الحلول المعروفة المدروسة المُجربة من قبل، ثم تطبيقها في ضوء الظروف الحديثة، وثبات الركن الأساسي للحرب أي ثبات المبادئ والأصول مع تطور الأسلحة والصور وتشكيل القوات هو الذي يجعل هذا الاستخدام في الواقع يتطلب خبرة ودراية لا تتوافران للضابط العادي. (المترجم).

(١) La Conduite de la Guerre (Paris, ١٩٠٥).

من قيمة الإعداد المعني به، فقد تتوقف الحرب كلها على الأسلوب الذي يحدث به الاشتباك في المعركة الأولى، ولكنه آمن بأنه من غير الممكن أن يعد التخطيط بدقة، وعلى وجه التحقيق، لأية معركة تالية للمعركة الأولى. وينقل فوش هنا مرة أخرى إحدى حكم نابليون، فلقد أوضح الإمبراطور أنه: «لم تكن له خطة للعمليات، ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن يعرف إلى أين يسير، كان نابليون يعد تخطيطه للحرب، وكان كذلك يضع هدفًا نهائيًّا يعمل لتحقيقه، وهكذا كان يتابع سيره وهو يتخير في طريقه ـ تبعًا للظروف ـ الوسائل التي تمكنه من إدراك هذا الهدف».

ومع أن مولتكه قد أدرك هذه الاستحالة للإبقاء على خطة معدة من قبل فإن ضعف حملة سنة ١٨٧٠ ـ على ما لاحظ فوش ـ كان هو جمود القيادة العليا عن العمل تبعًا لترك خطة العمليات لابتكار قادة الجيوش أنفسهم.

كانت الخطة البروسية تقوم على أساس «التعقب التام المستمر لمنطق الحوادث، وكانت أعمال العدو بدورها هي أيضًا تقوم على أساس اعتبارات لها منطقها، وتتفق مع مصالحه الخاصة، وفي مواجهة مثل هذا العدو أعد الألمان خطتهم للهجوم، هذه الخطة التي كانت بالضرورة قد أعدت من قبل»[1]، وهنا نمسك بأول أطراف المشكلة؛ فإن القادة إذا لم يعملوا تبعًا للخطة الموضوعة انهارت هذه الخطة، ما لم يكن القائد العام على مقربة من الموقف وعلى أتم أهبة لإصدار قراراته على ضوء الظروف والمواقف المتغيرة؛ ولكن إدارة المعارك وتوجيهها بواسطة القيادة الألمانية العليا «كانت إدارة غير مباشرة، وكان توجيهها توجيهًا أعمى غير صحيح، وقد كان

(١) نفس المرجع، ص ٤٦٨.

النصر لا بسبب الجمع والتنسيق للعوامل المختلفة بواسطة مولتكه، ولا بسبب دقة تنفيذ الجنود للتدابير التي أمر بها ـ إلى غاية ما لهذه الكلمات من معنى ـ بل الواقع: أن الجنود قد كسبوا هذه الانتصارات حينما وحيثما كان القادة أنفسهم لا يتوقعونها»[١].

ويقول فوش في جدله، مع أنه كان مسرفًا في مديحه لمولتكه: إن الجيش الفرنسي لم يهزم باستراتيجية غير خاطئة، بل لأن القيادة الفرنسية لم تستطع الانتفاع من أخطاء البروسيين، هذه الأخطاء التي كان أهمها صلابة وجمود تخطيطهم للعمليات، ثم انعدام التوجيه المستمر للعمليات من جانب القيادة الألمانية العليا.

على أن ملاحظة فوش هذه لها أهميتها؛ وذلك لأنها توضح اليوم أحد أسباب هزيمة الألمان عند المارن سنة ١٩١٤ ، ألا وهو: عزلة وتباعد القيادة الألمانية العليا عن ميدان المعركة؛ إن النقد الدراسي للعمليات الحربية ليتسع لكل عوامل النقص التي تبدو شاذة وغريبة من وجهة نظر التاريخ الافتراضي الذي يقوم على أساس النقاش القائل بأنه: «ولو أن النصر ـ كما لاحظ فوش بعد الحرب ـ منع الألمان من تفهم وإدراك الأخطاء التي تنكبوا فيها، فإن هذا قد جعلهم بالتبعية يثابرون على متابعة هذا الخطأ والتنكب فيه من جديد، لقد كانت خطة شليڤن خطة ممتازة، ولكنها نفذت تنفيذًا رديئًا، ولو تصورنا: أن نابليون كان هو الذي يتولى قيادة الجيوش الألمانية التي قامت بغزو فرنسا، فلا شك أنه لم يكن ليظل على مسافة ثلاثمائة أو أربعمائة ميل من الخطوط الأمامية، ولا شك أيضًا أنه لم يكن ليترك لقادته التابعين

(١) نفس المرجع صفحة ٤٧١ .

عبء التدبير وإصدار القرارات، لقد كان نابليون يسيطر على الحوادث بدلًا من أن يتركها تحدث وتقع، إن مولتكه لم يتبع هذه الصورة المثالية، ولكن چوڤر فعل هذا، وكان هذا هو السبب الذي جعله يكسب معركة المارن»[١].

ولهذا تبدو فكرة فوش ورأيه في إدارة الحرب موازنة جميلة بين (المذهب المنطقي» و «المذهب التجريبي» ، ومما لا شك فيه: أن عادة تطبيق المبادئ العامة، وتكييف الحلول على ضوء المواقف القائمة هي سر الاستراتيچية الناجحة.

ولكن ماذا كانت هي المبادئ العامة هذه؟

بل وقبل كل شيء، أي نوع من الحرب هو الذي تطبق فيه المبادئ؟

والواقع أننا يجب قبل أن نعرض لمبادئ فوش في الاستراتيچية أن ندرس في إيجاز نظريته العامة للحرب.

ومع أن نظرية فوش تتبع تمامًا نظرية كلاوزيڤتز؛ فمن الضروري أن نذكر: بأن كلاوزيڤتز قد أوجز التأثير الذي كان لهذا التغيير والتبديل في المظهر الذي جاءت به حروب الثورة الفرنسية، ألا وهو التحول عن الحروب الأهلية المحددة، هذا التحول الذي تنبأ باتجاهاته ميرابو[*]حتى قبل بدء الثورة الفرنسية؛ ولهذا فإن هذا الطابع الجديد «الحرب المطلقة» لم يكن

---

(١) SR. Recouly, Marshal Foch, His Own Words on Many Subjects, (London, ١٩٢٩), P. ١٣٠.

(*) ميرابو Mirabeau – ڤيكتور روچيه ماركيز أوف، اقتصادي فرنسي، ولد في بيرتويه سنة ١٧١٥ وعاش حتى سنة ١٧٨٩، كان ابنه "هنري جبرييل ميرابو" خطيب الثورة الفرنسية المفوه، وقد اختير الابن سنة ١٧٨٩ في مجلس حكومة الثورة وقد أعدم سنة ١٧٩١ عندما اتُّهم بعقد اتفاقات مضادة للثورة. مُعجم لاروس الموجز صفحة ١٥٤٤ – (المترجم).

شيئًا جديدًا ـ على الأقل ـ بالنسبة للفرنسيين، ولكن إغفال إدراك هذه الحقيقة كان سبب هزيمة سنة ١٨٧٠ ، يقول فوش:

«وبسبب إهمالنا هذا التحول الأساسي الذي قام به جيراننا، وبسبب النتائج التي كانت له كنا نحن ضحية هذه الحرب الأهلية التي كنا موجديها وواضعي أصولها. إننا نقف اليوم مضطرين للعودة ثانية إلى النظرية المطلقة للحرب في ضوء ما نستطيع أن نصل إليه منها في دراستنا للتاريخ؛ وذلك بسبب عودة أوروبا كلها إلى النظرية الأهلية نظرية الأمم المسلحة المقاتلة»[1]؛ ولهذا السبب وحده تخير فوش كل مراجعه التاريخية من حوادث ودراسات فترة معينة محددة، هي العصر الحديث لحروب الشعب[2] .

ومع أن فوش قد استخدم كلمة «المطلقة» في وصف الحرب؛ إلا أنه في الواقع لم يدرك كل ما فيها من صور، هذه الصور التي بدت واضحة ملموسة بعد سنة ١٩١٤ ، والتي تثبت أنه لم يتوافر لفوش إلا فكرة باهتة عن الحاجة إلى تعبئة اقتصادية شاملة؛ بل وحتى تجارب الحرب لأربع سنوات لم توح إليه بالأهمية الحقيقية للعمليات البحرية، على أنه ربما كان من الطبيعي أن تتوافر عوامل النقص هذه لجندي درب في العمليات البرية، بل الواقع أنها كانت شائعة بين كل الجنود المحترفين سادة فن القتال المعاصرين لفوش.

---

(١) "المبادئ" صفحة ٢٥.

(٢) كتب فوش مُتحدثاً عن حرب سنة ١٨٧٠ "كان لكل ألماني نصيب في "النفع" و "الفائدة، وكانت له مصلحة مباشرة في "الصورة" و "التكوين" في "النفع" و "الفائدة"، وكانت له مصلحة مباشرة في "الصورة" و "التكوين"، كما كانت له مصلحته في النصر"، إن هذا هو المعنى الصحيح لحرب الشعب "المبادئ" ص ٣٦.



فوش (١٨٥١ ـ ١٩٢٩)

وتكشفت نظرية فوش عن دور المعركة في الحرب؛ كما يكشف رأيه في العلاقة بين الاستراتيجية والتكتيك عن هذا الإهمال للعوامل المؤثرة فيما ينتهي إليه القائد تبعًا للموقف الذي يواجهه؛ كما يكشفان عن هذا الإصرار على تقدير المرحلة العسكرية التي للحرب وحدها دون أي شيء آخر.

ولربما كانت فكرة الحرب الأممية مع ضرورة حدوث القتال المسلح ـ لا استراتيجية لوحة الشطرنج التي اشتهر بها القرن الثامن عشر ـ هي أبرز ما في الفلسفة العسكرية لكلاوزيفتز، وقد أخذ فوش دون تحفظ بوجهة نظر كلاوزيفتز، من أن المعركة هي الحل الوحيد لمشكلة الحرب، وأنه في مواجهة «صور التأرجح المتعثر المضطرب» وضد «النظريات غير المستندة إلى أسس ودعامات قوية» التي جاء بها القرن الثامن عشر يجب استخدام الأساليب التي أوجدها نابليون؛ وإذا كان كلاوزيفتز قد قال: «الدماء ثمن النصر»، فقد قال فوش: «لا نصر بغير معركة»، ثم أضاف فوش إلى هذا: «ولا تعلو استراتيجية على تلك التي تهدف إلى ضمان النتائج التكتيكية؛ أي التي تهدف إلى اكتساب النصر بالقتال»[1].

وهنا أيضًا نجد درسًا لنابليون حريًّا بالتقدير إلا أن هذا الدرس ذكرته بروسيا وأغفلته فرنسا في حكم الامبراطورية الثانية[2] ؛ ذلك لأن القادة

(١) "المبادئ" ص ٤٣.

(٢) لا يوجد أي خلاف – على ما ظن في وقت ما – بين هذه العقيدة وبين القواعد العامة لنابليون، فإن الكبتن ليدل هارت ينقل قولاً عن نابليون ذكره في بداية حملة سنة ١٨٠٥ ليوضح أنه كان معنياً "بكسب النصر بأقل ما يمكن من الدماء". وهنا يعترض ليدل هارت على "عقيدة" هيئة أركان الحرب الفرنسية لسنة ١٩١٣ من أنه "لا يمكن الحصول على النتائج إلا بثمن مرتفع من التضحية بالدماء"، ولكن هذا يُعتبر إغفالاً لما وصل إليه فوش من المقارنة بين أساليب القرن الثامن عشر والتي يوضحها الماريشال دي ساكس=

الفرنسيين كانوا متأثرين بأهمية المواقع الجيدة، والتي يظن بأن احتلالها يمكِّن من الحصول على مطالب واحتياجات الاشتباك النهائي بالعدو، أو على الأقل، يجعل الدفاع قويًا إلى الحد الذي يمكِّن من تقليل الفرص التي تكون في جانب المهاجم؛ وقد جادل فوش على أساس: أن الحرب الحديثة «تتطور لتكون أكثر اتجاهًا نحو الطابع الأممي في أصولها وأهدافها؛ كما أنها تتجه لتكون أقوى في الوسائل التي تستخدمها، وكما أنها تتحول لتكون أكثر تباعدًا عن العوامل ذات الطابع الكمي بتقدير قيم «الأرض، المواقع، التسليح، الإمدادات والتموين»، إنها حرب تغفل تمامًا عن تملك الأرض، الاستيلاء على المدن، غزو واحتلال المواقع القوية»[1] .

لقد كان من «الطفولة» قبول المعركة ضد قوات أكثر عددًا بالاستناد إلى الفوائد التي تقدمها الأرض، ولكنها «طفولة» لا تقل عن هذا ـ لو جاز لنا أن نستخدم كلمات فوش بعد الحرب العالمية الأولى ـ أن نثبت نحو أقصى الطرف الآخر كما فعلت القيادة الفرنسية العليا في الأيام الأولى من الحرب بالاعتماد فقط على «الروح المعنوية»، وكانت نتيجة هذا العودة من جديد إلى «بربرية» المعارك النابوليونية، واصلين بهذا إلى أقصى ما يمكن من الوحشية تبعًا لاستخدام التطورات الفنية الحديثة في هذا القتال العنيف[2].

لقد آمن فوش بأن هذه الحرب المطلقة يمكن أن توضع ذات طابع

=في قوله: "إنني لا أفضل المعارك الدامية، وعلى الأخص في بداية الحرب، إنني أؤمن بأن القائد الماهر يستطيع أن يجعل الحرب صناعته طوال حياته دون أن يرغم على خوض معركة دامية"، وبين الطريقة النابوليونية والتي أوضحها نابليون في قوله: "لا يوجد ما أرغب فيه أكثر من المعارك العظيمة".

(١) "المبادئ" ص ٤١.

(٢) "المبادئ" ص ٤٩ – ٥٠.

واضح، ويبدو وكأن فوش قد أراد أن يلغي أو يعطل نبوءته السابقة بتحديده للمبادئ التي وضعها للحرب، هذه المبادئ التي جاءت في أولى صفحات كتابه ألا وهي:

ـ مبدأ الاقتصاد في القوى.

ـ مبدأ حرية العمل.

ـ مبدأ حرية استخدام القوات.

ـ مبدأ الأمن... «الخ».

وقد كشف هذا اللفظ «الخ» الذي استعمله فوش هنا عن «انطلاق غير محدود» لم يوضحه فوش في كل صفحات كتابه[1]، ومع هذا فقد لخص فوش ـ بإحكام ودقة ـ ما اعتبره نابليون من «الضروريات» لفن الحرب، وبهذا أوضح إلى حد ما معنى العبارة المبهمة في تصريحه لركولي[*] عندما قال له: «إنني أفكر طويلًا في هذا الأمر»، ويضيف ركولي إلى هذا من حديث فوش: «ويبدو لي: أن فن نابليون يتكون من عدد قليل من الأصول

(١) ليدل هارت – نفس المرجع ص ٢٣ وهامش ص ٤٠.

(*) ركولي – ريموند ركولي (١٨٧٦ – ١٩٥٠) كاتب فرنسي عمل مراسلاً لصحيفة "الطان" في منشوريا أثناء الحرب الروسية – اليابانية، وشغل بعد هذا بالدراسات العسكرية والعمل كمراسل حربي في الحرب العالمية الأولى، وقد كتب عدة مؤلفات عسكرية أهمها:

١ – عشرة أشهر من الحرب في منشوريا (١٩٠٥).

٢ – المعركة في غابة الأرجون (١٩١٦).

٣ – الماريشال چوفر ومعاركه (١٩١٦).

٤ – فوش (١٩١٩).

٥ – معارك فوش (١٩٢٠).

الواضحة المبسطة إلى حد غير عادي، وهو يستعملها بمهارة الرجل المدرب العارف بصناعته ليوجه جنوده ويستخدمهم بمهارة ليستطيع مهاجمة العدو في أضعف نقطة بقوات أكبر، وأن يسيطر على جنوده حتى في توزعهم؛ كما يسيطر قائد العربة على جياد عربته بإحكام الأعنة، ويستطيع تبعًا لهذه السيطرة أن يحشد جنوده في لحظة واحدة، وأن يعين قطاع العدو الذي يهدف إلى تدميره، وأن يميز ويدرك النقطة الحاسمة التي تنقلب عندها هزيمة العدو إلى فوضى، ثم أن يستطيع مفاجأة بسرعة تخطيطه لعملياته، وكان هذا هو القليل من العوامل الضرورية لعبقرية نابليون العسكرية»(١) .

فإذا ما بحثنا «مبادئ» فوش تفصيليًّا لم نجد فرقًا واضحًا بين مبدأ «حرية العمل»، ومبدأ «حرية استخدام القوات»، ويبدو أن فوش قد استعملها على التبادل ليوحي إلى طلبته الأهمية الكبرى التي لقوة المبادأة والابتكار، وأهمية التحرر من رغبة العدو؛ على أن الأكثر أهمية من هذا في الواقع: هو ما قدمه بعدهما في حديثه عن مبادئ الحرب؛ فمبدأ «الاقتصاد في القوى» هو نتيجة لمبدأ «حرية العمل» الذي يبشر به، ثم مبدأ «الأمن» الذي هو أصل تطبيق مبدأ «الاقتصاد في القوى».

على أن مبدأ «الاقتصاد في القوى» ـ تبعًا لوجهة نظر فوش ـ هو الذي مكَّن من بقاء «فن الحرب» واستمراره برغم الفوضى أو الاضطراب الناجم عن أحوال الحرب الحديثة وظروفها، ولم يحدد فوش نفسه فكرته في هذا المبدأ، إلا أننا نستطيع أن نجد بين ملاحظاته عن هذا ما يستحق الذكر، فهو يقول: «من الأمثال الصحيحة مثل يقول صاحبه: «إنك لا تستطيع إصابة

(١) ركولي – نفس المرجع ص ١٢٦ – ١٢٧ .

أرنبين في وقت واحد، ولكنك قد تستطيع أن تمسك بأحدهما فقط». والفكرة في هذا هي: أن المرء يجب أن يحشد كل جهوده للوصول إلى نتيجة، وأولئك الذين يقولون: «بأن الاقتصاد للقوى يعني ادخارها، وأن المرء يجب أن يكون على حذر فلا يوزع جهوده» إنما يقدرون جزءًا من الحقيقة وليس كلها، ولكن الأقرب إلى الحقيقة هم أولئك الذين يحولون الأمر إلى ضرورة معرفة الأسلوب الصحيح للتوزع والانتشار، على أن يكون في هذا ما يهدفون إليه من نفع، وبذلك يستطيعون أن يصلوا إلى أحسن الوسائل المستطاعة لاستخدام كل الموارد التي تتوافر لهم»[1].

وقد يكون «التقدير» أو «الحساب» «المنطقي الذي يقبله العقل» تعادلًا مرضيًّا لمبدأ «الاقتصاد في القوى»، هذا المبدأ المعروف جيدًا بين أسس النظريات الاقتصادية والذي يطبق تطبيقًا عامًّا في السلوك البشري المثالي وليس في «فن الحرب» وحده. ويعزو فوش أصل هذا المبدأ إلى حروب الثورة الفرنسية، متبعًا في هذا الرأي خطى چوميني الذي يؤكد: أن نابليون كان يستخدم أقصى ما يتوافر له من قوات ضد أكثر نقط مواقع العدو تعرضًا وصلاحية للهجوم.

ومن الواضح: أن مثل هذا المبدأ الواسع المدى لا يقدم القواعد التي يمكن تطبيقها في هذا العدد الكبير من «الفرص» المحتملة، أو بمعنى آخر لا يقدم الأصول التي يستطيع القائد أن يتخير منها ما يطبقه لكل حال تعرض له لتعدد هذه الحالات وتباينها؛ كما أنه لا يمكننا القول ـ في ضوء هذا المبدأ ـ بأن كل القوات مثلًا يجب أن تحشد دائمًا للقيام بالهجوم الحاسم[2].

(١) المبادئ ص ٥٠ – ٥١ Principles, p. ٥٠ – ٥١.

(٢) "المبادئ ص ٥٧.

ولكن الدرس الذي نستطيع أن نخرج به من هذا هو: أنه ليس من الممكن عمليًّا أن يتأكد المرء من أن العدو ليس هو الأقوى في كل نقطة من مواقعه، مما يضطر معه إلى المخاطرة كضرورة لا قِبل له بتجنبها، «والفكرة أن العدو إذا كان هو الأقوى في قطاع ما من ميدان المعركة فهناك قطاعات أخرى لا تتوافر له فيها هذه الأفضلية، وإلى هذه القطاعات يوجه الخصم حشد قواته».

ثم يتابع فوش حديثه ويقول: «يوجد عدد كبير من القادة المدربين المهرة إلا أنهم يفكرون في أشياء كثيرة جدًّا، إنهم يحاولون رؤية كل شيء، والاحتفاظ بكل شيء، والدفاع عن كل شيء»، عن المستودعات، خطوط المواصلات، المؤخرة، المواقع، إلى غير هذا مما يمكن التفكير فيه وتوجيه النظر إليه، إن مثل هذا العمل منهم معناه في النهاية توزع الجهود، هذا التوزع الذي يحول دون حشدهم لجهودهم كلها تجاه غرض واحد وتوجيه الضربات إليه بقوة، وهكذا فإنهم في النهاية لا يعملون شيئًا ولا يصلون إلى شيء»[١].

ولكن ألا تكون نتيجة هذا الحشد خطر التعرض لمفاجأة العدو في المكان الذي لا تتوقعه فيه؟ إن مبدأ «الأمن»[٢] يمكِّن من تجنب هذه المخاطرة، وإغفال هذا المبدأ في الأيام الأولى سنة ١٨٧٠ كان من أهم العوامل الرئيسية

---

(١) نفس المرجع ص ٥٧.

(٢) في الأصل الفرنسي كلمة Sûreté، وكلمة "الأمن" هي التي تُستخدم عادةً في الترجمة للتعبير عن الفكرة وإيضاحها، ولكن في الواقع لا توجد كلمة واحدة بسيطة توضح المعنى الدقيق للأصل الفرنسي، لأن Sûreté لها معنى "الحس بالثقة والتيقن التام مع تأكيد السلامة"، وتعني أن القائد يعمل في دراية تامة بكل ما يحيط به مع الوقاية التي توفرها قواته". ليدل هارت – نفس المرجع – ص ٤٨٢.

للنكبة التي حلت بالجيوش الفرنسية، ومن جهة أخرى فقد أجهد فوش نفسه ليثبت في كتابه: «إدارة الحرب» أن مثل هذا الإغفال للمبدأ نفسه كان شائعًا بين القادة البروسيين.

ولكن ربما كان القادة البروسيون يعرفون كيف ينتفعون من أخطاء أعدائهم؛ فإن هذه الدراية والقدرة على الانتفاع من أخطاء الخصم لم تتوافر للقادة الفرنسيين. لقد وقف فوش نصف كتابه «المبادئ» تقريبًا لدراسة مبدأ «الأمن»، ولعل من النافع أن نلخص هذا في ذات كلمات فوش نفسه:

«وهذه الفكرة الضافية «للأمن» والتي نعبر عنها إجمالًا بلفظ واحد تنقسم في الواقع إلى:

١ـ «الأمن المادي»؛ أي: طابع الأمن الذي يمكِّن من تجنب ضربات العدو عندما لا نرغب في مقابلة ضرباته بمثلها، أو عندما لا نستطيع حقًّا القيام بهذه الضربات المضادة، والأمن المادي هو صورة الشعور بالأمن في خضم الخطر كما تكون الحال عند التوقف أو السير وراء ساتر قوي.

٢ـ الأمن التكتيكي: طابع الأمن الذي يمكننا من القيام بتنفيذ برنامج أو أوامر صادرة من قيادة أعلى برغم الظروف غير الطيبة التي تسببها الحرب، وبرغم البقاء في خضم المجهول، وأيضاً برغم التدابير التي يقوم بها العدو برغبته الخالصة الطليقة، وعلى أن تتوافر لنا برغم كل ما يمكن أن يقوم به العدو – حرية تامة للعمل»[١].

وقد كتب فوش:

«إن هذا «المجهول» الغامض هو الذي يحكم ظروف الحرب وأحوالها[٢]،

(١) "المبادئ" ص ١٣٨ – ١٣٩.

(٢) نفس المرجع ص ١٤٥.

ولهذا كان العامل الأول للأمن اختراق سجف المجهول مع الوصول إلى غاية ما يمكن من المعلومات ولما كانت «القوة الأساسية» تتوزع بالضرورة، فإن واجب الحصول على المعلومات يُلقى على عاتق «المقدمة»(*)، وتتوقف حرية الجيش للعمل على درجة نجاح «المقدمة» في إتمام الواجب الموكول إليها، ولهذا كان واجب المقدمة، هذا الواجب الثلاثي الأركان هو:

١- «التبليغ أي «الحصول على المعلومات وإرسالها للخلف»: وذلك بالقيام بالاستكشاف حتى اللحظة التي تشترك عندها القوة الأساسية في المعركة».

٢- «الوقاية أي «الستر والتغطية»: بإخفاء كل تحركات القوة الأساسية حتى تتم احتشادها وتأهبها للاشتراك في المعركة».

٣- «التثبيت: بإبقاء قوة العدو المعتزم مهاجمتها في الأوضاع التي تم استكشافها فيها وشغلها بالنيران ودوام مراقبتها للإلمام التام بكل تحركاتها حتى تبدأ عملية الهجوم»[١].

ومن الواضح أن فوش في تأكيده لأهمية «حرس المقدمة» لم يفكر في التطور الذي جاءت به الحرب العالمية الأولى «١٩١٤ - ١٩١٨» عندما قصر جيشان كبيرا العَدد موفورا العُدد - كل نشاطهما في فترات الهدوء من

(*) في الأصل "Advanced guard" وتترجم عادةً في المعاجم العربية بكلمة "الطليعة" (إسماعيل مظهر - قاموس النهضة) واستعملت هنا "المقدمة" وهي الكلمة التي تستخدم في المراجع العسكرية العربية، أما "الطليعة" فتستخدمها هذه المراجع للوحدة الصغيرة التي تجئ في مطلع "المقدمة" عندما "تتشكل" للسير على طريق سابقة القوة الأساسية. (المترجم).

(١) المرجع نفسه ص ١٥٣.

الاشتباكات الدامية - على «أعمال المراقبة». أو بمعنى آخر، على القيام بتدابير الأمن وذلك تبعاً للجمود الذي لحق بالجبهتين المتضادتين من الخنادق بين الحدود السويسرية وبحر الشمال، وكان هذا الإصرار على التفكير في مبدأ «الأمن» وحده تسليماً بالفردية في ضوء أخطاء حرب سنة ١٨٧٠، ثم في ضوء التحول الذي اتجهت إليه الحرب العالمية التي تلتها.

ومن الطريف أن تلاحظ أن فوش مع تحذيره لتلاميذه من «عامل المفاجأة» الذي لا بد وأن يعمل العدو لاستخدامه، لم يتطور هو بدوره لاستخدام مبدأ «المفاجأة الهجومية»، في صورة مماثلة، وإن كان قد ذكره كمبدأ أو أصل رئيسي له أثره الكبير في نجاح المعركة، وفي الفصول الثلاثة الأخير من كتاب «المباديء» انعكست كل نظرية فوش عن «المعركة» في الحاجة إلى العمل الهجومي.

فإذا ما عدنا إلى نظرية فوش عن المعركة، كان من الضروري أن نؤكد من البداية أنه لم يُشر - «بالعمل الهجومي» - بالهجوم في كل حالة، وسنرى فيما بعد إلى أي مدى كان دوره في نشر العقيدة الهجومية في فرنسا تبعاً للأدلة المنطقية التي تؤكد هذا، لقد كانت فكرته عن الهجوم في تعاليمه وبالتبعية في تجاربه العملية فكرة جيدة، وقد كتب: «إن الصورة الهجومية وحدها - سواء استخدمت من البداية أم بعد القيام بالتنظيم الدفاعي - يمكن أن تؤدي إلى نتائج جيدة، ولهذا فمن الضروري العمل على القيام بالهجوم على الأقل عندما تقترب المعركة من نهايتها»[1]، «ومن الناحية التكتيكية فإن العمل الهجومي هو القاعدة السائدة في الحرب»[2]، ومن الناحية المعنوية،

(١) المرجع نفسه ص ٢٨٣.
(٢) المرجع نفسه ص ٢٨٤.

يجب أن توجه الجهود كلها إلى التخطيط للهجوم وذلك ليمكن أن يتم هذا الهجوم في أفضل الظروف المناسبة، ولهذا كانت كلمات «المعركة: الهجوم الحاسم» عنوان الفصل الذي أكد فيه فوش قيمة العمل الهجومي كهدف أساسي نهائي للمناورة(*).

وقد ظن فوش أن المعركة يمكن أن تتخذ في ضوء الظروف والأحوال الحديثة إحدى الصورتين المُحددتين:

صورة «معركة المناورة»؛ الصورة التي يمكن فيها بجهد متكامل لهجوم حاسم إدراك وتحقيق المفاجأة والنصر.

والصورة الثانية، صورة «معركة المتوازيات»(**) أو معركة الخطوط، والتي تشتبك فيها كل المواقع على طول جبهتي القتال ويتوقع القائد العام توافر الظروف والتوجيهات الحسنة التي تمكنه من معرفة المكان والوقت الذي يجب أن يبدأ عنده العمل، فإذا ما ترك القائد العام تقدير «الوقت والمكان» لقادته التابعين تركه هؤلاء بدورهم إلى مرءوسيهم، وهكذا نصل في النهاية إلى معركة يكسبها الأفراد، أي إلى معركة «مجهولة المؤلف!» لا

(*) المناورة Manœuvre، هي: التحركات والتنقل في ميدان المعركة كما تشمل هذه التحركات إلى الميدان أو منه، وتكون هذه التحركات على محور جبهة القتال، وقد تجيء عمودية على المحور أو مائلة بالنسبة إليه أو بالجنب، وهذه التحركات هي التي تمكن من مفاجأة العدو، يقول فردريك الأكبر في حديثه عنها: "عندما تستند عملياتك الهجومية إلى قوة المناورة، فإن هذا الهجوم لن يُكلفك عدداً كبيراً من الضحايا، والجندي الذي تقوده بمثل هذه المهارة يثق بك ويعرض نفسه لكل الأخطار مسروراً". (راجع أصول الاستراتيجية لتوماس فيليبس – كتاب "فن الحرب" لصن تزو و "آرائي في فن الحرب" للماريشال ساكس) (المترجم).

(**) هذه غير معركة المتوازيات التي تحدث عنها ڤوبان – راجع الكتاب الأول الفصل الثاني.

يعرف على التحقيق من هو صاحب الحق في أن ينسب إليه هذا الكسب[١].

ولا شك أن هذا يُقدم لنا «نبوة مبكرة» عن طبيعة الحرب العالمية الأولى العديمة الحركة، وقد يمكن أن نُقدم فيما يلي وصفاً أكمل للمعركة التي لا يعرف على التحقيق من هو صاحب الحق فيها:

«وتشترك الوحدات في القتال حيثما وجهت، ثم يصلها كل ما ومن تحتاجه من معاونة سواء من النيران أو الأفراد أو العتاد، وكما تستخدم الوحدات فرادى في أقسام تبعاً لتطور مراحل القتال فإنها تستعوض أيضاً في نفس الصورة، وتجيء وحدات جديدة تعمل مكان الوحدات القديمة. إن مثل هذه المعركة تتكون من سلسلة متتابعة من الجهود التي تستمر إلى أن تتأكد النتائج بسبب النجاح الذي يجيء دون توقع، ويكون هذا النجاح نتيجة جهد وحدةٍ ما، أو نتيجة لعمل أيٍ من القادة التابعين، دون أن يعرف على التحقيق من هو صاحب الحق في هذا النجاح».

وكانت هذه الصورة هي طابع معارك «ڤردون» و «السوم» و«باشنديل»، ولكن فوش أغفل هذه الصورة على أساس أنها أقل قيمة وأهمية، ولأنها لا تستند إلى عمل القائد العام وإلى قدرته على القيام بالمناورة، ولا يمكن القول بأن هذه الصورة – الأقل قيمة – تفرض نفسها فرضاً على القائد غير الراغب فيها، وقد وضع فوش في الفصل الأخير من كتابه «المباديء» – الفصل الذي تنبأ فيه بشكل المعارك التي ستجيء في المستقبل – كل إيمانه في «المناورة» على أساس أنها أقوى صور الحرب[٢].

---

(١) نفس المرجع ص ٢٩٦.

(٢) يعترف فوش في هذا الفصل بالدين الذي في عنقه لآردان دوبيك وكاردو وميليه Millet وبونال Bonnal.

ولقد كثر القول بأنه لم تتوافر لفوش حتى ولا فكرة باهتة عما ستسببه الأسلحة الحديثة لتوها من أثر في ميدان المعركة، *والواقع* أن هذا الحديث لا يُعتبر صحيحاً في جملته، وإذا كان من الممكن أن يتضح لنا من مقدمة الطبعة الثانية لكتابه «المباديء» من أنه لم ينطبع في ذهنه بعد حملة منشورياً التأثير الكبير لنيران «مدافع الماكينة» و «الأسلاك الشائكة»، إلا أنه في الحقيقة قد أوضح – على الأقل – تقديراً مبكراً لكل هذه الأسلحة يُعتبر أكبر نسبياً مما وضحه كل معاصريه من العسكريين الفرنسيين.

ولقد أدرك فوش أن الأحوال الحديثة ستضطره إلى القيام ببعض صور التعديل والتبسيط، وكتب عن هذا: «لقد توافر للأسلحة المدى الأكبر وأضحت نيرانها أقل، وسترغم القوات تبعاً لهذا على أن تبدأ تشكيلها للهجوم من مسافة أكبر من ذي قبل، وأن تفعل هذا وراء سواتر أصلح وأقوى مما كانت تستخدم فيما مضى»[١].

ويمكن أن نصل من الصورة التي وجهت على أساسها العمليات في الجانب الفرنسي لسنة ١٩١٤ إلى أن فوش لم يقدر في تاريخ مبكر الصورة الخاصة بحرب الخنادق، ومع هذا فإنه أكد بإصرار – بعد صفحات من حديثه الأول – هذه القوة المتزايدة للأسلحة النارية: «تزداد درجة الحاجة إلى الساتر يوماً بعد يوم»، ولهذا يجب أن تستخدم المشاة «التحركات على الأجناب وأن تفعل هذا لأطول وقت ممكن»[٢].

وقد أدى التطور في فن استخدام المدفعية إلى تقدير الدور الهام لنيرانها في إجراءات الهجوم، وفي أثناء هذه الإجراءات يجب أن تعمل الوحدات

(١) Principles, P. ٣٢٧.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٣٥.

الأمامية على «الأمن»، أي على سرية التخطيط للهجوم الحاسم، وهي تفعل هذا بإجراء ذي شعبتين: الحصول على المعلومات عن العدو، وحماية ووقاية القوات التي تُعد للقيام بالهجوم.

وقد تحتاج الوحدات الأمامية لتنفيذ هذا إلى القيام بالقتال في صورة ما، وفي هذه الحال يكون للمدفعية أثرها بسبب مراميها الطويلة وبسبب خفة حركتها ووسائلها التي تمكن من تحقيق المفاجأة، وتكون تكتيكات المشاة في هذه العمليات: «فتح طريق المشاة على طول الجبهة مما يمكنها من القيام بأعمال حاسمة، وتعاونها المدفعية في هذا الهجوم وفي هذه الأعمال الحاسمة»[1].

ومن العدالة أن نشير في تحليلنا للدور الذي فرضه فوش للمشاة، بأنه بالإضافة إلى ما أشار به «للساتر الجيد»، أكد أيضاً أهمية «النيران» في قوله: «لقد أضحت النيران صورة من صور الجدل أو النقاش الحاسم»[2].

وقد حذر فوش الجنود من أنهم سيتعرضون لخسائر فادحة، «إذا لم يعاون هجومهم الجزئي بنيران هجومية»، كما صرح مؤكداً أن «الأفضلية في النيران» ستكون العامل الحاسم الأساسي الذي يستند إليه تأثير القوات المقاتلة.

ومع هذا، فللمرة الثانية هنا نجد أن فوش لم يدرك القيمة الحقيقية التي ستمكن منها هذه الأفضلية في النيران إذا كان على المشاة أن تتغلب على النيران القاتلة التي لأسلحة المدافعين الآلية، فمن الضروري أن تتقدم المشاة

(١) نفس المرجع ص ٣٣٥.
(٢) المرجع نفسه ص ٣٣٧.

في المرحلة الأولية إلى مسافة من ٦٠٠ إلى ٨٠٠ ياردة من مواقع العدو مستخدمة ما يتوفر لها من سواتر ومن خطوط اقتراب جانبية، وعلى أن تتخذ التشكيلات التي تسمح لها بأصلح صور الاستخدام لهذه السواتر، فإذا ما جاءت لحظة التنفيذ أو لحظة الهجوم الحاسم وجب أن يمكن التشكيل من الاستخدام الجيد لوسيلتي العمل ألا وهما:

«قوة النيران»، و «قوة الضرب».

وهنا نجد فوش يتابع حديثه عن النيران وتأثيرها القوي وعن العوامل التي تصحبها فيقول:

«لقد باتت النيران التي يستطيع المرء أن يمد بها نفسه أمراً ثانوياً»، أو بمعنى آخر «إن النيران التي يُطلقها الجنود أنفسهم هي في المرتبة الثانية بالنسبة للنيران المعاونة التي تجيء بها الأسلحة المعاونة»، ولما كانت المشاة تتشكل في خطين ثانيهما هو الخط الأقوى، وكان من الضروري أن «تسير وأن تسير بسرعة مسبوقة بسيل منهمر من الرصاصات» فإن أقوى النيران لا تستطيع وحدها أن تضمن القرار الحاسم.

ويُتابع فوش حديثه:

«ويسير الجنود متجهين صوب الغرض، كلٌ يهدف إلى جزء الغرض المُحدد له، ويزيدون من سرعتهم كلما اقتربوا من هذا الغرض، وهم في سيرهم هذا يسبقهم سيل من الرصاصات بل ويستخدمون «سونكياتهم» أيضاً للإطباق بالعدو، ويعمل الجنود ليكون لهم سبق اقتحام مواقع العدو ويلقون بأنفسهم وسط قواته ليُنهوا الصراع التنافسي بواسطة الصلب البارد والشجاعة الأكبر والإرادة الأقوى وتسهم المدفعية في إدراك هذه النتيجة

بكل قوتها تابعة المشاة في تقدمها مع تزويدها بالمعاونة ومع سترها لعملية الهجوم»[١].

وقد ساق چول رومان[*] في روايته «ڤردان» هذه الفقرة على لسان أحد جنود المشاة كتعليق ملئ بالمرارة والأسى نتيجة التجارب التي وصل إليها من حقائق المعركة الحديثة، وعلى ما لمسه الجنود من مظاهر انصراف قادتهم إلى البحث النظري في صورة مليئة بالزخرف[٢]، وفي الجملة فإن هذه الفقرة لهي الدليل القوي - برغم إشارة فوش المتكررة إلى الحاجة لترتيبات المدفعية - على تقليل فوش لقيمة دور الأسلحة الحديثة على التخصيص والدور الذي للعوامل المادية على التعميم، ومع هذا فقد بقي الاقتحام

(١) المرجع نفسه ص ٣٤٤.

(*) چول رومان مؤلف فرنسي اسمه الحقيقي لويز فاريجولي ولد سنة ١٨٨٥، تخرج من كلية المعلمين العليا ودرس الفلسفة، كتب في سنة ١٩٠٨ مُجلداً من القصيد نال به شهرة في الأدب، ولكن أهم أعماله الأدبية كتابه «الرجال ذوو الإرادة القوية» وصدر في سبعة وعشرين مُجلداً نشرت بين سنة ١٩٣٢ و ١٩٤١، وهاجر إلى أمريكا أثناء الحرب العالمية الثانية ونشر بها سنة ١٩٤٢ كتاباً في التأريخ لحياة الكاتب الألماني ستيفان زڤيج.

(٢) «إن كلمتي الصلب البارد تجملان فصلاً كاملاً من الحديث عن الغباء الذي كان طابع العصر الذي سبق الحرب مع ما صحب هذا من حب للكلمات الضخمة ومع النقص في التصور والأمانة الثقافية بل ومع رفض مواجهة الحقائق، وكان هذا هو الطابع العادي للموظفين العموميين من كل درجة ومرتبة» (ج. رومان ڤردون - طبع نيويورك سنة ١٩٣٩ ص ٦٧)، ولكن مما لا شك فيه أن هذا الحديث لم يكن عادلاً بالنسبة لوصف الجانب الإيجابي الدال على كفاية عمل هيئة أركان الحرب الفرنسية قبل سنة ١٩١٤، بل وكان في الواقع يعكس الشعور الذي انتشر في الجيش الفرنسي أثناء الحرب، وليس هذا فقط في صفوف الجنود بل وفي جزء كبير من الضباط أيضاً، ولكن بالرغم من هذا فإن الجيش - فيما عدا الفترة التي تولى فيها نيڤل الأمر سنة ١٩١٧ - لم يفقد الثقة بقادته إطلاقاً.

النهائي للمشاة هو العامل الحاسم طوال الحرب العالمية الأولى.

وقد انتقد فوش في محاضراته الأولية في مدرسة الحرب، النظريات الآلية التي انتشرت في فرنسا قبل سنة ١٨٧٠، والتي كان الناس على أساسها يظنون أن النصر يتوقف على الاتجاه الواضح للعوامل المادية نظراً لتساوي وتعادل العوامل المعنوية في الجانبين المتضادين؛ ومن هنا جاء اهتمام فوش بالعامل المعنوي في الحرب، وبالتبعية جاءت نظرته - ولو جزئياً - إلى الحاجة للوصول إلى الأفضلية المادية، ولكن لم تظهر شخصية فوش القوية كما أنه لم يضع دُعامة المكانة التي وصلت إليها دراساته إلا على أساس بحوثه عن «العوامل المادية».

وقد تأثر فوش بسبب تدينه وتعمقه في "الكثلكة" ما في هذا من شك بفلسفة چوزيف دوميستر(*) المخيفة عن الحرب، فقد اعتبر دوميستر الحرب شيئاً مُقدساً، ورأى أن الحرب قد جاءت في القانون السماوي لتطهر الإنسان من خطاياه وأنها وسيلة للتكفير والاستغفار عن هذه الخطايا.

وفي الديالوج الشهير لمسرحية «أمسيات بطرسبرج»، يعرض أحد المشتركين في النقاش «الديالوج» إلى أهمية هذه العوامل التي تقرر النصر أو الهزيمة حتى بالنسبة للجنود المحترفين، وقد أجاب قائد مضطرب التفكير لأول وهلة على سؤال: «ما هي المعركة المفقودة؟» بقوله: «لا أدري»، ولكن

(*) چوزريف دوميستر:

سياسي وكاتب وفيلسوف فرنسي ولد سنة ١٧٥٣ ومات في تورينو سنة ١٨٢١، تخرج من مدرسة الآباء اليسوعيين، كان من خصوم الثورة الفرنسية ودافع عن سلطان البابا والملك، له عدة مؤلفات منها: «أمسيات بطرسبرج» الذي نشر غداة وفاته سنة ١٨٢١، وله دراسة عن فلسفة بيكون، وقد نشر قبيل وفاته كتابيه «البابا» Du pope و«الكنيسة الفرنسية - الجليكنية» De I'Eglise Gallicane

بعد وقت قصير أجاب قائد آخر: «إنها المعركة التي يظن المرء أنه فقدها لأن المعركة لا تُفقد من الناحية البدنية الملموسة». ويقول فوش في نقاشه: «إن المعركة لا تُفقد إلا معنويًا، ومعنوياً أيضاً يمكن أن نكسب المعركة، ولهذا فإننا نستطيع أن نزيد مدى قاعدة هذه الحكمة بقولنا إن المعركة التي يكسبها المرء هي المعركة التي يعترف فيها لنفسه بأنه لم ينهزم»[١].

وكان للمعادلة التي قدمها فوش في قوله: «النصر يُعادل الإرادة» نصيبها من الشهرة والتقدير؛ وكانت هي في الواقع الإيضاح للجانب الروحي في خلق فوش، وقد يمكن بعد إيضاح هذا الجانب السببي أن نكمل هذا التحليل الموجز لعقيدته بتقديم صورته كرجل يؤمن بعقيدته إيماناً له قدسيته.

لقد كان مزج السبب بالإرادة وربط الثقافة الذهنية بالإيمان هو مظهر عبقريته كقائد لعدة جيوش، ولم يصل أي قائد لم تتوافر له هذه الصفات إلى المرتبة العليا، ولكن الذي جعل فوش أعظم رجال عصره قدرته على أن ينقل إيمانه القوي ونشاطه الجارف إلى تلاميذه أولاً ثم إلى باقي أفراد الجيوش التي يقودها، وأن يجعل هؤلاء كلهم يؤمنون بما جاء في تعاليمه من أن:

«الحرب = ميدان القوى المعنوية».

«النصر = الأفضلية المعنوية للمنتصر والانهيار المعنوي للمنهزمين».

«المعركة = صراع بين إرادتين».

«إن الرغبة في قهر العدو هي الشرط الأول للحصول على النصر، ولهذا

---

(١) Principles P. ٢٨٦

فهي الواجب الأول لكل جندي، ولكنها تسمو وترتفع إلى ما هو أكبر من ذلك فهي المثل القوي الذي يجب أن يقدمه القائد للجندي إذا ما قضت الحاجة بأن يقاسم القائد هذا الجندي روحه ومعنوياته»[١].

وفي مثل هذا العصر المادي عندما تبهر الأنظار بالتقدم الفني والصناعي كان على فوش أن يفعل ما فعله آردان دوبيك قبله من تأكيد أهمية العامل المعنوي في الحرب، وبذلك فقد ذكرمستمعيه بأنه مهما كان مدى التغيير وأثره عظيماً في حياتنا تبعاً لزيادة التقدم الفني، فإنه لا يمكن لهذا التغيير أن يعدل أو أن يبسط من قوانين القلب البشري، وفي الحرب كما في مرحلة أخرى من الأوضاع الاجتماعية يظل «الرجل» المخلوق البشري هو العامل الأول والأخير، وكما لاحظنا من قبل، فإن هذه الحقيقة البسيطة هي التي تقودنا إلى السخف الدامي ما لم توضع الأمور في وضعها الصحيح، وقد اعترف فوش فيما بعد بأنه قد آمن من بداية الحرب العالمية الأولى بأن العوامل المعنوية وحدها هي التي تحسب حسابها، وكانت هذه فكرة مليئة بالطفولة؛ لقد كانت هذه الكلمات مليئة بالشجاعة مليئة بالحساسية، وما دام هناك إصرار على فكرة أقل طفولة فإن الحرب يمكن أن تكسب بالأفضلية المادية وحدها.

وكان لهذا الدرس – الذي وصل إليه فوش – أهميته، بل ومازالت، كما أنه يجب أن يكون تحذيراً وإنذاراً للعسكريين.

وقد يكون من الممكن ربط فكرة «أن القوة المعنوية تستطيع أن توجه الحوادث بدلاً من أن تخضع لها» بفكرته عن «انتصار العقل على العمل،

(١) المرجع نفسه ص ٢٨٧.

وسيطرة المنطق والإرادة على كل ما تسببه المعركة من اضطراب، كما نستطيع أيضاً أن نصل عن طريق نظريته عن «القوة الروحية» إلى آرائه في القادة والقيادة».

ويتوافر في حديث فوش عن المعركة «وأنها تكسب أو تُفقد بوساطة القادة لا بوساطة الجنود»[١] نوعاً من الفخر الذهني، ولكننا يجب أن نقدر في الوقت نفسه مسألة تقبل المسئولية، فإن «النتائج الكبيرة في الحرب إنما ترجع إلى القادة، ولهذا فقد صدق التاريخ عندما جعل القادة مسئولين عن النصر الذي يجيئهم بالمجد، كما أنهم يحتملون مسئولية الفشل الذي يناﻟﻬﻢ الامتهان بسببه، وبغير القائد لا سبيل إلى خوض غمار المعركة وبالتبعية لا سبيل إلى النصر»[٢].

وكان هذا الرأي هو الخاتمة التي أمكن الوصول إليها من التعاليم التي أوحى بها قرار إعادة تنظيم القيادة العليا الفرنسية في سنة ١٨٧٠، وكان جمود وتزمت الحوادث بعد ذلك هو الذي أدى بفوش إلى وضع يبدو فيه ضعفه المعنوي والعقلي.

ولكن هل عندما جاءت حرب سنة ١٩١٤ طبق فوش هذه المبادئ التي بشر بها، أو أنه قد أغفلها؟

والواقع أن المؤرخين قد أثاروا نقاشاً جدلياً طويلاً دار حول: «هل الانتصارات التي وصل إليها فوش كانت بسبب مبادئه أو بالرغم منها»[٣]،

---

(١) المرجع نفسه ص ١٠٨.

(٢) نفس المرجع ص ٢٨٨.

(٣) يُقال إن فوش قال لأركان حربه بعد جمود جبهة القتال في سنة ١٩١٤: «أيها السادة، لقد أمسى من الضروري أن تنسوا كل ما تعلمتموه، أما أنا فعلي أن أفعل نقيض كل ما=

ولا شك أن أثر الدروس التي ألقاها فوش في مدرسة الحرب قد بدا واضحاً في الخطة الفرنسية للعمليات والتي اتجهت إلى الهجوم في سنة ١٩١٣، وكان الكولونيل «جراند ميسون» الذي تولى قيادة الجيش التركي الحديث في وقت ما، وأحد الذين نجحوا في تقبل الحكومة الفرنسية لهذه الخطة الهجومية من طلبة فوش، ولكن فوش لم يقم بنصيب مباشر في هذا التخطيط للحرب، ولكن قد يمكن القول بأن عقيدته بالنسبة لمبدأ «الأمن» لم توضع موضع التقدير الكافي قبل بدء الحرب مباشرة»[١].

وعلى أية حال فإن خطة الحرب كما وضعت قد انتهت إلى المذابح التي حدثت في «مورهانج» و «أرلون» و «شارلروا»؛ وقد أفسح إيمان فوش «بحرب المناورة» السبيل للصورة الجديدة «صورة حرب الخنادق»، فعند ما أرسل للشمال بعد معركة المارن لينسق العمل بين الجيوش الفرنسية والإنجليزية والبلچيكية قال لتارديو:

«لقد أرسلوني إلى هنا متأخرين لأقوم بالمناورة، ولكن الأحوال لا تبشر بالضوء، فإن هذا الامتداد الذي لا نهاية لخط الخنادق يؤثر في أعصابي»[٢]، وهكذا فإن معركة المناورة والتي آمن بأنها أعظم صور الحرب كانت تفسح

=علمته لكم»، آستون في كتابه «تاريخ حياة الماريشال فوش» طبع لندن سنة ١٩٣٩ ص ٨٣؛ وقد كتب ليدل هارت في كتابه «فوش رجل أورليانز» ص ٤٨٢، أن «العامل المعطل بالنسبة لفوش كان أنه من الضروري أن ينسى الكثير قبل أن يبدأ تعلمه من جديد»، ويصر لويز مادلين مع هذا على أن فوش كان يُطبق مبادئه على الأقل لتسع من كل عشر مرات بدلاً من أن ينفض يديه منها» - راجع كتاب «فوش» طبع باريس سنة ١٩٢٩ ص ٢٤.

(١) ليدل هارت. نفس المرجع ص ٦٨.

(٢) Tardieu, Avec Foch (Paris, ١٩٣٩) P. ١٠٧.

الطريق لمعركة الخطوط.

ولكن مهما كانت الحرب قد غيرت من مبادئ فوش الأولية، فإن نسيجه المعنوي هو الذي احتمل هذا المد والجزر، وليس قوة ابتكاره العقلية هي التي احتملت هذا.

وقد ترك لنا «بييرفو» صورة لا يمكن أن تضيع من الذاكرة، صورة فوش في المعركة «وهو يندفع كالعاصفة يلج باب كل مركز من مراكز الرياسة وقد جمد وجهه وتيبس جسمه ويلقى قائدًا قد تملكه الفزع، ويقول القائد: «إن جنودي يواجهون ضغطًا كبيرًا من قوات تفوقهم عددًا، وما لم تصلني إمدادات فإنني لا أستطيع القيام بعمل إيجابي»، ويقول فوش في غضب وعنف: "اهجم. اهجم. اهجم" ثم يندفع فوش إلى الخارج كبطارية كهربية مليئة بالنشاط وقد تملكه شعور لا واع ليحاول من جديد في مكان آخر إشعال جهد يكاد أن يخبو، وليقوي عزيمة تكاد أن تنهار»[1].

ولقد لخص فوش دوره في معركة المارن في هذه الكلمات: «لقد هزمت في اليوم الأول، وفي اليوم الأخير كانت المسألة مسألة الصمود للقتال، لقد تقدمت ستة كيلومترات ولكني لا أعرف لماذا حدث هذا، إنه يرجع إلى حد بعيد للجنود أنفسهم، ويرجع القليل فقط إلى أنني كنت مليئًا بالعزيمة لأن أفعل هذا، ثم إن الله كان هناك»[2].

وكانت الأقدار نفسها تؤكد إصراره السابق على الأهمية الكبرى التي للقيادة بأن جعله القائد الأعلى لقوات الحلفاء، وفي دولنز[*] في السادس

---

(١) Pierrefeu, Plutarque a menti p. ٣٠٨.

(٢) تارديو نفس المرجع ص ٣٢.

(*) دولنز – مدينة فرنسية في ولاية السوم شمال اميان بها كنيسة من القرن السادس عشر.

والعشرين من مارس عندما كان الجيش الإنجليزي الخامس ينثني تحت وقع ضربات لودندورف، وكان هيج وبيتان يفكران في اضطرارهما للتقهقر أنقذت صلابة فوش الموقف، «والرأي السليم أنه عندما يبدأ العدو محاولته لفتح ثغرة لا ينبغي أن تزيد في سعتها، بل يجب أن تسدها أو أن تحاول سدها، وكل ما تحتاجه هو أن تحاول وأن تتوافر لك الرغبة وسيكون كل شيء بعد هذا سهلًا ميسورًا».

وعندما اجتمع مجلس القيادة الأعلى للحلفاء صاح فيهم فوش: «إنكم تقاتلون، ولكني أريد أن أقاتل، سأقاتل أمام اميان، ووراء اميان، سأقاتل في كل وقت وكل مكان».

وقد يبدو التفاؤل للناس سهلًا ميسورًا وعلى الأخص عندما يصل إلى حد التهوس والاستهتار، وعندما يساق كعذر للتعطل عن العمل، على أن هذا التفاؤل يكون نادرًا غالي الثمن في غمرة الخوف من النكبة المتوقعة وتحت إجهاد المسئولية. إن أولئك الذين مروا بمثل هذه اللحظات الحرجة هم وحدهم الذين يدركون القيمة التي للتفاؤل، وهكذا كان فوش عندما اقترب هذا الإيمان الفريد النادر الذي توافر له من أن يتبدد ويضيع، وكان للتفاؤل قيمته بالنسبة إليه عندما وكل إليه تنظيم وتنسيق عمل جيوش الحلفاء في الجبهة الغربية.

لقد كان عمله في البداية ذا طابع سياسي ثم لم يلبث أن حصل على سلطات بدأت تتزايد تدريجيا، لقد رويت قصة أعمال وظيفته هذه وما احتوته من مخاطر، رويت أكثر من مرة ولكنها لم تصل إلى مرتبة القيادة المنظمة، وكان فوش في السنوات الأخيرة يفخر بالصورة التي استخدم فيها الإقناع السياسي أكثر مما استخدم السلطة العسكرية.

لقد كانت كل العمليات في الجبهة الغربية من مارس سنة ١٩١٨ حتى نهاية الحرب تحت إشراف فوش وتوجيهه، وكانت استراتيچيته في البداية بسيطة لا تزيد عن كلمة واحدة هي «الثبات»، وقد تمسكت الجيوش بالأرض التي تحتلها بعد أن قضت أسبوعًا واحدًا في تقهقر واضطراب، ولكنها لم تلبث أن استعادت تنظيمها، وعرف فوش أنه عندما يجيء الأمريكان إلى الغرب فإن كل ما يجب عليه هو أن يثبت إلى غاية ما يستطيع وسيمكنه هذا من استعادة قوة الهجوم، ولكن الأمريكان لم يصلوا، وفي أثناء هذا وجه الألمان ضربة أخرى في قطاع «شمين دي دام» في السابع والعشرين من مايو، فقد فوجئ الجيش الفرنسي تمامًا وفتحت ثغرة واسعة في خطوط الفرنسيين، ولأول مرة منذ سنة ١٩١٤، استطاعت الجيوش الألمانية أن تسير بسرعة عشرة أميال في اليوم الواحد، وفي الثلاثين من مايو وصل الألمان إلى المارن، ولكن إذا كان الجيش الفرنسي قد فوجئ مرة فما ينبغي أن يفاجأ مرة ثانية، ولهذا عندما وجه الألمان ضربتهم الثالثة في الخامس عشر من يوليو كان فوش ينتظرها، وقد أعد لمواجهتها كل ما توافر له من قوات احتياطية وبعد ثلاثة أيام وجه هجومه المضاد الأول، وهنا لأول مرة منذ بداية الحرب عاون الابتكار التكتيكي على نجاح كلتا مرحلتي المعركة؛ ففي المرحلة الدفاعية تركت «المناورة» التي فقدها جيش الجنرال جورو فراغًا بين خط الدفاع الأمامي الرقيق وبين خط المقاومة الأساسية، واستطاع الألمان أن يندفعوا في هذا الفراغ دون معاونة المدفعية، وكان من الضروري القيام «بتقهقر استراتيچي» بسبب هجوم العدو المتوقع.

على أن الأمر قد تطلب شهورًا عدة استطاع فوش أن يتفهم تأثير أي انثناء في الخط على الحاجة للتشبث بكل بوصة من الأرض، وكانت هذه الطريقة الدفاعية على بساطتها هي الظاهرة الأساسية للتنظيم الدفاعي للجيش الفرنسي

سنة ١٩٤٠.

وكانت الطريقة التي استخدمها فوش في الهجوم كبيرة القيمة بسبب ما توافر فيها من جرأة، فقد كانت «ترتيبات المدفعية» النيران التي تطلقها المدفعية لمعاونة المشاة ضرورية في كل مراحل الحرب، وكانت هذه النيران هي التي تشق الطريق للمشاة وسط مواقع المدافعين ونيرانهم القاتلة، ولكن هذه «الترتيبات» مع تمهيدها لهجوم المشاة تقلل إلى حد كبير من تأثير عامل المفاجأة، فلما أن قلل المشاة من فترة إطلاق هذه النيران التي تسبق عملية هجوم المشاة، واكتفوا بأن تطلق المدفعية نيرانها المساعدة لمدة عشرين دقيقة استطاعوا أن يستعيدوا عامل المفاجأة، وجاء فوش بجديد، فقد قرر ألا تطلق المدفعية طلقة واحدة حتى تخرج دبابات «ديجو»(*) و «مانجين»(**) من غابة «ڤيلير

(*) ديجو، جان ماري جوزيف (١٨٦٦ – ١٩٣٨) قائد فرنسي امتاز في الحرب العالمية الأولى وهو يقود الجيش الفرنسي السادس أثناء تقهقر الألمان من المارن الثانية في يوليو وأغسطس ١٩١٨، تخرج أصلاً من كلية المعلمين العليا وبدلاً من العمل في التدريس اتجه إلى سان سير، ودرس القانون واللغات، تولى قيادة قوات الاحتلال الفرنسية في أرض الرين من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٢٤، وكان عضو المجلس الأعلى للجيش الفرنسي حتى وفاته سنة ١٩٣٨.

(**) مانجين، شارل ماري أمنويل (١٨٦٦ – ١٩٢٥) قائد فرنسي ولد في ساربورج وكان أبوه من قادة فرق المشاة، بدأ حياته كملازم في مشاة البحرية وخدم في السودان ١٨٩٣ – ١٨٩٩، وكان في فجر الحرب العالمية الأولى قائد الفرقة الخامسة ثم تولى قيادة الفيالق الحادي عشر والتاسع والسادس على التوالي، وفي سنة ١٩١٨ تولى قيادة الجيش الثاني عشر، واشترك في المارن الثانية قائداً للقوات الأمريكية – الفرنسية التي هاجمت الانبعاج الألماني لغرب سواسون قرب شاتوتييري، واخترق بجيشه خط هندنبرج بين الواز والآين في نوفمبر ١٩١٨ أي قبل الهدنة مباشرة، وله مؤلفات عسكرية عدة، منها «القوة السوداء» ١٩١٠، و «كيف انتهت الحرب» ١٩٢١، ثم كتب الجزء الخاص بالتاريخ العسكري البحري ضمن مؤلف «تاريخ الأمة الفرنسية» الذي نشره سنة ١٩٢٥. (المترجم).

كوتيريه»(*) وتقع فجأة على الجنب الأيمن للألمان عند انبعاج المارن.

وكان فوش قد تنبأ بالهجوم الألماني وأعد عدته للقيام بالهجوم المضاد، وفي مذكرته المؤرخة بالسابع والعشرين من يوليو صرح بأن المد قد تحول: «لقد جاءت اللحظة لننفض أيدينا من الوضع الدفاعي الذي أرغمنا عليه حتى الآن بسبب النقص العددي في قواتنا، وقد أضحى من الضروري أن نتحول إلى الهجوم»(١).

وفي تعليقه على الدروس المستفادة من العمليات الأخيرة ذكر قادته بأن العامل «الأول والأهم هو المفاجأة، وقد أوضحت العمليات الأخيرة أن هذه الحال لازمة وضرورية للنجاح».

وفي الشهور الثلاثة التالية عمل فوش على ألا يعطي للألمان أية فرصة للراحة، كانت عمليات الهجوم تتتابع في كل مكان؛ ولكن الواقع أن فوش قد فعل هذا لأن كل الإمكانيات توافرت له، وتيسر له المدد المستمر من الرجال والعتاد؛ فهل نستطيع أن نقدر انتصاره النهائي في ضوء أسلوب خاص كان هو صاحبه، وفي ضوء إدارته لعملياته الحربية؟

لقد أوضح فوش في تعليقاته بعد هذا على «كيف مكنته الاستراتيجية العليا من الانتصار على لودندورف»، وقد قال معلقًا على العمليات

(*) ڤالير كوتيريه – من أعمال ولاية الآين بفرنسا، تقع على مسافة ٢٧ كيلومتراً جنوب غرب سواسون، بها قلعة بناها فرنسوا الأول وقد تعددت فيها المعارك طوال الحرب العالمية الأولى منذ التقهقر من مونز إلى المارن الثانية، وتشتهر المدينة بسبب أن دوماس الأب ولد بها.

مُعجم لاروس طبعة سنة ١٩٢٨ المجلد ٦ ص ٩٩٨.

(١) The Memoirs of Marshal Foch, (New – York) ١٩٣١, p. ٣٧٠.

الهجومية لسنة ١٩١٨: «لقد وضع لودندورف تخطيطه لعملياته الهجومية ـ وعلى الأخص من ناحية التفاصيل التكتيكية ـ بمهارة تستحق الإعجاب، كان تخطيطه دقيقًا، ولم يكن من المستطاع أن يوفق قائد إلى أحسن مما وفق إليه هو، ولكن لم تكن هناك خطة احتياطية لتخطيطه الأول»(١).

وهنا يسأل فوش:

«فلماذا لم يستطع ـ يقصد لودندورف ـ بعد كل من ضرباته القوية الوصول إلى نجاح حاسم برغم النتائج غير العادية التي حققها؟».

ويجيب فوش على سواله فيقول: «والإجابة الوحيدة على هذا السؤال، أن العنصر النهائي لا يتوقف على الكسب الذي يمكن إدراكه من معركة واحدة مهما كانت درجة هذا الكسب، إن كل عملية من عمليات الهجوم يجب أن ترتبط بعدد آخر من العمليات الهجومية، أي يجب أن تكون جزءًا من كل، لا أن تكون كلًا وحدها، ولقد كان هذا هو ما نسيه لودندورف»(٢).

وهكذا نصل إلى حديث فوش وهو يضع كل الأمر على قيمة التخطيط الجماعي للعمليات والذي أدى إلى الاستسلام الألماني، وكان كل ما يحتاجه الحلفاء هو القيام بسلسلة من عمليات الهجوم «منتظمة متداخلة معًا لتحتضن الجبهة كلها»(٣) أو على ما يقول بالفرنسية:

وقد كرر فوش اصطلاح «متداخلة معًا» في مناقشاته مع ريكولي(*)، بل

---

(١) Recouly, op. cit., p. ٩٦.

(٢) نفس المرجع ص ٩٨.

(٣) نفس المرجع ص ٩٥.

(*) ريكولي. ريمون مؤلف عسكري أهم مؤلفاته: =

ويبدو هذا الاصطلاح وكأنه الصورة الأساسية في استراتيجية فوش للهجوم سنة ١٩١٨ ، وقبل الحرب العالمية الأولى كان فوش يصف استراتيجية الهجوم على أنها أشبه ما تكون «بسير الببغاء»، أي أنها تتبع نفس الأسلوب الذي تتسلق به الببغاء قضبان القفص مستخدمة على التوالي «منقارها وأظافرها»، وعلى أن تقبض قبضًا جيدًا باثنتين من هذه الثلاث قبل أن تخطو الخطوة التالية والتي تعتبر دائمًا مليئة بالمخاطرة، وكانت كلمات فوش في هذا الحديث من الجمل الاستعارية التي يحذف منها ما هو معلوم أصلًا، وقد ختم بها فوش مرة أحد مؤتمراته قائلًا:

«سادتي إن الببغاء طائر ماجد رفيع الشأن».

ويتفق رأيه في هذا مع المبدأ «الاقتصاد في القوى» أي «فن حشد كل قوى المرء لتعمل ضد المقاومة التي يمكن أن يلقاها في طريقه، وبذلك فإنه يعتبرتنظيمًا لهذه القوى بطريقة ما»[١]، ولكن هذا كان صرخة بعيدة عن «المعركة: الهجوم الحاسم».

ويوجد تناقض آخر بين نظرية فوش وبين إجراءاته العملية وقد وضح

Le Tsar et la Douma (١٩٠٦).=

Dix mois de guerre en Angleterre (١٩٠٩).

La Bataille dans la forêt d’Argonne (١٩١٦).

Foch le Vainqueur (١٩١٩).

La Bataille de Foch (١٩٢٠).

La Barrière du Rhin (١٩٢٣).

La Troisième République (١٩٢٧).

Itinéraires du Rhin (١٩٢٣).

L’Aurore de Napoleon Bonaparte à Toulon (١٩٢٩).

(١) «المبادئ». ص ٥١.

هذا في ترتيباته للهدنة، وإذا كان من غير الممكن تحقيق النصر إلا بالعمل الحاسم بتدمير جيوش العدو، فهل لا يعتبر خطأ إتمام الهدنة قبل توجيه الضربة القاضية، في حين أن جيوش العدو كانت لا تزال في أرض الحلفاء؟

لقد أجاب فوش على هذا وغيره من الأسئلة التي يمكن أن نثيرها اليوم، أجاب عنها قبل أن نفكر فيها، فقد قال لمجلس الحلفاء الأعلى في أوائل أيام نوفمبر سنة ١٩١٨:

«إن الحرب قتال لإدراك نتائج محددة، ولست أخوض غمار الحرب من أجل خوض الحرب في حد ذاتها، وإذا كان من الممكن أن أحقق عن طريق الهدنة كل ما أريد أن أفرضه على ألمانيا فإن هذا يكفيني، وإذا كان من الممكن تحقيق الهدف، فليس من حق أي فرد أن يتسبب في سفك قطرة أخرى من الدماء»[١].

ولقد توافرت الأسباب ليؤمن فوش بأن نصره كامل، وكان كاملًا حقًا إلى غاية ما يعنيه الأمر في ميدان القتال، كانت ألمانيا قد وصلت إلى النهاية، وإن لم تكن كذلك عندما بدأ المندوبون يتجمعون حول منضدة مؤتمر الصلح، ومع أن المندوبين الألمان لم يحضروا إعداد معاهدة الصلح فإن مبادئ برنامج ويلسون التي قبلها الحلفاء أنفسهم قد حررت كل ما يمكن للحلفاء أن يطلبوه تحديدًا لم يتصوره فوش وهو يعد شروط الهدنة، كان دوره قد انتهى ولم يعد له من مكان في المباراة القائمة، وعندما حاول التدخل أعاده كليمانصو إلى مكانه الصحيح غاضبًا أشد الغضب لمحاولة (جندي) اقتحام الميدان الذي لا يخصه؛ ميدان السياسة!.

(١) Memoirs of Marshal Foch p. ٤٦٣. Seymour, The Intimate Papers of Colonel House, (New York ١٩٢٨) IV p. ٩١.

على أن فوش في غمرة اقتناعه بواجبه الوطني أصر على أن يسمع صوته وقد أوضح سياسته في مذكراته العديدة التي قدمها، وخطبه التي ألقاها في المجلس الأعلى للحلفاء بين توقيع الهدنة وتوقيع معاهدة الصلح، ومع أن هذه كلها معروفة ومروية إلا أن من الضروري الإشارة إليها هنا حتى تكمل صورة نظريته للأمن العسكري[١].

كانت الفكرة بسيطة واضحة، فقد جادل على أساس أن الأمن الأوروبي لا يمكن ضمانه لا بواسطة نزع سلاح ألمانيا الأمر الذي لا يمكن إرغامها عليه باستمرار، ولا بواسطة المحالفات التي تعتبر صورية لا قيمة مادية لها، إن الضمان المادي هو وحده الذي يعتبر كافيا مرضيا، وهذا الضمان المادي هو: احتلال رءوس كباري على الرين «فإن النهر هو العامل الحاسم، والذي لا يسيطر على الرين هو الذي يحتمل الخسارة»[٢].

لقد كان لهذا الحل عدة فوائد، فإن احتلال بعض نقط مختارة يكون أكثر اقتصادًا ذلك لأن هذا الاحتلال سيكون بواسطة وحدات صغيرة العدد من الجنود، ولما كان فوش قد اقترح أن تشكل هذه الوحدات من قوات دولية فإنه لا يرى في هذا ما يخشاه حلفاء فرنسا من محاولتها تحقيق سيادتها على أوروبا.

ويبدو أن فوش قد قصد أن يكون هذا الاحتلال دائمًا، وأن يدعمه بإيجاد ولاية مستقلة على الضفة اليسرى لنهر الرين، فلما رفضت خطته وضاعت مع الزمن هذه الضمانات التي منحتها فرنسا من حليفاتها، لم يفشل فوش في اتهام السياسيين وفي مقدمتهم كليمانصو بأنهم قد تسببوا في تحطيم النصر

(١) «ريكولي» المرجع نفسه ص ١٦٥ - ٢٤٩.
(٢) المرجع نفسه ص ٢١٣.

العسكري الذي حصل عليه هو، وكان من الطبيعي أنه قد رأى بالاتفاق مع كل مواطنيه أن المواد التي وضعت لضمان أمن فرنسا غير كافية.

وقد قال ريكولي: «هكذا يجب أن تنظر إلى مشكلة الأمن، يجب أن تدرك المشكلة في ضوء كل ما لها من أهمية وما فيها من تعقد، إنها ليست وقفًا على المانع الذي يمثله نهر الرين، إنها أبعد من هذا، إنها تتكون من الاحتفاظ بسلم أوروبا بأي ثمن، السلم الذي أتمته المعاهدات التي جاءت بعد انتصارنا، إنك لا يمكن أن تقدر ماذا تكون الحال لو فرضنا أن ألمانيا قد نجحت في التأثير في هذه الدول الجديدة، وحتى لو كان هذا التأثير معنويا فقط فإنها ولا شك ستنجذب إلى مدارها، وتدور في فلكها، هل تستطيع أن تتصور القوة الهائلة التي ستكون لها إذ ذاك!».

«ثق أنه لن يكون من جدوى للقتال ضدها إذ ذاك، وثق أننا سنفقد قضيتنا قبل أن تبدأ المعركة»[١].

***

(١) المرجع نفسه ص ٢٦٨.

مراجع الفصل التاسع

دوبيك وفوش: المدرسة الفرنسية

–Dallas D. Irvine "The French and Prussian Staff Systems before ١٨٧٠" Journal of the American Military History Foundnation II. (١٩٣٨)

–Dallas D. Irvine "The French Discovery of Clausewitz and Napoleon" Journal of the American Military Institute, IV (١٩٤١). ١٤٣-١٦١.

–Dallas D. Irvine , "The Origin of Capital Staffs" , Journal of Modern History, X (١٩٣٨). ١٦١-١٧٩.

–Joseph Monteihet , "Les Institutions Militaires de la France" ١٨١٤-١٩٣٢ , second edition (Paris, ١٩١٧).

–Ardant du Picq , "Etude sur le Combat" , (Paris, ١٨٨٠).

–Colonel John Greely and Major Robert Cotton , "Ardant du Picq, Battle Studies. Ancient and Modern Battle" (New York, ١٩٢١)

–Auguste Fredrick Marmont , "Esprit des Institution Militaries" (Paris, ١٨٤٥).

–Count Henry Amedée le Lorgne Ideville , "Memoirs of Marshal Bugeaud".

–Louis Jules Trochu , "L'Armée Française en ١٨٦٧ " (Paris ١٨٦٧).

–Emile Ollivier , "L'Empire Libéral" , (Paris ١٨٩٨-١٩١٦).

–Piere de la Gorce , "Histoire du Second Empire" , ٧ Vols (Paris, ١٩٠٨-١٩١١).

–Jen Norton , "Témoins, Essai d'Analyse et de critique des souvenirs de combattants" , (Paris, ١٩٢٩) .

–Foch , "Des Principes de la Guerre" , "The Principles of War" by Hilaire Belloc (New York, ١٩٢٠) .

–Foch , "Conduite de la Guerre" , (Paris, ١٩١٥) .

–Colonel T. Bentley-Mott , "The Memoirs of Marshal Foch" , (New York, ١٩٣١) .

–Raymond Recouly , "Marshal Foch, His Words on Many Subjects" , (London, ١٩٢٩) .

–Charles Bugent , "Foch Speaks" , (London, ١٩٢٩) .

–H. Bidou , "Le Maréchal Foch, écrivain militaire" Minerve Française, (February, ١٩٢٠) .

–Maj. Gen. Sir G. Aston , "The Biography of the Late Marshal Foch" , (New York, ١٩٢٩) .

–B. H. Liddell Hart , "Foch, the Man of Orleans" , (London, ١٩٣١).

–André Tardieu , "Avec Foch" , (Paris, ١٩٢٩) .

–Gustave Le Bon , "Hier et Demain" , (Paris, ١٩١٨) .

–Charles Coste , "La Psychologie du Combat" , (Paris, ١٩٢٩) .

–Louis Huot and Paul Voivenel , "Le courage" , (Paris, ١٩١٧) .

–General Percin , "Le Combat" , (Paris, ١٩١٤) .

–G Stanley Hall , "Morale, the Supreme Standard of Life and Conduct" , (New York, ١٩٢٠)

يدرس القسم الأول من الكتاب "أصول الحرب الحديثة من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر"، وفي القسم الثاني يعرف بأمهات الكتب في القرن التاسع عشر، أما القسم الثالث فمخصص لدراسة أصول الحرب الحديثة من القرن 19 إلى الحرب العالمية الأولى، بينما خصص القسم الرابع لدراسة أصول الحرب الحديثة في فترة ما بين الحربين، ويشتمل القسم الخامس على دراسةالحرب في البحر والجو.

علي مولا

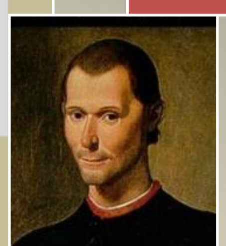
ISBN 978-9933-407-05-6

9789933407056

الكتاب الثالث

رواد الاستراتيجية الحديثة

الفكر العسكري من مكيافيللي إلى هتلر



إدوارد ميد إيرل وآخرون





ترجمة وتقديم

محمد عبد الفتاح ابراهيم



3



تصميم غلاف : علي مولا

رواد الاستراتيجية الحديثة

رواد الاستراتيجية الحديثة

الفكر العسكري من مكيافيللي إلى هتلر

الكتاب الثالث

تأليف

إدوارد ميد إيرل وآخرين

ترجمة وتقديم

العميد أركان الحرب

محمد عبد الفتاح إبراهيم

المشتركون في هذا الكتاب الثالث
ممن لم يرد ذكرهم من قبل

چوردون كيريج:

أستاذ مساعد التاريخ بجامعة برنستون. حصل على درجة الليسانس في الأدب ودرجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة برنستون، كما حصل على درجة الليسانس في الآداب من جامعة أكسفورد.

هارڤـي دي وبرد:

ضابط بجيش الولايات المتحدة، المحرر المساعد بمجلة المشاة الأمريكية، مؤلف كتاب (كبار جنود الحربين العالميتين) دكتوراه في الفلسفة من جامعة ميتشيـچان .

هانز سسبير:

مؤلف بالاشتراك مع آخر لكتابي «الحرب في عصرنا الحالي»، «الراديو والشعب الألماني»، أستاذ علم الاجتماع في المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية، دكتوراه في الفلسفة من جامعة هيدلبرج.

إيرڤنج چيبسون:

الاسم الذي عرف به في ميدان التأليف والكتابة، عالم أمريكي شهد القتال مع وحدات المشاة سنة ١٩١٧ / ١٩١٨، شغل بدراسة التاريخ الحربي لعدة سنوات سابقة مباشرة للحرب العالميةالأولى وتابعة لها.

مصمم الغلاف:

كمال الملاخ: تخرج في قسم العمارة بكلية الفنون الجميلة وعين معيدًا

بها، وشغل في وقت فراغه منصب الناقد الفني لجريدة الأهرام سنة ١٩٥٠، كما عمل رئيسًا للقسم الفني بدار أخبار اليوم سنة ١٩٥٢ .

نال درجة الماجستير في فقه اللغة المصرية القديمة من معهد الدراسات العليا للآثار بجامعة القاهرة.

عين مديرًا لأعمال مصلحة الآثار.

اكتشف مراكب الشمس في صيف سنة ١٩٥٤ .

تفرغ للصحافة عضوًا في مجلس تحرير جريدة الأهرام، وهو المعلق اليومي لها الآن.

محتويات الكتاب الثالث

القسم الرابع

من الحرب العالمية الأولى إلى الحرب العالمية الثانية .

مقدمة

وصل بنا الحديث في التأريخ لرواد الاستراتيـچية الحديثة إلى نهاية الحرب العالمية الأولى وقد اتخذت صورة الحرب طابعًا أمميا جامعًا، ولم يعد القتال وقفًا على الجنود في الميدان فحسب بل تعداهم إلى من يعملون لمد دولاب الحرب، ولمن يلقمون آلة الحرب بما تحتاج إليه من بشر وعتاد.

كان الناس قد بدأوا القتال بالبندقية والسونكي، ثم عرفوا المدافع ذات القذائف الكروية الشكل، وقنعوا بالتطور الصناعي للقذيفة مع ما صحب هذا من تطور في تشكيلات الجند ومن استحداث في تنظيم الوحدات، ولكن لم يلبث الناس أن عرفوا البندقية التي يمكن نزع بعض أجزائها واستبدال غيرها بها، وعرفوا البندقية ذات الخزانة السريعة الطلقات، وكانت المدافع الذاتية الارتداد مع ما صحب هذا من الآلات الدقيقة للقياس والتوجيه، وكانت الرشاشات الآلية الحركة الذاتية التعمير، وعرف الناس المنطاد للمراقبة، وعرفوا الجرار الذي يسير على شرائط لا عجلات فكانت الدبابة، ثم صنعت الطائرة للنقل فكانت قاذفة القنابل المنقضة، وكانت طائرة القتال الأسرع من الصوت، وعرف الناس السفينة التي تمخر عباب البحر فكانت البارجة والطراد والمدمرة، وكانت الغواصة وكان قاذف الطوربيد، وهكذا كانت العقلية الآلية تسيطر على كل شيء، وكانت الظاهرة التي عرفها الناس في الحرب العالمية الأولى ثم سيطرت على كل شيء في فترة ما بين الحربين العالميتين ظاهرة الآلة ذات الاحتراق الداخلي والاستخدام الآلي لكل أسلحة الحرب.

على أن أبرز ما صحب هذه المرحلة من مراحل التطور في استحداث

أسلحة الحرب كان «هو» وضوح آثر العلوم والدراسات الوثيقة الصلة بالحرب، وإن لم تكن من أصول القتال، وكان من نتائج التطور العلمي أن وضحت النواحي غير العسكرية الوثيقة الصلة بالاستراتيـچية والتخطيط لها، وكان لهذا أثره في مساهمة المفكرين وغيرهم من أعلام هذه النواحي غير العسكرية؛ ***والواقع*** أن الناس عاشوا طويلاً وهم يؤمنون بأن التخطيط للحرب صناعة يحترفها لون خاص من الناس، مثلهم مثل أولئك الذين يخوضون غمار القتال فعلاً مأجورين كانوا أم متطوعين، وهكذا برزت إلى المسرح عدة مدارس من مدارس الفكر العسكري، فيها الكثير من رجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع، وكان لهذه المدارس أثرها لا في تطور القتال فحسب، بل وفي تطور التخطيط للحرب والتصوير للاستراتيـچية.

وأدرك الناس أن هذه المدارس العلمية جزء أساسي من مدارس الفكر العسكري، وانتهى العالم كله إلى ما وصل إليه رجل ديمقراطي هو توماس جيـڤرسون عندما اقترح أن تكون الدراسات العسكرية جزءًا أساسيا من التعليم الجامعي الأمريكي ليجمع بين الدراسات العلمية والدراسات العسكرية في صعيد واحد.

وهكذا بدت مع الضوء صورة أخرى، صورة لا تجيء من الجانب الآخر للتل، بل تقف في ذات الجانب ولكنها هي الأقرب إلى نفوس الجماهير تبعًا للصورة الأممية الجامعة التي تحولت إليها الحرب، صورة الرجل المدني الذي لم يقف في صفوف الجند؛ وكان من الضروري في خضم الحوادث أن تبرز صورة الزعامة: زعامة الجماهير، وبرز على المسرح أشخاص جدد لهم سمات جديدة، مثل تشرشل، ولويد چورچ، وكليمانصو، ولينين، وتروتسكي،وستالين، وغيرهم وغيرهم، ولكن الزعامة في الواقع لم

تكن في هؤلاء بل كانت فيها هو أعمق وأبعد، كانت في قلوب وعزيمة ومشاعر الأهلين أنفسهم.

والواقع أن الحديث هنا في هذا الجزء من الكتاب وعن هؤلاء الرجال الستة بالذات يخرج إلى ما هو أبعد من دراسة تاريخ حياة رجل ودوره في صياغة نظرية استراتيـچية، أو تعديل نظرية استراتيـچية قائمة؛ ذلك لأن البحث ينتقل في ناحية إلى دراسة تطور الطابع الحكومي نفسه، فقد أوجد طابع الديمقراطية مشاكل في المسئولية العسكرية وفي النظام والسيطرة لم يكن لها وجود طول حكم الملكية، وخرجت إلى الوجود الفكرة التي أشار إليها ماديسون وغيره من المفكرين الأمريكيين الأوليين بأنه من واجب الحكومة: «حماية الدولة»، وأنه ليس من الممكن نزول حكومة المدنيين عن سيطرتها على الشئون العسكرية في الدول الديمقراطية دون تعريض سلامة الأهلين للخطر.

وبذلك خرج معنى المسئولية من مجرد المعاونة المالية والتشريعية إلى مساهمة مباشرة تقل أو تكثر في السيطرة على العمليات الحربية نفسها، وطغت شخصية السياسي المدني على الجو التقليدي للجندي المحترف، وفتح ميدان فسيح للاحتكاك والتضاد بين المدنيين والعسكريين.

والشيء الآخر الذي يجيء في هذه الدراسة بالنسبة للثلاثة من رجال المذاهب العقائدية، أن كل انقلاب اجتماعي عنيف كالثورة الفرنسية أو ثورة نوفمبر سنة ١٩١٧ في روسيا يلقي أول ما يلقي بعيدًا بالتنظيمات العسكرية القائمة على أساس أن الجيش كان وثيق الارتباط بالبناء الاجتماعي السابق، ومن ثم فقد كونت الثورة الفرنسية، «جموع المواطنين المقاتلين» لتخوض بهم حرب الدعوة للحرية والمساواة والإخاء؛ ونظمت ثورة روسيا: «جيشًا من

الفلاحين والعمال والصناع» كان ميلاده يوم ٢٣ من فبراير سنة ١٩١٨، ليكون الجيش الجديد سلاحًا للجماهير للدفاع عن الثورة ضد الأعداء في الداخل والخارج.

ولكن حدث في روسيا ما حدث في فرنسا، وأعاد زعماء العقائد السياسية الجديدة النظر في تكوين هذه الجيوش الجديدة وتخطيط أهدافها من جديد، وبذلك تحركوا تدريجيًا إلى النظم الأولى لتكون هيئة قومية تمامًا.

فإن الجيش قد يمكن أن يكون طفل الثورة، ولكنه من جانب آخر هو أيضًا رمز الوطن؛ ذلك لأنه لا يمكن التنكر أو إغفال «الحقائق» التي تتحكم في الجيوش الحديثة مهما كانت «الأيديولوچيات» التي يدين بها أفراد هذه الجيوش.

* * *

ومن ثم ينتقل بنا البحث إلى ناحية أخرى، إلى العقائد والأصول العسكرية التي جاءت بها التجارب العملية: تجربة القتال والحرب.

والذي لا شك فيه أن الفترة بين الحربين العالميتين جاءت بعقائد وأصول كانت الحرب العالمية نفسها الصورة العملية للصراع بينها (بين هذه العقائد والأصول) وإن كان من سبق الحوادث أن نقول بأن نتيجة الحرب تصلح للحكم على نصيب هذه العقائد والأصول من الدقة أو على مكانتها من العلم العسكري؛ لأن نتيجة الحرب ـ أي حرب ـ تتأثر بعوامل أخرى ليست في الحسبان.

وأبرز ما سنلقاه في هذا الجزء من التاريخ لرواد الاستراتيـچية الحديثة الصراع الذي قام بين الهجوم والدفاع، والقيمة الحقيقية للتحصينات

الضخمة من الحديد والأسمنت في مواجهة التطور في مقذوفات المدفعية وإزاء الاستحداث في تحركات الجند واستخدام المدرعات التي تحمل الأسلحة والجنود خلف دروع من الصلب.

كان ليدل هارت يتزعم العقيدة الدفاعية، وهي عقيدة قد أملتها على بعض الأمم الحاجة الملحة للاقتصاد في الدم وتحديد منطقة المناورة للقوات المتضادة، وبنى الفرنسيون كتل الصخر والحديد التي أسموها ماچينو وأقامت تشيكوسلوفاكيا المناطق المحصنة على حدودها المشتركة مع ألمانيا ثم ضاع هذا كله في تسوية مشكلة السوديث قبيل الحرب العالمية الثانية ونظمت بولندة بل وحتى روسيا المواقع المحصنة على أن تعاون الأسلحة المقاتلة في زيادة عمق وسعة المناطق المحصنة، كان التفكير في ضرورة الاستناد إلى الحديد والأسمنت يسيطر على كل الأفكار حتى في الدول التي كان كل تخطيطها يقوم على الهجوم، وبنى الألمان الدعاية المضللة التي أسموها خط سجفريد، بل وانتشرت في العالم مناطق محصنة كثيرة مثل طبرق والبردية في برقة (الإيطالية) ومثل مطروح في غرب مصر.. بل وخط (إيدين) الذي عرف فيما بعد باسم خط العلمين، كان الناس يفكرون في «الدفاع» قبل أن تبدو فعلاً الحاجة إلى «الدفاع».

وفي طوال هذا كانت المدرسة «الهجومية» ـ المدرسة التي يدعو أصحابها للعامل الهجومي كالأصل الأساسي لأصول الحرب ـ في كل مكان من العالم ـ حتى في أمريكا أبعد الدول عن الاشتراك في خضم الصراع الأوروبي ـ يقولون بأن «الدفاع لن يكسب الحرب»!!.

ولم يكسب الدفاع الحرب ـ ما في هذا من شك؛ ولكن لا يمكن القول بأنه لم يعد من مكان «للدفاع»، أو أن «الدفاع» لم يعد أصلاً من أصول

الحرب، فالدفاع مرحلة من مراحل المعركة الهجومية في لحظة ما لإعادة التنظيم أو لاستكمال العتاد.

وهذه المعركة التي تتحدث عنها هنا ليست المعركة في صورتها المبسطة عندما نقرأ صفحات كتاب من كتب التدريب للوحدات الصغرى من الفصيلة إلى مجموعة اللواء ومع هذا فإن كل معركة مهما كانت القوة المشتركة فيها تمر فيها لحظات يقف فيها الجانب المهاجم للدفاع، ولكن يجب أن يستهدف الدفاع دائمًا استعادة العامل الهجومي، فالدفاع الهجومي في الحرب العالمية الثانية عند ستالينجراد وعند العلمين وفي غيرهما هو الذي حول إلى حد بعيد من مسير الحرب ومكن من استعادة الحلفاء للعامل الهجومي.

وهكذا نجد في هذا الكتاب الثالث من «رواد الاستراتيـچية الحديثة» إضمامة من الدراسات التي تقدم ألوانًا مختلفة من الأشخاص وما لهم من آراء ونظريات، ولكنها في جملتها تقدم معًا جانبًا من قصة تطور الاستراتيـچية، وبالتبعية تاريخًا لمجموعة متقاربة من «رواد الاستراتيـچية الحديثة».

وتبقى بعد ذلك مرحلة واحدة ليصل بنا الحديث إلى العصر الذي نعيش فيه ـ وموعدنا بها الكتاب الرابع إن شاء الله.

عبد الفتاح إبراهيم

عميد أركان حرب

الرابع من أكتوبر سنة ١٩٦٠

الفصل الحادي عشر

دلبروك:

المؤرخ العسكري

بقلم جوردون كريج

كان هانز دلبروك ـ الذي تتصل حياته اتصالاً وثيقًا بتاريخ الإمبراطورية الألمانية الثانية ـ مؤرخًا عسكريًا؛ على أن هذا ليس كل شيء بالنسبة للرجل، فلقد عنى بتفسير الشئون العسكرية لتتضح معمياتها لأفراد الشعب الألماني، كما كان ناقدًا مدنيا ناقش كل تعاليم هيئة أركان الحرب الألمانية وخرج من نقاشه وجدله بنظريات في صميم العلم العسكري.

والوقع أن ما أسهم به دلبروك في الفكر العسكري ليستحق التنويه والذكر، ولم يكن كتابه «تاريخ فن الحرب» دليلاً على الأستاذية وحسب، بل كان موردًا خصبًا تستمد منه المعلومات القيمة عن النظريات العسكرية في عصره.

وكانت تعليقاته على الشئون العسكرية التي نشرت في صفحات «الكتاب السنوي البروسي» مساهمة قيمة منه في التثقيف العسكري للشعب الألماني ثم عاون هذا الكتاب الناس أثناء الحرب العالمية الأولى على التخصيص في تفهم بواطن المشكلات التي تواجه هيئة أركان الحرب الألمانية، كما مكنت كتاباته النقدية التي ناقش فيها تعاليم القيادة الألمانية العليا والتي كتبها أثناء الحرب ثم في الفترة التي تلتها مباشرة من التنبيه والحث على إعادة تقدير طابع التفكير الاستراتيجي الذي ساد الجيش

الألماني منذ أيام مولتكة(*).

وقد أكد القادة العسكريون الألمان أهمية الدروس التي يمكن استخلاصها من التاريخ الحربي، كان هذا صحيحًا على التخصيص في القرن التاسع عشر، وكانت فكرة كلاوزيڤتز المثالية تدريس الحرب بوساطة الأمثلة التاريخية، وجعل مولتكة وشليڤن دراسة التاريخ العسكري إحدى مسئوليات هيئة أركان الحرب العامة[1]، ولكن لكي يوجه التاريخ لصالح ولخدمة الجندي وجب أن يكون التسجيل العسكري دقيقًا وأن تخلو الحوادث القديمة حوادث الماضي من الخطل والخطأ وسوء الإدراك خلوها من الأساطير والخرافات التي نمت معها وتزاحمت من حولها، وكان الفضل كل الفضل لنفوذ وتأثير ليبولت ڤون رانك(**) أن أسهم العلماء الألمان طوال القرن التاسع عشر في استخلاص حقائق التاريخ من الشوائب التي لحقت بها.

والواقع أن الأسلوب العلمي الحديث لم يستخدم للانتفاع بالدراسات العسكرية القديمة حتى كتب دلبروك كتابه «تاريخ فن الحرب»؛ وكان هذا الاستخدام (هو) الدور الرئيسي الذي أسهم به دلبروك، ولكنه ـ مع هذا ـ لم يكن مساهمته الوحيدة، فعلى مدى القرن التاسع عشر اتسعت الأسس الحكومية لتضم كل جديد لم تعرفه من قبل، وبدا صوت الشعب في العالم الغربي بعامة يسمع متزايدًا في كل فرع من فروع الادارة الحكومية، ولم

(*) راجع الكتاب الثاني ص١١٨ ـ ١٦٨ .

(١) راجع الفصل الثامن من الكتاب الثاني ص١٨٧و ١٨٨ .

(**) ليبولت ڤون رانك مؤرخ ألماني «١٧٩٥ ـ ١٨٨٦» «المترجم».

يعد من الممكن إبقاء السيطرة علي الشئون العسكرية حقًا خالصًا لطبقة صغيرة حاكمة؛ وكان الصراع المرير في بروسيا عام ١٨٦٢ والذي دار حول الميزانية العسكرية دليلاً على أن رغبات الأهلين وممثليهم في الهيئات التشريعية بالنسبة لمسائل الإدارة العسكرية يجب أن تعطي تقديرًا جديًا في المستقبل، كما وضح بأنه من الضروري ـ لسلامة الدولة بل ولإمكان الإبقاء على التعاليم العسكرية ـ يجب أن يعلم أفراد الشعب وأن تتوافر لهم المعرفة إلى الحد الذي يمكنهم من تفهم ومناقشة المشكلات العسكرية، وتبعًا لهذا بدأ التفكير في أن المطبوعات العسكرية التي تصدرها هيئة أركان الحرب العامة يجب الانتفاع بها في محيط أوسع من محيط قصرها على الأفراد العسكريين في الجيش وحدهم ومع هذا فإن كتابات العسكريين المحترفين، الكتابات التي وقفت على دراسة الحروب والحملات العسكرية، كانت من ناحية عامة أكثر فنية في طابعها وأسلوبها من أن يمكن الانتفاع بها في هذا القصد، قصد إعداد الشعب وتعليمه.

كانت هناك حاجة ملحة إلى تبسيط الدراسات العسكرية إلى المستوى الشعبي[١]، وقد أحس دلبروك بهذه الحاجة، وحاول أن يفعل شيئًا في هذا السبيل، واعتبر بأن واجبه في كل كتاباته أن يفسر ويشرح المسائل العسكرية للشعب الألماني، إلا أن أبرز فترات حياته والتي عمل طوالها في هذا القصد كانت أيام الحرب العالمية الأولى عندما كان يكتب في صفحات «الحوليات البروسية» Preussische Jahrbucher تعليقًا شهريًا عن سير الحرب موضحًا ـ

---

(١) راجع:

Hans Delbrück, «Etwas Kriegsgeschichtliches».

Preussische Jahrbücher, LX (١٨٨٧), ٦٠٧.

على أساس المادة المتوافرة له ـ استراتيـچية القيادة الألمانية العليا واستراتيـچية خصوم ألمانيا، ولكن دلبروك تحول فيما بعد ـ وبخاصة في السنوات الأخيرة من حياته ـ إلى ناقد له أثره في نقد التعاليم العسكرية والتفكير الاستراتيـچي في عصره، وقد أوضحت له دراساته للعصور التي سبقته الصلة الوثيقة بين السياسة والحرب في كل عصر، كما علمته أن «الاستراتيـچية العسكرية» و «الاستراتيـچية السياسية» يجب أن تسيرا جنبًا إلى جنب.

كان كلاوزيـڤتز قد أكد حقيقة أن «للحرب قواعدها الخاصة بها، ولكن ليس لها منطقها الخاص بها وحدها»، كما أكد أيضًا في حديث مكرر غير مملول أن الحرب: «استمرار لسياسة الدولة مع استخدام وسائل وأساليب أخرى».

ولكن عقيدة كلاوزيـڤتز قد نسيها أولئك الذين ذكروا جدله (كلاوزيـڤتز) ونقاشه لتحرير القيادة العسكرية من العوائق السياسية التي تحد من ميدانها[١].

وقد رجع دلبروك إلى عقيدة كلاوزيـڤتز وجادل في سبيل ضرورة اتفاق ومسايرة إدارة الحرب والتخطيط للاستراتيـچية مع أهداف سياسة الدولة، كما ناقش لتأكيد أنه عندما لا يكون التفكير الاستراتيـچي مرنًا، وعندما لا تتوافر له كفاية ذاتية، فإن هذا النقص يؤدي إلى الدمار السياسي مهما أمكن الوصول إلى نجاح تكتيكي براق.

وقد برزت في كتابات دلبروك طوال سني الحرب شخصية الناقد

---

(١) راجع الفصلين الخامس والثامن بالكتابين الأول والثاني من رواد الاستراتيـچية الحديثة.

وطغت على شخصية المؤرخ، وعندما اقتنع بأن التفكير الاستراتيـچي للقيادة الألمانية العليا يتناقض تمامًا مع الاحتياجات السياسية للدولة وقف في مقدمة الداعين إلى مفاوضة الحلفاء لإقرار السلام. وعندما بدأ مجلس الريشستاغ بعد الحرب العالمية الأولى يبحث أسباب انهيار ألمانيا سنة ١٩١٨ كان دلبروك أعنف نقاد استراتيـچية لودوندورف، وكان نقده مستمدًا بالطبيعة من النظريات والأسس التي خرج بها من دراسته للتاريخ.

- ١ -

ونستطيع أن نمر سريعًا بتفاصيل حياة دلبروك[1]، وقد أجمل هو هذه التفاصيل في عبارة مختزلة موجزة سة ١٩٢٠ في قوله: «نشأت سليل مجموعة عمل أفرادها طوال حياتهم في الدوائر الحكومية والأوساط العلمية؛ وكنت - عن طريق أمي - من أسرة عاشت في برلين، شهدت الحرب ضابطًا في فرق الاحتياطي وعشت لخمس سنوات في بلاط الإمبراطور فردريك عندما كان وليا للعهد وكنت من رجال البرلمان، وعملت محررًا لمجموعة Preussische Jahrbücherوبذلك كنت بين رجال الصحافة ثم عملت أستاذًا في الجامعة».

ولد دلبروك ببلدة بيرجن في نوفمبر سنة ١٨٤٨ لأب يعمل قاضيًا

(١) كتب دلبروك تاريخًا موجزًا لحياته في:

Über die Glaubwürdigkeit Lamberts von Hersfeld (Bonn, ١٨٧٣) ٧٨, Die Geschichte der Kriegskunst im Rahmen der politischen Geschichte (Berlin, ١٩٠٠ - ١٩٢٠) i, vii f, and krieg und politik (Berlin, ١٩١٨ - ١٩٢٠), iii ٢٢٥ ff.

راجع أيضًا: j. ziekursch in Deutsches biographisch (jahrbuch ١٩٢٩) .

ويقدم Richard H. Bauer دراسة قيمة لحياة دلبروك في الكتاب الذي حرره Bernadotte Schmitt ووسم بعنوان Some Historians of Modern Europe طبع شيكاغو سنة ١٩٤٢ ص١٠٠ - ١٢٧.

للمنطقة، وكانت أمه ابنة أستاذ الفلسفة في جامعة برلين، على أنه كان بين أسلافه مشرعون وعلماء لاهوت وأكاديميون؛ تلقى العلم بمدرسة إعدادية في جريفز وولد، ثم التحق بعد هذا بجامعات هيدلبرج وجريفزوولد وبون، وقد كشف عن شغف مبكر بدراسة التاريخ، وحضر محاضرات نوردين، وشيـڤر وسيبل(*)، وثلاثتهم تأثروا إلى حد بعيد بتوجيهات «رانك» للبحث العلمي، وكان تأثير رانك واضحًا في البحث الذي قدمه دلبروك لنيل درجة الدكتوراة، والذي كان نقدًا وتقويمًا محطمًا بدرجة كبيرة لكتابات مؤرخ ألماني في القرن الحادي عشر[1]، وقد أوضح دلبروك أن هذه الكتابات التي تقبلها المؤرخون منذ بعيد على أنها تسجيل دقيق فريد في بابه ليست في الواقع أكثر من مجرد سرد لا يوثق به ولا تقوم أدلة على صحته، وقد كشف دلبروك بهذا التحقيق العلمي عن فطنته وعن الطاقة التي توافرت له في النقد العلمي والتي كانت الظاهرة البارزة في انتاجه الفكري فيما بعد.

وكان دلبروك معنيا طوال طلبه للعلم بمشكلات السياسة، وكان متحمسًا للدفاع عن الوحدة الألمانية، ولم يقتنع حتى سنة ١٨٧٠ بأن سياسة بسمارك ستمكن من تحقيق هذه الوحدة[2]، على أنه في غمرة اقتناعه بأن

(*) كارل ڤون نوردن Noorden مؤرخ، ولد عام ١٨٣٣ وتوفي سنة ١٨٨٣، أشهر كتبه «تاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر» عمل أستاذًا بالجامعة من عام ١٨٧٧ حتى وفاته.

شيـڤر Schafer مؤرخ وكاتب ورسام.

هنريش ڤون سيبل Sybel مؤرخ، ولد عام ١٨١٧ وتوفي عام ١٨٩٥، كان مديرًا لأرشيف الحكومة البروسية مند سنة ١٨٧٥ ثم رقي إلى وظيفة مستشار ملكي، واختير عضوًا في المجلس النيابي البروسي لبعض الوقت «المترجم».

(١) Über die Glaübwurdigkeit Lamberts Von Hersfeld (Bonn ١٨٧٣).

انظر أيضًا Richard H. Bauer في نفس المرجع لكتاب Schmitt هامش صفحة ١٠١ .

(٢) Krieg und Politik, III, ٢٢٦.

الحرب ضد فرنسا واقعة لا محالة، وأنه من غير الممكن تجنبها.

في غمرة هذا تطوع لخدمة الجيش سنة ١٨٦٧، وشهد حرب سنة ١٨٧٠ / ٧١ بين ضباط الجيش العامل، ولكنه نقل إلى الاحتياطي حيث بقي حائزًا رتبة عسكرية في الاحتياطي حتى سنة ١٨٨٥ .

وتولى دلبروك من سنة ١٨٧٤ إلى سنة ١٨٧٩ التدريس للبرنس ڤالديمار ابن ولي العهد البروسي، ولم يمكنه عمله هذا من أن يرتبط بصلات وثيقة مع أعضاء بلاط فردريك فحسب، بل ومكنه أيضًا من أن يصل إلى أعماق المشكلات السياسية لعصره.

ولكنه بقي في ذلك الوقت مخلصًا لما اختطه لنفسه في فجر حياته من أن يكون مؤرخًا، وفي سنة ١٨٨١ نجح في الحصول على وظيفة في جامعة برلين فكانت هذه بداية حياة أكاديمية ناجحة استمرت حتى سنة ١٩٢٠؛ وبالرغم من أن بحوثه ومحاضراته شغلت أغلب وقته فإن دلبروك وجد الوقت الذي مكنه من القيام بدور إيجابي في السياسة فكان في سنة ١٨٨٢ وحتى سنة ١٨٨٥ عضوًا في برلمان بروسيا، ثم عضوًا بمجلس الريشستاغ بين سنة ١٨٨٤ وسنة ١٨٩٠، ولكنه في حياته البرلمانية كان أقرب إلى أن يكون مراقبًا يلاحظ كل ما يدور من حوله أكثر من أن يكون مساهمًا نشطًا في المناقشات البرلمانية؛ ذلك لأنه كان يعتبر نفسه «طالب علم في الميدان السياسي»[١].

وبالإضافة إلى هذا اللون من النشاط العلمي والسياسي كان دلبروك محررًا صحفيًا له مكانة وشهرة، عمل محررًا «لمحفوظات الدولة»

(١) نفس المرجع راجع الهامش السابق.

Staatsärchiv المجموعة الرسمية السنوية للوثائق الدبلوماسية، كما عمل محررًا «لمصنف تاريخ أوروبا» Europâischer Geschichtskalender، وهي نشرة سنوية تعرض حوادث العام السابق لصدورها كل مرة، وفي سنة ١٨٨٣ عين ضمن هيئة تحرير الحوليات البروسية Preussische Jahrbücher ولكنه بعد سنة ١٨٩٠ كان هو المحرر الوحيد لهذه الدورية القوية، وعلى صفحاتها كتب دلبروك تعليقاته العسكرية أثناء الحرب العالمية الأولى وفي السنوات التي تلتها، وكان يهاجم بعنف مادة معاهدة ڤرسايل التي نصت على «مسئولية الحرب».

على أن دلبروك حتى قبل أن يبدأ حياته بجامعة برلين فإنه وجه انتباهه وعنايته إلى دراسة التاريخ العسكري، وقد قرأ في أثناء «مناورات» الربيع سنة ١٨٧٤ ـ عندما كان لا يزال في خدمة الاحتياطي ـ كتاب روستوف «تاريخ المشاة»، وقد تحدث فيما بعد عن هذه المطالعات على أنها هي التي رسمت طريق حياته.

ولكن دلبروك في الواقع لم يتجه جديًا إلى دراسة صناعة الحرب حتى سنة ١٨٧٧، ففي تلك السنة أعطى فرصة إتمام وتكملة الأوراق والمذكرات التي خلفها جينسيناو وراءه، والتي كان جورج هينريك بيرتز قد بدأ إتمامها، وعندما انغمر دلبروك في دراسة تاريخ حرب التحرير اصطدم بما بدا له أنه خلاف أساسي في التفكير الاستراتيجي بين نابليون وجينسيناو من جانب، وبين الأرشيدوق شارل وويلنجتون وشوارزنبرج(*) وغيرهم من الجانب الآخر، وقد ازداد هذا الخلاف وضوحًا عندما تابع دلبروك تحقيقاته

(*) فردريك تشارلس شوارزنبرج ، قائد عسكري وكاتب له دراسات في فنون الحرب ولد ومات بڤيينا في السبعين من عمره (١٨٠٠-١٨٧٠) .

متعمقًا في دراسة حياة چينسيناو نفسه، هذه الدراسة التي كتبها بعد المقدمة التي وضعها للمذكرات[1]، وقد أحس دلبروك، تبعًا لوضوح هذا الخلاف في التفكير الاستراتيـچـي أن استراتيـچية القرن التاسع عشر من وجهة عامة تخالف تمامًا، بل وإلى حد بعيد، استراتيـچية القرن الثامن عشر؛ وقرأ دلبروك كتابات كلاوزيـڤتز لأول مرة، وناقش ما قرأه طويلاً مع الضابط الملحقين ببلاط فردريك، وفي ضوء هذه المناقشات ازدادت رغبته في البحث، وازداد إصراره على ضرورة الكشف عن العوامل الأساسية الرئيسية للعمليات الاستراتيـچية والحربية.

وكانت أولى محاضراته في جامعة برلين عن «حملة سنة ١٨٦٦» ولكنه اتجه بتفكيره بعد هذا إلى الماضي فألقى أولاً بعض المحاضرات عن «تاريخ فن الحرب منذ بداية النظام الاقطاعي»، ثم تعمق في بحوثه حتى وصل إلى الفترة بين الحروب الفارسية وبين سقوط روما واضمحلالها وقد بدأ بدراسة منظمة لمصادر الدراسات في التاريخ القديم والمتوسط، ونشر سلسلة من الدراسات عن الحروب الفارسية وعن استراتيـچية بركليز وصولون(*)، وعن تكتيكات «المانيبل» الروماني(**)، وعن التعاليم

(١) H. Delbrück, Das Leben des Feldmarschalls Grafen Neidhardt von Gneisenau (Berlin, ١٨٨٢).

(*) بركليز Pericles خطيب أثينا المفوه وسياسيها الأشهر كان رئيس الحزب الديمقراطي ويعتبر عصره أزهي عصور الرومان، عاش بين سنة ٤٩٩ وبين سنة ٤١٩ قبل ميلاد السيد المسيح. (معجم لاروس ص ١٥١٦).

صولون Cleon أثيني من أهل أثينا، شجاع طموح كان مليئًا بالزهو، اصطدم ببراسيداس Brasidas في أمـڤيبوليس، ولكنه قتل هو ومنافسه في المعركة سنة ٤٢٢ قبل الميلاد. «معجم لاروس ص١٢٣٢».

(**) المانيبل Maniple قسم من تشكيل «اللـچيون» الروماني ويصل عدد أفراده بين ٦٠=

العسكرية للرواد الألمان، وعن الحرب بين السويسريين والبورجونديين كما درس استراتيچية فردريك الأكبر ونابليون. وفي نفس الوقت شجع طلابه على إعداد دراسات تفصيلية لفترات زمنية خاصة، ومن هذه المحاضرات والدراسات أخرج دلبروك كتابه «تاريخ الحرب في إطار التاريخ السياسي الذي ظهر الجزء الأول منه سنة ١٩٠٠[1].

ـ ٢ ـ

وقد اعتبر كتاب «تاريخ فن الحرب» منذ أن صدر المجلد الأول منه نموذجًا للنقد الذي يوجه في ثورة غضب، ولم يتقبل الباحثون الأسلوب الذي أخذ به دلبروك بخناق هيرودوت بخشونة، وهاجم علماء دراسات القرون الوسيطة الجزء الخاص بأصول النظام الاقطاعي في كتاب دلبروك، وغضب العلماء الإنجليز لاستهانة دلبروك بحروب الوردتين، وعندما طبع الكتاب طبعات جديدة أضيفت إليه على هوامشه بعض آراء مخالفة لما كتبه المؤلف في متن كتابه لتخفيف غضب الأكاديميين، ولكن الكتاب بقى في

=وبين ١٢٠ جنديًا ـ معجم ديبستر ص ٨٩٣ .

(١) Geschichte der Kriegskunst im Rahmen der Politischen Geschichte (Berlin, ١٩٠٠).
والكتاب في سبعة مجلدات تعتبر الأربعة الأولى منها هي التي كتبها دلبروك فعلًا، وقد كتب دانييل Emil Daniels المجلدين الخامس (١٩٢٩) والسادس (١٩٣٢)، أما المجلد السابع الذي صدر سنة ١٩٣٦ فكتبه داثييل بالاشتراك مع أوتوهينتز Otto Haintz وسنعرض في دراستنا هذه إلى المجلدات الأربعة الأولى وحدها، وكل إشارة إليها تعني الإشارة لصفحات الطبعة الأولى منها، وقد صدرت طبعة ثانية للمجلدين الأول والثاني سنة ١٩٠٨ كما صدرت طبعة ثالثة للمجلد الأول سنة ١٩٢٠، على أن ما جري في الطبعتين الثانية والثالثة من تصحيحات أو إضافات لا توجد خلافًا رئيسيًا بين هاتين الطبعتين وبين الطبعة الأولى.

مجمله لا تقلل من قيمته هذه المهاجمات، بل ونال تقدير وثناء قراء مثل الـچنرال جرونر Groener(*) وزير الحرب في حكومة جمهورية ڤيمار، ومثل فرانزميهرنج الناشر الاشتراكي العظيم، وقد أشار الأول إلى أن الكتاب يعتبر في بساطه (وحيدًا في بابه)[١] وأشار الثاني إلى أن الكتاب «أقوى دراسة أبرزتها الكتابات التاريخية لألمانيا البرجوازية في القرن الحديث»[٢].

ويناقش دلبروك في المجلد الأول من المجلدات الأربعة التي كتبها، يناقش فن الحرب في المدة من حروب الفرس إلى ذروة الفن عند الرومان في حكم يوليوس قيصر، وفي المجلد الثاني ـ الذي عني فيه أكثر ما عنى بالمجتمع الألماني في فجر تاريخ ألمانيا ـ يناقش دلبروك اضمحلال التعاليم العسكرية الرومانية، كما يناقش التنظيم العسكري للإمبراطورية البيزنطية وأصول النظام الاقطاعي، ووقف دلبروك المجلد الثالث على اضمحلال وقرب زوال تكتيكات واستراتيـچية العصر الوسيط، ثم يختتم هذا المجلد

(*) جرونر، ويلهلم جرونر قائد ألماني ولد في لودڤيسبرج (وورتمبرج) سنة ١٨٧٦ وتوفي سنة ١٩٣٩، أنهى دراسته بكلية أركان الحرب سنة ١٩٠٢، وقد برهن على أنه من أمهر رجال التنظيم العسكري، اشترك في العمليات برومانيا سنة ١٩١٦، وفي ديسمبر سنة ١٩١٦ ولاه هندنبرج أمر التعبئة الصناعية لألمانيا، كان أركان الحرب للقوات في أكرانيا، وفي أكتوبر سنة ١٩١٨ تولى عمل الـچنرال لودندورف، عمل في فجر أيام الجمهورية مساعدًا لهندنبرج في الأعمال الخاصة بتسريح الجيش الألماني، تولي وزارة النقل من سنة ١٩٢٠ إلى سنة ١٩٢٣ وعمل لبعض الوقت في وزارة موللر. «المترجم»

(١) Wilhelm Groener, "Delbrück und die Kriegswissenschaften" in Emil Daniels and Paul Rühlmann, ed, Am. Webstuhl der Zeit, eine Erinnerurgsgabe Hans Delbrüch dem Achtzig jahrigen dargebracht (Berlin, ١٩٢٨). p. ٣٥.

(٢) Franz Mehring, "Eine Geschichte der Kriegskunst". Die Neue Zeit (Erganzungsheft, No. ٤. ١٦ October ١٩٠٨) p. ٢.

(الثالث) بإحياء التكوين التكتيكي للحروب السويسرية ـ البورجوندية، ويتابع المجلد الرابع سرد قصة تطور الأساليب التكتيكية وتطور التفكير الاستراتيــچــي حتى عصر نابليون.

وفي الرواية التي كتبها براوست Proust(*) يقول ضابط صغير:

«إن أبسط الحقائق والحوداث هي وحدها العلائم الخارجية للفكرة التي تجيء في السرد الذي يقدمه مؤرخ عسكري، وهذه وحدها هي التي يجب أن تحلل وهي وحدها التي تلقى بالضوء على الأفكار الأخرى، ومثلها في هذا مثل الرق الذي يمحي ما عليه من كتابة ليمكن الكتابة عليه من جديد ثانية».

والواقع أن هذه الكلمات تقدم وصفًا منطقيًا دقيقًا لنظرية دلبروك في التاريخ العسكرى، فقد كان معنيًا بالآراء والاتجاهات العامة أكثر من عنايته بالتفاصيل الدقيقة التي ملأت صفحات كتب التاريخ التي سطرت في العصور السابقة؛ وفي مقدمته للمجلد الأول من كتابه أوضح صراحة أنه لا يستهدف كتابة تاريخ كامل تفصيلي لفن الحرب، وقد أشار إلى أن مثل هذا العمل من الضروري أن يتضمن التفاصيل عن أشياء كثيرة مثل: «التدريب وأوامره وتعليماته، فن استخدام الأسلحة، العناية بالخيول، وأخيرًا كل الموضوعات المتعلقة بالشئون البحرية والمسائل التي ليس فيها أي جديد أستطيع أن أذكره أو التي لا أستطيع أن ألم بها وأن أتفهمها».

وقد وضح الغرض من التاريخ الذي كتبه دلبروك من العنوان الذي

(*) Proust, The Guermantes Way.

وسم به كتابه، فقد كان تأريخًا لفن الحرب في إطار التاريخ السياسي(١).

لكل سلاح؛ ودراسة تكتيكات الحرب الحديثة تزود المؤرخ بوسائل أخرى يستخدمها في بحثه؛ لأنه بدراسته للحملات الحربية الحديثة يستطيع (المؤرخ) أن يحكم على طاقة وسرعة السير للجندي. وأن يحكم على طاقة حمل الجواد العادي، وعلى قدرة الحشود الكبيرة من الجنود على المناورة؛ وأخيرًا فإنه كان من الممكن غالبًا استكشاف المعارك التي تعتبر التقارير الواردة عنها صحيحة تبعًا لأنه قد تكررت فيها بدقه الظروف والملابسات التي جاءت في معارك سابقة.

وقد حدثت معارك الحروب البورجوندية السويسرية ـ التي توافرت التسجيلات الدقيقة عنها ـ ومعركة مراتون(*) ـ التي كان هيرودوت المرجع الوحيد للحديث عنها ـ حدثت بين الفرسان ورماة السهام في جانب وبين المشاة الذين يحملون أسلحة القتال يدا بيد في الجانب الآخر، وفي هذه وتلك كان النصر من نصيب المشاة. ولهذا فإنه يمكن أن نخرج من معارك جرانسون مورتين ونانسي(**) بنتائج ختامية تطبق بالنسبة لمعركة مارتون(٢)،

(١) Geschichte der Kriegskunst, I, p. xi.

(*) مراتون Marathon قرية في بلاد الإغريق القديمة على الساحل الشرقي في منطقة (أتيكا)، وكان بجوارها السهل الذي حدثت فيه المعركة سنة ٤٩٠ قبل الميلاد حيث هزم الإغريق بقيادة ملتيادس الفرس تحت قيادة دارا، وقد عدا عداء إغريقي من مراتون إلى أثينا لإخطار الأهلين بالنصر، ومات الرجل بعد أن أتم رسالته، ويطلق الاسم على السباق لمسافة ٢٠ ميلًا و ٣٨٥ ياردة تخليدًا لذكري العداء القديم.

(**) نانسي مدينة في شمال فرنسا سكانها ١١٣٠٠٠ كإحصاء سنة ١٩٤٦.

(٢) استخدام دلبروك هذا الاصطلاح الأخير في حديثه الأول من الحروب الفارسية في كتابه: Die Perserkriege und die Burgunder Kriege: Zwei Combinierte Krigsgeschichtliche =

وقد أطلق دلبروك على المزيج الذي تتركب منه كل هذه الوسائل اسم «النقد الموضوعي»[١] Sachkritik .

وقد لا تكون بنا حاجة هنا إلى أن تتحدث إلا عن القليل من وسائل التطبيق، وقد حصل دلبروك على الكثير من النتائج الطيبة بتحقيقه لعدد الجنود الذين اشتركوا في كل من الحروب الكبيرة في الماضي، وعلى سبيل المثال فإن هيرودوت قد قدر جيش الفرس الذي قاتل ضد الاسبرطيين في القرن الخامس قبل الميلاد بأربعة ملايين، وأشار دلبروك إلى أن هذا العدد لا يمكن الوثوق به بحال ما «ذلك لأنه تبعًا لنظام السير عند الألمان فإن الفيلق الذي يتكون من ثلاثين ألف جندي يغطي وحده ـ دون جملة الأمتعة والعتاد والتموين ـ مسافة تصل إلى ثلاثة أميال، وإذن كان من الضروري أن يصل طول قول جيش الفرس إلى ٤٢٠ ميلاً، أي أنه عندما تصل المقدمة إلى حواف ثرموبيل[*] Thermopyloe تكون المؤخرة قد خرجت لتوها من سوسه[**] Susa على الضفة الأخرى لنهر الدجلة[٢].

(Berlin, ١٨٨٧). =

(١) Geschichte der Kriegskunst, I. Introduction.

(*) ثرموبيل ممر جبلي في شرق بلاد اليونان، كان مسرح القتال سنة ٤٨٠ ق. م حيث هزمت قوات اسبارطة بقيادة ليوتيادس قوات الفرس بقيادة أجزرسيس ـ معجم ويبستر ص١٥١٣.

(**) سوسه ـ مدينة في غرب إيران (لا تزال أطلالها قائمة) كانت عاصمة أرض إيلام Elam ورد اسمها في التوراة «شوشان» معجم ويبستر ص ١٤٦٩، وكانت أرض إيلام تفصل الإمبراطورية الأشورية عن الخليج العربي ويبستر ص٤٨٥ (المترجم).

(٢) نفس المرجع ١ ص ١٠.

وحتى لو كان من الممكن تفسير مثل هذا الحديث غير المعقول الذي ذكره هيرودوت، فالواقع أنه لم يكن بين ميادين القتال التي حدثت فيها كل المعارك القديمة الميدان الذي يتسع لجيش بهذا العدد الذي ذكره هيرودوت؛ بل أن سهل مراتون «سهل صغير إلى حد أن ضابطًا من الضباط أركان الحرب البروسيين كتب عنه عندما زاره من خمسين سنة من أنه لا يتسع إلا بصعوبة لتدريب لواء بروسي واحد»(١).

وقد قدر دلبروك ـ على أساس الدراسات الحديثة عن تعداد سكان اليونان القديمة ـ قدر قوة جيش الأغريق الذي واجه اجزرسيس باثني عشر ألف جندي، فقد كان جيشًا من المدنيين الذين دربوا على القتال بضغط الـڤالاناكس ولم يكن قادرًا على تكتيكات المناورة، وعلى نقيض هذا كان جيش الفرس جيشًا من المحترفين، ولم تذكر حتى المصادر الإغريقية جرأة جنوده، «فإذا صدق كلا الأمرين، تعداد جيش الفرس (على ما قدره هيرودوت) وشجاعة جنوده، لبقي هذا الانتصار المتتابع الذي كان نصيب الإغريق في كل مرة مسألة غير مفهومة ولا يمكن تفسيرها، ومن هنا كان أحد الأمرين فقط هو الذي يمكن أن يكون صحيحًا؛ ذلك هو أن الفرس لم يفكروا في الأفضلية على حساب الكم بل على حساب النوع»(٢)، وهنا ينتهي دلبروك بأن الفرس كانوا أبعد ما يمكن عن هذا العدد الذي ذكره هيرودوت، وأنهم كانوا أقل عددًا من الأغريق طوال الحروب الفارسية الإغريقية.

---

(١) محاضرتان ألقيتا في جامعة لندن طبع لندن سنة ١٩١٣ ص ٢٤.

(٢) H. Delbrück, Numbers in History Geschichte der Kriegskunst, I, ٣٩.

على أن العدد الذي ذكره هيرودوت في حديثه عن الجيش الفارسي كان مثار الشك منذ وقت طويل قبل دلبروك، ولهذا فإن نقد دلبروك له لا يعتبر نقدًا أصيلاً فيه ابتداع وتجديد، ولكن الابتداع الحقيقي جاء في إسهامه بالمناقشة المنطقية والدراسة العميقة للتسجيلات العددية للجيوش التي خاضت غمار الحروب من الحروب الفارسية حتى حروب نابليون، ولهذا فإنه في مناقشة لحملات قيصر في بلاد الغال أوضح بجلاء أن قيصر في تقديراته للقوات التي وقفت تجاهه قد عمد إلى المبالغة لأسباب سياسية.

والواقع أن قيصر يذكر القوات التي وقفت تسد طريقه بأنها ٣٦٨٠٠٠ من السويسريين، كما ذكر أنهم كانوا يحملون معهم تموينهم لثلاثة شهور.

ويرى دلبروك أن هذه خرافة تستحق الامتهان والتسفيه، والشيء الذي دعم من حديثه ما ذكره قيصر عن التموين الذي كان السويسريون يحملونه معهم، ذلك لأننا لو قدرنا أن السويسريين كانوا يحملون تموينهم على عربات نقل لاحتاجوا إلى ٨٥٠٠ عربة من عربات النقل لحمل تموين هذا الجيش الكبير، ومن هذه الحملة وحدها نستطيع أن نؤكد الخرافة. فمن المستحيل أن يتحرك «قول» هذه حاله فيه ٨٥٠٠ عربة نقل تجرها الخيول أو الثيران على الطرق في ضوء ما نعرفه عن حال الطرق في ذلك العصر[1].

***

فإذا ما انتقلنا إلى دراسة غزو قبائل الهون لوسط أوروبا نجد دلبروك

---

(١) نفس المرجع ـ ١ ـ ص٤٢٧ .

يعارض ما يقال من أن آتيلا Attila[*] كان يتولى أمر جيش تعداده سبعمائة ألف مقاتل، وقد استند دلبروك في معارضته لهذا التقرير من دراسته للصعاب التي واجهها مولتكة عند تحريكه جيشًا من خمسمائة ألف مقاتل سنة ١٨٧٠، ويقول دلبروك: «لقد كان تحريك نصف مليون جندي مع وجود الخطوط الحديدية والطرق البرية والبرق وهيئة أركان الحرب عملية من الصعوبة بمكان فكيف كان آتيلا يستطيع أن يقود سبعمائة ألف جندي من ألمانيا فيعبر الرين إلى فرنسا ثم ينحدر إلى سهل شالون، مع إدراكنا للصعاب التي أجهدت مولتكة في تحريك نصف مليون جندي على ذات الطريق، إن أحد الرقمين هو بلا شك الذي يثبت الإسراف والمبالغة في الرقم الآخر»[١].

إن تحقيقات دلبروك عن الأعداد لهي أكثر أهمية وأبعد مدى من مجرد حديث في التاريخ القديم، ***والواقع*** أن تصحيح الأساطير يعاون على تجنب الخروج باستنتاجات زائفة غير صحيحة، وهذا التصحيح له أثره وأهميته في عصر كان الجيش الألماني يعمل طواله لاستخلاص الدروس من التاريخ، ومما لا شك فيه أن للأعداد أهميتها الكبيرة في الحرب وفي دراسة الحرب[٢].

وأشار دلبروك إلى أن «التحركات التي يمكن أن تنفذها قوة مكونة من ألف جندي لتعتبر واجبًا صعبًا مجهدًا بالنسبة لقوة أخرى تتكون من

(*) آتيلا "Attila" (الأب الصغير) ("Atta") (تعني والد) ملك الهون عاش بين سنة ٤٠٦ وسنة ٤٥٣ بعد ميلاد عيسى – عليه السلام – وتاريخ مولده تحيطه الشكوك. معجم ويبستر ص٩٥ (المترجم).

(١) Numbers in History, p. ١٨.

(٢) General Groener, Am Wdbstuhl der Zeit, p. ٣٨.

عشرة آلاف جندي، كما تعتبر عملاً فنيًا دقيقًا مليئًا بالمخاطر لو وصلت القوة إلى خمسين ألفًا، فإذا وصلت القوة إلى مائة ألف كانت عملاً مستحيلاً لا يمكن تنفيذه»[1].

ولهذا فلا يمكن استخلاص أي دروس ذات قيمة من دراسة المعارك القديمة ما لم يتوافر تقدير دقيق لتعداد القوات التي أسهمت في كل منها.

على أنه كان «للنقد الموضوعي» أوجه نفع أخرى غير هذا، فقد تمكن دلبروك، بهذه الدراسات النقدية أن يعيد تصوير مراحل المعارك وتفاصيلها في تنظيم منطقي، وكان لنجاحه في هذا التصوير تأثير كبير على القسم التاريخي في هيئة أركان الحرب الألمانية، وقد عنى الـچنرال جرونر بتحقيقات دلبروك لنظام السير المائل، هذا التنظيم الذي جعل عملية التطويق عملية ممكنة مستطاعة[2].

على حين أنه من المعروف أن الوصف الفني الذي قدمه دلبروك لحركة التطويق في كانِّي Cannea قد أثر إلى حد بعيد في نظريات الكونت شليـڤـن[3]، ولكن لا شك أن دراسة دلبروك لمعركة مراثون ـ والتي هي النموذج الجيد لابراز مهارته في إعادة بناء تفاصيل المعارك القديمة ـ توضح في تصوير جيد

---

(١) Geschichte der Kriegskunst, I, v.

(٢) Am Webstuhl der Zeit, p. ٣٨.

نظام السير المائل في المعركة استخدمه ابامينوندا الطيبي Epaminondas لأول مرة في التاريخ وقد طبق فردريك الأكبر نفس الأصول في لوثين سنة ١٧٥٧ راجع الحديث عن ابامينوندا في كتاب: Geschiche der Kriegskunst I, ١٣٠ – ١٣٥.

(٣) Geschichte der Kriegskunst, I, ٢٨١ - ٣٠٢

Graf Schlieffen, Cannae (Berlin, ١٩٢٥), p. ٣

راجع أيضًا الفصل الثامن (الكتاب الثاني) رواد الاستراتيـچية.

اعتقاده بأنه: (لو عرف تسليح وأساليب القتال للجيوش المتضادة، ثم عرف بعد ذلك طبيعة الأرض والتي لها أهمية كبيرة على سير المعركة، فإنه ولا شك يستطيع أن يعيد تصوير سير المعركة من وجهة عامة)(١).

كان جيش الإغريق في (مراتون) يتكون من مشاة ثقيلي التسليح يتشكلون في «ڤالاناكس» بدائي محدود الطاقة للمناورة، ومن ثم اقتصرت تحركاته على تحركات أمامية بطيئة، وكان في مواجهته جيش آخر أقل منه عددًا ولكنه يتكون من خيالة ورماة السهام جيدي التدريب، وقد كتب هيرودوت أن الإغريق كسبوا المعركة بالقيام بالاقتحام عبر سهل مراتون لمسافة ٤٨٠٠ قدم فسحقوا قلب المحط الفارسي؛ وقد أشار دلبروك إلى أن هناك استحالة بدنية في هذا، فتبعًا لكتاب التدريب الألماني الحديث لا يستطيع الجندي الذي يحمل عتاده كاملاً أن يعدو لأكثر من دقيقتين ولمسافة بين ١٠٨٠و ١١٥٠ قدمًا، ولم يكن الأثينيون أخف عتادًا من الجندي الألماني الحديث وأنهم كانوا يواجهون عبئين آخرين:

أولهما: أنهم لم يكونوا جنودًا محترفين، بل كانوا مدنيين تجاوز أغلبهم حد السن للتجنيد للجيوش الحديثة.

وثانيهما: أن الـڤالاناكس حشد متقارب الصفوف من الجنود إلى حد أن التحركات السريعة من أي نوع كانت تعتبر مستحيلة.

---

(١) Geschichte der Krieskunst, II, ٨٠.

وقد استخدم دلبروك هذا الأسلوب ليس فقط في دراسة معركة مراتون بل ولإعادة تصوير معركة تويتوبورجر ڤالد Teutoburger Wald (تويتوبورجر ڤالد سلسلة حية لشرق ويستڤاليا هزم فيها الألمان الرومان سنة ٩ بعد الميلاد، معجم ويبستر ص١٥٠٧) (المترجم).

وفي ضوء هذين العبئين الإضافيين على عاتق الأثينيين فإن محاولة القيام باقتحام بهذه الكتلة من الـﭬالاناكس ولمثل هذه المسافة لمحاولة تحول التشكيل النظامي إلى مجموعات من الغوغاء غير المنظمين يستطيع الفرس المحترفون أن يمزقوهم دون ما جهد[١].

ولقد كان من الواضح أن التكتيكات التي وضعها هيرودوت مستحيلة، بل وتكون أكثر استحالة عندما نذكر أن الـﭬالاناكس الإغريقي كان ضعيفًا في جناحيه، ومن ثم فإن خروجه للميدان المكشوف يمكن فرسان الفرس من الإحداق به وتحطيمه، على أنه قد وضح لدلبروك بدرجة أكبر أن المعركة لم تحدث قط في سهل مراتون نفسه بل في وادي صغير للجنوب الشرقي منه، حيث حمى الإغريق جانبهم بالتلال والغابات ومن ثم كانوا بمنجاة من حركة تطويق يقوم بها العدو.

قد تعطلا عن الاشتباك لأيام، توضح أن ملتيادس Miltiades[*] القائد

---

(١) يزعم أولريك ﭬون ويلا موتيز لدعم قصة هيرودوت أن الإلهة أرتيمسيس منحت الإغريق القوة للقيام بهذا الاقتحام، وعرض في مناقشته نقدًا عنيفًا للعلماء والباحثين الذين قللوا من المعونة العسكرية التي أسهمت بها الإلهة؛ على أن رفض دلبروك لتقبل هذا التفسير أدى إلى مناقشة عنيفة لا بينه وبين ويلاموتيز بل مع كرومايير الذي هب لمعاونة ويلاموتيز، وقد دارت هذه المعركة الكلامية على صفحات المجلة التاريخية:

Hestorische Zeitschrift Preussische Jahrbücher (CXXI, ١٥٨f)

وعلى صفحات التقويم البروسي، وكالكثير من الدراسات التي عارض فيها دلبروك آراء غيره من الباحثين تركت المناقشة الجانبين المشتركين فيها خصومًا حتى النهاية.

(*) ملتيادس (ملتيادا) قائد أثيني، كان أحد العشرة الذين وقع الاختيار عليهم ليتولى أحدهم قيادة جيش أثينا ضد الفرس، نصح بانتظار الفرس في مراتون، وقد أدى هذا إلى نجاحه في الانتصار على الفرس وإعادة الاستيلاء على مجموعة جزر سيكلاديز Cycledes في بحر ايجه ولكنه أخفق في إعادة الاستيلاء على بيروس، جرح في المعركة ومات بأثينا=

الأثيني تخير موقعًا قويًا مكنه من اتخاذ الوضع التكتيكي للجيش الأغريقي. ويعتبر الموقع بوادي (پرانا) Brana الموقع الوحيد الصالح لهذه المعركة فضلاً عن أن موقع پرانا يسيطر على الطريق الوحيد إلى أثينا، وكان من الضروري ليصل الفرس إلى أثينا أن يهاجموا جيش ملتيادس أو أن تضيع عليهم كل الثمار التي حصلوا عليها من قبل، وقد تخيروا مهاجمة الموقع؛ وهنا يتضح التفسير المنطقي للمعركة، فإن الفرس برغم قلة عددهم وبرغم عدم قدرتهم على استخدام تكتيكات التطويق والدوران حول الأجناب اضطروا للقيام بهجوم أمامي.

وفي اللحظة الحاسمة تحول ملتيادس من الدفاع إلى الهجوم وسحق قلب الخط الفارسي واكتسح الميدان كله[١].

والواقع أن «تاريخ فن الحرب» لا يزيد ـ بالنسبة للقارئ العادي، كغيره من المؤلفات الكثيرة التي سبقته ـ عن مجرد مجموعة مقتطفات عن المعارك، ولكن هذه العناية التي بذلها دلبروك لإعادة تصوير المعارك في تجسيم واضح ملموس كانت وسيلة ضرورية لتحقيق الغرض الأساسي الذي استهدفه في كتابه، فقد أحس دلبروك أن الباحث بدراسته للمعارك الرئيسية يستطيع أن يحصل على صورة جيدة لتكتيكات العصر، وبذلك يستطيع أن ينتقل لتحقيق وبحث المشكلات الأوسع والأعم[٢]، ذلك لأنه للمعارك الرئيسية أهميتها ليس فقط لتكشف لنا طبيعة العصور التي حدثت فيها، بل في أنها تعتبر النقاط الأساسية في قصة تقدم وتطور الفن العسكري،

=سنة ٤٨٩ ق. م.

(١) Geschichte der Kriegskunst. I, ٤١ – ٥٩.

(٢) نفس المرجع ج١ ـ ص٤١٧ .

أو بمعنى أدق هي نقاط التحول في مراحل هذا التطور المتتابع الحلقات لتقدم الفن العسكري.

ونستطيع أن نقول بأن دلبروك ـ يشبه في صورة ما الضابط الصغير الذي قدمه بروست في رواياته ـ كان يؤمن بأن معارك العصور القديمة هي «المرجع الذي تشتق منه وتستند إليه دراسته لمعارك العصر الحديث»، وأنه بإعادة تجسيم المعارك الفردية يستطيع متابعة التاريخ الحربي ومن ثم مكنه نقده الموضوعي من تطوير مناهجه الثلاثة الرئيسية، هذه المناهج التي أعطت عمله معنى ووحدة وتماسك لم توجد كلها في أي مؤلف سابق عرض لنفس هذا الموضوع الدراسي، وبخاصة في دراسة تطور الصور التكتيكية من عصر الفرس إلى عصر نابليون، ودراسة العلاقة المتداخلة بين الحرب والسياسة في التاريخ، وفي تقسيم الاستراتيـچية إلى صورتين اثنتين أساسيتين.

وقد اعتبر وصف دلبروك لتطور التشكيلات التكتيكية واحدًا من أبرز ما أسهم به من دراسات في الفكر العسكري[١]، فلقد عني دلبروك بالكشف عن أسباب السيادة العسكرية للرومان في العالم القديم، وقد انتهى في بحثه لمعرفة سبب هذه السيادة إلى أن نجاح الرومان إنما يستند إلى كمال تشكيلاتهم التكتيكية، والذي كان التطور التدريجي من الـڤالاناكس

(١) F. J. Schmiet, Konrad Molinski and Siegried Mette, Hans Delbrueck: der Historikar und Politiker (Berlin, ١٩٢٨) p. ٩٦

Eugen Von Frauenholz, Entwicklungsgeschichte des deutschen Heerwesens, II, p. VII.

F. J. Schmiet, Konrad Molinski and Siegried Mette, Hans Delbrueck: der Historikar und Politiker (Berlin, ١٩٢٨) p. ٩٦.

Eugen Von Frauenholz, Entwicklungsgeschichte des deutschen Heerwesens, II, p. VII.

الإغريقي البدائي إلى التشكيل التكتيكي المنسق الذي استخدمه الرومان والذي جمع «الطابع الضروري لمراحل تطور الحرب القديمة»[(١)].

وقد ناقش دلبروك في تحوله إلى دراسات العصر الحديث أن إحياء التشكيلات التكتيكية ـ والتي لا تعتبر مخالفة لتشكيلات الرومان ـ في الحروب السويسرية / البورجندية ثم تطورها إلى الكمال في عصر نابليون، هو الذي أعطى التاريخ الحديث هذه الوحدة الحالية التي له.

وكانت معركة «كانِّي»[(٢)] Cannac حيث تغلب القرطاجنيون بقيادة هانيبال على الرومان في أكمل معركة تكتيكية لا مثيل لها من قبل، نقطة التحول في تاريخ صناعة الحرب القديمة.

وهنا يعرض دلبروك لمناقشة: كيف استطاع الرومان أن ينتعشوا من هذه الهزيمة، وأن ينتصروا على القرطاچنيين وأن يحققوا السيادة على كل العالم القديم؟

والواقع أن الإجابة عن هذا السؤال إنما تكمن في تطور الـڤالاناكس، وفي «كانِّي» تشكل مشاة الرومان في كتلة واحدة تماثل تلك التي كسبت معركة مراتون، وكان الضعف الأساسي للـڤالاناكس هو الذي ألقى بالجيش الروماني بين ذراعي هانيبال، فإن الجانبيين المعرضين وعدم قدرة مؤخرة الرومان القيام بالمناورة مستقلة عن الجيش الروماني كله بسبب عدم استطاعة الرومان منع خيالة القرطاچنيين من القيام بتكتيكات التطويق؛ ولكن حدثت في السنوات التي تلت كاني عدة تغييرات أساسية في تشكل

(١) Geschichte der Kriegskunts, II, ٤٣.

(٢) نفس المرجع ج١ هامش ص ٣٣٠.

الرومان للمعركة، فقد جمع الرومان الـﭬالاناكس أولاً في كتلة واحدة، ثم قسموه إلى قولات Treffen، وعادوا فزادوا من تقسيمه إلى أقسام تكتيكية صغيرة يمكن في بعض الأحوال أن تتشابك متصلة ببعضها فتتكون عن هذا كتلة متحدة متماسكة لا تخترق، كما يكن في أحوال أخرى أن تغير من طابع تشكيلها في مرونة كاملة، فتتقسم وتتوزع، وتدور في هذا الاتجاه أو ذاك(١).

وقد يبدو هذا التطور للمحدثين ممن يدرسون صناعة الحرب شيئًا طبيعيًا إلى حد أنه لا يكاد يستحق الملاحظة ولا أن يثير الاتنباه، ومع هذا فإن تحقيقه أو تنفيذه كان من الصعوبة بمكان، وكان الرومان وحدهم دون كل الشعوب القديمة هم الذين استطاعوا أن يحققوا هذا النجاح وهم لم يستطيعوا هذا إلا نتيجة لتجارب استمرت لمائة عام تغير الجيش فيها من مدنيين إلى محترفين، ونتيجة لتطبيق الضبط والربط الجيد الذي كان خاصية وميزة النظام الروماني(٢).

ولقد غزا الرومان العالم يوم ذاك، لا لأن جنودهم كانوا أشجع من خصومهم، بل لأنهم توافرت لهم ـ نتيجة للضبط والربط ـ وحدات تكتيكية أقوى(٣).

وكان الألمان وحدهم هم الذين استطاعوا النجاة من غزو الرومان، ولقد استطاعوا هذا بالمقاومة التي مكن منها الضبط والربط الطبيعي المتوارث في نظمهم السياسية وتبعًا لأن «القول» الألماني المقاتل

---

(١) نفس المرجع ـ ج١ ص٣٨٠ .

(٢) نفس المرجع ـ ج١ ص٣٨١، انظر أيضًا ج١ ص٢٥٣، فقد كان الرومان هم أول من أدرك تمامًا معنى قوة النظام والضبط والربط.

(٣) نفس المرجع ج٢ ص٤٣ .

Gevierthaufe كان مجموعة تكتيكية لها خطرها[1]، وبلا شك أن الألمان قد تعلموا ـ في مسير حروبهم مع الرومان ـ كيف يقلدون تجمع أو تكتل اللـچيون الروماني، وبذلك استطاعوا أن يوجهوا «قولاتهم» لتقوم بالمناورة منفصلاً بعضها عن بعض، أو أن يجمعوها في كتلة واحدة تبعًا للظروف[2].

ومع اضمحلال الدولة الرومانية وتحول الإمبراطورية إلى الوحشية (البربرية) انتهى التقدم التكتيكي الذي أمكن تحقيقه منذ أيام ملتيادس Miltiades، فقد أضعفت الفوضى السياسية التي تبعث حكم سيـڤيري Severi ضبط وربط الجيش الروماني وقللت تدريجيًا من كمال تشكيلاته التكتيكية[3]، وفي نفس الوقت لم يعد من الممكن ـ بسبب انضمام الكثيرين من المتبربرين إلى صفوف الجيش الروماني الاستمرار على استخدام تشكيل المعركة المجتمع المتماسك والذي تم تخطيطه على مر القرون، ولقد أوضح التاريخ أن للمشاة الميزة على الخيالة لو نظمت الوحدات المترجلة في وحدات تكتيكية قوية، ولكن مع اضمحلال الدولة الرومانية ومع استمرار تحول التكتيك من سيء إلى أسوأ بدأت الإمبراطوريات المتبربرة في الغرب ـ كما بدأ في جيش چوستنيان ـ تميل إلى استبدال وحدات المشاة المترجلة بقوات راكبة ثقيلة التسليح[4] ومع تفضيل هذا الاتجاه انتهت الأيام التي كانت تكتيكات المشاة هي التي تقرر نتائج المعارك ودخلت أوروبا عصرًا

(١) نفس المرجع ج٢ هامش ص٤٥ .

(٢) نفس المرجع ج٢ هامش ص٥٢ .

(٣) نفس المرجع ج٢ ص٢٠٥، وهذا الفصل هو الفصل الأساسي في المجلد الثاني من الكتاب وقد وسم بعنوان:

Niedergang und Auflösung des römischen Kriegswesens.

(٤) نفس المرجع ج٢ هامش ص ٤٢٤ .

طويلاً سيطر فيه تعداد وحدات الخيالة الثقيلة التسليح حتى ليكون التاريخ الحربي وقفًا على الفرسان ذوي الدروع[١].

ولقد اتهم دلبروك بإصراره وتعضيد فكرة أن تطور الفن العسكري قد توقف تمامًا عند اضمحلال روما، وأنه بدأ يتابع سيرته الأولى من جديد مع عصر الإحياء (عصر النهضة)[٢]، ***والواقع*** أن لهذا الاتهام نصيبه من الحقيقة فإن العامل الفعال في كل الحروب منذ أيام شرلمان إلى ذروة قتال المشاة في الحروب السويسرية/ البورجوندية كان الجيش الاقطاعي، ولم يكن هذا الجيش في رأي دلبروك تشكيلاً تكتيكيًا فقد كان يتوقف على خاصية القتال في المحارب الفرد، ولم يكن يتوافر في الجيش الاقطاعي أي أثر للضبط والربط، ولا وحدة للقيادة، ولا تباين له أثره في التسليح، ولم يحدث في طوال هذا الأمد من السنين أي تقدم تكتيكي، ويبدو أن دلبروك كان تواقًا لأن يتمشى مع حديث مارك توين في كتابه Connecticut Yankee من أننا: «عندما نصل إلى مرحلة تصوير النتائج فإننا لا نستطيع أن نميز بين قتال وقتال، ولا أن نعرف من الذي كان يضرب ومن الذي كان يتلقى الضربات» صحيح أن الفرسان الإنجليز قد ترجلوا في معركة كريسي Crecy، وخاضوا غمار معركة دفاعية، وأن الفرسان المترجلين مرة أخرى في اجينكورت Agincourt قد قاموا بالهجوم مترجلين، ولكن هذا مجرد حوادث منفصلة، ولم تكن بحال ما تقديرًا مبكرًا لتطور المشاة الحديثة[٣].

(١) نفس المرجع ج٢ ص٤٣٣ .

(٢) T. F. Tout in English Historical Review, XXII (١٩٠٧), ٣٤٤ – ٣٤٨.

(٣) Geschichte der Kriegskunst, III, ٤٨٣.

ويمكن الرجوع إلى كتاب Tout لمناقشة نقد عميق لآراء دلبروك عن صناعة الحرب في القرون الوسطى.

وقد ولدت المشاة المستقلة، المنفصلة، القادرة على العمل وحدها، ولدت من جديد بين السويسريين في القرن الخامس عشر: ونقابل في معارك لوپن Laupen، وسمباخ Sempach(*)، وجرانسون Granson، ومورتن Murren، ونانسي Nancy مشاة مترجلين في تشكيلات يمكن مقارنتها بالـڤالاناكسي والليـچيون[١]؛ وقد شكل حاملوا الفؤوس والبلط السويسريون أنفسهم في وحدات تشبه القولات الألمانية[٢] Geviethaufe، وقد استطاعوا في حروبهم ضد البورجونديين أن يطبقوا تكتيكات التجمع التي استخدمها الليـچيون الروماني؛ ففي سمباخ على سبيل المثال تقسم السويسريون إلى قسمين: إحدهما احتل موقعًا دفاعيًا لتثبيت قوات العدو الراكبة على حين قام القسم الثاني بتوجيه ضربة قاضية على جنب العدو[٣].

وكان إحياء التشكيلات التكتيكية ثورة عسكرية تقارن بتلك التي جاءت بعد معركة «كانِّي»، وكان هذا الإحياء ـ لا إدخال الأسلحة النارية ـ هو الذي قضى على حروب الإقطاع، ففي كل من معارك مورتن وجرانسون ونانسي استخدمت الأسلحة الحديثة ولكن لم يكن لهذا الاستخدام تأثير في نتيجة المعركة[٤].

ومع العودة إلى الوحدة التكيتكية للمشاة على أساس أنه في الوحدة الحاسمة في الحرب بات الجنود الراكبون مجرد قوات راكبة لها نفعها، ولكنها

(*) سمباخ في منطقة «لوسرن» اشتهرت بالنصر الذي حققه السويسريون على النمسويين.

(١) راجع الفصل الأول من الكتاب الأول (رواد الاستراتيـچية الحديثة) وراجع أيضًا Geschichte der Kriegskunst, III, ٦٦١.

(٢) نفس المرجع ج٣ ص٦٠٩ .

(٣) نفس المرجع ج٣ ص٥٩٤ .

(٤) نفس المرجع ج٤ ص٥٥ .

لا تزيد عن اعتبارها جزءًا إضافيًا ملحقًا بالجيش، وقد ناقش دلبروك هذا التطور كما ناقش تطور المشاة الحديثة في الجيش العامل المحترف في المجلد الرابع من كتابه، وأكمل مناقشته بحديث خرج فيه إلى أن الثورة الفرنسية هي التي مكنت من قيام الثورة في فن القتال (التكتيك)[١].

وهذه العناية التي يوجهها دلبروك لمناقشة البروز الفجائي للتشكيلات التكتيكية لا يعطي طابع الاستمرار لدراساته للتاريخ العسكري فحسب، بل ويمكن أيضًا من تصوير الرأي (المذهب) الذي اعتبره دعامة كتابه، ألا وهو: «الرابطة القوية بين السياسة والحرب»؛ ولقد أشار دلبروك بأنه في كل فترة من فترات التاريخ كان تقدم السياسة وتطور التكتيك برتبطان وثيقًا، «ولقد تطور الـڤالاناكس الإغريقي في حكم الملوك المقدونيين في حال تختلف تمامًا عن تطور الـڤالاناكس الروماني في الجمهورية الرومانية الأروستقراطية، حيث تطورت تكتيكات الجماعة تبعًا للتغير الدستوري؛ ومرة ثانية قاتل «قول المائة» الألماني ـ تبعًا لطبيعة تكوينه ـ في أسلوب وبنظام يختلف عن قتال الجماعات الرومانية»[٢].

وعلى سبيل المثال هزم الجيش الروماني في «كانِّي» لضعف تكتيكاته: ولكن الحقيقة التي يجب ألا تغفل أن الجيش الروماني بالإضافة إلى ضعف تكتيكاته كان مكونًا على أساس مدنيين أكثر من أن يكون مكونًا من جنود محترفين، هذا فضلاً عن أن دستور الدولة كان يقضي بأن تنقسم القيادة بين القنصلين[٣].

---

(١) راجع الفصل الثالث.

(٢) Geschichte der Kriegskunst, II, ٤٢٤.

(٣) نفس المرجع ج١ ص٣٠٥.

ومعنى هذا أنه كان للقنصلين حق توجيه وقيادة القوات المسلحة، وقد وضحت في السنوات التي تبعت «كانِّي» الحاجة لتوحيد القيادة، وفي سنة ٢١١ قبل الميلاد ـ بعد تجارب سياسية متباينة الأهداف والسمات ـ عين ب. س. شيبيو(*) قائدًا عامًا للجيوش الرومانية في إفريقية مع ضمان بتوليه هذا المنصب طوال الحرب، وكان هذا التعيين اختراقًا مباشرًا لدستور الدولة كما أنه كان بداية اضمحلال التعاليم والمبادئ الجمهورية، وهنا تبدو بوضوح العلاقة بين السياسة والحرب.

يقول دلبروك «وأهمية الحرب الفينيقية Second Punic War(**) في سجل تاريخ العالم أن روما قد بدأت تحولاً داخليًا زاد من إمكانياتها العسكرية بدرجة كبيرة»(١) ولكنه كان في نفس الوقت يغير من الطابع العام للدولة.

وكما كان العامل السياسي مبرزًا في كمال التكتيكات الرومانية فمن الممكن أن نفسر تفتت التشكيلات التكتيكية بدراسة معنى بها للتعاليم

(*) شيبيو أحد أفراد أسرة قديمة من الأسر الرومانية والتي كان فيها الكثيرون من رجال الدين، وللأسرة سجل حافل في تاريخ الدولة الرومانية الغربية.

(**) الحروب الفينيقية Punic War، الحروب بين روما وقرطاجنة والتي جاءت في ثلاث مراحل:

١ ـ ٢٦٤ ـ ٢٤١ قبل الميلاد. ٢ ـ ٢١٨ ـ ٢٠١ قبل الميلاد. ٣ ـ ١٤٩ ـ ١٤٦ قبل الميلاد.

وفي الحرب الأخيرة تم النصر النهائي لروما، والكلمة أصلًا من كلمة Phoenisian أي «فينيقية» نسبة إلى الفينيقيين السكان الأصليين لقرطاجنة، واستمرت اللغة الفينيقية لغة التخاطب في أجزاء من الإمبراطورية الرومانية الغربية حتى سنة ٥٥٠ بعد الميلاد.

(١) نفس المرجع ج١ ص٣٣٣ .

السياسية للإمبراطورية في عصر متأخر: فلقد كان للاضطراب السياسي والاقتصادي في القرن الثالث تأثير مباشر على التعاليم العسكرية الرومانية إذ «دمرت الحرب الأهلية المستمرة الدعامات القوية التي أبقت الجيش الروماني متماسكًا، ولم تكن هذه الدعامات غير الضبط والربط الذي أبقى لتشكيل اللـجيون قيمته وأهميته»[١].

ولم يضمن دلبروك كتابه «تاريخ فن الحرب» أي نقاش عام للعلاقة بين السياسة والحرب، ولكنه في تحركه وتنقله من مرحلة تاريخية إلى مرحلة تاريخية أخرى تَمَيَّ وضع الدراسات الخالصة للعسكرية في النطاق العام للدراسة كلها، مصورًا الارتباط الوثيق بين التعاليم السياسية وبين التعاليم العسكرية، وموضحًا كيف أن التغير في أحد النطاقين (الميدانيين) يؤدي بالضروري إلى تغير مماثل في الميدان الآخر.

وأوضح دلبروك أن الكلمة الألمانية Gevierthaufe إنما هي التعبير العسكري للتنظيم القروي (التنظيم الذي يقوم على أساس القرية) للقبائل الألمانية، كما أوضح كيف سببت حياة المجتمع الألماني اختفاء هذا التشكيل القبلي، وانتهاء استخدامه كوحدة تكتيكية[٢]، كما بين كيف أمكن تحقيق انتصارات السويسريين في القرن الخامس عشر نتيجة لاندماج العناصر الديمقراطية والعناصر الأرستقراطية في مختلف المجتمعات، ونتيجة اتحاد وانغمار نبلاء الأقاليم في جماهير الفلاحين[٣]، وكما أوضح كيف أن العامل السياسي في الثورة الفرنسية والذي كان نشوء فكرة الدفاع عن الوطن الأم

(٢) نفس المرجع ج٢ ص٢٠٩ .
(٢) نفس المرجع ج٢ ص٢٥ ـ ٢٨ .
(٣) نفس المرجع ج٣ ص٦١٤ .

قد أثار حمية جمهرة الجنود إلى الحد الذي مكن من تطور تكتيكات جديدة تلائم طابع العصر[١].

على أن الناس كانوا قد تقبلوا مبدأ ارتباط السياسة والحرب كحقيقة واقعة حتى قبل عصر دلبروك ولكن كان من الضروري أن تدرس هذه الحقيقة من كل زاوية وأن تصور بوساطة الحوادث الجارية، وكان الدور الهام الذي قام به دلبروك أنه صور في أسلوب متتابع منتظم العلاقة بين العامل السياسي والعامل العسكري في كل عصر.

وكانت أهم النظريات العسكرية التي خرج بها دلبروك قوله بأن الاستراتيـچية العسكرية يمكن أن تنقسم إلى قسمين أساسيين، وهذه النظرية التي صاغها دلبروك قبل طبع كتابه «تاريخ فن الحرب» بوقت طويل قدمها مجملة في أكثر من مكان من المجلدين الأول والرابع من كتابه[٢].

وقد آمنت غالبية المفكرين العسكريين في عصر دلبروك ـ بتأثير كتاب كلاوزيـڤتز «في الحرب» ـ بأن الغرض من الحرب هو التدمير الكامل لقوات العدو، وأن «المعركة» التي تحقق هذا الغرض هي بالتبعية نهاية كل استراتيـچية؛ وقد اقتنع دلبروك نتيجة لبحوثه الأولى في التاريخ العسكري بأن هذا اللون من التفكير العسكري لم يكن مقبولاً من وجهة عامة دائمًا، وأنه في عصور طويلة من التاريخ سيطرت على الميدان استراتيـچية تباين هذه تمامًا، وقد أدرك دلبروك أن كلاوزيـڤتز نفسه قد اعترف بإمكان وجود أكثر من نظام من النظم الاستراتيـچية، وفي مذكرة كتبها كلاوزيـڤتز سنة

(١) نفس المرجع ج٤ ص٤٧٤ .

(٢) نفس المرجع ـ ج١ ص١٠٠، ص٣٣٣ ـ ٣٦٣، ٤٢٦ ـ ٤٤٤ .

١٨٢٧ قال بأن هناك أسلوبين متضادين تمامًا لتوجيه الحرب وإدارتها: أحدهما يقوم على الإفناء الكامل للعدو، أما الثاني فهو الحرب المحدودة التي يكون فيها هذا الإفناء مستحيلاً إما بسبب الأهداف السياسية، وإما بسبب أن الجذب السياسي الذي أدى إلى الحرب صغير، أو بسبب أن الوسائل العسكرية لا تكفي لتحقيق هذا الإفناء[١].

ولم يعش كلاوزيڤتز طويلاً بالقدر الذي يمكنه أن يقوم بأكثر من أن يقرر وجود هذين القسمين للاستراتيچية، وقد تقبل دلبروك هذا التقسيم، وراح يفسر المبادئ التي تضمنتها كل من هاتين الصورتين من صور الحرب.

وقد أطلق دلبروك على الصورة الأولى - والتي وقف عليها كلاوزيڤتز كتابه «في الحرب» أسماها «استراتيچية الإفناء» Niederwerfungsstrategie والهدف الوحيد لهذه الاستراتيچية الوصول إلى المعركة الحاسمة، وكان على القائد أن يقدر أَمِنَ الممكن أن يقاتل هذه المعركة؟ أي أن يقاتل «باستراتيچية الإفناء» في حال معينة محددة.

وأطلق دلبروك على النوع الثاني «استراتيچية الإجهاد» Ermattungsstrategie ويتميز هذا اللون من الاستراتيچية عن اللون الأول، بأن لاستراتيچية الإفناء «قطب» واحد هو «المعركة» على أن لاستراتيچية الإجهاد قطبين هما: «المعركة» و «المناورة»، وتجيء بين هذين القطبين قرارات الاتجاه العام للحركة.

ولا تكون المعركة في «استراتيچية الإجهاد» هي الهدف الوحيد، بل

(١) راجع الفصل الخامس من كتاب «رواد الاستراتيچية الحديثة» ج١ - الحديث عن استراتيچية الإفناء.

تكون المعركة واحدة من الوسائل الكثيرة المتعددة المتساوية التأثير للحصول على النتائج أو الأغراض النهائية للحرب. ثم إنها ليست أكبر أهمية من احتلال الأرض أو من تدمير المحصولات وتعطيل التجارة والحصار الاقتصادي؛ ثم إن هذه الصورة الثانية من صور الاستراتيـچية ليست مجرد صورة أخرى تباين الصورة الأولى، وليست كذلك بأقل أهمية منها في مراحل معينة من التاريخ كانت هي الصورة الوحيدة التي يمكن استخدامها بسبب العوامل السياسية أو بسبب صغر حجوم الجيوش؛ هذا عدا أنها (استراتيـچية الإجهاد) تفرض على القائد واجبًا له ذات الصعاب التي تفرضها استراتيـچية الإفناء، ومع النقص في الموارد المحدودة فإن القائد باستخدامه لاستراتيـچية الإجهاد يجب أن يقرر أفضل وسيلة لتحقيق الغرض الذي يستهدفه، أن يقرر متى يقاتل ومتى يقوم بالمناورة؟ متى ينفذ قانون «الجرأة والمغامرة» ومتى ينصت لأوامر مبدأ «الاقتصاد في القوة»؟؛ ومن هنا يكون القرار في الواقع قرارًا موضوعيًا، والسبب الرئيسي لهذا أنه لا يمكن في أي وقت أن تكون كل الظروف والأحوال ـ وبخاصة ما يجري في معسكر العدو ـ معروفة تمامًا وبدقة وأن تتوافر المعلومات عنها ـ من مصادر موثوق بها.

والواقع أن القائد يجب بعد أن يقدر بعناية كل الظروف: الهدف من الحرب، القوات المتضادة، التيارات السياسية، شخصية قائد جيش العدو، الحكومة، الشعب المعادي المضاد، الشعب الذي ينتسب إليه القائد نفسه، بعد دراسة هذا بعناية يقرر القائد ما إذا كان من الأفضل خوض غمار المعركة أم لا.

ويستطيع القائد أن يصل إلى قرار بضرورة تجنب أي معركة كبيرة مهما

كان الثمن، ويستطيع أيضًا أن يقرر الاشتباك في المعركة كلما سنحت الفرصة، وبذلك لا يكون من فرق بين تقديره هذا وبين التقدير الناتج عن استراتيـچية ذات قطب واحد(١).

وكان الاسكندر، وقيصر، ونابليون من بين كبار القادة القدامي الذين اشتهروا باستراتيـچية الإفناء، ولكن في مقابلة هذا كان كل كبار القادة على السواء في مناصرتهم لاستراتيـچية الإجهاد، وقد ذكر دلبروك في مقدمة سادة استراتيـچية الإجهاد أسماء: بركليز، وبيلساريياس، والنشتايين، وچوستاڤ أدولف، وفردريك الأكبر(*).

وقد عرض دلبروك لسيل عارم من النقد لوضعه اسم فردريك الأكبر بين المجموعة الثانية، وكان أعنف ناقديه من مؤرخي هيئة أركان الحرب الذين يعتقدون بأن استراتيـچية الإفناء هي الاستراتيـچية الوحيدة الصحيحة، وأن فردريك الأكبر كان الرائد الذي سلك نابليون السبيل بوحيه وعلى هديه.

وقد أجاب دلبروك على هذا النقد بأن التمسك بوجهة النظر هذه إنما يعني الإساءة إلى فردريك؛ لأنه لو كان فردريك حقًا من الاستراتيـچيين

(١) H. Delbrück, Die Strategie des Prikles elaütertdurch die Strategie Friedrichs des Grossen (Berlin, ١٨٩٠), ٢٧ - ٢٨.
وفي هذا الكتاب قدم دلبروك أفضل توضيح استطاعه لصورتي الاستراتيـچية.

(*) والنشتاين Wallenstein or Waldstein (البرت ڤينيلاس أوف والنشتاين) دق فريد لاند قائد ألماني ولد سنة ١٥٨٣ في هيرمانس، قتل في ايجا Ega سنة ١٦٤٣، قام بدور كبير في حرب الثلاثين السنة.
بيلساريياس من قادة الإمبراطورية الرومانية الشرقية عاش من سنة ٥٠٥ إلى سنة ٥٦٥ بعد الميلاد. معجم ويبستر ص١٣٥. (المترجم).

الذين انصرفوا إلى استراتيـچية الإفناء لما كان من الممكن أن نفسر كيف أن فردريك ـ وتحت امرته ستون ألف جندي ـ رفض أن يهاجم جيشًا مهزومًا لا يزيد تعداد جنوده على خمسة وعشرين ألفًا، أو أن نفسر كيف أنه أيضًا في سنة ١٧٤٥ فضل بعد انتصاره العظيم في هوهنفريدبرج» Hohenfriedberg أن يعود ثانية إلى «المناورة»[١].

ولو كانت «استراتيـچية الإفناء» هي الفيصل الوحيد للحكم على خاصيات القائد لبدا فردريك في صورة باهتة لا قيمة لها[٢]، ومع هذا فإن عظمة فردريك إنما تكمن في أعطاف حقيقة أنه مع إدراكه بأن موارده ليست كبيرة بالقدر الذي يكفي لتمكينه من القيام بخوض غمار المعركة في كل فرصة فإنه كان قادرًا على استخدام مبادي استراتيـچية أخرى ليكسب الحروب التي يخوضها.

ولم يقنع ناقدو دلبروك بحججه وبالنقاط التي أثارها في جدله، وانضم لناقديه كولمار ڤون ديرجولتز، وفردريك ڤون برناردي[*] وبدأت حرب على الورق استمرت لعشرين سنة أو ما يزيد[٣].

---

(١) Preussische Jahrbücher CXV (١٩٠٤) ٣٤٦٨f.

(٢) كتب دلبروك في كتابه Strategie des Perikles مفاخرًا بأنه قد أوضح أن تطبيق مثل هذا «الفيصل» للحكم على حملات فردريك الأكبر ليثبت أن فردريك قائد من الدرجة الثالثة ولهذا فقد اتهم Prussian Landtag بالعمل لتقليل قيمة بطل قومي.

(*) كولمار ڤون دير جولتز: من قادة الجيش الألماني وخدم في إعداد الجيش التركي، وكان برتبة المشير مع قيامه بأعمال ياور ومستشار عسكري للسلطان العثماني، وله عدة مؤلفات أهمها «فن إدارة الحرب» وقد ترجم إلى العربية ونشرته وزارة الحربية والبحرية بالقاهرة سنة ١٩٥٠ من ترجمة العميد حامد نيازي.

(٣) نجد كل هذه المساجلات مع بيان الصحف التي نشرت بها مفصلة في: =

ولم يجهد دلبروك الذي يحب الجدل والمناقشة ولم يكل من الرد على ناقديه ودحض حججهم وتأكيد نظرياته وإثباتها بالدليل والبرهان، ولكن نظريته عن «استراتيـجية الإجهاد» لم يتقبلها الضباط الذين دربوا على تقاليد نابليون ومولتكة والذين آمنوا بأفضلية الحروب الحاسمة القصيرة الأمد.

ولكن النقاد العسكريين قد أخطأوا تمامًا إدراك عمق وأهمية نظرية دلبروك الاستراتيـجية، ولقد أوضح التاريخ أنه لا يمكن أن تكون نظرية استراتيـجية واحدة، صحيحة صالحة لكل عصر، فعلى مثال كل مراحل صناعة الحرب ارتبطت الاستراتيـجية وثيقًا بالسياسة وبالحياة وبقوة الدولة وفي حروب شبه جزيرة اليونان: الحروب البيلوبونيزية(*) Peloponnesian

---

Geschichte der Kriegskunst IV, ٤٣٩ - ٤٤٤=

راجع أيضًا كتاب ڤون برناردي Denkwürdigkeiten aus meinem Leben

طبع برلين سنة ١٩٢٧ الصفحات ١٢٦ ــ ١٣٣ ـ ١٤٣، على أن أهم نقد لنظرية دلبروك الاستراتيـجية كان نقد أوتو هنتز Otto Hintze في كتابه:

Delbrück, Clausewitz und die Strategie Friedrichs des Grossen Forsuchungen Zur Brandenburglichen und Preussischen Geschichte XXX III (١٩٢٠) ١٣١ – ١٧٧

ويعترض هنتز على الفواصل الحادة التي يرسمها دلبروك بين استراتيـجية عصر فردريك وبين استراتيـجية عصر نابليون، ويعتبر أن فردريك كان في فترة ما يطبق «استراتيـجية الإفناء» وفي فترة أخري يطبق «استراتيـجية الإجهاد»، ويناقش هنتز أيضًا تفسيرات دلبروك لنوايا كلاوزيـڤتز كما فعل هـ. روسينسكي H. Rosinski في كتابه: Historische Zeitschrift

راجع أيضًا إجابة دلبروك على كتاب هنتز:

Forschungen zur Brandenburgischen und Preussischen Gechichte XXXIII (١٩٢٠) ٤١٢ - ٤١٧.

(*) الحروب البيلوبونيزية نسبة إلى المسرح الذي دارت به في شبه الجزيرة الجنوبي لبلاد اليونان أسفل خليج كورنيث، وحدثت الحروب بين أثينا وإسبارطة لمدى طويل غطى سبعًا وعشرين سنة بين ٤٣١ ـ ٤٠٤ قبل الميلاد وانتهت الحروب بانتصار اسبارطة، وكان شبه الجزيرة مواطن الحضارة الميسونية Mycenean وحضارة إسبارطة القديمة.

Wars كان ضعف أثينا السياسي، بمقارنته بالضعف السياسي للعصبة التي واجهتها، هو الذي قرر صورة الاستراتيـچية التي اتبعها بركليز، ولو أنه حاول أن يتبع مبادئ استراتيـچية الإفناء كما فعل صولون فيما بعد لكانت النتيجة الحتمية هزيمته آليا[1].

وقد أثرت العلاقات السياسية المتوترة بين الإمبراطورية الرومانية والفرس في صياغة استراتيـچية حروب بليساريوس Blisarius في إيطاليا: «وهنا كانت السياسة هي التي توجه الحرب وهي التي ترسم الاستراتيـچية التي تتبع فيها»[2]؛ ومرة أخرى «تقررت استراتيـچية حرب الثلاثين السنة Thirty Years War تبعًا للعلاقات السياسية المتعقدة والدائمة التغير» واضطر قادة كـچوستاف أدولف ـ الذي لا جدل في شجاعته وجراءته ـ إلى خوض غمار حروب محدودة[3].

ولم تكن المعارك التي كسبها فردريك هي التي جعلت منه قائدًا عظيمًا، بل كانت فطنته السياسية وتنسيقه بين استراتيـچيته وبين السياسة الواقعية هما سبب هذه العظمة التي وصف بها وجرت من اسمه مجرى الأصل.

والواقع أنه لا يمكن أن يكون لأي أسلوب استراتيـچي كفاية ذاتية: بل إن مجرد محاولة هذا تفصلها تمامًا عن القرينة السياسية التي تربطها بها، ويكون رجل الاستراتيـچية (الاستراتيـچي) في هذه الحال، عاملاً مهددًا للدولة.

(١) Geschichte der Kriegskunst,I, ١٠١ f.

(٢) نفس المرجع ج٢ ص٣٩٤.

(٣) نفس المرجع ج ٤ ص ٣٤٦.

ويبدو أن الانتقال من الحروب الأسرية إلى الحروب الأممية، أي الانتقال من الحروب بين الأسر الحاكمة إلى الحروب التي تقف الأمم فيها موقف التضاد بعضها من بعض، وكذلك انتصارات سنة ١٨٦٤، ١٨٦٦، ١٨٧٠، وزيادة إمكانيات الحروب الأممية في العصر الحديث، يبدو أن هذه كلها إنما تثبت أن استراتيـچية الإفناء هي الصورة الطبيعية للحرب في العصر الحديث.

ويبدو أن دلبروك نفسه عاد في سنة ١٨٩٠ ـ برغم إصراره على نسبية الاستراتيـچية ـ فآمن بأن هذه حقيقة[1] ومع هذا ففي السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر تحولت جيوش الحقبة السادسة من القرن التاسع والتي قامت على ضغط حشد الجموع، تحولت إلى جموع بالملايين Millicnenheer، هذه الجموع التي خاضت غمار الحرب العالمية الأولى.

فهل لا يكون هذا التحول هو الذي جعل استخدام استراتيـچية الإفناء مستحيلاً وأرغم على العودة إلى مبادئ بركليز وفردريك؟

وهل لا تعتبر الدولة وكأنها تواجه خطرًا كبيرًا محققًا ما دامت هيئة أركان الحرب ترفض أن تعترف بوجود طريقة تبادلية وأسلوب آخر للحرب؟

لقد كان هذان السؤالان ـ اللذان وضحا في كل كتابات دلبروك ـ على كل شفتين عندما بدأت ألمانيا الحرب العالمية الأولى.

ـ ٣ ـ

ولما كان دلبروك أخصائي ألمانيا المدني الأول في الشئون العسكرية كان

---

(١) Strategie des Perikles, Chapter,I.

لكتاباته العسكرية في سني الحرب ١٤ ـ ١٩١٨ ـ تقديرها الكبير: وهو كمعقب عسكري لم تكن مصادره للمعلومات أفضل في صورة ما؛ مما توافر لغيره من كتاب الصحف والدوريات من مصادر، وكان مثلهم أيضًا مرغمًا على أن يعتمد على البلاغات الرسمية التي تصدرها هيئة أركان الحرب، وعلى المقالات والدراسات والقصص التي تنشرها الصحف اليومية عن سير الحرب، وعلى التقارير التي ترد من الدول المحايدة؛ فإذا كانت تقديراته للحرب قد امتازت بسعة التصور ودقة الفهم مما لا يتوافر عادة للمعقبين المدنيين فإن هذا يرجع إلى درايته بأصول الحرب الحديثة وإلى عمق تفهمه لها نتيجة لدراساته للتاريخ، وفي تعليقاته الشهرية التي كان ينشرها في Preussishe Jahrbücher يمكن أن نجد عرضًا للمبادئ التي رسمها ووصفها في كتاباته ومؤلفاته التاريخية، وبخاصة ما جاء عن نظريته في الاستراتيـچية وفي تأكيده للعلاقة التي تربط بين الحرب والسياسة[1].

وتمشيا مع استراتيـچية شليـڤـن اندفع الجيش الألماني في البلـچيك سنة ١٩١٤ بقصد تحطيم المقاومة الفرنسية في وقت قصير ليمكن نقل

(١) جمعت المقالات التي كتبها دلبروك في Preussische Jahrbücher في ثلاثة مجلدات وسمت بعنوان «الحرب والسياسة» Krieg und Politik (برلين ١٩١٨ ـ ١٩١٩)، وقد أضاف دلبروك للصورة الأصلية التي ظهرت بها المقالات لأول نشرها، أضاف بعض الملاحظات مع مجمل طريف لكل منها؛ وقد جاء أحسن نقد دراسي لكتابات دلبروك عن الحرب في المقال الذي كتبه الـچنرال ارنست بكفنك Ernest Buchfinck والتي وسمت بعنوان:

"Delbrücks Lehre, das Heer und der Weltkrieg", in Am Webstuhl der Zeit pp. ٤١ - ٤٩.

راجع أيضًا مقال م. ڤون هوبوهم M. Von Hobohm

"Delbrück, Clausewitz und die Kritik des Weltkrieges", Preussische Jahrbücher, CLXXXI (١٩٢٠), ٢٠٣ - ٢٣٢.

الضغط كله ضد روسيا، كان هذا التخطيط .. «استراتيـچية الإفناء» في أقوى صورها، وقد شعر دلبروك نفسه في الشهر الأول للحرب أن لهذه الاستراتيـچية نصيبها من الصحة، وكان دلبروك كأغلب الذين يتبعون دراساته لا يشعر بخوف من المقاومة الفرنسية، ذلك لأنه لن يكون للسياسة الفرنسية غير المستقرة إلا التأثير الضار الوبيل على التعاليم الفرنسية العسكرية، «فمن المستحيل أن يتوافر لجيش تولى أمره اثنان وأربعون وزيرًا في ثلاث وأربعين سنة، كفاية مع خاصية تنظيمية لها قيمة»[١].

ولم يشعر دلبروك بأن انجلترا قادرة على متابعة المقاومة فإن تطورها السياسي في الماضي لن يمكنها من تعبئة أكثر من قوة رمزية، فلقد كانت انجلترا تعتمد دائمًا على جيوش محترفة صغيرة العدد، وسيكون من المستحيل الاتجاه إلى التجنيد العام وسيكون هذا مستحيلاً من الناحيتين السياسية، والسيكلوچية: «إن كل شعب وليد تاريخه وماضيه، ولا يستطيع الشعب أن يتخلص من هذا بأكثر مما يستطيع الرجل أن يتخلص مما اكتسب في فتوته وشبابه»[٢].

وعندما توقفت حركة الاندفاع الألمانية عاجزة عن إدارك هدفها على مرمى حجر من هذا الهدف، وبدأت الفترة الطويلة لحرب الخنادق شعر دلبروك بثورة استراتيـچية لها أهميتها الكبيرة، فلما استمر هذا الموقف الحرج في الغرب وبخاصة بعد الفشل في ڤردون، ازداد اعتقاد دلبروك بضرورة

---

(١) Krieg und Politik. المجلد الأول ص٣٥ .

(٢) توضحت وجهات نظر دلبروك عن ضعف انجلترا كقوة عسكرية بدرجة كبيرة في مقال نشر في شهر إبريل سنة ١٩١٦ .
راجع: Krieg und Politik, I, ٢٤٣ - ff.

تعديل تفكير القيادة الألمانية العليا.

* * *

كانت الأوامر ـ على الأقل في الغرب ـ القيام بالدفاع وكان لهذه الحقيقة طابعها المميز؛ ذلك لأنه منذ بعيد قبل الحرب كان للهجوم الصدارة على غيره من مبادئ الحرب، وكان الإصرار على الهجوم والحديث عنه والتدريب عليه أبرز الصور في النظرية الاستراتيچية التي تحتضنها وتكفلها هيئة أركان الحرب الألمانية[1].

وكان من الواضح إذ ذاك أن مجريات الأمور في الجبهة الغربية تكاد تشبه مجرياتها في عصر «استراتيچية الإجهاد» «ومع أن هذه الحرب ـ الحرب العالمية الأولى ـ قد جاءتنا بالكثير مما هو جديد إلا أنه من الممكن أن نجد فيها عددًا من الأقيسة التاريخية، فعلى سبيل المثال: تقدم الاستراتيچية الفردريكية بما تستخدم من مواقع دفاعية لا تخترق مع المزيد من المدفعية ومع تحصينات الميدان ومع القرارات التكتيكية السريعة وعمليات الانسحاب (البعيدة المدى) الطويلة، وكل هذا لهو نموذج لا يمكن الخطأ في إدراك أنه يماثل الصورة العامة للحرب اليوم، حرب المواقع والتي تستند إلى محاولة إجهاد العدو المهاجم (Stellungs - und Ermattungskrieg)[2]؛ وهكذا لم يعد من الممكن في الغرب الاعتماد على المعركة الحاسمة ومن ثم يجب على ألمانيا أن تجد وسائل أخرى لتفرض رغبتها على العدو.

وفي ديسمبر سنة ١٩١٦ كان دلبروك يشير إلى أنه: «مهما كان الموقف

(١) نفس المرجع ج٢ ص٢٤٢ .

(٢) نفس المرجع ج٢ ص١٦٤، راجع أيضًا ج٢ ص١٧ .

العسكري في جانب ألمانيا فمن النادر أن تستطيع ألمانيا ـ مع استمرار الحرب ـ الوصول إلى المدى الذي يمكنها في بساطة من إملاء شروط السلم على الحلفاء[١]، فمن «غير المحتمل» إن لم نقل: «من المستحيل» أن تحقق الأسلحة الألمانية نصرًا كاملاً ساحقًا، ولكن هذا لا يعني أن ألمانيا لن تتمكن من كسب الحرب، فإن موقعها للداخل (أي على القطر لا على المحيط) لم يجعلها تفصل بين خصومها فحسب، بل وعاونها على الاحتفاظ بقوة المبادأة، وكانت قوتها من المناعة إلى الحد الذي ييسر لها إقناع أعدائها بأنها لا تقهر، وعلى حين أن الدفاع القوي الذي تقوم به ألمانيا في الغرب يفت من عزيمة الحلفاء فإن القيادة العليا قد حزرت فائدة القاء أقوى وحداتها تجاه أضعف الحلقات في حلف الغرب، أي ضد: روسيا وإيطاليا فإن الحشد الهجومي ضد روسيا سيكمل تحطيم معنويات جيوش القيصر كما قد يسبب قيام الثورة في سان بطرسبرج، ثم إن الهجوم الألماني/ النمسوي ضد إيطاليا لن يكون له التأثير المعنوي الكبير في انجلترا وفرنسا فحسب، بل ولربما يهدد مواصلات فرنسا مع شمال إفريقية[٢].

وكان دلبروك يعتقد يوم ذاك أن الاستراتيجية الألمانية يجب أن توجه لتحطيم الحلف الغربي، ومن ثم يعزل انجلترا وفرنسا. على أنه من الأهمية أيضًا ألا ينضم إلى الدول الغربية حلفاء جدد؛ ولهذا كان دلبروك دائمًا يعارض بقوة استخدام الغواصات استخدامًا واسع النطاق، وكان محقًا في خوفه من أن هذا الاستخدام سيسبب اشتراك الولايات المتحدة في

---

(١) نفس المرجع ج٢ ص٩٧ .

(٢) E. buchfinck, "Delbrücks Lehre, das Heer und der Weltkrieg" Loc. cit, p. ٤٨.

الحرب[١].

فإذا نظرنا إلى آخر ما في الدراسة التحليلية خاصًا بكسب ألمانيا الحرب، فإنه من الضروري ـ لتحقق ألمانيا هذا ـ أن توضح تفهمًا تامًا للحقائق السياسية الواقعية المؤثرة في الصراع العسكري، ولما كانت الحرب في الغرب قد تحولت إلى «حرب إجهاد» لا «حرب إفناء» فقد ازدادت أهمية العوامل السياسية، «فالسياسة هي العامل المحدد للعمل، ثم هي العامل الذي له السيادة على غيره وليست العمليات الحربية بأكثر من وسيلة من الوسائل التي تستخدمها السياسة»[٢]، ومن ثم يجب أن توجه الاستراتيچية السياسية لإضعاف عزيمة شعبي فرنسا وانجلترا.

***

وقد شعر دلبروك منذ أن بدأت الحرب أن ألمانيا قد قاست الأمرين ـ في الميدان السياسي ـ نتيجة ضعف استراتيچي حقيقي .. «ونحن بسبب سياستنا القصيرة النظر، بصبغ المناطق البولندية والدانيماركية من بروسيا بالطابع الألماني، اكتسبنا أمام العالم شهرة لا على أننا حماة الدول الصغيرة بل أننا مضطهدوها»[٣] فإذا ما أكد سير الحرب من هذه الحقيقة اكتسب أعداء ألمانيا تشجيعًا معنويًا يمكنهم من القضاء على أمل ألمانيا في النصر الكامل.

***

وتحول دلبروك للتاريخ وراح يناقش تاريخ نابليون كمثل يصلح

(١) Krieg und Politik, I, ٩٠, ٢٢٧ ff, ٢٦١.

(٢) نفس المرجع ج٢ ص٩٥ .

(٣) نفس المرجع ج١ ص٣ .

لتحذير الزعماء السياسيين الألمان، فإن الانتصارات الساحقة التي حصل عليها مكنت في نفس الوقت من تقوية عزيمة خصومه ومهدت الطريق لهزيمته، «ولعل الله - سبحانه وتعالى - يحول دون اتباع ألمانيا سبيل السياسة النابوليونية، فإن أوروبا تقف متحدة متماسكة في صمودها أمام ألمانيا، ولن تخضع ولن تستسلم للسيادة والسيطرة التي تريد أن تفرضها عليها دولة واحدة»[١].

وقد آمن دلبروك بأن غزو البلچيك كان ضرورة استراتيچية[٢]، ولكنه كان في نفس الوقت تحركًا غير محدود الطالع، ذلك لأنه أكد الشك في أن ألمانيا تهدف لابتلاع الدول الصغيرة؛ وقد بقي دلبروك من سبتمبر سنة ١٩١٤ حتى نهاية الحرب يطالب بأن تصدر ألمانيا بيانًا رسميا تنكر فيه اعتزامها ضم البلچيك إلى أراضيها عندما تنتهي الحرب، فإن انجلترا لن تقبل الصلح ما دامت تقدر خطر احتلال ألمانيا للساحل الغربي في الفلاندرز، والخطوة الأولى لإضعاف مقاومة الدول الغربية، هي إيضاح أن ألمانيا لا أطماع إقليمية لها في الغرب: وأن أهدافها في الحرب « لا تتعارض بحال ما من حرية وسيادة غيرها من الشعوب»[٣].

ولربما تكون أحسن السبل لإقناع الدول الغربية بأن ألمانيا لا تستهدف السيادة على العالم، أن تبدو ألمانيا دائمًا في مظهر الدولة التي لا تعترض قط على قيام مفاوضات للصلح، وقد وقف دلبروك في جانب مثل هذه الخطوة

---

(١) راجع Krieg und Politik ج١ ص٥٩ وكذلك المقال الموسوم بعنوان Das Beispiel Napoleons نفس المرجع ج٢ ص١٢٢ .

(٢) نفس المرجع ج١ ص٣٣ .

(٣) نفس المرجع ج٢ ص٩٧.

منذ أن قام الحلفاء بالهجوم المضاد الناجح على المارن في سبتمبر سنة ١٩١٤؛ وقد آمن بأن الحرب جاءت نتيجة للاعتداء الروسي، ولم يجد من سبب لتتابع فرنسا وبريطانيا القتال ضد الدولة الوحيدة (التي تحمي أوروبا وآسية ضد سيادة «المسكوف»[١]، فلما أن طال أمد الحرب ازداد إيمانًا بأن الرغبة الصادقة للمفاوضات قد تكسب لألمانيا نصرًا لا يمكن أن تحققه الأسلحة وحدها.

فلما اشتركت الولايات المتحدة في القتال تنبأ بهزيمة ألمانيا ما لم يستخدم السياسيون الألمان سلاح المفاوضات، ومن ثم تحمس دلبروك للتوصية التي أقرها الريشستاغ بالصلح في يوليو سنة ١٩١٧[٢]، إذ أحس أن المفاوضات تضعف من مقاومة الغرب بأكثر مما يمكن أن يضعفها هجوم ألماني جديد في الجبهة الغربية.

ولم يتطرق الضعف ـ ولا للحظة واحدة ـ إلى إيمان دلبروك بأن الجيش

(١) نفس المرجع ج١ ص١٨ .

(٢) أقر مجلس الريشستاغ التوصية بالصلح بأغلبية ٢١٢ صوتًا ضد ١٢٦ صوتًا، وقد جاء هذا القرار في الفقرة التالية:

«إن مجلس الريشستاغ يطالب بالسعي للوصول إلى تفاهم سلمي وتهادن مستمر دائم بين الشعوب، وأن صور الاضطهاد والتعسف الإقليمية والسياسية والاقتصادية والمالية لتناقض وتضاد مثل هذا السلم، ويعارض مجلس الريشستاغ أي مشروع يستهدف فرض حواجز اقتصادية أو يوجد كراهية بين الشعوب بعد الحرب، ويجب ضمان حرية البحار، وسيمهد، السلم الاقتصادي وحده، الأرض للتعاون والصداقة بين الشعوب، ويعمل الريشستاغ إيجابيا لإيجاد تنظيم دولي للقضاء وإقامة العدل بين الدول؛ ولكن ما دامت حكومات دول الأعداء تتباعد متنكرة لمثل هذا السلم، وما دامت تهدد ألمانيا وحليفاتها بالغزو والسيطرة، فمن الضروري أن يقف الشعب الألماني متحدًا صامدًا وأن يقاتل حتى يمكن تأمين حقوق ألمانيا وحليفاتها، ومع هذا الاتجاه لن يمكن أن تقهر ألمانيا».

الألماني أفضل جيش في العالم، ولكنه رأى أن هذه الأفضلية ليست بالقدر الكافي، وقد بقي طوال سنة ١٩١٧ يكرر الحديث في موضوع واحد ويدور حول فكرة واحدة: «من الضروري أن ننظر وجهًا لوجه إلى حقيقة أن العالم كله يتجمع في كتلة واحدة ضدنا، وإن حاولنا أن نخترق السجف لندرك الأسباب الأساسية لهذا الحلف العالمي فإننا ولا شك سنكبو وستتعثر في دوافع الخوف من سيادة ألمانيا على العالم كله، وسنجد أن الخوف من الطغيان أو الاستبداد الألماني واحد من أقوى العوامل التي تزيد من قوة العدو»[١]؛ وإلى أن يكن التغلب على هذا الخوف سيظل الموقف كما هو، ولن يتحقق هذا إلا باستراتيـجية سياسية تقوم على أساس إنكار الأطماع الإقليمية في الغرب، وعلى أساس الرغبة الصادقة في المفاوضة للصلح.

ولما كان دلبروك يرى أن مجرى الأمور في هذه الحرب الحالية يمكن أن يقارن في صورة ما بمجرياتها في القرن الثامن عشر كان تقدير قيمة كبيرة للمراحل السياسية للحرب يتمشى تمامًا مع مبادئ استراتيـجية الإجهاد التي استخدمها فردريك الأكبر.

والواقع أن الجيش الألماني عندما اتجه إلى ميدان القتال سنة ١٩١٤ فإنه كان يلقى بكل ما يتوافر له من جهد ليكسب المعركة الحاسمة، ولكنه فشل، وهنا كان في استطاعة دلبروك أن يضع العمليات الحربية في المرتبة الثانية فهي لم تعد في حد ذاتها نهاية، بل وسيلة، فإذا ما فشل محترفوا السياسة الألمان أولاً في اقناع الدول الغربية بأن ألمانيا جادة في رغبتها في الصلح كان الهجوم الألماني الجديد في الغرب الوسيلة لوضع حد لهذا التردد من جانب

---

(١) راجع:

Krieg und politik, II, ١٨٧

الحلفاء؛ إن مثل هذا التنسيق بين الجهد الحربي والبرنامج السياسي، هو وحده الذي يستطيع أن يصل بالحرب إلى نهاية ناجحة.

وفي غمرة رغبة دلبروك بالوصول إلى استراتيـجية سياسية يكون لها أثرها في إضعاف مقاومة العدو، لم يلبث أن أحس بالخيبة فقد وضح له في سنة ١٩١٥ أن قسمًا كبيرًا من الرأي العام الألماني كان يعتبر الحرب وسيلة للحصول على أرض جديدة، ليس فقط في شرقي أوروبا، بل وفي غربيها أيضًا.

وعندما طالب دلبروك بإصدار تصريح يؤكد اعتزام ألمانيا الجلاء عن البلـجيك عند انتهاء الحرب هوجم بعنف واتهمته «دوتش تاجسيتنج» Deutsche Tageszeitung «أنه يتلقى الوحي من أعدائنا في البلاد الأجنبية»[١].

ولم تقلل تطورات الحرب من الرغبة في الكسب عن طريق السلب والاغتصاب، وكان لحزب«الوطن الأب» Vaterlandespartei ـ أهم الجماعات التواقة لكسب أراض جديدة ـ نفوذ كبير في الحكومات التي حكمت ألمانيا على التوالي، ولهذا فإن الحكومة الألمانية لم تمتنع فحسب عن إصدار أي تصريح خاص بالبلـجيك والجلاء عنها، بل ولم توضح الحكومة قط موقفها من مفاوضات الصلح، وعندما نوقشت التوصية الخاصة بالسلم سنة ١٩١٧ هدد هندنبرج ولودندورف بالاستقالة لو قام الريشستاغ بهذا الإجراء، فلما أن مرت التوصية بأروقة مجلس الريشستاغ مفككة كان نفوذ القيادة الألمانية العليا كبيرًا إلى حد أن الحكومة لم تجسر قط على أن تجعل

(١) راجع: R. H. Lutz «سقوط الإمبراطورية الألمانية» مطبوعات مكتبة هوڤر عن الحرب ـ الكتاب رقم ١ ص٣٠٧.

هذه التوصية دعامة سياستها، وهكذا، فإنه نتيجة لما أطلق عليه «أزمة يوليو سنة ١٩١٧»، تشجعت الدول الغربية على الاعتقاد بأن محترفي السياسة في الريشستاغ ليسوا مخلصين فيما يدعون إليه، كما آمنت الدول الغربية بأن زعماء ألمانيا مازالوا يتطلعون ويستهدفون محاولة السيادة على العالم.

وقدر دلبروك أزمة يوليو سنة ١٩١٧ تقديرًا أعمق وأبعد مدى، فقد أوضحت الأزمة إجداب دوائر الحكومة الألمانية وعجزها عن إبراز من يصلح للزعامة السياسية، على حين كانت السلطات العسكرية تبدي اتجاهًا متزايدًا نحو السيطرة على تشكيل سياسة الحكومة وصياغتها.

ولم يكن الحزب العسكري الألماني معروفًا قط في النطاق السياسي ولم تعرف لأفراده خبرة سياسية ولا قدرة على معالجة المسائل السياسية، ولقد عاشوا في الماضي يخضعون لنصيحة رئيس الدولة وتوجيهاته السياسية، وقد كيف چينسيناو وجهات نظره لتتمشى مع وجهات نظر هاردنبرج، وكذلك مولتكة فإنه ـ برغم تردده أحيانًا ـ قد أحنى رأسه لقرارات بسمارك العسكرية، ولكن الآن ـ في خضم أعظم أزمة تواجهها ألمانيا تعمل السلطات العسكرية للسيطرة على كل شيء دون أن يكون بين أفرادها رجل واحد يتوافر له تفهم صحيح للضروريات السياسية للعصر الحديث.

وكان هندنبرج ولودندورف ـ مع كل ما توافر لهما من مواهب عسكرية ـ يفكران فقط في ضوء تحقيق نصر عسكري حاسم على الدول الغربية، يفكران في معركة إفناء تلقي بالدول الغربية مترنحة بين أيديهما، ومع تزايد الشعور باليأس كتب دلبروك: «لقد واجهت أثينا نكبة في الحروب البيلوبونوزية بسبب أنه لم يتوافر لها من يخلف بركليز، ونحن في ألمانيا لدنيا الكثير من الرجال من طراز صولون، وكل من يؤمن بالشعب

الألماني يجب أن يثق بأنه ليس في ألمانيا عظماء الاستراتيچيين فحسب، بل ويثق بأنه بين أبنائها السياسيون الموهوبون الذين يحتاج إليهم العصر ليتسلموا مقود توجيه السياسة الخارجية»[1]؛ ولكن هؤلاء السياسيين لم يتوافروا قط، وإن توافر الرجال من طراز صولون.

وبالتبعية راقب دلبروك بداية الهجوم الألماني في الغرب لسنة ١٩١٨ دون أن تتوافر له أي ثقة به، وقد كتب يوم ذاك: «من الواضح أنه لا يمكن إحداث أي تغيير في المبادئ التي عرضتها هنا منذ بداية الحرب، ومن ثم فقد بقي الانقسام والتوزع واضحًا في أهدافنا للحرب في الغرب»[2].

وقد أكد دلبروك أن الاستراتيچية ليست شيئًا مجردًا وحده فهي لا يمكن أن تنفصل عن الاعتبارات السياسية: «وكان من الضروري أن يصحب الهجوم الاستراتيچي العظيم وأن يدعم ويعضد بهجوم سياسي مماثل يوجه ضد الجبهة الداخلية لأعدائنا بنفس الطريقة التي عمل بها هندنبرج وجنوده في الخطوط الأمامية»؛ *والواقع* أنه لا يمكن تقدير ماذا كانت تكون النتيجة لو أن الحكومة قد أعلنت فقط قبل بدء الهجوم بأربعة عشر يومًا عن رغبتها في مفاوضات الصلح؛ على أن يتم الجلاء عن البلچيك عقب انتهاء هذه المفاوضات، صحيح أنه لربما كان لويد چورچ وكليمانصو يعتبران هذا العرض يوم ذاك على أنه دليل الضعف، ولكن اليوم وهذا الهجوم الألماني يتقدم «هل كان من الممكن أن يظل لويد چورچ وكليمانصو على هذا الاعتقاد الخاطئ إطلاقًا لا، إنني أشك في هذا ومن

(١) Krieg und Ploitik, III, ١٢٣.

(٢) نفس المرجع ج٣ ص٦٣ .

الممكن أننا كنا إذ ذاك نجلس حول منضدة المؤتمر»[١].

وأحس دلبروك ـ أنه بسبب الفشل في تنسيق الاتجاهات السياسية والعمليات العسكرية للحرب ـ فإن هذا الهجوم سيؤدي في الغالبية إلى نجاح تكتيكي ولا أكبر من هذا، ولن تكون له أهمية استرتيجية كبيرة، ومع أنه لم يشك في أن هذه آخر مغامرة للاستراتيـجيين أصحاب نظرية استراتيـچية الإفناء، إلا أن الانهيار الفجائي الكامل لألمانيا قد أدهشه، وفي عدد نوفمبر سنة ١٩١٨ من دورية «الحوليات البروسية» Preussische Jahrbucher قدم لقرائه اعتذار غريبًا ليبرر هذا فقال: «لست أدري كيف تنكبت في الخطأ إلى هذا الحد البعيد، ومع أن الصورة كانت تبدو سيئة للغاية منذ أربعة أسابيع، فإنني لم أقطع الأمل قط في أن الجبهة ستظل ـ مهما اهتزت ـ متماسكة، وإننا سنرغم العدو على طلب الهدنة وأننا سنحمي حدودنا».

وقد أضاف إلى هذا جملة واحدة تصور ما أحس به من مسئولية قبل الشعب الألماني كمعقب عسكري كانت أحاديثه دائمًا موضع الثقة والاعتبار فقال: «وأعترف أنني كنت أحيانًا أكتب كلمات تعبر عن ثقة بالموقف أكثر مما كنت أحس به في داخلية نفسي، ولقد سمحت لنفسي في أكثر من مناسبة أن أخدع باللهجة المليئة بالثقة التي كانت في البلاغات والتقارير الصادرة من الجيش والأسطول».

ولكن برغم هذا الخطأ في التقدير، برغم مجانبته الصواب في حكمه فإنه يفخر بحقيقة واحدة هي أنه كان يقول دائمًا بأن من حق الشعب الألماني أن يعرف الحقيقة مهما كانت سيئة، وقد حاول هو في دعوته المستمرة

(١) نفس المرجع ج٣ ص٧٤.

للاعتدال السياسي أن يوضح للألمان الطريق إلى النصر[١].

وبهذه الروح أيضًا كتب دلبروك عرضًا كاملاً ودراسة نقدية عميقة للعمليات العسكرية في المرحلة الأخيرة من الحرب وكتب هذا في تقريرين إضافيين سنة ١٩٢٢ قدمهما للجنة الفرعية الرابعة التي شكلها مجلس الريشستاغ لبحث أسباب هزيمة ألمانيا وانهيارها سنة ١٩١٨، وعندما أدلى دلبروك بأقواله أمام اللجنة كرر ما كتبه في صفحات« الحوليات البروسية»، وإن كان قد استطاع - بسبب إلغاء الرقابة - أن يذكر الكثير مما لم يكن يستطيع أن يذكره إبان الحرب مع قيام الرقابة على الصحف[٢].

وقد وجه دلبروك أعنف نقده ضد لودندورف الرجل الذي وضع تخطيط هجوم سنة ١٩١٨ وتولى تنفيذ هذا التخطيط بنفسه، وإن كان دلبروك قد اعترف بأن لودندورف أثبت كفاية عسكرية في شيء واحد: «أنه أعد الهجوم بعد أن درب الجنود جيدًا للقيام به، ثم أنه تخير الفرصة المناسبة التي مكنته من مفاجأة العدو، مما يدل على قدرته الفنية وعلى حيطته

(١) نفس المرجع ج٣ ص٢٠٣ - ٢٠٦.

(٢) جاءت أقوال دلبروك كاملة في:

Das werk des Untersuchungsausschusses der Deutschen Verfassunggebenden Nationalversammlung und des Deutschen Reichstages ١٩١٩ - ١٩٢٦. Die Ursachen des Deutschen Zusammenbruchs Im Jahre ١٩١٨. (Vierte Reihe im Werk des Untersuchungsausschusses), III ٢٣٩ - ٢٧٣

وتوجد مختارات من تقرير اللجنة مع جزء صغير جدًا من أقوال دلبروك في كتاب R.H. Lutz بعنوان:

The causes of the German Collapse in ١٩١٨.

الكتاب الرابع من مطبوعات مكتبة هوفر عن الحرب.

وحذره»[١].

ولكن لم تلبث كل هذه الفوائد التي جاءت بها الترتيبات الأولية التمهيدية في خضم عوامل الضعف الأساسية ونتيجة للأخطاء الجسيمة في التفكير الاستراتيـچـي، فلم يكن الجيش الألماني من بدء عملية الهجوم في وضع يمكنه من توجيه ضربة قاضية ضد العدو، ولم تكن تتوافر للألمان أفضلية عددية كبيرة، ولم يكن يتوافر للألمان احتياطي بالقدر الذي كان يتوافر للعدو، وكان عتاد الجيش الألماني أقل في الكم والنوع مما يتوافر للحلفاء.

ثم إن الجيش الألماني كان يواجه عوامل معطلة كثيرة بسبب نظام تموينه الخاطئ ولعدم توافر المختزن من الوقود لوحداته الميكانيكية، وكانت كل هذه الأوجه المضادة واضحة للقيادة العليا الألمانية قبل بدء الهجوم ولكنها أغفلتها[٢].

وقد حذر لودندورف أوجه الضعف هذه ليدرك استحالة أن يضرب العدو عند النقطة التي كان من الممكن عندها أن يحصل على أكبر نجاح استراتيـچـي.

وكانت نفس الكلمات التي استخدمها للتعبير عن هذا: «يجب أن تقدر قيمة التكتيكات بأكثر مما تقدر العمليات الخالصة للاستراتيـچية» وكان معنى هذا أنه قام بالهجوم عند النقاط التي يسهل عندها الاختراق، لا عند النقاط التي يمكن عندها تحقيق الهدف الذي قدره لهجومه؛ كان

(١) Die Uraschen des Deutschen Zusammenbruches, III Lutz, op. cit., p. ٣٤٥. ٩٠

(٢) Die Ursachen des Deutschen zusammenbruches, III, ٢٤٦.

الغرض الاستراتيـجـي إفناء العدو، «ولتحقيق هذا الهدف ـ فصل الجيش الإنجليزي عن الجيش الفرنسي ثم طوى الإنجليز ـ كان الأفضل أن يتبع الهجوم مجرى نهر السوم، ولكن لودندورف مع هذا مد من جبهة الهجوم لأربعة أميال للجنوب بسبب وضوح ضعف العدو بخاصة هناك»(١)، وقد استطاع الجناح الدفاعي الذي يقوده هوتيير Hutier عند تلك النقطة ولكن نجاح قوات هوتيير عطل تطور الهجوم وذلك لأن تقدمها تجاوز تقدم جناح الهجوم الأساسي تحت قيادة بيلو والذي كان يعمل ضد آراس، «ولهذا فإنه عندما أوقف تقدم قوات بيلو اضطررنا إلى أن تتبع الخط الذي نجح فيه هوتيير، ومن ثم تغيرت خطة الهجوم ووضح خطر توزع قواتنا»(٢) .

وفي إيجاز فإن لودندروف ـ باتباعه الخط الأقل مقاومة ـ كان يبدأ سياسة مدمرة مرتجلة مخترقًا أول مبادئ استراتيـجية الإفناء، والذي اعترف هو نفسه بأن: (الاستراتيـجية التي لا تستند إلى قرار مطلق ولا تستهدف إفناء العدو بل وتقنع بتوجيه الضربات فرادى حيثما اتفق، استراتيـجية هذه حالها قد تستطيع حقًا أن توجه الضربات حينًا في هذا الاتجاه وحينًا في اتجاه آخر ولكنها لا تحقق شيئًا، ولكن الاستراتيـجية التي تستهدف إرغام العدو على قرار خاص، وإملاء نوايانا عليه، يجب أن توجه ضرباتها على التوالي حيثما وجهت الضربة الأولى الناجحة).

«وبدلاً من اتجاه هذه الأسس الصحيحة عمل لودندورف وهندنبرج على أساس أنه يمكن عندما تبدو الصعاب المعطلة في قطاع ما أن توجه

(١) نفس المرجع ج٣ ص٢٤٧ .
(٢) نفس المرجع ج٣ ص٣٤٦ .

ضربات جديدة إلى قطاع آخر»[١]، ومن ثم فقد تولدت عن الهجوم الكبير سلسلة من الطعنات المنفصلة غير منسقة وبلا نتيجة.

* * *

وكان الخطأ الرئيسي للهجوم هو فشل القيادة الألمانية العليا في تقدير ماذا يمكن أن يحققه الجيش الألماني في حدود إمكانياته، ثم فشلها بالتبعية في أن تكيف استراتيچيتها تبعًا لهذا، وهنا عاد دلبروك إلى الموضوع الرئيسي البارز في كل كتاباته كمؤرخ وكصحفي، لقد كان من الواجب أن تدرك القيادة الألمانية العليا من دراستها لموقف القوات المتضادة أنه لم يعد في الإمكان إفناء العدو، ولهذا كان من الضروري أن يكون هدف هجوم سنة ١٩١٨ إجهاد العدو إلى الحد الذي يجعله تواقًا لبدء مفاوضات الصلح.

وكان هذا مستطاعًا لو أن الحكومة الألمانية من جانبها قد أبدت رغبتها بوضوح في تقبل مثل هذه المفاوضات، ولو كانت الحكومة الألمانية قد صرحت علانية بهذا لكان الجيش الألماني قد حقق نصرًا استراتيچيًا في بدء هجومه، ولكان من الممكن أن يسير الهجوم تبعًا لما يتوافر له من قوة، ولكان من السلامة أن يوجه الهجوم في النقاط ذات النفع التكتيكي، أي حيث يكون النجاح أيسر منالاً ذلك لأن أي انتصارات بسيطة كانت تضاعف التأثير المعنوي في عواصم العدو[٢].

لقد فشلت القيادة الألمانية العليا في سنة ١٩١٨ وخسرت الحرب بسبب أنها أهملت أهم درس في التاريخ: ألا وهو العلاقة بين السياسة

(١) نفس المرجع ج٣ ص٢٥٠ ـ ٢٥١ .
(٢) نفس المرجع ج٣ ص٢٥٣ .

والحرب.

وهنا يجب أن نرجع ثانية إلى هذه الكلمات الأساسية في تعاليم كلاوزيـڤتز من أنه «لا يمكن تقدير فكرة استراتيـچية دون أن يقدر معها الهدف السياسي»[(١)] .

ـ ٤ ـ

كان المؤرخ دلبروك من ناحية عامة غير متطابق مع المجتمع الذي عاش فيه، كان زملاؤه المحترفون من المؤرخين كتاب الصحف، كما كان العسكريون الذين يحاول أن يعرض أعمالهم للقراء ينظرون إليه نظرات مليئة بالشكوك، وليس من الصعب إيضاح عوامل شك العسكريين، ذلك أنه ينشأ بالطبيعة في الواقع نتيجة للنظرة الساخرة التي ينظر بها المحترفون إلى الهواة، ولكن نظرات عدم الثقة التي ينظرها الأكاديميون إلى المؤرخين العسكريين إنما ترجع إلى ما هو أعمق وأبعد غورًا، وتنشأ هذه النظرة بخاصة في البلاد الديمقراطية من الاعتقاد بأن الحرب انحراف وتضليل في النظرية التاريخية، أو بمعنى أدق انحراف وتضليل في كتابة التاريخ، ولهذا فإن دراسة الحرب إذن لا تعتبر دراسة مثمرة ولا دراسة لائقة كيسة، ومما يستحق الذكر أن السير تشارلس أومن عميد الأحياء من المؤرخين العسكريين عندما عرض لحقل دراسته في الفصل الخاص بهذا من كتابه «في كتابة التاريخ» وسم هذا الفصل بعنوان «اعتذار للتاريخ العسكري».

ويشير السير تشارلس إلى أن المؤرخ المدني الذي يتعرض للشئون العسكرية يعتبر ظاهرة شاذة، ويوضح هذا في كتابه فيقول:

(١) نفس المرجع ج٣ ص٢٥٣ .

«إن مسجلي الحوادث ورواة الأنباء في سجلات الأديرة في العصور الوسطى، والمحدثون من كتاب التاريخ المتحررين كانوا متقاربين في تعريفهم لمعنى الحرب، ولم يذكروا عنها أكثر من أنها تثير مختلف صور الرعب، وأنها تسبب الكثير من الخسائر في الأرواح.

وقد عمد أفراد كلتا المجموعتين من مسجلي الحوادث ومن المؤرخين المحدثين إلى إخفاء جهلهم الشخصي أو كراهيتهم للموضوعات العسكرية باستهجان أهمية وخطورة هذه الموضوعات وأثرها في التاريخ»[١] .

وهذا التحامل الذي استهجنه أومان أحس به دلبروك بدرجة كبيرة طوال حياته، ففي فجر شبابه وجه كل مواهبه لدراسة التاريخ العسكري، وقد وجد أفراد صناعته ينظرون إلى تخصصه على أنه شيء لا يستحق هذا النشاط الذي يبذله في التخصص، وعلى حين أن الأكاديميين البروسيين لم يكونوا على استعداد ـ كالمؤرخين الإنجليز المتحررين ـ ليعتبروا الحرب حادثًا غير طبيعي، فإنهم لم يقتنعوا أيضًا بأن الانغمار في دراسة الشئون العسكرية يؤهل الفرد للتقدير الجامعي مع ما يصحب هذا التقدم من زيادة في الكسب.

وتعطل وصول دلبروك لكرسي الأستاذية تبعًا لإصراره على أن لتاريخ الحرب نفس الأهمية التي للكشف عن النقوش الررومانية[٢] إن لم يكن أكثر: وبقي طوال حياته يجادل لإثبات شرعية حقل بحوثه ودراساته، وقد أكثر من الحديث في فجر حياته بأن الحاجة ملحة للمؤرخين «ليس فقط

---

(١) Sir Charles Oman, On the Writing of History (new York, n. d.) pp. ١٥٩ f.

(٢) Deutsches biographisches delbruck J. Ziekursch Jahrbuch (١٩٢٩).

للقيام بدراسة طارئة، بل بدراسة عميقة ـ دراسة احتراف ـ لتاريخ الحرب»[١].

وفي أواخر سني حياته بعد أن حصل على مركز موطد في الدوائر الجامعية، حمل حملة عنيفة في صفحات كتابه «تاريخ العالم» على أولئك الذين أصروا على الاعتقاد بأن «المعارك والحروب لا أهمية انتاجية لها في تاريخ العالم»[٢].

لقد كانت أهمية دلبروك في تاريخ الفكر العسكري موضع جدل كما كان نصيب مكانته الجامعية كذلك، وكان الكثير مما كشف عنه في نقده الموضوع مثار التحفظ أو الرفض على أساس أنه دراسات غير أصيلة، كما أن نظريته عن الاستراتيــچية لم يتقبلها من وجهة عامة العسكريون والمؤرخون، ولكن ما من شك في أن كتابه «تاريخ فن الحرب» سيبقى واحدًا من أجمل الأمثلة لتطبيق العلم الحديث على تراث الماضي ومهما عدل في التفاصيل في كتلة البحث ستبقى صامدة لا يهز شيء من كيانها.

ولما كان العصر عصرًا أمست فيه الحرب موضع عناية كل فرد، فإن الموضوع العام لأعمال دلبروك كمؤرخ وصحفي سيظل دائمًا تذكرة للناس وتحذيرًا لهم من أن لارتباط السياسة بالحرب اليوم نفس الأهمية التي كانت له في عصر بركليز، وأن التفكير الاستراتيــچي الذي يظن صاحبه في نفسه كفاية ذاتية أو الذي يغفل عن الجانب السياسي للحرب لا يؤدي إلا إلى كارثة.

---

(١) preussische "etwas kriegsgeschichtliches" H. Delbruck Jahrbucher, LX (١٨٨٧) ٦١٠.

(٢) H. Delbrück, Weltgeschichte (Berlin ١٩٢٤ - ١٩٢٨), I, ٣٢١.

حديث المراجع

الفصل الحادي عشر

دلبروك: المؤرخ العسكري

بقلم جوردون ا. كريج

كان أول كتاب له أهميته بقلم دلبروك كتابه:

Das Leben des Feldmarschalls Grafen Neidhardt von Gneisenau (Berlin, ١٨٨٢).

وقد بقي هذا الكتاب الذي صدرت منه أربع طبعات التأريخ الكامل لحياة القائد البروسي، وقد قدم دلبروك في البداية مجملاً واضحًا لطريقته في معالجة التاريخ العسكري، وفكرته في أهمية إبراز المعارك الفردية، وكان هذا في كتابه:

Die Perserkrieg und die Burgunderkriege: zwei kombinierte kriegsgeshichtliche Studien (Berlin, ١٨٨٧).

على أننا يمكن أن نجد تقديمه ـ الذي سبق هذا ـ لنظرياته الاستراتيـچية في:

Die Strategie des Perikles erläutert durch die Strategie Friedrichs des Grossen; mit einem Anhang ûber Thucydides und Kleon (Berlin, ١٨٩٠).

وكذلك في كتاب:

Friedrich, Napoleon, Moltke (Berlin, ١٨٩٢).

وفي سنة ١٩٠٠ صدر المجلد الأول من كتاب:

Geschichte der Kriegskunst im Rahmen der Politischen Geschichte.

كما صدر المجلد الثاني سنة ١٩٠٤ وصدر المجلدان الثالث والرابع سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩٢٠ على التولي، كما صدرت سنة ١٩٠٨ طبعة ثانية من المجلدين الأول والثاني، وصدرت طبعة ثانية من المجلد الثالث سنة ١٩٢٠، وتضمنت هذه الطبعة للمجلد الثالث إضافات وورود على النقاد، وفيما عدا هذا فلا خلاف بين الطبعتين الأولى والثانية.

وينتهي المجلد الرابع من كتاب "Geschichte" وهو آخر ما كتب دلبروك بحديث عن حروب التحرير، وقد أكمل إميل دانييلز Emil Daniels الكتاب بإصدار المجلدين الخامس والسادس سنة ١٩٢٨ وسنة ١٩٣٢ على التوالي، وقدم في هذين المجلدين المدة بين حرب القرم والحرب الفرنسية/ البروسية، وفي سنة ١٩٣٦ صدر المجلد السابع وفيه عرض للحرب الأهلية الأمريكية والحروب الروسية اليابانية وحرب البوير، وكتبه دانييلز وأوتوهينتز Otto Haintz بالاشتراك معًا.

وكتاب دلبروك "Numbers in History" طبع لندن سنة ١٩١٣ فهو إعادة لطبع محاضرتين ألقاهما المؤرخ في جامعة لندن سنة ١٩١٣، وفي هذا الكتاب أجمل المؤرخ على ما يقول ـ المجلدات الثلاثة الأولى من كتابه: Geschichte der Kriegskunts وأكمل نظرياته الأساسية.

وقد جاءت دراسات دلبروك العسكرية القصيرة في «الحوليات البروسية» Preussische Jahrbücher وغيرها من المطبوعات، ومع هذا توجد أربع مجموعات لهذه المقالات يعتبرها دلبروك كبيرة الأهمية هي:

Historische und Politische Aufsatze (Berlin, ١٨٨٦ Scc. ed. ١٩٠٧)

وتحتوي على مقال هام بعنوان:

(Über die Verschiedenheit der Strategie Friedrichs und Napoleons)

Erinnerungen, Aufsatze und Repen (Berlin ١٩٠٢; third ed. ١٩٠٥).

وفي هذه المجموعة مقال يوضح عمل هيئة أركان الحرب في الحرب الدانيمركية لسنة ١٨٦٤ مع بحث قيم عن مولتكة.

وقد جمعت كتابات دلبروك طوال الحرب العالمية الأولى في ثلاثة مجلدات بعنوان Krieg und politik (برلين ١٩١٧ ـ ١٩١٩).

وأخيرًا صدرت مجموعة رابعة سنة ١٩٢٦ بعنوان:

Vor und nach dem Weltkrieg

وتتضمن أهم مقالات دلبروك التي نشرت بين سنة ١٩٠٢ وسنة ١٩١٤، وبين سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢٥ .

ويمكن من المجموعات التي أشير إليها فيما قبل معرفة موقف دلبروك أثناء الحرب العالمية الأولى وكذلك من الكتيب الذي وسم بعنوان (Bismarks Erbe) طبع برلين سنة ١٩١٥، والذي كان أقوى ما كتب مطالبًا بمفاوضة الحلفاء للسلم.

أما خير نقد كتبه دلبروك عن استراتيچية لودندورف في سنة ١٩١٨

قد طبع في:

Das Werk des Untersuchungsausschusses der Deutschen Verfassunggebenden Nationalversammlung und des Deutschen Reichstages ١٩١٩ - ١٩٢٦

Die Ursachen des Deutschen Zusammenbruchs im jahre ١٩١٨ (Vierte Reihe im Werk des Untersuchungsausschusses) (Berklin, ١٩٢٥).

كما نجد مختارات من وحي دلبروك في كتاب:

R. H. Lutz, ed., The Causes of the German Callapse im ١٩١٨, Hoover War Library Publications No. ٤ (Stanford, ١٩٣٤).

والكثير من الآراء الجديدة لدلبروك عن الحرب يوجد فقط في كتيبات صغيرة مثل:

Ludendorff, Tirpitz, Falkenhayn (Berlin, ١٩٢٠).

Ludendorff's Selbstportrat (Berlin, ١٩٢٢).

ويعتبر هذا الكتيب ردًا على كتاب لودندورف:

Ludendorff's Krigfuhrung und Politik (Berlin, ١٩٢٢).

Kautsky und Harden (Berlin, ١٩٢٠) and Der Stand Der Kriegsschuldfrage (Berlin, ١٩٢٥).

والكتيبان الأخيران يعنيان بمسألة المسئولية عن الحرب.

ومن الضروري أن يشتمل سجل مؤلفات دلبروك على:

Regierung und Volkswille (Berlin, ١٩١٤)

والكتاب سلسلة من المحاضرات عن الدستور والحكومة الأمبريالية.

وكذلك من الضروري إضافة المجلدات الخمسة التي جاءت بعنوان:

Weltgeschichte (Berlin, ١٩٢٤ - ١٩٢٨).

وقد ترجم الكتاب الأول عن (الدستور...) إلى الإنجليزية من قلم روى ماكلوي بعنوان:

Roy S. MacElwee, Government and the Will of the people (New York, ١٩٢٣).

ولم يكتب تأريخ كامل لدلبروك بعد، ويمكن أن نجد بعض التفاصيل عن حياته في المقدمات التي كتبت للمجلدات الأربعة الأولى لكتابه:

Geschichte der Krigskunst

وكذلك الفصل التمهيدي لكتاب Krieg und Politik

كما يمكن الرجوع إلى:

Johannes Ziekursch in Deutsches biographisches Jahrbuch (Bberlin, ١٩٢٩)

Friedrich Meinecke in Historische Zeitschrift CXL (١٩٢٩).

Richerd H. Bauer's article in Bernadotte Schmitt ed. Some Historians of Modern Europe (Chicago, ١٩٤٢). p. ١٠٠ - ١٢٧.

والمقال دراسة جيدة لحياة دلبروك وأعماله وإن كانت كتاباته

العسكرية قد نوقشت من وجهة عامة، كما يناقش (F.J. Schmidt) وأهميته كمؤرخ وكسياسي في كتابه:

Hans Delbruck: der Historiker und Politiker (Berlin, ١٩٢٨).

كما تناقش بعناية الآراء السياسية والعسكرية لدلبروك المؤرخ:

Am Webstuhl der Zeiti:eine Erinnerungsgabe Hans Delbruck dem Achtzigjahrigan von Freunden and Schulern dargebracht (Berlin, ١٩٢٨).

وهي مجموعة مقالات بقلم:

Gen. Groener, Paul Rohrbach, Emil Daniels, Buchfinck

وآخرين.

تراجع أيضًا الكتب التالية:

Arthur Rosenberg, "Hans Delbruck, der Kritiker der Kriegsgeschichte" Die Gesellschaft, VI (١٩٢١) ٢٤٥.

Franz Mehring, "Eine Geschichte der Kriegskunst" Die Neue Zeit, Erganzungsheft, No ٤ (October ١٦, ١٩٠٨) V. Marcu, Men and Forces of Our Times,

Eden & Ceder Paul. (طبع نيويورك ١٩٣١) ـ ص ٢٠١ مترجمًا بقلم

وكانت نظريات دلبروك عن الاستراتيجية موضع الكثير من الكتابات الدراسية النقدية، وقد ذكر أهم ما ظهر منها قبل سنة ١٩٢٠ في:

Geschichte der Kriegskunst, Iv, ٤٣٩ - ٤٤٤

ونجد أحدث وأعمق تفهم وتقدير لدراسة نظريات دلبروك في الاستراتيـجية في:

Otto Hintze, "Delbruck, Clausewitz und die Sttategie Friedrichs des Grossen", Fforschungen zur Brandenburgischen und Preussischen Geschichte, XXXIII (١٩٢٠) ١٣١ - ١٧٧.

القسم الرابع

من الحرب العالمية الأولى..
إلى الحرب العالمية الثانية

الفصل الثاني عشر

تشرشل، لويد جورج، كليمانصو:

بقلم هارفي ا.دي ديرد

يفرض الطابع الديمقراطي للحكومة كما تفرض فلسفة الحياة نفسها مشكلات «المسئولية العسكرية والتنظيم والسيطرة»، وهي مشكلات لم يكن لها من وجود طوال حكم «الملكية» وذلك لسبب واحد هو أنه من النادر ـ في الدول الديمقراطية ـ أن تجتذب صناعة القتال أو حرفة حمل السلاح انتباه أفضل الرجال عقلاً وأمضاهم عزيمة وأوفرهم بارقة أمل في النجاح والتقدم، وقد لاحظ توكويـڤيل(*) في كتاباته عن الولايات المتحدة في مرحلة مبكرة من تاريخها أن «الجزء الأفضل من الأمة يعزف أفراده عن صناعة الجندية لأنها صناعة لا تشرف صاحبها، وهي لا تشرف صاحبها لأن الجزء الأفضل من الأهلين قد عزفوا عنها»[1]، ثم إن انفصال السلطات

(*) الكسيس شارل هنري موريس كليريل دو توكويـڤيل، مؤلف وسياسي فرنسي (١٨٠٥ ـ ١٨٥٩) ـ معجم ويبستر طبع ماكميلان سنة ١٩٥٦ . «المترجم».

(١) Alexis de Tocqueville, Democracy in America Translated by Henry Reeve, (London ١٨٨٩,) II, ٢٤٣.

وللكتاب طبعة أمريكية طبع نيويورك سنة ١٩٥٦ أصدرتها شركة Ventage Books راجعها فرنسيس بودين، وقدم لها وعلق عليها وأرخ للشخصيات الواردة بها فيليبس برادلي، والرأي الذي قدمه هارڤـي دي ويرد هنا جاء في الفصل الثامن عشر للكتاب.

الفصل الذي وسمه بعنوان (حديث عن الشرف في الولايات المتحدة والمجتمعات الديمقراطية)، وكلمة (شرف) في الواقع لا تستخدم في نفس المعني في الإنجليزية والفرنسية، وقد علق الكاتب على الكلمة في مطلع الفصل بقوله أن الشرف يعني به في كتابه «التقدير للمجد» وأضاف أنه من الممكن أن نقول بأن رجلًا ما يتبع دائمًا قوانين الشرف، ومن الممكن=

ونظم الضبط والسيطرة والتوازن داخل المجتمع، أي التدابير اللازمة للحد من إمكان قيام حكم طغوائي، قد أوجدت عوائق معطلة في طريق الإدارة الناجحة للحرب، وقد ازدادت هذه العوائق مع ازدياد تعقد العمليات الحربية. وهكذا فإنه بينما العناصر المدنية المختارة في الدول الديمقراطية قد تجنب أفرادها الحياة العسكرية وعنوا فقط في تردد بالمشكلات العسكرية، فإن كل حرب عامة تشترك فيها هذه العناصر تجيء معها بصعاب جسيمة وتكشف لنا عن أوجه نقص بارزة في إدارتهم للحرب ما يوجب أن تصحب صور الإصلاح الكاسحة الواسعة النطاق ـ أو تتبع ـ هذه التجارب العسكرية التي هي الحروب[1].

وقد استندت المسئولية الكبيرة للعنصر المدني في الدول الديمقراطية من ناحية السيطرة على الشئون العسكرية ـ على ما أشار ماديسون وغيره من المفكرين الأمريكيين الأولين ـ إلى واجب الحكومة لحماية الدولة[2]، فليس من الممكن النزول عن السيطرة المدنية على الشئون العسكرية في الدول الديمقراطية دون تعريض سيادة الأهلين للخطر.

=أيضًا أن نقول بأن رجلًا ما قد فعل ما يتنافى مع شرفه، وفي هذا الفصل استخدم الكاتب الكلمة في المعنى الثاني.

(١) تتكشف هذه الاتجاهات بوضوح بالنسبة للولايات المتحدة في كتاب:

E. Upton's, The Military Policy of The United States (Washington ١٩٠٤). F. V. Green's The Revolutionary War and The Military Policy of The United States (New York, ١٩١١), and J. M. Palmer's, America in Arms: The Experience of The United States with Military Organization .((New Haven, ١٩٤١

(٢) E. M. Earle "American Military Policy and National Security" in Political Science Quarterly, LIII (١٩٣٨), ٤ – ٥.

ويوضح التطور التدريجي لسيطرة مجلس الكونجرس على السياسة العسكرية للولايات المتحدة وضرورة التصديق الدستوري على هذه السياسة إلى مرحلة إصدار قانون الدفاع الوطني سنة ١٩١٦، يوضح هذا كيف أن الحكومة الوطنية كانت تعمل مترددة دون رغبة تبعًا للسلطة وللمسئولية الملقاة على عاتق السلطة الدستورية الممنوحة للكونجرس (لتشكيل الجيوش وإمدادها بالعتاد)[1] .

وإذا كان للعناصر المدنية أن تسيطر على السياسة العسكرية فإن هذا يتطلب أن تذهب المسئولية ـ التي لا يمكن الفكاك منها ـ إلى مدى أبعد من مجرد المعاونة المالية والتشريعية، أي إلى مساهمة مباشرة ـ تقل أو تكثر ـ في السيطرة على العمليات الحربية نفسها، وهنا يطغى «المدني» على الجو التقليدي للجندي المحترف، ويتفتح ميدان فسيح لاحتكاك وتضاد «عسكري ـ مدني» بين المدنيين وبين العسكريين.

فإذا لم تكن الاعتبارات السياسية في حد ذاتها وحده قوية بدرجة كافية للإرغام على زيادة المساهمة المدنية في الشئون العسكرية كان على العوامل الأخرى ـ مثل الاتجاهات الفنية ـ أن تعمل لتحقيق وإدراك نفس الأغراض والأهداف، وقد لاحظ أوزوولد سبنجلر[*] أن «فن الحرب» قد تبع في تردد تقدم الصناعة حتى بداية العصور الحديثة، وفجأة استحثت الحرب كل الإمكانيات الآلية لخدمتها، وقد رأى سبنجلر علاقة وثيقة بين حقيقة أن

---

(١) H. White, Executive Influence in Determining Military Policy in the United States (Urbana, Illinois ١٩٢٥) pp. ٢٦ – ٥١.

(*) أوزوولد سبنجلر (١٨٨٠ ـ ١٩٣٦) فيلسوف ألماني اشتهر بنظريته عن التاريخ (ويبستر ص١٤٠١).

البارود قد جاء مع استخدام آلة الطباعة في وقت واحد تقريبًا وأن «الإصلاح» قد رأى «الشعارات» تتهادى مع مسير مدافع الميدان، وأن هذا المطر الغزير من النشرات السياسية قد جاء في نفس الوقت تقريبًا مع أول حشد للمدفعيه في «ڤالمي»[١].

ومع ازدياد توثق العلاقة بين الحرب والتقدم الفني جاءت الثورة الصناعية التي مكنت من كساء وتسليح وإمداد حشد الجيوش التي أوجدتها الثورة الفرنسية، ومكنت الصناعة الآلية من الإبقاء على هذه الجيوش وتزويدها بحاجياتها، وجعلتها الخطوط الحديدية خفيفة الحركة بالقدر الذي لم يكن يحلم به إنسان، وقد قال أحد أولئك الذين شهدوا كل هذه التطورات: «لقد سببت التطورات الآلية ثورة بعيدة المدى في قواعد وأسس الإدارة للجيوش لا تقل عما جاء في البحر بالتحول من استخدام الشراع إلى استخدام البخار»[٢].

وقد وضحت هذه الثورة في الحرب الإيطالية لسنة ١٨٥٩ ولكنها تكشفت دون أي خطأ في تقديريها سنة ١٨٦٢ في العمل الجريء الذي قام به هوبت Haupt بنقل فيلقين من جيش بوتوماك بالسكك الحديدية إلى ناشـڤيل[*] في أسبوع واحد، وعاونت السكك الحديدية مولتكة الكبير ليحشد أربعمائة ألف جندي على الحدود الفرنسية في ستة عشر يومًا سنة ١٨٧٠، ومكنت الخطوط الحديدية مولتكة الصغير ليحشد أربعة أضعاف

---

(١) Oswald Spengler, The Deeline of the West (New York, ١٩٢٦),II, ٤٦٠.

(٢) T.H. Thomas "Armies and the Railway Revolution"
in War as a Social Institution (New York, ١٩٤١), p. ٨٨.

(*) ناشيفيل عاصمة ولاية تنيسي على نهر كمبرلاند سكانها ١٣٧٠٠٠ نسمة.

الحشد الذي قام به عمه في أقل من هذه المدة سنة ١٩١٤[١].

وعلى حين أنه لم يكن من الواضح وضوحًا مباشرًا، فإن هذا «التزايد» للعلاقة بين الصناعة والعسكرية في القرنين التاسع عشر والعشرين قد تطلب «تزايد» مساهمة العناصر المدنية في المجتمع، مساهمة فعالة في الإعداد للحرب وفي إدارتها، وكان التنبؤ المبكر بهذا الطابع هو الذي وجه آنجلز ليسأل: «ترى من هم الذين نقلوا الانتصارات التي كسبتها الثورة الفرنسية إلى داخل الجيش وصفوفه؟ هل هم القادة؟ الواقع أن لا يد للقادة في هذا، بل كانت القوى المدنية هي التي فعلته»[٢].

وقد قسم الأستاذ رايت Wright تاريخ صناعة الحرب إلى فترات مقبولة في الطابع التالي:

(أ) مرحلة استخدام الأسلحة النارية (١٤٥٠ ـ ١٦٤٨).

(ب) مرحلة الجيوش المحترفة وحروب الأسر المالكة (١٦٤٨ ـ ١٧٨٩).

(جـ) حروب الاستثمار المالي وحروب الاستعمار (١٧٨٩ ـ ١٩١٤).

(د) الحروب الشاملة (١٩١٤ ـ ١٩٤٢)[٣].

وقد وجد في المرحلتين الأخيرتين اتجاه محدد نحو استخدام الآلات في الحرب، نحو زيادة حجم الجيوش، نحو صبغ السكان المدنيين بالطابع

(١) نفس المرجع ص٩٣.

(٢) خطاب إلى ماركس تاريخه ٢٥ من سبتمبر سنة ١٨٥١.

Der Bridfwechsel Zwischen Friderick Engels und Karl Marx, ١٨٤٤- ١٨٨٣ (Stuttgart, ١٩١٩), p. ٢٥٢.

(٣) Quincy Wright, A Study of War (Chicago, ١٩٤٢), I, ٢٩٤- ٣٠٠.

العسكري، نحو تأميم الجهود للحرب، ثم نحو زيادة عنف العمليات الحربية[١].

ومع أن إدارة الحرب في المراحل الأولى كانت عملاً إداريّاً من عمل القادة وأمرآء البحر، فإن مشكلة توجيه كل موارد الأمة نحو هدف محدد كانت أوسع مدى من أن تتولاها طبقة واحدة من الزعماء، ومن ثم كان هذا مسئولية كل أفراد الشعب والحكومة[٢]، ومع ذلك فإن نقص اهتمام الزعماء المدنيين بالشئون العسكرية بالإضافة إلى ازدياد تقبل فكرة أن السلم هو الحال الدائمة الطبيعية للمجتمع قد جعل العناصر المدنية على غير أهبة ـ بالقدر الكافي ـ لتقبل الدور المتزايد النشاط للحرب، هذا النشاط الذي جعله التقدم الصناعي والفني أمرًا لا يمكن تجنبه.

ولما كانت الطاقة لإدارة الحرب ترتبط ـ ارتباطًا لا انفصام فيه ـ بطبيعة الحكومة نفسها، لم يكن من سبيل لأن تتجنب الحكومات الديمقراطية ـ الأقل تركيزًا (مركزية) لتنظيمها والأكثر إطلاقًا لأساليب السيطرة ـ التنكب في كثير من المضار عندما تقاتل ضد دول أكثر إحكامًا في تنظيمها وأقل ديمقراطية.

وقد وقفت فلسفة السلم التي آمنت بها بعض الديمقراطيات موقف التضاد من الخطى التي كانت تمكنها (هذه الديمقراطيات) من تعبئة وتوجيه جهودها العسكرية تبعًا للأسس التي فرضها التقدم الفني في العصر

(١) نفس المرجع ١ ص ٣٠٢ ـ ٣١٠.

(٢) Maj. Gen. Sir F. K. Maurice, Government and War (London, ١٩٢٦), p. ١٢٣.

وقد قال كليمانصو أيام الحرب العالمية الأولى:

"La guerre est une chose trop sérieuse pour qu'on la laisse diriger par les militaires".

الحديث، وهكذا فإنه على حين نظمت بعض دول القارة الأوروبية إداراتها المركزية لتوجه النشاط الحربي تبعًا للنموذج الذي قامت على أساسه هيئة أركان الحرب العامة البروسية ـ الألمانية تأخرت بريطانيا والولايات المتحدة عن القيام بهذا التنظيم حتى كان القرن العشرون، وكان خوف كل منهما من تكوين هيئة تدفعها للإنغمار في استعدادات معينة للحرب ـ ما تعتقد أنه أصلاً فيها (في الحرب) ـ كان هذا الخوف هو الذي حال دون إنشائهما لهيئة أركان الحرب العامة برغم ما وضح من نفعها[1]، ولهذا لم يكن في بريطانيا كما لم يكن في الولايات المتحدة هيئة للتخطيط وتنسيق العمليات لها ماضيها التاريخي ولها سلطاتها كما كان لهيئة أركان الحرب الألمانية العظيمة الشأن.

وكانت الحرب الأهلية الأمريكية مظهرًا دل على ما سيكون عليه طابع الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨، فلقد شهدت الحرب الأهلية الأمريكية استخدام الحشود الكبيرة من القوات، وشهدت استخدام الخطوط الحديدية والبرق، والسفن المدرعة، والمدفعية المحملة على عربات السكك الحديدية، والبالونات، والبنادق ذاتية التعمير، شهدت الخنادق وموانع الأسلاك الشائكة، وجعلت صناعات الشمال الأفضلية في جانب الشماليين بدرجة أكبر مما فعلت الجرأة والشجاعة والصفات العسكرية للجنوبيين، ومكنت الآلات مثل آلات الحصاد من إخلاء عمال الأرض للإنضمام للقوات المسلحة، ومكنت الشماليين في نفس الوقت من السيطرة

(١) التقرير السنوي لوزير الحربية (الأمريكي) ١٩٠٢ طبع واشنطون سنة ١٩٠٣ ص ٤٤ ـ ٤٩ راجع أيضًا:

Richard Burdon Haldane: an Autobiography (London, ١٩٢٩), pp. ٢١٢ - ٢١٣; and e. Root, Military and Colcnial Policy of the United States (Cambridge, Mass. , ١٩١٦), pp. ١٠٨- ١١٠.

على أسواق القمح في أوروبا ثم كانت كذلك من العوامل ذات الأهمية الكبيرة فيما انتهت إليه الحرب، وقد مكنت سرعة تطور نيران الأسلحة الحديثة من ارغام الجنود على الاختفاء في الخنادق[1]؛ فإذا لم يكن من الممكن الوصول في المراحل الأولية للحرب إلى قرارات حاسمة تبع هذا صراع مرير للإجهاد، وقد دعمت حرب البوير والحرب الروسية ـ اليابانية من هذه الدروس.

ومع هذا فإن الخطط العسكرية لهيئات أركان الحرب الأوروبية هي التي أكملت الحرب التقليدية حرب الحركة لتستطيع المناورة فيها أن تجيء بالقرار الحاسم، وفيما عدا اللورد كتشنر فإن كل الزعماء الرسميين كانوا يعتقدون بأن الحرب الأوروبية ستنتهي في شهور، وقد بقي هذا الاعتقاد يسود كل الدوائر حتى نهاية المارن (٦ ـ ٩ من سبتمبر سنة ١٩١٤) والتي تبعها الالتجاء لحرب الخنادق في الغرب.

وفي فجر سنة ١٩١٥ امتد خط الخنادق من البحر إلى سويسره فواجه المتقاتلون بوضع لا أجناب له لتطوى في الأسلوب العادي، ومن ثم كانت حرب الحركة غير مستطاعة بل ومستحيلة، ولم تلبث خطوط الخنادق المحروسة بالرشاشات الثقيلة والمدفعية أشبه بدروب ضيقة تحدها الأسلاك الشائكة، ويجب أن تدمر بعمليات المدفعية طويلة الأمد؛ وكانت هذه بدورها عاملاً من عوامل فقد المفاجأة، ومع ضياع أي فرصة لعامل الحركة ولعامل المفاجأة من الجبهة الغربية بدأت حرب مواقع لا بديل لها غير الهجوم الأمامي الغالي الثمن وغير الإجهاد المتواصل للمواقع الدفاعية[2].

(١) I. J. de Bloch, The Future of War (Boston ١٩١٤).

(٢) P.J. I. Azan, The War of Positions (Cambridge ١٩١٧). =

- ٢ -

وفي سنة ١٩١٥ كانت المواد هي العامل الحاسم في الحرب، وتجاوزت مطالب حرب الخنادق من كل أنواع العتاد الحربي والإمدادات كل التقديرات السابقة، ولم يلبث أن وضح بأن الزعماء العسكريين المحترفين لا يستطيعون تنظيم الموارد الأهلية بكفاية ومهارة في مثل هذا الصراع[1] بل قد تطلب هذا تعاونًا تامًا بين الزعماء المدنيين والعسكريين إلى درجة لم تكن معروفة من قبل في الحرب، ولما كانت الحرب العالمية الأولى حربًا تتقاتل فيها قوات متحدة متحالفة في ميادين فسيحة، فقد تطلبت تفكيرًا ونشاطًا مدنيًا لإدارتها.

وقد يستطيع المرء - مع المخاطرة بزيادة تبسيط الأمر - بأن يقول أن حرب (١٩١٤ - ١٩١٨) قد قدمت مشكلتين صعبتي الحل:

أولاهما: كيف يمكن الإعداد لحرب تقوم أساسيًا على المواد والعتاد.

وثانيتهما: كيف يمكن تنسيق المجهود الحربي في حرب حديثة الطابع تتقاتل فيها جيوش لعدة أمم متحالفة.

=ولدراسة أمثلة عن طبيعة عمليات حرب الخنادق سنة ١٩١٦ يرجع إلى كتاب:

J. E. Edmunds, Military Operations, France and Belgium, ١٩١٦ (An Official History of the Great War) (London, ١٩٣٢), vol. I.

(١) في ٣١ ديسمبر سنة ١٩١٤ بعث السير چون فرنش قائد الجيش الإنجليزي في فرنسا بطلبات الذخيرة اللازمة لقواته بمعدل اعتبر إذ ذاك عاليا وهو: ٥٠ طلقة لكل مدفع عيار ١٨ رطل يوميًا، ٤٠ طلقة لكل مدفع عيار ٤.٥ بوصات هاوتزر، ٢٥ طلقة لكل مدفع عيار ٤.٧ بوصات؛ وفي سبتمبر سنة ١٩١٥ كانت الحملة البريطانية في فرنسا تستهلك يوميا ٢١.٠٠٠ طن من الذخيرة، راجع:

Sir Douglas Haig's Despatches (London, ١٩٢٠), p. ٣٣٣.

وكان من الواضح أن هذين الواجبين يمكن في ضوء طبيعة الأشياء أن ينفذا بوساطة عنصر مدني بحال أفضل مما ينفذا بوساطة عنصر عسكري، ووجدت حتى الإمبراطورية الألمانية وهي الدولة الملكية نظام الحكم أنها لن تستطيع متابعة حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ دون المعاونة الفعالة من جانب العناصر المدنية، وكان في مقدمة المدنيين الذين قاموا بهذه المعاونة في ألمانيا الدكتور وولتر راثيناو Walther Rathenau(*) مدير شركات للكهرباء والصناعات الكيميائية مثل:

Electrochemische Werks, the Allgemeine Elektrizitats Gesellschaft

ومائة أخرى من الشركات والمصانع، وكان هذا الرجل قد أشرف على كثير من الإنشاءات الكبيرة في كثير من بلاد العالم، ومكنته درايته بأسس الصناعة وخبرته الواسعة بالبلاد والناس خارج ألمانيا من أن تتوافر له نظرة أوسع مدى مما يمكن أن يتوافر للضابط أركان الحرب العادي، وقد رأى الدكتور راثيناو أن الحرب في الواقع عملية ضخمة من عمليات الحركة والإمداد والإطعام والعناية بعدد كبير من الرجال يشتركون في القيام بواجب تدميري لا إنشائي، ورأى أن الحرب الحديثة تستخدم المواد بدرجة أكبر وأسرع مما كانت تستخدمها الحروب السابقة، فلما أن قضت معركة المارن على آمال ألمانيا في نصر سريع في الغرب رأى راثيناو حاجة ألمانيا في الاحتفاظ بالمواد الخام وتنظيم استهلاكها على أساس حرب طويلة الأجل.

وقد عبر الأستاذ شوتويل Shotwell عن هذا بقوله:

(*) وولتر راثيناو رجل من رجال الصناعة والسياسة الألمان ولد سنة ١٨٦٧ واغتيل سنة ١٩٢٢ بيد مجهول.

«وبدلاً من أن تبدو لعيني راثيناو قولات من الجنود تتقدم إلى مسرح الحرب لتتصادم كان يرى أبنية ذات مداخن طويلة تمتد بين برلين ونهر الرين وقد اشتعلت النيران داخل أفرانها، وراحت المداخن الطويلة تنفث الدخان من أفواهها إلى عنان السماء، كانت هذه الأبنية ذات المداخن العالية في تقدير راثيناو هي العامل الحاسم في الحرب الحديثة»[١] .

ولم يكن راثيناو هو الصناعي أو الاقتصادي الوحيد الذي عرف حقيقة الموقف وأبصر (الكتابة التي على الحائط)، ويقال أن ارثر ديكس Dix قد بعث بمذكرة إلى مولتكة سنة ١٩١٤ موضحًا له الحاجة إلى هيئة أركان حرب اقتصادية، ويقال أن مولتكة قد بعث إليه برد جاء فيه: «لا تضايقني بحديث عن الاقتصاد إنني أشغل تمامًا بتوجيه الحرب»[٢] .

وكان راثيناو أكثر نجاحًا مع الـچنرال ڤالكنهاين الذي كان وزيرًا للحرب سنة ١٩١٤ ثم خلف مولتكة بعد هزيمته في المارن، فقد أقنع ڤالكنهاين بأن التعبئة الجيدة والاستهلاك المنسق للمواد الخام هما العاملان اللذان يمكنان من متابعة الحرب بنجاح، وبإنشائه إدارة أطلق عليها اسم Kriegsrohstoff-Abteilun مع هيئة مكتب تمهيدية من ثلاثة من الضباط أركان الحرب بدأ العمل يسير ومع الأيام كانت هذه الإدارة تقوى وتتسع أعمالها إلى أن كانت في سنة ١٩١٨ أكبر إدارات وزارة الحرب[٣] .

---

(١) J.T. Shotwall, What Germany Forgot? (New York, ١٩٤٠), p. ٢٠.

(٢) منقولة من كتاب «الاستراتيـچية الكبري للمحور».

Axis Grand Strategy, Edited by l. Farago et al. (New York, ١٩٤١) p. ٤٩٩.

(٣) أحسن مرجع لدراسة تاريخ راثيناو وأعماله كتاب:

H. Kessler: Walther Rathenau sein Leben und sein werk (Berlin ١٩٢٨).

ويعتبر عمل راثيناو بالاشتراك مع عمل الدكتور ڤريتز هابر(*) Fritz Haber (الذي مكنته مهارته في الهندسة وصناعة الكيمويات من إعداد مطالب ألمانيا للمفرقعات شديدة الانفجار بعد أن أوقف استيراد ما تحتاجه من قنوات شيلي بسبب الحصار البحري البريطاني)، من أهم العوامل التي مكنت ألمانيا من المقاومة لأربع سنوات طوال ضد حلف قوى أفضل في الموارد والرجال.

ومع هذا فإن ما حققته الصناعة الألمانية من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨ كان مخيبًا لآمال راثيناو ولم يمنع إنهيار ألمانيا والدرس الذي يمكن الخروج به من هزيمة ألمانيا، هو الحاجة إلى ضرورة توافر سيطرة كاملة بدرجة أكبر على الصناعة والموارد بما فيها القوى البشرية في أي حرب قادمة تشنها ألمانيا للثأر.

وقد درست «اقتصاديات الحرب» بعناية في ألمانيا في الفترة التي تبعت الحرب العالمية الأولى، وحتى قبل أن تنتهي الحرب العالمية الأولى رأى راثيناو أن تغييرات عظيمة في البناء الاقتصادي الاجتماعي لألمانيا وشيكة الوقوع[1]؛ وكانت هذه التغييرات إلى اتجاه ألمانيا نحو دولة اشتراكية في السلم وإلى سلطة عسكرية مطلقة في الحرب، لقد جمعت دروس الحرب العالمية الأولى وتبلورت صورتها لدى هيئة أركان الحرب الاقتصادية التي

(*) ڤريتز هابركيميائي ألماني (١٨٦٨ ـ ١٩٣٤) ولد في برسلاو، نبغ في الصناعات الكيمائية وقد استطاع أن يخترع استخراج النشادر صناعيًا للمفرقعات معجم لاروس ١٩٤٧ ص١٤٢٩.

(١) راجع مناقشة وجهات نظر راثيناو في كتاب:

A. T. Lauterbach "Roots and Implications of the German Idea of Military Society" in Military Affairs, V (Spring ١٩٤١), ٥ - ٨.

كونها وتولى رياستها الـچنرال چورچ توماس وكانت هذه الهيئة هي القوة الدفاعة وراء المشروع الذي اشتهر به جيرنج «مشروع السنوات الأربع»[١] .

وقد جاهد في بريطانيا عدد محدود من الرجال أمثال لويد چورچ وونستون تشرشل لحل المشكلات العسكرية والصناعية والسياسية التي نجمت عن قيام حرب المواد والموارد (١٩١٤ ـ ١٩١٨)، وكان هؤلاء يعملون في بلد ديمقراطي برلماني في مواجهة كل العوامل المعطلة التي يوجدها النظام الديمقراطي في إدارة الحرب، ومن هنا كانت مساهمتهم في التفكير والتوجيه للحرب تستحق العرض في صورة أكثر تفصيلاً وإفاضة مما قدمت به أعمال راثيناو.

ولم تكن للويد چورچ سابق دراية أو تجربة بالحرب، فقد شغل بالعمل في المشكلات الاجتماعية والقانونية والسياسية، وكان تشرشل قد حضر دراسة وفترة تدريب قصيرة بسند هرست كما خدم في القوات العسكرية بالهند، وقد أدى به هذا إلى عمله كمراسل حربي ومؤرخ وسياسي وقد بدا لويد چورچ أثناء حرب البوير كناقد يقف موقف التضاد من الاستعمار، فلما انتهت الحرب قاده شغفه بالتشريع الاجتماعي إلى معاوضة الميزانيات العسكرية والبحرية[٢] .

وعلى النقيض كان تشرشل معنيًا بالشئون البحرية بعد سنة ١٩١١، وأحس في نفسه القدرة ليكتب مذكرة للجنة الدفاع الإمبراطوري عن سير

(١) نوقشت في كتاب:

G. Thomas, Wehrwitschaft (Berlin, ١٩٣٩).

(٢) The War Memories of David Lioyd George (London ١٩٣٣ - ١٩٣٧), I, ١٠.

سيشار للكتاب فيما بعد بكلمتي «لويد چورچ» فقط.

الغزو الألماني لفرنسا الذي كان محتملاً أيام أزمة أغادير[١](*)، وقد تورط الرجلان في حوادث حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨، كان لويد چورچ وزيرا للمالية، وكان تشرشل أمير البحر الأول ووزيرًا للبحرية سنة ١٩١٤ وعندما جاءت الحرب في سنة ١٩١٤ فسر تشرشل اختصاصاته كأمير البحر الأول في الامبرالية في أوسع مدى مستطاع، وقد كتب عن هذا: «لقد تقبلت المسئولية كاملة لتحقيق نتائج ناجحة، وبهذه الروح توليت الإشراف العام على كل ما نفذ وما اقترح تنفيذه، وإلى أبعد من هذا توافرت لي سلطة كاملة لا حد لها في اقتراح وتنفيذ كل ما يتطلب تنفيذه تصديق وزير الأسطول وحده»[٢].

(١) W. S. Churchill, the World Crisis ١٩١١ - ١٩١٤ (London ١٩٢٣), pp. ٥٨ - ٦٢. The four volume Series: The World Crises ١٩١١ - ١٩١٤, The World Crisis ١٩١٥, and The World Crises ١٩١٦ – ١٩١٨).

سيشار للكتاب فيما بعد بكلمات (تشرشل المجلدات ١ ـ ٤).

(*) أغادير مدينة مراكشية كانت في وقت ما ميناء لها أهميتها على أساس أنها آخر ميناء بحري على الساحل المراكشي، قللت أهميتها ثورة سنة ١٧٧٣ ونهضة ميناء (موجادور)، أما أزمة أغادير، والتي كادت تؤدي إلى حرب أوروبية في نطاق واسع في أغسطس سنة ١٩١١ فعلى ما يقال كانت متوقعة قبل أن تستكمل حلقاتها، وقد تطورت الأزمة كما يلي: كانت معاهدة الجيسيراس Algeciras التي وقعتها سنة ١٩٠٦ كل الدول الكبرى بما فيها ألمانيا قد أوكلت إلى فرنسا وأسبانيا إقرار نظام في مراكش المضطربة على ما قيل يوم ذاك، وقد ظن أن هذه المعاهدة ستضع حدًّا للمسألة المراكشية، ولكن فجأة وصلت ميناء أغادير سفينة حربية ألمانية هي السفينة باتثار واستبدلت فيما بعد بالطرادة برلين، وطلب الامبراطور غليوم «بمكان تحت الشمس».

وقد استمرت المفاوضات طويلًا بين الدولتين وانتهت بموافقة ألمانيا النزول عن مطالبها باحترام حق سلطان مراكش وأعطيت ألمانيا في مقابل هذا بعض أجزاء من الكونغو الفرنسي.

معجم افريمانز المجلد الأول ص١٥٧ .

(٢) نفس المرجع ص٢٥٩ .

واستطاع تشرشل ــ بطبيعة استعداده لتقبل المسئولية ولتوافر الإدراك الحسي فيه، ثم للغته القوية الواضحة ـ من أن يعمل بسرعة وسط أعضاء مجلس الوزراء البطيء العمل كما تعمل «البيومة بين الصيل».

وجاء به مركزه إلى اتصال مباشر بكل مراحل الحرب، ولم يقنع بإدراة الأعمال البحرية بل جازف بالانغمار في ميدان الاستراتيجية العسكرية كذلك، وفي الخامس من سبتمبر سنة ١٩١٤ كتب مذكرة إلى اللورد كتشنر مقترحًا نقل فيلقين روسيين بطريق البحر من أركانجل(*) إلى أوستند لضرب مواصلات الألمان[١] واشترك بنصيب في أعمال الدفاع عن انتورب، وألح لتنفيذ مشروع للحصول على حلفاء في البلقان[٢] وبذلك تحول رجل مدني يتولى رياسة إدارة حكومية ليكون في صورة ما رجلاً من هيئة أركان الحرب وأن يكون هذا تطوعًا منه.

وقد أدرك ونستون تشرشل ولويد چورچ أهمية توقف الحركة في فرنسا سنة ١٩١٥ تبعًا لقيام حرب الخنادق، ولكنهما انتهيا بتفكيرهما إلى رأيين بينهما خلاف بسيط، فقد نظر تشرشل للمشكلة في بساطة ممثلة في استعادة المناورة، وكانت «مدافع الماكينة» الرشاشات الآلية التي تطل من أعلى الخنادق مشكلة تقف كل العقائد العسكرية تجاهها دون أن تستطيع شيئًا ما، وقد كتب تشرشل يقول:

(إن المعارك تكسب بالذبح والتقتيل والمناورة، وكلما ازداد استخدام

(*) أركانجل Archangel ميناء بحري على البحر الأبيض في شمال روسيا تعداد سكانها ١٩٤٠٠٠) والميناء عاصمة منطقة تمتد في الشمال على المحيط القطبي يصل تعداد سكانها ١.١٩٩.٠٠٠ واسم الميناء بالروسية Arkhangelsk.

(١) نفس المرجع ج١ ص ٢٩٣ .

(٢) نفس المرجع ج١ ص ٣٩٠، ج٢ ص٢ .



ونستون تشرشل (١٨٧٤ ـ   )

القائد «للمناورة» ارتفعت مكانته وقلت عمليات الذبح والتقتيل في معاركه).

(إن النظرية العسكرية التي جاءت «بمعركة الإجهاد» إلى مركز الصدارة إنما تتضاد وتتعارض مع كل صور التاريخ، وكان من الضروري أن يرفضها كل كبار القادة في العصور القديمة لو كانت قد جاءت إلى الوجود في أيامهم).

«إن كل المعارك التي اعتبرت أبرز أمثلة الفن العسكري والتي أقامت دعامات الدول وأقامت صروح شهرات القادة كل هذه المعارك كانت معارك للمناورة، وفي كل من هذه المعارك كان العدو يجد نفسه وقد انهزم بأسلوب مُستحدث بخدعة غريبة أو بطعنة سريعة من اتجاه أو في اتجاه غير متوقع وفي كل هذه المعارك كانت خسائر المنتصرين قليلة، وكان تكوين القائد الكبير لا يتطلب منطقًا جيدًا وتصورًا واسعًا فحسب، بل وأن يتوافر فيه عنصر الشعوذة Legerdemain وأن تتوافر فيه أيضًا لمسة أصيلة شريرة هي التي تجعل العدو حائرًا لا يمكن أن يقدر ما سيحدث، ومن ثم فإنه ينهزم حتى قبل الاشتباك جديًا في المعركة».

ولما كانت تتوافر للقادة العسكريين المواهب التي تمكنهم من ضمان النصر ومن الاقتصاد في إزهاق الأرواح وتقليل الخسائر، بلغت الجندية مرتبة عالية من الشرف، ولو كانت كل صناعتهم قد بقيت لا تزيد شيئًا على تبادل إزهاق الأرواح وإحصاء الرءوس في النهاية لبقيت هذه الصناعة لا تلقى شيئًا من تقدير البشرية ولظلت في مستوى منخفض بين الصناعات».

«من الضروري التغلب على الخطر الآلي (خطر مدفع الماكينة وخطر

الطوربيد)، وبمجرد أن يتم هذا فإن الأسطول القوي والجيوش القوية ستستطيع استعادة حقوقها الطبيعية بالمناورة، وإلى أن يتم هذا فإن الأساطيل والجيوش ستظل تتابع الخطأ وستظل تحتمل الخسائر الفادحة»[١].

ووصل تشرشل في ختام بحثه المنطقي إلى أن حل المشكلة يقبع في أعطاف وضع رقيقة من الصلب بين السفينة وبين الطوربيد، وبين صدر الجندي وبين رصاصات الرشاش الآلي، ورأى أن يفلت من هذا التوقف للعمليات في فرنسا بفتح مسارح جديدة للحرب في الشرق الأوسط وفي البلقان.

ولم يشغل لويد چورچ نفسه بمراحل الحرب حتى كان قد ا نتهى من الخطى المالية التي جعلها الانتقال من السلم إلى الحرب ضرورية، ثم بدأ عقله النشط يكشف التنظيم العسكري والبرنامج الذي كانت وزارته تموله، وقد قاده ما استكشفه أكثر وأكثر ـ إلى الدور المباشر للاستعدادات وأخيرًا قاده إلى إدارة الحرب نفسها.

لقد بدت الحرب له كمعركة مواد، ودله أسلوبه التفكيري إلى أن سياسة التحصيل والحيازة لوزارة الحرب تعطل منها الأساليب الرجعية التقليدية، ولم يلبث أن نظر نظرة شك للقيادة العسكرة البريطانية التي زادت واتسع نطاقها مع الحرب، وقد وجد أنه في مطلع الحرب كانت كل عمليات الإمداد حتى عقود حياكة ثياب الجنود تتركز في وزارة الحرب[٢]، وكان لورد فرنش أول قائد للحملة البريطانية في فرنسا كما كان خليفته هيج من الخيالة، وكان كتشنر ضابطًا من المهندسين، وقد شعر لويد چورچ بأنه

(١) نفس المرجع ج٢ ص٥، ٦، ٧ .

(٢) لويد جورج ج١ ص١٢٤ ـ ١٢٥ .

ليس في هؤلاء فضلاً عن أن القليلين جدًا في أوروبا هم الذين تتوافر لهم دراية باحتياجات الإمداد لحرب الخنادق[١] .

لقد كان هيج وخليفته بطيئين في إدارك التطورات التي لحقت بالأسلحة، ومن ثم فإنهما لم يستطيعا إدراك ما سببته هذه التطورات (في الأسلحة) من تغييرات لا يمكن تجنبها ـ في الأساليب والوسائل، ولقد رفضا في البداية ما تطلبه وحدات المدفعية من القنابل شديدة الانفجار (ش/ ف) تفضيلاً منهما للقنابل «الشرابنل»، على أن لويد چورچ لم يوجه اللوم لوزارة الحرب لفشلها في إعداد كفايتها من الذخائر والعتاد للقوات الكبيرة التي كان من الضروري أن تسهم في الحرب، ولكنه اتهم رجالها بالقصور العقلي لفشلهم في التقدير المبكر لما يجب توقعه من تطورات وما يتطلبه هذا من إنتاج لمختلف أنواع الذخائر[٢] .

وقد اعتبرهم لويد چورچ مسئولين لفشلهم في إدراك أن حرب القرن العشرين هي إلى حد بعيد صراع بين الكيمويين والصناع، وعندما ألح في أكتوبر سنة ١٩١٤ بضرورة زيادة طاقة مصانع الأسلحة تقاعس المدير العام

---

(١) نفس المرجع ج١ ص١٢٦، كان بين هؤلاء الشواذ القليلين رجل واحد حالت رتبته الصغيرة دون أن تلفت آراؤه الأنظار هو الكولونيل ماير من الجيش الفرنسي.

La France Militaire, December ١٥, ١٩٣٨.

(٢) لويد جورج ج١ ص١٢٩، وجد الفرنسيون الذين كانوا أحسن استعدادًا من الإنجليز للإمدادات في سنة ١٩١٤، أن البرنامج الذي وضعوه قبل الحرب غير كاف بدرجة كبيرة، نفس المرجع ج١ ص١٥٢ / ١٥٣ وعلى حين أن كل الجيوش الألمانية استهلكت في حرب ١٨٧٠ / ٧١ ما جملته ٨١٧.٠٠٠ طلقة من ذخيرة المدفعية استهلكت الجيوش الفرنسية في سنة ١٩١٨ وحدها ٨١.٠٠٠.٠٠٠ طلقة (تقرير فرع الإحصاء في هيئة أركان الحرب الأمريكية رقم د ـ ٢ ـ ١٥٣).

للمهمات في الانتفاع من المبالغ التي رصدت لهذا على أساس أن المصانع لم تطلب معاونة لزيادة طاقتها[1]، وبقيت وزارة الحرب تؤمن بما آمنت قبل الحرب من أن المصانع الحربية وحدها وكذلك عدد قليل جدًا من المصانع الأخرى يمكن الوثوق به لانتاج معدات حربية يعتمد عليها.

وفي مذكرة تاريخها الثاني والعشرين من فبراير سنة ١٩١٥ أشار لويد چورچ إلى أن الأمل الكبير في نجاح الحلفاء إنما يرجع إلى السيادة والأفضلية التي لهم في الموارد الصناعية[2] فإذا ما أمكن تحقيق الاستخدام السريع الكامل لهذه الموارد وأمكن تنسيق جهود الحلفاء كان النصر على دول الوسط[*] مؤكدًا مضمونًا.

وقد كرر لويد چورچ تأكيده لضرورة تعبئة كل الموارد الصناعية للإنتاج للحرب، وقد واجهت مقترحاته لتحسين الموقف الخاص بالذخائر عدة عراقيل وسلسلة من الاعتراضات العسكرية، واستمرت هذه العراقيل وتتابعت هذه الاعتراضات حتى كانت الهزة السياسية التي أعقبت حملة الدردنيل في سنة ١٩١٥؛ وكانت النتيجة تشكيل وزارة للذخائر يتولاها لويد چورچ نفسه.

* * *

وجاءت آراء تشرشل عن جنود حرب الخنادق وعن نقص التنسيق لجهود الحلفاء، في مذكرة له قدمها لرئيس الوزراء بتاريخ ٢٤ من ديسمبر

(١) لويد جورچ - ج١ ص١٣٣ .

(٢) نفس المرجع ج١ ص١٦٨ .

(*) Central Powers . دول الوسط، اصطلاح كان يعني به ألمانيا والنمسا والمجر.

سنة ١٩١٤، وقد كتب في مذكرته هذه:

«أظن بأنه من الممكن التيقن من أنه لن يتوافر لأي من الجانبين القوات الكافية ليخترق خطوط الجانب الآخر في مسرح القتال بالميدان الغربي، ودون محاولة الوصول إلى وجهة نظر نهائية فإنني أشعر بأن أوضاع كلا الجانبين المتضادين لن تتغير تغيرًا حاسمًا وإن كان ـ مما لا شك فيه ـ أن الآلاف من الرجال سيذهبون ضحية إرضاء الفكر العسكري من هذه الناحية».

«ومع افتراض صحة وجهات النظر هذه، تبرز مسألة: كيف يجب أن نستخدم قوتنا العسكرية المتزايدة، هل لا توجد وسيلة أخرى غير أن نرسل جنودنا ليقضموا الأسلاك الشائكة في الفلاندز؟، ثم ألا يمكن أن نجعل العدو يحس بدرجة أكبر ومباشرة بضغط قواتنا؟ وإذا كان من المستحيل اختراق الجبهات الحالية أو كان هذا مستطاعًا بثمن غال لا معوض له فهلاً من الواجب أن نستخدم ما يتوافر لنا من قوات جديدة في جبهات قتال أخرى، وأن نمكن الروس بدورهم من أن يفعلوا هذا أيضًا؟

«إن عمليات الحلفاء تسير في الغالبية مستقلة منفصلة عن بعضها، لهذا فإنه من الممكن أن نضع التخطيط من الآن لعلميات في شهري إبريل ومايو مما يمكن من أن تسنح الفرصة للوصول بالحرب إلى مرحلتها الحاسمة في البر والبحر، من الضروري ألا ننحرف (بعيدًا عن الهدف)، ومن الواجب أن نقدر الآن ـ ولا تزال أمامنا فسحة من الوقت، مدى وطبيعة ما نريد أن نخوض غماره من قتال في أوائل الصيف، من الضروري أن ننسق عملنا مع عمل حلفائنا وبخاصة روسيا، من الواجب أن نصنع مشروعات لهجوم ناجح مستمر وأن نكون على أتم أهبة بهذا التخطيط البديل عندما تفشل

الهجمات المباشرة الأمامية (بالمواجهة) على الخطوط الألمانية في فرنسا والبلـچيك، وأخشى أن أقول إنها ستفشل»[١] .

وعندما بدأ بأنه لا سبيل إلى خطة تبادلية مباشرة ورط تشرشل الأسطول في هجوم على الدردنيل، هذا الهجوم الذي سبب فشلاً بحريًا في ١٨ من مارس سنة ١٩١٥، كما أدى إلى محاولة غير ناجحة كثيرة الخسائر بوساطة الجيش للاستيلاء على شبه جزيرة غاليبولي، وقد أثار هذا الفشل إلى تضاد عنيف بين وزير البحرية وبين مستشاريه الأخصائيين من رجال صناعة البحر، وانتشر الاتهام في نطاق واسع بأن تشرشل قد أغفل نصيحة الأميرال لورد چون ڤيشر، الذي استقال احتجاجًا على الخسائر الفادحة الناجمة عن محاولة الدردنيل.

وهكذا ارتبطت كل مشكلة اكتمال الفكر المدني في النطاق العسكري بالعلاقة بين الرؤساء المدنيين وبين مستشاريهم من العسكريين المحترفين.

لقد كان نظام مسئولية المدنيين وسيطرتهم الكاملة على العمليات العسكرية نظامًا عمليًا عندما كان المستشارون العسكريون على درجة كبيرة من المهارة وكانت تتوافر لهم بصيرة نفاذة تسبق العصر الذي يعيشون فيه، ولكن عندما رفض هؤلاء المستشارون العسكريون المحترفون إدراك الإمكانيات التي جاء بها العلم ويمكن أن تحققها الصناعة، وتمسكوا ببرنامج استراتيـچـي لا يستطيعون الدفاع عنه في جدلهم مع المدنيين الأقدر على الجدل المنطقي، عندما حدث هذا انهار النظام كله وكانت لانهياره نتائج سيئة لها أثرها العسكري الأليم[٢] .

---

(١) تشرشل ج٢ ص٥ ـ ٦ .

(٢) كعامل هام في قصة العلاقات والمسئولية المدنية العسكرية يجب أن تشير إلى أن موقف=

- ٣ -

وكلف الفشل في الدردنيل تشرشل مركزه كوزير للبحرية، وبقى لبعض الوقت يعمل وزيرًا للمالية دوقية لانكاستر، على أنه قبل أن يترك وزارة البحرية كان قد بدأ مشروعًا جديدًا، هذا المشروع الذي خرج بالاختراع التكتيكي الرئيسي في الحرب ألا وهو: الدبابة.

وقد أمر تشرشل ـ مستخدمًا جانبًا من ميزانية وزارة البحرية ـ بصنع جرارًا مدرعًا يسير على جنزير ويحمل مدفع مايكنة (رشاشًا آليا ثقيلاً) بهدف أمكن اجتياز الأراضي المتعرجة في ميدان المعركة، وقد ناقش استخدام مثل هذه الآلة في مذكرة بعث بها إلى السير چون فرنش تاريخها الثالث من ديسمبر سنة ١٩١٥(١).

***

وجاءت الدبابة الأولى وكان من الضروري ـ لكل اختراع جديد ـ أن تتضح أوجه الضعف نتيجة للاستخدام ولكنها ولا شك قد جاءت معها بثورة في «التكتيك» فن القتال، وهكذا فإنه بالرغم مما قام به تشرشل أبان

=اللورد ڤيشر قد أضعفت منه إلى حد كبير. حقيقة أنه بقي صامتًا في المجلس عندما وافق على اقتراح كان هو نفسه يعارضه بقوة، وفي مسألة مماثلة عندما وقف لويد جورج موقفًا معارضًا لرأي روبرتسون، تحدث روبرتسون بقوة ووضوح مع أنه كان المتوقع أن يظل صامتًا، والواقع أن مسألة بقاء المستشار العسكري الفني صامتًا واعتبار هذا الصمت موافقة على خطط رئيسه المدني، لم تبحث بالقدر الكافي ولم توضح الأراء بشأنها قط، راجع:

Field Marshal Sir William Robertson, From Private to Field Marshal (London, ١٩٢١), pp. ٢٥٥, ٣١٧ - ٣١٨.

(١) نفس المرجع ج٢ ص٧٨ ـ ٨١.

توليه وزارة الذخائر (١٩١٦ ـ ١٩١٨) من أعمال لها أهميتها وخطرها فقد بزت الدبابة كل عمل آخر وكانت أعظم وأهم مساهمة قام بها في تاريخ الحرب لهذا العصر.

لقد قام الكثيرون بأدوار هامة في تطور الدبابة، ولكن من الواضح أن القوة الدافعة وراء استخدام الآلة ذات الاحتراق الداخلي التي تقوى على اجتياز كل عوائق وموانع مسرح القتال طوال الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ جاءت من تفكير رجل مدني لا عسكري.

ولقد كتب تشرشل في سنوات الحرب إلى زعماء بريطانيا العسكريين والسياسيين عددًا لا حصر له من المذكرات أوضحت الطاقة غير العادية التي توافرت له لتفهم المشكلات الاستراتيـچية مع بعد النظر لإدراك التطورات المقبلة؛ وعلى سبيل المثال لا الحصر فإنه كتب سنة ١٩١٧ تقديرًا للموقف عن الإمكانيات التي تتوافر لطائرة القتال، والمذكرة طويلة ضافية قد لا يكون من السهل أن تقدم هنا مجملاً لها، ولكنها توضح نظرة ثاقبة لتقدير الاستخدام الصحيح للطائرة في المستقبل[١] .

وقد أجمل مستر تشرشل بعد سنوات طوال وهو يسيطر من دار رياسة الوزارة البريطانية المنزل رقم ١٠ داونتج ستريت على حرب أكثر ازدحامًا بالمشكلات وبالمفاجآت عما كانت عليه حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨، أجمل مستر تشرشل يوم ذلك تجاربه في ميدان الإدارة العسكرية في الكلمات التالية:

«إن الحرب الحديثة حرب شاملة، ومن الضروري لإدارة مثل هذه الحرب أن ترشد الهيئات الفنية والمهنية بل وحتى أن توجه ـ إذا لزم الأمر ـ بوساطة الرؤساء الحكوميين الذين تتوافر لهم المعرفة لتفهم ـ ليس فقط ـ

(١) نفس المرجع ج٤ ص٣٠٩ـ٣١٣ .

القوى العسكرية ـ بل ـ وأيضًا القوى السياسية والاقتصادية، والذين تتوافر لهم القدرة على توجيه هذا كله نحو الهدف»[1] .

ولقد عضد لويد چورچ الهجوم على الدردنيل بكل قوة بمجرد أن انتهى النقاش إلى هذا القرار، على أنه لم يفعل هذا لاعتقاده بأن الدردنيل أفضل منطقة لهجوم الحلفاء، بل بسبب رغبته في تجنب خطأ مهاجمة العدو في أقوى مواقعه فلقد كان لويد چورچ يعارض قيام الحلفاء بالجهوم في الميدان الغربي على أساس أنه لا تتوافر لهم القوة الكافية للنجاح في الغرب، وزاد فشل الحلفاء في رفع الضغط عن الغرب من شكوكه في كفاية لورد كتشنر في الميدان الاستراتيـچـي، ولقد شعر أثناء توليه وزارة انتاج الذخائر سنة ١٩١٥ بأن البيانات، المقدمة من وزارة الحرب عن المطالب والاحتياجات لتسليح الفرق الجديدة، ليست كاملة، وراح يمد الفرق الجديدة بوحدات المدفعية بمعدل يزيد ٢٥ ٪ عن تقديرات وزارة الحربية، وقد بدأ يعد العدة لتكملة المشروع لمائة فرقة بدلاً من الاكتفاء بإعداد الاحتياجات لسبعين فرقة فقط على ما جاء في بيانات وزارة الحرب[2]، وعندما قدر كتشنر أن الكتيبة المشاة تحتاج رشاشين اثنين، قال لويد چورچ لجيديسGeddes: «ضاعف هذا العدد ثم اضرب الناتج في اثنين ثم ضاعف الجملة مرة ثانية اكتسابًا للحظ الحسن»[3] (وبذلك فقد رفع العدد المطلوب للكتيبة من رشاشين إلى ستة عشر، وكان لهذا أثره في زيادة قوة النيران).

ثم تدخل بعد هذا في النظام الرتيب العادي لتسليح الجيش، وأمر

---

(١) من خطاب لتشرشل أمام مجلسي الكونجرس الأمريكي في العاشر من مايو سنة ١٩٤٣، على ما جاء في جريدة «نيويورك تايمس» ليوم ٢٠ من مايو سنة ١٩٤٣ .

(٢) لويد جورچ ج٢ ص٥٥٧ .

(٣) نفس المرجع ج٢ ص٦٠٥ .

بصنع ألف هاون طراز ستوكس برغم معارضة الجيش.

وهكذا نجد زعيمين مدنيين هما تشرشل ولويد چورچ يفرضان على هيئة عسكرية مترددة ضرورة تعديل عقيدتها في «تشوين» حشد أسلحة جديدة توقعًا لاحتياجها.

وقد كرر لويد چورچ مطالبته بضرورة تنسيق الأعمال العسكرية للحلفاء، وقد كتب بعد الحرب: «لقد كانت نقطة الضعف في استراتيـچية الحلفاء، أنه لم تكن هناك استراتيـچية له، وبدلاً من خوض غمار حرب عامة في جبهة واحدة بجهد موحد كانت هناك ست حروب منفصلة باستراتيـچية منفصلة لكل؛ لقد كانت هناك محاولة للإيهام بوجود (بقيام) توقيت زمني لهذه الضربات المنعزلة المنفصلة وكانت «نتائج الحائط» وبعض تواريخ الأيام المختارة هي الأساس الوحيد للاستراتيـچية المشتركة بين الحلفاء؛ ولكن لم تكن هناك فكرة مشتركة، ولا تنسيق حقيقي للجهود، ولا حشد متكامل معًا للموارد والمواد بالقدر الذي يمكن من توجيه أعنف الضربات وأقواها ضد أضعف نقاط العدو، لقد كان هناك عدد من الجيوش القوية لكلٍ استراتيـچيته الخاصة به، ولكلٍ موارده التي تمكنه من تنفيذ استراتيـچيته، ولم يحث قط توزيع الرجال والمدافع والذخائر بالصورة التي تمكن من الحصول على أفضل النتائج بما يتيسر للحلفاء من موارد جملة واحدة، بل ولم تحشد العقول للقيام بدراسة كاملة لميدان القتال الفسيح لتقرير (أين) و (كيف) يمكن توجيه الضربات المؤثرة ضد العدو، ولم يحدث قبل سنة ١٩١٧ أن تقابل قائد له خطره ممن يحاربون في الميدان الشرقي وقائد له أهميته ممن يقاتلون في الغرب، وكان المؤتمر الذي عقد في خريف سنة ١٩١٧ واستمر ليومين اثنين وحضره كل كبار القادة العسكريين لتقرير العمليات للسنة القادمة، كان هذا المؤتمر فرصة للتعارف

والمصافحة، لقد جاء الجميع إلى المؤتمر وكل يضع خطته ومشروعاته في جيبه، ولم يكن هناك ما يمكن أن يناقشه الجميع، ومن ثم وضح بأنه من الضروري قيام هيئة تفكر تفكيرًا مشتركًا باسم الجميع»[١].

ولم تفلح الجهود لإيجاد قيادة متحدة، ولا لوضع قوات بريطانية تحت إمرة قيادات فرنسية في عمليات خاصة محددة، كان هذا كله يقابل بمعارضة قوية من رئيس هيئة أركان الحرب الإمبراطورية وكذلك من جانب القائد العام للقوات البريطانية في فرنسا، وقد سبب هذا الخلاف بين لويد چورچ وبين روبرتسون وهيج على السيطرة الاستراتيچية ـ والذي استمر طويلاً، سبب سوء العلاقات بين رئيس الوزراء والقيادة العليا، كان القادة العسكريون ينظرون إلى كل محاولة لتوحيد القيادة على أنها محاولة مستترة لإضعاف سلطاتهم والحد منها، واستطاع القادة العسكريون أن يعطلوا من قيام القيادة الموحدة عن طريق إثارة المشاعر القومية حينًا وبوساطة النظم الدستورية حينًا آخر، ولكن أخيرًا كانت نكبة مارس سنة ١٩١٨ سبب قيام قيادة موحدة في فرنسا[٢].

وقد عارض القادة العسكريون المحترفون الكثير من مقترحات لويد چورچ على أساس القول بأنها مقترحات غير عملية يستحيل تنفيذها، ومن أمثلة ما عرضه وعورض فيه اقتراحه بسير السفن في قوافل متجمعة كوسيلة للوقاية ضد أعمال الغواصات، وقد كتب لويد چورچ عن هذا:

---

(١) نفس المرجع ج٤ ص٢٣٤٧ ـ ٢٣٤٨ .

(٢) يبدو الجانب العسكري لهذا الخلاف في الرأي، في كتاب السير وليام روبرتسون: «من جندي إلى ڤيلد ماريشال» طبع لندن سنة ١٩٢١، وفي كتابه «الجنود والسياسيون» في مجلدين طبع لندن سنة ١٩٢٦، وتوجد دراسة نقدية لأساليب وآراء السير ويليام روبرتسون بقلم الكابتن بيتر رايت، راجع الهامش رقم ٤٢ .



دافيد لويد جورج (١٨٣ ـ ١٩٤٥)

«إن الصعاب التي واجهتها الهيئة الوزارية للحرب(*) عند مناقشة هذه المسألة تكررت في كل المسائل الأخرى كلما حدث الاصطدام والتضاد بين وجهات نظر المدنيين والعسكريين، إن علوم الحرب في البحر وأصول الاستراتيـچية لمسائل أبعد ما تكون عن الإدراك العام للمسائل وعن عبير السلطة الذي يطوف برؤوس أفراد هيئة القيادة العليا للأسطول، لقد كنت أواجه ـ كلما ألححت مطالبًا باستخدام نظام القوافل ـ بجدار صلب من تأكيد أن الأخصائيين في الأمبرالية يعرفون تبعًا لخبرتهم الفنية أن هذا التنظيم يستحيل تنفيذه، ومن ثم كان من الصعب متابعة هذا الاعتراض والتغلب عليه».

«وكان إصرارهم لأسابيع قليلة قادمة على رفض الإنصات لنصيحة تجيء من رجل يعمل خارج نطاق اختصاصهم وفنهم يعني الدمار الذي لا يمكن تجنبه، ولم تكن هذه هي المرة الأولى في الحرب التي يكون الدرس فيها غالي الثمن، الدرس الذي يمكن إجماله في أنه لا يمكن تنفيذ أي عمل قومي بنجاح في السلم أو في الحرب إلا بالتعاون الصادق بين الإخصائي وبين من يتولى الرياسة من غير رجال المهنة، هذا التعاون الذي يعمل له ويرحب به الإثنان معًا»(١) .

ومع مسير الحرب وضح حتى لأفراد القوات المسلحة، أن العسكريين

(*) في الأصل War Cabinet ويعني الاصطلاح: (هيئة من الموظفين المستشارين للرئيس التنفيذي في الدولة، ويكون هؤلاء عادة هم رؤساء مختلف المصالح الحكومية، وقد أخذت بريطانيا بهذا التقليد ولها داخل هيئة الوزارة ما يعتبر لجنة أو هيئة داخلية تتكون من بعض الوزارء هم الذين يتولون إدارة الحرب.
معجم ويبستر طبع نيويورك سنة ١٩٥٦ صفحة ٢٠٢ .

(١) لويد جورج ـ ج٣ ص١١٦٩ .

المحترفين الذين يتولون الإدارات العسكرية يتجهون ليعتبروا أنفسهم متحررين من تدخل الهيئات المدنية التي كان عليهم أن يتعاونوا معها لتحقيق النجاح، بل إنهم يعتبرون أنفسهم ـ في صورة ما ـ فوق الأمة نفسها؛ وقد كتب الكابتن بيتررايت عن هذا:

«وقد حررت هذه الخديعة الكبرى كل هيئة أركان الحرب من كل سيطرة، ولم يعودوا يعيشون من أجل الأمة بل إن الأمة هي التي تعيش أو تموت من أجلهم وفي سبيلهم إن كل ما كان يعني أنصاف الملوك هؤلاء ما إذا كان ويللي الشيخ الطيب أو إذا كان هاري المسكين الكهل هو الذي سيتولى رياستهم، أو هل سيتغلب حزب «شانتيه» على حزب «بوليـڤار دي زينـڤاليد»، لقد كان من الممكن أن يشتد وأن يتعمق العداء بين أي فرعين من فروع هيئة أركان الحرب بأكثر مما يمكن أن يحدث هذا بينهم وبين العدو»[١].

وقد ختم لويد چورچ حديثه المجمل عن موقف الحلفاء سنة ١٩١٧ بقوله: «لقد كان الخطأ الأساسي في استراتيـچية الحلفاء حتى الآن رفض الهيئات التي تتولى إدارة الحرب إدراك حقيقة أن مسرح القتال في أوروبا مسرح واحد لا يمكن أن يتقسم، وكانت نتيجة هذا الخطأ حشد أقوى الجيوش لمهاجمة أقوى الجبهات، على حين تركت الجبهات الضعيفة للجيوش الأقل عتادًا وإعدادًا»[٢].

وقد مثل السير ويليام روبرتسون ـ الذي تولى رياسة هيئة أركان

---

(١) Cpatain Peter Wright At The Supreme War Council (New York, ١٩٢١), p. ١٠٤.
سيشار إليه فيما بعد بكلمة واحدة هي Wright «رايت».

(٢) لويد چورچ ـ ج٤ ص٢١٦٩.

الحرب الإمبراطورية ١٩١٦ ـ ١٩١٨ مدرسة الجبهة الغربية في الفكر العسكري، وقد عضدت القيادة العليا الفرنسية والتي كان يسعدها اعتبار فرنسا المسرح الرئيسي للحرب ـ روبرتسون وهيج في خلافاتهما مع لويد چورچ، وكان أعضاء هيئة أركان الحرب الفرنسية لا يعنون كثيرًا بالقوة البحرية ولا يحاولون إدارك أهميتها، وكانت إجابتهم كلما اقتراح عليهم محاولة إيجاد جبهة أخرى للقتال في مكان آخر غير غرب أوروبا، «إن المسألة اليوم مسألة حمولة وقدرة على النقل».

ومن غير الممكن أن تتصور وجود رجلين على طرفي نقيض في الرأي أكثر مما كان روبرتسون ولويد چورچ، كان «وولى» روبرتسون رجلاً عنيفًا خرج من صفوف الجندية وارتقى أعلى درجات السلم العسكري بموهبته، وقد واجه في حياته الطويلة المشرفة كل ألوان المشكلات واستطاع استخدام نشاطه الكامل بصورة مباشرة، إما لإدراك الهدف، وإما لاجتياز العقبة والمضي بخطى أخرى نحو الهدف، فلما أن ووجه بخنادق الألمان في فرنسا قام بعمل مضاد لماع، كان رأيه حشد كل جهد عسكري في فرنسا، وقد رأى هذا على أساس أنه إذا دمر الجيش الألماني في فرنسا كسب الحرب، فلما انتهى إلى قرار بشأن المسرح الذي تخيره لعملياته أصر في عناد على مقاومة كل محاولة يقصد بها تحويل موارد بريطانيا إلى أي ميدان آخر، وكان روبرتسون صائب الرأي ـ على الأقل ـ في الجزء الأخير من رأيه؛ وقد عارض كل محاولات لويد چورچ لإقناعه بإمكان الحصول على ا لنصر وبثمن أقل في أي مكان آخر غير غرب أوروبا. وقد رفض روبرتسون هذا على أساس أن تحويل الجهود إلى مسرح آخر أو جبهة أخرى للقتال يعتبر عملاً يخالف مبدأ «حشد القوة في المكان الحاسم».

وكان روبرتسون بطيء الحديث، عميق التفكير مع عقلية غير مرنة رغم توافرها، وكان إذا توافر له الوقت استطاع أن يكتب مذكرات قوية منطقية، ثم إنه كان مخيفًا إذا غضب، فإن وجهه يبدو وقد صبغ بلون أحمر قرمزي، وتدور عيناه في مآقيهما ويقف شعر حاجبيه كسونكيات مشرعة معدة للطعن، كان يخيف مرءوسيه، ولكنه لم يستطع أن يقنع رئيس الوزراء أن الوسيلة الوحيدة لكسب الحرب هي أن يسلح كل رجل وكل صبي وأن يرسل بهم جميعًا إلى فرنسا «لقتل الألمان».

وكان الرجل المقابل له في ميدان القتال بفرنسا ـ السير دوجلاس هيج قائد القوات البريطانية في الميدان الغربي ـ رجلاً عارفاً بصناعته، ثاقب الرأي يجيد تبصر الأمور في الميدان المحدود أمامه، ولكنه كان كالكثيرين غيره يقاسي الأمرين من الافتقار للقوى الدافعة للوصول إلى الهدف الذي يعرفه تمامًا والذي يعرف ضرورة إدراكه وتحقيقه؛ وكان دوجلاس هيج يجيد التعبير عن رأيه على الورق فهو لا يجيد النقاش لا عن عي ولا عن لكنة، ولكن كانت الحركة الأمامية لفكه الأسفل تظهره بمظهر العنيد أكثر من الاستناد إلى الأسباب القوية التي يراها، ولهذا كان موقفه ضعيفًا في نقاشه للوزراء»[١].

وقد قدر كلا الرجلين أهمية كبيرة للتفسير العسكري لنظرية الولاء والإخلاص، وإن كان تفسيرهما بقى موضع النقد المستمر[٢]، وقد وجد كلاهما أن لويد چورچ بشخصيته وعقليته يعتبر عاملاً مجهدًا معطلاً لا يحتمل، وقد شعر كلاهما بأن أسلوب لويد چورچ في إدارة الحرب يعرض

---

(١) Brigadier General E. L. Spears, Prelude to Victory (London, ١٩٣٩), p. ٢٦٦.

(٢) نفس المرجع ص٢٧٠ .

الأمة كلها للخطر، وهما لا ينكران نشاطه وعزيمته فلا يستطيع هذا أي فرد، وقد كتب الكابتن رايت:

«بالرغم من أساليبه ـ يقصد لويد چورچ ـ المنحرفة وبالرغم من الهوى المتأصل فيه وميله للأفراد الوضيعي الأصل غير المستقيمين، وبالرغم من شعور أنصاره ـ حتى في ذروة إعجابهم به ـ بعدم الثقة بعقليته السطحية المتعجلة فإن مضاء عزيمته قد جعله ـ دون منازع ـ زعيم الحلف الغربي»[(١)].

***

كان هؤلاء الرجال الذين أثروا بشخصياتهم في الصراع بين العناصر المدنية والعناصر العسكرية في الحكومة البريطانية من سنة ١٩١٦ إلى سنة ١٩١٨، لقد عمل لويد چورچ كما عمل القادة العسكريون لكسب الحرب بكل قوة بدنية وعقلية، ولكن كان كل من الجانبين يعتقد أن الجانب الآخر على خطأ، وافتقر العسكريون إلى اللغة وإلى أسلوب المناقشة اللذين لو توافرا لاستطاع العسكريون أن يحسنوا عرض قضيتهم وأن يدافعوا عنها.

ويتضح المظهر الحاسم الخطير للتضاد بين لويد چورچ وبين روبرتسون وهيج من أن الرجل المدني الذي يقف على رأس الديمقراطية الإنجليزية لم يلبث أن وجد نفسه غير قادر على فرض إرادته على القادة العسكرين، وكان هذا يرجع أحيانًا لأسباب سياسية، على أنه لما كان الشيء نفسه يحدث في نفس الوقت في بلاد أخرى، وبخاصة في فرنسا، كان الخطأ إذن في النظام أكثر من أن يكون في الأشخاص، ولقد عارض لويد چورچ بقوة وإصرار تنفيذ الهجوم الإنجليزي في باشنديل سنة ١٩١٧، ولكنه لم

(١) «رايت» صفحة ٢٧ .

يستطع إيقافه تمامًا، ثم إن لويد چورچ لم يكن قويا بالقدر الذي يمكنه من المجازفة بإعفاء هيج وروبرتسون من منصبيهما، ذلك لأن البلاغات الرسمية عن الحرب كانت قد اتجهت من البداية لبناء شخصيات العسكريين وتجسيمها في عقول المواطنين العاديين، وكان هيج وروبرتسون يحظيان بتأييد شعبي أقوى من أن يمكن إعفاؤهما من العمل. وهكذا أرغم لويد چورچ على أن يسهم في برنامج كان يعرف من البداية أن مصيره الفشل.

ولم يستطع السياسيون في فرنسا وبريطانيا أن يحققوا الكمال العسكري لسياستهم إلا بعد أن اضطر الحلفاء نتيجة للفشل إلى تعديل نظامهم لإدارة الحرب في تنسيق تام لجهود الحلفاء كلهم.

ويوضح الهجوم الفاشل في نيـڤيل Nivelle بفرنسا سنة ١٩١٧. هذا النظام المعقد غير المعقول والذي كان طابع التوجيه الديمقراطي للحرب. ويكشف لنا الـچنرال سبيرز في كتابه «التمهيد للنصر» عن كل حوادث الاصطدام بين السلطات المدنية والسلطات العسكرية.

وقد كتب سبيرز عن مؤتمر كومبيين، والذي كان واحدًا من الاجتماعات التي كان من الضروري عقدها ليتم وضع خطة الهجوم في نيـڤيل موضع التنفيذ، كتب سبيرز عن هذا:

«يقف مؤتمر كومبيين كنصب عالي البناء يوضح عدم كفاية الديمقراطية في الحرب، يوضح عدم قدرة الوزراء على مواجهة الفنيين، ثم عدم استطاعتهم بحال ما الموازنة الدقيقة بين مختلف الآراء الفنية وتخير أفضلها؛ كان رئيس الوزراء (لويد چورچ) وبينليـڤ يسيطران على وزارة

الحرب، وكان بينليف يسيطر على الجيش؛ كانت تتوافر لهما السلطة للسيطرة على القائد العام الذي لم يكونوا يثقون بتخطيطه للمعركة، ولكنهم كانوا غير أكفاء لإبراز عوامل الفشل في هذا التخطيط، ثم إنهم لم يكونوا يستطيعون اقتراح خطة بديلة لتخطيطه، وكانوا عاجزين حتى عن أن يأمروا بوقف تنفيذ التخطيط الذي وضعه القائد العام».

«لقد كانت للهيئة الوزارية التي تتولى إدارة الحرب سيادة اسمية فقط، وكان يعطل من هذه السيادة النقص في المعرفة الفنية، فضلاً عن التقيد بالرأي العام الذي كان يحذر جهل أفراد هذه الهيئة الوزارية بالمسائل العسكرية والذي كان يضيق بتدخل المدنيين في الشئون العسكرية؛ إن اليوم السادس من إبريل سنة ١٩١٧ ليوضح في إيجاز العجز المخيف الذي اتسمت به الدول الديمقراطية فهي حتى في كفاحها من أجل وجودها وكيانها لم تكن بقادرة على أن تحرر نفسها من العجز الذي تتنكب فيه[١] .

* * *

وأخيرًا كانت هزيمة سنة ١٩١٨ .

واضطر الحلفاء إلى تقبل نوع من القيادة الموحدة تحت رياسة ڤوش، واستبدل روبرتسون بالـچنرال ويلسون الذي كان أكثر تقبلاً لإغواء لويد چورج واقناعه، وكبداية لهذه القيادة المتحدة شكلت هيئة عاملة لتوجه الحرب في ڤرسايـل، ولكن الحرب انتهت قبل أن يتضح ثقل هذه القيادة في ميزان «القرارات العسكرية».

وسبب انتصار الحلفاء سنة ١٩١٨ نسيان فشل تنظيم الحلفاء

---

(١) سبيرز ص٣٧٦ .

للحرب، وبقيت المشكلات الأساسية التي سوأت العلاقات بين لويد چورچ وبين القيادة الإنجليزية العليا في السنوات ١٩١٦ ـ ١٩١٨ بغير حل، وبقيت الأسئلة التالية حائرة لم يبت فيها وهي:

متى، وكيف، وتحت أي ظروف يجب أن تسيطر السلطة المدنية للحكومة على القادة العسكريين المحترفين؟

ما هو النظام الذي يتبع عندما يختلف الزعماء المدنيون والقادة العسكريون على سير الإجراءات للحرب؟

ماذا يجب أن يفعل الرؤساء المدنيون عندما يختلف القادة العسكريون فيما بينهم على مسائل عسكرية؟

ونستطيع أن ندرك بأن هذه الأسئلة قد بقيت تحير لويد چورچ لسنوات بعد الحرب عندما نجده في المجلد الأخير من كتابه «ذكريات الحرب» يقول:

«هل كان علينا أن نتدخل في نطاق دولة الاستراتيـچية؟ إن هذه واحدة من أهم المسائل التي تحير حكومة أي أمة عندما تخوض غمار الحرب، فلا تتوافر للمدنيين أية خبرة ولا تدريب ولا تجربة ولا دراية بمبادئ الحرب، وهم ـ أي المدنيون ـ من هذه الناحية مجرد هواة بالنسبة لإدارة الحرب وتوجيهها، ولكن من الحماقة أيضًا أن يقال بأن أناسًا نابهين يركزون كل تفكيرهم لسنوات طوال على واجب واحد ويتصلون يوميًا بصعابه ومشاكله ويشتركون في محاولات التغلب على هذه الصعاب وحل هذه المشكلات ثم لا يتعلمون بعد هذا كله من العمل في ميدانه، من الحماقة حقًا أن يقال ذلك سيما إذا تذكرنا أن الاستراتيـچية ليست في كليتها مشكلة

عسكرية ففيها عنصر هام له تقديره هو عنصر السياسة».

«وكحديث عام، فإن زعم القيادة العليا بأن يكون أفرادها وحدهم هم القضاة والحكام في السياسة العسكرية، قد جسمت هي وأنصارها منه حتى جعلوه مسألة عامة من الخطر مناقشتها، والحرب ليست علمًا إلى غاية ما لهذه الكلمة من معنى، فليست الحرب كالكيميا ولا الرياضيات وغيرها من العلوم التي لا يستطيع الجاهل بأصولها الأولية أن يناقش الدارسين لها العارفين بأصولها، فالحرب فراهة وتقدم واتقان، ويتوقف النجاح فيها على كثرة التجربة أكثر من توقفه على الدراسة، وتعتمد على الموهبة ودقة الحكم وحسن القصد أكثر من اعتمادها على التجربة وعلى الدراسة».

«وعندما أعود بنظراتي إلى هذه الحرب المدمرة، وأتعمق في دراسة الدور الذي لعبه في إدارتها السياسيون والعسكريون على التوالي، عندما أفعل هذا أثق بأن الأولين (السياسيين) كانوا حذرين جدًا في فرض سلطانهم على العسكريين»[١] .

- ٤ -

وكان للهيئة التشريعية الفرنسية سيطرة أكبر مما كان لزميلتها الإنجليزية من سيطرة على الجيش في الحرب، كان في كل من مجلس النواب والشيوخ لجنة للجيش. وفي سنة ١٩١٦ عمل بعض أعضاء اللجنتين كمفتشين برلمانيين أو كمندوبين للهيئة التشريعية يمثلونها في رياسات الجيش، وكان هذا إحياء للاتجاهات الثورية القديمة بإرسال النواب للتحقق من وضع رغبات الحكومة موضع التنفيذ، وقد حدد قانون ٢٨ من

(١) لويد چورچ ج٦ ص٣٤٠٩و ٣٤١٦و ٣٤٢١ .

أكتوبر سنة ١٩١٣ العلاقة بين السلطة المدنية وبين السلطة العسكرية، وتقول مواد القانون عن هذا:

«الحكومة ـ والتي تحتمل مسئولية مصالح البلاد ـ هي السلطة الوحيدة التي لها حق تحديد الأهداف السياسية للحرب، فإذا ما امتدت العمليات لأكثر من جبهة واحدة كانت الحكومة هي التي تحدد الجبهة الأساسية التي يوجه ضدها الضغط الأكبر للقوات الأهلية، وهي ـ أي الحكومة ـ التي توزع تبعًا لهذا كل الإمكانيات والموارد من كل الأنواع، وتضع هذا تحت السيطرة الكاملة للضباط الذين يتولون القيادة العامة في مختلف مسارح العمليات».

وقد جعل هذا القانون من وزير الحرب قائدًا عامًا للقوات الفرنسية، ولكن عندما بدئ في تنفيذ القانون أغفل هذا الأمر(١) .

على أنه بالإضافة إلى ما يوكل للشيوخ والنواب من أعمال تتصل بالقوات المسلحة، فقد شكل في سنة ١٩٠٦ مجلس أعلى كان أعضاؤه وزراء الحربية والبحرية، والمستعمرات والشئون الخارجية، والمالية، وقد زاد قانون الثامن والعشرين من يوليو سنة ١٩١١ من سلطات هذا المجلس، والذي جعل في استطاعته تشكيل لجان فرعية تتبع مجلس الدفاع القومي وتزود

---

(١) Captain Commandant J. Fraeys "Relations Between the Government and the Command: "French Experiences, ١٩١٤ – ١٩١٨.

وقد ترجم الكتاب إلى الانجليزية لكلية الحرب بوساطة الكولونيل سباولدنج نقلًا عن:

(Bulletin Belge des Sciences Militaires)

عدد ديسمبر سنة ١٩٣٧، وسيشار إليه فيما بعد بكلمة (فراي)، راجع أيضًا:

J. M. Bourget, Govermement et Commandement: Les Lecons de la guerre mondial .(Paris,١٩٣٠), pp. ٧ - ٢٤

اللجان البرلمانية بما تحتاجه من دراسات[١] .

وقد مكن تقسيم مناطق النفوذ وتنظيم السلطات للهيئة العسكرية وللهيئة المدنية من أن تبرز من البداية وتتضح كل النقاط التي يمكن أن تكون مثار نزاع، فقد أثيرت سلطات وزير الحربية في المسائل الخاصة بالتعبئة، وفي مسألة سحب القوات المسلحة لمسافة عشرة كيلو مترات من الحدود السياسية، وكذلك في المسائل الخاصة بالدفاع عن «ديـچون» و «باريس»[٢] .

على أن مسيمى Messimy وزير الحربية استقال في السابع والعشرين من أغسطس سنة ١٩١٤ وتولى وزارة الحربية خلفًا له ماليران[*] الذي أطلق يد چوفر، وإن كان في بعض الأحيان يوجه إليه النصح، ولكنه لم يصدر إليه أمرًا قط[٣] .

ولكن العلاقة بين وزير الحربية والقائد العام اتجهت اتجاهًا آخر عندما عين الـچنرال جاليني[**] وزيرًا للحربية في التاسع والعشرين من أكتوبر

---

(١) S. C. Davis, The French War Machine (London, ١٩٣٧) p. ١٠١ and p. Renouvin, the Forms of War Government in France (New Haven, ١٩٢٧), pp. ٨٠ – ٩١.

(٢) C. Bugnet, Rue St. Dominique et G. Q. G. (Paris, ١٩٣٧) and The Personal Memoirs of Joffre, translated by Colonel T. B Mott

(*) ماليران ـ (ألكسندر) سياسي فرنسي تولي بعد وزارة الحربية رياسة الجمهورية (١٩٢٠ ـ ١٩٢٤) معجم ويبستر ص٩٣٤ .

(٣) Bugnet p. ٥٠.

(**) جاليني Galliéni الرجل الذي نقل القوات من معسكر باريس المحصن بسيارات الركوب ليضعها على نهر أورك على جناح الجيش الألماني الأول الذي كان يقوده ڤون كلك بعد أن دار للداخل بدلًا من الدوران حول باريس والالتفاف من جنوبها كخطة شليڤن الأصلية، وقد تسبب بهذا في خسارة الألمان لمعركة المارن بل وفي تقهقر الألمان في الغرب عندما أرسل مولتكه ضابطًا من هيئة أركان حربه هو الكولونيل هنتش لتقدير الموقف=

سنة ١٩١٥، وذلك أن رجلاً عسكرياً هو وزير الحربية قد جيء به ليقف وجهًا لوجه أمام رجل عسكري آخر هو القائد العام، على أن العلاقات ازدادت توترًا إثر المديح المخادع الذي كتبه چوڤر في تقريره عن معركة المارن وأضفاه على الدور الذي لعبه جاليني - كحاكم عام لباريس - في المعركة وسبب كسبها، ومع أن رئيس الوزراء بريان قد كره دكتاتورية چوڤر العسكرية ألا أنه أشار بحكمة إلى أن واحدًا من الرجلين: چوڤر وجاليني، هو الذي يتولى الأمر، ولما كان جاليني هو الذي تولى الإجابة على أسئلة النواب عن العمليات الحربية السابقة والمقبلة فإنه لا يستطيع أيضًا أن يشرف على الجيش مع هذا الواجب البرلماني[١] .

وزيد من سلطات چوڤر بقانون الثاني من ديسمبر سنة ١٩١٥، وقد أعطاه هذا القانون سيطرة كاملة على كل الجيوش في فرنسا، وعندما احتج جاليني على إدارة چوڤر لمعركة ڤردون، لم يقف مجلس النواب إلى جانبه ضد چوڤر ومن ثم اضطر للاستقالة[٢]، وكان خلفه الـچنرال روكيه Rcques (من ١٧ مارس إلى ٩ من ديسمبر سنة ١٩١٧) رجلاً لين العريكة ودودًا لا يستطيع السيطرة على أحد[٣] ومن ثم فقد تولى چوڤر الأمر بلا منازع حتى أبعد عن عمله في ٢٦ من ديسمبر سنة ١٩١٦ .

=والتصرف طبقًا لما يراه، وكانت غيبة مولتكه عن مسرح المعركة وتواجده على مئات الأميال في الخلف مع خط تليفوني واحد السبب الرئيسي في الفشل وإن كان هنتش قد حمل كل مغبة الأمر. «المترجم».

(١) نفس المرجع ص١٠٧ .

(٢) فراي ص١١ .

(٣) بوجنيه ص١٣٥ .



جورج كليمانصو (١٨٤١ ـ ١٩٢٩)

على أن وزارة الحربية ـ عندما تولاها الـچنرال ليوتي الرجل القوى حتى ١٥ من مارس سنة ١٩١٧ ـ لم تلبث أن كونت ـ مستندة إلى البرلمان ـ ما أسماه بوجنيه «دكتاتورية برلمانية»، فلما أن استقال الـچنرال ليوتي في ١٥ من مارس سنة ١٩١٧ أثر اصطدامه بالنواب خلف وراءه موقفًا عسكريًا مضطربًا، وأرغم خليفته بينليـڤ أن يعضد قائدًا لا يوافق على تخطيطه للمعركة.

وقد أدى فشل هجوم ليـڤل في ربيع سنة ١٩١٧ إلى ثورة في عدد كبير من الفرق الفرنسية، وقد استطاع الـچنرال بيتان أن يستعيد الضبط والربط ورفع معنويات الجنود، كما استطاع كليمانصو أن يحطم حركات ومناورات الانهزاميين في الدوائر السياسية.

واستطاع كليمانصو بتوليه وزارة الحرب إلى جانب رياسته للوزارة، ليس فقط تقوية الجبهة الداخلية في أحرج ساعات الحرب وأحلكها، بل واستطاع أن يحقق بالاتفاق مع قيادة الجيش قيام ترتيبات عملية لم يحاول كل من سبقوه تحقيقها.

وترجع دراية كليمانصو بالحكومة الفرنسية وبالتيارات التي تعصف بسياستها إلى هزيمة سنة ١٨٧١، وهو كسياسي وخطيب وصحفي وفيلسوف قد استطاع من أجل انقاذ فرنسا حشد كل الجماعات داخل المجلس النيابي فيما عدا الإشتراكيين[١] .

وقد وجد كليمانصو في الـچنرال مورداك ياوره العسكري مستشارًا

(١) راجع للحصول إلى المزيد من التفاصيل عن حياة كليمانصو كتاب:

H. M. Hyndman, Clemanceau and His Times (London, ١٩١٩).

درس العلاقة بين العناصر العسكرية والمدنية في حروب أخرى وبخاصة في الحرب الأهلية الأمريكية[١]، وقد استبدل كليمانصو الدكتاتورية البرلمانية بإشراف شخصي على الشئون العسكرية، ولم يقصر هذا الإشراف على الخطوط العريضة بل تعداه حتى إلى تفاصيل الترتيبات الدفاعية[٢].

ولم يتفق كل النقاد الفرنسيين على أن تدخل كليمانصو في الشئون العسكرية كان دائمًا مفيدًا ونافعًا، وقد كتب ضابط فرنسي لم يكشف عن اسمه بأن الكثير من مقترحات كليمانصو كانت ضارة، وقد كان بيتان[*] يبدو وكأنه ينفذ فعلاً هذه التوجيهات التي كانت يشعر تمامًا بأنها توجيهات غير حكيمة[٣] وبخاصة من ناحية أن إصرار كليمانصو على قيام الجزء الأكبر من الجيش الفرنسي بحفر الخنادق قد قلب برنامج بيتان لتغيير الوحدات من الجبهة ومنح الأفراد إجازات قصيرة للترويح عن أنفسهم تبعًا لتناقص الروح المعنوية في الأفراد، وقد كان لهذا أثره في ترك الجيش الفرنسي على غير أهبة للقتال في الميدان المكشوف سنة ١٩١٨[٤].

---

(١) J. H. Mordacq, Politique et Stratégie dans une démoclatie.

(٢) فراي ص١٧ .

(*) بيتان Pétain مارشال فرنسا كان بطل الدفاع عن ڤردون، تولي الأمر بعد سقوط فرنسا في ١٦ يونيو سنة ١٩٤٠، وتقبل الهدنة وكون حكومة فيشي، وقد حوكم بتهمة الخيانة بعد تحرير فرنسا وانتهاء الحرب العالمية الثانية. وكانت محاكمته مثار عدة كتب في الدفاع عنه من الناحة القانونية. وتوجد بعض الترجمات العربية لهذه الكتب «المترجم».

(٣) General X, La crise du Commandement unique:
Clemenceau, Foch, Haig, et Pétain (Paris, ١٩٣١), pp. ٥٠- ٥٥.

(٤) A defence of Clemanceau's assumption of military control can be found in J. H. Mordacq,
Le ministére Clemenceau: Journal du témoin (Paris, ١٩٣٠), I, ٨٩ - ١١١

❊❊❊

وقد كشف الهجوم الألماني العظيم لسنة ١٩١٨ عن ضعف آلة الحرب الداخلية في صفوف الحلفاء عن إمكان تنسيق عمل الجيوش في فرنسا.

وعندما حل الدمار بالجيش البريطاني الخامس، كان بيتان مستعدًا لينفصل عن الإنجليز في الشمال ويرتد للدفاع عن باريس.

وقد لعب كليمانصو دورًا هامًا في القصة الطويلة المعقدة لتوحيد قيادة الحلفاء تحت إمرة ڤوش، ولما كان كليمانصو قد بقي لوقت طويل يؤمن بأن الحرب أهم من أن تترك للعسكريين وحدهم فقد انتهى ليدرك بأنه لو ترك بيتان وهيج ليعملا ما يحلو لهما فإن هزيمة الحلفاء تكون محققة لا جدال فيها ولا منجاة منها.

ويتضح تقدير الإنجليز لـڤوش وثقتهم بكفايته لإدارة العمليات الحربية وتولي الشئون المدنية، يتضح هذا من اقتراح لورد ملنر في ٢٥ من مارس سنة ١٩١٨ أن يعين كليمانصو «قائدًا أعلى»[١]، ولكن كان تنفيذ هذا الاقتراح مستحيلاً ذلك؛ لأن كليمانصو بتوليه هذا المنصب سيقف موقفًا مضطربًا بين مطالب، ووجهات نظر كل من ڤوش بيتان وكليهما من الضباط الفرنسيين، على أنه عندما اختير ڤوش ليقود القيادة العليا بذل كليمانصو كل جهد لتعضيده حتى أثناء نكبة الهزيمة في شامين دي دام Chemin des Dames فلما أن اتجه المد ضد الألمان، اتفق كليمانصو مع هيج في الرأي على ضرورة توحيد الهجوم الألماني في طابع استراتيـجـي، وأن يكون الهدف ضرب مواصلات الألمان لا مجرد العمل لإعادتهم للوراء تدريجيًا على

(١)، T.H. Bliss "the unified command".in foreign Affairs, December ١٥, ١٩٢٢, (١, ٢٧)

طوال الجبهة[١] .

وفي هذه الأثناء ساءت العلاقات الطيبة بين كليمانصو وفوش، كانت قد حدثت بعض خلافات صغيرة ولكنها تجمعت معًا لتوجد بين الرجلين عداء تحول أخيرًا إلى شعلة من التضاد العنيف[٢] .

كان الخلاف قد بدأ بسبب القضية القديمة، قضية.. هل السيادة للمدنيين أو للعسكريين، وقد حدث هذا بالرغم من أن كليمانصو كان إلى آخر لحظة يزيد من سلطات فوش، وحدث في نفس الوقت شيء آخر زاد من تعقد الموقف فان بوانكاريه رئيس الجمهورية بالرغم من أن المنطق كان يفرض عليه الدفاع عن سيادة العنصر المدني فإنه في خضم نزاعه السياسي ضد كليمانصو وقف إلى جانب فوش ليؤيده ضد رئيس الوزراء[٣] .

وقد وجد كليمانصو ـ في غمرة رغبته للاقتصاد في خسائر فرنسا ـ أن برنامج بيرشنج لإقامة قيادة أمريكية مستقلة مسألة لا طعم لها.

وكان كليمانصو عنيفًا في نقده لعمل هيئة أركان الحرب الأمريكية في عمليات الهجوم في سانت ميشيل والأرجون[٤] .

وعندما وضح أن تقدم الفرق الأمريكية بطيء جدًا، وجه كليمانصو

---

(١) Mordacq, Le ministère Clemenceau, II, ٣٠٩ - ٣٤٠ .

(٢) R. Recouly, Memorial de Foch (Paris, ١٩٣٠) and Q.

Clemenceau, Grandeurs et misères d'une Victoire (Paris, ١٩٣٠).

على أن إصرار كليمانصو على ضرورة سيادة العناصر المدنية يبدو بوضوح في لومه لـفوش عند اجتماع مجلس الحرب الأعلى في ١٤ من مارس سنة ١٩١٨ عندما قال له: «لست أنت، بل أنا، الذي يمثل فرنسا هنا»، راجع بوچيه ص٢٧٣ .

(٣) كليمانصو ص١٢٤ .

(٤) نفس المرجع ص١٣٢ .

إلى ڤوش خطابًا في ٢١ من أكتوبر سنة ١٩١٨ يطلب منه أن يأمر بيرشنج بأن يدفع جنوده جديًا للمعركة، وقد رفض ڤوش عن حكمة أن يفعل هذا، وعضد بوانكاريه ڤوش في موقفه هذا، وبدأ بوانكاريه مرحلة طويلة من النقاش الدستوري ليثبت أن مركز ڤوش كقائد أعلى للحلفاء قد حرره من هذا اللون من السيطرة التي يمارسها ويلسون ولويد چورچ على قوات بلديهما[١].

وكانت حوادث أخرى صغيرة، ثم وصلت العلاقات بين ڤوش وكليمانصو إلى أسوأ مراحلها في ١٧ من إبريل سنة ١٩١٩ عندما رفض ڤوش أن يرسل برقية لوفد الصلح الألماني ليخبر المندوبين الألمان رسميًا بإمكان استقبالهم في ڤرساي، وقد بنى ڤوش رفضه على أساس أنه حرم من الفرصة التي وعد بها ليوضح لمجلس الوزراء وجهات نظره عن الصلح[٢].

وكان على ڤوش ـ على ما يرى كليمانصو ـ أن يتراجع عن هذا الموقف الشائك عندما أعدت التدابير لعزله عن قيادته، وعند ما صرح ويلسون بأنه لا يستطيع أن يترك السيطرة على الجيش الأمريكي لقائد لا يطيع أوامر حكومته[٣].

على أن إسهام كليمانصو في كسب الحرب سنة ١٩١٨ كان واضحًا متألقًا إلى حد أنهم كانوا يصفونه في فرنسا بكلمات « Panimateur de La Victoire».

يقول الـچنرال مورداك الذي كان وثيق الصلة بكليمانصوأنه يمكن إجمال ما حققه كليمانصو في الميدان العسكري في:

(١) كليمانصو ص١٢٤ .
(٢) نفس المرجع ص١٣٢ .
(٣) نفس المرجع ص١٣٣ .

* إعادة تنظيم وزارة الحربية.
* الغاء الكثير من الإدارات العديمة النفع.
* اختيار قادة نشطين جدد.
* إعادة تنظيم هيئة أركان الحرب على أسس منطقية.
* الاتساع في برامج الدبابات والعربات المدرعة للجيش الفرنسي.
* إعادة تنظيم القيادة الفرنسية العليا في إيطاليا وسالونيك.
* المساهمة الشخصية في الهجوم الاستراتيجي بين ١٨ من يوليو و ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨[١] .

* * *

وعلى مثال لويد چورچ بين سنة ١٩١٦ وسنة ١٩١٨، وعلى مثال تشرشل في المدة من سنة ١٩٤٠ إلى سنة ١٩٤٣ فإن كليمانصو قد قام بالإدارة المدنية في الطابع الذي تفرضه الحرب الحديثة على رؤساء الدول.

وفي العصر الحاضر، عصر الحرب المعقدة، الحرب الأممية الشاملة فإن رؤساء الدول هم وحدهم الذين تتوافر لهم السعة في وجهات النظر، والقوة اللازمة لتوجيه الحرب وإدارتها بنجاح، فإذا ما استطاع هؤلاء أن يوجدوا الأسس السليمة للتعاون مع القادة العسكريين المحترفين فإن عملهم يكون سهلاً ميسورًا إلى حد بعيد، أما إذا فشلوا في هذه كانت النتيجة بداية مرحلة من الاحتكاك العنيف بين الجانبين مما يُسبب فقدان الكفاية، بل ولربما نجم عنه فشل مدمر.

* * *

(١) Merdacq, Le ministère Clemenceau, II, ٣٦٣ – ٣٦٧.

حديث المراجع

الفصل الثاني عشر

تشرشل،لويد جورج، كليمانصو

بروز شخصية الرجل المدني

لدراسة اتجاهات تشرشل يرجع إلى المجلدات الأربعة لكتابه:

The Worid Crisis (London and New York, ١٩٢٣ – ١٩٢٨)

ولا تحتوي هذه المجلدات على بعض الصور الأخاذة من الأدب الإنجليزي الحديث فحسب، بل وتعتبر موردًا كبير القيمة للمعلومات عن بعض مراحل الحرب العالمية الأولى، فهي تشتمل على البحوث والمذكرات التي كتبها تشرشل كوزير للبحرية وكوزير للذخائر، كما نجد دراسة جيدة لعمل تشرشل في الأدميرالية في البحث القيم الذي كتبه R.M. Dawson بعنوان:

"The Cobinet Minister and Administration: Winston S. Churchill at the Admirality, ١٩١١ – ١٩١٥"

Canodian Journal of Economics and Science, VI (August ١٩٤٠), ٣٢٥ – ٣٥٨.

أما الحديث عن تشرشل ودوره في تطور الدبابة فيرجع إلى:

Colonel Ernest D. Swinton, Eyewitness: Being Personal Reminiscences of Certain Phsaes of the Great War, Including the

Genesis of the Tank (Gondin ١٩٣٣)

ويعتبر كتاب:

David Lioyd Geirge`s War Memories (London and New York, ١٩٣٣ - ١٩٣٧) in Six vVolumes

السجل الشخصي لرئيس الوزراء في وقت الحرب، وبالرغم من مهاجمة الكثيرين من الكتاب له للصورة السيئة التي عرض بها هيج وروبرتسون فإن هذا الكتاب يجب أن يعتبر جزءًا هامًا من المؤلفات التي كتبت عن الحرب العالمية الأولى.

أما عن وجهة نظر وزارة الحرب في الخلاف مع لويد چورچ فنجدها في المؤلفات التالية:

Field Marshal Sir William Roberrtson, Soldiers and Statesmen (London, ١٩٢٦) and From Private to Foeld Marshal (London and New York (١٩٢١)

R. M. Dawson, The Cabinet Minister and Administration: Asquith, Lioyd George, Curzon, Political Science Quarterly, IV (September, ١٩٤٠) ٣٤٨ - ٣٧٧.

ويناقش Charles W. Baker مشكلة الإعداد لحرب المواد مع إشارة خاصة إلى تجربة بريطانيا في هذا المضمار في كتابه:

Government and Operation of Industry in Great Britain and The United Stater During The World War (New York, ١٩٢١).

ويناقشها أيضًا:

Brig. Gen. Sir J. E. Edmonds

في كتابه:

Military Operations, France and Belgium (London, ١٩٣٠ - ١٩٤١).

ويُناقش الكتاب الثاني في المجلدات عن سنة ١٩١٥ و١٩١٦ أحوال حرب الخنادق والحاجة إلى المواد، أما من الناحية العامة للمواد ومشكلة التنظيم الإنجليزي فيرجع إليها في كتابه:

R. B. Haldane, Richerd Burdon Haldane: An Autobiography (London, ١٩٢٩).

* * *

ويعتبر أفضل تأريخ لحياة راثيناو، التأريخ الذي كتبه H. Kessler بعنوان:

Walther Rathenau, sein Leben und sein Werk (Berlin, ١٩٢٨)

وقد صدرت له ترجمة إنجليزية في نيويورك سنة ١٩٢٩، وعولج موضوع مساهمة راثيناو في تنظيم اقتصاديات ألمانيا في الحرب العالمية في كتاب: Ernest Juenger،

الذي وسم بعنوان:

Ernest Juenger, Die totale Mobilmachung (Berlin, ١٩٣١)

أما من ناحية المعلومات العامة عن تجربة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى فيمكن الرجوع إلى:

Albrecht Mendelssohn - Bartholdy, The War and German Society (New Haven, ١٩٣٧) &

Frank P. Chambers, The War Behind the War:

A History of Political and Civlian Fronts (New York, ١٩٣٩).

* * *

وللدراسة اتجاهات كليمانصو يمكن أن نرجع إلى كتابه:

Grandeurs et Misères d'une Victoire (Paris, ١٩٣٠)

وكان هذا رد كليمانصوعلى هجوم فوش الموجه ضده في صفحات كتاب:

R. Recouly, Mèmorial de Foch (Paris, ١٩٣٠)

وكتب ريكاولي هذا الكتاب نتيجة لاجتماعات عقدها مع فوش في السنوات السابقة، وأطلق إصداره ونشره سلسلة من المقالات المضادة، وقد كتب مستشار كليمانصو العسكري J.H. Mordacq تسجيلاً لأعمال كليمانصو وأسهامه في الحرب في كتابه:

Le ministère Clemanceau: Journal d'un témoin (Paris, ١٩٣٠).

وهو كتاب يجب مراجعته في حرص وحذر.

ويعتبر كتاب:

S.C. Davis, The French War Machine (London and New York, ١٩٣٧).

دراسة للتعاليم الفرنسية العسكرية بعامة، وتعالج الفصول الأولى من

الكتاب مشكلات المدة (١٩١٤ ـ ١٩١٨).

وتناقش العلاقة بين الحكومة الفرنسية وإدارة الحرب في القسم الثالث من الفصل الثالث من كتاب:

Pierre Renouvin, The Forms of War Government in France (New Haven, ١٩٢٧).

على أن أهم كتاب يعرض للعلاقة بين الحكومة الفرنسية وبين القيادة العليا هي كتاب:

Lieut. Col. Charles Bugnet, Rue St. Dominique et G.Q.S. (Paris, ١٩٣٧).

كما يرجع أيضًا إلى كتاب:

J.M. Bougnet, Government et commandement: Les leçons de la guerre mondiale (Paris, ١٩٣٠).

ويعتبر الكتاب إضافة قيمة لسلسلة:

Collection de memoires, études et documents pour servir a l'histoire de la guerre mondiale,

وتناقش مشكلة القيادة الموحدة في الحرب العالمية الأولى في الدراسة التي كتبها:

Tasker H. Bliss "The Unified Command" Foreign Affairs, I (December, ١٩٢٢).

وفي كتاب:

Brig. Gen. E. L. Spears, Prelude to Victory (London, ١٩٣٩).

ويعتبر هذا الكتاب دراسة جيدة للصعاب التي توجدها حرب متعددة الحلفاء في ضوء الأحوال والظروف لسنة ١٩١٧ ـ ١٩١٨، وقد كتبه ضابط الاتصال الإنجليزي في القيادة الفرنسية العليا.

***

ويمكن الرجوع لدراسة السياسة العسكرية للولايات المتحدة إلى كتاب:

J. H. Mordacq, Politique et Stratégie dans une démocratie (Paris, ١٩١٢).

والكتاب، دراسة للعلاقات المدنية والعسكرية في الدول الديمقراطية، وفيه فصل طويل ضاف للتجارب التي واجهها الشماليون والجنوبيون في الحرب الأهلية الأمريكية، كما نجد دراسة جيدة للسياسة العسكرية الأمريكية والحرب الأسبانية ـ الأمريكية في كتاب:

F.V. Greene, The Revolutionary War and the Military Policy of the United States (New Youk, ١٩١١).

كما نجد النموذج الجيد لتأثير التفكير المدني في التعاليم العسكرية في كتاب:

Elihu Root, Military and Colonial Policy of the United States (Cambridge, Mass., ١٩١٦).

والكتاب عبارة عن وثائق لها قيمتها لإيضاح اصلاحات «روت» في وزارة الحرب؛ ثم كتاب:

H. White, Executive Influence in Determining Military Policy in

the United States (Urbana, Illinois, ١٩٢٥).

وهي رسالة مقدمة لنيل إجازة الدكتوراه،وتبحث تأثير السلطة التنفيذية في السياسة العسكرية الأمريكية عن طريق «قانون الدفاع» لسنة ١٩٢٠ .

ويعتبر كتبا Bernard Baruch أحد المصادر الهامة للمعلومات عن السيطرة المدنية على اقتصاديات الحرب في الولايات المتحدة، وقد وسم بعنوان:

Bernard Baruch, American Industry in The War: A Report of The War Industries Board (New York, ١٩٤١).

وهذا الكتاب والذي هو التقرير الأخير لرئيس مجلس صناعات الحرب لسنة ١٩١٨، يجب أن يراجع مع كتاب:

Grosvenor Clarkson, Industrial America in the World War: The Strategy Behind the Line, ١٩١٧ - ١٩١٨ (New York, ١٩٢٣).

وقد عولجت مشكلة السياسة العسكرية للولايات المتحدة في:

Brig. Gen. John McAuley Palmer, America in Arms: The Experience of The United States With Military Organization (New Haven, ١٩٤١).

Pendleton E. Herring, The Impact of War: Our American Democracy under Arms (New York, ١٩٤١).

وقد درست العلاقات المدنية ـ العسكرية في الولايات المتحدة في مقالات ادورد ميد ايرل:

"Military Policy and Security" Political Science Quarterly, LIII

(March, ١٩٣٨), ٤ – ١٢,

"National Security and Foreign Policy", Yale

Review XXIX (Spring, ١٩٤٠), ٤٤٤ - ٤٦٠.

"Political and Military Strategy for the United States", Proceedinge of the Academy of Political Science XIX (January ١٩٤١,) ١١٢ - ١١٩.

ويوجد مقال حديث عن المسألة العامة لدور الرجل المدني بقلم Lindsay Uogers وسمت بعنوان:

"Civilian Control of Militaty policy", Foreign Affairs. XVIII (Januray ١٩٤٠), ٢٨٠ - ٢٩١.

وتوجد عدة مؤلفات أخرى تعرض لمناقشة تأثير التطور الفني في المجتمع، مع بحث دراسة المؤرخ لمشكلات وقت الحرب، وعلاقة الرجل المدني بالحرب الحديثة، وضرورة توافر بعض المعرفة لدى المدنيين عن العوامل الأساسية في الحرب، ثم علاقة الحكومة بإدارة الحرب في البلاد الديمقراطية، وهذه نجدها في الكتب الآتية:

Lewis Mumford, Technics and Civilization (New York, ١٩٣٤).

Jesse D. Clarkson and Thomas C. Cohran, War as a Social Institution (New York, ١٩٤١).

وفي هذا الكتاب عدة فصول قمينة بالدرس أهمها:

"civilian and Military Elements in Modern War" by H. A. DeWeerd.

"The Social and Political Aspecte of Conscription:

Europe's Experience "By Colonel Herman Beukema, "War and Modern Dictatorships" by Arthur Rosenberg, "War and Economic Institutions" By Charles E. Rothwell.

Sir George Aston, "The Study of War for States-men and Citizens" (London, ١٩٤٧).

Maj. Gen. F.K. Maurice, Government and War

A Study of the Coneuct of War (London, ١٩٢٦).

Maj. Gen. J.F. C. Fuller, War and Western

Civilization: A study of War as a Political Instrument and The Expression of Mass Democracy (London, ١٩٣٢).

ويعتبر كتاب فوللر تعليقًا جيدًا لمفكر عسكري على مشكلات الحرب والطابع الديمقراطي للحكومة، على أن بعض وجهات النظر السياسية والاجتماعية يجب ألا تؤخذ على مظهرها الذي تبدو فيه.

الفصل الثالث عشر

لودندورف

النظرية الألمانية للحرب الشاملة

بقلم هانز سبير

كان كل ما أسهم به «إيريك لودندورف» في تطور الفكر العكسري، ما يمكن أن يسهم به قائد فقد الحرب، فلقد بدأ الكتابة إثر هزيمة الجيوش الألمانية سنة ١٩١٨ مباشرة، ومع أن كتبه قد استندت إلى تجارب استراتيـچية وتنظيمية فقد جاءت مليئة بمظاهر الغرور والإعجاب بالنفس والصَّعَر والإزورار والضجر والاستياء، مجموعة متباينة من العواطف الحسية والنفسية، كما كان لها أيضًا طابع الاعتذار، طابع محاولة البحث عن أعذار للدفاع عن النفس لخطأ ما.

وقد حاول لودندورف في مؤلفاته أن يثبت في أسلوب عسكري أن ألمانيا لم تفقد الحرب العالمية الأولى، مقدرًا الأهمية الحاسمة لهذا الرأي الذي انطوى في أعطاف الفكرة التي كانت تسود السياسة الألمانية أيام جمهورية «ڤيمر»، فكرة «الطعنة التي جاءت من الخلف»، ولهذا فقد يكون الإنسان محقًا في اعتبار انتاج لودندورف الأدبي نوعًا من النشرات السياسية.

ولا تتميز كتابات لودندورف بالأصالة والتأنق في الأسلوب ما في هذا من شك، ولهذا فإن نجاحه الأدبي المدهش أيام جمهورية ڤيمر إنما يرجع إلى شهرته كقائد كبير أكبر مما يمكن أن يرجع إلى توافر الطاقة والقدرة والموهبة الكتابية.

ولقد عالج لودندورف ثلاثة موضوعات رئيسية يعنينا واحد منها فقط عناية مباشرة وثيقة الصلة بهذه الدراسة. ***والواقع*** أن لودندورف قد امتاز بتذكره للحوادث وإكسابها طابعًا حيويًا في تسجيله لها، مع تنبئه بطبيعة الأشياء مستقبلاً، على أنه في إعادته لسرد حوادث الحرب العالمية الأولى حاول أن يجسم من تكوينه التاريخي كقائد، كما تحامل في نقاشه وجدله على أولئك الذين قللوا من كفايته وقيادته، كما أفاض في حملته على الماسون الأحرار واليهود والجزويت، بل وضد المسيحية جملة. ودافع بتأثير زوجته عن عقيدة دينية من اصطناعه، كما عرض لكل هذه القوى الشريرة التي اعتبرها مسئولة عن هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى.

كما آمن عن يقين بأن خصومه السياسيين ومنافسيه من الإشتراكيين القوميين الذين وقفوا منه موقف العداء والتضاد بعد الحرب كانوا متأثرين بنفوذ هذه القوى الشريرة نفسها.

وأخيرًا عند تقديمه لآرائه عن «الحرب الشاملة» عرض في خطوط عريضة الظروف والأحوال التي كان من الممكن ـ في تقديره ـ أن تمكنه من العمل بدرجة أفضل، بل ومن تولى القيادة بحال أكثر نجاحًا في الحرب العالمية الأولى.

على أن نظرية لودندورف عن «الحرب الشاملة» ليست وليدة دراسة التطورات العسكرية فيما بين الحربين العالميتين، وليست مستمدة من الاعتبارات المعنى بها للعلاقات بين السياسة وصناعة الحرب والتكنولوچية، والاقتصاديات ومعنويات الشعب.

والواقع أن القليلين جدًا من الكتاب العسكريين هم الذين يمكن أن

ينطبق عليهم ما جاء في حديث فردريك شليجل(*) والذي جاء فيه: «إن التاريخ نبوءة مستعادة مستذكرة» بأكثر مما يمكن أن تنطبق عن حق على كتابات لودندورف، وفي تفهمنا وتقديرنا لكتابات لودندورف عن الحرب الشاملة نشعر بالرغبة لتبسيط كلمات شليجل بالقول بأن تنبؤات لودندورف كانت تأريخًا للماضي يمتد إلى المستقبل.

ويعتبر نقد لودندورف لآراء كلاوزيـڤتز بخاصة معطلاً للمؤرخ الذي يحاول التأريخ للفكر العسكري، ثم إن طابع الاستهتار الذي قدم به لودندورف نقده لكلاوزيـڤتز ييسر ملاحظتنا لمركب النقص الثقافي الذي كان لودندورف يحس به نحو الرجل الذي ساد الفكر العسكري الألماني، ولكن الواقع أن الدافع السياسي وراء هذا النقد ليستحق الذكر بأكثر مما تستحقه الكلمات التي جاءت في هذا النقد، ذلك لأن لودندورف لم يدافع عن «الحرب الشاملة» مهاجمًا نظرية كلاوزيـڤتز عن «الحرب المطلقة» كأخصائي عسكري أو كمؤرخ، بل هاجمها كرجل سياسي.

ولقد أضاف لودندورف ـ بعد أن أوضح مطالبته بالسيادة التامة للقائد العسكري الأعلى على كل المسائل العسكرية والسياسية على السواء ـ: «إنني أشعر كيف سينزعج السياسيون لمثل هذا الرأي انزعاجهم للفكرة العامة بأنه على السياسة أن تخدم توجيه الحرب وإدارتها، وكأن كلاوزيـڤتز لم يقل في تعاليمه بأن الحرب ليست غير استمرار للسياسة مع استخدام وسائل أخرى، فلينزعج السياسيون، وليعتبروا آرائي مجرد آراء رجل

(*) فردريك شليجل (١٧٧٢ ـ ١٨٢٩) فيلسوف وشاعر وناقد ألماني وهو شقيق أوجست ويلهللم ڤون شليجل الشاعر الألماني (١٧٦٧ ـ ١٨٤٥) معجم ويبستر طبع نيويورك سنة ١٩٥٦ ص ١٣٠٤ .

عسكري لا أمل فيه، فإن هذا لن يغير من مطالبتي بالواقعية التي تتطلب ـ في إيجاز ـ ما أطالب به لإدارة الحرب، ومن ثم، للاحتفاظ بحياة الشعب»[١].

وبمثل هذه الفقرات الكثيرة في كتاباته، أغفل لودندورف المبادئ البروسية للسياسة والعسكرية في الصورة التي قامت عليها طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مقترحًا العودة بهما (سياسة الحكم وقيادة الجند) إلى ما كانتا عليه في عصر البطل الذي يمجده: فردريك الأكبر[٢].

وكما فعل هتلر، لم يقف لودندورف موقف التضاد من الجمهورية الألمانية فحسب، بل وقف هذا الموقف نفسه من البناء السياسي للرايخ تحت حكم غليوم الثاني، ولكن مع هذا فإن التماثل بين الرجلين لا يسير إلى مدى بعيد؛ فلقد كان لودندورف ثوريًا يختلف عن باقي الثوريين الذين جاءوا في عصر الجمهورية من ناحيتين اثنتين فقط، فقد كان يعادي المسيحية بعنف، وكان لا يعني بالسنين ولا بحقباتها، بل كان يرغب في أن يعود بعجلة التاريخ إلى الوراء لأكثر من قرن، وفي نفس الوقت كان متفهمًا للنفع من تركيز السلطة في توجيه وإدارة السياسة الحديثة، إلا أنه قاس هذا النفع بمقياس الكفاية البروقراطية!!، وكان تفهمه للجماهير والجماعات في المجتمع الحديث محدودًا وهكذا كانت أيضًا تجاربه كزعيم من زعماء الشعب

(١) General Ludendorff der totale Krieg (Munich, ١٩٣٥), P. ١١٥, Not.

(٢) كان لودندورف يثق بأن فردريك الأكبر «في جانبه» أي أن آراء فردريك تتمشى مع آرائه حتى فيما يراه في الدين، وقد صنف لودندورف كتابًا أصدرته دار النشر التي تصدر كتبه وسم بعنوان:

Federich der Grosse auf Seiten Ludendorffs. Friedrichs des Grossen Gedanken über Religion. Aus seinen Werken (Munich ١٩٣٥).

يعتمد على إثارة مشاعر الجماهير أكثر من اعتماده على المنطق.

وعلى نقيض هذا كان هتلر، فهتلر كان زعيمًا سياسيًا لحركة شعبية موجهة بالكبت والإخضاع لسلطان الحاكم، وقد جاء من واحدة من المجموعات الشعبية الكثيرة التي يجيء منها المجتمع الصناعي الحديث، وقد استولى على السلطة كسياسي لامع ذي نجم صاعد، وغير من المجتمع الذي سمح له بالصعود ومكنه من الارتفاع، ويرجع تسلقه سلم السلطة والقوة كما ترجع إدارته وتوجيهه للحرب العالمية الثانية إلى قدرته على تحريك وإثارة الجماهير عن طريق اجتذاب حس الناس ومشاعرهم أكثر مما ترجع إلى اعتماده على منطق الحوادث.

وكان نظام حكم هتلر نظامًا سياسيًا دكتاتوريًا يسيطر على كل الجماعات بما فيها الجماعات العسكرية، ولكن لودندورف من ناحية أخرى وضع أسس الديكتاتورية العسكرية لتتمشى السياسة مع أغراض الحرب وأهدافها، ومن ثم فإن ديكتاتورية لودندورف العسكرية لم تكن لتسمح بقيام الحركات الجماعية.

وفي ألمانية الاشتراكية كانت مجموعة الضباط في مراكز تمكنهم من استخدام العنف في أسلوب مستحدث يدل على مهارة، ولكن دون أن يتوافر لهم طابع سياسي خاص بهم، وبلا شك أن هتلر لم يكن هو الزعيم السياسي الذي ظن لودندورف أنه سيستطيع السيطرة على السياسة في حرب المستقبل، وإنما كان الزعيم الذي تخيرته الجماهير لقيادها ثم نجح بعد كفاح طويل في إرغام القادة على إطاعة أوامره.

وهكذا، فإنه على حين كان لودندورف بيروقراطيًا عسكريًا رجعيًا

عمل لقيام ما يمكن أن يقال له ديكتاتورته فنية بقصد إدارة الحرب الشاملة، كان هتلر ديكتاتورًا سياسيًا مستغلاً عوامل الشد والجذب في المجتمع الحديث، لا مهملاً لها مغفلاً إياها.

- ١ -

ولكي تتفهم آراء لودندورف عن الحرب الشاملة يجب أن نضع نصب أعيننا طبيعة العسكرية الألمانية قبل بدء الحرب العالمية الأولى، كانت طبقة العسكريين طبقة واضحة المعالم معترفًا بوجودها، تقوم على أسس نصف إقطاعية داخل إطار مجتمع رأسمالي ينتظم في طبقات متفاوتة الدرجات والأوضاع والمكانة، وكان الصراع بين التقاليد العسكرية في ظل الملكية وبين الأطماع ومشاعر التطلع والطموح التي تتوافر في الطبقة الصناعية الوسطى من كتلة الأمة ـ كان هذا الصراع ـ واضحًا غير مكبوت، وكانت القوة العسكرية والمكانة الاجتماعية تتوزعان لصالح الطبقة الارستقراطية ولصالح الإقطاعيين ملاك الأراضي سواء أكانوا من ملاك الاقطاعات الكبيرة أم المتوسطة، وكانت القوة الاقتصادية مركزة في أيدي زعماء الصناعة والتجارة والمالية الذين لا خبرة سياسية لهم.

وكانت تقاليد العسكرية الألمانية ترجع إلى أعماق البناء الاجتماعي لبروسيا التي عرفها القرن الثامن عشر، بروسيا التي انفصلت فيها القوات المسلحة عن الطبقات الصناعية والطبقات الانتاجية، هذه الطبقات التي أعفيت بدورها من القيام بأداء الخدمة العسكرية.

على أنه في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مع انتشار التعليم وازدهار الصناعة لم يعد من مكان لبقاء هذه الأحوال والظروف فضلاً عن

أن تكون لها السيادة والغلبة في تكوين المجتمع وتشكيله، فقد بسطت الآراء الدستورية الحرة من طبيعة النظام الملكي، كما عدلت من التعاليم السياسية التي سبقت النهضة الصناعية.

وقد أوضح كارل شميت Carl Schmitt هذا سنة ١٩٣٤ بقوله: «وإن الحركة التحررية لسنة ١٨٤٨ قد أرغمت الدولة البروسية على أن تتجه اتجاهًا دستوريًا، وأن تتعرض لفقدان ما لا يقل بحال ما عن فقد طابعها الأصلي، لقد أضحت حكومتها حكومة برلمانية، وأضحى جيشها جيشًا برلمانيًا»[١].

وقد اعتبر شميت أن هذا يمثل «انتصار المواطن المدني على الجندي»، ولكن في الواقع لم يكن هذا صحيحًا ذلك؛ لأن الزعماء السياسيين لم ينجحوا في تولي الزعامة السياسية، ولم ينجحوا في أن يصوغوا نظام الدولة طبقًا لما يريدون، ولم ينجحوا في توجيه السياسة الداخلية ولا السياسة الخارجية.

ولم تكن في ألمانيا طبقة يخرج منها الزعماء السياسيون الذين يتوافر لهم بعد النظر والتجربة في الشئون الخارجية، وقد نجح أبرز ساسة ألمانيا في إفساد الطبقة البرجوازية سياسيًا بإرغامها على تقبل انتصاراتهم العسكرية بعد أن تكون هذه الانتصارات قد تمت، كما نجحوا في استثمار مخاوف هذه الطبقة من حركات طبقة العمال.

وقد حاول ويلهلم الثاني ـ مع تخيره بين رجال بلاطه نفر من نخبة رجال الاقتصاد ـ أن يحتفظ بسلطانه السياسي المستقل كما يحتفظ بسيطرته

(١) Carl Schmitt, Staatsgefüge und Zusammenbrucnh des sweiten Reiches (Hamburg, ١٩٣٤).

على القوات العسكرية، وحتى سنة ١٩١٤ كانت اللجنة الوزارية العسكرية ـ عن طريق نفوذها في اختيار كبار العسكريين وأفراد هيئة أركان الحرب، وعن طريق كفايتها لتخطيط العمليات الحربية للمستقبل ـ تسيطر فعلاً على السياسة العسكرية، ومن جهة أخرى كان التسليح للبحرية يتم بمعاونة حملات الدعاية الواسعة التي تتولاها «جمعية رجال الأسطول الألماني»، لقد كانت تتوافر (للفرع الأصغر) من القوات المسلحة الألمانية الذي يسيطر عليه ڤون تيربتز Von Triptz اشتراكية اعتدائية أكثر مما تتوافر للجيش المتحفظ.

وكانت «جمعية رجال الأسطول الألماني» قد أنشئت سنة ١٨٩٨ كأول منظمة اجتماعية في ألمانيا، ويمكن أن نعتبر نشاطها في الدعاية للتسليح مماثلاً لنشاط الحزب الاشتراكي الوطني بعد سنة ١٩٣٣، وقد كفلت الهيئة وضمنت مواردها المالية بواسطة المؤسسات التي تعمل في الصناعات الثقيلة[1].

---

(١) كان في ا لجمعية سنة ١٩١٠ (٣٠٠.٠٠٠) عضو عامل مع ٧٤٠.٠٠٠ عضو إضافي انضموا للجمعية في مجموعات عن طريق ما لا يقل عن ١٧٠٠ هيئة أخري راجع:

Konteradmiral A. D. Weber ،"Der Deutsche Flottenverein" in Deutsche Revue XXXV (١٩١٠), ١٧٧.

وكان لها مائة فرع في الدول الأجنبية وتنفق خمسين ألف جنيه سنويًا مقابل ثلاثة آلاف جنيه تنفقها جمعية رجال الأسطول البريطاني على ما جاء في مقال بعنوان:

"The German Navy League" in National Review, XLVI (١٩٠٥), ٦٣٩.

وكانت صحيفة "Die Flotte" (الأسطول) اللسان الرسمي للهيئة توزع ٣٢٠.٠٠٠ نسخة في سنة ١٩٠٥ في الوقت الذي كانت الصحف الأربع الألمانية الرئيسية توزع في جملتها معًا ١٥٢٠٠٠ نسخة.

وفي أول يوليو سنة ١٩٣٣ بعث هتلر ببرقية يدعو فيها إلى عقد اجتماع عام للهيئة معلنًا (أنه=

وكانت القوة السياسية للهيئات المختلفة التي تتوزع بينها السيطرة على المسائل العسكرية هي الوسيلة للاقتراب من الإمبراطور ويلهلم، فلقد كان الإمبراطور يفضل الإنصات لنصيحة المستشارين غير المسئولين أمام مجلس الريشستاغ كالوزراء الذين يتولون المراكز الوزارية في الشئون الداخلية والعسكرية والبحرية، كما ينصت لرؤساء هيئة أركان الحرب والامبرالية، ولم يكن الوزراء الذين يتولون وزارات تخضع لرقابة الريشستاغ والذين يعتبرون تبعًا لهذا مسئولين أمام المجلس النيابي، يقابلون الإمبراطور في أوقات محددة بفترات منتظمة لتقديم التقارير عن الوزارات التي يتولونها، بل إن مستشار الرايخ (رئيس الوزراء) نفسه لم يكن يقابل الإمبراطور كثيرًا، وكان الوحيد المستثنى من تفضيل الإمبراطور للمستشارين غير المسئولين هو وزير الحربية الذي تعطل من سلطانه اللجنة الوزارية لشئون الحرب، كما تعطل من هيئة أركان الحرب العامة، وفي حكم (غليوم) ويلهلم الثاني كانت سلطات وزير الحربية تمر بعدة مراحل تقيد منها، وعلى حين كان مجلس الريشستاغ يعمل لتقوية مركز وزير الحرب بالحد من سلطات اللجنة الوزارية إلا أن وزراء الحرب على التوالي قد رفضوا هذه المعاونة واعتبروا أنفسهم كقادة الجيش يتلقون أوامرهم من

=منذ شبابه كان يعرف الكثير عن هذه الجمعية وأنه كان يقرأ صحفها بشغف وأنه يرحب بأن تعود الجمعية لاستئناف نشاطها) راجع:

Admiral A. D. Bauer "Der Deutsche Flottenverein ١٨٩٨ bis ١٩٣٤" in Marine Rundschau, XL (١٩٣٥), ٦٤.

وقد جاء في مقال المجلة القومية المشار إليها قبلًا تقول عن الهيئة في سنة ١٩٠٥:

«وكان نفوذها السياسي في ألمانيا عظيمًا جدًّا بل ولربما كان أكبر من نفوذ أي حزب سياسي فيها».

الإمبراطور(١).

ويوضح حكم الإمبراطور سيادة السلطات العسكرية على السلطات المدنية، وكان في عداد السلطات العسكرية الوزارات التي لا يخضع وزراؤها لرقابة البرلمان، وكان رئيس اللجنة البرلمانية يقابل الإمبراطور ثلاث مرات في الأسبوع على حين يقابله وزير الحرب مرة واحدة، وفي هذه المرة كان من الضروري أن يحضر الاجتماع مندوب من اللجنة الوزارية لشئون الحرب، في الوقت الذي ليس لوزير الحرب حق حضور الاجتماعات التي تعقدها اللجنة الوزارية مع الإمبراطور، فإذا لم يكن الإمبراطور في برلين قدم وزير الحرب تقاريره للجنة الوزارية.

على أن قوة اللجنة العسكرية الوزارية ـ والتي بدأت في سنة ١٨٧٤ بأربعة أعضاء فوصل عددهم سنة ١٩٠٠ إلى سبعة عشر عضوًا ـ لم تكن ترجع إلى الصلة الوثيقة التي تربط الأعضاء بالإمبراطور فحسب بقدر ما ترجع إلى سيطرة اللجنة على المسائل الخاصة بالأفراد في الجيش، ولم يكن لمجلس الريشستاغ أي سيطرة على ترقيات الضباط واستقالاتهم ونقلهم، وفي نفس الصورة تنعكس السلطات القليلة والمراكز الأقل أهمية لوزارة الحرب من طبيعة تكوين أفرادها أنفسهم، وكقاعدة عامة ـ فيما عدا القليل جدًا من الحالات الشاذة ـ كان وزير الحربية دائمًا يختار من كبار الضباط

(١) في سنة ١٨٨٩ أشار الـجنرال ڤون ڤيردي ـ محاولة منه ليفوز بالتوصية باختياره وزيرًا للحربية ـ بأن من رأيه أن وزير الحربية يجب أن يضحي في سبيل هذه العلاقة (علاقته بالإمبراطور) بالسلطات التي لوزارته، راجع:

R. Schmidt- Buckeburg, Das Militar- Kabinett der preussischin Konige und deutschen Kaiser (Berlin, ١٩٣٣), pp. ١٧٤

الذين لا تتوافر لهم شهرة عسكرية ممتازة، وكان الضباط النابهين النشطين يتوقون دائمًا للالتحاق بهيئة أركان الحرب، وكان الضباط أركان الحرب من الدرجة الثانية هم الذين يرسلون إلى إدارات وزارة الحرب، على أن تستكمل الوزارة مرتباتها من خريجي الأكاديمية الفنية العسكرية التي تعرف في دوائر العسكريين باسم «أكاديمية السباكين» ومن مفتشي المدفعية وضباط الوحدات.

وكان هؤلاء «الصفوة» من العسكريين يعنون دائمًا بالاحتفاظ بوضعهم الاجتماعي كما يعنون بالدفاع عن استقلالهم ضد السيطرة المدنية، وكان هذا الوضع وهذا الاستقلال يتعرضان للخطر بسبب تصنيع المجتمع الألماني، هذا التصنيع الذي أوجد طبقة مضادة «للصفوة» من العسكريين، طبقة تستند إلى القوة الاقتصادية فضلاً عن توافر جماعات حضرية في المدن لا تتكيف مع الطابع السياسي الذي سبق عصر التصنيع، ولنصور هذا بوضوح يجب أن نناقش الإنتاج ومعقباته في المدة في سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٩١٠؛ ففي هذه المدة التي تمتد لأربعين سنة زاد انتاج الفحم من ٣٤ مليون طن إلى ١٩٠ مليون طن، أي أنه تضاعف لما يقرب من ست مرات، وفي سنة ١٨٧٠ كان في ألمانيا ١٨٥٦٠ كيلو مترًا من الخطوط الحديدية مع ٤٠٠٠ مكتب للبرق فوصل هذا وذاك سنة ١٩١٠ إلى ٥٩٠٣١ كيلو مترًا من الخطوط الحديدية و ٤٥٠٠٠ مكتب للبرق، وفي سنة ١٨٧١ كان ثلثا سكان ألمانيا يعيشون في المناطق الريفية في أماكن إقامة يقل تعداد سكان كل منها عن الألفين من السكان، وفي سنة ١٩١٠ كان ثلاثة أخماس ألمانيا يعيشون في المناطق الحضرية وكان الخمس الرابع يعيش أفراده في مدن يزيد تعداد سكانها على مائة ألف؛ وفي المدة من سنة ١٨٨٢ إلى سنة ١٩٠٧ زاد

عدد الذين يعتمدون على غيرهم زيادة قليلة من ٤.٩٩٥.٠٠٠ إلى ٥.٣٣٢.٠٠٠ ولكن نسبتهم إلى غيرهم من الطبقات الأخرى هبطت من ٤٥ ٪ إلى ٢٠ ٪، وفي نفس الوقت زاد عدد العمال من ١٠.٧٠٥.٠٠٠ إلى ١٧.٨٣٦.٠٠٠ أي أن الزيادة كانت بمعدل ٦٠ ٪ من العدد الأصلي قبل ٢٥ سنة.

على أننا يجب أن نلاحظ في هذا العرض المجمل أن الصفوة من العسكريين في العصر الإمبراطوري لم يكونوا «إمبرياليين» النزعة، كانوا يمدون من نطاق نشاطهم في الصراع بهدف واحد من الاحتفاظ بمكانتهم وسلطتهم في خضم تطور اجتماعي يعرض هذه السلطة وتلك المكانة للخطر، ولا تعتبر هذه الصفوة مسئولة بحال ما عن قيام مشروعات الطموح القومي والغزو، ثم إن مختلف المنظمات والهيئات الاجتماعية مثل «جمعية رجال الأسطول الألماني»، وجمعية «رابطة كل الألمان» وغيرها من الهيئات التي عنيت بالحصول على مستعمرات مع العمل لتطور هذه المستعمرات، إنما قامت وكانت تحت سيطرة الجماعات المضادة للزمرة، من رجال الاقتصاد، ومن نفر كبير من المثقفين الذين خرجوا من الطبقات المتوسطة[١] .

(١) نجد على سبيل المثال أنه في سنة ١٩٠٤ كان ١٢٨ ـ على الأقل ـ من الـ ٢٧٦ عضوًا مسئولًا في «رابطة كل الألمان» من الجامعيين على ما يقول لوثر ويرنر Lother Werner في كتابه:

Der Alldeutsche Verband ١٨٠٠ - ١٩١٨ (Berlin, ١٩٣٥), p. ٦٤

وقد وقع إعلان قيام «الجمعية الألمانية الاستعمارية» سنة ١٨٨٢ ممثلو الحزب القومي الحر، وأساتذة الجامعات ورؤساء الغرف التجارية ورجال الصناعة في أرض الرين وجنوب ألمانيا، راجع: =

وقد وقف نظام الطبقات في العسكرية الألمانية طوال حكم الإمبراطور معطلاً حتى تدابير الكفاية اللازمة لإدارة الجيش برغم أن التقدم الفني قد جعلها ممكنة مستطاعة، ولقد برزت هذه التحديدات المعطلة في أربعة قطاعات من الحياة العسكرية الألمانية، أي في:

* التكوين الاجتماعي للجيش.

*اقتصاديات الحرب.

* موقف العسكريين من التطورات الفنية «التكنولوجية».

* نقص تفهم أهمية الدعاية في النزاع المسلح.

ولقد مدت العسكرية الألمانية من أسسها الاجتماعية بتدابير نظم غير كاملة حتى لا تنعزل عن الجماعات الاقتصادية والأيديولوجية المتوافرة القوة والسلطان، على أنه ـ فيما عدا ما كان يحدث كثيرًا من تزاوج بين أفراد من الارستقراطيين وغيرهم من البرجوازيين، وفيما عدا قصر وظائف كبار موظفي الدولة على خريجي معاهد خاصة يقصر الانضمام إليها على الطلاب من طبقات محدودة من الأمة ـ فيما عدا هذا أو ذاك كان نظام التعليم يوجه لصالح الصفوة من العسكريين وحدهم.

وقد قصر أداء الخدمة العسكرية لسنة واحدة على الطلاب الذين وصلوا إلى مستوى معين من الدراسة في المعاهد العليا، وبذلك يعتبر هذا

= CF. Die Deutsche Kolonialgesellschaft ١٨٨٢ - ١٩٠٧ (Berlin, ١٩٠٨).

وقد تكونت «جمعية رجال الأسطول الألماني» سنة ١٩٠٨ بوساطة رجال جعلهم من «المنظمة المركزية لرجال الصناعات الألمانية» راجع كتاب:

CF. Eugen Richer, zur Flottenfrage (Berlin, ١٩٠٠), p. ٣١.

راجع أيضًا الهامش رقم (٤).

بالتبعية قاصرًا على الأفراد الذين هم في مستوى اجتماعي محدد، فكان لأصحاب المكانة الاقتصادية امتيازات معتدلة في الجيش، وكان لهذا أهميته بخاصة في التكوين الاجتماعي للضباط الاحتياطيين، وهي دراسة فرضت الزامًا على أبناء البرجوازيين مستويات الصفوة من العسكريين «الارستقراطيين»، وفي السنوات التي سبقت الحرب كان يحضَر هذه الدراسات التي قيل لها (السنة الواحدة) Einjahrige خمسة ألف طالب على حين أن عدد الضباط الاحتياطيين في الجيش الألماني سنة ١٩١٤ كان ٢٩٠٠٠ ضابط[١]، فإن السيطرة الحقيقية لاختيار الضباط من هؤلاء الطلاب كانت تتركز في أيدي ضباط الوحدات، وكان الاختيار يتم على أساس الوضع الاجتماعي والعقيدة السياسية، ولم يكن يجتاز اختبار الترقي لرتبة ضابط أي طالب يعرف أنه متحرر العقيدة السياسية.

وقد أدت زيادة نسبة الضباط من جمهرة الشعب إلى نسبتهم من ذوي الألقاب في حكم الإمبراطور ويلهلم الثاني، أدت إلى مشكلة؛ ذلك لأن الخوف من تدمير الطابع التحفظي لمجتمع الضباط، والخوف من تعريض الاستقرار السياسي للرايخ الألماني للخطر بزيادة عدد الجيش من بين سكان المناطق الحضرية يعطلان من الاستخدام الكامل للقوى العددية للشعب، وقد سيطرت اعتبارات المكانة الاجتماعية على أي اعتبارات أخرى حتى الاعتبارات الخاصة بتقدير كفاية الأفراد وصلاحيتهم لخدمة الجيش، وعلى سبيل المثال فإنه عندما كتب ڤون أينم Von Einem سنة ١٩٠٤ للكونت ڤوق شليـڤـن رئيس هيئة أركان الحرب يقترح سد النقص في عدد الضباط بتخفيض المستويات المطلوبة، كانت إجابة شليـڤـن: «إنني لا أستطيع أن

(١) Herbert Rosinski, the German Army, (New York, (١٩٤٠). p١١٢.

أوصي بهذا بسبب أنني لا أستطيع أن أتقبل العناصر الديمقراطية وغيرها مما لا يصلح أفرادها لهذه الصناعة»[١] وقد عبر ڤون هيرنجن Heeringen وزير الحرب بآراء مماثلة عند مناقشة موضوع الضباط وضباط الصف في تقرير لـڤون مولتكه رئيس هيئة أركان الحرب في يناير سنة ١٩١٣.

ويمكن أن تتضح هذه التحديدات الطبقية في العسكرية الألمانية قبل الحرب العالمية الأولى من حقيقة واحدة هي قلة تفهم العوامل الاقتصادية للحرب في ألمانيا قبل سنة ١٩١٤، وكانت أغلب الدوائر العسكرية والمالية تعتقد أن الحرب لا يمكن أن تستمر طويلاً[٢].

وكانت كل البحوث والدراسات التي أجريت بوساطة وزارة الحرب في السنوات ١٨٨٤ و ١٩٠٦و ١٩١١ لتقدير احتياجات الجيش من الغذاء في حالة الحرب تقوم على أساس أن الحرب لن تستمر لأطول من تسعة شهور.

وقد قام هذا الاعتقاد من ناحية على أساس التجارب في الحروب السابقة في القرن التاسع عشر التي لم تستمر إلا لأسابيع أو شهور، كما قامت من ناحية أخرى على أساس القوة التدميرية للأسلحة الحديثة، فلقد كان من المظنون أن الأمم الصناعية الحديثة لن تستطيع خوض غمار حرب طويلة الأجل.

(١) Reicharchev, der WeltKrieg ١٩١٤ bis ١٩١٨, Kriegsrustung und Kriegswirstchaft, i (Berlin, ١٩٣٠), ٩١.

(٢) كانت هناك بعض الآراء القليلة التي تباينت عن هذا الاتجاه العام، فلقد ذكر ڤون سنة ١٨٩٠، كما ذكر ماكس فاربورج سنة ١٩٠٧ بأن أي حرب مقبلة ستستمر لعدد من السنين.

ومن الضروري أن نلاحظ أيضًا أن الصفوة من العسكريين لها مصلحة مهنية في الحرب القصيرة الأجل، وكانت هيئة أركان الحرب تخشى أن الإعداد لحرب طويلة الأجل قد يؤدي إلى تعطيل سيطرة العسكريين وحدهم على توجيه الحرب وإدارتها، أو على الأقل يؤدي إلى زيادة أهمية العوامل الاقتصادية والاجتماعية في الحرب، فإن التعبئة الاقتصادية لحرب طويلة تتطلب ميزانية جديدة وسياسة اجتماعية جديدة؛ والمال الذي ينفق لاختزان ما يكفي من الأغذية والمواد الخام لن يكون في متناول اليد للأغراض العسكرية حتى في أضيق ما لهذا من معنى، واستخدام جحافل من العمال المهرة في صناعات الحرب قد يعني تخفيض القوى البشرية التي يمكن استخدامها في القتال، وهكذا كان من الواضح أن الإعداد لحرب طويلة سيقلل من القوة العسكرية التي أملت هيئة أركان الحرب أن تحقق بوساطتها قرارًا عسكريًا حاسمًا سريعًا.

وقد وجهت خطط هيئة أركان الحرب تبعًا للضروريات وتبعًا لإمكان إجراء «استراتيـچية الاصطدام»، وقد رفض شليـفـن «استراتيـچية الإجهاد» بسبب أنها تعرض كيان الأمة للخطر تبعًا لتوزيعها وإرهاقها أوجه النشاط التجاري والصناعي، وعبر الـچنرال ڤون بلوم(*) أحد تلاميذ شيلفن عن هذه الآراء نفسها في كتابه عن الاستراتيـچية الصادر سنة ١٩١٢ .

ويتضح النقص الفني في العسكرية الألمانية قبل الحرب أكثر ما يتضح

(*) فلهلم ڤون بلوم، أحد قادة وحدات المشاة، ولد في ١٠ من مايو سنة ١٨٣٥ وتوفي في ٢١ من مايو سنة ١٩١٩، ويعتبر من كبار الكتاب العسكريين الألمان وأهم مؤلفاته كتابه (الاستراتيـچية).

من متابعة تطور القوة الجوية، وتتحدث الأرقام التالية عن نفسها، ففي المدة من سنة ١٩٠٩ إلى سنة ١٩١٢ أنفقت فرنسا ٣٠.٦١٠.٠٠٠ فرنك على قواتها الجوية على حين أنفقت ألمانيا ٦.٤٨٦.٠٠٠ مارك، وكانت نتيجة هذا أنه كان لدى فرنسا سنة ١٩١٤ ٣٩٠ طائرة و ٢٣٤ طيارًا على حين كان لدى الجيش الألماني ١٠٠ طائرة و ٩٠ طيارًا[1]، وبذلك كانت النسبة في النفقات بين فرنسا وألمانيا ٤:١، والنسبة في عدد الطيارين بينهما ٢.٥:١، على أنه قبل بدء الحرب أدركت هيئة أركان الحرب الألمانية أن الطائرات أفضل المركبات الأخف من الهواء[*].

ولكن وزارة الحرب، بل وبخاصة وزارة المالية، اعترضت على زيادة

(١) Kriegsrustung op-cit I (Documints) p. ٤٤ Note I.
ويذكر. و . بيرس في كتابه (الحرب الجوية) طبع نيويورك سنة ١٩٣٩ ص٩٢ الأرقام التالية عن الطيارين الذين كانوا حائزين على إجازة قيادة طائرة عسكرية سنة ١٩١١، في فرنسا (٣٥٣)، إنجلترا (٥٧)، ألمانيا (٤٦)، إيطاليا (٣٢)، بلـچيكا (٢٧)، الولايات المتحدة (٢٦)، النمسا (١٩).

(*) يقصد «بالسفن الأخف من الهواء» المناطيد، ويقول الليفتينانت چنرال بارون ڤون فرتياج لورنجهوڤـن في كتابه
(Deduction From The World War).
الترجمة الإنجليزية طبع لندن سنة ١٩١٨ ص٥٤ / ٥٥:
«أثبتت المناطيد طراز زبلن صلاحيتها لأعمال الاستكشاف في البحر وإن كانت قد أخلت مكانها في الأعمال البرية للطائرات، ولقد اضطرت بسبب تعرضها لنيران المدفعية لأن تطير على ارتفاع كبير مما قلل من دقة إصابتها للأهداف، إن اختراع الكونت زبلن قد أمد ألمانيا وبخاصة في بدء الحرب بسلاح كانت له أهميته الكبيرة فبالمنطاد زبلن استطعنا الطيران فوق انجلترا، على أن قيمة الطائرات زادت عندما استطاعت أن تعلو إلى ما يزيد على ثلاثة آلاف متر، وبذلك قلت خطورة تعرضها لنيران المدفعية، إن للطيران مستقبله العظيم وإمكانيات تطور السلاح الجوي كبيرة» المترجم.

النفقات التي تستهلك في صنع الطائرات وأشارت إلى صعوبة إعداد وتدريب الطيارين[١]، فضلاً عن أن قيادة السفن الأخف من الهواء كانت عند حد الاعتقاد بأن الطائرات لن تكون صالحة للحرب[٢].

وكان هناك تراخ مماثل في تقوية واستخدام الوحدات الفنية في الجيش وبخاصة وحدات المواصلات والمدفعية[٣] وفي سنة ١٩٠٠ قدم الـچنرال ڤون دير جولتز عددًا من المقترحات الهامة عن المهندسين في الجيش الألماني، وكان من رأيه أن وحدات المهندسين يجب أن يتضاعف حتى يصل إلى معدل ثلاث سرايا للفيلق الواحد، كما يجب زيادة تدريب الضباط، وكما يجب إيجاد ارتباط تكتيكي بين المشاة وبين الوحدات الفنية على أساس تبادل الضباط، وعلى أساس تشكيل هيئة أركان حرب خاصة للمهندسين تتكون من ضباط من كل الأسلحة يتدربون تدريبًا فنيًا خاصًا.

ولم تتقبل وزارة الحرب، ولا هيئة أركان الحرب، هذه المقترحات بالترحاب، وقد استخدم الافتقار إلى المال كوسيلة للاعتذار عن قصر النظر في إدراك أهمية هذه المقترحات، وكانت هيئة أركان الحرب تعرف أن تشكيل

---

(١) استطاعت فرنسا التغلب على هذه الصعوبة بإصدار الأوامر للمصانع التي تصنع الطائرات بأن تدرب طيارًا مقابل كل طائرة تخرج من مصانعها.

(٢) A. Hildebrandt, "Die Luftfahrertruppe" Hanbuch der Politik, III (٢nd ed; Berlin, ١٩١٤), p. ٣٠٥.

(٣) كانت العادة قبل الحرب العالمية الأولى إغفال الكثير من الأغراض التي تدخل ضمن مرامي المدافع على أساس عدم دقة المراقبة في المسافة البعيدة، «والغريب أن ننسى أن مدى الرؤية في النظارات المقربة كان يتزايد، وأن استخدام التليفون كان يمكن من مدى المراقبة» راجع:

Max Ludwig, "Heerestechnik "Die Deutsche Wehrmacht ١٩١٤ - ١٩٣٩. (Berlin, n. d.), p. ٨٧.

هذه الهيئة الخاصة لوحدات المهندسين سيحد من سيادتها ومن سيطرتها، ومع أن الحرب الروسية اليابانية قد جاءت بعدة دروس ـ لا يمكن إغفالها ـ، توضح أهمية الوحدات الفنية في الحرب الحديثة، فإن هيئة أركان الحرب الألمانية صرحت في بساطة بأنه ما من حاجة ملحة لزيادة عدد وحدات المهندسين.

ولم تحذر الصفوة من العسكريين الألمان ـ في غمرة التحديد الذي تواجهه بسبب تكوينها الاجتماعي، وبسبب جهلها بالعوامل الاقتصادية المؤثرة في الحرب الحديثة، وتبعًا لكراهيتها وموقفها من المستحدثات التكنولوچية ـ لم تحذر أهمية عامل الدعاية، ولم تكن هذه الصفوة في فجر الحرب متأهبة بأي صورة لهذا الميدان، ميدان الدعاية.

وبرغم خوف هؤلاء الناس الذين يسيطرون على الجيش الألماني من أن الحرب سوف تسبب تعطلاً في الأيدي العاملة كما ستسبب اضطرابًا اجتماعيًا فإنهم لم يدركوا إمكان الاحتفاظ بالقوى المعنوية للجبهة الداخلية بجهد مركز تبذله الحكومة من جانبها، ولما كان هؤلاء العسكريون قليلي الاتصال بالأعمال العامة الحديثة، قليلي التفهم لأساليبها وأصولها، فإنهم لم يتعلموا شيئًا عن الإعلان التجاري، فضلاً عن أن الدعاية كالتكنولوچيا كانت تسودها روح حضارة الطبقة المتوسطة، هذه الطبقة التي كان الصفوة من العسكريين ينظرون إليها نظرة خالية من التقدير، وكانت الفكرة أن السيف لا القلم هو الذي يقرر مستقبل الحروب.

وقد وضحت كل هذه العوامل التي تحد من تطور التنظيم الطبقي (نظام الطبقات) في العسكرية الألمانية عقب بدء الحرب بقليل، كان الإمبراطور من الناحية النظرية هو القائد العام، وكان رئيس هيئة أركان

الحرب هو المستشار الاستراتيـجـي للإمبراطور.

ولكن من الناحية العملية قامت في ألمانيا دكتاتورية عسكرية منذ أن استبدل ڤالكنهاين بهندنبرج ولودندورف، ولقد وضع لودندورف في خضم النزاع بين السلطات العسكرية والسلطات السياسية بحيث يمكنه أن يوطد سيادة القادة العسكريين على رجال السياسة، وكلما وجد تحديدات دستورية تعطل أو تحد من سلطته أغفلها وتنكر لها.

ولكن كونه كان يشعر بهذه التحديدات المعطلة، وأنه كان يفكر فيها طويلاً، يبدو ولا شك من حقيقة أن كل انعكاسات آرائه في إيضاح العلاقة بين السلطات العسكرية والسلطات المدنية كانت متأثرة بتجارب الحرب.

وقد ضعف نفوذ اللجنة الوزارية العسكرية تحت ضغط الحرب، إلا أنه لم يمكن الوقوف أمام السلطة التي للريشستاغ تبعًا للحق الذي له في السيطرة على شئون الميزانية إلا بالتهديد المتكرر بالاستقالة من جانب هندنبرج ولودندورف، وكان لودندورف هو الذي يحسم كل نزاع بين السياسيين وبين القادة العسكريين، ولم يكن هذا بسبب تطلبه السلطة لنفسه كما كان بسبب أنه عندما تكون الكفاية أو المهارة هي مطلب الساعة لم يكن هناك غيره من يتطلب هذه السلطة مع ما يصحبها من مسئولية.

***

ولم يكن لودندورف أصلاً من الطبقة الارستقراطية فقد كان سليل أسرة غامضة الأصل مبهمة المنبت، وقد تقدمت به كفايته إلى مركز كان يحتفظ به عادة لضباط من النبلاء، فإذا ما قدرنا أصله ومنبته، وقدرنا الوظيفة التي استحدثت من أجله «الكوارتر ماستر چنرال الأول» erster

Generalquartiermeister وهي الوظيفة التي تولاها من أغسطس سنة ١٩١٦ حتى نهاية الحرب أدركنا أنه كان «حديث النعمة» برز فجأة إلى هذا الوضع الاجتماعي الكبير، ولربما كان بسبب هذا أن أحس لودندورف بالتحديدات السياسية بالنسبة لسلطاته بالرغم من أن هذه التحديدات لم تكن ذات أثر، كما أحس بنقص المسئولية المركزية للسيطرة على جهود الحرب الواسعة النطاق بأكثر مما كان يمكن أن يحس بها ضابط من النبلاء يستند إلى تقاليد تتعمق جذورها في داخلية نفسه، وكان لودندورف قوى الإرادة بدرجة أكبر مما توافر للقيصر الإمبراطور ولرئيس الوزراء، ومن ثم فقد استطاع أن يستعوض ما يفتقر إليه كسياسي وكرجل من رجال الاقتصاد.

وينشأ النزاع بين السياسيين والقادة العسكريين في سهولة ويسر أيام الحرب، وقد يستطيع حتى السياسيون المعتدلون أن يدافعوا بصلابة عن وجهات نظرهم عندما تتضاد تقاليدهم وتعاليمهم السياسية مع اتجاهات العسكريين أيام الحرب وعملهم لإعادة توزيع السلطات توزيعًا لصالح الصفوة من العسكريين، والرجال الذين تتوافر لهم الشخصية القوية يستطيعون أن يصمدوا حتى ضد أعنف التيارات المضادة، وقد نجح بسمارك في هذا سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧١، ولقد كتب بسمارك في فقرة من مذكراته حديثًا يمكن أن يكون حكمًا على آراء لودندورف السياسية، وفي هذه الفقرة يقول بسمارك: «إن وضع وتحديد الأهداف التي يجب أن تحققها الحرب، وكذلك تقديم المشورة للملك في هذا الشأن ـ سواء في وقت الحرب وفي وقت السلم ـ لمسألة سياسية من اختصاص السياسيين».



لودوندورف (١٨٦٥ ـ ١٩٣٧)

وكان بيثهان ـ هولـڤيج[*] Bethmann - Hollweg السياسي الألماني الوحيد الذي كان له اعتباره وقت الحرب بالرغم من أنه لم تتوافر له لا الشخصية ولا الإرادة للوقوف في ثبات ودون تأرجح ضد العسكريين.

ولكن من الغريب أنه لم يتردد عن أن يهز من استقلال أميرالات البحر، وقد حول بيثهان ـ هولـڤيج مسئولية إصدار كل القرارات الهامة للحرب البحرية في الحرب العالمية الأولى إلى القيادة العامة، ومن ثم كان حكم لودندورف ـ الذي أمل في السلم عن طريق تحقيق نصر عسكري ـ حاسمًا في إطلاق الغواصات الألمانية من عقالها للقيام بعمليات غير محدودة لا تخضع لقانون[1]، وقد أطلق بيثهان ـ هولـڤيج أيدي العسكريين ولم يحاول قط الحد من سلطانهم السياسي.

وكنتيجة لهذا برز لودندورف كديكتاتور عسكري لألمانيا، ودوره هذا في الواقع جد معروف ولا يحتاج منا إلى أكثر من مجرد تسجيل الحوادث التي وضع تخطيطها ونفذها بفرض سلطاته غير الدستورية على الإمبراطور ورئيس الوزراء والريشستاغ، هذه الحوادث التي يمكن إجمالها في: إعفاء

(*) نيويورك بيثهان ـ هولـڤيج كان رئيسًا للوزارة البروسية ووزيرًا لخارجية الرايخ الألماني حتى ١٤ من يوليو سنة ١٩١٧ «المترجم».

(١) راجع لتفهم دور لودندورف كديكتاتور عسكري أثناء الحرب كتاب أرثر روزنبرج.

Arthur Rosenberg, Die Entstehung der deutschen Republik

طبع برلين سنة ١٩٢٨ وبخاصة الفصول ٤، ٥، ٦ وكذلك كتابي

Karl Tschuppik, Ludedarff: The Tragedy of Military.

Mind transl. by W. H. Johnston (Boston, New York, ١٩٣٢).

K. Von Oertzen ،"politik and Werhmacht" ،Wissen und Wehr, V (١٩٢٨).

بيثمان ـ هولـڤيج وتعيين ميخاليس Michaelis(*) رئيسًا للوزراء بدله، إعفاء ڤون كوهلمان من عمله كوزير للخارجية، نفوذه الحاسم في صياغة معاهدات الصلح مع روسيا ورومانيا، ثم إعفاء ڤون ڤالنتيني من عمله كرئيس للجنة الوزارية الخاصة بالشئون المدنية.

وفضلاً عن هذا فقد توافر للودندورف نفوذ حاسم في كل مرحلة من مراحل الاقتصاد الألماني والسياسة الألمانية طوال الحرب.

ـ ٢ ـ

ويمكن أن نعرض جملة رأي لودندورف عن «الحرب الشاملة» في خمس نقاط رئيسية جمع فيها رأيه، وهي: الحرب عملية شاملة:

أولاً: لأن مسرح القتال يمتد ليغطي كل أرض الأمم المتقاتلة.

وثانيا: لأنه بالإضافة إلى ما يسببه هذا من مخاطر فإنها (الحرب) تتطلب المساهمة الإيجابية في المجهود الحربي من جانب كل السكان، فليست الجيوش بل الأمم هي التي تخوض غمار الحرب الشاملة، ولهذا فإن تنفيذ واستكمال كل مطالب الحرب يستلزم تكيف النظام الاقتصادي مع أغراض الحرب.

ثالثًا: اشتراك جماعات كبيرة في الحرب يستلزم ضرورة بذل جهود خاصة ـ تلعب فيها الدعاية دورًا هامًا ـ وذلك لتقوية معنويات الأهلين وإضعاف التماسك السياسي للعدو.

(*) چورچ ميخاليس George Michaelis سياسي ألماني ولد سنة ١٨٥٧، كان وزيرًا للتغذية في مطلع الحرب العالمية الأولى وتولى رياسة الوزارة في ألمانيا من ١٤ من يوليو سنة ١٩١٧ إلى أول نوفمبر سنة ١٩١٧ «المترجم».

رابعًا: يجب أن يبدأ الإعداد للحرب الشاملة قبل بدء العمليات فعلاً، ومن ثم فإن العوامل العسكرية والاقتصادية والنفسية تؤثر فيما يقال له: «التنظيمات وقت السلم للمجتمعات الحديثة».

وأخيرًا: لكي تتحقق الأهداف التي تبذل في سبيلها الجهود يجب أن توجه الحرب الشاملة بسلطة عليا واحدة تتمثل في القائد العام.

ولم تخل فكرة لودندورف ـ البسيطة نسبيًا ـ عن الحرب الشاملة، لم تخل من تفاصيل طريفة، فإن الامتداد الجغرافي لمسارح الحرب الشاملة هو نتيجة حتمية للتقدم الفني لوسائل التدمير ولزيادة العوامل المتداخلة بين الأمم الحديثة، ولم تتسع مناطق القتال بسبب تطور الأسلحة البعيدة المدى من كل الأنواع فحسب، بل إن المناطق التي وراء مناطق القتال تتأثر هي الأخرى «بالدعاية وبالحصار للإجاعة»، ولهذا يمكن أن نمثل الأمة التي تحارب بحامية حصن يحاصره العدو، وكما تعمل القوات التي تحاصر حصنًا لإرغام حاميته على الاستسلام بتوجيه وسائل عسكرية عنيفة، لا ضد الحامية العسكرية وحدها بل وضد المدنيين الذين يعيشون داخل جدران الحصن بإجاعتهم، فإن الحرب الشاملة تستكمل عمليات الاقتحام التي توجه ضد القوات المسلحة للأمة باستخدام أسلحة غير عسكرية ضد الجماعات غير المقاتلة من السكان؛ وذلك لأنه لم يعد ثمة مكان للمظاهر الشكلية التي كانت تفصل بين المقاتلين وغير المقاتلين.

على أنه لضمان الامدادات العسكرية والمواد الغذائية للأمة التي يحاصرها العدو نصح لودندورف بتحقيق الكفاية الذاتية للاقتصاد، ومع هذا فإن آراءه عن الاقتصاد لا تزيد إلا القليل على ما يمكن أن نجده من أحاديث عامة في كتاب مدرسي، وقد ناقش لودندورف الفكرة التنظيمية

لاقتصاديات الحرب لا الإمكانيات الاستراتيـچية لتحسين موقف المواد الخام والغذاء والأيدي العاملة لأمة تحارب في مواجهة غزو يقوم به العدو[١].

والمدهش أن المساهمة الأصلية التي قام بها لودندورف في نظرية الحرب الشاملة لم تجيء في ميدان الحرب العسكرية، بل في النطاق الذي يقال له «الحرب النفسية».

ولقد عنى لودندورف إلى حد بعيد بمشكلة تماسك الشعب[*] وفي هذا المضمار وحده اختلف لودندورف اختلافًا بينا عن كل الكتاب الإشتراكيين الذين تعرضوا للحديث عن الحرب الشاملة، فلقد استهجن محاولة تحقيق الوحدة الاجتماعية بالقوة أو بالإعداد والتدريب على أساس أن الوسيلة المستخدمة تعتبر وسيلة غير مؤثرة، وقد أطلق على هذه الوسيلة أو الأخرى «الوسيلة الآلية» أو «الخارجية» ويقول: «إن الوحدة التي لا ترتبط فيها أرواح الأهلين، بروابط جنسية أو دينية ليست هي الوحدة التي يحتاجها الشعب والجيش في الحرب، إن هذه الوحدة الوهمية الآلية خطر على

(١) نوقشت المسائل الخاصة باقتصاديات الحرب في ألمانيا بوساطة أولئك الذين تخصصوا في علم «الـچيوبوليتيكا» ـ راجع الفصل ١٦ من الكتاب الرابع.

(*) في الأصل "Cohession of the people" وتعني حالة التجمع معا أو الاتجاه لهذا، وقد جاءت عن Co أي معا و herere أي يلتصق، وتعني في التفسير المادي: القوة التي تربط جزئيات المادة معا فلا تنفصل عن بعضها، وتماسك الشعب في اللحظات الحرجة كالتهديد بالحزو، أو لخوض غمار الحرب، أو لمواجهة الأزمات السياسية كانت ولا تزال من أم العوامل التي تؤثر في قوة الجبهة الداخلية، وإن كانت هذه المؤثرات في الواقع لم تتضح إلا في تاريخ متأخر منذ فجر القرن التاسع عشر «المترجم».

الحكومة والدولة»[١] .

وبنفس الصورة تحدث ـ دون مواربة ـ عن الحركات مثل الفاشية، والقومية الاشتراكية وعرض لما تقوم به من تدريب الشبان الذين لم يصلوا بعد لسن خدمة الجندية تدريبًا أوليًا، وشبه هذا التدريب بتدريب الكلاب، وشك في التدريب الجماعي الذي يحرم الشبان من تكامل شخصياتهم، كما شكك في إمكان أن يحقق هذا التدريب إعداد الشبان بحال مرضية للخدمة العسكرية[٢] .

وهكذا فإن النموذج الذي ارتآه لودندورف للأمة التي تتوافر لها وحدة اجتماعية متماسكة لم تكن هي بروسيا القديمة ولا ألمانيا الهتلرية الجديدة، وإنما كانت اليابان هي التي فكر فيها عندما تحدث عن «الوحدة» وعن «التماسك»، «فوحدة الشعب الياباني تباين الوحدة الآلية تمامًا، فهي وحدة روحية تستند إلى أصول وتعاليم عقيدة «الشنتو»[*] Shinto Religion، العقيدة التي تضطر اليابانيين لخدمة إمبراطورهم ليضمنوا سبيل الحياة لأسلافهم، ذلك لأن خدمة الياباني للإمبراطور ومن ثم للدولة لتقربه إلى الله، وتجيء عقيدة الشنتو من التراث الشعبي لليابانيين وتتمشى مع احتياجات الشعب والدولة، والوحدة في التراث الشعبي والعقيدة وفي فلسفة الحياة هي الدعامة التي تستند إليها قوة الشعبي الياباني»[٣] .

---

(١) Der totale Krieg, p. ١٧٠

(٢) نفس المرج ص٥٨ .

(*) الشنتو Shentoism الدين الأساسي في اليابان ويقوم على أساس عبادة الأسلاف والأبطال القدامي وتقديس الإمبراطور، وكان دين الدولة الرسمي قبل سنة ١٩٥٤ «المترجم». معجم وبيستر ص١٣٤٥ طبعة سنة ١٩٥٦ .

(٣) نفس المرجع ص١٧ .

وكان هدف لودندورف إمداد الشعب الألماني بعقيدة تماثل عقيدة الشنتو لليابانيين، ومهما كان هذا يبدو خياليًا في طابعه فإن لودندورف كان يدرك تمامًا لحقيقة أن الحاجة ماسة إلى أكثر من سياسة دعاية جيدة حتى تتوافر المعنويات الشعبية التي تمكن الناس في مجتمع صناعي حديث من تحمل متاعب وصعاب الحرب الشاملة، وقد أدرك لودندورف كما أدرك ايرنست يونجر «أن التعبئة قد تنظم القدرات الفنية للرجل دون أن تتعمق إلى لب إيمانه وعقيدته»[1].

وقد أدرك لودندورف أيضًا أن روح التضحية (لا يمكن أن تحقن في الكيان السياسي للأمة حتى ولو كان الطبيب ماهرًا)، وعرف لودندورف بعد تمعن أن عوامل التوافق والتماسك في المجتمع إنما تكمن في التقاليد العميقة الجذور داخل كيان هذا المجتمع بأكثر مما تكمن في التنظيم الجيد للبوليس، ***والواقع*** أن لودندورف لم يقف في جانب استخدام العنف ضد المنشقين والخارجين عند ما أشار إليهم في كتابه عن «الحرب الشاملة»، وعندما تحدث في «ذكرياته» عن حقيقة أن الحكومة قد تستخدم القوة ضد أولئك الذين يقفون موقف التضاد من جهد الحرب تحدث عن هذا في طابع المتلمس للمعاذير.

وفي الجملة فإن آراء لودندورف في دور الدعاية كانت منطقية بدرجة أكبر من آراء هتلر فيها، وقد جاءت آراء لودندورف من النواحي الفنية للدعاية ذات دراية وتجربة تثيران الدهشة، وقد أبدى أسفه من أن الحكومة

(١) في هذا الأسلوب نفسه عرض أبرنست يونجر المساهمة الكبيرة التي قام بها راثيناو لتنظيم اقتصاديات ألمانيا للحرب، في الحرب العالمية الأولى، راجع كتابه:

Dei totale Mobilmachung (Berlin, ١٩٣١), p. ١٦.

الألمانية أخفت عن الشعب الألماني هزيمة المارن، ووقف إلى جانب سياسة المصارحة (الصراحة) حتى لا تعطي (يدا طليقة لمثيري الشائعات)[١] .

وفي نفس الصورة كتب لودندورف في مذكراته أنه كان من الضروري أن يقال كل يوم لكل ألماني، رجلاً كان أو امرأة، ماذا يمكن أن يكون لفقدان الحرب من أثر في حياته وماذا يمكن أن يكون لهذا من معنى بالنسبة للوطن، وأنه كان من الضروري أن تتحدث الأفلام والصور عن هذه أيضًا فإن عرض الأخطار وإيضاحها لجمهرة أفراد الشعب له تأثير يخالف التفكير في الكسب والغنيمة، وله تأثير أبعد مدى من الحديث أو الكتابة عن مفاوضات الصلح[٢]، ويبدو أن جوبلز في اللحظات الحرجة التي تبعت غزو روسيا قد اتبع نفس استراتيـچية الدعاية وقد انتفع ببعض أوراق من كتاب لودندورف.

وقد اتبع جوبلز ـ كلما أمكن ـ نصيحة لودندورف التي كررها الكثيرون من المؤلفين الإشتراكيين القوميين الذين كتبوا عن الدعاية ألا وهي:

«إن الدعاية الجيدة يجب أن تقدم تطور الحوادث على حقيقتها»[٣]، وانتهى لودندورف إلى ما كان الإشتراكيون القوميون سادته فيما بعد وهو: (أن نشر الشائعات أحسن وسائل الدعاية ضد العدو)[٤] .

وتصل نظرية لودندورف عن الحرب الشاملة إلى الذروة عندما

(١) Der totalekrieg, p. ٢٦.

(٢) Meine Kriegserinaerungen (Berlin, ١٩١٩), p. ٢٤٦.

(٣) نفس المرجع ص٣٠٠ .

(٤) نفس المرجع ص٣٠٢ .

تعرض للدور الذي للقائد العسكري الأعلى (للقائد العام)، فهو بالإضافة لتوجيهه العمليات الحربية يجب أن يتولى أيضًا توجيه السياسة الخارجية والاقتصادية للأمة كما يتولى توجيه سياسة الدعاية، «ومن الضروري أن تشكل هيئة أركان الحرب تشكيلاً كاملاً: أي إنها يجب أن تشتمل على خير من تتوافر لهم المهارة في ميادين الحرب في البر والجو والبحر، وتكنولوچية الحرب، وفي ميادين الدعاية والسياسة والاقتصاد، وكذلك أولئك الذين يعرفون الكثير عن حياة الناس، وعلى هؤلاء أن يقدموا التقارير لرئيس هيئة أركان الحرب ـ أو للقائد العام عند الحاجة ـ عما يقومون به كل في ميدان عمله، ولكن ليس لهؤلاء دور ما في رسم السياسة العامة»[1].

وهكذا ليس للسياسي المدني من مكان في تخطيط لودندورف للحرب الشاملة، بل أن القائد العسكري هو الذي يسيطر على كل شيء.

ثم يكمل لودندورف حديثه فيقول:

«ومن الضروري أن نضع فوق الرف «هكذا» كل نظريات كلاوزيڤتز، أن الحرب والسياسة تخدمان بقاء الشعب وكيانه، ولكن الحرب وحدها هي أقوى تعبير عن الإرادة للحياة»[2].

* * *

وكان كلاوزيڤتز يعتقد أن الثورة الفرنسية قد أزالت الكثير من التحديدات التي كان نظام الحكم في الماضي قد عرفها، عندما كانت الحكومات لا الشعوب هي التي تخوض غمار الحرب، وكانت هذه التحديدات هي التي تمنع الحرب من أن تصل إلى الطابع المطلق.

---

(١) Der totalekrieg, p. ١١١.

(٢) نفس المرجع ص١٠ .

وقد رفض كلاوزيـڤتز الرأي الخاطيء القائل بأن الحرب قد حررت نفسها من السياسة كنتيجة تبعية للثورة، وبدلاً من هذا أكد كلاوزيـڤتز في فقرة ـ نقلها عنه لودندورف فيما بعد ـ يقول فيها: إن القوى السياسية للثورة الفرنسية قد أطلقت كل أوجه النشاط التي غيرت بالتبعية طابع الحرب، وبالرجوع بالتغيير في طابع الحرب إلى تأثير السياسة يكون كلاوزيـڤتز قد حدد طابع الحرب إلى تأثير السياسة يكون كلاوزيـڤتز قد حدد الطابع السائد للحرب في ضوء بناء المجتمع السياسي الذي يثيرها ويخوض غمارها.

على أنه تبعًا للودندورف من جانب آخر فإن الحرب الشاملة نتاج التطورات في تعداد السكان والتقدم الفني، فإن زيادة تعداد السكان وازدياد كفاية وسائل التدمير قد أوجدتا هذا الطابع الشامل للحرب.

ولا توجد أقل العلائم في كتابات لودندورف التي يمكن أن تدل على أنه قد فضل «الحرب الشاملة» على «الحرب المحددة» على أسس معنوية أو أسس ميتافيزيقية، وليس فيها كذلك ما يدل على اعترافه بشرعية وعدالة ومنطقية الحرب الشاملة في ضوء تعاليم العقيدة الطغوائية للاتساع الاستعماري[١]، ولا ما يوضح تقديره لمجتمع تسوده الرغبة في القتال

---

(١) لا فائدة من البحث في تعاليم لودندورف عن تصريحات مثل هذه: «إن الطابع الدولي الصادق هو الطابع الاستعماري، طابع السيطرة في الطابع الذي يشبه «حضارة فاوست»[*]. أي السيطرة على العالم كله والتي تتحقق بمبدأ واحد، ليس هو التفاهم، بل هو الغزو والتدمير».

Oswald Spengler, Preussenthum und Sozialismus, (Berlin, ١٩١٩), p. ٨.

(*) في الأصل (Faustlike)، وفاوست: الدكتور چون فاوست بطل عدة أساطير من العصور الوسطى تدور حول حياة فيلسوف قديم باع روحه للشيطان في سبيل المعرفة والسلطة، وكانت شخصية فاوست ميدانًا خصبًا لعدد من الأوبرات والكتابات الأدبية وبخاصة=

وتطلب البطولة والإقدام على التضحية إلى حد إثارة الحرب من أجل البطولة والتضحية وما يصحبها من بريق لامع، ليس في كتابات لودندورف ما يمكن أن يدل على هذا، بل على النقيض يذهب لودندورف بعيدًا إلى حد الإصرار على أن «الحرب الشاملة» يجب أن تكون حربًا دفاعية، والناس لن يعانوا على خوض غمارها إلا إذا عرفوا أنها قامت للاحتفاظ بكيانهم.

وقد يكون من الصالح أن تقدم هنا كجانب من الجدل حول الحرب الشاملة ما جاء في كلمات ا. م. فورستر E.M. Forster من أنها: (تبشر بالمثالية على حين أن لها كل مظاهر العنف والخشونة والوحشية)، ومع هذا فإن لودندورف لم يتردد في أن يصدم الناس بآرائه غير المنطقية Unorthodox في الدين والعقيدة.

على أنه من الظلم أن نشك في أن لودندورف كان يعني ما قاله عن الطابع الدفاعي للحرب الشاملة فلقد أصر على أن طابع الحرب الشاملة يتطلب أن لا تثار إلا عندما يشعر كل الأهلين أنهم يواجهون حقًا تهديدًا في كيانهم ووجودهم، ومن ثم فلا غنية لهم عن خوض غمارها[1] .

ولو كان هذا الإصرار من جانب لوندورف على الطابع الدفاعي للحرب الشاملة مجرد محاولة لإخفاء رأيه الحقيقي في طبيعتها لكان من الممكن القول بأن كانت له اتجاهات مكياڤيلية[*] نحو الجماهير، ولكن لا

=المسرحية التي كتبها مارلو (Marlowe)، والقصائد التي كتبها جيته بين سنة ١٧٧٣ وسنة ١٨٣١ ثم الأوبرا التي كتبها چونو Gounoo مستندة إلى المادة التي في قصائد جيته «المترجم».

(١) Der totalekrieg, p.٦.

(*) راجع الفصل الأول من الكتاب الأول (رواد الاستراتيـجية الحديثة).

توجد في كتاباته كلها أي علائم تدل على مثل هذه الاتجاهات، بل الواقع أنه عارض في إفاضة وإيضاح الاتجاهات التي تتوافر في دوائر المثقفين من الإشتراكيين القوميين من أن الجماهير يمكن، بل ويجب أن توجه سيكلوچيًا للعمل لصالح الجماعات التي تتولى السلطة، وكما أشير من قبل، فإن لودندورف اعتبر هذه المحاولات لتوجيه الجماهير في هذا الأسلوب مسألة لا قيمة لها ولا تأثير.

- ٣ -

ولم ينظم الإشتراكيون القوميون المجتمع الألماني للحرب الشاملة فحسب، بل قد كتبوا أيضًا الكثير من المؤلفات عنها في طلاقة، وقد قامت مساهمتهم في تطور نظرية الحرب الشاملة على الأسس القاعدية لقول كلاوزيـڤتز ولودندورف من أن الحرب الحديثة تتطلب ضرورة تعبئة كل موارد الأمة المادية والمعنوية.

ولقد جاء الخلاف الأساسي الرئيسي بين ما كتبه المؤلفون الإشتراكيون القوميون عن الحرب الشاملة وما كتبه لودندورف عنها، في حقيقة أن الإشتراكيين القوميين قد حاولوا إيجاد مبررات إيديولوچـية للحرب الحديثة.

ومن المعتقد أن تفهم السياسة الجنسية وقانون الطبيعة في ضوء آراء داروين وفي ضوء تعاليم وأصول علم الـچيوبوليتيكا (علم سياسة الكرة الأرضية) قد أمد آلة الحرب الألمانية والعسكرية الألمانية الجديدة بقوة معنوية، على أن الأكثر من هذا أن بعض الكتاب الإشتراكيين القوميين قد دعوا نظرية لودندورف إلى النهاية التي كان من المنطق أن تنتهي إليها،

وذلك بإنكارهم وجود الحال التي يقال لها: «السلم» فهم لا يعتبرون الحرب مرحلة من مراحل العلاقات المشتركة بين الدول، بل يعتبرونها تعبيرًا عن تطور سياسي اجتماعي في حياة الشعب[١].

وفي نفس الصورة كتب الـچيوبوليتيكيون[*] الكتب عن الصور أو الطوابع التي تجيء فيها الحرب في الأوقات التي يقال لها - في الاستعمال العادي - أوقات السلم؛ وبدلاً من أن يتحدثوا عن: (السلم بين الحربين)

---

(١) Guido Fischer, Wehrwirtschaft (Leipzig; ١٩٣٦), p. ٢٣.

(*) الـچيوبوليتيكيون: أعلام علم الـچيوبوليتيكا (علم سياسة الكرة الأرضية) ويجب ملاحظة أن العلم ليس جديدًا إلا في اتساع نطاق دراساته التي كانت تتبع أصلًا بعض العلوم الاجتماعية الأخرى كالتاريخ والاقتصاد والانثروبولـچيا والتشريع وغيرها، ولقد بدأ بدراسة المنطقة السياسية من ناحية البيئة الطبيعية والحجم والمظاهر الجوية والموارد الطبيعية مع تقدير ثقافة الشعب (سكان المنطقة السياسية) ولغتهم واقتصادياتهم والحياة الاجتماعية لهم وعلاقة كل من هذه بالأخرى ثم علاقتها كلها معًا جملة واحدة، ثم اتسع النطاق في دراسة التفاصيل كبحث العواصم مثلًا وهل هي مركزية بالنسبة للمنطقة وعلاقاتها بالأوضاع العسكرية الدفاعية ومدى بعدها عن الحدود وخطوط الاقتراب إليها ووسائل تغطية خطوط الاقتراب هذه، ودراسة الحدود وهل هي طبيعية أم صناعية وكثافة السكان في مناطق الحدود والثروات المعدنية التي تجاورها ومدى تعرضها والنقاط ذات الأهمية الاستراتيـچية منها، وبحث الأنصار من الدول الحليفة والفواصل البرية أو البحرية بينها، مع تقدير العوامل الثقافية والاقتصادية منها ثم مقارنة هذا بالعدو، واعتبر العلماء كل هذه العوامل من القوي التي تؤثر في القيمة الـچيوبوليتيكية للمنطقة السياسية أو تتأثر بها، وكان العلماء الألمان وبخاصة الـچنرال كارل هوزهوڤر أول من طبق أصول العلم في مدى واسع وكان كارل هوزهوڤر هو الذي أملي على أدولف هتلر كل الفقرات التي تتصل بعلم الـچيوبوليتيكا في كتابه «كفاحي»، وكان هو الذي رسم له التخطيط السياسي لحركاته منذ تسليح أرض الرين حتى الحرب العالمية الثانية ولم يخرج هتلر عن هذا التخطيط إلا في مهاجمته للروسيا «المترجم».

أوجدوا اصطلاحًا جديدًا هو: (الحرب بين الحربين)[١].

وقد جاء واحد من أهم صور التطور - والتي لولاها لكان من المستحيل تحقيق أساليب الحرب البرقية ولكان من المستحيل أيضًا تنسيق عمل مختلف الأسلحة - جاء هذا نتيجة انعدام روح المعارضة للتطورات الحديثة بين الضباط، وقد كتب كارل يستروف Karl Justrow الذي انتقد بشدة قلة المهندسين في الجيوش الألمانية أثناء الحرب العالمية الأولى موضحًا أنه لم يكن للمهندسين أقل أثر في توجيه الحرب، كتب قبيل بدء الحرب العالمية الثانية بقليل: «إن التكنولوچية، والتي هي طفل من غير الصلب لكل التنظيمات، إنما ينظر إليها اليوم نظرة تقدير مع التفهم العميق لدورها في الحرب»[٢].

وقد تسببت إزالة كل اتجاهات المعارضة للتطورات الفنية في زيادة المساواة داخل المجتمع، فكلما ازدادت المطالبة بالمهارة الفنية والصلاحية الجسمانية للإخصائيين الذين يتولون أعمال التدمير قل الاهتمام بالأوضاع الاجتماعية التي يجب أن تتوافر للعسكريين، وكان من الضروري تضحية هذه الاعتبارات الاجتماعية في سبيل المهارة المطلوبة من الأفراد، وبخاصة عندما لا يتوافر العدد الكافي من هؤلاء الأفراد المهرة، وهكذا كانت تكنولوچية الحرب الشاملة في جانب العسكرية المتكافئة الفرص لكل الأفراد في ألمانيا الهتلرية.

وعندما أعاد هتلر نظام الخدمة العسكرية العامة ألغى امتيازات الخدمة القصيرة الأجل، والتي كانت تمنح للشبان الذين نالوا حظا من الدراسة العليا في حكم القيصر الإمبراطور؛ على أنه تبعاً لهذا وتبعاً لإمكان

---

(١) CF. Rupert von Schumacher and Hans Hummel, Vom Krieg Zwischen den Kriegen (Stuttgart, ١٩٣٧).

(٢) Karl Justrow, Der techNische Krieg, II (Berlin, ١٩٣٩) ١٣.

الترقي من الصفوف كان النظام العسكري في حكم الديكتاتورية الطغوائية لهتلر أكثر مساواة بين الأفراد عما كانت عليه الحال في حكم الإمبراطورية، ولقد خطا هتلر في هذه السبيل خطوات واسعة اتجهت إلى ما أطلق عليه أوزوالد سبنجلر «الاشتراكية البروسية»[١] مستخدمًا هذا اللون من الاشتراكية في دعم البناء الديمقراطي الطابع، الذي تحول إلى ديكتاتورية قامت على رغبة الدهماء وأصوات جماهير الشعب، وقد عمل هتلر في ضوء هذه الرغبة، لتحرير عمليات التدمير من أي مشاعر إنسانية، ولتضحية أي تقاليد في سبيل تحقيق الكفاية العسكرية، وبهذا جاء بالمساواة في المجتمع إلى مرتبة الصدارة،وهي مساواة بدئ التفكير فيها منذ أيام القرن الثامن عشر إلا أن تحقيقها تطلب قيام حركة سياسية شعبية جديدة.

***

وعندما أدخل نظام التجنيد الإقليمي[*] في بروسيا سنة ١٧٣٣، وضحت عدالة زيادة سعة القاعدة الاجتماعية للجيش نتيجة للجدل الطويل الذي قام حول ضرورة إلغاء عدم المساواة بين المجندين، ولقد أعلن تطبيق الخدمة العسكري العامة في بروسيا بقرار وزاري جاء فيه: «تلغى من الجيش بصدور هذا القرار كل الامتيازات التي تقوم على أساس الحالة الاجتماعية».

---

(١) Oswald Spengler, Preussenthum und Sozialismus (Berlin, ١٩١٩).

(*) وردت في الأصل Canton System of Recruitment

وتعني كلمة Canton: قسمًا سياسيًا من أقسام الدولة أي المنطقة، وعلى سبيل المثال فإن الجمهورية السويسرية تنقسم إلى عدة أقسام Cantons، والفعل نفسه في المعني الحرفي له يعني التقسيم إلى أقسام أو أجزاء، أو تحديد مناطق لإقامة الجنود.

«راجع معجم ويبستر ص٢١٥» ـ المترجم.

وفي سنة ١٨٠٨ كتب «بارثولد چورچ نيبوهر Niebuhr أن التجنيد العام سيوجد (مساواة يضيق بها الصديق الحقيقي للحرية) ذلك لأنها ـ أي المساواة ـ ستؤدي إلى(إضعاف معنويات الأمة، وإلى وحشية عامة، ثم إلى تدمير الحضارة وتحطيم الطبقات المتعلمة).

على أن التطورين الأساسيين الذين كان لهما الأثر الأكبر في تغيير البناء الاجتماعي للاقتصاد الألماني في هذه الحرب (يقصد الحرب العالمية الثانية) لم يناقشا في إفاضة قط قبل بدء الحرب[1]، فإن المبدأ الطليق العديم الرحمة لتحويل الأراضي المغزوة والشعوب المقهورة المغلوبة على أمرها إلى مستودع للعمال في خدمة الغازي المنتصر والتي انتهت ـ على ما تقول المصادر الألمانية نفسها ـ إلى إرغام اثني عشر مليونًا من الأجانب للهجرة إلى ألمانيا سنة ١٩٤٣ لم تعرض للنقاش في Wehrwirtschaft قبل سنة ١٩٣٩، ولم يجرؤ أي رجل من رجال الاقتصاد في ألمانيا أن يكشف عن احتمال تنكر الطبقات الألمانية الوسطى لكل الفضائل في حرب المستقبل[2] .

(١) ناقش هنري وليم شبيجل هذا، وخرج بملاحظة قيمة هي أنه لم يجد أي اقتصادي أكاديمي ذي شهرة بين أولئك الذين أوجدوا هذا النظام الحديث، راجع بحثه الموسوم بعنوان:

(Wehrwirtscaft Economics of the Military state).

في المجلة الاقتصادية الأمريكية، المجلد ٣٠ لسنة ١٩٤٠ ص٧١٥ .

(٢) راجع لدراسة دور الطبقات الوسطى في اقتصاديات الحرب الشاملة من وجهة النظر الألمانية كتاب: .The Fate of Small Business in Nazi Germany

طبع واشنطون سنة ١٩٤٣ إعداد:

A. R. L. Gurland, Otto Kirchheimer and Frahz Neumann

للجنة مجلس الشيوخ الأمريكي المشكلة بخاصة لدراسة «مشكلات المؤسسات الأمريكية الصغري».

ويحتمل أن تكون مساهمة المثقفين الألمان في الكتابة عن الحرب النفسية قد بولغ فيها، وكانت مساهمة علماء النفس الألمان في الكتابة عن تطورات السلوك السياسي للجماهير أقل مما نعتقد، فنحن في الغالبية نظن أنهم كتبوا الكثير من المؤلفات عن هذا الموضوع، وتحتوي المؤلفات النازية التي كتبت عن الدعاية السياسية على القليل مما كان معروفًا منذ قرون للإخصائيين في الدعاية والإعلان.

على أن هذه المبالغة في تقدير مساهمة الألمان في الدعاية إنما ترجع للأحاديث الضافية الكثيرة التي صحبت وتبعت أعمال «الطابور الخامس» الألماني وأعطت الدعاية للمثقفين في الدول الديمقراطية فرصة لا مثيل لها لإيجاد ما يعتذر به عن الضعف العسكري الذي ترددت فيه الديمقراطيات في فجر الحرب العالمية الثانية.

إن مكانة الدعاية تزدهر أو تخبو، وتعلو أو تهبط، وتزداد أو تنقص تبعًا للنجاح أو للفشل العسكريين، ولقد أدرك النازيون كزعماء وكقادة لحركات الجماهير أهمية الدعاية وتأثيرها بدرجة أكبر مما تفهم هذا زعماء ألمانيا الإمبراطورية في الحرب العالمية الأولى، ومع أن الألمان لم يوجدوا نظريات جديدة ولم يقدموا أصولاً حديثة إلا أنهم ولا شك قد أنفقوا الأموال الطائلة في الدعاية ومنحوها من اهتمامهم عناية لم تبذل في سبيلها من قبل.

ولكن عندما ننظر للتطبيق العملي للدعاية، فإننا نجد أن الأفضلية كانت في جانب الألمان أيام حكم القيصر أكثر مما كانت إلى جانب ألمانيا النازية في حكم هتلر، وعلى سبيل المثال فإن أي محاولة لتفتيت وحدة معسكر العدو مهما كان مصدرها ومهما كان العاملون لها تبدو بوضوح على

أنها وليدة آلة الدعاية الألمانية؛ ذلك لأن العالم كله يعرف بأن الدعاية الألمانية تتركز في سلطة واحدة، فأي دعاية مضادة للشيوعية يقال لها لتوها أنها حملة موجهة من الدكتور جوبلز، ولم تكن هذه هي الحال في ألمانيا القيصرية، بل قد يكون من الطريف أن نقارن هذا بحرية العمل التي توافرت للودندورف طوال الحرب العالمية الأولى، ففي يونيو سنة ١٩١٨ قدم الكولونيل هيفتن ممثل القيادة العليا في وزارة الخارجية للودندورف خطة حملة دعائية ضد البولشفية، هادفًا إلى تقوية حزب لانسداون الذي يدعو للسلم في بريطانيا.

ووافق لودندورف وبدأ العمل مستقلاً في وضوح عن الحكومة للحث على تكوين جبهة أوروبية متحدة ضد البولشفية(١).

لقد مكن النظام غير المركز للدعاية الألمانية في ذلك الوقت من القيام بمناورات في الحرب السياسية، وهو أمر لم تكن لتستطيعه الدعاية الألمانية في حكم النازية دون أن تكشف عن أصابعها.

* * *

إن فكرة لودندورف عن المركز السامي للقائد العسكري في الحرب الشاملة قد ووريت التراب معه، ففي الحرب العالمية الثانية كان القادة العسكريون الألمان تحت سيطرة الحزب الاشتراكي الذي يتولى زعامته ادولف هتلر الأونباشي السابق.

وكانت هذه السيطرة كبيرة إلى حد أن چورنــچ أشار في اجتماع عام في ٣٠ من يناير سنة ١٩٤٣ ـ بجرأة لم يكن يستطيعها ألماني قط أيام حكم الإمبراطور ـ وتحدث چورنــچ عن القائد العسكري الألماني الضعيف الذي

(١) Cf. Arthur Rosenberg, op. cit. pp. ٢١٠ ff.

تنحي مخليًا مكانه لهتلر عندما تقدم الفوهرر الصفوف ليتولى بنفسه الأمر في الجبهة الشرقية لوقف الاندفاع الروسي الخطير.

* * *

حديث المراجع

الفصل الثالث عشر

لودندورف

النظرية الألمانية للحرب الشاملة

بقلم هانز سبير

عرض لودندورف آراءه عن الحرب الشاملة في كتابه:

«Der Totale Krieg» طبع ميونخ سنة ١٩٣٥، وقد خلف وراءه سجلاً لتجاربه في الحرب والنتائج التي خرج بها من هذه التجارب في كتابيه:

Meine Kriegserinnerunger (Munich, ١٩١٩).

Kriegfuhrung und Politik (Berlin, ١٩٢٢).

وقد طبع الأول في طبعة باللغة الإنجليزية بعنوان:

My War Memories: Ludendorff's Own Story, August ١٩١٤.

.November ١٩١٨ (Nw York, ١٩١٩)

ويمكن أن نجد آراء لودندورف في الدين والجنس في كتيبه:

Friedrich der Grosseauf seinen Ludendorffs. Fiedrichs des Gossen Gedanken uber Religion. Aus seinen Werken (Munich ١٩٣٥).

ونجد دراسة طيبة لتفهم صلة لودندورف بالإشتراكية القومية في

السنوات الأولى للحركة في كتاب:

E. Ludendorf, Auf dem Weg zur Feldherrnhalle, Lebenserinnerungen aus der Zeit des ٩ November ١٩٢٣; mit Dokumenten in ٦ Anlagen (Munich, ١٩٣٨).

وقد صدرت كتيبات كثيرة لمهاجمة لودندورف أو للدفاع عنه، قد يكون أقواها، الكتيب الذي كتبه هانز دلبروك بعنوان:

Ludendorffs Selbstportrat (Berlin, ١٩٢٢).

وكان هذا ردًا على كتاب لودندورف:

Kriegfuhrung und Politik

على أننا نجد تفهمًا طيبًا لحياة لودندورف في كتاب:

Karl Tschuppik Ludendorff: the Tragedy of a Military Mind.

ترجمة W. H. Johnston وطبع ببوستون ـ نيويورك سنة ١٩٣٢ .

ولدراسة المسائل العسكرية العالمية في المدة التي سبقت الحرب العالمية الأولى يمكن الرجوع إلى:

The German Army (London, New York, ١٩٣٩).

R. Schmidt - Buckerburg, Das Militar- Kabinett der preussischen Konige und deutschen Kaiser (Berlin, ١٩٣٣).

Carl Schmitt, Staatsgefuge und Zusammenbruch des zweiten Reiches (Hamburg ١٩٣٤).

Arthur Rosenberg, Die Enstehung der deutschen Republik

(Berlin, ١٩٢٨).

ونجد مناقشة حوادث الجبهة الداخلية وضغط الحرب على هذه الجبهة في كتاب:

Albrecht Mendelssohn- Bartholdy, The War and German Society (New Haven, ١٩٣٧).

Frank P. Chambers, The War Behind the War, ١٩١٤ - ١٩١٨: A History of the Political and Civilian Fronts (New York, ١٩٣٩).

ونستطيع أن ندرس موقف اقتصاديات ألمانيا في الحرب في كتب السجلات:

Reichsarchiv, Der Weltkrieg ١٩١٤ bis ١٩١٨, Kriegsrustang und Kriefswirtschaft (Berlin, ١٩٣٠).

Reihstag: Untersuchungsausschuss: Die Ursachen des deutchen Zusammenbrcks in Jahre ١٩١٨, (Berlin, ١٩٢٢).

R.H. Lutz, ed, The causes of the German Collapse in ١٩١٨.

رقم ٤ من مطبوعات مكتبة هوڤر للحرب طبع ستاندفورد سنة ١٩٣٤ .

وتعتبر مؤلفات Ernest Juenger كبيرة النفع لتفهم الدروس التي خرج بها الألمان أنفسهم من تجاربهم طوال السنوات ١٩١٤ ـ ١٩١٨، راجع كتابيه:

Die totale Mobilmachung (Berlin, ١٩٣١).

Der Arbeiter (Hamburg, ١٩٣٢).

والكتب التي صدرت عن الحرب الشاملة في ألمانيا النازية كثيرة يُرجع

بخاصة إلى:

Guido Fischer, Wehrwirtschaft (Leipzig, ١٩٣٦).

R. Von Schumacher and Hans Hummel, Vom Kriege.

zwischen den kriegen (Stuttgart, ١٩٣٧).

Kurt Hess, ed., Schriften zur Kriegswirtschaftlichen.

Forschung und Schulung, (and) Die Kriegswirtscha-

aftliche Gendanke (Hamburg, ١٩٣٥).

Hermann Franke, ed., Handbuch der newzeitlichen

Wehrwissenchaften (Leipzig, ١٩٣٦).

وقد نوقشت مسألة التقدم الفني وعلاقته بالحرب في إفاضة في كتاب:

Karl Justrow, Der technische Krieg, ٢ vols. (Berlin, ١٩٣٨ - ١٩٣٩).

كما نوقشت مسألة التعبئة الصناعية في كتاب:

Institutfur Konjunkturforschung, Industrielle Mobilmachung (Hamburg, ١٩٣٦).

وقد عني الـجيوبوليتيكيون بـ Wehrwirtschaft، راجع:

Karl Haushofer, Wehr - Geopolitik (Berlin, ١٩٣٢).

Ewald Banse, Raum und Volk im Weltkriege Gedanken.

Uber eine nationale Wehrlehre (Olenburg I. O., ١٩٣٢).

الذي ترجمه Alan Harris بعنوان (Germany Prepares)

طبع نيويورك سنة ١٩٣٤ .

ويمكن الرجوع إلى الكتب والدراسات التالية من ناحية عامة وهي:

B. Von Volkmann- leander, Soldaten oder Militars (Munich, ١٩٣٥).

Franz Neumann, Behemoth: the Structure and Practice of National Socialism (New York, ١٩٤٢).

Hans Herth, "The Nazi Party: its Leadership and Composition" American jouranl of Sociology, XLV (١٩٤٠).

Eric Voegelin, "Extended Strategy" Jouranl of Politics, II (١٩٤٠) ١٨٩ - ٢٠٠.

Albert T. Lautterbach. "Roots and Implications of the Idea of Military Society" Military Affairs, V (١٩٤١) ١ - ٢٠.

Hans Speier and Alfred Kahler, eds., War in Our Time (New York, ١٩٣٩).

راجع أيضًا المراجع المذكورة في الفصل الثامن (الكتاب الثاني) والتي ستجيء في الفصل السادس عشر (الكتاب الرابع).

الفصل الرابع عشر (*)

لينين - تروتسكي - ستالين

النظرية السوفيتية للحرب

بقلم إدوارد ميد ايرل

في كل انقلاب اجتماعي عنيف ـ كثورة نوفمبر سنة ١٩١٧ في روسيا ـ تذهب مع الريح كل النظريات والتنظيمات العسكرية، مثلها في هذا مثل التعاليم السياسية والطبقات الاجتماعية التي يلقى بها بعيدًا لا يعنى بها أحد، والفكرة في هذا ـ فيما يتعلق بالنظريات والتشكيلات العسكرية ـ أن الجيش يعتبر أنه كان وثيق الارتباط بالبناء الاجتماعي السابق، وأن الاستراتيـچية القومية تتبع الأطماع السياسية للنظام القديم الذي انتهى.

وكما ألغت الثورة الفرنسية الجيش الأرستقراطي الذي أوجدته حكومة البوربون وأوجدت بدلاً منه جموع المواطنين المقاتلين، ثم خاضت غمار الحرب تدعو إلى «الحرية والمساواة والإخاء»[1]، حطم «البولشفيك» الجيش المنبوذ الذي كونه القياصرة القدامى وكونوا جيشًا من الفلاحين والعمال؛ وكان ميلاد الجيش الأحمر في اليوم الثالث والعشرين من فبراير سنة ١٩١٨ .

(*) عندما كنت أعد هذا الفصل تلقيت معاونة كريمة قيمة في إعداده من الدكتور فيلكس جلبرت ومن مسز تشيبوفاريف مما يوجب عليَّ أن أتقدم لهما بالشكر وأعترف بما لكلٍ منهما من فضل. إدورد ميد ايرل.

(١) راجع الفصلين الثالث والرابع من الكتاب الأول.

وقد قصد البولشفيك من هذا الجيش الجديد أن يكون سلاحًا ودرعًا للجماهير، يستغل ويكد للدفاع عن الثورة، وأن يكون سبيل الإعداد لها داخل البلاد وخارجها، ولكن لم تلبث أن وضحت ـ مع مرور الأيام وضغط ظروف السياستين الداخلية والخارجية ـ الحاجة إلى إعادة النظر في طبيعة تكوين هذا الجيش الجديد وفي تخطيط أهدافه، وكانت النتيجة تحوله تدريجياً إلى هيئة قومية حقة.

كان الجيش وما زال طفل الثورة، ولكنه من جانب آخر هو أيضًا رمز الوطن، ***والواقع*** أن زعماء روسيا السوڤيتية اليوم ـ بعد تجربة ربع قرن كحكام دولة كبيرة ـ أقل اهتمامًا بالمعتقدات والمواصفات العسكرية التي شغلتهم في الأيام الأولى، وهم أقل اهتمامًا بها من اهتمامهم بالحقائق المرة عن الحرب، هذه الحقائق التي تتحكم في كل ما يختص بالجيوش الحديثة مهما كانت «الأيديولوچيات» التي يدين بها أفراد هذه الجيوش.

ومع أننا لا نستطيع أن نشك في أن معنويات الجيش الأحمر في الحرب ضد ألمانيا النازية تتفق في صورة ما مع الأيديولـچية الشيوعية ومع المجتمع المعدوم الطبقات في أرض السوڤيت، كما تتفق مع الطابع الجديد المتوافر بين كل أفراد الشعب الروسي طابع الولاء للوطن، إلا أنه لا يمكن أن يتضح كسب المعركة على أساس الروح المعنوية وحدها مهما كان ثقلها في ميزان الحرب، فالنصر يمكن أن يكتسب أيضًا بالمواد والعتاد، بالضبط والربط، بالمهارة التكتيكية للأفراد، بالمستوى العالي مستوى الاحتراف للضباط العظام وللضباط أركان الحرب ثم باتباع الأصول والمبادئ الاستراتيـچية

السليمة(*).

ولهذا كان من الضروري أن نبحث عن قوة المقاومة السوفيتية للغزو الألماني في أعماق تربة أرض روسيا، وفي التقاليد التاريخية الروسية، كما نبحث عنها أيضًا في دينامائية الثورة البولشفية.

- ١ -

وكان لينين(**) عندما استولى على السلطة في بتروغراد «لينينجراد

(*) كانت هذه الفكرة في الواقع وليدة عصر متأخر، وما كان لبلشفي أن يتحدث عن الحرب والنصر والقومية، بل كان الحرب في سنة ١٩١٧ يشير دائمًا إلى انتصار اليابان سنة ١٩٠٤ بتحيز لأنه أوهن القيصرية، ولكن بعد سنة ١٩٣٤ بدأ الاتجاه يزداد نحو القومية المحلية، ومن ثم امتزجت الدولة السوفيتية والفكرة السوفيتية أي القومية والشيوعية لتكونا شيوعية قومية كتلة متماسكة، وأصبح أبطال روسيا القيصرية مثل بطرس الأكبر وإيفان الرهيب أبطالًا للاتحاد السوفيتي. وتبوأ القادة القيصريون مثل سوفوروف مكانة رفيعة في كتب التاريخ التي أعيدت كتابتها ووقف ستالين غداة إعلان النصر على اليابان سنة ١٩٤٥ يقول: «لقد انتظرنا ـ نحن أبناء الجيل المكتهل ـ هذا اليوم أربعين عامًا .. وها هو قد حان». ص٢٥٤ الشيوعية نظريًا وعمليًا تأليف كاريوهنت.

(**) نيكولاي لينين، أصل اسمه حال مولده «ڤالديمير اليانوف» (١٨٧٠ ـ ١٩٢٤) قاد ثورة البولشفيك سنة ١٩١٧، تولي رياسة الوزارة في الاتحاد السوفيتي ١٩١٨ ـ ١٩٢٤ . وتطلق على العقائد والنظريات الشيوعية بعامة وعلى نظريته في ديكتاتورية «البروليتاريا» الطبقة العاملة الكادحة اسم Leninism، وقد اشتهر لينين بتحليله للامبريالية وتطور الماركسية، ويسمي من يتبع نظريات لينين Leninist .

وقد أطلق اسم «لينين» على منطقة من الاتحاد السوفيتي في شمال غرب روسيا الأوروبية يبلغ تعداد سكانها ٦.٣٣٥.٠٠٠ والعاصمة لينجراد (سابقًا بطرسبرج أو بتروغراد) ميناء على خليج فنلنده وسكانها ٣.١٩١.٠٠٠ كما توجد مدينة باسم «لينينكان» في أرمينيا بمنطقة القوقاز يصل تعداد سكانها إلى ٦٨.٠٠٠ . معجم ويبستر ص٩٣٨ .

الآن» في سنة ١٩١٧ أبعد ما يكون عن أن يعتبر جاهلاً بالمسائل العسكرية والاستراتيـچية؛ وهو كدارس للاشتراكية ـ دراسته للقومية السياسية والإرهاب ونظام العمل النقابي على السواء ـ كان متفهمًا بقدر غير عادي لدور العنف والقوة المسلحة في كل المسائل البشرية؛ وكان لينين كآنجلز قد قرأ قول كلاوزيـڤتز المأثور: «الحرب تكملة للسياسة فقط مع استخدام وسائل أخرى»، ثم إنه ولا شك قد فكر فيه طويلاً ثم علق عليه باعتباره «أساسًا نظرياً لمعنى كل حرب»[(١)]، بل واعتقد لينين ـ إلى أبعد من هذا ـ بأن هناك علاقة وثيقة بين بناء الدولة ونظام الحكومة في جانب، وبين التنظيم العسكري وإدارة الحرب في جانب آخر.

وقد وصل لينين إلى حصيلة طيبة من المعرفة عن حقائق سياسة الحرب من دراسته لكتابات ماركس وآنجلز وغيرهما وكان قد حذر أن الحرب ليست عسكرية الطابع وحسب، بل إن لها طوابعها السياسية والسيكلوچية والاقتصادية أيضًا[(٢)] وآمن بأن الحرب والثورة يرتبطان معًا بعلاقة وثيقة وبخاصة عندما نرجع إلى كلمات ماركس، من أن الحرب يمكن أن تكون معوانًا على ميلاد الثورة[(*)].

---

(١) أعمال وكتابات ف. أ. لينين (الترجمة الانجليزية طبع نيويورك سنة ١٩٢٩) مجلد ١٨ صفحة ٢٢٤، راجع اهتمام لينين بدراسة النظريات العسكرية ووجهات نظره عن كلاوزيـڤتز في المقال الذي كتبه S. Rabinowitch الذي وسم بعنوان: War Questions in the Lenin- Magazine

في مجله "The Bolshevist" لسنة ١٩٣٠ الصفحات ٧٠ ـ ٧٩ .

وقد طبعت الحكومة السوڤييتية تعليقات لينين على نظريات كلاوزيـڤتز، وصدرت هذه الطبعة من موسكو سنة ١٩٣٣ .

(٢) راجع الفصل السابع الكتاب الثاني «ماركس وآنجلز».

(*) جاءت في الأصل كلمة "Midwife" في وصف الحرب، وتعني كلمة السيدة التي تعاون=

وظن لينين أنه كما عاب على حكومة نيقولا الثاني عدم الأهلية وعدم الكفاية مما أدى بها إلى الهزيمة في الحرب ضد اليابان، فإن الإمبراطورية الروسية يمكن أن تواجه مصيرًا أسوأ وأن تحطم بالهزيمة والثورة في حربها سنة ١٩١٤ ضد ألمانيا؛ ولكن كانت المسألة المحيرة بالنسبة له أن يجد الوسيلة لتحويل الحرب الاستعمارية إلى حرب أهلية ـ ولكنها ليست حربًا أهلية داخل حدود روسيا، بل إن تتجاوزها إلى حدود الأمم الأخرى، أي أن تكون ثورة اجتماعية واسعة النطاق بعيدة المدى[١] .

وفي نفس الصورة نظر أتباع ماركس إلى كل حرب آملين أنها هي التي ستدفع إلى مسرح الحوادث بحكم الطبقات العاملة طبقات الكادحين في أبناء الشعب.

وكانت الحركة الثورية في روسيا قبل سنة ١٩١٧ حركة عنيفة نشطة لها طابعها العسكري، ولم تكن ككل الحركات الثورية التي حدثت في فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة حركة مسالمة تهدف إلى الحقوق البرلمانية؛ وكان لينين في الواقع لا يعطف كثيرًا على مثل هذه الوسائل السلمية، وذلك لأنه آمن بالاستيلاء عنوة على السلطة بوساطة العمال والفلاحين، وبإمكان إنشاء ديكتاتورية من جماهير الشعب، (ديكتاتورية البروليتاريا).

وقد ازدرى لينين أولئك الماركسيين الذين انقلبوا «مواطنين موالين»

=في عملية الوضع، ومن ثم كان الأستاذ ميد ايرل يقصد أن الحرب تعاون في مولد الثورة «المترجم».

(١) راجع «خطاب من ماركس» كتبه أيام أن كان بالنفي في سويسرة من سنة ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٧، وبعث به إلى صديق روسي بعد شهور قليلة من إعلان الحرب العالمية الأولى ـ نفس المرجع مجلد ١٨ ص٧٤ .

بعد سنة ١٩١٤ وعاونوا الحكومات المتعاقبة في تنفيذها لالتزاماتها بالنسبة للحرب، ولهذا فإنه لم يلبث بعد أن عاونته هذه الجماعات نفسها للقيام بثورة مارس سنة ١٩١٧ ـ أن بدأ يحطم النظام البرجوازي الذي كانت قد أوجدته، وقد قال بأن الهدف الأساسي للثورة تحطيم الرأسمالية كخطوة تمهيدية للوصول إلى السلم؛ «وكانت سياسته واستراتيـچيته، السياسة والاستراتيـچية اللتين جعلتا من أنصار البلشفية الحزب الوحيد في خضم فوضى السياسة الروسية من أبريل إلى أكتوبر سنة ١٩١٧ .

واللتين كانتا وحدهما كل ما يمكن نقل أغراض الثورة إلى الشعب»[١]، على أنه تبعًا لإيمانه بالقوة كوسيلة مضادة للمناورات البرلمانية فإنه استطاع الوصول إلى السلطة عن طريق الوسيلة المحببة للديكتاتوريين، وسيلة إحداث الانقلابات الفجائية لإسقاط الحكومات.

وواجه لينين الغزو الألماني بعد كسبه الجولة الأولى للحرب الأهلية في روسيا، ولم يكن من سبيل لاستئناف العمليات الحربية، كان الجيش الروسي قد دمر تمامًا، ويرجع هذا جزئياً إلى الدعاية الثورية التي تسربت إلى صفوفه طوال سنتين أو أكثر، والتي لم يكن من الميسور أن تقلب رأسًا على عقب بسرعة، وكما قال لورد بلفور في تاريخ متأخر بعد هذا:

«لا يمكن أن تقام دعامات الجيش على الكلمات الرقيقة اللينة، وإن كان من الممكن أن تسبب هذه الكلمات هدمه وتحطيمه.

لقد حقق البولشفيك نجاحًا كبيرًا بتحطيم روح الاقتتال في روسيا،

(١) «هارولد لاسكي» «ڤالديمير أو ليانوف» (نيكولاي لينين) في دائرة معارف العلوم الاجتماعية طبعة سنة ١٩٣٧ .

ولكن من الصعب إعادة هذه الروح إلى الحياة بنفس الطريقة»[١] .

وليس هناك من يعرف هذا بأحسن مما يعرفه لينين فهو من البداية كان يعارض متابعة الحرب ضد ألمانيا بالوسائل العسكرية مهما كانت الظروف والملابسات، وكان من جانب آخر يؤمن بأن الدبلوماسية والحرب السيكلوچية تمكنان من خوض غمار الحرب بنجاح ضد دول الوسط[*] وضد دول الحلفاء على السواء، وبذلك فإنه يستطيع أن يحقق الغرضين التوأمين:

* غرض الدفاع عن روسيا الثورية.

* وغرض تحويل الحرب الدولية إلى حرب أوروبية أهلية.

وقد آمن لينين كما آمن مساعدوه وأملوا في أنه كما استطاعت الدعاية تحطيم الضبط والربط في الجيش الروسي فمن الممكن إضعاف معنويات جيوش الرأسمالية والإمبريالية الاستعمارية على السواء.

كان يعرف أن أعداء روسيا (هم) حكومات أوروبا وأمريكا، ومن الممكن أن تهزم هذه الحكومات بوساطة ثورات الجماهير ثورات الطبقات العاملة في بلادها، لا بوساطة أي قوات عسكرية يمكن للروسيا ـ مهما أوتيت من قوة ـ أن تحشدها وأن تعدها؛ وستستطيع روسيا القيام بالهجوم

---

(١) Foreign Relations of the United States ١٩١٩, Russia I (Washington ١٩٣١), ٣٩٣.

(*) دول الوسط Central Powers أطلق هذا الاصطلاح في الحرب العالمية الأولى على ألمانيا والنمسا والمجر، وكانت تضم إليها حليفتاهما تركيا وبلغاريا، وقد كانت إيطاليا ضمن دول الوسط ولكنها بقيت على الحياد في بدء الحرب العالمية الأولى ثم انضمت للحلفاء ضد حليفتيها بالأمس في إبريل سنة ١٩١٥ بعد أن عدلت حدودها في ليبيا بمنحها منطقة صحراوية واسعة.

ولكنه هجوم بالكلمات وبالضغط على الأعصاب، ويكون هذا الهجوم هو الدور الإيجابي العملي للدعاية السوفيتية التي جربت من قبل والتي كان «البولشفيك» سادة فيها منذ بعيد.

وقد وجه هذا الهجوم في الواقع ضد حلفاء روسيا وضد خصومها على السواء، ووصف «البولشفيك» الحرب العالمية الأولى بأنها حرب استعمارية، حرب للدفاع عن النظام الرأسمالي، وقد قالوا بأنه يجب ألا تتوقع آمال كبار في المفاوضات الدبلوماسية بطابعها المعروف وأنه من الأفضل الاتصال بالشعوب مباشرة من وراء ظهور الحكومات، وقد نشرت المعاهدات السرية التي عقدت مع الحلفاء كدليل على التفكير الإمبريالي للحلفاء؛ وقد كتب لينين في منتصف سبتمبر سنة ١٩١٧ : «إن هذه الكلمات التي يتغنون بها زاعمين عزوفهم عن تملك أرض جديدة قد وضعت كأساس للصلح، ولكن الصلح على هذه الأسس لن يتوافر فيه الكسب الذي يرضي الرأسماليين، ولكنها ولا شك ستقابل بترحاب حار من الجماهير، وستثير موجة من الحماسة في العالم كله، وتثير المشاعر ضد الحرب المدمرة التي اصطنعها البرجوازيون، ومن ثم يمكن تحقيق الهدنة كما يمكن إيجاد فرصة إجراء مفاوضات الصلح».

وقد التزم لينين هذا البرنامج إثر توليه السلطة، وقد قام هذا البرنامج على أساس ما جاء في تعاليمه وتوجيهاته من أن: «الثورة ستقوم في كل الدول المقاتلة»[1] .

---

(١) Collected Works, XXI, ٢٥٩ "The Aims of Revolution"

راجع أيضًا كتاب C. K. Cumming and W. W. pettit

"Russiab-American Relations" طبع نيويورك سنة ١٩٢٠ الصفحات ٤٤، ٤٥، وكتاب =

ولم يحقق لينين إلا القليل من النجاح ضد الحلفاء، ويرجع هذا جزئياً إلى ويدرو ويلسون(*) فقد كان هو أيضًا بدوره سيدًا من سادة الحرب النفسية، فإن خطابه في الكونجرس يوم ٨ من يناير سنة ١٩١٨ والذي تضمن الشروط الأربعة عشرة كأساس للصلح قد اقتطع الكثير من المشروع السوڤيتي عن قصد، وقد تقبل الحلفاء والألمان شروط ويلسون ومشروعه أكثر من تقبلهم للمشروع الروسي؛ ***والواقع*** أن لينين كان صائب التقدير للسيكلوچية الروسية ولكنه لم يكن ليستطيع تفهم العقلية الغربية والعقلية الأمريكية، فإن العقلية الغربية ـ الأمريكية كانت تفتقر إلى إدراك العقيدة السلاڤية، كما أن فشلها في تقبل الفصاحة المتكلفة للكلمات التي صيغت فيها «الماركسية» جعلها تفشل أيضًا في الاستجابة لعبقرية لينين الثورية التي لا شك فيها[1]، وبذلك كان «للرعد القاصف» الذي جاءت به النقاط الأربع عشرة التي قدمها ويلسون تأثيرًا عملياً أكبر من التأثير الذي كان «للبرق» الذي جاءت به شعارات لينين الثورية.

لقد كان في هجوم لينين الدبلوماسي والسيكلوچي على دول الوسط عدالة، وفيه قصاص عادل، فلقد سمحت الحكومة الألمانية للينين بعبور

=Vohn Reed بعنوان: Ten Days That Shook the World الصفحات ١٢٥ – ١٣٠.

(*) توماس ويدرو ويلسون: الرئيس الثامن والعشرون للولايات المتحدة الأمريكية تولي الرياسة (١٩١٣ ـ ١٩٢١) منح جائزة نوبل للسلام سنة ١٩١٩، ولكن لم تلبث الولايات المتحدة بضغط الكونجرس أن نفضت يديها من مشكلات أوروبا ولم تنضم لعصبة الأمم المنظمة العالمية التي كانت أصلًا من وحي ويلسون. «المترجم».

(١) John Wheeler- Bennett, Brest-Litovk, The Forgotten Peace, London, ١٩٣٨, p. ١٣٨.

ويعتبر كتاب مستر ويلز كتاب لا مثيل له في تفهم حرب لينين السيكلوچية ضد باقي دول أوروبا وبخاصة ضد ألمانيا، وكانت خطبة ويلسون يوم ٨ من يناير تستهدف الرد على الدعاية السوڤيتية، نفس المرجع ص١٤٤ ـ ١٤٥ .

ألمانيا من سويسرة إلى روسيا سنة ١٩١٧ بأمل أن يحطم بنجاح ما بقي من معنويات للجيش الروسي؛ وقد قال القائد الألماني في روسيا يوم ذاك والذي كان فيما بعد من أكبر خصوم البولشفية: «من الطبيعي أننا حاولنا استخدام الدعاية لزيادة عوامل التفكك التي أوجدتها الثورة الروسية داخل بناء الجيش، وكما أنه كان من حقنا أن نقذف مواقعهم بالقنابل وأن نطلق الغاز السام على جنودهم، فلنا كل الحق في استخدام الدعاية لتحطيم معنوياتهم، إنني لا أعرف شخصياً شيئًا عن رحلة لينين عبر الأراضي الألمانية، ولو كنت قد سئلت عن هذا لما اعترضت»[١].

وكان لينين يحاول إذ ذاك أن يفعل في صفوف الجيش الألماني، بل وفي الحكومة الألمانية ما فعل من قبل في صفوف الجيش الروسي، وقد حقق بعض النجاح، ولكنه لم يكن واضحًا مفهومًا حتى تم انهيار ألمانيا بعد عام كامل.

وقد استخدم (البولشفيك) البلاشفة هدنة بريست ـ ليتوڤسك[*] كوسيلة علنية للدعاية لآرائهم، ومن ثم فقد حولوا العلاقات الدبلوماسية مع العدو إلى حصان ترواده[**] وفي طوال المفاوضات استخدمت «وزارة»

---

(١) Major General Max Hoffman, War Diaries and Other Papers (English translation, ٢ Vols. London, ١٩٢٩), II, ١٧٦ – ١٧٧.

(*) بريست ـ ليتوڤسك: مدينة في روسيا البيضا وسكانها ٥١.٠٠٠، وقعت بها معاهدة سنة ١٩١٨ بين روسيا البولشفية ودول الوسط، وفقدت روسيا نتيجة لها أكرانيا وبولندة ولتوانيا وولايات البلطيق وفنلندة والقوقاز «معجم ويبستر ص١٨٠». «المترجم».

(**) حصان ترواده، حصان خشبي كبير تركه الجنود الإغريق عند أبواب ترواده، فلما أدخله السكان إلى داخل مدينتهم الحصينة خرج منه الجنود ليلًا وفتحوا أبواب المدينة لجيش=

الخارجية التي يتولاها ترتسكي، وإدارة الصحافة برياسة كارل راديك وإدارة الدعاية الثورية الدولية التي كان يتولاها بوريس رينشتين، استخدمت ثلاثتها غاية ما توافر لها من جهد ضد الجيش الألماني، وكانت الصحف التي يصدرها البلاشفة باللغة الألمانية مثل Die Fackel (الشعلة) Der Volker friede (سلم الشعب) توزع مئات الألوف من النسخ بين صفوف جيوش دول الوسط، مع أن الروس كانوا يمتهنون شروط ويلسون الأربعة عشر فإنهم قد وزعوا أكثر من مليون نسخة من خطبة ويلسون مترجمة إلى اللغة الألمانية.

وكان الأسرى الألمان في روسيا قد سمموا بالعقيدة الشيوعية إلى حد أنهم عند إعادتهم إلى بلادهم كانت القيادة الألمانية تحتجزهم لشهر كامل في معسكرات «للحجر السياسي» وتزودهم بدراسات عن حب الوطن، ومع هذا فإنهم عادوا إلى ألمانيا «يحملون جراثيم الدعاية للثورة التي لقنت لهم في معسكرات اعتقالهم في روسيا منذ قيام ثورة نوفمبر، لقد احتسى الجنود كأس خمر التحريض الثوري حتى الثمالة، لقد رأوا الجيش الروسي يذوب أمام أعينهم، وهم الآن يعودون إلى أرض الوطن ليتحدثوا بلغة جديدة عن «السلم» و «الخبز». وقد قال الـجنرال هوفمان إن الجيش الألماني في روسيا «قد ثقل بالآراء البولشفية» إلى حد أنه لم يجرؤ على نقل بعض فرقه إلى الجبهة الغربية[1].

=الإغريق الذي دمر المدينة ويستخدم للدلالة على التسرب داخل مناطق العدو الحصينة خدعة بوساطة العملاء. «المترجم».

(١) ويلر بنييف ـ نفس المرجع: ص٩٠ ـ ٩٥و ١٤٧و ٣٥١و ٣٥٢، راجع الهامش رقم ٨.

وكان لينين وتروتسكي(*) يعرفان أنهما من ناحية الاصطلاح السياسي وفي ضوء الدبلوماسية التقليدية قد تنكبا في الهزيمة بمعاهدة بريست ـ ليتوڤيسك، وقد عرفا بأنهما ـ بالرغم من الحديث عن «لا تعويضات» و «لا نزول عن أرض» ـ يجب أن ينزلا عن أرض لألمانيا، ولكنهما في الواقع كانا يلعبان دورًا أهم، وكانا يستهدفان ما هو أكبر وأعظم من الأرض ومن الحدود.

وقد كتب تروتسكي إلى العمال الأمريكان: «ليس باشتراكي من لا يفهم أن الانتصار على البرجوازية قد يتطلب خسارة الأرض ومواجهة الهزيمة، وليس باشتراكي من لا يضحي بوطنه في سبيل انتصار الثورة الاشتراكية».

ومع هذا فإن ذلك الانتصار يتطلب الوقت، يتطلب الوقت ليستقر النظام البولشفي الوليد في روسيا، كما يتطلب الوقت حتى تحقق الدعاية الثورية دورها بين الجنود والعمال الألمان، ومن ثم فإن تروتسكي ـ الذي كان قد تولى رياسة الوفد الروسي في بريست ليتوڤيسك في يناير بعد أن كان المؤتمر قد سلخ شهرًا كاملاً من عمله ـ راح يعمل باستراتيـچية إطالة الوقت واستطاع أن يمد من المفاوضات لستة أسابيع طويلة، وراح يداور تاركًا المبعوثين الألمان يناقشون الموضوعات الكثيرة خارج نطاق المباحثات، (وغطى النقاش الأرض من نهر الدان إلى بير السبع، ومن الصين إلى بيرو،

(*) تروتسكي، ليون تروتسكي ولد (ليـڤ داڤيودڤيتش برونشتين) (١٨٧٠ ـ ١٩٤٠)، كان قومسيير الحرب (وزير الحربية) ١٩١٨ ـ ١٩٢٥ نفي من روسيا سنة ١٩٢٥ وقتل اغتيالًا سنة ١٩٤٠ يطلق على العقيدة السياسية التي كان يدعو لها:
Trotskyism ويقال لأنصاره Trotskyite

وتعرض لموضوعات غريبة مثل مدى استقلال نظام حيدر أباد تحت التاج البريطاني وسلطات المحكمة العليا للولايات المتحدة)[١] .

ولا يمكن أن يكون الجدل بديلاً للقوة العسكرية، ومع هذا فقد حقق تروتسكي نجاحًا له خطره وإن كان في الواقع نجاحًا محدودًا؛ فقد كانت القيادة الألمانية بسبب الهجوم الحاسم الذي تواجهه في الغرب أحوج ما تكون إلى الأمن والوقاية في الشرق، وهي لا تستطيع أن تحقق هذا إلا بالصلح وإلا بالقضاء على البقية الباقية من القوات العسكرية الروسية.

وبالإضافة إلى هذا فإن الـچنرال هوفمان كان قد اعتزم أن يضع حدًّا لهذا الانهيار المعنوي الذي يتعرض له الجنود بوساطة الدعاية البولشفية، وفي أول فبراير أوضح هندنبرج ولودندورف وهوفمان للسلطات المدنية الألمانية في برلين.

وفي بريست ليتوڤيسك أنه لا سبيل إلى مصانعة الروس لأبعد من هذا، وأنه يجب أن يوجه لتروتسكي إنذار قاطع، فإما أن يوافق على الشروط الألمانية، وإما أن تبدأ العمليات الحربية فورًا.

فإذا رفضت الحكومة القائمة في بتروغراد توقيع شروط الصلح المملاة عليها وجب أن يقوم الجيش الألماني بغزو روسيا وطرد البولشفيك من البلاد وإقامة حكومة روسية أخرى توقع معاهدة الصلح.

وكان لينين في أثناء هذا يعيد دراسة استراتيـچيته، استراتيـچية «الثورة البرقية» Blitz Revolution في ألمانيا والنمسا والمجر، وهي الاستراتيـچية التي وضعت على أساسها التخطيطات المقدرة من قبل

(١) نفس المرجع ص١١٦ و ١٥٨ .

للسياسة البلشفية وإن كانت قد فشلت في تحقيق هدفها، وقد انتهى لينين مضطرًّا ـ بعد تردد طويل ـ إلى أن «حزب الحرب» الحزب الذي يدعو للحرب في ألمانيا له اليد العليا في البلاد، وأن الثورة لو جاءت إلى وسط أوروبا فستجيء متأخرة جدًّا، مما لا يمكن معه أن تمنع غزو الألمان لأراضي روسيا.

ومع وصول الجيش الروسي إلى حال لا يستطيع معها القيام بمقاومة مؤثرة، ومن ثم فإن كل نجاح حققته الثورة الروسية سيضيع بفعل الأسلحة الألمانية، «وستكون المخاطرة بتعريض مستقبل الثورة الاشتراكية للخطر على أساس احتمال أو فرصة قيام ثورة في ألمانيا في تاريخ معين، ستكون سياسة سيئة خاطئة؛ وقد أخبر لينين الزعماء البولشفيك في ٢٠ من يناير سنة ١٩١٨: «لا يحق لنا أن نعتمد على الفرص»، فالسوڤيت يحتاجون الوقت للانتعاش الاقتصادي ولإعداد جيش، ثم إن «تشكيل جيش اشتراكي نواته الحرس الأحمر قد بدأ لتوه، ومن ثم فإنه مع هذا الطابع الديمقراطي للجيش ستكون أي محاولة لخوض غمار حرب أخرى ضد رغبة غالبية الجنود محاولة لها نتائجها الخطيرة، إننا في حاجة إلى شهر حتى يتم إعداد جيش يدين بالمبادئ الاشتراكية».

وهكذا يبدو بوضوح أن روسيا لم تكن في وضع يمكنها من إثارة حرب ثورية، ولهذا فإنه لوقاية الثورة الروسية كان من الضروري عقد معاهدة مع ألمانيا مهما كان في هذا من مهانة وإذلال، أي أن روسيا ـ في إيجاز ـ يجب أن تنفذ عملية انسحاب استراتيجية، وقد أجاب لينين على صيحات زملائه الذين وصفوا هذه المعاهدة بأنها عملية سلب واغتصاب من جانب ألمانيا بأنه لا يسره أن يحصل على سلم فيه ولاء وإخلاص ووفاء من جانب



لينين (١٨٧٠ ـ ١٩٢٤)

الألمان حتى لو ضمن هذا[١] .

وكان لينين مؤمنًا بالسياسة الواقعية، وكان الصلح في رأيه ليس نهاية في حد ذاته، بل على النقيض كان يعتبره كالحرب آلة للسياسة، وفي ضوء هذا كان من الواضح أن روسيا تحتاج السلم لدعم الثورة وإرساء قواعدها، وليس من الحكمة الإضرار بالثورة بآمال مبهمة تستند إلى احتمال قيام الثورة في بلاد أخرى.

ورضي لينين بعد تردد طويل بتجربة خطة تروتسكي التي تقول: «لا سلم ولا حرب مع ألمانيا»، ولقد اعتبر لينين هذا الموقف عملاً خطرًا، ونظر إليه على أنه «موقف سياسي دولي خطير».

وكان لينين محقًّا في هذا؛ لأن الألمان بمجرد أن تيقنوا مما أسماه الـچنرال هوفمان « إجراء لم يعرف من قبل» ـ، أي عدم الرغبة في السلم مع عدم الرغبة في الحرب في وقت واحد، تقدموا في أراضي روسيا إلى المدى الذي هدد استقلال روسيا كما هدد كيان الثورة.

وهنا أرغم البولشفيك في الثالث من مارس سنة ١٩١٨ على توقيع معاهدة بريست ليتوڤيسك التي فقدت بها روسيا ٣٤ ٪ من سكانها و ٣٢ ٪ من أراضيها الزراعية و ٥٤ ٪ من صناعاتها و ٨٠ ٪ من مناجم الفحم بها[٢] .

---

(١) "Lenih's Twentyone Theses for Peace"

في جريدة «براڤدا» Pravda عدد ٢٤ من فبراير سنة ١٩١٨، الترجمة الانجليزية في كتاب:

James Bunyan ahd H. H. Theses The Bolshevik Revolution, ١٩١٧ - ١٩١٨: Documents and Materials (Stahford, California, ١٩٣٤), pp. ٥٠٠- ٥٠٥.

وقد أخذ اصطلاح «الثورة البرقية» Blitz Revolution من كتاب:

T. A. Taracouzio, War and Peace in Soviet Diplomacy (Cambridge Mass., ١٩٤٠), Chap. III.

(٢) Foreign Relations of the United States op. cit., p. ٤٩٠.

ويجب أن يلاحظ أن هذه التسوية الضارة قد أزيلت كل آثارها لا بأسلحة السوڤيت بل بوساطة الحلفاء عندما تمت الهدنة في ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨ ثم نتيجة لمعاهدة ڤرسايل[١].

وكان لمسرحية تروتسكي في بريست ليتوڤيسك كل ما كان لينين يخشاه، إلا أنها علمت البولشفيك درسًا، ذلك أنهم قد وضعوا في استراتيچيتهم بعد ذلك اتجاهًا بين الحرب والسلم دون إغفال ما يمكن مواجهته من أخطار وما يمكن تحقيقه من كسب في الأمرين معًا[٢].

ولكن لينين كان قد واجه الواقع وأدرك هذه الحقائق في تاريخ سابق لهذا، فهو قد حذر زملاءه قبل توقيع معاهدة بريست ليتوڤيسك بأسبوعين قائلاً: «إنكم لا تستطيعون أن تهزلوا بالحرب» فإن روسيا لو كانت تقصد حقًّا خوض غمار الحرب لما كان لها أن تسرح جيوشها.

وبعد خمسة أيام؛ أي في الثالث والعشرين من فبراير، قال لهم: «لقد حان الوقت لنضع حدًّا لهذه الجمل الثورية وأن نبدأ العمل الجدي فإذا لم يحدث هذا فإنني أستقيل من الحكومة.

إننا لكي نخوض حربًا ثورية فمن الضروري أن يكون لدينا الجيش الثوري الذي لا يتوافر لنا الآن...»[٣].

ولقد ولد الجيش الأحمر نتيجة لهذه الكلمات، إن روسيا السوڤيتية لم تنزل قط عن إثارة الحرب بكل وسيلة ممكنة ـ سياسية، اقتصادية، نفسية وعسكرية ـ ولكنها بعد بريست ليتوڤسك لم تنس قط التجربة القاسية التي

---

(١) ألغي السوفييت معاهدة بريست ليتوڤسك في ١٣ من نوفمبر سنة ١٩١٨ .

(٢) Taracouzo op. cit. p. ٢٨.

(٣) Bunyan and Fisher, op. cit. pp. ٥١٢ - ٥١٣, ٥١٩.

واجهتها في فبراير ومارس سنة ١٩١٨، والتي أوضحت أنه بدون القوات المسلحة لا تحقق الوسائل الأخرى للحرب إلا النجاح الباهت الذي لا أثر له.

ولكن لينين لم يعتقد أن حملة بريست ليتوﭬيسك بالحرب السياسية والنفسية قد ذهبت سدى، فعلى ما قال لمندوب بريطاني غداة توقيع المعاهدة: «إن هذه الحرب ستسوى في المؤخرة لا في الخنادق، ونتيجة لهذا الصلح الذي يقوم على النهب والسرقة اضطرت ألمانيا لأن تبقى في الميدان الشرقي قوات أكثر ـ لا أقل ـ مما كان لها فيه.

أما بالنسبة لما يقال من أنها ستستطيع الحصول على كميات أكبر من التموين من روسيا فتستطيع أن تطمئن؛ لأن المقاومة السلبية سلاح أكثر خطورة من الجيش الذي لا يستطيع القتال»[١] .

وفي الخطب الفياضة الضافية التي دافع فيها لينين عن التصديق على معاهدة بريست ليتوﭬيسك حذر مستمعيه من أن التجارب المماثلة يجب أن لا تتكرر ثانية، «فلنحذر من أن نكون عبيدًا لكلماتنا، إن الحروب اليوم لا تكسب بالتحمس بقدر ما تكسب بالأفضلية أو السيادة الفنية»، فالتسوية مع الألمان يجب أن تعتبر نهضة قومية مثلها مثل انتعاش الألمان بعد الإذلال الذي واجهته بروسيا على أيدي نابليون، لقد أعطت بريست ليتوﭬسك للروس فرصة للتنفس، وفي أثناء هذه الفرصة يمكن أن توطد الثورة.

وتكون هذه الفترة فترة هدنة تستمر طوالها الحرب ضد ألمانيا

(١) Bruce Lockhart, Memories of a British Agent (London ١٩٣٢) pp. ٢٣٩ – ٢٤٠.

الإمبراطورية بوسائل ثورية[١] .

ولكن فترة التنفس هذه لم تستكمل مادياتها ولم تطل فلم يكد الحبر الذي كتبت به معاهدة بريست ليتوڤسك يجف حتى واجه النظام السوڤيتي تدخلاً أجنبياً وحربًا أهلية في جبهات تتوزع من البلطيق إلى البحر الأسود ومن مورمانسك واركانجل إلى ڤلاديڤوستك، واستمرت الحرب لأكثر من سنتين وهددت ليس فقط بالقضاء على الثورة بل وبتمزيق الإمبراطورية الروسية تمزيقًا كاملاً.

وإذا كانت الثورة الروسية قد استطاعت النجاة فإن هذا كان معجزة ترجع جزئياً ـ على الأقل ـ إلى إصرار البولشفيك على متابعة الكفاح للبقاء، الكفاح بالسيف وبالدعاية، واستمرت قدمًا عملية تسليح الثورة، وأتت ثمارها عندما شقت فرق البانزر النازية طريقها متعمقة في الأراضي الروسية سنة ١٩٤١ .

وقد حذر الزعماء السوڤيت باستمرار منذ أيام لينين من أن تجربة التدخل الأجنبي ربما تتكرر، وأن الحرب بين الوطن الاشتراكي وبين الدول الرأسمالية أو الفاشية يجب توقعها والتأهب لها،وجاء في بيان المؤتمر العالمي السادس للحزب الشيوعي سنة ١٩٢٨: «لقد أثبتت الثورة البلشفية لكل شيوعي أمين أن الحاجة ماسة لتسليح الطبقة العاملة الكادحة، وأن واجب كل مواطن في الاتحاد السوڤيتي كمحارب للدفاع عن الاشتراكية أن يعد

---

(١) Wheeler Bennett نفس المرجع ص٢٦٠و ٤٠٩ ـ ٤٢٦، فقد نصت المعاهدة على وقف الدعاية الروسية في ألمانيا، ولكن الروس لم يظهروا أية نوايا لاتباع هذا إلا بما يمكن أن نصفه (بالنوايا السيئة).

العدة لمثل هذه الحرب إعدادًا سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، وأن يعمل لتقوية الجيش الأحمر، وسلاح القوة للطبقة العاملة الكادحة، وأن يدرب الجماهير العاملة في غالبيتها على الفن العسكري»[1] .

ـ ٢ ـ

وكانت فترة التدخل الأجنبي والحرب الأهلية المدرسة العظيمة في الشئون العسكرية للاتحاد السوڤيتي، فمن هذه المدرسة خرج الجيش الأحمر، صحيح أنه أعد على عجل ولكنه مع هذا كان النواة لمنشأة عسكرية في المستقبل، ومن هذه المدرسة أيضًا خرجت جماعة من المدنيين فيها تروتسكي، فرونزي، تيموشنكو، فورشيلوف، وستالين، وكان لهذه الجماعة دور كبير لا في تنظيم الجيش وخوض غمار القتال فحسب، بل وفي تخطيط الاستراتيـچية الروسية في السياسة العالمية؛ وخرج كذلك من الحروب الأهلية بعض أعضاء الجيش الإمبراطوري القدامى وبخاصة توخاشـڤسكي Tukhachovsky وشابوشنيكوف Shaposhnikov، وكان لهؤلاء العسكريين القدامى أن يكتسبوا شهرة لأنفسهم في ظلال العلم الأحمر للاتحاد السوڤيتي، وأخيرًا فإن هذه الحروب قد دلت على أن الدعاية الثورية مهما كانت نافعة وناجحة فإنها لا تستطيع في ذاتها أن تكسب انتصارات عسكرية.

وبلغت الحرب بين البولشفيك وبين مختلف جيوش روسيا البيضاء ذروتها في خريف سنة ١٩١٩ وشتاء سنة ١٩٢٠، وتقاطرت العمليات الهجومية ضد موسكو من مختلف الاتجاهات، وبدا لوقت ما أنه من المستحيل أن

---

(١) نقله Taracouzio نفس المرجع ص٢٧١ .

يستطيع النظام الشيوعي البقاء، ولكن لم يلبث فرونزي أن أوقف تقدم كولتشاك Kolechak الاكتساحي الذي قطع به الأرض من قاعدته في سيبيريا حتى اقترب من مشارف العاصمة ثم هزمه واضطره للتقهقر عبر الأورال من جديد، وأوقفت الدفاعات السريعة التي أعدها عمال «بتروغراد» تقدم يودنيتش Yudenitch من ولايات البلطيق، ولكن كان أخطر هذه العمليات الهجومية العمليات التي قام بها جيش دنيكين Denikin في الجنوب والذي تمكنت وحداته من اختراق دفاعات البولشفيك عند ڤورونزه وفيها وراء أورال قبل أن تتوقف، وقد عطل من تقدم دينكين الحصار الذي قاومته تزاريتسين Tsaristyn (ستالينجراد الآن) والتي عرفت يوم ذاك باسم ڤردون الحرب الأهلية، وكانت دونها شك ڤردون الحرب العالمية الثانية في القتال ضد ألمانيا النازية.

وفي تزاريتسين ـ على ما تقول سجلات التاريخ الرسمي للحرب الأهلية ـ كان ستالين وڤورشيلوف وبوديني يحثون المدافعين على الثبات بالرغم مما يتكبدونه من خسائر، واستطاع المدافعون أن يرهقوا قوات دينيكين حتى بدا بوضوح أن لا أمل في إسقاط النظام البلشفي.

ولم تتوقف الحرب مع بولنده إلا بعد عام كامل عندما أوقف مكسيم ڤيـچان(*) ـ الذي أعارته فرنسا لبولنده ليتولى قيادة قواتها ضد الروس ـ تقدم الروس عند أبواب وارسو؛ وفي ربيع سنة ١٩٢١ كان البولشفيك قد حققوا سيطرة لا منازع لها على روسيا، وكان تدخل الحلفاء قد انتهى، وكانت العلاقات السلمية مع جيران السوڤيت قد قامت وتوطدت.

(*) مكسيم ڤيـچان (١٨٦٧ ـ) القائد العام للقوات الفرنسية عند الاستسلام لألمانيا في يونيو سنة ١٩٤٠ .



الجبهات في صيف سنة ١٩١٩

على أنه لما كانت الحرب الأهلية حرب طبقات، وكانت وليدة الحقد والكراهية التي تولدت لأجيال[١] في قلوب العمال والفلاحين، وكان أفراد الطبقة الوسطى والأرستقراطيين يقاتلون في الواقع من أجل بقائهم، فإن الحرب كانت قتالاً عنيفًا مليئًا بالوحشية ولكنها مع هذا لا يمكن أن تقارن بالحرب العالمية الأولى من ناحية تعداد القوات المشتركة فيها ولا ضغط القتال، ولا من ناحية طابع العمليات الحربية والاستراتيـجية البعيدة المدى، وفضلاً عن هذا، كانت الحرب الأهلية ـ على ما قال ونستون تشرشل ـ حربًا غريبة، حرب مناطق فسيحة ضاعت فيها جيوش تتكون من مئات الألوف؛ كانت الجيوش تزحف متقدمة ثم تتوقف وتتوزع وتذوب وتتبخر، هي حرب لا معارك فيها، مجرد إغارات ومذابح. وكنتيجة لهذا كانت مناطق فسيحة تصل مساحتها إلى مساحة بريطانيا أو فرنسا تتبادلها الأيدي جيئة وذهابًا، حرب تمثل أعلامًا على خريطة كبيرة، هي خطوط أمامية وستار «سجف» من الخيالة، ويقطع الفرسان مئات الأميال في اندفاع واحد بلا هدف وبلا نتيجة، فهي حرب قليلة الحماسة كثيرة المذابح لا يعرف الرحمة من خاضوا غمارها، وكل من يتقدم يجد أنه من السهل أن يتابع تقدمه، وكل من اضطر للتقهقر وجد أنه من الصعب أن يتوقف، وهي على الورق تبدو مماثلة للحرب العالمية الأولى في الميدانين الشرقي والغربي ولكنها في الحقيقة كانت أقرب إلى صورة الشبح، كان كولتشاك في البداية ثم من بعده دنيكين، كان التقدم الذي قيل له عمليات هجومية يغطي مناطق فسيحة، وكلما امتد التقدم للأمام كلما اتسعت الجبهة ووضح أن هذه السعة تسبب ترقيق القوة

(١) W. H. Chamberlin, The Russian Revolution, ١٩١٧ - ١٩٢١ (٢ vols, New York, ١٩٣٥), II ٣٣٥.

المهاجمة حتى وضح أن التقدم سيستمر حتى يكون للمهاجمين جندي واحد في كل ميل مربع، وعندما جاءت اللحظة المناسبة قام البولشفيك الذين يتركزون بقواتهم في الوسط ـ بالرغم من ضعف قواتهم هم أيضًا ـ بتوجيه الطعنات هنا وهنا، وانفجر البالون، وتحركت الأعلام للخلف بسرعة، وتبادلت الأيدي المدن والقرى، ووجد الناس أنه من الأوفق لهم أن يغيروا من آرائهم ومعتقداتهم.

ووضح أن الحواجز الاستراتيجية القوية كنهر الڤولجا وجبال الأورال ليست أماكن للراحة، ولم تكن من معقبات استراتيجية للاستيلاء على جبال الأورال أو فقدها، ولا قيمة ولا ضرر من اجتياز الڤولجا أو الارتداد إلى ما وراءه من جديد، حرب قليلة الخسائر في القتال غير محدودة عدد الذين أعدموا فيما بعد»[١] .

ولقد وافق ليون تروتسكي الذي كان يتولى توجيه معنويات الجيوش الروسية في الصراع، وافق على أن الحرب الأهلية حرب مصغرة، «ولكن الحرب الصغيرة تختلف عن الحرب الكبيرة من الناحية القياسية فقط إلا أنها كانت في الواقع نموذجًا حياً للحرب، وكانت مدرسة كبيرة كثيرة الدروس»[٢] .

ومع أن العقيدة الثورية للفلاحين والعمال كانت ذات أثر فعال في

---

(١) W. S. Churchill: the World Crisis, ١٩١٨- ١٩٢٨: The Aftermath (New York, ١٩٢٩), pp. ٢٤٠ – ٢٤١.

أما عن الخسائر التي تكبدها الروس في الأرواح في الحرب العالمية الأولى فيرجع إلى:

Stanislas Kohn and A. E. Meyendroff, The Cost of the War to Russia (New Haven, ١٩٣٢).

(٢) L. Trotsky, My Life (English translation, New Youk, ١٩٣٠) p. ٤٠٧.

النصر الذي حققه البولشفيك، كما كان لها من أثر أيضًا للكفاية العسكرية لضباط وضباط صف وفنيي الجيش الإمبراطوري فإن الدعاية التي استخدمت بمهارة وراء خطوط قوات روسيا البيضا كان لها دورها الفعال في تحطيم معنويات أولئك الذين يقفون موقف التضاد من الثورة؛ وإن كانت هذه الدعاية في الحقيقة قليلة الأثر عندما كان الحلفاء يمدون قوات دينكين وغيره بحاجتها من المعدات الحديثة.

وقد أثبتت مهارة ڤيچان في إعداد القوات البولندية أن أي ضابط محترف درب ـ حتى ولو كان من البرجوازيين أو كان يمثل دولة رأسمالية استعمارية ـ يستطيع بنجاح أن يكسب أي حرب سياسية ما لم تمد هذه الحرب بالكفاية من الرجال والمدافع، ولقد أثبتت الحرب الأهلية في إيجاز أن الاستراتيچية الثورية يجب أن تدعم بالكفاية العسكرية بل وحتى بالوسائل العسكرية التقليدية.

***

وكانت استعادة النظام «والضبط والربط» في مقدمة التدابير العسكرية التي جاءت نتيجة لاستقامة الرأي، والجيش الذي ينقصه (الضبط والربط) ليس بأكثر من دهماء مسلحين، غوغاء في غير ما نظام؛ فالثورة تبعًا لطبيعتها قوة مدمرة فيها كل عوامل التمزيق والتفكك وتتجه بعناصر مراحلها الأولية إلى الفوضى الكاملة لو أفسح السبيل لهذا.

وهنا الخطر لأن الفوضى لا يمكن أن تستمر طويلاً، ذلك لأنها ـ على ما قال لينين سنة ١٩١٧ ـ خطوة واحدة بين الفوضى وبين القضاء على الثورة.

وبالرغم من كل ما يقوله البولشفيك محاولة منهم لإنكار هذه الحقيقة، فإنهم في الواقع كانوا العامل الرئيسي الفعال في تمزيق الجيش القديم، فهم قد حثوا من البداية على الخروج عن الطاعة التي تفرض على الجنود، وحطموا السلطات التي للضباط، ومن ثم فإنهم عاونوا على قيام حال من الفوضى بزعم محاولة نشر فضيلة عقائدية. ثم واجه الزعماء السوڤيت الحاجة لتغير شامل، وأن يبدلوا من موقفهم، وأن ينقلبوا «من تحطيم الجيش القديم إلى تنظيم الجيش الجديد»، وتولى لينين وتروتسكي واجب إنشاء قوة عسكرية نظامية، وحدوا من ديمقراطية الجيش ومن حق الجنود في انتخاب قادتهم، وفرضوا العقوبات الشديدة على «الفرار من صفوف الجيش» وعلى «الجبن»، ومنح القادة السلطات اللازمة، وأصدروا وسام «العلم الأحمر» ليحل مكان كل الأوسمة العسكرية القديمة.

وأوضح تروتسكي أن في الجيش الجديد مكانًا للرقيب المدرب (شاويش التدريب) في طابعه التقليدي الذي عرفه الجيش القديم، وكل وحدة من وحدات الجيش: «يجب أن تتسلم تموينها بانتظام ولا يجب أن تترك مواد الغذاء لتتلف، ويجب أن تُطهى الوجبات الغذائية جيدًا، ويجب أن يتعلم الجنود نظافة أجسامهم، وأنهم يجب أن يدربوا تدريبًا جيدًا وأن يتلقوا هذا التدريب في الهواء الطلق كلما كان هذا مستطاعًا، كما يجب أن يجيدوا إلقاء الخطب السياسية موجزة مجملة واضحة، وأن ينظفوا بنادقهم ويغطوا أحذيتهم بالدهن، ويجب أن يدربوا على الرماية ليصلوا إلى مستوى عال من المهارة، كما يجب أن يعاونوا ضباطهم في ضمان اتباع الأوامر والتعليمات، بأن يبقوا على الاتصال بالوحدات الأخرى في

الميدان، وأن يقوموا بأعمال الاستطلاع وبأداء واجبات الحراسة، وأن يدربوا على التكيف مع الأحوال المحلية، وأن يعرفوا رتق «جواربهم» حتى لا تجرح أقدامهم.

ومرة أخرى يجب أن يلاحظوا طلاء أحذيتهم بالدهن(*)؛ هذا هو برنامجنا للسنة القادمة ١٩١٩ بعامة، وللربيع القادم بخاصة.

ونحن نرحب بكل من يود أن يصف هذا البرنامج العملي بأنه «عقيدة عسكرية»[١].

وهكذا أدرك السوڤيت نتيجة للتجربة العملية كأي جماعة ثورية أن تعاليم العهد السابق لها من الفضائل أكثر مما كانوا يعتقدون. فللوصول إلى القوة أو السلطة في غالبية الأوقات الأثر الذي ييقظ من الغفوة ومن ثم فإن النظام الجديد ينتفع ببعض تعاليم وتقاليد الماضي، والثورة قد تكتسح الكثير من صور وتشكيلات الجيش، ولكن هناك الكثير من النظم العسكرية التي لا يمكن أن تغفلها أي صورة من صور الحكم مهما كان طابعها.

ومن الواضح أن تروتسكي قد حذر هذا؛ ذلك لأنه يقول: «إن غالبية

(*) عرض تروتسكي في الواقع لعدة موضوعات متباينة الاتجاهات مختلفة القيمة التقديرية لقيمتها وأثرها في النظام العسكري، وإن كانت تتفق في وجوب اتباعها والعناية بها ويفتقر إليها الجيش سواء أكان جيشًا لبلد طغوائي الحكم أم ديمقراطي النزعة، لأنه يرتبط بالأسس السليمة للجندية الصحيحة. وقد يبدو مدهشًا تكراره الإشارة إلى تغطية الأحذية بالدهن (الدبن في الاصطلاح العسكري العربي) وهنا يجب ملاحظة أهمية صلاحية الأحذية وليونة جلدها بالنسبة للمشاة المترجلين، والقوة الغالبة في الجيوش القديمة (المترجم)

(١) Quoted by Erich Wolenberg, The Red Army: A Study of the Growht of Soviet Imperialism (London, ١٩٤٠), pp. ١٥٧ - ١٥٨.



تروتسكي (١٨٧٧ – ١٩٤٠)

المبادئ والصعاب التي واجهها السوڤيت في عملهم الإنشائي طوال السنوات التي تبعت سنة ١٩١٧ تبدو أولاً في النطاق العسكري وكانت في غالبيتها مركزة فيه»[1].

على أن البولشفيك لم يهجروا تمامًا الاستراتيـجية الثورية في قتالهم ضد كل العوامل التي تضاد الثورة، وكان الجيش الذي كونوه جيشًا من الفلاحين ومن الكادحين، وكانت الحرب التي خاضوا غمارها حرب طبقات، وكان الفلاحون والعمال الذين اعتمد عليهم البولشفيك هم الطبقات التي تفقد الكثير وتحتمل الغرم كله لو عاد النظام القديم، ولربما كانت للحرب التي قام بها المتطوعون وراء جبهات جيوش روسيا البيضاء الأثر المماثل للمقاومة العسكرية المنظمة التي قام بها الجيش الأحمر، ومكنت هذه وتلك من هزيمة دينكين وكولتشاك؛ لقد أنقذت قوات الجماهير بتروغراد من الغزو عندما تحطمت مقاومة الجيش، وكان لما قال لينين في المؤتمر الثامن للحزب الشيوعي في ٢٣ من مارس سنة ١٩١٩ نصيب كبير من الحقيقة، فلقد قال:

«إذا كان قد أمكن خوض غمار هذه الحرب بنشاط كبير وجرأة نادرة فذلك لأنه لأول مرة في التاريخ وجد جيش يعرف لماذا هو يقاتل، ثم ذلك لأنه لأول مرة في العالم يفهم العمال والفلاحون تمامًا أنهم وهم يدافعون عن

---

(١) My Life, p. ٤٣٧.

أما بالنسبة لما جاء خاصًا بالثورة الفرنسية فيرجع بخاصة إلى الصفحات ٢٣، ٢٤، ٧٥، ٩٦، ١٨٢ ـ ١٨٥ من كتاب:

R.R. Palmer, Twelve who Rouled: The Committee of Public Safety during the Terror (Princeton, ١٩٤١).

ص٢٣٣ ـ ٢٤و ٧٨و ٨١و ٩٦و ١٨٢ ـ ١٨٥ .

الجمهورية السوڤيتية الاشتراكية إنما يدافعون عن سيادة الجماهير الكادحة على الرأسمالية، وأنهم يقاتلون في سبيل قضية الثورة الاشتراكية العالمية للطبقات الكادحة في العالم كله»[١].

ولقد وقفت وراء الجيش تشكيلات متراصة[*] من الحزب الشيوعي، قوة دينامائية تجاهد في سبيل عقيدة جديدة، وكان بعض الأفراد يشغلون وظائف «القوميسيريين» مع الجنود في الميدان، ولكن حيثما كان هؤلاء فإنهم كانوا التيار الكهربي الذي «يشحن» بالكهرباء آلة الجيش الأحمر ثم تدعم القوة الدافعة للقادة بأن «تترجم» من رغباتهم وتنقلها إلى أعمال.

وكانت رغبة القوميسيريين والقادة والجنود في الصفوف (هي) بمثابة الملاط الذي يربط الأحجار بعضها إلى بعض، بمثابة الإطار الحديدي الذي يربط كل وحدات الجيش الأحمر معًا في عقد واحد[٢].

لقد خرج البولشفيك من تجاريبهم في الحرب الأهلية بدرس فريد في بابه عن دور «المجتمع» في الحرب، وخرج لينين بخاصة بنظام فلسفي معقد، فلقد قال: بأنه ليس من الممكن تصنيف اتجاهات الطبقات العاملة وتبين مواقفها من الحرب وتنفيذها في مستويات معينة، ويرى أن الميل إلى السلم، عدم المقاومة، مقاومة الخدمة العسكرية، الإضراب العام ضد التعبئة وغير هذا من مختلف ألوان ومظاهر الاشتراكية الأوروبية الغربية، كلها لا معنى لها في حد ذاتها؛ ذلك لأن رد فعل الجماهير بالنسبة للحرب إنما يتقرر

---

(١) Cited by Taracouzio op. cit p. ٩٥.

(*) في الأصل استخدم الكاتب كلمة "Phalanxes" أي تشكيل المجموع في قولات، راجع الفصل الأول من الكتاب الأول.

(٢) D. F. White, The Growth of the Red Army (Princeton, ١٩٤٣), p ١٢٦.

تبعًا لنوع الحرب التي ستخوضها هذه الجماهير وتبعًا لأهداف هذه الحرب، الأهداف التي يجب أن تقدر وأن توزن، وهذه كلها مسائل وثيقة الصلة بفكرة كلاوزيفتز من أن الحرب ـ في بساطة ـ آلة أو وسيلة للسلم[(١)] .

ولقد نظر الاتحاد السوفيتي والشعب الروسي إلى العالم ـ منذ أيام الحرب الأهلية ومنذ أيام التدخل الأجنبي ـ على أنه ينقسم إلى معسكرين مسلحين، معسكر الاشتراكية ومعسكر الرأسمالية، وجاء في إعلان الاتحاد سنة ١٩٢٢ : «إن عدم استقرار الموقف الدولي وخطر مواجهة هجمات جديدة ليوجبان إيجاد جبهة مشتركة بوساطة الجمهوريات السوفيتية ضد تطويق الرأسمالية»؛ وكان هذا رد فعل طبيعي إزاء التدخل المسلح لبريطانيا وفرنسا واليابان والولايات المتحدة في السنتين الحرجتين ١٩١٨ و١٩١٩، وهو تدخل لم يستطع الروس أن يفهموا سببه وما زالوا يذكرون دائمًا بمرارة، وكانت كذلك نتيجة للنطاق الحاجز الذي حاولت به الدول منع رعايا روسيا من التسرب إلى بلادها، وحالت به بين رعاياها وبين الاتحاد السوفيتي، كما كان كذلك عملاً طبيعياً لامتناع بعض الدول لسنوات طوال عن الاعتراف دبلوماسياً بالحكومة السوفيتية.

ويعتبر الشعور بالعزلة والتطويق العامل الذي يحتمل مسئولية وجود عقلية تفكر دائمًا في الحرب في الاتحاد السوفيتي وقد جاء هذا الشعور من البداية وبقي قائمًا حتى اليوم، وتعكس اللغة التي يتحدث بها الروس هذا

---

(١) عالج «تاركوزيو» Taracouzio في إفاضة وبمهارة تطور الفكرة السوفييتية عن الحرب، راجع أيضًا:

D. F. White "Soviet Philisophy of War)in Political Science Quarterly, LI (١٩٤٣) p. ٣٢١ - ٣٢٥.

الطابع العدائي في كل شيء، فالروس يتحدثون دائمًا عن: «معركة الإنتاج» ـ «التقدم في القطاع الزراعي» ـ «القتال في جبهة الفحم» ـ «الجواسيس والمخربين في الصناعة»(١).

وكان هذا التفكير الدائم في الحرب عاملاً مهمًّا في المقاومة الروسية الناجحة ضد الاعتداء النازي، ولكنه عامل مهم أيضًا يجب أن نذكره إذا أردنا أن نتفهم سياسة روسيا في الشئون العالمية، أنه نتيجة تبعية لسياسة غير ناجحة استمرت طوال الخمس والعشرين السنة الماضية(٢).

وفي مثل هذا العالم الذي نعيش فيه يعتبر من قصر النظر ومن الخطورة بمكان أن تكون أمة ما غير متأهبة للحرب، ولقد وجدت الشعوب الديمقراطية نفسها في هذه الحال المؤسفة في السنوات التي تلت تسوية ميونخ، ولكن هذا يعتبر حماقة وغباء بالنسبة لدولة كروسيا وجدت نفسها ـ

---

(١) A. R. William, The Russians: The Land, the People, why They Fight (New York, ١٩٤٣), p. ٤٣ ff.

(٢) ينتقد ونستون تشرشل ـ الرجل الذي كان من أنصار التدخل سنة ١٩١٨ سنة ١٩١٩ ـ السياسة الأمريكية على أنها سياسة لم تكن منسقة مع أهدافها بل إنه ليشك فيها إذا كانت لنا يومذاك سياسة ما، ولو كانت فهو يقول عنها أنها في الواقع سياسة غير مخلصة.
وقد كتب سنة ١٩٢٩: هل كان الحلفاء في حرب مع روسيا السوفيتية؟ بلا شك... لا، ولكنهم كانوا يطلقون النار على الروس حال رؤيتهم وقد قاموا بدور الغزاة للأراضي الروسية وسلحوا أعداء الحكومة الروسية، وحاصروا موانيها وأغرقوا بوارجها، وكانوا في الواقع يرغبون في إسقاطها ووضعوا الخطط لهذا، وقد كرروا أن ما يضايقهم.. كيف أن الروس قد استطاعوا أن ينظموا أمورهم الداخلية. نفس المرجع ص٢٤٣ ـ ٢٤٤.
ونجد نقدًا عنيفًا مماثلًا في كتاب:
General W. S. Graves (Commander of the American of the American expediteionary force in the Soviet Far East); America's Siberian Adventure (New York, ١٩٣١).

بسبب نظامها الاجتماعي ـ تواجه دائمًا خطر الحرب، ومن ثم كان إصرار الاتحاد السوڤيتي على الاحتفاظ بجيش أحمر وأسطول أحمر وقوة جوية حمراء بالقدر الذي يكفي لحماية نفسها ضد الهجوم الذي تعتقد أنه قادم لا محالة، ومن هنا أيضًا جاء تصنيع روسيا مع مشروعاتها للسنوات الخمس، هذه المشروعات التي جعلت الأولوية للصناعات الثقيلة وقدمتها على البضائع الاستهلاكية حتى يمكن أن تقف القوات المسلحة دائمًا في مستوى التعبئة الكاملة بما فيها من الجهد العنيف الذي تفرضه الحرب الحديثة.

وكنتيجة لهذا لم يتكرر فشل روسيا القيصرية أيام الحرب الثانية ضد الإمبراطورية الألمانية، لقد وضعت دعائم وأسس الانتصار الذي حقق في ستالينجراد قبل المعركة بحقبتين من السنين بل وأكثر عندما أوجد الجيش الأحمر، وعندما ما مر بمرحلة النضوج مع العناية بتنشئته.

ـ ٣ ـ

وكان ليون تروتسكي نقضًا حياً لحديث كارل كوتسكي بأن الحرب ليست أقوى النقاط في عمل «البوليتاريا» الطبقة الفقيرة الكادحة، فإن تروتسكي كان أبا الجيش الأحمر، وكان هو الذي نظم للنصر أثناء الحرب الأهلية، وكان المؤلف لجزء كبير من «العقيدة» التي قامت على أساسها وتبعًا لها السياسة السوڤيتية العسكرية، ولو كان له أي سابق تجربة عسكرية لكان من العدالة أن يقال عنه «كارنو» Carnot الثورة الروسية، وهو لقب أطلقه تروتسكي كرمًا منه على مساعده الأول سكليانسكي Skliansk .

***

وكان تروتسكي في السابعة والثلاثين من عمره عندما تولى وزارة

الحرب (قوميسير الحرب) في مارس ١٩١٨، ومع هذا فإن تروتسكي كان يستند إلى ماض في النشاط الثوري العدائي يمتد لعشرين سنة، وعلى خلاف لينين لم يكن تروتسكي أستاذًا عالمًا، بل كان سياسياً، ثورياً، ومنظمًا في الأعمال العامة متغطرسًا، يجيد التمثيل على مسرح الحياة، هذا فضلاً عن أنه كان دؤوبًا لا يجهده العمل، شجاعًا، صائب الرأي حسن التفكير لا يتوانى عن أداء واجبه، ومع أن تقديره للأمور العسكرية لم يكن دائمًا متممًا بالصواب إلا أنه كان ولا شك في الغالبية يصدر قرارته متفهمًا إلى حد بعيد المواقف التي تواجهه.

وكان الواجب الذي أوكل لتروتسكي، واجب تحقيق نظام عسكري من فوضى الثورة وفي خضم الحرب الأهلية والتدخل الأجنبي ليكفي لأن يذهب بعقل أي شخص أقل منه جهدًا وصبرًا وسعة أفق، وقد كتب عنه صحفي أمريكي يوم ذاك:

«وفي خضم هذه الفوضى برزت شخصية تروتسكي، كان أشبه ما يكون بالمذنبات (Comet like)، يندفع جيئة وذهابًا وسط خطوط الجيش الأحمر موزعًا الأوسمة الثورية الجديدة مصدرًا الأوامر بحكم الإعدام في كرم متماثل بين هذا وذاك، ناصحًا محذرًا، مهددًا متوعدًا، ولكنه في هذا كله يعمل لتحقيق النصر، وكان هو بلا شك واحدًا من العوامل الحاسمة التي مكنت في النهاية من وضع كل أراضي روسيا تحت راية السوڤيت الحمراء[1]».

وقد أدى النزاع الطويل بين تروتسكي وستالين إلى إنكار دور

(١) تشيمبرلين نفس المرجع ـ ج٢٠، ص٤٠ .

تروتسكي في قصة الثورة الروسية وفي تاريخ تكوين الجيش الأحمر.

والواقع أنه بالإضافة إلى ما توافر لتروتسكي من مواهب فلقد توافرت فيه أيضًا الخاصيات التي جعلت منه واحدًا من الشخصيات الممتازة في التاريخ العسكري الحديث، وإن كان تروتسكي لم ينل حقه بعدالة؛ فذلك لأن التاريخ في البلاد الطغوائية (هو) ما يقوله الديكتاتور لا ما تسجله الحوادث وتنطق به الأعمال.

ولم يزعم تروتسكي أنه أخصائي في المسائل العسكرية ولا أنه عبقري في الشئون الاستراتيچية، وقد أشار عن حق بأنه في البلاد البرلمانية توكل وزارة الحرب ووزارة البحرية إلى محامين وصحفيين هم مثلي يرون الجيش من نوافذ غرف التحرير التي يعملون فيها. وكان الشيء الوحيد ذو الطابع العسكري في حياته الأولى أنه كان يقيم في الصرب وبلغاريا ورومانيا طوال أيام حروب البلقان، ويقول هو عن هذا: «ولكن كانت كل صلاتي بالمسائل العسكرية من الجانب السياسي لها، إلا أن الحرب العالمية جاءت بكل الناس ـ وأنا من بينهم ـ إلى الأوضاع التي تربطهم وثيقًا بالشئون العسكرية».

وقد عنى تروتسكي بتحليل المسائل العسكرية في دراسته لها، ولكنه كان يؤمن بأن ـ أهم شيء ـ أن الحرب تكملة للسياسة، وإن الجيش آلة في خدمة السياسة، مع بقاء مشكلات التنظيم العسكري والتكنولوچية العسكرية في القاعدة الخلفية لها، «ومن جانب آخر فقد اجتذب انتباهي أن سيكلوچية الجيش في معسكراته، خنادقه، معاركه ومستشفياته»، وهكذا كان تروتسكي ـ على ما يبدو ـ مزيجًا مركبًا من كلاوزيـڤتز وآنجلز ولينين.

ولم ينظر تروتسكي لنفسه قط على أنه خبير في الاستراتيـچية ولم

يتوافر له الصبر لتقبل أي لون من هواة الاستراتيـچية، هذه الهواية التي سببت الثورة انتشارها بين أعضاء الحزب؛ على أنه عندما كان واجبه كقومسيير للحرب يضطره لإصدار قرارات في مسائل ذات طابع استراتيـچي ـ كما حدث لثلاث مرات ـ فإنه كان يصدر قراره تبعًا للاعتبارات السياسية والاقتصادية لا تبعًا للاعتبارات الاستراتيـچية وحدها، ومن الضروري أن نشير هنا إلى «أن المسائل الاستراتيـچية الهامة لا يمكن أن تحل بغير هذا الأسلوب».

ولقد أحس تروتسكي بأنه من الضروري أن يستعين بمعاونة أولئك الذين تعتبر الشئون العسكرية صناعتهم،وهنا يقول تروتسكي: «أما في النطاق الفني وفي العمليات فلقد كان واجبي الأساسي أن أضع الرجل الصالح في المكان الذي يصلح له ثم أتركه ليستخدم إمكانياته ومواهبه» ولكن لما كان الجيش آلة للثورة فلقد فهم بأن وضعه يتطلب كي ينجح في عمله أن يمزج عمله في تنظيم الجيش بعمله في عضوية الحزب، ومن ثم يستطيع أن يقوم بدوره السياسي على أكمل وجه[1] .

***

على أنه لم يكن من مكان لأن يعمل البولشفيك لإعادة تكوين الجيش الإمبراطوري، فلم يكن من أمل في إحياء جيش القياصرة، كان الجيش في السنوات بين ١٩١٤ وبين سنة ١٩١٦ قد تكبد خسائر فادحة، وخاض غمار الحرب مفتقرًا إلى حاجته من غذاء وذخيرة وإمدادات، بل وكان يفتقر حتى إلى القيادة الحكيمة، وفي تاريخ بعد هذا قاسى الأمرين من مركبات النقص

(١) تروتسكي ـ نفس المرجع ص٣٤٩ ـ ٣٥٠/ ٣٥٨ .

السيكلوچية تبعًا للتقهقر، كما حطمت من كيانه العددي حوادث الهرب وفقدان الضبط والربط والشعور بإجهاد الحرب، وهنا يجب أن نضيف أيضًا الدعاية اليسارية الثورية والدعاية الانهزامية والدعاية لحرب الطبقات، وما سببه هذا كله من تفكك الجيش ثم من القضاء فيما بعد.

فلما أن بذلت محاولة لإحيائه بالقيام بهجوم جديد في صيف سنة ١٩١٧ فإنه ـ على ما أشار لينين ساخرًا: «لقد صوت الجنود في جانب السلم بأرجلهم لا بأيديهم».

على أن تسرب الضعف إلى روح الاقتتال في الجيش إنما يرجع إلى نهاية سنة ١٩١٦ ـ كما وضح للچنرال بروسيلوف Brussilov، ومن ثم فإن بعض النقاد يرون بأن الدعاية البولشفية لم يكن لها من أثر كبير في النهاية التي تحققت وأنها لم تكن أكثر من «القشة التي قصمت ظهر البعير».

ولكن هؤلاء النقاد مع هذا يرون بأن السرعة التي تم فيها هذا الانهيار المعنوي فضلاً عن أنه كان انهيارًا شاملاً كاملاً إنما ترجع إلى الدعاية الثورية التي قام بها البولشفيك داعين للسلم، ويرون أيضًا بأنه لو لم تبدأ الثورة أو لو توافرت في البلاد حكومة قومية في فجر الثورة لكان من الممكن للجيش أن ينتعش وأن يستعيد نظامه كما حدث للجيش الفرنسي عندما انتعش من ثورة سنة ١٩١٧ العظمى[1].

(١) M. T. Florinsky, The End of the Russian Empire (New Haven, ١٩٣١).

الفصل التاسع، ويعرض المؤلف في هذا الفصل وجهة النظر بأن الدعاية البولشفية= =كانت في بساطة الخطوة الأخيرة في انهيار الجيش، على أننا نجد حديثًا مضادًا في كتاب:

D. F. White ،"Soviet Philosophy of Wea" Chap. I.

على أنه لا فلورنسكي ولا هوايت من الشيوعيين ولا داعية لهم، بل إنهما قد خرجا برأيين متضادين نتيجة دراسة كل منهما لموضوع واحد فقط من زاويتين مختلفتين، على أننا يمكن

على أن تروتسكي كان يوافق على أن الثورة والدعاية البلشفية التي سبقت الثورة، قد دمرتا الجيش.

وقد أكد الأستاذ مليوكوف Milyukov وزير الخارجية في حكومة الأمير لـڤوف Lvov بأن الجيش قد تحطم نتيجة للنزاع بين الآراء الثورية وبين الضبط والربط العسكريين العاديين بين «تحول الجيش إلى الديمقراطية» وبين «الاحتفاظ بقوة الاقتتال للأفراد».

وقد رد تروتسكي على هذا بأن المؤرخ يجب أن يعرف بأن كل ثورة عظيمة إنما تسبب تحطم الجيش القديم نتيجة لا لضعف الضبط والربط، بل بسبب اصطدام الطبقات البشرية، وقد كتب ألماني أوتي حظاً من الحكمة هو «آنجلز» إلى ألماني آخر هو «ماركس» في ٢٦ من سبتمبر سنة ١٨٥١: «بأن الجيش غير المنظم المعدوم الضبط والربط كان دائمًا العامل والنتيجة لكل ثورة ناجحة؛ ويثبت التاريخ البشري في بساطة أن هذا الحديث قانون لا نزاع فيه»[(١)].

ولقد قال تروتسكي أيضًا بأنه كان من مصلحة الأمة تصفية الجيش القديم تمامًا فإن «الجيش آلة الحرب» ولكن في حكم القياصرة «كان هذا الجيش قوة لها خطرها ضد الشعوب شبه المتبربرة فقط، ضد الجيران الصغار الضعاف، ضد الأمم المقطعة الأوصال، ولكنه لا يستطيع العمل في حلبة الصراع الأوروبية إلا كجزء من تحالف كبير، وهو لا يستطيع أن يقوم بدوره في الدفاع إلا باستناده إلى المسافات الواسعة، وتبعًا لاستحالة السير على

أن نجد رأيا سابقًا لهما في كتاب:

A. A. Brussilov, A Soldier's Notebook, ١٩١ - ١٩١٤ (London, ١٩٣٠ Chaps. X- XII.

(١) History of the Russian Revolution I, ٣٧٤ - ٣٧٥.

الطرق؛ لقد مكن التحرر الجزئي للطبقات الكادحة وإدخال نظام التجنيد العام من استحداث الجيش بالقدر الذي مكن فيه هذا أو ذاك من تحضر البلاد وتقدمها، أي أنهما أدخلا في الجيش كل المتناقضات الموجودة في الأمة التي كانت لا تزال أمامها ثورة برجوازية يجب أن تعمل لتحقيقها».

«صحيح أن جيش القيصر قد تكون وتسلح تبعًا للطابع الذي قام فيه هذا وذاك في الدول الغربية ولكن هذا كان أكثر مما يجب إجراؤه، فلم يكن هناك أي تناسق بين المستوى الثقافي للجندي الفلاح عامل الأرض وبين التكنولوچية العسكرية الحديثة»[1] .

والحقيقة أن كلمات تروتسكي تدل على تفهم عميق لواقع الوضع العسكري للروسيا في قارة أوروبا يوم ذاك. ومن الطريف حقاً، بل ومن الأهمية بمكان هذه المقارنة بين المستوى الثقافي للجندي الفلاح وبين الدراية الفنية التي يجب توافرها للفرد في ضوء العسكرية الحديثة، والعامل المهم ـ وإن لم يكن العامل الوحيد ـ كان هو جهل الأفراد في الجيش الإمبراطوري للقراءة والكتابة؛ وقد علق الـچنرال السير ألفرد نوكس الملحق العسكري الإنجليزي في روسيا إبان الحرب العالمية الأولى وأحد المتعمقين في دراسة الشئون العسكرية الروسية، علق على حقيقة «أن قرابة الخمسين في المائة من جنود سنة ١٩١٤ لم يكونوا يستطيعون لا القراءة ولا الكتابة، وأن المعرفة التي توافرت للباقين قد جعلت من الجندي رجلاً متحضرًا بشري التفكير، ولهذا فلقد كان من المستحيل أن يعطي لهذا الجندي أكثر من التدريب الأولى وأن تقدم له غير المعلومات القليلة عن الخرائط، والأسلحة وفن القتال

(١) نفس المرجع ـ ص١٧٠ .

(التكتيك)، أو أن يزود بالمعرفة الخاصة بسير الحرب»[1] .

وقد مجد تولستوي في روايته «السلم والحرب» war and peace هذا النوع من الجنود الذين يستجيبون دون شكوى للطبيعة، للطغيان، للهزيمة، للموت، ولكن مهما كان نصيب الجندي من الشجاعة كثيرًا أو قليلاً، فإن تقدم الفن العسكري وازدياد تعقد طبيعة العمليات الحربية كانا يجعلان المجموعة من هؤلاء الجنود أقرب إلى صورة الجيش، وكان تفهم هذه الحقيقة هو الذي جعل الجيش الأحمر فيما بعد يقوم بحرب عنيفة ضد الأمية وضد الجهل.

وكانت هناك أسباب أخرى هي التي جعلت تروتسكي يعتقد بل ويؤمن بأن الماضي الذي مات يجب أن يدفن معه موتاه، «فإن المظاهر العامة للجيش كانت من أصداء ومن ظلال المظاهر العامة لروسيا القديمة، وهي مظاهر إقطاعية الطابع تمامًا، وكان الضباط يعتبرون أفضل الجنود مجرد صبيان معدومي التفكير لا يتوافر لهم الشعور بالمسئولية الشخصية ولا يمكن إيقاظ هذه المشاعر أو بثها فيهم، كان هذا هو التقليد العام في الجيش الروسي... وفي القرن الثامن عشر كان (الـڤيلد ماريشال) سوڤوروف يصنع المعجزات من هذه المادة الخام، ولكن في القرنين التاسع عشر والعشرين كان جيش القياصرة يواجه الهزيمة إثر الهزيمة». وتبعًا لأنه كان جيشًا إقطاعياً تشكل على هذه الأسس القومية، أي الأسس الواضحة في بناء وتكوين

(١) Mai General Sir Alfred Knox, With the Russian Army, ١٩١٤- ١٩١٧ (٢ Vols., New York, ١٩٢١), I p. XXI – XXIV.

وابتداء من سنة ١٩٣٥ رفض الجيش الأحمر تجنيد الجنود غير الملمين بالقراءة والكتابة، وهذا أمر لم يكن ليتم في روسيا القيصرية.

الأمة والدولة ومن ثم كانت العلائم المميزة امتهان شخصية الجندي، روح «ماندرينية»(*) سلبية، جهل بصناعة الحرب والتي هي المهنة الأصلية للجندي، انعدام مبادئ التضحية والبطولة، وكانت سيادة الضباط ترجع إلى حقوق السيادة التي للطبقات، وكانت الصورة العامة هي صورة الكبت والقهر، بل كانت اللغة التي تستخدم لمخاطبة الجنود لغة مهينة»(١).

ولم يكن من الممكن بقاء مثل هذه الحال في ظل حكومة اشتراكية، كما لم يكن من الممكن قيام جيش جديد على أسس برجوازية برلمانية ديمقراطية، يقول تروتسكي: «لقد قامت رياسة الجيش الأحمر على أساس وجود ديكتاتورية الطبقة العاملة في قمته، وقام الجيش على أساس اختيار الضباط بوساطة الحكومة السوفيتية والحزب الشيوعي»(٢).

وهنا كان واجب تروتسكي ـ كما رآه هو ـ فريداً في بابه: «إن المشكلة في البلاد الرأسمالية هي العمل للاحتفاظ بالجيش القائم أو بمعنى أدق إن المشكلة هي جعل الأفراد يقبلون على البقاء في الجيش واعتبار الجندية حرفة للحياة، ولكن مشكلتنا نحن أن نقوم بحركة تطهير واسعة لتنقية بقايا الجيش القديم، وأن نكون بدله جيشًا جديدًا، بل وأن نفعل هذا (تحت النيران) أثناء قتال العدو، وهذه مسألة لا نجد الوسيلة الصحيحة لها في أي

(*) في الأصل Mandarinesm نسبة إلى Mandrin وتعني الكلمة الأخيرة على ما أوضحها معجم ويبستر طبع نيويورك سنة ١٩٥٦، تعني طبقة النبلاء من موظفي حكومة الصين، ويبدو أن المؤلف يقصد هنا أن الجيش الروسي في حكم القياصرة كانت تتوافر فيه روح سلبية من الاعتزاز بالنفس، فالجنود يعرفون أنهم ليسوا من طبقات النبلاء ولا من الصفوة التي منها ضباطهم، وإنما هم من الطبقات الدنيا.

(١) Torostsky, History of the Russian Revolution I, ٢٥٣.

(٢) Bunyan and Fisher, op. cit. pp. ٥٦٩ – ٥٧٠.

كتاب، ويفسر هذا سبب ما أشعر به من القلق بالنسبة للعمل العسكري وتقبلي القيام بهذا الواجب إذ لا يوجد غيري يستطيع القيام به»[١] .

على أنه مهما كان شعور تروتسكي نحو القيامة بعمل قوميسيير الحرب فإنه لم يبد أي تردد أو تقاعس في القيام بالعمل الذي وكل إليه إلى غاية ما يتوافر له من طاقة وإلى غاية ما يرجوه من إتقان؛ على أن أعقد المشاكل التي كانت تواجهه، مشكلة إزالة الآثار التي خلفتها الدعاية الانهزامية الهدامة الهادفة إلى المسالمة والتي آثارها السوفيت ضد الجيش وضد الحرب قبل أن يصلوا إلى السلطة.

كان قد اعتزم على أن يوجد ـ مهما كانت درجة المقاومة ومهما كثرت العراقيل المعطلة ـ جيشًا من الفلاحين ومن الكادحين، وأن يحول الأمة الروسية إلى معسكر إسبارطي الطابع[*]، وأن يوجد ضمن إطار الثورة «نظامًا عسكرياً شيوعياً»، فكل ما حدث من قبل يجب أن يوجه توجيهًا عكسياً، (والعنف الثوري الذي كان وسيلة لتحقيق الحرية للكادحين يجب أن يتحول منذ الوصول إلى السلطة والحكم ليكون وسيلة لايجاد جيش منظم)، فلم يعد من مكان للحديث عن السلم وعن الأخوة البشرية في هذا الطابع المسالم الذي تحدث عنه تولستوي، «فنحن نعمل لإيجاد مجتمع شيوعي لا تنازع فيه، ذلك لأنه مجتمع بلا طبقات ولأن الأمم لن تنفصل بحدود دولية بل ستعيش معًا وتعمل كلها من أجل قضية مشتركة». ولكن هذه المدينة الفاضلة لا تزال تطلب الكثير من الجهد ولا يزال تحقيقها بعيد المنال، ذلك لأن الطبقات الحاكمة «لن تستجيب لهذا إلا مرغمة نتيجة

(١) My Life, p. ٣٤٩.

(*) نسبة إلى إسبارطة القديمة «المترجم».

للكفاح ضدها»، والثورة تؤمن باستخدام القوة تبعًا لأنه لا يمكن أن تتغير الأوضاع الاجتماعية إلا بحرب دامية؛ وتكوين القوات المسلحة الروسية مسألة حياة أو موت للأمة الروسية وللطبقات العاملة بها، ومن ثم «فإن كل عامل شاب بدلاً من أن يقضي يوم الأحد في احتساء الشراب يجب أن يتعلم الرماية»، فبتعلمه الرماية يؤدي أهم واجب عليه نحو الطبقة التي هو من أفرادها.

ويجب فرض الضبط والربط بالقوة والإرغام، بل وحتى عند الضرورة بتوقيع الجزاء بالإعدام لأفعال الجبن والهروب والجرائم العسكرية الأخرى، والثورة لا تسمح بتوافر الضبط والربط في الجيش بل ويجب عليها أن توجده، فليس من الممكن أن تتولى أمر الجيش هيئات أو لجان ولا أن ينتخب الجنود ضباطهم، بل يجب أن يكون الجيش في قبضة قوية تمثل السلطة العسكرية[1].

وكان هذا دواء علقمًا يجب أن تبتلعه مرغمة هذه البلاعيم التي ترفضه لمرارته، ولكن يبدو أن تروتسكي كان قد حاز ثقة لينين كاملة، وعاونته هذه الثقة بالإضافة إلى ما توافر له من قدرة على الخطابة، ومن مهارة وحزم في الإدارة، عاونته على تحويل «الفوضى» إلى «نظام» وتحقيق النصر من هزيمة منكرة، وكان لينين ـ على ما قال هو نفسه يعرف بأن التاريخ في بعض

(١) راجع حديث تروتسكي كاملًا في Bunyan & Fisher نفس المرجع ص٥٦٩ ـ ٥٧٢، وفي خطبته يوم ٢١ من أبريل سنة ١٩١٨ في ص٥٧٢، وخطبته يوم ٢٠ من يونيو سنة ١٩١٨ وردت في كتاب:

James Bunyan, Intervention, Civil War and Communism In Russia April-December, ١٩١٨: Documents and Materials (Baltimore, ١٩٣٦), pp. ٢٦٨ - ٢٧٠.

الأوقات «يجعل المشكلات العسكرية لب أو نواة المشكلات السياسية»[١] .

وكانت جرأة من تروتسكي أن يستخدم في الجيش الأحمر «فنيين» و «أخصائيين» من الضباط وضباط الصف ممن كانوا في الجيش القديم، لقد كان هؤلاء موضع كراهية كل فرد وكان الناس يقولون عنهم: «ذوو العلامات الذهبية»، كان هؤلاء من النبلاء المثقفين ومن أولاد ثراة البرجوازيين، ولكن يقول تروتسكي: «لقد كان من الضروري أن نضع موضع التقدير ضباط الجيش القيصري بسبب تدريبهم الذي وصل بهم إلى مرتبة الاحتراف، وبدونهم كان لزامًا علينا أن نبدأ من جديد، وليس من المحتمل أن يمنحنا أعداؤنا الوقت الكافي لنصل بالتدريب إلى المستوى الضروري اللازم توافره»؛ وقد رد تروتسكي على القول بأن في استخدام أفراد عملوا في خدمة النظام القديم والحكم القيصري، «لكل شيء خطره، لقد كان من الضروري أن يتوافر لنا مدربون يعرفون شيئًا في فن الحرب، لقد تحدثنا إلى أولئك القادة بصرامة، وقلنا لهم: «إن في البلاد سيدًا جديدًا هو الطبقة العاملة، ويحتاج هذا السيد مدربين لتدريب الأفراد الجدد ولتعليمهم كيف يقاتلون البرجوازيين»، فإذا خدمونا بإخلاص فإننا نمنحهم كل معاونتنا ولكن إذا حاولوا القيام بأي عمل ضد الثورة، فسنجد طريقة خاصة لمعاملتهم»[٢] .

---

(١) Wollenberg نفس المرجع ص١ و ٣ ـ ٤ .

(٢) Bunyan and Fisher, op. cit. pp. ٥٧٠ – ٥٧١ Bunyan op. cit. p. ٢٦٧; My Life p. ٤٣٨.

=

=كان السلاح الذي هدد به تروتسكي الضباط هو الاحتفاظ بأسرهم كرهائن وقد قال: «أن أولئك الذين يفكرون في خيانة الثورة يجب أن يعرفوا بأنهم إنما يخونون أسرهم، آباءهم وأمهاتهم وشقيقاتهم وأشقاءهم وزوجاتهم وأطفالهم» ولإعطاء هذا التهديد

ولقد كان هذا الإصرار من تروتسكي على استخدام ضباط من الجيش القديم سبب سوء علاقاته بزملائه، ولكنه باتباعه لبرنامجه برغم كل مقاومة ونقد فإنه لم يكون جيشًا فحسب في وقت قصير بل استطاع أن يستخدم جنودًا ممتازين بينهم توخاشـڤسكي tukhachevsky وشابوشنكوڤ Shaposhinkov الذي حقق للجيش الأحمر درجة من الاحتراف لم يكن من الممكن أن يحققها بأي وسيلة أخرى.

وبين إبريل سنة ١٩١٨ وأغسطس سنة ١٩٢٠ زاد عدد الضباط القدامي الذين عملوا في الجيش الأحمر ـ بينهم عدد من الأفراد الطبيين والبيطريين الذين لا يمكن أن يستعاض بهم غيرهم ـ على الثمانية والأربعين ألفًا، وإلى هؤلاء يجب إضافة مائتين وخمسين ألفًا من ضباط الصف الذين لا يمكن المبالغة في أهمية دورهم في الاحتفاظ بمعنويات الجنود والنهوض بمستوى الضبط والربط بينهم، ولقد ارتقى بعض هؤلاء درجات السلم العسكري إلى رتب الضباط، بل ووصل بعضهم إلى أعلى مراتب القيادة، وكان في مقدمتهم بوديني[*] النابغة الذي نال شهرة أيام الحرب الأهلية بزتها الشهرة التي نالها أيام الحرب العالمية الثانية، وقد بقي عدد كبير من ضباط الجيش القيصري في الجيش الأحمر بعد الحرب الأهلية واكتسبوا احترام حتى أولئك الذين عارضوا مجرد استخدامهم في البداية.

طابعًا مؤثرًا فقد اعتقل أفراد أسر الذين شك في خيانتهم للثورة، ولقد قال أحد الصحفيين الأمريكان «لو كان تروتسكي قاسيًا في هذا فإن طابع الثورة كان القسوة» Chamberlin نفس المرجع ج٢ ص ٣٠ ـ ٣٢.

(*) سيمن ميخائلوڤيتش بوديني، ولد سنة ١٨٨٣، كان من ضباط الفرسان الذين ترقوا من صفوف الجند، منح لقب ماريشال الاتحاد السوڤييتي سنة ١٩٤٥ «معجم ويبستر ص١٩٠» «المترجم»

وهكذا قال ڤورشيلوف في الاحتفال بالذكرى الثامنة لتكوين الجيش الأحمر: «إنهم إخوة زملاء لنا وعلى استعداد للموت في سبيل حكومة العمال والفلاحين مثلهم في هذا مثل الزملاء في الحزب»[١] .

ولكي يمكن دوام مراقبة ضباط الجيش القديم، ولتنفيذ الدعاية الحزبية بين الجنود، ولتعليم الجنود الفلاحين أغراض الثورة وأهدافها ودوافع الحرب الأهلية، ونتائجها، ولغير هذا من المسائل غير العسكرية، عين تروتسكي قوميسيريين سياسيين في كل وحدات الجيش الأحمر.

ولم يكن لهؤلاء القوميسيريين أن يتدخلوا في العمليات الحربية، بل كانوا مسئولين عن معنويات وإخلاص أفراد الوحدات التي يتولون إدارتها، فإذا هبط مستوى معنويات وحدة كان القوميسير السياسي المسئول عن هذا، وقد آمن تروتسكي بالحكمة الثورية القديمة القائلة «يطلق الرصاص على القوميسير غير الناجح لتشجيع الآخرين»[٢] Pour encourager les autres، ولهذا فإن مركز القوميسير لم يكن مطمح شباب الشيوعيين الصاعدين.

وفيما عدا غضب تروتسكي فإن القوميسير كان يتولى عملاً مجهدًا لا ينتهي فضلاً عن التعرض المستمر لرصاص العدو في أثناء المعركة.

وقد أحسن تروتسكي تقدير أعمالهم عندما قال عنهم:

«إنهم قد أوجدوا وأعدوا أقوامًا على أتم استعداد للموت في سبيل

---

(١) White, op. cit. p. ٢٠٧.

(٢) كانت السلطات العليا هي التي حدَّت من هذا الإسراف في أعداد القوميسسيريين على أن معاهد إعداد هؤلاء القوميسيريين كانت قد أنشأتها في البداية الحكومة البرجوازية الأولية إلا أنهم لم يوفقوا لأي نجاح سنة ١٩١٧ تبعًا لانهيار معنويات الجيش يوم ذاك.

قضية الطبقة العاملة».

على أنه ليمكن توافر العدد الكافي من القوميسيريين السياسيين درب الضباط الشيوعيون الشبان في المدارس العسكرية السوڤيتية على هذا العمل، وكان على رأس شبكة مراكز التدريب هذه رجل من نيويورك اشتهر بتنظيمه لاتحادات العمال اسمه جولد فارب بتروڤيسكي Goldfarb Petrovsky، ولم تزود مراكز التدريب الجيش الأحمر بالقوميسيريين القادة، بل ويجنود العصف المختارين أيضًا، وكان هؤلاء الضباط الشبان بعد فترات تدريب تتباين بين شهرين وستة شهور ـ تشتمل على تدريب عملي في جبهة القتال ـ يتولون أعمالاً ذات سلطات تزيد كثيرًا على ما يمكن أن يتولوه من أعمال تبعًا لتدريبهم العكسري[١].

وقد حقق تروتسكي في تنظيمه وإمداده؛ بل وحتى في قيادته شخصياً للجيش الأحمر، حقق نجاحاً ملحوظاً يُعتبر واحداً من الأعمال الممتازة في التاريخ العسكري الحديث، على أنه لا يثير الدهشة أن تروتسكي بعمله هذا قد ضايق الكثيرين، وطئ أقدام الكثير، وصدم أكتاف آخرين، ومن ثم أثار معارضة عنيفة له في صفوف الحزب.

كان تروتسكي على كفاية للوقوف من خصومه موقف الند في ميدان الجدل والنقاش، وكانت لباقته وقدرته على الخطابة تجعلان في جانبه أفضلية، ولكنهم كانوا أقوياء، ولم تكن القدرة على الخطابة هي السلاح الذي يصلح لمقارعة هؤلاء الرجال الفارهين، وصحب النقاش حول السياسة العسكرية بكفاح أساس مرير للوصول إلى السلطة والسيطرة.

---

(١) Chamberlin op. cit, II ٣٤, ٣٦.

وكان بين الرجال الأقوياء الذين وقفوا في وجه تروتسكي رجل، كان من المقدر أن يلعب دورًا أهم وأكبر في تاريخ الجيش الأحمر، كان اسم هذا الرجل چوزيف ستالين[1]، الرجل الذي كان يوم كتابة هذه السطور يحمل فخورًا لقب ماريشال الاتحاد السوڤيتي.

ـ ٤ ـ

وقد حاربت المعارضة تروتسكي في عدة ميادين ومن زوايا مختلفة، وحاربته بخاصة في مسألة استخدام الضباط القدامى في الجيش، وفي الاستقلال الذاتي الذي يجب أن يكون للوحدات في الميدان، وفي مسألة حرب العصابات وفي أساليب الضبط والربط العسكريين، كما حاربته في الاتجاهات العامة التي قدرها للحرب الهجومية والحرب الدفاعية.

ولقد أجمل تروتسكي من الناحية الموضوعية موقف خصومه عندما كتب: «لقد حاولت المعارضة أن تجد في موقفها نظرية منطقية، لقد أصر المعارضون على أن الجيش المركزي القيادة هو الصورة الصحيحة في الدولة الرأسمالية، والثورة يجب أن تنفض أيديها من حرب المواقع الثابتة ومن الجيش المركزي القيادة أيضًا، إن روح الثورة هي القدرة على التحرك، القدرة على توجيه هجمات سريعة، والقيام بالمناورة، وأن تتشكل قواتها المقاتلة في قوات منفصلة صغيرة تتكون من جميع الأسلحة لا ترتبط إلى

(١) چوزيف ستالين، كان اسمه عند مولده، يوسيف ڤيسار يونوڤيتش د. زوجاشـڤيلي، ولد سنة ١٨٧٩ ومات سنة ١٩٥٣، تولي مركز السكرتير العام للحزب الشيوعي في الاتحاد السوڤييتي من سنة ١٩٢٢ حتى وفاته سنة ١٩٥٣، تولى مركز القائد العام للقوات السوڤييتية طوال الحرب العالمية الثانية، تولى رياسة الوزارة في الاتحاد ١٩٤١ ـ ١٩٥٣ . «المترجم».

قواعد، وتعتمد في عملياتها اعتمادًا مطلقًا على معاونة السكان الموالين لها، ويمكن أن تبرز فجأة وراء خطوط العدو... إلخ...، وفي إيجاز فإن تكتيكات الثورة هي تكتيكات الحروب الصغيرة».

وقد أمن تروتسكي بأن عقيدة خصومه ليست في الحقيقة غير «اعتبار عوامل ضعف روسيا هي المثالية التي يجب العمل لها»، ولقد شك في أن دروس الحرب الأهلية يمكن أن تطبق على حروب المستقبل غير المحددة الطابع والهدف[١] .

ولم يتقبل ستالين وڤورشيلوف الخضوع لسيطرة موسكو في مسائل الضبط والربط الخاصة بقواتهما، وكانا يعرفان أنهما بمهاجمتهما لأمر استخدام ضباط الجيش القديم فإنهما يحصلان على معاونة واسعة في صفوف الحزب وبين العناصر الصغيرة السن في الجيش الجديد، وكانا يعرفان أيضًا أن حرب العصابات صورة من التقاليد الشعبية المتأصلة في المجتمع الروسي، وأنهما يستطيعان أن يكتسبا أنصارًا أكثر عندما يقفان إلى جانب هذه الحرب ويفضلانها على الأساليب الأوروبية التي تتفق ومنطق حياة المجتمع الأوروبي، ولكن الواقع أن الخلاف والتضاد كان أعمق بكثير من المدى الضيق نسبياًّ الذي يمكن أن تثيره مثل هذه المشاكل.

وبدأ إذ ذاك نقاش حول النظريات العسكرية، والآراء والاتجاهات الاستراتيـچية، والأسس التي يقوم تبعًا لها تنظيم الجيش، على أنه كان في مقدمة الموضوعات التي عرضت للنقاش والجدل مسألة لها أهميتها: هل كانت هناك أو لم تكن عقيدة عسكرية ماركسية خالصة».

(١) My Life, p. ٤٣٨.

والواقع أن بعض قادة الجيش الأحمر النابهين والذين صنعوا أنفسهم وصقلتهم التجارب وبخاصة أمثال فرونز Frunze وڤورشيلوف Voroshilov وچوسڤ Gusev وكذلك توخاشڤيكي ظنوا بأنهم يمكن أن يستخلصوا من تجارب الحرب الأهلية نظرية عسكرية جديدة «للبوليتاريا» الثورية تقضي على أي نظرية عسكرية سابقة، فإذا ما وجدت هذه النظرية العسكرية الجديدة أو كان من الممكن صياغتها كان من الضروري أن تستخدم هدياً وتوجيهًا للجيش الأحمر.

ولقد كتب فرونز وچوسڤ سنة ١٩٢١: «من العوامل الأساسية لضمان استغلال أقصى قوة يمكن أن تتوافر للجيش الأحمر، عامل تحويله إلى تنظيم عمودي متماسك من القمة إلى القاع، فترتبط أقسامه، ليس فقط بأيديولوچية سياسية مشتركة، بل وبوجهات نظر متحدة متماثلة بالنسبة للمشكلات العسكرية التي تواجه الجمهورية، مع الاتفاق على وسائل حل هذه المشكلات، وبخاصة الاتفاق على أسلوب تدريب الجنود على القتال»[1].

وقد رأى المسئولون عن الإدارة الفعلية للجيش أن مثل هذه النظريات ليست إلا محاولة لفرض سيطرة الحزب على هيئة أركان الحرب، وتدخلاً من الحزب في تطور الفكر العسكري، وتوقيع العقوبات على أولئك الذين لا يرتضون سيطرة هذه الرياسة؛ وكان لهذه المخاوف نصيبها من الواقع؛ ذلك لأن الكبت الذي تستخدمه الدولة الطغوائية لم يلبث أن امتد أثره إلى الشئون العسكرية.

---

(١) M. Frunze, Selected Works (Moscow, ١٩٣٤), p. ٧. على ما نقلها White في نفس مرجعه السابق ص١٦١، ويلاحظ أن المؤلف عدل هنا من الترجمة.

وقد أنكر تروتسكي وجود أي نظرية عسكرية ماركسية، وقال: «إن الماركسية تستند إلى العلوم التاريخية والاجتماعية، وليست الحرب علماً ولن يكون هناك علم للحرب ومع أن الحرب تعني بعدة علوم إلا أنها ليست في حد ذاتها علم، والحرب فن عملي وفيه مهارة، فكيف يمكن أن تصاغ مبادئ فن الحرب بمعاونة الأسلوب الماركسي؟

إن هذا مستحيل، ومثله في الاستحالة مثل عدم إمكان إيجاد نظرية في فن العمارة أو كتابة كتاب في علم البيطرة بمعاونة الماركسية[(١)] .

وإلى أبعد من هذا فإنه حتى لو وافق المرء على أن «العلم العسكري له كل مظاهر العلم فليس من الممكن بحال ما أن تقوم دعائم هذا العلم في ضوء العقيدة الماركسية، ومحاولة تكييف هذه العقيدة في النطاق الخاص بالشئون العسكرية لهي محاولة خاطئة لها خطرها»، ومضى تروتسكي في حديثه ليحذر من أن مناقشة مثل هذه الأمور يجب ألا تثقل بالمصطلحات التي جاءت بها الماركسية، ولا أن تستخدم فيها الكلمات ذات الرنين العالي ولا هذه الأشياء التي غالبًا ما تتحول لتكون أصدافًا بلا لآلئ[(٢)] .

وقد أبدى تروتسكي استعداده ليتقبل أن العقيدة الماركسية قد يمكن أن تقرر الاستراتيجية العريضة للثورة البلشفية في السياسة العالمية، ولكنه

---

(١) Ttotsky, How The Revolution Developed. Its Militqry (Power Moscow, ١٩٢٤).
على ما نقلها S. Gusev في بحثه المرسوم بعنوان:
"Our Disagreements in Question of War"
المنشور في العدد الخامس عشر لسنة ١٩٢٤ من مجلة The Bolshevist ص٣٤ـ٤٩ والذي ترجمة Illw. T. B وكما نقله White في كتابه:
"Soviet Philosophy of War" loc. cit., p. ٣٣٩.

(٢) Trotsky, ibid, cited by White, Growth of the Red Army, p. ١٦٧.

عارض المحاولات الأيديولوچية التي تجيء عن هواية لا احتراف للاقتراب من النظرية العسكرية ومحاولة إيضاحها دون الإشارة إلى تجارب الأمم الأخرى، وتجارب النظام القديم في روسيا نفسها، «وعندما تتطور الاستراتيچية تبعًا لوجهة نظر الثوريين صغار السن تكون النتيجة فوضى لا قيمة لها»؛ سيما وأنه هناك عوامل لها طابع الدوام تؤثر في الحرب كالقوى البشرية والجغرافية بخاصة، وهذه يظل لها تأثيرها حتى لو تغيرت التكنولوچيا وتغير البناء الاجتماعي والتنظيم السياسي، ومن ثم فإن هذه العوامل الدائمة نسبياً يجب أن تدرس بعناية كعوامل انتقال في الميدانين الداخلي والخارجي على السواء، وقد أضاف تروتسكي هنا أن الدور الأساسي للاستراتيچية بالنسبة للاتحاد السوڤيتي «أن يكون الروس متيقظين وأن نبقى أعيننا مفتوحة»[١].

على أنه مهما بدت وجهات نظر تروتسكي معقولة منطقية لمن يدرس الشئون العسكرية دراسة موضوعية ولكنها أثارت وأغضبت الشيوعيين، وكان. ميخائيل. ف. فرونز هو المتحدث الرئيسي باسم الشيوعيين، ووراء فرونز وقف ستالين يشد من أزره، ولم يكن فرونز جديدًا على الدرب بل كان له نشاط ثوري إيجابي منذ سنة ١٩٠٤، وكان العبقرية الموجهة لتنظيم غير قانوني في الجيش القديم إلا أن أول عمل جدي أسهم به أكسبه شهرة واسعة كان قيادته للجيوش التي عملت في الشرق ضد «كولشاك» وعملت بعد ذلك في القرم ضد «رانجل»، وخرج فرونز من الحرب الأهلية «كتكتيكي» و«كاستراتيچي» من الدرجة الأولى.

---

(١) White نفس المرجع ص١٦٤، ١٦٥ .

ومع أن فرونز لم يكن قريناً لتروتسكي في الجدل والنقاش إلا أنه كان خصمًا عنيدًا له قدره، وإلى أبعد من هذا فإنه كان في جانب «الملائكة» أي أنه كان يستند إلى الرجل الذي سيخلف لينين.

وفي سنة ١٩٢٤ عين فرونز نائب رئيس المجلس العسكري الثوري وبالتبعية كان على رأس الجيش الأحمر، وفي يناير سنة ١٩٢٥ عين قوميسير الشعب للشئون العسكرية والبحرية، وبعد ذلك بقليل لم يعد لتروتسكي أي نفوذ في السياسة السوڤيتية.

ومع أن فرونز مات قبل نهاية العام في سن مبكرة هي سن الأربعين، إلا أنه مات بعد أن أدخل على تنظيم الجيش وإجراءاته عدة اصطلاحات.

«وعلى ما يقول فرونز فإن العامل الأساسي لصياغة عقيدة عسكرية (كافية) صالحة هو تمشيها مع الأهداف العامة للدولة، وتكيفها مع الموارد المادية والمعنوية التي تتوافر لها، أي للدولة»، ثم إن هذه العناصر موجودة قائمة وكل عمل أولئك الذين يصوغون النظريات العسكرية أن يتفهموا هذه العناصر وأن يجمعوا بينها في وحدة واحدة متناسقة مع «التعاليم الأساسية للعلم العسكري وتبعًا لاحتياجات الفن العسكري»:

وهنا في هذه المرحلة من الحديث كان فرونز يختلف قليلاً عن تروتسكي الذي واجه الصعاب عندما وقف يجادل فرونز وڤورشيلوف أمام المؤتمر الحادي عشر للحزب سنة ١٩٢٢ .

على أن فرونز ذهب إلى أبعد من هذا واضعًا كل شيء موضع تقديره، ويقول بأن مساحة أرض الجمهورية السوڤيتية وقلة عدد الجنود الروس نسبياً توجبان أن تكون النظريات التكتيكية والاستراتيچية الأساسية

للجيش الأحمر ذات طابع هجومي، وأن تستخدم في حرب خفيفة الحركة تقوم على المناورة على نقيض حرب المواقع والخنادق التي كانت طابع عمليات ١٩١٤ ـ ١٩١٧؛ وقد أوضحت تجارب الحرب الأهلية أن القوات الثورية تتوافر لها طاقة خاصة للقيام بحرب المناورة مع الصلاحية لهذا، هذا فضلاً عن أن روح الثورة تتطلب نشاطًا مستمرًا مع الجرأة في القيام بحرب العصابات وغيرها من الوسائل التي تمكن من نقل الحرب داخل الأرض التي يحتلها العدو، ولما كان من غير الممكن لأسباب سياسية وعسكرية التوصية بحرب دفاعية، وجب أن تلعب التحصينات دورًا صغيرًا، أو ألا يكون لها أي مكان في التنظيم السوڤيتي[١] .

وهنا يجب أن نلاحظ أن تروتسكي وزملاءه المحترفين ـ فيما عدا توخاشـڤيسكي ـ قد رأوا أنه ليس من الممكن أن يقال إطلاقًا، أو أن يصدر حكم قاطع بأن الهجوم أو الدفاع، صحيح أو خطأ، جيد أو رديء.

صحيح أنه لا يمكن تحقيق النصر إلا بالهجوم، ولكن الثورة معنية أولاً بالهجوم السياسي الذي يمكن أن يتمشى مع الدفاع الاستراتيـچـي؛ ثم إن الإجهاد الذي أصاب روسيا بعد الحرب العالمية الأولى وبعد الحرب الأهلية، وتقاعس الفلاحين وترددهم في القيام بمغامرات عسكرية أخرى، وكذلك الاقتصاد المتخلف والحاجة الماسة إلى إيجاد قوات مسلحة كبيرة

---

(١) أجمل «هوايت» White ولخص آراء فرونز في الفصل السادس من كتابه، الذي يعتبر أفضل ترجمة إنجليزية للنقاش الكبير الذي دار سنة ١٩٢١ ـ ١٩٢٢، وقد كتب هذا الكتاب على أساس كتابات الذين أسهموا في هذا النقاش، وعلى أساس سجل إجراءات المؤتمر السوڤييتي الحادي عشر للعمال والفلاحين والقوزاق وممثلي الجيش المنعقد بموسكو سنة ١٩٢٢ .

العدد جيدة التدريب، كل هذا في جملته يوصي بالحذر والحرص عند التفكير في الهجوم العسكري، وحرب الإجهاد الدفاعية هي الحرب الوحيدة التي يمكن أن تتفق عليها الطبقات التي تكون الجمهورية الروسية، ثم هي أيضًا الصورة الوحيدة للحرب التي تمكن من الاستغلال إلى غاية ما يمكن للمساحة الكبيرة وللموقع الجغرافي وللاقتصاديات المتخلفة للبلاد.

وإلى أن تستطيع روسيا أن تُطَوِّرَ من مواردها وتبني وتقيم من قوتها الصناعية فإن هذه هي الاستراتيـجية الوحيدة التي يمكن معها الأمل في النجاح، هذا عدا أنه لا يمكن أن تتوافر عقيدة عسكرية يمكن أن تصلح لكل أمر طارئ.

وقد وضع سـفيتشين ـ وهو ضابط سابق في الجيش القيصري استخدم أستاذًا في كلية أركان الحرب ـ هذه الآراء في السطور التالية:

«من الضروري في كل حرب أن يخطط لها سلوك استراتيـجي خاص بها، ولكل حرب ظروفها وملابساتها التي تتطلب منطقًا خاصًّا، بدلاً من اتباع طابع متماثل في كل حرب.

وفي الإطار الواسع للنظرية العامة لصناعة الحرب المعاصرة نجد العوامل التي تسمح باستراتيـجية مختارة لهذا الظرف المعين»[١] وفي إيجاز فإن الاستراتيـجية الصحيحة هي الاستراتيـجية المرنة.

وكان الكيان الدائم للتشكيل العسكري في الجمهورية الروسية هو بدوره كذلك مثار نقاش جدلي طويل، وناقش أولئك الذين يتولون الأمر

---

(١) A. Svechin, Strategy (second edition, Moscow, ١٩٢١). pp. ٨ - ٩ cited in translation by White, p. ١٦٣.

هذا الكيان للوصول إلى قرار: هل يجب أن يكون الجيش الأحمر جيشًا عاملاً دائم التكوين له طابع الاحتراف، وتكون الجندية بالنسبة لأفراده حرفة وصناعة؟ أو هل يكتفي بأن يكون صورة من صور الميليشيا، قوات تتجمع للتدريب ثم تسرح حتى تضطر الحاجة إلى تعبئتها بسرعة لقتال العدو؟

وكان لهذه المسألة أهميتها تبعًا لما لها من صلة وثيقة بالجدل الذي يدور حول العقيدة العسكرية الماركسية؛ وفي الإجابة عن هذين السؤالين، أو بمعنى أدق للوصول إلى قرار حاسم في الكيان الدائم للتنظيم العسكري للقوات الروسية استوحى الشيوعيون وجهات نظرهم من ماركس وآنجلز اللذين قالا بأن الصورة المثالية للتنظيم العسكري للدولة الشيوعية هي «الميليشيا» وقد تأثر أولئك الشيوعيون أيضًا بـچان چوريه Jean Joures الذي كتب كتابه «الجيش الحديث» Larmée Nouvelle الصادر سنة ١٩١٤، وكان لكتابه أثره في توجيه الآراء الاشتراكية في أوروبا[١].

على أن تروتسكي وقف من مسألة «الميليشيا» موقفًا أقل قوة من موقفه من مسألة العقيدة العسكرية.

بل إنه لم يقف موقفًا محددًا واضحًا حتى ليمكن القول بأنه من الممكن أن يتقبل ـ مع بعض التحفظات ـ فكرة الجيوش الإقليمية، فإذا ما وضعنا الإصلاحات العسكرية لسنة ١٩٢٤ـ ١٩٢٥ موضع التقدير استطعنا أن نقول بأن فرونز أيضًا لم يكن راضياً عن أن يقف موقفًا يسارياً متطرفًا من

---

(١) راجع الفصل السابع للحديث عن ماركس وانجلز، وراجع الفصل الخامس عشر للحصول على معلومات عن چان چوريه، والروس في الغالبية يتنكرون للآراء التي جاء بها أولئك الذين ارتبطوا بالدولية الثانية ولكن مع هذا التنكر فإنهم لم يستطيعوا إطلاقًا الإقلال من قيمة ما خلفوه وراءهم من كتابات وآراء.

المسألة، ولكن مع هذا فإن الضباط المحترفين لم يتقبلوا شيئًا غير «الجيش النظامي»، الجيش العامل الذي يتكون من جنود محترفين دائمين، وقد عرض توخاتشيـڤسكي في لباقة وجهات نظرهم، ونجح توخاتشيـڤسكي في إجمال قضية الجيش العامل وضرورة وجوده لإمكان قيام إمبراطورية شيوعية معتدية.

* * *

وكان ميخائيل ن. توخاتشيـڤسكي (١٨٩٣ ـ ١٩٣٧) ملازمًا في فجر العمر بالجيش القيصري عند ما انضم إلى البولشفيك سنة ١٩١٧، وكان بطل الحرب ضد بولنده، كان ذكياً، لبقًا، ماهرًا، شجاعًا، طموحًا.

وكانت تتوافر له وطنية روسية بدائية، وتبعًا لأنه كان من نسل كونت أوڤ فلاتدرز فلربما يكون قد أمل في أن يكون نابليون الأحمر، كان الجيش هو الشيء الوحيد الذي يشغله، ولقد نجح إلى حد بعيد في مختلف المراكز التي شغلها من مدير الأكاديمية العسكرية إلى رئيس هيئة أركان الحرب، وقد أعدم سنة ١٩٣٧ أثناء حركة التطهير الواسعة التي حدثت إذ ذاك متهمًا بالخيانة، إلا أن تفاصيل هذه التهمة لم تعرف وما زالت من الأسرار الغامضة التي تختفي في ملفات الكرملين ***والواقع*** أننا في دراستنا لتوخاتشيـڤسكي لا نستطيع أن نقرر أكان هو ـ في حقيقته ـ شيوعياً مخلصًا، أم وطنياً قومياً، أم رجلاً طموحًا كانت كل أطماعه في التقدم على أساس كفايته العسكرية. ولربما كان الوصول إلى قرار حاسم في هذا البحث هو الذي يمكننا من أن نقدر سبب وقوفه كهدف لجماعة من الرماة حملة البنادق سنة ١٩٣٧[1].

(١) لمعرفة قصة حياة توخاتشيـڤسكي يمكن الرجوع إلى كتاب: =

وكان توخاتشيڤسكي يعتقد بأنه من الممكن بوساطة الهجوم السياسي والهجوم العسكري أن تصل الشيوعية إلى باقي بلاد العالم في أعطاف ما يمكن أن يقال له الإمبراطورية العسكرية.

وقد عورضت نظريته عن التقهقر والارتداد على وثبات في هذه المناطق الفسيحة من روسيا على أساس أن فقدان الأرض المنتجة له تأثيره في إمكانيات الأمة في الحرب.

هذا عدا أن غزو الأرض له أهميته بالنسبة للدولة الثورية لأن هذا يمكن الجيش المتقدم من نشر الثورة أولاً، كما يمكنه أيضًا من تجنيد الطبقات الكادحة المستغلة في بلاد العدو، وكفاح الطبقات مرحلة لها أهميتها من مراحل كل حرب.

وقد اقترح توخاتشيڤسكي أن يكون للشيوعية الدولية هيئة أركان حرب عسكرية تعني بإعداد الخطط لاستخدام الطبقات الكادحة المسلحة في نشر الثورة في العالم، ولكن مع ترك الاعتبارات السياسية والأيديولوچية جانبًا فإن الغرض الأساسي في كل حرب هو الحصول على النصر بتدمير جيش العدو وقواته المسلحة، وهذا شيء على ما يقول توخاتشيڤسكي لا يتحقق إلا بالهجوم المستمر الذي لا هوادة فيه[1] .

ويمكن أن تأمل الدولة الثورية التي تتبع استراتيجية هجومية في نجاح تخطيطها وكسب المعارك التي تخوضها قواتها المسلحة إذا ما توافر لها

= M. Berchin and E. Ben - Horin, The Red Army (New York, ١٩٤٢), pp. IIC- ١١٤.

(١) White, op. cit., Chap. VII passim

راجع أيضًا مقال توخاتشيڤسكي الذي وسمه بعنوان: War as a Problem of Military Struggle في دائرة المعارف السوڤييتية المجلد ١٢ .

جيش عالي المستوى من ناحيتي الاحتراف والمهارة، وهذا المستوى العالي لا يمكن أن تدركه الميليشيا، وقد كتب توخاتشيـﭬسكي وهو بعد في السابعة والعشرين من عمره كتيبًا صغيرًا هاجم فيه الميليشيا قائلاً: إنها تنظيم لا يصلح للحكومة السوﭬيتية ولا للحزب الشيوعي اللذين يعملان لتأمين الثورة داخل روسيا ولنشر كفاح الطبقات في العالم كله لخارجها، وعلى النقيض فإن الميليشيا أصلح تنظيم يتفق مع المنطق ***والواقع*** ، بل وأقوى تنظيم عسكري لدولة برجوازية قد وصلت إلى ذروة تطورها الرأسمالي؛ وفي المجتمع البرجوازي تعتبر شبكة الخطوط الحديدية الجيدة العامل الفعال بالنسبة لحجم الجيش وتعداده، كما تكون العامل الكبير الأهمية بالنسبة لتطوره الفني، وهنا لا يكون تدريب الجيش مهمًا بالقدر الذي لتدريب هيئة أركان الحرب التي تكون هي الناحية البارزة في الصورة كلها، «ذلك لأننا عندما ننظر للأمر من الناحية العسكرية السلمية الكاملة فإننا نجد أن «الكيف» يعوضه «الكم»، ويكون تعداد الجيش بديلاً لكفاية ومهارة أفراده».

وفي الجيوش الرأسمالية ـ كما هي الحال في المجتمع البرجوازي من ناحية عامة ـ يمكن للطبقة الصغيرة الحاكمة أن تسيطر على الجماهير نتيجة لاحتكارها الموارد المادية، وهنا تكون الميليشيا متكيفة تمامًا ومتمشية مع النظريات والإجراءات السياسية للرأسمالية.

ولكن الأحوال في الدولة الثورية تخالف هذا وتباينه، فستواجه الثورة الاشتراكية حربًا مستمرة حتى تتحطم هي وتدمر أو حتى تنتشر الثورة في العالم كله، ومهما كانت الحال فلا حاجة إلى مناقشة نظام الميليشيا، إذ لا مكان لها هنا.

ومع هذا فإن للجمهورية السوڤيتية في نفس الوقت جيشًا من العمال، جيش يقوم على أساس أداء الخدمة العسكرية إجبارياً، ومع الوقت يكون التجنيد دولياً ويتخطى كفاح الطبقات الحدود القومية، وعندما يحمل علم الثورة إلى خارج أرض السوڤيت يتقاطر من حوله الجنود العمال المدربون من سكان البلاد المغزوة، وهذا يؤكد نجاح السياسة الهجومية المليئة بالجرأة[١] .

لقد كان هذا برنامجًا جريئاً، وكانت جرأة أكبر من أن تحتملها الحكومة السوڤيتية، ولهذا بقي الشيوعيون يتابعون دفاعهم عن نظام الميليشيا، ينتقدون استخدام الأخصائيين العسكريين البرجوازيين، ويحذرون من «أولئك الذين يمتطون الخيل»، وفشلت إصلاحات سنة ١٩٢٤ أن تحسم هذا النزاع؛ لأنها أقامت جيشًا من المحترفين يصل عدده إلى ٥٦٠.٠٠٠، كما أوجدت ميليشيا إقليمية تتكون من ٤٣ فرقة، وهكذا فإن فرونز الذي وقف أصلاً إلى جانب تكوين الميليشيا ضد إنشاء الجيش العامل تولى الأمر على الجيش الأحمر وليس هو بالجيش العامل في جملته، كما أنه ليس بميليشيا إقليمية في كل وحداته، ولكنه كان خليطًا مثمرًا؛ ذلك لأن هذه الحال سمحت لشبان الاتحاد السوڤيتي طوال السنوات الحرجة أن ينتفعوا الانتفاع كله من الاستكمال التقليدي والفني من تنظيماتها العسكرية، كما أنها ظلت في نفس الوقت تقدم للجيش العناصر الجديدة التي كانت نواة التقدم في الآراء السياسية والاستراتيچية[٢] .

---

(١) M. Tukhachevsky, Die Rote Armee und die Miliz.

الترجمة الألمانية طبع لبزج ١٩٢١ وبخاصة الصفحات ٩ ـ ١٠، ١٨، ١٩، ٢٥، ٣١ .

(٢) يعتبر كتاب:

على أننا في عنايتنا لدراسة أوجه الخلاف بين أولئك الذين أسهموا في النقاش والجدل حول السياسة العسكرية السوڤيتية ١٩٢١ ـ ١٩٢٤ قد يكون من السهل أن نتعرف النقاط التي اتفق عليها أولئك الذين أسهموا في النقاش، فالجيش الروسي يجب أن يكون جيشاً للطبقات وأن يتكون من العمال والفلاحين، وإلى غاية ما يسمح للبرجوازيين ومن على شاكلتهم من الجماعات الأخرى فإنهم يتولون الأعمال التي وصفها تروتسكي «بالأعمال القذرة» في كتائب الأعمال وما يماثلها، وكذلك أن يشتمل القسم الذي يقسمه جنود الجيش علي الولاء ليس للجمهورية السوڤيتية فحسب بل والولاء للطبقة العاملة أيضًا: «وإنني أتعهد بأن أحتفظ بشرفي كمحارب في جيش العمال الفلاحين»[١]، وأن الضبط والربط يجب أن يتوافر دائمًا بحال جيدة، كما أن وحدة القيادة يجب أن تتحقق نظرياً لو لم يمكن أن تتحقق فعلاً، وألا تمتد سلطات القوميسير السياسي إلى المسائل الخالصة للشئون العسكرية؛ وقد اتفق أيضًا على ضرورة الدفاع عن الثورة ضد «المؤامرة الدولية الرأسمالية المسلحة»، وأن السياسة العسكرية للحكومة السوڤيتية ـ مهما كانت الصورة التي تجيء فيها ـ يجب أن تقوم على أسس شيوعية ونظرة ثورية في الحياة، وأن موارد الأمة يجب أن تتطور وأن تتسع الصناعة إلى الحد الذي لا يجعل للتحديدات المادية أي أثر يعطل من نمو وكفاية الجيش الأحمر.

N. Basseches, The Unknown Army (New Youk, ١٩٤٣).

أحسن مرجع لايضاح النظرية العسكرية السوڤيتية وتاريخها، أما عن اصلاحات سنة ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ فيرجع إلى كتاب White نفس المرجع الفصل الثامن (Frunce's Army).

(١) يرجع لمعرفة نص القسم إلى كتاب Bunyan and Fisher، نفس المرجع ـ ص٥٧٤

- ٥ -

على أن المتناقضات التي بدت في المسائل العسكرية السوفيتية طوال السنوات من ١٩١٨ إلى ١٩٢٤ إنما ترجع إلى ثلاثة عوامل رئيسية هي:

أولاً: كانت نتيجة حتمية للفوضى التي جاءت بها الثورة نفسها والتي أربكت تنظيم كل الوكالات والإدارات، ودفعت المدنيين غير المدربين إلى مواقف لها خطرها في احتمالهم مسئولية إدارة الحرب، ولا شك أن ما حققه لينين وتروتسكي وغيرهما إلى غاية ما استطاعوا ليعتبر شيئًا ممتازًا؛ ذلك لأن العوامل التي توجد «مهيجًا ثورياً» ليست بالضرورة هي نفس العوامل التي توجد استراتيـجياً عسكرياً كفؤًا.

وثانيها: أن النقاش الذي دار خاصًّا بالسياسة العسكرية لم يدر داخل نطاق الإطار الضروري للسياسة الخارجية، وعلى سبيل المثال لم يكن أولئك الذين اشتركوا في النقاش على بينة تمامًا بما إذا كانت المسئولية الأولى للحكومة النهوض بالثورة الدولية أو أن مسئوليتها الأولى أن تضمن نجاح الشيوعية في البلاد؛ وفي المراحل الأولى لمفاوضات بريست ليتوفسك كان من الواضح أن انتباه لينين موجه نحو العمل على قيام حرب أهلية أوروبية، ثم تباينت السياسة بعد ذلك من وقت إلى آخر، كما اختلفت وتعدلت بتغير الأفراد أنفسهم.

ولكن كان من الواضح أنه إلى أن يتم الوصول إلى رأي في هذه المسألة الأساسية فمن غير المفهوم مناقشة مسائل أخرى مثل أفضلية الدفاع على الهجوم؛ أو المناورة وخفة الحركة ضد المواقع والتحصينات.

إن أهمية العلاقة التي تربط بين السياسة الخارجية والسياسة العسكرية

لتتطلب الدراسة العميقة في كل أمة في العالم، ولهذا لم يكن من المتوقع أن تكون هذه الأهمية واضحة مفهومة للبولشفيك من البداية.

وثالثها: ـ كما قيل من قبل ـ كان النقاش الخاص بالمسائل العسكرية نتيجة للأطماع الشخصية والكفاح الأساسي بقصد السيطرة على الحزب.

وبالتبعية السيطرة على الحكومة؛ لقد بقي لينين مريضًا لسنتين تقريبًا قبل وفاته في يناير سنة ١٩٢٤، وكانت حالته تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، وفي طوال هذا الأمد كان اختيار خليفته يشغل كل فرد، ويؤثر في كل نقاش سياسي، كما كان يؤثر في السياسة العامة نفسها.

على أن استيلاء ستالين على السلطة وما صحب هذا من عمليات كبت في نطاق واسع داخل صفوف الشيوعيين قد أدى إلى السير بخطى واسعة نحو إيضاح الكثير من المسائل المهمة؛ ومع استثناء حل الكومنترن في تاريخ حديث فإن ستالين لم يغفل إغفالاً تامًّا عن الطابع الدولي للحركة الشيوعية، وإن كان الاتجاه العام لسياسته كان اتجاهاً قومياً، وكان هذا الطابع القومي يزداد وضوحًا يومًا بعد يوم، وكان بلا شك يعني العناية كلها في الشئون الخارجية بأمن الاتحاد السوفييني أكثر مما يُعنى بنقل الثورة إلى ما وراء الحدود الروسية؛ وقد يمكن أن توضح حياة ستالين أهدافه إلى حد ما ومن جهة أخرى فإن هذه الأهداف كانت تتأثر إلى حد ما أيضًا تبعًا للتطورات خارج روسيا وبخاصة قيام ألمانيا النازية، وما أبداه هتلر علانية وصراحة من تطلعه للاستيلاء على الأراضي السوڤيتية، ومع أنه قد حدثت بعد تحولات في الاتجاه الأساسي لسياسة ستالين إلا أن أقوى ما في هذا الاتجاه ظل ثابتًا يتبع الاتجاه الأصلي.

وعلى خلاف ما حدث للينين وتروتسكي وكثير من البولشفيك الآخرين فإن چوزيف ستالين لم ينف إلى خارج روسيا، كان ستالين قد قام بكفاح لا هوادة فيه ضد النظام القيصري من سنة ١٨٩٦ إلى سنة ١٩١٧، وقد قبض عليه وسجن لمدد طويلة أكثر من مرة بسبب أعماله الثورية، ولكن كل الكفاح الذي قام به كان كفاحًا سرياًّ في أرض روسيا، وفي أرض الوطن الأم بقي يقاتل من أجل الشيوعية ومن أجل الوطن وقضيته.

ولم يكن ستالين وافر الثقافة، ولم يكن صاحب نظرية خاصة، ولكنه مع هذا أبدى إصرارًا على متابعة تنفيذ مبادئ ماركس كما فهمها هو.

وقد كسب طوال سيطرته على آلة الحزب الشيوعي تجربة واسعة ودراية بالمسائل السياسية، ثم هو رجل «واقعي» لو كان من الممكن أن يتوافر رجل له هذا الطابع، ومع هذا كان ستالين لغزاً بالنسبة لباقي العالم؛ فقد بقي لجيل كامل يخطط السياسة العسكرية السوڤيتية، ويعد الجيش الأحمر إعدادًا فنياً ومعنوياً للكفاح العظيم ضد ألمانيا، هذا الكفاح الذي بدأ في يونيو سنة ١٩٤١ .

ولخمس عشرة سنة بعد وفاة فرونز في سنة ١٩٢٥ كان النائب الأول لستالين في المسائل ا لعسكرية هو الماريشال كليمنتي ڤورشيلوف، وكان ڤورشيلوف ثورياً من المدرسة القديمة ولد في لوچانسك(*) التي أطلق عليها اسم ڤوروشيلوڤجراد تكريمًا له، وقد ولد ابنًا لرجل يعمل في تعدين الفحم، وصحبه الفقر من فجر حياته، واحتمل شتى صنوف الحرمان، ومن ثم دفع دفعًا إلى النشاط الهدام وهو في فجر العمر، وانضم للبولشفيك سنة ١٩١٧

(*) مدينة في اكرانيا الشرقية سكانها ٢١٣.٠٠٠ نسمة.

وعمل مع ستالين في الجبهة الجنوبية طوال الحرب الأهلية، وكان على صلة وثيقة به وبخاصة في الدفاع عن «تزاريتسين».

ولما كان ڤورشيلوف واحدًا من أعدى خصوم تروتسكي، فضلاً عن أنه كان من الناحية الرسمية من المعارضين لنظرياته، كان من الطبيعي أن يختاره ستالين قوميسيرا للحرب.

وفي عهد ڤورشيلوف كان الجيش الأحمر واحدًا من أقوى الجيوش في العالم، «صحيح أن تطور الجيش الأحمر يرجع إلى جهود الدولة كلها بمختلف إداراتها، ولكن ما من شك في أن نصيب ڤورشيلوف في هذه الجهود كان كبيرًا[1]».

وكان ڤورشيلوف يؤمن بالضبط والربط وقوة الابتكار والكفاية المهنية أكثر من إيمانه بالنظريات في صناعة الحرب، وقد عاون على توجيه المراحل العسكرية لمشروعات السنوات الخمس، ولهذا فمن الضروري أن يعترف له ببعض الفضل في نجاح الاقتصاديات السوڤيتية للحرب.

ومن بين الأشياء الأخرى التي يرجع إليه فيها بعض الفضل إدراكه أهمية عدم مركزية الصناعة، وكذلك فضل نقل المصانع الحربية نحو الشرق.

على أنه بسبب الفشل في الحرب ضد فنلندة عين خلفًا له قوميسيرا للحرب، وفي سنة ١٩٤١، وكل إليه الدفاع عن منطقة لينجراد ثم لم توكل إليه أي قيادة عسكرية في الميدان بعد ذلك.

ولما كان ڤورشيلوف في الغالبية سياسي الطابع أكثر من أن يكون

---

(١) Berchin and Ben Horin, op. cit., p. ١٠٤.

راجع أيضًا ص ١٠٠ ـ ١٠٤ من نفس المرجع.

جندياً فإنه قد وقف نفسه للأعمال الإدارية، وكخصم قديم لتوخاتشيـڤسكي فإنه لم يكن في البداية راغبًا أن يوكل إليه أي دور مهم في المسائل الخاصة بالجيش الأحمر، ولكن كفاية توخاتشيـڤسكي أدت به ـ بعد خمس سنوات قضاها يتولى أعمالاً صغيرة بسيطة ـ أن يتولى العمل كمساعد لقوميسيير الحرب مع رياسته لهيئة أركان الحرب.

وكان توخاتشيـڤسكي لاڤورشيلوف هو الذي شجع الدراسة النظرية للشئون العسكرية، وبتوجيه توخاتشيـڤسكي توافرت في الجيش الأحمر كتابات عسكرية من طراز ممتاز[1].

وقد عدل توخاتشيـڤسكي من وجهات نظره الأولى عن الاستراتيـچية السوڤيتية تبعًا للتطورات الجديدة التي حدثت خارج روسيا، وتبعًا لنمو حركة التصنيع في الاتحاد السوڤيتي، وعلى سبيل المثال ففي مقدمته لكتاب «قانون خدمة الميدان» طبعة سنة ١٩٣٦ عارض نظرية الطاقة الخاصة للمناورة من جانب الجندي السوڤيتي، وبذلك فكأنه عارض طاقته الخاصة على القيام بالهجوم، ولقد كتب: «إن مسألة كيفية التغلب على قوة النيران الحديثة للخصم لا يمكن أن تتعلم من هذه النظرية، لقد كان

(١) كتب توخاتشيـڤسكي وشابوشنيكوف دراسات ممتازة عن الحرب البولندية، وفي سنة ١٩٢٧ نشر شابوشنيكوف كتابه عن هيئة أركان الحرب
(The Brain Trust of the Army).
وظهر كتاب ترينداڤيلوف
(The Character and Operations of the Modern Army).
سنة ١٩٢٩، كما صدرت سنة ١٩٢٧ مجلة (الفكر العسكري)
Voysennania Mysl
ووقفت صفحاتها لنشر مقالات طلية عن الاستراتيـچية والتكتيك.

هناك بعض الزملاء الذين يؤكدون أننا في تدريبنا جندي الجيش الأحمر على الهجوم نحتاج عددًا أقل من القنابل التي يحتاجون إليها لتدريب الجندي في أي جيش رأسمالي وذلك بسبب التباين وبسبب الأفضلية في الروح المعنوية التي تتوافر لجندي الجيش الأحمر، ولكن خداع النفس هذا يؤدي فقط إلى خسائر لا ضرورة لها وإلى مضار لها خطرها، إن النظرية لا تتمشى مع ما يطلبه الرفيق ڤورشيلوف من أن نتعلم كيف نكسب الحرب بأقل خسارة في الدماء»[١] .

ومع أن توخاتشيڤسكي قد اعترف بنمو وازدياد قوة الدفاع إلا أنه بقي مؤمنًا بأن الهجوم هو الاستراتيچية الوحيدة التي تمكن من النصر، وكان توخاتشيڤسكي على دراية بالمؤلفات العسكرية الأجنبية وكان يشير إلى ديجول بكلمات: «كاتب عسكري فرنسي نابه» وتحدث بحديث طيب عن عقيدة ليدل هارت الدفاعية.

كتب سنة ١٩٢٧ معبرًا عن رأيه في أن الحرب الأوروبية القادمة ستكون أوسع مدى وأكثر عنفًا من حرب سنة ١٩١٤ ـ ١٩١٨، وقال بأنها قد تستخدم حرب الخنادق ومعارك الإجهاد، ولكن لما كان الهدف في كل حرب هو تدمير قوات العدو والاستيلاء على موارد قواه الاقتصادية فإن هذا الهدف لا يمكن تحقيقه إلا بالهجوم.

وقال في خطبة ألقاها في يناير سنة ١٩٣٥ بأنه ربما تكون أهم الخاصيات التي يجب توافرها في الجيش: المرونة وتوافر الموارد، «نحن نحتاج الرجال الذين يستطيعون عندما يواجهون التطورات الفنية الحديثة ـ

(١) Berlin and Ben- Horin, op. cit. p. ١٣٢.

كالاستخدام الآلي ـ أن يغيروا من خططهم بسرعة البرق، من الصعب أن نغفل استخدام الفرسان وما عدا هذا من أسلحة الحرب الأهلية وأن نستخدم استخدامًا صحيحًا خفة الحركة التي للطائرات والقوات الميكانيكية[١] .

ويبدو أن ستالين قد اقتنع أيضًا بأن الهجوم وحده هو الذي يمكن أن يحقق النصر؛ ويقال إن ستالين قد قال للمؤرخ هـ. ج. ويلز: «من هو الذي يريد قائدًا عسكرياً لا يستطيع أن يفهم بأن العدو لن يستسلم، بل يجب أن يتحطم؟»[٢] .

على أن ستالين قد عرف هو وكل أولئك الآخرين المعنيين بالشئون العسكرية ألا تنجح استراتيـچية ما إلا إذا عوونت بتعبئة كاملة لاقتصاديات الأمة ولمواردها المعنوية، ومن ثم فإن دور ستالين البارز في العقيدة السوڤيتية للحرب وفي التاريخ العسكري الحديث لا يوجد في التصريحات والبيانات التكتيكية ولا في النظريات الاستراتيـچية بل فيما حققه من تصنيع الاتحاد السوڤيتي وفي تدريب وإعداد الرجال والنساء والأطفال للصناعات المختلفة وللإسهام في الحرب الآلية، وليبث في السكان كجملة واحدة هذا التأهب السيكلوچـي الذي كان كبير القيمة في مقاومة النازيين.

---

(١) راجع لادراك وجهات نظر توخاتشيـڤسكي وتقدير قيمتها كتاب:

"White, Soviet Philosophy of War" Loc. cit., pp. ٣٤٢ – ٣٤٦

أما بالنسبة لهذه الفقرة التي نقلت في هذه الصفحة فيرجع إلى:

Michael Freund (ed), Weltrüstung Geschichte der Umwâlzungen des Wehrwesens der Nationen im Jahre (١٩٣٤ - ١٩٣٥), in. Dokumenten (Essen, ١٩٣٤ - ١٩٣٥), p. ٧٦.

(٢) Berchin and Ben- Horin, op. cit., p. ١٣٠.

لقد أعدت حكومة ستالين العدة لحرب شاملة في مستوى، قليلون في العالم لخارج الاتحاد السوڤيتي هم من يعرفونه أو يمكن أن يتفهموه، ولم ينل ستالين لقب الماريشال الذي منحه لنفسه بسبب اشتراكه في القتال بميدان الحرب بل بدراسته لمختلف الوسائل والطرق التي يمكن بها استخدام الموارد الاقتصادية والقوى البشرية في البلاد إلى الحد الذي يمكن معه الانتفاع بكل ما توافر لها (للبلاد) من إمكانيات عسكرية.

وهكذا كانت القوى الدافعة المحركة لمشروعات الخمس السنوات هي خوف الحرب والهزيمة، وهذه مسألة محتملة إلى حد بعيد إن لم تكن مؤكدة، وكان فرونز سنة ١٩٢٤ قد أشار إلى أنه بسبب تخلف الصناعة الروسية في جملتها بعامة وبسبب الطابع البدائي للصناعات الآلية بخاصة فإن الجيش الأحمر لا يمكن أن يزداد عدده ولا أن يتقدم في نوعه، ومن ثم فإنه لا يمكن أن يقف على قدم المساواة مع غيره من الجيوش.

هذا فضلاً عن أن الجندي الروسي كان إلى حد بعيد غير مدرب بالقدر الذي يوجد فيه الاتجاه أو الحس الآلي، أو بمعنى أدق أن تتوافر له فكرة استخدام الآلات، الأمر الذي يوجد منه اتساع نطاق التصنيع في البلاد؛ وكان ڤورشيلوف قد حذر بدرجة أكبر التخلف الفني الذي يعانيه الجيش الأحمر، وقد وصف حال صناعات الحرب قبل سنة ١٩٢٨ بأنها «فوضى في غير نظام» وأنها لهذا تعتبر «المسألة الخطيرة بالنسبة للروسيا» وهذا سبب قوي للهزيمة.

وقد حذر أيضًا من أن السكك الحديدية وغيرها من وسائل المواصلات الداخلية في جملتها تعتبر غير كافية لحاجيات حرب حديثة، وقد طالب بزيادة تدريب الجنود إلى مستوى الجيوش الأخرى دون زيادة عدده؛



راجع صفحة ٢٥٦

لأن «الكم» ليس معوضًا للنقص في «النوع».

ومن هنا كان في تقديره أن الهدف الرئيسي لمشروعات السنوات الخمس يجب أن يكون إقامة هذه الصناعات وثيقة الصلة بإنتاج مواد الحرب وأن توضع الأسس للتعليم الفني للروس.

وقد أعطيت معدات الجيش ـ طوال فترة التصنيع ـ الأولوية على المطالب الأخرى، وكانت لها أيضًا الأولوية لإعداد ما تحتاجه من مواد خام من عمال مهرة؛ وقد ظن عدد كبير من المراقبين لما يدور على المسرح السوفيتي طوال السنوات العشر بين ١٩٢٨ و ١٩٣٨، ظن هؤلاء أن ندرة البضائع الاستهلاكية في الاتحاد السوفيتي ترجع إلى عدم كفاية ودقة إدارة وتنظيم الصناعة، ولكن على ما دلت عليه الحوادث كان السبب الرئيسي هو توجيه اقتصاديات الحرب بتضحية كل شيء من أجل مصالح الجيش وفي سبيل التأهب العسكري[١].

---

(١) من أهم وأول الكتب التي أوضحت الأسس الاقتصادية للقوة العسكرية السوفييتية كتاب:

Max Warner, The Military Strength of the Powers (New York, ١٩٣٩).

انظر الفصل الثاني منه. وأحدث بل ولربما أفضل مجمل عام بالإنجليزية لإيضاح النواحي العسكرية في مشروعات السنوات الخمس (١٩٢٨ ـ ١٩٣٢، و١٩٣٣ ـ ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ ـ ١٩٤٢) الفصل التاسع من كتاب:

(White, Red Army, Chap. IX.)

الفصل الذي وسمه بعنوان:.(The Impact of Industrialization)

ويوجد بالروسية مقال قيم من قلم A. Baikov بعنوان:

"The Economic Basis of the Defence System of the U. S. S. A" in Voyennaia Mysl November, ١٩٣٩, p. ٢١ – ٣٦.

ونقلت إلى فقرات منه إلى الإنجليزية الآنسة ف. ت. بيل.

ومن الممكن استخدام العدد الكبير من الأرقام لإيضاح مدى اتساع الصناعة طوال السنوات من ١٩٢٨ إلى ١٩٤١، وربما كان أعظم حقيقة عددية هو حركة السكان من الريف إلى المدينة، من الزراعة إلى الصناعة بين سنة ١٩٢٦ وسنة ١٩٣٩، وقد جاء الجزء الأعظم من حركة الانتقال هذه عقب بدء مشروع السنوات الخمس الأولى سنة ١٩٢٨، ففي قرابة العشر سنوات زاد عدد الصناع في الاتحاد السوڤيتي من نحو ١٦ ٪ في الجملة إلى نحو ٤٦ ٪، وقد أمكن تحقيق هذا نتيجة انخفاض الجماعات الزراعية من ٧٧ ٪ في الجملة إلى أقل من ٤٧ ٪، ولم يحدث شيء مثل هذا التحول في المركز الاقتصادي في أمة ما وفي وقت قصير في كل تاريخ الجنس البشرى، بل لم يحدث على التحقيق إطلاقًا في التاريخ الحديث.

❊ ❊ ❊

ولقد يمكن القول بأنه قد أمكن تحقيق هذا التحول بالأيدي العاملة إلى التصنيع، نتيجة لإقامة المزارع التعاونية ونتيجة للاستخدام الآلي في الزراعة.

وهكذا كانت الهجرة من الريف إلي المدينة اضطرارًا، ولم تستخدم حكومة موسكو أي وسائل سليمة لهذا، ومن ثم فقد سببت الهجرة اضطرابًا واسع النطاق في الأوضاع الاجتماعية نجم عنه الكثير من المتاعب.

ولا شك أنه لم يكن من الميسور أن تتوافر إرادة حديدية لأي زعيم سوڤيتي غير ستالين ليستطيع إقامة هذا التخطيط الاقتصادي الذي انتزع كل عوامل الإنسانية من جذورها.

لقد قاسى الروسي الأمرين في هذه السنوات، ولكنهم ولا شك

أدركوا بعد سنوات ـ في ضوء التطورات التي جاءت فيما بعد ـ أنهم قد أنقذوا الثورة واحتفظوا باستقلالهم القومي، ذلك لأن إمكانيات الاتحاد السوڤيتي في الحرب قامت على أساس الوضع الجغرافي للروسيا، وعلى أساس موارد البلاد و «كم» و «نوع» القوى البشرية في الاتحاد.

على أن هذه الموارد لم تكن بذات بال ولا قيمة ما لم تتحول إلى آلة للحرب بالصناعة الحديثة، ولم تكن القوى البشرية لتصبح ذات أثر فعال ما لم يتوافر لها «الحس الآلي» والمعرفة باستخدام الآلات، وهذا الحس وهذه المعرفة لا يتوافران إلا لدولة صناعية يمكن أن تزود بها شبابها، المادة الخام للقوات المسلحة[1] .

***

ولم يكن التصنيع في روسيا ـ ومن وجهة النظر العسكرية ـ في «الكم» فحسب، بل وكان في «النوع» أيضًا، ففي مشروع الخمس سنوات الثاني اتسع نطاق صناعات الدفاع لمرتين ونصف مرة بالنسبة لمدى الاتساع في جملة الصناعات، وكانت نسبة هذا الاتساع في مشروع الخمس السنوات الثالث كنسبة ٣: ١، وكان لإمداد المصانع الحربية باحتياجاتها الأولوية على أي شيء آخر، وكان الاهتمام بجودة انتاجها كبيرًا إلى حد أن نسبة الزيادة مع الجودة في صناعات الحديد والصلب وغيرهما من المعادن تثير الإعجاب.

وحدث تقدم كبير في النقل بالسكك الحديدية، وأمكن هذا ـ على ما

(١) استطعت الوصول إلى المعلومات عن تعداد السكان في الاتحاد السوڤييتي بوساطة الأستاذ فرنك نوتستين وزملائه في إدارة بحوث السكان بجامعة برنسيتون، أما عن النتائج الاجتماعية لمشروع الخمس السنوات فيرجع إلى كتاب:

W. H. Chamberlin, Russia's Iron Age (Boston, ١٩٣٤).

قال الماريشال ڤورشيلوف ـ لأن روسيا «تكون وحدة اقتصادية متناسقة، ولهذا فإنه من السهل توجيه التطورات وعوامل اطراد التحسين في الوجهة الضرورية»[١].

وكان التقدم من ناحية «الكم» ممتازًا أيضًا؛ ففي سنة ١٩٣٨ كان الاتحاد السوڤيتي قد ارتفع من بلد زراعي متخلف إلى بلد صناعي من الطراز الأول.

وقد استهدفت مشروعات السنوات الخمس عدة أغراض أخرى لها أهميتها في الجهد العسكري للاتحاد السوڤيتي، فقد وجد احتياطي كبير من العمال المهرة وأنصاف المهرة، وأمكن الوصول إلى هذا الاحتياطي الكبير عن طريق التجنيد الإجباري جزئياً، ووزعت صناعات الحرب ولهذا أمكن تقليل مدى تعرضها لغزو العدو، وقامت المصانع التي أرسيت هياكلها إلى أن يتم أعدادها، وصدقت فراسة أولئك الذين نظروا إلى هذه الهياكل على أنها قوى دافعة لاستكمال كل شيء للإعداد الصناعي، ووثبت إلى الوجود مدن جديدة كبيرة في شرق العاصمة، بل وحتى فيما وراء جبال الأورال، وأعدت الخطط لتهجير المصانع للشرق عند قيام الحرب، وبحثت كل التدابير لتحقيق الاكتفاء الذاتي، ووجه جزء كبير من الدخل القومي لنفقات القوات المسلحة.

على أنه أمكن تحقيق هذا كله نتيجة لتقبل الأهلين للمزيد من التضحيات.

---

(١) The Land of Socialism Today and Tomorrow.

تقارير المؤتمر الثامن الحزب الشيوعي في الاتحاد السوڤييتي، مارس سنة ١٩٣٩ (موسكو ١٩٢٩). راجع كذلك كتاب تايكوف نفس المرجع.

ولم تعرف ألمانيا وحدها تحويل «زبدة» المدنيين إلى مدافع للجيش[١]، ومثل هذه السياسة لا يمكن الحكم عليها أو لها إلا بنتائجها والروس وحدهم هم الذين يستطيعون أن يقولوا بأن بقاءهم كأمة يستحق الثمن الذي دفعوه طوال السنوات من ١٩٢٨ إلى ١٩٤١ .

ومع هذا فمن الممكن ملاحظة أن الاتحاد السوفيتي لم يرفع مستويات إنتاجه حتى بالنسبة للمواد الخام إلى المستوى الذي رفعت إليه ألمانيا النازية إنتاجها، ولم تصل إمكانيات الاتحاد السوفيتي للحرب إلى المستوى الذي بلغته الإمكانيات في الولايات المتحدة، «وكان معنى هذا أنه في حالة قيام حرب طويلة الأجل ضد ألمانيا أو ضد ألمانيا واليابان معًا لا يكون الموقف في جانب روسيا، وعلى حين أن روسيا قد أوجدت احتياطياً كبيرًا في الآلات العسكرية والأسلحة فإن طاقتها لسدّ أي نقص في هذا الاحتياطي تعتبر غير كافية ما لم تسد هذا النقص باستيراد كميات كبيرة من المواد من خارج البلاد»[٢] .

من أجل هذا كان ستالين حكيمًا في تجنب الاشتباك في الحرب في جبهتين بأن يمنع ـ بأي ثمن ـ قطع علاقاته مع اليابان، وذلك تبعًا لأن الاشتباك مع دولة ثانية كبيرة سيزيد من مطالب روسيا من المواد الخام فضلاً عن تعريضه لمواصلات روسيا القارية والبحرية للخطر.

---

(١) كان السفير جوزيف ديفس في الكثير من الأحوال مجرد مراقب في المسرح السوفييتي، ولكنه كان سريع التقدير إلى أن الاستعدادات للحرب الشاملة كانت هي المفتاح الذي فتح الكثير من المسائل المغلقة ومن أجل هذا يكون كتابه كتابًا له أهميته:

Mission to Moscow (New Yourk, ١٩٤١).

(٢) White, op. cit., p. ٣٣٢.

ومن أجل هذا أيضًا عرف ستالين ـ كما قال تروتسكي من قبل ـ أن روسيا تحسن القتال كعضو في حلف، وأن النصر الذي يمكن للجيش الأحمر أن يحققه لن يتم إلا إذا استمر وصول مواد الحرب وعتادها بوساطة الإعارة والتأجير من الولايات المتحدة وبريطانيا.

ولهذا السبب كان إلحاح السوڤيت لضرورة بدء القتال في جبهة ثانية طلبًا مفهومًا كتكملة للحرب التي تستند إلى حلف روسي ـ بريطاني ـ أمريكي.

ويبدو أن ستالين قد أدرك من البداية أن الصناعة الحديثة في الاتحاد السوڤيتي يجب أن تستند إلى أمة متحدة متماسكة يستعد كل الأفراد للقيام بدور إيجابي لآخر رجل ولآخر امرأة.

وكما قيل من قبل كانت الحرب تشغل تفكير كل أفراد الشعب الروسي منذ أيام التدخل الأجنبي سنة ١٩١٩ ـ ١٩٢٠، وقد غرست الحكومة بوساطة الصحافة هذا الشعور في أذهان الناس، كما غرسته بوساطة منظمات الحزب والجيش الأحمر، وبالاحتفالات السنوية في الميدان الأحمر لذكرى السابع من نوفمبر.

وكانت مادة الدعاية الروسية إبراز أن الاتحاد السوڤيتي أمة من العمال والفلاحين الكادحين تدور من حول دول رأسمالية.

والدول «الإمبريالية والرأسمالية» ـ أي كل العالم غير السوڤيتي، ـ هي تبعًا ـ لطبيعة الأشياء ـ أعداء المجتمع السوڤيتي وأعداء الدولة السوڤيتية.

وهكذا كان من الطبيعي أن يزداد الخوف من الحرب نتيجة لقيام

النازية ولإحيائها الإمبريالية الألمانية، وللدعاية الألمانية المضادة للبولشفيك، وللحلف المضاد للكومنترن ثم لتزايد قوة الألمان العسكرية في أوروبا.

* * *

وفي سنة ١٩٣٨ كان تحت قيادة هتلر أقوى جيش في أوروبا، أكد في حديثه عنه أكثر من مرة أنه سيستخدمه لتحقيق «الاتجاه نحو الشرق» على حساب الاتحاد السوفيتي، وكل من قرأ كتاب كفاحي لهتلر يعرف أنه قد حمل على زعماء روسيا ووصفهم «بالمجرمين الملوثين بالدماء، بالمجرمين المعدومي الإنسانية الذين ينتسبون إلى أمة تتوافر لها طباع الوحوش مع قدرة كبيرة على الكذب والتضليل، وبقيت إذاعة برلين من سنة ١٩٣٣ إلى سنة ١٩٤٣ تكرر هذا يومًا بعد يوم فيما عدا فترة صغيرة أيام اتفاق ستالين ـ هتلر بين سنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٤١.

ولكن حتى قبل بروز هتلر كانت الاستعدادات النفسية لتوجيه شعوب السوفيت للحرب قائمة مستمرة، وعلى أساس الخوف من الحرب ورغبة في تقوية القومية الروسية ودعم عقيدة الشيوعية، استطاع ستالين أن يجعل الاستعدادات العسكرية فن الحرب وصناعتها الشغل الشاغل كل يوم لعمال روسيا وفلاحيها وطلبتها وموظفيها المدنيين[1].

وفي سنة ١٩٢٧ قامت منظمة رسمية باسم "Osoaviakim" (من oso تعني «لأجل الدفاع» Auizkhim وتعني «الطيران والكيميا») لتكون الهيئة

---

(١) Berchin ahd Beh - Horin, op. cit., op. cit., p. ١٤٩.

وكذلك فإن الفصل التاسع الموسوم بعنوان: (Total Praparedness) مناقشة جيدة للموضوع.

الأساسية التي عن طريقها تتم تعبئة السكان المدنيين، وقد أنشئت المنظمة الجديدة ـ أوسوڤياخيم Osoavizkhim – على أساس أن جميع المواطنين يجب أن يسهموا في الحرب القادمة، ومن ثم يجب أن يعدوا بالقدر الكافي للقيام بدورهم هذا، فقد عاونت المنظمة ليتوافر الحس الآلي في أفراد الشعب استعدادًا للحرب الميكانيكية، كما عاونت في نشر «عقيدة الدفاع» بين الناس ليستطيعوا القيام بدور إيجابي في مقاومة العدو، وفي سنة ١٩٣١ كان أعضاء هذه المنظمة أحد عشر مليونًا، وكان هدفها أن يتضاعف هذا العدد في السنة التالية، وأعدت المنظمة البرامج وفرق التدريب لتعليم الناس الرماية بما في هذا إعداد المتصيدين المهرة، كما دربتهم على حرب الغازات، والدفاع الجوي، والتحرك على الجليد بالزحافات والهبوط بالمظلات، ودربت الكثيرين على الطيران الحربي وأعدت الفرق الدراسية لأعمال الإدارة والمواصلات، بل ودربت الناس على الكثير من الموضوعات الأخرى ذات العلاقة بالجهد الحربي.

على أننا لو أردنا أن نخرج من التعميم إلى التخصيص استطعنا أن نقول بأن مئات الألوف قد دربوا على استخدام الأسلحة، ودرب عدد أكبر على قيادة السيارات بمتباين أنواعها.

بل نستطيع أن نقول بأن كل السكان قد دربوا تدريبًا عاماً فضلاً عن مئات الألوف قد دربوا تدريبًا فيه طابع التخصص الفني.

ولا يوجد في أي بلد في العالم لخارج الاتحاد السوڤيتي منظمة مثل الـ (أوسوڤياخيم) هذه، ومن ثم يجب الاعتراف لها بالفضل في هذه المقاومة البطولية التي قام بها سكان الاتحاد السوڤيتي ضد الغزو الألماني، وبدون هذه المنظمة من الصعب أن نصدق بأنه كان من الممكن أن تسطر هذه

الصفحات الخالدة لستالينجراد ولينينجراد وسباستبول وما كان ليمكن أن تحدث مثل هذه التعبئة ومثل هذا الدفاع ضد الإغارات الجوية في كفاية ويسر[١].

وقد يكون من المستحيل أن نقدر المساهمة الرائعة التي أسهمت بها نساء الاتحاد السوفيتي في الدفاع الشامل عن أرض روسيا، وأمكن بقانون الثامن من أغسطس سنة ١٩٢٨ قبولهن كمتطوعات في القوات المسلحة، بل وتجنيدهن للقيام بأعمال خاصة.

ومع أن الأصل كان استخدام النساء في غير أعمال القتال إلا أنهن عملن في صفوف الكثير من الواحدات على قدم المساواة مع الرجال.

وكان ٦٠ ٪ من عدد الأطباء والجراحين في روسيا من النساء.

ولهذا فقد كان عملهن في الخدمات الطبية مساهمة لا غنى عنها، ولم يحدث في أي بلد في العالم أن كان نصيب النساء في الأمن القومي كنصيب النساء الروسيات[٢]، ولقد أغفلت روسيا حاجز الجنس أو النوع البشرى منذ أن بدأت الإعداد للحرب الشاملة، وكان استخدام النساء يتمشى مع النظرية الماركسية للأمة المسلحة ومع العقيدة الماركسية بأن الجيش لا ينفصل عن جملة الشعب.

---

(١) يرجع في الحديث عن الدفاع ضد الإغارات الجوية لكتاب:

H. C. Casaidy, Moscow Dateline, ٩٤١ - ١٩٤٣ (Boston, ١٩٤٣).

أما في الحديث عن المنظمة فيرجع إلى الفصل التاسع من كتاب:

(Berchlin and Ben-Horin)

(٢) Berchin and Ben- Horin

نفس المرجع الصفحتان ١٥٢ ـ ١٥٣ .

وكان من الواضح لتعبئة الناس للحرب الشاملة أن كل الأمة ـ لا عمالها في الصناعات وفي الأرض ـ هم وحدهم الذين يقومون بنصيبهم في الحرب، ولقد أخبر مولوتوف مؤتمر الحزب في مارس سنة ١٩٣٩ بعد اغتصاب هتلر لأرض تشيكوسلوفاكيا بأيام قليلة أنه لم تعد في روسيا طبقات، وأن سياسة ستالين قد عملت دائمًا لإنهاء تقسيم المجتمع إلي مستغِلين (بكسر الغين) وإلى مستغَلين (بفتح الغين).

وقد لا يكون هذا صحيحًا ولكن مهما كانت الحقائق فإن الحكومة السوڤيتية قد عملت لإزالة الكثير من بقايا نظام الطبقات، وعلى سبيل المثال فإن دستور سنة ١٩٣٦ جعل التجنيد فريضة على كل المواطنين على نقيض قانوني سنة ١٩٢٥ وسنة ١٩٢٨ اللذين نصا على أن الجيش وقف على العمال والفلاحين.

وزاد قانون التجنيد العام لسنة ١٩٣٩ من نطاق الخدمة العسكرية، فقد جعل القانون الجديد كل المواطنين «الذكور» بين سن الثامنة عشرة والأربعين صالحين للخدمة في القوات المسلحة دونما تقدير لجنس (في التقسيم الخاص إلى شعوب) أو قومية أو تعليم أو وضع اجتماعي[١] على أنه لا يمكن أن ندرك تمامًا التغييرات الأساسية التي جاء بها القانون الجديد ما لم نقرأ النصوص التشريعية والتقارير والخطب التي ألقيت والمناقشات التي دارت قبل صدور هذا القانون.

---

(١) يرجع لدراسة الدستور السوڤييتي لسنة ١٩٣٦ إلى كتاب:

Anna Louise Strong, The New Soviet Constitution (New Youk, ١٩٣٧).

أما بالنسبة لقانون سنة ١٩٣٩ فيرجع إلى كتاب (White) من ٣٦٣ ـ ٣٦٦، وإلى مقال (K. Voroshilov) في جريدة Voyennaia Mysl عدد سبتمبر ١٩٣٩ .

صحيح أن هذا قد جاء تبعًا للحاجة ولمواجهة الزيادة في الجيش الأحمر والقوة الجوية الحمراء، وحاجتها إلى المزيد من الضباط وضباط الصف والجنود الذين يتوافر لهم نصيب من التعليم والثقافة، ولكن من الضروري أيضًا أن نرجع بهذا إلى نمو الولاء الوطني والوعي القومي بسبب الحرب الأوروبية والتي كانت تبدو في الأفق.

وتوجد علائم مؤكدة حتى قبل سنة ١٩٣٩ تدل على أن ستالين قد أمر بالعمل على تقوية الشعور بالقومية الروسية كقوة دافعة للتعبئة الشاملة، ولقد طغت فكرة العمل للحرب القادمة على الدعوة للثورة الدولية في الطابع الذي بشر لها به في الأيام الأولى، وفي سنة ١٩٣٤ كانت النغمة القومية التي تنشدها برافدا:

(«من أجل الوطن، وفي سبيل الوطن» ـ هذه هي الصرخة التي تضيء شعلة البطولة، شغل قوة الابتكار الخلاقة في كل ميادين بلادنا المتعددة الجوانب الموفورة الثروة؛ إن الدفاع عن الوطن هو القانون الأعلى في الحياة، الحياة من أجل الوطن، من أجل شرف البلاد ومجدها وقوتها ورخائها)[١] .

وفي سنة ١٩٣٧ جاءت الفرصة للاحتفال بيوم قومي لذكرى مرور ١٢٥ سنة على معركة بوروديتو Borodino ومن ذلك التاريخ وجدت روح جديدة هي «روح سنة ١٨١٢» تبنتها جريدة الجيش «النجمة الحمراء» (ردستار) ومجلة «الفكر العسكري» وغيرهما من الصحف الشعبية، وقد كشف عن الهدف وراء هذا كله صراحة فيما بعد، كان الهدف إثارة الوحدة القومية، وإحياء تعلق الأفراد بالتقاليد المجيدة للروسيا، والسمو بالمشاعر

(١) الترجمة الانجليزية من:

(Max Eastman, Stalin's Russia (New Youk, ١٩٣٤). p. ٢٦.

الوطنية الجديدة»[١] .

وقد خلا القسم الجديد الذي يطلب من جنود الجيش الأحمر أن يقسموه من الإشارة إلى الدولية كما قلل من حدة صراع الطبقات، كان القسم يلزم الجندي بأن «يتعلم فن الحرب» وأن يكون «أميناً شجاعًا خاضعًا للنظام عاملاً للنهوض والتقدم» وأن يستجيب لأول نداء «للدفاع عن الوطن عن جمهوريات الاتحاد السوڤيتي»، وأن يكون هذا الدفاع «بحكمة وبشرف دون أن يدخر قطرة واحدة من دمه في سبيل النصر الكامل على العدو»، وكانت هذه الصرخة أبعد مدى مما جاء في القسم الأول الذي فرض إلزاماً كبيرًا بالولاء للطبقة الكادحة في العالم «البوليتاريا الدولية»[٢] .

وقد كرر ستالين الحديث عن الدافع الوطني في كل تصريحاته وخطبه منذ فجر الحرب ضد ألمانيا، وكانت البلاغات اليومية تصدر في جريدتي «براڤدا» و «ازڤيستيا» تحت عنوان «آخر الأنباء من جبهة الحرب في سبيل الوطن»، وفي إذاعة بتاريخ الثالث من يوليو سنة ١٩٤١ تحدث ستالين عن الحرب ضد ألمانيا على أنها «حرب التحرير»، «حرب تحرر وطننا»، وفي إذاعة ٦ من نوفمبر سنة ١٩٤٢ تحدث ثانية عن «الحرب من أجل الوطن ضد الغزاة الألمان» و «استقلال وحرية وطننا العظيم»، وفي الأوامر اليومية ليوم ٥ من أغسطس سنة ١٩٤٣ حيا ستالين الجنود الذين سقطوا صرعى أثناء القتال لإعادة الاستيلاء على «أوريل» و «بلجرود» ووصفهم بأنهم «الأبطال الذين سقطوا في الصراع من أجل حرية الوطن الأم».

(١) ملاحظات ص (٢٨٣ ـ ٢٨٧) الفصل التاسع من كتاب White.

(٢) نص الترجمة الإنجليزية في كتاب Wollenberg .

ووضع ماريشالات القرن الثامن عشر ـ العصر الذهبي للعسكرية الروسية ـ قبلة لهدى الجيل الحاضر، وأشير يوم ذاك إلى سوڤوروف أكثر مما يشار إلى ماركس وآنجلز.

وكان من الواضح أن ستالين القومي، زعيم حرب التحرير وماريشال الإتحاد السوڤيتي، قد قطع شوطًا بعيدًا منذ أيام لينين، لينين الذي هاجم القومية، وعلى حين كان لينين يقول: «ليس باشتراكي من لا يضحي بوطنه في سبيل الثورة الاشتراكية» كان ستالين يقول بأنه لا يمكن النزول عن شبر واحد من أرض روسيا للمعتدين الألمان، ولم يكن هذا تحولاً أيديولوچياً واسع المدى من جانب ستالين، بل كان إدراكًا منه لحقيقة أن جملة موارد الاتحاد السوڤيتي لا يمكن أن تُبعأ إلا بإثارة روح الوطنية في جميع الأفراد على مثال ما حدث سنة ١٨١٢[1]، فلم يكن ستالين الطابع الذي يمكن أن يكون معه (بونابرت حديث) ينقل الثورة في أوروبا كلها بقوة السلاح.

***

وفي هذه الأثناء حدثت تغييرات واسعة النطاق في الجيش الأحمر، ففي مارس سنة ١٩٣٤ عندما سمحت النتائج المادية لمشروع السنوات الخمس زيد عدد جنود الجيش الأحمر من ٥٦٠.٠٠٠ إلى ٩٤٠.٠٠٠ ثم وصل العدد إلى ١.٣٠٠.٠٠٠ في سنة ١٩٣٥، وفي هذه السنة أيضًا تم إعداد

(١) لمعرفة اتجاهات الحزب بالنسبة لسوڤورف، باجراتيون، كوتوزوف والكسندر الأول ارجع إلى كتاب:

Eugene Tartlé, Napoleon Invasion of Russia, ١٨١٢.

الترجمة الانجليزية طبع نيويورك سنة ١٩٤٢ .

جيش الشرق الأقصى على أن يكون قوة ذات كفاية ذاتية، وفي سنة ١٩٤٦ كان ٧٧ ٪ من قوة الجيش الأحمر ضمن الوحدات العاملة الدائمة، أي إن ٢٣ ٪ فقط كانت في وحدات الميليشيا، وبذلك انعكست النسبة التي كانت هي الطابع البارز في الجيش الأحمر سنة ١٩٢٤، وفي مارس سنة ١٩٣٩ كان الجيش الأحمر بأكمله يتبع تنظيم الجيش العامل.

ولقد قال ڤوروشيلوف في مؤتمر الحزب: «لقد وضح أن اتخاذ النظام الإقليمي كقاعدة لقواتنا المسلحة يتعارض مع احتياجات الدفاع عن الدولة وذلك بمجرد أن بدأت الدول الإمبريالية الكبيرة تزيد من تعداد جيوشها ومن دوام تشكيلها طبقًا لمرتبات الحرب حتى في وقت السلم»[١].

وفي الوقت الذي كانت فيه الزيادة في العدد والتغيير في التنظيم تسير قدمًا كان الجيش الأحمر يعاد المرة تلو الأخرى إمداده بحاجته من العتاد تبعًا لتقدم الإنتاج الصناعي، ومن ثم كان الجيش الأحمر في جملته جيشًا جديدًا.

وتقدمت القوات الجوية الحمراء بخطى واسعة، وبرغم التعليقات القاتمة التي أكثر النقاد الأجانب في حديثهم عن السلاح الجوي السوڤيتي، فإن هذه القوات الجوية كانت في الواقع قد وصلت إلى مستوى عال وأضحت قوة صلبة، وأمكن أيضًا إعداد احتياطي كبير في الذخائر والعتاد والمواد وأمكن جعل الضباط في مستوى المحترفين، وكان لقانون سنة ١٩٣٩ / ١٩٤٠ ـ إلى جانب هذا أيضًا ـ فضل تنظيم سلم الدرجات العسكرية بما في هذا إعادة استخدام الألقاب العسكرية القديمة: چنرال ـ أميرال ـ ڤيلد ماريشال؛ وزيدت المرتبات والأجور، وتقدم نظام الإسكان،

(١) White, op. cit., P. ٣٦٠.

وغير هذا من الميزات وبخاصة للضباط.

وعنى أيضًا بأمر الضبط والربط، وأعيدت التحية العسكرية، وأعطى الضباط الصغار كل فرصة للترقي(١).

على أنه نتيجة للمظهر السيئ الذي بدا فيه الجيش في المراحل الأولية للحرب ضد فنلندة أوكلت للماريشال «تيموشنكو»(*) مسئولية النهوض بمستوى القوات المسلحة وكفايتها، ولهذا فإنه عندما بدأ الألمان هجومهم في يونيو سنة ١٩٤١ كان الجيش الأحمر قد وصل إلى مستوى كبير من الكفاية نتيجة لتدريب جيد متواصل في الشهور الأخيرة منذ تولى تيموشنكو الأمر.

وقد حدث تطور آخر في السياسة السوڤيتية يوضح مدى رغبة ستالين في تحقيق الكفاية العسكرية؛ فلقد كان اقتسام السلطة بين ضباط الجيش الأحمر وبين القوميسيريين السياسيين موضع نقاش وتنازع منذ أيام الحرب الأهلية، صحيح أن سلطة القوميسيريين كانت طوال السنوات ١٩٣٥ ـ ١٩٤٠ عرضة للكثير من التحديدات، ولكنها لم تكن معطلة تمامًا، ولهذا كان قرار الثاني عشر من أغسطس سنة ١٩٤٠ بإلغاء عمل القومسيريين أمرًا يثير الدهشة، على أن هذه الوظائف أعيدت ثانية عقب الغزو الألماني للروسيا ثم ألغيت من جديد للمرة الثانية في أكتوبر سنة ١٩٤٢ .

وكان نظام القومسيريين مهمًا من ناحية جزئية بسبب ما نقدره من قيمة للدور الثوري الذي للجيش، كما كان له أهميته من ناحية أخرى لما

(١) يراجع الفصلان الثاني والثالث من كتاب (Werner) والفصل العاشر من كتاب (White)

(*) تيموشنكو: سيميون كوتستا. Timoshenko

ولد سنة ١٨٩٥، ماريشال السوفييت في الحرب العالمية الثانية.

يضعه من تحديدات على طبقة الضباط الذين هم موضع الشك، ولهذا السبب أو لغيره كان إلغاء نظام هذه مكانته وله مثل هذه الأهمية هو في الواقع تفهم للقوة المتزايدة للجيش كهيئة مستقلة.

وكانت المهارة التي عملت بها هيئة أركان الحرب للجيش الأحمر من المظاهر البارزة في الحرب الألمانية ـ الروسية، ولهذا التقدير أهميته؛ ذلك لأن الذين اعترفوا به وتحدثوا عنه أناس من خارج الاتحاد السوڤيتي أو يعيشون خارج حدود روسيا، وكانوا يتوقعون أن حركة التطهير الواسعة النطاق التي حدثت سنة ١٩٣٧ وأبعدت عن القوات المسلحة رجال مثل الماريشال توخاتشيڤسكي وغيره لابد وأن توجد نوعًا من الفوضى والاضطراب في القيادة العليا.

والواقع أن هذا الاضطراب كان من الضروري أن يحدث لو لم يسبب النجاح الذي حققه مشروع السنوات الخمس، وتعبئة كل السكان للحرب، والتغييرات المليئة بالجرأة التي حدثت في تكوين وتنظيم الجيش الأحمر قد أزالت كل العقبات السيكلوچية وغيرها التي كانت لحركة التطهير، هذا فضلاً عن أن رئيس هيئة أركان الحرب الجديد: «شابينكوڤ» قد ضمن بقاء سياسة ثابتة واستراتيچية محددة دائمة للاتحاد السوڤيتي، ولكن الأسباب الحقيقية لإعدام الماريشال توخاتشيڤسكي وغيره من كبار الضباط يحوطها الغموض وتبدو الأحاديث عنها متعارضة متضادة.

ـ ٦ ـ

على أن استراتيچية ستالين العسكرية في السنوات من ١٩٣٣ إلى ١٩٤١ لم تتمش مع النظرية الشيوعية، فمنذ أن تولى هتلر السلطة في ألمانيا

كان العالم يعيش في حالة حرب وقد عرف العالم جزءًا من هذه الحرب على أنها «الحرب البيضاء» للنازية، وعرف الجزء الآخر على أنها «حرب ساخنة» معارك وقتال في حروب محدودة في الحبشة وأسبانيا والصين والنمسا وغيرها؛ وفي الحرب الأسبانية وحدها اتبع ستالين كلمات لينين وتعاليمه الخاصة بتحويل «الحرب الدولية» إلى «حرب أهلية»؛ وفي أسبانيا أيضًا كان ستالين يعمل بتأثير تكتيكات هتلر وموسوليني كما كان يعمل تبعًا لنظريات لينين.

أما في أي مكان آخر فإنه (ستالين) نظر إلى المشهد الدولي للمسرحية على أساس أن الاتحاد السوفيتي دولة عسكرية كبيرة، أكثر من أن ينظر إليها باعتبار روسيا دولة ثورية.

وكان هدف دبلوماسيته ـ الهدف الذي حققه وعمل له ليتفنيوف النابه القادر ـ الدفاع عن الاتحاد السوفيتي بوساطة أمن جماعي، وأسهمت الأحزاب الشيوعية في البلاد الأخرى ـ بتوجيه من موسكو ـ تكوين جبهة متحدة مع الجماعات البرجوازية للعمل ضد المعتدين، ولكن تبعًا لنصيحة لينين لم تنفذ سياسة تكتلية، وعلى النقيض فإن الشيوعيين في فرنسا وغيرها لم يقوموا بالمعاونة، بل وتولوا القيادة في إعادة التسليح، وحدث فقط بعد «ميونخ».

عندما ترك الاتحاد السوفيتي وحده في عزلة تامة ـ أن بدأ ستالين يستخدم الشيوعية الدولية لدعم الاتفاق مع هتلر، ويستخدمها كسلاح ضد «الحرب الإمبريالية» لسنة ١٩٣٩، ولكن الكبت العنيف للشيوعية في ألمانيا وإيطاليا لم يمكن ستالين حتى من مجرد الظن بإمكان استخدام الشيوعيين فيها «كطابور خامس» لمعاونة الاتحاد السوفيتي إثر الغزو الألماني

لروسيا سنة ١٩٤١ .

والواقع أنه من الحقائق ذات الأهمية الكبيرة في هذا العصر الذي نعيش فيه أنه لا ستالين ولا الاتحاد السوڤيتي بل هتلر وألمانيا النازية هما العامل لتحول الحرب الدولية لسنة ١٩٣٩ إلى حرب أهلية في الطابع الذي جاء في تعاليم لينين الثورية، وكانت الفاشية لا الشيوعية هي التي قدمت «الكويزلنجيين» و «اللاڤاليين» و «الموزليين» نسبة إلى كويزلنج النرويجي ولاڤال الفرنسي وموزلي الإنجليزي فقد انقلبت الشيوعية إثر الاعتداء النازي على الاتحاد السوڤيتي إلى دعوة للوطنية، كما تحول «الإشتراكيون» إلى «وطنيين» في سنة ١٩١٤ وحصلوا بذلك على تقدير لينين ورضاه.

وكان الجيش الأحمر ـ كما رأينا ـ قبل النجاح الألماني في بولندة قد اتخذ استراتيـچية عسكرية منسقة، استراتيـچية هجومية وضع تخطيطها توخاتشـڤيسكي، بالرغم من أنه هو وشابوشنيكوف كانا قد رأيا بأن أي حرب أوروبية سوف تكون في نطاق واسع إلى الحد الذي يجعلها حرب إجهاد تضطر معها روسيا للوقوف موقف الدفاع لبعض الوقت[1] .

ولهذا فقد عني بوضع عقيدة عسكرية تتمشى مع هذا وتضمنتها قوانين خدمة الميدان الجديدة لسنة ١٩٣٦، وقد جاءت هذه العقيدة على أساس مبدأ الدفاع في عمق، ولم تقم مقاومة الغزو على أساس التحصينات والمواقع، بل على أساس المرونة والمناورة، وأشير إلى أن الأسلحة الحديثة وبخاصة الدبابة يمكن أن تستخدم بوساطة جيش يقف في دفاع استراتيـچي في نفس الصورة التي يستخدمها فيها جيش يقوم بالهجوم.

---

(١) يرجع إلى الفصول الرابع والحادي عشر والثاني عشر من كتاب "Werner" ففيها حديث طيب عن النظريات الاستراتيـچية السوڤييتية قبل سنة ١٩٣٩ .

والواقع أن قوانين خدمة الميدان لسنة ١٩٣٦ قد أكدت أهمية ـ كما أكدت الحاجة إلى ـ التعاون التام بين جميع الأسلحة في العمليات الهجومية والدفاعية على السواء، وينطبق هذا المبدأ بخاصة على السلاح الجوي، ومع أن القوة الجوية الحمراء قد نسقت عملها مع الجيش فإنها لم تتطور في ضوء نظريات «دوهيه» وغيره عن السلاح الجوي المستقل المنفصل عن الأسلحة الأخرى، وعمل السلاح الجوي الروسي في صورة أقرب إلى الدور الذي قام به «اللوفتواف» السلاح الجوي الألماني بالتعاون مع القوات البرية.

على أن الإطناب الذي جاء في قانون خدمة الميدان لسنة ١٩٣٦ عن التنفيذ التكتيكي للدفاع الاستراتيجي وضح أهمية الجندي الفرد والضابط الصغير، فقد جاء في القانون «ضرورة تشجيع القادة بكل وسيلة ممكنة لقوة الابتكار المنطقية التي يبرزها صغار الضباط والجنود»، «ويجب أن يستغل القادة هذه القوة للنجاح في المعركة؛ ذلك لأن الابتكار السليم يقوم على أساس التفهم الصحيح لنوايا القائد»[١].

ومن هنا كانت المشكلة أن يوضح القائد لقائد السرية وجنوده الأغراض التي تستهدفها القيادة العليا، وقد أدرك ستالين هذه الصعوبة، وإن كان لم يذكر لها حلاً حاسمًا، فهو يقول: «نحن القادة نرى الأشياء والناس والحوادث من زاوية واحدة هي من أعلى لأسفل ولهذا فإن أفقنا محدود إلى حد ما، ولكن الجماهير من ناحية أخرى ترى الناس والحوادث والأشياء من زاوية أخرى هي من أسفل لأعلى وهكذا فإن أفقهم هم أيضًا

(١) الفصل الأول من قانون خدمة الميدان للجيش الأحمر لسنة ١٩٣٦، الفصل الأول: المبادئ العامة، وقد حصلت على ترجمة انجليزية له قام بها ف. ت. بيل بوساطة جيش الولايات المتحدة.

محدود إلى حد ما، ولنجد الحل الصحيح للمشكلة يجب أن نجمع بين التجربتين والنظريتين، وإذ ذاك فقط تكون إدارة الرجال صحيحة»[١].

وكانت هذه ولا شك تفهمًا دقيقًا لأهمية قوة الابتكار في الأفراد، وهي التي أدت إلى كفاية الجندي الأحمر وبالتالي إلى دورها المؤثر في العمليات الدفاعية ١٩٤١ ـ ١٩٤٣.

* * *

وكان من حسن حظ الاتحاد السوفيتي أنه بالرغم من التقديس للعامل الهجومي استطاع (الاتحاد) أن يوجد الاستعداد الكافي للدفاع، وللدفاع بعمق بخاصة، ذلك لأن غزو الألمان لبولندة سنة ١٩٣٩ وانهيار فرنسا في الربيع التالي قد سببا ضرورة إعادة بحث العقيدة العسكرية السابقة، وكانت الرغبة البارزة للاتجاه السوفيتي في الشئون المدنية بإحداث تغيير في أسلوب عمل الحزب نوعًا من المرونة يسهل تطبيقه في الشئون العسكرية، واستعداد الجيش الأحمر وإقباله على سرعة تغيير أي تخطيط قائم بضغط الأحوال الجديدة هو الفضيلة البارزة في الجيش الأحمر وأفراده طوال أوقات الشد والجذب لسنة ١٩٤١ ولسنة ١٩٤٢، وكان حتى الضباط الصغار قد فهموا الحاجة للتكيف التام المتواصل تبعًا للمشكلات التي برزت عند مواجهة الهجوم الألماني[٢].

وقد ووجهت روسيا بعد انهيار بولندة بموقف جديد من ناحية أمن

(١) نقلها الماريشال توخاشفيسكي وقدمها في دراسته بعنوان:

"On the New Field Service Regulations" in The Bolshevist, May August, ١٩٣٧. Translated by U.T. Bill.

(٢) Leonard Engel, "The Red Officer Corps" in the Infantry Journal, LII (١٩٤٣), ١٨ – ٢٤.

وسلامة حدودها الغربية، وكان امتداد وطول هذه الحدود هو الخطوة الأولى في استراتيچية جديدة وذلك لاحتمال استخدام الأرض المجاورة لهذه الحدود كمنطقة فاصلة buffer ضد الضغط الأول لأي هجوم ألماني؛ ففي سبتمبر سنة ١٩٣٩ سار الجيش الروسي عبر أرض بولندة وحصل على موافقة هتلر لاحتلال منطقة تنتهي بحدود طبيعية على نهر بوج Bug، وفي مارس سنة ١٩٤٠ كان الهجوم على فنلندة واستولت روسيا على مواقع دفاعية مساحلة لخليج فنلندة مع تعديل الحدود عند كاريليا Karilia(*)، وفي يونيو التالي نزلت رومانيا عن «بسارابيا»، وفي أغسطس سنة ١٩٤٠ احتل الروس جمهوريات البلطيق الثلاث، وكانت نتيجة هذا الاتساع الإقليمي أن حصل الاتحاد السوڤيتي على «الوسادة» التي تحتمل السرعة الابتدائية والمفاجأة ـ أهم عاملين في الحرب البرقية، وبمعنى آخر استطاع الاتحاد السوڤيتي أن يزيد من عمق المنطقة الدفاعية.

وأمدت الحملة الألمانية على فرنسا سنة ١٩٤٠، والتي لم تختلف كثيرًا عن حملة سنة ١٩٣٩ ضد بولندة، أمدت روسيا بصورة كاملة صحيحة واضحة للحملة التي وجهت ضدها (ضد روسيا) بعد عام كامل.

وقد قدر الروس أن الألمان سيعتمدون على المفاجأة والسرعة والهجوم الجوي علي المواصلات وقوافل الإمداد والتموين، سيعتمدون على حرب خفيفة الحركة تهدف للتطويق والإفناء، أي للقيام بمعركة «كانِّي» في أوسع نطاق حدث في تاريخ العالم منذ فجر البشرية.

وكان هتلر قد أصر على أن يحاول ما ظن ڤالكنهاين وسيخت وليب

(*) الأرض في شرق فنلندة وعند كاريليا karilia «معجم ويبستر ص ٧٩٨ «المترجم».

وغيرهم عدم إمكان عمله، ألا وهو توجيه ضربة قاضية ضد الروس في وقت قصير نسبياًّ.

وكان الروس يثقون ـ وهم على صواب ـ أنهم ليسوا كالبلاد الواطئة يمكن اجتياح أراضيهم بسرعة، وليسوا كبولندة يمكن أن يضطرب نظام تحركاتهم بسبب العمليات الجوية العنيفة، ولكنهم في نفس الوقت عرفوا أنهم يحتملون عبئًا كبيرًا في مواجهتهم للغزو لقوات هائلة وافرة العدد والعدد، ولكن من المشكوك فيه أنهم قد فكروا إطلاقًا ـ ولا حتى بطريقة مبهمة ـ فيما واجهوه فعلاً من أنهم لم يستطيعوا الحصول على قوة المبادأة قبل صيف سنة ١٩٤٣ .

وكان ما على الروس أن يفعلوه واضحًا جلياًّ، كان عليهم أن يبقوا الجيش الأحمر متماسكًا بأي ثمن، كان عليهم أن يتجنبوا تطويق العدو لهم ما أمكن، والوحدات التي لا تستطيع التخلص والنجاة يجب أن تقاوم لآخر طلقة ولآخر رجل، وكان عليهم أن يساوموا «بالمسافة» لاكتساب «الوقت»، ومعنى هذا أنهم يجب أن يرغموا الألمان على التعمق في الأراضي السوڤيتية دون أن يصلوا إلى تحقيق قرار ما.

ولكن الأرض التي يحتلها الألمان يجب أن تترك لهم وهي عديمة النفع، أي أن يخلفها الروس وراءهم مخربة، وإن كان من الضروري في نفس الوقت أن تكون في غير أمن بسبب حرب العصابات، وعاجلاً أو آجلاً ستعطي حرب الإجهاد للجيش الأحمر الفرصة العظيمة التي كان يتدرب لأجلها منذ أيام الحرب الأهلية، فرصة تدمير العدو بمعركة هجومية، «وتبعًا للنظرية السوڤيتية الجديدة تجيء صورة «الحرب البرقية» في ختام

الحرب لا في بدايتها»[١] .

ولم يتأثر الروس في اتخاذهم استراتيـچية التقهقر والانسحاب بروح الهزيمة التي سادت ڤـيـچان وبيتان، بل كان الروس في الواقع ينفذون سياسة الدفاع الإيجابي التي وضعها الـڤيلد ماريشال ريترڤون ليب من قادة جيش هتلر[٢]، ولابد أن يكون الروس قد وضعوا الحقائق الجغرافية والتقاليد التاريخية موضع التقدير وأن يكونوا قد وضعوها على قدم المساواة، ولابد أن تكون المسافة وأن يكون البرد والمطر والأوحال، قد وقفت كلها تسد طريق ذلك الذي كاد يكون الشخص الذي غزا الروسيا، وربما تكون الموانع الطبيعية في بعض الأحيان وبالنسبة للحرب «الميكانيكية» الآلية أصعب اجتيازًا من مجاري الأنهار وسلاسل الجبال، وعندما ثارت العاصفة فوق الاتحاد السوڤيتي في يونيو سنة ١٩٤١ عادت أذهان الناس في كل مكان إلى سنة ١٨١٢، وكان اسم نابليون على كل شفتين، وليس من المستبعد أن يكون كوتوزوڤ الشخص الذي برز يوم أن حدثت معركة يورودينو كان يقف إلى جانب ستالين طوال الأيام القاتمة من يونيو إلى ديسمبر سنة ١٩٤١، إن الكثير مما كان يبدو في تصرفات ستالين يدل على

---

(١) Max Werner, Attack Can Win in' ٤٣. (Boston, ١٩٤٣) P. ٣٥.

(٢) الترجمة الإنجليزية لكتاب (Die Abwehr) طبع برلين سنة ١٩٣٨ بقلم ل. س. بوسوني، S. T. Bosony، وكذلك كتاب:

D. Vilfroy, Defence (Harrisburg, ١٩٤٣).

على أنه يوجد رأي يقول بأن الروس لم يتزلوا قط عن استراتيـچية الهجوم ولكنهم تحملوا ضربات قاسية عندما حاولوا تنفيذ هذه الاستراتيـچية على أن هذا يبدو لي أقل احتمالًا من الاعتقاد بأنهم قد عادوا من البداية إلى استراتيـچية الدفاع على مثال ما حدث سنة ١٨١٢.

هذا[١].

وقد يكون من الضروري أن نقول هنا كلمة عن تروتسكي الذي نفي وامتهن واغتيل، لقد حذر دائمًا ضد النظرة الجامدة في الاستراتيـچية والتي تنظر نظرة واحدة لكل الأشياء في كل الأوقات، لقد نصح «بالتكيف» و «المرونة» على أنهما أصلح وأفضل للمجتمع الثوري، ويتمشيان مع المبادئ العسكرية السليمة، وقد أثبت الزمن صدق فراسة تروتسكي وصواب رأيه.

ولكن ستالين كان عملاقًا، كأن قلبه قُدَّ من الصخر واقتطعت أعصابه من الصلب وكانت أعصابه من الجليد يوم أن قبل احتمال مسئولية الأمر بالتقهقر، ولقد يمكن أن يقاس بناء الماريشال ستالين على أساس حقيقة أن قراراته كانت قرارات عسكرية حكيمة ولم تكن قرارات استهدفت تقوية مكانته ولا دعم نظام حكمه.

ولابد أن يكون الكثيرون قد شكوا في إمكان احتمال أي ديكتاتور الثبات تحت وقع سلسلة من الضربات التي تهدد كيان بلاده على مثال ما هدد به كيان الاتحاد السوڤيتي سنة ١٩٤١ وسنة ١٩٤٢، ولم يفعل ستالين مرة واحدة ما فعله هتلر من إخفاء حقيقة الموقف فإن النصر يتطلب تماسك معنويات الشعب، وفي إذاعة ستالين لليوم الثالث من يوليو سنة ١٩٤١ قوة دافعة عجيبة، لقد طلب من الناس أن يخربوا الأرض وأن يقاتلوا كلهم أمة واحدة في حرب عصابات لا هوادة فيها، لقد كان رائعًا .. وكانت هذه هي الحرب.

(١) مثال هذا خطبته التي ألقاها في ٧ من نوفمبر سنة ١٩٤١، صحيح أن شبح كوتوزوف لا يمكن أن يكون هو الذي وجهه للتمسك بموسكو والدفاع عنها بأي ثمن، ولكن على أساس الخطوط العريضة للاستراتيـچية فإن التشبيه يعتبر منطقيًا وسليمًا.

ولقد قال: «في حالة تقهقر قوات الجيش الأحمر يجب أن يتم نقل كل ما يسير على عجلات، ويجب ألا يترك للعدو آلة واحدة، ولا عربة واحدة من عربات السكك الحديدية، ولا رطل واحد من القمح، ولا جالون واحد من الوقود السائل».

«يجب أن يقود عمال المزارع التعاونية ماشيتهم معهم، وأن يسلموا قمحهم لسلطات الحكومة لنقله للخلف، أما ما لا يمكن نقله من القمح والوقود والمعادن فيحرق ويدمر».

«وفي المناطق التي يحتلها العدو، تشكل جماعات من الراكبين والمترجلين للقيام بحرب العصابات في كل مكان، لقتل جنود العدو، ونسف الكباري والطرق ونزع خطوط البرق والتليفون وحرق الغابات والمستودعات ووسائل النقل، ويجب ألا يشعر العدو بالراحة والهدوء في مناطق الاحتلال هذه، بل يجب أن يقتل جنوده في كل خطوة يخطونها، وأن يكون الفشل مآل كل ما يضعونه من تدابير».

ولقد قام الجيش الأحمر بتنفيذ خطة الحرب الطويلة المدى بإشراف الكرملين وتحت قيادة القادة الشبان النابهين الذين نالوا شهرة في التجربة القاسية ـ تجربة القتال[1]، وكان الدفاع الإيجابي على ما قامت به القوات السوڤيتية يعني ـ على ما جاء في كلمات المعقب السوڤيتي الأستاذ منز Minz ـ «القتال من أجل كل بوصة من الأرض، والتمسك بكل قرية وكل مدينة إلى غاية ما يمكن، وتكبيد العدو أكثر ما يمكن من الخسائر، وإجهاد جنوده

(١) أصدق عرض بالإنجليزية لهذا الحديث يوجد في الفصل العاشر من كتاب:

Max Werner, The Great Offensive (New York, ١٩٤٢) Chap. x.

والقيام بعمليات هجوم مضادة لا نهاية لها»[1] .

وقد وصف الـچنرال سوكولوڤيسكي Sokolovsky ـ رئيس أركان الحرب للماريشال تيموشنكو ـ هذه التكتيكات بإصطلاح جديد هو: «الطحن البرقي» Blitzgrinding[*]، والدفاع الإيجابي يتطلب أن كل وحدة يحدق بها ـ كبيرة أم صغيرة ـ يجب أن تستمر في القتال ضد الغزاة[**] الأمر الذي وصفه الألمان بأنه «مقاومة خالية من الحكمة والمنطق»، ويتضمن أيضًا حربًا منظمة بعناية للعصابات وهي حرب قد ألفها الروس في تاريخهم الطويل، وهي صورة تشك فيها وفي قيمتها الجيوش الحديثة تبعًا لتعقد طوابع أسلحة ومعدات ومواصلات وتموين هذه الجيوش؛ إنها حرب تعني تضحية عشرات الملايين من الناس، ***والواقع*** أن الاتحاد السوڤيتي كان أقرب إلى صورة الأمة المسلحة من أي دولة أخرى على مختلف عصور التاريخ.

(١) نقلها سولزبرجر من رسالة له إلى جريدة النيويورك تايمز عدد ٤ من يونيو سنة ١٩٤٣، وقد كتب سولزبرجر في شهر يونيو سلسلة من المقالات للنيويورك تايمز عن الجيش الأحمر، وقد كتب مقالا «قيمًا» في عدد مجلة النيويورك تايمز عدد أول من أغسطس سنة ١٩٤٢ بعنوان «الآن جاء دور الطحن البرقي».

(*) Blitzgrinding اصطلاح اصطنعه الروس على مثال الاصطلاح الألماني Blitzkrieg الحرب البرقية، ويعني الاصطلاح الروسي القيام بعملية «جرش» وسحق لقوات العدو بسرعة وفجأة وعلى نطاق واسع وذلك لتحطيم قوات العدو (المترجم).

(**) كان الغرب قد وضع بدوره مثل هذه المبادئ وإن كانت لم تنفذ على نطاق واسع، وكانت هي أصول فكرة الدفاع الشبكي وهي تكوين المنطقة الدفاعية من سلسلة من المواقع تقاتل لآخر طلقة ولآخر رجل مع قيامها بهجوم مضاد أثناء انشغال العدو تجاه بعض المواقع الأخرى له.

ولكن على طول مدى الحرب الدفاعية كان هدف الجيش الأحمر دائمًا أن الهجوم هو الذي يحقق النصر عن طريق إفناء كل قوات العدو في الميدان.

ولقد حقق هجوم شتاء سنة ١٩٤٢ وشتاء سنة ١٩٤٣ نجاحًا جزئياً ذلك لأن الروس، علي نقيض الألمان، كانوا متأهبين للعمليات النشطة في درجة حرارة دون الصفر، ولكن لا يمكن الشك في أن الحملة الروسية في صيف سنة ١٩٤٣ تصور صدق ما قاله ستالين من أن طاقة الجيش الأحمر على استعادة قوة المبادأة من الألمان ليست وقفًا على الشهور من ديسمبر إلى مارس فقط.

- ٧ -

وقد يكون من التعجل الزعم بأن الاستراتيـچية العسكرية الروسية في أوروبا والشرق الأقصى قد حطمت بعد الغزو الألماني، بل الواقع أن هذه الاستراتيـچية هي استراتيـچية السلامة والأمن للاتحاد السوڤيتي.

ولقد قال ونستون تشرشل عن السياسة الروسية: «إنها لغز يحطيه الغموض ولربما كان له مفتاح لحل مغاليق هذا المفتاح هو مصلحة روسيا القومية»[١] .

إن الوقت وحده هو الذي سيمكن من الحكم على ستالين، هل كان روسيًا أكثر من بطرس الأكبر أو كان شيوعياً أكثر من لينين، ولكن (كانت هناك) في الجو بعض علائم يمكن بها لدارسي السياسة أن يتعقبوا مسير حياة ستالين، ولكن تعقب حياته لهو عامل جديد في السياسة الأوروبية بل

(١) أذاعه بتاريخ أول أكتوبر سنة ١٩٣٩ .

والسياسة العالمية[1].

إن روسيا تتوافر لها كل العوامل الأساسية للقوة وكل العوامل الضرورية لإمكانيات الحرب، فمساحتها واسعة جدًّا وفيها الكثير من الموارد الطبيعية فضلاً عن ازدياد تعداد سكانها بدرجة كبيرة حاسمة[2]، وفيها مجتمع صناعي، ونظام سياسي دينامي، قد تسبب هذه الحرب ضعف الأمم الأخرى ولكن الاتحاد السوڤيتي والولايات المتحدة الأمريكية سيخرجان من هذه الحرب في قوة هائلة، وربما قبل أن يصل القرن العشرون إلى نهايته يكون الاتحاد السوڤيتي أقوى أمة في العالم.

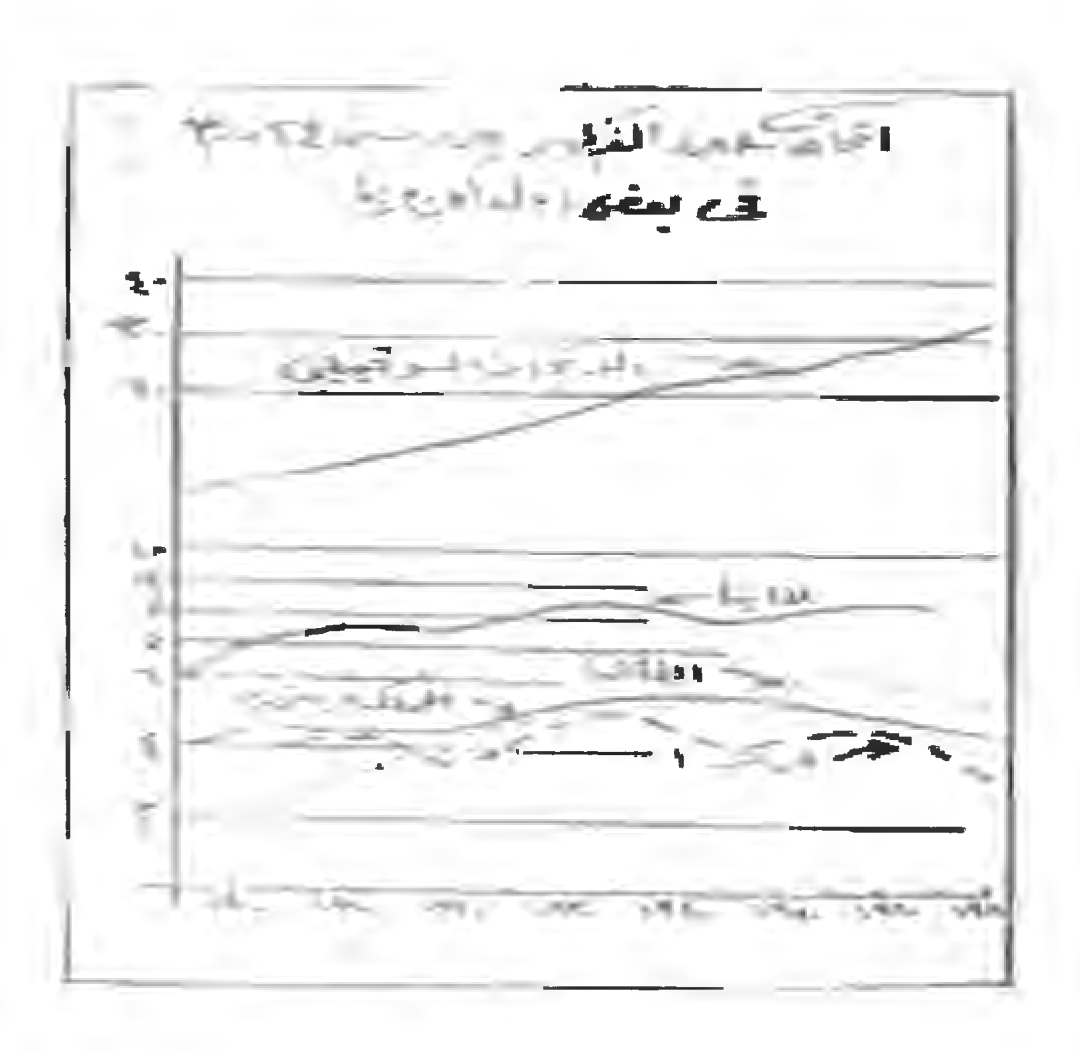
ولكن كيف يمكن أن تستغل هذه القوة الهائلة لمستقبل الجنس البشري؟

إن مؤتمري طهران وموسكو يجعلانا نأمل في أن قوة روسيا ستكون عاملاً فعالاً للسلم كما كانت عاملاً فعالاً مؤثرًا في الحرب.

---

(١) Werner, Military Strenght of the Powers Chaps. I and II.

(٢) Frank W. Notestein, "Some Implications of Population Chang or Post- War Europe" in Proceedinges of The American Philosophical society Vol. ٨٧ (١٩٤٣), pp. ١٦٥ – ١٧٤.



راجع صفحة ٢٧٩

حديث المراجع

الفصل الرابع عشر

لينين - تروتسكي - ستالين

النظرية السوفيتية للحرب

بقلم إدوارد ميد ايرل

الخريطة الموجودة في هذا الفصل منقولة عن كتاب (The Red Army) بقلم إيريك وولنبرج Erich Wollenberg طبع لندن سنة ١٩٤٠، أما الرسمان التخطيطيان فقد نقلا بإذن من «مكتب أبحاث السكان» ببرنسيتون - نيوجيرسي.

على أنه بالنسبة لدراسة الثورة الروسية إلى غاية ما نوقش أمرها في هذا الكتاب يمكن الرجوع إلى الكتب الآتية:

H. Chamberlin, the Russian Revolution ١٩١٧ - ١٩٢١, ٢ Vols (New York, ١٩٣٥).

John Wheeler- Bennett, Brest-Litovsk, The Forgotte Peace (London, ١٩٣٨).

John Reed, Ten Days that Shook the World (New York, ١٩٣٥).

Winston S. Churchill, The Aftermath: The World Crisis ١٩١٨ - ١٩٢٨ (New - York, ١٩٢٩).

C. K. Cumming and W. W. Pettit, Russian- American Relations (New - Haven, ١٩٢٠).

Michael T. Florinsky, The End of the Russian Fmqirc. (New Haven, ١٩٣١).

T. A. Taracouzio, War and Peace in Soviet Diplomacy (Cambridge, Mass, ١٩٤٠).

وقد أعد James Bunyan مجموعة من الوثائق والمواد عن الثورة الروسية قدمها في كتابه: ١٩١٨ – ١٩١٧ The Bolshevik Revolution إصدار (ستانفورد يونيـڤرسيتي، كاليفورنيا ١٩٣٤).

كما يمكن الرجوع أيضاً إلى:

James Banyan, Intervention, Civil War and Communism in Russia, April- December ١٩١٨ (Baltimoie, ١٩٣٦).

Publication of the Department of State, Papers Relating to the Foreign Relations of the United States, ١٩١٨, Russia, ٣ vols. (Wshington, ١٩٣٢).

أما عن الدراسات الخاصة بزعماء الثورة الروسية فيمكن الرجوع إلى:

V. I. Lenin, Works (English translation, New York, ١٩٢٩).

D. S. Mirsky, Lenin (Boston, ١٩٣١).

Harold J. Laski. "Vladimir Ilich Ulyanpv (Nicloay Lenin)" in Encyclopedia of the Social Sciences (١٩٣٧ Leon Trotsky, My Life

(New York, ١٩٣٠).

Leon Trotsky, the History of the Russian Revolution

(English translation, ٣ vols. inone, New York, ١٩٣٧).

ونجد مجموعة طيبة من الكتب تعرض أحاديث ممثلي الحلفاء وألمانيا وروسيا الإمبراطورية منها:

Major Gineral Sir Alfred Knox, With the Russian Army ١٩١٤ - ١٩١٧, ٢ vols (New York, ١٩٢١).

Major General Max Hoffman, War Diaries and Other Papers, ٢ vols. (English translation, London, ١٩٢٩).

Bruce Lockhart, Memories of a British Agent (London ١٩٣٢).

General A. A. Brusilov, a Soldier's Note Book ١٩١٤ - ١٩١٨ (london, ١٩٣٠).

Major General W. S. Graves, America's Siberian Adventure (New York, ١٩٣١).

L.L. Strakhovsky, The Origins of American Intervention in North Russia (Princeton, ١٩٣٧).

وللدراسات الخاصة بالجيش الأحمر والخلافات في الرأي التي قامت حول مشكلات التنظيم العسكري أثناء الفترة الأولى للحكم السوفيتي يرجع إلى:

Michail Tukhchevsky, Die Rote Armee und die Miliz

(German translation, Leipzig, ١٩٢١)

ويرجع لأوجه تفضيل إنشاء جيش عامل في كتاب:

M. Frunze. Works, in Russian (Moscow, ١٩٢٧).

ولأوجه تفضيل إنشاء نظام الميليشيا في مقال:

S. Gusev, "Our Disagreemenst in Questions of War", in Russian (The Bolshevik, No. ١٥, ١٩٢٤, pp. ٣٤- ٤٩).

ويمكن الرجوع إلى التحليلات اللماعة والدراسات الواعية العميقة عن الجيش الأحمر في المجموعة التالية من المؤلفات التالية:

Max Werner, The Military Strength of the Powers

(New York, ١٩٣٩).

D. F. White, the Growth of the Red Army (Princeton,١٩٤٣).

Erich Wollenberg, the Red Army, a Study of the

Growth of Soviet Imperialism (London, ١٩٤٠).

Nicolaus Basseches, the Unkown Army, (New york, ١٩٤٣).

Michel Berchin and Eliahu Ben - Horin, The Red Arym,

(New - York, ١٩٤٢).

N. Vishniakov and F. Arkhipov, The Structure of the

Armed Forces of the U. S. S. R., in Russian (Moscow, ١٩٣٠).

N. V. Piatnitskii, the red army of the U. S. S. R., in Russian (Paris, ١٩٣٢).

Leonard Engel, "The Red Officer Corps" Infentry

Journal, L II (١٩٤٣, ١٨ - ٢٤).

T. Adamheit, Rote Armee, Rote Welt- Revolution, Roter

Imperialismus (Berlin, ١٩٣٥).

وقد حلل Max Wevner العقيدة العسكرية والاستراتيچية للجيش الأحمر في كتابيه:

The Great Offensive (New York, ١٩٤٢).

Attack Can Win In, ٤٣ (Boston, ١٩٤٣).

وكذلك نجد أحاديث طيبة عن هذا في الكتب الآتية:

Triandafilov, The Character of Operations of Modern

Armies, in Russian (Moscow, ١٩٢٩).

Michail Tuckhachevsky. "War as a Problem of Military Struggle" in Russian (Great Soviet Encyclopedia vol XII).

Boris Shaposhnikov, The Brain Trust of the Army

in Russian (Moscow, ١٩٢٧).

A. Svechin, Strategy, in Russian (Moscow, ١٩٢٧)

L. S. Amiragov "On the Character of Future Wars"

in Russian, in War and Revolution, July-August, ١٩٤٣

D.F. White, "Soviet Philosophy of War" Politica

Science Quarterly LI (١٩٣٦), ٣٢١ - ٣٥٣.

The Field Service Regulations of the Red Army in

Russian, (Moscow, ١٩٣٦).

والأخير صدر بدلاً من الكتاب طبعة سنة ١٩٢٩، وقد كتب Michail Tukhachevsky دراسة جيدة في المقارنة بين الكتابين القديم والجديد نشرت بالروسية في عدد مايو ـ أغسطس سنة ١٩٣٧ من مجلة The Bolshevik

وتوجد مادة طبية عن الموضوعات الاستراتيـچية والتكتيكية في الجريدة السوڤيتية اليومية «النجمة الحمراء» Krassnaya Svesda، وفي المجلة الشهرية «الفكر العسكري» Vayennaia Mysl

ونجد بعض دراسات طيبة عن (اقتصاديات الحرب في روسيا السوڤيتية) في المؤلفات التالية:

William H. Chamberlin, Russia's Iron Age (Boston ١٩٤٣).

Ambassador Joseph E. Davies, Mission to Moscow

(New York, ١٩٤١).

Albert Rhys Williams, the Russians (New York, ١٩٤٣).

K. Voroshilov, the Defence of the U. S. S. R., in Russian

(Moscow, ١٩٢٧).

H. C. Cassidy, Moscow, Dateline ١٩٤١- ١٩٤٣ (Boston ١٩٤٣).

وكذلك...

The Land of Socialism Today and Tomorrow.

التقارير المقدمة للمؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعي السوڤيتي

(١٠ ـ ٢١ من مارس ١٩٣٩) موسكو ١٩٣٩ .

A. Baikov. "The Economic Basis of the Defence System of the U. S. S. R". in Russian in Voyennaie Mysl (November ١٩٣٩), pp. ٢١ - ٣٦.

"Soviet War Economy" The Economist, CXLI

(London, ١٩٤١), ٣, ١٧ - ١٨.

الفصل الخامس عشر

ماجينو وليدل هارت

عقيدة الدفاع

بقلم إيرفنج جيبسون

في سنة ١٩٣٩ ذهب الشعب الفرنسي إلى الحرب بروح تختلف عن تلك التي خاض بها الفرنسيون المعركة في فجر الحرب العالمية الأولى، ففي سبتمبر سنة ١٩١٤ عندما كان الألمان يتقدمون نحو باريس استطاعت نيران الوطنية الفرنسية ـ التي كانت تشتعل في عنف وقسوة كما كانت الحال أيام «مالبلاكويه» سنة ١٧٩٣ وسنة ١٨٧٠ ـ أن تخرج النخبة من المقاتلين الذين أوقفوا الغزاة الألمان عند المارن. وفي سنة ١٩٤٠ لم تتوافر مثل هذه الروح القوية، ولم يمكن إثارة حماسة الجيوش الفرنسية بعد الهزيمة التي منيت بها إثر الهجوم الألماني المفاجئ، ولم توجد عمليات التقهقر المتتابعة القدرة أو الطاقة للقيام بهجوم مضاد، وانتهى هذا كله بالتسليم والاستسلام.

ويمكن أن نرجع أسباب الوهن والضعف والروح الانهزامية وافتقار الرغبة في القتال والتضحية إلى عاملين اثنين:

١ ـ الصراع السياسي العنيف الذي كثيرًا ما جرّ الجيش للاشتراك فيه.

٢ ـ كثرة الخسائر التي تكبدها الفرنسيون في الحرب العالمية الأولى.

على أنه كانت هناك عوامل أخرى كثيرة مثل تخفيض مدة الخدمة في الجيش إلى فترة لا تعتبر كافية للتدريب والإعداد، بل وعاونت على إيجاد

تجوال فكري بلغ ذروته في «السلبية»(*) وسبب تقاعس فرنسا في فجر الحرب، ولكن كانت العوامل السياسية والعسكرية هي التي تحتمل المسئولية الرئيسية (السبب الرئيسي) لسقوط فرنسا(١).

وعندما برزت الجمهورية الثالثة إلى الوجود نتيجة لحرب سنة ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ وبدأت تبني وسائل الدفاع عن كيانها سادت الاعتبارات السياسية من البداية كل مناقشات الهيئة التشريعية لإعادة تنظيم الجيش، وأثبت مبدأ «الأمة المسلحة» ـ المبدأ الذي قام على أساسه الجيش البروسي ـ أثبت أن أمن فرنسا وسلامتها في المستقبل لا يمكن ضمانهما إلا باتباع فرنسا لنفس المبدأ، ولكن قتال جماهير باريس وما قامت به للدفاع عن العاصمة قد أخاف «ثيار»(**) كما أخاف البرجوازيين إلى حد أنهم رفضوا هذا المبدأ في جملته وتفاصيله ذلك لأن الجيش الذي يخدم أفراده مدة قصيرة الأجل لا يمكن الاعتماد عليه بالقدر الكافي، كانوا يريدون قوة بوليسية كبيرة، وبذلك فإن

(*) في الأصل Culminatint in the passive، وقد ترجمت هنا في المعنى الحرفي، وإن كانت في الواقع قد استهدف أن هذا التحول الفكري اندفع اندفاعًا كبيرًا إلى الاتجاه السلبي مغفلًا الانصراف إلى العمل الإيجابي «المترجم».

(١) أوضحت هذه الحقيقة محاكمات «ريوم» التي استمرت من ١٩ من فبراير إلى ٣ من إبريل سنة ١٩٤٢، والتي كشفت عن حقائق تثير الدهشة عن حال الجيش الفرنسي وبخاصة ما كان يحدث من تدخل الساسة في اختيار الأفراد للمراكز الكبيرة المدنية منها والعسكرية على السواء مما أضعف معنويات الأفراد وأخل بالضبط والربط في الجيش، ولم تتوافر لي أي سجلات رسمية عن هذه المحاكمات، والمصدر الرئيسي لمعلوماتي عن هذه المحاكمات رسائل ممثلي الصحافة الأمريكية.

(**) ثيار ـ لويس أدولف ثيار (١٧٩٧ ـ ١٨٧٧) ـ مؤرخ وسياسي فرنسي «معجم» ويبستر طبع نيويورك سنة ١٩٥٦ ص١٥١٤ . (المترجم).

الدفاع عن الوطن والكرامة والدفاع عن الممتلكات كانا يقدمان سياستين مختلفتين بالنسبة للتسليح.

وأخيراً أمكن الوصول سنة ١٨٧٣ إلى حل وسط بتقسيم جملة المجندين سنوياًّ إلى قسمين: أحدهما يعمل أفراده في الجيش لخمس سنوات، والثاني الذي أطلقوا عليه deuxième portion «الجزء أو القسم الثاني» يخدم أفراده في ا لوحدات العسكرية لستة شهور. ولم يمكن بعد سنة ١٨٧٣ فصل السياسة عن التشريع العسكري الفرنسي، وانعكس تقسيم الجيش إلى قسمين: ميليشيا أهلية، وجيش عامل محترف تتوافر لأفراده كفاية ومهارة، انعكس هذا بتقسيم الأمة إلى ملكيين وجمهوريين، ثم إلى راديكاليين ومحافظين، وفي إيجاز إلى يمينيين ويساريين.

وبلغ الصراع السياسي ذروته في قضية دريـڤوس(*) وما بعدها، وطهر الجيش من أشخاص أقوياء كثر الشك في أن لهم اتجاهات رجعية.

«وعاشت جمهورية سنة ١٨٧٥ في رعب ورثته عن حوادث يوم ٢ من ديسمبر سنة ١٨٧١ «الانقلاب الذي قام به القادة ـ الـچنرالات» وظنت الجمهورية أنها قد اقتلعت كل عوامل الضعف من جذورها بعد قضية دريـڤوس ولكن الواقع أنها نجحت فقط بالقدر الذي يمكن أن يقال معه

(*) الفريد دريـڤوس (١٨٥٩ ـ ١٩٣٥) ضابط فرنسي اتهم بالخيانة وعزل وسجن، ثم أطلق سراحه فيما بعد عندما أثبتت إعادة التحقيق أنه كان ضحية مؤامرة، فضلًا عما قيل أن الاضطهاد الديني كان عاملًا فعالًا في قضيته «معجم ويبستر ص٤٤٣».
وقد كتب كثيرون من أعلام الكتاب الفرنسيين عن قضيته ودافعوا عنه، وكانت القوة الدافعة وراء هذه الكتابات كلها راجعة إلى الدين أيضًا «المترجم».

عنه أنها سارت سيراً طيباً[١] إلى حد ما، وفي سنة ١٩٠٥ خفضت مدة الخدمة في الجندية إلى سنتين، وفي سنة ١٩١٣ قامت حركة رجعية تستهدف إطالة مدة الخدمة العسكرية ولكنها كانت حركة موقوتة أوجدتها ظروف ودوافع خارجية.

وقد زاد التشريع العسكري الألماني الذي صدر في فجر تلك السنة من قوة تشكيل الجيش الألماني في وقت السلم ووصل بتعداد ذلك الجيش إلى ثمانمائة ألف مقاتل، ولموازنة هذه الزيادة الألمانية كان على الحكومة الفرنسية أن ترجع إلى جعل الخدمة العسكرية لثلاث سنوات، وذلك بسبب أن قلة نسبة المواليد في فرنسا لم تمدها إلا بنصف العدد الذي يصل لسن الخدمة العسكرية في ألمانيا سنوياً.

وأثارت هذه العودة لإطالة مدة الخدمة اليساريين ليقوموا بجهود جديدة، وفي انتخابات سنة ١٩١٤ سجل الإشتراكيون مزيدًا من أصوات الناخبين ووصلوا مقاعد النيابة وهم يقسمون على ضرورة وضع حل «لحماقة التسليح»[٢].

وفي الحادي عشر من نوفمبر سنة ١٩١٨ التقطوا من جديد خيوط «المسالمة» التي أرغموا على أن يسقطوها من بين أصابعهم عندما بدأت الحرب العالمية الأولى، وطالبوا بالعودة إلى قانون سنة ١٨٧٣ ويتنسيق

---

(١) A. Geraud (Pertinax) (Gamelin)Foreign Affairs, XIX.
٣١٨، (١٩٤٢) وإشارة جيرو إلى (أنها سارت سيرًا طيبًا إلى حد ما) ترجع إلى حقيقة أنه كان هناك النقص الملموس في المواهب وقوة الابتكار في الجيش الفرنسي، فلم «ينتج» يخرج منه غير رجال ضعاف أمثال جاملان.

(٢) L. Souchon, Feue l'armee francaise (Paris, ١٩٢٩), p. ٧٢.

الخدمة لكل أفراد الجيش في نفس الصورة التي كانت تطبق على أفراد الجماعة الثانية أي الخدمة القصيرة لمدة ستة شهور فقط، وكانوا يستمدون الوحي من كتاب زعيمهم چان چوريس «الجيش الجديد» L`armée Nouvelle[*] الذي نشر قبيل قيام الحرب العالمية الأولى والذي طالب فيه بتشكيل ميليشيا أهلية تخدم لمدة ثمانية شهور فقط[١] .

وكما حدث سنة ١٩١٣ سببت الدوافع الخارجية فشل هذه المحاولة لإنشاء جيش قصير مدة الخدمة العسكرية، وجاء الصراع مع ألمانيا على التعويضات وأزمة الرور بمدد لليمينين وأخصائيهم الكولونيل فابري Fabry الذي قام بعرض مشروع الحكومة[٢]، وكان النزاع على وجهتي النظر

(*) چان ليون چوريس (١٨٥٩ ـ ١٩١٤) زعيم اشتراكي فرنسي وكاتب كبير، تولى سنة ١٨٨٣ منصب الأستاذية لتدريس الفلسفة في جامعة تولوز، ولكنه استقال بعد سنتين عند اختياره عضوًا في الجمعية الوطنية، احتضن قضية العمال في اضرابات عمال الفحم والزجاج بمدينة «كارمو» ولفتت وقفته هذه الأنظار إليه مما جعله يتولى زعامة الاشتراكيين في المجلس الوطني سنة ١٨٩٣، وفي سنة ١٩٠٢ عندما أثارت قضية دريـڤوس ضجة كان له دور كبير فيها، له عدة مؤلفات أهمها: «التاريخ الاشتراكي، ١٧٨٩ - ١٩٠٠» الذي طبع سنة ١٩٠١، وفي يوم ١٦ من يوليو سنة ١٩١٤ اقترح في المؤتمر الاشتراكي الذي عقد في باريس القيام باضراب عام لمنع الحرب العالمية الأولى، وقد اغتيل بسبب هذا بأن أطلق عليه مجهول الرصاص في شارع دي كرواسا يوم ٣١ من يوليو «المترجم».

«معجم ويبستر ص٧٨٤». E. Encycl. Vol. vpp. ٧٣٥

(١) ذهب البعض إلى أبعد من هذا مطالبين بنزع السلاح تمامًا، (راجع "Souchon" نفس المرجع ص٧١) أو تخفيض مدة الخدمة إلى ثلاثة شهور مع اطلاق حرية الإحتراف لخدمة طويلة الأجل، راجع كتاب المؤلف العسكري النابه «المقدم: إ. ماير».

Lt. Col. E. Mayer, La guerre d'hier et l'armée demain (Paris, ١٩٢١ Passim).

(٢) General Duval, "La Crise de notre organisation militaire", Revue de Paris, VII ١٩٢٦, ٧٥٩

ويقول دوڤال أنه يرجع إلى موقف فابري عدم الرجوع في سنة ١٩٢١ إلى قانون سنة=

طويلاً ومريرًا، وافق على تخفيض مدة الخدمة في الجندية إلى ثمانية عشر شهرًا[١].

وفي انتخابات سنة ١٩٢٤ فازت التكتلات اليسارية وبدأت حكومة هريو[*] لتوها إعادة النظر في قانون العام السابق، وتقرر ليس فقط تخفيض مدة الخدمة العسكرية بل وإعادة تنظيم العسكرية في فرنسا وتنفيذ مبدأ «الأمة المسلحة» إلى غاية ما لهذا من معنى.

وأعد القوانين المنظمة لتعبئة كل موارد الأمة عندما تضطر للقتال من أجل بقائها.

على أنه بعد مثل هذه المناقشات السياسية العنيفة لم يكن من الممكن إبقاء المناقشات داخل حدود الاعتبارات الخالصة للفن العسكري، ولهذا فإنه لكي نفهم الآراء الأساسية في قوانين سنة ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ يجب أن نقدرها في ضوء التنافس السياسي الطويل الأمد، الذي قام عن المسائل الخاصة بالجيش بين «اليمينيين» و «اليساريين» على أننا يجب أن نذكر بأن

=١٨٧٣ الخاص بتقصير مدة خدمة المجموعة الثانية من الجيش إلى ستة شهور، راجع أيضًا:

"B. A. R." L' armée nouvelle et le service d' une an (Paris, ١٩٢١).

(١) نشر نص القانون وأعيد طبعه بعنوان:

Projet de loi.. sur le recrutement de l'armée préseuté par M. Maginot, ministre de la guerre (Paris, ١٩٢٣).

(*) أورودهريو: كاتب وسياسي فرنسي ولد سنة ١٨٧٢، كان رئيسًا لمجلس الوزراء الفرنسي، تولى رياسة الجمعية الوطنية (١٩٣٦ ـ ١٩٤٠) ثم مرة ثانية سنة ١٩٤٧، انتخب للأكاديمية الفرنسية ١٩٤٦ .
معجم لاروس (١٩٤٧) ص١٤٣٩ .

مبادئ الدفاع القومي كانت في الغالبية تابعة للأيديولوچية السياسية[١].

وكانت قاعدة هذا التشريع الشعور بعنف ومتاعب وصعوبة الخدمة العسكرية بل والتبرم والضيق بالحياة العسكرية في مختلف صورها malaise militaire، هذه المشاعر التي أخذت بخناق الجيش بل والأمة أيضًا، وكان الحديث عنها طابع كل الكتابات العسكرية لذلك العصر كما كانت الموضوع المشترك الذي تداوم الصحف اليومية على مناقشته[٢]، وهنا يجب أن نلاحظ بأن مسببات وعوامل هذا «المرض» معقدة متشابكة ومن ثم يجب بحثها ودراستها في حرص وحيطة وعناية، على أن أحد الأسباب المباشرة كان تضخم الفرنك الفرنسي مما سبب آلياً هبوط قيم مرتبات الضباط والجنود إلى أقل من النصف، وعلى حين كان الموظفون المدنيون في الحكومة يستطيعون الحصول على زيادة مرتباتهم على طريق المطالبة الجماعية، كان ضباط الجيش هم طبقة «المنسيين».

وعندما دعى بوانكاريه سنة ١٩٢٦ لإنقاذ الفرنك، عادت الترتيبات الاقتصادية العامة مرة أخرى فأصابت الجيش في الصميم، وخفض عدد ضباط الجيش إلى خمسة آلاف غالبيتهم في الرتب الكبيرة، ولم تعد من فرصة للترقية، ولم يعد الجيش يستهوي الأجيال الصغيرة السن، وبدأت الأكاديميات العسكرية ومعاهد تدريب الضباط تخرج مادة خام غير جيدة

---

(١) يوجد عرض جيد للصراع السياسي الطويل حول التشريع العسكري في فرنسا في كتاب:

S. C. Davis, The French War Machine (London, ١٩٣٧).

(٢) راجع:

Lieutnant Colonel Reboul, "La malaise de L'armée" Revue de Deux Mondes, (March ١٥, ١٩٢٥), pp. ٣٧٨ - ٣٩٨.

في خضم التنافس للاتجاه نحو صناعة أفضل(١) .

وفيما عدا الصعاب المالية أن انتشرت الثقة بكفاية المعاهدات الدولية مما يمكن من الاحتكام إليها مع الثقة بعصبة الأمم التي وصلت مكانتها في نفس الفترة ـ فترة لوكارنو ـ إلى الذورة، وكان من الصعب في مثل هذا الجو حث النواب على أن يمنحوا أصواتهم لتخصيص مبالغ كبيرة للدفاع سيما وكل التكتلات تتحدث عن عدم قانونية الحرب، وكل الرجال يمجدون قيام الصداقة الدولية بين الأمم من ناحية الشكل إن لم يكن من ناحية الروح(٢) .

وكانت كل الظروف تقف إلى جانب إنشاء ميليشيا يؤدي أفرادها الخدمة لمدة قصيرة، وكان الاتجاه الجديد لإنقاص مدة الخدمة في الجندية قد بات أمرًا حتمياً، بل اتجه كبار ضباط الجيش أنفسهم إلى هذا على أساس أنه

(١) يناقش كتاب:

(General Debeney; Sur la securire militaire de la Françe, Paris, ١٩٣٠)

الموضوع بإفاضة وبخاصة الفصل بعنوان:

(Politique de matériel, Politique des effectives).

وقد حذر من العوامل الاقتصادية الأخري، ويقول المؤلف أنه بسبب أن البنود الخاصة بالأفراد تستهلك ٦٨٪ من الميزانية على حين أن البنود الخاصة بالمواد تستهلك ٣٢٪ فقط فإن الأمر يتطلب دائمًا إعادة النظر في هذه البنود الأولى للوصول إلى المنجم الذهبي الذي بها للإنفاق على الأوجه الأخرى، أي أن يوخذ منها بضغطها ما ينفق منه على المواد والعتاد، ويعتبر هذا الفصل تحليلًا دقيقًا جيدًا لكل التنظيم العسكري.

(٢) وصل الليفتينانت لدريبول في نفس المرجع إلى الخاتمة الطريقة بأن الجيش لا غرض له ولا هدف على نقيض الحال قبل سنة ١٩١٤ عندما كانت هناك قوة دافعة لإعداد الجيش تلك هي الرغبة لاستعادة الألزاس واللورين.

أمر لا مناص منه[١]، ولكن غضبهم كان بلا شك كبيرًا، لأنهم لم يكونوا ليستطيعوا فصل برنامج اليساريين الخاص بفنية تنظيم الجيش، عن الدوافع السياسية التي تخالف في مظهرها واقعية حقيقتها.

* * *

ولقد أحس كبار الضباط بالاتجاهات المضادة للروح العسكرية، كما أحسوا بالمحاولات المتعمدة للتقليل من مكانتهم، ومنذ أن صدر قانون كليمانصو في ١٦ من يونيو سنة ١٩٠٧ والذي قدم كبار الموظفين المدنيين على الرؤساء العسكريين في الاحتفالات الرسمية[٢]، بدأ الضباط العسكريون يتضجرون ويتبرمون، وكانوا يرون شبح چوريه وكليمانصو في كل مكان، ومن ثم راحوا يشكون من أنهم، وهم الذين أنقذوا فرنسا في الحرب كان جزاؤهم جزاء سنمار، هذه التفرقة في المعاملة.

ولكن اليساريين كانوا ينظرون للأمر من زاوية أخرى، ويرون الصورة على نقيض ما يراها فيه العسكريون، كان اليساريون يقولون بأن (الأمة المسلحة) هي التي أنقذت فرنسا، وكانوا يرددون دائمًا كلمات كليمانصو المأثورة من أن الحرب أكثر أهمية من أن تترك للقادة الضباط وحدهم.

والأحقاد المطوية ـ وبخاصة في فرنسا ـ تجد في سهولة ويسر التربة الخصبة للتولد عنها منازعات سياسية تظل قائمة ويكون لها طابع الدوام،

(١) قدم الـچنرال دوڤال ـ الذي كان هو عادة المتحدث الرسمي باسم الجيش والذي كان ذا نفوذ كبير في لجنة الجيش بالمجلس النيابي عن طريق صديقه فابري ـ قدم برنامجًا كاملًا على أساس الخدمة في الجندية لسنة واحدة.

(٢) ديـڤس نفس المرجع ص٨٠ .

ذلك لأنه كان من التقاليد العريقة في القدم أن يكون بين الضباط متحفظون ويمينيون بل وكثيرون من ذوي الأيديولوجيات الإقطاعية ومن ثم كان الضباط الكبار هم الهدف للتهييج الراديكالي.

ولقد نشأ التبرم بالجندية تبعًا للصعاب والمتاعب المتوافرة في الكثير من مناحي الحياة، ولكن كانت سماتها ومدلولاتها: المنازعات السياسية والاتهامات الصحفية والوشايات ثم النزاع بين القادة ـ الذين اتهموا باتجاهاتهم الفاشية ـ وبين الزعماء الراديكاليين الذين كان الأولون يمتهنونهم ويزدرونهم على أساس أنهم يقفون موقف التضاد من الجندية ورجالها وأنهم متطفلون وجهلة وإنهم أعداء فرنسا[١].

وليس بمستغرب في ضوء مثل هذه الظروف أن تستمر الهزة الانفعالية بسبب التشريع العسكري طويلاً وأن تسبب مثل هذا الاضطراب داخل بناء الأمة.

وجاءت إعادة تنظيم قوات فرنسا العسكرية بالفرصة لتبدأ معركة حامية الوطيس بين مبدأين قديمين قدم الحرب نفسها: مبدأ إعداد ميليشيا أهلية من مواطنين أحرار يصل عددهم إلى المليون، ومبدأ قيام قوة مختارة من الجنود المحترفين وأنصاف المحترفين والذين يخدمون في الجندية لمدة طويلة.

---

(١) نجد نقدًا لاذعًا للسياسيين في كتاب الـجنرال هـ. مورداك:

General H. Mordacq

Les Leçons de ١٩١٤ et la prochaine guerre (paris, ١٩٣٤).

Faut- il changer le régime (Paris, ١٩٣٦).

La defénce nationale en danger (Paris, ١٩٣٨).

وكان ماردك خصمًا عنيفًا لليساريين، واتجاهاته أشبه بطوابع الضباط الفرنسيين الذين تتوافر لهم الاتجاهات الفاشية الذين هاجمهم الدفاع في محاكمات ريوم هجومًا عنيفًا.

والتاريخ الفرنسي مليء بالدوافع التي تمكن من أن يستند إليها دعاة كلا المبدأين، نجد من جهة «الجماهير المسلحة» التي جاءت بالمجد والفخار لفرنسا الثورية، ونجد جيش غمبتا[*] Gamboetta الشعبي الذي إنهار أمام الألمان، ولكن من جهة أخرى نجد الجنود المحترفين الذين قادهم نابليون فاكتسحوا كل شيء يسد طريقهم، كما نجد الحرس الإمبراطوري لنابليون الثالث بما كان لجنوده من مظهر تافه خسيس في معركة سيدان[**]، وكانت هناك غير ذلك الأمثلة القائمة وبخاصة التي تكون طرفي النزاع وقطبي الجدل، النظام العسكري الإنجليزي والنظام العسكري السويسري.

ووضح بعد سنة ١٩٢٤ أن لا نهاية للجدل، ثم جاءت مقترحات مضادة من «فابري» و «ديلادييه» وغيرهما فزادت من تعقد المشكلة[١]، وهذه المشكلة المتعددة الزوايا المتباينة الاتجاهات.

(*) غمبتا (١٨٣١ ـ ١٨٨٢): ليون غمبتا، سياسي فرنسي، تولي رياسة الوزارة الفرنسية (١٨٨١ ـ ١٨٨٢) «معجم ويبستر ص٥٩٤».

(**) سيدان: مدينة في شمال شرق فرنسا على نهر الميز، سكانها ١٣.٠٠٠ (إحصاء سنة ١٩٤٥) مسرح معركة هزم فيها الألمان الفرنسيين سنة ١٨٧٠ في الحرب الفرنسية ـ الألمانية «معجم ويبستر ص ١٣١٨». «المترجم».

(١) يمكن أن نجد نقاشًا طيبًا لمختلف وجهات النظر في مقال كاتبه مجهول وقع بإمضاء (xxx)

(XXX) (Noter reorganization militaire), Revue Politique et Parlementaire (September ١٠, ١٩٢٦) pp. ٣٧١ - ٤٠.

وقد طبع اقتراح الحكومة مع عرض للدوافع لما في هذه المقترحات المضادة بعنوان:

Rapport fait au nom de la Commission de l'aumee chargee d'examiner le projet de loi relatif recrutement de l'armée, ed. m. paulBernier (paris, ١٩٢٧).

وجزء هذا التقرير الذي وسم بعنوان: (Conditions Préalabled)

له أهميته الكبيرة بسبب أنه يحتوي على المبادئ الأساسية لتنظيم الجيش الجديد.

على أن العامل الأساسي لإثارة الجدل والنقاش كان الرغبة لتقريب الأمر ما أمكن من الصورة العامة للميليشيا، وكانت النتيجة تخفيض مدة خدمة الجندية إلى سنة واحدة، وقد سبب هذا بالطبيعة تخفيض التأثير الذي يوجده قيام حالة السلم.

وفي مقابل هذا تضاف جماعات من المحترفين إلى جملة المجندين سنوياً والذين يصل عددهم إلى ٢٤٠.٠٠٠ لتكون جملة قوة الجيش الفرنسي ٤٠٠.٠٠٠ وذلك دون احتساب قوات المستعمرات، وقد يبدو هذا في نظرة سطحية على أنه تناقض من اليساريين الذي كانوا يكشفون دائمًا عن كراهيتهم للجنود المحترفين، فكيف يضحون بما عملوا له طويلاً لإنشاء الأمة المسلحة، بإقامة جيش المواطنين الذي يقوم على أساس احتياطي كبير تدربه قوة عاملة صغيرة العدد، ولكن الواقع أن هذا المزج بين الطابعين كان نتيجة الاعتقاد العام بأن الاحتياطي الألماني الذي يصل عدده إلى مائة ألف من المحاربين المحترفين يمكن في أي وقت زيادة عدده بإضافة ١٥٠.٠٠٠ جندي يعملون في خدمة البوليس، بل وأن يصل العدد بإضافة أعضاء منظمات سرية ليكون أربعمائة ألف، ثم جاءت فكرة جديدة لها قوتها وأهميتها هي أن هذه القوة يمكن في أي وقت ـ بعد الإنذار بدقيقة واحدة ـ أن تتجه نحو الحدود الفرنسية تبعًا للنظريات العسكرية التي أوجدها الـچنرال هـ. ڤون سيخت قائد عام القوات الألمانية وصاحب فكرة الحرب البرقية (ataque brusquée)[١].

(١) كانت هذه وجهة النظر الرسمية التي قامت على أساس تقادير الـچنرال نوليه Nollet رئيس لجنة رقابة الحلفاء في ألمانيا والذي وضح نفوذه الكبير على النواب العسكريين الفرنسيين أثناء مناقشة موضوع خط ماچينو، راجع: =

وكرر التاريخ نفسه، ففي سنة ١٩١٣ سبب التسليح الألماني تحول النواب الفرنسيين، ففرضوا الخدمة لثلاث سنوات في القوات المسلحة على الفرنسيين، وفي سنة ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ أتلفت وعطلت الأحوال في ألمانيا، أو بمعنى أدق تفسير القادة العسكريين الفرنسيين لهذه الأحوال، برنامج اليساريين الذي قصد به قيام الجيش الفرنسي على هدي الميليشيا الأهلية السويسرية.

وكانت الدعامة الأساسية التي يستند إليها العسكريون في جدلهم دائمًا، تصوير الغزو الألماني في طابع برقي سريع خاطف ومن هنا يجب أن يتولى الجيش حراسة الحدود في قوة تكفي للتغطية[1]، وعلى حين تبقى هذه القوة العدو مكانه على الحدود تسير عمليات التعبئة في داخلية البلاد دون أي تدخل خارجي، والتعبئة تتطلب الوقت سيما إذا كانت الاستعدادات وقت السلم في مستوى منخفض، وكان النظام الذي استخدمه الألمان سنة ١٨٦٦ ثم قلدته كل الدول العسكرية بعد سنة ١٨٧٠ يقوم على أساس الاحتفاظ بقوات كبيرة تثب إلى مرتب الحرب بضم الاحتياطي إليها في أول مراحل التعبئة ولكن النواب الفرنسيين عارضوا هذا النظام[2]، وكان النظام

= Chambre des Dépatés Débates XXXIX (١٩٢٩), ١٧٢٣

وقد طبع الـجنرال نوليه وجهات نظره فيما بعد في كتاب:

Une expérience de désarmament, Cinque ans des controlé militaire en Allemagne (paris, ١٩٣٢).

(١) General Debeney, "Le probleme de la Couverture", Revue des Deux Mondes, ٨th per. XXXVI (١٩٣٨) ٢٦٨ – ٢٩٤.

(٢) General Brindel, "Le nouvelle de la Couverture", Revue des Deux Mondes, ٧th per. LI (١٩٢٩) ٤٨١ – ٥٠٢.

الجديد الذي قبلوه يحتوي على ثلاثة تشكيلات: قوة دائمة لحراسة الحدود و «تغطيتها»، قوة دائمة أخرى لتدريب وإعداد المجموعات التي تجند سنوياً، ثم تشكيل ثالث دائم لإعداد عمليات التعبئة وليكون الإطار الذي يستكمل عند بدء الحرب بانضمام الاحتياطي إليه، وتتكون التشكيلات من جنود محترفين على درجات مختلفة من التدريب والإعداد.

وفي ضوء هذه العناصر الأساسية للتنظيم العسكري لم يكن في فرنسا جيش في وقت السلم إلى غاية ما يمكن أن تعني كلمة« جيش» في الطابع القديم، كان لديها فقط حرس دائم للحدود يضاف إليه ٢٤٠.٠٠٠ جندي من المجندين الجدد يتدربون على مختلف صور القتال، فإذا ما أتمت مجموعة ما تدريبها انصرف أفرادها إلى الحياة المدنية، وكان التنظيم القديم يقضي بأن يظل مجندو العام السابق في الوحدات لسنة أخرى أو لسنتين وكان هؤلاء هم في الواقع جيش فرنسا في السلم، ولكن ألغي هذا التنظيم، وكان الجيش الفرنسي في الواقع عبارة عن مجموعات في الاحتياطي لو جاز لنا أن نستخدم الاصطلاح القديم؛ ***والواقع*** أن هذا كان في جملته فكرة جديدة، تكوين أمة مسلحة في ضوء التحديدات الجغرافية وغير هذا من الظروف التي تخرج عن سيطرة فرنسا أو بمعنى أدق تبعًا لأوضاع ليس لفرنسا أي يد فيها.

وكان هذا هو التنظيم الذي بدأت فرنسا على أساسه الحرب سنة ١٩٣٩ (!!) بالرغم من أن فرنسا كانت قد عادت سنة ١٩٣٥ إلى نظام مد الخدمة في الجندية لسنتين كبديل معوض لنقص نسبة المواليد في سنوات

الحرب العالمية الأولى[١] .

وقال ناقدو القانون أن الجيش الفرنسي قد تفتت إلى ثلاثة أقسام منفصلة أو ربما إلى أربعة على أساس أن جيش المستعمرات له تنظيمه المستقل ويخدم أفراده لسنتين، وأن إنشاء وحدات منفصلة مع تنظيمات واختصاصات متباينة وسيكون ولا شك تربة ممهدة للتنافر مما يزيد من التبرم الذي سببته السياسة واختلاف الأيديولوچيات، ثم إنه لا يمكن في سنة واحدة أن توجد في الرجال الروح العسكرية الحقيقية وبذلك يكون الجيش قد فقد قوة الضرب التي يجب أن تتوافر له، وكذلك فإن الإصرار على جعل «الدفاع» طابع التنظيم العسكري سيسبب القضاء على روح الابتكار وعلى خاصية الهجوم بل وعلى الرغبة للعمل لنقل المعركة إلى أرض العدو، وفي هذه الحال لن يقوى الجيش على احتمال صدمة طعنة الهجوم البرقي، وهكذا سيستطيع جيش سيخت المدرب على الهجوم البرقي باختراق أرض فرنسا قبل أن يستطيع هذا التنظيم «للأمة المسلحة» أن يبدأ العمل الذي يمكن أن يوكل إليه[٢] .

(١) Marshal Petain, "La sécurité de la France au cours des, années creuses", "Revue des Deux Mondes", ٨th per., XXVI (١٩٣٥) ١ – ٢٠.

وكان هذا المقال من المقالات التي أوصت بها المجلة، وقد ألح الكاتب على ضرورة العودة بالخدمة العسكرية إلى نظام السنتين بسبب أن الهجوم البرقي كان أكثر احتمتالاً مما كان في أي وقت أخر، وقد أثر نقص عدد الموالين تأثيرًا كبيرًا إلى حد أن الماريشال يقول بأن بعض الفرق كانت بها اثنتا عشرة سرية فقط.

(٢) الكتب والدراسات التي كتبت في فرنسا عن الـچنرال سيخت والهجوم البرقي (الخاطف) attaque brusquée وكذلك الإشارة إلى هذه في خطابات أعضاء المجلسين النيابيين الفرنسيين تعتبر كثيرة كثرة تثير الدهشة، والواقع أن محللًا عسكريا انجليزيا هو الميـچر شيبارد Shepperd قد وصل في بحث له بعنوان: "Two Generals, One Doctrine" =

والواقع أن الكثير من نقاط هذا النقاش ليس من السهل نقضها أو رفضها، فإن نقص روح الهجوم لم تكن لتقلق الفرنسيين بسبب أن هذا كان الطابع العام للأمة كلها، كان كل ما يطلبه الفرنسيون هو السلامة والأمن من الهجوم، وكانوا مطمئنين للسلامة والأمن ضد الهجوم ما بقي جيش

=صدر في مجلة Army Quarterly المجلد ٤١ لسنة ١٩٤٠ ص١٠٥ ـ ١١٨ إلى أن ديجول قد أحسن عرض هذا الخط والعمل ضده في كتاب «جيش المستقبل» armée de métier، كما ناقش الـچنرال ديني dehney في مرجعه المشار إليه في حديث طويل كيفية العمل ضد الهجوم المفاجيء، وفي كتاب آخر له هو:

La guerre et les hommes: reflexions d'après guerre (Paris, ١٩٣٢).

في الفصل الخاص بقوة «التغطية» عرض بقدر كبير من النقاش لهذا الخطر، وهكذا أيضًا فعل الـچنرال مورين Maurin في كتابه:

L'armée moderne (Paris, ١٩٣).

والـچنرال شوڤينو Chauvineau في كتابه:

Une invasion, est-elle possible? (Paris, ١٩٣٩).

وكان للرجلين تأثير كبير في الفكر العسكري الفرنسي.

وقد طبعت مقالات وخطابات سيخت عن الحرب البرقية في كتاب:

Gedanken eines Soldaten

صدر ببرلين سنة ١٩٢٩ وصدرت ترجمة له إنجليزية بلندن سنة ١٩٣٠ بعنوان "Thoughts of a Soldier"

وقد زيد من مخاوف «الحرب البرقية» نتيجة لانتشار عقيدة الـچنرال الإيطالي دوهيه عن الحرب الجوية أو على ما أسماها به الألمان

"Schrecklich keltskrieg"

أي «الحرب ا لمليئة بالمخاوف» وقد أجمل الـچنرال ڤوتيير A. Vauthier وهذا في كتابه:

La doctrine de guerre de Général Douhet (Paris, ١٩٣٥).

الكتاب الذي كتب مقدمة الماريشال ببتان وقرأ في نطاق واسع داخل وحدات الجيش الفرنسي.

الاحتلال في أرض الرين، ولكن لما أن انسحب هذا الجيش تبعًا للاتفاقات الدولية فقدت فرنسا هذه الأفضلية الاستراتيـجية، أفضلية قيام قوة للتغطية داخل الأرض التي يتوقع منها الهجوم، ومن ثم كان من الضروري إنشاء تنظيم آخر لتغطية الحدود الفرنسية لضمان الأمن.

وكانت الفكرة أنه مع احتلال فرنسا لأرض الرين فإنها تستطيع أن توفر الوقت الكافي ليبدأ تنظيم «الأمة المسلحة» عمله وليستطيع القيام بدوره وواجبه في تشكيل كامل التعبئة تبعًا لمرتبات الحرب أسوة بالألمان حتى ولو حصل الهجوم البرقي الألماني على بعض النجاح في المراحل الأولية، وكل ما سيحدث لو اضطرت قوات التغطية للتقهقر خسارة أرض ألمانية يحتلها فرنسيون؛ ولكن بعد سنة ١٩٢٩ ضاعت هذه الأفضلية، وفي نفس تلك السنة صوت النواب إلى جانب الاعتمادات الضخمة التي كانت الحكومة تطالب بها منذ سنة ١٩٢٦ لإقامة تحصينات على الحدود الشرقية، وكان هكذا ميلاد خط ماچينو (!!)[١] .

وقد نشأ أصل خط ماچينو من فكرة «التغطية» غير المعروفة في أي جيش آخر في العالم، على أن تقاليد إقامة التحصينات الدائمة أقدم وأقوى في فرنسا منها في أي بلد آخر ويمكن تعقبها إلى أيام ڤوبان[٢]، وجاءت قوى

(١) كانت الأسباب الموضحة فيما قبل هي التي مكثت من صدور كتاب الـچنرال دوبني سنة ١٩٣٠ الكتاب الذي وسم بعنوان:

"Sur la sécurité militaire de la France"

(٢) L. Montighy, "Les systèmes fortifiées dans la défence de la France depuis ٣٠٠ ans"

Revue militaire Frances LVII- VIII (September- December, ١٩٣٥). في مقالات أربعة متتابعة.

راجع الفصل الخاص بـڤوبان والتحصينات الفرنسية في الكتاب الثاني من «رواد الاستراتيـچية الحديثة».

دافعة جديدة بعد سنة ١٨٧٠ فكان أن أقيمت تحصينات كان من أهمها تحصينات ڤردون التي نالت شهرة كبيرة أيام الحرب العالمية الأولى، على أن ڤردون تقدم لنا شيئًا آخر فإن استطاعة تحصينات ڤو Vaux ودومو Douaumont احتمال أعنف تدميرات مدفعية الألمان الثقيلة كانت من أهم العوامل التي سببت الموافقة الأخيرة على إقامة تحصينات كبيرة في نطاق واسع تجاه الحدود المشتركة مع ألمانيا، وقد يكون من الضروري هنا أن نذكر بأنه سبقت هذه الموافقة على الاعتمادات المطلوبة للتحصينات مناقشة طويلة شغلت وقت النواب طوال سنة ١٩٢٩[١] .

والواقع أن القوانين التي صدرت سنة ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ و «تحصينات الحدود الشمالية الشرقية» على ما سمى «خط ماچينو» أصلاً قد نوقشت كلها معًا وكان بول بنليـڤيه[*] وزير الحربية الفرنسية في ذلك الوقت هو الذي احتمل مسئولية الأمرين معًا، إلا أن ماچينو يعتبر صاحب الفضل فقط في موافقة النواب على الاعتمادات الضخمة عندما تولى وزارة الحربية، وقد تسلم من سلفه الخطة والتفاصيل الدقيقة فنفذها[٣] .

---

(١) يبدو ـ على ما جاء في خطاب لبنليـڤيه وزير الحرب في ٤ من مارس سنة ١٩٢٧ بأنه كان هناك خلاف في الرأي أيضًا بين أعضاء «المجلس الأعلى للحرب» راجع: Chambre des Députés, Débats CXXXI٤٨٤

وراجع أيضًا: "Exposée des motifs attached to the bill in Documents CXUI, ٣٦٧.

(*) بول بنليـڤيه عالم من علماء الرياضيات اشتغل بالسياسة (١٨٦٣ ـ ١٩٣٣) ولد بباريس تولى رياسة مجلس الوزراء سنة ١٩١٧ وسنة ١٩٢٥ تولى وزارة الحرب سنة ١٩٢٧ - ١٩٢٨ «معجم لاروس سنة ١٩٤٧ ص ١٥٨٨».

(٣) P. Belperron, Maginlt of the Line (London, ١٩٤٠).

يقول المؤلف في ص٨٣ أن هيريو اقترح سنة ١٩٣٠ أن يطلق على التحصينات «خط بنليـڤين».

وهنا مسألة لها أهميتها، فلقد وضع التخطيط للتحصينات وأعدت الرسوم إلى أدق تفاصيلها وقدرت الاعتمادات وكان هذا كله وبنليـڤيه يتولى وزارة الحربية، والأهمية التي نراها هنا هو أن بنليـڤيه نفسه هو الذي تحدث إلى النواب سنة ١٩١٧ وهو يتولى رياسة الوزارة قائلاً: «لن نقوم اليوم بأي هجوم»[1] وسرعان ما خلفه كليمانصو رئيسًا للوزارة، وكليمانصو من أشياع مبدأ الهجوم فعمل للهجوم وكسب الحرب بمعاونة الإنجليز والأمريكان؛ ولكن عندما عادت الجيوش البريطانية ـ الأمريكية إلى أوطانها عاد الفرنسيون إلى الاتجاه السلبي، هذا الاتجاه الذي أدى لسقوط فرنسا سنة ١٩٤٠، وكان أبرز مظهر لهذا خط ماچينو، الرمز الحقيقي للتحول العميق من جانب الأمة الفرنسية ومشاعرها نحو «العامل الهجومي»

وقد أجمل هذا الـچنرال مورين عندما أدلى وهو وزير الحربية يوم ٣ من مارس سنة ١٩٣٥ في المجلس الوطني:

«كيف يمكن أن يصدق بأننا ما زلنا نفكر في الهجوم ونحن ننفق بلايين الفرنكات في إنشاء حاجز من التحصينات؟ هل نكون إلى هذا الحد من الحماقة لنخرج من وراء هذا الحاجز لنحاول القيام بمخاطرات عسكرية يعلمها الله وحده؟

إنني أقول هنا لأوضح لكم رأي الحكومة ذلك لأن الحكومة ـ على الأقل بالنسبة لي أنا ـ تعرف خطط الحرب جيدًا»[2] .

---

(١) سوشون Sonuchon نفس المرجع ص١٦٨، لخصت المهاجمات ضده في كتاب:

P. Painlevé, De la Science à le Defense nationals (Paris, ١٩٣١) p. ١٢٢.

(٢) Paul Reynaud, le problème militaire française (Pares ١٩٣٧) p. ٢٧.

وهذا الكتاب الصغير مرجع قيم للمعلومات، كما يوجد مجمل طيب عن خرافة خط=

على أن «عقلية ماچينو» لم تكن لتكتمل لولا أسطورة ڤردون التي صيغت طول شخصية الماريشال بيتان، ففي ڤردون أنقذت فرنسا وتكبد العدو ضربة معنوية ساحقة مدمرة، وقد تم كل هذا بوساطة الدفاع، وأمسى بيتان الرمز الحي للدفاع بالرغم من أن بيتان نفسه لم يكن يؤمن إيمانًا مطلقًا بهذا المبدأ من مبادئ الحرب.

ولكن الأساطير الشعبية لا تقوم على التقديرات الفنية الدقيقة[1]، وأوجد الفكر الفرنسي شعورًا مجسمًا كان في نفس الوقت باعثًا للراحة والطمأنينة، فقد صور الحرب العالمية الأولى على أنها عملية دفاع مليئة بالبطولة وجاءت بنصر كامل.

***

وأضعفت عقلية ماچينو السياسة الخارجية الفرنسية، وسببت قيام هتلر، وإعادة تسليح أرض الرين كما جعلت كل الاعتداءات الفرنسية الأخرى ميسورة مستطاعة[2]، وهكذا قد يمكن أن نوجد علاقة عارضة بين

=ماچينو في كتاب:

H. Pol, Suicide of a Democracy (New York, ١٩٤٠), pp. ١٠٦ - ١١٠.

(١) أحسن ج. م. بورچيه J. M. Bourget عرض هذا في دراسة له بعنوان: J. M. Bourget

"La légande de Maréchal pétnin" Revue de paris, January, ١, ١٩٣١

صفحة ٥٧ ـ ٧٠، ويقول الكاتب: أن الأسطورة قد أضعفت ميزة بيتان التاريخية بإغفالها التام للدور الذي قام به بيتان في معركة ڤردون الثانية.

(٢) راجع:

Lieut. Col. Jean Fabry ،(La Stratégie Générale affaire de government) in Revne Militaire Générale I.

لسنة ١٩٣٧ ص٣٨٧ ـ ٣٩٠، ويناقش الكاتب في هذا البحث سياسة الحكومة الضعيفة=

مبدأ الأمة المسلحة الذي أوجد الاندفاع à outrance سنة ١٩٢٧ ـ ١٩٢٨ وبين عقلية التغطية التي أوجدها خط ماچينو وأسطورة ڤردون التي جسمت من «العامل الدفاعي».

وكان مجمل هذا كله اتجاهًا سلبياًّ سيطر على عقل الفرنسيين وبعث فيهم شعورًا كاذبًا بالأمن والسلامة، كما أنه أوجد جوًّا يمكن أن ينتشر به الضعف في كل فروع الجيش الفرنسي، وانتهى الأمر إلى ما وصفه ديجول بأنه: «الشعور الغامض بالعجز ـ نقص القوة»[1] .

=ويبرز أن طابع الجيش الذي نظم في فرنسا لم يسمح بأي عمل سياسي جريء في الوقت الذي أعاد فيه هتلر تسليح أرض الرين.

(١) تنبأ ديجول في مذكرته التي قدمها للقيادة الفرنسية العليا في ٢٦ من يناير سنة ١٩٤٠ باختراق الألمان لخط ماچينو وألح في تشكيل فرق مدرعة.

راجع الأصل الفرنسي للمذكرة مع ترجمة لها بالانجليزية في National Revue العدد ١١٥ لندن سنة ١٩٤٠ ص٣٩٣ ـ ٤٠٥، والكلمات المنقولة هنا من ص ٤٠٠ .

وحياة ديجول العسكرية، والضجة التي أثارها حول كتابه «جيش المستقبل» ثم إيمانه القوي بأفضلية العامل الهجومي، كل هذا في الواقع قليل من كثير مما كان في سلسلة المناقشات العسكرية الفرنسية لمحاولة العودة لتقاليد الهجوم.

على أن أول من كتب بعد الحرب في نقد السياسة السلبية في العقيدة العسكرية كان «المقدم» الليفتينانت كولونيل آليهو في كتابه:

Lt. Col. E. Alléhaut, (Le guerre n' est pas une industrie, Nancy ١٩٢٥).

وكان «آليهو» واحدًا من أكبر دعاة الحرب الهجومية، ولما كان الـچنرال آليهو هو الضابط الفرنسي الوحيد برتبة كبيرة الذي أدرك قيمة ديجول فإنه قد منحه كل معاونة ولكن في نفس الوقت أشار إلى أخطائه بوضوح. راجع كتابه: Etre prèts (Paris, ١٩٣٥) pp. ١٦٧ - ١٧٩

وكان اهتمام الألمان بكتاب الـچنرال اليهو كبيرًا إلى حد أن الـچنرال ليب Leeb كتب مؤلفه الكبير Die Abwehr (Berlin, ١٩٣٨).

ويعتبر تقديرًا كبيرًا لدور ديجول، راجع أيضًا.

H. A. De Weerd, weerd, "De Gaulle As a Soldier" Yale Review XXVII (١٩٤٣) ٧٦٠ - ٧٧٦.

I, obscure sentiment d'impuissance.

ونستطيع بوضع خط ماچينو كقاعدة للدراسة أن تتعقب في سهولة أصل العقيدة العسكرية للاحتمالات المحدودة للحرب، هذه الاحتمالات التي تستند إلى الدفاع والتي على أساسها بدأت فرنسا الحرب سنة ١٩٣٩، متمسكة بها حتى بعد معركة بولندة التي أبرزت القوة التي «للعامل الهجومي» على أننا يجب أن نضع في تقديرنا أن الجيش الفرنسي لم يكن شيئًا غير «الأمة المسلحة» وإن الأمة الفرنسية قد آمنت الإيمان كله بخط ماچينو، ومن الطبيعي أن الجيش كان يعكس وجهة النظر هذه.

وبذلك لا تتوافر له القدرة أو الطاقة للإيمان بعقيدة تتطلب قوة الابتكار أو تؤدي إلى العمل الجريء المليء بالشجاعة والتضحية.

ومن الطبيعي أن عقيدة دفاعية تدفع إلى هذا الحد في عقول الأفراد لا يمكن أن توجد إلا عقلية مضطربة وبطءاً في الحركة ونظامًا فجاً في التموين، بل وفي كل ما يختص بتنسيق أعمال الوحدات.

وقد انعكست هذه الصورة في العقيدة العسكرية التي اتخذت أساسًا للعمل بعد الحرب العالمية الأولى، وقد وصف الروس في سنة ١٩٣٢ هذا الموقف فيما يلي:

«إن غالبية العتاد الفرنسي لا قيمة له، والوحدات بطيئة في تحركات وأعمال المناورة، والقيادة العليا تزعم لنفسها العلم على غير حقيقة، والروح الهجومية التي وقد تكون ما زالت قائمة في بعض الأفراد لا تعتبر كافية»[١].

(١) نشرت مجلة Christian Science Monitor في عددها الصادر بتاريخ ٨ من إبريل سنة ١٩٤٢ هذا الرأي، ونقلته عن المجلة العسكرية الروسية Voyna i Revolucia عندما تحدثت عن محاكمات ريوم.

***

كانت العقيدة العسكرية الفرنسية تقوم على أساس الكلمتين السحريتين «قوة النيران» وهما مجرد تغيير في وجهات النظر التي تستند إلى «العامل الدفاعي»، فإن «قوة النيران» قد بنت كل شيء حول مسألة «الساتر» العامل الحاسم وراء خط ماچينو، وقوة النيران التي توجدها المدفعية تعطي ساترًا من الوقاية للجيش كما أن الحدود المحصنة في الشمال الشرقي يمكن أن تقي الأمة وأن تحميها، ويمكن أن نرجع بأصل هذا الإيمان في قوة النيران إلى الصدمة القاسية نتيجة للخسائر الفادحة التي تكبدها الفرنسيون في معارك سنة ١٩١٤ وتبعًا ـ من جهة أخرى ـ لأسطورة «ڤردون».

وفي سنة ١٩١٤ لم تكن هناك وحدات مدفعية ثقيلة ملحقة بقوات الميدان، على حين كانت قولات المدفعية الألمانية تقف وراء الواحدات الألمانية على أتم استعداد لمعاونة وحدات المدفعية الخفيفة، وكان التأثير المدمر للغلالات الثقيلة التي ألقيت على صفوف الفرنسيين من المدفعية الألمانية هي أول درس تعلمه الفرنسيون عن قوة النيران، وقد دفع الفرنسيون ثمنًا غالياً لهذا الدرس من الأجسام البشرية، ولما كان الفرنسيون يفتقرون إلى الآلات فقد اضطروا إلى سد الثغرات التي تسببها المدفعية الألمانية وأن يسدوها بالرجال[١] .

وعندما جدد الألمان عملياتهم الهجومية الواسعة النطاق في الجبهة الغربية سنة ١٩١٦ تجاه «ڤردون» كانت المدفعية الثقيلة الفرنسية ـ التي

(١) وصف هذا بول بنازيه Paul Bénazet رئيس لجنة الحرب الجوية بمجلس الشيوخ في كتابه.
Défense nationale, notre sécurité (Paris, ١٩٣٨), pp. ١ - ١٥.

كانت لتوها قد نظمت ـ هي التي ردتهم للخلف وأنقذت فرنسا، وكان هذا هو الدرس الثاني الذي يذكره الفرنسيون، بل وأن يجسموا منه ويقدسوه إلى حد أن تنوسيت معارك الدبابات العظيمة التي حدثت سنة ١٩١٨ .

وأضحت «قوة النيران» «تعويذة»[١] لكل جديدة، فالطائرة سلاح يلحق بالمدفعية، والدبابة لا يمكن أن تعمل بعيدًا إلى ما وراء مدى الرؤية لمدفعية السلاح الذي يمد الوحدات «بقوة النيران»[٢]، وتطورت وسائل النقل في تقدمها من حسن إلى أحسن لغرض واحد أن تجيء بالمزيد من الذخيرة وغيرها من المواد لتلعثم هذا العملاق «مولوخ» Moloch[*] الذي لا يشبع ولا يقنع مهما ألقم للإمداد بقوة النيران.

وكانت الفكرة هنا أن قوة النيران تحطم كل ما يمكن أن يستند إليه

---

(١) راجع:

Ph. Barrès, Charles De Gaulle (New Youk, ١٩٤١). pp. ١٢ – ٣١.

وقد عرض السنوات التي قضاها ديجول في كلية الحرب ١٩٢٤ - ١٩٢٦ ويصل الـجنرال مويران Moyrand وهو يلقي بمحاضراته عن «الأرض»، وقد درست المناطق بدقة وقسمت الأرض إلى قسمين ينال كل قسم نصيبه من النيران، وكانت النظرية وراء هذا ضرورة دفع العدو إلى مناطق محددة يعرض فيها لأعنف تدمير، وقد وصل بارس إلى خاتمة توضيح يتقنه بأن هذه النظريات عن الأرض هي التي خرجت منها فكرة خط ماجينو.

(٢) ذكر هذا كبيان رسمي أدلي به الـجنرال م سكايارد مفتش الدبابات أثناء محاكمات ريوم راجع عدد ٢٠ من مارس سنة ١٩٤٢ من جريدة New Youk Sun وكانت الفكرة أنه منذ أن قيدت الدبابات بمدى الرؤية للمدفعية فإنها لم تعط وقودًا لأكثر من عمل خمس ساعات، ومن ثم فقد كانت تقع في أيدي الألمان لافتقارها إلى الوقود لتستطيع الحركة والانسحاب.

(*) كلمة عبرية من Melech أي ملك، ووردت كلمة مولوخ Moloch في العهد القديم على أنها تعني بإله الفينيقيين القدامى الذي كانوا يضحون بالأطفال على مذبحه، واستخدمت استخدامًا حديثًا لتصريف كل ما يتطلب تضحيات كبيرة ولا يقنع بالقليل «معجم ويبستر ص٩٤٨». «المترجم».

العدو لو أراد الانتقال إلى الدفاع وهنا ـ أي في هذه الحال فقط ـ يتحرك المشاة الفرنسيون للقيام بالهجوم.

وقد تَنُوسي مبدأ «الحركة» والمفاجأة، وجمدت العقيدة الفرنسية عند حد إعداد تقديرات حسابية لمعرفة كيفية إعداد كل ياردة مربعة لخداع العدو وتضليله، وإرغامه على النفوذ إلى هذه الأرض حيث يمكن تدميره.

وكانت كلمتا «النيران القاتلة» هما الحكمة المضللة التي اصطنعها الماريشال بيتان، وتحولت هاتان الكلمتان لتكونا «عقيدة» و «مذهباً»[(١)] .

وانتشرت العقيدة في نطاق واسع، ودعم التبشير بها من مكانتها، وبخاصة لأن الدعاة لها كانوا من أعلام الفكر الخبيرين بصناعتهم، فقد كتب الـچنرال شيـڤينو Chauvineau كتابًا عن «النظرية الدفاعية التي تستند لقوة النيران»، ونال الكتاب ذيوعًا كبيرًا بسبب المقدمة القوية التي كتبها له الماريشال بيتان[(٢)] .

(١) هـ. بول نفس المرجع ص١٨٨، يرجع بالنسبة لنظرية «النيران القاتلة» إلى الخطاب الذي ألقاه ديلادييه في ٢ من فبراير سنة ١٩٣٧ في مجلس النواب، ومضبطة المجلس Deputés Débats, CLXI, ٢٩١.
توضح أن ديلادييه نفسه كان موافقًا على هذه النظرية.

(٢) قدم الكثير من نقاط هذه المقدمة في محاكمات ريوم؛ لأن الدفاع قد حول منها لمهاجمة الادعاء، بل وأحيانًا لاتهام بيتان نفسه من زاوية أقل عنفًا، وقد قرأ ديلادية في ١٨ من مارس: «أن العمل المباشر للقوات الجوية في المعركة لمسألة جدلية، فالقوات المقاتلة على الأرض عرضة لتلقي الضربات ولتوجيه الضربات المضادة بدورها، ولكن عمل القوات الجوية كبير الأثر ولا شك في المناطق الخلفية» نيويورك تايمز عدد ١٠ من مارس سنة ١٩٤٢، وكان معني هذا الاعتراض على اعتبار السلاح الجوي سلاحًا حاسمًا، وهذه خطوة قد أبرزها الـچنرال شيـڤينو، والكتاب في جملته مجمل جيد لإيضاح عقيدة الدفاع السلبي التي سيطرت على الفرنسيين وساروا فيها إلى مدى واسع.



موانع مضادة للدبابات

في مطلع الحرب العالمية الثانية

وبسبب أن الكتاب قد أجمل اتجاهات العقلية التي أوجدها خط ماچينو، والعقيدة الدفاعية؛ كما عاون الكتاب أيضًا في تأكيد الخيال الرائع الذي ملأ رؤوس الفرنسيين بإمكان قيام حرب مريحة تفتك النيران فيها بجحافل العدو وتحمي الجيش الفرنسي الذي يكون وراء التحصينات القوة التي لا تقهر.

***

ولكن ما فعلته عقيدة «قوة النيران» وما فعلته أيضًا «العقلية» التي أوجدها مشروع خط ماچينو في الجيش الفرنسي إنما كان في الحقيقة تجميد الدروس التكتيكية والاستراتيـچية التي أمكن الخروج بها والحصول عليها من الحرب العالمية الأولى فضلاً عن قتل قوة الابتكار وملكة التصور وإفساد جهود أولئك الذين يؤمنون «بالعامل الهجومي» والذين يحاولون أن يفعلوا شيئًا، أو بمعنى أدق أن يوجدوا شيئًا من العنصر السلبي الوحيد في العقيدة العسكرية الفرنسية، ألا وهو.. «فكرة مرونة الدفاع»[1] .

---

(١) نشرت مجلة Revue Militaire Générale في عدد سبتمبر سنة ١٩٣٧ مقالًا من قلم الميـچوركريبس Krebs بعنوان (Considération sur l' offensive) - عرض فيها للعمليات الجديدة من استخدام الوحدات الكبيرة.

Instructions sur l'emploi tectique des grandes untitées

مشيرًا إلى قيامها بالهجوم كلما قدم العدو الفرصة المناسبة لهذا، على أن وجود عنصر جيد للهجوم في العقيدة الفرنسية تثبته بعض الكتابات الألمانية كما جاء في مجلة الدبابات الألمانية عدد يوليو سنة ١٩٣٨ بعنوان:

Kraftfahrkamftruppe, "Franzosische Grundsätze uber Verwendung mechanisicrter und motorisierter Einheiten und die Abwehr dagegen"

وقد عرض الكولونيل براون Braun العقد العسكري في عدد ٢٢ من أكتوبر سنة=

ومع هذا فإن الهجوم المضاد مهما أعد بعناية فإنه يتطلب روحًا هجومية قومية تتمشى مع الطبيعة الفرنسية ومع خلق الفرنسيين الاندفاعي، وإن كان هذا سيكون ـ في ضوء العقلية التي أوجدها خط ماچينو ـ في مستوى منخفض ما في هذا من شك.

على أن المجددين النابهين أمثال ديجول والخبير الجوي روجيرون Rougeron والـچنرال ڤيلبري والـچنرال دومنيس ثم المتحدث الرسمي باسم هذه الجماعة في المجلس النيابي بول رينو لم يستطيعوا بكل ما قدموه من نقاط للنقاش وما أثاروه من جدل أن يزحزحوا «حائط الصين العظيم» خطوة واحدة؛ وبقي «العامل الهجومي» شيئًا محرمًا لأن شيـڤينو قد قال وآمن الناس بقوله من أن الهجوم يتطلب أفضلية عددية تصل إلى ثلاثة أضعاف، فضلاً عن أنه في حالات معينة يتطلب التضحية بخسائر فادحة[1].

ووضح بأنه ستحدث في الحرب القادمة ـ لو كان من الضروري أن تجيء ـ خسائر كثيرة بسبب النيران، وسيقيم العدو ركامًا من جثث جنوده أمام المواقع الفرنسية فإذا ما حان الوقت للهجوم المضاد استطاع الفرنسيون أن يحققوا كسبًا هينًا ميسورًا، وقد سببت هذه العقلية الضيقة التي تفكر في حرب رخيصة وفي نصر سهل هين تمهيد الطريق إلى الفشل الذريع والنكبة

=١٩٣٨ في مجلة Miliatarwochenblatt عن العقيدتين الفرنسية والألمانية بالنسبة لاستخدام الدبابات، وانتهي إلى خاتمة طيبة في جانب العقيدة الفرنسية.

(١) General Chauvineau op. cit. pp. ١٣١ ، ١٣٢.

تتضح فكرة الدفاع المرن حتى في كتاب الـچنرال شيـڤينو ولكنه فشل في إبرازها الإبراز الصحيح.

الماحقة، وفي فجر الحرب العالمية الثانية لم تعد فرنسا «دولة عظيمة» ذلك لأن عقليتهم المؤمنة بخط ماچينو قد جعلتهم يهربون من المسئوليات الجسام التي تقع على عاتق الأمة العظيمة.

ـ ٢ ـ

وقد صفِّي الجيش البريطاني إثر الحرب العالمية الأولى بسرعة وتركت فقط قوات هيكلية، وتقبل الرأي العام في الحكومة سياسة تخفيض التسليح إلى أقل ما يمكن وبدئ بتنفيذ هذا في الأسلحة الثلاثة بعامة وفي الجيش بخاصة، وكان خط الدفاع الأول بالنسبة للإنجليز دائمًا هو الأسطول، فلما انتهت الحرب العالمية الأولى احتل السلاح الجوي المركز الثاني، وبقي الجيش الذي يمثل «سندريلا» أسرة القوات المسلحة يحتل المركز الثالث والأخير.

وكان هذا يناقض تمامًا النظام الفرنسي ويرجع هذا إلى أسباب جغرافية، وعلى حين كانت فكرة «الأمة المسلحة» تحتل مكان الصدارة للنقاش في فرنسا فإنها لم تكن لتسترعي الانتباه في بريطانيا التي تتبع تقاليدها القديمة بتكوين جيشها من المحترفين الذين يعملون لمدة طويلة في الوحدات المقاتلة، وكانت بريطانيا لأول مرة في تاريخها قد نفذت نظرية التجنيد للقوات المسلحة أثناء الحرب العالمية الأولى ولكنها أغفلت هذا بسرعة بعد هدنة سنة ١٩١٨؛ بل ولم تجد حتى من الضروري الإبقاء على طابع جيش هالدان Haldane(*)، وعادت الأمور تدريجياً ـ على الأقل من

(*) هالدان، ريتشارد بوردون (١٨٥٦ ـ ١٩٢٨ ڤيسكونت: سياسي بريطاني ومن رجال الفلسفة تولى وزارة المالية ١٩١٢ ـ ١٩١٢٥ ثم سنة ١٩٢٤ «معجم ويبستر ص٦٥٢» ـ «المترجم».

الناحية الروحية إلى النظام الأول[1].

ولم يكن هناك بعد الحرب العالمية الأولى أي احتمال لاستخدام الجيش البريطاني العامل في أي عمليات عدا العمليات الاستعمارية، ففي أوروبا يمكن أن تعمل تجاه أي طارئ عدة قوى: معاهدة الصلح، عصبة الأمم، ثم جيوش فرنسا وحلفائها، ومن جهة أخرى فسيكون واجب الحاميات الفرنسية في المستعمرات البعيدة مجرد كبح جماح أي فورات محلية، أو حماية البلاد من إغارات قبائل الصحراء والجبال، وبعض الكتائب أو الألوية على الأكثر تكفي لمثل هذه العمليات، والأسلحة التي تزيد عن أسلحة المشاة وعن المدفعية الخفيفة لا تصلح للقتال في الجبال العالية أو في الغابات الاستوائية.

فلماذا إذن يحتفظ في أرض الوطن بتشكيل معقد كالنظام الذي يراه هالدان بتسليحه الثقيل؟ فالجيش في أرض الوطن يحتمل فقط واجب التجنيد والتدريب لقوة البوليس الإمبراطوري التي تقوم بحماية بريطانيا، وهكذا تكون العودة إلى تنظيم كاردوِّل Cardwell بإعداد قوة بوليسية يمكن أن تعمل في أي مكان من العالم مسألة منطقية.

وتعلق الجيش بهذا المبدأ حتى بعد أن أثار التسليح السريع للقوات الألمانية فكرة إمكان قيام نزاع أوروبي جديد، وقد جاء في الكراسة البيضاء التي قدمت لمجلس العموم في ٣ من مارس سنة ١٩٣٦ ـ والتي تعتبر أول اقتراح خطير عن التسليح منذ أيام الهدنة ـ قالت بأن الجيش البريطاني قد خفض بمقدار إحدى وعشرين كتيبة عن تشكيله في سنة ١٩١٤، وأضافت

(١) Major E. W. Sheppard, A Short History of the British Army (London, ١٩٤٠), pp. ٣٧٣ – ٣٧٥.

الكراسة:

«وتقترح حكومة جلالة الملك إنشاء أربع كتائب جديدة من المشاة، وتستطيع إلى حد ما هذه الكتائب الأربعة احتمال الصعاب الحالية التي فرضتها علينا سياستنا الإمبريالية»(١).

***

وكان معنى العودة إلى تنظيم كاردوِّل القضاء على فيلق الدبابات، القوة التي كانت فخر الحملة البريطانية في نهاية الحرب العالمية الأولى ورحل جنود معارك الدبابات في سنة ١٩١٨ وجاء رجال جدد ليفعلوا كل ما يستطيعون بالنماذج القديمة، وخفضت التطورات في النماذج الجديدة والإنشاءات إلى مستوى هيكلي وحال نقص الأموال أو الافتقار إليها دون كل صور التقدم والنجاح، ونقرأ:

«في سنة ١٩٣١ خرج إلى الوجود نموذج دبابة متوسطة ولكن حال الكساد المالي والدعوة للمسالمة دون الإنتاج واسع المدى، وعندما تقرر هذا أخيرًا في سنة ١٩٣٦ ثبت أن هذه الدبابة قد باتت من طراز قديم، لقد استمر النقاش وطال وضاع الوقت دون أن تصل الدبابات إلى الجنود»(٢).

---

(١) Accounts and Papers, Cmd, ٥١٠٧, Statement, «Relating Defence» (London, ١٩٣٦), p. ١٠.

(٢) Major E. W. Sheppard, Tanks in the Next War (London, ١٩٣٨), pp. ٧٧ - ٨٠.

وقد سار الميجور چنرال فوللر إلى مدى أبعد من هذا في نقده الذي قدمه في كتابه My Times (London, ١٩٣٥ ص ١٨٠ ـ ١٨٩ مصرحًا بأن الجيش في سنة ١٩٣٣ قد وصل إلى أدني مستواه التكتيكي منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، وأضاف أن أول لواء للدبابات قد ولد في ميزانية الجيش لسنة ١٩٣٤ عندما تعمقت فكرة استخدام الدبابات في الحقول، راجع أيضًا:

Maj. General Ironside, "Lahd War fare" in the Study of War (London And New York, ١٩٢٧), PP. ١١٦ - ١٤٧.

ويشبه هذا مسير التطورات الفرنسية نفسها، صورة متماثلة، ولكن على حين أنه لم يكن في فرنسا في الحقبتين الثالثة والرابعة من القرن العشرين كاتب عسكري يستطيع أن يوجد عقيدة للدبابات، كان في بريطانيا أخصائي نابه في شئون الدبابات قامت حوله مدرسة من مدارس الفكر هو الـچنرال فوللر J.F. C. Fuller رئيس أركان الحرب لفيلق الدبابات الملكي سنة ١٩١٨، فلما أن انتهت الحرب احتمل على عاتقه عبء القيام بدفاع قوي من أجل الاستخدام الآلي.

وبالرغم من السجل الفاخر لفيلق الدبابات البريطاني في الحرب العالمية الأولى فإن الصعاب التي واجهت ميـچور چنرال فوللر كانت كبيرة، إلا أن فوللر مع تصوره الإنشائي ومع قدرته على الكتابة والتحرير استطاع أن يجتذب اهتمام دوائر أكبر وأكثر ببرنامجه، وكان أهم دليل على نجاحه التحول الفكري للكابتن ب. هـ. ليدل هارت الذي كان قد أضحى أقدر كاتب عسكري في بريطانيا[1].

---

(١) في سنة ١٩٢٣ نشر الميـچور چنرال فوللر The Rreformation Of War الذي أوضح النفوذ الكبير في «الميتشيلية» Michellism «والدوهية» Douherism (نسبة إلى ميتشيل ودوهية اللذين تحدثا عن الحرب البحرية والجوية) وقد وقف في كتابه إلى جانب السلاح الجوي كعامل الاحتكام في ميدان المعركة وتنبأ بانتهاء عصر جندي المشاة التقليدي الذي لم يستخدم إلا في الحاميات، وقد نال سلاحه المحبوب «الدبابة» نصيبه من المديح، وقد تصور المؤلف النابه وجود سفن خاصة لنقل الدبابات عبر الماء تنزلها على السواحل في النقاط التي تختار للغزو، وكانت فكرة سخر منها البعض في ذلك الوقت (ولكنها تحققت)، وقد أتبع كتابه هذا بكتاب:

The Foundations of the Science of War (London ١٩٢٦).

ولكي يمكن أن نفهم هذه المدرسة من مدارس الفكر العسكري التي دعيت باسمه يجب أن نقرأ مذكراته التي كتبها بعد تقاعده: =

وكان ليدل هارت أيضًا من جنود الحرب العالمية الأولى وقد خدم برتبة الكابتن (النقيب) في المشاة، وفي سنة ١٩١٨ أوكل إليه مراجعة قانون خدمة الميدان للمشاة في ضوء أحدث تكتيكات جنود العصف الألمان.

وقد ثبت أنه من السهل أن يوفق الـچنرال فوللر بنشر وجهات نظره وسط مثل هذه المجموعة من الضباط الواسعي التفكير أمثال ليدل هارت الذي لم يلبث بعد تحوله إلى العقيدة الجديدة أن بلغ شأو أستاذه في إبراز تخلف الجيش وكنتيجة لجهودهما أدخل لورد ميلن بعض الاصلاحات، ولكن جاءت هذه الاصلاحات في بطء وذلك بسبب ـ على ما يقول ليدل هارت ـ أن رئيس هيئة أركان الحرب الإمبراطورية كان رجلاً شيخًا، فضلاً عن أنه كان استكلندياً، وكبر السن وكونه استكلندياً «مقتراً» يعتبران عاملين يعطلان كل سياسة تقدمية تستهدف الكثير من النفقات[1] .

= The Army in my Times (London, ١٩٣٥):

Mamories of an Unconventional Soldier(London, ١٩٣٦).

(١) راجع مقال ليدل هارت: The New British Dectorine of Mechanized War

في العدد ٤٩ (١٩٢٩) من مجلة English Review

العدد ٢٩ لسنة ١٩٢٩ ص٦٠٨ ـ ٧٠١ وكذلك في كتابه:

The Remaking of Modern Armies.

طبع لندن سنة ١٩٢٧، أما بالنسبة لأعمال الإدارة في عهد لورد ميلن فيرجع إلى:

"Seven Years: The Regime of Field Marshal Milne" English Reviw LVI (١٩٣٣).

بقلم ليدل هارت وكذلك في مقال آخر له بعنوان:

"Grave Deficiencies of the Army " English Review LVI (Feb. ١٩٣٣) ١٤٧ - ١٥١.

ويشير ليدل هارت إلى أن الاستخدام الآلي في أسلحة الجيش قد سار ببطء كبير؛ ذلك لأنه لم تكن هناك غير أربع كتائب دبابات مقابل، ١٣٢ كتيبة مشاة، وبذلك غاب عنصر «خفة الحركة»، كما كان النقص واضحًا في وحدات المدفعية.

وحتى سنة ١٩٣٠ كان الموقف في السلاح الجوي يعكس نفس العقلية ونفس الظروف التي تعرض لها فيلق الدبابات بالرغم من أن السلاح الجوي تبعًا ـ لكونه سلاحًا مستقلاًّ ـ كان يحتل المكان الثاني بعد الأسطول، ولكن الميزانية الكبيرة التي طلبت له لم تحظ سنة ١٩٢٣ بموافقة على أدنى مستوى في أقل ما يمكن من النفقات، وحتى هذه عطلت فيما بعد[١].

وحدث بالنسبة «للطائرة» ما حدث من قبل بالنسبة «للدبابة»؛ فقد ضحى بصنع طائرات جديدة طبقًا لنماذج حديثة، كما ضحى بتشكيل السلاح الجوي تبعًا لتنظيم مستحدث، وضحى بهذا وذاك على مذبح التفكير في المسالمة والظن بأن الأمم ستنصرف إلى العمل للسلم، وتبعًا للاهتمام بنزع السلاح، ومر وقت قبل أن يستفيق الإنجليز من أحلامهم فيما يتعلق «بالأمن الجماعي»، والاطمئنان إلى إمكان الاحتكام إلى القانون في المنازعات الدولية، وجاءت هذه اليقظة بسبب سياسة هتلر العدوانية وعدم احترامه للمواثيق الدولية[٢].

---

(١) Accounts And Papers, "Memorandum By The Secretary for Air. to Accompany the Estimates" (London Jan. ١١, ١٩٣٤) Statement Relating to Defense Issued in Connection With the House of Commons Debate (London, March, ١٩٣٥).

(٢) أفضل كتاب لإيضاح تأثير مؤتمر نزع السلاح على سير عمليات التسليح في بريطانيا هو:
J. F. Kenndy, Why Englad Slept (New York, ١٩٤٠).
ويشير كنيدي إلى فقرة نقلها من مذكرة وزير الطيران البريطاني جاء فيها: «وهذه التقديرات للميزانية هي في خطوط عريضة نتيجة رغبتنا في متابعة السير في التسليح ونتيجة لدراستنا للاقتصاد من جهة، وهي من جهة أخري توضح أن سياسة تأجيل برنامج سنة ١٩٢٢ لا يمكن أن يستمر»، راجع أيضًا كتابي:
=R. A. Chaput, Disarmament in British Foreign Policy (London, ١٩٣٥)

على أننا في مقارنتنا هذه الحال في بريطانيا بالاتجاهات العامة في فرنسا يجب أن نلاحظ بأنه لم يكن من وجود في بريطانيا جملة للجرأة السياسية وبخاصة بالنسبة للتسليح أو للتشريع العسكري بالرغم من النقد الذي وجه للجيش على أساس بقاء نظام «التمييز» الأفضلية لبعض الطبقات[1]، ولكن مهما كان الموقف في بريطانيا فإنه لا يمكن أن يقارن بحال ما بالمنازعات البرلمانية في فرنسا والتي جعلت من الجيش كرة تتبادلها الأرجل

= A. Wolfers, Britain and France between Two Wars, (New York, ١٩٤٠).

«ويلاحظ أن كتاب الرئيس جون فيتزجرالد كنيدي، كتب أصلًا كرسالة الماجستير في العلوم السياسية لجامعة هارڤارد بإشراف الأستاذين بروث هوبر وبايسون وايلد وكانت بعنوان «تهدئة ميونيخ»، وكانت رسالة متزنة متماسكة مليئة بالإحصائيات والهوامش ضعيفة فقط في بناء الجمل وفي هجاء بعض الكلمات، وطبعت الكتاب شركة ويلـڤرد ڤونك بعد أن رفضت شركة هاربر طبعه على أساس أنه بعد سقوط فرنسا لم يعد له من مكان في سوق الكتب، وكان الذي اقترح عنوانه (عندما نامت بريطانيا) هوارثر كروك، وبيع من الكتاب أربعون ألف نسخة في الولايات المتحدة وعدد مماثل في انجلترا». «المترجم».

(١) راجع:

L. Clive, The pepole's army (London, ١٩٣٥).

كتب مقدمته الميـجور. C. Attlee وكذلك المقالات عن التسليح التي نشرت في المجلة الشهرية Labour عددي إبريل ومايو سنة ١٩٣٧ .

راجع أيضًا:

Lord J. M. Stabolgi, New Ward (London, ١٩٣٠).

وقد كتب سترابولـجي بعد ذلك مقالًا في مجلة Collier عدد ٢٢ من أغسطس سنة ١٩٤٢ بعنوان:

"What's Wrong with the British Army".

كرر فيه اتهامه للنظام الطبقي وحكم الصفوة في الجيش، وبسبب هذا المقال هوجم بلا رحمة في مجلس اللوردات بوساطة لورد لوڤات يوم أول أكتوبر سنة ١٩٤٢ راجع:

New Youk Times, October ٢, ١٩٤٢.

في حلبة الصراع السياسي.

والواقع أن تعطل بريطانيا عن مماشاة التطورات الحديثة في التسليح إنما يرجع إلى أسباب أخرى وإن كان من الممكن في بعض الأحوال المعينة أن نجد بأن الإهمال الكامل للآلينةفي بريطانيا يرجع إلى عقلية تماثل العقلية العسكرية في فرنسا(١) .

وأول هذه الأسباب: «الكساد العظيم» الذي أثر تأثيرًا مباشرًا في المالية البريطانية وفي أعقاب الحرب مباشرة، على حين أنه وضح في فرنسا في تاريخ متأخر وجاء في صورة معتدلة.

وثانيها: أن حكومة العمال لم تكن تستطيع أن تهمل الشعور العام في بريطانيا نحو المسالمة، وهو شعور كان له طابع الأيديولوچية المتعمقة في النفوس، ولم يكن من المنطق أن تبشر بريطانيا بالسلم في مؤتمر نزع السلاح بچنيف على حين أنها توقف جزءًا كبيرًا من ميزانيتها لعتاد الحرب، ولم يكن أمام حكومة بلدوين إلا أن تنتظر حتى يتحول الجو السيكولوچي ليكون صالحًا لبدء عمليات التسليح، ولم يكن أمام بلدوين تبعًا لتعديل نظام الضرائب إلا أن يترك مشكلة التسليح في الجانب الخلفي بالنسبة لمشروعاته الأخرى، وذلك بالرغم من تصريحه يوم ٢٠ من يوليو سنة ١٩٣٤ بأن حدود بريطانيا الشرقية تقع على نهر الرين(٢) .

وقد بدأ الجهد الأول للعودة للتسليح في سنة ١٩٣٦ وذلك لسببين: أولهما أنه في تلك السنة بدأ تنفيذ المادة التي تنظم نسبة القوى البحرية للدول

---

(١) يوجد نقد دقيق يستند إلى وثائق لها أهميتها في كتاب:

J. R. Kennedy: Modern Wars and Defence Reconstruction (London, ١٩٣٦).

(٢) J. F. Kennedy, op. cit., p. ٧٢.

الكبرى تبعًا لمؤتمر نزع السلاح البحري الذي كان قد عقد بلندن، وثانيهما بسبب تنكر هتلر لمعاهدات لوكارنو ولتسليحه منطقة الرين.

ولكن مع هذا فقد كان للأسطول النصيب الأول وشكلت لجنة لبحث مدى تطور المنافسة بين البارجة وقاذفة القنابل، ومدة تعرض البوارج لقنابل القاذفات، وذلك بسبب النقاش الذي ملأ صفحات المجلات العسكرية والبحرية منذ أن كتب الـچنرال وليم ميتشل عن «غرق السفينة التي قيل أنه لا تغرق»، عن غرق السفينة «أوستفريزلاند» Ostfriesland لخارج رأس ڤيرچينيا بسبب إسقاط بعض القنابل عليها وعلى مقربة منها من الجو.

وقد لا تكون بنا حاجة هنا لنذكرأنه هذه اللجنة قد انتهت إلى ما انتهت إليه اللجان التي شكلت في الولايات المتحدة بأمر الرؤساء كوليدج وهوڤر وروزفلت من أن الأدلة التي يمكن الوصول إليها لا تمكن من التباعد عن المبادئ الأصلية الحالية في الحرب البحرية.

وعلى أية حال فقد انتهى الرأي «الحكم» بأنه ما دامت الدول الكبرى لا تزال تبني البوارج الكبيرة فليس لبريطانيا إلا أن تتبع نفس السبيل، ويعتبر هذا عذرًا مريحًا لعقلية عسكرية تواقة لتجنب المسئولية.

وسيطرت أسطورة «قوة النيران» على عقول أميرالات البحر الإنجليز كما سيطرت على عقول الـچنرالات الفرنسيين وكان الخلاف في التطبيق وحده، فعلى حين طبقها الفرنسيون «في البر» استخدمها الإنجليز «في البحر» وذلك بسبب أن التقاليد البحرية تسود الفكر الإنجليزي بدرجة أكبر، وكان تأثير هذا على الاستحداث في طوابع التسليح تأثيرًا مدمرًا كما

كان له نفس التأثير على الجيش الفرنسي[١].

(١) نشرت إجراءات هذه اللجنة الخاصة في نشرة الوثائق الرسمية Cmd. ٥٣٠١ ثم عولجت في إفاضة في العدد ٨٢ لسنة ١٩٣٧ من مجلة RUSI.

Royal United Service Institution Quarterly.

ص٤٠٩ ـ ٤١٤، ويناقش مقال:

Rea Admiral H. G. Thursueld "Battleshipe" National Review, CXV (١٩٤٠).

بحوث اللجنة الخاصة، ويقول بأن هناك عددًا كبيرًا من التصريحات الرسمية الخاصة بتحديد عدد ـ إن لم يكن بإلغاء ـ البوارج إلى حد أن الرأي العام قد بدا يصدق هذه التصريحات.

ويقول نفس الكاتب عن اللجنة في مقاله

="Sea and Air" National Review.

=العدد ١٢٧ لسنة ١٩٤١ ص٢٨٥ ـ ٢٩٤ أنها بعد أن استمرت منعقدة أربعة شهور لم تستطع أن تنشر كل إجراءاتها بسبب أن في هذه الإجراءات بعض الأسرار التي تمس السلاحين البحري والجوي، وتعتبر توضيحات

B. Acworth.

أحد المتحدثين باسم الأسطول ومؤلف عدد كبير من المؤلفات ذات أهمية في الموضوع، وقد قدمها في كتابه:

Britain In Danger (London, ١٩٣٧).

وصرح فيها بأن لدي الأسطول إجابة على هذه المسائل، فإنهم في تقديرهم للتهديد الكبير الذي للطائرة يخطون خطي واسعة لزيادة أمن وسلامة السفن، على أن رجال الأسطول فيما بينهم ـ لكي يحولوا دو تحول كل الاعتمادات من الأسطول إلى السلاح الجوي ـ وافقوا على أنه من الأصح تخفيض مساحة وحمولة السفن من ١٦٪ إلى ٢٠٪ مستخدمين ما يُدخر لصنع الطائرات ومن صنع المدافع المضادة للطائرات.

على أننا نجد نقدًا عنيفًا ضد الحكومة لموقفها من النزاع بين الطائرات والسفن في مقال:

"Arms, Money and Muddle" Observer, March ٣, ١٩٢٩.

في هذا المقال يكشف J. L. Garvin عن النزاع بين مصالح الحكومة على الاعتمادات المخصصة للدفاع، وقد نقل P. R. C. Groves في كتابه:

فإذا ما قارنا بين الأسلحة وجدنا أن السلاح الجوي قد تلقى من العناية والاهتمام المركز الثاني بعد البوارج عندما بدأت بريطانيا التسلح بعد سنة ١٩٣٦، وفي تلك الفترة بدئ في تطور نماذج الطائرة سبتفاير وهيريكين، وإن كان صنع الطائرات على نطاق واسع قد تعطل[١] .

على أنه من جهة أخرى فإن فيلق الدبابات لم يحقق تقدمًا فقد كان الجيش ينظر نظرة عدائية نحو «الاستخدام الآلي» في الطابع «الميكانيكي» الذي دعا إليه فوللر، فلقد نقل فوللر الأخصائي الأشهر في شئون الدبابات للتقاعد دون أي اهتمام بمقترحاته القيمة.

والواقع أن ـ حظ ـ فوللر كان شديد الشبه بجد ديجول، ففي سنة ١٩٣٧ ـ السنة التي فاق اهتمام الجيش البريطاني بالتسليح أي اهتمام سابق لهذا ـ كان فوللر في التقاعد منذ خمس سنوات ومع هذا فقد كتب:

Lectures on Field Service Regulations III:

[٢]Operations between Mechanized Forces

وقد صدر هذا الكتاب بالإنجليزية في طبعة عدد نسخها خمسمائة نسخة، ولكن الكتاب ترجم إلى الألمانية وإلى الروسية ووزعت منه آلاف النسخ في الجيشين الروسي والألماني، وإن كان الألمان في الواقع لم يطبقوا ما

"Behind the Smoke Screen".

طبع لندن ١٩٣٤ ص٢٣٨ ـ ٢٤٥ وقد قال «جارڤين» أن ميزانية سنة ١٩٢٩ وجهت ٥٧٪ للأسطول و ٣١٪ للجيش و ١٢ ٪ فقط للسلاح الجوي.

(١) في سنة ١٩٣٧ خرجت إلى الضوء عدة نماذج جديدة من صنع شركة Sydhey Camm. الذي كان قد صنع النموذجين السالفين ولكنهما لم توضع موضع الانتاج راجع جريدة نيويورك تايمز عدد ٣ من اكتوبر ١٩٤٢ ص٥ .

(٢) London, ١٩٣٧.

جاء فيه لأنهم وجدوا نظام ديجول أكثر كفاية ودقة، إلا أن الروس على ما يبدو وقد اعتبروا كتاب فوللر أفضل وأصلح لتكتيكاتهم، وقد كتب أحد أفراد مدرسة فوللر عن محاضراته Fullers Lectures on F. S. R. III ما يلي:

«وأعتقد أن هذا الكتاب أفضل دراسة عسكرية يتضح فيها بعد النظر كتبت لتفهيم الإنجليز طبيعة حرب المستقبل بين الجيوش الميكانيكية، ولكن الكتاب لم يحقق هدفه بسبب أن الإنجليز لن يقرأوها، على حين أن ثلاثين ألف نسخة قد وزعت في الجيش الألماني، وقد نال الكتاب ذيوعًا واسعًا بين قوات الاتحاد السوفيتي، ولو كان قانون خدمة الميدان الجزء الثالث قد نال في البلاد الديمقراطية والبلاد الطغوائية ما ناله من تقرير في ألمانيا النازية لما كانت الحرب الحالية ـ الحرب العالمية الثانية ـ قد قامت»[١].

* * *

على أنه لأسباب لا تزال غامضة (ولن تتضح إلا عندما يمكن فحص أوراق وسجلات وزارة الحرب طوال تولي مستر هور بليشا لها) رفض الجيش البريطاني نظرية الاستخدام الميكانيكي مفضلاً توجيه العناية كلها بحاملات الرشاشات أي العربات المدرعة ذات الجنزير الخفيفة الحركة والتي تحمل «رشاش آلي» خفيف، ولا شك أن قوة الضرب لهذه الحمالات كانت قليلة، إلا أن هذا قد عوضت منه خفة الحركة الكبيرة التي توافرت لها، ولكن في مقابل هذا كانت الدبابات الثقيلة لفرق البانزر الألمانية أكثر

(١) S. L. A. Marshall, Armies on Wheels (New York, ١٩٤١) P. ١١.

راجع أيضًا تعليقات فوللر على حفاوة الكتاب بكتابه قانون خدمة الميدان في كتابه:

Memoirs of an Unconventional Soldier PP. ٤٠٠ - ٤٩٤.

سرعة وأقوى ضربات. وهكذا كان الطريق إلى دنكرك قد مهد تمامًا.

ولكن المشكلة الكبرى لم تكن المعدات الفنية بقدر ما كانت حجم الجيش الذي يجب أن يرسل إلى أوروبا فيما لو اضطرب السلم وقامت الحرب من جديد، وكانت هذه المشكلة مثار اهتمام وعناية الجميع ولم يكن من مكان للتساؤل عن اتجاهات غالبية الإنجليز، كانوا جميعًا ضد فكرة تكوين جيش كبير العدد، واستمرت هذه المعارضة حتى بعد ميونيخ عندما قررت الحكومة أخيرًا في ربيع سنة ١٩٣٩ العودة إلى نظام التجميد في نطاق محدود جدًّا وترجع أسباب هذه الاتجاهات إلى أن بريطانيا أرسلت قوات كبيرة جدًّا إلى القارة في الحرب العالمية الأولى ثم عاد الناس تاركين وراءهم ستمائة ألف قتيل إنجليزي في المقابر العسكرية بفرنسا، وفي كل مناقشة عرضت لتعداد الحملة العسكرية التي يمكن أن ترسل لفرنسا مستقبلاً كان الناس يشيرون إلى الخسائر التي تكبدتها بريطانيا في معارك شتاء سنة ١٩١٧، وباتت باشنديل(*) رمزًا لهذه التضحية الكبيرة التي تثير الأحزان في القلوب.

وفي سنة ١٩٣٦ عندما كانت المناقشات محتدمة حول التسليح أعلنت مجلة «رويال يونيتد سيرفس انستيوشن» الربع سنوية أن «تعداد الجيش البريطاني الذي يمكن أن يرسل إلى أوروبا مستقبلاً» هو موضوع المسابقة للحصول على ميداليتها الذهبية، وقد منحت الجائزة للكابتن سليسور J. C.

(*) باشنديل Passchendaele: كانت هضبة باشنديل المرتفعة مسرح عمليات أغسطس وسبتمبر سنة ١٩١٧ العنيفة، وقد أمكن استعادتها من الألمان ولكن بخسائر فادحة، ومع هذا فقد ظهر أنه لن يمكن الوصول إلى النصر إلا بمثل هذا الجهد الكبير وهذه الخسائر الفادحة. «المترجم».

Slessor الذي اقترح أن يكون الجيش صغير العدد.

وأن يتكون من نخبة من المحترفين الجيدي التدريب، وأن يكون الجيش «ميكانيكياً» في جملته، وقد أشار المؤلف كما أشارت المجلة العسكرية إلى أن الرأي العام البريطاني يعارض فكرة تكوين جيش كبير العدد، ولقي «جيش الميدالية الذهبية» تقديرًا شعبياً واسع النطاق وحظي بموافقة الكثيرين من الكتاب العسكريين، فكان هذا دليلاً واضحًا على اتجاه الفكر الاستراتيـجـي[1].

وفي ٢٥و٢٦و٢٧ من أكتوبر سنة ١٩٣٧ نشر ليدل هارت ـ باعتباره المراسل العسكري لجريدة التيمس ـ سلسلة من المقالات اقترح فيها أن

---

(١) العدد ٨٢ لسنة ١٩٣٧ الصفحات ٤٦٣ ـ ٤٨٤ وقد لقي الكبتن سليسور موافقة الكاتب الكبير ميـجور شبيرد في مقاله:"Does Defence Means Defeat?"
في العدد ٨٣ من مجلة اليونيتد سيرفس لسنة ١٩٣٨ ص٢٩١ ـ ٢٩٨ وكذلك في مقال:
Capt. H. M. Curteis "The Doctrine of Limited Liability".
٨٣ لسنة ١٩٣٨ ص٦٩٥ – ٧٠١، ولكنه قوبل بنقد عنيف في مقال:
V. W. Germains "The Army in War" National Review CXII (١٩٣٩).
وكان الكبتن سيلسور يعمل مدرسًا بكلية أركان الحرب بكمبرلي وقد طبعت محاضراته عن «العقيدة الجوية» في المدة من ١٩٣١ ـ ١٩٤٣ في كتاب بعنوان:
Air Power and Armies (London, ١٩٣٦).
وقد وقف إلى جانب عقيدة عسكرية تقضي بالتعاون بين القوة الجوية والقوات البرية، وكانت وجهات نظره قريبة جدًا من أساليب الحرب البرقية، ولو كان السلاح الجوي البريطاني قد عمل تبعًا لهذه الأصول في فرنسا سنة ١٩٤٠ لكان الدفاع الألماني قد انتهي إلى نتائج تخالف ما حدث فعلًا، ولكن آراء سيلوسر قد أغفلت كآراء غيره، وعاد سيلوسر فكرر آراءه في الموضوع الذي نال الجائزة الذهبية، وقد نشرت مجلة يونيتدسيرفس في المجلد ٨٢ لسنة ١٩٣٧ ص٢٨٠ ـ ٣٠٢ بعنوان Mechanization أعاد فيها Colonel C. Q. Martelh محاضرة كان قد ألقاها أمام عدد كبير من الضباط كان بينهم الـچنرال ويـڤل الذي عضد آراء مارتل.

تتقبل بريطانيا نظرية «الطاقة العسكرية المحدودة» في تعهداتها العسكرية، وأن ترجع إلى سياستها التقليدية للحرب الاقتصادية والحصار البحري الذي يتفق مع أسطولها القوي ومع مواردها غير المحدودة من إمبراطوريتها، وقد وقف ليدل هارت في مقالاته إلى جانب الاستراتيچية الدفاعية على أساس أنها أصلح لبريطانيا وتبعًا للأفضلية العظمى التي للدفاع على الهجوم، ثم إنها يمكن أن تجيء بنتائج طيبة في المدى الطويل كما أشار ليدل هارت إلى أن القوات البريطانية التي ترسل إلى فرنسا تكون قليلة العدد، ولما كان خط ماچينو والحاميات الفرنسية فيه ستمكن من وقف العدو فإن القوة البريطانية يجب أن تترك في الخلف كاحتياطي استراتيچي خفيف الحركة[1].

وسرعان ما حظيت هذه المقالات باهتمام القراء والنقاد وباتت هدفًا لنقاش جدلي لا نهاية له خارج بريطانيا، ووصل جريدة التيمس رد من الـچنرال باراتيير Baratier الفرنسي محتجًّا في اتزان على هذا الاتجاه من بريطانيا «والذي تلقى نتيجة له ثقل الحرب دائمًا على حلفائها، وهو أمر لا يمكن أن يكون صوابًا لو هاجمت ألمانيا فرنسا، ذلك لأن ألمانيا ستثير حربًا طغوائية يجب أن تلقى فيها فرنسا وانجلترا ـ حتى لا تتحطما ـ بكل ما يتوافر لهما من موارد في البر والبحر والجو»[2].

وقامت كذلك حركة واسعة من جانب الكتاب الإنجليز وقد رفضت

(١) أجمل فيها بعد كل وجهات نظره في كتاب بعنوان:

The Defense of Britain (Nwe York, ١٩٣٩).

ويعتبر الكتاب دراسة مركزة تعضد عقيدة الطاقة المحدودة وتعتبر إلى حد بعيد مسئولة عن دنكرنك.

(٢) Le Temps, Jan., ٤, ١٩٣٨) republished in Army Quarterly XXXVI (١٩٣٨), ١٢٣ – ١٢٧.

مجلة آرمي كوورترلي Army Quarterly تقبل عقيدة «الدفاع»، وقد أوضح تحرير المجلة هذا الرفض في مقال افتتاحي ثم فتحت الجريدة صفحاتها لنقد وجهات نظر ليدل هارت[١].

وكان من أقوى نقاد ليدل هارت الـچنرال هـ. رووان ـ روبنسون H. Rowan- Robinson وهو أحد أنصار مدرسة فوللر وله عدة مؤلفات عسكرية قيمة[٢] أوضحت دقة تقديره وصواب آرائه كما أوضحت سعة أفقه فإن وجهات نظره لم تقف عند حد سواحل المملكة المتحدة، بل امتدت لمعالجة كل مشكلات الدفاع عن الإمبراطورية.

وقد تنبأ الـچنرال روبنسون بالتهديد الذي ستسببه الطائرة، وألح بضرورة وضع برنامج واسع لحماية خطوط المواصلات بين هنج كنج وجبل طارق، وهو كرجل نشأ في سلاح المدفعية فإنه قد وضع كل ثقته في قوة

---

(١) Arm Quarrterly XXXVI (١٩٣٨), ٢٠٠ - ٢٠٢ وسيشار للمجلة بعد هذا بالحرفين A. Q، ولم تكن مقالات الـچنرال باراتييه هي المقالات الوحيدة التي جاءت في الرد على مقالات جريدة التايمس اللندنية من خارج بريطانيا فإن مجلة «انفنتري چورنال» الأمريكية ناقشت هذه المقالات في العدد الخامس من المجلد الحادي عشر ص ١٧٤ ـ ١٧٥، وفي العدد السابع المجلد الحادي عشر (١٩٣٨) ص٩٨ ـ ١١٢، وكتب الكاتب العسكري الأمريكي المعروف الكولونيل أ. ك. فيليبس مقالًا بعنوان "Attack and Defense" فضل فيه الهجوم على الدفاع، ودافع بقوة عن رأيه هذا، كما أن مجلة:

=Command and Geueral Staff School Quarterly.

=ناقشتها في عرضها لدراسات الدوريات العسكرية الأجنبية، ونشرت التيمس اللندنية في عدد ٢٩ من أكتوبر سنة ١٩٣٨ رسالة من السير فردريك موريس جاء فيها «وعلينا أن نرسل جيشًا إلى حليفتنا، ولن نكون أحرارًا في اختيار تكتيكاتنا».

(٢) أهم مؤلفاته:

Imperial Defense: a Problem in Four Dimensions (London, ١٩٣٨).

النيران المصحوبة بخفة حركة في مستوى عال أي في «الدبابة»، وقد رفض عقله النشط ـ الذي يتمشى مع اتجاهات مدرسة فوللر ـ مقترحات ليدل هارت عن الحرب السلبية وتجنب الهجوم.

وقال روبنسون: أن مقترحات ليدل هارت ليست عسكرية الطابع ولا بريطانية الصورة، وذكر ليدل هارت بأن الإمبراطورية لم تتكون بالطاقة والإمكانيات المحدودتين.

ومع هذا فإن روبنسون كنصير من أنصار الاستخدام الميكانيكي في أسلحة الجيش فإنه طالب بضرورة الاهتمام «بالنوع» على حساب «الكم»(١).

ونشرت «آرمي كوورترلي» أيضًا مقالاً من قلم الميجور شبرد(٢) V. W. Sheppard كانت الخاتمة التي انتهى إليها في مقاله بأن بريطانيا لا تستطيع القيام بحرب هجومية بسبب عدم كفاية مواردها:

«وفي الحقيقة أن الهجوم كان دائمًا ـ ثم هو على وجه التحقيق اليوم أكثر مما كان في أي وقت آخر ـ من الصعب تنفيذه بنجاح بثمن بخس ـ أي بخسائر قليلة ـ بل إنه لا يمكن تنفيذه إلا بالاستناد إلى بعض العوامل

---

(١) Defense or Attack, A. Q XXXV (١٩٣٨), ٢٧٧ – ٢٩١.

ويلاحظ أنه قبل قيام هذا النقاش الواسع النطاق بسبب مقالات جريدة التيمس، كان الميجور جنرال هـ. ل. بريتشارد Maj. Gen. H. L. Prechard فقد رفض في مقال بعنوان The New Army نشرته مجلة The Nineteenth Century and After العدد ١٢١ سنة ١٩٣٧ ص ٧٩٦ ـ ٨٠٤ نظرية القدرة المحدودة، مصرحًا بما صرح به الميجور جنرال السير فردريك موريس في التيمس أن حجم الحملة البريطانية التي يمكن أن ترسلها بريطانيا إلى فرنسا إنما يتقرر تبعًا لعوامل أخري غير العوامل البريطانية الخالصة من وجهة نظر بريطانيا وحدها.

(٢) "Defense and Attack" A. Q. XXXVI (١٩٣٨), ٣٨ – ٥٠.



غرفة للعمليات داخل حصون ماجينو

سنة ١٩٣٩

المحددة التي تجعل الأفضلية إلى جانب من يقوم بالهجوم، وتتغير طبيعة هذه العوامل ولا شك تبعًا للحال الخاصة ولكن إذا لم يتوافر أي عامل من عوامل التفضيل فإن من يخاطر بالقيام بالهجوم لابد وأن يكون مخبولاً مختل العقل ذلك لأن من يفعل هذا يعرض قواته للهزيمة ويعرض نفسه للمهانة»[١].

على أنه ربما أقدر ناقد عسكري أنجبته بريطانيا هو V. W. Germains ف. چيرمنز الذي كتب عددًا كبيرًا من المقالات لمجلات مختلفة كثيرة،

---

(١) نفس المرجع ص٤١، هذا الحديث من أدق الصور التي عرضت بها عقيدة الدفاع، ولكن لماذا لم يقدر كتاب كثيرين أن هتلر قد تتوافر له كل الإمكانيات ليقوم بها يقوم به المخيول الأخرق مستخدمًا كآلة ووسيلة هذا الجيش الألماني الحديث الذي قد يحقق النجاح، وفي تعليق تحرير مجلة «أرمي كراترلي» في افتتاحية المجلة على هذا المقال تساءل عما إذا كان هذا الحديث واضحًا ومفهومًا وأنه بحث على قيام تدريب واسع النطاق للدفاع والهجوم، وفي نفس المجلد خرج الكولونيل هوم Hume من مقاله «الهجوم أو الدفاع» بنفس النتائج، وقد كتب الميـچور شيبرد في مجلة «يونيتد سيرفس» العدد ٨٤ (١٩٣٨) ص٢٩١ ـ ٢٩٨ رادًا على الكولونيل ر. هـ. بيدين Beaden أحد نقاد ليدل هارت العنيفين في نقدهم، وكان بيدين قد كتب في العدد ٣٨ (١٩٣٨) ص ٥٨ ـ ٨٥ «الهجوم أو الهزيمة» حاملًا حملة عنيفة على فكرة ليدل هارت عن «الطاقة المحدودة».

وكان بين الذين أسهموا في النقاش الكبتن هـ. م. كورتيس Curteis بمقاله: (the doctrine of limited liability) العدد ٨٣ (١٩٣٨) RUSI ص٦٩٥ ـ ٧٠١، ومع أن كورتيس كان يرد على شيبرد إلا أنه عرض لخطأ العقيدة التي بشر بها هارت، وقد حذر كورتيس من أن ترك فرنسا وحدها ربما يكون له تبعات ونتائج خطيرة مدمرة، بل وربما يوجد موقفًا يمكن في سهولة ويسر أن تضيع البلاد الواطية نيتجة لهجوم فجائي: (حدث هذا فعلًا).

وفي مثل هذه الحال فإن جيشًا بريطانيا صغيرًا لن يستطيع إعادة فزو الأراضي الواطية تبعًا لأن «الدفاع قوي في كلا الجانبين»، وقد طالب باستراتيـچية مختلفة في ضوء ما جاء من مقترحات في المقال الذي فاز بالجائزة الذهبية.

وكتبها قبل أن يقوم هذا النقاش عن الهجوم والدفاع، ولربما يكون كتابه «ميكانيكية الحرب»[1] The Mechanizaton of War أفضل تعليق على الحرب العالمية الأولى وبخاصة على معارك الدبابات في «كامبري» و «إميان». وأوضح چيرمينز في كتابه أن يرى أن الألمان في جانب قيام حرب أوروبية تشترك فيها أوروبا كلها ويكون للإنجليز ستين فرقة مزودة بكل حديث يمكن أن تحتاج إليه حرب حديثة الطابع، وقد اختار چيرمينز حكمة قالها الـچنرال مالين كريج رئيس هيئة أركان الحرب لجيش الولايات أيام الحرب الأسبانية الأهلية من أن: «العامل الحاسم ما زال المشاة، والأسلحة الحديثة يمكن أن تساعد الرجل الذي يسير على قدميه ولكنها لا يمكن أن تحل مكانه ولا أن تقوم مقامه»، وقد قال چيرمينز: إن هذا هو لب المشكلة[2].

وكان ف. و. چيرمينز الكاتب العسكري الوحيد الذي رأى الموقف بنظرة مليئة بالتنبؤ: فلأكثر من حقبة من السنين درب الشعب البريطاني على أن يؤمن بكل وسيلة مستطاعة لكسب الحرب عدا طريقة خوض المعارك وتحطيم العدو»[3].

---

(١) London, ١٩٣٧.

(٢) كان المقال الرئيسي الذي أسهم به في المناقشة «الهجوم ـ الدفاع» هو:

"The Quart Measures and The Pint Pot" National Review CX (١٩٣٨) ٤٥٣- ٤٦٥. ومقال له بنفس المجلة العدد ١١٢ لسنة ١٩٣٩ ص٧٥٩ ـ ٧٦٧: "The Army in War" هاجم فوللر وجروڤز وليدل هارت على أساس أنهم ضللوا الجيل الجديد الصغير السن من ضباط الجيش بالأحاديث عن موضوعات مثل «الطريقة التقليدية البريطانية» و «زيادة القوة التي تقدمها الأسلحة الحديثة للدفاع» وما إليها.

(٣) (Military Lessons of The War) Contemporary Review CLVIII (١٩٤٩) ١٤٠ – ١٥٥.

ولم يتوقف چيرمينز قط عن المطالبة بالتجنيد وبتشكيل جيش كبير العدد، وقد عضده السير إدورد كريج في البرلمان (مجلس العموم)، ولكن جهودهما بقيت دون أن تحقق نجاحًا مثل ما حققه الشيخ بينازيت Bènazet في فرنسا.

وقد اعتبر چيرمينز الجيش أقوى سلاح للضرب بين الأسلحة الثلاثة، واعتبر السلاح الجوي بأنه أعين وآذان وأعصاب الجيش، ولكن الحكومة بدلاً من أن تعمل لتجنيد الأفراد لجيش كبير فإنها قد نظرت للجيش على أنه «سندريلا» الخادم المسكينة الفقيرة للقوات المسلحة، أي في نفس الصورة التي عومل بها الأسطول في فرنسا[١].

***

وكان ليدل هارت هو المتحدث الحقيقي عن الفكر البريطاني، فهو لم يهجر نظريات فوللر وبقي يدافع عن الدبابة، ولكنه مع هذا كان يرى بأن لا يرسل بالفرقة المدرعة الجديدة إلى فرنسا بل يحتفظ بها كاحتياطي استراتيـچـي في اليد مبقياً عينًا رقيبة على البلاد الواطية وعلى الشرق الأدنى.

ولكن بعد «ميونيخ» ـ عندما زادت الاحتمالات بإمكان قيام حرب أخرى أكثر مما كان هذا محتملاً في أي وقت آخر ـ عدل ليدل هارت من النظرية التي عرضها في مقالاته بجريدة التيمس في أكتوبر سنة ١٩٣٧، وصرح بأنه ـ فيما عدا إرسال بعض الوحدات الفنية ـ فلا ينبغي إرسال حملة إنجليزية إلى فرنسا، ذلك لأنه مهما كان الجيش البريطاني الذي يرسل إلى

(١) "Some Problems of Imperial Strategy" National Review CX (١٩٣٨) ٧٣٨ – ٧٤٩.

فرنسا صغيرًا فسيستخدم في الجبهة للهجوم، ومن ثم فسيواجه هزيمة منكرة بسبب القوة التي للدفاع، وهكذا سترسل وحدات جديدة لفرنسا وسيحاول القادة المرة بعد الأخرى القيام بالهجوم، حتى يكون لبريطانيا في فرنسا جيش من مليون جندي مع خسائر بنفس العدد؛ ولكن للرغبة في رفع معنويات الفرنسيين يمكن ـ على الأكثر ـ أن ترسل بريطانيا إلى فرنسا ثلاث فرق مدرعة على شريطة ألا تستخدم في معركة هجومية[١]، بل يحتفظ بهذه الفرق كاحتياطي استراتيـچـي وتستخدم فقط في الهجوم المضاد، وبالتعاون التام مع السلاح الجوي.

وكان رأيه أنه لو قامت الحرب في قارة أوروبا فستجيء فجأة كما يجيء البرق الخاطف، ويقول بأن لدى الألمان ثلاث فرق مدرعة فضلاً عن فرقتين تمران بمرحلة التنظيم وقد يستطيع الألمان اختراق خط ماچينو (!!) ولكن تشكيلات الدفاع الخفيفة الحركة تستطيع في سهولة تحطيم رأس الحربة وسد الثغرة.

على أن وجهات النظر التي قامت على أساس الحرب الأسبانية وبخاصة معركة «جواد الـچارا» قد ذكرت أحد أنصار ديجول بالقوة وبالتكتيكات التي أشار إليها في مذكرته التي اشتهر بها[٢].

والواقع أنه لو كانت مثل هذه الفرق مع القوة الجوية الكافية قد استخدمت لكان من الممكن إرباك التخطيط الألماني للعمليات، ولربما كانت هذه القوات قد استطاعت التدخل بنتائج حاسمة في أيام مايو سنة ١٩٤٠، ولكن ـ كما قال ليدل هارت نفسه ـ كان لدي الإنجليز فرقة واحدة

---

(١) "The Defense of The Empire" Fortnightly Review new Series, CXLIII (١٩٣٨). ٢٠ – ٣١.

(٢) Natioual Review, CXV (London, ١٩٤٠) ٣٩٣ – ٤٠٥.

مدرعة وهذه أضاعها الفرنسيون في السوم[١].

ولكن ماذا كان سبب كل هذا الإهمال؟

لقد كتب ليدل هارت بعد نكبة سنة ١٩٤٠ كتيبًا قال فيه:

«بعد أن تولى مستر هوربليشا وزارة الحرب حُذِّر الموظفون الذين يمكن أن يتصلوا به في العمل أنهم يجب ألا يقترحوا إمكان القيام بأي تنظيم أساسي للجيش أو إمكان زيادة القوات الميكانيكية»[٢].

وقد رفضت مجلة «آرمي كورترلي» A. Q في عرضها لكتاب Dynamic Defence هذا الدفاع عن النفس، وألقت باللوم كله على ليدل هارت الذي كان يعمل مع هوربليشا[٣]، ومن جهة أخرى فإن چيرمينز الذي لم يكن يمكن أن يقول كلمة طيبة واحدة عن هوربليشا[*] أو عن ليدل هارت، قال

(١) B. H. Liddell Hart, Dynamic Defence (London, ١٩٤٠), PP. ٣٠ – ٤٣٥.

(٢) نفس المرجع ص٢٦، ويضيف أن ألمع تكتيكي في الحرب الميكانيكية الـچنرال هوبرت قد أرسل إلى مصر بعد مونيخ لإبعاده، ويبدو أن هوربليشا كان يحاول التغلب على «حائط الصين» الحائط الذي كان أقوي منه، وفي كتاب آخر The Curent of War الذي صدر بلندن سنة ١٩٤١ يوضح ليدل هارت الموقف في فصل وسمه بعنوان «هوربليشا» ويجمل هذا كله بقوله في ص١٤٧ «أن جذور أخطائه كانت في أنه حاول القيام بإحداث تعديلات في هيئة تعارض بالغريزة إجراء أي تعديل».

(٣) A. Q., XLI (١٩٤١), ٣٨٠.

(*) ظهرت أول طبعة لقصة هوربليشا وما يقال له «اصلاحاته» في الجيش، وكيف كانت هذه الاصلاحات عامل انقاذ بريطانيا في الحرب العالمية الثانية ثم كيف أن إرغامه على الاسقتالة سنة ١٩٤٠ من مركزه كوزير للحرب قد هز كل بريطانيا، ثم إيضاح ما لم يكشف قبل اليوم من الأسرار التي أحاطت به كله في كتاب حديث من مجموعة "Doudlebay" بعنوان: "The Private Papers of Hore- Belisha".

من تحرير وتعقيب ر. ج. ميني "R. J. Minney".

نيويورك تايمس بوك ريـڤيو عدد ١٥ / ١ / ١٩٦١ «المترجم».

أثناء أزمة ميونيخ: «إن الطبيعة الحقيقية للعقلية التي تتولى الأمر في وزارة الحرب في هذه السنة لهي عقلية الأوزة المتعلمة[1] (الأوزة العسكري المتعلمة).

ويبدو أن ليدل هارت لم يكن ليستطيع الفكاك من الاضطراب في التفكير، تبعًا للحوادث السريعة التي صحبت الحرب العالمية الثانية في مرحلتها الأولى، ففي التاسع من سبتمبر ـ بعد أن أثبتت التحركات البرقية التي استخدمتها النازية في الحرب ضد بولندة كفاية الهجوم وميزته ـ كتب ليدل هارت استجابة لطلب أحد كبار موظفي الحكومة مذكرة[2] .

كان ليدل هارت ما زال يطيل الحديث عن القوة الأكبر التي للدفاع حتى مل سامعوه، بالرغم من أنه قدم جديدًا في الموضوع بقوله: إن الدفاع أفضل من الهجوم وله الأولوية والأفضلية «عندما لا توجد المنطقة التي تمكن من المناورة»، وتابع ليدل هارت تشبثه بهذه العقيدة إلى حد اقتراحه أن تقوم الحكومة بإصدار بيان يخفف مما يوجه إليها من لوم بسبب جمود حركة

---

(٤) "To Be or Not To Be" National Review.

العدد ١١١ لسنة ١٩٣٨ ص ٣٤٩، وفي مقال آخر يشير إلى موقف هوربليشا من خطبة الـڤيلد ماريشال السير سيريل دوڤريل في ٢٤ من أكتوبر سنة ١٩٣٧ بجيلد هول التي دافع فيها عن فكرة الجيش الكبير العدد والتي بسببها طرد رئيس هيئة أركان الحرب للامبراطورية بأمر وزير الحربية:

"The Army in War" National Review CXII (١٩٣٩) ٧٥٩ - ٧٦٧.

أما أهم الاتهامات الأخري التي ساقها چرمينز: أنه كان هناك شك كبير في العقيدة العسكرية، وقال في مقال نشرته مجلة London Times «أن البلاد ترحب بأي دفاعي قومي مهما كان كبير النفقات متي أقتنعت بالحاجة الملحة له».

"To Be or Not to Be" Loc. Cit., P. ٣٥٠.

(٢) جاءت هذه المذكرة في كتابه "The Current of War" مع بعض المقالات الطلية التي كتبها هو.

جيوش حلفائها، وقد قال ليدل هارت أيضًا بأن حشد كل الجهود على الأسلحة المعنوية والاقتصادية قد يسبب انهيار الجبهة الداخلية للعدو، وبذلك فإن بريطانيا تحشد قواتها وجهودها ضد أضعف أجناب العدو دون أن تعرض أجنابها هي، هذه الأجناب التي تتعرض لو قامت بريطانيا بالهجوم.

وكان من الضروري أن يكون لهذه الروح ولمثل هذا الإيمان بالدفاع التأثير الضار بكل توجيه للحرب، ومما لا شك فيه أنه كبد بريطانيا العرق والدم والدموع.

ولكن سياسة ليدل هارت لم تتبع إلى أبعد من هذا الحد، ففي فجر الحرب ظهرت في فرنسا قوة إنجليزية صغيرة بقيت كاحتياطي استراتيجي إلى الوراء من خط ماچينو، كما اقترح ليدل هارت في مقالاته عن «الهجوم والدفاع» بجريدة التيمس اللندنية، وعندما بدأ الاندفاع الألماني الكبير في العاشر من مايو سنة ١٩٤٠ أسرع الجيش الإنجليزي ليمنع مرور الألمان عن طريق «فتحة ليج» دون أن يعنى بغابة الأردن حيث أعد الألمان فعلاً العدة للاختراق عند سيدان، وكانت وجهة نظر ليدل هارت نفسه أن وعورة أرض الأردن وكثافة الغابات هي التي ستجعل المنطقة غير صالحة لعمليات واسعة المدى[1]، وكان هذا أيضًا وجهة نظر الفرنسيين بل ووجهة نظر البلچيكيين كذلك.

وكان الجيش البريطاني يفتقر إلى العتاد الصحيح المناسب، ولم يكن هناك اتفاق موحد على العقيدة العسكرية، ولكن هذا لم يكن الخطأ الرئيسي

---

(١) "The Defense of Britain" London ١٩٣٩, p. ٣٨١. والفصل كله عن «أساليب الدفاع».

الوحيد، كان الطريق إلى دنكرك قد مهدت منه «عقيدة القدرة المحدودة» التي تستند إلى الحرب الدفاعية الطابع التي انتقدها بلا رحمة الكثيرون في بريطانيا أثناء المناقشات الطويلة التي دارت حول «الدفاع والهجوم» ولكن ليس من العدالة أن يوجه كل اللوم إلى ليدل هارت وحده تبعًا لأنه لم يكن هو «المؤلف» لهذه العقيدة، وكان كل دوره فيها أنه هو الذي أجملها وعرضها، ولكن لما كان هو أبرز الكتاب العسكريين الذين دعوا لها فقد لحقت باسمه؛ أن عقيدة الدفاع كانت حصيلة ونتاج عدد من الأسباب المعقدة وقد تقبلتها الدوائر المسئولة في بريطانيا وفرنسا.

«... ولو فرضنا بأن الحكومة الحالية قد قررت أنه في حالة اشتراكنا بنصيب ما في حرب عامة أخرى فنحن لن نرسل حملة بريطانية إلى قارة أوروبا ولا إلى أي مكان آخر، بل سنعود ـ على ما يبدو ـ إلى سياستنا في الماضي: سياسة معاونة حلفائها بوساطة القوة البحرية والسلاح الجوي»[1].

(١) افتتاحية A. Q., XXXLV (١٩٣٧),٣ لتفسير خطبة السير توماس انسكيب وزير الحرب عن مناقشة القرض العسكري والتي اشترك فيه بلدوين رئيس الوزراء أيضًا، وقد هاجمت الافتتاحية هذه السياسة، ولكن مع هذا فقد بقيت حكومة تشيمبرلين تتبع نفس السياسة مع بعض التعديل حتى سقوط فرنسا.

أما في فرنسا فإن مجلة Revue Militaire Générale وهي مجلة تعتبر لسانًا شبه رسمي للجيش الفرنسي في عرضها للنقاش حول «الدفاع والهجوم» والذي دار بين ليدل هارت في جانب وتين روان وروبنسون في جانب آخر، فإنها وقفت إلى جانب ليدل هارت في وجهة نظره الانعزالية وهاجمت آرمي كوورترلي A.Q. بسبب مهاجمتها العنيفة لليدل هارت، راجع:

Revue Militaire Générale, III (١٩٣٨), ٥٠١ - ٥٠٩

ويبدو أن مسيو بييركوت Pierre Cot وزير الطيران الفرنسي وقت الأزمة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨ قد اقتنع بنفس الفكرة على ما يبدو من كتابه.

=L'armée de l'air ١٩٣٦ - ١٩٣٨ (Paris, ١٩٣٩), ١٠٦ - ١٠٨.

وإجمالاً، فمن الواضح أن عقيدة الدفاع للديمقراطيين الغربيتين الكبيرتين في أوروبا لم تكن حصيلة تفكير عدد قليل من السياسيين المتحفظين ولا من الأخصائيين الضيقي التفكير، بل كانت نتيجة اتجاه الفكر القومي، نتيجة ازدياد التحضر والمدنية وتجسيم الحضارة للرعب والخوف من الحرب.

وسببت تعاليم الديمقراطية ازدياد الميل إلى المسالمة وتردد الفرنسيون والإنجليز في تقبل مبدأ الاحتكام إلى الحرب لإنهاء النزاع الدولي، هذا فضلاً عن أن النصر الكبير الذي حققه الحلفاء في نهاية الحرب العالمية الأولى ونتج عنه استسلام ألمانيا بلا قيد ولا شرط، قد خلف هذا وراءه اعتزازًا بالنفس وميلاً للزهو عن حق، كما ترك إيمانًا لا يهتز في قيمة العامل الدفاعي وأهميته، فلسنوات أربع قدمت الحرب العالمية الأولى الدليل إثر الدليل لإثبات كيف أن «الدفاع» عامل لا يقهر، فلما انتهت الحرب ـ وتوافرت الأساليب المستحدثة والمواد الكثيرة الحديثة ـ أمسى من المعتقد أن الدفاع سيكون أكبر أثرًا وأكثر تأثيرًا، فوراء خط ماچينو ستحتشد الموارد التي لا تنضب لأقوى إمبراطوريتين استعماريتين شهدهما العالم، ولهذا فلا يثير الدهشة أن الناس في بريطانيا وفرنسا قد نظروا إلى المستقبل نظرة اطمئنان وثقة.

وقد أوجد الانتصار اعتقادًا نفسياً بعدم إمكان قهر القوات المسلحة، وتحول هذا الاعتقاد إلى إيمان صلب جامد لا وسيلة لتغييره والتقليل منه، وكانت مكانة الجيش حائلاً دون إطلاق حرية المناقشة، وفي نفس الوقت

=إذ يقول بأن ما لقيه السلاح الجوي في فرنسا من تقدير وإعجاب قد يدمر الأسس الرئيسية للحلف البريطاني ـ الفرنسي، فإن بريطانيا على ما يقول هو ـ لا تستطيع أن ترسل إلى فرنسا عدا بعض فرق قليلة.

فإن عزوف الرأي العام العالمي عن تقبل المقامرة بمواجهة عملية ذبح في حشد كبير كما حدث في الحرب العالمية الأولى أوجد عزوفًا مماثلاً حتى عن مجرد مناقشة الآراء الخاصة بالهجوم.

وفي نفس الوقت مكنت المتاعب المالية وعدم التوازن (الاضطراب) الاجتماعي، والنظرات الميالة للمسالمة من أن توجد كلها معًا جوًّا يمكن فيه لعدد قليل من الأخصائيين أن يقوموا بمناقشات نظرية، ولكن حتى لو كان هؤلاء الأخصائيون قد رأوا إحداث أي تغيير لما استطاعوا تنفيذه فإن النظام الديمقراطي يقوم على أساس رغبة الجماهير، والجماهير عادة بطيئة التغيير لاتجاهاتها فيما يتطلب الحركة من جانبها، وهنا يكمن ضعف الديمقراطية عندما تواجه عدوًّا ماكرًا يكون قد أجمع أمره على شيء؛ ولم تفلح فصاحة ديموستينس لإثارة أهل أثينا وبعث الحماسة الضرورية لإنقاذ حريات اليونان القديمة من تخطيط فيليب الثاني المقدوني، ومن ثم فقد ترنحت بلاد الإغريق القديمة في جنوب شبه الجزيرة ـ كما ترنحت فرنسا الحديثة ـ تحت وقع أقدام الغزاة الفاتحين.

ومن جهة أخرى فإنه حتى لو حدث هذا الانتقال في الوقت المناسب فإن حركة الجماهير في الأمة الديمقراطية ـ التي تجيء بها الرغبة للنصر ـ لها مواردها الأعمق والأكثر بسبب النشاط المعنوي الناشئ عن العرف والعادة، لا عن الجبر والإكراه.

وقد أجمل ونستون تشرشل هذا كله في فصاحة وبلاغة عندما تحدث عن الحرب يوم ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٤٢:

«... على أن الإيضاح ليس صعبًا، فعندما يتحرر من القلق أناس

مسالمون مثل الإنجليز والأمريكان ـ الذين يهملون وقت السلم في إعداد وسائل الدفاع عن أنفسهم، والذين لم يعرفوا الهزيمة قط من قبل في تاريخهم ـ عندما يهب مثل هؤلاء الناس من إهمالهم ليواجهوا متآمرين مسلحين قضوا السنوات الطوال يخططون في سرية تامة لمؤامراتهم، معتبرين الحرب أعلى صور الجهد البشري، ممجدين الذبح والاعتداء متأهبين متدربين إلى غاية ما يمكن العلم من هذا، عندما يحدث هذا فمن الطبيعي أن يقاسي المسالمون الأمرين، وأن يحتملوا من الخسائر والضحايا ما لا حصر له، ويكون في استطاعة الأشرار الذين يدبرون الاعتداء أن يهللوا للسرور الوحشي الذي يتابهم».

«ولكن ليس هذا نهاية القصة، بل إن هذا هو الفصل الأول منها، فإذا ما استطاعت الأمم المسالمة أن تعيش وأن تحتمل البقاء لسنوات قليلة برغم هجوم المعتدي الآثم، وجب أن يكتب فصل جديد، هذا الفصل هو الذي سيجيء في الوقت المناسب، وسيكون دائمًا من فخر هذه الجزر وهذه الإمبراطورية أنها وقفت وحدها لما يقرب من عام كامل، وبذلك مكنت من أن يتوافر الوقت للجماعة التي تدافع عن القضية العادلة لتتسلح وأن تنظم ببطء.. القوات المتحدة لتسقط على المجرمين وتأخذ بخناقهم»[١] .

هنا تكمن قوة الديمقراطية التي قد تخسر معارك كثيرة ولكنها تنتصر في النهاية، لقد قيل دائمًا إن جمهورية روما غزت العالم ضد رغبتها الخاصة.

ذلك لأنها هي التي قامت بالهجوم لم تلبث أن خدعت وفوجئت وهزمت بوساطة قادة عسكريين دربين دهاة، لقد شهدنا في هذه الحرب

(١) عدد النيويورك تايمس بتاريخ ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٤٢ .

«الفينيقية» الحديثة(*) معركة كاني ولكن معركة زاما(**) لابد أن تجيء.

(*) في الأصل Punic والأصح Phoenician وتعني الكلمة قرطاجنة أو شعبها، والحروب الفينيقية بين روما وقرطاجة ثلاث حروب: (٢٦٤ ـ ٢٤١) ق. م. ـ (٢١٨ ـ ٢٠١) ق. م. ـ (١٤٩ ـ ١٤٦) ق. م. وفي الحرب الأخيرة انتصرت روما.
معجم ويبستر ص١١٨٠ «المترجم».

(**) زاما مدينة قديمة كانت مسرحًا لمعركة سنة ٢٠٢ ق. م. بين قرطاجنة وروما. معجم ويبستر ص١٦٩٧ .

حديث المراجع

الفصل الخامس عشر

ماجينو وليدل هارت

عقيدة الدفاع

بقلم إيرفنج جيبسون

من الموارد الهامة لدراسة تاريخ النقاش حول التنظيم العسكري الفرنسي في السنوات التي سبقت الحرب كتابا:

Projet de loi... sur le recrutement de l'armée présénte

Par M. Maginot, ministère de la guerre (Paris, ١٩٢٣)

Paul-Bernier, (ed.), Rapport fait au nom de la Commission de l'armée chargée d'examiner le project

de loi relatif au recrutement de l'armée (Paris, ١٩٢٧).

ومن سوء الجد أن أن سجلات محاكمات ريوم التي نوقشت فيها المسألة كلها لم يتيسر الحصول عليها بعد، وإن كانت إجراءات المحاكمة قد نشرت بجريدة نيوريورك تايمس الأعداد من ١٩ من فبراير إلى ٣ من إبريل سنة ١٩٤٢ .

والكتب التي عرضت للحديث عن الجيش الفرنسي قبل الحرب العالمية الثانية كثيرة ومتضادة متباينة، ومن أهم الثقات في فترة ما قبل الحرب الـچنرال ديبني Debeny رئيس هيئة أركان حرب الجيش الفرنسي

وله كتابان:

Sur la sécurité militaire de la France (Paris, ١٩٣٠).

La guerre et les hommes, reflexions d'après guerre (Paris, ١٩٣٧).

كما يوجد كتاب جيد مليء بالمعلومات الدقيقة:

P. Bénazet, Defense nationale, notré sécurité (Paris, ١٩٣٨).

وكان المؤلف في تاريخ قديم يرجع إلى سنة ١٩١٣ رئيسًا للجنة العسكرية في مجلس النواب، ثم تولى نفس العمل في مجلس الشيوخ فيما بعد، كما توجد بعض مؤلفات قيمة منها:

Général H. Mordacq, Les Leçons de ١٩١٩ et la prochaine guerre (Paris, ١٩٣٤).

L,Souchon, Feue l'armée française (Paris, ١٩٣٩).

والكتاب الثاني هجوم عنيف على هذه الجماعات التي تقف إلى جانب تخفيض مدة الخدمة العسكرية.

ويوجد كتاب قيم في الحديث عن نظام الميلشيا:

Lieutnant Colonel E. Mayer, La guerre d'hier et l'armée demain (Paris, ١٩٢١).

ويعتبر كتاب "L'armée moderne" بقلم "Général Maurin" الذي نشر بباريس سنة ١٩٣٨ نقاشًا فنياً بوساطة رجل من أعلام مدرسة الدفاع، كما يعتبر كتاب (Le probléme militaire Française) من قلم P. Reynaud دليلاً

على أن رينو كان هو العضد البرلماني للدفاع عن آراء ديجول العسكرية، ولربما يكون أكثر الكتب الخاصة بفن القتال تداولاً بين القراء قبل سنة ١٩٤٠ والذي قيل في محاكمات ريوم أنه كان واحدًا من عوامل سقوط فرنسا، كتاب:

Général L. Chauvineau, Une invasion, est- elle encore possible? (Paris, ١٩٣٩).

ويمكن معرفة الكثير عن إنشاء خط ماچينو بالرجوع إلى كتاب:

P. Belperron, Maginot of the Line (London, ١٩٤٠).

ونجد عن دراسة حياة ديجول وعن جهوده في تطور واستحداث الجيش الفرنسي كتابًا قيمًا ودراسة وافية، أما الكتاب فهو:

Ph. Barrés, Charles De Gaulle (New York, ١٩٤١).

وأما المقال:

H. A. Deweerd, "De Gaulle as a Soldier", Yale Review, XXXII (١٩٤٣), no. ٤, pp. ٧٦٠ - ٧٧٦.

وفي نفس الوقت فإن كتاب:

"Pertinax" (A. Géraud), Les Fossoyeurs, ٢ vols. (New Youk, ١٩٤١).

دراسة قيمة للشخصيات الفرنسية ودورها في المناقشات الخاصة بالجيش بخاصة وبالحياة السياسية في فرنسا بعامة، وقد حاول المؤلف أن يحدد مسئولية جاملان، رينو، ديلادييه، وبيتان في ضعف فرنسا سنة ١٩٤٠.

ويمكن الرجوع لتقدير دور بيتان وحده إلى البحث التالي:

J.M. Bourget, "La légende de Maréchal Petain, Revue de Paris (January ١, ١٩٣١), pp. ٥٧- ٧٠.

أما القاعدة السياسية لمشكلة الجيش فقد نوقشت تفصيلياً بإفاضة في كتاب:

H. Pol, Suicide of a Democracy (New Youk, ١٩٤٠).

وقد يكون من الضروري أن نذكر هنا دراستين خاصتين بالتنظيم العسكري الفرنسي.

J. Monteilhet, Les institutions militaires de la France (Paris, ١٩٣٤).

S.C Daveis, The French War Machine (London, ١٩٢٧).

والدراسة الأولى تعرض للجيش الفرنسي منذ عصر الانتعاش والتجديد.

وبين المؤلفات العسكرية الفرنسية كتابان يدلان على تفهم الفرنسيين للاستعدادات الإيطالية والألمانية وهما:

A. Vauthier, La doctrine de guerre de Général Douhet (Paris, ١٩٣٥).

Général Nollet, Une expérience de désérmement; cinq ans de contrôle militaire en Allemagne (Paris, ١٩٣٢).

على أن الذين يعنون بدراسة المسائل العسكرية الفرنسية في تلك

الفترة من السنين يجب أن يرجعوا إلى اثنين من الدوريات العسكرية الهامة لما احتوتا عليه من دراسات في هذه الموضوعات وهما:

Revue Militaire Générale. Revue des Deux mondes.

أما الموردان الرسميان الأساسيان لتفهم التشريعات العسكرية البريطانية في تلك الفترة فهما:

Hansard's Parliamentary Debates... &

Great Britain, Parliament, Accounts and Papers.

وكان الميجور جنرال ج. فوللر في مقدمة النقاد العسكريين في تلك الحقبة من السنين، وقد نشر فوللر أكثر من مائة كتاب، على أن أهم مؤلفاته:

The Reformation of War (London, ١٩٢٣).

The Foundations of the science of war (London, ١٩٢٦).

Lectures on Field Service Regulations III: operations

Between Mechanized McForces (London, ١٩٣٢).

The Army in My Time (London, ١٩٣٥).

Memoirs of an Unconventional Soldier (London, ١٩٣٦).

ويقدم الكتابان الأولان الدعامة الثقافية لما قيل له «مدرسة فوللر» أو «المدرسة الآلية»، وكانت محاضراته عن كتاب قانون خدمة الميدان الجزء الثالث أهم ما أسهم به فنياً في الدراسات العسكرية، كما أن كتاب:

Général H. Rowan- Robinson, Imperial Defense: A

Prolem of Four Dimensions (London, ١٩٣٨).

يعتبر كتابًا قيمًا لعضو لماع من مدرسة فوللر وذلك بسبب مناقشة المعنى بها للمشكلات الجوية والبحرية.

وأهم مؤلفات ليدل هارت الكثيرة:

The Remaking of Modern Armies (London, ١٩٢٧).

"Grave Deficiencies of the Army" English Review

LVI (February, ١٩٣٣).

The defense of Britain (London, ١٩٣٩).

Dynamic Defense (London, ١٩٤١).

The Current of War (London, ١٩٤١).

وكان ليدل هارت المؤلف لنظرية «التحديد المحتمل» للحرب هو المتحدث الرسمي باسم وزارة الحرب قبل سنة ١٩٣٩:

ويعتبر كتاب:

V.W. Germains, the Mechanization of War (London ١٩٢٧).

أعظم نقد لمدرسة فوللر.

ويعرض كتاب: «The People's Army» من قلم L. Clive الصادر بلندن سنة ١٩٣٨ وجهات نظر حزب العمال عن الجدل الذي دار حول الجيش، كما توجد عدة مؤلفات مليئة بنقد لاذع وهجمات غير معتدلة ضد القيادة العليا وكبار الضباط في وزارة الحرب وفي الأميرالية أهمها:

P. R. C. Groves, Behind the Somke Screen (London, ١٩٣٤).

J. R. Kennedy, Modern War and Defense Reconstruction

(London, ١٩٣٦).

Lord G. N. Strabolgi, New Wars and Weapons (London, ١٩٣٠).

ويوجد كتابان قصيران كتبا بلهجة معتدلة في نفس الموضوع هما:

Major E. W. Sheppard. A Short History of the British Army (London, ١٩٤٠).

Major. E. W. Shepperd, Tanks in the Next War (London, ١٩٣٨).

وقد عولجت المسائل الخاصة بالقونين البحرية والجوية علاجًا قريبًا منسقًا في كتابي:

G. C. Slessor, Air power and Armies (London, ١٦٣٦).

B. Acworth, Britain in Danger (London, ١٩٣٧).

ويمكن أن نجد دراسات ذات قيمة خاصة في المجلة ربع السنوية، (Royal United Service Institution) وهي مجلة هامة شبه رسمية وكذلك في "Army Quarterly"

وهي واحدة من أهم الدوريات في هذا النوع من الصحف التي تصدر باللغة الإنجليزية.

أما من الناحية العامة فيرجع إلى:

A. Wolfers, Britain and France Between Two Wars (New York, ١٩٤٠).

R. A. Chaput, Disarmament in British Foreign Policy (London, ١٩٣٥).

J. K. Kennedy, Why England Slept (New York, ١٩٤٠).

والكتابان الأخيران يقدمان تفهمًا عميقًا لعدم استعداد بريطانيا في تلك الفترة من السنين، ويجب أن يرجع أولئك الذين يدرسون الشئون العسكرية لبريطانيا وفرنسا إلى المجلة الربع سنوية.

Command and General Staff School Quartely

وهي مجلة رسمية تصدرها مدرسة أركان الحرب للجيش الأمريكي في ليـڤنثورث من أعمال كانساس.

يدرس القسم الأول من الكتاب "أصول الحرب الحديثة من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر"، وفي القسم الثاني يعرف بأمهات الكتب في القرن التاسع عشر، أما القسم الثالث فمخصص لدراسة أصول الحرب الحديثة من القرن 19 إلى الحرب العالمية الأولى، بينما خصص القسم الرابع لدراسة أصول الحرب الحديثة في فترة ما بين الحربين، ويشتمل القسم الخامس على دراسةالحرب في البحر والجو.

علي مولا

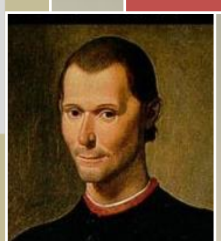
ISBN 978-9933-407-05-6

9789933407056

الكتاب
الرابع

رواد الاستراتيجية الحديثة

الفكر العسكري من مكيافيللي إلى هتلر











ترجمة وتقديم
محمد عبد الفتاح ابراهيم







تصميم غلاف : علي مولا

رواد الاستراتيجية الحديثة

رواد الاستراتيجية الحديثة

الفكر العسكري من مكيافيللي إلى هتلر

الكتاب الرابع

تأليف

إدوارد ميد إيرل وآخرين

ترجمة وتقديم

العميد أركان الحرب

محمد عبد الفتاح إبراهيم

المشتركون في هذا الكتاب

١ ـ ديرونت وتيليسي:

حائز على درجة الدكتوراه من جامعة شيكاغو ـ أستاذ الجغرافية بجامعة هارڤارد ومستشار وزارة الحرب.

مؤلف كتاب «**الأرض والدولة**»، والكتاب ضمن مجموعة كتب الدراسات العامة للقوات المسلحة الأمريكية ويحمل رقم E. M ٢٣٤ بين سلسلة كتب التعليم.

٢ ـ مرجريت تتل سبروت:

نالت إجازة البكالوريوس من جامعة أوبرلين، ودرجة الماچستير في التاريخ من جامعة ويسكونسين.

زوجة المؤلف هارولد سبروت من ٦ أغسطس ١٩٢٤، ولها منه ولد وثلاث بنات: فرانسيس ـ كريستينا ـ إليزابيث (معجم الشخصيات ص ٢٦١٦).

اشتركت مع زوجها في تأليف كتابين من أهم ما كتب عن البحرية هما:

ـ نهضة القوة البحرية الأمريكية. وصدرت منه طبعة منقحة سنة ١٩٤٣ .

ـ نحو نظام جديد في القوة البحرية. صدر سنة ١٩٤٦ وصدرت منه طبعة منقحة سنة ١٩٥١ .

٣ـ تيودور روب:

حاز على درجة الماچستير من جامعة أوبرلين، ونال الدكتوراه من جامعة هارڤارد. باحث في دراسات الاستراتيـچية البحرية.

تعلم بوزارة البحرية الفرنسية وبالكلية البحرية الفرنسية عضو قسم التاريخ بجامعة ديوك، يتولى الآن تدريس برنامج التدريب البحري.

٤ - إدوارد وارنر:

مهندس، ولد في بيتسبورج يوم ٩ من نوفمبر سنة ١٨٩٤، نال البكالوريوس من هارڤارد سنة ١٩١٦ ومن ماساشوستس سنة ١٩١٧: حصل على درجة الدكتوراه في العلوم من جامعة نورويتش سنة ١٩٣٨.

خدم كمهندس جوي في الجيش الأمريكي سنة ١٩١٨، وعمل مستشارًا في شئون الجو ١٩١٩ / ١٩٢٠، عضو مجلس الطيران المدني سنة ٣٩ / ٤٥، تولى منصب نائب رئيس المجلس ٤٣ / ٤٥، رئيس مجلس الطيران المدني الدولي ١٩٤٧ ـ ١٩٥٧ .

نال أوسمة من حكومات البرتغال، ڤينزويلا، إيرلنده، دومينيكا، اليابان، البرازيل، يحمل وسام الأرز من لبنان.

نال جائزة أمن الطيران سنة ١٩٥٦ .

مؤلفاته: «**إحصائيات الجو**» سنة ١٩٢٦، «**تصميم الطائرات**» سنة ١٩٢٧ .

«**معجم الشخصيات لسنة ١٩٦٠ ص ٢٨٩٤**».

٥ ـ ألكسندر كبرالفي:

باحث مجد في الدراسات العسكرية والشئون البحرية، يسهم

باستمرار في المجلات العسكرية بكتاباته، يتولى التعليق العسكري في مجلة «**آسية**».

له كتاب «**النصر في الباسفيك**».

٦ ـ إدرارد ميد إيرل:

مستشار خاص للسلاح الجوي الأمريكي، محاضر بكلية أركان الحرب، مستشار معهد الدراسات العليا في برنسيتون، رئيس مجموعة الدراسات العليا بجامعة برنسيتون.

حاز درجة الدكتوراه من جامعة كولومبيا.

٧ ـ محمد عبد الفتاح إبراهيم:

عميد أركان حرب ـ ماچستير في العلوم العسكرية دبلوم الدراسات العليا في التاريخ والآثار السودانية من كلية الآداب بجامعة القاهرة.

كان أستاذ التاريخ العسكري في الكلية الحربية في فجر حياته العسكرية، وكانت آخر وظيفة شغلها في القوات المسلحة هي رئيس أركان الحرب للفرقة الأولى المشاة، وآخر وظيفة شغلها في الوظائف المدنية هي سكرتير عام وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

كان رئيس تحرير مجلة المشاة وعضو لجنة تحرير مجلة الجيش.

صحفي من فجر حياته، وله عدة مؤلفات جلها في الشئون العسكرية منها «**محمد القائد**» «**بين حربين**» «**الخوف والإجهاد في المعركة**» «**الحرب البرقية**» «**الحرب الأهلية الأمريكية.. ملاحظات على القادة والمعارك**»، «**التحركات والوقاية الجوية**»، «**حديث في الاستراتيچية**»، «**الحرب بين الماضي والحاضر**»، «**القرن العشرون**»، «**أفريقية ـ من السنغال إلى نهر جوبا**».

مصمم الغلاف:

كمال الملاخ: تخرج في قسم العمارة بكلية الفنون الجميلة وعين معيدًا بها، وشغل في وقت فراغه منصب الناقد الفني لجريدة الأهرام سنة ١٩٥٠، كما عمل رئيسًا للقسم الفني بدار أخبار اليوم سنة ١٩٥٢ . نال درجة الماچستير في فقه اللغة المصرية القديمة من معهد الدراسات العليا للآثار بجامعة القاهرة. عين مديرًا لأعمال مصلحة الآثار. اكتشف مراكب الشمس في صيف سنة ١٩٥٤ . تفرغ للصحافة عضوًا في مجلس تحرير جريدة الأهرام، وهو المعلق اليومي لها الآن.

محتويات الكتاب

مقدمة

هذا هو الكتاب الرابع والأخير من المجلد الكبير الذي قدمه إدوارد ميد إيرل عن «**رواد الاستراتيچية الحديثة**» واشترك معه في تحرير مادته أكثر من كاتب من الأعلام الأخصائيين، كل يعتبر حجة في الموضوع الذي عرض له بالدراسة.

ولقد بدأ هذا الكتاب الرابع ـ في ترجمته العربية ـ بالدراسة الخاصة بعلم «**الـچيوبوليتيكا**» سياسة الكرة الأرضية في سياق سرد التاريخ لحياة علم من أعلامه هو الـچنرال الألماني الأستاذ كارل هوزهوڤر، وإيضاح لتعاليم مدرسته، وكيف أن الحرب قد جاءت بنظريات السياسي الجغرافي إلى ساحة السياسة العملية.

و «**الـچيوبوليتيكا**» اليوم، (علم العلوم) العسكرية، لو جاز لنا أن نصطنع هذا الاصطلاح، فالمعرفة بجغرافية العالم ومؤثرات البيئة من الأسس والدعامات للاستخدام الصحيح للسياسة القومية في الحرب والسلم؛ ذلك لأنها تعنى بالمواد والحقائق التي يجب أن توضع موضع التقدير في البرنامج الواقعي القومي.

ولقد كان هذا العلم القديم في كيانه الجديد في إبرازه وتقديمه هو الذي جاء بالمصطلحات: «**أور ـ أفريقية**» ـ «**أور ـ آسية**» ـ «**بأن أمريكا**» ـ «**الأرض الداخلة**» ـ «**قلب العالم**» ـ «**منطقة الحياة**» ـ «**الاتجاه للشرق**» ـ «**المجال الحيوي**» ـ «**الاكتفاء الذاتي القومي من الناحية الإقتصادية**» ـ «**المدافع بدلاً من الزبد**» ـ «**القوى البرية ضد القوى البحرية**» ـ «**الجنس السائد**» ـ «**الحواجز السياسية العسكرية**» ـ «**منطقة التجارة**» ـ «**المنطقة**

الثقافية» ـ **«دور الأقليات فيما وراء البحار»**؛ لقد جاء العلم بهذه المصطلحات والكثير غيرها مما يضيق عن الحصر في هذا التقديم المختزل، وجاء بهذا في معان جديدة مستحدثة أو أبرزها دون أن يكون لها وجود سابق في دنيا الأمس، وكانت أصول هذا العلم هي التي وجهت تحركات هتلر والنازية، وقد انحدر هتلر إلى هاوية الفشل عندما انحرف عن الطريق السوي الذي رسمه العلم في تصوير كارل هوزهوفر ما في هذا من شك.

صحيح، قد يكون ديرونت ويتليسي قد عني العناية كلها ـ في حديثه في الفصل الخامس **«الـجيوبوليتيكيين»** علماء سياسة الكرة الأرضية ـ بألمانيا النازية، ولكنه قد أحسن تقديم الأصول والمبادئ بالصورة التي تجعل من فصله هذا كتابًا قيمًا يصلح أساسًا لدراسات أوسع.

ويثير هذا الفصل مسألة الصفحات الطوال التي جاءت في كتاب **«كفاحي»** لهتلر ترسم فلسفته في الحكم والعمل لاتساع رقعة ألمانيا وإقامة ألمانيا الكبرى، وما يقال من أن كارل هوزهوفر هو الذي أملاها على هتلر عندما كان يخط سطور كتابه وهو رهين المحبس لجريمة سياسية في تقدير حكومة جمهورية ڤيمر، وما قام من نقاش وجدل فيما إذا كان هذا الزعم صحيحًا أو كان هتلر هو أصلاً صاحب الآراء التي جاءت في الكتاب، ولكن ليس هذا بالأمر المهم لأن الكتب التي تخرج للناس محددة فلسفات الزعماء لا يضيرها من الذين أملوها أو من الذين كتبوها، لأن أهميتها في مدى اتباع الزعماء لهذه الآراء والمبادئ التي رسموها للمستقبل وهم لم يصلوا بعد إلى القوة وإلى السيادة والحكم(*).

(*) أود أن أشير هنا إلى أن الكثير من المصطلحات العلمية المستخدمة في علم (الـجيوبولتيكا) سياسة الكرة الأرضية ليس من السهل أن تترجم على العربية بكلمة=

على أن لهذا (الكتاب الرابع)، هذا الجزء من دراسات الاستراتيـچية الحديثة، طابعه المميز، ذلك لأنه يعرض لمناقشة الأمرين اللذين يعنى بها الباحثون اليوم تبعًا للتطورات السريعة التي عرضت لها طبيعة الحرب في البحر والجو، هذه الأسس التي لم تغير منها التطورات الحديثة وإن كانت قد أكسبتها طاقة ومرونة كان لهما آثارهما في عاملي: «**الوقت**» و«**المسافة**».

ولقد ناقش الرجل آراء اثنين من الضباط المحترفين الأمريكان هما: الأدميرال ماهان والـچنرال ميتشل، ويعتبر هذا تقديمًا فيه تكريم للناس الذين شغلوا بالحرب إلى حد كبير أو صغير، منذ أن نزل المستعمرون الأولون بسواحل أمريكا.

والفكرة هنا أن أمريكا لم تسهم في صناعة الحرب إلا في ميداني التكتيك والتكنولوچية، وأسهمت فيهما أكثر من إسهامها في ميدان الاستراتيـچية، وقد أخرجت أمريكا في ميدان التكنولوچية العسكرية البندقية والرشاش الآلي اللذين يمكن استبدال أجزائهما بغيرها، كما أخرجت المنطاد والجرار للدبابات والمظلة التي يهبط بها الجنود من الجو، وقاذفة القنابل المنقضة والغواصة والطائرة.

ولما كانت «**الحاسة الآلية**» تتوافر للأمريكان بالقدر الذي جعل إيمانهم بالآلة أشبه ما يكون بالعقيدة الدينية، لهذا فإنهم سبقوا غيرهم إلى حشد

=واحد على مثال ما هولها في اللغة الإنجليزية مثلًا، ولهذا كان من الضروري ترجمتها الترجمة التي توضحها تمامًا بكلمة أو بأكثر تبعًا للحاجة، وسيمكن مستقبلًا بعد تعدد ظهور الدراسات بالعربية لهذا العلم إعداد مصطلحات بالعربية يتعارف عليها الدارسون العرب. على أنني قد عنيت بإضافة الكلمة الإنجليزية كمرجع لمن شاء المزيد من الدراسة في المؤلفات الغربية. «المترجم».

الإنتاج وكانوا إلى حد كبير آباء الطائرة المقاتلة، ولم يكن «**الأخوان رايت**» فحسب هما اللذان اخترعا الطائرة، بل كان من صنع أمريكا أيضًا الآلة التي تسير بالغازولين والتي مكَّنت من تطور الطائرة من شيء بدائي إلى قاذفة القنابل ذات المحركات الأربعة، ولكن أمريكا لم تقدم للعالم (كلاوزيـڤتز) آخر، ولا (ڤوبان) ثانيًا .. إلا أنه من الممكن أن نقول بأن ماهان لم يقل عنهما شهرة في ميدان النظريات العسكرية الخاصة بالحرب في صورة من صورها.

والواقع أنه لم يؤثر فرد في نظرية القوة البحرية وفي الاستراتيـچية البحرية بأكثر مما أثر «**ألفريد ثايار ماهان**» في هذا بكتبه الثلاثة التي عرضت للقوى البحرية وأثرها في التاريخ والحرب، ودورها في تكوين الإمبراطوريات من منتصف القرن السابع عشر حتى فجر الحقبة الثانية من القرن التاسع عشر. ولقد تولى «**ماهان**» توجيه الثورة في السياسة الأمريكية البحرية، ووضع الأسس النظرية لدور بريطانيا في محاولة السيطرة والسيادة على البحار، وأعطى سياسة التطور البحري في ألمانيا تحت حكم «**غليوم الثاني**» والأميرال «**تيربتز**» دعامات قوية، وأثرت كتاباته بصورة ما في طبيعة التفكير البحري في فرنسا وإيطاليا وروسيا واليابان وغيرها من الدول التي قد تكون دونها قوة ومكانة.

على أن «**ماهان**» كان بالإضافة إلى هذا مؤرخًا له مكانته، وكان في نفس الوقت داعية لا يبارى يقف من الاستعمار والإمبريالية موقف العداء، ولعله سبق غيره في الحديث عن أن الإمبراطوريات الاستعمارية مصيرها إلى التمزق.

* * *

ولقد قيل في وقت ما إن الطائرة قد قضت على البارجة، واستطاعت بعض الطائرات اليابانية الصغيرة بعمليات انتحارية أن تغرق بوارج ضخمة لم يكن يفكر أحد في إمكان قهرها، ولكن برغم هذا، وبرغم قلة ما شهد العالم من معارك بحرية واسعة في الحربين العالميتين، فإن الاستراتيـچية البحرية بما في عملياتها من قتال ونقل وتموين وإمداد وإنزال للجنود لا تزال اليوم لها مكانتها كما كانت بالأمس، فقط، مع الاستحداث في السفن والإكثار من سفن الأعماق (الغواصات) التي تسير بالطاقة الذرية حاملة المقذوفات الصاروخية والتي تعتبر قواعد أمامية تتوافر لها سرعة ومرونة لا تتوافران حتى للطائرات.

* * *

وقد لا يستطيع الفرد أن يتحدث بدقة عن النظريات الخاصة بالقوة الجوية والأصول الاستراتيـچية التي جاء بها هذا الاستخدام، سيما عندما نخرج من الحديث عن الاستخدام العام للسلاح الجوي في طابعه التقليدي الذي عرفته الحربان العالميتان مع تقدير ما يمكن أن يكون له في مدى التطور التقدمي العادي لسلاح من أسلحة الحرب، عندما نخرج من هذا إلى الاستخدام لطائرات ذات طوابع خاصة معينة محددة تستهدف أغراضًا رغم كثرتها تعتبر هي الأخرى بدورها معينة محددة، كطائرات الكشف والتصوير البعيد المدى وطائرات قياس الأعماق عند السواحل البحرية، وما إلى هذا من الصور المستحدثة التي جاء بها التطور في صورة الحرب المقبلة.

على أن أبرز ما يجب أن نذكره هنا هو أن العقيدة الأساسية التي قامت

عليها كل نظريات الحرب الجوية إنما تستند أصلاً إلى توافر «**السرعة**» و «**الارتفاع**» للطائرة، ومن ثم تتوافر لها قوة التدمير للمنشآت على البر أو على السواحل أو على سطح الماء على حين تبقى هي في أمن نسبي من أي تدبير مضاد مؤثر من الأرض أو من السفن.

فإذا ما أمكن تقبل هذه العقيدة كان من الضروري أن يوضع التخطيط لكل حملة حربية على أساس وضع الجانب الأكبر من الأفضلية في جانب، على حين يقل هذا كله في الجانب الآخر، وهي مسألة ليست من البساطة بالصورة التي تجيء بها هذه الكلمات، بل أنها تتطلب تضحيات وجهودًا، يمكن أن نرقب صورة مصغرة لها عندما ندرس تفصيلياً «**معركة بريطانيا**» لسنة ١٩٤٠ ومعركة «**السيادة الجوية**» فوق أوروبا سنة ١٩٤٤ .

ومن هنا كان من الضروري القول بأن الهيئات العسكرية يجب أن تكون دائمًا على أهبة الاستعداد للمعركة بالآلة التي تتوافر عند بدء الحرب مع التخطيط لعلاج ما يمكن أن يكون هناك من مشكلات بالنسبة لهذه الآلة يوم ذاك، وهذه كلمات تتطلب الإيضاح والتفسير، ولهذا كانت كتابات الرواد الذين وضعوا أصول الحرب الجوية، وبخاصة «**دوهيه**»، يمكن أن تقرأ اليوم ويكون لها نفع أكبر مما كان لها من نفع يوم أن صدرت تلك الكتب.

* * *

على أنه مع تطور المجتمع، ومع تحوله إلى الاستزادة من التصنيع، ازداد تعقد فن الحرب. ومن ثم كان من الضروري أن تتمشى عوامل

التسليح والعوامل التكتيكية في العمليات الحربية مع الاستراتيـچية التي لا يمكن أن تنفصل عنها والتي هي لها بمثابة الخادم المخلص الأمين.

إن الاستعدادات الفنية التي تسبق الحملات الحديثة توضح إمكان تحقيق النصر السريع للاسراتيـچية، وعندما يبدأ الإعداد لهجوم واسع المدى فإن توقيت هذا الهجوم يتطلب فسحة من الوقت لدراسة ما إذا كانت الاعتبارات السياسية أو غيرها هي التي تتطلب التغيير.

إن المسائل العسكرية تتشابك ـ في ضوء الظروف والأحوال الحديثة ـ مع المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية، ومن المشكوك فيه أن يستطيع فرد أن يتحدث عن «**الاستراتيـچية العسكرية**» خالصة وحدها.

إن نجاح هتلر حتى غزو روسيا، بل وحتى في المراحل الأولى لهذا الغزو سنة ١٩٤١، ليرجع إلى تفهمه لهذه الحقيقة؛ لقد كان خصومه في الميدان في رياسات حكومات أوروبا يفكرون بأسلوب سياسة وعسكرية واستراتيـچية وتكتيك القرن السابع عشر عندما كان من الممكن أن يفصل بين الاستراتيـچية وبين التكتيك في صورة ما، وبقوا يفكرون في هذا إلى أن سقطت فرنسا، ولكن اليوم، في هذا العصر الذي نعيش فيه لم يعد من الممكن فصل السياسة عن الاستراتيـچية بمختلف عواملها، لم يعد هذا مستطاعًا بحال ما.

***

ومع هذا في الكتاب الرابع فصل، هو الفصل الخاص باستراتيـچية اليابان البحرية، فصل يبدو وكأنه لا مكان له في دنيا اليوم، وبالتبعية قد لا

يكون له من مكان في دنيا الغد على أساس أن اليابان اليوم لا تقف موقف الخصومة والعداء من القوى البحرية الكبرى في الغرب، ودورها إلى جانب المعسكر الغربي في حرب الغد لو كان يتطلب استراتيـچية أخرى، لا يمكن تقديره اليوم، فليس لليابان ولن يكون قبل سنوات طوال الأسطول الذي يمكن أن يقف في ميدان توازن القوى بإزاء ما كان الأسطول الإمبراطوري الياباني في الحلقة الخامسة من القرن العشرين، ولكن هذا الفصل يقدم مادة دراسية لها قيمتها في ميدان البحث الاستراتيجي ويعطي طابعًا يجب تقديره عند الحديث عن القوى المتشابهة المتماثلة في دنيا الغد، فهو دراسة لها نفعها من هذه الناحية ومن ثم كان من الضروري تقديمه في هذه الترجمة العربية للكتاب.

***

إن الحرب تفرض نفسها اليوم على كل فرد في العالم مهما كان نصيبه واتجاهه في الحياة، ولهذا فمن الضروري أن يدرك كل فرد في العالم أن الحرب تهمه وتعنيه، وأن دراسته لها واجبة كعلم ـ على الأقل ـ لا كصناعة.

وكما تتطلب الحرب حشد الجهود فإن السلم نفسه يتطلب تفهمًا كاملاً للحرب وأصولها والعوامل المؤثرة في هذه الأصول حتى لا تكون يوم أن تجيء مصحوبة بالكثير من التطورات مشكلة مستعصية في جملتها وتفاصيلها، ولا يكون من المستطاع في يسر مواجهتها للعسكريين وحدهم، بل ولغيرهم حتى من عامة الناس.

لقد كان هذا الفهم الصحيح للاستراتيـچية والحرب عن طريق

التأريخ للرواد الأولين وللأصول التي جاءوا بها هو الهدف الذي استهدفه العلاَّمة «**إدوارد ميد إيرل**» وزملاؤه عندما كتبوا هذا الكتاب الكبير، وكان هذا هو الهدف الذي استهدفته في تقديم هذه الترجمة العربية في كتب أربعة وصل عدد صفحاتها إلى الألفين مع ما تطلبه هذا من جهد ..

ولعلي أكون قد وفقت في هذا التقديم.

محمد عبد الفتاح إبراهيم

عميد أركان الحرب

الرابع من أكتوبر سنة ١٩٦١

الفصل السادس عشر

هوزهوفر:

الجيوبوليتكيون

علماء سياسة الكرة الأرضية

بقلم ديرونت وتيليسي

«**الـچيوبوليتيكا**»، علم سياسة الكرة الأرضية، وليد جاءت به «**العسكرية**» و «**آلة من آلات الحرب**»؛ وكما يدل الاسم فإنه ثمرة ونتاج كلا علمي الجغرافية والسياسة بالرغم من أنه قد اصطنع ووضعت أصوله ثم تطورت إلى حد بعيد بوساطة الجغرافيين وفي رعايتهم، فإنه أحدث عهدًا من علم الجغرافية، فقد شب ونما في الجيل الذي جمع بين الحربين العالميتين.

- ١ -

قبل أن يبرز علم الـچيوبوليتيكا، بل وقبل أن يصطلح العلم على اسمه بكثير، كان لعلم الجغرافية مكان هام في حياة شعوب وسط أوروبا بعامة، والشعب الألماني بخاصة، ولا شك أن العلم قد حقق كيانه كعلم حديث في أوروبا الألمانية حيث كان جزءًا من ينبوع الفكر العلمي والفلسفي الذي يرجع به عادة إلى إيمانويل كانط Immanuel Kant [1] (*).

(١) راجع: The Nature of Geography (Lancaster, Pa. ١٩٣٩) Cap. ٢

(*) ايمانوبل كانط: (١٧٢٤-١٨٠٤) فيلسوف الماني كانت له مدرسة من الأتباع وتعاليم يطلق عليهم وعليها Kantianism, kasntian على التوالي.

وكانت «**فترة تكوين**» شغلت النصف الأول من القرن العشرين، كان علم الجغرافية طوالها ـ مع بقاء الطابع الوصفي له ـ قد بدأ يتبع تنظيمًا محددًا واضحًا، وفي نفس المدة تحولت ألمانيا ـ نتيجة لتطورات سياسة حرجة وتطورات عسكرية واسعة المدى ـ من جملة حكومات أسرية متجاورة إلى رابطة من الدول القومية المملوءة بالحيوية والنشاط.

وفي النصف الثاني من القرن نفسه جاءت الفروع المختلفة التي أعطت علم الجغرافية الطابع الشامل الذي له في الوقت الحاضر، وفي هذه الحقبات من السنين توحدت ألمانيا واتسعت صناعاتها وبرزت إلى الوجود كدولة من الدول الكبرى، واستمدت الإمبراطورية الألمانية الجديدة قوتها من قاعدة مزدوجة التكوين ذات حدين:

* السيادة السياسية التقليدية في الجزء الزراعي في شرق البلاد.

* القوة الاقتصادية التي قامت على الثروة المعدنية، واتساع نطاق التجارة فيما وراء البحار بوساطة الجزء الذي ازدهرت بحريته ونمت في غرب البلاد.

ولربما كانت الجغرافية أكثر من غيرها من العلوم تتلون تبعًا للبيئة المحيطة بها وتبعًا لتأثيرها بدورها في هذه البيئة نفسها، ولهذا كان من الطبيعي أن يعنى الجغرافيون الألمان ـ الذين عملوا في غمرة قيام الوحدة السياسية والاتساع الإقليمي ـ أن يعنوا عناية خاصة بالجغرافية السياسية، وقد جعلوا منها فرعًا من فروع نظام جديد ينمو ويتطور بسرعة كبيرة.

ومع اقتراب القرن التاسع عشر من خاتمة مطافه بدأ الاهتمام الألماني المتزايد بالقوة البحرية يسير قدمًا مع الاهتمام الألماني القديم بالقوة البرية.

وفي هذه الفترة الزمنية الحرجة جاء الجغرافي «**فردريك راتزل**» Friedrich Ratzel بأول صياغة للجغرافية السياسية كدراسة علمية فنية، وقد ناقش في كتابه (الجغرافية السياسية)[(١)] (Politische Geographie) أغلب الموضوعات الرئيسية التي قد قبلت منذ ذلك الوقت على أنها من الاتجاهات الهامة الضرورية في العلم، وقد اعتبر راتزل - فيما قدم من موضوعات رئيسية - أن الحرب مرحلة هامة من السياسة ومن الجغرافية، وقد ذكر هذا بإيجاز في أكثر من ناحية من كتابه، وفي الطبعة الثانية التي صدرت سنة ١٩٠٣ تبدو كلمة الحرب كعنوان فرعي في دراسته للموضوعات الرئيسية مثل «**الدولة**» و«**المواصلات**»[(٢)] وهو يعرض هذا وغيره من الموضوعات عرضًا موضوعياً يتناسب مع دراسة علمية، وقد تطلبت مكانته العلمية أن يعالج النقاط السياسية في كيانها الجغرافي الكامل دون الإشارة إلى أي أمة بخاصة.

وقد سمح راتزل لنفسه في أواخر أيام حياته أن يندفع بعيدًا عن المسار الضيق للجغرافية العلمية نتيجة اتجاه المشاعر العامة في الأمة كلها نحو القوة الألمانية البحرية[(٣)]، على أن هذا يبدو وكأنه تباعد موقوت عن الاتجاه الذي كان يتبعه، إلا أن هذا يتطلب منا أن نوجه انتباهنا إلى خطر الخلط بين

---

(١) Friedrich Ratzel, Politische Geographie (Munich, Berlin, ١٨٩٧; ٣rd ed, ١٩٢٣).
يراجع بخاصة البيان التحليلي لمحتويات الكتاب، ودراسة راتزل للجغرافية السياسية ليس فيها ما يتماثل مع «الجغرافية العامة» التقليدية للوحدات السياسية والتي يمكن أن نجدها في الكتب الحديثة التي تعرض «الجغرافية السياسية».

(٢) Friedrich Ratzel; Politische Geographie order die Geographic der Staaten, des Verkehres und Krieges (Munich, Berlin, ١٩٠٣).

(٣) Friedrich Ratzel, "Flootenfrage und Weltfrage" Kleine Schrifen (Munich, Berlin, ١٩٠٦).

الجغرافية السياسية وبين الفضيلة السياسية[*] . ولكن هذا لم يجعل من راتزل عالمًا من أعلام سياسة الكرة الأرضية، فإن انصرافه عن الأسلوب الفني كان قد باعد بينه وبين الأسلوب الذي اتبعه الجيوبوليتكيون الذي جسموا من كل ما أوجدوه من أصول العلم ووجهوه لخدمة مصالح الدولة الألمانية.

ومع أن راتزل لم يكن من رجال علم الـچيوبوليتيكا فهو قد أسهم بنصيب كبير في العلم، ذلك لأن أولئك الذين أوجدوا العلم وصاغوا أصوله قد استعاروا بعض نظرياته لتكون دعامات للأصول التي وضعوها.

ولربما كان أقوى ما أخذ من نظريات راتزل رأيه من أن الدولة كائن حي معقد التركيب والبناء في بعض الأحوال، وقد ظهرت هذه الفكرة في عدد من فروع العلم، ويبدو أنها خرجت من نظريات داروين وغيرها من النظريات التقدمية التي جاءت في علم الأحياء[١] في القرن التاسع عشر، وقد آمن راتزل بالتشابه بين البناء الجغرافي والبناء السياسي من ناحية وبين الكائن العضوي من ناحية أخرى، وآمن بهذا كوسيلة نافعة لإبراز التماثل، ومع أن راتزل قد استخدم هذه النظرية من الناحية العملية إلى غاية ما استطاع فإنه كان يحذر الطابع المحدود الذي لها، وقد فشل الـچيوبوليتيكيون فيما بعد في إدراك الفصل الحاسم بين عالمي علم السياسة

(*) في الأصل: «Political fealty» ويمكن أن تعني كلمة fealty الإخلاص والولاء، على أن معجم ويبستر أوضحها في ص ٥٣٠ طبعة سنة ١٩٥٦ بأنها تعني الإخلاص والوفاء والاستقامة والعفة في المعنى الذي يمكن أن يكون لكلمة Fidelity.

(١) H. F.Raup "Trends in the Development of Geographic Botany" Annals of the Association of American Geographers vol. ٣٢ (١٩٤٢) pp. ٣٢٧, ٣٤١-٣٤٣.

وعلم الأحياء، وأقاموا كل أصولهم ومبادئهم على أساس تقبل أن الدولة كائن ونظام.

ومن التحليلات الأساسية لراتزل أيضًا نظرية الفضاء، أو المنطقة في تقدير ما، Raum "Space" المنطقة التي تحتلها مجموعات سياسية، وكانت هذه النظرية هي الجزء الخامس والأخير من دراسته، وقد أخذ الـچيوبوليتيكيون هذه النظرية وأطلقوا عليها اسم «**منطقة البقاء**» ـ «**منطقة الحياة**» Lebenstraum وقد أوجدت معالجتهم للموضوع مبدأ حق الدولة في منطقة الحياة، في النطاق الحيوي لها، على حين كان راتزل معنياً بدراسة العلاقات بين الدول بالنسبة لمنطقة الحياة هذه.

ولم يؤثر راتزل في التفكير الجغرافي لوسط أوروبا فحسب، بل أثر في التفكير الجغرافي في كل البلاد التي يتحدث أهلوها اللغة الإنجليزية، وفي فرنسا وغيرها من البلاد[١]. ومن ثم فقد اعتبر الناس راتزل موجد علم الجغرافية السياسية، كما اعتبروه الذي مهد الطريق لعلم الـچيوبوليتيكا وإن لم يكن موجد العلم ومنشئه.

* * *

على أن هناك مسألة لها أهميتها، فمع أن الخط الفاصل بين الجغرافية السياسية وبين علم سياسة الكرة الأرضية (الـچيوبوليتيكا) يبدي الفرق بين «**المعرفة**» وبين «**التثقيف والتفقيه الانتقائي**» إلا أن هذا الفاصل ليس سهل الوضوح، ومن ثم فإن بعض الدراسات التي تمت في فترة الانتقال بين إصدار مؤلفات راتزل عن «**الجغرافية السياسية**» وبين الحرب العالمية الأولى

(١) Hartshorne, op. cit, pp. ٢٩٧-٢٩٨.

عندما بدأت أصول الـچيوبوليتيكا تتبلور مما لا يمكن معه ـ على وجه التأكيد ـ أن توزع هذه المؤلفات بين مجموعة أو أخرى من الدراسات، وليس من الميسور القول ما إذا كانت من دراسات الجغرافية السياسية أو من دراسات الـچيوبوليتيكا.

وفي الوقت الذي كان فيه راتزل يعيد دراسة كتاباته؛ ويعيد طبعها وإصدارها، كان الجغرافي الإنجليزي هالفورد ماكيندر Halford Mackinder يفسر انتقال القوى بين الدول المعاصرة، وقد وضع ماكيندر نفسه موضع المعارضة من نظريات ومن وجهات نظر لـ «**ماهان**» Mahan كانت قد اكتسبت شهرة شعبية يوم ذاك لافتة الأنظار إلى نهضة الدول المنافسة لبريطانيا والتي تهدد سيادتها على محيطات العالم ذلك لأن: «**إمبراطوريات أخرى تبدأ تسجيل تاريخها، وقد راحت المرحلة «الأوروبية»** في التاريخ تذوي كما ذوت وانتهت مرحلة «**البحر المتوسط**» ومرحلة «**الأنهار**»[١] [*].

وقبل أن يمر وقت طويل، عرض هلفوررد ماكيندر هذا المعنى في دراسة قيمة قرأها على أعضاء الجمعية الجغرافية البريطانية (الملكية)، وفي هذه المحاضرة ذكر ماكيندر لأول مرة، وفي صورة كان لها طابع التنبؤ، أن فترة الاستكشاف العالمي الواسع النطاق للتعرف على الأرض المجهولة قد

---

(١) Halford J. Mackinder, Britain and the British Seas (London, ١٩٠٢; reprinted with additional notes, ١٩٠٦). Chap. ٢٠, p. ٣٥٠.

(*) في الأصل Fluviatile صفة من Fluvial، والكلمة من الأصل اللاتيني (Fluvia Fluvialis) تعني نهر، و ûnera تعني تصب أي مصب النهر، والكلمة في جملتها على ما وضحها معجم ويبستر ص ٥٩٩ طبعة سنة ١٩٥٦ (ما أوجدته أو كونته الأنهار) ويعني الكاتب هنا فيما اقتطعه من كلمات هالفورد ماكيندر.

«انتهت مرحلة الإمبراطوريات التي قامت وازدهرت في أحواض الأنهار». «المترجم».

انتهت، وأن نهايتها تعتبر بداية إقامة «**نظام**» سياسي مغلق على الأرض، أي نظام سياسي محدد لا سبيل إلى تعديله والخروج عنه، وأن: النقل الآلي يغير القوة المنسقة بين «**القوة البرية**» وبين «**القوة البحرية**».

وقد أوضح ماكيندر إمكانية إقامة توازن القوى على أن يكون هذا في جانب ولصالح الدول المركزية، الدول التي على المحور الذي تدور حوله باقي دول العالم، وقد فسر هذا بتصوير خريطة للعالم مستندًا في تفسيره إلى كتلة أور ـ آسية الأرضية قلب العالم، وإلى التهديد الذي لها على القوى البحرية[١].

وبعد خمس عشرة سنة زاد من أفق نقاشه وجسَّمَ من تنبؤاته في كتابه "Democratic Ideals and Reality"[٢] وكان هدفه قياس الطابع البارز النسبي للكرة الأرضية في ضوء تجارب حوادث التاريخ بها في هذا تاريخ السنوات الأربع الأخيرة، ثم تقدير كيف يمكن أن نكيف من آرائنا عن الحرية مع الحقائق القائمة في العالم الأرضي الذي نعيش فيه[٣].

وقد جاءت الحرب بما حققه السياسي الجغرافي في دراساته، جاءت به إلى مجْلَد السياسة العملية، وكان هذا ـ تبعًا لناحية من التعريف العام للعلم ـ يعتبر من دراسات الـچيوبوليتيكا، وفي نفس الوقت كان الـچيوبوليتيكيون الألمان قد انتفعوا بالحديث الأصلي عن نظرية الأرض الداخلية كما وضعها

---

(١) Halford. J. Mackinder, "The Geographecal Pivot of History" Geographical Journal Vol. ٢٣ (١٩٠٤) pp. ٤٢١-٤٤٤.

(٢) Halford J. Mackinder, Democratic Ideals and Reality (New York, ١٩١٩; republished ١٩٤٢).

(٣) نفس المرجع طبعة سنة ١٩٤٢ (ص٤).

ماكيندر سنة ١٩٠٤ ليخدموا به مصالح ألمانيا، وفي هذه الصورة كانت هذه النظرية واحدة من الأصول السياسية لتنظيم العالم في الطابع الذي اقترحوه هم.

وفي فجر الحرب العالمية الأولى كتب الجغرافي الإنجليزي چيمس فيرجريڤ James Fairgrieve كتابًا وسم بعنوان له طابعه المميز: «**الجغرافية والقوى العالمية**»[١]، وكان الجزء الأكبر من هذا الكتاب تصويرًا تخطيطياً للجغرافية السياسية للمناطق السياسية الرئيسة في الكرة الأرضية في الماضي والحاضر، وقد قام المؤلف في الفصل الأخير من كتابه (بمحاولة الكشف عن إمكانيات حدوث أي تغيير أو تقدم جديد)[٢].

وفي نفس الوقت كتب رودولف كـچلين العالم السياسي السويدي كتابًا نشر قبل كتاب فيرجريـڤ بشهور قليلة قدم فيه دراسة عن ثماني دول كبرى معاصرة، وقد ترجم الكتاب إلى الألمانية ونشر قبل نهاية سنة ١٩١٤[٣]، ومما يستحق الملاحظة أن تكتب هذه الكتب وأن تصدر قبل أن تخوض الدول الكبرى غمار حرب في مستوى لم يعرفه العالم من قبل، على أنه يبدو أيضًا بأن هذه الدراسات كانت استجابة لوعي متيقظ في البيئة الطبيعية كأساس للقوة الوطنية في العصر الجديد عصر «**النظام السياسي المغلق**» في الكرة الأرضية.

---

(١) James Fairgrieve, Geography and World Power (London ١٩١٥; New York, ١٩١٧; republished with addenda, ١٩٤٢).

(٢) نفس المرجع طبعة سنة ١٩١٧ ص ٣٣٠.

(٣) Rudolf Kjellén, Die Grossmâchte der Gegenwart (Leopzig and Berlin, ١٩١٤).

ومـــرت سنتـــان، وأصدر كـچلين كتابه «**الدولة كعضو حيوي**»[١] The State as an Organism ، موضحًا وجهة نظره في السياسة، وقد اعتبر المؤلف وجود خمسة أقسام فرعية للسياسة أطلق على أحدها «**الـچيوبوليتيكا**»، ولكن يبدو أنه قد اعتبره في التعريف الذي قدمة: «**صنوًا للجغرافية السياسية**»[٢].

وقد تأثر كـچلين بالحرب وأصدر مؤلفات أخرى استخدم فيها الـچيوبوليتيكا للدفاع عن قضية ألمانيا، وتكشف مؤلفاته عن تحول مليء بالحماسة نحو العلم الطبيعي دون أن يحدد من هذا التزمُت الفني للعلم، فهو على سبيل المثال يناقش أمر الدولة ككائن مستخدمًا المطابقة التي قدمها راتزل وكأنها مبدأ أساسي، أو كأنها قانون طبعي لا سبيل إلى نقضه، ولكني أعطي الـچيوبوليتيكا تسمية تطلق على العلم، كما أنه وافق على نظرية وفكرة الفراغ أو المساحة في الطابع الذي ظهر فيها بعد السياسة النازية، ولكن على حين عمل ماكيندر لاستخدام الجغرافية كوسيلة تعاون الفراهة في سياسة الدولة، عمل كـچلين لإيجاد أسلوب لهذه الفراهة يقوم على أساس الجغرافية.

على أنه عند نهاية الحرب العالمية الأولى كان اصطحاب الجغرافية والسياسة قد أوجد «**الـچيوبوليتيكا**»، وقد نمت وازدهرت في ألمانيا حيث شغلت آثار الهزيمة كل السكان، واستخدم آراء كـچلين ومصطلحاته نفر من العلماء الألمان التوَّاقين لاستخدام كل ما يتوافر لهم من معرفة عن

---

(١) Rudolf Kjellén, Staten som Lifsform (Stockholm, ١٩١٦); translated into German under the title , Der Stast als Lebensform (Leipzig ١٩١٧).

(٢) نفس المرجع ص ٤٣ من النسخة الألمانية التي صدرت سنة ١٩٢٤ .

الأرض لمعاونة ألمانيا في استعادة مكانتها في مصاف الدول الكبرى.

ـ ٢ ـ

ولم يكن الاهتمام بالشئون العسكرية شيئًا جديدًا في ألمانيا، كانت الولايات الشرقية في ألمانيا من البداية الأسوار الحجرية التي تسد طريق جحافل الناس القادمين من أور ـ آسية من غير الألمان، تسد طريق اندفاعهم للغرب، ثم كانت بعد ذلك رءوس الحراب للاندفاع الألماني في اتجاه مضاد نحو الشرق بقصد إنشاء المستعمرات الألمانية في الشرق، هذا الاتجاه الذي أطلق عليه المؤرخون الألمان: «**الاتجاه نحو الشرق**» Drang nach Osten وقد أوجدت الاستعدادات العسكرية التي استمرت لقرون دولة ذات طابع عسكري، كما أوجدت بين الأهلين عقلية عسكرية، بدأت أولاً في بروسيا ثم انتشرت منها بعد ذلك حتى كانت عقيدة كل الأفراد في الإمبراطورية الألمانية بأسرها.

وقد اشتركت في المجتمع الزراعي نظرة تحفظية في السياسة مع ولاء للملكية، على أن هذا كان طابع الحياة في أوروبا كلها في طوال الفترات التشكيلية في العصور الوسطى عندما كانت تربة الأرض هي المورد الطبيعي الوحيد للناس يستغلونه على درجة ما استغلالاً كاملاً، وقد تركت الثورات التجارية والصناعية والزراعية التي مكَّنت من استحداث البناء الاقتصادي والسياسي لبناء غرب أوروبا، تركت باڤاريا وأراضي بروسيا فيما وراء الألب بمنجاة من كل مؤثر.

كانت هذه الولايات تفتقر إلى المعادن التي تمكن من قيام حركة تعدين واسعة النطاق وحركة تصنيع مماثلة اللهم فيما عدا الركن البعيد في أرض

سيليزيا التي لم تستغل إلا في تاريخ متأخر للتأثير في التفكير السياسي، ولا تقل بروسيا عن باڤاريا في اعتبارها منطقة برية شبه مغلقة، ذلك لأن البلطيق بحر داخلي لم يقدم في العصر الحديث إمكانيات بحرية، ومن ثم فإن ولايات ألمانيا الشرقية قد شعرت بطريق غير مباشر فقط بالتجارة عبر المحيطات، ولقد أثبتت تربة أرضها عدم استجابتها للمخصبات، ولم تشجع فقط توزيع الإقطاعيات الزراعية الواسعة الموروثة منذ العصور الوسطى، وبقيت الزراعة أساس الحياة الاقتصادية في البلاد، وبقيت الصور السياسية والصور الشخصية دون تعديل، وسيطرت على الرأي العام في المجتمع هذه المثل التي جاءت بها القرون الوسطى.

وعلى نقيض هذا، اكتسحت أرض ألمانيا الغربية في القرن التاسع عشر موجة من التطبيق العملي أوجدت صناعة ذات كفاية، كما أوجدت زراعة قوية وحركة نقل واسعة، واستطاعت التربة الخصبة بوساطة التدابير العلمية أن تنتج المزيد، ووجدت المعادن في شمال غربي ألمانيا، واستطاعت الإمبراطورية الألمانية أن تقيم زعامة صناعية، وفي الشمال الغربي أيضًا كان الساحل البحري الذي شجع على قيام تجارة خارجية عبر المحيطات، ومهدت الآراء الثورية التي انتشرت في غرب ألمانيا مع بدء حملات نابليون لغزو أوروبا، مهدت الطريق لحركة انتقال فنية، ولكن قد يكون من الضروري أن نذكر هنا أن بروسيا قد قاومت هذه الآراء الثورية مقاومتها للدعاية التي ينشرها العدو.

على أنه مما يستحق الاهتمام أن بروسيا مع طابع رد الفعل، أو بمعنى أدق برغم وقفتها المتحفظة من الآراء التقدمية في البناء الاجتماعي وإطلاق الفكر، قد نجحت في أن تتولى زعامة ألمانيا طوال نصف القرن الذي تبع

سقوط نابليون.

وهكذا ورثت بروسيا الدولة ذات الطابع العسكري التي يسيطر عليها ملاك الأراضي الإقطاعيون، ورثت أقاليم تتقدم فيها الصناعة بسرعة مصحوبة بتطور وتغيير في الطابع الاجتماعي، وجاء نتيجة لهذا الكفاح تفهم طيب للأوضاع القائمة، فمنح الغرب حماية جمركية لصناعاته مع تبني الحكومة للتجارة فيما وراء البحار ومع بناء أسطول كبير، وحصل الشرق على حماية ما تنتج أرضه من غلات مع جيش قوي، ومع سيطرة الطبقة الحاكمة من كبار ملاك الأراضي كعنصر له السيادة على الحكومة الوطنية الجديدة.

وقد مرت ألمانيا بمرحلتين في المدة بين قيام الوحدة فيها سنة ١٨٧١ وبين الحرب العالمية الأولى، ففي البداية أوقفت حقبتان من السنين لدعم الترتيبات لإعادة التنظيم السياسي والاقتصادي السابق، وتبع هذا ربع قرن من قيام طابع اعتدائي يتمثل في المطالبة باتساع بري نحو الشرق، بل وفي الاتساع في نطاق الأطلنطي وفي كل مكان من العالم بوساطة القوة البحرية والمستعمرات فيما وراء البحار.

وقد تصايحت بهذه الأطماع «**العصبة الألمانية**» وجماعة الأسطول الألماني بل وحتى الإمبراطور، وقد لا تزيد هذه الصرخات عن أن تكون مثل فقاعات الصابون التي تطفو فوق سطح الماء، ولكن كان لها طابعها البارز بسبب أنها كشفت عن التيارات القوية في الحياة الألمانية والتي كانت تفوض البناء السياسي للمجتمع الغربي.

وكان أوضح هذه التيارات ارتقاء ألمانيا إلى مصاف الدول القوية،

وبالتبعية اضطراب «**توازن القوى**» بين الدول الأوروبية، وكان ذلك في نفس الدرجة من الأهمية والحرج وإن كان أقل وضوحًا، هذا الانقسام والتشعب بين شرق ألمانيا وغربيها في الاقتصاد وفي البناء الاجتماعي وفي العادات وفي النظر إلى الحياة بعامة[١]، وإن كانت عادة التفكير العسكري قد راحت دون أن تبدو واضحة ملموسة تنتشر في كل أنحاء ألمانيا، وقد ظهرت ثانية في ألمانيا هذه القوى السياسية الثلاث في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

* * *

ولقد بقيت ألمانيا إلى وقت ما معدومة القوة لا حيلة لها بإعادة تنظيم خريطة أوروبا الجديدة، ولكن السلطات القوية في ألمانيا لم تتوقف قط عن رسم مصورات لتعديلات إقليمية مصورات يمكن استخدامها في المستقبل، ومن الممكن تفسير نجاح سياسة ألمانيا الخارجية على ما رسمها هتلر في كتابه «**كفاحي**» بهذه المصورات التي أعدت لأغراض التعديلات الإقليمية ولأغراض التوسع.

ومهما كان مدى القوة الثورية التي توافرت للاشتراكية إثر انهيار ألمانيا سنة ١٩١٨ فمما لا شك فيه أن هذه القوة قد ضعفت على إثر تولي الأحزاب المعتدلة الأمر سنة ١٩١٩ في التحالف الحزبي الذي قامت على أساسه جمهورية ڤيمر، على أن الاتجاه نحو «**اليمين**» كان أكثر وضوحًا بعد الاحتلال الفرنسي لأرض الروهر سنة ١٩٣٣ عندما حصلت الصناعات الثقيلة والأعمال الكبيرة لأول مرة في تاريخ الجمهورية الفتية على نفوذ قوي

(١) Derwent Whitlesey. The Earth and the State (New York, ١٩٣٩) , chap. v.

في الحكومة، وكان تطور السياسة الخارجية الاعتدائية ما زال واضحًا صريحًا غير مبهم، وكان انتخاب هندنبرج رئيسًا للجمهورية ورمزًا للدولة دليلاً على أن ملاك الأراضي الإقطاعيين في بروسيا الشرقية قد استعادوا سيطرتهم على الحكومة الوطنية.

كان الـچنرال الشيخ أيضًا رمزًا للعسكرية التي كانت لبعض الوقت تنتشر من مواقعها التي توارت فيها في بروسيا الشرقية، تنتشر في كل أنحاء ألمانيا، وقبل نهاية سنة ١٩١٩ عادت هيئة أركان الحرب إلى الوجود وراحت تعمل لاختراق معاهدة ڤرساي، على أنها لم تظهر علانية إلا في سنة ١٩٣٥ وعادت إلى الوجود مع بدء عملية التجنيد للجيش الوطني.

وقد هلل الناس لكل خطوة يقوم بها حزب النازي لإعادة تسليح ألمانيا، ولم يحدث هذا في بروسيا فحسب، بل في كل أنحاء ألمانيا، وفي نفس الوقت أعيد تنظيم الاقتصاد الوطني لإمداد الجيش بالعتاد حتى يستعيد لألمانيا مكانها كالدولة القائدة في قارة أوروبا[١].

ومع تحول صناعة الحرب لزيادة الجانب المقاتل بين السكان في كل دولة حتى انتهت بأن اكتسبت الطابع الشامل الذي لها اليوم، فإن الجغرافية العسكرية في نفس الأسلوب قد نمت إلى ما وراء المشاكل التكتيكية لتباين صور الأرض، وإلى ما وراء الخطط الاستراتيـچية للعمليات العسكرية.

فهي تعني اليوم بالإضافة إلى هذا ـ «**بمسح**» بتقدير الموارد الطبيعية لكل الدول التي يمكن أن تشترك في القتال، وكذلك الدول المحايدة التي يكون لها نفعها والاستعانة بها في هذا، مع التخطيط لأماكن إقامة المصانع

(١) A.T. Lauterbach, Economics in Uniform (Princeton, ١٩٤٣), Chaps. ٣-٤.

التي تنتج مواد الحرب، ودراسة المخترعات التي يمكن أن يوصف هذه الأعمال بأنها من الاستراتيـچية السياسية، ولقد اعتبرت حديثًا في عداد الاستراتيـچية العسكرية[١].

ولقد كانت ألمانيا أول دولة قدرت قيمة الاستراتيـچية السياسية كمعوان للحرب، وإدراك أنها تنغمر إلى أعماق الجغرافية، وقد عاونت الدولة ـ في ألمانيا ـ عمليات الاستكشاف والمسح الجغرافي، وكانت هذه خطوة قصيرة نحو معاونة الدولة بإسهام الجغرافية في الاستراتيـچية السياسية.

ولقد وجه الـچيوبوليتيكيون لجعل الجغرافية تخدم ألمانيا العسكرية، وكان واجبها أو دورها في هذا أن تجمع المعلومات الجغرافية وتحولها لخدمة أغراض الحكومة، وتقديم بعضها للشعب في صورة من صور الدعاية.

---

(١) «لو وجهت كل موارد الأمة للحرب فإنه من الضروري وقايتها والسيطرة عليها بوساطة السلطة السياسية في البلاد، لا بوساطة السلطات العسكرية وحدها، وذلك على أساس أن الإصطلاح المستخدم هنا هو: «الاستراتيـچية السياسية».

وقد استخدم هذا الاصطلاح نفسه في دراسة للحرب الحديثة من وجهة نظر علم السياسية على لسان ادورد ميد ايريل في محاضرة له بأكاديمية العلوم السياسية في الاجتماع السنوي لها لبحث «الدفاع عن الولايات المتحدة»، وكانت المحاضرة بعنوان:

(Political and Military Strategy for the United States).

وكان هذا بنيويورك في الثالث من نوفمبر سنة ١٩٤٠، ونشرت في المجلد ١٩ لسنة ١٩٤١ من مجلة :

Proceedinges of the Academy of Political Science,

الصفحات من ٢ إلى ٩، وقد قدم المؤلف اصطلاح الاستراتيـچية الكبرى Grand Strategy في صفحة ٧ للحديث عن سياسات وتسليح الأمة.

لاحظ أيضًا ما جاء في:

The Axis Grand Strategy: Blueprints for the Total War (New york, ١٩٤٢).

- ٣ -

وقد ارتبطت الحقبات البارزة في التاريخ الألماني والتي بدأت بالوحدة السياسية، ارتبطت بحياة كارل هوزهوڤر الذي جعل من نفسه «**مفرخة**» (مكان تفريخ) الـجيوبوليتيكية الألمانية، وكل حركة في العالم تجيء وثيقة الصلة بشخصية ما.

ولكن مثل هذا الطابع البارز القوي في هذه الحال التي نحن بصددها لتقدم لنا التكيف الفريد في بابه بين الرجل وبين صناعته[١].

ولد هوزهوڤر في ميونيخ عاصمة باڤاريا في فجر الحرب الفرنسية الباقارية، وكانت باڤاريا دولة زراعية، للزراعة فيها السيادة على أية حرفة أخرى. وكان هذا بسبب أنها لاتمتلك أي موارد معدنية، وكان هوزهوڤر من أسرة قديمة تمتلك إقطاعيات من الأرض الزراعية، قبل جيلين أو ثلاثة أجيال من تحول أفرادها إلى الأعمال التي يمارسها أفراد الطبقة الوسطى في المدن.

وقبل الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ كانت باڤاريا ولاية انعزالية كاثوليكية متحررة، على نقيض الاتجاهات القومية البروتستانية والرجعية للطبقات البروسية الحاكمة في برلين، ولكن بعد هزيمة سنة ١٩١٨ كانت باڤاريا معقل الملكية والحركة المضادة للجمهورية، وكانت قبل كل شيء مكان ميلاد حركة هتلر الاشتراكية وغيرها من الجماعات السياسية المماثلة. وفي هذا الجو الذي تبع الحرب قام هوزهوڤر ليكون شخصية وطنية

(١) للمزيد من التفاصيل راجع التسلسل الزمني لحياة كارل هوزهوڤر الصفحات (٨٠-٨٢).

فذة في المجتمعات لخارج الدوائر العسكرية، وسنحت له الفرصة ليكون له نفوذه وتأثيره في الحركة النازية.

***

وبعد أن أتم هوزهوفر دراسته الأولية المحلية سنة ١٨٨٧ بدأ حياة عسكرية دلت على كفايته، وفي هذه السنوات التي كان لها دورها في تشكيل وتكوين شخصية عني عناية كبيرة بعلم الجغرافية. واقتنص كل ما توافر من فرص ليتعرف أوروبا عن طريق السياحة والتجوال[١].

وقد عمل أكثر من مرة للجيش الباڤاري وتولى التدريس في كلية أركان الحرب، فلما أوشك على الأربعين كان قد دلل على عنايته واهتمامه ومهارته في صناعة الحرب وفي علم الجغرافية وفي التدريس بالجامعة.

وفي مطلع سنة ١٩٠٩ رحل إلى الشرق، وقد قال عن هذا: «**درست ـ بالإضافة إلى ما قمت به من رحلات في الهند وجنوب شرق آسية ـ الجيش الإمبراطوري الياباني لمدة ستين**»[٢]، وقد رحل إلى الشرق الأقصى بالبحر، فتوقف في الهند، وفي أماكن أخرى، وعندما وصل إلى طوكيو لم يعن بما كلف به من هيئة أركان الحرب بدراسة الجيش الياباني، بل عني بدراسة اللغة اليابانية، وقد قضى بعض الوقت في التجوال بجنوب شرقي آسية، وقد قام بدراسات منتظمة في وسط اليابان وجنوبها، وفي كوريا ومنشوريا وشمال

---

(١) Karl Haushofer, "Der deutsche Anteil an der geographischen Erschlieszung Japans und des subjapanischen Erdraums, und deren Förderung durch den Einflusez von Krieg und wehrpolitik" Mitteilungen der geographischn Gesellschaft in München (Munich, ١٩١٤), Vol. ٩. P. ١١١.

(٢) نفس المرجع السابق ص ١١١ – ١١٢.

الصين، ثم قضى ما بقي من الستتين يتنقل بين مختلف الأسلحة العسكرية اليابانية. وفي صيف سنة ١٩١٠ عاد إلى وطنه عن طريق سيبيريا.

وبوصوله ألمانيا عاد إلى كلية أركان الحرب لإلقاء محاضرات عن تجاربه خارج البلاد، «**وتبعت ذلك فترة طويلة من المرض.. ثم إجازة طويلة**»[1] واستمر في هذا التقاعد الذي وصفه بالإجازة الطويلة والتي استمرت من سنة ١٩١٢ حتى بدء الحرب العالمية الأولى، فقد استدعى من جديد لخدمة الجيش.

وفي هاتين السنتين أصدر كتابين عن اليابان، أطلق على أولهما عنوان: Dai Nihon[2] العنوان الذي يمكن أن يترجم إما بكلمتي «**اليابان العظيمة**» أو «**اليابان الكبرى**»، أي اليابان في اتساعها وامتداد أرضها، وهي تسمية يمكن أن تتمشى مع كلمتي «**ألمانيا الكبرى**» التي كانت ولابد عن قصد، وكان هذا الكتاب هو الحديث الأول من سلسلة من الدراسات عرض فيها هوزهوفر للتطور الياباني وللأطماع اليابانية في ضوء براق خاطف.

وقد قدم الكتاب الثاني كدراسة عرضت على جامعة ميونخ لنيل درجة الدكتوراه، وقد منحت له درجة الدكتوراه سنة ١٩١٤ في الجغرافية والـچيولوچية والتاريخ، مع مرتبة الشرف الممتازة، وكان العنوان الطويل الذي وسم به الكتاب يعتبر وصفًا لموضوعه أيضًا؛ فقد كان:

«**نصيب ألمانيا في الفتح الجغرافي لليابان والأرض نصف اليابانية،**

---

(١) نفس المرجع ص ١١٢.

(٢) Karl Haushofer, Dai Nihon; Betrachtungen über Gross Japans Wehrkraft, Welstellung und Zukunft (Berlin, ١٩١٣).

وتقدمها في ضوء تأثير سياسات الحرب والدفاع»[١].

وقد وجه هوزهوڤر هذه الكتب بأهداف مختلفة، فهو قد أعد "Dai Nihon" لعامة القراء ولمس فيه حوافي علم الجغرافية السياسية. وقد كتب كتابه مقدرًا أن «**التلخيص الفني لما حصلت عليه من ثقافة جغرافية هو الذي يمكن أن يسمح لي بأن أستخلص كل ما في تجاربي العملية من نفع في خدمة السياسة الخارجية**»[٢].

وفي هذه المجلدات الأولى برز إلى الضوء اهتمام هوزهوڤر بالموضوعات العسكرية والجغرافية، وفي تقدير هوزهوڤر لراتزل نقل عنه حديثه عن أهم ما جاء في علم الجغرافية «**كان ثمرة جهود الرحالة على طرق القوافل، والرحالة في البحر، ورجال الدين، والجنود، والتجار**»، وقد بدأ الرحالة العسكري هوزهوڤر دراسته الفنية لجغرافية اليابان بنقله عن الإمبراطور هرقل Heraclitus[*] كلماته أن «**الحرب أصل كل الأشياء**» وتابع في ضوء هذا حديثه عن نشاطه الثقافي، «**نشاط جندي يتضح أنه اتجه إلى ميدان البحث العلمي للجغرافية عن طريق الجغرافية العسكرية، وإلى هذه المرحلة فإنه يود أن يوضح أهمية كلمات Heraclitus في هذا الميدان وصحة الانصياع لها واتباعها**»[٣].

ولم ينصرف هوزهوڤر عن الاقتراب العسكري لدراسة الجغرافية، ـ

---

(١) في الهامش رقم ٢٠ اسم الكتاب بالألمانية.

(٢) نفس المرجع ص ١١٢.

(*) Heraclitus الإمبراطور البيزنطي عاش بين ٥٧٥ (؟) - ٦٤١ ميلادية وتولى الحكم من ٦١٠ إلى ٦٤١ ميلادية.

(٣) نفس المرجع ص ١.

أي دراسة الجغرافية من وجهة النظر العسكرية، ـ طوال السنوات التالية، بل على النقيض فإن تجارب سنوات الحرب الأربع قد أكدت هذا له.

ومن المؤكد أن الجغرافية العسكرية ليست اكتشاف هوزهوفر، بل ربما تكون قديمة قدم الجيوش نفسها، فالاستراتيـجية والتكتيك يتوقفان في كل موقف على البيئة الطبيعية. ولقد كان هذا النوع من علم الجغرافية يدرس في المعاهد العسكرية، ولقد قدر ضباط الجيش في البلاد التي تتحدث الألمانية قيمة الجغرافية كنافذة يمكن أن يطل منها الفرد على العالم، وكان هذا قبل عصر هوزهوفر بكثير.

ولقد درس مولتكه الكبير الجغرافية الحديثة في القرن التاسع عشر، وبعد أن تولى مولتكه رياسة هيئة أركان الحرب الألمانية ـ إن لم يكن قبل هذا ـ عني الجيش عناية كبيرة بعلم الجغرافية وبخاصة للضباط أركان الحرب.

على أنه ربما كان الأهم من هذا نفوذ ريتر وتأثيره في رون Roon وزير الحربية الأشهر وصديق مولتكه، وقد كتب رون كتابًا قيمًا في الجغرافية السياسية بتوجيه ريتر، واستخدم هذا الكتاب على نطاق واسع في مدارس إعداد الضباط البروسيين وفي معاهد الدراسة الثانوية البروسية[١].

ولربما يكون هوزهوفر لهذه الفرص غير العادية التي هيأت له دراسة

(١) Grundzüge der Erd, Völker – und Staatenkunde (١٨٣٢).

وكأنموذج طيب مماثل من قلم رون وإن كان في طابع أولى، كتاب:

Die Anfansgründe der Erd – Volker – und Staatenkunde.

الصادر سنة ١٨٣٤، للمزيد من التفاصيل عن رون راجع ما جاء في قاموس الشخصيات الألمانية.

Allgemine deutsche Biographie.

المشاكل الجغرافية للاستراتيـچية والتكتيك قد طبق ما توافر له من معرفة في نطاق ضيق عند عمله كضابط مدفعية، إلا أن حياته العسكرية في وظائف أركان الحرب ورحلاته أكسبتاه التجربة والاتصال الشخصي مما استمر يصحبه في سني حياته التي تلت الحرب العالمية الأولى.

- ٤ -

وقد خفض الجيش الألماني تبعًا لنصوص اتفاقية الهدنة ومعاهدات الصلح إلى ما يزيد قليلاً عن قوة بوليسية، وقد ألغيت هيئة أركان الحرب، وعاد هوزهوڤر من جبهة القتال ـ مثله في هذا مثل كثيرين غيره من الضباط ـ عاد يحمل رتبة عسكرية كبيرة ليتقاعد من خدمة الجيش العامل، وتوارت الروح العسكرية مستترة عن العيان بفعل المتصرين، على أنه من المعروف جيدًا اليوم أن هيئة أركان الحرب الألمانية قد بقيت قائمة خفية بعمل الـچنرال ڤون سيخت الذي استعان بكل وسيلة مستطاعة لإيجاد ما يمكن من إنعاش الآراء والأهداف العسكرية التي تتعمق في الفكر الألماني وفي بناء الحكومة الألمانية منذ وقت طويل، وكان بين معاوني سيخت أوسكارڤون نيدرميير Oskar Von Niedermeyer زميل هوزهوڤر في هيئة أركان الحرب الباڤارية والذي عمل خارج ألمانيا وبخاصة في روسيا لمهمة كتلك التي ذهب لأجلها هوزهوڤر للشرق الأقصى.

وقد تطلب عمل ضابط الجيش النابه اليقظ بعد سنة ١٩١٩ ـ أكثر مما تطلب في أي وقت سابق ـ العناية بالدراسات الجغرافية وفي نطاق عالمي فسيح، فإن الطابع الميكانيكي الذي لحق بصناعة الحرب، وزيادة اعتمادها على الطاقة الإنتخابية في أرض الوطن قد مدّا من الانتفاع بالجغرافية في

المشكلات التكتيكية ومشكلات إمداد القوات المحاربة في جبهة القتال، امتدا إلى التسليح الواسع النطاق وإلى انتشار الصناعات بمستوى الأمة كلها، وإلى الإعداد المعقد لعتاد الحرب من موارد تستورد من مصادر في أركان العالم الأربعة.

على أنه لأسباب واضحة لا تنشر أي هيئة من هيئات أركان الحرب مطبوعات توضح نشاطها وتكشف عنه، ولكن تدل المعلومات التي برزت إلى الضوء أن هيئة أركان الحرب قد وجهت عنايتها إلى الدراسات الجغرافية الواسعة لبحث كل المصادر التي يمكن الحصول منها على احتياجات إمداد القوات الألمانية، كما عنيت بدراسة كل المناطق التي يحتمل القتال فيها.

ومع ازدياد نطاق وسعة مساحة الأطماع الألمانية غطت هذه البحوث الجغرافية وجه العالم كله. على أن جزءًا كبيرًا من هذا العمل لم يتم بوساطة هيئة أركان الحرب، بل قامت به هيئات أخرى لها صلات بالعمل الذي أوكل إليها، وكانت غالبية هذه الهيئات جغرافية الطابع.

والواقع أن كارل هوزهوفر يحتل مكانة خاصة بين أولئك الذين عملوا لإحياء الجيش الألماني وإن كان قد تحول مرة أخرى من حياته كضابط في الجيش إلى حياته كجغرافي، وأعطاه تعيينه كمحاضر عن الجغرافية في جامعة ميونخ القاعدة التي أقام عليها «**الچيوبوليتيكا**» سياسة الكرة الأرضية كدراسة ثقافية وكأسلوب من أساليب «**صناعة الحكم**»[(١)] .

وقد سار تقدمه الأكاديمي متوازيًا مع زعامته ورياسته للجمعيات والمنظمات الجغرافية، وهذه على حين أنها تبدو كأعمال دراسية قام بها وحده

---

(١) تتضح مراحل حياته بعد الحرب في السجل الزمني لهذا في آخر هذا الفصل.

خاصة به أو بإشراف الجامعة إلا أنها كانت بين الوسائل التي استخدمتها هيئة أركان الحرب في فترة استتارها ثم بعد أن خرجت علانية إلى الضوء.

وكان من الطبيعي أن يعود هوزهوڤر إلى بلدته وإلى جامعته، ولربما كانت أكثر من مصادفة أن تكون ميونخ أيضًا مكان فورة مشرب البيرة ومكان مولد حزب النازي.

كانت باڤاريا قد بقيت مخلصة للتقاليد الزراعية والتقاليد الملكية لألمانيا القرون الوسطى فإن افتقارها إلى المصادر للمعادن قد عطل من قيام الأعمال الصناعية الكبيرة بها، ثم أن بُعدها عن برلين قد جعلها مكانًا صالحًا للتآمر على الحكومة القائمة بالأمر، ولكنها في نفس الوقت تصلح أيضًا كمكان لنشاط لا يتسرب إليه الشك تقوم به هذه الحكومة لإحياء القوة العسكرية على نقيض ما تنص المعاهدات التي وقعتها هذه الحكومة، على أن احتفاظ باڤاريا بهيئة أركان الحرب الخاصة بها قد جعل الجيش الباڤاري يتولى الزعامة في الدراسات الجغرافية حتى بدء الحرب العالمية الثانية على ما توضح حياة كارل هوزهوڤر.

وقد عاونت عوامل أخرى على إيجاد جو ثقافي صالح للـچيوبوليتيكا في ميونيخ، كان ريتزل الصغير يتولى تدريس الجغرافية هناك، وكان آزوولد سبنجلر ـ بآرائه الفلسفية عن مصائر مناطق مختلفة من الأرض، كان ما زال يعيش ويتولى التدريس هو كذلك في ميونيخ، وكان لوندورف الرجل الذي يمثل فكرة الحرب الشاملة وديكتاتور ألمانيا العسكري في الشهور الأخيرة من الحرب العالمية الأولى، كان هو كذلك قد تقاعد من الجيش ونزل مدينة ميونيخ للاقامة بها، وقد أسهم في الكثير من الأعمال العامة واشترك مع العناصر المتطرفة بما في هذا فورة مشرب البيرة التي قام بها جيش النازية،

وكانت باڤاريا موطن آل ڤاجنر من رواد الحركة النازية ومن أنصار التقاليد الألمانية / النوردية(*) Nordic German التي كانت مظاهرها تمجد في أوبرات ڤاجنر (١٨١٣ - ١٨٨٣).

* * *

والواقع أنه كان من المظاهر الواضحة أن الكثير من غير الألمان كانوا يقفون إلى جانب وجهات النظر البروسية أكثر وأقوى مما يقف البروسيون أنفسهم، كانت ميونيخ هي المركز الأساسي خارج بروسيا حيث كان الألمان يدعون «**للبروسية**» بما في هذا الطابع العسكري الغلاب على كل شيء.

وقد اشترك هوزهوڤر إثر عودته من الحرب مع عدد من الجغرافيين، وقليل من علماء السياسة والناشرين ليتعاونوا معًا على إخراج علم الـچيوبوليتيكا إلى الوجود، وكان أغلب هؤلاء الرجال من زملائه وعشيرته في الدراسة والتدريب وأقرانه في المركز، وفي نهاية الحقبة من السنين كان جل هؤلاء قد انصرفوا في هدوء بعيدًا عن الحركة، فحل مكانهم أنصار هوفر وطلبته، وكلهم من صغار السن، وقد قلدوا أستاذهم، واتبعوا وجهات نظره بل حتى قلدوا أسلوبه في الكتابة والتحرير.

ومع هذا كان هؤلاء أقل نجاحًا في التشبه به في «**عدم الانحياز**»، ولما كانت كل الدراسات الألمانية عن الـچيوبوليتيكا قد جاءت في الأسلوب الذي وضعه هوزهوڤر فلم تبذل أية محاولة لتوجيه الفضل في أي شيء منها إلى مؤلف

(*) Nordic German، وتعني كلمى Nordic أحد الأقسام الرئيسية في الجنس القوقازي وهم طوال الأجسام طوال الرؤوس (نسبة رأسية عالية ـ انثروبولـچي) وهم سكان شمال أوروبا مثل سكان اسكنديناوة ـ معجم ويستر ص ١٠٠١، قاموس النهضة لاسماعيل مظهر ص ١٤٢١.

بالذات، بل نظر إلى جملة البحوث وكأنها واردة من مصدر واحد[١].

ولقد فاض معين المصدر بالكلمات ولكن لم تخرج عن هذا المصدر ينابيع تجري فيها الآراء، وسبب تكرار الإلقاء بالدلاء إلى المصدر الخروج بمزيج من النظريات والبرامج للعمل والدعاية[٢]، وعندما حللت هذه الحصيلة من المعرفة وجد أنها تحتوي موضوعات مستقاة من عدد من العلوم الاجتماعية المختلفة من الـچيولوچيا، علم طبقات الأرض، إلى «**السيكولوچي**» علم النفس، وكان الموضوع الأساسي في هذا المزيج من النظريات والبرامج المسائل الخاصة بالمساحة[*] ذلك لأن المطالب التي فرضت على الـچيوبوليتيكيين لتوجيه صناعة الحكم قد وضعت كلها على أسس علم الجغرافية.

وقد كشف البحث الموضوعي لدراسة نظريات وآراء الـچيوبوليتيكيين الخاصة بالمساحة[٣]، كشف عن نواح خمس فقط برزت

---

(١) Andreas Dorpalen, The Worid of General Haushofer (New York, ١٩٤٢). & Derwent Whittlesey, German Strategy of the World Conquest, (New York ١٩٤٢).

(٢) Werner J. Cahnman, " Methods of Geopolitics ", Social forces , Vol ٢١ (١٩٤٢), pp. ١٤٧- ١٥٤, lists the kinds of materials utilized.

(*) يلاحظ هنا ترجمة كلمة Space بكلمة «مساحة» مع ما جرى به العرف في الغالبية على ترجمتها بكلمة الفضاء في ضوء ما يستخدم اليوم لترجمة Outer Space بكلمتي (الفضاء الخارجي) عند الحديث عن محاولات غزو الفضاء.

(٣) يقول ديبرونيت وتيليسي في هذا الهامش:

«قبل شهور من إعدادي هذه الدراسة لهذا المجلد بذلت محاولة لتقدير موقف الجغرافية من (الـچيوبوليتيكا) علم سياسية الكرة الأرضية بأمل الكشف عن حقائق المادة التي يمكن أن تكون موضع نقد علمي، وقد أدهشني ما وصلت إليه من حقائق، واستخدمت هذه المادة عن نتائج وبحثي في نظريات وآراء علماء الـچيوبوليتيكا في محاضرات ألقيت أمام=

وسط هذا العدد الكبير من الكتابات والدراسات، وهنا يجب أن نلاحظ بأن هذه النواحي الرئيسية في الموضوع ـ عندما تتجرد عن التجسيم الذي يصطنعه لها الـچيوبوليتيكيون ـ تكشف بدورها عن تباين وجهات النظر في أمرها، وهو تباين ليس من الإسراف القول عنه بأنه تعارض وتضاد.

فإذا أنعمنَّا النظر في هذه النواحي الخمس وجدنا اثنتين منها تطبيق للنظرية الجغرافية، وأن اثنتين أخريين يمكن اعتبارهما اقتراحين لتنظيم العالم، أما الناحية الخامسة فهي مجرد محاولة لتيسير مسألة المسافة.

«**الاكتفاء**»: اصطلاح «**الاكتفاء**» في الطابع الذي يستخدمه فيه الـچيوبوليتيكيون يعني العمل للاكتفاء الذاتي القومي المثالي الناحية الاقتصادية، ويستهدف أن كلمة سياسة يجب أن تنتج كل ما تحتاج إليه، ومن ثم يكون للدولة توازن اقتصادي مع استقلال في الإنتاج عن غيرها من بلاد العالم التي تعتبر بالنسبة لها بلادًا أجنبية غريبة عنها.

وقد يكون من الواضح أن لا منطقة تقل عن الكرة الأرضية كلها يمكن أن تتوافر بها كل ألوان الإنتاج النافعة للإنسان اللازمة له، ومن ثم فإن كلمة الاكتفاء» لا يمكن أن تعني من الناحية الحرفية ما يقل بحال ما عن «**وحدة العالم**»، ولكن الدول القائمة في العالم اليوم تقصر بكثير عن هذا، وحتى الدول الكبيرة فإن القليل منها تتوافر له العوامل الجوية التي تضمن له كل الحاصلات الزراعية ومنتجات الغابات، ثم إن توزيع المعادن في حد ذاته يبدو مضطربًا وحتى لو توافر لدولة ما كل العوامل التي تكن في إيجاد مختلف أنواع المعادن فليس هناك ما يضمن كفاية أي معدن ما بالقدر الذي

=مجموعات مختلفة الأوضاع من المستمتعين ولم أكن أفكر يوم ذاك في نشرها، ولهذا فإنني أقدمها اليوم في هذه الدراسة دون أي تعديل اللهم إلا في صياغة السطور.

يتعادل مع ما تحتاجه دولة صناعية حديثة.

فإذا ما اقتربت ألمانيا من الاكتفاء الاقتصادي Autarky مثلها في هذا مثل أي دولة صناعية فإن هذا يسبب استيرادها كميات هائلة من المعادن اللازمة لإمداد مختلف صور إنتاجها الداخلي، ولكن يكون الحكم المطلق هنا غالي الثمن، هذا فضلاً عن أنه يكون خداعًا مضللاً؛ ذلك لأنه يضيع ويذوي فور استهلاك كل ما استورد من هذه المعادن.

ولم تكن الحكومة النازية تستطيع الوصول إلى هذا الوضع، أو بمعنى أدق لم تكن تستطيع اتخاذها مبدأ «**الاكتفاء**» Autarky كهدف يسهل تحقيقه داخل نطاق الحدود القومية للبلاد دون أن تحتفظ بكميات هائلة من المواد التي تحتاج إليها، وإن كان من الميسور جعل الكثيرين من الألمان يعتقدون هذا ويؤمنون به نتيجة للدعاية القوية التي تستخدمها الحكومة، ولم تكن كذلك تستطيع أن تحقق هذا بوسائل أخرى لها نتائج عملية، ولكن لو أمكن جعل الشعب الألماني يندفع نحو تأكيد «**الاكتفاء**»، فإن إنكار الذات سيمكن إطلاق الإمدادات الداخلية والخارجية وتوجيهها لأغراض خاصة للدولة، هذه الأغراض التي كانت الإعداد للحرب في الطابع الذي بدا علانية في أواخر سنة ١٩٣٠ وبخاصة هذا الشعار الذي كان طابع الشعب الألماني:

«**المدافع بدلاً من الزبد**».

ومع الإسراع في التأهب والاستعداد يمكن أيضًا الإسراع في الحرب، والقدرة على اختيار الوقت للقتال تعطي المعتدي مزيدًا من النفع، وتجعل الأفضلية في جانبه وبخاصة إذا ما كان أعداؤه الأساسيون ليسوا مثله تواقين

للحرب ولم يقدروا خطر اقترابها، فإذا ما بدأت الحرب كانت النسبة المنخفضة في عدد الضحايا البشرية معوانًا له على اكتساب نصر سريع.

والدولة التي تتبع هذا البرنامج تكون بمنجاة من هجوم أي عدو أثناء قيامها بإعداد تنظيم مواردها الداخلية وتخزين احتياجاتها، فإذا ما وصلت قوتها العسكرية إلى الذروة استطاعت أن تهدد بالحرب، بل وأن تقاتل عند الضرورة، وقد تأمل أن تقوم بالغزو وأن تضم إليها مناطق جديدة وموارد طبيعية تجعلاها أقرب لأن تتوافر لها الكفاية الذاتية بدرجة أكبر مما كان لها من هذه الكفاية قبل الحرب.

ولم تكن أي حكومة تستطيع الحصول على تأييد شعبي لبرنامج يتطلب إنكار الذات لتحقيق مبدأ «**الاكتفاء الذاتي**» إلا لو كانت قد انتهت من تخطيطها للحرب وقطعت على نفسها الوعود للغزو، وتحقيق الاكتفاء الذاتي داخل حدود أي دولة لعملية مجهدة تسبب ضغط وتخفيض مستوى العيش لسكانها، وهناك من الأدلة ما يظهر أن تخفيض كميات التموين للأفراد في ألمانيا النازية قد طبق لهدف واحد هو إعادة قيام بناء العسكرية الألمانية.

ولو كانت كل الدول قد اتبعت الأسلوب الألماني وجعلت مبدأ الاكتفاء الذاتي هدفها المثالي لما كانت واحدة منها قد أدركت أطماع ألمانيا على حقيقتها، ولكانت كل منها تابعت المعركة الداخلية إلى الأبد، أو لاضطرت إلى الحياة في عزلة داخل حدودها مخفضة مستويات معيشة سكانها لتتمشى مع طاقتها الإنتاجية؛ ولكن هذا التعاون أو التبادل الاقتصادي السلمي بين الأمم ـ على المثال الذي كان في الحقبات الأخيرة من السنين ـ لم يكن ليتكيف مع مبدأ «**الاكتفاء الذاتي**».

***

المجال الحيوي: Lebensraum

المجال الحيوي أو المنطقة الحيوية ـ على ما يفهمها الـچيوبوليتيكيون ـ تعني حق كل أمة في منطقة من الأرض تتسع لسكانها، على أنه بالإضافة إلى مجرد التعبير عن منطقة فإن الكلمة يمكن أن تتصرف إلى كل الموارد البشرية والطبيعية التي توجد في أي منطقة تعتبرها أي دولة لها كمنطقة حيوية لها.

على أن المطالبة بهذا الحق يستند في الواقع إلى حقيقة وإلى نظرية، أما الحقيقة: فهي تباين واختلاف نسبة الزيادة في السكان من أمة إلى أخرى، أما النظرية: فهي أن الدولة كائن حي يخضع لقوانين علم الأحياء، وتبعًا لهذه النظرية فإن كل دولة شابة فتية نامية يجب أن تمتد وأن تتسع.

ويرى الـچيوبوليتيكيون الألمان أن الدول الكبيرة هي وحدها الصالحة للنمو، وقد أدركوا وقدروا أن بعض الدول الكبيرة يمكن عاجلاً أو آجلاً أن تتفتت وتنهار، ولكن احتمال انهيار ألمانيا أو اضمحلالها وموتها لم يخطر لهم ببال ولم يوضع موضع تقديرهم قط.

على أن التطبيق الألماني لنظرية المنطقة الحيوية تبطل منه بعض المظاهر الخداعة المضللة.

فأولاً: ليست الدولة بكائن حيوي بالرغم من أنها قد تبدو من ناحية سطحية شبيهة بهذا، ومن ثم فإنه لا يوجد «**القانون الطبيعي**» الذي يفرض أن الدولة يجب أن تنمو، أو أن تضمحل.

وثانيا: المنطقة التي ترى ألمانيا ـ من الناحية التقليدية ـ أنها المنطقة الحيوية لها تقع للشرق من ألمانيا، وهي منطقة غالبية سكانها من السلاف،

ونسبة المواليد بين السلاف وبين غيرهم أكبر منها بين الألمان، وهكذا تكون هذه الشعوب تبعًا لنفس النظرية أحوج إلى زيادة مساحة أرضهم من حاجة الألمان لهذه الزيادة وهذا الاتساع.

وتتضح أيضًا عدم منطقية الـچيوبوليتيكيين الألمان من أنهم إلى أن أسقطت الحرب فرنسا ـ دون أن يكون هذا متوقعًا ـ فريسة الألمان، أنهم لم يطلبوا أي منطقة حيوية في الغرب من خط اللغات الألمانية / الفرنسية، ومع هذا فإن فرنسا كانت الدولة الأوروبية الوحيدة التي تتجاور وألمانيا على حدود مشتركة واحدة، والتي كانت نسبة المواليد فيها أقل بكثير من نسبتها في ألمانيا لحقبات كثيرة من السنين.

ويثبت هذا بوضوح أن نظرية «**المنطقة الحيوية**» ـ قد صيغت لتتمشى مع السياسة التقليدية للاتساع الألماني نحو الشرق لا نحو الغرب، وقد أثبتت الحوادث منذ سنة ١٩٣٨ أن المحاولات للحصول على «**المنطقة الحيوية**» تتطلب إما الحرب وإما التهديد بالحرب، ومن الممكن أن نختتم هذا الحديث بالقول: إن فكرة «**المنطقة الحيوية**» برغم أنها جغرافية المظهر فإنها عملية ذات طابع سياسي / عسكري، تقدم دعامة علمية للرغبة في الغزو، هذه الرغبة المتأصلة في كثير من الحكومات.

الفكرة الإقليمية: Panregions

ومع نمو وازدياد أطماع الألمان المغالين في الوطنية كان من الطبيعي أن يغامر الجغرافيون ـ بمن فيهم الـچيوبوليتيكيون ـ بالدعوة للمطالبة بأجزاء من الأرض قد تأمل الأمة في غزوها وضمها إليها.

وكانت العادة التقليدية في ألمانيا منذ بعيد المطالبة بأن تشمل المنطقة

السياسية للأمة كل الشعوب التي تتحدث الألمانية، وفي بعض الأحيان كانت اللغتان الفلمنكية والدانيماركية تعتبران ألمانيتي الأصل، ومنذ أن ازدهرت الفكرة الإقليمية (١٨٩٠ - ١٩١٨) سارت المطالبة الألمانية شوطًا بعيدًا إلى ما وراء حدود الأرض التي يعيش فيها الناس الذين يتكلمون الألمانية.

وقد رسمت المصورات «**لمنطقة الثقافة الألمانية**» و «**لمنطقة التجارة الألمانية**» كجزء من الأرض التي منحتها الطبيعة لألمانيا، والشيء الذي يستحق الملاحظة أن هذه الأرض التي قدر أن يشملها هذا التوسع تقع كلها في الشرق من ألمانيا، واستندت المطالبة بها إلى أن المستوطنات الألمانية الأولى في قرون معرقة في القدم كانت مبعثرة داخل المناطق التي يعيش فيها الناس الذين يتحدثون اللغات السلاڤية وغير الألمانية. وعلى أساس استخدام المنطقة كلها للغة الألمانية في الأغراض التجارية بفكرة أنها اللغة السائدة التي يمكن أن يتفاهم بها الجميع.

ولكن هذا التطلع الإقليمي من جانب الـچيوبوليتيكيين خطا خطى أوسع جسمت من هذا التطلع، فكبديل لهذا المطمع المثالي بالوصول إلى سيادة عالية تضمن الاكتفاء الذاتي وغير الممكن تحقيقه في الوقت الحاضر، اقترح الـچيوبوليتيكيين تفككًا سياسيا بتقسيم العالم إلى ثلاث مناطق إقليمية، وأحيانًا قسموا العالم إلى أربع مناطق إقليمية، تشتمل كل منها على أكثر من قارة، أو بمعنى أدق تجمع بين أراضٍ من قارتين مختلفتين «**راجع الخريطة ص٥٤**».

ونجد في كل من هذه المناطق الإقليمية أراضي تقع على خطوط العرض الوسطى وأخرى من خطوط العرض العليا والسفلى، ومعنى هذا أنه تتوافر في كل من هذه المناطق متباين صور الإنتاج الزراعي وحاصلات الغابات، والشيء الذي يمكن أن يحققه تعدد درجات الحرارة في كل منطقة،

ولما كانت كل من هذه المناطق كبيرة السعة كان من الواضح أنها يمكن أن تحتوي على الكثير من المعادن المختلفة، ولكن لما كانت المعادن تتوزع في العالم دون ما علاقة بجو العالم ولا بسكانه اليوم، فلم يكن هناك ما يؤكد أو يضمن أن هذا التقسيم سيجعل الحصيلة المعدنية متساوية في هذه المناطق الإقليمية. ومن ثم كان من المؤكد أن كلاً منها سيحتاج أو سيفتقر إلى عدد قليل من المعادن الحاسمة الأهمية، ولكن لما كان كل من هذه الأقسام الإقليمية وثيق الاتصال بالبحر في نقاط كثيرة من سواحله على المحيطات كان في الإمكان استيراد ما يحتاج إليه الناس مما لا يتواقر لهم محليًا.

على أن هذه النظرية قد نمت وقويت نتيجة لأن وسائل النقل والمواصلات السريعة الحديثة التي عرفها العالم اليوم قد عطلت من الاستقلال في العمل بالنسبة لكل الدول الصغيرة ولعدد غير قليل من الدول الكبيرة، وقد تقبل أيضًا أن الوقت قد حان لتتوحد اقتصاديًا مناطق أكبر من الأمم الموجودة حاليًا، وصحب هذا التفاؤل بالوحدة الاقتصادية بالحاجة إلى أن تتوحد هذه المناطق سياسيًا، ولكن فشلت هذه المشاعر في أن تضع موضع التقدير حقيقة أن المواصلات المائية تربط في العادة بين الأمم التي تتواجه على جانبي المحيط بأسرع وأقوى مما يمكن أن تفعل المواصلات البرية في ربط أجزاء الكتل القارية حيث توجد الصحارى والغابات أو الأراضي العالية الوعرة[1].

ويلاحظ أن هذا جاء أصلاً في كتابات الـچيوبوليتيكيين مجرد سطور غير مصحوبة بخريطة، ولم تخطط حدود معينة لهذه الأقاليم، على أنها هنا في هذه الخريطة سارت مع الحدود السياسية القائمة اللهم إلا في شرق سيبيريا،

(١) Eugene Staley "The Myth of the Continents" Foreign Affairs, XIX (١٩٤١), PP. ٤٨١-٤٩٤.



التقسيم الإقليمي للعالم إلى مناطق إقليمية رئيسية

وقد نظم تقسيم إقليمي آخر أعطى الهند لليابان، ووضع روسيا ضمن النطاق الإفريقي «**أور ـ إفريقية**» على ما رسم بخط متقطع في الخريطة.

على أن هذه المبادئ والتقديرات تكشف عن حقيقة أن هذه الفكرة الإقليمية من اختراع الناس الذين تشغل الأرض كل تفكيرهم، وبخاصة أولئك المقيمين في أوروبا القارة الوحيدة التي تفتقر إلى الحواجز القوية التي أوجدتها الطبيعة كالصحارى والهضاب العظيمة والثلج القطبي.

وقد اشتمل تقدير هذا التقسيم الإقليمي على أن تكون على رأس كل من هذه الأقسام واحدة من الدول الكبرى:

١ـ الإقليم الأمريكي أبرز الأقسام الثلاثة تبعًا لانفصاله عن القسمين الآخرين بمحيطات واسعة، والمفروض أن تتولى الولايات المتحدة السيطرة في هذا القسم، وقد أبدى الـچيوبوليتيكيون تقديرهم لمبدأ مونرو، واعتبروه أول فكرة في ميدان «**الإقليمية**» فضلاً عن إعجابهم بأن الولايات المتحدة قد استطاعت أن تبقي هذا المبدأ يؤدي دوره قائمًا بوظيفته لأكثر من قرن من الزمان، وقد تجاهلوا العامل الثقافي في كلمتي «**كل أمريكا**» برغم حقيقة أن الجيل المعاصر من سكان أمريكا الشمالية يرى أن لب هذه الفكرة التعاون للنفع المُتبادل بين كل سكان هذه البلاد في العالم الجديد بقارتيه.

٢ـ الإقليم الآسيوي، ويتكون من شرق آسية وأستراليا والجزر التي بينهما، وتركت السيادة هنا لليابان، ويطلق اليابانيون على هذه المنطقة «**منطقة المشاركة في الرخاء لشرق آسية**»، وكانت اليابان هي الدولة الوحيدة خارج الأراضي الألمانية التي تحول جغرافيوها إلى الـچيوبوليتيكا، ويبدو أن نفوذ كال هوزهوڤر قد رفع السجف عن أعينهم وجعلهم ينظرون بعناية إلى



تقسيم الـجيوبوليتيكيون الألمان لأمريكا الجنوبية بين ألمانيا وبريطانيا والولايات المتحدة، وكان في تقديرهم قبل الحرب العالمية الثانية أن يتم هذا سنة ١٩٥٠ .

تطبيقه لعلم الجغرافية، وقد وجدوا بأنه من النفع الدعوة لخطط الغزو التي صاغها الحكام العسكريون للأمة.

وكان الـچيوبوليتيكيون الألمان يرون ـ على ما وضح أحيانًا في أحاديثهم ـ بأن كلا الإقليمين الأمريكي والآسيوي إنما يبقيان كذلك لأمد موقوت إلى أن تستكمل ألمانيا السيطرة على منطقتها الإقليمية، ومع الوقت تبتلع ألمانيا ـ في اتسعاها مستقبلاً ـ هاتين المنطقتين الإقليميتين.

٣ـ أما المنطقة التي ستسيطر عليها ألمانيا فتتكون من أوروبا وإفريقية. وهنا نلاحظ أن المنطقة لا تحتوي على دول أوروبا الصغيرة فحسب، بل وتشتمل أيضًا على الدولتين الكبيرتين فرنسا وإيطاليا أيضًا، وقد وضع موضع التقدير بالنسبة لهذه المنطقة أن الجزر البريطانية ليست وحدها هي التي ستثير الصعاب والمتاعب، فإن الأرض الفسيحة التي يشغلها الإتحاد السوڤييتي ستكون هي الأخرى بدورها عاملاً لإثارة المتاعب والصعاب.

وكحل لمشكلة الإتحاد السوڤييتي رؤى إيجاد منطقة إقليمية رابعة تضم الإتحاد السوڤييتي بالأرض التي في جنوبه حتى ساحل بحر العرب، ثم الهند، ولما كانت هذه المنطقة المقترحة لا تصل إلى خط الاستواء تمامًا فإنها ستفتقر إلى جو المنطقة الاستوائية، الجو الذي توافر لكل الأقسام الأخرى، ومن هنا كانت فكرة إلحاق الإتحاد السوڤييتي إلى المنطقة التي ستسودها ألمانيا وأن تذهب الهند إلى المنطقة التي ستترك لسيادة اليابان.

وكون هذه الأقسام الإقليمية ثلاثة أو أربعة مسألة نظرية لا تستحق الجدل الكثير بغض النظر عن جملة العدد، فالفكرة أصلاً هي ضمان سيادة

ممتلكاتها في خطوط العرض في الجانب الآخر من خط الاستواء بمانع طبيعي قوي لا يسهل اجتيازه يحول دون الاتصال البري المباشر، فإن الأمريكيتين تتصلان فقط بالبحر والجو، وأول طريق بري يربط الشمال بالجنوب ليس كاملاً، وتعطل منه الجبال والغابات في عدة نقط كثيرة، ثم إن الجزء الجنوبي من أمريكا الجنوبية ينفصل عن الجزء الشمالي لأمريكا الجنوبية نفسها بغابات الأمازون وبالمستنقعات مصطحبة بهضبة آندين Andean المجدبة الوعرة.

وتستطيع اليابان السيطرة على منطقة المشاركة في الرخاء في شرقي آسيا بالاحتفاظ دائمًا بقوة بحرية لازمة ضرورية لتربط العدد الكبير من الجزر، ثم القوى البرية الكافية للسيطرة على الجزء الشرقي من القارة الآسيوية.

وتنفصل روسيا عن الهند بجبال لا يمكن اجتيازها وبهضاب عالية قارسة البرودة، وبصحراوات منخفضة فسيحة.

وتنقسم منطقة أور ـ أفريقية بمانعين، فالبحر المتوسط ما زال يرغم ألمانيا المسيطرة على الاحتفاظ بقوة بحرية كافية لغلق مداخل البحر والاحتفاظ بحركة نقل بين ساحلي البحر الشمالي والجنوبي. لقد أمكن إتمام هذا فيما مضى بوساطة القوة البريةفي الماضي، ومن الممكن أن يتكرر هذا ثانية في المستقبل بنفس الصورة، ولكن مع هذا تظل الصحراء الواسعة مانعًا لا يسهل اجتيازه على الأرض، وللدوران حول هذه الصحراء يجب أن تسيطر الدولة التي تسود المنطقة الإقليمية أور ـ أفريقية على المحيط سيطرة لا تقل عن السيطرة البرية في المنطقتين الإقليميتين: الآسيوية والأمريكية.

وستسبب كل محاولة لإقامة منطقة إقليمية إثارة الحرب كما ثبت لمرتين متواليتين في الحربين العالميتين الأولى والثانية، فإذا ما تم هذا بطريق الغزو

كان من الممكن الاحتفاظ به دونها حاجة لسيادة بحرية في الكتلة الروسية الهندية فقط، ووجود واحدة أو أكثر من هذه القوى يتنافر، ولا يتمشى مع وحدة محيط العالم، أي مع هذه المحيطات الواسعة التي تتصل فتكون محيطاً واحدًا واسعًا يدور حول الكتل الأرضية. ومن ثم كان هذا التقسيم الإقليمي المقترح ليس أكثر استقرارًا ـ من الناحية السياسية ـ من الوضع الحالي للدول الكبرى.

وبالرغم من الصعاب التي تعترض سبيل هذا التقسيم الإقليمي فإن فكرة الإقليمية لا تعتبر في جملتها فكرة خيالية، والنجاح الكبير الذي حققته ألمانيا واليابان بغزو المناطق التي اعتبرتاها الخطى الأولية نحو استكمال أهدافهما ليعتبر دليلًا على إمكان تحقيق الفكرة، حتى ولو كان هذا النجاح الذي حققته الدولتان الكبيرتان بالغزو لن يكون أكثر من تملك موقوت لن يستمر طويلاً.

وتوضح الخريطة «ص ٦١» النطاق الدائري الداخلي الذي يمتد من الجزر البريطانية إلى أرخبيل اليابان، ثم النطاق الدائري الخاص الذي يشتمل على الأمريكيتين وأفريقية الزنجية وأستراليا.

وقد عاد ماكيندر فعدل من اسم «**المنطقة المحورية**» إلى «**قلب العالم**» وزاد من سعتها لتضم «**أور ـ آسية ـ أفريقية**» ص ٦٧ و ٦٩ و ٧٨ ـ ٨٣ و ١٠٥ من كتاب ماكيندر طبع نيويورك سنة ١٩٤٢ بعنوان: Democratic Ideals and Reality

القوة البرية في مواجهة القوة البحرية:

وقد عالج الـچيوبوليتيكيون تقسيم كتلة الأرض في تنظيم يختلف



جزيرة العالم مع المنطقة المحورية حسب آراء ماكيندر على ما جاءت في دراسة «المحور الجغرافي للتاريخ» المجلة الجغرافية المجلد ٢٣ سنة ١٩٠٤ ص ٤٣٥

قليلاً عن الأسلوب الذي عالج به ماكيندر هذا التقسيم، وفي هذا التقسيم الجديد ينظرون إلى منطقة (أور ـ آسيا ـ أفريقية) على أنها أكبر الأقسام مساحة وسكانًا وثروة، ومن ثم فإنهم يعتبرونها مركز التثاقل للحياة البشرية، وقد يمكن النظر إلى هذه الكتلة الأرضية وكأنها جزيرة في المحيط العالمي على حين تدور القارات الأخرى من حولها كحلقة من القارات الأصغر.

وجزيرة العالم أو «**قلب الدنيا**» منطقة فسيحة من الأرض غالبيتها بعيدة عن المحيط، وتصب أنهارها إما في المنطقة القطبية المغلقة في الشمال أو أن تنصرف إلى البحار الداخلية والبحيرات الملحة، وتتصل الأنهار الصالحة للملاحة بالمحيطات التي تعبرها خطوط النقل البحري، ومن ثم كان «**قلب الدنيا**»، وجزيرة العالم قاعدة للقوة البرية التي يمكن أن تكون أعظم هذه القوى في الكرة الأرضية.

وتحيط بجزيرة العالم من الغرب، والجنوب، والشرق في شكل الهلال مناطق ساحلية تقع كلها على المحيطات، وكلها، إلى حد ما، مناطق بحرية ينفصل بعضها عن بعض بالجبال، والصحارى، والبحار، وتقع في هذا النطاق الدائري حول جزيرة العالم مجموعتي الجزر البريطانية وأرخبيل اليابان، وكل منهما قوة بحرية كبيرة، ويجيء إلى ما وراء هذا النطاق الداخلي نطاق أوسع في شكل هلال أكبر من جزر قارية هي الأمريكتان، وأفريقية الزنجية، وأستراليا ـ راجع الخريطة ـ وتقسم بلاد هذا النطاق الخارجي اهتمامها بين القوة البرية التي تستند إلى مساحاتها الواسعة وبين سهولة اتصالها بالبحر وطول سواحلها على المحيط، وتسير هذه البلاد اليوم ضمن مجموعة القوى البحرية ولكنها قد تخضع لسيطرة الدولة البرية التي تقوم في جزيرة العالم لو استطاعت هذه أن تسيطر على النطاق الدائري البحري الداخلي الذي يمتد من الجزر البريطانية



چنرال كارل هوزهوفر

(١٩٤٥-١٨٧٠)

إلى أرخبيل اليابان.

وقد استعار «**الـچيوبوليتيكيون**» فكرة قلب العالم ـ إلى هذا الحد من الحديث ـ استعاروها جملة عن ماكيندر، ثم طبقوها على الاتساع الألماني في الأسلوب التالي:

«**إن قلب العالم يتاخم تقريبًا روسيا السوڤييتية. وألمانيا بدورها هي الأخرى قوة برية وتشترك مع روسيا في الكتلة الداخلية لقارة «أور ـ آسيا»**، ولكنها على نقيض روسيا لها مخارج على البحر، ومن ثم تتوافر لها الطاقة لتكون قوة بحرية، فإذا ما استطاعت أن تكون لها السيادة في كتلة مشتركة تتكون منها ومن روسيا فإنها تستطيع أولاً، السيطرة على قلب العالم». فالسيطرة على القوس الداخلية التي تضم الدولتين البحريتين اليابان وبريطانيا، وأخيرًا تستطيع السيطرة على القوس الخارجية الأقل قارات.

والوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تحقق هذا الاتساع الألماني طبقًا لهذا الترتيب الذي قدمته، هي: الحرب، وقد عبر الـچيوبوليتيكيون عن أملهم أن تتعاون ألمانيا وروسيا تعاونًا سلمياً يحقق هذه المشاركة، ويوجد هذه الكتلة المشتركة التي تسودها ألمانيا، وسر الـچيوبوليتيكيون للمعاهدة التي وقعتها ألمانيا وروسيا سنة ١٩٣٩، إلا أن هذه الآمال لم تلبث أن تحطمت نتيجة لمهاجمة هتلر للاتحاد السوڤييتي سنة ١٩٤١ .

على أن الحرب العالمية الثانية والتي شغلت القارات الست وكل المحيطات كانت دليلاً قوياً على أن البناء السياسي للكرة الأرضية ليس بصالح، لتحقيق نظرية سيادة قلب العالم على كل الأطراف الخارجية، ولقد عمدت الدول إلى التحالف لا مع جاراتها التي تقع إلى جوارها مباشرة، بل عمدت إلى التحالف مع الدول التي إلى وراء هذا، وكانت نتيجة هذا أن وقفت روسيا

وألمانيا في معسكرين متضادين، وتم في الغالبية ارتباط الدول البرية الكبرى والدول البحرية العظيمة، وألقت الدول الكبيرة ذات المصالح خارج قارة أوروبا بثقلها في هذا التوازن مستقلة عن ألمانيا وعن روسيا.

والواقع أن فكرة «**قلب العالم**» ـ مع التجاوز عن الحقائق التي وضحت أثناء الحرب العالمية الثانية والتي لم يكن من الممكن استخدامها كأداة للقياس والحكم ـ مع التجاوز عن هذا فإن الفكرة يمكن أن ترفض دون أي اعتبار آخر غير ما لها من تأثير في عقول الألمان، فلقد كانت في تقديرهم وسيلة تضمن تحقيق أطماعهم.

الحدود:

على أنه مهما كان الطابع الإقليمي المقترح للنظام السياسي الجديد في الكرة الأرضية، ومهما كانت الفكرة الفلسفية التي يمكن اتخاذها ذريعة للغزو، مهما كان هذا أو ذاك فمن الضروري أن تتوافر وسيلة عملية للتحرك نحو الهدف، وسيلة يوجدها تفسير الـجيوبوليتيكيين للحدود السياسية. وسيدهش الأمريكان وغيرهم الذين نظروا إلى الحدود السياسية على أساس أنها تعني حداً ثابتاً محدودًا للدولة .. سيدهش هؤلاء عندما يعرفون أن الألمان الذي يتبعون آراء الـجيوبوليتيكيين ينظرون إلى الحدود السياسية على أنها مجرد توقف موقوت للأمة في سيرها نحو السيادة العالمية، وهم يرون أن هذه الحدود السياسية ليست غير وقفة لتنظيم عملية التنفس حتى تسترد الأمة من جديد أنفاسها للقيام بغزو آخر، فإذا ما جاء الوقت المناسب كان وجود هذه الحدود الجديدة عاملاً يمكن أن يوجد السبب لإثارة الحرب.

ولقد أثبت التاريخ في أكثر من مناسبة أن الحدود كانت هي السبب المُعَدّ الصالح لإثارة الحرب، وكانت حوادث الحدود التي تحدث بالمصادفة

أو عن قصد سبب الكثير من المنازعات المسلحة.

ولقد ذهب الـچيوبوليتيكيون (علماء سياسة الكرة الأرضية) إلى مدى أوسع وأبعد، فقد قالوا بحق «**الأمة**» في الحصول على حدود طبيعية قد تكون إلى ما ورا الحدود السياسية القائمة، فإذا ما كان هذا حقيقة واقعة كانت الحدود السياسية عاملاً يدعو إلى الحرب.

وهنا يجب أن نلاحظ بأن الكثير من الحدود التي توصف بأنها حدود طبيعية لم تعد اليوم «**حواجز مانعة**» بالمعنى الصحيح الذي لهذه الكلمة، ومن ثم فمن الممكن أن تكون عذرًا لحروب أخرى للغزو ومثلها مثل الحدود الصناعية، والحدود التي تعتبر حواجز مانعة معطلة لا تكون صالحة إذا كانت تفصل بين أمم تتوافر لها طاقات كبيرة التباين واسعة التضاد، وتجعل نظرية «**المجال الحيوي**» ونظرية «**الاكتفاء الذاتي**» تجعلان من الأمة الضعيفة قرينًا للدولة القوية وبخاصة إذا ما توافرت لها الموارد أو كانت تمثل موقعًا له أهميته الاستراتيـچية.

ولهذا لم تكن المصادفة هي التي جعلت أوروبا قارة مثالية للغزو ومع هذه الحدود الطويلة الممتدة التي تفصل بين دولها الكثيرة[1]، ثم إن أوروبا أيضًا أقل القارات من ناحية المناطق المهملة التي لا تستغل، وهي أكثر القارات في المواد الطبيعية بالنسبة لمساحتها، وقد مكن تعدد الصور الطبيعية في أرضها من قيام عدة وحدات سياسية تفصل بينها حواجز طبيعية، وتبعًا لنمو هذه الدول المفصول بعضها عن بعض، وتبعًا لاصطدام كل منها بجاراتها خفضت أو تحطمت هذه الحواجز الفاصلة، فإذا ما اشتركت دولتان على حدود مشتركة كانتا عدوتين مُتضادتين، لقد كانت حدود

(١) S. Whittemore Boggs, International Boundaries (New York, ١٩٤٠), pp, ١٣-١٥.

أوروبا نتيجة سلسلة طويلة من الأحداث، وقد انتفع الـچيوبوليتيكيون بهذه الأحداث التي يسجلها التاريخ، انتفعوا بها في دراساتهم لها كأعذار دائمة للحرب في الطابع الذي اعتبروها معه أعذاراً معدة صالحة في كل وقت؛ لينتفع بها عندما يراد إثارة الحرب.

- ٥ -

ولقد عرض الـچيوبوليتيكيون آراءهم الخاصة «**بالمساحة**» والتي أقاموا عليها نظريتهم، عرضوها كفروض علمية يسلم بها، وهذا المظهر اللامع الذي يبعث على الاحترام والتقدير يخفي امتزاج الحقيقة بخطأ منطقي مضلل مهما كان فيه من طوابع لها سمات جغرافية.

والواقع أنه مهما كان هذا المنطق معقولاً ومقبولاً من الناحية العلمية فإن الحكومة التي تتخذه برنامجًا لها لا تلبث أن تدفع بنفسها دفعًا ـ دون مقاومة ما ـ إلى الحرب، وتحويل النظريات الخاصة بالمساحة إلى (فعلية) حقائق جغرافية يتطلب إعادة تنظيم الخريطة السياسية مما يقابل بمقاومة عنيفة على مثال ما حدث في الحرب العالمية الثانية، فمنذ بداية هذا التحول تشابكت الـچيوبوليتيكا والحرب تشابكًا معقدًا لا انفصام منه، ونمت هذه النظريات في دولة عسكرية وتولى توجيه تطورها رجل عسكري.

«**فالـچيوبوليتيكا**» إذن نتاج الفكر العسكري، ولكن إلى أي مدى نفذت الـچيوبوليتيكا بدورها وتطرقت إلى الفكر العسكري؟

إن نصيبها في الاستعدادات العسكرية لألمانيا كان ذا شقين:

١ـ قوى وثبت من التجميع المنسق والتنظيم للمعلومات عن كل أجزاء العالم، وهذه عادة قد أصبحت غريزية في الجغرافيين الألمان.

٢ـ وجهت كل النتائج التي أمكن الحصول عليها مباشرة إلى الكيان

العسكري وإلى الدعاية مختفية وراء ستار الجغرافية التطبيقية، ووجهت هذا إلى الشعب الألماني وإلى شعوب الأمم الأخرى.

وكانت المنظمة العسكرية ـ عن طريق هيئة أركان الحرب لها ـ كانت منذ زمن بعيد تجمع المعلومات عن الأرض.. عن العالم كله بمختلف قاراته، عملية رتيبة تسير بانتظام، جمع للمعلومات وتصنيفها، عملية التقاط وهضم، وكان الـچيوبوليتيكيون في الدور الكبير الذي يقومون به بالعلم التطبيقي أول من مدَّ من نطاق عملية إيجاد الحقائق لخدمة مطالب واحتياجات الحكومة لتخطط وترسم إستراتيجيتها السياسية.

ولم يكن هذا البحث الجغرافي مقصورًا في أوسع معانيه على الـچيوبوليتيكيين فحسب، بل وليس وقفًا عليهم وعلى الجغرافيين السياسيين، كانت الجماعات التي نظمها كارل هوزهوفر في معهد الجغرافية بجامعة ميونيخ وفي أماكن متعددة أخرى يعملون من أجل الحرب المتوقعة ما يعمله الآن جغرافيو الولايات المتحدة والكثير من الوكالات والهيئات بما فيها وزارة الحرب، وما يفعله هؤلاء اليوم من أجل القوات المسلحة الأمريكية في حال الحرب؛ لقد كان تفهم الحرب الشاملة هو الذي دفع علم الجغرافية إلى مركز الصدارة بين كل العلوم والفنون التي تخدم مصالح كل أمة[(١)]، لقد عمل الـچيوبوليتيكيون تبعًا؛ لتقديرهم إمكانيات قيام الحرب من أجل تقوية ودعم الهيئات التي تجمع المعلومات والحقائق الجغرافية قبل بدء الحرب بسنوات طوال.

ومع أنه لم تقم أية أدلة على الصلات التي كانت تربط كارل هوزهوفر

---

(١) Derwent Whittlesey, "The Role of Geography in Twenieth Centaury War" J.D. Clarkson and T.C. Cochran, eds, War as a Social Institution (New York, ١٩٤١) PP. ٧٨-٨٧.

بهيئة أركان الحرب الألمانية إلا أن المراقبين الأجانب ـ وبخاصة الذين عاشوا طويلاً في ألمانيا ـ كانوا على ثقة بهذه الصلات والروابط، وقد دلل الملحقون العسكريون ورجال الأعمال على وجود هذه الصلات[١].

وقد أكد الـجيوبوليتيكيون للشعب الألماني ـ في أضيق ما عليهم من واجبات عملهم ـ أكدوا للناس ما يدور في نطاق عقولهم من مسائل عسكرية، وقد قامت آراؤهم وتصوراتهم الخاصة بالمساحة كأهداف عملية على الحكومة الألمانية أن تحققها، وإن كان إدراكها لا يتم إلا بخوض غمار الحرب.

وكان الـجيوبوليتيكيون يعرفون أنه لا سبيل إلى تحقيق هذه الأهداف إلا بالحرب، وهكذا فإنهم لكي يمهدوا الأرض لآرائهم أبرزوا أن الحرب هو الحال الطبيعية لحياة الإنسان، ومجدوا مؤثراتها، ورفعوا من قيمة تأهب الأمة لها، وقدموا برنامجًا[*] لمتابعة الحرب بوسائل جغرافية[٢].

وقد قوَّى هذا من إيمان الأمة وثقتها بمصيرها كالشعب السائد، شعب عليه رسالة يجب أن يقوم بها، رسالة للغزو والحكم؛ على أن هذا الاتجاه في الواقع قد خرج ونما من أغوار التاريخ الألماني، ومن الخرافة الأسطورية للسيادة الألمانية وكانت هذه الظاهرة سائدة غلابة قبل عصر

---

(١) أغلب هذه الأدلة جاءت في أحاديث شفوية كالمحاضرة التي أذيعت من حديث أريك أرشيديكون المصرفي الأمريكي يوم ٨ فبراير سنة ١٩٤٣ أمام النظارة في النادي الكندي بمونتريال، وقد ذكر وتيليسي أسماء الهيئات التي كانت في خدمة هيئة أركان الحرب الألمانية في كتابه:

Whittlesey, German Straregy, op. cit, pp. ١٠٧-١٠٩.

(*) في الأصل: «وصفة» تشخيصًا طبيًّا ـ وقد ترجمت هنا «برنامجًا».

(٢) راجع بخاصة كتاب:

Ewald Banse, Raun und Volkim Weltkriege (Oldenburg, ١٩٣٢).

وقد ترجم إلى الإنجليزية ونشرت منه طبعة بلندن سنة ١٩٣٤ وطبعة أمريكية سنة ١٩٤١.

Germaney Preparces for War, English edition ١٩٣٤ (New York, ١٩١٤).

الـچيوبوليتيكيين بكثير، ولكن كان من الواجب في عصر العلم أن يمسك الإيمان الأعمى بأذيال العلم الطبيعي تطلبًا للمعاونة، ومن ثم جاء الـجيوبوليتكيون بالقواعد اللازمة لقيام العنصرية الألمانية، وأوجدوا الصلة التي لا يمكن فصمها بين الأرض وبين آرائهم في المساحة، والأكثر من هذا أنهم صاغوا إيضاحهم لهذه الصلات في أسلوب شبه علمي بدا أخاذًا للرجل العادي الغريب عن المهنة.

ولم تحقق أحاديث الـچيوبوليتيكيين موافقة وتقبل عامة الناس، بل ورضا الحكام عنها وموافقتهم عليها. وقد تساءل الألمان وغيرهم عن الصلات التي قامت بين الـچيوبوليتيكيين وبين الحزب النازي، ولكن دراسة الحوادث مكَّنت الباحثين النزيهين غير المنحازين، كما مكنت المتشككين في هذه الصلات للانتهاء إلى أن هذه الصلات كانت كبيرة وقوية.

ولقد كان رودولف هيس ـ الرجل الذي أطلق عليه رسميًا في فجر الحرب العالمية الثانية: الرجل الثالث ـ كان ياوراً ل هوزهوڤر ، وكان واحدًا من أخلص ممن تتلمذوا عليه لدراسة الـچيوبوليتيكا. وعندما كان هتلر معتقلاً بعد حادث «**حانة البيرة**» اعتاد هوزهوڤر زيارته في معتقله وكان هيس يعمل ككاتب السر أثناء تحرير كتابه «**كفاحي**» وتشير بعض فقرات هذا الكتاب أن الكثير من آراء الـچيوبوليتيكيين ومن أقسام برنامجهم كان لها تأثيرها الفعال في توجيه آراء هتلر نفسه.

ولقد قال هتلر عن العلاقة بين المجال الحيوي أو مجال الحياة وبين الكفاية العسكرية اللازمة للأمة:

«إن سعة المجال الحيوي للشعب تتضمن العامل اللازم لأمنه الخارجي، وكلما اتسع مجال المنطقة التي تتوافر للشعب ازدادت الوقاية

الطبيعية له، ولقد كان من الممكن دائمًا في سرعة ويسر تحقيق الانتصار العسكري على الأمم التي يزدحم سكانها في مناطق صغيرة على خلاف الحال بالنسبة للدول الكبيرة المساحة ولهذا فإن سعة أرض الدولة تعطيها وقاية ضد هجمات العدو، ولا يمكن أن يتحقق النجاح لمن يقوم بغزو دولة واسعة المساحة إلا بعد قتال طويل عنيف، وتكون المغامرة بالهجوم المفاجئ عظيمة الخطر إلا في ظروف غير عادية، وهكذا فإن كبر سعة أرض الدولة تمكننا من تفهم سهولة احتفاظها واستقلالها، على حين أنه على العكس تعتبر قلة سعة أرض الدولة دافعًا يحث الغير على غزوها»[١].

ويتابع هتلر الحديث بنفس الأسلوب فيقول في مكان آخر من الكتاب:

«إن السياسة الخارجية لدولة تقوم على سواعد شعب معين، يتوقف وجودها على وجود هذا الشعب الذي تحتضنه هذه الدولة وعلى كامل كيانه في الكتلة الأرضية، وتوجد علاقة طبيعية حيوية بين عدد أفراد الشعب ودرجة نموهم، وتكاثرهم من جهة، وبين حجم الأرض التي يعيش فيها، وطبيعة تربة هذه الأرض من جهة أخرى.

«والمساحة الواسعة الكافية هي وحدها التي تضمن حرية الأمة ووجودها.

«... ولمساحة الدولة أيضًا أهمية عسكرية سياسية أكثر من أن تكون مجرد مورد لغذاء الشعب، فإذا ما ضمن شعب غذاءه تبعًا لمساحة الأرض التي يعيش فيها، وتبعًا لجودة تربة هذه الأرض، وكان من الضروري أيضًا التفكير في حماية وتأمين الأرض التي يملكها هذا الشعب، ويتوقف هذا على

(١) Adolf Hitler, Mein Kampf (New York, Reynal and Hitchcock edition ١٩٣٩) p. ١٧٧.



= من خرائط الـچيوبوليتيكية الألمانية للدعاية المضادة =
كيف تهدد دولة صغيرة دولة أخرى كبيرة؟

كل الأراضي الألمانية داخل عمل قاذفة القنابل من

تشيكوسلوڤاكيا.

القوة السياسية والقوة المادية التي تخضع إلى حد ما لاعتبارات جغرافية عسكرية»[١].

***

والواقع أن كلمات: «**لاعتبارات جغرافية ـ عسكرية**» التي وردت في الفقرة الأخيرة تدلنا على أن القول بتأثير كارل هوزهوفر في هتلر ليس مجرد حديث عارض لا يستند إلى أدلة، إذ الواقع أنه يثبت هذا التأثير ويدعمه.

وللفقرات التالية المقتطعة من كتاب «**كفاحي**» أهمية خاصة؛ ذلك لأنها تدل على ارتباط الچيوبوليتيكا بالاشتراكية القومية Weltanschaung فهي تدل بوضوح على أن مشكلة اللغة ومشكلة الجنس كانتا واحدًا من عدد من العوامل الهامة المتساوية القيمة في تقدير هتلر، العوامل التي يجب أن تقرر المدى الذي تتسع له الحدود الدينامائية لألمانيا.

«**إن المطالبة باستعادة الحدود التي كانت لألمانيا في سنة ١٩١٤ لغباء سياسي إلى الحد الذي يجعله جريمة، ذلك لأن حدود الريخ في سنة ١٩١٤ كانت أي شيء إلا أن تكون حدودًا تقوم على المنطق، فهي في الواقع لم تكن من ناحية الكيان العام كاملة تتمشى مع مكانة القومية الألمانية، ولم تكن كذلك تدل على الذكاء؛ لعدم تمشيها مع الاحتياجات الجغرافية ـ العسكرية، وهي لم تكن نتيجة عمل سياسي أحسن تقديره، بل جاءت نتيجة لصراع سياسي انتهى بعضه بالمصادفة وحدها؛ وتبعًا للعدالة يستطيع الفرد أن يتخير**

---

(١) نفس المرجع ص ٩٣٥-٩٣٥.



= استخدام الخريطة للدعاية =

علماء الـچيوبوليتيكا الألمان يصورون التهديد بالمدفعية لمناطق ألمانيا الصناعية.

قيست الأبعاد على أساس مرمى مدفع برتا الألماني في مدى ٧٧ ميلاً

المنطقة السوداء هي المنطقة التي لا تتعرض لنيران المدفعية إلا بعد اجتياز الحدود السياسية والبحرية بمسافة ٧٧ ميلاً أخرى ومن ثم فإن الرد الوحيد هو اتساع ألمانيا.

أي دعامة من دعامات التاريخ الألماني ليطالب باستعادة العلاقات التي كانت قائمة يوم ذاك ويجعلها هدف نشاطه في السياسة الخارجية»[١].

***

«ونحن، أعني: الاشتراكيين القوميين، يجب علينا أن نذهب إلى أبعد من هذا، إن الحق في رقعة الأرض وفي التربة الصالحة يمكن أن يكون واجبًا يجب العمل لتحقيقه عندما يبدو أن الانهيار والاضمحلال لا معدى عنه بالنسبة للأمة العظيمة ما لم تزد من سعة رقعة أرضها، ولهذا أهميته على التخصيص؛ لأننا لا نطالب ببعض الشعوب الزنجية، بل نطالب بضم الألمان لألمانيا، الأمم التي أعطت الثقافة للعالم المعاصر، إن ألمانيا يجب أن تكون في عداد الدول الكبرى في العالم أو لا تكون شيئًا ما، وهي لكي تكون في عداد القوى العالمية يجب أن تتوافر لها سعة المساحة، السعة التي تعطي الأهمية الضرورية لمثل هذه القوة، والتي تعطي الحياة للمواطنين الذين يعيشون فيها»[٢].

ومن المحتمل أن يكشف التاريخ مستقبلاً عن العلاقة الوثيقة بين طابع التوسع الذي وضح في السياسة الخارجية لألمانيا النازية وبين آراء هوزهوڤر وغيره من الـچيوبوليتيكيين.

وبالإضافة إلى كل هذه الحقائق فإن تقدم هوزهوڤر وغيره من الـچيوبوليتيكيين إلى الصفوف الأولى في دنيا النازية هو بخاصة بعد سنة ١٩٣٣ كان كبيرًا وبارزًا إلى الحد الذي لا يمكن معه القول بأنه كان بمحض

(١) نفس المرجع ص ٩٤٤-٩٤٥.

(٢) نفس المرجع ص ٩٥٠.



= ألمانيا قبل سنة ١٩١٨ وبعدها =

«كل مجاري المياه الرئيسية في ألمانيا تسير متوازية ، ولهذا أثره في عدم إمكان توافر المركزية ، كما يوضح صعوبة التعزيز السياسي».

المصادفة[١].

ولم يكن من الممكن أن يظل الجيش غير متأثر بهذه الحركة التي وضعت لخدمة أغراضه وأهدافه، ومن الممكن القول بأن الـچيوبوليتيكا كانت جزءًا هامًا من التفكير الرسمي والعسكري وفق عوامل تكوين الرأي العام العسكري.

ولم تنجح المحاولات لنشر هذه التعاليم في أي بلد آخر إلا في اليابان، فلقد كانت اليابان دولة عسكرية الطابع قبل عصر الـچيوبوليتيكيين، ولكن كان اهتمام هوزهوفر باليابان كبيرًا وفريدًا في بابه، ولقد ترجمت كل مؤلفاته إلى اللغة اليابانية، وكانت الجغرافية علمًا ترعاه الدولة في اليابان وتدعم منه الجامعات، وقد كيف اليابانيون علم الـچيوبوليتيكا ليتمشى مع برنامج حكومتهم للغزو.

ولقد أغفلت الأمم الأخرى علم الـچيوبوليتيكا حتى اضطرت الحرب العالمية الثانية كل فرد للاهتمام بالعلم والعناية بتفهمه، ولقد باتت كلمة «**چيوبوليتيكا**» كلمة عادية مفهومة لكل فرد، وصدر عدد كبير من المؤلفات للحديث عن العلم ومعناه وتاريخه في ألمانيا[٢]، وينظر كثيرون من الناس إليها على أنها غامضة مضللة Frakenstein كما حاول البعض أن يعدلوا من الاصطلاح بصورة ما لتستخدمه الأمم المتحدة في عملها لجمع الحقائق عن الدول المختلفة، أو بمعنى آخر أن تجمع كل المعلومات الجغرافية المعقولة التي تحتاج إليها الحكومات ويقولون عنها

(١) لمعرفة المراكز التي شغلها بعض هؤلاء الـجيوبوليتيكيين يرجع إلى كتاب:

Whittlesey, German Strategy, op. ueit, PP. ٧٤ -٧٦.

(٢) راجع بيان هذه الامؤلفات في الحديث عن المراجع في نهاية الفصل.

«**چيوبوليتيكا**».

ولقد حاول البعض أن يوجدوا «**چيوبوليتيكا**» أمريكية بالاعتماد على الجغرافية لدعم البرنامج السياسي لإسهام الولايات المتحدة في الشئون العالمية، ولكن هذا ولا شك يتحول ليكون تخطيطًا لسياسة القوة من وجهة النظر الأمريكية.

إن الاستخدام المتبادل يعاون لتمييز وفصل «**الـچيوبوليتيكا**» عن «**الجغرافية**»، إن المعرفة بجغرافية العالم الواحد من الأسس الضرورية التي يجب أن تتوافر للسياسة القومية في الحرب وفي السلم على السواء ذلك لأنها تسجل الحقائق المادية عن الأرض التي يجب تقديرها عند وضع برنامج قومي واقعي.

ولكن الـچيوبوليتيكا في الطابع الضيق الذي صوره لها هوزهوڤر تؤدي فقط إلى الحرب مهما كان طابع الأمة التي تطبقها، وهي ـ مهما بذل في إخفائها ـ وسيلة لسياسة القوة والاعتداء.

التاريخ لحياة كارل هوزهوفر ضابط جيش وعالم من علماء الجيوبوليتيكا

١٨٨٧: أتم دراسته في مدرسة ماكسميليان الملكية.

١٨٨٧: طالب ضابط في الآلاي الأول للمدفعية الملكية الباڤارية، وقد كانت كل خدمة كارل هوزهوڤر العسكرية في الجيش الباڤاري.

١٨٨٩: أتم دراسته في الأكاديمية العسكرية مع حصوله على مرتبة الشرف ومنح رتبة الملازم الثاني.

١٨٩٠-١٨٩٢: أرسل إلى مدرسة المدفعية والهندسة العسكرية، وعاد إلى الآلاي الأول مع التوصية باختياره للخدمة الخاصة.

أول أكتوبر ١٨٩٥: دخل كلية أركان الحرب مجتازًا امتحان الالتحاق بالكلية.

أول أكتوبر ١٨٩٨: أتم دراسته في كلية أركان الحرب مع التوصية باستخدامه في هيئة أركان الحرب وأعمال التدريس ـ رقي لرتبة الملازم الأول.

١٨٩٨-١٨٩٩: في هيئة أركان الحرب للواء المدفعية الأول.

نوفمبر ١٨٩٩-١٩٠١: استخدم في عدة أعمال، وبخاصة قيامه بجولة لمدة سنتين بتوجيه هيئة أركان الحرب.

سبتمبر ١٩٠١: برتبة النقيب قائدًا لبطارية مدفعية في الجيش الباڤاري.

أوائل سنة ١٩٠٤ : مع هيئة أركان الحرب مرة ثانية.

أكتوبر ١٩٠٥ : مدرس التاريخ العسكري الحديث في الكلية العسكرية.

يناير ١٩٠٧ : ضابط أركان الحرب للفرقة الثالثة أثناء تدريب هيئة أركان الحرب.

شتاء ١٩٠٨-١٩٠٩ : زيارة لليابان.

صيف سنة ١٩١٠ : العودة لألمانيا.

أكتوبر ١٩١٠ : مدرس بكلية أركان الحرب وبخاصة لإيضاح تجاربه في الشرق.

صيف ١٩١١ : ترقى إلى رتبة الرائد مع تولي قيادة كتيبة مدفعية من آلاي المدفعية الحادي عشر.

١٩١٢ : تقاعد من الخدمة العاملة في الجيش.

١٩١٤ : حصل على درجة الدكتوراه في الجغرافية والـچيولوچية والتاريخ مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة ميونيخ الباڤارية الملكية، استدعي للخدمة العاملة فور إعلان الحرب العالمية الأولى.

١٩١٩ : تقاعد برتبة اللواء، تولى محاضرة طلاب جامعة ميونيخ في علم الجغرافية.

١٩٢١ : أستاذ لعلم الجغرافية بجامعة ميونيخ (اختيارًا شرفيًا).

١٩٢٤ : أستاذ في الأكاديمية الألمانية.

١٩٣٣ : أستاذ علم الـچيوبوليتيكا وعميد قسم العلوم بجامعة ميونيخ.

١٩٣٣ : مدير معهد دراسات الـچيوبوليتيكا بجامعة ميونيخ.

١٩٣٤-١٩٣٧ : عميد الأكاديمية الألمانية.

١٩٣٨ : رئيس المنظمة الشعبية للألمان المقيمين خارج ألمانيا.

١٩٤٤(ديسمبر): قتل ابنه البرخت وألقى به في معتقل داشو بأمر الـچستابو بعد فشل محاولة اغتيال هتلر.

١٩٤٥ : أطلق الأمريكان سراحه أثناء الهجوم الأخير للغرب من برلين.

١٩٤٥ (٨ نوفمبر): وجدت جثته مع جثة زوجته في حديقة منزل صغير بجبال الألب الباڤارية وقد انتحرا بتناول السم.

حديث المراجع

الفصل السادس عشر

هوزهوفر...

الجيوبوليتيكيون

بقلم ديرونت وتليسي

نقلت الخريطة التي وسمت بعنوان:

(A Construction of Principal Panergions):

والمستخدمة في هذا الفصل بترخيص من شركة ماكنيت أند ماكنيت Maknight and Maknight والخريطة الخاصة بالأرض الداخلية لجزيرة العالم منقولة من كتاب هـ. ج. ماكيندر «**المحور الجغرافي للتاريخ**»

"The Gergraphical Pivot of History", "Geographical Journal, XXIII (١٩٠٤), ٤٥٥".

ونقلت بإذن خاص من الجمعية الجغرافية.

وأهم الدراسات الكلاسيكية في الجغرافية السياسية كتاب:

Friedrich Ratzel, Politische Geographie (Munich and Berlin ١٨٩٧' ٣rd Edition, revised, ١٩٢٣).

Halfored J. Mackinder, Democratic Ideals and Reality (New York, ١٩١٩).

الذي أعيد طبعه سنة ١٩٤٢ مع مقدمة بقلم إدوارد ميد ايرل، وتمهيد من قلم (الميـچور) الرائد چورچ فيلدنج اليوت، ويعرض هذا الكتاب لآخر تصوير للمؤلف عن نظرية الأرض الداخلية (قلب العالم) وهي واحد من الأصول التي استعارها الـچيوبوليتيكيون علماء سياسة الكرة الأرضية.

وقد جاءت التعاريف الأولى للاصطلاح چيوبوليتيكس Geopolitics كجزء رئيسي من النظام السياسي في كتاب:

Rudolf Kjellèn, Staten som Lifsform (Stockholm, ١٩١٦).

وقد ترجم هذا إلى الألمانية بعنوان: Der Staat atls Lehensform

وصدر في ليبزج سنة ١٩١٧، ثم أعيد طبعه سنة ١٩٢٤، كما يمكن الرجوع أيضًا لكتاب آخر لكـچيلين هو:

Kjellèn, Die Grossmachte vor und nach dem Weltkriege (Berlin and Leipzig, ١٩٣٠).

وكانت هذه هي الترجمة الثانية والعشرين إلى الألمانية لكتابه الذي صدر لأول مرة سنة ١٩١٤ بعنوان:

Die Grossmachte der Gegenwart؛ وأضيفت إليه كملاحق له ثلاث دراسات عن التغييرات التي جاءت تابعة للحرب من قلم ثلاثة من الـچيوبوليتيكيين القدامى، وتولى التحرير والإصدار كارل هوزهوڤر نفسه.

وقد صدرت جملة كتابات كارل هوزهوڤر في الأعداد المتتالية لمجلة:

Ziet schift fur Geoplitik, (Berichte uber den Indopazifischen Raum).

بعنوان: «**تقارير عن المنطقة الهندية ـ الباسيفيكية**»

ويقدم كتاب:

Karl Haushofer, Erich Obst, Hermann Lautensach and Otto Maull, Bausteine zur Geopolitic (Berlin - Grunewald, ١٩٢٨).

مقالات أربعة من رؤساء تحرير مجلة «**الدراسات الـجيوبوليتيكة**» مع ترك نصيب الأسد لكارل هوزهوڤر.

ويعتبر كتاب:

"Haushofer, Geopolitik des Pazifischen Ozeans".

الذي صدرت طبعته الأولى سنة ١٩٢٤ وصدرت الطبعة الثانية سنة ١٩٣٩ تطبيقًا للأصول علم «**الـچيوبوليتيكا**» سياسة الكرة الأرضية في المنطقة التي يعنى بها هوزهوڤر العناية كلها، وتعرض وجهات نظر علماء الـچيوبوليتيكا عن الحدود السياسية أكثر ما نوقش من موضوعات الجغرافية السياسية في كتاب كارل هوزهوڤر الذي وسم بعنوان:

irenzen in iherer geographyischen und politischen Bendeutung (Berlin-Grunewald, ١٩٢٧, ٢nd ed. ١٩٣٩).

ويعرض كتابه:

"Weltpolitik von Heute".

للعلم في مستوى القارئ العادي ومن بين الكثير مما كتب كارل هوزهوڤر عن اليابان كتابه:

apan und die Japaner, eine Landeskunde und Volkunde (Leipzig und Berlin, ١٩٢٣), ٢nd ed. ١٩٣٣

كما يبرز اهتمامه بالشئون العسكرية في كتابه:

Wehr-Geopolitik (Berlin, ١٩٢٣).

* * *

ونجد بيانًا لا مثيل له عن السبل التي يستخدم بها علم الجغرافية في الحرب، في كتاب:

Ewald Banse, Raum und Volk im Weltkriege: Gedanken uber eine national Weherlehre (Oldenburg i.p, ١٩٣٢).

وقد ترجم آلان هاريس Alan Harris، هذا الكتاب إلى الإنجليزية وصدر بنيويورك سنة ١٩٤١ بعنوان:

Germany Prepares for War I (New York, ١٩٤١).

وتعتبر كتابات چوهانس كوهين Johannes Kuhn في مجلة «**الدراسات الـجيوبوليتيكية**» والتي صدرت بعنوان:

"Uber den Sinn des gegenwartigs Krieges"

في المجلد ١٧ لسنة ١٩٤٠ الصفحات ٥٧-٦٢ و ١٠٥-١١٢ و ١٥٦-١٥٧ دفاعًا عن الحرب الحالية من وجهة نظر الـچيوبوليتيكيين.

ونستطيع أن نرجع إلى الدراسات المعاصرة عن علم الـچيوبوليتيكا في الكتابين المدرسيين الموجزين واللذين تعرضا لنظريات العلم وتعريف مصطلحاته وهما:

Johannes Mattern, Geopolitik (Baltimore, ١٩٤٢).

Hans W. Weigert, Generals and Geographers (New York, ١٩٤٢).

والكتاب الثاني دراسة فلسفية تتركز أساسًا حول كتابات هوزهوفر:

ويوجد أيضًا تاريخ جيد لحياة هوزهوفر مع مقتطفات من آرائه

وتعاليمه في كتاب:

Andreas Dorpalen, The World of General Haushofer (New York, ١٩٤٢).

كما نجد دراسة قيمة في كتاب:

Robert Strausz-Hupé, Geopolitics (New York, ١٩٤٢).

ويعتبر هذا نقاشًا جيدًا لتطورات العلم:

ويصور ديرونت ويتليسي Derwent Whittlesey الأسس الجغرافية لعلم الـچيوبوليتيكا في كتابه

"German Strategy of World Conquest"

طبع نيويورك سنة ١٩٤٢.

على أنه من الضروري أن يراجع الباحث دراستي:

Fred Vagts "Geography in War and Geopolitics" in Military Affairs, VII (١٩٤٣), ٧٨-٨٨.

n Gottmann "The Background of Geopolitics" in Millitary Affairs, VI (١٩٤٢), ١٩٧-٢٠٥.

القسم الخامس

الحرب في البحر والجو

الفصل السابع عشر

ماهـــان

المبشر الداعية للقوة البحرية

بقلم مرجريت تتل سبروت

لم يؤثر شخص واحد في نظرية القوة البحرية والاستراتيـچية البحرية تأثيرًا عميقًا مباشرًا بالقدر الذي كان لألفريد ثايير ماهان، فهو قد أوجد، بل وَوَجَّه، ثورة عارمة في السياسة البحرية الأمريكية، وأقام أساسًا نظريًا لإصرار بريطانيا على الاحتفاظ بمكانتها باعتبارها الدولة البحرية المبرزة على غيرها في هذا الميدان. كما كان الدافع وراء هذا التطور البحري الألماني الذي تم بوساطة الإمبراطور غاليوم الثاني والأدميرال تيربتز.

والواقع أن كتابات ماهان قد أثرت بطريقة أو بأخرى في التفكير البحري لفرنسا وإيطاليا وروسيا واليابان، فضلاً عن تأثيرها من هذه الناحية نفسها في دول أصغر وأقل شأنًا من هذه الدول الأربع الكبيرة؛ كان الفريد ثايير ماهان Alfred Thayer Mahan مؤرخًا له مكانته، وكان في نفس الوقت داعية ضد الاستعمار في أواخر أيام القرن التاسع عشر، واستطاع بالنفوذ السياسي القوي لصديقيه تيودور روزفلت وهنري كابوت لودچ(*)

(*) تيودور روزفلت الرئيس السادس والعشرون للولايات المتحدت، ولد بمدينة نيويورك ٢٧ من أكتوبر سنة ١٨٥٨، العم الخامس لفرانكلين روزفلت، تولى الرياسة وعمره أقل من ٤٣ سنة عندما مات ماكينلي يوم ١٣ من سبتمبر سنة ١٩٠١، بقي في الرياسة حتى انتخاب تافت سنة ١٩٠٩، مات في سن الستين في ٦ من يناير سنة ١٩١٩ (وورلد=

أن يلعب دورًا هامًا في حث الولايات المتحدة على أن تعنى عناية كبيرة بتقرير مصيرها فيما وراء البحار طوال السنوات الأولى في مطلع القرن العشرين.

وقد ظهر كتاب ماهان- الكتاب الذي كان تاريخًا-

The Influence of Sea Power upon History ١٦٦٠-١٧٨٣

في سنة ١٨٩٠ في الوقت المناسب، بل في وقت يعتبر فريدًا في زمانه؛ فالحقبة التي تلت هذا جاءت مليئة بالحوادث والأحداث الدولية الجسام ـ وبخاصة في التاريخ البحري ـ فلقد قررت ألمانيا أن تبني أسطولاً حديثًا، وفي نفس الوقت برز الأسطول الألماني، وسببت الحرب الإسبانية ـ الأمريكية ظهور الولايات المتحدة بمظهر الدولة التي تقف في مصاف دول العالم القوية، هذا عدا أن فن بناء السفن وفن تسييرها في البحار كانا يمران بآخر مراحل الثورة الصناعية، كان الشراع يفسح الطريق للبخار، وكانت الهياكل الخشبية للسفن تختفي لتبرز إلى الوجود الجدران الحديدية، وكانت الأسلحة غير المخشخنة تحل مكانها أسلحة مخشخنة، ومن وراء الأفق بدت

=المااناك لسنة ١٩٦١ ص ٢٣٤) المترجم.

هنري كابوت لودچ: سياسي أمريكي وكاتب، (١٨٩٣-١٩٢٤). (معجم ويستر طبع سنة ١٩٥٦).

كان من أقوى أعضاء مجلس الشيوخ، وكان على رأس المعارضة التي منعت الرئيس ويلسون من توقيع معاهدة الصلح والاشتراك في عصبة الأمم، كسب عضوية الشيوخ ضد جد الرئيس كنيدي الرئيس الحالي للولايات المتحدة، ولهذا كان انتصار الرئيس كنيدي على ابنه هنري كابوث لودچ ردًا لاعتبار أسرة كينيدي.

American. History EM ٢٠٣p ١٩١.

JCHN KENNEDY by James Mac-Grgor Burns.

المترجم.

أسلحة جديدة قوية، كما وضعت التصميمات لطوابع خاصة للسفن البحرية التي تستخدم في الأغراض المتباينة.

ولكن كان التفكير الحربي ـ وبخاصة في الولايات المتحدة[1] ـ يقصر عن اللحاق بالتطور الفني، صحيح أن العقيدة البحرية الأمريكية في سنة ١٨٨٠ قد أوضحت تقدمًا قليلاً بالنسبة للأيام التي صحبت الثورة والتي سبقتها، وقد بدا أننا ما زلنا قلقين منزعجين للنظريتين التوأمتين: الدفاع الساحلي والإغارة على السفن التجارية، وعندما واجه الأمريكان ما سبق أن واجهوه في سنة ١٧٧٦ ثم في سنة ١٨١٢، من قوات بحرية أكبر، وتقبلنا القتال فقط في أحرج اللحظات وأكثر عنفًا، كانت استراتيجيتنا الدفاعية مصحوبة بالحكمة والحذر؛ ولكن يبدو أن ضباطنا البحريين وساستنا نسوا عندما سنحت الفرصة ـ بقتالنا ضد أسطول ضعيف ـ حصلنا على السيادة على البحر وأخذنا بخناق تجارة العدو.

وفي حكم چيفرسون خضنا غمار حرب هجومية في البحر المتوسط وحاصرنا ميناء القرصان البربر، وفي الحرب ضد المكسيك سيطرنا على مياه الخليج وبذلك عاونا الجيش الأمريكي لينزل بسواحل المكسيك، وكانت مهارة القيادة البحرية للاتحاد في البحر وسيطرتها على الملاحة النهرية في جنوب البلاد العامل الرئيسي لسقوط القوة الانفصالية في الجنوب أيام الحرب الأهلية الأمريكية، على أنه بالرغم من هذه التجارب البارزة الطابع

---

(١) لمناقشة تفاصيل سياسية أمريكا البحرية راجع كتاب:

H. & M. Sprout, The Rise of American Naval Power (rev. ed., Princeton ١٩٤٢).

أما عن «التكنولوچيا» فارجع إلى كتاب:

Bernard Brodie, Sea Power In The Machine Age (Princeton ١٩٤١).

فإن التجنيد الشعبي للأسطول في وقت الحرب الإسبانية كان بقصد الدفاع عن الساحل الأمريكي فحسب.

لقد عطل اعتبار الدفاع الساحلي والإغارة على السفن التجارية ـ أو على ما يقول الفرنسيون عنهما حرب السباق ـ عطل من تطور الاستراتيـچية البحرية الأمريكية كما عطل من التطور الفني البحري في الولايات المتحدة، ولكن ليس من الممكن استمرار السيطرة على مثل هذه الروح التحفظية، وبخاصة عندما بدئ في الحقبة التاسعة من القرن التاسع عشر إنشاء أسطول بحري جديد، مع شعور القوات البرية بأن الأسطول أداة لها أهميها في السياسة القومية؛ *والواقع* أن التقدم الفني يعتبر شيئًا طبيعيًا في أمة صناعية مثل الولايات المتحدة، ولكن كانت كتابات ماهان وتعاليمه هي الدعامة الاستراتيـچية بحرية جديدة.

ـ ١ ـ

في سنة ١٨٨٤ دعا الأدميرال ستيفن ب. لوس رئيس الكلية البحرية في نيوبورت بجزيرة رود Rhode المنشأة حديثًا، دعا الكابتن ماهان ليحاضر طلبة الكلية عن التاريخ والتكتيك البحريين وبذلك قدمه إلى المنبر الذي استطاع من فوقه أن يحقق لنفسه شهرة عالمية[١]، وكان ماهان طبقًا لدراساته ولتدريبه كفئًا لهذه الوظيفة في الكلية البحرية التي تقبلها توّاقًا إليها.

كان ألفريد ثايير ماهان بن دنيس هارت ماهان الأستاذ السابق

(١) Capt. W. D. Puleston The Life and Work of Captin. Alferd Thayer Mahan (New Haven, ١٩٣٩), Chap. Xi.

بالأكاديمية العسكرية للولايات المتحدة والذي أبدى اهتمامًا بفن الحرب وكتب عددًا كبيرًا من الدراسات في الهندسة العسكرية، وهكذا فقد نما ماهان الصغير ليس فقط في الجو العسكري للأكاديمية العسكرية بويست بوينت بل وفي جو تتوافر له الثقافة العسكرية في منزله، وقد التحق بجامعة كولومبيا بنيويورك ثم انتقل إلى الأكاديمية البحرية بأنابوليس على نقيض رغبة أبيه، وأتم ماهان دراسته وترقى لرتبة ضابط في البحرية مع خريجي سنة ١٨٥٩ .

وخدم ماهان في البحرية في أثناء الحرب الأهلية ثم أرسل في رحلة بحرية لستتين إلى المياه الآسيوية، وفي هذه الرحلة وضح انصرافه إلى دراسة التاريخ وهذه هواية صحبته طوال حياته، وعاد من الشرق الأقصى عن طريق أوروبا التي جال فيها لا كزائر بل كرجل يدرس الشئون التجارية والبحرية، ومن نوفمبر سنة ١٨٧٢ خدم «**الكوماندر**» ماهان لثلاث سنوات في إحدى القواعد البحرية في الأطلانطيق الجنوبي، وقد حاول فيما بعد جاهدًا بالعمل لإصلاح أحواض الأسطول في بوستون، ولكن لم يحقق نجاحًا في محاولته هذه[١].

وفي سنة ١٨٧٨ نشر أول كتاب له، كان الكتاب دراسة وسمت بعنوان «**التعليم البحري للضابط والجنود**» وكانت الدراسة قد نالت الجائزة الثالثة في مسابقة نظمها المعهد البحري للولايات المتحدة، وكانت الدراسة تملأ عليه حياته في ذلك الوقت، وقد قرأ يوم ذاك كل الكتب العسكرية التي صدرت في عصره بما في هذا الدوريات الفنية الأجنبية، وقد أثار انتباهه

(١) لدراسة المراحل الأولى من حياة ماهان يدرس نفس المرجع السابق الفصول ١-٩.

كتاب «**حرب شبه الجزيرة**» الذي كتبه نابيير Napier بسبب عنايته بإيضاح التبعات العسكرية للأسباب والمؤثرات، وقد عني هو بهذا في كتابه الذي نشر سنة ١٨٨٣ بعنوان «**مياه الخليج والجزيرة**»[(١)].

وفي قرابة ذلك الوقت أيضًا بدا ماهان بعرض فكرة جدية عن أثر وتأثير مشروع قناة برزخية في الوضع الدولي للولايات المتحدة، ومن الطريف ملاحظة أن ماهان طوال السنوات الأولى من حياته كان خصمًا للامبريالية لا يبارى وهكذا فإنه وهو يتولى قيادة سفينة حربية صغيرة ذات سارية واحدة في البحر لخارج الساحل الغربي لأمريكا الجنوبية في سنة ١٨٨٤ كان بعيد النظر، لأنه لم ينزل البحارة على البر لحماية المصالح الأمريكية عندما قامت الثورة في بيرو[(٢)].

وعندما كان ماهان في كياؤ في بيرو قرب ليما سنة ١٨٨٤ تلقى دعوة ليحاضر الطلاب في كلية الحرب، وتفتحت للرجل آفاق جديدة في حياته.

وفي السنتين التاليتين بدأ ماهان ـ الذي كان في الواقع معدًا لحياته الجديدة ـ بتزويد طلبته بالقاعدة التاريخية التي يعتبرها لازمة ضرورية للدراسات التي سيتلقونها عنه، ويدأ بكتاب تاريخ روما لمومسين "Mommsen's, History of Rome".

وجعلته مناقشة مومسين لأسباب اختيار هانيبال للوصول إلى إيطاليا بالطريق البري بدلاً من الطريق البحري أن يسأل نفسه: ترى ماذا تكون

---

(١) نفس المرجع ص ٥٠-٦٣.

(٢) نفس المرجع الفصل ١١ وكذلك كتاب:

A.T. Mahan " The Growth of our National Feeling " In World's Work, III (Febrauary, ١٩٠٢) PP. ١٧٦٣-١٧٦٤.

النتيجة لو كان هانيبال قد وصل إلى إيطاليا بطريق البحر؟، وانتهى من بحثه إلى أن «**السيطرة على البحر كانت عاملاً تاريخيًا لم يفكر فيه هانيبال التفكير الجدي اللازم**»[1]، وبدأ ماهان دراسة رتيبة منطقية للتاريخ العسكري والبحري للقرنين السابع عشر والثامن عشر قدمت له المادة الصالحة لتحليل العوامل المؤثرة في نهضة وانهيار الأمم، كما أمدته بالفرصة لدراسة وسائل القياس والمشابهة بين الحرب البرية وبين الحرب البحرية، والتي أمل أن يخرج منها بنظرية عن التكتيكات البحرية.

وقد قرر ماهان في إعداده لمحاضراته بكلية الحرب أن يناقش التاريخ العام لأوروبا وأمريكا مع العناية بخاصة بتأثير القوة البحرية[2] وعلى هذا الأساس أعد ماهان وكتب كتبه الثلاثة التي صدرت على التوالي في سنة ١٨٩٠ وسنة ١٨٩٢ وسنة١٩٠٥وهي:

The Influence of Sea Power Upon History, ١٦٦٠-١٧٨٣.

The Influence of Sea Power Upon The French Revolution & Empire, ١٧٩٣-١٨١٢.

Sea Power in its Relation to the War of ١٨١٢.

وتعتبر هذه المجلدات الثلاثة معًا دعامة من دعامات التاريخ العام مع العناية بموضوع السياسة والاستراتيـجية والتكتيكات البحرية[3]، على أن

(١) لدراسة إعداد ماهان لآرائه وأصول هذه الآراء يرجع إلى كتاب:

Puleston, Mahan PP. ٦٦-٧٣, ٧٤-٨٠, ٩٣ Quotations p. ٦٩.

(٢) نفس المرجع صفحة ٧٥ راجع أيضًا صفحة٣ من المقدمة لكتاب:

A.T. Mahan, The Influence of Sea Power upon History, ١٦٦٠-١٧٨٣. (١٨٩٠).

(٣) نفس المرجع صفحة ٦ مقدمة الكتاب.

ماهان أضاف إلى هذه المؤلفات الثلاثة العظيمة سيلاً لم ينقطع من الدراسات والمقالات والكتب عن الاستراتيـچية البحرية وعن الشئون الدولية[١].

والواقع أن كتب ماهان ودراساته الأساسية هي في الواقع كتابات تاريخية عني فيها بدور القوة البحرية، ومن ثم فإن مناقشاته للسياسة القومية وللسياسة البحرية وللتكتيكات والاستراتيـچية البحرية لم تقدم منفصلة عن غيرها بل جاءت متشابكة معها على طوال السرد التاريخي، وإن كانت في الواقع قد جاءت خبط عشواء على غير هدى.

ويتطلب التقدير الصحيح لمكانة ماهان في تاريخ الفكر العسكري أن نفصل عدة أشياء بعضها عن بعض، فإذا ما حققنا هذا استطعنا أن نقدر قيمة مساهمة ماهان العظيمة في الاستراتيـچية الحديثة، وأن ندرك بأنه:

أولاً: استطاع أن يوجد فلسفة للقوة البحرية نالت تقدير وموافقة الكثيرين خارج الدوائر البحرية المحترفة، ووجدت طريقها إلى الهيئات والمجالس الحكومية في كثير من بلاد العالم...

ثانيا: وضع نظرية جديدة للاستراتيـچية البحرية.

ثالثًا: كان ناقدًا جيدًا للتكتيكات البحرية.

* * *

ولقد كان ماهان يحكم على القوة البحرية وعلى الاستراتيـچية البحرية تبعًا لعدة مظاهر (ظواهر) طبيعية أساسية مثل موضع الأمة في القارة

---

(١) راجع بيان المراجع في آخر الفصل، على أنه لدراسة أكثر تفصيلًا من الموضوعات التي كتب عنها ماهان يرجع إلى كتاب Puleston عنه الصفحات ٣٥٠-٣٦٤.

ومكانها على البحار المكشوفة، وتبعًا لسياستها القومية بالنسبة للأسطول البحري والأسطول التجاري والقواعد فيها وراء البحار.

وكانت التكتيكات البحرية في تقديره تعنى بالعمليات بعد أن يكون القتال قد بدأ، وكانت التكتيكات هي فن استخدام الأسلحة التي صنعها الإنسان، وهذه التكتيكات يمكن أن يتغير كما تتغير الأسلحة نفسها، ولكن مبادئ الاستراتيـجية البحرية تبعًا لمداها الواسع «**تبقى وكأنها قد قامت على صخرة صلبة**» تصلح لوقت السلم صلاحيتها لوقت الحرب»[١].

وكان الفاصل الواضح بين الاستراتيـجية والتكتيك واحدًا من الأشياء التي رفعت ماهان فوق مستوى الكتاب الذين سبقوه والذين اعتبروا القوات البحرية شيئًا لا يزيد كثيرًا عن أن يكون جزءًا من البناء العسكري، أقيم بخاصة لحماية السفن التجارية وللمعاونة على منع الغزو.

وقد اقتنع ماهان نتيجة لدراساته بأن القوة البحرية يمكن أن تزود الولايات المتحدة ـ بما سبق أن زودت به بريطانيا ـ بأداة سياسية تزيد من قوتها ومن مكانتها[٢].

ولما كان الموضوع الذي تعالجه مجلدات ماهان الثلاثة هو الأهمية الكبرى التي للقوة البحرية في رسم مصير الأمة، وقد أوضح مومسين (الذي كان كتابه أول ما أثار اهتمام ماهان بالتاريخ العسكري) بأن «سير الحروب الفينيقية[*] **يرجع من كل النواحي للقوة البحرية**»، ولكن اهتمام

---

(١) Influence of Sea Power upon History PP. ٨, ٢٠, ٢٣, ٢٨, ٨٨- ٨٩.

(٢) نفس المرجع الفصل الأول، وبخاصة ص ٢ وص ٢٨٧-٢٨٨.

(*) الحروب الفينقية Punic Wars بين روما وقطاجنة، وهي ثلاث حروب: ٢٤٠-٢٤١ ق. م، ٢١٨-٢٠١ ق.م، ١٤٩-١٤٦ ق.م. =

ماهان بالقوة البحرية كان أوسع مدى، على ما يبدو من اختياره للقرنين السابع عشر والثامن عشر يدرس فيهما هذه القوة، ذلك لأن هذين القرنين كانا في الواقع عصر الإمبريالية التجارية، كما كانا البودقة التي انصهرت فيها تجارب الاستراتيجية البحرية[١].

- ٢ -

وفي ضوء هذه النظرية الأساسية فإن القوة البحرية كانت لها أهميتها الحاسمة لنمو وتقدم ورخاء وأمن الأمة، وقد عمل ماهان لبحث العوامل المؤثرة في القوة البحرية وذكر ستة عوامل أساسية تؤثر في تطور هذه القوة هي:

* الوضع الجغرافي.
* التكيف الطبيعي.
* الامتداد الإقليمي.
* السكان.
* الاتجاهات القومية أي الاتجاهات الغريزية في الناس.
* النظام السياسي للحكم وأثره في توجيه السكان.

وكانت النتائج التي خرج بها في دراسته لهذه العوامل شيئًا مثل هذا..

فالوضع الجغرافي كعامل له أثره في القوة البحرية يمكن تفهمه

=وفي الحرب الأخيرة انتصرت روما وانتهت قوة قرطاجنة.

(١) راجع صفحة ٣ مقدمة المرجع السابق، وكذلك كتاب بولستون من ٧٠، كما يرجع إلى كتاب:

H. & M. Sprout, Toward a New Order of Sea Power (rev. ed . ١٩٤٣). PP. ٩ ff.

ليبحث وضع بريطانيا عندما نقارنها بالدولتين اللتين كانتا تنافسانها في القرنين السابع عشر والثامن عشر وهما: فرنسا وهولندة، فإن أمن الجزر البريطاني قد حرر الحكومة البريطانية من الحاجة للاحتفاظ بجيش كبير مع ما يسببه هذا من عبء في إنفاق الثروة القومية، والجزر البريطانية قريبة من قارة أوروبا، ومن ثم فهي في المدى الذي يمكنها من ضرب أعدائها ولكنها في نفس الوقت بعيدة بالقدر الكافي الذي يجعلها بمأمن من أن تتعرض للغزو.

والأسطول البريطاني يستطيع أن يحتشد من قاعدته الاستراتيـچية، وفي نفس الوقت يستطيع أن يستخدم للدفاع ولحصار موانئ القارة، وعلى نقيض هذا كانت فرنسا مرغمة على أن تقسم أسطولها بين سواحلها على الأطلانطيق وسواحلها على البحر المتوسط.

وموقع بريطانيا الجغرافي الفريد يُمكِّنها من السيطرة على خطوط الملاحة من، وإلى، شمال أوروبا، وتبعًا لتملكها لجزر هامة ولقواعد استراتيـچية مثل جبل طارق كانت في وضع يمكنها من الاحتفاظ بتدابير للسيطرة على البحر المتوسط، هذه السيطرة التي لعبت دورًا عظيمًا في تاريخ العالم من ناحيتي التجارة والحرب[١].

وللتكيف الطبيعي دوره في جعل السكان يعملون لتحقيق مكانة بحرية لبلادهم، فطبيعة الساحل تتحكم في سهولة ويسر الخروج إلى البحر الفسيح، والموانئ الجيدة تقدم القوة اللازمة لها، وطبيعة تربة البلاد، إما أن تجتذب الناس بعيدًا عن البحر، وإما أن تدفعهم دفعًا إليه للحصول على

(١) نفس المرجع ص ٣٣.

العيش. ولقد دفع الهولنديون إلى البحر ولكن اعتمادهم الكلي عليه كان مصدر ضعف لا قوة، وخصوبة تربة فرنسا جعلت اتجاه الفرنسيين للبحر مسألة لا إلزام فيها، وما من حاجة لهم بالاتجاه للبحر إلا عندما يكون هذا ضروريًا، والأمم الجزرية أي الشعوب التي تعيش في الجزر وأشباهها كبريطانيا وإسبانيا وإيطاليا يجب أن تكون قوية في البحر لتكون قوتها هذه ملموسة مؤثرة، والبحر يعتبر حدودًا فاصلة لكل دولة لها سواحل عليه، وتتقرر قوة الأمة تبعًا للحال التي تمد بها هي من هذه الحدود.

على أن امتداد الحدود قد تكون موضع ضعف بدلاً من أن تكون عامل قوة، ويتوقف هذا على مدى ما يتوافر في الأرض من عوامل القوة كالسكان والموارد، فإذا ما قطعت الأنهار المناطق الفسيحة من الأرض كانت الأنهار مصدرًا إضافيا من مصادر الضعف، ويرى ماهان أن الأرض في الولايات الجنوبية أيام الحرب الأهلية كانت كبيرة جدًا بالنسبة للسكان وللموارد، وأن السواحل والطرق المائية الداخلية كانت كبيرة جدًا بالنسبة لمصادر القوة.

ومن الضروري أن يوضع تعداد السكان وطبيعة تكوينهم موضع التقدير عند قياس القوة البحرية، ودولة بحرية كبريطانيا ليست في حاجة إلى عدد كبير من السكان فحسب بل وفي حاجة أيضًا ليكون ركوب البحر حرفة لهم بطريق مباشر وبطريق غير مباشر، وتجارة الدولة في وقت السلم من العوامل التي تقرر طاقة الأمة على البقاء والصمود في الحرب البحرية، ولهذا فمن الضروري أن يتوافر لها احتياطي كبير بين جملة السكان، وبخاصة ممن يعتبرون مهرة في صناعات السلم في وقت السلم من العوامل التي تقرر طاقة الأمة على البقاء والصمود في الحرب البحرية، ولهذا فمن الضروري أن



الفريد ثاپير ماهان

ضابط بحري ومؤرخ

(١٨٤٠-١٩١٤)

يتوافر لها احتياطي كبير بين جملة السكان، وبخاصة ممن يعتبرون مهرة في صناعات السلم في وقت السلم وفي وقت الحرب على السواء، وعلى سبيل المثال لم تكن دولة يركب أهلوها البحر فحسب، بل كانت أيضًا دولة تبني السفن ودولة لها مكانتها التجارية ومن ثم توافرت لها الموارد البشرية والفنية اللازمة للنجاح في الحرب البحرية، ومع هذا فمن الضروري الاحتفاظ دائمًا «**بالدرع التي توجد القوة الدفاعية ذلك لأنه – على ما يقول ماهان: «إذا كان الوقت هو العامل الذي له السيادة في الحرب، فإن هذه القوة الدفاعية تُلائم وتُناسب الأمم غير العسكرية الطابع والاتجاه، والتي يعترض سكانها – مثلهم في هذا مثل كل الشعوب الحرة – على ازدياد النفقات للمنشآت العسكرية، مُقدرين أن تكون في أقل ما يمكن من قوة على شريطة أن يكون هذا بالقدر الكافي لاكتساب الوقت اللازم لتحويل روح وطاقة رعاياها إلى النشاط الجديد الذي تتطلبه الحرب، فإذا كانت القوات التي تعمل في البحر وفي البر كافية للصمود والبقاء حتى ولو كان هذا لا يحقق نفعًا، فإن الأمة تعتمد على مواردها الطبيعية وعلى قوتها عندما تشترك في غمار هذه الحرب التي لم تكن تريدها أصلًا**».

وبهذا التصوير أكد ماهان الدرس الذي تحتاج إليه الشعوب الديمقراطية، الذي يجب أن تتعلمه وأن تعرف بأن «**القوة التي يجب أن توجد، والقوة الموجودة فعلًا ليستا شيئين متماثلين، وأنه من الضروري الاحتفاظ دائمًا بنسبة متوازنة بينهما**»[١] أي أنه يجب أن تكون لدى كل أمة نسبة منطقية صحيحة من القوات تمكنها من إعداد القوات التي تحتاج إليها

(١) نفس المرجع ص ٤٨.

فعلًا.

فطبيعة الناس واتجاهاتهم عامل ضروري لنجاح الشعب الذي يركب أفراده البحر، والرغبة في الاتجار مع القدرة لإنتاج ما يستخدم في التجارة هما اللتان توجدان الخاصية المهمة اللازمة لتطور القوة البحرية، «فإذا ما توافر هذان العاملان لشعبٍ ما، لم تُعطله أخطار البحر من التحول عن التطلع إلى الثروة عن طريق التجارة عبر المحيطات، وإذا ما توافرت لشعب الرغبة في التجارة فإنه ولا شك يوجد حركة تجارية في وقت السلم هي الخطوة الأولى لإقامة القوة البحرية، لقد كانت التجارة البحرية الواسعة المدى مع القدرة على بناء المنشآت البحرية هما اللتان جعلتا من بريطانيا قوة بحرية عظيمة.

على أن العمل المتواصل لزيادة الحركة التجارية والبحث عن الأسواق من العوامل الدافعة للحصول على المستعمرات ولهذا فلا يثير الدهشة أن بريطانيا، كما كانت لها المكانة الأولى في التجارة، وكما حققت لها سفنها السيادة البحرية، كانت الدولة الأكثر في عدد المستعمرات.

وهنا عامل آخر له أهميته هو طابع الحكومة التي تتولى الأمر، فإن هذا الطابع يمكن أو لا يمكن من تحقيق قيام القوة البحرية، ذلك لأنه على قدر نجاح الحكومة في توجيه الناس للاهتمام بالبحر يكون نجاحها في إنشاء القوة البحرية، ولقد كانت السياسة البريطانية منذ أيام چيمس الأول تستهدف الحصول على المستعمرات وازدياد الحركة التجارية وضمان السيادة البحرية، مع القيام بكل التدابير التي تؤكد هذا وتضمنه، ويعتقد ماهان بأنه كان من السهل الميسور انصراف الناس إلى سياسة يمكن إجمالها في سطر واحد، وذلك بسبب أن الحكومة كانت في طبقة واحدة من الناس هم

النبلاء مُلاك الأراضي[1].

ولقد أثار ماهان الشك في إمكان استمرار هذا في ضوء الحكومة الديمقراطية التي عاصرها؛ ذلك لأنه كان يعتقد أن الديمقراطيات لا ترغب في احتمال النفقات المستمرة لقوة بحرية كبيرة قائمة، ولاستعدادات عسكرية دائمة. ولقد حاولت فرنسا أيام كولبير Colbert أن تكون دولة بحرية عظيمة، ولكن هذه السياسة لم تستمر بعد انتهاء حكم كولبير، ولم تحصل على معاونة كافية من التجارة ومن المستعمرات التي كانت للإمبراطورية الفرنسية.

* * *

وقد يكون من الضروري أن نذكر هنا أن كفاية الحكومة وحصافتها وعزيمتها هي العوامل المؤثرة في تطور القوة البحرية، فالحكومة تسيطر على الأسطول وهي التي تقدر عَدَدَ وعُدَدَ وعَتَادَ سفنه، وهي التي تقرر طبيعة المنشآت البحرية، وقدرة المنظمات البحرية على التوسع بسرعة عند الحرب، وهي التي توجد روح رجال الأسطول ومدى احتمالهم للقتال، ثم إن العقائد الاستراتيـچية التي تضعها الحكومة لها العلاقة الحاسمة في إعداد قوة الأمة في البحر، فالحكومة الفرنسية مثلًا قد أصرت على أن يقوم أمراء البحر في أسطولها بالمناورة في المحيطات الفسيحة مع تجنب أي اشتباك قد يؤدي إلى خسارتها لسفنها، وكانت هذه استراتيـچية منعت الأسطول

(١) ألقت الأبحاث الحديثة ظلال الشك على تحليلات ماهان التاريخية من ناحية الدور الذي للنبلاء ملاك الأراضي، وتدل تلك البحوث على أن العامل الفعال إنما كان الطبقات الصاعدة من الناس العاملين في التجارة.

الفرنسي من الاشتباك في معارك حاسمة، وأضاعت كل فرصة ممكنة للانتصار على الأسطول البريطاني (أشار كيرالفي في الفصل التاسع عشر من هذا الكتاب إلى أن هذه الاعتبارات نفسها يبدو أنها كانت تسيطر على الفكر البحري الياباني، وقد يكون هذا عاملًا له أهميته في سير الحرب العالمية الثانية).

وقد وصل ماهان في تحليله للعوامل التي تؤثر في القوة البحرية لأن ينظر إلى الإمبريالية نظرة تختلف عن تلك التي كان يراها بها في فجر حياته، فلقد رأيناه في البداية يضاد الاستعمار، ولكنه انتهى بعد سنين إلى أن يضع موضع التقدير العلاقة بين المستعمرات والقوة البحرية، وهنا يقول: «وبالحصول على المستعمرات تكسب الدولة البحرية موطئ قدم لها في أرض أجنبية، وتجد مخرجًا لمتاجرها، ومنطقة جديدة لسفنها وعملًا أكثر لسكانها، ثم ثراء لها».

«ولكن لم تتحقق كل مطالب التجارة عندما كان الأمن والسلامة يقفان بعيدًا في آخر الطريق، فقد كانت الرحلات طويلة جدًّا مليئة بالمخاطر، فالبحار تزخر بالخصوم والأعداء وهنا وثبت إلى الضوء الحاجة إلى المحطات البحرية على طول الطريق، مثل الكاب، وسانت هيلانة، وموريتيوس[1]. وهي حاجة لم تكن بسبب التجارة وحدها، بل وبسبب الدفاع والحرب. وكانت هذه هي الحاجة التي تطلبت تملك مواقع مثل جبل

(١) موريتيوس Mauritius جزيرة بريطانية في المحيط الهندي للشرق من مدغشقر كانت أصلاً ملكاً لفرنسا واستولى عليها الإنجليز سنة ١٨٤٠، مساحتها ٧٢٠ ميلاً مربعاً تعداد سكانها ٤٩٧.٠٠٠ (إحصاء سنة ١٩٤٦) والعاصمة بورت لويس «المترجم». مُعجم ويبستر سنة ١٩٥٦ ص ٩٠٨.

طارق، مالطة، لويزبودج[١]، ومدخل خليج سانت لورنس، مواقع قيمتها في الغالبية استراتيـچية الطابع، ومن هنا لم يكن من الضروري أن تكون كل هذه المواقع مناطق للاستعمار وللتجارة، فقد تكون كذلك وقد تكون في بعض الأحيان عسكرية الطابع. ولهذا فلا يمكن الحكم على علة تملك مكان ما والدوافع وراء هذا، إلا إذا وضعنا هذه المؤثرات كلها موضع التقدير[٢].

ولهذا يكون قرار الحكومة «هل» و «أين»؟ يكون لتملك الدولة للقواعد البحرية تأثيره الحاسم في قوة الدولة في البحر، وكانت سفن الولايات المتحدة – بسبب عدم توافر القواعد لها فيها وراء البحار – «مثلها مثل طيور البر التي لا تستطيع أن تطير بعيدًا عن سواحلها».

ويتضح من تحليل ماهان للعوامل التي ترسم طبيعة القوة البحرية أن سيادة بريطانيا لم تكن تستند إلى القوة المادية وإلى أفضلية العقائد البحرية للأسطول البريطاني فحسب، بل وتستند أيضًا إلى سيطرتها على «البحار الضيقة»، وهذه البحار الضيقة التي تلعب دورًا هامًا في التاريخ البحري الحديث يمكن أن تعرف بأنها المناطق المائية مثل القنال الإنجليزي، مضيق جبل طارق، الممرات الضيقة عند صقلية ثم الدردنيل والبوسفور والتي يمكن السيطرة عليها في سهولة ويسر من أيٍ من الساحلين اللذين يحفان بها.

ولقد نجحت بريطانيا في تملك عدد من المواقع الأمامية للقوة البحرية والتي أعطتها بالإضافة إلى قوة أسطولها سيطرة لم تكن عُرضة للتنازع بعد معركة الطرف الأغر، سيطرة على البحر المتوسط والأطلانطيق الشرقي.

---

(١) على الساحل الشرقي لتوفاسكوتيا بكندا ٥٥ْ 45 شمالاً و 60ْ غرباً.

(٢) نفس المرجع ص ٢٧ – ٢٨.

ولما لم تكن هناك أي قوة بحرية عظيمة خارج أوروبا سنة ١٨٩٠ عندما أصدر ماهان أول كتبه عن القوى البحرية، فإن السيطرة على المياه الأوروبية كانت تعني السيطرة على كل محيطات العالم.

ولم تهدد سيطرة بريطانيا على بحار العالم إلا عندما بدت من وراء الأفق قوة غير أوروبية، ومع هذا فعلى طوال القرن التاسع عشر جعلت سيادة بريطانيا البحرية كل الطريق البحرية الرئيسية في العالم كخطوط مواصلات داخلية في قلب الإمبراطورية البريطانية[١].

- ٣ -

ولقد شك ماهان فيما إذا كانت بريطانيا ستستمر في الاحتفاظ بمكانتها كأكبر قوة بحرية في العالم، ولقد كتب بأن الدعامات الأساسية لهذه القوة: «لا تزال هي توافر التجارة، صناعة آلية كبيرة، ثم مستعمرات واسعة النطاق ولكن يبقى هنا سؤال يتطلب الإجابة هو:

هل يتوافر للحكومة الديمقراطية بُعد النظر مع الحساسية لتقدير الموقف الوطني والرغبة لضمان رخاء الوطن نتيجةً لتدفق النقد الكافي في وقت السلم؟ هل يتوافر هذا كله مع ملاحظة أن كل هذه العوامل ضرورية

---

(١) يرجع إلى حديث ملخص عن هذا في كتاب سبروت:

Toward a New Order of Sea Power pp. ٣-٢٨.

ويقارن هذا بما كتبه ماهان في كتابه وفي دراساته التي نشرتها الدوريات البحرية الفنية:

Influence of Sea Power upon the French Revolution and Empire, ١٧٩٣-١٨١٢ (١٨٩٢), I, pp. ١٥ ff and II, P. ١٠٦. "Considerations Govering the Disposition of Navies" in The National Review XXXIX (July ١٩٠٢), pp. ٧٠١, ٧٠٩-٧١١. The Interests of America in Internaional Conditions (١٩١٠) – pp. ٥ ff., ٦١-٦٢.

Naval Strategy (١٩١١) p. ١٧٧.

للاستعداد العسكري؟[١].

ومع هذا فالواقع أن التغييرات التي حدثت في توازن القوى البحرية أثناء القرن العشرين كانت نتيجة للتطورات التي لم يكن لبريطانيا أية سيطرة عليها، كانت هذه التطورات هي نشأة قوة بحرية جديدة مع الازدياد الكبير للقوة البحرية في مقابل القوة البحرية داخل أوروبا، وكان كذلك قيام عدة تطورات فنية جعلت الحصر البحري سلاحًا أقل تأثيرًا مما كان له من قبل[٢]. ومن المشكوك فيه أن يكون ماهان قد أدرك أهمية هذه التغييرات التي جاءت في نطاق عالمي، بل من المشكوك فيه أن يكون أي فرد آخر قد أدرك هذه الأهمية اللهم إلا في تاريخ متأخر.

وقد حطم بروز قوة اليابان البحرية السيادة الاستراتيجية التي كانت لبريطانيا في أوروبا كما حطمتها في الشرق الأوسط، ومما يستحق السخرية أن الإنجليز أنفسهم قد عاونوا على بروز قوة اليابان البحرية، ففي السنوات العشر بين ١٨٨٠ و١٨٩٠ كانت أحواض السفن البريطانية تبني لليابان السفينة الحربية إثر السفينة الحربية، وأعارت بريطانيا ضباطها البحريين لحكومة الميكادو ليُعلموا الضباط اليابانيين علوم البحار، وقد يرد على هذا بأنه لو كانت بريطانيا قد رفضت بناء هذه السفن وامتنعت عن تقديم النصيحة والتدريب لليابانيين لكانت دولة أخرى قد فعلت هذا، وقد يمكن أن يُناقش هذا على أساس أن بريطانيا كانت تحتاج إلى قيام دولة تقف ضد أطماع الروسيا الإمبريالية والتي كانت يوم ذاك تهدد مكانة بريطانيا في آسيا،

---

(١) Mahan, Influence of Sea Power upon History p. ٦٧ & Naval Strategy, p. ١١٠.

(٢) يمكن الرجوع لكتاب سبروت Toward a New Order of Sea Power وبخاصة الفصل الثاني فإن الكاتب قد نقل عنه الكثير من الجمل.

ولكن هذا الجدل المنطقي لن يُغير من حقيقة أن الأسطول الياباني الحديث في المياه الآسيوية قد غير الموقف الاستراتيجي لغير صالح بريطانيا، ثم إن السفن البريطانية التي تحرس القنال الإنجليزي والبحر المتوسط لم تعد لتعتبر ضربة لازب وكأنها تسيطر على المواصلات البحرية إلى الشرق الأقصى.

* * *

وفي أثناء هذا كانت تحدث في نصف العالم الغربي تطورات مقابلة فقبل الحرب الأهلية كانت للولايات سياسة بحرية بعامة، وسياسة خاصة بالأسطول البحري، ولكن لا هذه ولا تلك أثرت بصورة ما في التيارات الرئيسية للسياسة العالمية، وحتى في نصف العالم الغربي كانت بريطانيا لا الولايات المتحدة هي التي لها السيادة البحرية، فلما انتهت الحرب الأهلية بدأ الأسطول - في أعقاب مرحلة نمو قصيرة الأجل - مرحلة طويلة من الانحدار نحو المغيب، ثم بدأت من جديد مرحلة عودة النمو في الحقبة التاسعة من القرن التاسع عشر وفي سنة ١٨٩٠ كانت حركة النمو تسير سيرًا رتيبًا، وقد زادت كتابات ماهان وغيرها من العوامل المؤثرة من سرعة خُطى النمو كما غيرت من اتجاهها.

وفي سنة ١٨٩٨ تحول أسطول الولايات المتحدة من حفنة من السفن المطاردة التي تغير على السفن التجارية إلى أسطول من البوارج القوية، ولم تعد السيطرة على البحار الضيقة في أوروبا تضمن السيادة البحرية في العالم الجديد، ولم تستطع الإمبريالية الإنجليزية الاحتفاظ بسيادتها في المياه الأمريكية وفي مياه الشرق الأقصى إلا بتقويتها لمجموعاتها البحرية فيما وراء

البحار، ولكن لم تلبث التطورات في المناطق القريبة من الجزر البريطانية أن جعلت هذا من الناحية العملية أمرًا مستحيلًا.

وقد هددت سرعة الخطى الإنشائية للبحرية في أوروبا – وبخاصة النمو السريع للأسطول الألماني بعد سنة ١٩٠٠ – من السيادة التاريخية لبريطانيا على المياه الأوروبية، وهكذا فإنه بدلًا من أن تقوى الحكومة البريطانية مجموعات سفنها فيما وراء البحار فإنها قد اتجهت إلى ترقيقها للاحتفاظ بسيادة محدودة في البحار الضيقة وفي الأطلانطيق الشرقي، وبصعوبة كبيرة استطاعت الحكومة البريطانية حقًا الاحتفاظ بهذه السيادة المحدودة على البحار المؤدية إلى أوروبا. وكان من الواضح مع هذا أن بريطانيا لا تزال قادرة على قطع خصومها في قارة أوروبا عن ممتلكاتهم فيما وراء البحار، بل وقطعهم عن موارد الغذاء والمواد الخام في العالم الغربي والشرق الأقصى، ولكن مع هذا فإن الطاقة على القيام بهذا الحصر البحري كانت تعتمد لا على سيادة بريطانيا في المياه الأوروبية وحسب، بل وتعتمد أيضًا على سياسة واتجاهات القوى البحرية عبر المحيطات، قوى الولايات المتحدة واليابان.

وكان الساسة البريطانيون ما زالوا يستطيعون ممارسة نفوذ حاسم على الحوادث العالمية عن طريق التجارة والمالية والدبلوماسية والدعاية، ولكنهم كانوا قد فقدوا اليد العليا التي كانت لهم في الشرق الأقصى وفي نصف العالم الغربي.

كانت سيادة بريطانيا على البحار العالمية قد اختفت واختفى معها هذا التوازن التاريخي للآلة التي تجري في يسر آلة الاقتصاد العالمي والنظام السياسي القوي التي تبناها الأسطول البريطاني وأمدها بالمعونة والقوة

طوال القرن السابق.

ومن المحتمل أن يكون ماهان نفسه قد زاد من سرعة القوى التي حطمت سيطرة بريطانيا على بحار العالم، فإن تفسيره للتاريخ بربطه بين القوة البحرية وعظمة الأمة وبين الإمبريالية والقوة البحرية، هذا التفسير قد اجتذب انتباه دعاة التوسع في أوروبا وفي الشرق الأقصى وفي أمريكا؛ وكان تمجيده للقوة البحرية قد قوَّى من اتجاهات الحوادث السياسية والاقتصادية التي كانت تشجع نمو الأسطول، وقد تبنت هذه الأساطيل وعضدت بدورها الإمبريالية الجديدة التي زادت من خطى الإنشاء البحري، وبنفس النسبة التي زادت بها قوة الأساطيل البحرية انخفضت بها السيادة البريطانية على البحار.

على أنه لم يكن الوضع الاستراتيجي لبريطانيا في مواجهة القوى البحرية الأخرى هو وحده الذي يتهايل وينهار، بل إن تطورات فنية وآلية كانت هي الأخرى تدور وتحدث فتضعف من الأهمية العسكرية والسياسية التي للقوة البحرية، وأحد هذه التطورات كان تحسين الخطوط الحديدية وتحسين النقل البري في قارة أوروبا، وتطور آخر لم يدرك تماما حتى كان قيام ألمانيا النازية هو صنع المواد الخام ذات الأهمية الاستراتيـچية والتي كانت أوروبا فيما سبق تجيء بها عبر البحار.

لقد كان النفوذ البريطاني وهو في ذروته مدينًا بالكثير للحال البدائية التي كان فيها النقل البري في قارة أوروبا، كان جزءًا كبيرًا جدًّا من حركة التجارة الأوروبية تسير على الماء في الأنهار والقنوات وفي المياه الساحلية، بل وفي أعالي البحار، وكانت المتاجر التي ترسل من شمال غربي ألمانيا إلى جنوبها مثلًا تنقل في الغالبية بالسفن من الموانيء الشمالية وتمر بها السفن في القنال

الانجليزي وحول جبل طارق إلى البحر المتوسط؛ فالدردنيل ثم تسير في نهر الدانوب إلى أهدافها في جنوب ألمانيا، ولكن إنشاء شبكات كبيرة من الخطوط الحديدية، وبالتبعية إنشاء الكثير من الطرق الممهدة المُعبدة قد غيرت من هذه الحال إلى حد كبير، وكان لهذا أهميته الاستراتيـجية والتجارية.

وقد قدر ماهان ولا شك هذه التطورات الحديثة، ولكنه بقي قانعًا بأن: «**نقل كميات كبيرة من المتاجر ولمسافات طويلة أيسر وأسرع أن يتم بطريق البحر لا بطريق البر**»، وكان هذا هو السبب في أهمية السيادة على البحار، وقد أصر على أن الطرق البحرية (هي الطرق الداخلية للمواصلات) التي لها النفع العسكري الحاسم[١].

وفي مقال كتبه ماهان سنة ١٩٠٧ قال: إنه قد برز إلى الوجود عدد من الوسائل التبادلية للنقل البحري، ولكن لمناقشة مسألة أن الكفاية السابقة التي كانت للنقل البحري لم تعد قائمة فإن رخص النقل البحري هو الذي تبقى له مكانته، صحيح قد تقل أهمية النقل البحري ولكن «**ما لم ينجح في استغلال الجو فسيبقى الماء ويجب أن يبقى الوسيلة الكبيرة القيمة في النقل**»[٢].

وفي سنة ١٩٠٧ برغم أن النقل على الخطوط الحديدية كان ما زال وليدًا في طابعه فإن الأشياء التي ستجيء مستقبلًا كانت تبدو في الأفق،

---

(١) Problem of Asia pp. ١٢٤.

أما بالنسبة لآراء ليست عن أهمية الخطوط الحديدية لألمانيا ولمكانة بريطانيا في الشرق الأوسط فيرجع إلى الفصل السادس من الكتاب الثاني «رواد الاستراتيـجية الحديثة».

(٢) Some Neglected Aspects of War (١٩٠٧) pp. ١٧٤

The Problem of Asia (١٩٠٠), pp. ١٢٥-١٢٦.

ولكن ماهان لبث في تحفظه بالنسبة لها كما كان بالنسبة لغيرها من المسائل الفنية الأخرى، وهو بلا شك لم يحلم قط بخفة الحركة التي حققتها القوات البرية في الحرب العالمية الثانية، فإن خفة الحركة الحديثة هذه لم تحرم القوة البحرية من خطوطها الداخلية للمواصلات فحسب بل وهددت أمن القواعد البرية التي بدونها لا تستطيع القوة البحرية البقاء.

لقد كان من الصعوبة بمكان في السنوات الأولى من القرن العشرين التنبؤ بالتقدم العلمي الذي ربما يمكن من إخلاء الدول العظمى في قارة أوروبا من اعتمادها على المنتجات التي تجيء بها من بلاد بعيدة، لقد كان من الواضح أن إنتاج زيت الوقود للمحركات من الفحم وصناعة المطاط الصناعي وما إلى هذا من المعجزات التي للعلم التطبيقي، كان من الواضح أن هذا لا تزال أمامه سنوات مستقبلًا حتى يتحقق بالقدر الكبير، ولكن مجيء هذا كله وتحقيقه سيمكن يومًا ما من حرمان الحصر البحري من الأثر الفعال الذي له، كما أنه سيسبب ضرورة استمرار الحصار لوقت طويل جدًّا ليكون مؤثرًا، ومن المقبول منطقيًا أنه في وقت قادم سيمكن للنقل الجوي أن يقضي تمامًا على النقل البحري ولكن مع هذا فإن القوة البحرية ودورها في السياسة الدولية ستظل قائمة في صورة ما لوقت أطول، ومن المؤكد أن القرنين السابع عشر والثامن عشر اللذين أقام ماهان نظرياته على أساسهما كانا عصر الازدهار للقوى البحرية.

لقد آمن ماهان بأن القوة البحرية في كل الفروع «**التي تتشعب إليها**» هي الطريق «**الملكي**» المُمهد للثروة القومية وللمكانة لكل البلاد التي تتوافرلها الطاقة لتطورها، وقد أشار ماهان إلى أن كل أوجه الأفضلية تقف إلى جانب فرنسا لتمكنها من تطور أسطولها التجاري وأسطولها البحري،



تيودور روزفلت (١٨٥٨ - ١٩١٩)

كان الرئيس السادس والعشرين للولايات المتحدة وتولى الرياسة من ١٩٠١ إلى ١٩٠٨ وخلفه في الرياسة وليم هوارد تافت

كان موقع فرنسا أقوى من موقع أي دولة أوروبية أخرى في العمليات ضد بريطانيا، ولكن فرنسا اختارت أن تكون قوة برية أساسيًا لا بحرية، وقد قاومت ألمانيا الكثير من العوامل المُعطلة ذلك لأن غالبية تجارتها المنقولة بطريق البحر يجب أن تمر بالقنال الإنجليزي أو ببحر الشمال تحت رحمة مدافع الأسطول البريطاني[١].

وفضلًا عن هذا فليس من المحتمل – على ما أشار ماهان – أن تدافع أي أمة أوروبية لها حدود برية ضد جيران أقوياء إذا ما استطاع هؤلاء الجيران أن يحرموا جيشها مما يحتاج إليه من الموارد المادية والبشرية نتيجةً لسيادتهم على البحار.

- ٤ -

ومن الطبيعي أن ماهان – كضابط بحري أمريكي – قد أكد قيمة القوة البحرية للولايات المتحدة، كما أكد الخُطى الضرورية لضمان هذا، وفي الوقت الذي كتب فيه ماهان كتابه: (تأثير القوة البحرية على التاريخ) كان غير راغب في تقبل برنامج الاتساع الإقليمي الذي بدا وكأنه جزء لا ينفصل عن نظرياته عن القوة البحرية، ومن ثم فإن وجهات نظره عن البرنامج البحري الأمريكي يجب أن تُعتبر مُعتدلة[٢].

وقد صرح فيما يختص بالدفاع عن موانينا البحرية بأن هناك خلافًا بين النظرية والتطبيق، وقد يبدو أن مبدأ: «السفن الحرة تضمن التجارة الحرة» يجعل من الأصلح والأكثر أمنًا للولايات المتحدة أن تترك تجارتها وقت

(١) Interest of America in International Conditions PP. ٥٣, ١٩٢ – ١٩٥.

(٢) Influence of Sea Power upon History, pp. ٨٣-٨٦.

الحرب لسفن البلاد المحايدة، ولكنه أشار إلى أن هذا المبدأ ليس بصالح في كل وقت عندما تقصد السفينة ميناء محاصرة، ومن ثم فلكي يمكن للولايات المتحدة أن تخترق الحصار وأن تتجنب تعرض موانيها للحصار يجب أن تتوافر لها القوة البحرية التي تكفي لطرد القوات المحاصرة، ولقد أثبتت حوادث الحرب الأهلية أن طول سواحل الولايات المتحدة لم يجعل - على خلاف ما ظن البعض - الحصار مستحيلًا.

وعلى خلاف النظرية الأمريكية القديمة يجب إبقاء العدو ليس فقط خارج موانينا، بل يجب إبقاؤه بعيدًا جدًّا عن سواحلنا؛ وقد أضاف ماهان: «يجب أن يكون نفوذ حكومتنا واضحًا ملموسًا، ولهذا يجب أن تُبنى للأمة أسطولًا إن لم يكن مستطيعًا الوصول إلى بلاد بعيدة فعلى الأقل يستطيع إبقاء طرق الاقتراب إلى بلاد ما مفتوحة مأمونة»[١].

ولقد رأى ماهان أن الولايات المتحدة تمتلك كل العناصر التي تمكن من نمو قوتها البحرية إلى درجة أقل بقليل مما يتوافر لانجلترة، فالموقع الجغرافي للولايات المتحدة يمكن أن يُقارن بالموقع الجغرافي لانجلترة من الناحية الجزرية، من ناحية ساحل ممتد يحف به البحر، وأعتقد أن شق قنال في بنما سيُغير علاقة الولايات المتحدة بالبحر الكاريبي، فيكون أشبه بالعلاقة بين انجلترة «**والقنال الإنجليزي**» أو أشبه بعلاقة انجلترة بالبحر المتوسط، ومع الاستعدادات العسكرية الصحيحة يمكن أن تكون للولايات المتحدة السيادة البحرية على تلك المنطقة.

ولكن ماهان - مع هذا - فشل في الإشارة إلى خلاف واحد حرج،

(١) نفس المرجع ص ٨٤ - ٨٨.

فليست في البحر الكاريبي جبهات لقوى بحرية أخرى، ومن ثم فإن السيطرة الأمريكية على هذه المنطقة لن تُعطي الولايات المتحدة قوة على الدول الكبرى الأخرى، على مثال ما تنال بريطانيا من سيطرتها على قنال المانش أو على البحر المتوسط[1].

فإذا ما نظرنا إلى العوامل المادية التي توافرت للولايات المتحدة وما لها من تأثير في القوة أو الضعف، وجدنا أن كثرة عدد موانيها وعمق هذه الموانى لأمران لهما خطرهما ما لم يُدافع عن هذه الموانى دفاعًا صحيحًا، ورأى ماهان أن الولايات المتحدة قد حصلت على جمال الأرض ووفرة الغلات، الأمرين اللذين حالا بين الشعب الفرنسي وبين الانصراف إلى البحر، وكان الموقف بالنسبة للولايات المتحدة يُخالف هذا عندما كانت لا تزيد على بعض مستوطنات على ساحل الأطلنطي، كان مركز القوة على الساحل قلما اتسعت رقعة الولايات المتحدة انتقل مركز القوة إلى الداخل، ولكن إذا عادت تلك الأيام ثانيةً وعاد للخروج إلى البحر ثماره المادية، وعندما تكشف الحدود البحرية الثلاثة عن أنها ليست ضعفًا عسكريًا فحسب، بل وأكثر من هذا بسبب افتقارها إلى السفن القومية فإن الجهد المتحد قد يجعل الأمريكان يضعون من جديد أسس قوتهم البحرية، واعتقد ماهان أنه إلى أن يجيء هذا الوقت فسيظل أولئك الذين يعرفون أهمية القوة البحرية يأسفون لأن بلادهم قد سلكت السبيل الذي سلكته فرنسا بإهمال هذا السلاح البحري[2].

---

(١) نفس المرجع ص ٣٣ – ٣٤ راجع أيضاً ص ١٠٤ و ١١٠ و ١٢٤ من كتاب:
Interest of America in Sea Power (١٨٩٧) - Arms and Arbitration. طبع سنة ١٩١٢

(٢) Influence of Sea Power upon History, pp. ٨٣-٩٣.

ويناقش ماهان مسألة شق قنال بنما فيقول:

«وفيما عدا ساحل آلاسكا، فإن على سواحل الولايات المتحدة نقط قليلة تعتبر بخاصة ضعيفة تبعًا لبروزها ونتوئها للأمام، ثم إن كل النقاط الأخرى على الساحل يسهل الوصول إليها من الداخل بالخطوط الحديدية أو بالطرق المائية، وليس للولايات المتحدة مستعمرات بعيدة لازمة ضرورية لبقاء الولايات المتحدة، وهكذا فإن مواردها الوافرة التي لا حصر لها تمكن الناس من الحياة لنفسهم وبنفسهم، ومن ثم فإنه ما لم توجد طريق بحرية جديدة عبر المنطقة الضيقة في أمريكا ا لوسطى فلن يستيقظ أولئك الذين غفلوا عن الحق المشترك لكل الناس في البحر»[1].

«وسيُعطي إنشاء القنال في أمريكا الوسطى Isthmus لكل المواقع على البحر الكاريبي قيمة تجارية وعسكرية عظيمة، وستكون القنال نفسها مركزًا استراتيجيًا حاسم الأهمية، والأمة التي تسيطر على خطوط الاقتراب البحرية للقنال ستسيطر على القنال نفسها، وقد خشي ماهان أنه لو لم تتوافر للولايات المتحدة قوات عسكرية وبحرية أكثر مما لها في سنة ١٨٩٠ فإن شق هذه القنال لن يكون أكثر من نكبة بالنسبة لها»[2].

وقد صرح ماهان بأنه من وجهة النظر للتجارة وللتجارة المحمولة بالبحر فإن مركز الولايات المتحدة يُعتبر مركزًا فريدًا «**فهي تواجه العالم القديم من الشرق والغرب**» وسواحلها تحف بالمحيطات التي قد تساحل دولة أو أخرى ولكنها تُساحل كلها الولايات المتحدة وحدها، ومن ثم فإن لهذا الموقع فوائده الكبرى في الدفاع أيضًا، فإن بعد الدولة البحرية والأمم

(١) نفس المرجع ص ٤٢ – ص ١٩٨ من كتاب Problem of Asia.

(٢) Interest of America in Sea Power pp. ١٢-١٣; Problem of Asia pp. ١٨٢-١٨٤.

العسكرية الكبيرة عن سواحل الولايات المتحدة يجعل العمليات البحرية ضد الولايات المتحدة من الصعوبة بمكان، ثم إن الحسد والغيرة بين مجموعة الدول الأوروبية. هذه الغيرة التي يُقال لها توازن القوى ستحدد من قدرة وطاقة هذه الدول على إرسال القوات ضد سواحل الولايات المتحدة[١].

ولكن من جهةٍ أخرى فإن سعة رقعة الولايات المتحدة قد تكون عاملًا من عوامل ضعفها ضد دولة قوية على مثال ما كان موقف الولايات الجنوبية من الولايات الشمالية في الحرب الأهلية، فلم يكن لدى الولايات الجنوبية أسطول، ولم يكن أهلها يهتمون بالبحر، ولهذا لم يقدروا عظم الساحل البحري الذي كان عليهم واجب الدفاع عنه، ومن ثم فإن الولايات المتحدة يجب أن تكون قادرة على إيجاد القوة اللازمة للدفاع ليس عن ساحل واحد، بل عن ساحلين اثنين[٢].

وأشار ماهان إلى أن الولايات المتحدة مثلها مثل هولندة لا ينفق الناس المال للدفاع عن أنفسهم إلا عندما يُصدمون بالخطر أمام أعينهم يكاد يلمس وجوههم. ***والواقع*** أنه ليس للولايات المتحدة «الدرع الدفاعية التي تستطيع أن تعُد خلفها قواتها الاحتياطية، وتعداد الناس الذين يودون ركوب البحر أقل مما يكفي للحاجة الضرورية جدًّا» وقد اعتقد ماهان بأنه

---

(١) Interest of America in Sea Power pp. ٦, ١١٠, ١٨٢; «Current Fallacies upon Naval Subjects» in Harper's Monthly Magazine, XCVII (June ١٨٩٨) pp. ٤٥, ٤٩, & Naval Strategy pp. ١٨-١٩.

(٢) Influence of Sea Power upon History, p. ٤٣; Problem of Asia pp. ١٨١, ١٩٨, ١٩٩ Also "The Panama Canal and Distribution of the Fleet" in North American Review, (Sept. ١٩١٤).

من غير الممكن إعداد هذه الطبقة من الناس الذين يُقبلون على ركوب البحر إلا بقيام حركة تجارية بحرية واسعة النطاق في سفن تحمل الأعلام الأمريكية[١].

ولم يرقب ماهان من سبب للشك في أن المواطنين تتوافر فيهم الروح التجارية والنزعات الفطرية للحكم الذاتي وللاستقلال على مثال ما يتوافر للإنجليز، وقد أدرك بأنه لو أمكن أن تتوافر في الميدان المشروعات المُجزية فإن القوة البحرية لا تلبث أن تتطور وتتقدم، فإن «**الغريزة الفطرية للتجارة**» و«**الميل إلى الوسائل التي تؤدي إليها**» و «**الجرأة في العمل للحصول على الكسب**» كلها عوامل غريزية تتوافر للشعب الأمريكي[٢].

على أن ماهان رأى في الديمقراطية عاملًا يحد من النفع بالنسبة للولايات المتحدة، فالدول الديمقراطية عادةً تفتقر إلى الرغبة وبُعد النظر للإنفاق على قواتها العسكرية في وقت السلم[٣].

وكانت الولايات المتحدة تواجه عاملًا مُعطلًا هو افتقارها للمستعمرات، وفي سنة ١٨٨٠ لم يكن لها مستعمرات ولا محطات بحرية، وكانت الولايات المتحدة من وجهة نظر ماهان تملك فقط الحلقة الأولى من الحلقات الثلاث اللازمة للقوة البحرية، ألا وهي: التطور الداخلي وإنتاج السفن البحرية في وقت السلم، ثم المستعمرات.

ويُتابع ماهان حديثه فيقول: «**وتبعًا للصورة الحالية للأسطول فإن محاولة القيام بحصار مواني الولايات المتحدة لن تتطلب جهدًا أكبر مما قامت**

---

(١) Influence of Sea Power upon History, p. ٤٩.

(٢) نفس المرجع ص ٥٧ – ٥٨.

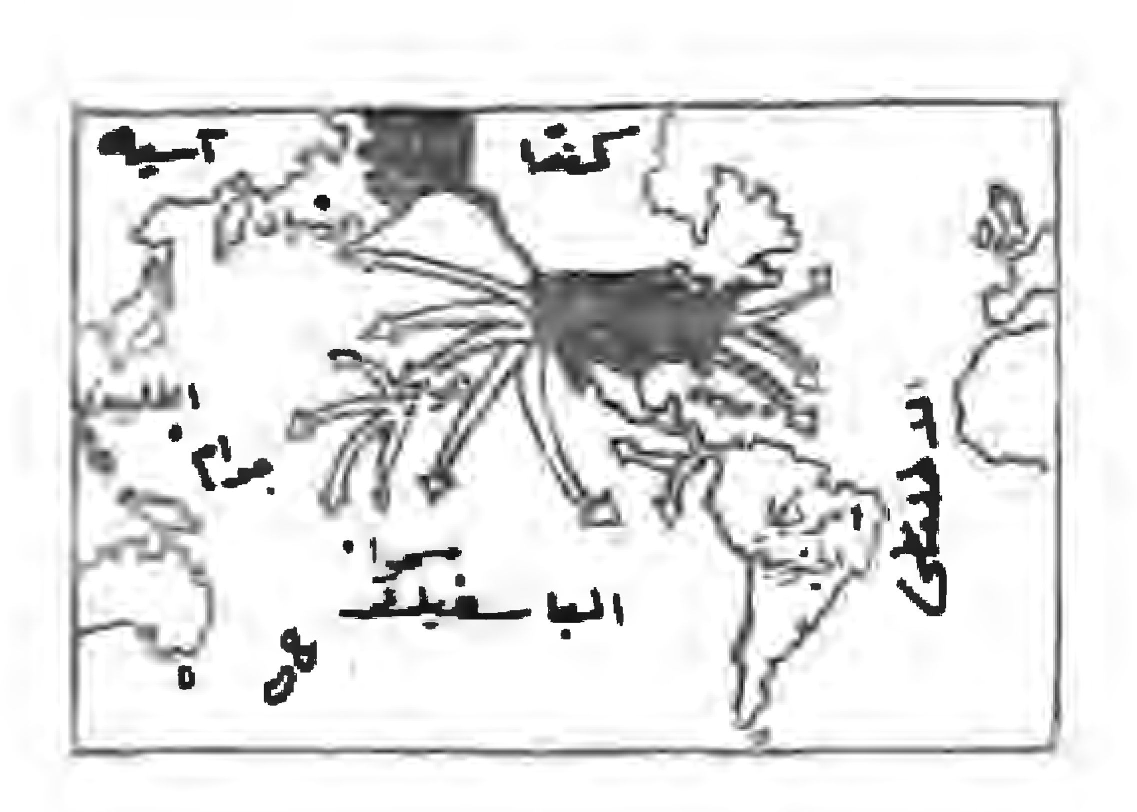
(٣) نفس المرجع ص ٦٧.

به الأمم البحرية العظيمة في الماضي، ولن يجوع شعب الولايات المتحدة ولكنه سيُقاسي متاعب كثيرة، ولهذا فمن الضروري أن تتوافر للولايات المتحدة قوة بحرية بالحجم الذي يُبقي قوات العدو بعيدًا عن سواحلها»، وقد أسف ماهان لأنه في الوقت الذي كان يكتب فيه هذا كان الناس يفتقرون إلى الدافع الذي يحثهم على أن يقوموا بتطور بحريتهم، وهكذا ظن بأن مثل هذا الدافع قد يوجد نتيجةً لشق قناة عبر أمريكا الوسطى[1].

ومع أن الأسطول الأمريكي كان ضعيفًا، ولم يكن من الممكن مقارنة موقع الولايات المتحدة بموقع إنجلترة من ناحية العوامل الضرورية اللازمة للقوة البحرية، فلقد أحس ماهان بأن الولايات المتحدة يمكن أن تجعل من نفسها قوة بحرية عظيمة، إن لم تكن أعظم القوى البحرية كلها، وذلك لو أن الشعب قد اتخذ سياسة تستهدف باستمرار تقوية الأسطول الأمريكي، وإعداد القواعد البحرية المناسبة، والحصول على مستعمرات فيما وراء البحار، وبناء أسطول تجاري كبير، وبذلك كله يمكن الولايات المتحدة أن تطمئن إلى موقعها على البحر، وسيمكن التغلب على أوجه النقص الأخرى بسبب المركز المتوسط الذي للولايات المتحدة ولأمنها النسبي من الهجوم ولاقتران هذا بالطاقة الصناعية العظيمة التي تتوافر لها.

وكما أن الوقت والفن كانا يجعلان للقوة البحرية أهميتها كآلة في السياسة الدولية، فإنهما كانا يُقللان أيضًا من أهمية بعض العوامل التي كان ماهان يعتبرها عوامل أساسية رئيسية لازمة للقوة البحرية، وقد رأى ماهان أن البخار بجعله السفن لا تعتمد على الرياح قد سبب الحد من تقديرات

(١) نفس المرجع ص ٥٦ وكتاب: Interest of America in Sea Power, pp. ١٩٩-٢٠٠.



الجغرافية والقوة البحرية الأمريكية ١٨٩٨ - ١٩٢٢

الوقاية التي يفرضها الوضع الجزري للبلاد، أي التي يسر منها كون البلاد أشبه بجزيرة وسط البحر الفسيح[1].

وقد زاد البخار أيضًا من أهمية المحطات البحرية بزيادته من مدى عمل الأسطول، ولكن كان هذا مُجرد بداية، فإن الغواصات ثم الطائرات فيما بعد كانت تحطم من القيمة الوقائية التي للشكل الجزري، على أن ماهان لم يعش ليشهد كيف قامت الغواصات الألمانية بحصر مضاد للحصار البريطاني، وكيف هددت بريطانية سنة ١٩١٧ بالمجاعة التي توشك أن ترغمها على الاستسلام؛ ولم يعش كذلك ليرقب الهجوم الجوي البرقي لسنة ١٩٤٠ ضد الموانى والمراكز الصناعية التي كانت هي العمود الفقري للبحرية البريطانية فلم تعد السيطرة التقليدية على البحار بواسطة السفن الكبيرة ضمانًا بحالٍ ما لأمن الجزر البريطانية.

وبالإضافة إلى هذا فإن أسطول المعركة نفسه يتعرض لهجوم هذه الأسلحة الجديدة، ومن الضروري القيام دائمًا وفي كل وقت بحماية الأسطول من غواصات العدو، وأضحت البحار الضيقة والمياه الساحلية التي تقع تحت سيطرة طائرات العدو التي تخرج من قواعد برية مناطق حرجة جدًّا بالنسبة للسفن الكبيرة، وهكذا فإن الأسلحة الحديثة قد حددت من المناطق التي يمكن للأسطول أن يستخدم قوته فيها.

وقد كرر ماهان أكثر من مرة حقيقة أن القواعد الآمنة هي الدعامة اللازمة لبقاء الأسطول في البحر، ولم يكن من الممكن أن يتنبأ ماهان بأن

---

(١) Interest of America in International Condition pp. ٦٢-٦٣, «Blockade in Relation to Naval Strategy» in U.S. Naval Inst. Proc. XXI pp. ٨٥١-٨٥٦.

الحرب الميكانيكية ستُهدد من بقاء القوة البحرية وكيانها تبعًا لمهاجمتها القواعد البحرية المُعرضة وبخاصة من الجو، لقد باتت لسعة أرض الدولة أهمية أكثر مما قدرها لها ماهان، فمن الممكن تحويل «**العمق**» إلى دفاع ليس فقط ضد السلاح الجديد الآلي في الحرب البرية، بل وضد هجوم أي نوع من الطائرات، والقواعد البحرية التي لا عمق لها والتي لا تتوافر لها موارد إمدادات كبيرة مثل سنغافورة وهنج كنج لم يعد من الممكن أن تحتفظ بها أي قوة بحرية ضد هجوم بري قوي بقوات ميكانيكية.

ولقد أضحت الحرب منذ سنة ١٩١٤ صراعًا بين المُستحدثات الفنية، ولم تعد الأهمية مقصورة على مدى الإمكانيات والموارد التي يمكن أن تتوافر للأمة، بل كان للقدرة الفنية التي يمكن أن تتوافر لأفراد الشعب أنفسهم أهميتها كذلك، وأضحت قدرة الأمة على اختيار الطريق الوسط بين التحفظ الذي لا مبرر له، وبين الاندفاع والتعجل في تجربة المسائل الفنية، هو الفيصل بين الانتصار والهزيمة.

على أن كل أوجه التطور الحديثة في القوة البحرية كانت في جملتها تقف إلى جانب الولايات المتحدة، وفي ضوء التطورات التي توافرت لقاذفة القنابل البعيدة المدى كانت القواعد الأمريكية ومراكز صناعاتها الحربية أقل تعرضًا للهجوم من قواعد ومراكز صناعات أي دولة أخرى من الدول الكبرى.

وفي ضوء هذا، وفي ضوء مسائل أخرى، كان من الضروري إعادة تقدير قيمة العوامل الستة التي ذكرها ماهان كدعائم للقوة البحرية، ولكن من الواضح أن آراءه الأساسية لا تزال معقولة، ولا تزال عوامل: الموقع، التنسيق الطبيعي بما في هذا الجو والموارد الطبيعية، وطبيعة الناس، ثم طبيعة

الحكومة القائمة بالأمر، لا تزال هذه كلها العوامل الرئيسة التي تؤثر في القوة البحرية لأية أمة.

- ٥ -

وإذا كان غرض ماهان الأول هو تقدير تأثير القوة البحرية في مصير الأمم، فإن غرضه الثاني كان استخلاص بعض مباديء أساسية ثابتة باقية لا تتبدل، مباديء في الاستراتيـچية البحرية يستخلصها من دراسته للحرب البحرية مع مقارنتها، أو يمكن أن تُقارن، بمباديء الحرب البرية على ما صاغها چوميني.

ومع أن الموضوع الأساسي في مؤلفاته الثلاثة يعني بتأثير القوة البحرية في التاريخ قاصرًا هذا على الأهمية السياسية للقوة البحرية، فإن هذه المُجلدات تحوي بين صفحاتها – مُبعثرة هنا وهناك – مناقشات تدور حول عناصر كثيرة من نظرية ماهان عن الاستراتيـچية البحرية والدفاع، وقد جاءت هذه الآراء كاملة وأكثر تطورًا في آخر كتبه ودراساته.

وقد قضى ماهان أكثر من سنة ونصف سنة يقرأ التاريخ الأوروبي وبخاصة تاريخ فرنسا عندما بدأ يدرس مؤلفات چوميني[١] وبخاصة كتابيه «تاريخ الحملات الحربية للثورة وللإمبراطورية» و«موجز فن الحرب»[*]، وقد اعترف ماهان كثيرًا بفضل الكاتب السويسري، ذلك لأنه تعلم من چوميني أن ينظر إلى حوادث التاريخ البحري كتصويرات للمباديء الحية

(١) لتبين تأثير چوميني في كتابات ماهان راجع كتاب: Puleston, Maham pp. ٦١, ٦٩, ٧٧, ٢٧ff, ٢٩٥ff.

(*) History of the Campaigns of the Revolution and Empire. The Summary of the Art of War.



هنري كابوت لودچ (لوچ)

(١٨٥٠ – ١٩٢٤)

سياسي أمريكي احتفظ بعضوية مجلس الكونجرس

من ١٨٩٣ - ١٩٢٤

وقد كشف من دراسته لـچوميني أنه ليس هناك ما يُعتبر فاصلًا حادًا بين الاعتبارات الدبلوماسية وبين الاعتبارات العسكرية، كما خرج من نفس المصدر بأسلوب النقد التحليلي للحملات الحربية والمعارك.

وقد صاغ چوميني مبادئ الحرب[١] التي قامت على أساس: الموقع – خطوط المواصلات – حشد القوة.

وقد حاول ماهان أن يكتشف مبادئ للتكتيكات والاستراتيـچية البحرية، ووجد أن الكثير من آراء چوميني صالحة للتطبيق على الحرب البحرية وإن كان بعضها قد تطلب التعديل والتحديد، وهكذا كانت المبادئ التي صاغها ماهان أساسًا للاستراتيـچية التي أثرت في تخطيط وسياسات الأساطيل التي لها الصدارة.

ويرى ماهان أن الموقع المتوسط له في حال البحر نفس الفوائد في الدفاع والهجوم التي له في حال البر، ومثل هذا الموقع يكون على الخطوط الداخلية، الخطوط القصيرة التي تسير عليها عملية الهجوم، والخط الداخلي ليس أكثر من «امتداد للموقع المتوسط» أو «لسلسلة من المواقع المتوسطة المتصلة وبعضها بعضًا»، والشخص الذي يتملك مثل هذه الخطوط يستطيع أن يحشد قواته على أي جبهة بين عدة جبهات بسرعة أكبر مما يستطيع العدو هذا، وبذلك يكون أحسن استخدامًا لقواته من العدو[٢]، فالسويس[*] –

(١) نفس المرجع ص ٧٨ – ٧٩، راجع الفصل الرابع من كتاب بولستون Puleston عن ماهان لتبين تفصيل كتابات چوميني.

(٢) Naval Strategy pp. ٣١.

(*) السويس يُقصد قناة السويس وهي بالطبيعة تمر بها خطوط الملاحة عبر البحر المتوسط والبحر الأحمر إلى المحيط الهندي، فهي ممر داخلي بالنسبة للدوران الخارجي حول أفريقية

على سبيل المثال – تعتبر خطًا داخليًا عند مقارنتها بطريق رأس الرجاء الصالح، وكذلك يكون موقف بنما بالنسبة لمضيق ماجلان(*)، وقنال كيبل بالنسبة لسكاجراك(*).

ويقول ماهان إن القيمة الاستراتيـچية لموقع ما تتوقف ليس فقط على علاقته بالنسبة لخطوط استراتيـچية بل وعلى الموارد التي تتوافر للمكان نفسه، أو للمنطقة المحيطة به. وموقع مثل دوفر أو جبل طارق، وكلٌ على مقربة من خطوط بحرية أو على مقربة من تقاطع عدة طرق بحرية، من الطبيعي أن يُعتبر موقعًا مركزيًا متوسطًا، وقيمة مثل هذا الموقع الاستراتيجي تَعظُم وتزداد تبعًا لحقيقة أن الطرق البحرية في هذه الأماكن تضيق بدرجة كبيرة فضلًا عن أنه من الضروري أن يجتاز هذه المناطق الضيقة عدد كبير من السفن وقد تزداد القوة العسكرية لموقع معين تبعًا للتحصينات التي تُقام عنده، ولكن إذا ما كان من الضروري نقل كل المواد اللازمة للموقع من مناطق بعيدة كان هذا الموقع مع قوته أقل قيمة من موقع آخر يقع حوله إقليم صديق(١)، وفي ضوء هذا تبدو لنا أوجه التضاد بالنسبة

(*) وهكذا الحال في المرور بقناة بنما بدلاً من الدوران في مضيق ماجلان في أقصى الجنوب من أمريكا اللاتينية .

(*) وكذلك عند المرور بقناة كييل من البلطيق إلى بحر الشمال بدلاً من المرور بسكاجراك ذراع بحر الشمال الذي يمتد لمسافة مائة وخمسين ميلاً وسعة ثمانين ميلا فاصلاً الدانيمارك عن النرويج (المترجم). معجم وييستر ص ١٣٦٥.

(١) نفس المرجع ص ١٣٠ و ١٦٣، راجع أيضاً ج١ ص ١١٠ و ١٨٤ من كتاب:

Influence of Sea Power upon the French Revoution

وكذلك:

Interest of America in Sea Power pp. ٤١ – ٤٢. و "Considerations Governing the Dispositions of Navies" in The National Review XXXIX (July ١٩٠٢) pp. ٧٠٧ – ٧٠٩.

لجبل طارق وموقف أسبانيا العدائي من قيام هذه القاعدة البريطانية في أراضيها.

وتعني كلمة «المواصلات» في نظرية ماهان «خطوط التحرك بين القوة وبين موارد تموينها»، وقد كتب ماهان: «والمواصلات أهم عامل فردي في الاستراتيـجية السياسية أو الاستراتيـجية العسكرية، وتكمُن خطورة القوة البحرية في سيطرتها على طرق المواصلات هذه، ومن ثم فإن واجب القوة هو ضمان نفعها للفرد وتعطيل انتفاع العدو بها، ويؤثر هذا إلى أعماق ما يتوافر للأمة من قوةٍ وجهد» ... «إن هذا هو الضروري بداءةً واللازم سلفًا للقوى البحرية - وبهذا أساسيًا إن لم يكن به وحده - يجب أن تعمل هذه القوى ضد العوامل المُعطلة من ناحية العدد أو ناحية الموقع»، وكلما طالت المواصلات كان عظم النفع الذي يمكن الحصول عليه من القوة البحرية.

والموقع المتوسط الذي يضمن الوقاية لخطوط المواصلات له فائدته أيضًا من اتجاهات أخرى، فإن موقع فرنسا المتوسط كان له نفعه في حربها ضد النمسا وأسبانيا، وكان لموقع بريطانيا نفعه في أي عداء بينها وبين فرنسا، فإن الأسطول البريطاني يستطيع حصار ساحل فرنسا وفي نفس الوقت يستطيع وقاية وتغطية المصالح البريطانية «من البلطيق إلى شرق البحر المتوسط»[1].

* * *

ويؤكد ماهان أن «حشد القوة» عامل رئيسي في الحرب البحرية وفي

(١) Problem of Asia. pp. ١٢٤; Influence of sea Power upon the French Revolution and Empire I pp. ٩٥ - ٩٦, ١٨٤ II, p. ١٠٦.

الحرب البرية، وتكمن قيمة الموقع المتوسط في حقيقة أنه «الموقع المتوسط» ييسر بل ويُشجع الفرد على حشد قواته، فإذا ما ووجه أسطول بعدوين في وقتٍ واحد فإن العمل الصحيح أن يعمل الأسطول للقضاء على أحد العدوين أولًا، وعندما ينتهي من تحطيمه يتجه نحو الآخر إذا كان هذا ممكنًا[(١)]، وكان هذا المبدأ هو الذي جعل الرئيس تيودور روزفلت يُلح على خلفه ألا يرضى مهما كانت الظروف بتقسيم الأسطول الأمريكي بين المحيطين الهادي والأطلنطي.

وقد اقتنع ماهان من دراساته التاريخية للمعارك السابقة في البحر وفي البر «أن النجاح أو الفشل في هذه المعارك كان يتبع مدى التمشي مع هذا المبدأ في الحرب»[(٢)].

وكانت سيادة الأسطول البريطاني ترجع بقدر كبير لأفضلية الاستراتيـچية البحرية الإنجليزية. فلأكثر من مائة عام اكتشف الإنجليز أن نوعًا خاصًا من العمليات البحرية أكثر نجاحًا من غيرها، ويشير ماهان بأنه في الحرب الهولندية – البريطانية هزم أسطول شارل الثاني بسبب تقسمه إلى قسمين للاصطدام بالهولنديين وبحلفائهم الفرنسيين في وقتٍ واحد، وانتهت الحرب عندما احتل الهولنديون مدخل نهر التايمس. وقد حدث هذا بعد خمس عشرة سنة فقط من نجاح سفن أسطول كرومويل في إغلاق تجارة هولندة في موانيها[(٣)].

ويستعيد ماهان الحوادث بين سنتي ١٦٨٩ و ١٦٩٨ عندما أرسل

---

(١) Naval Strategy pp. ٤٥ff.

(٢) Influence of Sea Power upon History, p. ٧٤.

(٣) نفس المرجع ص ١١٨ و ١٢٥ و ١٣١ – ١٣٣. Naval Strategy, p. ٧٤.

الفرنسيون أساطيل عظيمة لانتزاع السيطرة على البحار من الإنجليز الذين احتملوا خسائر كثيرة فيها بعد أيام حرب الوراثة الأسبانية ١٧٠٢ – ١٧١٢، ومع أن الأساطيل الفرنسية قد انسحبت عمليًا من المحيط إلا أن عدد السفن الفرنسية التي كانت تقوم بالإغارة على سفن النقل التجاري ازداد بقدرٍ كبير، ولكن مع خسارة الإنجليز للمئات من السفن التجارية فإن تجارتهم قد ازدهرت على حين اختفت السفن التجارية الفرنسية من البحار تمامًا[1]. وهكذا بدا أن حرب التنافس التجاري بديل غير موفق للقتال بالأساطيل.

وتوضح العمليات البحرية الإنجليزية ضد فرنسا في حرب السبع السنوات (١٧٥٦ – ١٧٦٣) كيف استمر تطور الاستراتيـچية الإنجليزية، ويشير ماهان إلى أنه في هذا النزاع قام الأسطول البريطاني لأول مرة بحصر قريب لميناء «بريست» لمنع أي سفن للخروج إلى البحر إلا بعد أن تشق طريقها بالقتال، وقد عاون الحصار على تعطيل السلاح الهجومي الوحيد لدى فرنسا ألا وهو أسطولها للمعركة، كما عاون الحصار على إبقاء الفرنسيين أقل قدرة على استخدام سفنهم استخدامًا عمليًا له قيمته؛ وقام الأسطول الإنجليزي بمهاجمة سواحل فرنسا بمجموعات من السفن السريعة الحركة بقصد إبقاء القوات البرية الفرنسية مُقسمة موزعة.

ووضع الإنجليز أسطولًا لهم في البحر المتوسط قرب جبل طارق لمنع الأسطول الفرنسي في طولون من الخروج إلى الأطلانطيق ليتجمع مع القوات الفرنسية الأخرى هناك، ومع احتجاز السفن الفرنسية بهذه الصورة

(١) Influence of Sea Power Upon History pp. ١٣٣.

أرسل الإنجليز قوات للاستيلاء على المستعمرات الفرنسية في جزر الهند الغربية، وهكذا أمكن القضاء على التجارة الفرنسية على حين ازدهرت التجارة الإنجليزية[١]، ويختتم ماهان حديثه هنا بأنه في نهاية الحرب أدركت الحكومة الإنجليزية أن السيطرة على البحر هي السر في الرخاء والنجاح، وبهذه الوسيلة تحولت مملكة بريطانيا إلى الإمبراطورية البريطانية[٢].

على أن الفرنسيين من جانبٍ آخر لفشلهم في رؤية خطر فقدان السيطرة على البحار أبقوا أساطيلهم – طوال تلك الحرب وفيما جاء بعدها من منازعات – في المواني إلى غاية ما كان هذا مُستطاعًا، فإذا ما اضطر الأسطول مُرغمًا للخروج إلى البحر بقي الغرض الأساسي للفرنسيين إنقاذ السفن وتجنب القتال كلما أمكن هذا، وقدروا أنه من الأفضل والأهم أن يمسكوا بالسفن البريطانية لا أن يدمروها فإذا ما اضطروا للقتال برغم هذا كله اختار أمراء البحر الفرنسيون أن يلجأوا للجانب الذي يهب منه الهواء، ذلك لأن هذا يفرض على العدو الهجوم مع المخاطرة فضلًا عن أن هذا يُعاون الفرنسيين على إضعاف العدو عند اقترابه وكان الإنجليز عادةً يختارون الجانب المضاد حيث يستطيعون أن يتحكموا في توجيه سفنهم دون مؤثر خارجي، وكانت سياستهم الاقتحام لتحطيم العدو[٣].

والخلاف بين الآراء الفرنسية والآراء البريطانية في الاستراتيجية

---

(١) نفس المرجع ص ٢٩٦.

(٢) نفس المرجع ص ٢٩١ راجع أيضاً ص ٩ ج١ من كتاب: Sea Power and its Relations to the War of ١٨١٢, I, p.p.qff

(٣) Influence of Sea Power upon History p. ٢٨٩.

وفي ص ٥ من نفس المرجع إيضاح تفسيري «للاتجاه الذي يهب منه الهواء» و«الاتجاه المضاد» وما إلى هذا من المصطلحات.

البحرية ليعكس على ما يرى ماهان وجهات النظريات المختلفة لإيضاح الغرض الحقيقي النهائي من الحرب البحرية، فإذا كان الغرض مجرد تأمين موقع أو أكثر على الساحل كان الأسطول تبعًا لهذا في بساطة فرعًا من الجيش له عمل خاص ويُنفذ عمله في ضوء هذا، وكان ذلك في الواقع هو وجهة النظر الفرنسية بعامة، ودون ما تقيد بحقيقة أن أحد كبار رجال التكتيك الفرنسيين بيـچو دو موروچيه Bigot de Morogue — أول مدير للأكاديمية البحرية الفرنسية — قد صرح بأنه «في البحر لا يوجد مسرح للمعركة يجب الاحتفاظ به ولا مواقع للاستيلاء عليها». دون تقيد بهذا فإن التاريخ لا يترك أي شك في أن الحرب البحرية الفرنسية كانت «حرب مواقع» وكانت «عمليات الأساطيل» عملية تابعة للهجوم على ... «والدفاع عن المواقع»[١].

ويقول ماهان: «فإذا كان الغرض الحقيقي للقوات البحرية — من جانب آخر — التغلب على أسطول العدو والسيطرة على البحر، كانت سفن العدو وأساطيله هي الأغراض الحقيقية التي يجب اقتحامها في كل الظروف»، وهذا يمثل وجهة النظر البريطانية، فلقد حاول الأسطول الإنجليزي دائمًا تحطيم قوة العدو في البحر، قطع كل مواصلاته مع بقية المناطق التي تتبع الدولة، تجميد موارده للثروة عن طريق التجارة، ثم جعل إغلاق موانيه مسألة ممكنة مُستطاعة[٢].

وقد يمكن أن تفسر لنا، النظرية الفرنسية للحرب البحرية كمجرد فرع من الحرب البحرية، مع انشغال الفرنسيين تمامًا بالحملات الحربية

(١) نفس المرجع ص ٢٨٨ – ٢٨٩ وص ٥٣٣ و ٥٣٨.
(٢) نفس الهامش السابق.

الكثيرة النفقات في قارة أوروبا، يمكن أن يفسر لنا هذا تفضيل الفرنسيين للسفن المطاردة أي السفن التي تقوم بالإغارة على السفن التجارية وهذا النوع من الحرب، «حرب التنافس والسبق»، لم يكن قليل التكاليف فحسب، بل كان يمكن من مهاجمة الوسيلة الأبرز لإظهار قوة بريطانيا وثرائها أي مهاجمة السفن التجارية.

وهكذا غفل الفرنسيون عن «الجذع» ليتشبثوا «بالفرع»، ولم يُدرك الفرنسيون أنه من الخطأ الكبير اعتبار مهاجمة السفن التجارية الوسيلة الصحيحة لتحطيم قوة العدو البحرية، أو على ما قال ماهان: «الانصراف إلى تجسيم المظهر الرخيص أمام ممثلي الشعب»(١).

ولا شك أن شعبية السفن المُخصصة لمهاجمة السفن التجارية في فرنسا والولايات المتحدة لأقوى دليل على إيمان الحكومتين بهذا النوع من الحرب.

ويقدم تاريخ النزاع بين فرنسا وانجلترة - على ما أعاد ماهان عرضه - الكثير من الأمثلة التي توضح استراتيجيتها وتكتيكاتها المختلفة، فحتى في سنوات حروب الثورة الفرنسية قام الفرنسيون بتحطيم السفن التجارية البريطانية بجرأة وعنف لا مثيل لهما في أي فترة أخرى من تاريخهم، ولكن هذا النوع من العمليات الحربية لم ينجح في إرغام الإنجليز على التفاهم معهم، بل على النقيض كانت السيطرة الإنجليزية أكثر اكتمالًا عامًا بعد آخر، وكان الدخول إلى الموانئ الفرنسية أكثر خطورة مع الوقت، وارتفعت نفقات المعيشة في فرنسا، وازدادت المتاعب في القارة، وفي طوال هذه السنين ازدادت التجارة البريطانية اتساعًا وازدادت قوة البحرية البريطانية(٢).

---

(١) نفس المرجع ص ٥٣٩.

(٢) Influence of Sea Power upon the French Revolution II pp. ٢٢٢ – ٢٢٣, ٢٢٧, ٢٨٨, ٣٤٣.

وقد أشار ماهان إلى أن الأمريكان كسبوا استقلالهم في الوقت الذي أغفل الإنجليز فيه سياستهم العادية بحصر الأسطول الفرنسي في ميناء بريست بقصد محاولة وقاية مستعمراتهم الموزعة بتقسيم قواتهم.

وقد فشل الفرنسيون وحلفاؤهم في انتهاز الفرصة وتحقيق السيطرة على القنال الإنجليزي، ولكنهم مع هذا حققوا سيطرة موقوتة على المياه الأمريكية مما أنتج استيلاء الفرنسيين والأمريكان على كورنووليس في يورك تاون[١].

وكان لُب العقيدة الاستراتيـچية لماهان هو الحاجة للسيطرة على البحر، هذه السيطرة التي اعتقد بأنه لا يمكن تحقيقها إلا بحشد قوة قادرة على طرد أسطول العدو وسفنه التجارية من البحار، وهنا يقول ماهان: «ليس الاستيلاء على بعض السفن قل عددها أو كثُر هو الذي يُعتبر ضربة قوية ضد الطاقة المالية للأمة، إن الذي يُحقق هذا هو تملك القوة التي تستطيع إزاحة علم بلاد العدو من البحار أو تسمح ببروزه فقط فوق سفن مُستولى عليها، القوة التي تستطيع أن تسيطر على طرق الملاحة التي تسير فيها سفن العدو التجارية جيئةً وذهابًا، من وإلى سواحل بلاد العدو، وهذه القوة لا يمكن أن تتوافر إلا للأساطيل الكبيرة»[٢].

«فإذا لم يكن غرض الأسطول المطاردة، بل كان مجرد السيطرة، فإن الظاهرة البارزة التي يجب توافرها له هي قوة العمل الهجومي لا سرعة السفن، فلا فائدة من أن يتحقق السبق والوصول قبل العدو إذا لم تكن القوة الأكبر لك عندما يصل العدو».

---

(١) Influence of Sea Power upon History, Chap. XIV, esp. pp. ٥٢٩, ٥٣٤.

(٢) Influence of Sea Power upon History, p. ١٣٨.

وقد اعتقد ماهان بأن هذا المبدأ، مبدأ توافر القوة الأكبر في ميدان المعركة، أصدق تقدير أو أكبر قيمة بالنسبة للبحر عنه بالنسبة للبر، ذلك لأنه لا يمكن توازن القوى إذا افتقر أي الجانبين للمدافع على مثال ما قد يحدث أحيانًا في المعركة البرية[*]، فللسرعة نفعها ولكن يجب ألا يكون هذا على حساب قوة المدافع، وهكذا كانت السفن الثقيلة (البوارج فيما بعد) هي العمود الفقري لقوة الأسطول[١].

فإذا ما كانت أمة ما سيئة الجد ولم يتوافر لها غير أسطول أقل قوة من أسطول العدو، فإن أفضل ما يجب أن تفعله هذه الأمة، أن تحتفظ بهذا الأسطول في ميناء قوي، وبذلك تفرض على العدو واجب القيام بحراسة مستمرة لمنع فكاك هذا الأسطول، وكان هذا هو الذي فعله الأسطول الألماني في الحرب العالمية الأولى، وفعله الأسطول الإيطالي في الحرب العالمية الثانية، ويُعتبر هذا الأسطول الذي يُرغم العدو على أن يُحدد عمليات أسطوله حتى يمكن القضاء على السفن المُحتجزة في الميناء الحصين «أسطولًا مُحتفظًا به» وقد ناقش ماهان هذه الفكرة، فكرة «الأسطول المُحتفظ به» بإفاضة في كتابه: دروس من الحرب الأسبانية (١٨٩٩) وانتهى ماهان من مناقشته للنظرية إلى أن الأسطول الأقوى سيُحقق في النهاية تحطيمه لهذا الأسطول حبيس الميناء[٢].

(*) في المعركة البرية قد يمكن أن تعوض قوة المناورة وخفة الحركة وحُسن استخدام الأسلحة عن النقص في سلاحٍ ما، ولكن لا يمكن أن يُعوض شيء في المعركة البحرية عن قوة مدافع السفن. (المترجم)

(١) Lessons of the War with Spain (١٨٩٩) p. ٨١.

(٢) نفس المرجع ص ٧٥.

ولكن ماذا كان الدور الصحيح لأسطول الولايات المتحدة في ضوء هذه العقيدة، عقيدة سيطرة البوارج على البحر؟

يقول ماهان: إن وجهة النظر الأمريكية السائدة كانت أن الأسطول أعد للدفاع فقط. ولكن هذه الفكرة أُسيء فهمها بسبب التضارب بين «الدفاع» تبعًا للنظرية «السياسية»، و«الدفاع» تبعًا للنظرية «العسكرية» ويوضح ماهان هذا بقوله: «إن إعداد الأسطول للدفاع فقط في ضوء النظرية السياسية معناه أن الأسطول لن يستخدم إلا عند اضطرار الأمة لخوض غمار الحرب، أما إعداد الأسطول للدفاع فقط في ضوء النظرية العسكرية فمعناه أن الأسطول ينتظر حتى يُهاجمه أسطول العدو ثم يعمل للدفاع عن سفنه وعن سواحل بلاده، ومعنى هذا أنه يترك العدو طليقًا حرًا يختار الوقت الذي يبدأ فيه معركته ويختار الأسلوب الذي يُقاتل به»(١).

والطابع الذي يفصل به ماهان بين الهجوم الاستراتيجي وبين الهجوم السياسي لعامل أساسي في أي برنامج معني به للاستعدادات العسكرية، ولكن الأمريكان في سنة ١٨٩٠ كانوا ما زالوا يُفسرون استخدام الأسطول للدفاع في أضيق نطاق عسكري، أي في منع العدو من قذف المواني على طول الساحل بالقنابل ومنعه من حصرها أو احتلالها، وهنا يندفع ماهان في حماسة ليذكر أن الأسطول «ليس الآلة الصحيحة للدفاع الساحلي في أضيق صوره هذه، أي في تحديد عمله بالدفاع عن المواني»، فإن «الدفاع السلبي» عن السواحل واجب الجيش، وإذا ما قام الأسطول بمثل هذا الواجب الدفاعي كان معناه أنه سيستخدم جنوده المدربين كحاميات للمواني على

---

(١) "Current Fallacies upon Naval Subjects" in Harper's New Monthly Magazine, XCVII (June, ١٨٩٨) pp. ٤٤-٤٥.

حين أنه يمكن استخدامهم في واجبات أفضل وأصلح، فإذا ما أوكل للأسطول الدفاع عن المواني وهي عادةً كثيرة العدد كان معنى هذا تقسيم قوات الأسطول وبذلك تفقد القوة الفعلية التي لها، إن القوة التي تدافع عن السواحل يجب أن تعتمد على التحصينات؛ وليس هذا واجب الأسطول بل إن للأسطول مصلحته في وجود هذه التحصينات لأن القواعد ضرورية للقوة البحرية[١].

ويتابع ماهان حديثه فيقول: «فإذا كان لنا بدلًا من أسطول «لأغراض الدفاع فقط» أسطول كبير كان العدو مضطرًا ليرسل عددًا أكبر من السفن عبر الأطلانطيق، وهنا تنشأ الفكرة: هل يستطيع العدو أن يبعث حقًا بهذا العدد من السفن في ضوء الأحوال الحرجة جدًّا في السياسة الأوروبية»، «فإذا كان لدى الولايات المتحدة عشرون بارجة فلا دولة أوروبية – عدا بريطانيا – «تستطيع أن تُرسل خمسًا وعشرين بارجة، وهذا أقل عدد تحتاج إليه إذا ما وضعنا موضع التقدير بُعد مسافة العمليات عن الوطن». ولكن بريطانيا في الواقع لا تستطيع أن تقف موقف العداء من دولة لها عشرون بارجة، إن مثل هذا الأسطول الذي به عشرون بارجة يمكن أن يكون أسطولًا للدفاع فقط على أساس أن وجوده يحمي البلاد من الغزو بسبب سيطرته على البحار»[٢].

على أنه حين كان ماهان ما زال يكتب كانت العقول القلقة قد بدأت تفكر وتبحث عما يمكن أن يكون تأثير التطورات الفنية الحديثة على نظرية

(١) Naval Strategy pp. ١٤٥ff., quoted in Allan Westcott, Mahan on Naval Warfare (١٩٤١) pp. ٧١; Influence of sea Power upon History p. ٨٧ note.

(٢) "Current Fallacies" p. ٤٥; and Allan Westcott, op. cit., p. ٧٢.

ماهان عن السيطرة على البحر، وفي سنة ١٨٩٥ سأل (معهد الخدمة المتحدة الملكية) Royal United Service Instutition ماهان عن رأيه فيما إذا كان الحصار البحري القريب الذي كانت الاستراتيـچية البحرية تستند إليه في الماضي يمكن أن يتم أيضًا في ضوء وجود البخار والصلب والطوربيد، فكانت إجابة ماهان مُجملة في كلمة واحدة هي: «نعم»، وكما كانت الرياح تُحدد تحركات السفن ذات الشراع في الماضي فإن الأساطيل الحديثة تعطل من تحركاتها نفس العوامل التي تدين لها الأساطيل بالكثير من قوتها، وقد تكون لمقذوفات الطوربيد خطرها على السفن التي تقوم بالحصار ولكنها يمكن أن تستعمل أيضًا ضد السفن التي تحاول الفرار، وهكذا فإن هذه الأحوال الجديدة «قد أوسعت من المسألة ولم تغير من طبيعتها»(١).

وبعد ست عشرة سنة أثيرت المسألة من جديد بالنسبة لظهور الغواصة ولتحسن وسائل إطلاق الطوربيد وتبعًا لإيجاد التلغراف اللاسلكي، وكانت إجابة ماهان نفس الإجابة الأولى، ولقد قال بأن الغواصة والطوربيد الجديد يمكن «أن يضعا جهدًا جديدًا على القوات التي تقوم بالحصار ويرغماها على أن تظل على مسافة أكثر بكثير»، ولكن مبادئ الاستراتيـچية تبقى ثابتة دون أن تتغير(٢).

والواقع أنه عندما تعرضت كفاية الحصار البحري للاختبار في الحرب العالمية الأولى فإن السيطرة الإنجليزية على محطات الإمداد بالفحم وأماكن الرسو وغير هذا من التسهيلات البحرية قد عاونت الإنجليز لإيجاد

---

(١) "Blockade in Relation to Naval Strategy" in U.S. Naval Inst. Proc., XXI (November, ١٨٩٥), pp. ٨٥١ – ٨٦٦, esp. P. ٨٥٧.

(٢) Naval Strategy, pp. ٢ff.

تنظيم جديد يمكن من القيام بهذا الحصار، وقد منحت سفن البلاد المحايدة – والتي استطاع أصحابها أن يثبتوا للمندوبين التجاريين البريطانيين أن حمولة سفنهم لا تتعارض وقوانين مصادرة المواد التي تستخدم في صناعات الحرب – منحت السفن تراخيص مرور حمت السفن من المصادرة ومن الاستيلاء عليها، ومكنتها من استخدام أماكن الرسو وأماكن الإمداد بالفحم التي بدونها لا تستطيع هذه السفن قطع هذه الرحلات البحرية الطويلة.

وقد استخدم هذا الأسلوب نفسه في الحرب العالمية الثانية، وعلى أية حال فقد استمرت عمليات الحصر البحري من مسافات طويلة فلم يعد في الإمكان القيام بحصار قريب ولا أن يكون الحصار ساحليًا بحالٍ ما.

وقد نشأ التحدي لنظرية (السفن الكبيرة) البوارج من تعرض هذه السفن لهجوم الغواصات والطائرات، وقد أثارت تجربة قذف بعض السفن الألمانية – التي سلمت للحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى – بالقنابل من الجو، أثارت هذه التجربة نقاشًا جدليًا ما زال قائمًا يدور حول الطائرات ضد البوارج، وقد يكون من الممكن هنا الخروج برأيين اثنين لهما طابع التيقن والتأكيد، أولهما أن البحار الضيقة التي تكون داخل مرامي طائرات العدو التي تعمل من قواعد برية قد أمست منطقة لا تأمن البوارج الملاحة فيها إلا لوقت قصير على أن تصحب البوارج بوقاية جوية قوية وثانيهما أنه في البحر المكشوف يجب أن تتوافر للبوارج وقاية ضد الغواصات، ووقاية ضد الطائرات، وأن تكون الوقاية ضد كلا السلاحين كبيرة، ولم تخرج إلى الوجود القوة البحرية أو العسكرية التي تستطيع أن تحل مكان أسطول المعركة ببوارجه وطراداته بالرغم من أن الحرب في الباسفيك طوال الحرب

العالمية الثانية قد جاءت بتطور في الاستراتيـچية البحرية باستعمال حاملات الطائرات كقوة ضاربة ذات غرض محدد سريع الحركة وذلك في العمليات التي تجري لمسافات طويلة[١].

- ٦ -

ولم يترك غير عدد قليل من الناس دورهم واضحًا بعمق في مجريات الحوادث العالمية على مثال ما ترك ماهان، ولم يعش كذلك غير عدد أقل من الناس ليروا ثمار عملهم واضحة جلية. وعندما مات ماهان في ديسمبر سنة ١٩١٤ كان تأثير كتاباته ملموسًا محسوسًا في كل رياسة للبحرية في العالم كله، وكانت وجهات نظره لها بدورها تأثيرها في الرأي العام في أمريكا وأوروبا، بل وحتى في الشرق الأقصى.

على أن تأثير ماهان في السياسة البحرية الأمريكية قد بدا واضحًا حتى قبل ظهور كتابه «تأثير القوة البحرية على التاريخ» سنة ١٨٩٠، وقد ألقى محاضراته في كلية الحرب سنة ١٨٨٦، وفي السنوات التي سبقت سنة ١٨٩٠ كان الكثيرون من الضباط البحريين ومن الرجال العاملين في ميدان السياسة بينهم تيودور روزفلت على دراية بكتاباته[٢] ولعل وزير البحرية ب. ف. تراسي قد سمع أو قرأ بعض محاضراته لأن تقريره السنوي الذي صدر سنة ١٨٨٩ فيه الكثير من آراء ماهان.

ومع أن الدفاع لا الغزو كان هو الغرض في السياسة الأمريكية فإن

(١) للدفاع عن البوارج ضد القوة الجوية، راجع كتاب:

Bernard Brodie, A Layman's Guide to Naval Strategy (Princeton, ١٩٤٢), Chap. VIII.

(٢) Puleston, Mahan, Chap, XIII.

تراسي قد بقي مُحتفظًا بفكرة احتياج الولايات المتحدة لقوة مقاتلة ولم تكن الطرادات غير المدرعة تصلح لإيجاد هذه القوة، كانت الولايات المتحدة تحتاج إلى عشرين بارجة مُدرعة تستطيع بها إجراء الحصار و ضرب أسطول العدو عند اقترابه، إن ما تحتاج له أمريكا هو أسطول تتوافر له كفاية طرد قوات العدو عن سواحلها بتهديد سواحل العدو نفسه، أسطول يصلح لخوض غمار حرب يمكن برغم كونها دفاعية من ناحية المبدأ أن تكون حربًا هجومية بطبيعة عملياتها[1].

وجاءت في أعقاب تقرير تراسي وثيقة ثورية بدرجة أكبر هي تقرير ما يُقال عنه مجلس رسم السياسة البحرية، والمجلس عبارة عن ستة ضباط بحريين اختارهم تراسي لدراسة الاحتياجات البحرية للولايات المتحدة، وقد رسم هذا المجلس مجمل برنامج يقوم على أساس الاحتياجات القومية في ضوء تفسير ماهان للتاريخ.

ومع أن المجلس قد اعترف بأنه ليس للولايات المتحدة مستعمرات، وأن تجارتها لما وراء البحار تحملها سفن محايدة، وأن صناعات أمريكا لا تلقى منافسة من صناعات الأمم الأخرى إلا في عدد قليل من الأسواق، برغم هذا فإن المجلس قد نصح ببناء مائتي بارجة حديثة الطراز من كل الأنواع، وأوضح أعضاء المجلس عن إيمانهم بأن الولايات المتحدة ستدخل بعد قليل فترة تنافس واتساع تجاريين بها في هذا تطور وسائل نقل منتجات أمريكا، وأن شق قناة في أمريكا الوسطى سيكون مصدر خطر، وقد أوصى المجلس أيضًا، وبخاصة، أن تبني بعض بوارج قصيرة مدى الرحلة للقيام

(١) Sprout, Rise of American Naval Power, pp. ٢٠٧ - ٢٠٩.

بواجب الدفاع الساحلي، مع بناء أسطول من البوارج البعيدة المدى للقيام بالعمليات الهجومية[١].

وقد أثار التقرير عاصفة من الاحتجاج داخل مجلس الكونجرس وخارجه، ولكن الشيء الذي يستحق الذكر على التحقيق أن لجنة الشئون البحرية في المجلس قد تقدمت في الميزانية البحرية للعام التالي ما يشير إلى: بناء ثلاث بوارج للدفاع الساحلي تصلح للخروج إلى البحر الفسيح على أن تكون ثقيلة التدريع قوية المدافع.

ومع إصدار القانون البحري لسنة ١٨٩٠ كان من الواضح أن مجلس الكونجرس يتحرك في اتجاه سياسة بحرية تتمشى مع تحليلات ماهان التاريخية للقوة البحرية[٢]، وعلى حين كان الكونجرس يُناقش احتياجات البلاد البحرية كانت إدارة البحرية تكافح لتطبيق الاستراتيـچية الجديدة للدفاع البحري، وكانت نتيجة هذا أن مجموعة السفن لشمال الأطلنطي راحت تتطور لتكون القوة المقاتلة التي يمكن من الناحية الواقعية أن يُقال لها الأسطول المقاتل[٣].

وبقى مجلس الكونجرس يعني ببناء البوارج إلى جانب سفن القتال الأخرى، وفي نوفمبر سنة ١٨٩٣ وافق وزير البحرية هيربرت في غمرة اقتناعه بما جاء في الكتاب الثاني لماهان: تأثير القوة البحرية في الثورة الفرنسية وفي الإمبراطورية الفرنسية، ١٧٩٣ – ١٨١٢، وافق على نظرية استخدام السفن الكبيرة في الدفاع الساحلي، واستخدم في قراره ألفاظًا

(١) نفس المرجع ص ٢٠٩ – ٢١١.
(٢) نفس المرجع ص ٢١١ – ٢١٣.
(٣) نفس المرجع ص ٢١٧.

أقوى من تلك التي استخدمها سلفه.

والواقع أن هيربرت قد سار شأوًا بعيدًا في هذا الشأن باعتباره الأسطول آلة للقوة يمكن بها حماية مصلحة الوطن في الخارج وتقوية الدبلوماسية بعامة حتى في وقت السلم، وكانت العوامل الأخرى تندفع في نفس الاتجاه وقد فسرت المعارك البحرية للحرب الصينية – اليابانية (١٨٩٤ – ١٨٩٥) تفسيرًا واسع النطاق لإثبات قيمة البوارج كقوة مقاتلة، وقد سبب النزاع على الحدود بين ڤنزويلا وبريطانيا الاهتمام بالاستعدادات البحرية، وكانت بداية الأزمة التي أدت إلى الحرب ضد أسبانيا مادة جيدة للدعاية.

على أن الأهم كان الازدياد التدريجي لبروز ماهان نفسه وسط الأضواء، ففي المناقشات حول الشئون البحرية سنة ١٨٩٠ لم يذكر اسم القبطان ماهان حتى ولا مجرد ذكر اسمه كرجل من رجال البحرية، ولم تكن هناك أية علائم تدل على أن أيًا من الشيوخ أو النواب قد سمع بمحاضراته أو كتابه، ولكن في سنة ١٨٩٥ كان اسم ماهان وآراؤه معروفة مروية يتحدث عنها كل المعنيين بالشئون البحرية وتزخر بها دراسات مجلس الكونجرس، وفي المناقشات التي دارت في المجلس لسنتي ١٨٩٥ و ١٨٩٦ وضح لأول مرة أن عددًا كبيرًا من الشيوخ والنواب يفهمون فهمًا جيدًا النظريات الاستراتيـچية التي سيطرت على التشريع الأمريكي البحري منذ سنة ١٨٩٠، وكان هذا التقدير العام لنظرية ماهان هو الذي جمع بين الهيئة التشريعية والسلطة السياسية التنفيذية في العمل لتحقيق السيطرة على البحر في منطقة فسيحة حول سواحل القارة الأمريكية، وفي سنة ١٨٩٧ وضح بأنه ليس بعيدًا هذا اليوم الذي سيستطيع فيه الأسطول الأمريكي برغم أنه

أقل – من الناحية العددية – من أساطيل عدد من الدول الأوروبية البحرية أن يسيطر على كل خطوط الاقتراب البحرية إلى الولايات المتحدة[١].

وكانت الحرب ضد أسبانيا هي – من الناحية التاريخية – حجر الزاوية في تطور الفكر البحري الأمريكي، كما كانت الحرب نفسها أيضًا دُعامة نهضة القوة البحرية الأمريكية، وقد فسر النزاع كدليل إثبات صلاحية المبادئ الاستراتيـچية التي قدمها ماهان في الكثير من كتبه ومقالاته المرة بعد الأخرى، دون أن يمل هذا الحديث، على أن هنا مسألة لها أهميتها، فإن هزيمة القوة البحرية الأسبانية في خليج مانيلا، وهي قوة ضعيفة أصلًا، كانت هذه الهزيمة في الواقع ذات أهمية لنتائجها السياسية أكثر من أن تكون كنموذج للاستراتيـچية البحرية، ولكن كان الموقف بالنسبة للبحر الكاريبي غيره بالنسبة للموقف في الفلبين، ففي البحر الكاريبي كان من الواضح الجلي أن الموقف الاستراتيجي يتوقف على السيطرة البحرية، ولتحرير كوبا من الحكم الأسباني الهدف السياسي من الحرب، كان من الضروري إبعاد القوات الأسبانية البرية والبحرية من كوبا ومن المياه الكوبية، ووضع موضع التقدير أن الحصار البحري للجزيرة سيجعل حاميتها تتضور جوعًا وأن الغزو العسكري قد يعجل من سقوطها، ومع هذا فإن السلطات العسكرية الأمريكية كانت راغبة في المغامرة بالغزو فقط عندما تتوافر لها السيطرة على مياه كوبا والمناطق المجاورة، ولن يكون هذا مستطاعًا إلا بعد تدمير وتحطيم القوات البحرية الأسبانية التي ستبذل غاية ما تستطيع للاحتفاظ بمواصلات أسبانيا مع

(١) نفس المرجع ص ٢١٧ – ٢٢٢.

كوبا[١].

وبدت ظاهرة غريبة هي في الواقع من أهم النتائج التي برزت عن هذه الحرب، ظاهرة جهل الناس بعامة بمبادىء الاستراتيـچية البحرية على ما بشر بها ماهان، كان الناس بعامة وكانت الصحف اليومية بخاصة في فزع للشائعات التي انتشرت عن احتمال الإغارة على السواحل الأمريكية (سواحل الولايات المتحدة)، وراحت الصحف كصدى لأحاديث الناس تطالب بوقاية، وقاية في صورة بوارج تقف للدفاع عن كل مدينة على ساحل الولايات المتحدة، وكان مثل هذا التقسيم لقوات الولايات المتحدة البحرية – التقسيم الذي بعث ماهان ببرقية من أوروبا يعلن فيها عدم موافقته على هذا الإجراء – كان من الضروري أن يسبب – لو حدث – نتائج لها خطرها[٢].

وقد عارضت وزارة البحرية ما يطلبه الناس من وقاية للمدن التي على ساحل الاطلنطيق، ووجهت الأسطول الأمريكي كله إلى البحر الكاريبي حيث حاصر المياه الكوبية أولًا ثم دمر ما كان في هذه المياه من سفن الأسطول الأسباني وقررت السفن التي تعمل على مسافة من ساحل الولايات المتحدة نتائج كل مرحلة من مراحل هذه الحرب، ولكن الناحية المهمة أنها وجهت ضربة قاتلة قضت على نظرية الدفاع الساحلي كجزء من الاستراتيـچية البحرية.

وإذا كانت الحرب ضد أسبانيا قد أكدت نظرية ماهان عن الاستراتيـچية البحرية فإنها كانت بداية مرحلة اتساع الولايات المتحدة على

(١) نفس المرجع ص ٢٢٣ – ٢٣٢.

(٢) نفس المرجع ص ٢٣٤ – ٢٣٧ و ص ١٨٧ من كتاب: Puleston, Mahan.

ما أشار ماهان، ولو أن السيادة في البحر الكاريبي كانت قد تقررت كغرض يجب أن تعمل الولايات المتحدة لتحقيقه، وقد تقرر هذا قبل الحرب ضد أسبانيا بوقت طويل، صحيح أن ضم بورتريكو واحتلال كوبا لم يغير مشكلة الدفاع الإقليمي إلا بقدر قليل، ولكن الحرب وما تبعها قد أوضح الحاجة إلى شق قناة في أمريكا الوسطى وأكد الحاجة للسيطرة على كل خطوط الاقتراب إلى هذه القناة[١].

* * *

وقـــد غير استيلاء الولايات المتحدة على بعض الجزر في الباسيفيك من الموقف الاستراتيجي بالنسبة لها (للولايات المتحدة)، كان ماهان قد أشار منذ بعيد إلى أن احتلال جزر هوايي ضرورة عسكرية لتأمين الساحل الباسيفيكي، وأضاف الاستيلاء على الفلبين جديدًا إلى ضرورة ضـــم الولايات المتحدة لجزر هوايي، وكان هو العامل الحاسم في إتمام هذا الضم في صيف سنة ١٨٩٨، ثم كان الحصول على جزء من أرخبيل ساموا samoa في سنة ١٨٩٩ تكملة لسلسة من الممتلكات الجديدة، وللأحسن أو الأسوأ فإن الولايات المتحدة بدأت برنامجًا للاتساع فيما وراء البحار، كان – على ما قال ماهان – حلقة من الحلقات الثلاثة الضرورية لقيام القوة البحرية[٢].

وقد دعمت هذه المواقع الأمامية الجديدة القوة البحرية التي آمن ماهان بضرورتها لتقوية الدبلوماسية الأمريكية في الشرق الأقصى، ولكن كان من

---

(١) Sprout, Rise of America Naval Power, pp. ٢٣٧ – ٢٤١ قطعت السفينة أوريجون المسافة من سان فرنسسكو إلى كي ويست عن طريق مضيق ماجلان في ستة وثمانين يوماً، وتصل المسافة تقريباً إلى ثلاثة عشر ألف ميل بحري.

(٢) نفس المرجع ص ٢٤١ – ٢٤٥.

الضروري – من جهة أخرى – الدفاع عن هذه المواقع الأمامية وتأمينها، ومع أن المشكلات الاستراتيچية التي أوجدتها ضرورة هذا الدفاع كانت مشكلات صعبة إلا أنها لم تكن مشكلات مستعصية الحل، فقط كانت هناك عدة قوى سياسية وعاطفية تسير طريق التنفيذ الكامل للخطط العسكرية التي أعدها للأسطول، ولكن مع أن الولايات المتحدة كانت قد وقفت في الواقع على الطريق لتكون دولة بحرية قوية على ما قال ماهان، إلا أن الشعب في جملته لم يكن على استعداد ليدفع الثمن الضروري لتنفيذ بقية البرنامج بل وحتى احتمال النفقات اللازمة لتأمين ما أمكن تحقيقه منه، وعاشت الولايات المتحدة في شعور مريح بالأمن والسلامة حتى كان صباح الأحد السابع من ديسمبر سنة ١٩٤١ وسقط مطر من القنابل على بيرل هاربر فأرغم شعب الولايات المتحدة على أن يخوض حربًا في الباسيفيك.

ومع أن الولايات المتحدة لم تضع قط موضع التنفيذ العملي الكامل فلسفة ماهان للقوة البحرية، إلا أن الشعب الأمريكي في جملته قد تقبل عقيدة ماهان عن الاستراتيچية البحرية كما رضي عن إيمانه بالحاجة إلى قيام قوة بحرية لها وزنها وخطرها، وقد تطورت صلات ماهان بتيودور روزفلت إلى صداقة دائمة، واقتنع روزفلت اقتناعًا تامًا بآراء ماهان، ووجد روزفلت في خضم عمله كمساعد لوزير البحرية – قبيل قيام الحرب ضد أسبانيا – الكثير الذي يجب أن يعمله، ثم أدى اغتيال ماك كينلي في سبتمبر سنة ١٩٠١ ليتولى تيودور روزفلت رياسة جمهورية الولايات المتحدة. وهكذا تغير كل اتجاه التطور البحري الأمريكي، ذلك لأن فلسفة ماهان عن القوة



الوضع الاستراتيجي للولايات المتحدة في بحر الصين الجنوبي وجنوب شرقي آسيا بعد احتلالها للفلبين

البحرية دخلت البيت الأبيض في شخص تيودور روزفلت[١].

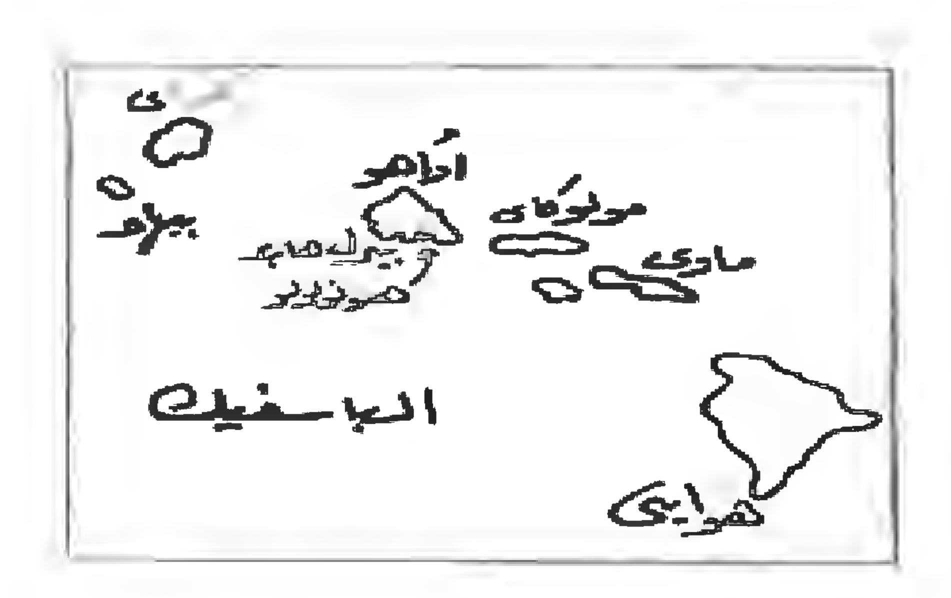
وفي السنوات التي تلت هذا، سيطر روزفلت سيطرة تامة على السياستين البحرية والخارجية للأمة[٢]، ولقد تولى تيودور روزفلت الرياسة مرتبطًا بشق قناة في أمريكا الوسطى، وكان بدء العمل في هذا المشروع نجاحًا كبيرا لحكومة روزفلت؛ وفي غمرة تأثر روزفلت بالتحذير الذي خرج به ماهان من أن شق هذه القناة سيحقق عملًا استراتيجيًا طيبًا إذا ما توافرت للولايات المتحدة سيطرة كاملة على خطوط الاقتراب إليها (إلى هذه القناة)، في غمرة هذا بدأ روزفلت حملة قوية لزيادة قوة الأسطول الأمريكي، وبالرغم من حقيقة أن الأسطول البريطاني والأسطول الألماني الذي كان يمر بمرحلة تقوية وتطور كانا جدا مشغولين بالتنافس والتضاد

في المياه الأوروبية، برغم هذا كان روزفلت يثق بأن الألمان سيثيرون المتاعب يومًا ما في مكان ما من نصف الكرة الغربي، ولن يمكن مقاومة هذا الاعتداء كما لن يمكن ضمان أمن وسلامة قناة بنها إلا إذا كان للولايات المتحدة ثاني أسطول في العالم ولا يسبقه في القوة إلا الأسطول البريطاني وحده، وعاد روزفلت مرة أخرى بعد ذلك فاصطنع أزمة مع اليابان لكي يؤكد الحاجة إلى توافر أسطول أمريكي أقوى في الباسيفيك.

وتابع روزفلت عامًا بعد آخر هذه القوة الدافعة لإعداد أسطول أقوى، وفي سنة ١٩٠٥ كان قد حقق نتائج لها وزنها وخطرها، فلقد وافق

(١) نفس المرجع ص ٢٤٩ – ٢٥٠ Puleston, Mahan, Chap. XXVII; ibed, index: Theodore Roosevelt.

(٢) راجع لسبروت أثرتيودور روزفلت على السياسة البحرية الأمريكية كتاب: Sprout, op. Cit, Chap. XV.



=«بيرل هاربر» =

من القواعد الأمريكية في الباسيفيك

كان ماهان يعتبر احتلال هوايي ضرورة عسكرية لتأمين ساحل الولايات المتحدة على الباسفيك، وكان نقاشه هو العامل الحاسم لإثارة هذا في صيف سنة ١٨٩٨

الكونجرس على بناء عشر بوارج من الدرجة الأولى مع أربع مطاردات مدرعة وسبع عشرة سفينة من سائر الأنواع الأخرى، وفي السنة الأخيرة من رياسته استطاع روزفلت أن يحصل على موافقة الكونجرس لبناء أربع سفن كبيرة أخرى مع عشرين مدمرة.

والواقع أن الإيمان الكامل بعقيدة ماهان الاستراتيـچية والعمل على تنفيذها كانا يتطلبان عددا أكبر من السفن، وكانت هذه السفن تتطلب الضباط والبحارة الذين يتولون قيادها؛ تتطلب إعدادهم وتدريبهم كأطقم ذات كفاية كبيرة وكان هذا واجبًا عظيمًا برغم أنه كان أقل بروزًا من ناحية المظهر من بناء السفن نفسها، فالناس عادةً تستهويهم السفينة التي تشق عباب الأمواج ولا يثيرهم إعداد بحارتها، ومن الممكن القول بأن الجهد الذي بذله روزفلت للوصول بأسطول الاطلنطيق إلى مرتبة عالمية برغم معارضة الكونجرس في بعض الأوقات يعتبر تاريخ بدء خروج الولايات المتحدة إلى المسرح العالمي كواحدة من الدول البحرية العظيمة في العالم.

على أنه في السنوات الخمس التي تلت خروج روزفلت من البيت الأبيض سار نمو الأسطول سيرا بطيئًا، ولكن جاءت أولى سنوات الحرب العالمية الأولى بفورة نهوض وثبت بالبرنامج البحري الأمريكي وثبة واسعة إلى ما وراء المعدل الذي رُئى من قبل، معدل جعل الأسطول الأمريكي ثاني أسطول في العالم بعد الأسطول البريطاني، والذي كان هدف السياسة الموجهة منذ عام ١٩٠١.

ولو كان ماهان قد عاش سنة أخرى – حتى ديسمبر سنة ١٩١٥ – لكان قد سمع الرئيس ويلسون وهو يُطالب الكونجرس بجعل أسطول

الولايات المتحدة مساويًا لأقوى أسطول في العالم، وقد جعل القانون البحري لسنة ١٩١٦ أسطول الولايات المتحدة أقوى أسطول في العالم(١).

- ٧ -

ولم يتباطأ مواطنو ماهان في أن يعترفوا له بحقه من الشكر؛ ولكن الرجل – على ما أشار كل أولئك الذين أرخوا لحياته – قد حصل على أعظم تقدير شعبي في بريطانيا وقد نشر كتابه تأثير القوة البحرية في التاريخ في انجلترا في اللحظة المناسبة سيكولوچيا ليكسب أعظم تقدير وليجتذب كل الأنظار إلى المؤلف(٢).

وفي الحقبة الثامنة من القرن التاسع عشر ولد لون جديد من الإمبريالية نتيجة للتنافس العميق بين الأمم الأوروبية للحصول على الأسواق والمواد الخام، وقد اصطدمت المصالح البريطانية في التجارة إلى ما وراء البحار والسفن والقروض وتملك الأرض ومناطق النفوذ، اصطدمت بالمصالح المماثلة للأمم الأخرى، وأوجد هذا الاصطدام اتجاهًا عامًا نحو العودة للتسلح البحري.

ومع أن الإنجليز كانوا يعتبرون أسطولهم ضرورة وحاجة مُلحة وكانت الأمم الأخرى التي لا تعيش على البحار تعتبر أساطيلها مجرد مظهر للثراء والمتعة إلا أن نمو هذه الأساطيل كلها كان في الواقع دليلًا على إمكان الاعتداء على الإنجليز أنفسهم(٣)، ومن الممكن أن يتفهم الفرد دوافع هذه

(١) نفس المرجع الفصول ١٦ – ١٨.

(٢) Puleston, Mahan, p. ١١٠.

(٣) A.j. Marder, The Anatomy of British Sea Power (١٩٤٠), Chap. II, esp. pp. ١٠ – ١١, ١٣ also Puleston, Mahan, Chap. XVI. Marder p. ٢٥.

الغيرة إذا استطاع الفرد أن يُدرك اعتماد بريطانيا لبقائها كأمة حرة اعتمادًا تامًا على القوة البحرية.

وفي سنة ١٨٨٩ قدمت الحكومة للبرلمان برنامجًا للاتساع يقوم على أساس مبدأ مساواة الأسطول البريطاني لأي أسطولين آخرين من أساطيل الدرجة الأولى الأوروبية، وقد صدر كتاب ماهان في اللحظة الصحيحة لإيضاح صحة وعدالة هذا البرنامج، كما أن الكتاب قدم السلاح المطلوب للانتصار على مطالب ضباط الجيش وغيرهم ممن يريدون إقامة استحكامات كثيرة النفقات على طول ساحل بريطانيا[١].

وكان الشعب البريطاني في السنوات السابقة قد بدأ يهتم بالأسطول، ولكن كان كتابا ماهان اللذان صدرا سنة ١٨٩٠ وسنة ١٨٩٢ أهم عامل فردي لجعل الأمة كلها تفكر في الأسطول ويتوافر لها وعي بحري، وليس من الصعب تفهم صدى آراء ماهان في الشعب البريطاني؛ وقد لاحظ ماهان بأنه وراء الحوادث في التاريخ البحري والتاريخ السياسي لبريطانيا المبادئ الأساسية التي جعلت بريطانيا سيدة البحار، وقد عرض ماهان هذه المبادئ في أسلوب مُبسط يستطيع حتى الرجل العادي أن يتفهمه.

والواقع أنه ليس من المدهش أن يمتدح الإنجليز كتابات ماهان فور صدورها، فقد كان للإنجليز ماضٍ له تقاليده كقوة بحرية، وكانوا يخوضون سباقًا بحريًا قائمًا مستمرًا، كما كانوا يعيشون في عصر إمبريالية جديدة تتشكل وتتخذ طابعًا أصيلًا[٢].

---

(١) Puleston, Mahan, و R. H. Heindel, The American Impact on Great Britain (١٩٤٠), p. ١١٧.
pp. ١٠٦ – ١٠٧.

(٢) Marder, op. cit. pp. ٢٥, ٤٥ – ٤٨; Heindel, op. cit., pp. ١١٧ – ١١٨.

وقد زار ماهان بريطانيا عدة مرات في رحلات بحرية إلى المياه الأوروبية في سنوات ١٨٩٣ – ١٨٩٥، وقد قوبل في بريطانيا مقابلة لا مثيل سابق لها، فلقد تناول طعام العشاء مع الملكة ومع رئيس الوزراء ومُنح لقبًا علميًا شرفيًا من جامعتي أوكسفورد وكمبردج ثم استقبل كضيف الشرف في النادي البحري الملكي، وكان هذا شرفًا لم يُمنح لأجنبي قبله، وقالت جريدة التيمس اللندنية في امتداحها له أنه قد فعل للتاريخ البحري ما فعله كوبرنيسوس(*) لعلم الفلك، وقارن ناقد بحري بينه وبين بريستلي(**) Priestley فقال:

«إن القوة البحرية قد أثرت في العالم – ولا شك – في كل العصور، وهكذا كان الأكسجين فهو في العالم منذ فجر الخليقة، ولكن لولا بريستلي لظل الأكسجين حتى اليوم عاملًا غير مُحدد لم يُكشف عنه، وهكذا كان من الممكن أن تظل القوة البحرية عاملًا غير مفهوم لولا ماهان».

وقد نشرت آراء ماهان على نطاق واسع في الصحف اليومية والأسبوعية والدوريات الربع السنوية والدوريات المهنية، وبواسطة هيئات لها نفوذها ومكانتها مثل معهد الخدمة المتحدة الملكي، وكان الإنجليز يقولون في غُنة مليئة بالحزن والأسى أنه من المؤلم (أن يكون أمريكي هو الذي يُيقظ هذا الجبل من الإنجليز ليفهموا وليدركوا أهمية القوة البحرية)، ولكن مع

(*) كوبرنيسوس Copernicus نيقولاس كوبرينسون فلكي بولندي (١٤٧٢ – ١٥٤٣)، وقد أطلق على النظام الفلكي الذي أوجده الإصلاح (كوبريكان) وتختصر (كوب) معجم ويبستر لسنة ١٩٥٦ ص ٣٢٥ – المترجم.

(**) بريستلي: جوزيف بريستلي (١٧٣٣ – ١٨٠٤) كيموي إنجليزي اكتشف عنصر الاكسجين. مُعجم ويبستر ص ١١٥٧ (المترجم).

هذا كان الأسطول الإنجليزي والحكومة الإنجليزية والجامعات البريطانية بل والشعب الإنجليزي بأكمله ليسره أن يعترف له بالفضل كالأجنبي الوحيد الذي له كل الحق (في أن يُقدم لهم النصيحة لتوجيه شئونهم الخاصة)، وحتى غلادستون الرجل الذي كان خصمًا للتسليح قال عن كتاب ماهان عن الثورة الفرنسية والإمبراطورية الألمانية أنه كتاب الجيل.

وكان ماهان يستحق كل هذا المديح والإطراء؛ ذلك لأن ماهان قد وضع اصطلاح القوة البحرية في الكلمات التي يستخدمها الرجال الإنجليز المُعاصرون وفعل أكثر مما فعله أي شخص آخر لإثارة اهتمام الإنجليز بأسطولهم، ولقد كتب سيدنهام لورد أوف كومب: لأول مرة تكون لنا فلسفة بحرية تقوم على دُعامات التاريخ، وقد يمكن أن يُضاف هنا بأن ماهان قد أسهم في نمو المشاعر على كلا جانبي الأطلنطي بأن السيطرة على خطوط الملاحة العالمية في المحيطات لمسألة تشجع بل وتجعل من الضروري قيام تفاهم وتعاون إنجليزي - أمريكي[١].

ولكن نفوذ ماهان في أوروبا لم يكن مقصورًا على بريطانيا ففي سنة ١٨٩٠ كان الأسطول الفرنسي ثاني أسطول في العالم، وفي فرنسا ترجم كتاب ماهان الأول وأثار انتباه الضباط البحريين الفرنسيين، وقد تأثر الكابتن داريوس وهو أستاذ سابق للاستراتيجية وللتكتيكات البحرية في كلية الحرب البحرية الفرنسية، تأثر بنقد ماهان للسياسة البحرية الفرنسية، وقد كرر هو نفسه في كتاب له – غطى نفس المدة التاريخية التي اشتمل عليها كتاب ماهان – أخطاء الاستراتيجية البحرية الفرنسية التي أشار لها

(١) Heindel, op cit., p. ١١٧; Marder, op. cit., ٤٥ – ٤٧; Pules bon, chap. XXIII.

ماهان[١].

وصرح ضابط بحري فرنسي آخر هو الأميرال راؤول كاستكس من كلية الحرب الفرنسية بأن فكرتي ماهان عن:

١- الأهمية التي للسيادة البحرية.

٢- الحاجة إلى القوة المُنظمة هما اللتان تكسبانه كل اعتبار، ولكن كاستكس لم يكن يُعجبه أسلوب ماهان، إلا أنه اعتقد أن هذا لا يُقلل بحال ما من القيمة التي لا تُقدر لكتاب ماهان والذي يُعتبر دُعامة قوية في ميدان النظرية الاستراتيـچية[٢].

على أن آراء ماهان لم تلق في فرنسا ما لقيته من التقدير الكبير في بريطانيا وألمانيا والولايات المتحدة، وكان من الصعب في الواقع توقع أن يتقبل الفرنسيون بالتقدير فلسفة تختلف وتتباين مع سياستهم التاريخية.

وكان لكتابات ماهان تأثير عملي على السياسة الألمانية لم يزد عليه إلا التأثير الذي كان لها في الولايات المتحدة، وكما حدث بالنسبة لبريطانيا وبالنسبة للولايات المتحدة فإن كتاب: تأثير القوة البحرية على التاريخ قد صدر في لحظة حرجة، كان الإمبراطور غليوم الثاني قد طرد حديثًا بسمارك الشيخ، ويرجع هذا للإصرار العتيد من جانب بسمارك بضرورة بقاء ألمانيا قوة قارية أي قوة أوروبية فقط، وكانت الأمة الألمانية تحت حكم الإمبراطور الشاب قد بدأت تعُد نفسها لسياسة إمبريالية تعمل للاتساع فيما وراء البحار، وكان الأسطول الألماني الحديث جزءًا من هذه السياسة

---

(١) Puleston, Mahan, pp. ١٠٧, ٣٢٦.

(٢) نفس المرجع ص ٣٣٢.

الجديدة، ومع صغره فإنه كان يقوى وينمو[(١)].

على أن القوة البحرية بالنسبة لألمانيا لم تكن نتيجة لعملية طبيعية تطوعية كما كانت الحال بالنسبة لإنجلترا، فلقد جاء الاهتمام بالأسطول من البداية عملًا بالاصطناع، وقد قامت عصبة الأسطول الألماني Reichsmarineamt التي تحولت فيما بعد إلى منظمة رجال الأسطول Flottenverein بحملة واسعة لإيجاد وعي شعبي نحو الأسطول[(٢)].

وقد أدرك الزعماء الذين يتولون هذا الواجب قيمة كتابات ماهان لإثارة اهتمام الشعب ومن ثم تولي رجال الأسطول ترجمة كتابات ماهان إلى اللغة الألمانية، وكتب إيرنست ڤون هال أحد زعماء هذه الحركة كتابًا طبق فيه عقائد ماهان على حوادث التاريخ الألماني، وأوضح القائمون بالدعوة والدعاية لها حاجة ألمانيا إلى أسطول بحري، واستخدموا كلمات ماهان في أن المصالح الاقتصادية المُثمرة فيما وراء البحار إنما تعتمد الاعتماد كله على تملك قوة بحرية[(٣)].

ولم يكن لألمانيا – على خلاف فرنسا وبريطانيا – تاريخ بحري على الإطلاق، ومن ثم فإن تقاليدها البحرية كانت قليلة، وهكذا كان الضباط

---

(١) Marder, op. cit., pp. ٢٨٨ ff., A. Vagts, Deutschland und die Vereinigten Staaten in der Weltpolitik (١٩٣٥), p. ٦٥٢.

(٢) راجع الفصل ١٣ هامش ص ١٤٩ والتعريف الذي صحبه من الكتاب الثالث رواد الاستراتيـجية الحديثة للمترجم

(٣) E. Kehr, Schlachtflottenbau und Parteipolitik ١٨٩٤ – ١٩٠١ (Berlin, ١٩٣٠), pp. ٣٨, ٤٥, ١٠١ – ١١٠.

E. Von Halle, Die Seemaclhtin der deutschen Geshichte (Leipzig, ١٩٠٧) See esp. p. ٦ on bas epochemachende Werk des Amerikaners A. T. Mahan.

الألمان تواقين لتقبل العقائد الاستراتيـجية التي صاغها ماهان.

وكانت الصورة التي رسمها ماهان للقوة البحرية كشيء ينتج عن المستعمرات والتجارة فيما وراء البحار والأسطول البحري لها تأثير كبير على شعب قد استيقظ لتوه ليدرك أهمية المستعمرات والتجارة الخارجية، وتدل الرسالة التي بعث بها الإمبراطور الألماني لصديق له في مايو سنة ١٨٩٤ على ما استقبلت به آراء ماهان في ألمانيا، فقد جاء فيها: إنني لا اقرأ، بل استوعب تمامًا كتاب ماهان، وأحاول أن أحفظ هذا الكتاب عن ظهر قلب، إنه من أمهات الكتب القيمة، إن الكتاب في كل سفينة من سفن أسطولي وينقل عنه كل ضباطي البحريين من كل الرتب[١].

وكان ألفريد ڤون تيربتز هو الروح الموجهة للسياسة البحرية الألمانية، وكان تيربتز مسئولًا تمامًا عن المادة وعن الإدارة وعن التنظيم الأيديولوچـي للأسطول الألماني، وكان تيربتز أيضًا على دراية بكل كتابات ماهان ويحسن التحدث عنها، كما أن تأثير آراء الضابط الأمريكي على برنامج تيربتز وسياسته واضح جلي[٢]؛ وقد بقي تيربتز مصرًا على أن كلمتي قوة عالمية، إنما تعنيان القوة التي لها مصالح في كل الكرة الأرضية،فإذا كانت هذه من الدول الكبرى كان من الضروري أن تتملك أسطولًا، وكان عامل تقدير الأمة التي تمتلك قوة بحرية ليس هو تملكها أسطولًا من سفن

(١) ڤاچتس – نفس المرجع ص ٦٣٢، جاء نص تصريح القيصر في كتاب (ماهان) لبولستون ص ١٥٩.

(٢) لوجهات نظر تيربتز عن قيمة الأسطول لألمانيا يرجع إلى مشروع خطبة تيربتز في مجلس الريشستاغ في مارس سنة ١٨٩٦ التي نشرها هـ. هالمان في ص ٨٥ من كتابه:

H. Hallman, Krügerdepesche und Flottenfrage (Stuttgart, ١٩٢٧)

أما عن تأثير ماهان في آراء تيربتز فيرجع إلى ص ١٢٨ من كتاب:

Hallman, Der Weg zum deutschen Schlachtflottenbeau (Stuttgart, ١٩٣٣), p. ١٢٨.

المطاردة تستخدمها في حرب التنافس ضد سفن العدو التجارية، بل هو تملكها لأسطول من البوارج، ومن الطريف أن أول عمل قام به تيربتز عندما عين وزيرًا للبحرية أن استبدل برنامج سلفه ببرنامج يستهدف بناء أسطول من البوارج بدلًا من أسطول من سفن المطاردة.

والواقع أن تيربتز كان يقيس القوة البحرية على أساس قوة البوارج، كما أنه قد أكد بخاصة الأهمية السياسية للأسطول فالأسطول يزيد من قوة التحالف الذي تعقده أمة مع غيرها، ويمكن الأسطول من الحصول على النفوذ ومن اكتساب الأصدقاء.

وقد أوضح فيما بعد في ذكرياته أن الأسطول الذي يمثل قوة التحالف مع الدول الكبيرة الأخرى هو وحده الذي يضع في أيدي رجالنا السياسيين الأداة – التي لو أحسن استخدامها – يمكن أن تدعم قوتنا في القارة[١]، وكانت فكرة قيمة التحالف هذه هي قاعدة نظرية تيربتز الشهيرة عن المخاطرة والتي كان لُبها كما يلي:

لما كان من غير الممكن تقوية الأسطول الألماني بالقدر الكافي الذي يجعل فرصة الأنصار ضد كل خصم منطقية معقولة، كان من الضروري أن يكون قويًا بالقدر الذي يكلف تدميره حتى أقوى الدول البحرية خسائر فادحة، ويكون مجرد التفكير في هذه المخاطرة هو العمل المضاد ضد أي هجوم[٢].

وقد أمل تيربتز بأنه بدلًا من أن تغامر بريطانيا بسيطرتها على البحار لمقاتلة الأسطول الألماني يجب أن تحاول التفاهم مع ألمانيا، ولكن حوادث

(١) My Memoirs (Eng.. trans. ١٩١٩) I, p. ٧٩.

(٢) H. Rosinski, German Theories of Sea Warfare", Brassey's Naval Annual, ١٩٤٠, p. ٨٩.

الحرب العالمية الأولى لم تدعم نظرية تيربتز فالإنجليز لم يحاولوا التفاهم مع الألمان ولم يتراجعوا عن مهاجمة الأسطول الألماني، وأغلقت البوارج الألمانية في النهاية داخل المياه الألمانية، وتمكنت أساطيل الحلفاء من أن تعرض مرة أخرى القيمة الحقيقية للسيطرة على البحر.

وتأثير ماهان في الفكر البحري الألماني قبل سنة ١٩١٤ غير منكور، ولكن توجد أدلة قوية على أن الألمان قد طبقوا آراء ماهان التي أساؤا فهمها(١)، فإن كتابات ماهان تحتوي على مناقشات كثيرة للمضار التي فرضتها الجغرافية على الأمة الألمانية بالنسبة للقوة البحرية الكبيرة التي توافرت لألمانيا، ولو كان الألمان قد فهموا المعنى الصحيح للقوة البحرية لكانوا ولاشك قد أدركوا بأن القوة البحرية الكبيرة التي تكفي لهزيمة الأسطول البريطاني هي وحدها التي تمكن من تحويل ألمانيا لتكون دولة بحرية قوية في المعنى الذي استهدفه ماهان، ويبدو أن ماهان لم يفهم التحديات الجغرافية الأساسية لموقع ألمانيا الجغرافي بالنسبة للسيطرة على البحر(٢)، هذا فضلًا عن أن تيربتز قد فشل في الانتفاع من تحذير ماهان من أن الأمة لا يمكن أن تأمل في أن تكون دولة برية قوية في نفس الوقت الذي تكون فيه قوة بحرية كبيرة.

ويبدو أن الألمان من أصحاب النظريات البحرية قد أدركوا في السنوات السابقة للحرب بأن الاستراتيجية البحرية الخاطئة هي التي تحتمل مسئولية فشل الأسطول الألماني في أن يلعب دورًا نافعًا في الحرب، وقد بقيت مكانة تيربتز عالية إلى حد أن أحداً لم يجرؤ على مهاجمته علانية،

---

(١) Rosinski, Mahan and the Present War, Brassey's Naval Annual, ١٩٤١, pp. ٩ – ١١.

(٢) ڤاچتس، نفس المرجع ص ١٥٢٤.

ولكن لا شك أنه كانت هناك اتجاهات لضرورة وضع نظرية بحرية جديدة تتفق مع الوضع الجغرافي لألمانيا، وقد انحدر بندول الساعة إلى أقصى الطرف الآخر، وفي السنوات الأخيرة وجه الألمان انتباههم إلى لون جديد من حرب التنافس بواسطة الغواصات والطائرات وسفن الإغارة، ولكنهم قاموا بهذا الأسلوب الذي اتبعه الاستراتيجيون الفرنسيون في الماضي[١].

على أنه من غير الممكن تقدير تأثير ماهان على الفكر العسكري تقديرًا كاملًا دون ذكر الدور الذي لعبته نظريات ماهان في تطور الـجيوبوليتيكية الألمانية[٢]، فإن الإقتراب الألماني الجديد إلى صناعة الحكم يجمع بين نظرية قوة الدولة وبين نموها (الدولة) التي يقوم على أساس امتداد قوتها البرية أي في وضع يتمشى عكسيًا مع فلسفة ماهان لنمو القوة البحرية.

وكان ماهان – على ما أشار روبرت ستراوزس هوبي في كتابه الأخير الذي يشرح فيه الـچيوبوليتيكا الألمانية – واحدًا من المفكرين الأنجلوساكسون الذين يبدو تأثرهم واضحًا جليًا في تعاليم هوزهوفر بالرغم من – أو ربما بسبب – حقيقة أن عقيدة هوزهوفر عن القوة البرية هي أقصى الطرف المضاد لنظريات ماهان[٣].

ويعني قسم كبير من الكتابات والتفكير الـجيوبوليتيكي بالنزاع بين القوة البرية وبين القوة البحرية، وكان خصوم القوة البرية تواقين ليجدوا

---

(١) راجع تحليلات النظرية البحرية الألمانية قبل الحرب في مقال: Rosinski, German Theories of Sea Warfare in Brassey's Naval Annual, ١٩٤٠, pp. ٨٨ – ١٠١.

(٢) راجع الفصل ١٦ من هذا الكتاب عن الـجيوبوليتيكي.

(٣) R. Strausz-Hupé, Geopolitics: The Struggle for Space and Power (New York), ١٩٤٢, p. ٢٤٦.

النقاط الضعيفة في الوضع الاستراتيجي لبريطانيا، وهكذا فإنهم اتجهوا نحو أعمال الجغرافي الإنجليزي السير هالفورد ماكيندر الذي أشار إلى المناطق الحساسة في تشريح بناء القوة البحرية الإنجليزية[١].

وفي تطوير ماهان لنظريته عن قارة أور - آسية وقلب العالم، أعاد ماكيندر بحث عقيدة ماهان عن القوة البحرية، ولكنه درسها من جديد دراسة نقدية، وقد قدم ماكيندر عدة خواص لنظرية القوة البحرية كان ماهان قد أشار إليها ولكن أغفلها من تبعوه، فلقد كان موقع بريطانيا ومواقع خصومها - كان هذا - هو الذي أعطى الأسطول البريطاني هذه القوة الكبيرة في الشئون العالمية، فإن كون بريطانيا جزيرة ليس هو الذي مكنها من السيادة البحرية، وقد أثار ماكيندر أيضًا المسألة البالغة الأهمية مسألة العلاقة بين قواعد القوة البحرية وبين القوة البرية[٢].

وقد درس الـچيوبوليتيكيون الألمان تاريخ القوة البحرية وقد اقترح ستراوز هوبي هذه الدراسة فقط للقدرة على الانتهاء إلى أن عصر الإمبراطوريات البحرية يقترب من نهايته وأن مستقبل القوة البرية يسمو ويزدهر، وقد تفهم كارل هوزهوڤر وأتباعه التغييرات في الجغرافية الاستراتيـچية التي جاءت بها الخطوط الحديدية، ثم التي جاءت بها في تاريخ لاحق الحرب الميكانيكية، وقد تفهمها هؤلاء بأسرع مما تفهمها خصوم القوة البحرية، وقد وضع هؤلاء أصابعهم على ضعف هونج كنج وسنغافورة قبل أن تثبت الحرب فعلًا هذا الضعف بسنوات طوال.

---

(١) نفس المرجع ص ٢٥٢ وص ٥٣.

(٢) نفس المرجع ص ٥٣ و ٢٤٩، وقد لخصت وجهات نظر ماكيندر عن موقع بريطانيا في كتابه: Britain and the British Seas (٢nd. ed. ١٩٣٠), Chap. XX, and esp. p. ٣٥٨.

وقد أدرك هؤلاء - إذا كان باقي دول العالم لم تدرك هذا - إن الإمكانيات السياسية للقوة البحرية تتراجع القهقري أمام الإمكانيات المتزايدة للقوة البرية، وقد أدركوا هذا قبل وقت طويل من انغمار أول غواصة تحت سطح الماء، وقبل أن ترتفع في طبقات الجو أول طائرة[١].

وقد عبر الكتاب الـچيوبوليتيكيون الألمان كثيرًا عن إعجابهم بماهان والذي قامت فلسفته للكرة الأرضية كلها في مستوى أعظم وأروع مما قامت عليه نظريات أيٍ من دُعاة التوسع الإمبريالي في عصره، وقد اعتبر كارل هوزهوڤر، اعتبر ماهان مفكرًا چيوبوليتيكيا فذا وجه الولايات المتحدة في الطريق الصحيح نحو العظمة، وكان هو الذي علم السياسيين الأمريكيين أن يفكروا كقوة عالمية تتوافر لها مساحة عظيمة[٢].

* * *

والواقع أنها واحدة من صور المراوغة والتدليس الغريبة في التاريخ أن تكون العقائد التي صاغها ضابط بحري أمريكي والتي كانت هي المبادئ القائدة الموجهة للدول البحرية الكبيرة في العالم، قد أوجدت نظرية مضادة للقوة البرية، ولو كانت استراتيـچية هوزهوڤر وهتلر قد نجحت لكانت قد سببت القضاء على القوة البحرية على ما فهمه ماهان؛ ولما كان العالم الحديث قد أكثر من التنبؤ بما تم من السيطرة الإنجليزية - الأمريكية على البحار فإن نتائج انتصار النازية كانت ولا شك ستكون ثورية لمدى أبعد بكثير مما آمل الألمان، بل ولمدى أبعد بكثير مما خاف منه الأمريكان أنفسهم.

* * *

(١) Strausz-Hupé, op. cit. pp. ٢٥٣ – ٢٥٤, ٢٥٥ – ٢٦٤. esp. P. ٢٦١.

(٢) نفس المرجع ص ٢٤٣ - ٢٤٦.

حديث المراجع

الفصل السابع عشر

ماهان:

المبشر الداعية للقوة البحرية

بقلم مرجريت تتل سبروت

نقلت الخريطة التي في هذا الفصل عن كتاب «نحو تنظيم جديد للقوة البحرية» من قلم هارولد ومرجريت سبروت إصدار مطبعة جامعة برنسيتون ١٩٤٠.

وللأدميرال ماهان ثلاثة كتب تكون معًا وحدة واحدة تجمع نظريته عن القوة البحرية، وهذه الكتب هي:

The Influence of sea power upon History, ١٦٦٠ ١٧٨٣ (Bosten, ١٨٩٠).

The Influence of sea power upon French Revelution and Empire, ١٧٩٣ – ١٨١٢ (Bosten ١٨٩٢).

Sea power and its Relation to the War of ١٨١٢ (Bosten,١٩٠٥).

وعندما كان ماهان يكتب كتابه الكبير عن القوة البحرية أعد تأريخًا قصيرًا لحياة الأدميرال فاراجوت (١٨٩٢) وقد مكنه ابن فاراجوت الذي كان يعيش يوم ذاك في نيويورك من الإطلاع على الكثير من أوراق الأب وخطاباته، ومع هذا فإن هذا الكتاب الخاص بالأدميرال فاراجوت لا

يمكن أن يقارن بكتابه (The life of Nelson) الذي صدر سنة ١٨٩٧، وفي هذا الكتاب الثاني عمل ماهان ليكتب تاريخًا للرجل الذي كان رمزًا للقوة البحرية البريطانية، عارضًا كلا (الرجل وعبقريته) موضحًا العلاقة الصحيحة بينهما، وهو واجب لم يكن سهلاً ميسورًا ولكنه حقق نجاحًا فيه.

وقد كتب ماهان كتابين آخرين في الحديث عن حياته هو هما:

From Sail to Steam: Recollections of Naval Life (١٩٠٧).

The Harvest Withen (١٩٠٦).

وقد جمعت كتابات ماهان في الموضوعات العامة في عدة مُجلدات، اشتمل أولها على ثمانية موضوعات كتبها بين ١٨٩٠ و ١٨٩٧ وصدرت سنة ١٨٩٧ بعنوان:

The Interest of America in Sea Power, Present and Future.

وصدر الثاني بعد عامين اثنين بعنوان:

Lessons of the War with Spain and Other Articles.

وصدر المُجلد الثالث سنة ١٩٠٠ بعنوان:

The Problem of Asia and Its Effect upon International Policies.

وقد تبع كتابه The War in South Africa الذي صدر سنة ١٩٠٠ أيضًا، بكتابين آخرين اشتملا على عدة موضوعات عامة كانا بعنوان:

Types of Naval Officers Drawn from the History of the British Navy (١٩٠١).

ويقدم الكتاب بعض رسوم تخطيطية سريعة للضباط البحريين، وثم

جاء كتاب ثالث:

Retrospect and Prospect, Studies in International Relations, Naval and Political (١٩٠٢).

ويشتمل على موضوعين مثلهما مثل المُجلدين اللذين تحدثنا عنهما من قبل مما يهم القارئ الإنجليزي أكثر من غيره.

❊ ❊ ❊

وقدم كتاب: (Some Neglected Aspects of War) الذي صدر سنة ١٩٠٧ وجهات نظر ماهان على بعض المسائل التي عرضت أمام مؤتمر لهاي الثاني، وفي سنة ١٩٠٨ أصدر مجموعة مقالات عن (الإدارة البحرية)، وفي سنة ١٩١١ أصدر:

Naval Strategy Compared and Contrasted with the Principles and Practice of Military Operations on Land.

وكلها تهم رجال صناعة البحر، ولكن الذي يهم القارئ المدني هو كتابه الذي صدر سنة ١٩١٠ بعنوان:

The Interest of America in Internaional Comditions.

وفي سنة ١٩١٣ أصدر ماهان كتابًا له كان قد صدر سنة ١٩٠٧ كفصل من كتاب:

Clowes', History of the Royal Navy.

وقد وسم بعنوان:

The Major Operations of the Navies in the War of American

Independence.

وكان آخر ما صدر مما كتب ماهان مجموعة من مقالاته ورسائله، صدر في آخر سنة ١٩١٤ بعد أن كانت القوة البرية والقوة البحرية قد اشتركتا معًا في الحرب العالمية الأولى.

❊ ❊ ❊

والواقع أن أصدق دراسة للتاريخ لحياة ماهان، هي الدراسة التي قامت على أساس أوراقه وهي:

Captain W. D. Puleston, The Life and Work of Captain Alfred Thayer Mahan (New york, ١٩٤٠).

❊ ❊ ❊

لدراسة تأثير دراسات ماهان في بريطانيا يرجع إلى:

A. J. Marder, The Anatomy of British Sea Power (New york, ١٩٤٠).

R. H. Heindel, The American Impact on Great Britain (Philadelphia, ١٩٤٠).

أما بالنسبة لتأثير هذه الدراسات في ألمانيا فيرجع إلى:

A. Vagts, Deutshland und die Vcreinigten Staaten in der Weltpolitik ٢ vols. (New york, ١٩٣٥).

E. Kehr, Shlachtflottenbau und Parteipolitik ١٨٩٤ – ١٩٠١ (Berlin, ١٩٣٠).

E. Von Halle, Die Seemacht in der deutschen Geshichte (Leipzig, ١٩٠٧).

H. Hallman, Krugerdepeshe und Flottenfrage (Stuttgart, ١٩٢٢).

Der Weg zum deutschen Schlachtflottenbau (Stuttgart, ١٩٣٣).

Admiral Tirpitz, My Memoirs (English translation) (New york, ١٩١٩).

H. Rosinski "Mahan and the Present War" in Brassey's Naval Annual (١٩٤١) pp. ٩ – ١١.

أما عن السياسة البحرية الأمريكية فيرجع إلى:

H. and M. Sprout, The Rise of American Naval Power (rev. ed. Princeton, ١٩٤٣).

G. T. Davis, A Navy Second to None: The Development of Modern Amerian Naval Policy (New York, ١٩٤٦).

Allan Westcott, Mahan on Naval Warfare (Boston, ١٩٤١).

والأخير مجموعة موجزة وإن لم تكن جيدة لبعض كتابات ماهان.

أما عن چيوبوليتيكية الحرب البحرية فيرجع إلى ما جاء في مراجع الفصل السادس عشر عن كارل هوزهوڤر، كما يرجع إلى:

Robert Strausz-Hupé, Geopolitics; The Struggle for Space and Power (New York, ١٩٤٢).

Hans Weigert, Generals and Geographers (New york, ١٩٤٢).

ويرجع إلى الوضع الـجيوبوليتيكي لبريطانيا في كتاب:

Halford MacKinder, Britain and the British Seas (٢nd. ed. New York, ١٩٣٠).



الفصل الثامن عشر

العقائد الأوروبية للقوة البحرية

بقلم تيودور روب

بالرغم من تقبل نظريات ماهان في كلا الأسطولين البريطاني والأمريكي، ومع تقدير تأثيره (ماهان) في الفكر البحري الألماني فإن مؤلفاته العظيمة لم تقلل إطلاقًا من مكانة مختلف المدارس للاستراتيچية البحرية في قارة أوروبا.

ومع أن كل أصحاب النظريات عن البحرية في قارة أوروبا يعترفون بمدى ما هم مدينون له به من معرفة فإنه في الواقع لم يكتب شيئًا عن المشكلة البحرية الحرجة التي تُقلقهم وتشغلهم، مشكلة الوسائل التي يمكن بها الوقوف أمام بحرية بريطانيا بقوات تقل عنها من الناحية العددية. ولقد استهدفت كتابات ماهان حقيقة، الإجابة جزئيًا على كل المناقشات الجدلية التي دارت في أكثر المدارس البحرية بقارة أوروبا أصالة: المدرسة البحرية للأسطول الفرنسي المدرسة الفتية في فجر سنة ١٨٨٠.

وكان اهتمام المدرسة الفرنسية بتدمير التجارة يرجع إلى سلسلة من المحاولات الفرنسية التي لم تنجح لهزيمة بريطانيا بواسطة حرب السباق والتنافس guerre de course في حروب القرن الثامن عشر[١]؛ ولكن آراءهم الأساسية جاءت وليدة الحروب من ١٨٥٤ – ١٨٧١، الحروب التي كانت أول ما اختبرت فيها الأسلحة الجديدة لعصر النهضة الصناعية.

(١) Ráoul Castex, Synthése de la guerre sous-marine de Pontchartrain á Tirpitz (Paris, ١٩٢٠).

ولقد أدت هزيمة فرنسا في حرب ١٨٧٠ – ١٨٧١ بدولة لم يكن لها ما يعتبر أسطولًا بحريًا، أدت هذه الهزيمة إلى وقوف أصحاب النظريات البحرية موقف الدفاع، ولقد اعتبرت هذه الحرب في ألمانيا وفرنسا بأنها تؤكد وجهات النظر التقليدية للعسكريين من أن القوة البحرية مسألة تعني بالتجارة والمستعمرات، وأنه من الأفضل أن يوكل إليها دور ثانوي في العلاقات بين الدول الأوروبية الكبيرة، فلقد احتل رجال البحر ووضعت الأسلحة البحرية (المدافع) في قلاع باريس بعد معركة سيدان، ولم يفعل الأسطول بهذا إلا الشئ القليل لتجنب الهزيمة، وكانت محاولة الأسطول الفرنسي لحصار السواحل الألمانية محاولة فاشلة تمامًا، واستطاعت السفن المحايدة أن تخترق الحصار في سهولة ويسر على مثال ما حدث منها بدخول موانئ الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية أيام الحرب الأهلية، ولم تستطع السفن الفرنسية متابعة القيام بمحاولات الحصار إلا بحصولها على حاجتها من الفحم من هيليجولاند المحايدة، وسدت الألغام وسفن الدفاع الساحلي الصغيرة والتي أثبتت تأثيرها الكبير في حرب القرم وفي الحروب الأمريكية، سدت مصبات الأنهار الألمانية ضد أي هجوم بحري فرنسي، وكذلك فإن عمليات إنزال الجنود والتي لعبت دورًا هامًا في الحروب الأهلية الأمريكية كانت مستحيلة في وجه نظام وشبكة الخطوط الحديدية الجيدة للجيش البروسي، وتبعًا للاستخدام الجيد لهذه الخطوط الحديدية في تحركات قوات الاحتياطي الألماني.

ولما كان العسكريون قد أعدوا أنفسهم لحروب قصيرة الأمد مثل حرب ١٨٦٦ أو حرب سنة ١٨٧٠ فإن القوة البحرية لم تلعب إلا دورًا صغيرًا في التفكير العسكري الأوروبي، وبقي الأسطول كطفل بالتبني في

استراتيـچية قارة أوروبا.

وعلى نقيض إهمال الأسطول في فرنسا كان الأسطول الألماني يزود باحتياجاته طوال حكم غليوم الثاني على مثال حشو المريض الضعيف بالغذاء بفكرة إبلاله من مرضه نتيجة للتغذية، ولكن مع هذا فإن العسكريين في فرنسا وفي ألمانيا بقوا ينظرون للأسطول البحري نظرتهم لطفل بالتبني(*).

وقد تقبلت المدرسة الفرنسية هذا اللون من التحليل للقوة البحرية، كان الناس يعرفون أن فرنسا المهزومة لا تستطيع بناء أسطول كبير كأسطول بريطانيا، وقد اتفقوا على أن أي حرب انتقامية ضد فرنسا ستكون أساسًا في البر، أي ستكون حربًا برية. وقد رأى عدد من المفكرين الفرنسيين ضرب التحالف الثلاثي (ألمانيا والنمسا وإيطاليا) بالقيام بهجوم بري وهجوم بحري عن طريق إيطاليا، ولكن الفكرة لم تلق تعضيدًا واسعًا لا في سنة ١٨٨٠ ولا في سنة ١٩٣٩، فإن القيام بحصر بحري في الطابع التقليدي كان مستحيلًا تقريبًا، وفي أي حرب قصيرة الأمد لن تتأثر فرنسا، ولن تتأثر ألمانيا التأثير الكبير الضار نتيجة للحصر البحري حتى لو أمكن تنفيذ هذا الحصار، وقوة برية تحملها السفن على مثال ما حدث في القرم من نقل ستين ألف جندي بالسفن البحرية ستكون قليلة الأثر في ضوء القوة العسكرية في العصر الحديث.

والواقع أنه من الناحية العملية كانت كل العمليات البحرية في منتصف القرن التاسع عشر عمليات ساحلية واجهت مقاومة بحرية صغيرة

(*) التصوير الصحيح هو الطفل الذي يلحق بالرجل نتيجة بنائه بأمه (المترجم).

أو لم تواجه مقاومة ما، وقد نسي استراتيجيو ذلك العصر أهمية عمليات الأسطول المنظمة، وكان الجميع يثقون بأن عصر المعارك البحرية العظيمة قد انتهى وأن الأسطول الأقل قوة يمكن أن يعني العناية كلها بالمحافظة على بقائه وكيانه بأية وسيلة، وكان الغرض الإستراتيجي للأسطول الألماني الصغير في سنة ١٨٨٠ الدفاع عن السواحل الألمانية، وكانت السفن الكبيرة التي تحمي المصالح الألمانية في الخارج لا تستطيع القتال ولا تستطيع في نفس الوقت الفكاك من عدو تتوافر له قوة بحرية حديثة، وكانت وجهات نظر الفيلد ماريشال السير هنري ويلسون – وجهات النظر المعروفة عن قلة نفع الأسطول البريطاني في أي حرب بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا – تعكس الفكر العسكري الأوروبي لذلك العصر[١].

ولتقوية هذه الاستنتاجات العامة التي أمكن استخلاصها من حروب سنة ١٨٦٠ فإن الحقبات التالية من السنين قد شهدت إيجاد قوارب الطوربيد السريعة، السفن التي كانت الطابع السابق لقيام المدمرات التي نجدها اليوم في الأساطيل البحرية، ولقد كانت قوارب الطوربيد الإجابة على المشكلة المالية التي تواجه كل الأساطيل الأوروبية، فلقد اعتبرت سلاحًا لا مثيل له في الدفاع الساحلي الخفيف الحركة، ولقد بلورت قوارب الطوربيد آراء جيل كامل من المفكرين البحريين في المدرسة الفرنسية، واعتبرها الأدميرال ثيوفيل Théophile في وقتٍ ما أساس نظريته البحرية[٢].

ولقد اعتبرت تكتيكات الأدميرال ثيوفيل سابقة لعصرها على مثال ما

---

(١) G.E. Tyler the British Army and the Continent, ١٩٠٠ – ١٩١٤ (London, ١٩٣٨) Ch. VI.

(٢) كان أهم ما كتبه ثيوفيل سلسلة من المقالات جمعت وصدرت بعنوان: Aterre et á bord, notes d'un marin (Paris, ١٨٨٤).

اعتبرت آراء ماهان قد جاءت بعد زمانها الذي كان يجب أن تجيء فيه، ولكن مع هذا فإن كتابات ثيوفيل قد نالت تقدير عدد كبير من الأنصار الذين منحوها تعضيدهم ولم يحاولوا نقدها بصورة ما[1]، وعندما وصلت فكرة بناء قوارب الطوربيد السريعة إلى ذروتها أغفلت ألمانيا والنمسا والمجر والروسيا برامجها لبناء البوارج، وأحست الحكومة البريطانية بواجبها للاعتذار لمجلس العموم عن اضطرارها لإتمام هذه البوارج التي تحت الإنشاء فعلا.

وإن غاية ما نستطيع أن نقول اليوم نتيجة للتقارير الخاصة بالمناورات في وقت السلم فإن قوارب الطوربيد قد أثبتت صلاحيتها كسلاح ساحلي قوي، ولكن كان أمل المدرسة الفرنسية في إرهاب سكان المناطق الساحلية في إيطاليا وبريطانيا بالقنابل الحارقة والشديدة الانفجار التي تقذفهم بها قوارب الطوربيد أحسن تمثيل للتصورات التي انتشرت يوم ذاك، وكان هذا الإغفال الكامل لمبادئ القانون الدولي والتقدير المبهم للأضرار والتلفيات التي يمكن أن تسببها قوارب الطوربيد هذه تماثل الجدل الذي دار بين الكثيرين لأول بروز السلاح الجوي، وعلى أية حال فإن قوارب الطوربيد كانت أول سلاح قصير المدى هدد من سيادة البوارج، ومع أن هذه السفن الصغيرة التي تشبه مقلاع داود لم تطرد عمالقة جالوت من البحار إلا أن حرية العمل التي كانت للبوارج قد واجهت تحديدًا كبيرًا لها، وبدأت الدول العسكرية تحد من سيادتها لتغطي البحار من حولها، وبنى الفرنسيون قوارب طوربيد خاصة للعمليات بين كورسيكا وشمال أفريقية وبدأوا إنشاء قواعد بحرية حديثة على كلا ساحلي غرب البحر المتوسط.

---

(١) ربما كان أهم هؤلاء الصحفي جبرييل تشارمز الذي كتب: La reforme de la marine (Paris, ١٨٨٦).

وعكست النظرية البحرية الإيطالية لذلك العصر نفس الاتجاه العام هذا، فإن بوارجهم الكبيرة أعدت أساسًا لتكون سفنًا للدفاع الساحلي مع القدرة للخروج إلى البحر الفسيح، وأوكل إليها واجب منع عمليات التدمير وعمليات إنزال الجنود من جانب الفرنسيين، ولم يقصد الإيطاليون قط أن ينتزعوا بسفنهم الخفيفة التدريع السيادة على غرب البحر المتوسط من السفن الفرنسية الثقيلة التدريع، ولم ينفق الإيطاليون أي مبلغ من المال على سفن لهم خارج غرب البحر المتوسط ولم يحتفظوا بأي قواعد بحرية، وكان كل ما أملوا فيه أن يستطيعوا كبح جماح الأسطول الفرنسي في هذه المنطقة المُحددة[(١)].

وكان الموقف كذلك بالنسبة للولايات المتحدة، فبالرغم من مصالحها الدبلوماسية الواسعة النطاق بعد سنة ١٨٩٨ فقد أبقت كل جهدها البحري للدفاع عن نصف العالم الغربي، وقد استطاعت أن تُسيطر تدريجيًا على هذا الجزء من العالم باستنادها إلى قواعد بحرية كثيرة في المنطقة، وبنفس الأسلوب كسبت اليابان السيادة المحلية على بحار شرقي آسيا.

وفي كل من هذه الحالات أضعفت هذه السيطرة الإقليمية من سيادة بريطانيا على البحار العالمية، ومن الطريف أن نلاحظ أن أول الدول البحرية التي حالفت بريطانيا كانت هي الولايات المتحدة وفرنسا واليابان، وفي تاريخ مبكر أيام الحرب الروسية - اليابانية كان بعض المفكرين الفرنسيين يشعرون بعدم إمكان الدفاع عن الهند الصينية ضد هجوم ياباني جدي، وبدأ الإنجليز بدورهم يسقطون من حسابهم الأهمية التي لهنج كنج.

وكانت كل الاعتبارات في البداية دفاعية، كانت لا تزال هناك

---

(١) كان أهم أصحاب النظريات من الإيطاليين الكاتب دومينيكو بوناميكو Domenico Bonamico, Il problema marittime dell'Italia (Turin, ١٨٨١).

مشكلات أخرى توجد ضغطًا على قوة بريطانيا البحرية، وتحاول تفتيت الاحتكار الاستعماري والبحري الذي حصلت عليه بريطانيا ولا تزال تعمل على زيادة مداه، وكانت هناك عدة حلول نظرية لهذه المشكلات يرجع أولها إلى تاريخ استخدام السفن التي تسير بالبخار لأول مرة سنة ١٨٤٠، وكان حلم الفرنسيين أن كل العوامل التي عطلت وسببت فشل مشروعات الغزو الفرنسي لقرن كامل من الزمان قد انتهت، ومن الممكن استخدام القوة العسكرية الفرنسية استخدامًا مباشرًا ضد العدو، فلقد كان البخار بمثابة المعبر (الكوبري) فوق القنال الإنجليزي، فسفن البخار لا تحتاج إلى انتظار المد أو انتظار تحول اتجاه الريح، ولم يعد في استطاعة الإنجليز أن يحاصروا الفرنسيين في موانيهم.

ومع أن هذا الاتجاه في التفكير لم يكن أكثر بروزًا في سنة ١٨٨٠ مما كان قبل ثلاثين سنة فإن غزو اليابان للصين في سنة ١٨٩٤ قد أثار من جديد المسألة بأكملها، وكان الموضوع من الدراسات المُحببة لهيئتي أركان الحرب الفرنسية والألمانية في قرابة وقت قيام حرب البوير أي قبل إعداد لورد هالدان(*) للجيش البريطاني.

ومع أن تأثير هذا التهديد يخرج عن نطاق موضوع هذه الدراسة إلا أن الكثيرين من المفكرين على كلا جانبي القنال قد عنوا بهذا البحث، وفي

(*) هالدان Haldane ڤيسكونت ريتشارد بوردون هالدان سياسي وفيلسوف نقادة (١٨٥٦ – ١٩٢٨) تولى وزارة الحربية سنة ١٩٠٥ وقد أكمل تنفيذ مشروع كاردويل لإصلاح الجيش بإنشاء قوات عسكرية للقيام بالحملات الحربية كما أنشأ هيئة أركان الحرب للوحدات العسكرية بناءً على توصية لجنة آشر وهو صاحب كتاب (حياة هنري ويلسون) إيڤري ماتر إنسيكلوبديا ج ٦ ص ٦٨٨. (المترجم).

النهاية تنبأ الاستراتيجيون الفرنسيون بأن هذا التهديد بالغزو سيُرغم الإنجليز على الاحتفاظ بجزء كبير من الجيش الإنجليزي في الجزر البريطانية ومن ثم يخف الضغط البريطاني عن المستعمرات الفرنسية.

على أن الأدميرال أوب Aube كان قليل الاهتمام بمشروعات الغزو هذه، كانت الورقة التي يفضل اللعب بها هي إحياء حرب التنافس guerre de Course ضد سفن الإنجليز التجارية، وكان النجاح الذي حققته المدمرات التي عملت لتحطيم تجارة الجنوبيين في الحرب الأهلية الأمريكية قد أحيا التقدير الفرنسي التقليدي لهذا اللون من الحرب، ومع أن بعض أوجه النقاش التي استند إليها الأدميرال أوب ترجع إلى أيام لويس الرابع عشر فإن عاملين جديدين كانا يُمهدان السبيل للنجاح حيث فشلت جهود فرنسا في الماضي، فلأول مرة يتوقف كل البناء الاقتصادي لبريطانيا على الغذاء والمواد الخام التي تجيء من خارج بريطانيا، ولأول مرة – على ما أثبتت الحرب الأهلية الأمريكية – لن تستطيع بريطانيا إبقاء سفن الإغارة داخل قواعدها، ولا يزال هذان العاملان أساس الحرب التجارية الحديثة، فبريطانيا تعتمد اعتمادًا كاملًا على الإمدادات التي تنقلها بالبحر، ومن الضروري أن يقوم الأسطول البريطاني بحماية قوافل النقل ووقاية كل طن من المتاجر ينقل إلى الجزر البريطانية، والجهد الذي احتمله السلاح الجوي البريطاني بالاشتراك مع المجموعة الثامنة من السلاح الجوي للولايات المتحدة الأمريكية بإعداد وقاية مباشرة للسفن وضرب قواعد الغواصات الألمانية بالقنابل ليدلنا على خطورة هذه المشكلة، مشكلة الحاجة لحماية النقل البحري إلى بريطانيا.

وقد أوضحت قوانين القمح، كما أوضحت الحاجة الملحة للقطن سنة ١٨٦٠، اعتماد بريطانيا اعتمادًا كاملًا – في غذائها وفيما تستخدم في صناعتها

من المواد الخام – على ما تجئ به منقولًا عبر البحار، وكان الجيل الذي عاش فيه أوب Aube هو أول جيل يفهم تمامًا خطورة مشكلة ضرورة حماية بريطانيا لخطوط تموينها من وراء البحار، وقد غطت مطالبة ماهان وتيربتز بالحصول على المستعمرات والاستزادة من التجارة الخارجية، غطت هذه المشكلة بالسجف في كل من ألمانيا والولايات المتحدة، ولا يمكن أن تتوقع من الذي يُطالب بالاستزادة من التجارة الخارجية أن يبرز صعوبة حماية هذه التجارة، ومن ثم فإن المدرسة الفرنسية التي قدرت الاكتفاء الذاتي في فرنسا – كانت هي وحدها التي عنيت بمشكلة حماية تنظيم اقتصادي قائم، واهتمت بدراسة هذا في دراستها لحرب التنافس gueree de course.

ولقد كان الكثير من الخسائر التي لحقت بالسفن الأمريكية أثناء الحرب الأهلية ترجع إلى فزع وخوف أصحاب السفن، ومثل هذا الفزع يمكن أن يعطل كل الحياة الاقتصادية لبريطانيا.

وكان من المظنون أن المقترحات الأولى للتأمين القومي ضد خسارة السفن في الحرب ستعطي الحكومة قوة كبيرة على أعمال النقل، وهكذا أحس الكثيرون من أصحاب السفن أن الوسيلة الوحيدة لهم هي الانتقال لاستخدام أعلام الدول المحايدة فوق سفنهم، فكان هذا الاضطراب الاقتصادي الذي يسببه هذا الفزع هو الهدف الاستراتيجي الأساسي للمدرسة الفرنسية.

وفي ضوء التوقف التام لنشاط حكومة الاتحاد في أزمة مماثلة، وكذلك في ضوء ضعف السياسة الاقتصادية للحكومة الفرنسية أثناء حصار باريس لم يكن من المدهش أن يتوقع الكثيرون اختفاء الأعلام البريطانية من البحار في وقت الحرب، ولقد قوى من اعتقادهم عظم ما طالبت به الولايات

المتحدة كتعويض للضرر المباشر في حادث السفينة الاباما كما بدا أن تقبل بريطانية للأمر يوضح خوفها من قيام الأمريكان بمهاجمة سفنها البحرية.

وكانت حرب التنافس guerre de cource دائمًا أهم الأجزاء المعروفة من النظرية الاستراتيـچية للمدرسة الفرنسية ولقد تنبأ آوب Aube بأن أي قارب من قوارب الطوربيد يستطيع مهاجمة والقضاء على أي سفينة من السفن التجارية في القنال الإنجليزي أو في البحر المتوسط، وهكذا بقيت لما يقرب من عشرين سنة لنظرية المدرسة الفرنسية عن الدفاع الساحلي أهميتها في النظرية البحرية لقارة أوروبا بأجمعها، وكان نفوذها كبيرًا جدًّا في فرنسا وفي الولايات المتحدة الدولتين اللتين نشأت فيهما السفن التي تقوم بواجبات الدفاع الساحلي، ودرس الروس بدورهم الطرق التي تسير فيها السفن التجارية الإنجليزية وبنوا سفينتهم للإغارة على السفن التجارية Rurik Rossia على مثال السفينتين الأمريكيتين Minneapolis, columbia والسفينتين الفرنسيتين: Guichen, Chteaurenault.

وكان من أهم أعمال ماهان الأساسية خروجه على فكرة المدرسة الفرنسية الفتية، فهو لم يقصر دراسته للتجارب العملية في نطاق الحروب بين سنتي ١٨٥٤ و١٨٧٠ بل خرج إلى النطاق الأوسع بدراسة التاريخ حتى في أيام السفن التي كانت تسير بالشراع.

على أن ماهان كغيره من كبار الكتاب تباين تقدير الناس له واختلفت نظراتهم لأعماله، فقد اعتبر في ألمانيا وأمريكا واحدًا من أعظم أنبياء البحرية والاستعمار الإمبريالي، واعتبر في فرنسا كرجل قد أعاد إحياء المبادئ العسكرية السليمة المنطقية لـچوميني وكلاوزيـڤتز والتي نسيتها المدرسة الفرنسية الفنية تمامًا، وكان إصراره على المعركة وعلى أهمية القوة المنظمة تصحيحًا ضروريًا لمبالغة المدرسة الفرنسية في تقدير المستحدثات الفنية ولاستنادها للآمال في

الحصول على نصر رخيص قليل التكاليف بمهاجمة الأغراض غير العسكرية فقط، وكان من الممكن أن تنتهي عقيدتهم لا تخجل لمهاجمة الضعيف، ولا تخجل من الفرار من القوى بانهيار معنوي كامل، ولكن ماهان من الناحية الأخرى أشار إلى العمليات الهجومية الدفاعية التي قامت بها السفن الهولندية بأنها السياسة الصحيحة التي يجب أن يتخذها أسطول أقل عددًا، فالسفن الهولندية لم تغفل قط عن الأسطول الإنجليزي ولكنها عملت لأن تحطمه في أجزاء بحشد استراتيجي يحسن إعداد الوقت الصحيح له.

وقد زاد البخار من الفرص لعمليات هجومية من هذا الطابع يحسن إعدادها، ولقد أشار أنصار ماهان بأنه حتى إذا كان تدمير السفن التجارية هو الغرض الأولى فلقد كان من الضروري دعم هذه الهجمات على قوة المعركة في الأسطول البريطاني، وفشلت الأدلة التي قدمها ماهان نتيجة لدراساته التاريخية لإثبات أن تدمير السفن التجارية لم يكن عملية ناجحة إطلاقا، فشلت في ثني المدرسة الفرنسية عن آرائها فقد بقي أنصار تلك المدرسة يعتقدون بأن المشكلة هي أن الظروف قد تغيرت ولكن المبدأ في حد ذاته سليم منطقي، وهكذا بقوا يؤمنون بأن التغييرات الفنية يمكن أن تغير المبادئ العسكرية والاستراتيجية البحرية[١].

***

وكانت وسائل بسمارك لزيادة الضغط على القوة البحرية الكبيرة التي

---

(١) كان أهم أنصار ماهان في فرنسا هما: جبرييل داريوس صاحب كتاب War on the Sea طبع آنا بوليس سنة ١٩٠٩، ورينيه داڤيلوي Réne Daveluy الذي كتب L'esprit de la guerre navale في ثلاثة مجلدات طبع باريس ١٩٠٩ – ١٩١٠، وكان زعيم الاستراتيجية البحرية الإيطالية هو جيوڤني سيتشي Giovanni Sechi الذي كتب Elementi di arte militare maritima طبع ليجهورن في مجلدين (١٩٠٢ – ١٩٠٦).

توافرت لبريطانيا وسائل سياسية، وقد أغفلت الكثير من الهيئات البحرية في العالم هذه الوسائل، ولم تدعم هذه الوسائل النظريات الخاصة بالسيادة إلى القوة البحرية لتكشف عن أن الإمبراطورية البريطانية في سنة ١٨٨٠ تملك أسطولًا يساوي جملة أساطيل باقي دول العالم مكتملة، ولكنها أعطت بسمارك الأرض التي يحتاج إليها لتقوم عليها دعوته لحصول ألمانيا على مستعمرات، وكان من الطبيعي أن يفشل ماهان كأمريكي في سنة ١٨٨٠ في تفهم العلاقة بين الدبلوماسية وبين السياسة البحرية، وأن يفهم توازن القوى في أوروبا، كانت ملاحظاته عن الدبلوماسية معنية العناية كلها بالحصول على القواعد البحرية، كان يستطيع أن يقدر تقسيم الصين، وكان تواقًا لأن تحصل أمريكا على مركز طيب في خضم هذا التقسيم الذي يجري في العالم.

على أن مخاوف الولايات المتحدة من اعتداء ألمانيا في البحر الكاريبي قد دلت كما دلت بعض المظاهر في الدبلوماسية الأمريكية المكشوفة على قلة التقدير للنظام الأوروبي. وفي الواقع أن الرواد الأولين هم وأبناء جيلنا الحاضر كانوا أكثر تجربة من الأمريكيين الذين عاصروا ماهان؛ وكانت أهمية البحرية البريطانية في وقف الاعتداء العسكري الأوروبي سنة ١٨٢٠ على العالم الجديد هي نفس الأهمية التي كانت للبحرية البريطانية في سنة ١٩٤٠ للغرض نفسه، ولكن فكرة كون الأسطول البريطاني هو الخط الأول للدفاع عن الولايات المتحدة من النادر أن تكون قد برزت بالقدر الكافي في جدل ماهان ودعوته للصداقة الأمريكية – الإنجليزية.

على أنه من الضروري ألا ننسى قط أن أسلوب بسمارك للضغط السياسي يمكن أن ينجح فقط في الأهداف الصغيرة، على حين أن بريطانيا

كانت تواجه تهديدًا في ميادين أخرى بأعداء أكثر خطورة، وكان من الضروري أن تتوازن مطالبته المُعتدلة نسبيًا بالمستعمرات مع التهديدات الرئيسية من فرنسا والروسيا في آسيا وفي البحر المتوسط، وكانت دبلوماسية بسمارك القائمة على الاغتصاب والسلب دبلوماسية ناجحة طوال اعتبار بريطانيا لفرنسا والروسيا كخصميها الرئيسيين اللذين ينافسانها في ميدان المستعمرات، وقد فشلت هذه السياسة عند ما بدأت بريطانيا تفكر في ألمانيا كخصمها الرئيسي، وكان هذا هو الخطأ الأساسي لتيربتز في صياغته لنظرية المخاطرة Riskogedanke، فلقد صاغ نظريته في وقتٍ كانت بريطانيا طواله في عُزلة تقف وحدها بين الحلف الثلاثي وبين الحلف الثنائي، وكان أسطوله للمخاطرة يحتاج إلى أن يكون قويًا بالقدر الكافي للحصول على توازن بحري بين بريطانيا وبين التحالف الفرنسي – الروسي، وكانت السيكولوچية الكاملة تنعكس في الدبلوماسية المُدرعة(*) للقيصر غليوم الثاني.

وعندما سببت مطالبة القيصر الألماني بالمستعمرات قيام اتفاقات بين بريطانيا والروسيا وفرنسا في ميدان الاستعمار، لم تغفل البحرية الألمانية البرنامج الذي أعده لهذا الموقف الدبلوماسي بخاصة، كان الأسطول الألماني من الناحية الفنية عند ذروة درجة الكمال، ولكن كان ضعفه يكمن في قيادته العليا، ذلك عندما ألغيت هيئة أركان الحرب من الأسطول الألماني لإعطاء الإمبراطور غليوم سيطرة شخصية على السياسة البحرية أضحى الأسطول الألماني دُمية ملكية يلهو بها القيصر الإمبراطور، ويجب ملاحظة أن هيئة أركان الحرب للجيش الألماني قد أنشئت لغرض واحد هو منع الإمبراطور من فرض سيطرته على الجيش، ولم تكن لدى الإمبراطور فكرة

(*) يقصد الدبلوماسية التي تستند إلى البوارج. (المترجم)

في سنة ١٩١٤ عن الأسطول أكثر من الاحتفاظ به في الاحتياطي ليستخدمه للمساومة في مؤتمر الصلح وكوسيلة لعمليات اغتصاب جديدة.

ولم تكن للأسطول فكرة لغزو بريطانيا، ولا للقيام بسلسلة من العمليات لمهاجمة السفن التجارية الإنجليزية بل ولا حتى الحصول على سيادة إيجابية على بحر البلطيق، ولم يحاول الأسطول حتى تعطيل إنزال الحملة البريطانية على ساحل فرنسا، مع أن الجناح الأيمن للجيش الألماني كان هو حجر الزاوية في كل خطة شليفن(*) بقي الأسطول الألماني ثاني أسطول في العالم لأربع سنوات كاملة يقوم بواجب واحد هو الدفاع عن الساحل الألماني، وهو واجب قام به الأسطول الألماني على أكمل وجه، على مثال ما فعل الأسطول الفرنسي ١٨٧٠، وعلى مثال ما كان من الممكن أن يفعل الأسطول الألماني الصغير في سنة ١٨٨٠.

وكان ما أصاب الأسطول الألماني في سكابافلو سنة ١٩١٩ هو النهاية الحتمية له، ولقد بقي تيربتز لعشرين سنة يبني البارجة إثر الأخرى، وفي النهاية كانت هذه السفن التي أُعدت لاغتصاب كل ما يمكن اغتصابه من المستعمرات البريطانية لا تزيد على ركام المعادن الذي انتهت إليه هذه السفن.

وفي سنة ١٨٨٠ فشلت حرب التنافس أن تكسب أنصارًا لها في ألمانيا، ويرجع هذا من ناحية إلى افتقار ألمانيا للقواعد الخارجية كما يرجع من ناحية أخرى إلى بُعد مسافة القواعد البحرية في ألمانيا نفسها، بعدها عن طرق التجارة الرئيسية لبريطانيا، وقد عطل هذا ألمانيا من إعداد الغواصات التي

(*) راجع الفصل الثامن من الكتاب الثاني "رواد الاستراتيجية".

يمكن أن تدمر السفن التجارية كما أوضح الإيطاليون اهتمامًا قليلًا بهذا اللون من العمليات، ويبدو أن موقف ألمانيا كان قد تحسن عندما جاءت فعلًا حرب الغواصات، وهذا عامل يجب تذكره عند ما نحاول نقد فشل الإنجليز في مواجهته[1]، فإن الحملات النازية في النرويج وكريت وإفريقية لهي تضاد واضح لسياسة أسطول أعالي البحار في السنوات من ١٩١٤ إلى ١٩١٨.

والواقع أن الأسطول الألماني القديم باكتشافه متأخر عمليات تدمير السفن التجارية بواسطة الغواصات، وفشله في تطور سياسة نشاطه في البلطيق قد كشف بوضوح تفهمه غير المؤكد للآراء الأساسية للمدرسة الفرنسية الفتية.

والواقع أنها لمسألة جدلية تصلح أساسًا للبحث والنقاش، مسألة ما إذا كان من الصحيح أن الأسطول الذي أوصت المدرسة الفرنسية ببنائه كان سيكون أقل تهديدًا للإنجليز مما كان أسطول أعالي البحار؛ وعلى أية حال فإن الإنجليز كانوا – على الأقل – في سنة ١٩٣٥ راغبين كجزء من سياسة التهدئة، في توقيع اتفاقية دولية يقبلون فيها العودة للطابع القديم للأسطول[2].

على أن الوسيلة لوضع الضغط على بريطانيا كانت هي التي أوجدت الحاجة إلى القوة البحرية عن طريق السيطرة على المناطق البرية الاستراتيـچية وقد رأى ماهان أن العامل الأكبر أهمية في أمريكا التي

---

(١) يبدو أن هناك القليل من الأسباب الإيجابية للشك في البيان الرسمي للأميرال سبندلر في كتابه: Spindler, Der Handelskrieg mit U-Booten (Berlin, ١٩٣٢) Vol. ١ p. ٨.

(٢) كان القبطان لوثر بيرسيوس من أعنف نقاد المدرسة الفرنسية ضد سياسة تيربتز، ومن الصور التي تُطابق نقده ما جاء في كتاب: Warum die Flotte versagte (Leipzig, ١٩٢٥).

تُعاصره هو قيام إمبراطورية ذات كفاية ذاتية صناعيًا، ولكن كان هذا بالنسبة إليه مُجرد بداية فهو ينتظر اليوم الذي تستطيع فيه أمريكا المتوافرة الصناعة أن تصدر السكان بدلًا من أن تستوردهم، ولقد يمكن أن تبدو آراؤه عن العمل للحصول على مستعمرات وكأنها قد جاءت في الوقت غير المناسب على أساس أنها جاءت في السنوات التي كان رجال الأعمال الأمريكان يعملون طوالها لتطوير الأساليب والوسائل الأمريكية لاستغلال القارة.

على أنه من الصور المماثلة التي تثير الدهشة أن فردريك راتزل الألماني الرجل الذي أوجد علم الـچيوبوليتيكا كان يرى أن البحر هو المصدر الرئيسي لعظمة الأمة، على حين كان الجغرافي الإنجليزي ماكيندر يبرز أهمية التطورات التي تمت في النقل البري في القرن التاسع عشر، على أنه كانت كل الأمم حتى الروسيا تندفع – في خضم اندفاعها نحو القوة البحرية – تندفع نحو حربين عالميتين مُدمرتين وإلى انهيار كامل لنظم الملكية القديمة.

وفي سنة ١٩١٤ كان ماهان قد حقق في قارة أوروبا شعبية له تماثل ما حققه من شعبية في بريطانيا وأمريكا واليابان، وكان كل ما تحتاج إليه هذه الشعبية هو تقبل الأسطول الألماني لآرائه ذلك لأن الأساطيل الإيطالي والروسي والفرنسي كانت في ذلك الوقت تقف إلى جانب بريطانيا إما كأنصار لها فعلًا وواقعيًا، أو على الأقل من المحتمل أن تكون كذلك.

وقد ضعفت المدرسة الفتية وقل نفوذها في فرنسا حتى أنها لم تعد شيئًا أكثر من مجرد جماعة عسكرية تتفق على رأي واحد(*) تدعو باستمرار

(*) في الأصل كلمة "Sect" وهي تعني الجماعة من الناس التي تتبع كنيسة خاصة قائمة. معجم ويبستر طبعة سنة ١٩٥٦ ص ١٣١٧.

للعقيدة التي تُبشر بها دون أن يكون لهذه الدعوة غير أثر قليل في السياسة البحرية الفرنسية، وكان إغفال هذه المدرسة لكثير من المبادئ العسكرية الأولية هو الذي سبب انهيار نفوذها وضياع مكانتها.

ونسي الناس في غمرة سخريتهم من مقترحاتها التكتيكية أن أوب وأنصاره كانوا هم أول من قاموا بتحليل الكثير من المسائل المهمة في الحرب البحرية الحديثة، وكانت المدرسة الفرنسية البحرية الفتية قد انغمرت في خضم المشكلات السياسية مما كان له النتائج الضارة التي تحدث عادةً عندما تسهم في السياسة هيئات فنية من غير السياسيين، وقد حطم الوزير الراديكالي كاميل بيليتان الأسطولي الفرنسي والمدرسة الفرنسية الفتية عندما حاول القيام بعملية تطهير واسعة النطاق داخل الأسطول لإقصاء أنصار العقائد المضادة للعقيدة التي تبشر بها المدرسة الفتية وفسرت هزيمة (الروسيا) حليفة فرنسا، في الحرب الروسية اليابانية على أنها دليل على صحة آراء ماهان، وقد عني عدد قليل من الكتاب – عدا ماهان – بأن يجهدوا أنفسهم بدراسة العناصر المهمة للاستراتيـجية اليابانية، فلم يكن الطوربيد واللغم قد سموا إلى حد الآمال المبالغ فيها لأولئك الذين يُسرفون في تقديرها وإن كانا، ولا شك، قد دعما من مكانتيهما كسلاحين لهما أهميتهما الكبيرة في الحرب البحرية، وكانت هجمات الروس على السفن التجارية اليابانية عمليات (غير ناجحة) لم تحقق نجاحًا، وكان الاعتقاد السلبي للأسطول الروسي بالنسبة لأهمية عمل الأسطول كله كمجموعة واحـدة اعتقادًا ضارًا على مثال ما حدث في تاريخ متأخر من نفس هذه الناحية في ألمانيا، وكان هذا أيضًا اختراقًا كبيرًا للمبدأ الذي وضعه ماهان عن الهجوم الإيجابي



أكتوبر ١٨٥٥

الأسطول البريطاني في البلطيق يُلقي مراسيه في جزيرة كوتلين على الطريق إلى (بتروغراد) لنينجراد ، فيما بعد .

الذي تقوم به قوة ضعيفة ضعفًا موقوتًا من الناحية العددية[١].

وكان اضمحلال وضعف حيوية المدرسة الفرنسية سبب الفشل العام في السبق بتقدير الإمكانيات الاستراتيـجية للسلاح الذي طغى على أي شيءٍ آخر: سلاح الغواصات، السلاح الذي كان أمل كل أعداء بريطانيا من فولتون Fulton إلى دويوي دو لومي Dupuy de Lome وكان هذا التنافس الذي انتهى بأن أنتج الفرنسيون أول غواصة حققت نجاحًا عند تجربتها قد بدأ به أوب نفسه، ولكن الواقع أنه عندما ظهر فعلًا هذا السلاح (الهام) الحاسم الأهمية لم يكن له من أثر في الاستراتيـجية البحرية اللهم إلا الأثر القليل من الناحية النظرية البحتة، وحتى الفرنسيون فإنهم قد اعتبروا الغواصة قاربًا من قوارب الطوربيد يستطيع الغوص تحت سطح الماء، وأحست المدرسة الفرنسية الفتية بالمهانة للعنف الذي صبغت به كل ما زعمته عن خاصيات الغواصة، (ويستطيع كل الذين اتبعوا نظريات دوهيه أن يُلاحظوا صورة مماثلة لهذا، فعند ما أوشكت قاذفة القنابل المقاتلة أن تخرج إلى الوجود فقدت نظريات دوهيه جديتها بسبب إسراف أنصاره الصحفيين في صياغة الأساطير عنها، ومن ثم فإن هذه القاذفات لم تستخدم في الأغراض الاستراتيـجية التي قدرها لها إلا بعد وقت طويل).

وكان أكثر المفكرين البحريين أصالة في الفترة التي سبقت الحرب مباشرة الإنجليزيان فريدت چان وچوليان كوربيت[٢] وكعدد آخر من

---

(١) Réne Daveluy, La lutte pour l'empire de la mer (Paris, ١٩٠٦).

(٢) كان أهم كتابات فريدت، چان كتابه: Heresies of Sea Power (London, ١٩٠٦) وأهم مؤلفات چوليان كوربيت عن نظريات ماهان كتابه: Some Principles of Maritime Strategy (London, ١٩١١).

الكتاب الإنجليز[١] أخذ هذان الرجلان مناقشات المدرسة الفتية الفرنسية مأخذًا جديًا، وقد أكد چان وكوربيت أهمية قارب الطوربيد ثم بعد ذلك أهمية المدمرة في تحديد عمل الأسطول الكبير، واتفق الرجلان مع (أوب) في أنه من المحتمل أن يكون الحصار القريب المدى عملية مستحيلة وذلك بسبب الأنواع الجديدة من السفن.

وقد أعطت دراسات كوربيت عن الجوانب الدبلوماسية والعسكرية للحروب الكبيرة في عصر استخدام السفن ذات الشراع، أعطت صورة أكثر اكتمالًا من الصورة التي قدمها ماهان، وانتعش اهتمام الناس بدراسة العمليات المشتركة، العمليات العسكرية والعملية البحرية المرتبطة معًا.

وشعر كوربيت أن الوقاية غير المباشرة للتجارة يمكن أن تكون أصلح وأفضل بالاستيلاء على قواعد العدو واحتلالها، وما لم يتم هذا - وقد اتفقا في الرأي مع كوربيت - ما لم يتم هذا فإن وقاية التجارة البريطانية ستكون مسألة صعبة مُحيرة، ومن حُسن الجد أنه كان من الممكن حصر بريطانيا حصارًا غير مباشر من مدى أبعد من مرمى الطوربيد، وبدأ الأسطول الذي كان يزعم علانية بأن حدود عمله تقف عند سواحل العدو، بدأ يكسب حربًا في أماكن تبعد كثيرًا عن مرامي قوارب الطوربيد التي للعدو، وقد كان احترام الأساطيل لقوارب الطوربيد كبيرًا إلى حد أن هذا الإقدام قد عطل العمل التكتيكي للأساطيل.

وقد أغفل الإنجليز دراسة عقائد المدرسة الفتية الفرنسية والتي كان يجب أن يدرسوها، وقد رفضوها على أنها أدلة ضعف لا علائم قوة، ولكن

(١) أهمهم الأخوان السير چون كولومب والأميرال ب. هـ. كولومب.

القادة الألمان الفنيين الواقعيين كانوا على نقيض المُتحفظين من رجال الإمبريالية البريطانية.

وقد عنيت النظرية البحرية البريطانية منذ حرب ١٩١٤ – ١٩١٨، عنيت أساسيًا بالشئون التكتيكية، وقد وضح هذا من خوف الأسطول الكبير من هجمات قوارب الطوربيد في چتلاند، وفشل القيادة العليا من العمل بجرأة وقوة ضد تهديد الغواصات.

واتبع الأمريكان من أصحاب النظريات البحرية الطابع الإنجليزي بالرغم من أن نقدهم (الأمريكان) للقيادة البحرية البريطانية كان قاسيًا مرًا، وكالإنجليز تقبل الأمريكان آراء ماهان وكوربيت، وتأثرت النظرية الأمريكية عن سواحل العدو باللغم وبالطوربيد كما تأثرت في تاريخ حديث بعد هذا بالطائرة التي تخرج من مطارات برية وكانت جل النقاط الخاصة بالاستراتيچية البريطانية والتي عرضت للنقاش والدراسة تاريخية الطابع[١].

ولم يدرك الإنجليز – مثلهم في هذا مثل الفرنسيين – قبل سنة ١٩٣٩ هذه الأخطار الكثيرة التي تواجهها الإمبراطورية، وكان تأهبهم الذهني لمواجهة خطر الجو في جملته أقل مما واجهوا به الطوربيد سنة ١٩١٤، ***والواقع*** أنه لم يضف أي استراتيجي بحري أوروبي جديدًا إلى مناقشة القوة الجوية والقوة البحرية، فقد وجهوا كل اهتمامهم بالمشكلات الخاصة بالباسيفيك (المحيط الهادي).

---

(١) عرضت حتى مؤلفات الرجل الكفء السير هيربرت ريتشموند للمشكلات الاستراتيچية من الاتجاه التاريخي أيضاً.

وقد عنى الألمان – كما كان متوقعًا – بالكشف عن أسباب فشل الأسطول الكبير، وقد كررت مناقشتهم نفس الطابع الفرنسي لسنة ١٨٨٠، وقد جاءت هذه المناقشة متأخرة جدًّا عن الوقت الذي كان يجب أن تكون فيه، وفي وقت متأخر كذلك ردد الكثيرون من الألمان أصداء نقد وزارة الحرب في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى في مهاجمتها للفلسفة البحرية للقيصر الإمبراطور، وتوضح العقائد التي جاءت في كتاب كفاحي عن تحقيق الحصول على امبراطورية برية في الشرق، توضح إدراك هتلر المظهر المضلل الخداع للأسطول الإمبراطوري.

وقد أثبتت المحاولة الفاشلة التي قام بها الغرب للقضاء على الثورة الروسية إثر الحرب العالمية الأولى، كما أثبتت التطورات الواسعة في قوة الروسيا منذ ذلك التاريخ، أثبتت على الأقل للكثيرين من الـچيوبوليتيكيين أن القوة البحرية قد ضعفت من جديد وأن القوة البرية تستعيد مكانتها صاعدة إلى أعلى، وبدأ إذ ذاك أن محاولة تيربتز لإيجاد نسبة بين قوة الأسطول وبين حجم تجارة الدولة الخارجية محاولة ممجوجة لا تستند إلى منطق، فلا يمكن أن يحلم فرد بتقدير عدد طائرات وقوة السلاح الجوي على أساس النقل الجوي التجاري.

ولقد تبنى بعض الألمان آراء ونظريات المدرسة الفرنسية الفتية ولكنهم لم يضيفوا إليها الكثير، ولربما تكون فكرة الأميرال ڤيجنر عن الوثوب للشمال عن طريق النرويج(١) أهم ما جاء به هؤلاء الألمان من تقبلوا نظريات المدرسة الفرنسية ولكنهم حتى هذه الفكرة من ڤيجنر كانت

(١) Die Seestrategie des Weltkrieges (Berlin, ١٩٢٩).

رجوعًا بالأمر إلى أيام ترومب Tromb. وررويتر Rutyer(*) عن ما حاول إخفاء تحركات القوافل الهولندية بالإبحار سرًا وخلسة حول بيرجن(**).

ولقد وقف بعض الكتاب الألمان إلى جانب القيام بإغارات واسعة النطاق على سفن النقل التجاري مع القيام بعمليات هجومية بواسطة الغواصات، ولكن كانت عمليات البوارج الألمانية الصغيرة (بوارج الجيب) والمطاردات الثقيلة في الواقع عمليات قليلة القيمة، ولم يحقق الألمان نجاحًا ملحوظًا في عملياتهم بهذه السفن البحرية إلا في مهاجماتهم لسفن النقل الإنجليزية على مسافة من ساحل النرويج.

ونحن في الواقع لا نعرف الشئ الكثير عن خطط الألمان للغزو البري لبريطانيا، ولكن سرعة ونجاح عملياتهم في النرويج وفي كريت يوضحان أنهما لربما كانا قد قدرا شيئًا مثل هذا بالنسبة لغزو بريطانيا، ***والواقع*** أن القيادة الألمانية العليا قد عملت من بداية الحرب العالمية الأولى على تجنب تردد القيصر الإمبراطور، وسجل عملياتهم يدل على اقتناعهم بنظرية ماهان من أنه حتى الأسطول الصغير يستطيع أن يكبد العدو الأضرار الجسام نتيجة للعمليات الهجومية – الدفاعية النشطة.

على أنه من وجهة عامة يمكن القول بأن أكثر المؤلفات الأوروبية أصالة عن النظرية البحرية في السنوات التي تبعت الحرب العالمية الاولى

(*) رويتر، ميشيل أدريان ذون دي رويتير أميرال هولندي (١٦٠٧ – ١٦٧٦). معجم ويبستر ص ١٢٧٩ – المترجم.

(**) بيرجن Bergen ميناء بحري على الساحل الجنوبي الغربي للنرويج، سكانها ١٠٨.٠٠٠ كإحصاء سنة ١٩٤٦. معجم ويبستر ص ١٣٩ – المترجم.

جاءت من فرنسا وإيطاليا أكثر من أن تجيء من ألمانيا، كانت كلتا الدولتين معنيتين بالحرب البحرية في القنال الإنجليزي وفي الأدرياتيك، وبالأضرار التي يمكن أن يسببها الاستخدام الجيد المعني به حتى لأسطول صغير من سفن خفيفة، وكان البحر المتوسط أكثر صلاحية للاصطدام السريع بالقوات التي تخصص لأغراض معينة أكثر مما يصلح للمناورات التقليدية بالأساطيل الكبيرة كاملة العدد والعدد، وقد توقعت فرنسا وإيطاليا أنه في البحر المتوسط كما في المناطق الضيقة في الباسفيك الجنوبي يمكن أن تستطيعا استخدام البحر للقوافل العسكرية والتجارية التي تقضي الحاجة الملحة باستخدامها فيه، ولم تتوقع أيهما أن تحقق سيطرة كاملة على كل المنطقة، وقد أعدت كل من الدولتين لهذا اللون من القتال عددا كبيرًا من الطائرات التي تخرج من مطارات برية، كما أعدت مطارات كثيرة المدافع وبوارج ثقيلة، ولم تكن من حاجة إلى حاملات الطائرات ولا إلى الطائرات الكبيرة، ثم إن البوارج الثقيلة كان من الضروري أن تتوافر لها قدرة على تجنب الغرق إلى غاية ما يمكن.

وكان للأسطول الإيطالي لسنة ١٨٨٠ هو السلف السابق مباشرة للأسطول الإيطالي لسنة ١٩٣٠، وكان الهدف منه مازال هو التدخل بقوة بحرية كبيرة في البحر المتوسط، وحتى سنة ١٩٤٣ فشلت كل الجهود الإيطالية في هذا الواجب، ولكن الأسطول الإيطالي كان دائمًا عامل تهديد للقوافل العسكرية والقوافل التجارية الإنجليزية في البحر المتوسط، وقد استطاع بمعاونة الطائرات التي تستند إلى مطارات برية أن يحمي شبه الجزيرة الإيطالية المعرضة ضد عمليات إنزال للجنود لها خطرها، ولقد كان هذا من الناحية الجغرافية عملًا ناجحًا لاسيما إذا نظرنا إليه من وجهة النظر

لموقف إيطاليا الاستراتيجي. صحيح أن أسطول موسوليني قد فشل في كسب السيطرة على البحر المتوسط، ولكن ما من شك في أنه عطل تحركات الإنجليز في تلك المنطقة، ومن غير الممكن أن يكون أي استراتيجي إيطالي قبل ستين سنة قد أمل في شئ أكثر من هذا[١].

ومن المؤكد أن أكثر الاستراتيجيين البحريين الأوروبيين المحدثين طرافة هو الأميرال الفرنسي راءول كاستكس والذي تعتبر مجلداته الخمسة عن الاستراتيـجية البحرية ثمار حياة طويلة في التأليف[٢]، ويعرض كاستكس لسباقية Darrieus Daveluy أفضل دراسة لماهان وللمدرسة الفرنسية، وقد تجنب كاستكس في تعريفه للقوة البحرية والمبادئ العسكرية التي تستند إليها؛ تجنب كل ما لا يتقبله المنطق من نظريات المدرسة الفرنسية، وكان قد أدرك تمامًا أهمية السيطرة على البحر والحاجة إلى قوة منظمة لتحقيق هذا إذا أمكن، فلا تكسب الحرب بسهولة ويسر وبثمن بخس بل تكسب بالقتال لتدمير قوة العدو المنظمة.

ويتفق كاستكس وماهان على الأصول الأساسية للعلم العسكري اتفاقًا تامًا كاملًا، ولكنه في تحليله لظروف وأحوال الحرب البحرية الحديثة يتفق مع آراء المدرسة الفرنسية الفتية لا مع آراء ماهان، فقد كان يرى ما رآه أوب من أن مكانة بريطانيا تنهار تدريجيًا، وأن القوة البحرية ستلعب دورًا

---

(١) أهم ما هو معروف من المؤلفات الإيطالية الحديثة:

Romeo Bernotti, La guerra maritma, studio critico sull' impiego dei mezzi nella guerra mondiale (Florence, ١٩٣٢);

G. Fioravanzo, La guerra sul mare e la guerra integrale (٢ Vols., Turin, ١٩٣٠ – ١٩٣١);

Oscar di Giamberardino, L'arte della guerra in mare (٢ Vols., Rome, ١٩٣٧).

(٢) Théories Strategiques (٢ nd, ed. ٥ Vols., Paris, ١٩٣٧).

أقل في المستقبل، أقل مما لعبته في عصر السفن ذات الشراع، وقد أكد كاستكس كغيره من أصحاب النظريات من الفرنسيين والإيطاليين ضعف القوة البحرية المهاجمة من ناحية الوقت والمسافة، ورأى أن الحصار البحري المستمر يجعل القوة البحرية أقل تأثيرًا من ناحية الوقت، وأن الغواصة والهجوم الجوي قد حددا عمل الأسطول من ناحية المسافة وذلك بمنع الأسطول من النفوذ إلى مياه ساحلية معينة، وهكذا كانت القوة البحرية في هذا العصر – على ما اقتنع چان قبل ثلاثين سنة – أكثر اعتمادًا في أمنها على القواعد البرية.

وقد عني المجلد الأول من كتاب كاستكس بالمحاولة التي لا أمل فيها للدفاع عن الهند الصينية ضد اليابان، وقد دعا منذ سنوات طوال إلى أنه ليس من الضروري فقط إخلاء الهند الصينية بل وإخلاء حتى سورية وحتى مدغشقر عندما تواجه فرنسا عمليات هجومية لها خطرها.

وكانت هذه الظاهرة الجديدة، ظاهرة عدم قدرة الدول الكبيرة على المحيط للدفاع عن ممتلكاتها فيما وراء البحار، عاملًا جديدًا يحد من مكانة القوة البحرية.

وقد أوجد كاستكس في مؤتمر واشنطون شعورًا غريبًا بمذكراته التي وافق فيها على عمليات الغواصات الألمانية، وبقي هو وغيره من الاستراتيجيين الفرنسيين يعتبر عمليات الغواصات أعظم تهديد خطر يمكن أن تتعرض له بريطانيا.

ومع أن أغلب البحريين الفرنسيين لم يتحدثوا بصراحة في الموضوع كما تحدث كاستكس فإن نظريات المدرسة البحرية الفرنسية ونظريات حرب

التنافس التجاري لا تزال تلقى تعضيدًا قويًا في الأسطول الفرنسي، وكان بناء الغواصة العملاقة سوركوف دليلًا واضحًا على بقاء هذا الاتجاه.

وكان الإيطاليون أقل من الفرنسيين والألمان تقديرًا لإمكانيات حرب الغواصات، ومن أجل هذا بل ولأجل كل لون آخر من ألوان الحرب البحرية كان موقفهم الاستراتيجي صعبًا إن لم نقل بأنه لا أمل فيه.

وأخيرًا فقد تأثر كاستكس أيما تأثير - وكان مثله في هذا مثل الألمان - تأثر بحقيقة أن القوى البرية، الدول التي تستند إلى القوة البرية، قد نجت من ضغط القوى البحرية في مناطق مثل الروسيا والصين.

وقد وقف كاستكس مُجلدًا كاملًا لدراسة الصراع بين القوة البرية والقوة البحرية، وكانت تتضح له في دراسته أوجه التشابه بين عصر چانكيز خان وعصر ستالين، ولربما كان هذا يرجع من ناحية إلى آمال فرنسا التقليدية من تحالفها مع الروسيا ذلك لأن أميرالًا فرنسيًا واحدًا - على الأقل - قبل دارلان، قد نصب تمثالًا نصفيًا لستالين وقال عنه أنه الرجل الذي سُينقذ فرنسا مُستقبلًا، ولعل الرجل كان قد أوتي نصيبًا من صواب الرأي ودقة التقدير.



حديث المراجع:

الفصل الثامن عشر

العقائد القارية للقوى البحرية

بقلم تيودور روب

كحديث عام يمكن الرجوع إلى:

Jean Grivel, De la marine militaire considerée dans ses rapport avec le Commerce et avec la défense du pays (Paris, ١٨٣٧).

Richard Grivel, De la guerre maritime, avant et depuis les nouvelles inventions (Paris, ١٨٦٩).

وجريـڤال الأب والابن من أعظم رواد البحث في المدرسة الفرنسية للاستراتيـچية البحرية، على أن أهم أعمال زعيم هذه المدرسة هو:

Admiral Théophile Aube, A terre et à bord, notes d'un marin (Paris, ١٨٨٤).

Gabriel Charmes, La reforme de la marine (Paris, ١٨٨٦).

والكتاب الثاني دراسة جيدة لكاتب من أهم مؤلفي المدرسة الفرنسية؛ على أن أهم أنصار ماهان من الفرنسيين كانا:

Gabriel Darrieus, La guerre sur mer (Paris, ١٩٠٧).

René Daveluy, l'esprit de la guerre naval (٣ vols, Paris, ١٩٠٩ – ١٩١٠).

والدراسات الفرنسية القيمة عن الاستراتيـچية البحرية الفرنسية والتي صدرت قبل الحرب العالمية الأولى هي:

A. Gougeard, La marine de guerre, son passé et son avenir (Paris, ١٨٨٤).

Commandant Z. (Paul Fontin) and H. Montechant (J. H. Vignot), Les guerres naval de demain (Paris, ١٨٩١).

وأهم المؤلفات الفرنسية الحديثة عن الاستراتيـچية البحرية هي كتاب:

Raoul Castex Théories: stratégiques: (second edition ٥ Vols, Paris, ١٩٣٧).

ومن الألمان الذي يعتبرون من أتباع المدرسة الفرنسية نجد كتاب:

Lother Persius, Wàram die Flotte versagte (Leipzig ١٩٢٥).

وأهم المؤلفات الألمانية عن استراتيـچية الحرب العالمية الأولى:

Wolfgàng Wegener, Die Seestrategie des Weltkirges (Berlin, ١٩٢٩).

Paul Sethe, Die ausgebliebene Seeschlach: die englische Flottenfuhrung, ١٩١١ – ١٩١٥ (Berlin, ١٩٣٢).

والكتاب الثاني تحليل لأسباب عدم نشاط الأسطولين الكبيرين في أثناء الحرب:

وأهم المؤلفات الإيطالية:

Domenico Bonamico, La Strategia naval nel Secolo XIX and Il

dominio del mare del punto di vista italiano Rivista Marittima (١٨٩٩ and ١٩٠٠).

Giovanni Sechi, Elementi di arte militare marittima (٢ Vols., Leghorn, ١٩٠٣ – ١٩٠٦).

Romeo Bernotti, Là guerra mirittima, Studio critico Sull impiego dei mezzi nella guerra momdiale (Florence, ١٩٢٣).

Oscar di Giamberardino, L'arte della guerra in mare (٢ Vols., Rome, ١٩٣٧).

G. Fioravanzo, La guerra sul mare et la guerra integrale (٢ Vols., Turin, ١٩٣٠ – ١٩٣١).



الفصل التاسع عشر

استراتيجية اليابان البحرية

بقلم ألكسندر كيرالفي

تعتبر دراسات الفكر البحري الياباني كالمناطق المجهولة التي لم تذرعها أقدام الرحالة المستكشفين، ولم ترفع سجف الغيب عن أبهائها وممراتها، ميدانًا من ميادين البحث جعلته عوامل جغرافية خاصة، كما جعله ثقل يد السياسة المقومة أعمق وأبعد غورًا من أي ميدان آخر، ومن ثم كان من الضروري أن يسلك الباحث سبلًا جديدة غير التي اعتاد أن يسلكها لعلاج الموضوعات العسكرية والبحرية في أي ميدان آخر، إلى حد أنه كان عليه أن يتقبل الكثير من مراحل النظرية البحرية اليابانية كما هي كلها، أو أن يغفلها كلها، على خلاف ما يحدث عندما يبحث العقيدة البحرية لدولة من الدول البحرية الأخرى.

ولمثل هذا الاقتراب الدراسي أهميته الخاصة عندما ندرك أن الفكر البحري الياباني يختلف اختلافًا بينًا عن قرينه في العالم الغربي، ولا يمكن أن توصف الآراء اليابانية عن القوى البحرية، ولا أن تعرف بأسلوب المصطلحات الفنية العادية، وقد أسيء في الغالبية تفسير لُب استراتيچية وتكتيكات طوكيو بسبب أن الذين بحثوا هذا من غير اليابانيين قد تأثروا بالآراء الغربية، وكان من الطبيعي أن الباحثين عن هذا في الولايات المتحدة وأوروبا يدرسون الاتجاهات والنوايا اليابانية طبقًا للأصول التي تُعتبر منطقية معقولة في بلادهم، على حين أن الكثير من هذه الأصول الغربية إما

أنها لم تخطر للعقل الياباني قط، أو أن تكون قد تركت جانبًا وأغفلت، لأنها لا يمكن أن تطبق في الشرق الأقصى.

وهكذا نستطيع أن نقول بأن عمل المفكرين من غير اليابانيين لا يمكن أن يُعطي صورة صحيحة للفكر البحري الياباني، ولايمكن كذلك أن تعرض تقديرًا غربيًا وتفهمًا صحيحًا للنشاط البحري الياباني، كما أنه – في الواقع – لا يوجد مثل هذا اللون من الدراسات الصحيحة المنطقية.

ومعنى هذا أن أساليب اليابانيين للقتال في البحر قد ووفق أو لم يوافق عليها تبعًا لمدى انطباقها أو عدم انطباقها على العقيدة الغربية. ويوجه النقد عادةً للناس لا للمبادئ، وهكذا كانت العادة اعتبار اليابان – بالنسبة للطابع الأمريكي أو الأوروبي – دولة بحرية مستقيمة الاتجاه في صلابة وقوة وعنف، واعتبار أمراء البحر اليابانيين أنهم يعملون طبقًا للأسلوب وفي نفس الاتجاه، ومن ثم يُلام أميرال ياباني لأنه سار طبقًا لنظام العمل الذي أملته عليه حكومته والتي كانت بدورها تضع موضع التقدير والاعتبار الأحوال الجارية في الشرق.

وهكذا كانت أوجه الخلاف أو التباين بين التفكيرين الياباني والغربي غامضة مُبهمة في ضوء الدراسات الفردية التي قام بها الكُتاب الغربيون، وكانت العادة أن يصحب النقد بالقول بأنه ربما كان العمل الذي ينقد صحيحًا في ضوء الأوضاع الخاصة التي كانت قائمة يوم ذاك، ومن ثم كانت الدائرة تدور في هذا التوجيه، فإذا فشل أميرال ياباني في منع فكاك أسطول العدو بسبب انشغال الأميرال بحراسة سفن نقل الجنود فسر هذا على أساس أنه كان على الأميرال واجب حراسة سفن النقل. ولذلك فهو لا يستطيع منع فرار أسطول العدو.

وفي ضوء تقدير النظريات الغربية من وجهة نظر طوكيو بدأت الأمم تعتمد في بحوثها على تقبل أن الأسطول الياباني يعمل دائمًا بطابع تقليدي، فمثلًا يعمل دائمًا للوصول إلى اشتباك حاسم لأول فرصة تسنح له، على حين أن هذا كان دائمًا الشيء الذي لا يريده الأميرال الياباني.

ولو كانت السلطات الغربية قد تحرت واستطلعت النظرية اليابانية لا الإجراء الياباني، ولو كانت قد تقصت الأصول اليابانية لا أولئك الذين اتبعوا هذه الأصول لكانت قد ألقت بالكثير من الضوء على موضوع البحث.

والواقع أنه كان من الصعب اتباع مثل هذه السبيل في الولايات المتحدة وبريطانيا؛ فالناس في هذه البلاد أو تلك – تبعًا لكراهيتهم الاحتفاظ بجيوش كبيرة العدد – اعتمدوا اعتمادًا كاملًا على سفن الأسطول بأمل هزيمة أعدائهم في البحر، ولم يكن في استطاعتهم أن يتقبلوا أي نقاش جدلي يستهدف إيضاح إمكان مقابلة اليابان بقوة في جبهات برية بعيدة. ومع هذا فلم يكن ثمة معدى من هذا القرار النهائي عندما ندرس العوامل العادية التي ترتبط بالقوة البحرية، وعندما ندرك الخلاف والتباين بين النظريات اليابانية والنظريات الغربية.

وتستقر العوامل العادية في الآراء الغربية عن القوة البحرية من دراسة النظريات البحرية للولايات المتحدة وبريطانيا من جانب، وللدول الأوروبية الأقل قوة في البحر من جانب آخر؛ ففي العقيدة الإنجليزية الأمريكية تحتل المعركة البحرية الحاسمة وضغط الحصر البحري المكانة الأولى، ولكن في فرنسا ثم في ألمانيا بعد ذلك تركز الاهتمام حول تدمير الأسطول التجاري وإضعاف أسطول العدو بعمليات ثانوية، وباستخدام

أسلحة خاصة مثل الطوربيد والقنبلة، وبالاعتماد على التكتيكات التي يمكن أن تؤدي إلى تدمير الأقسام المنفصلة المتوزعة من قوات العدو الكبيرة العدد.

ومع أن وسائل الغرب في الحرب البحرية تجمع بين التكتيكات التي تستخدمها الدولة التي تتوافر لها القوة الأكبر وتلك التي تستخدمها الدولة التي لا يتوافر لها إلا القوة الأقل(*) ، مع هذا فإن كل النظريات للقوة البحرية كانت موضع نقاش ودراسة واسعين في كل بلاد أوروبا وأمريكا، وخرجت إلى الضوء مؤلفات كثيرة عنيت بدراسة الدفاع كما عنيت بدراسة التطورات المؤدية للمعركة الحاسمة.

وأطلق إعلان الحرب، الحركة في عدد من القوى كانت واضحة مفهومة، وفي سنة ١٩١٤، وفي سنة ١٩٣٩ أيضًا، اتخذت مجموعات سفن المطاردة الإنجليزية مواقعها المُحددة المُقدرة من قبل في ضوء اعتزام الألمان القيام بمهاجمة سفن النقل الإنجليزية التي تجيء بالمتاجر من وراء البحار، وفي كلتا الحربين عملت البوارج الإنجليزية لاجتذاب أسطول العدو للمعركة الحاسمة، وعندما قامت الأزمة في المحيط الهادي أرسلت القوة البحرية الأمريكية إلى جزر هاواي وأمرت بالتأهب للمعركة تبعًا لمجرى الحوادث، وفي كلتا المناسبتين فرض الحلفاء حصرًا بحريًا، وخطوا الخُطى المؤدية لتدمير السفن التي تُغير على سفن نقل التجارة.

***

(*) يُقصد هنا أن النظريات التكتيكية تبعاً لمرونتها واتساع آفاقها تمكن من العمل عند ما تكون الأفضلية في جانب الدول التي تتوافر القوة الأكبر في جانبها، كما تسمح لها بالعمل إذا لم تكن الأفضلية في جانبها، وكانت هي الدولة الأقل قوة. (المترجم).

وقد يبدو في التحليل الأولى أن هذه النظريات الواسعة المدى تتعارض مع النشاط البحري لليابان، ففي الحرب اليابانية ضد الصين (١٨٩٤ – ١٨٩٥) وفي حربها ضد الروسيا (١٩٠٤ – ١٩٠٥) أوضحت اليابان أنها تهدف لخوض غمار معركة بحرية حاسمة، ولكن في هاتين الحربين وفي حربها ضد الصين – الحرب التي قامت واستمرت دون ما إعلان للحرب – أوضحت اليابان أنها قد فهمت أهمية الحصر البحري، ولكن في الصراع الرتيب الذي بدأ يوم ٧ من ديسمبر ١٩٤١ لم تتجنب اليابان القتال بالأسطول فحسب، بل ويبدو أنها قد فعلت القليل في الحصر البحري أو ضد الحصر البحري؛ ومع هذا فإننا لو تتبعنا نشاط اليابان في سنة ١٩٤١ – ١٩٤٢ مرتبطًا بأعمالهم السابقة لاستطعنا أن نرقب عددًا من الأصول التي لها أهميتها وبخاصة عند ما تُقارن بأعمال أخرى لها صلاتها بتاريخ اليابان وبسياستها القومية.

والعائق القوي الذي تلقاه في هذا النقاش الجدلي حول اتجاهات النشاط البحري الياباني هو أننا عبثًا نحاول الوصول إلى صياغة كاملة للنظرية اليابانية عن القوة البحرية من قلم كاتب ياباني ذي شهرة يمكن أن تدلل أو تُبرهن على هذه الأصول التي نقدرها نحن نتيجة لدراستنا المقارنة.

ولما كانت الفكرة عن الاستخدام للقوة البحرية إنما تخرج في الغالبية من التسجيلات ومن التحليل للنشاط البحري، كان من الأهمية أن نذكر هذا النقص، وكان هذا النقص بدوره يستحق التعليق.

وترجع أسباب نقص هذه المؤلفات إلى عوامل سيكولوچية وإلى أخرى سياسية؛ فمن الناحية السيكولوچية يمكن أن نصف العقل الياباني بأنه عقل موضوعي لا تصوري أي عقل يعمل تبعًا لموضوع قائم فعلًا؛ وفي

وقت السلم يستطيع أي كاتب أمريكي أن يُناقش ويدرس ويبحث مشكلات الحرب في المحيط الهادي، كما يستطيع أي باحث بريطاني أن يكتب عن الأسلوب الصحيح للقيادة في البحر المتوسط، ويمكن لأيٍ من الاثنين أن يكتب بحثًا ضافيًا تفصيليًا يفترض فيه قيام الحرب بين فرنسا وإيطاليا أو بين ألمانيا والروسيا، ولكن الياباني على العكس لا يُعنى إلا بما يهمه مباشرةً؛ وعلى حين أن الباحث الغربي يطرق في بحثه الأسلوب الأكاديمي مركزًا كل اهتمامه على العوامل البحرية وحدها؛ فإن الكاتب الياباني يجد أن من الصعب أن يتخلص من ضغط مؤثرات السياسة القومية على كل ما يعرض له بالبحث والدراسة، وكقاعدة تكشف عن حقيقة هذا فإن اليابانيين لم يستطيعوا بحث الموقف في جزيرة چوام(*) دون ذكر أنها مثار تهديد لبلادهم وأنها تشكل خطرًا يجب إزالته.

ولقد اعتبر – من الناحية السياسية – أن إصدار أي مؤلفات جدية تكشف عن النظريات التي تتقبلها اليابان وتستخدمها يتعارض مع السياسة اليابانية، وسندرك في صفحات قادمة أن التخطيط البحري الياباني كان موجهًا ضد مناطق معينة وضد أعداء مُعينين وأنه كان تخطيطًا اعتدائيًا.

ولما كانت البلاد المُقدر أن تكون ضحية للاعتداء الياباني تقدر الكلمة المطبوعة كان من الممكن أن تثير الدراسات المطولة التي تصف الأسلوب والوسائل التي ستستخدمها اليابان يوم .. وبعد يوم .. ٧ من ديسمبر سنة

(*) چوام Guam إحدى جزر ماريانا في الباسفيك الغربي – محطة بحرية، مساحتها ٢٠٦ أميال مربعة، سكانها ٥٩.٠٠٠ عاصمتها آجانا، وهي حالياً القاعدة الأساسية لقيادة القوة الجوية الاستراتيـچية وتخضع إدارياً لوزير داخلية الولايات المتحدة (ويبستر ص ٦٤٢، ذى وورلد الماناك سنة ١٩٦١ ص ٢٧٦) (المترجم).

١٩٤١ جزءًا بين الديمقراطية أكثر بكثير مما يمكن أن تثيره البحوث التي تقوم على أساس جمع المعلومات من هنا ومن هناك نتيجة دراسة نشاط اليابان في الماضي. ولما كانت الولايات المتحدة وبريطانيا بدورهما دولتين مسالمتين ولا تخطيط اعتدائي لهما يجب إبقاؤه سرًا، لم تكن هناك أي نظريات بحرية يضر الكشف عنها بأمنهما وسلامتهما، فضلًا عن أنه لم تكن هناك الرقابة التي تحد من هذا وتُعطله.

وهكذا فإن اتجاه اليابانيين لقصر تفكيرهم على جزء العالم الذي يعيشون فيه، ثم لتحريمهم الكتابة في الموضوعات التي تكشف عن أفكارهم الحقيقية، فإن هذا وذاك قد سببا قلة المؤلفات (العلمية الفنية عن القوة البحرية والعقيدة البحرية).

ومما يدهشنا أن اليابانيين في الواقع لا يهتمون بالمسائل البحرية إلا في فترات الحرب، وقد أكد لي هذا سنة ١٩٣٣ مسئول ياباني كان يُراسلني، وبالتبعية فإن المؤلفات الخاصة بالموضوعات البحرية لم تكن تلقى سوقًا رائجة، وكانت مثل هذه المؤلفات التي يكتبها مؤلفون من رجال البحر وما تنشره الدولة من وثائقها الرسمية يعتبر سرًا وتصدر منها طبعات محدودة، ولقد قيل للكاتب أنه لم ينشر في اليابان أي كتاب عن معركة چتلند(*) بالرغم من أن هذه المعركة البحرية لم يكتب عنها الإنجليز والألمان وحدهم، بل كتب عنها المؤلفون الفرنسيون والطليان الدراسات الطويلة الضافية.

(*) چيتلند Jutland: شبه جزيرة في شمال أوروبا هي التي تكون الأرض الأساسية للدانمارك، والاسم في اللغة الدانمركية Jytland، وچتلند معركة بحرية حدثت بين الإنجليز والألمان سنة ١٩١٦ في مضيق سكاجزاك قرب شبه جزيرة چتلند (المترجم) مُعجم ويبستر سنة ١٩٥٦ ص ٧٠٦.

ولم يصدر في اليابان قبل سنة ١٩٣٥ كتاب يشبه كتاب السفن المقاتلة لـچان Jane's Fighting Ships(*)، وعندما صدر مثل هذا الكتاب في اليابان بعد سنة ١٩٣٥ صدر في أجزاء وكان نجاحه قليلًا(١).

وكانت المقالات الخاصة بالمسائل البحرية والتي تنشر في المجلات الفنية قصيرة عادةً، وقد صدرت كذلك بعض الكتب المصورة ولكن لا يمكن القول أنها تعتبر مساهمة ذات قيمة في الفكر البحري.

وتتضح نفس الصورة في المجلات البحرية اليابانية، وقد بدأت واحدة منها بعنوان الأسطول تصدر بعد انتهاء الحرب الروسية اليابانية لتتعطل بعد سنوات قليلة، ثم أعيد إصدارها سنة ١٩٢٦ ولكنها توقفت عن الصدور ثانية بعد قليل، وكانت المجلة البحرية اليابانية ذات الصدارة: البحر والجو بدائية الموضوعات مثلها مثل أوراق المعهد البحري للولايات المتحدة، مجرد دراسات أولية، وكانت المجلة تترجم كل ما يصدر في المؤلفات الأمريكية فحسب، وكانت تعالج الموضوعات بنفس الأسلوب

(*) السفن المقاتلة نشرة سنوية تصدر للتعريف بالسفن البحرية الموجودة في العالم إلى غاية ما هو مُعلن عنها من سرعتها وحمولتها وقوة مُحركاتها وتسليحها، وتصدر نشرات مماثلة عن الطائرات وعن أسلحة القوات البحرية، وتصدر هذه النشرات في أكثر من طبعة في بريطانيا والولايات المتحدة وتطبع نشرة في باريس بالفرنسية وأخرى إيطالية تصدر بروما. (المترجم)

(١) صدر كتاب Naval Pocket Annual, ١٩٣٥ بطوكيو وقيل أنه سيصدر في ستة أجزاء الأول عن الأسطول الياباني وقد تأجل إصداره، وكان من المقرر أن يكون الجزء الثاني عن الأسطول البريطاني، ولكن الذي صدر فعلاً كان الجزء الثالث الخاص بأسطول الولايات المتحدة.



ماثيو كول – بريث بيري

(١٧٩٤ – ١٨٥٨)

فاوض لعقد أول معاهدة بين الولايات المتحدة واليابان

والفكرة، وقد أصدرت على سبيل المثال عددًا خاصًا عن الطرادات وآخر عن المدمرات، وقدمت فيهما كل سفن أساطيل العالم من هذا الطراز ولكنها لم تقارن بينهما إلا من ناحية السرعة وقوة المدافع وما إلى هذا[١]، ولم ينشر الكتاب الياباني عن چتلند حتى سنة ١٩٣٩، وعندما صدر في أجزاء كان ترجمة مختزلة لكتاب الليفتينانت كوماندر فروست الذي صدر في أتابوليس سنة ١٩٣٦[٢].

على أنه توجد في ميدان الكتابات الشعبية عن البحرية بعض الكتب والمقالات، ومثل هذه الكتابات مسألة عادية في البلاد الأخرى ولا تقابل في العادة بتقدير جدي من جانب القراء، وعندما تنشر مثل هذه الكتابات في الولايات المتحدة أو في بريطانيا لا يكون لها أي أهمية سياسية. وعلى سبيل المثال لا الحصر صدرت في بريطانيا في الجزء الأخير من القرن التاسع عشر مجموعة من المقالات تحدثت عن حرب قادمة بين الروسيا وإيطاليا، ولم يتم هذا التنبؤ فحسب، بل إن إيطاليا والروسيا حاربتا عدوًا مشتركًا في سنة ١٩١٤ وفي سنة ١٩٤١.

ومن الجلي الواضح أن المؤلفات والدراسات لا يمكن أن تقدم ما يتعارض مع سياسة الحكومة اليابانية وما يضاد تخطيطها العسكري ولا يمكن أن تكشف عن أي حقيقة من حقائق هذا التخطيط، ولا أن توضح أية نظرية من نظرياتها السياسية أو العسكرية، بل ولا يمكن أيضًا أن تتبع اتجاهات الغرب في مثل هذه الشئون، وقد نستطيع إدراك هذه الحقائق

(١) Sea and Air, Tokyo, Destroyer Number, September ١٩٣٥; Light Cruiser Number, November ١٩٣٥.

(٢) Sea and Air, Tokyo, Jan-Nov. ١٩٣٩.

عندما نراجع بعض ما جاء في هذه الدراسات والمؤلفات، ففي كتاب اشيهاروا Ishimaru الذي وسم بعنوان يجب أن تحارب اليابان بريطانيا جاءت بعض عمليات بحرية يمكن أن تحدث في جزر الهند الشرقية، وبرزت الأهمية التي للسلاح الجوي تبعًا؛ لأن شيئًا لم يذكره المؤلف عنه في كتابه[1]، وفي كتاب كينوكي ماتسو Kinoaki Matsuo: كيف تضع اليابان تخطيطها للنصر؟ لم يغب الحديث عن الطائرة بل أكد المؤلف تحطيم أسطول الولايات المتحدة بواسطة الغواصات في معركة تقليدية تتبع النظم القديمة[2].

ومثل هذه المؤلفات لا تقدم إلا القليل من المعلومات الجديدة للذين قرأوا كتابًا مثل كتاب: هكتور بايووتر الحرب في الباسيفيك[3] وقد صدرت لكتابه طبعة إنجليزية، أو مثل الكتاب الذي صدر في الولايات المتحدة من قلم دينجلر وجاري في نفس الموضوع الذي كتب فيه بايووتر كتابه[4].

على أن هناك دراسات بحرية يابانية تعتبر دراسات خاصة سرية، ولا شك في أن اليابانيين قد عنوا عناية كبيرة بمعركة چتلند ولكن دراساتهم عنها قد بقيت مغلقة مصونة في الخزانات السرية على مثال ما يحدث بالنسبة للدراسات التي تعد لهيئات أركان الحرب في لندن وواشنطون، ولكن معركة چتلند درست وأعيدت دراستها في بريطانيا والولايات المتحدة

---

(١) Lieutenant Commender Tota Ishimaru. I.J.N., Japan Must Fight Britain, Translated by Capt. G. V. Rayment, C. B. E. R. N. (ret'd) (New York, ١٩٣٦).

(٢) Kinoeki Matsuo, Japanese Naval Intelligence, How Japan Plans to Win (Boston, ١٩٤٢).

(٣) Hector C. Bywater, The Great Pacific War (Boston and New York, ١٩٣٢).

(٤) Sutherland Denlinger and Charies B. Gary (Lieut. Com. USNR), War in the Pacific (New York, ١٩٣٦).

للدروس الموضوعية التي يمكن استخلاصها منها، الدروس التي يمكن تبعًا لتفهمها تمامًا تطبيقها في أي، بل وفي كل معركة بحرية أخرى في المستقبل، واليابانيون أكثر اهتمامًا بالدروس التي يمكن أن ينتفعوا بها مستقبلًا وهذه حقيقة تكشف عنها طبيعة احتفاظهم بسرية مثل هذه الكتابات.

* * *

وهكذا يتضح لنا أنه كان من غير الممكن أن يبرز في اليابان رجل كماهان أو كوربيه، أو كاستكس؛ أو جروس، أو ما نفروني اللهم إلا في طابع محدود العلانية لا يعرفه القراء من عامة الناس، ولقد ترجم اليابانيون كتابات ماهان ودرسوها ولكنهم لم ينشروا شيئًا من كتاباتهم البارزة الأهمية عن القوة البحرية، ولم يعنوا كثيرًا بمناقشة ماذا يمكن أن تقوم به أساطيل يفرضون وجودها في ظروف نظرية مفترضة هي الأخرى حتى يمكن أن يخرجوا بما يمكن أن تفعله سفنهم في ظروف معينة، وكان من الواضح أنهم يعتبرون أن مثل هذه الدراسات ليست بالبحوث الفنية الأصيلة.

على أن الباحث الذي يُعنى في بحثه بالتفكير البحري الياباني لا يلبث أن يتعطل بما هو أكثر من قلة المؤلفات اليابانية من قلم بحريين مسئولين، فالمؤلفات التي يمكن أن يصل إليها الباحث تثير بدورها مشكلة بسبب صعوبة اللغة، الأمر الذي يشكو منه المتعلمون اليابانيون بخاصة، وعلى وجه التحديد يوجد كتاب للأطفال عن الأسطول مطبوع بأحرف كبيرة دون تعقيد، ومع وجود مجلة للدراسات البحرية الأولية تظهر محررة بحروف يابانية - صينية مع تفسيرات وشروح وتعليقات، تصدر مجلة البحر والجو دون أي موجه لتيسير نطق الحروف التي تكتب بها مما يحول

دون تفهم القراء لما فيها من دراسات، والكتيبات التي تصدر لتثقيف الضباط البحريين المتقاعدين ولبعض الضباط العاملين تستخدم في الواقع بعض الكلمات والجمل العامية الشعبية، فضلًا عما في اللغة المستخدمة من تعقيدات تعطل الترجمة وتجعل من الصعب - عند نقل الكلمات إلى لغة أخرى - إبراز ما يقصده الكاتب الياباني أصلًا، وهكذا يضطر المترجم إلى إغفال الأفعال المركبة وإهمال بعض الجمل، بل وأحيانًا بعض الفقرات عندما تبدو له وكأنه لا معنى لها؛ ثم إن الذين ليسوا على دراية تامة بطبيعة العمليات اليابانية لا يستطيعون اختيار الاصطلاح البحري المناسب، على أن هذا لا يعطل من الترجمة في المسائل العامة ولكنه ولا شك له تأثيره الخطر عندما يكون الهدف هو التعمق في أغوار الفكر الياباني.

وقد نستطيع أن نعرض مسألة هامة في التصوير التالي؛ ففي الترجمة الفرنسية للتقرير الشافهي الذي قدمه الأدميرال توجو عند انتهاء الحرب الروسية اليابانية استخدمت كلمات قوات العدو الأساسية[١]، وفي ضوء ما قدمه من بيان عنها كان الواقع أنه كان يقصد القوات البرية كما يقصد الوحدات البحرية، وفي ترجمة لنفس التقرير قام بها كاتب ياباني بنقله إلى الإنجليزية، أغفل المترجم الياباني فقرة كبيرة جاءت في الترجمة الفرنسية كما ترجمت قوات العدو الأساسية بكلمات القوة الرئيسية لمجموعات سفن العدو، ومن الواضح أن كلمتي مجموعات سفن قد أضيفت عند إجراء الترجمة إلى الإنجليزية[٢]، ولكن جاءت كلمتا «مجموعات السفن» في الترجمة

(١) Revue Maritime, Paris, CCI (April-June ١٩١٤), p. ٣٣٩.

(٢) Vice-Admiral Viscount Nagayo Ogasuwara, Life of Admiral Togo (Tokyo ١٩٣٤ p. ٣٩١).

الألمانية الرسمية[١]، وسنعود ثانية إلى هذا التقرير الذي قدمه الأدميرال توجو في صورة محاضرة شفاهية عندما نناقشه بالاتصال بالأعمال العدائية التي أشار إليها.

* * *

ويبقى أمامنا مما يستحق البحث والدراسة بعض المقالات التي كتبها ضباط بحريون يابانيون للصحف الفنية الغربية، فعندما لا تكون هذه المقالات مستقيمة الاتجاه ولا تعرض لأي نظرية يابانية فإنها تكون سياسية الطابع متعرضة لإيضاح فكرة شخصية بحتة، وعلى سبيل المثال لا الحصر كتب ضابط ياباني سنة ١٩٢١ دراسة عن معركة چتلند، فناقش الدور التقليدي للأسطول البريطاني[٢]، وكان نقده للقادة المتضادين ووقفهما القتال عند انسدال الظلام، وفشلهما في تحقيق نصر حاسم، كان هو النقد الذي وجهه الكتاب الغربيون في مناسبات مماثلة للأميراليين اليابانيين ايتو و توجو من قادة الأسطول الياباني.

وقد نستطيع أن نقدم من نماذج المقالات التي جاءت في الميدان السياسي أو جاءت لنفع شخصي بعض أمثلة تختار خبط عشواء على غير هدى ودون ما قصد محدد، وقد كتبت في الفترة التي رفضت فيها اليابان تجديد المعاهدات التي نظمت تحديد قوى الأساطيل للدول البحرية الكبرى. ففي طبعة سنة ١٩٣٥ من الدورية السنوية Brassy's Naval

---

(١) Der Japanische-russische Seekrieg ١٩٠٤/٥, Amtliche Darstellung des japanischen Admiralstabe (Berlin, ١٩١١).

(٢) Lieutenant Commonder Ichire Sato, I. J. N., Brassey's Naval Annual (London, ١٩٢١ – ١٩٢٢), pp. ٧٧ – ٨٤.

Annual أكد الكوماندر س. تاكاجي التزام بلاده بمعاهدة واشنطون برغم تطور الطائرة، العامل الذي كان لفائدة اليابان ونفعها، وفي عدد نوفمبر سنة ١٩٣٤ من مجلة Current History أشار الكبتن (القبطان) ج. سيكين G.Sekine إلى أن استحداث السفن الكبيرة والتقدم البارز في الطيران قد زادا من الثقل في جانب القوة التي تقوم بالهجوم بالرغم من أن الحوادث كانت تبرهن على أن العكس هو الصحيح، وفي عدد يناير من مجلة Foreign Affairs الشئون الخارجية قال الأميرال ك. نومورا K. Nomura بأن النسبة ٥ : ٥ : ٣ لهجوم كبير ضد الشعب الياباني.

وكانت كل هذه العوامل نوعًا من التآمر لجعل الفكر البحري الياباني كتابًا مغلقًا بالنسبة للعالم الغربي، وهكذا نشأت مسألة كيف يكون من الممكن الكشف عن النظريات التي تتبعها طوكيو؟. ولقد اعتقد بأن هذا يحسن أن يفعل بتقدير وتفهم روح اليابان. وبإدراك الخاصية الجغرافية للشرق الأقصى، وباستنتاج كيف تكيفت الاستراتيـچية والتكتيكات البحرية اليابانية، ومع هذه العوامل وبهذا الإجراء نستطيع أن نكتشف عددًا من الملابسات والسبل التي يمكن أن تتبع تحت ظروف معينة، ومن الممكن تقبل هذه كأسس للفكر البحري الياباني.

- ٢ -

ولقد كان الفكر الياباني يرتبط دائمًا ارتباطًا وثيقًا بالعوامل التاريخية – الأيديولوچـية، وتعتبر بيانات العلامة كاتسورو هارا Katsuro Hara من جامعة كيوتو الإمبراطورية، سديدة وصالحة[1]، ولقد كتب أن الفن

(١) Histoire du Japan (Paris, ١٩٢٦).

العسكري هو الفن الوحيد الذي يمكن ممارسته في اليابان منذ القدم فهو أشرف الفنون كلها، ويمارس على حساب غيره من الفنون، ولقد أخذت اليابان الآلات العسكرية للغرب واستخدمتها في حقل أحسنت حرثه.

وتبعًا لآراء كاتسورو، فإن اليابان سواء أسرت الأمم الأخرى بتطورها أم لم تسر فهي لا تستطيع تحديد التقدم الذي يجب أن تحققه، ذلك لأنه عندما يكون هناك أي تقدم فإنه يحدث توقف أو جمود.

ولربما كان لكلمة تقدم في سنة ١٩٢٦ دلالة مجردة مبهمة برغم القرينة التي تكون لها أو المعنى الذي يمكن الخروج به من مغزى الحديث، ولكن عندما ننظر للكلمة ونقدرها في ضوء التاريخ الياباني فإنه من المحال أن نفصلها ونقتطعها عن التوسع الإقليمي بالوسائل العسكرية.

ومن الطبيعي أن هذا التوسع يشع من اليابان عبر الشرق الأقصى، ولقد قورنت صلة اليابان بآسيا على أنها تماثل صلة بريطانيا بقارة أوروبا، ولكن فيما عدا الطابع الجغرافي الخالص فإن الأمرين لا يمكن إعتبارهما يتماثلان تماثلًا صحيحًا، فإن الجزر البريطانية تواجه أوروبا القوية عسكريًا ثم إنها تمتلك إمبراطورية وسلسلة من القواعد البحرية، وتجارة خارجية فيما وراء المحيط تحتاج إلى أسطول كبير لدعمها، فضلًا عن أن يكون في خدمتها، ولكن اليابان لا تواجه أعداء لهم قوة، ولا ممتلكات لها بعيدة ولم يكن عليها في أي وقت أن تحمي تجارتها الخارجية فلا تستطيع بسبب افتقارها إلى قواعد ومحطات بحرية متباعدة أو بسبب حاجتها لأسطول قوي في هذه القواعد البحرية.

ولما لم يكن لبريطانيا الحديثة أي تخطيط لأهداف في البلاد المجاورة

فإنها قد أنشأت قوة بحرية استراتيـچية دفاعية ولم يكن الأمر يتطلب أكثر من القدرة على هزيمة عدو في البحار الفسيحة، وكان من الطبيعي أن هذه الملاحظات نفسها يمكن أن تنطبق على الولايات المتحدة.

على أننا نجد هنا عدة عوامل حرية بالدراسة؛ ذلك لأنها تقف إلى جانب السياسة البحرية الإعتدائية وتضمن نجاحها، ومن هذه العوامل:

* ضعف آسيا واستراليشيا (أي استراليا ومجموعة الجزر المجارة التي حولها) من الناحية العسكرية.

* المسافات البحرية والبرية الطويلة التي تفصل تلك المناطق الغربية العسكرية والبحرية المهمة.

* سيطرة الجزر اليابانية على الساحل الغربي للباسيفيك... ثم.

* العدد الكبير من الجزر القريبة من اليابان والتي تؤدي من اليابان إلى كل المناطق للجنوب منها.

وهكذا فإن روح ساموري(*) الميالة إلى الحرب، وهذه المظاهر العسكرية التي تجتذب الانتباه في المناطق المحيطة باليابان، قد أملت ضرورة استخدام الأسطول كوسيلة لنقل الجنود، أو كوسيلة لحراسة سفن الجنود بدلًا من استخدامه (الأسطول) كقوة مقاتلة في البحر الفسيح، وكانت في الواقع السفينة حاملة الجنود هي التي جاءت باليابانيين أصلًا إلى هذه الجزر التي نقول عنها الجزر اليابانية .

ولقد جاء اليابانيون بحرًا إلى هذه الجزر التي يعيشون فيها الآن،

(*) الساموري Samurai الطبقة العسكرية في اليابان ويحمل هؤلاء سيفين رمزاً لأنهم من الصفوة. معجم ويبستر طبعة سنة ١٩٥٦ ص ١٢٨٩ .

وبعد قتال عنيف لقرن كامل استطاع اليابانيون أن ينتهوا تمامًا من السكان الأصليين أو أن يدفعوهم إلى أقصى الجزر الشمالية من أرخبيل اليابان، وفي هذه العمليات استخدم القادمون الجدد سفنهم الحربية استخدامًا صحيحًا تبعًا للحاجة، أو بمعني أدق، استخدموها لنقل جنودهم المقاتلين، وبينما كانت جيوش الغزو الأساسي تتحرك برًا قامت مجموعات سفن الأسطول بعزل السواحل التي أنزلت السفن عليها قوات برية قويةً وأنزلتها على أجناب قوات العدوً وقد استخدمت اليابان هذا الأسلوب نفسه في الشهور الأولى من الحرب العالمية الثانية.

وهكذا تحرك چيمو – تينو(*)، الذي يشار إليه في تسجيل التاريخ على أنه أول إمبراطور لليابان – من كيوشو أبعد الجزر اليابانية الأساسية للجنوب، تحرك في البحر الداخلي إلى نقطة قرب أوساكا(**) الحالية، ***والواقع*** أنه لمئات السنين كان هذا البحر الداخلي الطريق العسكري لليابان، وفي الحروب الكثيرة بين العشائر اليابانية التي تتولى السيادة أو تستهدفها كانت السفن الوسيلة المحببة المفضلة للتحرك والانتقال، وكانت الأرض هي المكان المختار للمعركة، ولهذا فإن المعركة البحرية التي كانت بين أسطول الميناموتو المكون من سبعمائة سفينة وبين الخمسمائة السفينة في أسطول عشيرة تايرا(***) في دان – نو – أورا قرب شيمونسيكي سنة ١١٨٦ للميلاد(****) لتعتبر حادثًا نادرًا لم يحدث من قبل.

(*) Jimmau Tenno. حكم من ٦٦٠ إلى ٥٨٥ قبل ميلاد السيد المسيح.

(**) أوساكا Osaka مدينة في الساحل الجنوبي لجزيرة هنشو وسكانها ١.٥٥٩.٠٠٠ كإحصاء سنة ١٩٤٧، راجع خريطة المنطقة (معجم ويبستر ص ١٠٣٦).

(***) تايرا Taira ميناء على الساحل الشرقي لجزيرة هنشو.

(****) شمو نسيكي Shimonseki مضيق بين هنشو وكيوهو في الشرق وجزيرة تسو في=

وكنتيجة لهذا الاستخدام للسفن اقتنع اليابانيون بفكرة استخدام السفينة كوسيلة للنقل أكثر من أن تكون وسيلة للقتال، وجاء هنا نفوذ آخر كان معوانًا لهذا الاقتناع، هو النفوذ الذي للعلاقة الوثيقة بين الأرض والبحر، كانت حركة النقل في الغالبية حركة ساحلية وكان الواجب الرئيسي لهذا هو ركوب القوات البرية للسفن. ونزولهم منها إلى الساحل، عمليات شحن وتفريغ للقوات البشرية ولعتاد الحرب، وتكشف التكتيكات البحرية التي صيغت في اليابان أيام القرون الوسطى بوضوح عن هذا التأثير، وقد تضمنت المصطلحات التي يستخدمها رجال البحر للتعبير عن التشكيلات المختلفة للأسطول أثناء الملاحة في البحر الفسيح (قبل المعركة أو بعدها أو في أثنائها) بعض ألفاظ تدل على التفكير في الأرض وتقدير الصلة بين القوات التي في البحر والأغراض التي على البر، ويعبر أحد هذه المصطلحات عن انسحاب الأسطول للخلف في تنظيم خاص ليتخذ أوضاعًا أخرى بالنسبة لجبل قريب على الساحل، أو بالنسبة لقنتين من قنن الجبال تتضحان لملاحي السفن،واصطلاح آخر يعني أن الأسطول قد انتشر ليسد مدخل خليج واسع إما في تشكيل خط، أو في قوس، وأصل الاصطلاح واحد للتعبير عن صورتي التشكيل والفرق في الحروف التي تضاف له في صدره للتعبير عن الخط أو القوس[١][*].

=الغرب ويفصل بحر اليابان عن بحر الصين (المترجم).

(١) Captain Viscount Ogasawara, Historical Essay on the Japanese Navy. Translated in Revue Maritime Paris, (January – March ١٩١٤). pp. ٩٦ - ٩٧.

(*) استخدام الأغراض الأرضية الشهيرة كوسيلة معاونة لإيضاح اتجاهات السير أو تنظيم التشكيلات بالنسبة إليه كالإنتشار (أي اتخاذ التشكيل المفتوح) لليمين من مرتفع من الأرض بدلاً من اجتيازه فوق الأفق، وما إلى هذا هو في الواقع استخدام جاء أصلاً في=

ولما كان القتال في البحر قد اختلف بقدر قليل عن القتال في البر لو كان هناك حقًا هذا الاختلاف، ولما كان اليابانيون في العادة والغالبية يقومون بعمليات هجومية ضد أهداف برية، وضح لنا أن التشكيلات من سفن الأسطول قد أوكل إليها الغرض الأساسي بالتعاون مع القوات البرية التي تخصص لحملات حربية، ووقاية هذه القوات في أثناء إنزالها إلى الساحل ثم في تحركاتها وعملياتها مادامت هذه الوقاية مستطاعة بواسطة مدافع السفن، وقيام سفن الأسطول بسد مدخل خليج يدل على أن هذه السفن تقوم بحماية عملية نقل أو إنزال للجنود داخل المياه الداخلة خلف هذه الستار من سفن الحراسة، ووقايتها من تدخل أي سفن للعدو.

على أننا يجب أن نضيف هنا إلى النظرية الأساسية للأسطول الذي يقوم بالنقل للقوات - أن نضيف نظرية هامة هي نظرية قوة الوقاية، وقد وضعت هاتان النظريتان موضع التقدير واستخدمتا استخدامًا ناجحًا قرابة سنة ١٢٠٠ عندما عبر اليابانيون البحر إلى كوريا وغزوا الأرض هناك.

وقد أثرت محاولات قوبلاي خان إمبراطور المغول لغزو اليابان في سنتي ١٢٧٤ و ١٢٨١ للميلاد، أثرت في الفكر البحري الياباني، فقد احتل المغول جزر تسوشيما(*) ونزل كثيرون من جند المغول بساحل كيوشو، وعلى

=القتال للقوات البرية، أو للقوات التي تعمل ضد أهداف أرضية سواء كانت من أسلحة البحر أو الجو، ولكن هذا الاستخدام الياباني لتنظيم التشكيلات والأوضاع للسفن في البحر بالنسبة لأغراض أرضية كان استخداماً له طابع الاستحداث ولا شك، ويبدو كما يقول المؤلف أنه جاء بسبب تقدير استخدام السفن لنقل وإنزال القوات البرية. (المترجم).

(*) قوبلاي خان Kublai Khan (١٢١٦ - ١٢٩٤) حفيد جنكيز خان كان إمبراطور المغول وتولى الحكم من سنة ١٢٥٩ إلى سنة ١٢٩٤ ميلادية وهو الذي أسس حكم أسرة=

حين كانت المعارك تدور على المناطق المجاورة للساحل تكبدت السفن اليابانية – التي كانت أصغر حجمًا وأقل عددًا من سفن المغول – تكبدت الهزيمة إثر الهزيمة بالرغم من الهجمات الجريئة التي قامت بها السفن اليابانية وبالرغم من أصالة التكتيكات التي استخدمتها[1]، على أن صغر حجم السفن اليابانية أكسبها بعض النجاح في مراحل خاصة من المعارك، ووجه اليابانيون إلى الاهتمام بعامل السرعة، على أن المغول من جانب آخر عمدوا لوقاية أنفسهم بتجميع سفنهم معا في تشكيلات كانت تجعل كل مجموعة من السفن أشبه بقلعة حصينة، ولم يغب هذا التشكيل الدفاعي عن اليابانيين، على أنه يجب أن نذكر هنا بأن أسطول قوبلاي خان كان آرمادا أخرى حطمتها عاصفة عاتية.

وانتقل اليابانيون بعد ذلك للقيام بأعمال القرصنة في نطاق واسع، وفي السنوات التي جمعت قرنين من الزمان أي بين سنة ١٤٠٠ وسنة ١٦٠٠ للميلاد، تعرضت للسلب والنهب سواحل الشرق الأقصى من كوريا (حيث كان اليابانيون قد طردوا منها بواسطة الكوريين والصينيين قبل سنوات طويلة) إلى جزيرة سنغافورة وسواحل سومطره وبورنيو والفليبين، وفي بعض المواقع – حيث كانت أعمال السلب والنهب تجري تحت إشراف وسيطرة الزعماء الإقطاعيين اليابانيين – أنشأ اليابانيون رؤوس كباري للنفوذ للداخل، وكانت هذه سابقة لتلك التي أنشأها اليابانيون في الحرب العالمية الثانية.

وفي سنة ١٥٨٧ أشاد اليابانيون بتويوتومي هيديوشي Toyotomi

=المغول في الصين. معجم ويبستر سنة ١٩٥٦ ص ٨١٢ (المترجم).

(١) Nakaba Yamada, Ghenko, The Mongol Invasion of Japan (New York, ١٩١٦), p. ١٨٥.

Hideyoshi كمنشئ للأسطول الياباني الذي نقل مائة وخمسين ألف جندي بطريق البحر من الجزيرة الرئيسية إلى جزيرة كيوشو ليقضي على ثورة قامت بها عشيرة ساتسوما في جزيرة كيوشو، واتجه تويوتومي بالأسطول شمالًا ليخضع أميرًا قد خرج على سلطة الإمبراطور وفي سنة ١٥٩٢ بدأ حملة لإعادة غزو كوريا، ونظم جيشًا يصل إلى قرابة الثلاثمائة ألف جندي ثم دعا الأمراء الذين تطل ولاياتهم التي يحكمونها على البحر ليعدوا أسطولًا كبيرًا، وأشرف تويوتومي بنفسه على بناء بعض السفن الكبيرة من بينها الكاكان(*) أي سفينة الأميرال قائد عام الأسطول والتي أطلق عليها اسم نيهون مارو.

وكانت سفينة القيادة كما كانت السفن الأخرى سفن نقل أكثر من أن تكون سفن قتال، وكانت الفكرة التي قام عليها بناء هذه السفن المربعة الأطراف تُعنى بعملية القيادة العسكرية على ساحل كوريا أكثر مما تُعنى بعمليات القتال في مضيق تسوشيما أو البحر الأصفر(**).

على أن الطابع الذي أعد على أساسه، والذي أبحرت بمقتضاه سفن القيادة، تدفعنا للعناية بالكثير من التفاصيل وتدلنا على تفهم اليابانيين للدروس من الماضي. كما تدلنا على ما التزموه من الحيطة والحذر، فقد وقفت سفينة القيادة نيهون مارو وألقت عصا تسيارها والسفن التي تقوم

(*) Kakan تعني باللغة اليابانية سفينة القيادة أي السفينة التي يسيطر منها أمير البحر قائد الأسطول على عمليات سفن أسطوله. (المترجم)

(**) Tsushima مضيق بين جزيرتي تسوشيما وكيوشو وكان مسرحاً لمعركة بحرية ضد الروسيا سنة ١٩٠٥، Yellow Sea البحر الأصفر، جناح من المحيط الباسفيكي بين كوريا والصين ويُطلق عليه اليابانيون الاسم هوانج هاي Hwang Hai معجم ويبستر طبع نيويورك سنة ١٩٥٦ ص ١٥٦٦ و ١٦٩٣.

بحراستها، وراء خط دفاعي يتكون من عدد كبير من السفن الصغيرة قد اتصلت معًا بأسلاك قوية، وتستند إلى المراسي السفن التي في كلا الطرفين البعيدين، وكان هذا التشكيل تطبيقًا مرنًا للترتيبات التي قام بها المغول، وزودت السفن التي في وسط خط (كردون) الوقاية بوسائل إطلاق المقذوفات، وبقيت للأمام من هذا التشكيل الدفاعي القوي بعض سفن الاستطلاع لإبقاء العدو تحت رقابة واعية، وكانت سفينة القيادة محوطة بسفن حربية صغيرة، وجاءت في المؤخرة سفن النقل والتموين[١] وكانت بينها سفن خصصت لنقل المياه وأخرى لنقل الخيول، ونظمت عملية تدريع وضع دروع واقية للسفن من رصاصات بنادق ذلك العصر بإقامة طبقات من البوص الهندي.

وفي هذه الحملة ضد كوريا نزل الجيشان اليابانيان الأساسيان بالساحل في الجنوب وتقدما بسرعة نحو العاصمة فأفلحا في احتلالها، وقامت السفن بحماية مواصلاتهما كما حالت دون تدخل سفن العدو، وفي نفس الوقت أنزلت قوات يابانية أخرى للدوران حول جنب الكوريين من نقطة على الساحل الغربي لكوريا، كما قام اليابانيون بتحركات أخرى في البحر الأصفر ضد الصين نفسها.

وفي هذه اللحظات الحرجة ظهر في البحر الأميرال الكوري يي – صن على سفينة مُدرعة هي كوبوكسون أي ظهر السلحفاة يقود عدة سفن من ذات الطراز، واستطاع يي – صن أن يقضي على السفن اليابانية والتي على الساحل الغربي، واضطرت الجيوش اليابانية للارتداد إلى الساحل،

(١) The Navy (Tokyo, April – ١٩١٦) p., ٥.

ولولا المؤامرات في بلاط كوريا – التي ربما يكون اليابانيون أنفسهم قد نظموها – التي أدت إلى طرد الأميرال يي – صن من عمله لكان قد تم إجلاء اليابانيين عن البلاد.

ولم يحاول اليابانيون في هذه الحملة ضمان السيطرة على البحار كعامل تمهيدي للغزو، على أننا نستطيع أن نحكم من الأعمال التي قام بها اليابانيون في تاريخ لاحق على أن الدروس التي خرج بها اليابانيون من هذه التجارب المريرة لم تكن ضمان السيطرة على البحر، بل كانت في بساطة أن سفن النقل وسفن التجارة يجب أن تتوافر لها وقاية مادية أكبر، وخرج اليابانيون من هذه الحملة المريرة بدروس أخرى في المسائل الخاصة بالتنظيم.

وقد يكون أمراء البحر تحت قيادة هيديوشي قد حاولوا تدمير أساطيل كوريا في بداية الحرب ولو فعلوا هذا لكان معناه تعطيل الكوريين والصينيين طويلًا عن القيام بالتدابير التي تُمكن من رد الغزاة، على أنه لضمان النجاة كان على الكوريين أن يتجنبوا المعركة وأن يرتدوا إلى جزرهم على أن يبقوا سفنهم وراء حواجز المياه، ***والواقع*** أن استخدام المظاهر الجغرافية في المناطق الساحلية وللانتفاع بحركة المد والجزر كان من طوابع ذلك العصر[١]، هذا عدا أن كل سفينة يوكل إليها البحث عن الأسطول الكوري فإنها تكون قوة مفقودة ضائعة لا نصيب لها في الدفاع عن سفن النقل لو هاجم العدو هذه السفن التي تحتاج إلى ما يحميها وما يرد عنها غائلة العدو. على أن الشيء الذي يجب أن نذكره هنا أن الموقف السياسي في ذلك الوقت كان مُتعقدًا تشتبك فيه الكثير من الحوادث غير العسكرية

---

(١) Ogasawara,Revue Maritime, Paris, CC. ٩٦.

ولكن الفرد يستطيع أن يُقدر ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم تتدخل المنافسة داخل المعسكر الياباني في العمليات؟، من المحتمل أن الكوريين كانوا يضطرون إلى المطالبة بالسلم قبل أن تستطيع السفينة ظهر السلحفاة تغيير مستقبل الحرب.

***

على أننا عندما نستعيد بذاكرتنا ما حدث للمغول الذين تركوا في الجزر الصغيرة بين كيوشو وتسوشيما نتيجة لفقد السيطرة على البحر، عندما نستعيد هذا بذاكرتنا ندرك أن هيديوشي لا يمكن أن يكون قد غفل عن هذا العامل، والواضح أنه كان عليه أن يختار بين ترك البحر والمغامرة بمقابلة العدو الذي لا يمكن قهره في الأرض، وبين أن تُقبل المغامرة في البحر كي يضمن نجاح عملياته العسكرية في القارة ***والواقع*** أن اليابانيين كانوا قد أخطأوا تقدير قوة العدو في البحر، ومن ثم فقد تلقوا صدمة قاسية من سلاح جديد له خطره، وهكذا كان عليهم فيما بعد أن يبقوا دائمًا عينًا ساهرة على أعدائهم، وأن يستكشفوا دائمًا، وإلى غاية ما يمكن، كل إمكانيات الأسلحة الجديدة.

وقد تطلب الأمر سنوات قليلة كي تثبت النظريات اليابانية أنها صحيحة منطقية وأنها تتبع الأصول السليمة، ففي سنة ١٥٩٧ كرر هيديوشي محاولته ضد كوريا التي كان قد احتفظ ببعض رءوس الجسور أو بعض مواضع لقدم بمعنى أدق على سواحلها، وقد استطاع هذا نتيجة لتآمره مع بعض القائمين بالأمر في كوريا، ويبدو من هذا أن مسألة رءوس الجسور على سواحل العدو كانت قد باتت جزءًا هامًا من تفكير اليابانيين.

وعلى حين كان هيديوشي قد بنى أسطولًا جديدًا كان أسطول كوريا الذي خفضت قوته قد بقي في مرساه دون تطور.

وحدثت معركة بحرية انتصر فيها اليابانيون ولكنه كان نصرًا بلا ثمرة؛ ذلك لأن الكوريين كانوا – منذ الغزو الأول – قد قاموا بتحصين بلادهم بمعاونة الصينيين، ولهذا فإن القوات اليابانية التي كانت في المرة الأولى قد حققت تقدمًا سريعًا لم تستطع هذه المرة التقدم إلا بجهد مُضنٍ، ثم توقفت تمامًا عند العاصمة سيول، وفي مرحلة ما اشتركت القوات اليابانية في اشتباك بحري حدث من الناحية العملية على الساحل، وكان هذا الاشتباك البحري بشيرًا ونذيرًا، وكان رائدًا لكل العناصر التي جاءت معًا لتميز الاعتداء على الدول الغربية في سنتي ١٩٤١ – ١٩٤٢، وبدأ الموقف العسكري في كوريا ينهار، ووضح أن لا أمل في إعادة سيرته الأولى عندما استدعي يي – صن ثانيةً ليتولى قيادة أسطول كوريا، وحقق الرجل نصرًا ثانويًا على الأرمادا اليابانية، ولكن القوات اليابانية التي كان قد أمضها الإجهاد انتفعت من الموقف الحرج الذي يواجهه الأسطول الياباني وأخلت كوريا، وفي أثناء الانسحاب سقط يي – صن على السفن اليابانية التي تنقل الجنود فكبدها خسائر فادحة، وقد دفع حياته ثمنًا لهذا إذ قتل أثناء الاشتباك مع اليابانيين.

وكشف هيديوشي – عند إقراره بأن النكبة ترجع إلى هزيمة أسطوله لا لهزيمة جيوشه – عن أطماع الاستراتيچية اليابانية مُقررًا أن جيوشه في البر والبحر لم تتعاون معًا ولم تعمل القوات لتعاون بعضها بعضًا، وقد علم هذا الدرس القاسي اليابانيين ليس فقط ضرورة إعادة النظر في نظرياتهم البحرية، بل وأنهم يجب ألا يفقدوا الوقت ولا أن يغفلوا عن التدابير التي



منطقة العمليات اليابانية في الحربين العالميتين

تضمن النجاح في البر.

ولكن لو جاز لنا أن نترك جانبًا مسألة بناء السفينة ظهر السلحفاة فمما لا شك فيه أن عملية الغزو الأولى لكوريا كانت عملية ناجحة برغم أن الساحل الشمالي للبحر الأصفر كان مليئًا بالسفن الكورية والصينية التي لم تكن قد قُهرت بعد، إن هيديوشي قد وجه ضربته عندما كان الموقف السياسي والموقف العسكري في الأرض الرئيسية يُبشر بالنجاح ويقف إلى جانب هذا التوجيه، وهكذا كان الموقف أيضًا يوم ٧ من ديسمبر سنة ١٩٤١ (عندما حدثت معركة بيرل هاربور)(*).

وتبع هذا أن أصر حكام اليابان على الانعزال التام عن العالم الخارجي، وقد استكمل قانون تحريم الاتصال بالأمم الأخرى دوره بالقانون الذي حرم بناء سفن يزيد طولها على ٧٥ قدمًا، وبقيت اليابان أمة منطوية على نفسها مُنعزلة عن العالم حتى كانت زيارة الأميرال الأمريكي بيري(**) لها سنة ١٨٥٣ – ١٨٥٤ ففتحت اليابان أبوابها للعلاقات مع الدول.

وفي هذه السنوات الطوال اختفت الإنشاءات البحرية والعسكرية من الناحية العملية، كانت الأولى قد قصرت على السفن التي تخصص للدفاع الساحلي في ضوء هذه العزلة التي فرضتها اليابان على نفسها، وعلى حين أن

(*) بيرل هاربور – مدخل ضيق في الساحل الجنوبي لأواهو إحدى جزر هوايتي على مقربة من هونولولو، وكانت فيه قاعدة بحرية للولايات المتحدة وهي التي تعرضت للهجوم الياباني الفُجائي يوم ٧ من ديسمبر سنة ١٩٤١.

(**) بيري Commodore Perry ماتيو كولبريث (١٧٩٤ – ١٨٥٨) صاحب أول معاهدة وقعت بين الولايات المتحدة واليابان وهو شقيق الضابط البحري أوليفر هذاردبيري الذي هزم الإنجليز في معركة (ليك أبري) سنة ١٨١٣ (وبيبستر ١٠٩١).

الدول الغربية قد شغلت بتقدير ماذا يمكن أن تكون اليابان قد فعلت في هذا الأمد الطويل الذي انسحبت فيه من المسرح العالمي، كانت الحقيقة التي لا شك فيها أن الفكر البحري الياباني قد غط في ثبات عميق لأكثر من مائتي سنة.

وقد تركت اليابان المجتمع الدولي عندما كانت السفن ذات السطح الواحد والشراع galleys تذرع البحر المتوسط جيئةً وذهابًا، وقبل أن تتطور السفن الشراعية المُتعددة الطباق galleon لتكون سفن الخط الأول للقتال، وقبل أن تكون الفرقاطة frigate أبرز ما في الصورة طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر ثم لجزء من القرن التاسع عشر؛ ***والواقع*** أن اليابان قد استيقظت في عصر البخار وعصر السفينة التي تُبنى من الصلب والحديد لا من كتل الخشب، وقد جاء توقيت هذا الاستيقاظ مع قيام المتاعب ضد الدول الأجنبية وقع ضرب كاجو شيما وشيمونوسيكي(*) بقنابل المدافع، ولم تفقد اليابان وقتًا طويلًا لتكيف الآلة الجديدة للغرب لتتمشى مع احتياجاتها الخاصة.

على أن هذا التطور الجديد قد قوى – بدلًا من أن يضعف – النظريات البحرية القديمة، وإذا كان اليابانيون قد اتبعوا أسلوبهم التقليدي، لا يُغامرون خشية أن يفقدوا بعض سفنهم الحربية، فإنهم ولا شك قد أدركوا الآن بأن أي نصر يكسبونه بثمن كبير (غالي الثمن) سيتركهم ضعافًا بإزاء أي قوات تنتفع من هذا الضعف، ولم تعد السفن المقاتلة تُحصى بالمئات، فإن هيديوشي قد أبحر إلى كوريا بعمارة بحرية من سبعمائة سفينة، ولكن الآن

(*) Kagoshima-Shimonoseki، كاجو شيما، مدينة على الساحل لجزيرة كيوشو (اليابان) سكانها ١٧٠.٠٠٠ كإحصاء سنة ١٩٤٧، شيمونوسيكي مدينة على الساحل الجنوبي لجزيرة هونشو (اليابان) سكانها ١٧٧.٠٠٠ إحصاء سنة ١٩٤٧. معجم ويبستر طبعة سنة ١٩٥٦ ص ٧٩٦ و ١٣٤٤.

يمكن أن تُعتبر ستٍ من البوارج أو الطرادات مع عدد مماثل من قوارب الطوربيد قوات بحرية لها أهميتها.

والواقع أنه يمكن من هذه الناحية، يمكن الحكم على صياغة النظرية البحرية اليابانية، فقط يجب أن نُلاحظ بأن هذا الحكم لا يجيء من التوزيع الاستراتيجي لمجموعات السفن ومن الاستخدام الخاص لها فحسب، بل ومن التشكيلات التي تستخدمها أيضًا، وفي هذا الحديث عن التشكيلات يجب أن نخرج من التعميم إلى التخصيص أيٍ من الاستراتيـچية إلى التكتيك، ومثل هذه التعقيدات التي تجدها حتى في أصغر الاشتباكات البحرية هي التي تجعل أنه في الغالب ليس من الحكمة اختيار التفاصيل الفردية في أي معركة ومحاولة الخروج منها بنظريات ما في خطوط عريضة، فالبحر المضطرب وعدم وضوح المرئيات تتدخل في أفضل تخطيط للمعركة مثلها في هذا مثل نقص الذخيرة، وقد ينفض أمير البحر يديه من المعركة وقتيًا لا لينقذ سفنه فحسب بل ليعيد ضبط خط تقدمه وليعدل من الموقف، وعندما يكون خط اتجاه العدو أو تشكيلاته مُحيرة غير واضحة على التحقيق قد يعتقد القائد أن العدو يعمل ضاغطًا هجومه للأمام على حين أنه يكون في الواقع هادفًا لزيادة اتساع المرمى، إن أي تحركات تتم تحت ضغط القتال يمكن أن تتأثر بهذه العوامل أو بعوامل أخرى كثيرة غيرها دون اعتبارها جزءًا من المشروع الأصلي، ومع هذا فإنه عندما تتكرر مثل هذه التكتيكات آليًا في عدة معارك متتالية وعندما يبدو أنها تتمشى وتتكيف مع صورة سياسية استراتيـچية عامة فإنها يمكن أن تكون عقيدة لها طابعها الدائم، وعلى هذا الأساس يمكن في إيجاز تقدير عمليات الأساطيل البحرية لليابان الحديثة.

وبينما اتبع الأسطول الياباني المبادئ القديمة فإنه من جهةٍ أخرى استخدم وسائل خاصة ليتزود بأحدث الأسلحة وليتكيف بالأحوال الجديدة، وكان من الضروري مع تزايد اعتماد الحملات الحربية فيما وراء البحار على أمن وسلامة مواصلاتها أن يُعنى أمراء البحر اليابانيون بمراقبة الأساطيل المعادية، مراقبة فعالة لتعرف تطوراتها في التسليح وفي الاستخدام التكتيكي لوحداتها، وقد اضطر أمراء البحر اليابانيون إلى هذا أكثر من اضطرار هيديوشي لدوام تعرفه لتطورات الأساطيل المعادية.

وقد عنيت طوكيو من جهةٍ أخرى بعامل السرعة؛ ذلك لأنه كان يتمشى مع مجموعة من النظريات التي كانت قد أضحت نظريات تقليدية للأسطول الياباني، كانت سرعة المحركات تعني بالنسبة للإنجليز القدرة على إرغام العدو لتقبل المعركة، وكان الفكر الفني الأمريكي يقف إلى جانب زيادة تدريع السفن الكبيرة (البوارج) ولو على حساب السرعة، وفي السنوات الأخيرة وقف الرأي الأمريكي إلى جانب السرعة مع التدريع، ولكن كان عامل السرعة بالنسبة لليابان يعني القدرة على القتال من مرمى طويل أو التخلص من المعركة، كما كان يعني القدرة على إرغام العدو لتتمشى تحركاته مع التحركات اليابانية للإحداق بجنب أو جنبي أسطول العدو، وقد اقترنت سرعة السفن بسرعة النيران، وقد عني اليابانيون بأسلوب خاص لمدفعيتهم كان يمكن من هذا الانتفاع بعامل السرعة.

وقد مكنت السرعة اليابانيين من أن يترجموا تفكيرهم الاستراتيجي إلى إجراءات عملية في ميدان دنيا التكتيك، وكان معنى هذا أن اليابانيين يستطيعون أن يضربوا بسرعة وأن يرتدوا إذا ما ضغطوا بقوة، وأن يحدوا من مدى مخاطرتهم حسب الظروف والملابسات.

وكان اليابانيون يرون أنه من الضروري في الميدان الاستراتيجي تكبيد العدو الخسائر التي يمكن معها إبقاء العدو بعيدًا عن المياه التي تعمل فيها سفن نقل الجنود، وكان الهدف في الميدان التكتيكي تحطيم جزء من أسطول العدو يضطر معه للارتداد من هذه المياه المُحرمة عليه، فقط يجب تحقيق هذه الخسائر بأقل قدر من المغامرة أو المخاطرة.

ولقد كشفت الحرب الصينية اليابانية ١٨٩٤ – ١٨٩٥ عن التعاون بين الجيوش اليابانية في البر والبحر، وهذا أمر قد شكا هيديوشي طويلًا من نقصه، وكان اليابانيون يعرفون أن الأسطول الصيني الذي يقوده أمير البحر تينج Ting، لا يُعتبر تهديدًا خطيرًا كما يبدو على الورق بسبب عدم الكفاية إن لم يكن لسبب آخر هو أن الذخيرة الثقيلة التي كانت لدى الصينين كانت غير كافية كما كانت غير مؤثرة، وكانت سرعة نيران اليابانيين أربعة أو خمسة أضعاف سرعة نيران الصينيين، وكان اليابانيون يفضلون القنابل الشديدة الانفجار والتي قد لا تسبب ضربات قاتلة على المقذوفات التي تستطيع الاختراق والتي لا تؤثر إلا إذا أصابت مواضع معينة حساسة من السفينة، وكان اليابانيون أيضًا تواقين لوقف العدو في المراحل الأولى للاشتباك أكثر من رغبتهم في تطلب وقت إضافي لإغراق سفن (العدو)، وكلما طال وقت استمرار المعركة عظمت الفرصة التي يستطيع معها العدو أن يتلف أو أن يُدمر سفنًا يابانية.

* * *

وقد بدأت الحرب بقذف سفينة النقل الصينية كاوشنج بطوربيد، والتغلب على عدد من السفن الحربية الصينية الصغيرة، وقد حاول أمير البحر تينج الخروج إلى البحر ولكنه فشل في معرفة مكان خصمه إيتو الذي

كان مشغولًا بحراسة سفن نقل الجنود، على أن الصينيين في غمرة فزعهم من النجاح الذي يحققه اليابانيون في كوريا، وفي خضم خوفهم من أن القوات المتحركة برًا قد تصل متأخرة جدًا، في غمرة هذا وذاك بعثوا بأسطول من سفن النقل عبر البحر الأصفر تحت حراسة مجموعة من سفن أمير البحر تينج، وقد فشل اليابانيون في منع نقل الجنود الصينيين كما فشلوا في منع عودة السفن التي خلت من حمولتها، وإن كانوا قد أفلحوا في الاشتباك بأسطول صيني ونجحوا في وقتٍ ما في الإحداق به.

وقد وصفت هذه المعركة البحرية في كلمات قصار كتبها القبطان ج. داريوس من الأسطول الفرنسي في كتابه الحرب في البحر، جاء فيها[1]:

«وقد اتبع أمير البحر إيتو في غمرة قلقه من عدم كفاية الوقاية لسفنه، ولرغبته في نفس الوقت. الانتفاع من الأفضلية التي توافر له ولا شك في السرعة وفي نيران المدفعية، فإنه – مع إبقائه قولين من سفنه على مسافة تزيد على ثلاثة آلاف متر من سفن العدو – اتبع مسارًا يتغير تدريجيًا، وهكذا فإنه استطاع بالتدريج الإحداق بالجنب الأيمن للسفن الصينية، وضغطت هذه السفن التي في الجناح الأيمن بقوة ومباشرة، فلما أن دارت البوارج الصينية بسرعة لمساعدة السفن الصغيرة التي في الجناح الأيمن اضطرب انتظام تشكيلها وسترت نيران بعض السفن نيران سفن أخرى، وفقد الصينيون المعركة».

ولكن أمير البحر إيتو والذي تلقى عددًا كبيرًا من سفنه بعض الخسائر لم يعمل لاستثمار ما حققه من نجاح، ومع أن ضابطًا يابانيا قد عبر عن رأيه في أن استمرار المعركة لساعة أخرى سيمكن من الاستيلاء على أكبر

(١) ص ١٠٥، وقد ترجم هذا الكتاب ونشره المعهد البحري الأمريكي (أنابوليس سنة ١٩٠٨).

وحدتين في الأسطول الصيني، برغم هذا فإن أمير البحر إيتو نفض يديه من المعركة ورجع بأسطوله إلى قاعدته.

وقد كتب إيتو عن هذا في تقريره: لما كانت مجموعة سفني السريعة قد انفصلت بمسافة طويلة عن القوة الأساسية وحسب تقديري أن الشمس تقترب من الغروب فقد تخلصت من القتال[١].

وقد ذكر ثقة معاصر أن (أمير البحر إيتو قد أنب لأنه لم يُدمر كل الأسطول الصيني)[٢] وذكر ناقد في تاريخ لاحق بأن النصر كان أبعد ما يكون عن الرأي المثالي لنلسون وهو ضرورة تحطيم العدو[٣]. وقال داريوس إن النصر لم يكن كاملاً[٤]، وقد تكون هذه في الواقع آراء غربية، ولكن من وجهة نظر التفكير الياباني فلقد أمكن منع الصينيين من التدخل في تحركات السفن ناقلة الجنود عبر البحر الأصفر، وانصرف الأميرال إيتو لحراسة سفن النقل المُتجهة إلى بورت أرثر واشترك في تدمير القلعة الصينية التي أمكن بسرعة الاستيلاء عليها.

وكانت المعركة الرئيسية النهائية في الحرب أضعاف القاعدة الصينية ويي. هاي. ويي Wei Hai Wei، في عملية بحرية يمكن أن تعتبر النموذج الأصلي الأول لهجوم اليابانيين على جاوه سنة ١٩٤٢، وكذلك بالنسبة لعملياتهم في أي مكان آخر من جزر الهند الشرقية؛ فقد أنزل الجنود على جانبي المواقع الصينية التي أبقيت تحت نيران تدمير بحري مستمر. وبعد أن

(١) Brassey's Naval Annual (London, ١٨٩٥), p. ١٠٧.

(٢) Vladimir, The China-Japan War (Kansas City, ١٩٠٥) p. ١٢٦.

(٣) H. W. Wilson, Battleships in Action (London, n. d.) I, p. ١٠٥.

(٤) War on the Sea, p. ١٠٦.

فشلت المدمرات اليابانية أكثر من مرة في النفوذ إلى الميناء الذي يسده حاجز بري بقصد تكبيد سفن أمير البحر تينج الراسية في الميناء خسائر فادحة، وبعد هذا الفشل الذي غرقت فيه سفينة يابانية كبيرة بنيران القلعة الصينية استطاع الغزاة أن يحتلوا القلعة الصينية نفسها.

وكان الضغط الذي استخدمه اليابانيون في هذه الحرب أكثر بقليل مما هو ضروري لازم لضمان وتأكيد النجاح الذي حققته قواتهم البرية، ولو كان اليابانيون قد حاولوا مزيدًا من الضغط لبدا عملهم وكأنه من غير الحكمة القيام به، ولكان أمرًا غير ضروري ذلك لأنهم فقدوا إحدى سفنهم دون ما سبب في معركة لا ضرورة لها، أو في محاولة لإطالة وقت المعركة دون ما حاجة مُلحة لهذا، على حين أن فقد هذه السفينة المقاتلة قد يكون له تأثيره في مصير سفن نقل الجنود التي تعتمد في سلامتها على حماية هذه السفينة المقاتلة.

والفرق بين هذا التفكير الياباني وبين تفكير الغرب لا يمكن أن يتضح بأفضل مما توضحه مقارنة اهتمام اليابان بألا تعرض وحداتها البحرية إلا لأقل ما يمكن من المخاطرة والمغامرة وكذلك استخدامها للقوات البحرية ضد الأغراض البرية، مقارنةً هذا بتعليقات للأميرال نلسون الإنجليزي، ففي سنة ١٧٩٦ كتب نلسون:

«أنه لا يغضب لشيء غضبه لاستخدام السفن الإنجليزية لمعاونة القوات البرية، فإن واجبه هو تصيد سفن العدو، فإذا ما وجدت هذه السفن في أي مكان مع توافر أي إمكانيات لمهاجمتها فثق بأن هذه السفن تؤسر أو

تحطم حتى ولو كنت أخاطر بسفني»[١].

وعندما بدأت الحرب ضد الروسيا سنة ١٩٠٤ كان الـڤيسكونت إيتو يتولى السيطرة الكاملة على كل العمليات وكانت القوات البحرية تحت قيادة أمير البحر توجو، ومع أنه قبل ست سنوات لم يسمح لجيش أمريكي بالتقدم نحو كوبا إلا بعد الكشف عن مكان الأسطول الأسباني وتحطيمه مع هذا فإن اليابانيين لم يفقدوا أي وقت وبعثوا لتوهم بالسفن التي تنقل الجنود إلى سواحل العدو، وكان هذا العمل من جانب الأمريكان يعني تقليل الخطر الذي قد تعرض له سفن نقل الجنود دون أن يكسب العدو شيئًا من هذا التعطيل للعملية، ولكن الأميرال إيتو لم يكن يستطيع أن يمنح الروس أي وقت فقد يجعلهم هذا أكثر قوة، وكانت في مياه بورت أرثر قوة من البوارج ولكنها لم تكن قوة ذات بال، وكانت في مياه ڤلاديـڤوستك مجموعة صغيرة من الطرادات، وإذا حصل الروس على الوقت بعث القيصر بأسطول بحر البلطيق إلى الشرق الأقصى، وكان من الواضح أن اليابانيين لم يكونوا ليتقبلوا تحقيق نصر على أسطول بورت أرثر يمكن أن يتركهم ضعافًا عن أن يواجهوا الإمدادات الروسية، وكان من الواضح أيضًا أن استيلاء اليابانيين على السواحل التي يسيطر عليها الروس في الشرق الأقصى، فإن هذا سيزيل آليًا أي تهديد بحري ضد اليابان، ثم إن السفن الروسية في مياه الشرق الأقصى لهي أكثر خطرًا مما كانت السفن الصينية، ومن ثم فهي يجب أن تواجه بقوة أكبر، وهنا يجب أن تؤكد بأن الأميرال توجو قد قام بتدابير دفاعية لحماية جيوش بلاده أكثر من أن يعمل في طابع هجومي مع إبقائه

---

(١) Sir Nicholas Harris Nicolas, The Dispatches and Letters of Vice Admiral Lord Viscount Nelson (London, ١٨٤٦), VII pp. lx, lviii.

عيناً على قوات العدو البحرية وحدها.

وقد أثبتت صحة هذه الملاحظة الأخيرة الجملة الأولى في التقرير الرسمي الياباني الذي عرض لبحث النشاط البحري المبكر في هذه الحرب، ولم يكن من الممكن أن يكتب مثل هذا التقرير عن أعمال نلسون أو بيري أو دراك أو بول چونس أو فاراجوت.

«وقام الأسطول الياباني المشترك بتحركات مُهددة ناجحة ضد أسطول العدو مما سبب أن أغفل الأسطول الروسي تمامًا أي فكرة للخروج من بورت آرثر، ولكي يعاون القائد العام توجو عمليات الجيش أصدر أوامره إلى فرق ساين Saien بأن تحول من اتجاهها ولتهدد العدو لمعاونة الجيش الثالث»(١).

ويجعل العدو يغفل الخروج من بورت آرثر أمكن تجنب خوض غمار معركة بحرية، ولكن في نفس الوقت كانت سفن نقل الجنود التي تترك اليابان آمنة مطمئنة لعدم إمكان تعرضها لهجوم أي سفن للعدو، وهذه الكلمات المقتطعة من التقرير لها طابعها المميز بخاصة عندما تقرأ مع الترجمة الفرنسية لخطبة الأميرال توجو السابق الإشارة إليها:

«بمجرد أن بدأت العمليات العدائية وضعت موضع التقدير – في ضوء أوامر جلالتكم – طبوغرافية البحر والبر ومنطقة القتال البري وانتهيت إلى أن قوة العدو الأساسية كانت على جانب بورت آرثر ومن ثم شغلت بذلك الاتجاه لا في اتجاه ڤلاديڤوستك »(٢).

---

(١) United States Naval Institute Proceedings (September-October, ١٩١٤), p. ١٢٨٣.

(٢) Revue Maritime, CCI (April-June ١٩١٤), p. ٣٣٩.

وقبل أن تعلن الحرب في الطابع الرسمي المعروف كان الأميرال توجو قد مخر عباب البحر في اتجاه بورت آرثر، دافعًا أمامه قوة من المدمرات وجدت الأسطول الروسي في مرساه فقذفت بالطوربيد بارجتين وطرادة دون أن تغرق أيًا منها، وقد تقدم الأميرال توجو نفسه – برغم إخطاره بالموقف – في حذر ما بعده حذر في الوقت الذي كان يستطيع فيه القيام بهجوم حاسم يفني العدو، وعندما وضح أن بطاريات مدفعية المدافعين قد تسبب بعض الأضرار للسفن المُهاجمة أمرت هذه السفن بالانسحاب للخلف، وكانت هذه هي الحركات التهديدية المُشار إليها فيما سبق.

وهكذا حتى تلك المرحلة من الحرب قصر إنزال الجنود اليابانيين على الساحل الجنوبي لكوريا، وعندما جاء الوقت لإرسال جيش إلى كوريا الغربية بذلت محاولات جدية لمنع الأسطول الروسي من ترك بورت آرثر بإغراق سفينة في مدخل الميناء، وكانت هذه العملية عملية ناجحة، بدأ الأميرال توجو بعدها تحركات مليئة بالمطامع بإنزال جنود البحرية في نقطة قرب المياه الضيقة فاصلًا شبه الجزيرة التي تقع عليها بورت آرثر عن الأرض الأساسية للشمال منها.

وكانت رأس الكوبري التي أنشأ اليابانيون عندها قاعدة بحرية أمامية تقع في مقابل جزر اليوت، وقد شبكت الجزر معًا بسدادات مانعة لقوارب الطوربيد، كما بثت الألغام في كل خطوط الاقتراب إلى أماكن إنزال الجنود، وشكرًا لوصول أسطول سفن نقل الجنود فقد قطعت القلعة الروسية والقاعدة البحرية عن باقي قوات قيصر الروسيا في منشوريا.

وحصل اليابانيون بالإضافة إلى هذا على قاعدة يمكن منها توجيه الهجوم ضد جيوش العدو الأساسية من الغرب، كما يمكن توجيه هذه الهجمات أيضًا

من كوريا من الشرق، وهكذا أمكن صدق عرض الفكر البحري الياباني في بحث للـڤيس أميرال ڤيسكونت ناجابو أوجاساوارا جاء فيه:

«وبالنسبة لتكتيكات چيموتينو فإن القيام بالتفافات طويلة بالبحر بقصد تحطيم العدو من الخلف – من ساقته – لهو أسلوب يتفق من كل الوجوه مع ما تقوم به أساطيلنا الحديثة»(١).

وعندما أنزل الجنود من السفن في مقابل جزر اليوت وجهوا نحو المنطقة الساحلية الضيقة والتي أرسلت نحوها أيضًا بعض قوارب المدفعية، فلما أن تعطل وصول قوارب المدفعية عن الوقت المناسب تأجل الهجوم البري إلى اليوم التالي، وكانت هذه هي العلاقة بين العمليات البحرية والعمليات البرية في تقدير طوكيو.

وبينما بدأت التحركات اليابانية البرية الأساسية من عدة نقاط على ساحل كوريا – منشوريا، مُتجهة للشمال نحو مكدن، ونحو النصر المُحقق، فإن التحركات المليئة بالأطماع، والتي أشير إليها من قبل، كانت في الواقع بحرية الأهداف برغم توجيهها على البر، إلى غاية ما يعني الأمر ببورت آرثر، ولم يكن من المتوقع أن يبقى الروس في مواقعهم مع هذا الحصار الذي يواجهونه في البر والبحر، ولهذا اطمأن المهاجمون إلى عامل الوقت، إلا أنهم عندما عرفوا بأن أسطول بحر البلطيق قد وجه للرحيل قاصدًا الشرق الأقصى زادوا من ضغطهم، وفي هذه المرة لم يكن هدفهم قلعة بورت آرثر بقدر ما كان هدفهم الأسطول الذي تؤويه هذه القلعة، واليابانيون يستطيعون أن يقدموا الآلاف من الضحايا البشرية مع خسارة الكثير من

---

(١) Ogasawara, Revue Maritime, Paris, CXCVIII (July-September, ١٩١٣), p. ٢٦٠.

العتاد العسكري في سبيل تحقيق غرضهم بالاستيلاء عليه، ولهذا كان الأيسر لهم التضحية بآلاف المقاتلين دون أن يعرضوا سفنهم الحربية للخطر، وقد كتب الليفتينانت چنرال السير إيان هاملتون المراقب الإنجليزي المُلحق في هيئة أركان الحرب للجيش الياباني الأول في تقريره عن الحرب:

«تحدثت طويلًا اليوم إلى أحد الضباط أركان الحرب، وكان حديثنا أساسيًا عن بورت آرثر وتأثير مدافع الهاوتزر عيار ١١ بوصة. ويبدو لي أنهم أصابوا السفن التي في الميناء عدة إصابات، وأنه عندما يستطيع الـچنرال نوجي إغراق السفن فإن بعض رجال جيشه يمكن إحضارهم إلى هنا»[١].

وكلمة هنا هذه تشير إلى نقطة في الداخل تبعد مائتي ميل للشمال، ومن هذا يمكن رؤية أن اليابانيين كانوا يشعرون باستطاعتهم التقليل من جهدهم ضد بورت آرثر عندما يتم تدمير الأسطول الروسي، أي يكون الغرض قد تم حتى ولو لم تكن القلعة قد سقطت في أيديهم.

على أنه قبل أن يحدث هذا خرج الأسطول الروسي من مكمنه، وكانت النتيجة معركة رائعة على مثال معركة نهر يالو بين أميري البحر إيتو وتينج، كان الروس يقصدون الوصول إلى ڤلاديڤوستك وكان قصد اليابانيين أن يمنعوا هروب الأسطول الروسي، وكانت الفكرة وراء الأمرين فكرة عسكرية، فطوكيو لا يمكن أن تنظر إلى محاولة حصار ڤلاديڤوستك دون أن تضع موضع التقدير النتائج الخطيرة، فالمنطقة صالحة جدًّا للدفاع. وكان من المفهوم أن الضباط اليابانيين كانوا يشعرون بفزع من مجرد التفكير في مهاجمة الموقع واقتحامه، وفضلًا عن هذا فلم تكن له قيمة كبيرة بالنسبة

---

(١) A Staff Officier's Scrap-Book during the Russo-Japanese War (New York, ١٩٠٧), II, ٢٧٠ - ٢٧١.

لليابان، فالجزر اليابانية تسيطر على ڤلاديڤوستك وتسد مداخلها، والمواقع التي تستحق المغامرة والتي يُعتبر الاستيلاء عليها كسبًا تقع كلها للغرب – كوريا ومنشوريا – بل وفي أرض الصين نفسها؛ ولكن تمزيق قوات قيصر الروسيا البحرية في بورت آرثر وڤلاديڤوستك كان أمرًا أقل نتائج بل وأقل مظهرًا من الانضمام إلى القوات البحرية الألمانية والإيطالية التي تضاد بريطانيا في هذه الحرب العالمية الثانية. ***والواقع*** أنه بالرغم مما جاء في البيانات اليابانية مُضادًّا لهذا، - هذا فضلًا عن أن البيانات نفسها تضاد التوضيح المنطقي لوجهات النظر اليابانية – فلقد كان الأمر إبقاء الأسطول الروسي ببورت آرثر في قاعدته، وبذلك يمكن أن تمسك به القوات البرية إذا لم يتم تحطيمه بسلسلة من الاشتباكات من البحر على شريطة ألا يواجه اليابانيون إلا أقل ما يمكن من المخاطر.

وتوضح الاستراتيچية والتكتيكات للقوات المتضادة بجلاء أن اليابانيين قد أغفلوا كل العوامل عدا العامل الأساسي عامل محاولة الروس الوصول إلى ڤلاديڤوستك، وكانوا أكثر اهتمامًا بمنع تنفيذ الخطة الروسية هذه أكثر من اهتمامهم بتحطيم أسطول قيصر الروسيا، ولقد كان من الممكن بالعمليات القريبة مع النيران السريعة تحقيق هذا التحطيم والقضاء على الأسطول الروسي في بورت آرثر، ولكن اليابانيين بدلًا من هذا حاولوا تحقيق هذا الغرض بالبقاء على مرامٍ بعيدة وقذف السفن الروسية بقنابل مدفعيتهم، واتخذ اليابانيون تكتيكات المرمى البعيد كقاعدة أساسية لعملياتهم وإن كانوا في نفس الوقت قد قاموا بعمليات عارضة على مرمى قريب فقط تبعًا لنظرية الضرب والهروب وفي هذه العمليات العارضة كانوا يقذفون السفن بأقصى ما في وسعهم من نيران.

وفي معركة البحر الأصفر، ١٠ من أغسطس سنة ١٩٠٤، والتي تلت خروج الأسطول الروسي انصرف الأميرال توجو إلى القتال من مرمى طويل، وكما حدث في القتال الذي انتهى بهزيمة الأميرال تينج اضطرب الخط الروسي ولكن هذا لم يحقق إلا القليل من الكسب لليابانيين، ومرة أخرى أدى اقتراب الظلام وضغط المدمرات الروسية إلى أن يتخلص توجو من المعركة وينفض يديه منها، وأفلحت بارجة روسية واحدة – برغم ما أصابها من تلف – أن تصل إلى كياوشاو، أما باقي السفن الروسية فعادت ثانيةً إلى بورت آرثر.

ولم يكن توجو كنلسون، مؤمنًا بضرورة استمرار القتال حتى يتم تحطيم قوة العدو، ومع هذا فإن الأميرال توجو بعث بتقريره قائلًا: إن القتال قد وجه ضربة قاضية لخطط العدو، وكان النجاح الذي حققه في تقديره أنه منع العدو من الوصول إلى ڤلاديڤوستك.

***

ومع أنه لم تغرق سفينة واحدة فقد عم الفرح أرجاء الجبهات البرية عندما وصلتها أنباء المعركة، وقد كتب السيرايان هاملتون عن هذا يقول:

«**لقد عم الفرح مركز الرياسة، ويقول «سوجبورا»** أنهم يتوقعون سقوط بورت آرثر في مدى ثلاثة أو أربعة أيام، وأن الأسطول سيكون غنيمة باردة ولقمة سائغة للغزاة»[1].

ولم يتجنب الأسطول إفناء العدو لقصد الإفناء وحده فحسب، بل أن الأسطول لم يصر على أن قوة العدو غرضه الطبيعي لأن هذه القوة تطفو على

(١) نفس المرجع ج٢ ص ٩.

سطح الماء، وكأنه كان على تشكيلات سفن العدو أن تتحرك بعيدًا عن قوة اليابانيين البرية حتى تكون غرضًا قانونيًّا لقوات اليابان البحرية، وهنا نجد أن استخدام الطائرات قد أحدث تغييرًا واضحًا في وجهة النظر هذه.

على أنه عندما كانت هذه المعركة دائرة الرحى أسرعت الطرادات الروسية الثلاث التي في ڤلاديـڤوستك، أسرعت بالتحرك جنوبًا آملة أن تنضم لبقية الأسطول الروسي عند تحرك السفن شمالًا، ولكن عندما دخلت الطرادات الروسية بحر اليابان، وعلى مسافة أميال قليلة للشمال من مضيق تسوشيما واجهت قوة بحرية يابانية تفوقها عددًا تحت قيادة الأميرال كانيمورا، وأعاد التاريخ قصته من جديد، حدث القتال من مرمى طويل وعندما اكتشف كانيمورا أن إحدى السفن الثلاث قد توقفت عن الحركة وأن السفينتين الأخريين مع تكبدهما تلفًا كثيرًا ترتدان شمالًا نحو ڤلاديـڤوستك نفض يديه من المعركة.

ولقد انتقد التاريخ الرسمي البريطاني توجو وكانيمورا لإغفالهما القاعدة الأساسية للحرب من أنه ما دامت المعركة قد بدأت فلا يصح إطلاقًا توفير أي جهد لجعل نتيجتها حاسمة[1]، ومع أن هذا يجب أن يكون طابع كل قتال إلا أنه لم يكن القاعدة المثلى في نظام الحرب اليابانية البحرية.

وعندما اضطرت السفن الروسية للارتداد للوراء إلى موانيها تحرك الجيش الياباني ثانية بعزيمة نحو بورت آرثر وكان مفتاح الموقع هو التل ٢٠٣ الذي يسيطر على الميناء والذي يمكن من مراقبة قذف سفن الأسطول بالقنابل،وبعد أن أمكن صد سلسلة من عمليات الاقتحام العنيفة بواسطة

---

(١) H. W. Wilson, Supra, P. ٢٢٤.

المشاة، بخسائر فادحة بلغت عشرة آلاف جندي، بعد هذا أمكن الاستيلاء على التل، كما أمكن وضع نقطة مراقبة المدفعية في قتته، وكان من الممكن إذ ذاك وضع مدافع الحصار اليابانية الثقيلة وتوجيهها ضد السفن الروسية، ومن ثم كانت النهاية تبدو واضحة فقبل ساعات قليلة ستكون السفن الروسية قد دمرت.

وبدأت مرحلة أخرى بعد سقوط بورت آرثر، وأعاد اليابانيون تنظيم أسطولهم وبثوا الألغام في مياه ڤـلاديـڤوستك لمنع السفن الروسية التي في الميناء من الخروج ثانية للتدخل بصورة أسطول البلطيق، الأسطول الذي يعرف رسميًا باسم «**أسطول الباسيفيك الثاني**» والذي يقوده أمير البحر رويدستـڤينسكي.

كان أسطول بورت آرثر قد بات قصة في سجل التاريخ فقد تمت معركة برية كسبها اليابانيون، ومن هنا كان من الواضح أن الأسطول الثاني لن يكون تهديدًا له خطره سيما بعد هذه الرحلة الطويلة من البلطيق إلى الشرق الأقصى.

لقد تعقب نلسون الأسطول الفرنسي الذي كان يقوده ڤيلينيـڤ عبر الأطلانطيق حتى جزر الهند الغربية ثم عاد إلى تراڤـلجار (الطرف الأغر) ليقاتل في معركة حاسمة، ولكن توجو لم يفكر حتى في سبق الروس بالخروج إلى المحيط الهندي ومقابلة الأسطول الروسي في البحر الفسيح بعيدًا عن أية قواعد تستطيع السفن أن تلجأ إليها لو أفلحت في الفكاك من المعركة، ولو كان أمير البحر رويديستـڤينسكي قد بدل من اتجاهه عندما وصل إلى جوار شنجهاي لما كان هناك ما يحول دون عودته إلى أوروبا، وكان الأسطول الياباني حاجزًا دنيمائيًا أكثر من أن يكون حربة لطعن العدو،

ففي العمليات الأولى أمكن رد الأسطول الروسي إلى قاعدة ثم أمكن الاستيلاء على تلك القاعدة بعد ذلك، ولكن في هذه المرة كان القصد إبقاء الأسطول الروسي بعيدًا عن قاعدته، وكلما أمكن تكبيد العدو خسارة كبيرة دون إضعاف مهاجميه أمكن إرباك خطته، ولكن كون هذا الإتلاف قد أنتج إفناء الأسطول الروسي فالواقع أن هذا إنما يرجع إلى أخطاء الروس بأكثر مما يرجع إلى التخطيط الياباني، ولكن مع هذا من الضروري أن نذكر هنا بأن اليابانيين قد قدروا قوة الأسطول الروسي تقديرًا صحيحًا سليمًا ثم وضعوا التخطيط للمعركة التي تحقق الانتصار على هذا الأسطول دون ما إسراف في الجهد أو التعرض للخطر، فكان التخطيط تخطيطًا سليمًا يتمشى مع الاقتصاد في ضوء التفكير الشرقي لا في ضوء التفكير الغربي.

وعندما أبحر توجو لمقابلة العدو فإنه دعا إلى تحقيق نصر حاسم يفنى فيه قوات العدو، وكان هذا حثًا لجنوده أكثر من أن يكون «بيانًا» لغرضه، فإن المحاولة غير المؤثرة ضد أسطول بورت آرثر في المراحل الأولية للحرب صحبت بتلميحات كتلك التي كان يقوم بها نلسون وإن كان قد قصر عن أن تتوافر له جرأة نلسون واندفاعه، وفي خطبة توجو في أعقاب الحرب، الخطبة السابق الإشارة إليها، ناقش الأميرال توجو المعركة الحاسمة ضد رويديستڤينسكي بالطبيعة، وقد ترجمت خطبته عدة ترجمات، ولكن الفقرة التالية مقتطفة من الترجمة الفرنسية، وقد جاء فيها:

«وحشدت كل قوتي في مضيق كوريا، وقد اعتزمت إزعاج العدو بالنيران، ولكن جنودي خاضوا المعركة بشجاعة وشكرًا للعون الإلهي فقد

حققنا نتيجة عظيمة»[١].

وقد يكون توجو رجلًا متواضعًا أراد امتداح جنوده والإشادة بشجاعتهم في القتال، ولكن كان من الممكن أن يفعل هذا بعدة سبل دون أن يشير بكلمة أو بجملة يمكن أن تعني هذه أو تلك اعتزامه الاكتفاء بإزعاج العدو بالنيران بدلًا من تدمير قواته، وعمله في أثناء الاشتباك يدل بوضوح على أن هذه النتيجة العظيمة جاءت من تطورات المعركة لا من الخطة الأصلية، على أنه قد يكون من الضروري أن نذكر هنا أسطولًا سيئ القيادة كأسطول أمير البحر رويدستـڤينسكي ما كان ليأمل في البقاء واحتمال الهزيمة في مياه تبعد مئات الأميال عن أقرب ميناء صديقة أو محايدة.

وقد نستطيع أن نجد في تصريحين سابقين للأميرال توجو ما يكشف عن اتجاهات تفكيره في الوقت الذي حدثت فيه معركة تسوشيما:

«**إن أهم عامل في المعركة هو الحرص، ولقد حدث مرارًا في الماضي أن خلفت المعارك وراءها من الحوادث ما يأسف له القادة ويلومون أنفسهم بسببه»**[٢].

ويمكن أن ننظر في ضوء هذا التصريح إلى مراحل المعارك، المراحل التي قصر فيها عمل سفن ايتو وتوجو وكانيمورا على التراشق بالقنابل من مرام بعيدة.

وكان التصريح الثاني يقول:

---

(١) Revue Maritime, CCI, ٣٤٠.

(٢) Ogasawara, Life of Togo, P. ٣٢٦.

«لو كان على سفينة غير مدرعة أن تسكت نيران سفن العدو بزيادة عنف نيرانها هي، كان من الممكن أم يحدث هذا عمليًا لو كانت السفينة هي أقوى السفينتين تدريعًا»(١).

على أن هذا التصريح الثاني بالإضافة إلى كونه تعليقًا على اهتمام اليابانيين بسرعة النيران وقوة المدافع قبيل المعركة بوقت قصير، فإنه كان «**موضوع عدة محاضرات في البحرية البريطانية**»، وهذا التصريح ينطبق على معركة تسوشيما، ففي هذه المعركة كانت الأفضلية في البوارج إلى جانب الروس وملأ اليابانيون كل الثغرات بالمدمرات الثقيلة التي قال عنها البعض أنها بوارج مستترة في صورة مدمرات(٢)، ولكن كانت تتوافر لليابانيين الأفضلية في السرعة.

وكان الفرق الواضح بين معركة تسوشيما وبين معركتي يالو والبحر الأصفر أنه في تسوشيما قام اليابانيون بمطاردة العدو الذي يحاول الفكاك من المعركة،ولكن في المعركتين السابقتين اكتفى اليابانيون برد العدو عن وجهته دون أن يتابعوا استثمار النجاح الذي أمكن تحقيقه في الأدوار الأولى من المعركتين،وقد تطلبت تكتيكات المطاردة سرعة تحطيم جزء من أسطول العدو وبدأ محاولته للانسحاب، توقفت عمليات السفن الكبيرة، وبدأت المدمرات السريعة تعقب العدو للقضاء عليه.

ويبدو أن اليابانيين في تسوشيما قد استخدموا سلسلة من عمليات المطاردة، تبدأ كل بضرب يعقبه تراجع، وفي نفس الوقت يعملون لتخير مواقع أفضل على خط تقدم الروس فيشتبكون مع السفن الروسية من مرام

---

(١) نفس المرجع ص ٣٢٧.

(٢) Archibald S. Hurd Naval Efficiency (London, ١٩٠٢) p.١٠٦.

بعيدة، وتتوقف العمليات ليلًا لتقوم المدمرات وقوارب الطوربيد بمتابعة الهجوم وحدها، وفي نفس الوقت كان اليابانيون يرتدون شمالًا إلى موقع بين بقية الأسطول الروسي وبين ڤلاديڤوستك ليمكن أن يتقبلوا فيه استسلام بقية أسطول القيصر.

والواقع أن النظرية الغربية تقوم على أساس أن الأسطول الذي يملك قوة المبادأة وتتوافر له أفضلية في النيران يجب أن يتابع الضغط حتى يحقق نصرًا كاملًا، ولكن تبعًا لما ذكر أكثر من مرة من قبل فإن اليابانيين كانوا يتبعون أسلوبًا آخر وكان لهم منطقهم الخاص.

***

والذي حدث أنه عندما أخطر أمير البحر توجو بقوة وتوزيعات الأسطول الروسي[1] فإنه أبحر من قاعدته في جنوب كوريا، في اتجاه شرقي مارا للشمال من مضيق تسوشيما، وبذلك؛ فإنه يستطيع أن (يفتح) قواته في أي اتجاه يجعله بين الروس وبين ڤلاديڤوستك ، وتولى القائد العام الياباني قيادة القسم الأول من الأسطول الذي يحتوي أقوى سفن الأسطول الياباني، وتولى أمير البحر كانيمورا قيادة القسم الثاني الذي يتكون من الطرادات المدرعة، ومع تطور المعركة وضح أن سفن توجو هي التي سدت طريق تقدم الروس، وهنا سمح لسفن كانيمورا التي تقوم بالإزعاج أن تبعد عن الطريق البحري لـڤلاديڤوستك كي تسقط على جنب الروس، أما القسم الثالث من الأسطول الروسي والذي كان يقوم لبعض الوقت

(١) تستند كل المعلومات عن المعركة على ترجمة البلاغات اليابانية الرسمية والتي نشرت في مطبوعات المعهد البحري للولايات المتحدة في يوليو – أغسطس سنة ١٩١٤.

بالاستطلاع في اتجاه الغرب فقد احتشد ليسقط على بعض السفن الصغيرة التي تكون ساقة (مؤخرة) الأسطول الروسي، وبذلك كان هذا القسم الأخير يعمل عمل سفن أمير البحر ايتو، أي أن يقوم بدور «**الراعي**» وبدور «**القاتل**»، ولكن في معركة «**يالو**» سبب قرب القاعدة الصينية أن فشل اليابانيون في تحطيم العدو، ولكن لم يحدث هذا في تسوشيما بسبب افتقار الروس إلى قاعدة خلفهم يرتدون إليها.

وبعد الساعة الثانية عشرة ظهرًا ارتد رويديستڤينسكي الذي كان يمر في الجزء الشرقي من مضيق تسوشيما في اتجاه شمالي شرقي، ارتد في اتجاه شمالي تمامًا، وكان توجو إذ ذاك يقوم بضغط الهجوم في اتجاه جنوبي شرقي، وهنا اضطر بدوره إلى أن ينحرف للغرب ليمنع العدو من المرور من ورائه فيصل ڤلاديڤوستك .

وبين الدقيقة العشرين بعد الواحدة، والدقيقة الأربعون بعد الواحدة أيضًا اتجه نحو الأسطول الروسي اتجاهًا مباشرًا لكي يقوم بحركة التفاف تعود بأسطوله إلى قطع خط سير الأسطول الروسي.

وكان هذا التطور مُظهرًا للحيرة، ومن ثم – وليعكس قلة تقدير توجو لنيران مدافع السفن الروسية – اضطر رويديستڤينسكي لهذا الاتجاه الجديد ولمعرفته بمهارة المدفعية اليابانية أن يدور هو أيضًا للشرق.

وحشدت نيران السفن اليابانية على مقدمة الأسطول الروسي، كان المرمى قصيرًا، وكان من الضروري هنا زيادة المرمى، وبين الدقيقة الخامسة عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين بعد الساعة الثانية تقررت نتيجة المعركة برغم إخفاء دخان السفن، فقد أرغمت السفينة «**سوڤوروف**» التي ترفع

علم أمير البحر «**رويديستـڤينسكي**» أن تخرج من التشكيل، وأصيبت السفينة «**أوسليابيا**» إصابة مباشرة وغرقت في دقائق.

ومع اتجاه توجو للشرق من الروس تحول الأخيرون عن مسارهم واندفعوا للشمال نحو ڤـلاديـڤوستك ، وهنا دار اليابانيون من جديد ليُعيدوا من تشكيلاتهم في اتجاه غربي ليُعطلوا تنفيذ خطة العدو التي يقصد بها الفكاك من المعركة.

وارتد الروس لاتجاه الجنوب الشرقي ثم للجنوب على حين بقي اليابانيون مُتجهين للغرب وبذلك اتسع المرمى بسرعة، «**ومن الدقيقة الرابعة والعشرين بعد الساعة الثالثة غير العدو من اتجاه سيره وضاع في دخان المعركة**»(١).

* * *

وفي المرحلة التالية من المعركة نفذ توجو دورانًا جديدًا في اتجاه الشرق، وكان هذا تكرارًا لتحركاته عبر طريق العدو إلى ڤـلاديـڤوستك ، وكان من الواضح أن كلا الأسطولين يتجهان للشرق، والروس للجنوب من اليابانيين.

وفي الدقيقة الخامسة عشرة بعد الرابعة كان الروس – على ما وصفوا في التقرير الرسمي الياباني – «**في حالة يأس**»، وللموقف بعد عشرين دقيقة أي في الدقيقة الخامسة والثلاثين بعد الرابعة أهميته وطرافته بالنسبة للتفكير الياباني الحربي، كانت الأحوال غير واضحة وتبعًا للرسم التخطيطي رقم ٨ في التقرير الرسمي الياباني يبدو أن «**العدو قد غير سيره نحو الجنوب، وكان**

(١) U. S. Naval Institute Proceedings (July-August, ١٩١٤), pp. ٩٧٠ – ٩٧١.

على مرمى **مجهول**»، ومعنى هذا أن السفن الروسية كانت خارج مرامي مدفعية السفن اليابانية، وتابع توجو سيره نحو الشمال، ويقول التقرير هنا، «**يدور العدو بسفنه في الاتجاه المضاد (أي للجنوب)، وكان هناك بعض الشك في: هل تتجه السفن الروسية لتمر للشرق من السفن اليابانية، أو أنها ستستطيع متابعة الفرار في اتجاه الشمال؟ وللسيطرة على خط سير السفن الروسية (أي لسد طريقها إلى ڤلاديـڤوستك) تابعت المجموعة الأولى من السفن اليابانية (التي يقودها الأميرال توجو) سيرها نحو الشمال**».

وعاد توجو بعد قليل فغير من اتجاهه متحركًا نحو الجنوب للبحث عن العدو، وفي الخامسة مساء اكتشف سفينتين من السفن الروسية الكبيرة ولكنه لم يهاجمها بقوة، وفي الخامسة والنصف عاد اليابانيون فاتجهوا شمالًا، وبدأوا معركة على أساس الاصطدام والانسحاب وحشدوا كل نيرانهم على مقدمة خط السفن الروسية، وكان نصيب البارجة «**ألكسندرالثالث**» نصيب «**اسلیابیا**» ونسفت البارجة «**بورودينو**» وانتهت عمليات اليوم بعد السابعة مساء بقليل عندما غرقت أخيرا البارجة «**سوڤوروڤ**» التي كانت هدف المدفعية اليابانية الثقيلة وقذائف الطوربيد.

* * *

وأوقف أمير البحر توجو عملياته طوال الليل متجهًا إلى نقطة أبعد للشمال متأهبًا ليتابع من صباح غده تكتيكاته وبعث بتقريره التالي:

«**قابل الأسطول المشترك اليوم وقاتل أسطول العدو فأغرق على الأقل أربعًا من بوارجه وكبد باقي السفن خسائر فادحة**»[1].

---

(١) Captain (Kichitaro) Togo, Naval Battles of the Russo-Japanese War (Tokyo, ١٩٠٧), p. ٨٢.

ولم تكن هذه عملية إفناء، ولو كان توجو قد قاتل في مرمى قريب مخاطرًا بأن يفقد عددًا من بوارجه ومدمراته، ولو غير من خطته مُغفلاً محاولته لسد الطريق إلى ڤلاديڤوستك مُتجهًا إلى تدمير الجزء الرئيسي لسفن العدو إن لم يكن كلها، لو كان قد فعل هذا لكانت نتيجة القتال في ذلك الوقت أكبر وأخطر أثرًا، ولكن القائد العام الياباني كان تواقًا أن يترك لمدمراته ولقوارب الطوربيد العمل في أثناء الليل على أن يستأنف من غده مبارزته للسفن الروسية في حرص.

وفي أثناء الليل هوجمت الأرمادا الروسية من كل اتجاه، وهوجمت ليس فقط بالمدمرات التي في صحبة الأسطول الياباني، بل وبقوارب الطوربيد التي في الاحتياطي بجزيرة تسوشيما، وغرقت سفينتان روسيتان ومدمرة.

وفي الصباح التالي استسلمت السفن الروسية التي بقيت من أسطول البلطيق بعد أن أفلتت ثلاث سفن وصلت مانيلا، ونجحت طرادة وثلاث مدمرات في الوصول إلى ڤلاديڤوستك .

ولكن لو كان أمير من أمراء البحر الإنجليز أو الأمريكان يُقاتل في مياهه وفي وقت لم تكن قوارب الطوربيد خطرًا في ساعات النهار، لو كان .. لأصر على أن يُحقق نصرًا حاسمًا في الاشتباك الأساسي، ولكن توجو أبقى الروس خارج ڤلاديڤوستك بثمن في جملته ثلاثة قوارب من قوارب الطوربيد، ثم وزع سفنه على مختلف الخلجان التي تصلح للملاحة ليُغطي سبل الإمدادات إلى الأرض الأساسية بما في هذا طرق الاقتراب الكورية للشمال الشرقي إلى ڤلاديڤوستك .

ووقعت معاهدة الصلح دون أن تكون من حاجة للعمل في الاتجاه

الآخر، وكان توجو وكانيمورا وايتو وهيديوشي وچيموتينو – على ما هو واضح – قد اتبع نفس الطابع العام للتفكير البحري الياباني.

- ٣ -

وفي السنوات التي مرت بين نهاية الحرب الروسية/ اليابانية وبدء الحرب العالمية الأولى أوضح اليابانيون نظرياتهم البحرية في الطابع الذي بنوا تبعًا له سفنهم المقاتلة، وقد عنوا بالسرعة أكثر من عنايتهم بالتدرع وإن كانوا لم يغفلوا ضرورة جعل السفن قادرة على احتمال ضغط قذائف الطوربيد، واهتموا بسرعة النيران كما عنوا بالسيطرة الآلية التي تمكن من إطلاق كل مدافع السفينة في وقتٍ واحد، وزودت بروج السفن بالقوى الكهربية والهيدروليكية لتقليل احتمال تعطلها عن العمل بسببٍ ما[1]. على أن اليابانيين في سنوات تالية لهذا واجهوا نقدًا عنيفًا بسبب الإكثار من المدافع في سفنهم وبخاصة المدمرات والطرادات إلى حد أن هذه الكثرة كانت تزيد كثيرًا عن حاجة السفن، ويبدو أن اليابانيين تبعًا؛ لأنهم كانوا قد وصلوا إلى أقصى مدى لسرعة النيران حاولوا أن يزيدوا من هذه السرعة ومن كمية النيران نفسها بإضافة المزيد من المدافع إلى السفن.

ولكن بقي تفكيرهم التكتيكي والاستراتيجي ثابتًا كما هو لم يتغير، وكان للخطة السياسية العامة الأهمية كلها وقد كشفت الحرب ضد ألمانيا سنة ١٩١٤ عن اتجاهات طابع الاستراتيچية البحرية اليابانية، وفي فجر الحرب العالمية الأولى كان من الممكن أن يظن أي مفكرٍ غربي بأن اليابان كدولة بحرية رئيسية في الباسيفيك ستعنى أول ما تعني بالبحث عن

(١) «Notes on Japanese Navy», Revue Maritime, Paris (July-September ٩١٣).

مجموعة «**جراف ڤون سبي**» الألمانية في الشرق الأقصى وتحطيمها، وهي عندما تفعل هذا تفعله استجابةً للكبرياء القومية من ناحية ولتحرك بحري أولي من ناحيةٍ أخرى، ولكن كان من الطبيعي - في ضوء استقراء النظرية اليابانية - تقدير أن القيادة اليابانية العليا لن تلقى بالًا إلى السفن الحربية اليابانية مُقدرةً أنها لن تتدخل في العمليات البرية، وكان الاستيلاء على القاعدة البحرية اليابانية في تسينجتاو Tsingtau باقتحام بري يستند إلى تدمير بحري، ثم الاستيلاء على العدد الكبير من الجزر الألمانية في الباسيفيك لحادثات كان من الضروري توقعها على أساس تقدير الأمر من وجهة النظر للإجراءات البحرية اليابانية أكثر من تقديرها في ضوء الآراء الغربية عن استخدام القوة البحرية.

ولكي نضع موضع التقدير عدة مسائل متشابهة يجب أن ندرك بأنه يمكن إضعاف الوجود الطارئ للسفن اليابانية في مياه الشرق الأقصى، بل وإفقاده قيمته بالاستيلاء على قاعدة «**تسينجتاو** » على مثال ما حدث من إضعاف «**وي - هاي - وي**»[١] وبورت آرثر وإزالة هذه الأخطار وغيرها؛ وسيكون لإنزال الجنود إلى سواحل المستعمرات الألمانية نفس التأثير الذي كان لإنزال الجنود على السواحل التي يسيطر عليها الروس والصينيون، ولن تكون هناك رغبة قوية للقيام بجولات بحرية واسعة المدى للبحث عن بوارج القيصر الألماني بأكثر مما فعله - بالنسبة لمثل هذا - توجو أو إيتو أو هيديوشي.

على أنه من ناحيةٍ أخرى كان هناك عامل جدير مُلطف يجب أن

---

(١) Wei – Hai – Wai قاعدة بحرية نجح اليابانيون في احتلال قلعتها في حرب ١٨٩٤ - ١٨٩٥.

يوضع موضع التقدير ذلك هو تحالف اليابان وبريطانيا، وعندما أعلنت الحرب كانت البارجةڤون سبي في مياه الباسيفيك، ونستطيع من دراستنا للتاريخ البحري الألماني أن ندرك أن اليابانيين كانت لديهم فكرة عن مكان تجمعها[١]، وكانت حكومة طوكيو ولا شك تحترم دراية الألمان بعلوم البحار ولهذا فلم يكن من الممكن أن تُجازف بإرسال وحدات هامة من أسطولها لمدى بعيد للقيام بمعركة بحرية، ومن الممكن القول بأن تعطل دخول اليابان للحرب كان بسبب الرغبة في معرفة مكان مجموعة سفن ڤون سبي والتحقق من الاتجاه الذي تقصده.

وعندما اشتركت اليابان أخيرًا في الحرب بعثت بمجموعتين من سفنها إلى المياه المجاورة، إحداهما لحماية ووقاية السفن ناقلة الجنود المتحركة نحو كياوشاو والأخرى لتحاصر تسينجتاو[*] وتشترك في العمليات ضد حصونها على السفن التي أرسلت للبحث عن ڤون سبي لم تترك موانيها حتى آخر شهر أكتوبر، على أن مجموعة من السفن قد أضعفت قوتها بتوجيه بعض سفنها لاحتلال جزيرة چالويت Jaluit إحدى جزر الباسيفيك، ولربما يكون هذا جزء من استراتيـچية أوسع مدى، أو ربما كانت تقاعسًا من اليابانيين عن الاشتباك بـچنيسناو وشارنهورست، والفكرة الثانية أقرب إلى المنطق تبعًا؛ لأن البارجة ڤون سبي قد التقطت رسالة لاسلكية صادرة من منطقة قريبة منها وموقع باسم الطرادة «**كونجو**»[٢]، وكانت «**رسالة**

(١) Der Kreuzerkrieg in den auslandischen, Gewassern . I.

(*) تسينجتاو Tsingtao ميناء بحر ي في ولاية شانتونج بالصين على البحر الأصفر تعداد سكانها ٧٨٨.٠٠٠ كإحصاء سنة ١٩٤٧ (ص ١٥٦٦ – معجم ويبستر) (المترجم).

(٢) نفس المرجع ص ١٢٥ – ١٢٦.

مكشوفة»(*) موجهة للقنصل الياباني في هونولولو وتُخطره بأنها أو سفينة باسمها تُسرع في إبحارها نحو «**هوايبي**».

وقد كتب ضابط ياباني عن نصيب بلاده في الحرب فقال إن اليابانيين طاردوا الألمان في الباسيفيك وأرغموا السفن الألمانية أن تندفع نحو جزر فلكلاند حيث دمرها الإنجليز[١].

ولما كانت مجموعة السفن الألمانية جراف سبي لم ترقب قط في أثناء هذه التحركات البطيئة في الباسيفيك، فقد فشل الضابط الياباني أن يُلاحظ أن السفن الألمانية قد قابلت قبل أن تخوض معركة فلكلاند بعض السفن الإنجليزية وكبدتها خسائر فادحة، وهذا أمر عمل اليابانيون لتجنبه، ويبدو أن هذا الكاتب الياباني قد أجهد كثيرًا في محاولته تفسير وإيضاح سبب سلبية السفن اليابانية، وتجنب اليابانيين المغامرة لتجنب الخسارة والخروج من منطقة العمليات الحربية لهو من التقاليد الأصيلة في النظرية اليابانية.

* * *

وقد قذفت تسنجتاو بالقنابل من البحر واقتحمها من البر جيش ياباني، وكالعادة قدم الأسطول معاونة كبيرة بها في هذا ما قامت به السفن المُخصصة للدفاع الساحلي، وقد كتب المؤرخ الرسمي البريطاني للحرب عن هذا: «**... وإذا كنا نحكم من هذا الاستخدام للسفن فإن العملية كانت عملية هجوم ساحلي بدلًا من دفاع ساحلي كما كان القصد أصلًا منها**»[٢].

(*) اصطلاح رسالة «مكشوفة» يعني أنها مكتوبة بلغة عادية واضحة وليست بالشفرة.

(١) Commander G. Nakashima, I.J.N., Brassey's Naval Annual (١٩١٩), P. ٦٥.

(٢) Sir Julian S. Corbett, Naval Operations (London, ١٩٢٠), I, ٢٩١.

وهذه الكلمات هي في الواقع تعليق على الفكر البحري الياباني.

وقد زود الانتداب الذي حصلت عليه اليابان من هيئة الأمم على جزر الباسفيك التي كانت تملكها ألمانيا قبلًا، زودتها بعدد كبير من «**حاملات الطائرات**» الطبيعية، وبرغم الالتزامات التي كان يفرضها على اليابان عهد عصبة الأمم ومسئوليتها قبل الدول الكبيرة فإن هذه الحاملات الطبيعية قد أدخلت بمهارة داخل التنظيم البحري الإمبراطوري، وعادت للعلاقة بين السفينة الحربية وبين الجبل أو الخليج الأهمية التي كانت لها في تقدير رجال البحر اليابانيين في القرون الوسطى، وقد لا تكون من حاجة إلى حيز كبير لعرض اعتبارات النظرية البحرية اليابانية كما كشف عنها في مناقشاتهم ممثلو اليابان لمؤتمر واشنطون، المؤتمر الذي انعقد لبحث تحديد التسليح في البحر، فلقد كان من الواضح أنهم يمثلون الجماعات المتحفظة في الغرب، ولم يكشفوا عن الجانب المستحدث في النظريات والنوايا إلا عندما وضح قلقهم في أثناء مناقشة بناء وتسليح حاملات الطائرات.

وقد أكد الأميرال بارون كاتو أغراض اليابان الدفاعية التي أملاها عليهم الموقف في الشرق الأقصى[١]، كما حرص على أن يبعد في هدوء وأن يؤجل إلى تاريخ قادم موضوع التحديدات التي تفرض على طائرات الحرب[٢].

وقد نصت المادة العشرون من المعاهدة على موافقة طابعها العجلة والسرعة «**بألا تحدث أية إضافات جديدة للتحصينات الدفاعية على**

(١) Conference on the Limitation of Armaments (Washington, ١٩٢٢). ١٤٠.

(٢) نفس المرجع ص ٧٩٦.

سواحل **الممتلكات والمناطق التابعة**» وذكرت على التخصيص بعض المناطق في الباسيفيك.

ولو كانت الدول الغربية قد حاولت أن تضع أي شيء أقوى من القوات الجوية المُحددة في قواعدها بالشرق الأقصى لكانت اليابان ولا شك قد وجهت الانتباه إلى المادة التاسعة عشرة على أساس أن قاذفة القنابل «**سلاح**» جديد أو أنها قطعة من «**عتاد الحرب**»، ولو كانت الدول الأخرى الموقعة على المعاهدة قد احتجت على هذا التفسير لكانت طوكيو قد نظرت إلى الموضوع على أنه «**تغيير للأوضاع** » ولطالبت بعقد مؤتمر جديد.

ولما كانت اليابان قد جنبت سباقًا بحريًّا فقد استطاعت أن تحشد كل مواردها على الاستعدادات البحرية الأخرى، وأن تنتفع بالنوايا السلمية للأمم التي لم تتوافر لها الرغبة لبحث التفاصيل الفنية، والدول، التي كان من الممكن أن تهزم اليابان سنة ١٩٢٢، أو أن ترغمها على النزول عن نواياها الاعتدائية، اتجهت دون أسباب واضحة مفهومة من التفكير في نزع السلاح في البحر إلى نزع السلاح بصفة عامة في البر والبحر.

وهكذا يبدو أن معاهدة واشنطون لتحديد التسليح في البحر يمكن أن تعتبر نصرًا بحريًّا رئيسيًّا لليابان، وكان هذا ضمانًا لا يمكن أن يُقلل من حساسية الشعور بخطر السفن المعادية في ضوء استخدامها للألغام وقذائف الطوربيد ولكن مع تفهم الطابع البارز للسلاح الجوي كانت المعاهدة – من ناحيةٍ أخرى – ضمانًا إلى أن أي أسطول مُعادٍ يقترب من المياه اليابانية – المياه التي تسيطر عليها سفن نقل الجنود – فإنه يفعل هذا بمغامرة لها خطرها، كانت الطائرة تتمشى إلى بعيد تمشيًا تامًّا مع الفكرة اليابانية عن «**سرعة النيران مع أقل تعرض للمغامرة**»، وكانت بديلًا مثاليًا – تحت

الظروف المواتية – للمدفع السريع الطلقات الذي كان له دوره في الحرب اليابانية – الصينية، كما كانت بديلًا لتحركات المناورة التي استخدمت ضد السفن الروسية، وكانت اليابان تأمل أن تكون هذه فكرة مُستحدثة تُماثل استخدام الكوريين فجأة للسفينة «**ظهر السلحفاة**».

وفي الحرب التي قامت ضد الصين سنة ١٩٣٧ دون أي إعلان رسمي استخدم اليابانيون سفن نقل الجنود استخدامًا واسع النطاق، كما استخدموا السلاح البحري الجديد: حاملة الطائرات، استخدامًا عارضًا جزئيًّا، ولم يُخاطر اليابانيون باستخدام البوارج بل استخدموا السفن القديمة لتغطية ووقاية عمليات إنزال الجنود.

وكما قلت من قبل فإن كل المؤلفات اليابانية قد قصرت على المسائل الدفاعية التقليدية، ولكن مع هذا ففي بعض الأحوال كانت التصريحات والبيانات اليابانية تُعطي فكرة عن الأشياء التي ستجيء، وإن كان من الصعب اختراق السجف الدفاعية في هذا اللون من الحديث عن المستحدثات المتوقعة، وفي مناسبة ما في مطلع سنة ١٩٣٧ أشار القيس أدميرال يوناي Yonai وزير البحرية إلى أن «**سياسة الأسطول (هي) تدمير قواعد العدو الجوية قبل أن تستطيع طائرات العدو الوصول إلى أراضي اليابان الأساسية**»[1]، وبذكره لكلمات «**الأراضي اليابانية الأساسية**» وجه الأنظار بعيدًا عن التفكير في أغراض أي حملة عسكرية اعتدائية من جانب اليابان.

ومن الممكن أن نذكر هنا أن هيديوشي قد عمل بوسائل دبلوماسية

(١) Associated Press dispatch,Tokyo, February ٢٧, ١٩٣٧.

للاحتفاظ برءوس جسور كبيرة القيمة على سواحل كوريا، وأن نذكر أن اليابانيين قد عنوا دائمًا بإزالة كل تهديد لهجوم بحري بواسطة احتلال القواعد التي يمكن منها أن تخرج قوات هذا الهجوم البحري، وباستيلاء اليابانيين على الموانئ الصينية وعلى المطارات ومناطق القواعد الجوية فإنهم لم يحرموا الدول الغربية – المعنية عناية كبيرة بالشرق الأقصى – فحسب، بل وضمنوا لأنفسهم قواعد قريبة جدًّا من المناطق المتوقعة للعمليات.

ومع أن هذا قد أوجد حالًا عدائية ضد الصين فإنه لم يكن الحرب التي تُعنى بها الدول الأخرى، ولما كان الأسطول الياباني بدوره يشعر بحساسية نحو أحدث الأسلحة الحديثة فإن مطالب الحرب ضد الصين أمدت اليابانيين بالسبب لدخول اليابان للهند الصينية، وأمد هذا اليابانيين بسلسلة متصلة من المطارات والقواعد البحرية من كوريا إلى حدود تايلاند حيث مكن التآمر من دفع المواقع اليابانية إلى حدود الملايو.

ولم تختلف النظريات التي اتبعها الأميرال رئيس الوزراء توجو في أيٍ من الاتجاهات الضرورية عن تلك التي اتبعها من سبقوه، فالفكرة العامة هي تجنب الاشتباك بالأسطول، وفي سنة ١٨٩٣ حذر إمبراطور ياباني من المخاطرة بقوله: «**لو حدث خطأ واحد في المسائل الخاصة بالدفاع القومي فقد يمكن أن تبدو عواقب هذا الخطأ بعد قرنٍ كامل**»[1].

وتطبيق هذه الفكرة الأساسية في سنة ١٩٤١ كان تطبيقًا مُستحدثًا له جديته كما كان هذا في سنة ١٨٩٣، أو كما كان قبل قرون، وهنا يمكن أن نجد أن وسائل أخرى أكثر تقبلًا «**للإنفاق منها** » – أي لمواجهة الخسارة

(١) Ogasawara, Revue Maritime, CC (January-March ١٩١٤), p ١٢٣.

فيها – كسفن نقل الجنود والجيوش وأسراب الطائرات هي التي تحتمل جهد المعركة، وكالعادة يستخدم جزء من الأسطول ضد أغراض أرضية ولكن القوة الأساسية للأسطول تظل السند الأخير الذي يحتفظ به للقتال عندما تكون كل الظروف مواتية وتكون الأفضلية في جانبه، وكان التغيير الضروري الوحيد بين الماضي والحاضر له طابعه الجغرافي، ففي الماضي كانت اليابان تواجه الغرب، ولكن بعد أن وطدت اليابان أقدامها على الساحل الغربي للباسيفيك وجهت طوكيو انتباهها إلى الشرق وإلى الجنوب: إلى جزر الفليبين وأندونيسيا والملايو.

***

وجاءت الحرب إلى الباسيفيك ففي السابع من ديسمبر سنة ١٩٤١ بتكرار الطابع الذي حدث في بورت آثر، ولكنه هذه المرة حدث في وقت السلم لا في وقت الحرب، فكما حدث في بورت آرثر فشل المهاجمون في تحقيق أهداف هجومهم بغزو جزر هوايي، ولعلهم يكونون قد خافوا أن وصول حاملات الطائرات اليابانية سيقطعهم عن اليابان أو أنهم قد وجهوا سفنهم من هذا الطراز للعمل في مكان آخر، وكما كان الهدف في بورت آرثر الأسطول الروسي الأساسي كان أسطول الولايات المتحدة للباسيفيك هو الهدف في هوايي، فلما أن اقتنعت طوكيو بأن هذا الأسطول لم يعد صالحًا للعمل لم تعد تُعنى بأمر احتلال تلك الجزر، وكانت جزيرة «**ميدواي**»(*) في هذه الحال من وجهة النظر الجوية صورة حديثة تماثل التل ٢٠٣ في بورت

(*) ميدواي Midway، مجموعة من الجزر في الباسيفيك الشمالي وهي جزء من مجموعة جزر هوايي وتقع في منتصف المسافة بين الولايات المتحدة والفلبين المساحة ٢٨ ميلاً، السكان ٤٤٠ نسمة فقط وهي قاعدة بحرية وجوية (مُعجم ويبستر ص ٩٣٢) (المترجم).

آرثر، ومن القواعد الآمنة في مجموعات الجزر التي تسيطر عليها اليابان بالانتداب باسم عصبة الأمم تستطيع أن ترسل قاذفات القنابل إلى منطقة أمامية آمنة في جزيرة واك(*) ومادامت «**بيرل هاربر**» عن طريق «**ميدواي**» يمكن أن تتعرض إلى هجوم يتكرر المرة بعد الأخرى كانت قنبلة الطائرة في هذه الحال – يمكن أن تكون – بديلة لقنبلة المدفع الهاوتزر عيار ١١ بوصة؛ ولهذا يبدو أن اليابانيين شعروا بصواب رأيهم في إرسال قوة بحرية قوية إلى جزيرة ميدواي في ذات الطابع الهجومي الذي كان ابرز ما في العمليات اليابانية في الماضي، وقد أصيبت المحاولة بخيبة أمل بوصول حاملات طائرات الولايات المتحدة في الوقت المناسب التي أسكتت غواصات اليابانيين التي تقوم بالاستطلاع، وأصيب اليابانيون بأعنف صدمة واجهوها منذ أيام يي – صن، وكانت صدمة عظيمة في الحقيقة بسبب أنه في هذا الوقت لم يستخدم الأمريكان سلاحًا جديدًا، ولكن مع هذا اكتشف المهاجمون أنهم لن يستطيعوا (التملص) التخلص من القتال مادام العدو يملك حاملات طائرات وطائرات تعمل من مطارات برية ويستطيع أن يستخدمها في عملية المطاردة.

وفي نفس الوقت تطورت التحركات البحرية اليابانية في الشرق الأقصى تطورًا سريعًا، وكان للعمليات التمهيدية طابع بحري بارز، وقد اعتقد الأعلام من رجال البحر الغربيين أن اليابانيين سينزلون قواتهم أولًا في خليج لينجايين في الفلبين ثم يتقدمون بعد ذلك إلى مانيلا، ولكنهم بدلًا من هذا وجهوا كل جهودهم الأولى ضد شمال وشرق لوزون وفي مدى

(*) واك Wake جزيرة صغيرة في الباسيفيك الشمالي بين ميدواي وجوام مساحتها ٤ أميال مربعة وهي قاعدة بحرية وجوية (وبيستر ص ١٦٤١).

أسبوعين كان اليابانيون في داڤو Davao(*) على الساحل الجنوبي لتلك الجزيرة، وبالاستيلاء على مثل هذه المواقع يمكن أن يأمل اليابانيون في منع مرور سفن الولايات المتحدة عبر أو حول مجموعة جزر الفلبين بواسطة الهجمات الجوية وهجمات الغواصات.

* * *

وهنا نجد عمليتين تتماشيان مع النظرية اليابانية: أولاهما انسحاب قوة بحرية يابانية صغيرة أمام مدافع أسطول الولايات المتحدة للشرق الأقصى على مسافة من لوزون، وثانيهما الهجوم البحري الناجح على البارجتين البريطانيتين برنس أوف ويلز وريبلص خارج سواحل الملايو، ويشبه هذا عملية الأميرال ايتو عندما تخلص من الأسطول الصيني ليبعث بمدمراته وراء وحدات العدو التي في خارج قاعدته، وفي بعض المراحل يمكن اعتبار الحرب الجوية بديلًا لعمل المدمرات.

وقد فكرت اليابان في سفنها على اعتبار أنها رءوس جسور محتلة، لا على أنها سفن معادية عرضة لنيران القنابل ومدمرة محملة بالجنود من مشاة البحرية قد تحتل موقعًا استراتيجيًّا لمطار، وهو أفضل بكثير من إغراق مدمرة للعدو وبخاصة إذا كان إغراق هذه المدمرة قد يكون مغامرة تؤدي إلى إغراق المدمرة اليابانية.

وكانت عمليات اليابانيين في الملايو ليست أكثر من صورة مكبرة مجسمة لعملياتهم القديمة ضد السكان الأصليين للجزر اليابانية أو ضد

(*) داڤو ميناء بحري في الفلبين لجنوب جزيرة منداناو أقصى الجزر الكبيرة للجنوب تعداد السكان ١٠٣.٠٠٠ (ويبستر ص ٣٧٥) (المترجم).

كورياأو منشوريا، أو ضد شبه الجزيرة التي بها بورت آرثر.

وكان على الأسطول الياباني بعد أن يحرس السفن ناقلات الجنود إلى رءوس الجسور المختارة أنه ينصرف إلى حماية إنزال الجنود وإلى محاولة الدوران حول جناح العدو الذي يواجه في نفس الوقت هجومًا أماميًّا بوحدات الجيش من كل الأسلحة.

وبعد أن أنشأ اليابانيون مواقع بحرية وجوية حول المحيط الخارجي لجزر الفلبين وفي الملايو وغرب بورنيو، اندفعوا في تشكيل «**المروحة** » في جزر الهند الشرقية قادمين من الشمال سادين كل خطوط الاقتراب البحرية في وجه إمدادات العدو، وهنا استخدموا طائرات الاستطلاع في نطاق واسع لتقدير ما إذا كانت هذه الإمدادات حقًّا في طريقها بحرًا إلى الفلبين، ووجه اليابانيون دون أي تردد قواتهم ضد أغراض كثيرة مختلفة دون ما تقدير للخسائر مغفلين كل النظريات الصحيحة والأسس القويمة التي قد توجب إنشاء قيادة موحدة في البر والبحر ضد رءوس الجسور هذه التي تتعرض للهجوم.

***

وجاء اشتراك اليابان في الحرب العالمية الثانية بتغييرات كثيرة في تخطيطها البحري، فلم تعد في الواقع تواجه أعداء ضعافًا، وبدلًا من السفن الحربية التي كان يقودها تينج Ting. ورويديستڤينسكي Rojdestvensky فإنها واجهت السفن الأكثر كفاية وأقوى تسليحًا سفن الولايات المتحدة وبريطانيا، وبدلًا من المدمرات القليلة التأثير التي كانت تستخدمها في البحر الصين القديمة وروسيا القيصرية جاءت طائرات أثبتت منذ بداية الحرب

أفضليتها بالنسبة لطائرت اليابان، وأخيرًا وليس آخرًا أرغمت اليابان على أن تفكر في الدفاع في طابع يختلف تمامًا عن العمليات الهجومية الخالصة للهجوم وعن العمليات الدفاعية الهجومية.

وقد وجد اليابانيون أنه من الضروري وبخاصة في جوار المياه التي يسيطر عليها العدو أن تستبدل العمليات البحرية الهجومية في أثناء النهار بعمليات بحرية ليلية لتقلل من خطر التعرض لطائرات العدو، وهذه حال لا يمكن تغييرها إلا بتوافر أفضلية جوية محلية، ولقد وضحت النظريات البحرية اليابانية القديمة في عملية واحدة بهجوم القوات اليابانية على مجموعة من طرادات الحلفاء كانت تقوم بأعمال «**الدوريات**» خارج ساڤو Savo في وقت نزول القوات الأمريكية لأول مرة بمجموعة جزر سولومون Solomon، وهي عملية تقوم على أساس الهجوم وتوجيه الضربات ثم الإفلات بسرعة، ومع أن الهجوم كان ناجحًا فإن السفن اليابانية انسحبت دون استثمار النجاح.

وفي معركة أخرى ليلية لمحاولة مهاجمة مواقع للقوات الأمريكية في «**جواد القنال**»(*) أمكن صد المهاجمين ووضح بأن الظلام لا يزال له ضرورة كما كان يخشاه «**ايتو**» «**و توجو**»، وأن الظلمة الحالكة التي تستر المهاجمين وتحميهم من السلاح الجوي لا تحميهم من عمليات السفن السريعة التي يعتزم بحارتها خوض المعركة بأية تضحية.

❊ ❊ ❊

(*) جزيرة جواد القنال Guabal canal إحدى مجموعة جزر سولومون في الباسيفيك الجنوبي سكانها ١٤٠٠٠ كان مسرحاً لقتال عنيف في الحرب العالمية الثانية (ويبستر ص ٦٤٢) (المترجم).

وقد يكون من الضروري هنا أن ندرك أن النظريات اليابانية عن التكتيكات الاستراتيـجية البحرية إنما هي انعكاسات الاعتبارات الجغرافية والسياسية، ومن الضروري توقع أن أي تغييرات في العامل الأخير تؤثر في العامل الأول، وعلى مسير التاريخ الياباني كان الأسطول دائمًا الدرع الواقية للوطن وللنقل العسكري، فالمناطق الساحلية التي استولت عليها اليابان تتطلب مواصلات بحرية مستمرة أو تحتاج إلى التموين الذي يمكنها من احتمال حصار طويل على أن تزود بالضروريات عند الحاجة الملحة بالنقل الجوي إذ قد تغلق طائرات العدو كل المناطق البحرية الضيقة فلا يكون النقل البحري مستطاعًا مأمونًا سيما إذا قدرنا أن العدو تتوافر له الأفضلية في الطائرات من ناحيتي الكم والنوع.

على أننا عندما ننظر إلى تحليل اليابان للموقف بالنسبة إليهم ندرك أن الأسطول الإمبراطوري كان في الواقع وسيلة لخدمة الجيوش اليابانية، وعلى أساس هذه «**الخدمة**» يمكن اعتبار الأسطول وسيلة اقتصادية بل هو أكثر اقتصادًا من السلاح الجوي، ولكن مع هذا يجب توقع مخاطر ومغامرات أكبر بالنسبة لقيام الأسطول بالدفاع عن أرض الوطن وبالنسبة للدفاع عن المناطق المحتلة ولهذا دوره في تقليل أهمية الأسطول، ذلك لأنه سيضطر إلى أن يتابع طابعه القديم طابع الاقتصار على التحركات البحرية الساحلية.

وجاءت عوامل جديدة يمكن أن تؤثر في النظريات اليابانية للحرب البحرية، عامل فقدان اليابان للمواقع الاستراتيـجية وعامل وجود قوات قوية للعدو في نقاط قريبة من اليابان، وعامل توافر الروح الهجومية لدى أعداء اليابان في مقابل روحهم الدفاعية التقليدية، ولما كان من الواضح أنه لا توجد أية أدلة تثبت استخدام اليابان لقوات بحرية في معارك حاسمة في

البحر الفسيح فلا يمكن إطلاقا أن نقدر الفكرة اليابانية بالنسبة لهذا، بل لو حدث هذا لكان تغييرًا ثوريًّا في النظرية الأصلية.

ولو قامت اليابان بخوض غمار معارك بحرية بقوات كبيرة وإلى مدى كبير في البحر، لكان هذا دليلًا على أن طوكيو تعتبر بأنه من الممكن الدفاع عن الموقع الاستراتيجي في الجزر اليابانية بالسلاح الجوي بالإضافة إلى القوات البرية، والقوات البرية هي السلاح الذي يمكن زيادة قواته بسرعة في كل الأمم العسكرية واليابان واحدة منها؛ ولكن عندما ننظر إلى الأمر بالنسبة للقتال في المحيطات والبحار الفسيحة فإنه من الممكن أن نتقبل أن النظرية اليابانية يمكن أن تنطبق وتتمشى مع نظرية الغرب عندما يكون العدو قويًّا، ولكن مع هذا يستطيع الفرد أن يفكر إلى أي مدى يمكن للتقاليد التي تقوم على أساس الدروس المستمدة من الماضي أن تظل وتستمر تصبغ كل العمليات في الحاضر بهذا الصباغ نفسه؟.

والوقع أن هذا النقاش للتفكير البحري الياباني من ناحية صلة هذا التفكير بالحرب العالمية الثانية ليعطل منه نقص المعلومات التفصيلية لهذا التفكير ولاستخدامه التطبيقي، وعلى سبيل المثال فإنه فيما عدا الاستخدام للغواصات الصغيرة فإن القليل هو الذي يمكن قوله عن النظريات اليابانية لهذا السلاح (الغواصات) بعامة، وكذلك فإنه مع الأضرار الكثيرة التي تسببها الغواصات بقذائف الطوربيد، والتي تعتبر طابعًا مماثلًا لعمل قوارب الطوربيد في تسوشيما وفي أي مكان آخر،فإن هذا ليس بجديد في الحرب البحرية ومن الضروري توقعه في منطقة فسيحة مثل الباسيفيك.

وعلى الإيجاز... فإن الأسطول الياباني كان جناحًا يطفو فوق الماء لجيش قوي يشغل بعمليات هجومية في منطقة أضعف عسكريًّا بدرجة

كبيرة من أوروبا أو أمريكا الشمالية، ولم يكن معدي عن أن نظرياته وتطبيقاته العملية لهذه النظريات يجب أن تختلف اختلافًا كبيرًا عما هو متوقع بالنسبة للولايات المتحدة وبريطانيا حيث يعتبر الأسطول قوة دفاعية قوية تستند إلى جيش بري صغير، وكذلك لم يكن معدي من أن يختلف التفكير الياباني عن التفكير الفرنسي والألماني حيث توجد كل الأغراض على البر ويمكن تحقيق الحصول عليها بواسطة القوة البرية وحدها.

وقد يوجد نوع من التشابه والتماثل – إلى حد ما – بين التفكير البحري الياباني وبين التفكير البحري الإيطالي، وذلك من ناحية أن كلتا الدولتين إنما تعنيان باستخدام القوة البحرية والقوة البرية للقيام بعمليات غزو قريبة نسبيًّا[1]، على أن هذا الاستخدام والتنسيق لعمل الأسلحة المختلفة كانا بالنسبة لإيطاليا أقل قيمة مما كانا بالنسبة لليابان.

ولا يعتبر التفكير البحري الياباني – على ما وضح فيما سبق – نظامًا ثوريًّا عندما نقارنه بالتنظيم الذي استخدمه نابليون في تحريك المحتشدات الكبيرة والصغيرة من الجند، ولا عندما نقارنه بحركة الكماشة في التطور الذي قامت به الجيوش الألمانية، أنه في بساطة توجيه التفكير السياسي الاعتدائي في مشكلة استخدام القوة البحرية في البحار تحت ظروف تختلف عن تلك التي كانت في المناطق التي صبغت فيها النظريات الأصلية للحرب البحرية.

* * *

(١) لاحظ التماثل مع الاستراتيـچية الفرنسية في القرن الثامن عشر، والرجا العودة إلى الفصل السابع عشر من هذا الكتاب.

حديث المراجع

الفصل التاسع عشر

الاستراتيجية اليابانية البحرية

بقلم ألكسندر كيرالفي

المراجع الإنجليزية التي يوثق بها في الحديث عن الاستراتيــجية لليابان قليلة وتتباعد تواريخ إصدارها، ويحسن مراجعة مقال:

Captain Viscount Ogasawara," Historical Essay on the Japanese Navy (ro ١٨٩٣), in Revue Maritime CXCVIII (Paris, September ١٩١٣), ٢٥٧ ٢٦٦, ٣٨١ – ٣٩٢, (January – March ١٩١٤), ٩٣ ١٢٤.

فالمقال من المراجع اليابانية القليلة التي صدرت بإحدى لغات الغرب.

ونجد دراسات للاستراتيــجية اليابانية القليلة في:

" The Battle of the Yellow Sea", United States Naval Institute Proceedings (September – October ١٩١٤) PP. ١٢٨٣ ١٢٤.

" The Battle of the sea of Japan", United states Naval Institute Proceedings (July – August ١٩١٤), PP. ٩٦١ – ١٠٠٧.

كما أنه من الكتب القيمة كتاب:

Fred T. Jane, The Imperial Japanese Navy (London, ١٩٠٤).

ونجد مادة طيبة في كتاب:

Vice Admiral G.A. Ballard, The Influence of the sea on the

Political History of Japan (New York, ١٩٢١).

أما عن التأريخ لحياة أدميرال توجو فيوجد مصدران أساسيان للمعلومات هما:

Vice Admiral Viscount Nagayo Ogasawara, Life of Admiral Togo.

والذي ترجم بواسطة (و) ت انويس Inouys J. & T. وصدر بطوكيو سنة ١٩٣٤.

A. Falk, Togo and the Rise of Japanese sea Power (New – York, ١٩٣٦).

كما يرجع لتبين العلاقات بين السياسة وبين القوات المسلحة إلى كتاب:

Kenneth Colegrove, Militarism in Japan (Boston, ١٩٣٦)

وقد يكون من الأهمية الرجوع إلى الفصلين الثالث عشر والرابع عشر من كتاب:

Captain A.T. Mahan, Naval Strategy (Boston, ١٩١٨).

وتعالج كل مسألة توازن القوى البحري في الشرق الأقصى في الفصل الخامس من الكتاب:

Arehibald S. Hurd, Naval Efficiency (london, ١٩٠٢)

وكدراسة عامة يمكن أيضًا الرجوع للمؤلفات التالية:

Captain Gabriel Darrieus, War on the sea. Philip R. Alger

وقد ترجمه العلامة فيليب آلجر من البحرية الأمريكية ونشر في آنابوليس سنة ١٩٠٨.

H.W. Wilson, Battleships in Action I (London, n.d.) Brigadier – General G.G Aston, Letters on Amphibious Wars (London, ١٩١١) PP. ١٦٢ – ٣٦٠.



الفصل العشرون

دوهيه، ميتشل، سيفيرسكي

نظريات الحرب الجوية

بقلم تيودور روب

ليس من الميسور التحدث بدقة عن نظريات القوة الجوية إلا في نطاق محدود، ومن الواضح أن أي نقاش دار حول القوة الجوية قد أوجب تقبل وجود الطائرة كحقيقة واقعة، بل وأيضًا تقبل وجود أنواع خاصة من الطائرات تتوافر لها خاصيات معينة، ولقد أسهم دوهيه وغيره مساهمة فعالة في صياغة نظرية وأسلوب استخدام القوة الجوية، ولكن النقاش الجدلي الطويل الذي استمر طوال العشرين السنة الأخيرة – التي انتهت بانتهاء الحرب العالمية الثانية – والتي جعلت اسم دوهيه وميتشل على كل لسان لم يعن باختيار نظرية من بين (من عداد) نظريات مختلفة كثيرة، بل عني بتقبل أو رفض العقيدة الأساسية.

ولقد قامت العقيدة الأساسية على أن السرعة والارتفاع وقوة التدمير إنما هي أوجه تفضيل تقف إلى جانبي الطائرة فتمكنها من تدمير أي منشآت على سطح الأرض أو عائمة فوق الماء على حين تظل هي – أي الطائرة – بمنجاة من أي تدمير مضاد مؤثر من الأرض، وإن كانت هذه السلامة للطائرة هي في الواقع إلى حد ما سلامة نسبية.

فإذا ما تقبلنا هذه العقيدة على أنها حقيقة كان من الواضح أنه يتبع تقبل هذه العقيدة ويتبعه في صورة آلية تقبل مبدأ سيادة القوة الجوية على

غيرها من الأسلحة العسكرية، بل وكذلك تقبل ضرورة تخطيط كل الحملات الحربية مع العناية أولًا وقبل كل شيء بتوافر الأفضلية إلى جانب القوات الجوية للأمة على حين تكون أسوأ الظروف في مواجهة القوات الجوية للعدو.

وقد استمرت المناقشات كذلك حول علاقة القوة الجوية بأسلحة الأرض ضمن إطار التنظيم العسكري للدولة، وحول توزيع الجهود بين مختلف أسلحة القتال، كما تحولت إلى نقاش تتباين وجهات النظر فيه حول الطاقة التي للطائرة في مختلف صور استخدامها.

على أن الخلاف بين أكثر المتحمسين لعقيدة(*) القوة الجوية وبين أقوى المتشائمين من خصومها لم يكن خلافًا على النظريات الخاصة بالاستخدام التكتيكي أو الاستخدام الاستراتيجي لها، بل كان الخلاف على القوة الأساسية التي للسلاح الجوي.

والواقع أنه حتى أشهر قليلة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ – ١٩١٨ كان كل ما كتبه المتحمسون لعقيدة سيادة القوة الجوية في جملته لا يزيد على مجرد تنبؤات؛ وفي يوليو سنة ١٩٢١ استطاع السلاح الجوي للولايات المتحدة الأمريكية في تجربة عند رأس ڤيرجينيا إغراق البارجة الألمانية السابقة أوستفرايز لاند Ostfriesland وأرسلها إلى قاع البحر بقنبلة قذفتها بها طائرة من الجو؛ وهكذا وضح أن السيادة التي للسلاح الجوي لم تعد مسألة يمكن أن يحققها (المستقبل) بل باتت مسألة يؤكدها (الحاضر) على أن الشيء الذي يجب أن نذكره هنا أن العوامل التي مكنت من استكمال

(*) تعني هنا ترجمة كلمة Cult لا كلمة Doctrine، ذلك لأن الإيمان بها كان عميقاً إلى حد اعتباره مماثلاً للمعتقد الديني أو الطقس الديني. (المترجم).

هذه السيادة للقوة الجوية كانت قد باتت واضحة معروفة حتى قبل تجربة إغراق البارجة أوستفرايزلاند.

على أن الباحثين جديًّا في شأن الطائرة وجدوا أنفسهم - مثل أولئك الجادين في بحث أمر الغواصة - يواجهون سيلًا من كتابات الروائيين والقصاصين الذين يسطرون القصص التي تستخدم العلوم المُبسطة لاستهواء القراء للكتب الشعبية، ولم يكن لدى هؤلاء الكتاب شيء له أهميته يمكن أن يقدموه للعلم العسكري، ولكنهم قد استغلوا عقيدة السيادة للسلاح الجوي على ما أوضحها دوهيه وميتشل وخلفاؤهما من المحدثين أمثال سيفيرسكي؛ ولقد صور هـ. ج. ويلز غزوًا جويًّا في «**كتابه الحرب في الجو**»، وقدم صورة للتدمير الجوي، صورة تجاوزت كل ما حدث من تجارب التدمير حتى الحرب العالمية الثانية (إلى ما قبل هيروشيما)، ولقد صور تحطيم كوبري بروكلين بطائرة في أول مرور لها فوقه:

«**ولقد تحول** «**السيتي هول**» و «**كورت هاوس**» ودار البريد في نيويورك إلى أنقاض سوداء بعد أول زيارة جوية لطائرات العدو».

«**... وهكذا قدر بيرت سمولويز أول قتال لسفينة الهواء وآخر قتال لبارجة البحر، لقد أمسى من الضروري الحصول على المال اللازم لهذه السفن الجوية بأي وسيلة، إن هذا هو قانون البقاء للأمم في هذا العصر المليء بالغرائب والمدهشات ...**»[١].

ولقد كان الكتاب الأولون الذين كتبوا الدراسات الفنية الخاصة عن

(١) H. G. Wells, The War in the Air (London: George Bell and Sons; New York: The Macmillan Co., ١٩٠٨), pp. ١٦٧ – ٢٠٨.

الشئون الجوية من الناحية العسكرية في الفترة بين بدء جيوش الدول الكبرى الحصول على طائراتها (سنة ١٩٠٩) وبين فجر الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨)، كان هؤلاء الكتاب، مثلهم مثل الروائيين يُصورون خيالات للمستقبل، ونستطيع تقدير حقيقة هذا عندما نراجع بعض السطور من مؤلفات هؤلاء الكتاب:

«... ولنتصور عاصمة كبيرة يسودها القلق عند إعلان الحرب، ولنتصور أيضًا ماذا يحدث في غمرة هذا القلق عندما تبدو فجأة بعض أجسام غريبة في السماء».

والسفن الجوية !!! أي معنى مخيف تنقله هذه الكلمة إلى الجماهير وقد عقدت المفاجأة ألسنة الناس، من هو الذي يستطيع أن يصف الرعب الذي تملك قلوب الناس وهم يحدقون بهذه الأجسام الغريبة التي تظهر في السماء دون أن يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا ما؟ وقبل أن يستطيع الناس حتى أن يجدوا الكلمات التي توضح موقفهم تكون هذه السفن الهوائية بعدد قليل من القنابل المُحكمة التوجيه قد حطمت دار البرلمان»[1].

«وفي الأيام الحرجة التي تسبق إعلان الحرب يمكن أن يحشد أسطول جوي على مسافة من ٤٠ إلى ٥٠ ميلًا من سواحلنا (الإنجليزية)، وعندما تتسلم إشارة لاسلكية تكون هذه الطائرات في مدى ساعتين من إعلان الحرب قد وجهت ضرباتها ضدنا، وتكون بورتسموث وروسيث Rosyth مفتوحتين – إثر الهجوم الجوي – لهجوم بري وبحري، ويكون قسم آخر من الأسطول الجوي قادرًا على القيام بإغارات تدميرية ضد لندن والميدلاند

---

(١) R. P. Hearne, Aerial Warfare (London: John Lane, The Bodley Head; New York: John Lane Company, ١٩٠٩), pp. ١٣٦ – ١٣٧.

وغيرهما من الموانى والمراكز التجارية، وعندما يُعطل الأسطول الجوي الألماني أسطولنا البحري في شيرنيس Sheerness وبورتسموث فإنه يفتح الطريق لإغارات بحرية ألمانية تُغطي قوات غزو بري، ويكون هذا هو الفصل الأخير من الحرب»[1].

ولقد كتبت هذه السطور قبل بدء الحرب العالمية الأولى بخمس سنوات وبعد سنوات لا تعتبر كثيرة من أول طيران للأخوين رايت Wright، وكانت هذه السطور – في خضم عدم الثقة بإمكانيات الطائرة في تلك الفترة – تنبؤًا مليئًا بالجرأة، وكان الشيء الوحيد الذي يُعتبر في غير صالح المؤلف أنه كان سابقًا عصره بشوط كبير، ولكن تنبؤاته هذه قد وضعت مُعضلات كبيرة في طريق الكتاب الذين جاءوا بعده بكثير عندما حاولوا الكتابة في نفس الموضوع.

وقد نجد تصويرًا آخر أكثر تخصصًا ولا يقل عنه إثارة للذعر والخوف، وقد كتبه صاحبه في تاريخ لاحق، جاء فيه:

«لقد تحدث متخصص عسكري له مكانته عن مسألة قيام أسطول جوي للعدو بالهجوم على وادي التيمس بين همرسميث وجراڤيسند فقال: إن هذه الأميال الخمسين والتي تحتشد بها كل ضروريات الإمبراطورية تقع تحت رحمة سفينة هوائية يمكن أن تلقى عددًا من المقذوفات الحارقة على مناطق مُحددة اختيرت من قبل، وقد أوضح أخصائي منذ أيام كيف يمكن أن يحدث هذا، أنه من الممكن أن يُلقي العدو مائتي طن من المفرقعات فوق لندن، ولقد أوضح لورد مونتاجو ماذا يمكن أن يكون معنى هذا ويقول

(١) نفس المرجع ص ١٦٩.

مونتاجو: فلنفترض أن لندن قد هوجمت من الجو في فجر الحرب فماذا تكون النتيجة؟ لنتصور أن سوق (بورصة) الأوراق المالية والمصارف الكبيرة ومحطات السكك الحديد الرئيسية وغيرها من وسائل المواصلات والمال قد حُطمت، إن مثل هذه الضربة في قلب الإمبراطورية سيكون مثلها مثل شل أعصاب رجل قوي قبل أن يبدأ القتال من أجل حياته وبقائه، ستظل للرجل قوته العضلية ولكن عقله سيكون بلا قوة للتوجيه»[١].

- ١ -

ولقد توافرت القوة لنظرية سيادة السلاح الجوي على أسلحة الحرب عندما قال بها أولئك الرجال الذين تعرضوا لتجربتها العملية في الحرب، وجاءت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨) إلى المقدمة باسمي رجلين بقيا الزعيمين المدافعين عن عقيدة سيادة الطائرة لاثنتي عشرة سنة بعد الحرب، واللذين لعبت كتاباتهما دورًا هامًّا في تطور العقيدة من مجرد إيمان فردي إلى «**عقيدة**» عسكرية لها أثرها في استخدام أسسها للاستخدام التكتيكي للقوات الجوية وفي اختيار الأغراض لها.

وكان التماثل بين حياتي جيليو دوهيه ووليم ميتشل مثيرًا فلقد التحق كلٌّ منهما بالجيش صغيرًا قبل أن يقوم الأخوان رايت بأول رحلة لهما عبر الهواء بسنوات طوال، وقد توافر لكلٍ منهما تصور جعله يفكر في استخدام المُستحدثات الآلية لصالح الوحدات العسكرية ولتطور أسلحتها، وقد فكر كل منهما في هذا قبل أن يسترعي الطيران انتباهه وقبل أن يجتذب تفكيره

(١) Claude Graham-White and Harry Harper, The Aeroplane in War (London: T. Werner Laurie, ١٩١٢), pp. ٢٠٨ – ٢٠٩.

نحوه، وكان كل منهما ناقدًا عنيفًا للزعامة العسكرية في عصره، وواجه كل منهما حكم القضاء العسكري بسبب نقداته اللاذعة للقيادة والأسلوب الذي يستخدمه في هذا النقد، وكان كل منهما كذلك كاتبًا مجيدًا مطواع القلم[١]، وقد عمد ميتشل في كل كتاباته المطبوعة معنيًا العناية كلها باجتذاب الجماهير على حين كتب دوهيه كتابات أكثر تخصصًا استهدف بها اجتذاب العسكريين المحترفين.

* * *

ولد جيليو دوهيه سنة ١٨٦٩ ومات سنة ١٩٣٠ في الحادية والستين من عمره، والتحق بالجيش ضابطًا في المدفعية بعد أن حضر فرقة دراسية للحصول على رتبة عسكرية، وقد عني من البداية وفي تاريخ مبكر بالانتفاع بتطور النقل الميكانيكي لخدمة الجيش، ثم وجه كفايته العلمية في بحوث ودراسات عن الغازات في درجات الحرارة المنخفضة، وقد كتب سنة ١٩٠٩ بحثًا عن أهمية السلاح الجوي، وفي سنة ١٩١٥ كان قد انتهى إلى تصوير طابع الحرب الشاملة، وعن تحطيم معنويات المدنيين بالهجوم الجوي، وقد لعب هذا دورًا كبيرًا في تطور تفكيره فيما بعد وكان يقف إلى جانب «**تحطيم الأمم**» بواسطة الجو كتدمير عسكري.

وفي نهاية سنة ١٩١٦ واجه مجلسًا عسكريًّا لمحاكمته بسبب إرساله مذكرة لأحد الوزراء يوجه فيها نقدًا مرًا لسياسة هيئة أركان الحرب الإيطالية، وحكم المجلس بسجنه لمدة سنة، إلا أنه في سنة ١٩٢٠ أمكن بإجراءات قانونية إلغاء قرار المجلس وحكمه من الناحية الشكلية بعد أن

(١) يرجع إلى «حديث المراجع» في آخر الفصل لمعرفة ما كتبه كلٌ من دراسات ومؤلفات.

كان قد استدعي ثانية لخدمة الجيش في فبراير سنة ١٩١٨ وعين في رياسة المكتب المركزي لشئون الجو، وفي سنة ١٩٢١ رُقي إلى رتبة چنرال، وفي هذه السنة بدأت كل الكتابات الجادة عن السلاح الجوي، وعين قوميسيرًا للطيران إثر زحف الفاشيت على روما، ولكنه انسحب من خدمة الحكومة ليوجه كل جهوده للكتابة مُدافعًا عن وجهات نظره في السياسة.

* * *

ولقد ولد وليم ميتشل بعد دوهيه بعشر سنوات وعاش بعد وفاة دوهيه لست سنوات، فكأنه قد ولد سنة ١٨٧٩ ومات سنة ١٩٣٦، وقد جُند للمشاة سنة ١٨٩٨ وحصل على رتبة عسكرية في الإشارة بعد وقت قصير، وخدم بآلاسكا وهو ضابط صغير حيث أقام جزءًا كبيرًا من خط آلاسكا للبرق، وقد لعب تقديره لأهمية آلاسكا الاستراتيـچية بخاصة وأهمية الدائرة القطبية بعامة، لعب دورًا هامًا في تطور تفكيره في العلم العسكري.

وكان له دوره الإيجابي في استخدام الراديو واستخدام النقل الميكانيكي في الجيش، وعندما اشتركت الولايات المتحدة في الحرب سنة ١٩١٧ حُوِّل إلى السلاح الجوي، وكان قد تعلم الطيران سنة ١٩١٦ وأرسل إلى أوروبا كمراقب قبل اشتراك أمريكا في الحرب.

واستمر يرتقي في سلاح الجو الأمريكي حتى تولى رياسته قبل انتهاء الحرب بأسابيع، فلما انتهت الحرب تجول بعض الوقت في أرض أوروبا لدراسة حال الطيران في الدول الصديقة المتحالفة ودول الأعداء، فلما عاد إلى الولايات المتحدة من رحلته عين مساعد رئيس أركان حرب السلاح

الجوي برتبة بريـچادير چنرال المركز الذي ظل يشغله من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٢٥.

وسببت محاولته لإيجاد سلاح جوي موحد مستقل عن الجيش والأسطول، ونقده العنيف لسياسة إدارتي الجيش والأسطول واتهامهما بعدم الكفاية وبإهمال إجرامي بل وخيانة الدفاع القومي، واتهام الضباط الذين يبعث بهم الجيش والأسطول إلى الكونجرس بأنهم يقدمون دائمًا معلومات غير كاملة ومضللة عن الطيران والسلاح الجوي، تسبب هذا كله عرض قضيته على مجلس عسكري قضى بإدانته وحكم بوقفه عن عمله وحرمانه من رتبته لخمس سنوات، واستقال ميتشل من الجيش في الأول من فبراير سنة ١٩٢٦ وأوقف السنوات العشر التي عاشها بعد ذلك للكتابة وإلقاء المحاضرات ومناقشة اللجان من أجل فكرته، فكرة إنشاء سلاح جوي مستقل والحملة على إدارتي الطيران المدني والعسكري في الولايات المتحدة، وعلى بحوث الطيران بل وصناعة الطائرات في الولايات المتحدة، مما اعتبره العامل الفعال لتأخير التطور الفني.

وكان الـچنرال ميتشل زعيم الحملة لزيادة اعتبار السلاح الجوي في التنظيم العسكري الأمريكي، الحملة التي استمرت لست سنوات قبل استقالته من الجيش، وبقي اسمه وسيظل دائمًا رمزًا لهذه الحملة.

- ٢ -

وكانت القوة البحرية قد اجتذبت انتباه دوهيه في تاريخ مبكر سنة ١٩٠٩، وحتى هذا التاريخ كان الرجل قد قدر مبكرًا الطابع الثوري للاستراتيـچية العسكرية، إلا أن وجهات نظره لم تتطور تفصيليًا لأول مرة

- وإن كان هذا قد حدث في صورة أولية محدودة - إلا في كتابه الأول الذي صدر سنة ١٩٢١[١]، وقد نالت وجهات نظره تفهمًا أكبر كما استطاع أن يخرج منها بعدة استنتاجات وأبرز هذا كله في طبعة مُنقحة من كتابه الأول صدرت بعد ست سنوات من صدور الطبعة الأولى[٢]، وكان دوهيه أيضًا الكاتب لسلسلة طويلة من المقالات في عدد كبير من المجلات العسكرية والدوريات الخاصة بشئون الطيران، وأكثر ما هو معروف منها، وأهم ما أعيد طبعه منها هو ما جاء خاصًا بتصوير حرب مستقبلة تقع بين ألمانيا وفرنسا[٣].

ومع أن «نظرية دوهيه» سرعان ما كانت مرجعًا يستند إليه إلا أنها لم تعرف للكثيرين خارج إيطاليا إلا عندما ترجمت كتاباته بعد وفاته، وقد طبع جزء كبير من كتابه باللغة الفرنسية سنة ١٩٣٢[٤]، وترجم هذا من الفرنسية إلى الإنجليزية وطُبع في كتيب صغير لضباط السلاح الجوي الأمريكي سنة ١٩٣٣، وطُبعت منه طبعة أخرى في مجلة عسكرية إنجليزية[٥]، ثم ظهرت ترجمة منه بالألمانية سنة ١٩٣٥، وفي نهاية سنة ١٩٤٢ ظهرت لأول مرة ترجمة كاملة بالإنجليزية لأهم كتابات دوهيه العسكرية[٦]، وقد أُلحقت

---

(١) Giulio Douhet, Il Dominio dell'Aria; Saggio sul' arte della guerra (Roma: Stab. Poliger. Per l'Administrazione della guerra, ١٩٢١).

(٢) Douhet, Il Dominio dell'Aria (٢nd ed.; Roma: Instituto Nazionale Fascista di Cultura, ١٩٢٧).

(٣) Duohet," La Guerra del'١٩-," Rivista Aeronautica (March, ١٩٣٠), pp. ٤٠٩ – ٥٠٢.

(٤) Duohet, "La Guerra de l'Air" Les Ailes, Paris, ١٩٣٢.

(٥) Royal Air Force Quarterly (April, ١٩٣٦), p. ١٥٢.

(٦) Douhet, The Command of the Air, as translated by Dino Ferrari (NewYork: Coward-McCann, Inc., ١٩٤٢).

=

كتابات دوهيه بدراسات نقدية تعرض ليست فقط لكتاباته هو بل ولما تناوله في مراسلاته ومحاوراته مع خصومه[1].

وكان من أهم الأسس لنظرية دوهيه أن:

١ – الطائرات سلاح هجومي له خاصيات لا تُقارن ولا يمكن التنبؤ بدفاع إيجابي مؤثر ضدها.

٢ – معنويات المدنيين سيُحطم منها تدمير المناطق الآهلة بالسكان.

وعلى هذه الأسس أقام دوهيه الناحية العملية لنظريته، وكانت العوامل الأساسية لها:

(أ) لضمان الدفاع القومي الكافي يجب بل ومن الضروري أن نكون عند الحرب في الوضع الذي يُمكننا من السيطرة على الجو[2].

(ب) يجب ألا يكون الهدف الأولي للهجوم الجوي المنشآت العسكرية بل الصناعات والمناطق الآهلة بالسكان البعيدة عن مناطق عمل الجيوش.

(جـ) لا يجب العمل بخاصة ضد قوات العدو الجوية بمقاتلتها في الجو بل تدمير المنشآت الأرضية والمصانع التي تستمد منها حاجتها من المواد.

=وفي كل المراجع التي أشير فيها إلى كتابات دوهيه بقصد الإشارة إلى هذه الترجمة الإنجليزية لا إلى الأصل الإيطالي وذلك تبعاً لأنه يمكن لعدد كبير من القراء بالإنجليزية الحصول عليها في سهولة ويسر.

(١) Col. P. Vauthier, La Doctrine de Guerre du General Douhet (Paris: Berger-Levrault, ١٩٣٥); H. de Watteville," Armies of the Air", The Nineteenth Contury and After (October ١٩٣٤) pp. ٣٥٣ – ٣٦٨; N. N. Golovine,"Air Strategy", Royal Air Force Quarterly (April, ١٩٣٦) p. ١٦٩.

(٢) The Command of the Air, p. ٢٨.

(د) يكون دور القوات البرية دورًا دفاعيًّا بقصد احتلال جبهة تمنع تقدم العدو على البر، كما تمنع بخاصة استيلاء العدو بأعماله البرية على أيٍ من وسائل مواصلاتنا أو صناعاتنا أو منشآت قواتنا الجوية، على حين يكون هجومنا الجوي في نفس الوقت يُتابع العمل لشل طاقة العدو على إمداد جيشه باحتياجاته وتحطيم إرادة شعب العدو لاحتمال القتال ومتابعة الحرب.

(هـ) لتحقيق الاستخدام الاقتصادي للجهد الشامل يجب العمل لإيجاد طائرات قتال تخصص للدفاع ضد قاذفات القنابل في قوات العدو الجوية، ويجب أن يكون النموذج الأساسي (الطابع الأساسي) لهذه الطائرات، «**طائرة المعركة**» الطائرة التي يمكن أن تقوم بعمليات التدمير وتستطيع في نفس الوقت الدفاع عن نفسها أو تستطيع أن تستخدم – على التبادل – لأغراض القتال.

* * *

والواقع أنه لم يعد اليوم من شك في صحة أول هذه الاستنتاجات (العوامل) التي سبقت الإشارة إليها قبل سطور لو فسرت كلمتا «**السيادة الجوية**» تفسيرًا دقيقًا بعناية؛ ولو استطاعت دولة مقاتلة مهاجمة عدوها من الجو بعد أن تكون كل دفاعات العدو قد «**صُفيت**» تحطمت، كان من الواضح أن الدولة المهاجمة والتي يتوافر لها الاستخدام الطليق لقواتها الجوية لا بد وأن تنتصر على الدولة التي لم تعد تملك مثل هذا الاستخدام ولم تعد لها دفاعات ثابتة ضد الهجوم الجوي، والاستنتاج هنا منطقي وصحيح، ولكن الصعوبة هي في الوصول إلى هذه الدرجة من السيادة الجوية والتي

هي أكثر صعوبة مما قدر دوهيه من قبل، فإن دفاعات العدو الجوية والمضادة للجو تتشبث بالحياة إلى الدرجة التي تفرض ما يُحدد من هذه الطلاقة في استخدام القوة الجوية للأمة التي تقوم بالهجوم.

وقد قدر دوهيه التطور مستقبلًا على أساس إصراره على العامل الأساسي الثاني، وتفضيله الأغراض الصناعية على الأغراض العسكرية كأهداف للهجوم الجوي، ولم تكن هذه الفكرة جديدة فالكتب التي صدرت حتى قبل سنة ١٩١٤ قد تنبأت بإفناء المراكز الصناعية ومراكز السيطرة المالية بتدميرها من الجو على ما قدمنا فيها اقتبسناه منها، ولكن كان أول من جعل المنشآت الصناعية كأغراض للهجوم الجوي مركزًا لعقيدة عسكرية كاملة تطورت مع الزمن.

ولقد نمت أهمية الأغراض الصناعية ومحطات العدو الجوية كأغراض للهجوم الجوي، نمت مع مرور الزمن، ولكن نظرية دوهيه لاختيار الأغراض في ضوء الإفناء النسبي لمعنويات السكان المدنيين بقيت تتأرجح لسنوات طوال دون أن تحقق ما تستحقه من تقدير.

صحيح أنه قد يمكن في مكانٍ ما الوصول إلى نهاية مدى الاحتمال البشري، ولكن أصوات الأحياء من السكان الذين لم يقهروا من شنج كنج إلى كوفنتري[1] قد ارتفعت مؤكدة عدم إمكان الوصول إلى الحال التي تنبأ بها دوهيه.

ومن الضروري أن يُقال هنا أن دوهيه كان مُقدرًا مُعقبات ونتائج حشد الهجوم ضد السكان الذين لا تتوافر لهم قوة للدفاع عن أنفسهم إثر

(١) شنج كنج في الصين وكوفنتري في إنجلترا.

حصول العدو على السيادة الجوية، ولكن حتى مع هذا، فمن الواضح أنه لم يقدر تقديرًا صحيحًا الصلابة التي يمكن بها احتمال التدمير الجوي.

«وأود هنا أن أؤكد ناحية من المشكلة، ناحية تأثير مثل هذا الهجوم الجوي على الروح المعنوية وما يمكن أن يكون له من تأثير على سير الحرب وتوجيهها بأكثر مما يمكن أن يكون للمؤثرات المادية، فلنتصور – على سبيل المثال – المنطقة المركزية في مدينة كبيرة، ولنتصور ما يمكن أن يحدث بين السكان المدنيين أثناء عملية واحدة لهجوم جوي بواسطة وحدة واحدة من قاذفات القنابل، إنني لا أشك إطلاقًا في أن التأثير على الأهلين سيكون مخيفًا».

«وما يمكن أن يحدث لمدينة واحدة في يوم واحد يمكن أن يحدث لعشر مدن، لعشرين، لخمسين مدينة، ولما كانت الأنباء تسير بسرعة حتى بدون البرق والتليفون والمذياع فإني أتساءل عما يمكن أن يكون التأثير على السكان المدنيين في المدن الأخرى التي لم تتعرض بعد لهجوم قاذفات القنابل؟، وأي سلطة مدنية أو عسكرية تستطيع الاحتفاظ بالنظام مما يمكن من سير الخدمات العامة ومن تتابع الإنتاج بإزاء مثل هذا التهديد؟، وحتى لو أمكن قيام صورة من صور النظام وأمكن أداء بعض الأعمال فهل لا تستطيع طائرة واحدة أن تبعث الرعب في صفوف السكان؟، إن الذي سيحدث في إيجاز هو أن الحياة العادية ستكون مستحيلة في خضم هذا الحلم الهائل من التدمير والموت، ولو حدث في اليوم التالي أن عرضت عشر أو عشرون أو خمسون مدينة للتدمير بالقنابل فمن الذي يستطيع منع هذه الجماهير التي تعيش في رعب من الفرار والاندفاع نحو المناطق الريفية المكشوفة للفكاك من هذا الرعب الذي يجيء من الجو؟».

«الواقع أنه لا يمكن إلا أن يتحطم البناء الاجتماعي للدولة التي تتعرض لمثل هذا النوع الذي لا مثيل له من التدمير الجوي، وسيأتي قريبًا الوقت الذي تنتهي عنده المخاوف والآلام، ذلك لأن الجماهير نفسها تقف وقفة رجل واحد مطالبة بانتهاء الحرب، ويحدث هذا قبل أن يكون جيش بلادهم وأسطولها قد عبِئا للقتال»[١].

وقد وضعت نظرية دوهيه للتدمير من الجو على أساس عملية حسابية، وقد قدر أن عشرين طنًا من القنابل تكفي لتدمر تمامًا منطقة قطرها خمسمائة متر، ومعنى هذا الحاجة إلى ٢٥٠ طنًا من القنابل لتدمير منطقة ميل مربع، وهنا يقول دوهيه متسائلًا: **«فماذا يمكن أن يحدث لمدينة مثل لندن لو أمكن أن يدمر في وسطها منطقة أو اثنتان أو أربع كلٍ منها بقطر خمسمائة متر؟»** ويتابع تقديراته بقوله: **«أن أسطولًا من ألف قاذفة قنابل يستطيع أن يُدمر كل يوم خمسين منطقة من أمثال هذه المناطق»**.

وهنا يجب أن نُلاحظ الفرق بين هذه التقديرات التي خرج بها دوهيه وبين ما حدث فعلًا سنة ١٩٤٠ - ١٩٤١، أو بين ما قدره دوهيه من أوزان القنابل وبين ما استهلكه السلاح الجوي البريطاني في إغاراته على ألمانيا لتحقيق نتائج أقل بكثير مما صوره دوهيه، هذه الفروق توضح لنا أن دوهيه لم يُقدر تقديرًا كافيًا قلة ما تسببه القنابل عندما تسقط على مناطق قوية البناء، كما أنه قد زاد من تقديره لإحكام الرمي ودقة إصابة الطائرات لأهدافها وهي على ارتفاع كبير، فضلًا عن أنه لم يقدر كذلك التكرار الذي يحدث عندما تهاجم الطائرات مناطق قد سبق أن دمرتها هي أو غيرها في إغارات

(١) «السيادة على الجو» ص ٥٧ - ٥٨.

سابقة.

لقد صدقت تقديرات دوهيه بالنسبة لإلقاء أطنان القنابل على الدور الصغيرة، ولكن هذا المدى لقطر المنطقة التي تعرض للتدمير الكامل بفعل طن واحد من القنابل لم يكن صحيحًا بالنسبة للقنابل التي تسقط في طرقات المدن الكبرى حيث توجد الأبنية المتعددة الطبقات والمشيدة من الأحجار وبخاصة بالنسبة لتلك المشيدة من الحديد والأسمنت.

* * *

على أن دوهيه كان صائب الرأي في تقديره للدور الأساسي الذي يمكن أن تلعبه القنبلة الحارقة، ولكن تقديره للاستخدام الواسع المدى لقنابل الغازات لم يوضع موضع التجربة العملية حتى اليوم، ويجب ملاحظة أن دوهيه لم يضع موضع التقدير التحديدات التي تمنع استخدام مثل هذا السلاح؛ وفي كلمات يمكن أن تتقبل على أنها من ناحية منطقية تمثل وجهات نظر دوهيه المؤلف في أسلوب قصصي يتحدث به عن حرب المستقبل فيقول: «**وفي مواجهة المصلحة الذاتية لغريزة البقاء تفقد كل عقيدة قيمتها ويفقد كل ارتباط قيمته، وتضيع موازين كل المسائل الإنسانية، ويكون المبدأ الوحيد الذي يوضع موضع التقدير والاعتبار الحاجة إلى قتل الناس بدلًا من أن يواجه الفرد نفسه أن يقتل هو !!**»[1].

ومع أن كتابات دوهيه قد أعطت القوات التي تعمل على سطح الأرض وعلى سطح البحر الواجب الدفاعي باحتلال خط وراء تحصينات دائمة أو في خنادق محفورة، ومع إعطاء واجب دفاعي مماثل للقوات

(١) نفس المرجع ص ٣٠٩.

البحرية إلا أن التطور الصحيح في استخدام القوة الجوية سيجعل سير الحوادث سريعًا بالقدر الذي يكفي لجعل مقاومة قليلة قادرة لتعطيل قوات العدو البرية أو البحرية عن القيام بأي ضرر قبل أن تكون النهاية قد تقررت بصورة أخرى.

ويُصور دوهيه في تقديراته للحرب المقبلة[١] فرنسا وقد تحولت أربع من مدنها إلى ركام مُحترق بعد ساعة واحدة، مطالبة بالسلم قبل مرور ستٍ وثلاثين ساعة من بدء القتال.

وكان دوهيه أكثر من أي كاتب آخر وقبل أي كاتب آخر قد تحدث عن إمكان تحقيق النصر السريع[٢]، ولهذا فقد قدر اخصائيون أن الحرب التي بدأت سنة ١٩٣٩ ستحقق نهايتها في مدى أيام قليلة من بداية القتال الجدي[٣].

ومع أن دوهيه كان من رجال العلم والصناعة إلا أنه لم يكشف إلا عن القليل من المعرفة والدراية بالهندسة الجوية، وكالكثيرين غيره ممن كتبوا عن الموضوع فإنه قد رأى الطائرة كآلة رخيصة أبسط مما هي حقًّا، كما أنه قدر إمكان سرعة تغيير أوجه استخدامها بتعديل بسيط في معداتها في الميدان ولم يكن لهذا نصيب كبير من الحقيقة على ما هو الواقع، وقد خرج بالاصطلاح «**طائرة المعركة**» – الاصطلاح الذي ذكر في إحدى صور

---

(١) Douhet" The War of ١٩— "as it appears in The Command of the Air, pp. ٣٧٤ – ٣٨٩.

(٢) راجع على سبيل المثال:

Stuart Chase," The Two-Hour War", Men and Machines (New York: The Macmillan Co., ١٩٢٩) p. ٣٠٧.

(٣) انظر:

Inter alia, Alford J. Williams, quoted in Time (October ٢٣, ١٩٣٩), p. ٣٢.

نظريته – نتيجة تقديره أن القنابل أو الوقود العامل الذي يحول الطائرة من سلاح هجومي إلى سلاح دفاعي؛ *والواقع* أن شيئًا مثل هذا لم يكن مُستطاعًا في عصره أو لم يكن سهلًا ميسورًا على الأقل عندما كتب هذه الكلمات، ثم ازدادت صعوبته فضلًا عن أنه لم يكن عمليًا تبعًا لزيادة طابع التخصص منذ ذلك الوقت، وهو لم يقلل من قيمة طائرة القتال ولكنه رأى أن خاصياتها وواجباتها يجب أن تكون مماثلة لخاصيات وواجبات قاذفة القنابل، كما رأى بأنه تطور غير اقتصادي لو اضطرت أمة أن تبني طائرات لا تستطيع أن تفعل شيئًا إلا أن تقاتل.

وفي السنوات التي سبقت سنة ١٩٣٩ كان الكثيرون من الضباط ذوي التجربة في العمليات يشاركون دوهيه آراءه عن تناقص أهمية طائرة القتال، ولكن كانت وجهات نظرهم في أسباب هذا تباين الأسباب التي يستند إليها دوهيه في تقديره، ومع هذا فإن التجربة العملية لثلاث سنوات في الحرب قد وضعت طائرة القتال ذات المقعد الواحد في المكانة الأولى من الأهمية، ولكن حقيقة استطاعة تشكيلات قاذفات القنابل الأمريكية في غرب أوروبا أن تخترق في أواخر سنة ١٩٤٢ وفي سنة ١٩٤٣ نطاقات كثيفة من طائرات القتال المهاجمة دون أن تتكبد خسائر فادحة ربما تكون هذه الحقيقة سندًا يُعضد اعتقادات دوهيه، ولكن التجارب التي أمكن أن تمر بها القوات الجوية حتى كتابة هذا الفصل من الكتاب لا يمكن أن تقرر شيئًا حاسمًا ولا أن تمكن من إصدار قرار قاطع في هذا الشأن، ولا أن تمكن من تصديق ما يقوله دوهيه عن تناقص أهمية طائرة القتال.

ولكن دوهيه سار بفكرته في تماثل الخاصيات وتشابهها إلى أبعد مما تقدم ورأى امتزاج الاستخدام العسكري والمدني للطائرة: «**فنحن عندما**

نفحص بعناية الخاصيات لطائرات القتال وقاذفات القنابل في ضوء التعريف الذي حاولت تحديده لكل، فإننا نستطيع أن نجد في سهولة ويُسر أنها تكاد من وجهة عامة تتماثل وتتشابه مع خاصيات الطيران المدني، ومهما قيل أو عمل فإن قاذفة القنابل طائرة نقل متوسطة السرعة يتوافر لها مدى عمل كافٍ أعدت بخاصة لحمل القنابل، وبالتفهم المتبادل أو بمعنى أدق بالتعاون المتبادل بين الطيران الحربي والمدني يمكن أن تحول الطائرات المدنية إلى طائرات عسكرية عند الحاجة، وهذا بدوره أنه حسب التطور والتقدم في الطيران المدني فإن القوات الجوية المستقلة تستطيع أن تعتمد في الكثير من احتياجاتها وفي الكثير من معداتها، أن تعتمد على ما يُحققه الطيران المدني من تقدم بالإضافة إلى ما يتم من تقدم عسكري»[1].

وقد أدرك أن مثل هذه الطائرات لن تكون مثالية للأغراض العسكرية ولا للأغراض المدنية، ومن ثم فقد تابع حديثه: «**وسيكون من الضروري دائمًا التكيف بين كلا النقيضين، فالحرب يخوض غمارها حشود الأفراد، والحشود تجمع بين طوابع في المعدل العام، ومن ثم فإن القوة الجوية تحتاج إلى طائرات لها خاصيات متوسطة في «المعدل»(*) أشبه بتلك التي للطائرات المدنية»**.

وقد يكون من الضروري أن نسجل هنا أنه بعد سنة ١٩٢٧ بدأت ثقة دوهيه في الاستخدام العسكري المباشر لطائرات النقل المدنية قد بدأت تذوى، وأنه قد بدأ ينظر إلى هذه الطائرات في كل كتاباته في تاريخ متأخر لاحق لسنة ١٩٢٧ على أنها طائرات احتياطية يمكن أن تقوم بواجبات

(١) The Command of the Air, pp. ٤٧ – ٤٨.

(*) تقابل كلمة Avarage.

ثانوية.

على أن القول بأن الحرب تخوض غمارها مُحتشدات من الأفراد، والقول بأن استخدام الطائرات المدنية المحولة إلى طائرات عسكرية قد يكون ضروريًا بقصد الاقتصاد، قد يكون هذا وذاك يتعارضان إلى حدٍ ما مع ما اعتاده دوهيه من التفاؤل الكبير بإمكان الاقتصاد في العمليات الجوية، ولهذا فإنه:

«من السهل إنشاء أسطول جوي تتوافر له كفاية إسقاط مئات الأطنان من القنابل ...

«لا تحتاج هذه المقذوفات (القنابل) إلى مواد خاصة في صنعها ولا تتطلب دقة في صناعتها ...

«تتطلب القوة الجوية الكافية للحصول على السيادة الجوية وبخاصة في المرحلة الأولى من الصراع، تتطلب أسلحة محدودة، وعددًا محدودًا من الأفراد، وموارد مالية محدودة، وهذه القوة يمكن أن تنظم دون اجتذاب انتباه الدول التي يمكن أن تقف في صف الأعداء».

* * *

وفي تصوير دوهيه لحرب المستقبل[١] صور الألمان على أنهم يملكون ١٥٠٠ قاذفة قنابل فقط، منها ١٠٠ من قاذفات القنابل الثقيلة، أي قاذفات القنابل في زنة وقوة القاذفات الثقيلة لسنة ١٩٤٢ كالقاذفات الأمريكية (القلاع الطائرة) و (ليبريتور) وكالقاذفات (لا نكاستر) البريطانية.

(١) The Command of the Air, p. ٣٣٧.

وقد قدر في وصفه التخيلي للحرب أن ثلث هذا العدد قد فقد في اليوم الأول للحرب، ولكن الألمان في نفس الوقت نجحوا في تحطيم أغلب طائرات القتال الفرنسية التي وجهت للعمل ضدهم، وقد سبب هذا أن ترك الألمان ومجرى الحوادث للمستقبل في أيديهم.

والواقع أنها لمسافة تستحق الملاحظة أن يقال بأن أسطولًا جويًا منتصرًا يمكن أن يفقد ثلث عدد طائراته في اليوم الأول للقتال؛ ودوهيه لم يكن ليؤمن بالاحتياطي بل هو يرى أن كل القوة الجوية يجب أن يلقى بها على المسرح فور ابتداء القتال، والاحتفاظ بأي عدد من الطائرات معناه إتباع سياسة دفاعية، وهذه مسألة أكثر نفقات وأقل تأثيرًا من الهجوم الطليق الجريء غير المحدود بقصد التحطيم المباشر لقواعد العدو وموارده.

* * *

على أن دوهيه في إصراره على قيمة الهجوم أبعد من حسابه التدابير الدفاعية دون تقدير لإمكان أن تمر هي الأخرى بمرحلة تطور فني، ولقد فشل بخاصة ليقدر التطور غير العادي لإحكام معرفة مكان طائرات العدو بواسطة الراديو، كما أنه قدر أن إمكان تدخل طائرات القتال ضد قاذفات القنابل للعدو ليس أكثر من جد (حظ)، وأغفل من حسابه النيران المضادة للطائرات بقوله: «**إنَّ استخدام المدفعية ضد الطائرات ليس إلا إسرافًا لا فائدة منه في الجهد والذخيرة**»، ولم يفكر إلا قليلًا في دفاع جوي أفضل، وكان يكرر دائمًا بعض الحقائق التاريخية السابقة، «**من أن كل هجوم جوي نُفِّذ بجرأة في الحرب العالمية (١٩١٤ – ١٩١٨) حقق أهدافه**».

على أن أسوأ ما كان بعدما فشل دوهيه في تقديره، كان فشله في تقدير

التطور الفني – سواء أحكم على هذا في معدل آراء التكتيكيين الجويين الأخصائيين ممن عاصروه، أم حكم في ضوء التجارب التي مرت أمامه طوال الخمس عشرة السنة التالية – إنما كان في عدم تقدير ميزة السرعة للطائرة العسكرية، ولعله كان متأثرًا بطبيعة الأوضاع في السلاح البحري، ولهذا فإنه عُنِي العناية كلها بالقوة لا بالسرعة وقدم قاذفة القنابل على طائرة القتال.

ولكن دوهيه لم يغفل السرعة إغفالا تامًا، بل أنه ليذكرها كخاصية مطلوبة، ولكنه لا يلبث أن يعود ثانية للقول بأنها ميزة ثانوية عندما تقارن بالعوامل الأخرى، «**وسواء أكانت قاذفات للقنابل أم طائرات للقتال فإنها لا تحتاج إلى أكثر من سرعة متوسطة ولا حاجة لتوجيه الاهتمام كله إلى السرعة، ولن يجيء هذا التطور الفني لقاذفات القنابل ولطائرات القتال إلا بالقليل من الأهمية، ومع الاحتفاظ بعد تغيير الخاصيات الأساسية الأخرى فإن سرعة قاذفات القنابل وطائرات القتال ستكون بين عشرة وعشرين ميلًا في الساعة**»[١].

وكان صائب الرأي في توقع أهمية قاذفة القنابل الثقيلة، كان على حق في وقت كان القليلون وحدهم هم الذين يرون إمكان استخدام مبدأ التدريع في الطائرات، ولكنه كان مخطئًا بقدر كبير في وقوفه موقف التضاد نسبيًا من عامل السرعة الذي بقي في الواقع واحدًا من أهم الخاصيات الحاسمة الأهمية في أي سلاح عسكري.

على أن خطأ دوهيه فيما يختص بعامل السرعة كان في درجة تقديره

(١) The Command of the Air PP. ٤٧ – ٤٨.

لهذا العامل، ولكنه – فيما أخطأ فيه غير هذا – ضل طريقه إلى حد ارتكابه أخطاء جسيمة في الحقائق الفنية، فهو على سبيل المثال قد اعتقد أن أقل ما تحتاج إليه الطائرة من قوة لتطير، يمكن أن يخفض مع زيادة ارتفاع الطائرة، أي أن الطائرة كلما زاد ارتفاعها قل ما تحتاج إليه من قوة لتطير، وفسر هذا بأن سرعة الطائرة تتضاعف بزيادة الارتفاع بسبب تناقص كثافة الهواء[١] (الواقع أن زيادة السرعة الناتجة عن زيادة الارتفاع ليست بنسبة ١٠٠٪ بل بنسبة تقل قليلًا عن ٢٥٪)، وإن الطائرات الكبيرة جدًّا «**ربما لا تستطيع الهبوط أو الصعود إلا من وعلى طبقة سائلة ولهذا يجب أن تنشئ بحيرات صناعية لهبوط الطائرات**».

وتبعًا لقلة ما توافر لدوهيه من معلومات عن بعض هذه المسائل فإنه كان حذرًا في تنبؤاته الفنية إلى حد أن كتبه جاءت خلوًا من المبالغة في الوعود بالطاقة الفنية المتوقع أن تتحقق مباشرة أو مستقبلًا للطائرات الأمر الذي تنكب فيه غيره من الكتَّاب الذين تعرضوا لدراسة القوة الجوية.

وبالإضافة إلى النتائج التي انتهى إليها عن كيفية توجيه الحملة للانتفاع بالقوة الاكتساحية التي للسلاح الجوي، - بالإضافة إلى هذا – كانت لدوهيه آراء عن التنظيم العسكري وعن السياسة العامة، ولقد كان مدافعًا لا تلين قناته لمبدأ (التوحيد) وحدة التنظيم العسكري والبحري والجوي، وبعد سنوات قليلة من سنة ١٩١٨:كان يتحدث عن (الحرب الشاملة)، وكتب سنة١٩٢١«**لقد أعطت الصور القائمة للتنظيم الاجتماعي، أعطت الحرب طابعًا شاملًا قوميًا، ذلك أن كل أفراد الأمة ومواردها تنغمر**

(١) The Command of the Air, p. ٦٧.

في خضم الحرب، ولما كان المجتمع يسير في هذا الاتجاه فمن الممكن للإنسان أن يتنبأ من الآن بالطابع الشامل الذي سيكون للحرب»[١].

«هناك نظريات للحرب البرية، وللحرب البحرية، وللحرب الجوية، وهذه النظريات قائمة موجودة وتتطور، ولكن نظرية «الحرب» في جملتها نظرية لم تعرف بعد»، وقد وقف إلى جانب تنظيم دفاع قومي عن طريق وزارة مركزية، وقد سره في سنة ١٩٢٧ أن يشهد قيام هذه الوزارة (المركزية) في روما.

لقد كان تأثير كتابات دوهيه بعيد المدى، والكثير مما قال دعمته وأكدت منه تجارب الكتاب الذين جاءوا بعده، ولكن الكثير أيضًا مما كتب ثبت من جانب آخر أنه مليء بتفاؤل زائد عن الحد أو أنه تقدير خاطيء، وقد ثبت أثناء الحرب العالمية الثانية أن بعض معتقدات دوهيه لم تكن سليمة منطقية، ومع هذا فإن اتجاه التطورات كان إلى حد ما في جانب ما تنبأ به دوهيه اللهم إلا فيما قال عن تصميم الطائرة، فلقد ضل دوهيه الطريق في حديثه عن هذا وعن الخاصيات التي ستكون للطائرة التي ستستخدم في حروب المستقبل، ولكن قراره عن الأساليب التي ستستخدم فيها هذه الطائرة كان صالحًا في سنة ١٩٤٣ أكثر مما كان من الممكن إثبات هذا في ضوء ماجريات الأمور في عصره، ولكن من المحتمل أن تصل التطورات القادمة - في الطاقة التي ستكون للطائرة - بجهود القادة العسكريين إلى ما يقرب من الوسائل والأساليب التي قدرها دوهيه.

وما قاله دوهيه عن حشد الجهود لتدمير منطقة صغيرة وعن اختيار الأغراض الصناعية، وعن بناء قاذفات قنابل ضخمة قوية التسليح

---

(١) The Command of the Air pp. ٥ - ٦.

والتدريع للدفاع عن نفسها – وإن كان هذا لم يتبع تمامًا ما رآه دوهيه من عدم الحاجة إلى حماية قاذفات القنابل بطائرات مقاتلة – كل هذا الذي قاله دوهيه يبدو واضحًا اليوم، وقد نظم كل هذا وطبق في أثناء الحرب العالمية الثانية، ولكن كان دوهيه في الواقع هو الذي أعطى هذه الآراء الطابع القوي طوال سنوات التجربة في الحقبتين الثانية والثالثة من القرن العشرين.

ونستطيع أن نقدر أن دراسات دوهيه حظيت بعناية الباحثين العسكريين الجادين، نستطيع أن نقدر هذا من أن ضابطًا له شهرته ومكانته مثل الكولونيل ب. ڤوتيير P. Vauthier قد وجد الوقت الذي يعد فيه دراسة نقدية لكتاب دوهيه[1]، وأن يكتب المقدمة لذلك المجلد الكبير (تحمل المقدمة تاريخ السابع من يونيو سنة ١٩٣٤).

إن دراسة دوهيه لمورد لا ينضب من الانعكاسات والتصورات، والعقيدة الممتازة التي صاغها قد يكون لهما تأثير حاسم على الحوادث القادمة، ويوضح في دراساته التمهيدية وفي وسائله التي استخدمها، النتائج التي رسم بدراساته السبل المؤدية إليها، ولهذا فلا يجب أن نترفق في تعاملنا معه ولا ننظر إلى الرجل الذي قد يعتبر في المستقبل نبيًا على أن ما كتبه حلم مثالي.

وهذه السطور القليلة لم تنقل من كتابات شاب وثّاب متطلع بل إنها تحمل توقيع الماريشال بيتان(*).

---

(١) La Doctrine de Guerre du General Douhet (Paris, ١٩٣٥).

(*) بيتان Marshal Petain هنري فيليب بيتان – مارشال فرنسا سنة ١٩١٨ بطل فردون في الحرب العالمية الأولى، رئيس وزراء حكومة فيشي الفرنسية ١٩٤٠ – ١٩٤٤، حوكم بتهمة الخيانة سنة ١٩٤٥، وكانت محاكمته والحكم عليه مثار تعليقات فقهية ويوجد=

إن قاذفات القنابل ليست بمنجاة من العمل المضاد سواء من الجو أو من الأرض ولكنها – نسبيًا – أقل تعرضًا مما كانت منذ عشرين سنة (لاحظ أن هذا الفصل كتب سنة ١٩٤٧/ ١٩٤٨)، كما يجب ملاحظة أن الافتراضات الأساسية التي قدرها دوهيه لاعتبار الطائرة سلاحًا لا يقهر وأنها أكبر قوة وأكثر اقتصادًا من أي سلاح آخر، هذه الافتراضات التي لم تتوافر لها الدعائم التي تثبتها في أيام دوهيه قد وصلت اليوم إلى الحد الذي يجعلها قريبة جدًّا مما قال دوهيه، ومع مرور عشرين سنة أخرى في تطور علم الجو ستكون أقرب بكثير مما هي الآن ولاشك؛ إن الرجال الذين كانوا يحتملون مسئولية تنظيم الأمن القومي في أيام دوهيه كان عليهم أن يعتمدوا على الأسلحة التي كانت موجودة يوم ذاك، وفي هذه الحال نستطيع أن نقول بأن نظريات دوهيه قد صيغت للمستقبل، وأنها كانت أقل صلاحية للتطبيق بالوسائل التي كانت موجودة في عصره فيما لو قورنت بما وصلت إليه هذه الوسائل فيما بعد أيام دوهيه.

على أن الباحثين في شئون القوة الجوية في عصر دوهيه قد تقبلوا مبدأ الاستثناء بالنسبة للافتراضات العسكرية التي جاءت في استنتاجاته بل وفي هذه الاستنتاجات نفسها من ناحية النظر إليها كموجه كافٍ في العمليات الجوية.

=كتاب بالعربية عن القضية من قلم الدكتور مصطفى الحفناوي طبع القاهرة.

ومن الصحيح أن بيتان قد استسلم للألمان وكان هو الذي أنهى القتال في ١٦ يونيو سنة ١٩٤٠، وقد حوكم بيتان بعد الحرب العالمية الثانية وأدانه قضائه ولكن لا محل لمناقشة هذا اليوم، ولكن بيتان قبل كل شيء كاتب عسكري له مكانته في المكتبة العسكرية العالمية ما في هذا من شك. (المترجم)

ولقد عزا الـچنرال جولوڤين[1] General Golovine مع غيره هذا التقدير الكبير الذي نظر به دوهيه إلى التأثير التدميري للقنابل في الروح المعنوية للمدنيين، ولقد دعمت التجارب منذ سنة ١٩٣٩ نظريات وآراء أولئك الذين نقدوا دوهيه بأكثر مما تدعم آراء دوهيه نفسه، ولكن بالنسبة للمبادئ العامة كان الوقت إلى جانب دوهيه، ولكن افتراضاته عن كمية الجهد اللازم لتحقيق تأثير محدد معين كانت مليئة بالمبالغة مثلها مثل كل ما جاء في كتابات أولئك الذين وقفوا إلى جانب تقدير السيادة للسلاح الجوي.

وكانت نظرية دوهيه قاعدة السياسة الإيطالية ولم تطبق في أي دولة أوروبية بالقدر الذي طبقت به في إيطاليا، ولقد تبعت ألمانيا التي بعثت طائراتها الرعب في أوروبا من سنة ١٩٣٨ حتى أثبتت معركة بريطانيا خطأ القول بأن الطائرة سلاح لا يُقهر – اتبعت نظرية دوهيه في حشد كل الجهد لتدمير قوات العدو الجوية وهي على الأرض واكتساح قواعد العدو الجوية، ولكنها لم تتبع نظريته تمامًا من ناحية الاحتفاظ بالتعاون المستمر بين القوات الجوية وبين القوات البرية والبحرية، ولم تتبعها كذلك في الإبقاء على القوات البرية والبحرية للقيام بواجب دفاعي معاون، وكذلك لم تتبعها باستخدامها قاذفات القنابل الخفيفة بدلًا من قاذفات القنابل الثقيلة، وعندما وصلت القوة الجوية الألمانية إلى ما يقرب من نظرية دوهيه فوق بريطانيا سنة ١٩٤٠ فإنها فشلت، وإن كان من المؤكد أن هذا الهجوم الجوي كان من الممكن أن ينجح لو توافرت للألمان السبل والوسائل لتقوم بالهجوم في مدى أوسع ولاستطاعت القيام به لوقت أطول.

---

(١) N. N. Golovine "Air Strategy", Royal Air Force Quarterly, (April, ١٩٣٦), p. ١٦٩.

وقد لا يكون من هدف هذه الدراسة مناقشة مسألة ما إذا كان التطور في صناعة الطائرة وفي تسليحها قد وصل يوم ذاك إلى المرحلة التي تمكن من النجاح في توجيه الحرب تبعًا للأسلوب الذي وضعه دوهيه؛ وهل كان الألمان يمكن أن يحققوا نجاحًا أكبر – أو بمعنى أدق – هل كان من الأفضل للألمان – من وجهة نظرهم – أن يُنشئوا صناعة أكبر للطائرات وأن يوجدوا في السلاح الجوي قوة عددية أكبر، أي أن يوجهوا إلى صناعة الطائرات من المواد والأفراد أكثر مما وجهوا للدبابات والمدفعية والغواصات والسفن التي تشق عباب البحر مقاتلة فوق سطح الماء، مع نقل جزء من قواتهم البرية والبحرية إلى السلاح الجوي وتوجيه الجزء الأكبر مما تبقى بعد ذلك للعمل في صناعة الطائرات؟؛ وهل من السياسة الحكيمة أن يتبع الأمريكان نفس الأسلوب في الوقت الحاضر؟

لقد نوقشت هذه المسألة بمختلف اتجاهاتها، وهنا يجب أن يُلاحظ بأنه من المؤكد أن حشد هذه الجهود – هذا الحشد الفريد في نوعه – وتوجيهها كلها للسلاح الجوي ولصناعة الطائرات مسألة مُستطاعة اليوم (في سنة ١٩٤٣)، أكثر مما كانت منذ عشر أو عشرين سنة، كما أنها ستكون أيسر وأصلح بعد عشر سنوات أخرى قادمة.

- ٣ -

وجاء نشاط الـچنرال ميتشل في نفس الوقت تقريبًا مع نشاط دوهيه، كان هناك الكثير الذي تماثل فيه الاثنان، ولكن اطلاق اسم دوهيه لا ميتشل على الكثير من النظريات التي تماثلت آراء الاثنين بشأنها إنما يرجع جزئيًا إلى المصادفة، كما يرجع من ناحية إلى قدرة دوهيه على تقديم استنتاجاته التي

خرج بها من دراسته في صورة أوضح وفي أسلوب كتابي أكثر تنسيقًا، كما يرجع كذلك إلى تزايد الاهتمام بالدراسات العسكرية في أوروبا عنه في الولايات المتحدة.

ولكن مع هذا كان هناك تباين واسع المدى بين الاثنين، ولهذا التباين بعض الأهمية، ذلك لأن الأسلوب الذي استخدم في المناقشات بين الجماعتين المتضادين في اختلافهما على المكانة التي للسلاح الجوي كان انعكاسًا لتكتيكات أولئك الذين كانوا أكثر نشاطًا من غيرهم في الجانبين المتضادين.

كان ميتشل يتحدث ويكتب كمواطن مقاتل يفقد صبره بسرعة ولا يستطيع احتمال المعارضة، ومع فقده للصبر تدريجيًا تتزايد في اتجاه عكسي حملته على خصومه «أولئك الذين تعميهم المصلحة، غير الأمناء الذين يقفون بغباء وحماقة موقفًا رجعيًا». وقد أجاب عليه خصومه بنفس الأسلوب العنيف وأضحى الخلاف أكثر مرارة.

وبقي دوهيه مُحتفظًا بطابع الطالب الذي يبحث بصبر عن الحقيقة، حتى في مناقشته لخصومه، وقد كتب: «ليس لي ولا للچنرال باستيكو Bastico ولا لأي فرد آخر أن يُحدد السيادة في الحرب لسلاح خاص، فإذا كان لأي سلاح من أسلحة الحرب هذه الأهمية التي تُغطي على ما يمكن أن يكون من الأهمية لغيره من الأسلحة فلن يكون هذا بسبب الرغبة البشرية بل بسبب أن الحقائق التي لا يمكن الكشف عنها هي التي تقول هذا، فإذا كان للسلاح «الجوي – الكيميائي» aero-chemical الدور الحاسم في حرب المستقبل فلن يكون هذا بعملي أنا ولن أستحق من أجل هذا لا المديح ولا

اللوم»[١].

وقد اشترك ميتشل إلى حدٍ ما مع دوهيه – حتى دون أن يحظى بثقة الأخير تمامًا – اشترك معه في أهمية ا لهجوم على البناء الاقتصادي الصناعي للعدو، كما اتفق معه في التحطيم المقارن لمعنويات المدنيين، وهو كدوهيه قد آمن بإمكان شل النشاط الإداري والصناعي بواسطة عمليات تدمير قليلة نسبيًا، وقد قال في حديثه عن احتمال قيام العدو بالهجوم على المدن الرئيسية في الولايات المتحدة: «ليس من الضروري أن تدمر هذه المدن بمعنى أن تتحطم كل دار فيها تحطيمًا كاملًا تتحول معه إلى ركام من الأنقاض، إنه ليكفي أن يضطر السكان المدنيون لترك دورهم فلا يستطيعوا القيام بأعمالهم العادية، وعدد قليل من القنابل المشحونة بالغاز يكفي لتحقيق هذا»[٢].

ولقد أسقط على لندن في سنتي ١٩٤٠ و ١٩٤١ عدة آلاف من الأطنان من القنابل ومع ذلك بقيت الحياة في المدينة تتبع مسيرها العادي، ولم يحدث إلا أن جزءًا قليلًا جدًّا من مبانيها لم يعد صالحًا للإقامة.

«وسيسبب تهديد أي مدينة في المستقبل بالتدمير الجوي أن يجلو عنها أهلوها وأن يتوقف العمل في مصانعها ومن الضروري لتحقيق نصر حاسم في الحرب يجب تحطيم قوة الأمة المعادية، ومعنى هذا تحطيم المصانع، وسائل الواصلات، مناطق إنتاج الأغذية بل وحتى تدمير الحقول ومناطق الإمداد بالوقود، وكذلك الأماكن التي يعيش فيها الناس والتي يقومون فيها

(١) فوثيير نفس المرجع ص ١٢١ فقرة من خطاب كتبه الـچنرال دوهيه. راجع أيضاً: The Command of the Air, pp. ٢٥١ – ٢٦٢.

(٢) William Mitchell, Skyways-A Bock on Modern Aeronautics (Philadelphia and London: J. B. Lippincott Co., ١٩٣٠), P. ٢٦٢.

بأعمالهم اليومية في الحياة، وكل ما تستطيع القيام به في وقت قصير الطائرات التي تعمل في قلب أرض العدو»[١].

«على أن القوة البحرية التي تستطيع أن تتجه مباشرة إلى هذه المراكز الحاسمة الأهمية فتحطمها أو تشلها عن العمل قد أعطت طابعًا جديدًا تمامًا على الأسلوب العادي للحرب، ومن المعروف الآن أن جيش العدو الرئيسي هدف زائف، أما الأغراض الحقيقية فهي المراكز ذات الأهمية.. وستكون نتيجة الحرب الجوية تحقيق قرارات سريعة، أن القوة الجوية هي التي ستحقق أفضل النتائج بالقدر الذي يكون معه من المستحيل على العدو متابعة الحرب لمدى طويل»[٢].

وقد وجه ميتشل في أولى كتاباته بعد سنة ١٩١٨ مزيدًا من اهتمامه إلى التعاون بين القوات الجوية والقوات البرية، ولكن مع مرور الوقت قل تقديره للقوات البرية حتى كانت في وضع ثانوي الأهمية، ومن ثم زادت بالتبعية ثقته في الطاقة الفنية للطائرات.

على أن ميتشل مع هذا تابع فكرته عن الأهمية الكبيرة لاستخدام القوة الجوية لتدمير قوات العدو على البر وعلى سطح الماء[*]، وقد اختلف مع دوهيه في هذا المجال، فلقد كان دوهيه عازفًا عن هذه القوات معنيًا بتدمير كتلة السكان وموارد الأمة من خلفهم، وهذا الخلاف في وجهات النظر بين

---

(١) Mitchell,Winged Defense (New york and London: G, P, Putnam's Sons, ١٩٢٥) PP ١٢٦ – ١٢٧.

(٢) Skyways PP. ٢٥٥ – ٢٥٦.

(*) يكثر ادورد وارنر من استخدام اصطلاح Enemy Surface Forces ويقصد بها الأسلحة البرية المقاتلة على أنها يمكن أن تعني القوات التي تنقلها السفن.

الرجلين يرجع جزئيًّا إلى الخلاف بين انعكاسات الفكر على النظرية القومية والنظرية الجغرافية لكلٍ منهما.

والواقع أن طاقة الطائرة على جعل أي سفينة تسير فوق سطح الماء مجرد عائمة تطفو فوق الماء ولا قيمة عسكرية لها قد أثرت في آراء ميتشل ومعتقداته، ويتضح هذا من قوله:

«**فإذا سقطت قنبلة زنة ألفي رطل على مقربة من سفينة وفي مدى مائتي قدم منها فإن التأثير التدميري أسفل سطح الماء يكون كبيرًا إلى حد إحداث ثغرة في قاع السفينة وجعلها تغرق**»(١)، ولقد غرقت حقًّا سفن كثيرة في الحرب العالمية الثانية وبوسائل أيسر من هذا.

«**ومن المحتمل أن الحروب المقبلة ستوجه بواسطة سلاح خاص هو القوى الجوية على مثال ما حدث بواسطة الفرسان لابسي الدروع في القرون الوسطى، ومرة ثانية كذلك لن تكون من حاجة لاستدعاء كل أبناء الأمة في حال الطوارئ بل يستدعي فقط العدد الكافي من الرجال لقيادة هذه الآلات والتي هي القوة الأساسية في الدفاع القومي**»(٢).

ولقد كان الـچنرال ميتشل – تبعًا لتجاريبه الشخصية كطيار عسكري ولتوليه قيادة قوات جوية في المعركة – كان تبعًا لهذا أكثر دراية من دوهيه بالمشكلات التكتيكية، ولقد استخدم ما توافر له من موهبة لتطور الأساليب التكتيكية القائمة، ومن أهم مقترحاته التي تدل على بعد نظره فكرة استخدام جنود المظلات خلف خطوط العدو سنة ١٩١٨.

---

(١) نفس المرجع ص ٢٦٧.

(٢) Winged Defence p. ١٩.

ولقد تجنب ميتشل خطأ دوهيه في العمل على إيجاد طائرة متعددة الأغراض، واحتلت طائرة القتال مكانًا رئيسيًا في مشروع للحرب، حيثما اصطدمت القوات الجوية المتضادة اصطدامًا مباشرًا.

ولقد كتب دوهيه: ثبت في الحرب الأوروبية أن الدفاع المؤثر الوحيد ضد الهجوم الجوي هو اكتساح قوات العدو الجوية وطردها من جو المعارك[1].

وكان ميتشل أكثر دراية من دوهيه في كل المسائل ذات الخاصية الفنية، وفي كل المسائل التفصيلية الخاصة بالعمليات، وقاده هذا إلى المبالغة في تقدير السرعة التي سيسير فيها التقدم الفني في المستقبل القريب، بل وحتى المبالغة في الاحتمالات التي سيمكن تحقيقها فور انتهائه من كتاباته، فهو على سبيل المثال قد كتب:

«**إنني أستطيع أن أقول الآن على وجه التأكيد أننا نستطيع الدوران حول الكرة الأرضية في قوت قصير، ودون ما حاجة إلى تجديد ما في الطائرة من الوقود السائل**»[2]، لقد مرت سبع عشرة سنة على هذه النبوءة، ولم يتم تحقيقها بعد (يُلاحظ أن هذه الدراسة كتبها وارنر سنة ١٩٤٣، ومن الممكن إتمام هذه الرحلة بالوقود الذري لا بالوقود السائل).

***

على أن أهم ما في الخلاف بين الرجلين فيما أسهما به في الفكر العسكري كان في التباين بين النظرات الجغرافية لكلٍّ.

ولقد كتب دوهيه كإيطالي واختبر نظرياته في ضوء استخدام إيطاليا

(١) نفس المرجع ص ١٩٩.
(٢) نفس المرجع ص ١٣٩.

لها، أي في ضوء تقدير دولة تقع كل الدول المعادية لها على مسافات قصيرة جويًّا، وكدولة تحمي الجبال حدودها ضد غزو بري سريع.

ومن الطبيعي أن أول ما أفكر فيه هو موقفنا نحن واحتمال القتال بين إيطاليا وبين واحدة من الدول المعادية لها المحتمل اشتباكها معها في القتال، ولهذا فإنني أقرر أنني قد وضعت هذا نُصب عيني عند تقديري لهذه النظريات التي أعرضها هنا، ولهذا فلا يجوز تقدير صلاحية هذه النظريات كلها لتطبق عمليًّا بواسطة كل الدول الأخرى، ولا يجوز إطلاقها إطلاقًا عامًّا، وعندما ننظر مثلًا إلى احتمال القتال بين اليابان والولايات المتحدة فإننا لا نستطيع أن نصل إلى نفس الاستنتاجات التي نخرج بها في دراسة أخرى، ولست أستطيع أن أقدم وسيلة أو أسلوبًا تستطيع أي دولة أن تستخدمه أو تحقق به النصر، إن كل ما استهدفه هو أن أشير في بساطة إلى أحسن السبل التي تستطيع بها بلدنا – إيطاليا – أن تعد نفسها للحرب المتوقعة مستقبلًا[1].

ولقد كتب الكثيرون من الأمريكان – الذين وقفوا إلى جانب السلاح الجوي على أساس أنه العامل الأساسي في التنظيم العسكري الأمريكي – كتبوا عن أن الدفاع عن الولايات المتحدة هو أول ما يجب أن تعني به الولايات المتحدة وتهتم، ولكن ميتشل لم يتقبل قط مثل هذه التحديدات، ولقد كان أول من ناقش استخدام القوة الجوية – مع أقل ما يمكن من معاونة القوات البحرية والبرية – على أساس بل وفي نطاق عالمي، ولم يجهده استمرار دفاعه عن الطرق عبر المنطقة القطبية كأقرب خطوط اقتراب بين

(١) The Command of the Air, pp. ٢٥٢ – ٢٥٣.

القارات، هذه الطرق التي أمست أخيرًا موضع اهتمام عام مما أدى إلى إعداد خرائط تفصيلية كبيرة للمناطق القطبية، وأكثر من الحديث عن قيمة الطريق عبر الأطلنطيق مارًّا بجرينلاند وأيسلندة، ويسر استخدامه للأغراض العسكرية، وكذلك تحدثه عن سهولة التحركات بين الولايات المتحدة وآسيا عن طريق آلاسكا وسيبيريا، أو عن طريق جزر الوشيان وجزر كوريللي.

ولقد أشار ميتشل في فجر حياته العسكرية إلى آلاسكا على أنها مفتاح السيادة العسكرية على الباسيفيك، وقوى من نظريته هذه تطور الطائرة وازدياد قوتها وطاقتها، وقد حدث عندما عمل الـچنرال ميتشل مساعدًا لقائد السلاح الجوي الأمريكي أن طارت ثلاث طائرات أمريكية في تشكيل واحد عبر الأطلنطيق والباسيفيك (المحيط الهادي) مارة بهذه الطرق الجزرية التي أشار إلى أهميتها للولايات المتحدة والتي أوضح خطورة تهديدها لسلامة أمريكا.

ويُستخدم الطريق المار بجرينلاند وأيسلندا اليوم استخدامًا مستمرًا، وأكد احتلال اليابانيين لجزر الوشيان في سنة ١٩٤٢ – حيث لم تكن قد أعدت أي قواعد بها أثناء السلم – صدق تقرير الـچنرال ميتشل لسير الحوادث مستقبلًا، وإن كان هذا الاحتلال الياباني قد تطلب استخدامًا كبيرًا للسفن البحرية كما أن اليابانيين لم يوجهوا إلا أقل ما يمكن من الجهد إلى الأهداف الجوية التي قدرها ميتشل.

ولقد صدق الكثير من تنبؤات ميتشل، وسيتحقق الكثير أيضًا في السنوات القادمة، ولكن الكثير أيضًا من التطورات الفنية التي بدت له وكأنها تطل من وراء الأفق أو أنها ستحقق فور انتهائه من كتابه لا تزال بعد

عشرين سنة موضع الدراسة والبحث، أي أنها لا تزال أبعد ما تكون عن الاستخدام العملي.

والواقع أن ميتشل كان واسع التصور في المسائل الفنية والتكتيكية، وكانت له أصالة في التفكير، ولكنه لم يوهب الصبر للعمل الدؤوب لاجتياز العوائق والعراقيل الصلبة التي كانت تعطل من تحويل خيالاته وتصوراته إلى حقائق لها واقعيتها.

وكان هو أكثر دقة من دوهيه في التنبؤ بالاتجاه الذي سيسير فيه هذا التطور التقدمي للطائرة وللقوة الجوية، ولكنه كان مسرفًا في تقديره لسرعة هذا الانتقال، ومن ثم فإنه سبب تحول الكثيرين من أنصاره عن مناصرته والوقوف إلى جانبه، وعرض نفسه للنقد.

- ٤ -

وجاء رجل ثالث هو ألكسندر دي سيڤيرسكي، وسيڤيرسكي طيار عسكري روسي أسهم في الحرب العالمية الأولى ثم عمل بعدها كمخترع ومصمم في بناء الطائرات، وقدم من إنتاجه ما يدل على مهاراته، وما يؤكد من وجهات نظره عن السلاح الجوي وخاصياته وعوامل النقص في استخدامه الحالي على ما أوضح هذا كله في كتابه: الانتصار بواسطة السلاح الجوي[1].

وتتبع وجهات نظر سيڤيرسكي إلى حد بعيد آراء ميتشل الذي يقول سيڤيرسكي عنه في كتابه: إن كتابات ميتشل هي التي أوحت إليه بالكتاب

---

(١) Alexander P. de Seversky, Victory Through Air Power (New york: Simon and Schuster, ١٩٤٢).

الذي كتبه هو، *والواقع* أن سيفيرسكي قد جعل كتابات ميتشل وآراءه حديثة الطابع بما أضاف إليها من تصويرات حديثة، وبخاصة بتفسيره سبب فشل سلاح الجو الألماني في المعركة ضد بريطانيا.

وقد عرض سيفيرسكي لقضية السلاح الجوي، فإن الظاهرة البارزة التي تقدمه على غيره من الدارسين للموضوع (هي) تقديره الكبير للأهمية الحاسمة التي لزيادة مدى العمل واحتمال زيادة هذا المدى بقدر يزيد كثيرًا عنه، ويتجاوز أي مدى سابق، وقد أطلق سيفيرسكي السلاح الجوي للمستقبل وحرره من الارتباط بالتنظيم البري الذي قدره دوهيه كما أنه أطلقه أيضًا من الاعتماد على هذه الجزر على الطرق القطبية في الأطلنطيق والباسيفيك الطرق التي تقع كلها منها على مرمى حجر من الأخرى والتي قدر لها ميتشل أهمية كبيرة.

وكان سيفيرسكي أول من تنبأ بالطيران دون توقف حول العالم، وقد قدم هذا بأسلوب أخاذ يشبه ذلك الذي استخدمه ميتشل في الحديث عن نفس الموضوع قبل سبع عشرة سنة:

«في خمس سنوات على الأكثر، سيكون مدى العمل حول العالم لمسافة ٢٥٠٠٠ ميل مسألة لامندوحة عنها ومن الضروري توقعها»[(١)].

وقد يثبت أنه على صواب، ولكن لكي يكون كذلك يجب أن تسير عمليات تصميم الطارات والتحسين في الاقتصاد الصناعي بخطى أكثر سرعة طوال السنوات الخمس التالية بأكثر مما سارت فيه هذه العمليات في أي وقت مضى في السنوات العشرين السابقة، ذلك لأن قيام أي طائرة

(١) نفس المرجع ص ١٤.



وليم ميتشل (١٨٧٩ - ١٩٣٦)

بالدوران حول العالم دون توقف في الوقت الحاضر يتطلب أن تـحمل من الوقود ما يعادل ٧٥٪ من جملة طاقة حمولتها وأن يترك ال ٢٥٪ الباقية من جملة الحمولة للبناء وللمحركات ولطاقم الطائرة وللمعدات العسكرية ولكل شيء آخر يجب أن تحمله معها في رحلتها.

ولم يشك سيـڤيرسكي قط في السرعة التي ستسير فيها زيادة مدى عمل الطائرة، وكان يرى أنه من الحماقة تقبل هذه التحديدات التي تفرض اليوم على مدى عمل الأنواع الموجودة حاليًا من الطائرات كما كان يثق بالنكبات التي يجب أن يتوقعها أولئك الذين يتجاهلون هذا العامل الحاسم الأهمية.

«لقد كان النقص في مدى عمل الطائرات اللعنة التي حلت بسلاح هتلر الجوي»[1].

«إنه لمضيعة للجهد الاحتفاظ بالقواعد المتقدمة بدلًا من توجيه كل الإمكانيات الجوية مباشرة ضد العدو، إن منطق الحرب الجوية يؤكد أن الحرب في السموات ستوجه من الأرض مع تحويل كل ما بين مركز التوجيه ومسرح القتال الجوي ليكون مثله مثل الأرض التي لا يملكها أحد في القتال بين القوات البرية»[2].

ومع ازدياد القدرة على العمل لمدى واسع ولمسافات كبيرة من القواعد الساحلية لم تعد حاملات الطائرة ضرورية ولهذا فقد استبعد سيـڤيرسكي هذه الحاملات للطائرات من حسابه، واستبعدها في ثقة واطمئنان بأكثر ممن فعل أحد ممن سبقوه.

(١) سيفيرسكي نفس المرجع ص ١٣٦.
(٢) سيفيرسكي نفس المرجع ص ١٢٩.

ولا شك أن كل قوة جوية ترحب بفكرة العمل من أرض الوطن بدلًا من الاضطرار لإنشاء وللاحتفاظ بقواعد أمامية ومتوسطة، مادام هذا لن يتطلب احتمال عبء كبير في النفقات، ولكن يبدو في ضوء الخاصيات المتوازنة للطائرات وفي ضوء تطورها في الأربعين السنة الماضية، أن هذا الثمن سيظل فادحًا لأمد طويل، وحتى لو استطاعت الطائرات القيام بإغارات بالقنابل من قواعد تبعد ستة آلاف أو ثمانية آلاف ميل من مناطق الأهداف، فمن المحتمل أن يظل الأوفر والأكثر اقتصادًا أن تعمل الطائرات من قواعد قريبة عندما يكون هذا مستطاعًا سيما إذا أمكن الحصول على الوقود محليًّا أو أمكن نقله جوًّا.

ولقد تعرض المدافعون عن السلاح الجوي لهجمات مستمرة من جانب النقاد المتحفظين على أساس أنهم يتحدثون عن كسب حروب بآلات وهمية يتخيلونها، ولأنهم يضعون تقديراتهم النهائية على أساس الزعم بخاصيات للطائرات لم تصل إليها هذه الطائرات بعد، ***والواقع*** أن الهجوم على دوهيه كان معقولًا، ثم اشتد الهجوم ضد ميتشل، أما ضد سيڤيرسكي فقد ازداد عنفًا.

ولقد كان الجزء الأكبر من كتاب سيڤيرسكي تنبؤات يقدمها في صراحة تامة على هذه الصورة ولكنه حتى عندما يكتب عن المستقبل(*) فإنه يترك نفسه عرضة للنقد بسبب إسرافه في التفاؤل بالنسبة لسرعة التطور للخاصيات التي ستحققها الطائرات، ولكن عندما ينفلت للحديث عن «**حرب المستقبل**» الحرب في المستقبل فإنه يتحدث عن طابع قدمه قبله أولئك الذين سبقوه.

(*) في الأصل: متخذًا أصول «فعل المستقبل».

«فمن كل اتجاه يمكن أن تعينه البوصلة عبر المحيطين الفسيحين، وعبر القطبين، ستجيء قاذفات القنابل الضخمة تحمي كل منها قافلة من طائرات القتال وتندفع كلها لتغطي سماء الولايات المتحدة، وهذه الآلاف من السفن الجوية ستحمل كل منها خمسين طنًا من المفرقعات والقنابل الحارقة وتبعًا للخطة التي أحسن إعدادها ستضرب هذه الطائرات الغازية مراكز الأعصاب للدولة العظيمة، وستعرف كل منها الهدف المعين لها، وليس من الممكن بحال ما وصف ما ستسببه من تلف وخراب، وستتحول نيويورك وديترويت وشيكاغو وسان فرانسيسكو إلى أنقاض في أول أربع وعشرين ساعة للحرب، وستمحى مباني شيكاغو قبل أن تستطيع الحكومة إنقاذ سجلاتها الكبيرة القيمة»[1].

وبالرغم مما في طابع تنبؤات سيڤيرسكي فمن الحماقة إغفال الكثرة التي ذكرت بها مثل هذه التنبؤات في الماضي، وكذلك إغفال حقيقة الفشل في تحقيق ما يقرب منها لسنوات طوال، صحيح أنها اليوم أقرب إلى الاكتمال مما كانت من قبل، وآجلًا أو عاجلًا في ضوء هذا التطور للحرب الجوية وسيمكن اللحاق بالصورة التي جاءت في هذه التنبؤات.

إن العسكريين يبقون دائمًا على أتم استعداد لخوض غمار المعركة بما يمكن إعداده من عتاد عند بدء القتال، ولكنهم مع هذا يجب أن يضعوا تخطيطهم لمواجهة المشكلات التي يمكن أو يحتمل أن تجيء بها آلات الحرب في المستقبل، ومن ثم فلا يفاجئون بما يمكن أن يبرز يوم ذاك من تطورات فنية.

إن كتب أولئك الذين رفعوا علم الدعوة لقضية الحرب الجوية لتعتبر اليوم أصلح للقراءة وأنفع مما كانت يوم أن صدرت.

---

(١) سيڤيرسكي نفس المرجع ص ٧ – ٨.

حديث المراجع

الفصل العشرون

دوهيه وميتشل وسيفيروسكي

نظريات الحرب الجوية

بقلم إدوارد وارنر

قدم دوهيه لأول مرة هذه النظرية التي تحمل اسمه في كتابه:

Il Dominio dell'Aria:saggio sul' arte della guerra aerea (Rome, Stab. Poliger. Per l'Administrazione della guerra, ١٩٢١).

ويقدم هذا الكتاب آراءه في أولى صورها المحدودة، ولكن للوصول إلى عرض كامل لهذه الآراء يرجع إلى كتابه:

Il Dominio dell'Aria (seacond ed., Rome, Instituto Nazionale Fascista di Cultura, ١٩٢٧).

على أنه له كتابًا سابقًا يحسن الرجوع إليه هو كتاب:

La Possibilita dell' Aeronaigazion (Rome, Tip-Uniona ed.,١٩١٠).

أما وجهة نظر دوهيه عن حرب المستقبل La Guerra del' ١٩ فقد جاءت في الصفحات ٤٠٩ – ٥٠٢ من عدد مارس ١٩٣٠ من مجلة Revista Aeronautica وقد ترجم Dino Ferrari الكتابات العسكرية الرئيسية لدوهيه في كتاب طبع نيويورك سنة ١٩٤٢ بعنوان "The Command of the Air"

وقد فسرت نظريات دوهيه عن الجو في دراسة بالفرنسية.

Arsene M.P. Vauthier, La Doctorine de Guerre du General Douhet (Paris, ١٩٣٥)

ويرجع كذلك لكتاب آخرلنفس المؤلف وسم بعنوان:

La Danger Aerien et L'Avenir du Pays (Paris, ١٩٣٠).

أما كتابات ميتشل الرئيسية فهي:

Our Air Force: The Keystone of National Defense (New York, ١٩٢١).

Winged Defense: The Development and Possibilities of Modern Air Power – Economic and Military (New York, ١٩٢٥).

Skyways: A Book on Modern Aeronutics (London and Philadelphia, ١٩٣٠).

ويمكن أن نجد المصدر الأساسي للمعارضات التي أدت إلى محاكمة ميتشل بمجلس عسكري عال سنة ١٩٢٥ في:

U.S. ٦٨th . Congress: House: Select Committee on Inquiry into the Operation of the United States Air Service (Florian Lampert, chairman) Hearings (Wshington, Government Printing Office, ١٩٢٥).

ابحث عن المراجع تحت اسم General Mitchell في الفهرس ٦ الصفحات ٣٧٦ – ٣٨٤.

ارجع أيضًا إلى:

U.S.: President's Aircraft Board (Dwightw. Morrow Chairman). Hearings September ٢٩ – ٣٠ October ١ – ٢, ١٩٢٥). (Washington

Governmental Printing Office, ١٩٢٥). II, ٤٧b – ٩٠٨.

وقد ظهر تاريخ حديث لحياة ميتشل في كتاب:

Isaac Don Levien, Mitchell: Pionner of Air Power, (New York, ١٩٤٣).

أما المحدثون الذين خلفوا دوهيه وميتشل فهم:

Alexander de Seversky, Victory Through Air Power (New York, ١٩٤٢).

William Bernard Ziff, The Coming Battle of Germany (New York, ١٩٤٢).

مع مقدمة بقلم ويليم جيلمور

وبين الكتب الكثيرة الأخرى تعتبر الكتب التالية من الكتب التي تستحق الدراسة.

William Carrington Sherman, Air Warfare (New York ١٩٢٦).

Alford Joseph Williams, Airpower (New York, ١٩٤٠).

Allan Michie, Air Offensive against Germany. (New York, ١٩٤٣).

* * *

خاتمة المطاف

هتلر

الفكرة النازية للحرب

بقلم إدوارد ميد إيرل

في يوليو سنة ١٩٤٠ كان أدولف هتلر سيد غرب ووسط أوروبا من نورث كيب إلى البحر المتوسط، ومن ساحل القنال الإنجليزي إلى حدود الاتحاد السوڤيتي، كانت تحت إمرته آلة عسكرية وقوة ضاربة لم تتهيأ لأحدٍ من قبله، وكانت أوفر عددًا وأقوى مادة وأكثر تجربة ومعنوية مما كانت في أثناء شهر سبتمبر سنة ١٩٣٩ عند غزو بولندة، وفي ضوء ما وضح من أن الجيش الألماني لا يمكن أن يُقهر كانت بقية أوروبا مع شمال أفريقية وبلاد الشرق الأوسط تبدو وكأنها في راحة يد هتلر، ولم يحدث منذ عهد نابليون أن سيطر رجل مثل هتلر على المسرح الأوروبي تمامًا، أو حتى بدا وكأنه يكاد أن يُسيطر عليه وأن يقيم دعائم إمبراطورية عالمية تملك العالم كله، وهذه حقائق يجب ألا تُنسى في الأيام الأقل حرجًا.

فكيف استطاع هتلر – وهو يقف متوليًا أمر أمةٍ كانت قبل أقل من ربع قرنٍ سابق قد تحطمت في هزيمة ساحقة – أن يحقق هذا كله؟ هل مصدر ذلك آلة الجيش الألماني والصناعة الألمانية الثقيلة؟ أو أم أنه كان استراتيجيًّا من حقه أن يعتبر قيصر أو بونابرت تاريخًا حديثًا متأخرًا؟!

- ١ -

من المحتمل ألا يكون ثمة محل لمناقشة مسألة ما إذا كان الفوهرر الزعيم مدينا بكل هذا للجيش الذي قاده بأكثر مما يمكن أن يعتبر الجيش مدينًا له، ويبدو أنه من المنطق اعتبار أنهما، هتلر وجيشه، يتكاملان، أي يُكمل أحدهما الآخر، *والواقع* أنه كان من الصعب أن يُنشئ هتلر جيشه وسلاحه الجوي Wehrmacht and the Luftwaffe دون مساعدة فنية من مستوى عالٍ، وما كان ليستطيع هو وحده أن يحل المشكلات التكتيكية ومشكلات التسليح والإمداد لحملاته في بولندة والأراضي الواطئة وفرنسا.

إن رئيس أي دولة يعتمد في مثل هذه المسائل على هيئة أركان حربه؛ ولكن القيادة الألمانية العليا من ناحيةٍ أخرى لم تكن لتستطيع بدونه أن تتم التعبئة المعنوية والعاطفية والسيكولوچية للأمة الألمانية، هذه التعبئة اللازمة الضرورية لخططها، وكذلك ما كانت لتستطيع أن تخوض غمار الحرب الإيديولوچية والاقتصادية والسياسية – الحرب البيضاء – من سنة ١٩٣٣ إلى سنة ١٩٣٩، هذه الحرب التي منعت – بعملياتها السرية ضد المجتمع الدولي – من تكوين تحالف قوي ضد ألمانيا، كما نشرت التفكك والخيانة بين ضحايا الاعتداء الألماني.

وكان هذا كله عمل الحزب النازي، الحزب الذي أوجده هتلر وسيطر عليه تمامًا.

والواقع أن نجاح هتلر ضد بولنده والنرويج والأراضي الواطئة وفرنسا هو إلى حدٍ كبير نتيجة للربط غير العادي بين استراتيچية عسكرية مليئة بالجرأة وبين استراتيچية سياسية لا تفتقر إلى المخاطرة، أو بمعنى آخر

وليدة تخطيط عسكري جديد صحبته جرأة ثورية، فكانت النتيجة إيجاد قوة طاغية حطمت دفاعات غرب أوروبا في سهولة ويُسر كما حطم «**يوشواه**» Joshua(*) جدران أريحا(١).

ولم تكن عملية سهلة أن يحقق هتلر طريقة العمل modus operandi وأن يصل إلى مركز متوسط بين طبقة الضباط المتحفظين. وبين متطرفي النازية من الذين توافرت لهم آراء ديناميئية، ومن الجيل الصاعد الذي يتطلع للقوة، ولم يكن تنسيق الارتباط بين الجيش والحزب كذلك بدوره مسألة هينة. فلم يتم هذا إلا بثمن فادح من الدم الذي سفك في عملية التطهير سنة ١٩٣٤ ثم بالسيطرة السياسية الكاملة فيما بعد هذا.

ولقد أمكن الوصول إلى مستوى عالٍ من الضبط والربط العسكريين دون حرمان الشباب النازي من عوامل التعصب التي لعبت دورًا مهمًّا في معنويات الجيش الألماني؛ ولقد استطاعت الروح القوية التي أوجدتها النازية بمعاونة ما توافر للأفراد من كفاية فنية، استطاعت أن تكتسح كل ما ومن واجهته عدا السلاح الجوي البريطاني حتى قابلت الجيش الأحمر الذي كانت قد توافرت له روح مماثلة بفعل الشيوعية(٢).

(*) Joshua بالعبرية Yehoshua خليفة موسى عليه السلام، أصل اسمه Hoshea وأضاف موسى لاسمه المقطع الأول Yah كان ممثل قبيلة إفرايم Ephraim في الجواسيس الإثنى عشر الذي أرسلوا إلى أرض كنعان، مات وسنه ١١٠ سنوات بعد أن قسم الأرض بين الأسباط الإثنى عشر بالقرعة، وجزء التوراة الذي ينتسب إليه ينقسم إلى ٢٤ قسماً، الثاني منها يقدم جغرافية الأرض وله أهمية تاريخية كبيرة «العمود ١٠٦٧ دائرة لمعارف اليهودية» (المترجم).

(١) راجع ما جاء في المقدمة من حديث عن الثورة في الحرب الهجومية.

(٢) نجد نقاشاً جديراً لدراسة العلاقات الدكتاتورية والجيش في كتاب: Sigmund=

على أنه – بالإضافة إلى هذا – يوجد بين من قدر لهم أن يتعرفوا حقيقة الحال في ألمانيا من يؤمنون عن يقين بأن هتلر قد أمَّد القوات المسلحة للرايخ الثالث بقوة من جانبه، كانت هيئة أركان الحرب الألمانية العامة قد قررت ألا تعرض الأمة الألمانية لما تعرضت له سنة ١٩١٨ من خوض غمار حرب إجهاد بالقتال في المواقع، ومن ثم فإنها قد أعدت العدة لتدابير جديدة في التسليح والتكتيك والاستراتيـچية[1]، وقد بسط هتلر عنايته وعضد بكل قوة الحرب الآلية.

ولعلَّه يكون قد بحث في تاريخ مُبكر بعض تكتيكاتها، فلقد سجل في سنة ١٩٢٥ اعتقاده بأن الاستخدام الآلي للمركبات ذات الاحتراق الداخلي سيكون له تأثيره الحاسم في الحرب القادمة[2]، وكان غرامه بالسيارات التي تسير بسرعة والقاطرة السريعة التي لا تتوقف إلا بعد ساعات من بداية رحلاتها والطائرات، كان غرامه هذا عاملًا له تأثيره في إصراره على أن يقيم في ألمانيا – ولأغراض الحرب أولًا وقبل أي شيء آخر – صناعة للسيارات لا مثيل لها في أوروبا، بل ولربما لا مثيل لها في العالم كله؛ ولم يكن أحد حتى

= Neuman n, Permanent Revolution: The Total State in a World at War (New York, ١٩٤٢), pp. ١٧٤ – ١٨٢. ويجب ملاحظة أن قائد الجيش الـچنرال شليخر Schleicher والزعيم النازي كابتن روهم Roehm قد فقد كلاهما حياتيهما بأن أُعدما برصاص جماعتين من الرماة سنة ١٩٣٤.

(١) Herbert Rosinski, The German Army (New York, ١٩٤٠), Chaps. IV-V.

(٢) كفاحي لهتلر "Mein Kampf" الطبعة الألمانية الأولى لسنة ١٩٢٥ المُترجمة إلى الإنجليزية والمطبوعة كاملة بواسطة Reynal & Hitchcock طبع نيويورك سنة ١٩٣٩ ص ٩٥٨.
وكل إشارة في هذا الفصل لكتاب كفاحي يقصد بها هذه الطبعة، وكذلك كل ما ينقل هنا من فقرات قد أخذ من هذه الطبعة، وقد سمح بهذا النقل بإذن خاص من شركة Houghten Mifflin أصحاب الحق في هذه الطبعة.

ولا جورنج نفسه بدرجة إيمان هتلر بالقوة الجوية كسلاح للحرب ولإثارة الرعب، وهكذا يتضح لنا أن الحرب البرقية كانت في حاجة إلى رجل له صفات هتلر.

وتحتمل طوابع الديمقراطية في الصورة التي جاء بها هتلر إلى الجيش - بين غيرها من العوامل - مسئولية الصلاحية أو الكفاية التي توافر لضباط الجيش[١]، ولكن كان فوق هذا كله، كان العامل الأعمق أثرًا هو السلطة المركزة في يد هتلر، والقوة الدافعة التي أسهم بها في المجهود الحربي للدولة في أكثر من مرحلة من مراحل هذا الجهد، كان هتلر - بشخصيته القوية الجارفة - المحور الذي دارت حوله وحده القيادة والجرأة التي عملت بها، وقد ضمنت سلطات هتلر الطغوائية التوتاليتريان التنسيق الكامل لعمل كل الأسلحة، الأمر الذي اعتبر لازمًا وضروريًا للنجاح في الحرب الحديثة.

وكان هتلر يؤمن بتوفيقه، وكان يثق بأنه يتخذ قرارات في الميدانين العسكري والسياسي، قرارات ينتفض أغلب القادة فرقًا من مجرد التفكير فيها[٢]، ولم يكن بين (رؤساء الوزارة الألمانية) مستشاري الرايخ في تاريخ ألمانيا الحديثة المستشار الذي تتوافر له دراية بالشئون العسكرية مع الرغبة في التضحية بالقدر الذي كان هتلر راضيًا به في سبيل ما يقتنع عن إيمان

---

(١) Joseph G. Harsch, Pattern for Conquest (New York), Chap. V.
ويعتبر هذا مرجعاً من أفضل المراجع لمناقشة الموضوعات الخاصة بالأفراد.

(٢) Otto D. Tolischus, They Wanted War (New York, ١٩٤٠). الفصلان ٤ و١٢ وبخاصة في الصفحتين ٦٨ و٦٩، والواقع أن نقص القيادة الموحدة والحرص، ثم التحفظ والعقلية التي تفكر في العامل الدفاعي وحده، هذه كلها التي كانت توجه جهد الحلفاء في سنتي ١٩٣٩ - ١٩٤٠ تعتبر طابعاً مضاداً تماماً للأحوال التي كانت قائمة في ألمانيا.

بضرورته لنجاح خططه ألا وهو الآلة الجديدة التي تحرق البترول.

وكان ستالين وحده بين أولئك الذين عاصروا هتلر هو الذي أوضح قبل سقوط فرنسا طابع التصرف الذي يجيء وليد تفكير رجل واحد، مما لا يمكن أن يكون عمل أي سياسي ديمقراطي اللهم إلا في وقت الحرب وعن توقع الهزيمة.

ولما كان هتلر – حتى تاريخ متأخر (من سني حياته) – واحدًا من أكثر الكتاب والمتحدثين في هذا العصر إفاضة، ومن أقلهم إخفاء للحقائق، فإنه قد قدم لنا صورة واضحة نسبيًا للاستراتيـچية التي اعتزم أن يتبعها والتي انصاع لها لوقت طويل انصياعًا تامًا يثير الإعجاب، صحيح أن هتلر قد تحول في أوقات ما عن خط العمل الذي رسمه لنفسه ولكنه فعل هذا لأنه فهم ضرورة التضحية بالأهداف الأقل في سبيل الأهداف الأكبر قيمة، ولكن لم يحدث قط قبل هتلر أن قدم رجل قدر له أن يكون غازيًا في تاريخ لاحق من حياته، قدم لضحاياه فيما بعد بيانًا واضحًا كاملًا عن خططه، وكان الضعف السياسي للغرب وعدم قدرتهم على تفهم أنفسهم وتفهم الناس، كان هذا علة فشل الغرب في إدراك هذا التحذير المُبكر، على أنه لم تكن خطة هتلر الأساسية، بل كان هو التحول الواسع المدى عن هذه الخطة هو الذي أدى إلى الموقف الخطير الذي وجد الرايخ الألماني نفسه فيه في صيف سنة ١٩٤٣.

وقد أوضح هتلر في كتابه كفاحي الذي نشر سنة ١٩٢٥ أن ألمانيا في حكومته ستكون أول دولة عسكرية في العالم، وفي نقده العنيف للرايخ الثاني حمل حملة قاسية على ما أعتقد أنه السياسة السلمية الضرورية لحكومة القيصر .. سياسة التصنيع والتجارة الخارجية فيما وراء البحار والاستعمار.

ولقد قال هتلر بأن التصنيع استعمار واسع المدى لألمانيا نفسها وله تأثيره في ضغط الإمبراطورية بتحويلها إلى مستعمرة، وهذه التجارة الخارجية فيما وراء البحار والتي يُقال عنها أنها الغزو السلمي ليست غير حماقة ماجنة، ذلك لأن التجارة تتوقف على السلم، والعمل من أجل السلم له تأثير ملموس واحد هو الحد من أمل قيام سياسة ألمانية مؤثرة، «**ومع مثل هذا الاتجاه نحو الشئون الخارجية**» فإن مستقبل ألمانيا «**يمكن النظر إليه وكأنه قد انتهى ووري التراب**»، لقد كانت الماركسية واليهودية – الخصمين اللدودين للجنس الذي له السيادة – وراء هذه الفلسفة، فلسفة السلم والتجارة ما يُهدد بتعجيز وإضعاف الأمة الألمانية، ومن ثم يجب القضاء على هذين الخصمين بلا رحمة؛ والسيادة الإقليمية الصحيحة «لا تحقق أهدافها في الكميرون»، فإن المكان الصحيح للاستعمار الألماني ليس أفريقية، بل في قارة أوروبا، ومركز القوة العالمية هو العالم القديم، وفي العالم القديم وحده يمكن أن توجد منطقة الحياة Lebensraum، المنطقة التي لها الأهمية الحاسمة الدينامائية التي تحتاج إليها الأمة الألمانية.

والاتساع الإقليمي في قارة أوروبا ليس هو في حد ذاته نهاية أهداف السياسة الألمانية ولكنه هو القانون الطبيعي، ذلك لأن الطبيعة تحتفظ بالأرض والتربة للشعب الذي تتوافر له الطاقة والجهد لأخذ هذه الأرض كما تتوافر له الطاقة الصناعية التي تمكنه من زرعها.

لهذا يجب أن توجه ألمانيا عينيها نحو الشرق حيث توجد الأرض الخصبة في أوكرانيا وحيث توجد الموارد المعدنية في الأورال، بل حيث يوجد الميدان التقليدي للاتساع والغزو الألماني، وإلى الشرق أيضًا يوجد عدو كل الحضارات: الاتحاد السوڤيتي، حيث كان البرنامج البولشفي يُحطم

رسالة ألمانيا الناهضة؛ وهنا يتضح لنا التماثل التام بين هذا الجزء من برنامج هتلر وبين الدعوة إلى الألمانية أي إلى تجمع كل الألمان في عقد واحد(١).

ومع هذا فقد كان من المستحيل غزو أرض أوروبا الشرقية لو اضطرت ألمانيا – كما حدث في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ – ١٩١٨ – أن تقاتل في جبهتين، ولهذا كان الاعتبار الأول والأساسي من وجهة النظر الألمانية ألا تقوم في قارة أوروبا قوتان عسكريتان، بل يجب أن تكون ألمانيا القوة العسكرية الوحيدة في القارة، ومن ثم فإن الشعب الألماني من واجبه أن يمنع قيام أي قوة عسكرية أخرى في أوروبا بأية وسيلة بها في هذا استخدام القوة، ولو حدث وقامت مثل هذه القوة في دولةٍ ما من دول أوروبا وجب كبتها.

وكانت فرنسا هي العدو المعنوي لألمانيا في هذا المجال، ومن ثم .. «فإننا يجب أن نحتمل أي تضحية تعاوننا لإضعاف الاندفاع الفرنسي للسيادة على أوروبا» و«**النزاع الدائم الأبدي بين ألمانيا وفرنسا لا يمكن كسبه إلا بالعمل الهجومي الذي يؤدي إلى تحطيم فرنسا، وفقط عندما يتم تفهم هذا في ألمانيا تستطيع الأمة الألمانية أن تعيش دون أن تسمح بأن تفقد جهودها في سياسة دفاعية سلبية، بل بأن تعمل للوصول إلى تسوية إيجابية حاسمة مع فرنسا، أي أن توجه ألمانيا كل جهودها للمعركة الحاسمة التي تحقق أهدافها النهائية؛ وإذ ذاك فقط – مرة أخرى – يمكن أن ننهي نزاعنا الدائم الأبدي مع فرنسا، وقد يبدو هذا وكأن لا ثمرة له في حد ذاته، ولكنه**

(١) أوضح هتلر في الفصل الرابع من كتابه كفاحي عدم دقة سياسة الحكومة القيصرية، أما عن الدعوة للألمانية فيرجع إلى كتاب:

Mildred S. Wertheimer, The Pan-German League, ١٨٩٠ – ١٩١٤ (New York, ١٩٢٤).

يجب أن يتم في الطابع الذي ترى فيه ألمانيا أن تدمير فرنسا يُعطيها فرصة الاتساع في أي مكان آخر»[١]؛ ولكي يتم تحطيم فرنسا يجب أولًا عزلها وجعل تحالفها مع دول شرق أوروبا لا قيمة له، وأن نكسب لألمانيا الحلفاء الذين تحتاج إليهم لوقاية أجنابها المُعرضة في الغرب، ولهذا فإنه لا يمكن أن يكون لألمانيا حلفاء في أوروبا مستقبلًا غير حليفتين اثنتين هما: إنجلترا وإيطاليا[٢].

وكان هذا لُب استراتيـچية هتلر، ففرنسا يجب أن تحطم بسبب سياستها ذات التاريخ الطويل دون ما تقدير لطابع الحكم فيها ومهما كان هؤلاء الذين يحكمونها سواء أكانوا البربون أم اليعقوبيين أم البونابرتيين أم الديمقراطيين البرجوازيين أم الجمهوريين أم حتى الشيوعيين الحمر؛ ذلك لأن هذه السياسة تقوم دائمًا على أساس محاولة منع ألمانيا من الازدهار والتقدم.

ولو وضع هذا الهدف المركزي المسيطر لسياسة هتلر، هدف ضرورة منع فرنسا من أن تكون دولة كبرى، لو وضع موضع التقدير لأمكن أن تتضح أشياء أخرى كثيرة مثل التدخل في أسبانيا، التحالف مع إيطاليا، الحملة لاستعادة السار، إعادة احتلال أرض الرين، سلب واغتصاب تشيكوسلوڤاكيا، انشاء الجدار الغربي على الحدود المشتركة مع فرنسا، توقيع ميثاق عدم الاعتداء مع الاتحاد السوڤيتي ثم اقتسام بولندة؛ ومع تحطيم فرنسا تستطيع ألمانيا أن تضمن غزو شرق أوروبا دون منازع ودون أن

(١) هتلر، نفس المرجع ص ٩٦٣ – ٩٦٦، ٩٧٨ – ٩٧٩، والجزء بين القوسين «– –» ليس من كتاب هتلر، أما الإشارة إلى فرنسا على أنها العدو الخطر بالنسبة لألمانيا، هذا العدو الذي يجب تحطيمه فيرجع إليها في نفس المرجع ص ٩٠٢ و٩٠٧ – ٩٠٨.

(٢) نفس المرجع ص ٩٠٨.

يُعطل أحد من هذا.

وقد فشل المشروع الكبير لجعل أوروبا ألمانية، فشل بسبب وجود مانعين قويين هما: السلاح الجوي البريطاني، والجيش الأحمر، وقد كان هتلر يأمل أن يقف أولهما إلى جانبه، أما الثاني فإن هتلر لم يُحسن تقديره، بل وقدره أقل من حقيقته بكثير، ثم أكد الفوهرر من فشله وسقوطه؛ لأنه جاء إلى قائمة الحلفاء ضده بالدولة التي وصفها هو نفسه بالدولة التي لا مثيل لقوتها وثرائها، ألا وهي الولايات المتحدة[1].

وكان من الواضح أن هتلر قد فهم أن مفتاح نجاح كل خططه أن يتم التفاهم بينه وبين بريطانيا، ولقد قال هتلر في نقده لفشل القيصر الإمبراطور في اكتساب صداقة بريطانيا: «يجب أن ينظر للشعب البريطاني على أنه أهم حليف في العالم ما دام زعماؤه وما دامت روح الجماهير في بريطانيا تسمح لنا بممارسة هذا العنف وهذه الوحشية التي نقاتل بها، وأن نمارسها بكل وسيلة لنحقق أن نصل بالصراع إلى نهاية ناجحة دون ما تقدير للوقت وللتضحيات ..»[2].

ولا تستطيع ألمانيا أن تأمل في هزيمة فرنسا وغزو أوروبا الشرقية ما لم يضمن لها الاتفاق مع بريطانيا وإيطاليا حماية مؤخرتها وأجنابها، وبمثل هذا الاتفاق يمكن أن تتحرر ألمانيا من الموقف الاستراتيجي المعتاد لها بضربة واحدة، وستكون الوقاية القوية لجنبنا المعرض من ناحية، والضمان الكامل لإمدادنا باحتياجاتنا من المواد الخام من ناحية أخرى النتيجة الطبيعية لهذا

(١) نفس المرجع. ص ١٨٠ و٩٢٨.

(٢) نفس المرجع ص ٤٦١.

التنظيم الجديد الذي نضعه لأوروبا[١].

على أنه ربما يكون الألمان قد شكوا في قيمة المحالفات بسبب تجربتهم القاسية في الحرب العالمية الأولى بالتحالف مع الدولة الأم النمسا والمجر ومع الإمبراطورية التي أعجزتها الأيام: تركيا، ولكن التحالف مع أعظم دولة في الأرض (بريطانيا)، ومع الدولة الفتية الناهضة (إيطاليا) سيمكن من تحقيق نتائج تختلف عن تلك التي كان من الممكن أن تتحقق بارتباطها في الحرب العالمية الأولى بدول غربت شمسها وفقدت كل عوامل البقاء[٢].

«ولم تكن أي تضحية تعتبر كبيرة في سبيل اكتساب صداقة بريطانيا واجتذابها إلى جانب ألمانيا في السنوات التي سبقت عام ١٩١٤، ولم يكن لشيء أن يكون كبيرًا بالنسبة للرايخ الثالث لو أدت هذه التضحية إلى سيطرة لا تنازع فيها على القارة، ومن الضروري إغفال المستعمرات والقوة البحرية كما يجب تجنب منافسة الصناعة البريطانية في الأسواق العالمية، إن ألمانيا تستطيع في سهولةٍ ويسر أن تبني أسطولًا كبيرًا. بل إن هذا أيسر من بناء إمبراطورية قارية، ولكن من السهل أيضًا تحطيم هذا الأسطول، ولهذا فلا ينبغي التوصية بمنافسة بريطانيا في القوة البحرية وستكون نتيجة محالفة بريطانيا تحديدًا موقوتًا ولكن يتبعه مستقبل زاهر قوي»[٣].

وفهم هتلر أيضًا أن علاقاته مع بريطانيا تلعب دورًا هامًا في توجيه

---

(١) من الطريف ملاحظة أن هتلر يعتبر مركز ألمانيا المتوسط في أوروبا مع خطوطها الداخلية موضع ضعف لا موضع قوة، ولو كان قد تنبأ بالهجوم البري الاكتساحي المدمر للقوة الجوية أنجلو/ أمريكية لكان قد أدرك بدرجة أكبر أن موضع ألمانيا.في قلب أوروبا ليس نعمة استراتيـجية على ما قال هو في كثير من الأوقات.

(٢) نفس المرجع ص ٩٦٤ – ٩٦٥.

(٣) نفس المرجع ص ١٨٣ – ١٨٤.

موقف الولايات المتحدة من ألمانيا النازية، ولقد كتب: وليس من السهل على المرء – بسبب الإمبراطورية البريطانية – أن ينسى العالم الأنجلو ساكسوني، وليس من الممكن مقارنة انجلترة بأي دولة أخرى في أوروبا ولو حتى بسبب الوحدة اللغوية والثقافية التي تربطها بالاتحاد الأمريكي.

وقد توافر لهتلر بعض المعرفة بقوة الولايات المتحدة، هذه القوة التي تقوم على أساس إمكانياتها القارية وعلى أساس عدم تعرضها نسبيًا للهجوم[1]، ولكنه أمل أن يجعل هذه القوة الأمريكية تقف بمعزل عن المعركة نتيجة لتحالفه مع اليابان، وبإثارة الكفاح العنيف المرير داخل الولايات المتحدة نفسها بين دعاة العزلة وبين دعاة التدخل؛ وكانت تخطر له بعض الآراء عن الخلافات العنصرية التي تسهم في تفتيت وحدة الولايات المتحدة، بل والتي تجعلها غير قادرة على القيام بأي عمل مضاد.

وبالرغم من تفهم هتلر للأهمية الحاسمة التي لمعاونة بريطانيا لألمانيا، فإنه قد اتبع سياسة كان من المؤكد معها أن يُغامر بخوض الحرب ضد الإمبراطورية البريطانية عاجلًا أو آجلًا، ولربما يكون هتلر قد ظن بأن عنف الطابع البريطاني قد قل وأن الزعامة التي كانت لبريطانيا قد قلت، لربما يكون هتلر قد ظن هذا فعلًا وإن كان من الواضح أن سلوك بريطانيا في حكم بالدوين وتشيمبرلن كان كافيًا ليجعل من هذا الظن حقيقة. على أنه ربما يكون أيضًا قد ظن بأن السلاح الجوي الألماني يمكن أن يخلف أو يحل محل القوة البحرية البريطانية لتقرير مصير العالم.

والواضح أن هتلر لم يتفهم جيدًا مدى إصرار بريطانيا لمنع ألمانيا أو أي

(١) نفس المرجع ص ١٨٠ و ٩٢٨ – ٩٢٩.

دولة أخرى من تحقيق سيطرة – لا منازع لها – سيطرة تامة على قارة أوروبا، هذا الإصرار الذي هو وليد السياسة التقليدية: سياسة توازن القوى، والذي كان أول ما يُعنى به الإنجليز، وعني به حتى مستر تشيمبرلن إثر احتلال ألمانيا لبراج.

ويبدو أن هتلر لم يتفهم جيدًا أنه كلما ازدادت قوة دولة ما، وكلما اتسع نطاق أطماعها، ازداد من جانب آخر إصرار بريطانيا على الوقوف في وجه هذه الدولة مهما بدا من تردد الشعب البريطاني من أن يؤدي هذا إلى خوض غمار الحرب[1]، ولقد سمح هتلر لإدارة المستعمرات في الحزب النازي ولعدة هيئات أخرى حكومية وخاصة أن تقوم بحملة عدائية مطالبة باستعادة المستعمرات التي كانت لألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى، وبنى هتلر أسطولًا قويًا مع تمام معرفته بأن هذا الأسطول لن يكون نفعه التجاري مساويًا لما يسببه من أضرار لمحاولة إيجاد تعاون بين ألمانيا وبريطانيا.

وفوق هذا كله فإنه غفل عن العامل المعنوي في العلاقات بين الدول، لقد وصل هتلر إلى ما يقرب من تحطيم بريطانيا ولكن ما دام لم يحقق هذا، فمما لا شك فيه أنه يجب أن يعترف بجرمه، هذا الجرم الذي عابه على غليوم الثاني لفشله في كسب صداقة بريطانيا، أو على الأقل ضمان حيادها، ثم إن تحالفه مع إيطاليا كان تعويضًا تافهًا لفشله في التحالف مع بريطانيا.

***

(١) من هذه الناحية تعتبر المذكرة التي كتبها السير إيركراو بتاريخ أول يناير سنة ١٩٠٧ عن العلاقات الألمانية – البريطانية وكأنها قد كتبت اليوم، راجع أيضاً كتاب: G. P. Gooch and H. Temperley, British Diplomatic Documents on the Origins of the War, III (١٩٢٨) pp. ٣٩٧ – ٤٢٠. وبخاصة ما جاء في ص ٤٠٣ عن «توازن القوى».

على أن هتلر – ليعزل فرنسا عن غيرها – اتبع سياسة بطيئة بدلًا من أن يحطم بضربة واحدة مصدر قوتها، ولم يكلف الحلف مع بلصودسكي سنة ١٩٣٤ هتلر شيئًا ما، فلم يكن أكثر من تقبل وضع قائم سيما وبولندة في ذلك الوقت كانت أقوى من ألمانيا على حين أنه كلف فرنسا الكثير فقد كان أول اختراق له خطره في كتلة حلفاء فرنسا في شرق أوروبا، ولكن كان هناك المزيد مما قام به هتلر، وكانت إعادة احتلال أرض الرين وابتلاع النمسا وتعضيد هنيلين Henlein في تشيكوسلوفاكيا أعمالًا لا يمكن أن توصف إلا بأنها ثغرات جديدة في التنظيم الذي أعدته فرنسا بعد فرساي لضمان أمنها وسلامتها.

والواقع أن هتلر كان حريصًا جدًّا قبل ميونخ(*)، وكان يخطو وئيدًا في حذر، فلم يطلب إطلاقًا ما قد يُعرضه لمواجهة الحرب، وكان هتلر يعرف أن تفتيت الدول وابتلاعها عملية يجب أن تتم على مراحل متتالية، وهكذا فإن تحطيم قوة فرنسا يجب أن يتم تدريجيًا، وهنا يقول هتلر في كتابه كفاحي: إن المنتصر الذكي يجب – كلما أمكن – أن يُقدم طلباته للمهزوم على مراحل الواحد إثر الآخر، وعندئذٍ يتأكد المنتصر أن الأمة المهزومة تفقد معنوياتها، ومن ثم فإنها لا تستطيع إلا الموافقة، ولن تجد السبب الذي تستند إليه للعود إلى خوض غمار الحرب، والاحتكام إلى السيف؛ ولكن مع هذا فإنه كلما تقبل الناس في سرور وبشر هذا الاغتصاب بالقوة أو نتيجة للتهديد

(*) ميونخ عاصمة باڤاريا سكانها ٨٢٨.٠٠٠ اسمها بالألمانية Munchen، عقدت بها إتفاقية ميونيخ في ٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٣٨ بين بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا أعطيت بمقتضاها ألمانيا أرض السودبت من تشيكوسلوڤاكيا، (وكان رجل الاتفاقية هو تشمبرلين الذي أسماه الإنجليز الرجل "حامل المظلة"). معجم ويبستر طبعة سنة ١٩٥٦ ص ١٦٧٧. المترجم

باستخدامها، ازداد عدد الذين لا يرون في هذا عدالة ما، ثم ينتهي بهم الأمر أخيرًا للدفاع عن أنفسهم ضد لون جديد من الضغط والاضطهاد، وقد تبدو مظاهرهما منفصلة مقتطعة برغم تكرارها، وبخاصة عندما ينظر إليها معًا جملةً واحدة، لقد تقبل الناس في صمت هذه النكبات واحتملوها دون أن يقفوا من البداية هذا الموقف الصلب الجامد الذي ربما يقفونه أخيرًا(١).

ولقد نجح هتلر في عزل فرنسا وتدميرها، وكما حاول الجيش الألماني أن يحقق «**كانِّي**» أخرى(*) عمل هتلر ليُحقق كانِّي سياسية تبعد فرنسا وحلفاءها عن صفوف الدول القوية، وكان في هذا المجال يعمل ضد التقاليد الأوروبية وضد سياسة أسلافه الألمان من فردريك الأكبر إلى بسمارك، ولقد كتب بسمارك سنة ١٨٨٧: «**إن استمرار بقاء فرنسا كدولة كبيرة له نفعه بالنسبة لنا كما له نفعه بالنسبة لأيٍ من الدول الكبرى، فإذا ما هاجمتنا فرنسا وانتصرنا عليها فلا ينبغي لنا أن نعتبر أنه من الممكن أن نفني أمة من أربعين مليونا من الأوروبيين الشديدي الحساسية**»(٢). ولكن كان النازيون يفكرون تفكيرًا آخر وينظرون للأمر من زاوية أخرى، وكانوا قد اعتزموا من البداية أن يجعلوا من فرنسا مستعمرة ألمانية.

- ٢ -

وكانت القوات المسلحة للرايخ هي الطرف القاطع الوحيد في آلة

---

(١) كفاحي لهتلر ص ٩٦٨ – ٩٦٩.

(*) كاني Cannea، مدينة قديمة في جنوب شرقي إيطاليا كانت مسرح القتال لمعركة من أشهر معارك التاريخ حدثت سنة ٢١٦ قبل الميلاد وهزم فيها هانيبال الرومان بتكتيكات التطويق والإفناء، وتعتبر هذه التكتيكات مما يعني بدراسته علماء الحرب في العصر الحديث (ويبستر ص ٢١٣).

(٢) Die grosse Politik der europaischen Kabinette VII, ١٧٧ – ١٧٨.

الحرب الألمانية، ولم تكن العمليات الحربية والحرب في استراتيجيتهم الطغوائية الخطوة الأولى ضد العدو، بل كانت الملاذ الأخير الذي لا مندوحة عنه - مع الأسف - ولا سبيل لتجنبه بعد أن تكون كل وسائل الغزو الأخرى قد أجهدت، ولهذا فإن أعظم فترة نجاح لهتلر هي سلسلة الانتصارات التي لم تسفك فيها أي دماء منذ بداية احتلال أرض الرين حتى عقد اتفاقية ميونخ، ولكن بعد هذا تركت المعركة كلها للجنود، ولكن لم تتوافر في هذه المرحلة الأدلة التي تكشف عن استراتيچية هتلر العسكرية والتي يمكن مقارنتها بانتصاراته في ميدان الحرب النفسية والحرب السياسية.

وكانت الخطوة الأولى في حرب الأعصاب جمع الشعب الألماني كله في وحدة واحدة تثير الرعب والفزع في العالم كله حول ألمانيا، وقد تم هذا جزئيًا عن طريق برنامج الحزب، البرنامج الذي عمل لتحطيم اليهود، الكنائس، الجامعات، اتحادات العمال، الاشتراكيين، الشيوعيين، وغيرهم وغيرهم ممن يشك في مشاعرهم الدولية واتجاهاتهم إلى المسالمة، وتحقق هذا بحملة دعائية أسهمت فيها الصحف والإذاعة، وأمكن دعم وتقوية هذه الحملة بتطبيق النظام الصارم الذي يفرضه الحزب، وبالدعوة إلى تفاخر الناس بالطابع الألماني وإثارة روح التفاخر في الأمة كلها.

والواقع أن الطابع العسكري وفكرة وحدة الشعب الألماني كله، ومعاداة السامية، ومبدأ الجنس السائد، الجنس الذي له الأفضلية على غيره من الأجناس، وتقديس الدولة كانت كلها مظاهر بارزة في برنامج الحزب النازي، وكانت كذلك عميقة الجذور في كيان التاريخ الألماني وقد استغلها النازيون إلى غاية ما يمكن.

وكتب هتلر عن هذا: «**إن بعث الشعب الألماني لا يتم إلا عن طريق**

استعادته لقوته الخارجية،ولكن ليست الأسلحة هي الوسائل التي تحقق هذا على ما كان ساستنا البورجوازيون يقولون دائمًا، بل وسيلة هذا هي قوة الإرادة، إن أحسن الأسلحة تكون معدومة القيمة المادية ما بقيت تنقصنا الرغبة والإرادة لاستعمال هذه الأسلحة ولهذا فإنه ربما لا تكون مسألة استعادة ألمانيا لقوتها متوقفة على كيف نستطيع أن نصنع الأسلحة بل تتوقف على كيف نستطيع إيجاد الروح التي تعاون الشعب لحمل هذه الأسلحة»[1].

وقد لا يكون من الضروري أن نصف تفصيليًّا الحال التي أوجد بها هتلر الرغبة في القتال بتعبئة الأمة الألمانية نفسانيًّا وعاطفيًّا، ولقد أخذ عن هندنبورج وغيره من قادة الجيش الأسطورة التي أعدت لإيضاح أن الجيش الألماني لم يهزم في سنة ١٩١٨، بل إنه قد تعرض للخيانة في الجبهة الداخلية، وقد حقق بإعطاء هذه الأسطورة طابعًا شعبيًّا نجاحًا لم يكن ليحققه بغيرها[2]، ووجه الشعب الألماني ليصدقه بأنهم ألقوا بأسلحتهم في نوفمبر سنة ١٩١٨ طواعية منهم تلبية لوعد ويلسون في الحصول على سلم عادل كريم، وأن ويلسون قد تنصل من وعوده فكانت «**أعظم خيانة عرفها التاريخ**».

وبهذه الأسطورة وبغيرها أوجد هتلر في قلوب الناس من كل الطبقات شعورًا بعدم عدالة معاهدة فرساي المملاة Diktat of Versailles ومن ثم أثار في قلوب عدد كبير جدًّا من الألمان «**روح الانتقام**»، وأحيا هتلر النظرية التي سبقت عام ١٩١٤ من أن ألمانيا المسالمة قد طوقت بدول حقودة معادية،

(١) Mein Kampf, pp. ٤٥٩ – ٤٦٠, Sand on the same theme Ibid, P. ٦٢٤.

(٢) Hans Fried, The Guilt fo the German Army (New York, ١٩٤٢). ويقدم الكتاب حديثًا جيدًا كان مهملاً إلى حد بعيد عن أسطورة عدم هزيمة جيش ألمانيا.

وأوجد بين الطلاب قومية ألمانية متعصبة، كما أوجد روحًا إسبارطية (نسبة إلى اسبارطة القديمة ببلاد اليونان)، وولاء مطلقًا «**للفوهرر**» للزعيم الذي لا يتوانى عن القيام بكل عمل طيب لسلم العالم[١].

وقد استطاع هتلر – حتى قبل أن يصل إلى السلطة ويتولى مركز المستشار للريخ – أن يوجد الروح العسكرية في ألمانيا بواسطة قوات الحزب أعظم جيش خاص في التاريخ الحديث وبقوات العصف .S. S وكانت صرخة الحرب لذوي القمصان الرمادية «**Deutchland Etwache**» قد صارت شعارًا للأمة كلها، وكان واجب الدولة – على ما قال هتلر – أن توحد كل الألمان، تجمعهم في وحدة واحدة وتقودهم تدريجيًّا وفي أمن إلى موقف السيادة على العالم[٢].

وقد ذكرت قصة التعبئة الإقتصادية لألمانيا النازية من أجل الحرب Wehrwirtschaft and Kriegswirtschaft في أكثر من مرجع، ولا حاجة بنا لتكرارها هنا، ومع هذا فمن الضروري ملاحظة أن النازيين قد اقتنعوا – نقلًا عن هيئة أركان الحرب – أن الحرب الشاملة الأممية ١٩١٤ – ١٩١٨ لم

---

(١) Henri Lichtenbereger, The Third Reich (New York) ١٩٣٧). Book V; S.H. Roberts, The House That Hitler Buiit (New York, ١٩٣٨), Part IV, Sec. II.

وقد عوون هتلر في تعبئته لمعنويات ألمانيا بموارد تدهش وتثير الإعجاب ونجد هذا في مقال هام:

Oscar J. Hamman, "German Historians and the Advent of the National Socialist State", Journal of Modern History, XIII ١٩٤١), ١٦١ – ١٨٨.

(٢) كفاحي لهتلر ص ٦٠١، أما عن التنظيم العسكري لألمانيا النازية فيرجع إلى سلسلة المقالات التي كتبها ألفريد ڤاجتس Alfred Vagts في مجلة المشاة الأمركية الشهرية، مايو – سبتمبر سنة ١٩٤٣.

تكن أمية شاملة بالقدر الكافي، وأنه يجب القيام بتدابير وقائية ضد الحصر البحري كتطوير تصنيع المواد الخام وتخزين كميات من المواد ذات الأهمية الحاسمة كما أنه من الضروري تدعيم الجبهة الداخلية اقتصاديًا، كما يجب إيجاد الدعامة السيكولوچية للحرب القادمة، وجاءت مشروعات السنوات الأربع تحت إدارة المارشال جورنج – وبمعاونة الـچنرالات فرتز لويب وچورچ توماس وهرمان ڤون هينكن وغيرهم – بتوجيه عسكري كامل للاقتصاد الألماني، وكنتيجة لهذا بدأ الجيش الألماني الحرب سنة ١٩٣٩ أحسن إعدادًا، كما يتوافر له احتياطي كبير من المواد أكثر مما توافرت لأي جيش حديث آخر، وكانت الفكرة النازية للحرب الشاملة تكمن في أعطاف نظرياتهم للحكومة الطغوائية (التوتاليتيرية) Totalitarian.[١]

ولم يعتبر هتلر قط أن القوة هي السلاح المؤثر وحده، فالقوة، والتهديد باستخدامها، يجب أن يصحبا بالكلمات والشعارات والآراء والتي هي من بين الأسلحة القوية، كما أوضحت الثورة الفرنسية، وكما أوضحها وودرو ويلسون، وكما أوضحها البلاشفة، وهكذا قدمت الحركة الوطنية الاشتراكية للعالم وللألمان كأساس لنظام جديد يمكن أن يحل مكان الفوضى وعدم الكفاية.

ولما كانت هذه الحركة الاشتراكية تبدي طابع (مالا يمكن تجنبه) الشيء الذي لا يمكن تجنُّبه، ولما كانت هي على ما يقول الأمريكان «**موجة المستقبل**» فإنها وقفت من البداية موقفًا هجوميًّا على حين انصرف العالم كله إلى الدفاع. ولقد قال هتلر بأن أيديولوچيته الهجومية هي وحدها التي

---

(١) يرجع بالنسبة للإعداد الاقتصادي للحرب الشاملة إلى كتاب:

A. T. lauterbach, Economics in Uniform (Princeton, ١٩٤٣), Tolischus. op. cit., Chaps. III – V.

يمكن أن تحقق النصر، وهكذا كان على الثورة النازية لا أن توحّد الشعب الألماني في كتلة واحدة متماسكة فحسب، بل وأن تسبب تفكك البلاد الأخرى التي تسد الطريق أمام التوسع الألماني، وإذا استعملنا الألفاظ التي كان يتحدث بها لينين فإن الكفاح الثوري في ألمانيا يجب أن يتحول بواسطة هتلر إلى حرب أهلية لا في أوروبا وحدها بل وفي العالم كله[(١)].

وكان هتلر أستاذًا في إلقاء ثمار التفاح للتفرقة بين الأمم الأخرى، كان يعرف أوجه الخلاف الحرجة في الآراء بين فرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة، واستغل هذه المعرفة إلى غاية ما يستطيع، وقد نجح دائمًا في مناقشة موضوعات السياسة الأوروبية لا في الصورة التي يراها هو بها، بل في الصورة التي يمكن أن تسبب غاية ما يمكن من خلاف في الرأي في الخارج. ولقد قال لروسشننج[(٢)]: «**إن أسلحتنا هي الإرباك العقلي، تضارب المشاعر وتعارضها، إشاعة الذعر، إثارة التردد، وعدم استطاعة خصومنا الخروج بقرار حاسم**»، ولهذا فإن التحالف مع اليابان قد أوضح للناس في العالم لخارج ألمانيا على أنه حلف الكومنترن، ومن ثم فهو هجوم على البولشفية. وقد أدرك هتلر – وكان صائب التقدير – أن الخوف من البولشفية قوي بين صفوف المحافظين في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة، وقد رأوا كلهم في هذا الحلف وسيلة لأمنهم في الباسيفك. وكان المتحفظون ينظرون إلى

---

(١) كفاحي لهتلر ص ٢٢٠ – ٢٢٤ و٧٨٤ ففي هذه الصفحات فقرات هامة كلها توضح هذا، وخطب هتلر كلها تعتبر منجمًا ذهبيًا كل ما فيه يؤكد هذا الحديث، يرجع أيضًا إلى:
N.H. Baynes (ed.). The Speeches of Adolf Hitler, ١٩٢٢ – ١٩٣٩ (٢ Vols., Oxford, ١٩٤٢) and R. de Roussy de Sales (ed.) (My New Order (New York, ١٩٤١). وفي كل من الكتابين تعليقات قيمة.

(٢) Hermann Rauschning, The Voice of Destruction, (New York, ١٩٤٠), p. ٩.

هتلر نظرتهم للرجل الذي حل مشكلة العمال لا نظرتهم للرجل الذي جند العمال لصناعة الأسلحة.

وفي نفس الوقت خدع الأحرار في بريطانيا وأمريكا بالهجوم على معاهدة فرساي، وبالمطالبة بالحق المقدس للألمان في تشيكوسلوڤاكيا وفي أي مكان آخر لإعادة وحدة الشعب الألماني معًا، وتتحد هذه الجماعات المنفصلة بالوطن الأم، كما خدعوا بمطالبة ألمانيا بحقها في العدالة.

وكانت معاداة السامية هي «**الطعم**» الذي أمكن به اصطياد مختلف الطبقات في أماكن كثيرة مختلفة، وأمكن اصطياد هذه الطبقات دون أن تحذر اقترابها من الشباك المعدة لها، وكان دعاة السلم ينظرون إلى أولئك الذين يدعون لمقاومة هتلر على أنهم من «**دعاة الحرب**».

وهكذا أمكن نشر الكثير من عوامل الفوضى والاضطراب بالقدر الذي أوضح أن سياسيي أوروبا ليسوا بقادرين على إدراك مصلحتهم في القضاء عليها، وكانت الحال في أسبانيا أحسن دليل على هذا، ومن المحتمل أن يكون «**شيانو**» قد اعتبر أنه لم تعد في أسبانيا حدود سياسية، وأن كل ما فيها هو مواقع استراتيـچية، ولكن كان من الممكن بواسطة الدعاية الفاشية جعل غير الفاشيين يعتقدون أن الصراع من أجل السيطرة في أسبانيا يقصر على الصراع بين البلاشفة والكاثوليك. وهكذا نستطيع أن نقول في إيجاز: إن النازيين قد حطموا المعنويات والرغبة في المقاومة في كل مكان عدا في ألمانيا، وذلك بإشاعة المسالمة وروح الهزيمة وعدم الاستقرار والشك والخوف. وبهذه الوسائل نجح هتلر في تهدئة ضحاياه وفي تضليلهم بفكرة كاذبة عن أمنهم وسلامتهم، وجعلهم بهذا غير قادرين على القيام بأي مقاومة مسلحة ناجحة، وهكذا فإن تشيكوسلوڤاكيا التي كانت تعيش في

فجر سنة ١٩٣٨ في أمن وراء استحكامات قوية ولها جيش عظيم وتستند إلى حلفاء أقوياء في الشرق والغرب، لم تلبث بعد تسعة أشهر أن وجدت نفسها غير قادرة على الفكاك من محاولة تمزيقها وابتلاعها، بل وعاون أصدقاؤها أعداءها في هذه المحاولة، ولو كان هتلر لم يفعل شيئًا غير غزو تشيكوسلوفاكيا دون أن يطلق طلقة واحدة لكان هذا كافيًا لتخليده في سجل التاريخ كسيد الحرب السياسية، ومع أن جوبلز وجورنج قد لعبا دورهما بمهارة. وبالرغم من أن القوات الألمانية Wehrmacht قد وقفت في الجبهة الأمامية على أتم استعداد فإن هتلر هو الذي خطا الخطوة الحاسمة والتقط الثمرة.

والواقع أن الاستراتيـچية النازية لم ترسم خطًّا واضحًا بين الحرب والسلم، واعتبرت الحرب لا السلم الصورة العادية للمجتمع. ولما كانت الحرب بالنسبة للنازية لا تقصر أساسًا على العمليات العسكرية، فإن سياسة الدولة في الوقت الذي يُقال له «**وقت السلم**» إنما هي فقط استراتيـچية في خطوط واسعة تستخدم الاقتصاد وغيره من الأسلحة غير العسكرية.

وقد كتب أحد رجال هتلر السابقين: «**وقد استمر استخدام الحرب السياسية ليس فقط لجعل الموقف التكتيكي يتحول إلى موقف في جانب تحقيق الانتصارات دون إراقة الدماء، بل وأيضًا لتقرير المسائل الأخرى التي يجعلها الموقف السياسي صالحة للتسوية تبعًا لأهداف «الاشتراكية الوطنية»**»، ومن الممكن أن يتضح لنا هذا النشاط السياسي في الطابع الجديد الذي سارت كل التحركات التالية، ضغط تصحبه تهديدات مفاجئة حينًا في نقطة ما وحينًا في نقطةٍ أخرى، ونشاط لا نهاية له يعمل لإجهاد الخصوم، ممكنًا

من فصل بعض المسائل عن غيرها، وإشاعة الفرقة في المعسكر المضاد، ومع تبسيط المشكلات حتى لا تكون صالحة للحل دون تعقد أي بدون حرب».

وكان الاستعداد العسكري لألمانيا النازية مرحلة واحدة من مراحل نشاطها الثوري، وقد صمم هذا على أساس جعل الاعتداء المسلح – عند الضرورة – مؤكد النجاح.

«**ولم يكن الهدف مجرد مد الحدود السياسية والاستيلاء على أرض جديدة بل كان في نفس الوقت مد الثورة الطغوائية إلى البلاد الأخرى، وكان هذا في إيجاز نقلًا للأسلوب الحديث للانقلابات (لحركات الانقلاب) إلى الميدان الدولي**»، ومع جعل القوة العسكرية النازية تقوم بنفس الواجبات التي للثورة المسلحة في حركات الانقلاب الداخلية، وبهذه الوسائل استطاع هتلر أن يحدث تغييرات سياسية واسعة النطاق دون إراقة دماء مستندًا إلى تسليح قوي كتهديد بالحرب لا كآلة للقتال فعلًا[(١)].

وقد حذر «**السير إريك فيبس**» سفير بريطانيا في برلين، حذر حكومته في نوفمبر سنة ١٩٣٣ من الأحوال في ألمانيا تحت حكم هتلر «**ليست هي الأحوال العادية في أمة متحضرة، وأن الحكومة الألمانية ليست حكومة عادة متحضرة ولا يمكن التعامل معها على أساس هذا**»، ولكن «**السير إريك**» لم يجد أذنًا صاغية في الهوايت هول حيث كان الناس يعتقدون بأن النازية «**حركة انتعاش قومية**» أكثر من أن تكون «**حركة يعقوبية مسلحة**»[(٢)(*)].

---

(١) Hermann Rauschning, The Voice of Destruction (New York, ١٩٣٩), pp. ١٣٩ - ١٤٠.

(٢) G. P. Gooch, Studies Diplomacy and Statecraft (London ١٩٤٢) Chap. VI. pp. ٢١١.

(*) "Jacobinism" «العقيدة السياسية لليعقوبيين ويقصد بها السياسيون الراديكاليون»=

* * *

كانت استراتيـچية هتلر في السلم والحرب استراتيـچية تقوم على الإرهاب، فهو لكي يصل إلى القوة في ألمانيا كسب معركة الطرقات في ألمانيا، ولكي يبقى في الحكم عذب وسجن وذبح أعداءه، وليشق طريقه في أوروبا استخدم نفس هذه الوسائل فيما وراء حدود الرايخ.

وكان السلاح الجوي الألماني قد نظم بخاصة ليكون وسيلة من وسائل الإرهاب، وربما يكون السلاح الجوي أكثر من أي شيء آخر كان هو الذي سبب استسلام بريطانيا وفرنسا في ميونخ، وقد بذلت كل محاولة ممكنة للدعاية في الخارج لقوة السلاح الجوي الألماني، وكان صفوة الزوار لا يشاهدون فقط قوة الطائرات الألمانية، بل ويمكنون أيضًا من مشاهدة قدرة ألمانيا على إنتاج الطائرات، وكانت نظرية دوهيه عن السلاح الجوي (راجع الفصل العشرين) هي العقيدة التي تقبلتها القيادة الألمانية العليا.

وقد كتب الميـچور (الرائد) چورچ ڤيلدنج اليوت في سنة ١٩٣٩:

«والإجابة واضحة ميسورة للرد على أولئك الذين يقولون بأن السلاح الجوي والتهديد بالسلاح الجوي سلاح ذو حدين يقطع في كلا الاتجاهين، إن هذا ليس بالأمر المستطاع مع هذا التقسيم الأيديولوچـي الذي تعانيه أوروبا بانقسامها بين ديكتاتوريات وديمقراطيات، إن الدكتاتوريين يستطيعون التهديد ويستطيعون الاغتصاب والسلب، ولكن الأحرار لا يستطيعون هذا، وسلاح السلب والاغتصاب في الصراع الدولي لهو السلاح الذي يستطيع الديكتاتور وحده أن يستخدمه استخدامًا مؤثرًا، ذلك لأن

=معجم ويبستر ص ٧٨١".

الديكتاتور تكون نواياه مُبهمة وأهدافه غامضة ويكون اسمه رمزًا للإرهاب، إن السرقة أو الاغتصاب هو الطابع الذي يسود أوروبا اليوم لا أي شيءٍ آخر، والاغتصاب غير مُستطاع إلا مع وجود القوة الجوية»[١].

ولكن هذا الاعتماد الرئيسي على الإمكانيات الإرهابية التي للسلاح الجوي لم يكن في صالح «**اللوفتواف**» Laftwaffe السلاح الجوي الألماني عندما واجه أعظم اختبار له فوق بريطانيا سنتي ١٩٤٠، ١٩٤١[٢].

فإذا ما أعدنا النظر إلى حوادث السنوات ١٩٣٣ – ١٩٣٩ أمكن أن نصل في عجلة إلى رأي نهائي بأن استراتيـجية هتلر السياسية كانت سلسلة طويلة من الانتصارات وأنه لم يرتكب خطأً واحدًا، ولكن الاعتبار أو الإدراك الناضج للحقائق يصل بنا إلى أن «**الكل**» يختلف عن قيمة جمع الأجزاء فرادى، وأن عدم ارتكاب أي خطأ كان خطأً عظيمًا؛ ذلك لأنه كان من المؤكد أن يجيء الوقت الذي لا يمكن فيه خداع العالم واغتصابه مهما كانت تكاليف المقاومة، ومع الوقت وصل الشعب البريطاني إلى أن السلم لن يمكن اكتسابه إلا «**بالدم والعرق والدموع**»، وكان القرار الإنجليزي بضمان استقلال بولندة وما تبعه من العمل لتحقيق هذا الضمان هو علامة فشل هتلر في كسب كل ما اعتبره ضروريًا لنجاح خطته: خطة الإبقاء على الإمبراطورية البريطانية في حياد إن لم ترتبط بصداقة وطيدة.

---

(١) Edmond Taylor, The Strategy of Terror (Boston, ١٩٤٠). Bombs Bursting in Air (New York, ١٩٣٩), pp. ٨٠ – ٨١ وللاطلاع على دراسة قيمة عن تكتيكات الاغتصاب في حكومة ألمانيا الإمبراطورية قبل سنة ١٩١٤، راجع كتاب السير آير كراو ص ٤١٦.

(٢) A. P. de Seversky, Victory Through Air Power (New York, ١٩٤٢), Chap. III.

- ٣ -

كانت ميونخ وما تبعها من احتلال ما بقي من تشيكوسلوڤاكيا في سنة ١٩٣٩ آخر الانتصارات التي حققها هتلر دون سفك دماء، ومع أن حوادث السنوات ١٩٣٩ - ١٩٤١ لا تزال تعطيه فرص إيضاح تأثير الحرب السياسية السيكلوچية إلا أن أيام العمل الكامل دون إجراء عسكري كانت قد انتهت ولا شك.

وقد يكون الوقت ما زال مبكرًا لكتابة دراسة نهائية عن هتلر كإستراتيجي عسكري كان التاريخ لن يقدم عنه حديثًا طيبًا، ولسنا نعرف إلا القليل عن العوامل المتحكمة في حملات بولندة والنرويج والأراضي الواطئة وفرنسا ليمكن توجيه المديح والإطراء، أو توجيه النقد واللوم للاستراتيچية وللتكتيكات الألمانية. ولكن مع تقديرنا أنه في الدولة الطغوائية يُملي الديكتاتور أوامره، فإن هتلر في الواقع يستحق التقدير في توجيهه للحرب حتى يوليو سنة ١٩٤٠، فهو قد أمسك بتلابيب خصومه فُرادى كلٌ على حدة، فهو قد غزا بولندة قبل فرنسا، واجتاح فرنسا قبل أن يهاجم بريطانيا، وكانت حملة النرويج واحدة من أروع العمليات العسكرية في التاريخ الحديث، فقد وضعت ليس فقط لوقاية الجناح الشمالي لألمانيا بل لتوجيه ضربة لها خطرها ضد القوة البحرية الإنجليزية.

ولقد أبرز السير هلفورد ماكيندر دائمًا أن سيطرة أي دولة عسكرية على منطقة طويلة على الساحل الأوروبي تضعف ولا شك من السيطرة الإنجليزية على البحار، وقد أخذ بهذه العقيدة كارل هوزهوفر والـچيوبوليتيكيون المُحدثون، وغزو ألمانيا للساحل الأوروبي من «**نارڤيك**» إلى الحدود الأسبانية لم يكن جرحًا قاتلًا للقوة البحرية الإنجليزية، ولكن لا

شك في أنه جعل المعركة صعبة جدًّا ضد الغواصات، ومن ثم فقد زاد من الجهد على الشعب البريطاني وعلى طاقته للمقاومة.

وكانت هزيمة فرنسا عملية خاطفة توافرت لها الكفاية والإرهاب إلى غاية ما يمكن أن تتوافر، وكانت الخطوة الضرورية الأولى لأي غزو ألماني لأوروبا على ما قال هتلر سنة ١٩٢٥.

* * *

ولكن لم تلبث الأوضاع بالنسبة لهتلر وبالنسبة للخطة النازية للحرب أن سارت في اتجاه سيئ، وكان تردد هتلر وحرصه وعدم مهاجمته لبريطانيا إثر دنكرك مباشرة عندما كانت بغير دفاع ودون أي تنظيمات عسكرية قد أفقدت هتلر الفرصة الفذة الوحيدة التي كانت تضمن له كسب الحرب، ثم كانت هزيمة السلاح الجوي الألماني في معركة بريطانيا هي نقطة التحول في الحرب.

على أن هتلر ارتكب في نفس الوقت عدة أخطاء في التقدير السياسي، فإن تعامله مع الشعوب المهزومة عن طريق الخونة أمثال كويزلنج ولاڤال قد فرض على هذه الشعوب عبء «**المتعاونين**» أنصار المحتل وأدى بعد قليل إلى حكم الإرهاب[١].

وكان النظام الجديد – الذي كان من الممكن أن تنظر إليه الشعوب

---

(١) لدراسة العمليات الاقتصادية الألمانية في المناطق المحتلة راجع:

Thomas Reveille, (Pseudonym For Rifat Tirana) The Spoil of Europe: The Nazi Technique in Political and Economic Conquest (New York, ١٩٤١).

T. D. Kernan, France on Berlin Time (New York, ١٩٤٢).

المحطمة في أوروبا على أنه محاولة تستحق التجربة والاختبار - رمزًا للاضطهاد والكبت والاستغلال.

وكان معنى الهجوم على الاتحاد السوفيتي أن ألمانيا في السنوات ١٩٤١ - ١٩٤٣ مثلها كما كانت في السنوات ١٩١٤ - ١٩١٨ عليها أن تحارب في جبهتين، وأن تحارب حرب إجهاد كما أثبتت الحوادث فعلًا.

وقد وجد هتلر نفسه في نفس الوقت الذي كان فيه الإمبراطور غليوم الثاني، هذا الإمبراطور الذي نقده هتلر نقدًا مرًا عنيفًا في كتابه «**كفاحي**».

لقد تعلم هتلر ما تعلمه كثير من الغزاة قبله من أن المعارك النهائية وحدها هي التي تقرر مصائر الحروب.



يدرس القسم الأول من الكتاب "أصول الحرب الحديثة من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر"، وفي القسم الثاني يعرف بأمهات الكتب في القرن التاسع عشر، أما القسم الثالث فمخصص لدراسة أصول الحرب الحديثة من القرن 19 إلى الحرب العالمية الأولى، بينما خصص القسم الرابع لدراسة أصول الحرب الحديثة في فترة ما بين الحربين، ويشتمل القسم الخامس على دراسةالحرب في البحر والجو.

علي مولا

ISBN 978-9933-407-05-6
9789933407056